نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم

صلى الله عليه وسلم

المجلد الأول

المؤلف : عدد من المختصين بإشراف الشيخ/ صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي

الناشر : دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة - الطبعة : الرابعة

تعد الموسوعة أضخم عمل شرعي يرصد جميع الصفات الحسنة التي اتصف بها النبي صلى الله عليه وسلم، ودعا إليها، وحث عليها، كما نبهت للصفات الذميمة التي حذر منها النبي الكريم. حيث تبلغ الموسعة اثني عشر مجلداً، تتحدث عن (٢٠٠) صفة حسنة، مدعمة بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والآثار الثابتة عن الصحابة، كما تحذر من (١٦١) صفة خبيثة نهى عنها النبي الكريم صلى الله عليه وسلم. وقد شارك في إعداد الموسعة فريق كبير من كبار العلماء في العالم العربي والإسلامي، بإشراف الشيخ صالح بن حميد إمام الحرم المكي، وعميد كلية الشريعة بجامعة أم القرى سابقاً، والشيخ عبد الرحمن بن ملوح مؤسس دار الوسيلة للنشر والتوزيع

الحياة الإيمانية في ضوء علاقة الابتلاء والنفس الإنسانية

إعداد: عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن ملّوح مؤسس ومدير عام دار الوسيلة للنشر والتوزيع إن الابتلاء وسيلة مهمة من وسائل التدريب العملي على ممارسة ما يعرف بالأخلاق العملية على أرض الواقع، ومن ثم فإنه يصقل الإنسان ويضبط انفعالاته، فهو محك يكشف عما في القلوب وهو وسيلة لاختبار رد فعل الإنسان وقدرته على التكيف مع المواقف المختلفة التي يمر بها في حياته، ومن المعروف أن هذه المواقف تختلف نوعا وكما، كما تختلف باختلاف الأشخاص والأعمار والأماكن وقوة الضغوط واستمراريتها، وهنا يكتسب- بالابتلاء- خبرة وتجربة ما كانت لتحدث لولا هذا الابتلاء، وليس من النادر أن يكسبه ذلك نوعا من الحكمة يتأسى بها طول حياته، كما أن فيه صقلا للطبع وتهذيبا للعاطفة وتنمية لحب الخير.

إن المرء يعيش جميع لحظات حياته في حالة ابتلاء، إما بالخير وإما بالشر، إما بالطاعة وإما بالمعصية، كان علينا أن نبحث هذا الموضوع بحثا تفصيليا يتضح من خلاله أنواعه ومظاهره، مجالاته وغاياته، وعلاقته بكل من الفتنة والاختبار، ونأمل من اتخاذ هذا المنهج أن ننجح في توضيح أهمية العلاقة بين مفهوم الحياة والابتلاء وترابطها وتداخلاتها مع المعايير الفردية والاجتماعية التي تضبط حركة السلوك الإنساني في هذه الحياة، نعني بذلك ما أوردناه في هذه الموسوعة من الأخلاق المحمودة التي أمرنا باتباعها، والأخلاق المذمومة التي أمرنا باجتنابها، وقد جاءت هذه الدراسة في مقدمة وخمسة فصول على النحو التالي:

الفصل الأول: مفهوم الحياة- الابتلاء.

الفصل الثاني: مجالات الابتلاء- أنواعه- مظاهره.

الفصل الثالث: حكمة الابتلاء.

الفصل الرابع: القيمة التربوية للابتلاء.

الفصل الخامس: تعامل المسلم مع مواقف الابتلاء.

إنه إذا كانت الآخرة دار حساب فإن الدنيا دار عمل وابتلاء، يقول سبحانه وتعالى: الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا «١» ، فما هو الابتلاء والنفس الإنسانية؟ وما هي علاقتهما بالأخلاق بجانبيها المحمود والمذموم في هذه الحياة الدنيا ويوم الحساب؟ وما هذه الحياة الدنيا؟ وما المراد بالنفس؟ وما معنى الابتلاء وكيفيته؟ وهذا ما سوف نجيب عنه في الفصول التالية.

---

(١) الملك/ ٢.

جـ ١(ص: ٢)

الفصل الأول مفهوم الحياة   الابتلاء

لما كان الابتلاء علاقة تربط بين النفس الإنسانية وبين الحياة، كان لزاما علينا أن نوضح المقصود بهذه المفاهيم الأساسية في اللغة والاصطلاح، وأن نكشف عنها من منظور إسلامي، ونبدأ أولا ب:-

الحياة الدنيا لغة:

الحياة: نقيض الموت، والحيّ: نقيض الميت، والحيوان اسم يقع على كل شيء حيّ «١» ، أما الدنيا فهي نقيض الآخرة، سميت بذلك لدنوها أي لأنها دنت وتأخرت الآخرة، وكذلك السماء الدنيا هي القربى إلينا، وقيل: الدنيا اسم لهذه الحياة (سميت بذلك) لبعد الآخرة عنها «٢» ، وقال الفيروزابادي: الحياة باعتبار الدنيا والآخرة ضربان:

الحياة الدنيا والحياة الآخرة «٣» .

الحياة الدنيا اصطلاحا:
الدنيا أو الحياة الدنيا هي ذلك الحيز المكاني والزماني منذ خلق الله الكون وحتى يرث الله الأرض ومن عليها، وهي بالنسبة للآدمي أو جنس الإنسان تمتد منذ خلق الله آدم عليه السلام وإلى أن تقوم الساعة، أما بالنسبة للأفراد أو الأشخاص فهي لا تعدو تلك الفترة الزمنية التي تمتد من لحظة الميلاد إلى لحظة الوفاة. والمقصود بها هنا: الزمن الذي يحدث فيه الابتلاء «٤» ، أما مكانه فهو الأرض التي نحيا عليها، وقد وصف الله عز وجل هذه الدنيا بصفات عديدة نوجزها فيما يلي:-
وصف الحياة الدنيا:
الحياة الدنيا كما وصفها المولى عزّ وجلّ في القرآن الكريم ذات أحوال متعددة أهمها:- ١- ذات عمر قصير ومتاع قليل: يقول الله تعالى: وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ «٥» . ويقول سبحانه: قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا «٦» .
٢- دار لهو ولعب وزينة وتفاخر: تأمّل قوله سبحانه: اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذابٌ

---

(١) لسان العرب ٢/ ١٠٧٥ (ط. دار المعارف) .
(٢) السابق، (د ن و) ٣/ ١٤٣٥.
(٣) بصائر ذوي التمييز (٢/ ٥١٢) ، وقد ذكر الفيروزابادي أن «الحياة» في القرآن الكريم تستعمل على ستة أوجه، وذكر منها: القوة النامية والقوة الحساسة، والقوة العاقلة، وارتفاع الغم، والحياة الآخروية الأبدية، والحياة التي يوصف بها الباري تعالى. انظر هذه الاستعمالات في المرجع المذكور ص ٥١٢- ٥١٤.
(٤) انظر: فلسفة التربية الإسلامية لماجد كيلاني ١٦٢.
(٥) الروم/ ٥٥، وأنظر الآية ٢٤ من سورة يونس، والآية ٤٥ من سورة الكهف.
(٦) النساء/ ٧٧، وانظر أيضا الآيات: ٣٦، ١٢٦ من سورة البقرة، والآية ٣٨ من سورة التوبة، والآية ٢٤ من سورة لقمان.

شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٌ وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ «١» .
٣- دار غرور: كما جاء في قوله سبحانه: يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ «٢» .
٤- دار ترف واستمتاع: يؤتيها الله عزّ وجلّ لمن يحب ولمن لا يحب، للمؤمن والكافر، يقول سبحانه: وَقالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْناهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ «٣» .
٥- دار إغواء: الدنيا هي الميدان الذي يحاول فيه الشيطان (حسدا منه وكيدا) أن يغوي الإنسان بالشهوات الحسية والأهواء النفسية لمن لم يكن من عباد الله المخلصين، يقول الله تعالى: قالَ أَرَأَيْتَكَ هذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا* قالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُمْ جَزاءً مَوْفُوراً* وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشارِكْهُمْ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً «٤» .
٦- دار ضلال وطغيان لمن يفتن بها: يقول الله عزّ وجلّ في شأن أولئك المفتونين بالدنيا: الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً «٥» ، ويقول سبحانه في شأن الطغاة: فَأَمَّا مَنْ طَغى * وَآثَرَ الْحَياةَ الدُّنْيا* فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوى «٦» .

٧- دار خزي ولعنة للمعاندين: قال تعالى: فَأَذاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ «٧» ، وقال سبحانه: وَأَتْبَعْناهُمْ فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ «٨» .

٨- دار لاكتساب الحسنات والمعيشة الطيبة لمن آمن وعمل صالحا: يقول الله تبارك وتعالى: قُلْ يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ واسِعَةٌ إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ «٩» . وقال عزّ من قائل: مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ «١٠» .
٩- دار ابتلاء: وقد أجمل القرآن الكريم هذه السمات المتنوعة للحياة الدنيا عندما أشار إلى أنها دار ابتلاء فقال عزّ من قائل: بارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ
«١١» ، وقال تعالى: إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا «١٢» .

---

(١) الحديد/ ٢٠، وانظر أيضا الآيات: ٣٢، ٧٠ من سورة الأنعام، والآيات: هود/ ١٥، العنكبوت/ ٦٤، محمد/ ٣٦.
(٢) فاطر/ ٥، وانظر أيضا الآية ٣٣ من سورة لقمان.
(٣) المؤمنون/ ٣٣، وانظر الآيات الأخرى الواردة في ذلك في: يونس/ ٨٨، الكهف/ ٤٦، القصص/ ٧٩ الأحقاف/ ٢٠.
(٤) الإسراء/ ٦٢- ٦٤.
(٥) الكهف/ ١٠٤.
(٦) النازعات/ ٣٧- ٣٩، وانظر أيضا الآيات: البقرة/ ٩٦، إبراهيم/ ٣، الأعلى/ ١٦.
(٧) الزمر/ ٢٦.
(٨) القصص/ ٤٢، وانظر أيضا الآيات: البقرة/ ٨٥، الرعد/ ٣٤، فصلت/ ١٦.
(٩) الزمر/ ١٠، وانظر في ذلك أيضا: البقرة/ ١٣٠، النحل/ ١٢٢.
(١٠) النحل/ ٩٧، وانظر أيضا: الأعراف/ ٣٢.
(١١) الملك/ ١- ٢.
(١٢) الكهف/ ٧.

الحياة الأخرى:
إذا كانت الحياة الدنيا دار ابتلاء وعمل، فإن الآخرة دار جزاء، وفيها تظهر نتيجة هذا الابتلاء ويلقى الإنسان جزاء ذلك العمل، يقول الله تعالى: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (الزلزلة/ ٧، ٨) ، وإذا كانت الدنيا دار فناء فإن الآخرة هي دار بقاء، وقد وصفها الله عز وجل بقوله: وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (العنكبوت/ ٦٤) ، يقول صاحب لسان العرب: والحياة اسم يقع على كل شيء حي، وسمّى الله عز وجل الآخرة حيوانا لأنها- كما يقول قتادة- هي الحياة الحقيقة، وقال الأزهري: المعنى أن من صار إلى الآخرة لم يمت ودام حيّا فيها لا يموت، فمن أدخل الجنة حيى فيها حياة طيبة، ومن أدخل النار فإنه لا يموت فيها ولا يحيى «١» . وقال القرطبي: إن المعنى هو أن الآخرة هي دار الحياة الباقية التي لا تزول ولا موت فيها «٢» .
الحياة الآخرة كما وصفها القرآن:
وردت في القرآن الكريم صفات عديدة للحياة الآخرة منها:
١- هي الحياة الحقيقية، وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ. (العنكبوت/ ٦٤) .
٢- هي دار القرار، إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دارُ الْقَرارِ (غافر/ ٣٩) .

٣- هي خير من الحياة الدنيا للمتقين. وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (الأنعام/ ٣٢) ، قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقى (النساء/ ٧٧) .
٤- هي دار العذاب والخسران للكافرين، أُولئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (النمل/ ٥) ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ* (المائدة/ ٣٣) ، لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخاسِرُونَ (النحل/ ١٠٩) .
٥- دار تتفاوت فيها درجات الناس ومنازلهم. وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (الإسراء/ ٢١) .
٦- دار مسئولية وجزاء. فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ (الحجر/ ٩٢، ٩٣) ، وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ سَيُجْزَوْنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (الأعراف/ ١٨٠) ، أُولئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِما صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً وَسَلاماً (الفرقان/ ٧٥) .

علاقة الإنسان بالحياة الآخرة:

وانطلاقا من هذه الصفة الأخيرة فإن علاقة الإنسان بالحياة الآخرة هي علاقة مسئولية عمّا قدمت يداه في الحياة الدنيا، وتعنى المسئولية هنا: أن كل إنسان سوف يسأل عن تفاصيل ما ابتلي فيه في الدنيا، وفي ضوء نجاحه أو فشله لتحمل هذه المسئولية يتقرر جزاؤه ومصيره «٣» . فإما إلى جنة عرضها السماوات والأرض وإما إلى جهنم وساءت مصيرا.

---

(١) لسان العرب ٢/ ١٠٧٧ (ط. دار المعارف) .
(٢) تفسير القرطبي ١٣/ ٣٦٢.
(٣) فلسفة التربية الإسلامية بتصرف يسير، ص ١٩٥.

إن مسئولية الإنسان عن أعماله في الدنيا قد يستطيع الإفلات منها بطريقة ما، ولكن المسئولية في الدار الآخرة لا يمكن بحال إلا أن تكون سيفا بتّارا على أعناق الظالمين والطغاة.

العلاقة بين المسئولية في الحياتين الدنيا والآخرة:

لا شك أن هناك علاقة وثيقة بين المسئولية في الدارين لأن المسئولية الاجتماعية في الدنيا هي نتيجة لازمة لعلاقة المسئولية في الآخرة وتتطابق معها. وهي الحلقة التي تربط بين مواقف الإنسان في الدنيا والآخرة وتجعلهما طورين متعاقبين من الابتلاء والجزاء.

والمسئولية الاجتماعية في الدنيا دوائر وميادين بعضها أكبر من بعض. وهي تبدأ بالفرد وتنتهي بالإنسانية كما يلي:- ١- مسئولية الفرد عن نفسه وعن ما منحه الله من قدرات عقلية وسمعية وبصرية وجسدية ونفسية ليستعملها فيما خلقت له طبقا لأوامر الله ونواهيه.
٢- مسئولية الفرد عن أسرته وتشمل مسئولية الوالد عن الأبناء والبنات، ومسئولية الولد عن الوالدين، ومسئولية الزوجين كل عن الآخر.
٣- مسئولية الأرحام بعضهم عن بعض.
٤- مسئولية الفرد عن الأمة، ومسئولية الأمة عن الفرد فيما يزيد في تقدم الأمة ويحفظ مقدراتها وأمنها، وفيما يوفر للفرد العيش الكريم والأمن والاستقرار، ويتفرع عن هذه المسئولية فروع عديدة مثل مسئولية الحاكم عن الشعب، والقوي عن الضعيف، والغني عن الفقير.
٥- مسئولية الجيل عن الأجيال اللاحقة في إعدادها لمتطلبات حياتها عقائديا واجتماعيا واقتصاديا وكل ما يساعدها على عبور مستقبلها بنجاح.
٦- مسئولية الأمة عن الأمم.
٧- مسئولية الإنسان عن المخلوقات باعتباره خليفة الله في الأرض، وأن المخلوقات كلها عيال الله وأحبها إلى الله أبرهم بعياله. وتتسع هذه المسئولية حتى تشمل الإنسان والحيوان والنبات والجماد «١» .

أما المسئولية في الآخرة فهي مسئولية فردية يتحمل فيها الإنسان بمفرده نتيجة عمله دون تأثير على الآخرين من حيث الثواب أو العقاب، يقول تعالى: وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى (النجم/ ٣٩- ٤١) ، ومما لا شك فيه أن إضلال الآخرين أو هدايتهم يقع في إطار هذه المسئولية الفردية يقول المصطفى عليه الصلاة والسلام مقررا ذلك: «من سنّ خيرا فاستن به كان له أجره، ومثل أجور من تبعه غير منتقص من أجورهم شيئا، ومن سنّ شرّا، فاستن به كان عليه وزره، ومثل أوزار من تبعه غير منتقص من أوزارهم شيئا» «٢» .

---

(١) فلسفة التربية الإسلامية بتصرف يسير، ص ٢٠١ وما بعدها.
(٢) انظر في تخريج هذا الحديث الجزء الثاني من الموسوعة، ص ٣٥٨.

إن جوهر العلاقة بين النفس الإنسانية والحياة الدنيا هي علاقة ابتلاء وتمحيص وفتنة، وسنشير بإيجاز لمعنى كل من النفس والابتلاء والفتنة تمهيدا للحديث عن مظاهر هذا الابتلاء وأنواعه ونتائجه.

الابتلاء والفتنة:

لفظ «الابتلاء» مأخوذ من مادة (ب ل و) التي تدل على نوع من الاختبار من ذلك قولهم: بلي الإنسان وابتلاه الله أي اختبره، قال الشاعر:

بليت وفقدان الحبيب بليّة ... وكم من كريم يبتلى ثمّ يصبر

ويكون البلاء بالخير والشر، والله- عز وجل- يبلي العبد بلاء حسنا وبلاء سيئا، وذلك راجع إلى معنى الاختبار لأنه بذلك يختبر صبره وشكره، وبلوته تأتي أيضا بمعنى جزيته «١» ، وتأتي كذلك بمعنى استخبرته، يقال:

بلوته فأبلاني أي استخبرته فأخبرني، والاسم من الابتلاء: البلوى والبلية والبلاء والجمع من ذلك: بلايا «٢» ، وفي الحديث: «اللهم لا تبلنا إلّا بالتي هي أحسن» ويقال: أبلاه الله بلاء حسنا إذا صنع به صنعا جميلا، وقال ابن قتيبة:

يقال: من الخير أبليته ومن الشر بلوته «٣» ، وعقب على ذلك الرأي ابن منظور فقال: والمعروف (في اللغة) أن الابتلاء يكون بالخير وبالشر معا من غير فرق بين فعليهما ومن ذلك قوله تعالى: وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ «٤» ، «٥» ، وقال ابن بري: يأتي الابتلاء أيضا بمعنى الإنعام كما في قوله- عز من قائل-: وَآتَيْناهُمْ مِنَ الْآياتِ ما فِيهِ بَلؤُا مُبِينٌ «٦» . أي إنعام بيّن، وقال تعالى في قصة سليمان عندما سخّر له من يأتيه بعرش بلقيس في طرفة عين: قالَ هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ «٧» ، وفي الحديث: «من أبلي فذكر فقد شكر» قال ابن الأثير: الإبلاء «هنا» هو الإنعام والإحسان «٨» .

الابتلاء اصطلاحا:

قال الكفوي: الابتلاء: التكليف في الأمر الشّاقّ، ويكون في الخير والشر معا، ولكنهم (عادة ما) يقولون:

في الخير أبليته إبلاء وفي الشر: بلوته بلاء «٩» .

وقال المناوي: البلاء كالبلية: الامتحان، وسمي الغم بلاء لأنه يبلي الجسد «١٠» .

وقال ماجد كيلاني: الابتلاء هو اختبار مدلول العبادة بمظاهرها الدينية والاجتماعية والكونية وهو المظهر العملي لعلاقة العبودية بين الله- عز وجل- والإنسان «١١» .

---

(١) مقاييس اللغة لابن فارس ١/ ٢٩٢، والصحاح للجوهري ٦/ ٢٢٨٥.
(٢) لسان العرب لابن منظور ١/ ٣٥٥ (ط. دار المعارف) .
(٣) النهاية لابن الأثير (بتصرف) ١/ ١٥٥.
(٤) الأنبياء/ ٣٥.

(٥) لسان العرب ١/ ٣٥٥ (ط. دار المعارف) .
(٦) الدخان/ ٣٣.
(٧) النمل/ ٤٠.
(٨) النهاية لابن الأثير ١/ ١٥٥.
(٩) الكليات ١/ ٢٩.
(١٠) التوقيف ص ٨٢.
(١١) ماجد كيلاني، فلسفة التربية الإسلامية ص ١٦١ (بتصرف) .

هذا ويرتبط مفهوم الابتلاء بمفهوم آخر يتعلق به تعلقا شديدا وقد يرادفه أحيانا، ألا وهو مفهوم الفتنة، وسنعرض لهذا بإيجاز- فيما يلي.
الفتنة لغة:
الفتنة مصدر قولهم: فتنه يفتنه فتنا وفتنة، وهي مأخوذة من (ف ت ن) التي تدل على الابتلاء والاختبار، وأصل الفتن إحراق الشيء بالنار لتظهر جودته من رداءته «١» .
الفتنة اصطلاحا:
تعني الفتنة ما يبين به حال الإنسان من الخير والشر «٢» . وقال المناوي: الفتنة: البلية وهي معاملة تظهر الأمور الباطنة «٣» . وقال ماجد كيلاني: الفتنة هي الامتحان أو الاختبار المذهب للعقل أو المال أو المضل عن الحق «٤» .
أنواع الفتنة:
يقول ابن القيم: الفتنة نوعان: فتنة الشبهات. وهي أعظم الفتنتين، وفتنة الشهوات. وقد يجتمعان للعبد. وقد ينفرد بإحداهما.
أما النوع الأول وهو فتنة الشبهات من ضعف البصيرة، وقلة العلم، ولا سيما إذا اقترن بذلك فساد القصد، وحصول الهوى.
وهذه الفتنة مآلها إلى الكفر والنفاق، وهي فتنة المنافقين، وفتنة أهل البدع، على حسب مراتب بدعهم. وهذه الفتنة تنشأ تارة من فهم فاسد، وتارة من نقل كاذب. وتارة من غرض فاسد وهوى متبع، فهي من عمى في البصيرة وفساد في الإرادة. ولا ينجى من هذه الفتنة إلا تجريد اتباع الرسول، وتحكيمه في كل أمور الدين ظاهرة وباطنة.
أما النوع الثاني من الفتنة ففتنة الشهوات. وقد جمع سبحانه بين الفتنتين في قوله: كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوالًا وَأَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ «٥» . أي تمتعوا بنصيبهم من الدنيا وشهواتها، والخلاق هو النصيب المقدر ثم قال: وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خاضُوا «٦» . فهذا الخوض بالباطل، وهو الشبهات. فأشار- سبحانه- في هذه الآية إلى ما يحصل به فساد القلوب والأديان من الاستمتاع بالخلاق، والخوض بالباطل، لأن فساد الدين إما أن يكون باعتقاد الباطل والتكلم به أو بالعمل بخلاف العلم الصحيح. فالأول: هو البدع وما والاها، والثاني: فسق العمل. فالأول: فساد من جهة الشبهات والثاني: من

---

(١) انظر صفة الفتنة.
(٢) التعريفات للجرجاني ص ١٧١.
(٣) التوقيف على مهمات التعاريف ص ٢٥٧.
(٤) فلسفة التربية الإسلامية ص ١٨٤.
(٥) التوبة/ ٦٩.
(٦) التوبة/ ٦٩.

جهة الشهوات ولهذا كان السلف يقولون «احذروا من الناس صنفين: صاحب هوى قد فتنه هواه، وصاحب دنيا أعمته دنياه» .
قال تعالى: وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكانَ رَبُّكَ بَصِيراً «١» .
وكانوا يقولون «احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون» . وأصل كل فتنة إنما هو من تقديم الرأي على الشرع، والهوى على العقل.
فالأول: أصل فتنة الشبهة، والثاني: أصل فتنة الشهوة، ففتنة الشبهات تدفع باليقين، وفتنة الشهوات تدفع بالصبر ولذلك جعل سبحانه إمامة الدين منوطة بهذين الأمرين، فقال: وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَكانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ «٢» . فدل على أنه بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين. وبكمال العقل والصبر تدفع فتنة الشهوة، وبكمال البصيرة واليقين تدفع فتنة الشبهة «٣» .
الفرق بين الفتنة والابتلاء والاختبار:
الفرق بين الفتنة والاختبار: هو أن الفتنة أشد الاختبار وأبلغه، ويكون في الخير والشر ألا تسمع قوله تعالى: أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ*
«٤» . وقال تعالى: لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً* لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ «٥» . فجعل النعمة فتنة لأنه قصد بها المبالغة في اختبار المنعم عليه بها كالذهب إذا أريد المبالغة في تعرف حاله أدخل النار، والله تعالى لا يختبر العبد لتغيير حاله في الخير والشر وإنما المراد بذلك شدة التكليف.
أما الفرق بين الاختبار والابتلاء: فهو أن الابتلاء عادة لا يكون إلا بتحميل المكاره والمشاق. والاختبار يكون بذلك وبفعل المحبوب ألا ترى أنه يقال اختبره بالإنعام عليه ولا تقول ابتلاه بذلك ولا هو مبتلى بالنعمة كما قد يقال إنه مختبر بها ويجوز أن يقال: إن الابتلاء يقتضي استخراج ما عند المبتلى من الطاعة والمعصية، والاختبار يقتضي وقوع الخبر بحاله في ذلك، والخبر العلم الذي يقع بكنه الشيء وحقيقته فالفرق بينهما بين. والفتنة تأتي أيضا بمعنى الابتلاء كما في قوله تعالى: الم* أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ* وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ «٦» .

---

(١) الفرقان/ ٢٠.
(٢) السجدة/ ٢٤.
(٣) ابن القيم، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان (٢/ ١٦٠- ١٦١) .
(٤) التغابن/ ١٥.
(٥) الجن/ ١٦- ١٧.
(٦) العنكبوت/ ١- ٣.

الفصل الثاني مجالات الابتلاء أنواعه مظاهره

ينقسم الابتلاء عدة انقسامات باعتبارات مختلفة، فإذا نظرنا إلى الابتلاء من حيث المادة التي يحصل بها من نحو الأموال والأنفس والثمرات وجدنا له مجالات عديدة، وإذا نظرنا إليه من حيث الأشخاص أو الجماعات أو الأمم وجدنا له أنواعا مختلفة، فإذا تجاوزنا ذلك إلى الشكل الذي يتشكل فيه من نحو السراء أو الضراء، من حيث الطاعة أو المعصية وجدنا له مظاهر متباينة،
وسوف نتناول هذه الأقسام المتنوعة فيما يلي:-
أولا: مجالات الابتلاء:

سبق أن ذكرنا أن الدنيا هي دار ابتلاء، إذ هي بمثابة القاعة (أو الساحة) التي يجري فيها الاختبار، وهي أيضا الزمن المقرر لهذا الاختبار، أما مجالات هذا الاختبار، ومواد ذلك الامتحان، فتتلخص فيما على هذه الأرض من ثروات ومنتجات وزينة وما يجري فوقها من عمران، يقول الله تعالى: إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا «١» .

وإضافة إلى ذلك فإن الابتلاء يكون أيضا في مجال الأنفس من نحو الصحة والسقم، والقوة والضعف، والسعادة والشقاوة، كما يكون في الأموال من نحو الفقر والغنى، والعوز والرفاهية، وقد أشار المولى- عز وجل- إلى المجالين جميعا فقال تعالى: لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ «٢» ، وقال عزّ من قائل: وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَراتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ «٣» .

ويلحق بالأموال ويتبعها كل ما يشابهما من الجاه والسلطان والممتلكات العقارية ونحو ذلك، أما الأنفس فيلحق بها ما يصيب الإنسان في أبنائه أو أقاربه أو أحبائه من نحو الصحة والمرض، والحياة والموت، والنجاح والفشل وما أشبه ذلك.

ثانيا: أنواع الابتلاء:

للابتلاء- بالنسبة لمن يقع عليه- أنواع عديدة أهمها:

١- الابتلاء التكليفي، ونعني به:

الابتلاء على مستوى الإنسان بوجه عام، ويمكن أن نطلق عليه ابتلاء التكليف وحمل الأمانة، إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا «٤» ،

---

(١) الكهف/ ٧.

(٢) آل عمران/ ١٨٦.

(٣) البقرة/ ١٥٥.

(٤) الأحزاب/ ٧٢.

وقد أشارت إلى هذا الابتلاء التكليفي أيضا الآيتان الكريمتان وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا «١» . وقوله سبحانه: الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ «٢» . أي أن الابتلاء والاختبار هو في (المقدرة على حسن العمل) وقد جاء في تفسير القرطبي أن معنى «أحسن عملا» أورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله، ولهذا لا يكون العمل مقبولا إلا مع الإخلاص وموافقة السّنّة، وقيل: معنى لِيَبْلُوَكُمْ أي ليعاملكم معاملة المختبر، أي ليبلو العبد بموت من يعز عليه ليبين صبره، وبالحياة ليبين شكره، وقيل: خلق الله الموت للبعث والجزاء، وخلق الحياة للابتلاء، وعلى ذلك فالابتلاء يتعلق بخلق الحياة لا بخلق الموت «٣» .

٢- الابتلاء الشخصي:

ويراد به: ما يصيب الإنسان في نفسه أو فيمن حوله من أفراد أسرته من السّرّاء والضّرّاء، وإلى هذا النوع من الابتلاء أشارت الآية الكريمة إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً* إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً «٤» ، وقال تعالى: وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَراتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ «٥» ، وقال سبحانه: وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ ما فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ ما فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ «٦» .

٣- الابتلاء الاجتماعي (ابتلاء الناس بعضهم ببعض) :

المقصود بهذا النوع من الابتلاء: أن يبتلي الله الناس بعضهم ببعض، وذلك إما برفع بعضهم فوق بعض درجات مصداقا لقوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ «٧» ، وإما بالتفاوت فيما بينهم في حظوظ الحياة الدنيا من الرفعة والضعة، أو الغنى والفقر وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ «٨» ، وقال عزّ من قائل: وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلى ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَواءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ «٩» .
إن الابتلاء هنا يشمل الصنفين جميعا أي المفضّلون (الأغنياء) ، والمفضّل عليهم (الفقراء) ذلك أن الغنى- ما لم يعتصم بالإيمان- يريد زيادة غناه على حساب الفقير بلجوئه إلى الكنز، واستسلامه لغريزة الأنانية، وحب التكاثر والطمع، وينقاد للظلم والفساد أحيانا، وينسى حق الله في ماله فلا يعطف على فقير أو مسكين، ويقسو قلبه ولا يتصف بالرحمة أو الإنصاف في حالات أخرى، أما الفقير- ما لم يتمسك بأهداب التقوى ويصبر على البلوى- فإنه قد يحتال لفقره بالكذب والنفاق ويلجأ إلى زخرف القول ويسعى في الأرض فسادا ليهلك الحرث

---

(١) هود/ ٧.
(٢) الملك/ ٢.
(٣) تفسير القرطبي (بتصرف يسير) ١٨/ ٢٠٧.
(٤) الإنسان/ ٢- ٣.
(٥) البقرة/ ١٥٥.
(٦) آل عمران/ ١٥٤.
(٧) الأنعام/ ١٦٥.
(٨) الشورى/ ٢٧.
(٩) النحل/ ٧١.

والنسل، وقد سجّل القرآن الكريم الحالتين جميعا.
يقول سبحانه عن الحالة الأولى (في قصة داود عليه السلام) : إِنَّ هذا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ فَقالَ أَكْفِلْنِيها وَعَزَّنِي فِي الْخِطابِ* قالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَقَلِيلٌ ما هُمْ وَظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ راكِعاً وَأَنابَ* فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ «١» . وهنا أيضا يظهر نوع من الابتلاء بالنسبة للحكام الذين يختبرون بتنفيذ شرع الله تعالى والدعوة إلى دينه وإقامة حدوده والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقول الله تعالى: وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ «٢» . ويقول سبحانه: وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمَّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ «٣» ، وقال سبحانه: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ «٤» .
أما الحالة الثانية فيصورها القرآن أروع تصوير عندما حذّرنا من المنافقين الذين يظهرون المودة بالكلام المعسول والحديث المنمق إذا كانوا معك، فإذا تولوا عنك سعوا في الأرض فسادا وتخريبا، يقول الله تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلى ما فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ* وَإِذا تَوَلَّى سَعى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ «٥» .
وقد أوضح القرآن الكريم أن الله عزّ وجلّ قادر على أن ينصر أولياءه على أعدائه من دون مجاهدة ولكن لم يفعل حتى يتحقق هذا الاختبار وذلك الابتلاء، فيظهر به عدوان الظالمين وطغيانهم، وصبر

الصابرين وتحملهم لمشاق مجاهدتهم، قال تعالى: وَلَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ «٦» ، ولم يفلت من هذا الابتلاء حتى أنبياء الله- صلوات الله عليهم أجمعين- وقد سجّلت هذا الآية الكريمة وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ «٧» .
وقد أجملت كل هذه الأنواع من الابتلاء وذلك الافتتان وكشفت عن حكمته المتمثلة في الصبر على كل أنواع الأذى التي تلحق بعض الناس، الآية الكريمة: وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكانَ رَبُّكَ بَصِيراً «٨» .
٤- الابتلاء الجماعي أو الأممي:
ويتمثل ذلك فيما يصيب الأمة أو الجماعة بأسرها من رغد العيش أو ضيقه، من اعتدال المناخ أو قسوته،

(١) ص/ ٢٣- ٢٥.
(٢) المائدة/ ٤٢.
(٣) المائدة/ ٤٨.
(٤) الأنعام/ ١٦٥.
(٥) البقرة/ ٢٠٤- ٢٠٥.
(٦) محمد/ ٤.
(٧) الأنعام/ ١١٢.
(٨) الفرقان/ ٢٠.

ويشمل أيضا ما يصيب الأمم من نحو الزلازل والبراكين والفيضانات والأعاصير وما أشبه ذلك من الابتلاءات التي لا يقتصر أثرها على فرد دون آخر أو جماعة دون سواها، وقد أشار المولى عز وجل إلى سبب هذا النوع من الابتلاء بقوله: ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ* كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ* ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ «١» ، وقوله سبحانه: وَما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها مُصْلِحُونَ «٢» .
ومن أسباب ظهور هذا الابتلاء الذي قد يتمثل في فساد المياه والهواء والزروع والثمار والمساكن، ما يقترفه الناس من المعاصي وما يرتكبونه من الآثام، يقول الله تعالى: ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ «٣» . جاء في تفسير هذه الآية الكريمة أن المعنى: ظهرت المعاصي في البر والبحر فحبس الله عن الناس الغيث وأغلى سعرهم ليذيقهم عقاب بعض الذي عملوا «٤» ، وقيل: المعنى أن الله يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات اختبارا منه لهم ومجازاة على صنيعهم لعلهم يرجعون عن المعاصي «٥» .
وقد حذرنا المصطفى صلّى الله عليه وسلّم من موجبات هذا النوع من الابتلاء فيما يرويه عنه عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما- حيث قال: كنت عاشر عشرة رهط من المهاجرين عند رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فأقبل علينا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بوجهه فقال: «يا معشر المهاجرين، خمس خصال أعوذ بالله أن تدركوهن: ما ظهرت الفاحشة في قوم حتى أعلنوا بها إلا ابتلوا بالطواعين والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا، ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا ابتلوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان، وما منع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء فلولا البهائم لم يمطروا، ولا خفر قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم، فأخذوا ما في أيديهم، وما لم تعمل أئمتهم بما أنزل الله عز وجل في كتابه إلا جعل الله بأسهم بينهم» «٦» .
ثالثا: مظاهر الابتلاء:

١- الابتلاء بالضراء أو الشر:
وهو الذي يراد بالابتلاء أو الفتنة عند الإطلاق، وقد تخفى حكمة هذا النوع على الكثيرين، إذ قد يراد به اختبار الصدق في الإيمان، والصبر على الجهاد في سبيل الله «٧» ، قال تعالى: وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ «٨» ، وقال سبحانه: أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ* وَلَقَدْ

---

(١) الأنفال/ ٥١- ٥٣.
(٢) هود/ ١١٧.
(٣) الروم/ ٤١.
(٤) تفسير القرطبي (١٤/ ٤١) .
(٥) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٤٥) .
(٦) ابن ماجة (٤٠١٩) ، وقال في الزوائد: هذا حديث صالح للعمل به، ورواه أيضا الحاكم في المستدرك (٤/ ٥٤٠) ، وقال صحيح، ووافقه الذهبي، وذكره الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٣٢١) ، وانظر صفات: الفحش- الزنا- التطفيف.
(٧) انظر صفات: الشكر، الحمد.
(٨) محمد/ ٣١.

فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ «١» ، وقد يراد به التمهيد والتدريب على التمكين في الأرض، نظرا لما يعقب هذا الابتلاء من الصبر في الشدائد «٢» وتحمّل المشاق، واليقين بأن لله تعالى حكمة في كل ما يصيب الإنسان من خير أو شر، قال تعالى: وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَكانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ «٣» ، وقد أخبر المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أن جزاء الصابرين على الابتلاء بالضراء هو الجنة، فقال عليه الصلاة والسلام: «يقول المولى عز وجل: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته عنهما الجنة» يريد عينيه، وقال عليه الصلاة والسلام: «من ابتلى بشيء من البنات فصبر عليهن كنّ له حجابا من النار» «٤» . وإلى هذا المظهر من مظاهر الابتلاء أشارت الآية الكريمة: لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ «٥» .
٢- الابتلاء بالمعاصي أو السيئات:
وهذا المظهر لا يقل عن سابقيه من حيث خطره وتأثيره في حياة الأمم أو الأفراد، وقد كان آدم أبو البشر هو أول من تعرض لهذا النوع من الابتلاء عند ما أكل من الشجرة التي نهاه الله عنها. وقد سجل القرآن الكريم هذه الواقعة في قوله سبحانه: وَقُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ* فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطانُ عَنْها فَأَخْرَجَهُما مِمَّا كانا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ «٦» . وقد أشار ابن قيم الجوزية إلى ثمرة هذا الابتلاء عندما قال: لو لم تكن التوبة أحبّ إلى الله لما ابتلى بالذنب أكرم المخلوقات عليه (آدم عليه السلام) فالتوبة هي غاية كل كمال آدمي وقد كان كمال أبينا آدم عليه السلام بها «٧» .
٣- الابتلاء بالسراء أو الخير:
يبتلى الإنسان على المستوى الشخصي بالنعماء أو الخير فتنة وتمحيصا، وذلك بأن يعطيه الله المال والجاه أو العافية والمنصب والأولاد ونحو ذلك، وهذا المظهر من أهم مظاهر الابتلاء نظرا لما يعقبه من شكر للنعمة أو كفر بها، قال تعالى فيما يحكيه القرآن عن سيدنا سليمان قالَ هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ «٨» ، وشكر النعمة يعقبه زيادتها، أما كفرانها فإنه يورث الطغيان والكبر

(١) العنكبوت/ ٢ - ٣.
(٢) انظر صفات: الصبر، الرضا.
(٣) السجدة/ ٢٤.
(٤) انظر في تخريج هذين الحديثين، الحديث ١٥، ٣١ في صفة الصبر.
(٥) آل عمران/ ١٨٦.
(٦) البقرة/ ٣٥- ٣٦.
(٧) مفتاح دار السعادة ١/ ٢٨٦، وانظر صفة التوبة في هذه الموسوعة، وقارن ب «حكمة الابتلاء بالمعاصي» .
(٨) النمل/ ٤٠.
جـ ١(ص: ١٤)

والعجب والخيلاء ونحو ذلك من أمراض القلوب، وقد حذّرنا المولى سبحانه من عاقبة النعماء، خاصة إذا تعلّق الأمر بالأموال والأولاد أو الأزواج، فقال عزّ من قائل: وَاعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ
«١» ، وقال سبحانه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ* إِنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ «٢» . وقد أجملت الإشارة إلى النوعين جميعا (الابتلاء بالشر والابتلاء بالخير) الآية الكريمة: كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ «٣» .
٤- الابتلاء بالطاعات:
كما يبتلى الإنسان بالمعصية لتتاح له فرصة التوبة والاستغفار ونحو ذلك، فإنه يبتلى أيضا بالطاعات ليشكر ربه على ما هداه إليه، وإلى هذا أشارت الآيات الكريمة وَنادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ* قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ* إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ «٤» .
وقد أشارت إلى هذين النوعين من الابتلاء (الابتلاء بالمعصية أو السيئات، والابتلاء بالطاعة أو الحسنات) الآية الكريمة: وَقَطَّعْناهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذلِكَ وَبَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَالسَّيِّئاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ «٥» . وقد ضرب القرآن الكريم في قصة ابني آدم (قابيل وهابيل) أروع مثلين للابتلاء بالطاعة والمعصية، حيث كان أحدهما يمثل أقصى حالات الطاعة والتقوى، والآخر يمثل أقصى حالات المعصية المتمثلة في القتل، تأمل قوله تعالى: وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبا قُرْباناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِما وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قالَ إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ* لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي ما أَنَا بِباسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ* إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ وَذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ* فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخاسِرِينَ «٦» .
ابتلاء التكليف وابتلاء الفتنة:
وبالتمعن في هذه المظاهر الأربعة للابتلاء فإنه يمكن إرجاعها إلى مظهرين اثنين: الأول: ابتلاء التكليف ويشمل الابتلاء بالحسنات أو السيئات، بالطاعات أو المعاصي، يقول الله تعالى فيما يتعلق بهذا النوع الأول: إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً* إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً «٧» ، والآخر: ابتلاء الفتنة، ويشمل الابتلاء بالسراء أو الضراء، يقول الله تعالى في هذا النوع: كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ «٨» .

(١) الأنفال/ ٢٨.
(٢) التغابن/ ١٤- ١٥.
(٣) الأنبياء/ ٣٥.
(٤) الصافات/ ١٠٤- ١٠٦.

(٥) الأعراف/ ١٦٨.
(٦) المائدة/ ٢٧- ٣٠.
(٧) الإنسان/ ٢- ٣.
(٨) الأنبياء/ ٣٥.

الفصل الثالث حكمة الابتلاء

نتحدث في هذا الفصل والذي يليه عن أمرين يرتبطان ببعضهما ارتباطا وثيقا:
الأمر الأول: يتعلق بمحاولة البحث عن حكمة الله عز وجل في الابتلاءات المختلفة وذلك على قدر ما تشير إليه الآيات الكريمة، أو ترشد إليه الأحاديث الشريفة، أو توحي به قصص الابتلاء العديدة التي تضمنتها آي الذكر الحكيم أو أحاديث المصطفى صلّى الله عليه وسلّم.
أما الأمر الثاني: فهو محاولة جادة للإفادة من الابتلاء فيما يتعلق بالعملية التربوية وذلك على قدر ما تسعف به أصول علم التربية، كما أقرها المختصون في هذا النوع المهم من فروع الدراسة، وقد أطلقنا على هذا النوع الثاني:
القيمة التربوية للابتلاء، وإذا كانت حكمة الابتلاء تتعلق بالجانب النظري فإن القيمة التربوية ذات جانب عملي وتطبيقي، من حكم الابتلاء نستلهم عبر الماضي، ومن القيمة التربوية نعد العدة لبناء جيل صلب قوي ثابت على صراط الله المستقيم في المستقبل.
حكمة الله- عز وجل- في الابتلاء:
من أسماء الله- عز وجل- «الحكيم» ولهذا الاسم كما لغيره من الأسماء الحسنى آثار في الخلق تترتب عليه، ومن مقتضى ذلك أن تكون أفعاله- سبحانه وتعالى- وما يجري به قضاؤه وقدره لا يخلو من الحكمة، علمها من علمها وجهلها من جهلها، وسنحاول هنا أن نتأمل بعض- وليس كل- أسرار الابتلاء بأنواعه المختلفة.
أولا: حكمة الابتلاء بالضراء أو الشر:
للابتلاء بالضراء أو الشر حكم عديدة نشير إلى أهمها فيما يلي:
أ- تقوية الإيمان بالقضاء والقدر:
يقول الشيخ محمد بن عثيمين: على الإنسان أن يؤمن بقضاء الله وقدره، قال تعالى: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذلِكَ فِي كِتابٍ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ «١» ، ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ «٢» .
وعلى المسلمين أن يؤمنوا بمشيئة الله في عموم ملكه فإنه ما من شيء في السماوات أو في الأرض إلا وهو ملك لله عز وجل: لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما فِيهِنَّ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ «٣» ، وما من شيء في ملكه إلا وهو بمشيئته وإرادته فبيده الملك، وبيده مقاليد السماوات والأرض، ما من شيء يحدث من رخاء وشدة، وخوف

---

(١) الحج/ ٧٠.
(٢) الحديد/ ٢٢.
(٣) المائدة/ ١٢٠.

وأمن، وصحة ومرض، وقلة وكثرة، إلا بمشيئته سبحانه وتعالى. هو سبحانه خالق الإنسان ومدبره، فللإنسان عزيمة وإرادة، وله قدرة وعمل، والذي أودع فيه تلك العزيمة وخلق فيه القدرة هو الله عز وجل ولو شاء لسلبه الفكر فضاعت إرادته، ولو شاء لسلبه القدرة فما استطاع العمل.
إن الإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان الستة لا يتم الإيمان إلا به، لكنه ليس حجة للإنسان على فعل معاصي الله أو التهاون بما أوجب الله، وجه ذلك أنّ الله أعطاك عقلا تتمكن به من الإرادة، وأعطاك قدرة تتمكن بها من العمل فلذلك إذا سلب عقل الإنسان لم يعاقب على معصية، ولا ترك واجب، وإذا سلب قدرته على الواجب لم يؤاخذ بتركه.
إن الاحتجاج بالقدر على المعاصي أو ترك الواجبات حجة داحضة باطلة أبطلها الله في كتابه ويبطلها العقل والواقع «١» .
أبطلها الله في كتابه فقال تعالى: رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ «٢» .
ب- الابتلاء جسر يوصل إلى أكمل الغايات:
يقول ابن القيم- رحمه الله-: إذا تأملت حكمته سبحانه فيما ابتلى به عباده وصفوته وجدت أنه ساقهم به إلى أجلّ الغايات وأكمل النهايات التي لم يكونوا يعبرون إليها إلا على جسر من الابتلاء والامتحان، وكان ذلك الجسر لكماله كالجسر الذي لا سبيل إلى عبورهم إلى الجنة إلا عليه، وكان ذلك الابتلاء والامتحان عين المنهج في حقهم والكرامة، فصورته صورة ابتلاء وامتحان وباطنه فيه الرحمة والنعمة، فكم لله من نعمة جسيمة ومنة عظيمة تجنى من قطوف الابتلاء والامتحان، فتأمل حال أبينا آدم عليه السلام وما آلت إليه محنته من الاصطفاء والاجتباء والتوبة والهداية ورفعة المنزلة، ولولا تلك المحنة التي جرت عليه وهي إخراجه من الجنة وتوابع ذلك لما وصل إلى ما وصل إليه «٣» .
ج- الابتلاء وسيلة للتمكين في الأرض:
قيل للشافعي- رحمه الله- يا أبا عبد الله، أيهما أفضل للرجل أن يمكّن أو يبتلى؟ (أي بالضراء) ، فقال الشافعي: لا يمكّن حتى يبتلى، فإنّ الله تعالى ابتلى نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدا- صلوات الله عليهم أجمعين- فلما صبروا (على الابتلاء) مكّنهم «٤» .
د- تمحيص المؤمن وتخليصه من الشوائب المنافية للإيمان:
إن المصائب التي تصيب الناس في أنفسهم أو في أرزاقهم، أو غير ذلك مما يتصل بهم مما يسرهم الكمال فيه ويؤلمهم النقص منه، تكمن حكمتها في التمحيص الناتج عن هذا الابتلاء والامتحان، يقول الله تبارك وتعالى:

---

(١) الضياء اللامع للشيخ محمد بن صالح عثيمين ص ٣٤٩.
(٢) النساء/ ١٦٥.
(٣) مفتاح دار السعادة ١/ ٢٩٩.
(٤) الفوائد لابن القيم ص ٢٨٣.
جـ ١(ص: ١٧)

إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ* وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكافِرِينَ* أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ «١» .
فالبلايا والمحن محك يكشف عما في القلوب وتظهر به مكنونات الصدور، ينتفي بها الزيف والرياء، وتنكشف الحقيقة بكل جلاء.. تطهير لا يبقى معه زيف ولا دخل، وتصحيح لا يبقى فيه غبش ولا خلل، إن الشدائد والنوازل تستجيش مكنون القوى وكوامن الطاقات. وتتفتح بها في القلوب منافذ ما كان ليعلمها المؤمن في نفسه إلا حين تعرض للابتلاء، وعند الحوادث يتميز الغبش من الصفاء والهلع من الصبر، والثقة من القنوط «٢» .

فالابتلاء قد يقتضي في بعض أشكاله أن يكون بالمصيبة وبما تكره النفوس «٣» ، وتحمّل المؤمن مصائب الامتحان الإلهي بصبر وصدق مع الله ورضا بقضائه وقدره؛ هو من أفضل أعماله الصالحة، التي يكتب الله له بها أجرا عظيما وثوابا جزيلا. قال الله تعالى: ما كانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَؤُنَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ* وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ «٤» ، إن هذه الضراء ليست هي خاتمة المطاف، وسرعان ما تنقشع وتزول، يقول الله تعالى: فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً* إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً «٥» . فهذه مصائب امتحان، وهي في سبيل الله، وتحملها والصبر عليها من صالحات الأعمال «٦» .

هـ- الردع والتحذير من الغرور:

إنّ العقوبة العاجلة على ما اقترفه الإنسان أو الجماعة أو الأمة من معاص تقتضي حكمة المولى- عز وجل- أن تعجل عقوبتها حيث إن فيها ردعا وتحذيرا وعبرة، لهم ولغيرهم من الأفراد والجماعات، وقد أشارت إلى ذلك الآية الكريمة: كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ «٧» . وقوله عز من قائل: وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذابٍ بَئِيسٍ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ «٨» ، وقال سبحانه: قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ «٩» .

---

(١) آل عمران/ ١٤٠- ١٤٢.
(٢) توجيهات وذكرى، للشيخ الدكتور صالح بن حميد، ص ٢٤٠- ٢٤٠ (بتصرف) .
(٣) انظر صفات: الصبر والمصابرة، ومجاهدة النفس.
(٤) التوبة/ ١٢٠- ١٢١.
(٥) الشرح/ ٥- ٦.
(٦) الأخلاق الإسلامية للميداني ٢/ ٤٨٠- ٤٨١.
(٧) الأعراف/ ١٦٣.
(٨) الأعراف/ ١٦٥.
(٩) الأنعام/ ١١.

و الرحمة بالعصاة والتخفيف عنهم يوم القيامة:

من حكمة الابتلاء بالعقوبة أن يعجل الله للمذنب عقوبته فتأتيه في الدنيا تخفيفا عنه يوم القيامة، يقول الله- عز وجل-: وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ «١» .

قال علي- رضي الله عنه-: هذه أرجى آية في كتاب الله عز وجل، وإذا كانً يكفّر عني بالمصائب ويعفو عن كثير فما يبقى بعد كفارته وعفوه!! وقد روي عنه مرفوعا قوله- رضي الله عنه-: «ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله حدثنا بها النبي صلّى الله عليه وسلّم: وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ، يا علي، ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم، والله أكرم من أن يثنّي عليكم العقوبة في الآخرة، وما عفا عنه في الدنيا فالله أحلم من أن يعاقب به بعد عفوه «٢» . وعن أنس- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة» «٣» .

وقال ابن عون: إن محمد بن سيرين لما ركبه الدّين اغتم لذلك، فقال: إني لأعرف هذا الغم، هذا بذنب أصبته منذ أربعين سنة. وقال عكرمة: ما من نكبة أصابت عبدا فما فوقها إلا بذنب لم يكن الله ليغفره له إلا بها، أو لينال درجة لم يكن يوصله إليها إلا بها «٤» .

ز- إقامة حجة العدل على العباد:

يقول ابن القيم- رحمه الله-: «ومنها (أي من الحكم في الابتلاء بالضراء) إقامة حجة عدله عز وجل على عبده ليعلم هذا العبد أن لله عليه الحجة البالغة، فإذا أصابه من المكروه شيء فلا يقول: من أين هذا؟ ولا من أين أتيت؟ ولا بأي ذنب أصبت؟ وما نزل بلاء قط إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة «٥» .

ثانيا: حكمة الابتلاء بالذنوب أو المعاصي:

قد يتساءل كثيرون عن حكمة وقوع المعاصي وما يترتب عليها من الابتلاءات، وربما خطر في بالهم السؤال الآتي: ألم يكن المولى- عز وجل- بقادر على أن يمنع هذه المعاصي فلا تقع أصلا؟ وعن هذا التساؤل أجاب ابن القيم باستفاضة، وفصّل أنواع الحكمة الإلهية التي اقتضت وقوع الذنوب أو المعاصي.

---

(١) الشورى/ ٣٠.

(٢) تفسير القرطبي ١٦/ ٣١، وقد روى نحوه الترمذي عن بلال بن أبي بردة وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. انظر سنن الترمذي، حديث ٣٢٥٢.

(٣) رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب، انظر سنن الترمذي، حديث رقم (٢٥٠٧) .

(٤) تفسير القرطبي ١٦/ ٣١.

(٥) مفتاح دار السعادة ١/ ٢٨٧.

ويمكن تقسيم هذه الحكم العظيمة والمنح الجليلة في ثلاثة أمور:

١- إصلاح علاقة العبد بربه عز وجل.

٢- إصلاح علاقة العبد بنفسه.

٣- إصلاح علاقة العبد بالآخرين.

الأول: إصلاح علاقة العبد بربه عز وجل:

يتجلى ذلك بوضوح فيما يلي:-

أ- التوبة وصولا إلى الكمال البشري:

قال بعض العارفين: لو لم تكن التوبة أحب إلى الله لما ابتلى بالذنب أكرم المخلوقات عليه (الإنسان) فالتوبة هي غاية كل كمال آدمي، ولقد كان كمال أبينا آدم عليه السلام بها، فكم بين حاله وقد قيل له: إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيها وَلا تَعْرى «١» . وبين حاله وقد أخبر عنه المولى بقوله: ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَهَدى «٢» .

فالحال الأولى حال أكل وشرب وتمتع، والحال الثانية حال اجتباء واصطفاء وهداية، ويا بعد ما بينهما، ولما كان كماله (آدم) بالتوبة كان كمال بنيه بها أيضا، ذلك أن كمال الآدمي في هذه الدار إنما يكون بالتوبة النصوح، وفي الآخرة بالنجاة من النار، وهذا الكمال الأخير مرتب على الكمال الأول، قال ابن القيم- رحمه الله تعالى-: التوبة هي حقيقة دين الإسلام، والدين كله داخل في مسمى التوبة، وبهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله. فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين «٣» . وإنما يحب الله من فعل ما أمر به. وترك ما نهي عنه. فإذا التوبة هي الرجوع عما يكرهه الله ظاهرا وباطنا إلى ما يحبه ظاهرا وباطنا.

ب- الحمد والشكر والرضا:

ومن الحكمة أيضا ما توجبه التوبة من آثار عجيبة من المقامات التي لا تحصل بدونها فيوجب له ذلك من المحبة والرقة واللطف وشكر الله تعالى وحمده والرضا عنه عبوديات أخرى، ويكفيه أن الله- عز وجل- يفرح بتوبته أعظم فرح، وينعكس ذلك على الإنسان فيحس بفرح الظفر بالطاعة والتوبة النصوح، ويجد لذلك انشراحا دائما ونعيما ومقيما. (انظر صفات: الحمد، الشكر، الثناء، الرضا، المحبة) .

ج- الاستغفار:

إذا وقع الإنسان في الذنب شهد نفسه مثل إخوانه الخطائين وأن الجميع مشتركون في الحاجة إلى مغفرة الله- عز وجل- وعفوه ورحمته، وكما يحب المرء أن يستغفر له أخوه المسلم ينبغي له أيضا أن يستغفر لأخيه، فيصير هجيراه وديدنه «رب اغفر لي ولوالدي وللمسلمين والمسلمات وللمؤمنين والمؤمنات» . (انظر صفات: الاستغفار، التوبة، الإنابة) .

(١) طه/ ١١٨.
(٢) طه/ ١٢٢.
(٣) انظر صفة التوبة.

د- الإحسان والبر والإفضال:
ومن حكم الابتلاء بالمعصية أن الله يحب أن يتفضل على عباده ويتم نعمته عليهم، ويريهم مواقع بره وكرمه وإحسانه، ومن أعظم أنواع الإحسان والبر، أن يحسن إلى من أساء، ويعفو عمن ظلم، ويغفر لمن أذنب ... وقد ندب المولى عباده إلى هذه الشيم الفاضلة والأفعال الحميدة، وهو أولى بها منهم وأحق، وله في تقدير أسبابها من الحكم ما يبهر العقل فسبحانه وبحمده. (انظر صفات: الإحسان، البر، بر الوالدين، الفضل) .
هـ- تحقيق معنى الأسماء الحسنى:
ومن الحكم في الابتلاء بالذنب؛ أنه سبحانه له الأسماء الحسنى، ولكل من أسمائه أثر من الآثار في الخلق والأمر، لا بد من ترتبه عليه، كترتب المرزوق والرزق على الرازق، وترتب المرحوم وأسباب الرحمة على الراحم، ولو لم يكن من عباده من يخطىء ويذنب ليتوب عليه ويغفر له ويعفو عنه، لم يظهر أثر أسمائه الغفور والعفو والحليم والتواب، وما جرى مجراها.. فأسماؤه الغفار والتواب تقتضي مغفورا له وكذلك من يتوب عليه، وأمورا يتوب عليه من أجلها (انظر صفات: الرحمة والعفو والاستغفار وخاصة فيما يتعلق من ذلك باتصافه عز وجل بهذه الصفات) .
وتعريف العبد بعزة الله في قضائه وقدره:
ومن الحكمة أيضا أنه سبحانه يعرف عباده عزه في قضائه وقدره ونفوذ مشيئته وجريان حكمته، وأنه لا محيص للعبد عما قضاه عليه ولا مفر له منه بل هو في قبضة مالكه وسيده. (انظر صفة الإيمان وخاصة ما يتعلق بالقدر وصفة التوكل واليقين) .
ز- بيان حاجة العبد إلى حفظ الله ومعونته:
ومن حكم الابتلاء بالمعاصي تعريف العبد حاجته إلى حفظ الله له ومعونته وصيانته، وإلا فهو هالك، وإن وكله الله إلى نفسه وكله إلى ضيعة وعجز وذنب وخطيئة وتفريط، وقد أجمع العلماء على أن التوفيق، ألّا يكل الله العبد إلى نفسه، وأن الخذلان كل الخذلان أن يخلي بينه وبين نفسه، وفي دعاء الرسول صلّى الله عليه وسلّم «اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين» وتمام هذا الحديث: عن أبي بكرة قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت» «١» (انظر صفة التوكل) .
ح- الاستعانة والاستعاذة والدعاء:
يستجلب الله من العبد عند ما يبتليه بالذنب ما هو من أعظم أسباب السعادة له من الاستعاذة والاستعانة والدعاء والتضرع والابتهال والإنابة والمحبة والرجاء والخوف. (انظر هذه الصفات في مظانها من الموسوعة) .

(١) أبو داود (٥٠٩٠) ، وقال الألباني: حسن. انظر صحيح الكلم الطيب ص ٤٩.

ط- تمام العبودية:
يستخرج الله بهذا النوع من الابتلاء من العبد تمام العبودية، بتكميل مقام الذل والانقياد، وأكمل الخلق عبودية أكملهم ذلّا لله وانقيادا وطاعة، والمراد بالذل هنا، ذل المحبة الذي يستخرج من قلب المحب أنواعا من التقرب والتودد والإيثار والرضا والحمد والشكر والصبر والندم، وتحمل العظائم لا يستخرجها الخوف وحده، ولا الرجاء وحده، وهناك ذل آخر هو ذلك المعصية، وبيان ذلك أن العبد متى شهد صلاحه واستقامته شمخ بأنفه وتعاظمت نفسه وظن أنه وأنه، فإذا ابتلى بالذنب تصاغرت إليه نفسه وذل لله وخضع.
ي- سعة حلم الله وكرمه وعفوه:
ومن الحكمة أيضا في ذلك تعريفه سبحانه عبده سعة حاله وكرمه في الستر عليه، وأنه لو شاء لعاجله بالذنب ولهتكه بين عباده فلم يطب له معهم عيش أبدا، ولولا حلمه وكرمه ما استقام أمر، ولفسدت السموات والأرض، ولا سبيل لعبد في النجاة إلا بعفوه ومغفرته وقبول توبته، فالله- عز وجل- هو الذي وفق العبد للتوبة وألهمه إياها، ومن هنا تكون توبة العبد محفوفة بتوبة قبلها عليه من الله إذنا وتوفيقا، وتوبة ثانية منه عليه قبولا ورضا ... (انظر صفات: الحلم، الكرم، العفو) .
ك- الإنابة والمحبة والفرار إلى الله- عز وجل:
رب ذنب قد أهاج لصاحبه من الخوف والإشفاق، والوجل والإنابة، والمحبة والإيثار، والفرار إلى الله، ما لا يهيجه له كثير من الطاعات، وكم من ذنب كان سببا لاستقامة العبد وفراره إلى الله وبعده عن رق الغي، وهو بمنزلة من خلّط فأحس بسوء مزاجه، وعنده أخلاط مزمنة قاتلة وهو لا يشعر بها، فشرب دواء أزال تلك الأخلاط العفنة التي لو دامت لترامت به إلى الفساد والعيب، إن من تبلغ رحمته ولطفه وبره بعبده هذا المبلغ، وما هو أعجب وألطف منه لحقيق بأن يكون الحب كله له والطاعات كلها له، وأن يذكر فلا ينسى، ويطاع فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر. (انظر صفات: الإنابة، المحبة، الفرار إلى الله، الإيثار، الذكر، الشكر) .
ل- التواضع والخشية:
ومن ذلك أن العبد إذا شهد ذنوبه ومعاصيه وتفريطه في حق ربه رأى القليل من النعم كثيرا والكثير من عمله قليلا، فيورثه ذلك تواضعا وخشية وإنابة وطمأنينة ورضا، وأين حال هذا من حال من لا يرى لله عليه نعمة إلا ويرى أنه كان يستحق أكثر منها.
الثاني: إصلاح علاقة العبد بنفسه:
ويظهر هذا جليا في النقاط التالية:-
أ- تعريف العبد حقيقة نفسه:
ومن حكمة الابتلاء بالذنب أن العبد يعرف حقيقة نفسه، وأنها الظالمة، وأن ما صدر عنها من الشر صدر من أهله، إذا الجهل والظلم منبع الشر كله، وأن كل ما فيها من خير وعلم وهدى وإنابة وتقوى من الله- عز
جـ ١(ص: ٢٢)
وجل- هو الذي زكاها، وإذا لم يشأ تزكية العبد تركه مع دواعي ظلمه وجهله، لأن الله- عز وجل- هو الذي يزكي من يشاء من النفوس فتزكو وتأتي بأنواع الخير والبر، وقد كان من دعائه صلّى الله عليه وسلّم «اللهم آت نفسي تقواها وزكّها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها» «١» ، فإذا ابتلى الله العبد بالذنب عرف نفسه ونقصها فيجتهد من ثم في كمالها.
ب- خلع رداء الكبر والعظمة:
ومن الحكمة في الابتلاء بالمعاصي أن يخلع العبد صولة الطاعة من قلبه وينزع عنه رداء الكبر والعظمة الذي لبس له، ويلبس رداء الذل والانكسار، إذ لو دامت تلك الصولة والعزة في قلبه لخيف عليه ما هو من أعظم الآفات وأشدها فتكا، ألا وهو العجب. (انظر صفات: الكبر والعجب، العتو، الطغيان) .
ج- زوال الحصر والضيق:

ومن الحكمة في ذلك، أنّ العبد يقيم معاذير الخلائق وتتسع رحمته لهم، ويزول عنه ذلك الحصر والضيق، والانحراف، ويستريح العصاة من دعائه عليهم وقنوطه منهم وسؤال المولى- عز وجل- أن يخسف بهم الأرض ويرسل عليهم البلاء ولا ينظر إليهم بعين. (انظر صفات: الرحمة، القلق، الخوف) .

د- تحقق صفة الإنسانية في العبد:

لقد اقتضت الحكمة الإلهية تركيب الشهوة والغضب في الإنسان، وهاتان القوتان هما بمنزلة صفاته الذاتية وبهما وقعت المحنة والابتلاء، وهاتان القوتان لا يدعان العبد حتى ينزلانه منازل الأبرار أو يضعانه تحت أقدام الأشرار، وهكذا فإن كل واحد من القوتين يقتضي أثره من وقوع الذنب والمخالفات والمعاصي، ولو لم يكن الأمر كذلك لم يكن الإنسان إنسانا بل كان ملكا، ومن هنا قال المصطفى صلّى الله عليه وسلّم: «كل بني آدم خطّاء وخير الخطائين التوابون» «٢» .

هـ- الندم والبكاء:

إذا ابتلي الإنسان بالذنب جعله نصب عينيه، ونسي طاعته وجعل همه كله بذنبه، ويكون هذا عين الرحمة في حقه، قال بعض السلف في هذا المعنى: «إن العبد ليعمل الذنب فيدخل به الجنة، ويعمل الحسنة فيدخل بها النار» قالوا: وكيف ذلك؟ قال: «يعمل الخطيئة فلا تزال نصب عينه، كلما ذكرها بكى وندم وتاب واستغفر وتضرع وأناب إلى الله- عز وجل- وذل له وانكسر، وعمل لها أعمالا فتكون سبب الرحمة في حقه، ويعمل الحسنة فلا تزال نصب عينيه يمن بها ويراها ويعتد بها على ربه- عز وجل- وعلى الخلق، ويتكبر بها، ويتعجب من الناس كيف لا يعظمونه ويكرمونه ويجلونه عليها، فلا تزال هذه الأمور به حتى تقوى عليه آثارها فتدخله النار، وعلامة السعادة أن تكون حسنات العبد خلف ظهره وسيئاته نصب عينيه، وعلامة الشقاوة أن يجعل حسناته نصب عينيه وسيئاته خلف ظهره» . (انظر صفات: التوبة، الاستغفار، البكاء) .

---

(١) مسلم (٢٧٢٢) ، وهذا جزء من حديث زيد بن أرقم، انظر الحديث رقم (٣) في صفة الزكاة.

(٢) انظر تخريج هذا الحديث في صفة التوبة، حديث رقم ٢٠، ج ٤، ص ١٢٨٧.

الثالث: إصلاح علاقة العبد بالآخرين:

ويبدو ذلك جليا في الآتي:-

أ- تعلم العبد المسامحة وحسن المعاملة والرضا عن الغير:

ومنها أن العبد إذا ابتلي بالمحنة أو بالذنب فإنه يدعو الله أن يقيل عثرته ويغفر زلته فيعامل بني جنسه في إساءتهم إليه وزلاتهم معه بما يحب أن يعامله الله به، لأن الجزاء من جنس العمل فمن عفا عفا الله عنه، ومن سامح أخاه في إساءته إليه سامحه الله، ومن عفا وتجاوز تجاوز الله عنه، ويلحق بذلك أن العبد إذا عرف هذا فأحسن إلى من أساء إليه ولم يقابل إساءته بإساءة تعرض بذلك لمثلها من رب العزة والجلال، وأن الله- عز وجل- يقابل إساءته بإحسان منه وفضل، إذ المولى- عز وجل- أوسع فضلا وأجزل عطاء. (انظر صفات: السماحة، الرضا، حسن المعاملة) .

ب- التواضع مع الخلق والعفو عن زلاتهم:

مشاهدة العبد ذنوبه وخطاياه توجب ألا يرى لنفسه على أحد فضلا ولا يقع في اعتقاده أنه خير من أحد، وأين هذا ممن لا يزال عاتبا على الخلق شاكيا ترك قيامهم بحقه ساخطا عليهم وهم عليه أسخط، ويستتبع هذا أن يمسك عن عيوب الناس والفكر فيها لأنه مشغول بعيب نفسه، وطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وويل لمن نسي عيبه وتفرغ لعيوب الناس. (انظر صفات: التواضع، الرضا، مجاهدة النفس) . وإذا شهد العبد نفسه سيئا مع ربه مع فرط إحسانه إليه، فإن هذا يقتضي منه أن يغفر للمسيئين إليه من حوله ويعفو عنهم ويسامحهم.

هذه الثمرات ونحوها متى اجتناها العبد من الذنب فهي علامة كون الابتلاء رحمة في حقه، ومن اجتنى منه أضدادها وأوجبت له خلاف ذلك، فهي علامة الشقاوة، وأنه من هوانه على الله وسقوطه من عينه

خلى بينه وبين معاصيه ليقيم عليه حجة عدله، فيعاقبه باستحقاقه، وتتداعى السيئات في حقه فيتولد من الذنب ما شاء الله من المهالك والمتالف التي يهوي بها في دركات الجحيم، والمعصية كل المعصية أن يتولد من الذنب ذنب ثم يتولد من الاثنين ثالث ثم تقوى الثلاثة فيتولد منها رابع وهلم جرا، ذلك أن الحسنات والسيئات آخذ بعضها برقاب بعض ويتلو بعضها بعضا، قال بعض السلف: «إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها وإن من عقاب السيئة السيئة بعدها» «١» ، «٢» .

---

(١) بتصرف واختصار عن ابن القيم، مفتاح دار السعادة، ١/ ٢٨٦- ٢٩٦.
(٢) وقد علمنا المولى سبحانه وتعالى ألا نيأس من رحمة الله مهما كانت معاصينا، وأيا كان إسرافنا على أنفسنا فقال: قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (الزمر/ ٥٣) ، وحذرنا من التمادي في المعصية وتأخير التوبة وقرن بين غفرانه لمن تاب وعقابه لمن أعرض فقال: نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ* وَأَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ (الحجر/ ٤٩- ٥٠) .

ثالثا: حكمة الابتلاء بالسراء أو الخير:

لا تخفى حكمة الله عز وجل في ابتلاء شخص ما بالسراء، حيث يعقب ذلك شكر العبد لربه وحمده والثناء عليه بما هو أهله، وفي هذه الحالة يفيض الله على عبده مزيدا من النعمة مصداقا لقوله تعالى: وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ «١» .

ومما لا شك فيه أن نتيجة هذا الشكر تعود على العبد نفسه، أما إذا كانت الأخرى وقابل العبد ما يناله من الخير أو السراء بالجحود والنكران، فإنه يؤدي إلى الطغيان والاستعلاء في الأرض وما يعقب ذلك من عتو وفساد، وقد ضرب القرآن الكريم أروع مثلين لذلك في قصتي سليمان، وقارون اللتين نشير إليهما بإيجاز- فيما يلي:-

قصة ابتلاء سليمان عليه السلام:

توضح قصة ابتلاء سليمان عليه السلام- كما حكاها القرآن الكريم- حكمة المولى عز وجل في ابتلاء عبده بالسراء، يقول الله تعالى: قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ* قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قالَ هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ «٢» .

وكما توضح هذه الآيات الكريمة فإن الله عز وجل قد ابتلى سليمان بقوة السلطان والنفوذ في الأرض، ووفرة وسائل التنفيذ والإنجاز، وعرف سليمان أن ذلك لا يعدو أن يكون ابتلاء من الله عز وجل له، فشكر ربه «٣» . على ما أعطاه. وإذا كان رسولنا صلّى الله عليه وسلّم قد أمر بالاقتداء بهؤلاء الأنبياء في قول الله سبحانه: أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرى لِلْعالَمِينَ «٤» . فإن لنا فيهم- تبعا لذلك- الأسوة الحسنة والقدوة الصالحة.

قصة ابتلاء قارون:

لقد كان قارون من قوم موسى عليه السلام، وقد امتحنه الله بوفرة الثروة فأصابه الغرور وزعم أن ما ابتلي به من خير هو ثمرة علمه وخبراته الاقتصادية، ثم راح يستغل ثروته ومنزلته لنشر الفساد ودعم الظلم والفتن وفي الترف والزينة، وكان عاقبة «٥» أمره أن خسف الله به وبداره الأرض. انظر تفاصيل هذه القصة في سورة القصص آية ٧٦- ٨٣. (انظر صفات: الكنز- الغرور- الفتنة- الطغيان) .

---

(١) إبراهيم/ ٧.
(٢) النمل/ ٣٩- ٤٠.
(٣) انظر فلسفة التربية الإسلامية، ص ١٦٦.
(٤) الأنعام/ ٩٠.

(٥) انظر فلسفة التربية الإسلامية، ص ١٦٧، وانظر هذه القصة كاملة في «قصص الأنبياء» ص ٢٨١ - ٢٩٢.

جـ ١(ص: ٢٥)

رابعا: حكمة الابتلاء بالطاعات:

أما الابتلاء بالطاعات فحكمته استجلاب مزيد من الشكر وعرفان فضل الله تعالى فيما أنعم به وتفضل، وقد جاء في الحديث الشريف أن النبي صلّى الله عليه وسلّم فيما يرويه عنه المغيرة بن شعبة «إن كان النبي صلّى الله عليه وسلّم لا يقوم أو لا يصلي حتى ترم قدماه، فيقال له- في ذلك- فيقول: أفلا أكون عبدا شكورا» «١» . وكفى بالشكر حافظا للنعم الموجودة وجالبا للنعم المفقودة، كما يقول الحسن البصري رحمه الله تعالى «٢» . كما أن من حكمة هذا النوع من الابتلاء ألا يركن المرء إلى طاعته وألا يغتر بها فيكون كمن قال الله فيه وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ* وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَلكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ «٣» . وتوضح قصة ابتلاء الخليل إبراهيم عليه السلام حكمة ابتلاء الله عز وجل أنبياءه وأولياءه بالطاعة خير توضيح، ونشير إلى هذه القصة- بإيجاز- فيما يلي:-

قصة ابتلاء إبراهيم عليه السلام:

لقد سجل القرآن الكريم في أكثر من موضع موقف إبراهيم عليه السلام من الابتلاءات العديدة التي تعرض لها «٤» . وكان أبرز هذه الابتلاءات أمر الله- عز وجل- له بذبح ابنه إسماعيل، يقول الله تعالى: فَلَمَّا أَسْلَما وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ* وَنادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ* قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ* إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ «٥» .

وقد عقب ابن القيم على الابتلاء في هذه القصة فقال: تأمل حال أبينا الثالث إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم إمام الحنفاء وشيخ الأنبياء وخليل رب العالمين من بني آدم، وانظر ما آلت إليه محنته وصبره، وبذله نفسه لله، وتأمل كيف آل به بذله لله نفسه، ونصرته دينه، إلى أن اتخذه الله خليلا لنفسه وأمر رسوله محمدا صلّى الله عليه وسلّم أن يتبع ملته. وأنبهك على خصلة واحدة مما أكرمه الله به في محنته بذبح ولده، فإن الله تبارك وتعالى لا يتكرم عليه أحد، وهو أكرم الأكرمين، فمن ترك لوجهه أمرا أو فعله لوجهه، بذل الله له أضعاف ما تركه من ذلك الأمر أضعافا مضاعفة، وجازاه بأضعاف ما فعله لأجله أضعافا مضاعفة «٦» .

---

(١) البخاري- الفتح ٣ (٦٤٦٣) ، ومسلم (٢٨١٦) ، وانظر أيضا صفة الشكر.

(٢) انظر الأثر رقم (١٠) في صفة الشكر ج ٦ ص ٢٤١٦.

(٣) الأعراف/ ١٧٥- ١٧٦.

(٤) انظر قصة إبراهيم عليه السلام والمواضع التي ذكرت فيها في القرآن في قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار، ص ٧٠- ١٠٧.

(٥) الصافات/ ١٠٣- ١٠٦.

(٦) مفتاح دار السعادة (١/ ٣٠٠) .

جـ ١(ص: ٢٦)

الفصل الرابع القيمة التربوية للابتلاء

للابتلاء- بأنواعه المختلفة ومظاهره العديدة- دور عظيم في تربية النفوس، وتدريبها على تحمل المشاق، وتهيئتها لمواجهة أي ظرف طارىء أو محتمل، كما أن فيها تدريبا للقوى العقلية والذهنية وتوجيها لها كي تسير على المنهج السوي الذي يحقق الغاية المرجوة منها، كما أن في ذلك حماية لها من الزيغ والانحراف،

وسنشير فيما يلي إلى أهم الثمار التربوية لعملية الابتلاء.

١- الابتلاء تربية بالخبرة:

إن المبتلى بالذنوب أو بالضراء يصبح لديه من الخبرة ما يمكنه من معالجة ذلك مستقبلا معالجة صحيحة، يقول ابن القيم: المبتلى بالذنب يصبح كالطبيب المجرب الذي عرف المرض مباشرة، ومن ثم فهو يعرف كيف يعالجه علاجا صحيحا، وهذا معنى قولهم: أعرف الناس بالآفات «١» أكثرهم آفات. وهذه قيمة معرفية أولا، وهي ثانيا قيمة عملية تفيد في معالجة الحالات المماثلة، يقول ماجد الكيلاني: الابتلاء تربية بالخبرة هدفها فهم الخير وتذوق جماله، وفهم الشر والنفور من قبحه، ومن خلال هذا الفهم وهذا التذوق تتحقق غاية مهمة من غايات الابتلاء وهي إدراك عظمة النعم الإلهية على الإنسان، ثم يكون من وراء ذلك الابتلاء نوع من الترقي العقلي والاجتماعي، لأن الإنسان حين يمتحن بموقف معين ثم يتبع الأساليب الصحيحة لمعالجته تتكون لديه خبرة صحيحة بطبيعة المواقف الزمنية، والأشياء الكونية، ويعرف الأساليب الصحيحة لمعالجتها. وحين يخطىء هذه الأساليب الصحيحة فإنه يقف على خطورة الانحراف عن قوانين الأشياء ويعرف الآثار السيئة للأساليب الخاطئة. ويكون ثمرة ذلك كله ارتقاء النوع الإنساني «٢» .

إن تربية الإنسان وتأديبه يقتضيان في بعض الأحيان إذاقته بعض ما يكره من المصائب أو الآلام، وعندئذ تكون مصلحة الإنسان نفسه هي التي اقتضت أن يصيبه من الله عز وجل بعض الابتلاءات التي تتربى بها نفسه وتتهذب عن طريقها أخلاقه «٣» . وهنا تكون «تربية النفوس على تحمل ألوان الحياة المختلفة الخاضعة لسنن ثابتة عامة ضمن مقادير الله الكبرى، وهذه الحكمة التربوية ذات فلسفة عظيمة في سر الألوان المتضادة التي تتعرض لها الحياة، إن اللذة لا تعرف قيمتها إلا بالألم، وإن الجميل لا يعرف جماله ما لم تعرف صورة القبح، وإن الكمال لا يدرك كماله إلا بالنقص، وبضدها تتميز الأشياء «٤» » .

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٢٩٥.

(٢) فلسفة التربية الإسلامية ص ١٧٢ (بتصرف) .

(٣) بتصرف عن: الأخلاق الإسلامية للميداني ٢/ ٤٧٩.

(٤) السابق ٢/ ٤٨١.

٢- التدرب على الحذر وأخذ الحيطة:

يقول ابن القيم: من فوائد الابتلاء تحرز المبتلى من مصائد العدو ومكامنه ومعرفة من أين يدخل عليه اللصوص وقطاع الطرق؟ وأين تقع مكامنهم؟، ومن أين يخرجون عليه؟ وفي أي وقت؟ وهو بهذه المعرفة قد استعد لهم وتأهب للقائهم وعرف كيف يدفع شرهم وكيدهم، ولو أنه مر عليهم على غرة وطمأنينة لم يأمن أن يظفروا به ويجتاحوه جملة «١» . (انظر صفات: الحذر- اليقظة- الفتنة- الغي والإغواء) .

٣- اكتساب القوة والشجاعة في مواجهة الأعداء:

إن التخلص من داء الغفلة يؤدي إلى استجماع القوى، والتشجع لمحاربة العدو من شياطين الإنس والجن، فقد ينشغل الإنسان عن عدوه اللدود وهو الشيطان والنفس الأمارة بالسوء وبطانة الشر، فإذا أصابه منهم سهم استجمع قوته وحميته وطالب بثأره إن كان قلبه حرا كريما، كالرجل الشجاع إذا جرح فإنه لا يقوم له شيء بعدها حتى تراه هائجا مقداما، أما القلب الجبان المهين إذا جرح فهو كالرجل الضعيف، إذا جرح ولى هاربا فيفقد بذلك مروءته، ولا خير فيمن لا مروءة «٢» له يطلب بها الثأر من عدوه، ولا عدو أعدى للإنسان من الشيطان، وقد جاء في الأثر: إن المؤمن لينضي شيطانه كما ينضي أحدكم بعيره في سفره «٣» . (انظر صفات: القوة، قوة الارادة، العزم والعزيمة، الشجاعة، الصبر، علو الهمة) .

٤- المعرفة المباشرة بأمراض النفس وكيفية علاجها:

كما أن للابتلاء أثره الفعال في مقاومة آفات الجسد والتغلب عليها، فإن له أيضا دوره الفعال في معرفة أمراض النفوس وكيفية معالجتها، وهذه هي حال المؤمن يكون فطنا حاذقا أعرف الناس بالشر وأبعدهم منه، فإذا تكلم في الشر وأسبابه ظننته من شر الناس، فإذا خالطته رأيته من أبر الناس، والمقصود أن من بلي بالآفات صار من أعرف الناس بطرقها، وأمكنه أن يسدها على نفسه وعلى الآخرين «٤» .

إنه يوجد إلى جانب الاستعدادات الفطرية لدى الإنسان قوة واعية مدركة موجهة تناط بها التبعة، فمن استخدم هذه القوة في تزكية نفسه وتطهيرها وتنمية استعداد الخير فيها، وتغليبه على استعداد الشر فقد أفلح ومن أظلم هذه القوة وخبأها وأضعفها فقد خاب، قال تعالى: وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها* فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها* قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها* وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها «٥» . إن النية الطيبة لابد أن تقترن بالتربية والصقل، وبالإعداد اللازم لتتوفر لدى الإنسان

---

(١) الفوائد لابن القيم ٢١/ ٢٩٥ (بتصرف) .
(٢) انظر صفة المروءة، وعلو الهمة.
(٣) الفوائد لابن القيم ١/ ٢٩٥، ومعنى ينضي بعيره: أي يكده ويتعبه ويرغمه على ما يريد.
(٤) الفوائد لابن القيم ١/ ٢٩٥- ٢٩٦.
(٥) الشمس/ ٧- ١٠.

الإمكانات التي تؤهله لنقل ما ينويه إلى حيز التطبيق «١» وهنا تنبثق جملة حقائق ذات قيمة في التوجيه التربوي.

فهي أولا: ترتفع بقيمة الإنسان، حين تجعله أهلا لاحتمال تبعة اتجاهه، وتمنحه حرية الاختيار (في إطار المشيئة الإلهية التي شاءت له هذه الحرية فيما يختار) فالحرية والتبعة يضعان هذا الكائن في مكان كريم، ويقرران له في هذا الوجود منزلة عالية تليق بالخليقة التي نفخ الله فيها من روحه وسواها بيده، وفضلها على كثير من العالمين.

وهي ثانيا: تلقي على هذا الكائن تبعة مصيره، وتجعل أمره بين يديه (في إطار المشيئة الكبرى كما أسلفنا) فتثير في حسه كل مشاعر اليقظة والتحرج والتقوى. وهو يعلم أن قدر الله فيه يتحقق من خلال تصرفه هو بنفسه:

إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ «٢» . وهي تبعة ثقيلة لا يغفل صاحبها ولا يغفو!

وهي ثالثا: تشعر هذا الإنسان بالحاجة الدائمة للرجوع إلى الموازين الإلهية الثابتة، ليظل على يقين أن هواه لم يخدعه، ولم يضلله، كي لا يقوده الهوى إلى المهلكة، ولا يحق عليه قدر الله فيمن يجعل إلهه هواه، وبذلك يظل قريبا من الله، يهتدي بهديه، ويستضيء بالنور الذي أمده به في متاهات الطريق!

ومن ثم فلا نهاية لما يملك هذا الإنسان أن يصل إليه من تزكية النفوس وتطهيرها ويتطهر في هذا العباب الذي يتدفق حوله من ينابيع الوجود «٣» .

٥- تدريب القوى العقلية وتنشيطها للقيام بمهامها على الوجه الأكمل:

ويتمثل ذلك فيما يلي:-

أ- اليقظة:

إن صدمة الابتلاء- خاصة بالضراء- هي بمثابة صيحة النذير لقوم نيام تنبههم من سبات نوم الغفلة، وسكرة أحلام اليقظة، يقول الله تعالى واصفا أولئك الذين غرقوا في مجر الغفلة لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ «٤» ، وهذه اليقظة «٥» هي- كما يقول ابن القيم- أول منازل العبودية، وتعني انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين، ولله ما أنفع هذه الروعة وما أعظم قدرها، وما أقوى إعانتها على السلوك، ومن اليقظة ينتقل الإنسان إلى منزلة العزم (وهو العقد الجازم على الشيء) ، وبحسب كمال انتباهه ويقظته تكون عزيمته، وبحسب قوة عزمه يكون استعداده «٦» ، وبحسب استعداده يكون تذكره.

ب- التفكر والتأمل والاعتبار:

إذا ابتلى الإنسان واستيقظ بدأ مرحلة التفكر والتأمل وإعمال الخاطر في تجربة الابتلاء، ورددها قلبه معتبرا، يقول ابن القيم- رحمه الله-: «أصل الخير والشر من قبل التفكر، لأن الفكر مبدأ الإرادة والطلب وأنفع الفكر الفكر في مصالح المعاد (ما يتعلق بالآخرة) وفي طرق اجتلابها، وفي دفع مفاسد المعاد، وفي طرق اجتنابها، فهذه أربعة أفكار هي أجل الأفكار، ويليها أربعة: فكر في مصالح الدنيا، وطرق تحصيلها، وفكر في مفاسد الدنيا،

---

(١) أسعد السحمراني، الأخلاق والفلسفة القديمة، ص ٢٦.

(٢) الرعد/ ١١.

(٣) في ظلال القرآن (٦/ ٣٩١٨) .

(٤) الحجر/ ٧٢.

(٥) انظر صفة اليقظة.

(٦) مدارج السالكين ١/ ١٣٨- ١٣٩ (بتصرف) .

وطرق الاحتراز منها.

إن أعظم الفكر فكر يوصل إلى معرفة الله عز وجل ويؤدي إلى ذكره وشكره، ولا يكون ذلك إلا بالتأمل في ملكوت السموات والأرض وعجائب صنع الله سبحانه، وقد كان صلّى الله عليه وسلّم مضرب المثل في هذا النوع من التفكر، مصداق ذلك ما روي عن عطاء قال: دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة فقالت لعبيد بن عمير: قد آن لك أن تزورنا، فقال: أقول يا أمه كما قال الأول: زر غبا تزدد حبا. قال فقالت: دعونا من رطانتكم هذه. قال ابن عمير:

أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: فسكتت ثم قالت: لما كانت ليلة من الليالي قال: «يا عائشة، ذريني أتعبد الليلة لربي» قلت والله إني لأحب قربك وأحب ما سرك. قالت: فقام فتطهر ثم قام يصلي. قالت: فلم يزل يبكي حتى بل حجره، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل لحيته، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل الأرض، فجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي. قال: يا رسول الله لم تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر؟

قال: «أفلا أكون عبدا شكورا، لقد نزلت علي الليلة آية، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها «١» . إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبابِ* الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلًا سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ* رَبَّنا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ «٢» .

ج- التذكر:

إن وقوع الابتلاء هو في الحقيقة نعمة من الله وفضل منه، لأنه يذكر الإنسان ويثبته على صراط ربه المستقيم وَهذا صِراطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ «٣» . وعلى الإنسان أن يتذكر

مصيره لو أنه ترك لهواه بدون تذكرة أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ «٤» ، وقال سبحانه: وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ «٥» .
وعند الابتلاء يتذكر الإنسان حاله في الدنيا وحاله في الآخرة، وينظر أيهما أفضل أن يبتلي هنا أم هناك فَإِذا جاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرى * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ ما سَعى «٦» ، كَلَّا إِذا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا* وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا* وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرى «٧» .
وعند ساعة الاضطرار والابتلاء يعرف العبد أنه لن يكشف السوء إلا الله أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ «٨» . إن المرء إذا أفلح في الوصول بالتذكر

---

(١) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (٢/ ٦٢٠) ص ٣٨٧، وقال محققه: إسناده قوي على شرط مسلم. وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٤٣٧) ، وهو عند البخاري- الفتح (٨/ ٤٨٣٧) بلفظ مختصر.
(٢) آل عمران/ ١٩٠- ١٩٢.
(٣) الأنعام/ ١٢٦.
(٤) الجاثية/ ٢٣.
(٥) الزمر/ ٢٧.
(٦) النازعات/ ٣٤- ٣٥.
(٧) الفجر/ ٢١- ٢٣.
(٨) النمل/ ٦٢.

بعد النسيان إلى هذه المرحلة من التدرج والارتقاء شيئا فشيئا، فقد أوتي حكمة من عند الله، وعرف حكمة هذا الابتلاء يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَما يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ
«١» .
ويتأكد هذا المعنى للابتلاء بقوله سبحانه: إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ «٢» . فالتذكر يورث البصيرة، والمقصود به هنا- كما يقول ابن كثير- أنهم تذكروا عقاب الله وجزيل ثوابه، ووعده ووعيده، فتابوا وأنابوا واستعاذوا بالله ورجعوا إليه من قريب «٣» .
٦- تمحيص القلب وتزكيته:
إذا كان العقل مناط التفكير والتدبر والتذكر ونحو ذلك، فإن القلب محل الإيمان والمحبة والخشوع والخشية ونحو ذلك مما يسمى أعمال القلوب «٤» ، وهناك تأثير وتأثر بين الأعمال العقلية والأعمال القلبية، فالقلب يتلقى ذلك النور الناتج عن المعرفة العقلية الفطرية، أي تلك التي فطر الله الناس عليها من حب الله تعالى وعبادته وحده، فإذا تزكت الفطرة بلا فساد كان القلب عارفا بالله محبا له «٥» ، وأعمال القلوب هذه هي آكد شعب الإيمان، وصلاح سائر الأعمال منوط بصلاح القلب، ذلك أن أعمال القلوب هي الأصل، وأعمال الجوارح تبع «٦» ، يقول العز بن عبد السلام: مبدأ التكاليف كلها ومصدرها القلب، وصلاح الأجساد موقوف على صلاح القلوب، وفساد الأجساد موقوف على فساد القلوب «٧» .
إن كل ما ذكره العلماء في صلاح القلوب أو فسادها مستمد من قوله صلّى الله عليه وسلّم: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب» «٨» .
إن للابتلاء دورا عظيما في تمحيص القلب أي تخليصه من الشوائب غير الإيمانية، فإذا تمحص القلب وخلص قويت فيه دواعي الخشية والخوف والرجاء ونحو ذلك من الأحوال المحمودة، وإذا قويت هذه ضعفت للتو واللحظة أحواله المذمومة من نحو الوسوسة والغيظ والكبر والنفاق ونحوها مما يعرف

بأمراض القلوب، وهي أعظم من أمراض الجسم، وقد عقد ابن تيمية موازنة مهمة بين النوعين: مرض الأجساد ومرض القلوب فقال: كما أن الإنسان إذا صار لا يسمع بأذنه، ولا يبصر بعينه، ولا ينطق بلسانه، كان ذلك مرضا مؤلما له لما يفوته من المصالح ويحدثه من المضار، فكذلك إذا لم يسمع ولم يبصر ولم يعلم بقلبه الحق من الباطل ولم يميّز بين الخير

---

(١) البقرة/ ٢٦٩.
(٢) الأعراف/ ٢٠١.
(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٩٠) ، وانظر صفة التذكر.
(٤) ذكر ابن تيمية ضمن أعمال القلب- وهي كثيرة- محبة الله ورسوله، والتوكل على الله وإخلاص الدين له والخوف منه، والرجاء له وما يتبع ذلك (الفتاوى ١٠/ ٦) .
(٥) السابق ١٠/ ١٣٥.
(٦) معالم السلوك وتزكية النفوس، ص ٦٧.
(٧) قواعد الأحكام للعز بن عبد السلام (١/ ١٦٧) .
(٨) هذا جزء من حديث النعمان بن بشير، انظره كاملا في صفة الصلاح (٦/ ٢٦٠٣) ، وقد خرّجناه هناك.

والشر، والغي والرشاد، فإن ذلك من أعظم أمراض قلبه «١» . ويتضح من هذه الموازنة الدقيقة أن أساس مرض القلب هو الجهل وأساس صحته هو العلم، ويكون مرض القلب أيضا بالحب والبغض الخارجين عن الاعتدال، وتلك هي الأهواء التي قال الله فيها: وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ «٢» ، وقال سبحانه: بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ «٣» .
وما يصيب المؤمن في الدنيا من المصائب (والابتلاءات) هي بمنزلة ما يصيب الجسم من الآلام التي يصح بها وتزول أخلاطه الفاسدة «٤» ، فكذلك الابتلاءات يصح بها القلب وتزول عنه شوائبه. يقول الله تعالى موضحا أثر الابتلاء الذي أصاب المسلمين يوم أحد: وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ ما فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ ما فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ «٥» .
وسنعرض فيما يلي للأحوال القلبية التي تقوى بالابتلاء، وتلك الشوائب أو الأمراض التي يتمحص القلب بزوالها كلية أو إضعافها إلى حد كبير. ثم نشير- بإيجاز- إلى تزكية القلوب.
الأحوال القلبية التي تقوى بالابتلاء:
أ- الخشية:
والمراد بها خوف الله عز وجل خوفا يشوبه تعظيم ويقترن به إجلال «٦» . وقد وعد الله الذين يخشونه بالفوز والأجر الكبير، فقال: وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ «٧» . وقال جل من قائل: إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ «٨» ، وقد كشف القرآن الكريم عن أثر هذه الخشية وثمرتها فقال تعالى: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ «٩» .
وقد بشر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من يتصف بالخشية، وقرن بينه وبين المجاهد فقال: «عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله» «١٠» .
ب- الخوف من الله تعالى:
أما الخوف فيعني: اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف «١١» ، يقول ابن رجب: القدر الواجب من الخوف ما حمل على أداء الفرائض واجتناب المحارم، فإن زاد على ذلك بحيث صار باعثا للنفوس على التشمير في نوافل الطاعات، والانكفاف عن دقائق المكروهات كان ذلك فضلا محمودا «١٢» ،

ويقول الحافظ ابن حجر: الخوف من المقامات العلية، هو من لوازم الإيمان، قال تعالى: وَخافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ «١٣» .

---

(١) الفتاوى ١٠/ ١٤١.
(٢) القصص/ ٥٠.
(٣) الروم/ ٢٩.
(٤) الفتاوى ١٠/ ١٤٧.
(٥) آل عمران/ ١٥٤.
(٦) انظر صفة الخشية.
(٧) النور/ ٥٢.
(٨) الملك/ ١٢.
(٩) الزمر/ ٢٣.
(١٠) سنن الترمذي (١٦٣٩) وقال: حديث حسن، وانظر أيضا الحديث رقم (١١) في صفة الخشية.
(١١) انظر صفة الخوف، وقد ذكرنا هناك تعريفات أخرى.
(١٢) التخويف من النار لابن رجب ص ٢١.
(١٣) آل عمران/ ١٧٥.

وهذا الخوف المحمود يقترن بالرجاء كما في قوله تعالى: أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخافُونَ عَذابَهُ إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ كانَ مَحْذُوراً «١» ، وعن أنس- رضي الله عنه- أن النبي صلّى الله عليه وسلّم دخل على شاب وهو في الموت، فقال: «كيف تجدك؟» . قال والله يا رسول الله إني أرجو الله وإني أخاف ذنوبي. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو، وآمنه مما يخاف» «٢» . وقد وعد الله الخائفين بالجنة فقال: وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى «٣» .

ج- الخشوع:

والمراد به: قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل «٤» ، قال ابن القيم: والحق أنه يلتئم من التعظيم والمحبة والذل والانكسار «٥» . وهذا الخشوع يأتي عند ذكر الله تعالي، يقول المولى سبحانه: أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ «٦» ، ويقول جل من قائل: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ* الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ «٧» . ومن هذه الآيات الكريمة نستنبط أمرين مهمين: الأول: أن الخشوع في الصلاة هو أول صفات المؤمنين، الثاني: أن ثمرته هو الفلاح، وأن أصحابه من الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيها خالِدُونَ «٨» .

د- الرجاء:

والمراد به النظر إلى سعة رحمة الله تعالى «٩» والثقة بجوده وفضله وكرمه، يقول ابن حجر: المقصود من الرجاء أن من وقع منه تقصير فليحسن ظنه بالله، ويرجو أن يمحو عنه ذنبه، وكذا من وقعت منه طاعة يرجو قبولها، وأما من انهمك على المعصية راجيا عدم المؤاخذة بغير ندم ولا إقلاع فهذا في غرور، وما أحسن قول القائل: من علامة السعادة أن تطيع، وتخاف ألا تقبل، ومن علامة الشقاء أن تعصى وترجو أن تنجو «١٠» . إن رجاء الله واليوم الآخر هو سمة المؤمنين المتأسين برسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول الله تعالى: لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً «١١» .

هـ- التقوى:

المراد بالتقوى هنا تقوى القلب الواردة في قوله تعالى: ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللَّهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ «١٢» ، أضاف التقوى إلى القلوب لأن حقيقة التقوى في القلب «١٣» . ولهذا قال عليه الصلاة

---

(١) الإسراء/ ٥٧.
(٢) الترمذي (٩٨٣) واللفظ له، وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجة (٤٢٦١) وقال النووي: إسناده حسن. وحسنه الألباني، صحيح ابن ماجة (٣٤٣٦) وهو في الصحيحة (١٠٥١) .
(٣) النازعات/ ٤٠- ٤١.
(٤) انظر صفة الخشوع.
(٥) مدارج السالكين (١/ ٥٥٨) .
(٦) الحديد/ ١٦.
(٧) المؤمنون/ ١- ٢.
(٨) المؤمنون/ ١١.
(٩) انظر صفة الرجاء.
(١٠) انظر فتح الباري (١١/ ٣٠١) .
(١١) الأحزاب/ ٢١.
(١٢) الحج/ ٣٢.
(١٣) تفسير القرطبي (١٢/ ٥٦) .

والسلام: «التقوى ههنا» وأشار إلى صدره «١» ، وتفسر التقوى أيضا بالطاعة والذكر والشكر، ذلك قوله سبحانه:
يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ «٢» . قال ابن مسعود في تفسيرها: أن يطاع فلا يعصى ويذكر فلا ينسى وأن يشكر فلا يكفر «٣» .
والاستقامة:
الاستقامة هنا هي- كما يقول ابن رجب- استقامة القلب على التوحيد. وقد فسر أبو بكر الصديق- رضي الله عنه- الاستقامة في قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا «٤» . بأنهم لم يلتفتوا إلى غيره، فمتى استقام القلب على معرفة الله تعالى، وعلى خشيته وإجلاله ومهابته ومحبته وإرادته، ورجائه ودعائه والتوكل عليه والإعراض عما سواه، استقامت
الجوارح كلها على طاعته، فإن القلب هو ملك الأعضاء، وهي جنوده، فإذا استقام الملك استقامت جنوده ورعاياه، وأعظم ما يراعى استقامته بعد القلب من الجوارح اللسان، فإنه ترجمان القلب والمعبر عنه «٥» . يقول ابن القيم: الاستقامة هي سلوك المنهج القويم، وهي كلمة جامعة آخذة بمجامع الدين، وهي القيام بين يدي الله تعالى على حقيقة الصدق والوفاء بالعهد، وتتعلق بالأقوال والأفعال والأحوال والنيات، وهي تعني في ذلك كله: وقوعها لله وبالله وعلى أمر الله «٦» . فالأقوال تشمل الدعاء والذكر ونحو ذلك من أعمال اللسان، وأعمال الجوارح تشمل الحج والعمرة ونحو ذلك، أما النيات فإنها تشمل الإيمان والإخلاص ونحوها، ويجمع ذلك كله الصلاة فإنها صلة بين العبد وربه وهي عمود الإسلام لأنها تجمع بين الأقوال والأفعال والنيات «٧» .
ويترتب على الاستقامة والتقوى القلبيين التزام العبد بطاعة الله تعالى في كل ما أمر به أو نهي عنه وبذلك يحسن إيمانه ويقوى إسلامه، ويتجلى إحسانه.
والخلاصة: أن هذه الصفات وما أشبهها من نحو الوجل، والإنابة، والضراعة، ينتج عنها من الثمار ما تصلح به جميع علاقات الإنسان، فعلاقة العبد بربه يصلحها: الخوف، والخشية، والخشوع.. ونحو ذلك. أما العلاقة بين العبد ونفسه فيصلحها: الطمأنينة، والسكينة، وانشراح الصدر.. ونحو ذلك. وفيما يتعلق

بعلاقة الإنسان بالآخرين فإنها تصلح بالألفة، والرأفة، والرحمة.. ونحو ذلك، ومرد ذلك جميعه إلى صلاح القلب وما يتبعه من صلاح الجسد كما قال الرسول صلّى الله عليه وسلّم في الحديث الذي أوردناه سابقا.

---

(١) صحيح مسلم (٢٥٦٤) ، وانظر صفة التقوى.
(٢) آل عمران/ ١٠٢.
(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٣٦٩) .
(٤) فصلت/ ٣٠.
(٥) جامع العلوم والحكم (١٩٣- ١٩٤) بتصرف.
(٦) مدارج السالكين (٢/ ١٠٣) وما بعدها (بتصرف) .
(٧) انظر صفة الصلاة.

فخلاصة القول أنه متى ما صلح العقل والقلب صلحت الجوارح وصلح اللسان وبذلك تصلح الأقوال والأفعال وثمرة ذلك كله صلاح الأحوال في الدارين الأولى والآخرة.

الأمراض القلبية التي يعالجها الابتلاء:

الابتلاء يمحص القلب ويخلصه من الآفات التي تعرض له من الشبهات والشهوات مثل:

- الغفلة.- الغل.- الغيظ والغضب.- الكبر.- النفاق.- اللهو واللعب.- الحسد.
- الحقد.- الوسوسة.- الشك والريبة.- القسوة وما يتبعها من الغلظة والفظاظة.- الغي.
- الابتداع والزيغ.

وقد عقدنا لهذه الخصال المذمومة ونحوها قسما خاصا بها في المجلدات (٩- ١١) ، وقد أغنانا ما ذكرناه هناك عن الإعادة هنا.

تزكية القلب:

أما زكاة القلب فإنها تحصل بأمور منها: الصدقة، فإنها لما كانت تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار صار القلب يزكو بها، وزكاته معنى زائد على طهارته من الذنب، وكذلك ترك الفواحش يزكو بها القلب، إذ هي بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن، فإذا تاب الإنسان من الذنوب تخلصت قوة القلب وإرادته للأعمال الصالحة، واستراح القلب من تلك الحوادث الفاسدة التي كانت فيه، وهكذا فإن التزكية وإن كان أصلها النماء والبركة وزيادة الخير فإنما تحصل أيضا بإزالة الشر، فلهذا صار التزكي يجمع هذا وهذا «١» .

إن تزكية النفس أو القلب إنما تعود على صاحبها، فهو الذي يجني ثمرتها في الدنيا والآخرة مصداقا لقوله تعالى: وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّما يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ «٢» .

---

(١) الفتاوى، ٩٦، ٩٧ (باختصار) .
(٢) فاطر/ ١٨.

الفصل الخامس تعامل المسلم مع مواقف الابتلاء

ذكرنا أن المسلم، بل الإنسان عامة يعيش دائما في لحظة ما من لحظات الابتلاء، إذ هو فيما يتعلق بالابتلاء التكليفي إما في طاعة أو معصية، وفيما يتعلق بابتلاء الفتنة إما في رخاء ودعة يرفل في ثياب النعمة أو في ضيق وكرب وشقاء، تتكالب عليه صروف الدهر ويذوق البأساء أشكالا وألوانا، فماذا يصنع في كل هذه المواقف؟ على هذا السؤال سوف نجيب في الفقرات الآتية:

أولا: تعامل المسلم المبتلى بالضراء.

ثانيا: تعامل المسلم المبتلى بالسراء.

ثالثا: تعامل المسلم المبتلى بالمعاصي.

رابعا: تعامل المسلم المبتلى بالطاعات.

أولا: تعامل المسلم المبتلى بالضراء:

إذا ابتلي المسلم في بدنه أو أهله أو ماله، فإن عليه أن يسير وفق المنهج الإسلامي الصحيح لمواجهة مثل هذه الحالة وتتلخص خطوات هذا المنهج في النقاط الآتية:

١ - اليقين والرضا:

- الخطوة الأولى: على المسلم أن يعتقد اعتقادا جازما بأن هناك حياة أخرى هي خير من هذه الحياة، قال تعالى: وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقى «١» ، وقال سبحانه: وَلَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ «٢» ، ويعني اعتقاد هذا أن تلك المحنة مهما طالت فهي إلي زوال، لأن الدنيا نفسها زائلة، وهي لا تعدو أن تكون دار امتحان وابتلاء، يقول الله تعالى: أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ* وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ «٣» . ومن هذا المنظور للحياة يتكون لدى الشخص المبتلى حوافز للرقي والسمو فوق المحنة، فيجاهد نفسه، ويقول عند المصيبة إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ «٤» . وقد جعل الله هذه الجملة ذكر الذاكر بعد نزول المصائب، لأن المصائب لا تعدو أن تكون سلبا للنّعم التي سبق أن أنعم الله بها عليه، أو حرمانا من النعم التي أنعم الله بمثلها على عباده، والنعم لدى التحقيق هي ملك لله تعالى، والناس وسائر عباد الله الذين ينعم عليهم بالنعم هم أيضا ملك لله تعالى، ومصير العباد كلّهم أن يرجعوا إلى مالكهم، ومصير الأشياء كلّها أن تعود إلى مالكها سبحانه وتعالى، فهو الذي يقول في كتابه: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ «٥» . وقال سبحانه: يا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ «٦» .

---

(١) الأعلى/ ١٧.

(٢) النحل/ ٣٠.

(٣) العنكبوت/ ٢ - ٣.

(٤) البقرة/ ١٥٦.

(٥) الذاريات/ ٥٨.

(٦) فاطر/ ٣.

ج ١(ص: ٣٦)

فإذا ابتلى الله المؤمن فاستردّ منه نعمة كان قد وضعها بين يديه ليبتليه بها، فإن المؤمن يتذكّر بسرعة أنّ الله هو مالك كلّ شيء، يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ «١» ، وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ «٢» . ويتذكّر أيضا أنه هو نفسه مملوك لله، وأنّ جميع الخلائق مملوكون له سبحانه وأنهم عباده، وأنهم جميعا راجعون إليه، فإذا رجع الملك إلى مالكه فعلام الحزن؟ وعلام الأسى؟ ولم الاعتراض؟ ولماذا التسخط؟

فحينما يتذكّر المؤمن قوله تعالى: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ «٣» ، وتذكر هذه الحقائق يعلن عبارة الإيمان التي تدلّ عليها فيقول: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ.
هذه العقيدة الإيمانية رحمة من الله تملأ القلوب طمأنينة وتسليما، ورضى عن الله- عز وجل- فيما جرت به مقاديره «٤» .
فما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن يتمثل دائما قول الله تعالى: قُلْ لَنْ يُصِيبَنا إِلَّا ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا هُوَ مَوْلانا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ «٥» ، ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ* لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ «٦» . ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ «٧» . أي بمشيئته وإرادته عز وجل. قال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم، وفي الآية بيان بأن من ثواب الصبر هداية القلب، وصح في الحديث «لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له» والله عز وجل يقول: وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ «٨» . وعليه أن يعلم يقينا أن الله وحده هو الذي يملك كشف الضر عنه مصداقا لقوله سبحانه: وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ «٩» . وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَيَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحانَ اللَّهِ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ «١٠» .
إن هذا الاعتقاد الجازم وذلك اليقين الإيماني يجعلان المبتلى يجدد صلته بخالقه ويجلب له سعادة واطمئنانا، ويلقي عليه من السكينة عند وقوع البلاء ما يجعل نفسه آمنة مطمئنة راضية بقضاء الله وقدره، وهنا يستطيع المسلم أن يتخلص من الاضطرابات الانفعالية التي تصيب المرء عادة عند وقوع البلاء، وأفضل علاج نفسي لهذه الحالة هو ذكر الله- عز وجل- أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ «١١» . وتلاوة القرآن، قال تعالى: وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ «١٢» ، «١٣» .

---

(١) فاطر/ ١٥.
(٢) الحديد/ ٢٩.
(٣) الروم/ ٤٠.
(٤) الأخلاق الإسلامية (٢/ ٤٧٥- ٤٧٦) .
(٥) التوبة/ ٥١.
(٦) الحديد/ ٢٢- ٢٣.
(٧) التغابن/ ١١.
(٨) البقرة/ ٢١٦.
(٩) يونس/ ١٠٧.
(١٠) القصص/ ٦٨.
(١١) الرعد/ ٢٨.
(١٢) الإسراء/ ٨٢.
(١٣) بتصرف واختصار عن: روح الدين الإسلامي (ص ١٧٧) .
جـ ١(ص: ٣٧)

إن الإيمان وما يتبعه من الاحتساب، والتوكل على الله، والرضا بقضاء الله وقدره والإيمان به، والذكر، وتلاوة القرآن «١» هو المسكن الأول أو الخطوة الأولى في علاج ما ينتاب المبتلى بالضراء وهي تنقذه من أن يقع فريسة لانشغال الفكر بالهموم المادية أو المعنوية ومن تشتت العقل بتأثير القلق على المستقبل، كما أنها تبعد عنه الوساوس التي تعصف بالإنسان وتجعله غير قادر على القيام بواجباته.
وقد أخبر الله عز وجل عن عموم قدرته وقهره لكل ما سواه، وذل كل شيء لعظمته، فقال: ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ «٢» .

وبمعرفة أنه سبحانه على صراط مستقيم، في كل ما يقضيه ويقدره فلا يخاف العبد جوره ولا ظلمه، فإنه على صراط مستقيم. فهو سبحانه ماض في عبده حكمه، عدل فيه قضاؤه، له الملك وله الحمد، لا يخرج تصرفه في عباده عن العدل والفضل، إن أعطى وأكرم وهدى ووفق فبفضله ورحمته، وإن منع وأهين وأضلّ وخذل وأشقى فبعدله وحكمته، وهو على صراط مستقيم في هذا وهذا.
وفي الحديث الصحيح الذي رواه أحمد: «ما أصاب عبدا قط هم ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي، إلا أذهب الله همه وغمه وأبدله مكانه فرجا، قالوا: يا رسول الله ألا نتعلمهن؟ قال: بلى ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن» «٣» .
٢- الصبر والاحتساب:
تتمثل الخطوة الثانية في الصبر على آثار الابتلاء- أو بالأحرى- الحالات الناجمة عنه من الملل والقلق والاضطراب والوساوس، في الصبر الجميل «٤» والاحتساب تأسيا برسول الله صلّى الله عليه وسلّم، الذي أمره ربه بالصبر على الأذى أسوة بأولي العزم من الرّسل، قال تعالى: فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ «٥» ، وقال عزّ من قائل:
أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ «٦» ، فهذا الصبر يجعله في معية الله تعالى، مصداقا لقوله سبحانه: إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ* «٧» ، كما يجعله من أهل محبته، فهو سبحانه القائل: وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ «٨» ، وأن يتيقن أن مع العسر يسرا وأن مع الكرب فرجا وأن الله سبحانه هو الذي يكشف ضره، قال تعالى: وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا*

---

(١) انظر صفات: الإيمان- اليقين- الذكر- تلاوة القرآن- الرضا- الاحتساب، من هذه الموسوعة.
(٢) هود/ ٥٦.
(٣) الداء والدواء ص ٣٤٩، وانظر الحديث في صفة التوسل ج ٤، ص ١٣٧٣، وقد خرّجناه هناك.
(٤) الصبر الجميل: هو الصبر الذى لا شكوى معه، انظر صفات: الصبر، الاحتساب، الرضا، القناعة والسماحة في مواضعها من هذه الموسوعة.
(٥) الأحقاف/ ٣٥.
(٦) الأنعام/ ٩٠.
(٧) البقرة/ ١٥٣.
(٨) آل عمران/ ١٤٦.

كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ* «١» ، وأنه ستشمله رحمة الله تعالى فهو سبحانه: ... الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ «٢» ، ويقول سبحانه: سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً «٣» ، ويقول تعالى: فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً* إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً «٤» ، وأن من تمام رحمته سبحانه أن يكفر عنه بهذه البلايا ما سبق من سيئاته، فقد جاء في الحديث الشريف: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفّر الله بها من خطاياه» «٥» ، وليعلم أن جزاء الصبر هو الفوز برضوان الله تعالى والفوز بالجنة، كما قال تعالى:
إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِما صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفائِزُونَ «٦» .
٣- محاسبة للنفس تعقبها التوبة والاستغفار:
- الخطوة الثالثة: على المسلم إذا ابتلي بالضراء أن يتأمل حياته الحالية والماضية وينظر أيضا في نواياه المستقبلية، وأن يعلم أن ما أصابه من حسنة فمن الله تعالى وما أصابه من سيئة فمن نفسه، كما قال تعالى: ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ «٧» ، فإن وجد ذنوبا- وما أكثرها- فليبادر إلى محاسبة نفسه، وأن يتلمس عيوبه، لأن جهله بها من أكبر ذنوبه، والفاجر لا

يحاسب نفسه، أما المؤمن فذو نفس لوامة، تلوم على الشر، لم فعلته؟ وتلوم على الخير، لم لا تستكثر منه؟ «٨» ، ويترتب على ذلك اللجوء الفوري إلى التوبة النصوح، والتطهر من الذنوب، والإكثار من الاستغفار، فالتوبة تجعل التائب من أهل محبة الله- عز وجل-: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ «٩» . والاستغفار له أثره العظيم في جلب الرزق ودفع البلاء، يقول تعالى: فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً* يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً* وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً «١٠» . كما أن الاستغفار من موجبات رحمته تعالى، سبحانه هو القائل: لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ «١١» . وهو أيضا من مبعدات عذابه، أليس هو القائل: وَما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ «١٢» ، وهو أيضا من الوسائل الجالبة للخير العميم والمتاع الحسن خاصة عند اقترانه بالتوبة، يقول الله تبارك وتعالى: وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ «١٣» ، «١٤» ، ويقول عز من قائل: وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ* وَالَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ* أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ

---

(١) الأنعام/ ١٧.
(٢) الشورى/ ٢٨.
(٣) الطلاق/ ٧.
(٤) الشرح/ ٥- ٦.
(٥) انظر هذا الحديث في صفة الاحتساب، ج ٢، ص ٦٥، وقد خرّجناه هناك.
(٦) المؤمنون/ ١١١.
(٧) النساء/ ٧٩.
(٨) انظر في معنى اللوم، والنفس اللوامة تفسير ابن كثير ٤/ ٤٤٧- ٤٤٨.
(٩) البقرة/ ٢٢٢.
(١٠) نوح/ ١٠- ١٢.
(١١) النمل/ ٤٦.
(١٢) الأنفال/ ٣٣.
(١٣) هود/ ٣.
(١٤) انظر صفات: الاستغفار والتوبة ومحاسبة النفس والفوائد التي ترجع إلى الإنسان من التحلي بهذه الصفات.

خالِدِينَ فِيها وَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ «١» .

٤- الاستقامة والتقوى:

- الخطوة الرابعة: التزام الاستقامة والتقوى. أما الاستقامة فلأنها أقوى سبب للرقي الإيماني، وما انتشرت في قوم إلا صلح حالهم وزاد إقبالهم على الخير، والمستقيمون هم الذين وعدهم الله عز وجل بإذهاب الحزن وإبعاد الخوف عنهم في الدنيا والآخرة «٢» ، يقول الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ* نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ* نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ «٣» . ويطمئنهم الله بقوله: إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ «٤» .

أما التقوى فهي من مفاتيح السعادة لأنها تجعل المؤمن في معية الله تعالى وتجلب رحمته ورزقه، قال تعالى:
وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ «٥» ، كما أنها مفتاح للخروج من الأزمات ومجلبة للرزق، قال تعالى: وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ «٦» . وقبل ذلك وبعده، فالتوبة تجعل العبد من أهل محبة الله تعالى: فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ «٧» .
ويترتب على الالتزام بالاستقامة ومداومة الطاعة الورع والابتعاد عن مواطن الشبهات ورفقاء السوء من الفجّار والمنافقين وأهل الفسق والضلال، يقول الله تعالى: الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ «٨» .
ويقول الرسول صلّى الله عليه وسلّم: «الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل» «٩» .
٥- الدعاء والتضرع والتوكل على الله:
- الخطوة الخامسة: التوجه بالدعاء إلى الله- عز وجل- والتضرع إليه والاستغاثة به أن يكشف ما به من سوء، وأن يرزقه العافية، وذلك كما حدث من نبي الله أيوب- عليه السلام- ويستحب أن يتوسل إلى الله- عز وجل- بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، قال تعالى: وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها «١٠» ، كما يستحب أيضا أن يدعوه بصالح أعماله كما حدث من الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار فدعوا الله بصالح أعمالهم ففرج عنهم «١١» .
وبعد الدعاء، تأتي الاستعانة بالله تعالى والتوكل عليه، قال تعالى: وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ

---

(١) آل عمران/ ١٣٣- ١٣٦.
(٢) روح الدين الإسلامي (ص ٣٠٥) .
(٣) فصلت/ ٣٠- ٣٢.
(٤) الأحقاف/ ١٣.
(٥) الأعراف/ ١٥٦.
(٦) الطلاق/ ٢- ٣.
(٧) آل عمران/ ٧٦.
(٨) الزخرف/ ٦٧.
(٩) رواه أبو داود والترمذي، وقال: هذا حديث حسن غريب، انظر الحديث رقم ٢٤٨٤.
(١٠) الأعراف/ ١٨٠.
(١١) انظر تلك القصة في هذه الموسوعة، صفة التوسل، ومن الدلالات العظيمة لهذه القصة أن التوسل لا يكون إلا بصالح الأعمال، أما ما يفعله الجهال من التوسل بالأنبياء والأولياء والقبور ونحوها، فإن هذا لا يجدي نفعا، وإنما قد يوقع صاحبه في الشرك- أعاذنا الله من ذلك-، وانظر أيضا صفة التوكل.

لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً «١» ، فالشدة يعقبها الفرج، وإن مع العسر يسرا، يقول الشاعر:
ولرب نازلة يضيق بها الفتى ... ذرعا وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها ... فرجت وكنت أظنها لا تفرج
وبعد التوكل واعتقاد الفرج فلا بد من الأخذ بالأسباب التي تساعده في الخروج من أزمة الابتلاء، يقول ابن القيم: فالتوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب ويندفع بها المكروه، فمن أنكر الأسباب لم يستقم معه التوكل، ولكن من تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب وحدها، فالأسباب محل حكمة الله

وأمره ونهيه والتوكل متعلق بربوبيته وقضائه وقدره. قال تعالى: اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ «٢» ، وقال عز وجل: وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ «٣» ، وقد استغاث النبي صلّى الله عليه وسلّم والصحابة الكرام بربهم يوم بدر- ولنا في المصطفى صلّى الله عليه وسلّم الأسوة الحسنة- فاستجاب الله لهم «٤» ، وسجل القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى: إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ ... «٥» ، وقال عزّ من قائل: وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ «٦» .

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: حسبنا الله ونعم الوكيل. قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد صلّى الله عليه وسلّم حين قالوا: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزادَهُمْ إِيماناً وَقالُوا حَسْبُنَا ونعم الوكيل «٧» ، «٨» ، وعن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا» «٩» . والتوكل يجعل صاحبه من أهل محبة الله تعالى الذي يقول: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ «١٠» .

٦- التهيؤ النفسي لما بعد الابتلاء:

- الخطوة السادسة: إذا لم يجد المبتلى ذنبا في الحال- وهذا نادر- فليعلم أن هذا الابتلاء تمحيص له، وتدريب على تحمل المشاق التي تؤدي في النهاية إلى ابتلاء من نوع آخر هو الابتلاء بالسراء أو التمكين في الأرض وهذا معنى قول الشافعي- رحمه الله- إن أحدا لا يمكّن حتى يبتلى «١١» ، وذلك هو حال أولي العزم من الرسل

---

(١) الطلاق/ ٢- ٣.
(٢) الزمر/ ٦٢.
(٣) غافر/ ٦٠.
(٤) انظر صفات: الدعاء- الاستعانة- الاستغاثة- التوكل- الضراعة والتضرع، من هذه الموسوعة.
(٥) الأنفال/ ٩.
(٦) الأعراف/ ٥٦.
(٧) آل عمران/ ١٧٣.
(٨) البخاري- الفتح (٨/ ٤٥٦٣) .
(٩) رواه الترمذي (٢٣٢٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح.
(١٠) آل عمران/ ١٥٩.
(١١) انظر عبارة الشافعي التي وردت في سياق الإجابة عن سؤال: أيهما أفضل للمرء، الابتلاء أو التمكين؟ وقارن ب «الفوائد لابن القيم (٢٨٦) .

ومن اتبعهم من صالحي المؤمنين، ومما يقرّب هذه المسألة إلى الأذهان أننا نجد تقوية الجسم إنما تكون بممارسة الرياضات التي تستلزم مجهودا شاقّا، فكذلك تنمية القوة النفسية تستلزم التدريب على تحمل المشاق والابتلاءات، وكذلك قطف ثمار الزرع لا يتم إلا بعد بذل مجهود الحرث والزرع والسقاية.

ولذا كان على الإنسان أن يفوض أمره إلى ربه، وألا يقنط وييأس من رحمة الله، قال تعالى: وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ «١» ، والقنوط هو استبعاد الفرج واليأس منه، وهو يقابل الأمن من مكر الله، وكلا الأمرين ذنب عظيم، لما في القنوط من سوء الظن بالله، وسوء الظن مجلبة لغضب الله ولعنته، يقول الله تعالى: الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصِيراً «٢» ، وهو أيضا من أكبر الكبائر، فعن ابن عباس- رضي الله عنهما- أنه قال: إن رجلا قال: يا رسول الله، ما الكبائر؟ قال: «الشرك بالله، والإياس من روح الله، والقنوط من رحمة الله» «٣» . وقد نهانا الله عز وجل عن القنوط مهما كان إسرافنا على أنفسنا، يقول سبحانه: قُلْ

يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ* وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ* وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ* أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتي عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ* أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ* أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ «٤» .

٧- السكينة والطمأنينة:

- الخطوة السابعة: إذا تاب المسلم واستغفر ربه، وأقلع عن معصيته، ودعا الله بصالح أعماله، وتوكل على الله، وأخذ بالأسباب ولم ينكشف ما به، فعليه أن يعلم ويتيقن أن ذلك لحكمة اقتضاها المولى عز وجل لا يعرفها الآن، وكفاه في ذلك أن يعد في معية الله تعالى وأنه من أهل محبته «٥» ، ومن أظهر الأدلة على ذلك قصة الغلام الذي قتله الخضر عليه السلام بأمر من ربه- عز وجل- كي يقي والديه من الطغيان والكفر «٦» ولا شك أن الابتلاء بفقد الولد أخف كثيرا من الابتلاء بالكفر والطغيان، قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَكُفْراً «٧» :

أي يحملهما حبه على متابعته في الكفر، وقال قتادة: لو بقي لكان فيه هلاكهما، فليرض المرء بقضاء الله فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب «٨» . ومن ثم وجب عليه الرضا حتى ينجو بنفسه من سخط الله تعالى،

---

(١) الحجر/ ٥٦.

(٢) الفتح/ ٦.

(٣) ذكره الهيثمي في المجمع، وقال: رواه البزار والطبراني ورجاله موثقون (١/ ١٠٤) .

(٤) الزمر/ ٥٣- ٥٨.

(٥) انظر الخطوة الثالثة.

(٦) انظر هذه القصة القرآنية في سورة الكهف، الآيات (٧٤، ٧٥، ٨٠، ٨١) .

(٧) الكهف/ ٨٠.

(٨) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ١٠٤) .

ويترتب على هذا الرضا أن يقذف الله في قلبه السكينة والطمأنينة «١» . وربما كان ما تكرهه نفسه هو عين الكرامة في حقه وهو وسيلته المستقبلية للحصول على أعلى الدرجات، يقول الله تعالى:

وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ «٢» . ومن هنا تتجلى حكم التوكل والاحتساب والاستخارة «٣» .

في أمور العبد، فإن العبد قاصر عن إدراك ما ينفعه في دينه ودنياه ولذلك شرعت الاستخارة وتفويض الأمر إلى الله.

ثانيا: تعامل المسلم المبتلى بالسراء:

إذا ابتلى الله المسلم بالسراء وأنعم عليه بالصحة في بدنه، والسعة في رزقه، ومكّن له في الأرض، وأعطاه من الجاه أو العلم أو السلطان ما يسر به خاطره، فعليه أن يتصرف في هذا الموقف تبعا للخطوات الآتية:

١- الخطوة الأولى: اليقين الجازم بأن هذه الدنيا وما فيها عرض زائل،

وأن الرّجعى إلى الله- عز وجل- ومن ثم فلا ينبغي أن ينسيه هذا المال أو الجاه ذكر الله- عز وجل- وافتقاره إليه يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ «٤» ، وعليه أن يعلم بأن هذا اليقين هو أساس الإيمان الصادق، وأنه منه (أي اليقين من الإيمان) بمنزلة الروح من الجسد، وقد ورد في الأثر عن ابن مسعود- رضي الله عنه- أن اليقين هو الإيمان كله «٥» .

٢- الخطوة الثانية: أن يحمد الله سبحانه ويشكره على ما أنعم به عليه،

قال تعالى وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ «٦» ، وهذا الشكر ترجع فائدته للإنسان نفسه يقول الله سبحانه: وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ «٧» ، «٨» .
٣- الخطوة الثالثة: أداء حق الله تعالى في هذا المال،
ويتمثل ذلك في إخراج الزكاة، والصدقة والبر وبر الوالدين والإنفاق والإحسان إلى الفقراء والمساكين وتفريج الكربات، يقول الله تعالى: وَابْتَغِ فِيما آتاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ «٩» ، وفائدة هذا الإحسان إنما تعود للإنسان نفسه، مصداق ذلك قول الله تعالى:
إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها «١٠» ، وقد قرن الله- عز وجل- الإسلام بالإحسان، وجعلهما أفضل ما يتحلى به المسلم فقال عز من قائل: وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ «١١» ، وقال أيضا: وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى «١٢» ، «١٣» .
وقال عز وجل: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ «١٤» . وقد ورد في الحديث: «إن لله أقواما اختصهم بالنعم لمنافع عباده يقرها فيهم ما بذلوها، فإذا منعوها نزعها منهم فحولها إلى غيرهم» «١٥» .
(أخرجه الطبراني وابن أبي الدنيا) ، وعن ابن عباس مرفوعا: «ما من عبد أنعم الله عليه نعمة وأسبغها عليه ثم

---

(١) انظر صفات: الرضا والسكينة والطمأنينة.
(٢) البقرة/ ٢١٦.
(٣) انظر صفة التوكل والاحتساب والاستخارة والسخط.
(٤) فاطر/ ١٥.
(٥) انظر صفة اليقين، وخاصة الأثر رقم ٢ (ج ٨ ص ٣٧٢٨) .
(٦) إبراهيم/ ٧.
(٧) النمل/ ٤٠.
(٨) انظر صفات: الحمد، الشكر، الذكر.
(٩) القصص/ ٧٧.
(١٠) الإسراء/ ٧.
(١١) النساء/ ١٢٥.
(١٢) لقمان/ ٢٢.
(١٣) انظر صفات الزكاة والصدقة والإنفاق والبر وغيرها من صفات تنطوي تحت لواء الإحسان، وقد أوضحنا هناك أن الإحسان يشمل أمرين: العبادات والمعاملات، واللفظ على إطلاقه يحتمل الأمرين جميعا.
(١٤) النمل/ ٨٩.
(١٥) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٣٩١) ، وقال: أخرجه الطبراني وابن أبي الدنيا، ولقد قيل بتحسين سنده.

جعل حوائج الناس إليه فتبرم فقد عرض تلك النعم للزوال» «١» .
٤- الخطوة الرابعة: أن يلتزم بالطاعة والعبادة وإخلاص الوجه لله تعالى،
وسائر الأعمال الصالحة لقوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ «٢» ، وأن لا يأمن مكر الله لقوله تعالى:
أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ «٣» ، إن الأمن من مكر الله يدل على ضعف الإيمان فلا يبالي صاحبه بما ترك من الواجبات، وفعل من المحرمات، لعدم خوفه من الله بما فعل أو

ترك، وهذا من أعظم الذنوب، وأجمعها للعيوب، ومعنى الآية أن الله تبارك وتعالى لما ذكر حال أهل القرى المكذبين للرسل، بين أن الذي حملهم على ذلك هو الأمن من مكر الله وعدم الخوف منه، وذلك أنهم أمنوا مكر الله لما استدرجهم بالسراء والنعم فاستبعدوا أن يكون ذلك مكرا، قال الحسن: من وسع عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأي له، وقال قتادة: بغت القوم أمر الله ما أخذ قوم قط إلا عند سلوتهم وغرّتهم فلا تغترّوا بالله «٤» .

٥- الخطوة الخامسة: الابتعاد عن تلك الذنوب التي تسمى بالذنوب الملكية

من نحو الجبروت والتكبّر والعظمة والقهر والاستعلاء في الأرض، وذلك كما حدث من فرعون وغيره من الجبابرة الذين طغوا في الأرض وعتوا عن أمر ربهم، ويتبع ذلك البعد عن الغرور وحب الثناء واستعباد الخلق وظلمهم واحتقار الفقراء والسخرية منهم ونحو ذلك «٥» . وباختصار فإن عليه التخلي عن النظرة الفوقية واعتقاد أنه أعلى من الناس وأنهم دونه، وأن يتذكّر دائما أن فقير اليوم قد يصبح غني الغد وأن الأيام دولة بين الناس، مصداقا لقوله تعالى: وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ «٦» .

إن على الإنسان المبتلى بالسراء أن يتذكر قدرة الله عزّ وجلّ على تغيير الأحوال في لمح البصر، وأن يعي معنى قول الله تعالى: حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أَتاها أَمْرُنا لَيْلًا أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ «٧» ، فإذا لم يجد ذلك نفعا وأحس بطغيان المال فعليه أن يتذكر ضعفه وأنه يوما راجع إلى ربه، قال تعالى: كَلَّا إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى * إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى «٨» ، وعليه أن يعلم أن هذا الرزق إنما هو على حسب مشيئة الله تعالى وهو أعلم بأحوال عباده وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ «٩» ، وعلى صاحب المال ألا يبالغ في الفرح به، لأن ذلك الفرح يؤدي به إلى البطر والترف كما أنه يؤذي الفقراء والمحرومين ويؤدي بالإنسان إلى الاستهتار بالنعمة وترك الحيطة لصروف الزمان «١٠» ، أما الفرح الحقيقي فينبغي أن

---

(١) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٣٩١) ، وقال: رواه الطبراني بإسناد جيد.

(٢) البينة/ ٧.

(٣) الأعراف/ ٩٩.

(٤) التوحيد وقرة عيون الموحدين، ص ٣٧٤.

(٥) انظر في أنواع الذنوب، ومنها الذنوب الملكية، صفة العصيان (من هذه الموسوعة) .

(٦) آل عمران/ ١٤٠.

(٧) يونس/ ٢٤.

(٨) العلق/ ٦- ٨.

(٩) الشورى/ ٢٧.

(١٠) بتصرف يسير عن: روح الدين الإسلامي (١٧٢) .

يكون بفضل الله وبرحمته مصداقا لقوله تعالى قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ «١» ، وإذا تخلّى عن هذه الذنوب فليتحلّ بأضدادها من نحو الخشوع والخشية والخوف من الله تعالى والتواضع والرحمة «٢» ونحو ذلك.

٦- الخطوة السادسة: البعد عن التشبه بالشيطان بارتكاب الذنوب الشيطانية

«٣» ، كما في الحسد، والبغي، والغل، والخداع، والمكر، والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، والافتتان بالمال أو الجاه أو السلطان «٤» ، فهذه تؤدي إلى ذنوب الشح والبخل وحب التكاثر والجبن، ويتذكر قوله تعالى: أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ* حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ «٥» ، وعليه أن يتحلى بعكس ذلك من صفات

الحب والأمانة وسلامة الصدر والأمر بالمعروف ونحوها، كما يلزمه البعد عن سائر أنواع الذنوب الأخرى.
٧- الخطوة السابعة: على المسلم أن يتذكر دائما أن التوسعة في الرزق أو البسطة في العلم أو الجسم ليست إلا اختبارا له من مولاه
وليست بحال دليلا على إكرام الله- عز وجل- له، فقد نفى القرآن الكريم أن تكون كثرة المال أو الولد دليلا على رضى المولى تعالى، وإنما العمل الصالح هو الوسيلة الحقيقية للحصول على هذا الرضوان والقرب من الله- عز وجل- يقول سبحانه: وَما أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى «٦» ، وهي على العكس من ذلك فتنة واختبار ينجح فيه من ينجح ويفشل فيه من يفشل، يقول الله تعالى: وَاعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ
«٧» ، والحذر من الفتنة يقتضي الابتعاد عن الترف لأنه يضعف الإرادة الإنسانية ويجعلها شديدة الحرص على التقليد واستمرار ما هي فيه فلا تتطلع إلى آفاق جديدة لإصلاح المجتمعات التي تعيش بين ظهرانيها، كما أن الترف مدعاة للانزلاق في هاوية المنكرات وإلى الفخر والعجب والتكاثر ورفض الحق «٨» ، قال تعالى: وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ «٩»
.
لقد بلغ الصراع على المال أشدّه في هذا العصر، وصرف كثيرا من الناس عن ربهم وعن الأخذ بالقيم الأخلاقية النبيلة، وأدى إلى إثارة أغلب المشاكل التي يعانيها العالم اليوم وإن كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض، ولهذا توجهت تعاليم القرآن إلى التخفيف من شرور المال وتحذير الناس من الانقياد الكلي له كي لا يفتنهم عن دينهم ويلهيهم عن ذكر الله «١٠» ، قال سبحانه في وصف المؤمنين: رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقامِ الصَّلاةِ وَإِيتاءِ الزَّكاةِ يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصارُ «١١» . وعلى العكس من ذلك فقد أرشدهم

---

(١) يونس/ ٥٨.
(٢) انظر هذه الصفات في مظانها في الموسوعة.
(٣) انظر في هذه الذنوب الشيطانية: صفة العصيان (من هذه الموسوعة) ، وقارن بابن تيمية، كتاب الإيمان، ج ٥ (من الفتاوى) ص ٧٣.
(٤) انظر هذه الصفات في مظانها في الموسوعة.
(٥) التكاثر/ ١- ٢.
(٦) سبأ/ ٣٧.
(٧) الأنفال/ ٢٨.
(٨) سبأ/ ٣٤.
(٩) انظر روح الدين الإسلامي (١٦٨) .
(٩) سبأ/ ٣٤.
(١٠) انظر روح الدين الإسلامي (١٦٩) .
(١١) النور/ ٣٧.

إلى كيفية التصرف الصحيح في تلك الأموال بقوله: وَابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ «١» .
ثالثا: تعامل المسلم المبتلى بالمعاصي:
إذا ابتلي المسلم بارتكاب المعاصي أيّا كان نوعها «٢» ، فإن عليه القيام بالخطوات الآتية:
١- الحياء من الله عز وجل والعفة عن محارمه:

على المبتلى بالمعصية أن يتيقن بأن هذه الدنيا وما فيها من ملذات هي بالقطع إلى زوال. يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ «٣» .
وأن الإنسان لا ينفعه يوم القيامة سوى أن يأتي الله بقلب سليم، قال تعالى في وصف هذا اليوم: يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ* إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ «٤» ، ولا تتم سلامة القلب حتى يسلم من خمسة أشياء: من شرك يناقض التوحيد، وبدعة تخالف السنة، وشهوة تخالف الأمر، وغفلة تناقض الذكر، وهوى نفس يناقض التجرد من شهوات الدنيا، وهذه الخمسة حجب عن الله تعالى لا بد للمسلم من التخلص منها بالاستعانة بالله- عز وجل- «٥» .
٢- استحضار العقوبة (الخوف- الخشية- الرهبة) :
على العاصي أن يضع نصب عينيه أنه لن يفلت من العقاب، وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلًا ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ* أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ «٦» ، ويقول سبحانه: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ* وَخَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ
«٧» ، وأن هذا العقاب قد يعاجله في الدنيا فتكون معيشته ضنكا وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى «٨» ، ويرسل عليه أنواعا أخرى من الهموم والبلايا ما يجعله في نكد دائم وحزن مستمر، قال تعالى: كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ «٩» . إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذابُ الْحَرِيقِ «١٠» . وإذا أفلت العاصي من عقاب الدنيا فإن عذاب الآخرة أشق، قال تعالى: لَهُمْ عَذابٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ
«١١» .
وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى «١٢» . وقال عز من قائل: وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ «١٣» . وهذه تشمل الدور الثلاثة الدنيا والبرزخ والآخرة «١٤» .

---

(١) القصص/ ٧٧.
(٢) انظر أنواع المعاصي في صفة «العصيان» من هذه الموسوعة.
(٣) فاطر/ ٥.
(٤) الشعراء/ ٨٨- ٨٩.
(٥) الداء والدواء لابن القيم (٢١٩) .
(٦) ص/ ٢٧- ٢٨.
(٧) الجاثية/ ٢١- ٢٢.
(٨) طه/ ١٢٤.
(٩) الأعراف/ ١٦٣.
(١٠) البروج/ ١٠.
(١١) الرعد/ ٣٤.
(١٢) النازعات/ ٤٠- ٤١.
(١٣) الانفطار/ ١٤.
(١٤) الداء والدواء ص ٢١٨.

ولكي يدفع عن نفسه هذه العقوبة فليعلم أن المؤمن إذا فعل سيئة فإن عقوبتها تندفع عنه بعشرة أسباب:

(١) أن يتوب فيتوب الله عليه، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ «١» .
(٢) أن يستغفر فيغفر له.
(٣) أن يعمل حسنات تمحوها، فإن الحسنات يذهبن السيئات، وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذلِكَ ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ «٢» .
(٤) أن يدعو له إخوانه المؤمنون، ويستغفرون له حيّا أو ميّتا.
(٥) أن يهدوا له من ثواب أعمالهم ما ينفعه الله به.
(٦) أن يشفع له نبيه محمد صلّى الله عليه وسلّم.
(٧) أن يبتليه الله تعالى في الدنيا بمصائب تكفّر عنه.
(٨) أن يبتليه في البرزخ بالصعقة فيكفّر بها عنه.
(٩) أن يبتليه في عرصات القيامة من أهوالها بما يكفر به عنه.
(١٠) أن يرحمه أرحم الراحمين «٣» .

٣- الإقلاع الفوري:

الإقلاع الفوري عن الذنوب والمعاصي، ورد المظالم إلى أهلها، والاعتذار عن الإساءات والإهانات التي يكون قد آذى بها غيره، وأول ذلك اجتناب الكبائر، قال تعالى: إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيماً «٤» . وقال سبحانه: إِلَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صالِحاً فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً «٥» . والابتعاد عن أماكن وأسباب وقوعها وعوامل إثارتها كالصحبة السيئة، ولا يكون ذلك إلا بالورع «٦» والتقوى.

٤- الاستغفار والتوبة:

بعد الإقلاع عن المعاصي ورد المظالم والإهانات، يأتي الاستغفار والتوبة «٧» فهما الباب الذي لا يغلقه الله في وجه أحد ما لم يغرغر، فالله عز وجل يغفر الذنوب جميعا (عدا الشرك بالله) ، قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ* «٨» . وعليه أن يتحلّى بصفتي العفو والصفح لأن ذلك مجلبة لمغفرة الله تعالى مصداقا

(١) المائدة/ ٣٩.
(٢) هود/ ١١٤.
(٣) الفتاوى لابن تيمية ١٠/ ٤٥.
(٤) النساء/ ٣١.
(٥) الفرقان/ ٧٠.
(٦) الورع يعني اجتناب الشبهات خوفا من الوقوع في المحرمات، والتحرج عنها ولا يكون ذلك إلا بملازمة الأعمال الجميلة.
(٧) انظر صفتي التوبة والاستغفار.
(٨) النساء/ ٤٨.

لقوله تعالى: وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ «١» ، وعليه أيضا بالذكر فإنه من موجبات الرحمة وغفران الذنوب، قال تعالى: وَالَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ «٢» .

٥- الثقة برحمة الله تعالى وسعة عفوه:

لقد كتب الله على نفسه الرحمة بقوله تعالى: كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ «٣» ، وهو سبحانه يغفر الذنوب جميعا مصداق ذلك قوله تعالى: قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ «٤» ، وقال سبحانه: يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ

يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ «٥» . ويذكرنا ربنا بهذه الرحمة الواسعة في كل صلاة، بل في كل ركعة مرتين: الأولى في البسملة «٦» ، والثانية في قوله سبحانه: الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ «٧» .

٦- جهاد الشيطان واتخاذه عدوّا:

على المسلم بعد إقلاعه عن الذنب وتوبته واستغفاره أن يحصن مواقعه حتى لا يخترقها عدوه اللدود وهو الشيطان، قال تعالى: إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوًّا مُبِيناً «٨» .، وقال عز من قائل: إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا «٩» ، وقال سبحانه: أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ* وَأَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ «١٠» ، وعليه أن يعلم بأن هذا العدو اللعين يتخذ من الحيل والأساليب ما يجعله يرتدي ثياب الصديق، فيبذل الكثير من الوعود الكاذبة والأماني الخادعة، ويدعو أصحابه ليكونوا من أصحاب السعير، ثم لا يغني عنهم فتيلا عند ما يقضي الحق بين العباد، يقول الله تعالى: وَقالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ «١١» .

يقول ابن القيم- رحمه الله- علّم الله سبحانه عباده كيفية هذه الحرب وذلك الجهاد فجمعها لهم في أربع كلمات فقال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصابِرُوا وَرابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ «١٢» ، قال: والمرابطة هنا لزوم ثغر القلب وحراسته لئلا يدخل منه العدو، ولزوم ثغر العين والأذن واللسان والبطن واليد والرجل، وعلى المسلم ألّا يخلي هذه الثغور فيصادف الشيطان منها ثغرا خاليا فيدخل منه، وهؤلاء أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خير الخلق بعد النبيين والمرسلين وأعظمهم حماية وحراسة من الشيطان قد أخلوا المكان الذي أمروا بلزومه يوم أحد «١٣»

---

(١) النور/ ٢٢.

(٢) آل عمران/ ١٣٥.

(٣) الأنعام/ ٥٤.

(٤) الزمر/ ٥٣.

(٥) يوسف/ ٨٧.

(٦) ويكون ذلك أيضا في جميع سور القرآن.

(٧) الفاتحة/ ٣.

(٨) الإسراء/ ٥٣.

(٩) فاطر/ ٦.

(١٠) يس/ ٦٠- ٦١.

(١١) إبراهيم/ ٢٢.

(١٢) آل عمران/ ٢٠٠.

(١٣) يشير ابن القيم بذلك إلى موقف الرماة في غزوة أحد (انظر في ذلك قسم السيرة ص ٣٠٠) .

فدخل منه العدو وكان ما كان، وجماع هذه الثلاثة (الصبر والمصابرة والرباط) «١» هو تقوى الله عز وجل إذ لا ينفع شيء منها بدون التقوى، ولا تقوم التقوى إلّا على ساق الصبر «٢» .

ولا شك في أن الاستعاذة بالله عز وجل من هذا الشيطان هي من أقوى الأسلحة التي يحصن بها المسلم نفسه من هذا العدو لأن معناها الاعتصام بالله تعالى واللجوء إليه لدرء شر ذلك الشيطان الرجيم، قال تعالى:

وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ* وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ «٣» .

٧- جهاد النفس وتزكيتها:

اعلم أن النفس مجبولة على اتباع الشهوات ولا تزال على ذلك إلا أن يبهرها نور الإيمان، يقول الله تعالى في سورة يوسف عليه السلام وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا ما رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ «٤» .

فلا يزال المؤمن طول عمره في مجاهدة نفسه الأمارة بالسوء باستنزال نور رحمة الله، فكلما هاجت داعية نفسه إلى شهوات جسدية أو أهواء نفسية محرمة لجأ إلى الله وتذكر جلال الله وعظمته وما أعد للمطيعين من ثواب وللعصاة من عذاب فانقدح من قلبه وعقله خاطر يدمغ خاطر الباطل فيصير كأن لم يكن شيئا مذكورا. أما تزكية النفس فيعني التطهر من الأدناس والسمو عن النقائص، وهي بذلك تأخذ عند الله حظها من الرضوان وعند الناس حظها من الكرامة وقد وعد الله عز وجل بالفلاح من زكّى نفسه فقال: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها «٥» ، وقال عز من قائل: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى* وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى «٦» ، وقال جل من قائل: قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذلِكَ أَزْكى لَهُمْ «٧» ، وقال سبحانه: وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ما زَكى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً «٨» ، يقول ابن تيمية- رحمه الله تعالى-: جعل المولى سبحانه غض البصر وحفظ الفرج هو أزكى للنفس وبيّن أن ترك الفواحش من زكاة النفوس، وزكاة النفوس تتضمن زوال جميع الشرور من الفواحش والظلم والكذب ونحوها «٩» .

رابعا: تعامل المسلم المبتلى بالطاعات:

أصل الابتلاء بالطاعة هو تقلد الإنسان عهدة التكليف بالأمانة، يقول الله تعالى: إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا «١٠» . وبقبول هذه العهدة وحملها يتعرض الإنسان للثواب إن أطاع، وللعقاب إن عصى، وهذه سنة الله عز وجل في خلقه وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا* «١١» .

---

(١) انظر صفة الصبر والمصابرة، وكذلك صفة جهاد العدو في مظانهما في هذه الموسوعة.

(٢) الداء والدواء ص ١٧٩- ١٨٠ (باختصار وتصرف) ، وقد أفاض- رحمه الله في وصف المعركة بين الإنسان والشيطان وصوّر التقاء الجيشين وكشف عن كيفية تحصين ثغور العين والأذن واللسان.

(٣) المؤمنون/ ٩٧- ٩٨، وانظر صفات: الاستعاذة والفتنة والغي والإغواء.

(٤) يوسف/ ٥٣.

(٥) الشمس/ ٩.

(٦) الأعلى/ ١٤- ١٥.

(٧) النور/ ٣٠.

(٨) النور/ ٢١.

(٩) الفتاوى ١٠/ ١٩٩.

(١٠) الأحزاب/ ٧٢.

(١١) الأحزاب/ ٦٢.

قد يظن الطائع أنه بمنأى عن الاختبار أو الابتلاء الذي يتعرّض له غيره من العصاة، وهذا اعتقاد خاطىء لأن الإنسان كما أخبرنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد يعمل بعمل أهل الجنة حتى يكون ما بينه وبينها إلّا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها «١» ، وهنا أيضا نجد مجموعة من الخطوات لابد أن يتحلّى بها الطائعون من أهمها:

١- الخطوة الأولى: أن يعلم يقينا أن الطاعة هي من توفيق الله عز وجل وبمشيئته، ولو شاء سلبها منه، وعليه أن يردد دائما قول الله: وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا وَما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدانَا اللَّهُ «٢» .

٢- الخطوة الثانية: أن يتحلى بالخوف من الله عز وجل وأن يرجوه قبول طاعاته، فقد كان السلف رضوان الله عليهم- كما أخبر الحسن البصري- قد عملوا بالطاعات، واجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم، إن المؤمن جمع إيمانا وخشية، والمنافق جمع إساءة وأمنا «٣» .
٣- الخطوة الثالثة: ألّا يأمن الطائع مكر الله تعالى فينقلب بهذا الأمن من العصاة وهو لا يدري، وقد كان صلّى الله عليه وسلّم يكثر من الدعاء: «يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك» «٤» .
٤- الخطوة الرابعة: ألّا يمن بطاعته على الله تعالى، قال تعالى: يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ «٥» .
٥- الخطوة الخامسة: أن يحذر الوقوع في البدعة فيعبد الله بغير ما أمر أن يعبد به «٦» . (انظر صفة الابتداع) .
٦- الخطوة السادسة: أن ينأى عن التطرّف والتشدّد في أمر الدين فإنه لن يشاد الدين أحد إلّا غلبه «٧» .
(انظر صفتي الغلو والتعسير) .
٧- الخطوة السابعة: أن يعلم أن هناك عدوّا هو الشيطان يتربّص به الدوائر ويريد الإيقاع به، وأنه قد يدخل عليه من باب الطاعة فيجعله مغترّا بها، متكبرا على غيره من العصاة، جاعلا نفسه في مكانه فوقهم (انظر صفة الغي والإغواء) .
وبعد..
فهذه المحاولة المتواضعة للكشف عن علاقة الإنسان بهذه الحياة تقودنا إلى معرفة الطريق الصحيح للنجاح في الاختبارات التي نعايشها بصفة يومية ونتعرّض فيها لشتّى الابتلاءات، وقد تبيّن من خلال هذا الاستعراض أن التحلّي بخلق الرسول صلّى الله عليه وسلّم وقد كان خلقه كما وصفته أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- القرآن، حيث كانت حياته الكريمة وسيرته العطرة تجسيدا حيّا لما جاء به، وقد أمرنا الله عز وجل باتباعه فيما يأمر أو ينهى عنه: وَما

---

(١) انظر صفة الأمن من المكر وقد ذكرنا هذا الحديث وغيره هناك، فارجع إليه.
(٢) الأعراف/ ٤٣.
(٣) انظر الأثر رقم (١٠) في صفة الطاعة.
(٤) انظر صفة الأمن من المكر ج ٩، ص ٤٠٠ عمود ٢.
(٥) الحجرات/ ١٧.
(٦) انظر صفة الابتداع.
(٧) انظر صفة التعسير، وصفة الشدة.

آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا «١» . وإذا كنا نرجو الله واليوم والآخر فلنا فيه صلّى الله عليه وسلّم الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة، وقد تبيّن من خلال هذا العرض الموجز لدورة الحياة وعلاقة الإنسان بها أن هذه الدنيا ليست هي الغاية الحقيقية للمؤمن الحق، وإنما غايته العظمى في الدار الآخرة، قال الله تعالى: وَلَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ «٢» ، وفي الآخرة حيث مستقر الرحمة تجد المؤمن ذا وجه مشرق وضّاء تعلوه الفرحة ويملوه البشر وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ* ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ «٣» . هذه الوجوه لا تخفى على أحد لأنها مجللة بنضرة النعيم الذي أعده الله للأبرار، قال تعالى: إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ* عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ* تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ* يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ* خِتامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ «٤» .
ومن هنا فقد وفقنا الله عز وجل فأسمينا هذه الموسوعة (نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم) وفي هذا رجاء بشارة لمن يتبع الرسول الكريم ويتحلى بأخلاقه فهو الذي جاء ليزكينا ويعلمنا الكتاب والحكمة لنكون من أصحاب (نضرة النعيم) في الآخرة، أي أن المتمسك بالأخلاق

والآداب التي جاءت في موسوعة (نضرة النعيم) في الدنيا سيكون إن شاء الله تعالى من أصحاب (نضرة النعيم) في الآخرة، ليس هذا فحسب وإنما سيكون قريبا من الحبيب المصطفى صلّى الله عليه وسلّم ومن أحب الناس إليه، وقد جاء في الحديث الصحيح: «إنّ من أحبّكم إليّ وأقربكم منّي مجلسا يوم القيامة أحسنكم أخلاقا» «٥» .
وختاما فإنني أدعو الله عز وجل أن يبارك في هذه الموسوعة وأن يجعلها فاتحة خير لكل من يقرؤها وصلّ اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.
عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن ملّوح جدة- المملكة العربية السعودية في العشرين من شعبان سنة ١٤١٨ هـ الموافق ٢١ من ديسمبر سنة ١٩٩٧ م

---

(١) الحشر/ ٧.
(٢) النحل/ ٣٠.
(٣) عبس/ ٣٨- ٣٩.
(٤) المطففين/ ٢٢- ٢٦.
(٥) انظر صفة حسن الخلق، حديث رقم ٩، وقد خرّجناه هناك.
جـ ١(ص: ٥١)

الأخلاق والقيم التربوية في الإسلام

تقديم للأستاذ الدكتور علي خليل أبو العينين أستاذ أصول التربية الإسلامية ووكيل كلية التربية- جامعة الزقازيق- فرع بنها
أ- تمهيد:
الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد ...
فإن الله ميز الإنسان عن غيره من الكائنات التى تعيش معه بأنه كائن أخلاقى أي مدرك للقيم الخلقية، قادر على الإتيان بها وفعلها، قادر- بإذن الله- على بناء عالم داخلى له يسلك على مقتضاه بعلم واقتدار، ولعله لهذا السبب وضع فى مكانة سامية لم يصل ولا يصل إليها أى كائن آخر، فهذا الإدراك وهذا الفهم وهذا الوعي هو الذي أهّله لشغل تلك المكانة التي يتقلدها باقتدار، بل هو الحد الفاصل بينه وبين غيره.
وقد شاء الله تعالى أن تقوم حياة المجتمع الإنسانى على أساس معيارى، يعكس حياة معنوية يمثلها الأفراد، تتميز بالقوة والأصالة. تفسير ذلك أن المجتمع يتمثل ويتجسد من خلال نظام مكون من الأعضاء والوظائف، يميل إلى الاحتفاظ بذاته بعيدا عن العوامل الهادمة التى تهدده من الداخل أو من الخارج. ومن أجل ذلك يميل الأفراد فى اتصال مشاعرهم الفردية أن يكون هذا الاتصال تعبيرا عن روابط متقاربة تتيح الفرصة لاتصال جيد، وتؤكد مناخا جيدا لتواصل منتج، وبالتالى تتاح الفرصة لتلك المشاعر أن يؤثر بعضها فى البعض تأثيرا إيجابيا، ومن ثم تنبعث حياة نفسية من نوع آخر يختلف عن حياة الفرد بصورة خاصة.
والمجتمع الإنساني في عمومه «لا يتكون دون وجود هذا البناء المعياري، وهو بالإجمال أفكار تنطوي على صورة الحياة الاجتماعية، وتتضمن الملاحظات التي تتعلق بها، ويحمل البناء الخطوط الأساسية لتلك الحياة وتطورها» «١» . وهذا البناء المعياري هو قواعد للسلوك، هى بالأحرى مقاييس من خلالها يحكم على السلوك بأنه مقبول أو غير مقبول، وتشكل فى النهاية نوعا من التحديات الثقافية للسلوك المرغوب فيه، وتعطي الفرد كما تعطي المجتمع شكله وشخصيته وهويته، وهذا كله يضمه ويحتويه معنى القيم الخلقية.

وتعتبر الأخلاق صورة المجتمع، لأنها الضابط والمعيار والموقف الأساسي للسلوك الفردي والاجتماعي، أو القواعد الأساسية الممنوحة من الله للإنسان لتنظيم حياته، وهي تنتظم فيما يسمى بالبناء الخلقي أو النظام الخلقي

---

(١) محمد نور: الإنسان ومجتمعه- القاهرة- ١٩٨٤، ص ٢٦، ٢٧.

الذي يعكس أهداف المجتمع، ومصادر تكوينه وطبيعة بنائه.

والمجتمع الإسلامى له أخلاقه التى تضبط وتحدد السلوك، بمعنى أن له بناءه المعيارى، الذي نبع فى الأساس من المصدرين الأساسيين: القرآن والسنة المطهرة، فالقرآن بما أتى به من مكارم الأخلاق التي تجسدت فى شخص الرسول الكريم وترجمت فى أقواله وأفعاله هى المصدر الأساسى المعتمد للقيم فى المجتمع الإسلامي.

إلا أن هذا المجتمع يعيش- فى الأزمنة المعاصرة- مشكلات متراكمة مستعصية، أبرزها تردده بين قطبين، فهو ينجذب نحو حياة معاصرة بما فيها من إنجازات مادية وفكرية لابد أن يتعايش معها ويفهمها ويعيها من ناحية، وتشده ذات متأصلة أصيلة لا يمكنه الفكاك منها من ناحية أخرى، وقد سحبت هذه الإشكالية- بالذات- ظلالها على كافة مكونات حياة الإنسان المسلم المعاصر، بما فى ذلك عماد حياته وهو القيم الخلقية، حتى غدت الشغل الشاغل للمفكرين المسلمين، وكما عبر عن ذلك أحد مفكريها بقوله: «ولعل أكبر قضية تواجهنا هى انقطاع صلتنا بمصادرنا الحضارية التى نستمد منها كل عاداتنا وتقاليدنا، ومسلكنا الخاص والعام، فعلاقتنا بتراثنا علاقة تقليد سالب يتوارثه الخلف عن السلف، ولذا جمدت شخصيتنا، وجمد النظر إلى تراثنا الذى هو بمثابة السياج لتحركنا الفردى والجماعي، لأننا نتدراسه ولا نتأمله ولا نجيل فيه النظر، ولا نجرى فيه من التحوير والتطوير بما يتلاءم وتغير الأحوال والظروف، فظلّ حبيس الكتب فى معظم الأحوال، وحبيس الذاكرة فى بعضها لقرون طويلة» «١» .

إن الغزوة الاستعمارية أبدلت المثقفين ثقافة بثقافة، ولهذا ظل تراثنا بعيدا عن الحياة الفاعلة، وانقطعت عقول المفكرين عن التعامل معه وإخصابه بالتأمل والاجتهاد والتلاقح بتيارات الفكر المعاصر، وبالتالى فقدت كل المؤسسات الاجتماعية المنبثقة عنه حيويتها وانفعالها، وفعاليتها، وجفت صلتها بالحياة، ومن ثم أهملت لتحل محلها مؤسسات وأفكار أخرى كان من نتيجتها ازدواجية فى الحياة وفى الفكر انعكست آثارها على حياة المجتمع والأفراد» «٢» .

إن أبعاد هذه الإشكالية وآثارها واسعة عريضة، وفى مجال الأخلاق على وجه الخصوص، ولذا فإنه من الملح الآن وللمستقبل القريب والبعيد، وبعد معايشة التجارب، تلمس بناء تربويا يستند على أهداف قوية وصحيحة وسليمة، تستلهم قيم الأمة، القائمة على أصالة حقيقية تمتلك من مقومات الذات الأصيلة روحها فى غير انغلاق أو حرمان من إمكانيات العصر ومقوماته وثماره، ولا بد من إعادة القيم الخلقية الإسلامية إلى مكانها الصحيح، فى إطار التكامل بين الدين والدنيا، لتحقيق الوسطية التى هي حقيقة الإسلام، لأنه إذا انفصل الدين

---

(١) عون الشريف قاسم: الإسلام والثورة الحضارية، بيروت، دار القلم، ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م، ص ٢٦ (بتصرف) .

(٢) المرجع السابق: ص ٢٧.

عن الدنيا انشطرت الشخصية الفردية وتداعت علاقات المجتمع، وحدثت هزات وهزات فى المجتمع والفرد على السواء.

وإذا كان مفهوم الاستقلال الذاتى من المفاهيم القوية السائدة فى المجتمعات المعاصرة، إذ أصبح يؤكد فى كل مجالات النشاط الإنساني وحركته «على الخصائص الذاتية المميزة لشخصية المجتمع» مما يعني «تأكيد الهوية الثقافية» فإن الملاحظ أن المجتمع الإسلامي المعاصر يعانى من قصور فى تأكيد ذاته وهويته الثقافية، إلى جانب معاناته من قصور فى الوسائل الحضارية والمادية، ولعل هذا يعود فى معظمه إلى معاناته الحقيقية من تخلخل البناء المعياري القيمى، واهتزاز نسق القيم الخلقية، وبالتالى اختلال واضطراب فى الأهداف التربوية، التى تتأرجح بين مثالية ومادية، مثالية طموحة، وواقعية أو مادية مخلخلة مضطربة، وبتعبير أصح هو انفصام بين التصور والواقع المعاش، بين الغايات والوسائل.

ومما زاد فى تفاقم الأمر تعرض العالم المعاصر لموجة من الاهتزازات الخلقية المتناقضة، وتتمثل فى مظاهر متضاربة ومتناقضة من الممارسات وأنماط السلوك الفردية والسياسية، والاجتماعية. التى تسلب الأفراد والجماعات السعادة والأمن والأمان والاستقرار، بل تضعف العلاقات فى ميادين الحياة المختلفة، ولقد أعطت التسهيلات المادية التكنولوجية الحديثة هذه الهزات والفجوات صفة العالمية، ولم يعد بمقدور مجتمع ما إغلاق منافذه أمامها أو النجاة منها» «١» .

إزاء كل ما سبق، وفى سعي المجتمع الإسلامي في تعدده وتنوعه إلى تحقيق الذات، والبناء الذاتى المتميز القادر على العطاء والإبداع، وتأكيد الهوية والشخصية، فإنه يمكنه أن يؤكد ذلك من خلال أهم ما يميزه وهو القيم الإسلامية النابعة من المصادر الأصيلة، والعلاقات الإنسانية التى يحاول التمسك بها، وأهميتها لا تنكر للمجتمع وللتربية، إذ أن القيم والأخلاق أهم عناصر العملية الاجتماعية- التربوية-، ويلاحظ أن ظهور القيم- عند البعض- هو الحد الفاصل بين الذاتية والموضوعية، وبين الحقائق والأحكام، وبين ما هو كائن، وما يجب أن يكون، وبين الغايات والوسائل، وبين المعقول واللامعقول. ومع هذا فإن بعض علماء القرن الحالي (العشرين) لا يطمئنون إلى موضوع القيم، بل ظهرت محاولات لاجتثاث علم القيم من العلوم الموضوعية، بل من المفاهيم السلوكية لموضوع التعلم، ولاستبعاده من الأسس السلوكية والنفسية، ورغم هذا؛ فإنهم عند إصدار الأحكام يجعلون للقيم دورا أساسيا تؤديه، لأن عملية إصدار الأحكام تبنى على وزن الأفضليات، وعلى الموازنة بين المساوىء والمحاسن، وعلى اختيار النتائج المترتبة مستقبلا على الأحكام الحالية، فإذا لم تكن هناك قيم، أو إذا كانت

(١) ماجد عرسان الكيلاني: اتجاهات معاصرة في التربية الأخلاقية، عمان، دار البشير ١٩٩١ م، ص ٥ (بتصرف يسير) .

جـ ١(ص: ٥٤)

هناك قيم مهملة، فإنه لا يمكن التمعن فى الاختيار بين مساق ومساق، وبغير القيم تصبح الحياة مستحيلة «١» .

إزاء هذا- أيضا- لا بد أن ندرك أهمية وجود منظومة الأخلاق والقيم المتميزة بالتعدد والمرونة فى ظل التقدم العلمي والتقني، والذى غدا يمس كل مكون من مكونات الحياة الإنسانية ولم يستطع أن يحل مشكلات الإنسان المعاصر، فبالرغم من مساهماته، إلا أننا نرى اضطرابات ومؤثرات اجتماعية واقتصادية وسياسية، هذا إلى جانب تفاقم مشكلات العمل والصراع بين الفقراء والأغنياء من الدول، وتفاقم المنازعات الإقليمية، إلى جانب مشكلات أخرى تعمل كلها على تقويض حضارة العالم كله.

وامتد أثر ذلك كله إلى المجتمع الإسلامي فى تربيته وتعليمه، وعلى بناء الشخصية المتميزة فى هذا المجتمع، فخصائص المجتمع وأمراضه الخلقية تفرض مراجعة الذات ونقدها وتحليلها من أجل تأكيد القيم التى تعتبر الأساس السليم لبناء تربوى متميز، لأن التقدم الأعمى الذى لا يقوم على أساس قيمى لا بد أن يؤدى إلى تعريض الشخصية للضياع.

ويتأكد ذلك فى خضم نتائج التيارات الفكرية المتصارعة، ووسط ذلك الزخم الهائل المتراكم عن التربية الإسلامية، وعلى كافة الأصعدة الفكرية فى موجات البحث عن الذات، وعن الوعي بها، وإذا كان ثمة أفكار طرحت فى سبيل تربية الإنسان وبناء شخصيته، فإننا قد نجد منها الكثير مما يسير فى طريق أحادى التفسير، يرى فى التكوين الجزئي سبيلا إلى تكوين الشخصية الإنسانية، فى حين أن المفروض أن ينظر إلى الأمر بطريقة متكاملة، بحيث تصاغ تلك الشخصية المتكاملة، بطريقة متكاملة، لا اهتمام فيها بجزء من الشخصية لحساب جانب آخر.

ولتوضيح أهمية هذه الفكرة لعله من المهم استثارة مفهوم التربية ذاته، والمؤثرات التى تساعدها، فالتربية هي تعني: «مجموعة المؤثرات المعينة التى تمتد إلى إحداث تغيرات لدى الأفراد حتى يكتسبوا سمات الشخصية التى نتفق على اعتبار أنها قد تزودت بالخصائص التربوية، فالأمر المسلم به أن الفرد لكي يتسنى الحكم عليه بأنه قد تمت تربيته، فإن ذلك يعني أنه قد تعلم أن يصبح شخصا سويّا» «٢» .

ولذلك فإن هناك عددا من المؤشرات التي تصحب عملية التربية طبقا لهذا المفهوم وتتمثل فيما يلى:

١- مجموعة المعارف والمهارات والاتجاهات معبرا عنها فى أهداف سلوكية.

٢- مجموعة القيم والمثل العليا التي تنبني عليها وتتضمنها العملية التربوية.

---

(١) جيمس و. بوتكن، د. مهدى المنجدة، ومرسيا مالتزا: التعلم وتحديات المستقبل، إعداد وتقديم: عبد العزيز القوصي، القاهرة، المكتب المصري الحديث، ١٩٨١ م، ص ٨٩.

(٢) نبيه يس: أبعاد متطورة في الفكر التربوي، القاهرة، مكتبة الخانجي، د. ت، ص ١٨.

جـ ١(ص: ٥٥)

٣- مجموعة الطرق والأساليب المستعملة لإمداد المتعلم بالمجموعتين السابقتين «١» .

ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن الحياة الإسلامية ترتبط ارتباطا كليا بالقرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة فإن مصادر اشتقاق أى نظام ملائم وموافق للحياة الإسلامية إنما يكون من القرآن الكريم ومن السنة المطهرة، ومن ثم فإن اشتقاق النظام الخلقي فى الإسلام يكون هذان مرجعه، فالقرآن الكريم كتاب الإسلام الخالد المحفوظ بقدرة الله تعالى: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ وفيه شمول لكافة جوانب الحياة، محددة بصورة بليغة دقيقة.

ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ.

أما السّنّة، فهى ترجمة صادقة لحياة الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وليس هناك إنسان فى التاريخ البشري كله نقلت حياته بصورة تفصيلية مثلما نقلت حياة الرسول محمد صلّى الله عليه وسلّم، بل لقد اخترعت المناهج العلمية من أجل تنقيح وتحقيق وتمحيص السنة والسيرة، ولقد كان ذلك، لأن الرسول صلّى الله عليه وسلّم هو القدوة للبشرية كلها، ولأننا مطالبون بأن نقتدي بسيرته صلّى الله عليه وسلّم قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ (آل عمران/ ٣١) .

ومن ثم كان التوجه إليهما لاكتشاف النظام الخلقي ومكارم أخلاق الرسول صلّى الله عليه وسلّم استرشادا بها لصياغة تربية خلقية رشيدة، والهدف من وراء ذلك:

١- إبراز دور القيم الخلقية الإسلامية فى صياغة الحياة الإسلامية وأهدافها، وفى إصدار الأحكام وتحديد الأفضليات، والتمييز بين المزايا والمساوىء، واختيار النتائج المترتبة على الأحكام، فالبحث فى هذا المجال يعني تأكيد الاختيار، لأنه بغير تلك القيم الخلقية يصبح الاختيار فى مجال الأهداف والبرامج أمرا غير ممكن وغير واضح.

٢- إبراز فعاليات منظومة الأخلاق الإسلامية فى ظل التقدم العلمي والتقني المعاصر، وما صحبه من اضطرابات ومؤثرات تمس كل مكونات الحياة الإنسانية، حتى غدت مشكلة الأخلاق هى المشكلة المتفاقمة فى المجتمع الإنسانى كله.

٣- إبراز فعاليات دور منظومة الأخلاق الإسلامية فى مجال التربية بالذات، ترشيدا للجهد، وتأكيدا لدورها فى إعطاء شخصية المجتمع الإسلامي والفرد المسلم الملامح المتميزة عبر الأصالة.

٤- الإسهام فى طرح أوسع لقضية الأخلاق الإسلامية، فالدراسات فى هذا المجال بالرغم من تعددها إلا أنها لم تزل قاصرة عن الإحاطة والشمول المطلوبين.
٥- الإسهام فى صياغة أهداف الحياة الإسلامية، عن طريق إبراز القيم الخلقية الإسلامية، وهو أمر يحتمه

---

(١) محمد الهادي عفيفي: الأصول الفلسفية للتربية، القاهرة، الأنجلو المصرية، ١٩٧٢، ص ٢٧٩.
جـ ١(ص: ٥٦)

الواقع وتفرضه الضرورة فهو إسهام فى إعادة الوعي بالذات الإسلامية، فى مجال التربية، والدعوة، والتربية الأسرية، وما إلى ذلك.
وينطلق البحث فى مجال الأخلاق الإسلامية من عدة اعتبارات مهمة، تأتى كمنطلقات مبدئية يدور البحث فى إطارها، وهي:
١- أن الإسلام منهج حياة، وهو ليس مجرد قواعد تعرف بأنها الإسلام، وليس مجموعة من المبادىء الأساسية التى تنطوى عليها هذه القواعد، إنه منهج حياة، حدد حركة المجتمع الإسلامى، وأوجد قواعد السلوك الفردي والاجتماعي ومعاييره، وذلك لضمان توجه الحركة نحو تحقيق أهداف الإسلام فى الحياة، وغايته فى إسعاد الناس أفرادا وجماعات فى الدنيا والآخرة، ومن ثم أتت جميع نظمه وقواعده ومعاييره وتصوراته وأخلاقياته وافية بحاجات الناس من جميع نواحيها.
٢- أن الإسلام لا يعي مجرد الصلة بين الإنسان وربه فقط، وإنما هو توجيه شامل لحياة البشر، بما جاء فى القرآن الكريم والسنة المطهرة، وما صح من اجتهاد فى ضوئهما، ومعنى هذا شمولية أنظمته، وعدم اقتصارها على تحديد صلة الإنسان بربه فى وصفها التقليدي، بل فى وصف مبتكر، إذ أن تلك التصرفات تصب فى النهاية فى هذه العلاقة، ومن ثم ضمنت حسن التوجه.
٣- أن مجال القيم الخلقية الإسلامية كما أتى فى المصادر الأساسية واسع فسيح، يمتد ليشمل ما يمكن أن يواجه حياة الإنسان من تغيرات فى إطار الثوابت، مما يعنى استيعابه كل ما يستجد فى حياة الناس ما لم يتعارض مع أصل من الأصول التي أتت فى شكل قيم إلزامية، وأوامر تكليفية.
٤- أن القيم الخلقية الإسلامية هي المعبر الحقيقي عن ثقافة المجتمع الإسلامي، وهى فى حقيقتها قيم داعية إلى التقدم والتفتح والإبداع والابتكار ولا تقف ضدها بل هي التقدم ذاته.
٥- أن البحث الأخلاقي ينطلق من مقولات أساسية تتمثل فيما يلي:
أ- هذه الأخلاق ربانية المصدر ولأنها كذلك فهي تربي الإنسان على أفضل وجه وأحسنه يقول الله تعالى:
يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً (النساء/ ١٧٤) .
ب- أن التمسك بأهداب هذه التربية الأخلاقية كما جاءت في القرآن الكريم والسنة المطهرة يقدم حلولا جذرية للمشاكل التي يعاني منها العالم المعاصر، لأن ذلك الحل الإسلامي في المجال الأخلاقي يشمل المجتمع الإنساني كله وما ذاك إلا لأن قاعدته متكاملة وشاملة، أي أن تفاصيل التربية الإسلامية تشمل الإنسان في كل ظروفه وفي جميع حالاته، وتتصل بجميع أنواع علاقاته، سواء مع الله- عز وجل- أو مع النفس أو مع الآخرين،
جـ ١(ص: ٥٧)

هذه التربية تعد الإنسان للحياة كما تعده للموت، وتربط بينه وبين محيطه المادي والمعنوي، وهذا الترابط ينتج عنه تكامل وتفاعل بين عناصر الوجود، وهو سر من أعظم أسرار الخليقة مكن التربية القرآنية من أن تتميز بالاستمرارية والعمومية لكل الناس في كل زمان ومكان.

ج- التربية الإسلامية تهتم بالفرد كما تهتم بالمجتمع وتوازن بين احتياجات الدنيا واحتياجات الآخرة وبين القوة والرحمة، يقول الله تعالى: وَابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (القصص/ ٧٧) .

٦- أن تنمية هذه الأخلاقيات منوط بالعملية التربوية ووظيفتها فى الوجود الاجتماعي، وذلك لا يكون إلا بالنظر إلى حركتها ككل مترابط شامل، فى علاقاتها المتشابكة بكل مكونات المجتمع، وبكل مكونات الحياة الفردية، ويعنى هذا أن القيم الخلقية الإسلامية تلعب الدور الأكبر فى تحديد دور التربية ووظيفتها، لأنها تتخلل كل مكونات المجتمع الإسلامي.

٧- ترتبط القيم والأخلاق الإسلامية بالجزاءات الدنيوية والأخروية ولذا كان الوعد والوعيد والترغيب والترهيب وكان لها هدف أسمى وراء الالتزام (بعد الاختبار) القائم على وعي كامل لما جاء به الشرع وأمر بالالتزام به وذلك الهدف هو إرضاء الله تعالى ويأتي الجزاء بعد ذلك والذي لا يحرم منه الملتزم العابد «١» .

ومن أجل بلوغ هذا الهدف التربوي لا بد أن يكون ما تصبو إليه ممكنا وهذا هو ما أثبته رسولنا الكريم صلّى الله عليه وسلّم بالفعل وبرهان ذلك أن الخلق النبوي الكريم ظل قائما مئات السنين وكان سيظل أسوة حسنة لقوله تعالى: لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (الأحزاب/ ٢١) .

إن السبيل إلى الوصول إلى هذا الهدف السامي موضح بجلاء في كتاب الله تعالى بقوله تعالى: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (آل عمران/ ٣١) .

وبهذا الجهد نتوجه إلى العالم الإسلامي بكافة فئاته وطوائفه، ذلك المجتمع المتطلع إلى التقدم الحضاري والدور المتميز فى العطاء الحضاري، والهداية الإنسانية، وعلى وجه الخصوص تلك الفئات التي تتعامل بطريقة مباشرة فى مجال بناء الإنسان، أعز ما يملكه هذا المجتمع، ومنهم:

١- المعلمون والمربون، الذين يشكلون القدوة لأبنائنا فى المدارس عبر مساحات العالم الإسلامي، ولهم تأثير واسع وكبير فى بناء شخصيات هؤلاء الأبناء.

---

(١) انظر في ذلك خصائص القيم الإسلامية ص ٨١ وما بعدها.

٢- الإعلاميون، والذين لهم دور بارز وخطير في التعليم والتربية، وفي مجال التأثير المباشر وغير المباشر عبر وسائل الاتصال الحديثة والمتنوعة، والتي جعلت من العالم كله قرية صغيرة.

٣- الدعاة وتأثيرهم الخطير فى مجال الاتصال بالجماهير، والذين يعتبرهم الناس أهل علم الإسلام، والقدوة الاجتماعية، ويزداد هذا العمل أهمية بالنسبة لهم فيما يواجه المجتمع الإسلامي من تحديات.

٤- أولياء الأمور: خاصة فى العصر الذي نعيشه الذى يتسم بسرعة التغيير وسرعة الاتصال، وما يشوب وسائل الاتصال والتربية من شوائب، تتطلب من أولياء الأمور وعيا راشدا، وهذا ما تحاول أن تفعله الموسوعة.

وسوف نلقي الضوء في الفصول التالية على ما يلي:

أولا: مفهوم الأخلاق.. أصالتها في الفكر الإسلامي.. وظائفها.

ثانيا: الأخلاق الإسلامية.. طبيعتها.. مصادرها.. أركانها.

ثالثا: المنهج الإسلامي في تنمية القيم الخلقية.

رابعا: وسائل تنمية الأخلاق الإسلامية.

خامسا: وسائط تنمية الأخلاق.

الفصل الأول مفهوم الأخلاق.. أصالتها في الفكر الإسلامي.. وظائفها

ما الأخلاق؟
لكلمة «الأخلاق» وكلمة «خلقي» تأثير خاص، كان مدعاة للاختلاف حول تحديد هذا اللفظ، ومن ثمّ تعددت الآراء حول تحديد معنى الأخلاق لغة واصطلاحا على النحو الذي نوضحه فيما يلي:-
الأخلاق لغة:
الأخلاق في اللغة جمع خلق، والخلق اسم لسجية الإنسان وطبيعته التي خلق عليها، وهو مأخوذ من مادة (خ ل ق) التي تدل على تقدير الشيء. يقول ابن فارس: ومن هذا المعنى (أي تقدير الشيء) الخلق، وهو السّجية لأن صاحبه قد قدّر عليه، يقال: فلان خليق بكذا (أي قادر عليه وجدير به) ، وأخلق بكذا أي ما أخلقه، والمعنى هو ممن يقدّر فيه ذلك، والخلاق: النصيب لأنه قد قدّر لكل أحد نصيبه «١» .
وقال الراغب: الخلق والخلق (والخلق) في الأصل واحد لكن خصّ الخلق بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخص الخلق بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة «٢» . قال تعالى: وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (القلم/ ٤) ، الخلق العظيم هنا هو- كما يقول الطبري- الأدب العظيم، وذلك أدب القرآن الذي أدبه الله به وهو الإسلام وشرائعه، وقد روى هذا المعنى عن ابن عباس- رضي الله عنهما- في قوله: لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ المعنى: على دين عظيم وهو الإسلام. وعن مجاهد في قوله: خُلُقٍ عَظِيمٍ قال: الدين. وعن عائشة- رضي الله عنها- عند ما سئلت عن خلق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قالت: «كان خلقه القرآن» . قال قتادة: تقول: كما هو في القرآن «٣» .
وذكر القرطبي أن المراد بالخلق العظيم أدب القرآن، وقيل: هو رفقه بأمته وإكرامه إياهم، وقيل المراد: إنك على طبع كريم «٤» ، وقال أيضا: حقيقة الخلق في اللغة هو ما يأخذ به الإنسان نفسه من الأدب لأنه يصير كالخلقة فيه، وأما ما طبع عليه الإنسان من الأدب فهو الخيم أي السّجية والطبع، وعلى ذلك يكون الخلق: الطبع المتكلف، والخيم الطبع الغريزي، وقد ذكر الأعشى ذلك في شعره فقال:
وإذا ذو الفضول ضنّ على المو ... لى وعادت لخيمها الأخلاق
أي رجعت الأخلاق إلى طبيعتها «٥» . وقد رجح القرطبي تفسير عائشة- رضي الله عنها- للخلق العظيم

---

(١) مقاييس اللغة لابن فارس ٢/ ٢١٤.
(٢) المفردات للراغب ص ١٥٨.
(٣) انظر هذه الآثار (وغيرها مما لا يخرج عنها) في تفسير الطبري، مجلد ١٢، جزء ٢٨، ص ١٣ (ط. الريان) .
(٤) تفسير القرطبي ١٨/ ٢٢٧.
(٥) المرجع السابق نفسه، الصفحة نفسها.

بأنه القرآن «١» ، وسمي خلقه عظيما لأنه لم تكن له صلّى الله عليه وسلّم همة سوى الله تعالى، وقيل: لاجتماع مكارم الأخلاق فيه، وقيل: لأنه امتثل تأديب الله إيّاه «٢» . وقال الماوردي في الخلق العظيم ثلاثة أوجه: أحدها: أدب القرآن، الثاني: دين الإسلام، الثالث: الطبع الكريم وهو الظاهر.
قال: وحقيقة الخلق ما يأخذ به الإنسان نفسه من الآداب، سمي بذلك لأنه يصير كالخلقة فيه «٣» .

والخلاق: ما اكتسبه الإنسان من الفضيلة بخلقه «٤» . قال تعالى: ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ (البقرة/ ١٠٢) ، الخلاق قيل: النصيب، وقيل: الدين، وقيل: القوام، وقيل: الخلاص، وقيل: القدر «٥» ، والأول قول مجاهد.
قال القرطبي: وكذلك هو عند أهل اللغة إلّا أنه لا يكاد يستعمل إلّا للنصيب من الخير «٦» . والخليقة: الطبيعة، وجمعها خلائق، قال لبيد:
واقنع بما قسم المليك فإنّما ... قسم الخلائق بيننا علّامها
والخلقة (بالكسر) الفطرة، يقال: خلق فلان لذلك، كأنه ممن يقدّر فيه ذلك وترى فيه مخائله. والخلق والخلق: السّجية، وفلان يتخلق بغير خلقه أي يتكلفه، قال الشاعر (سالم بن وابصة) :
يا أيّها المتحلّي غير شيمته ... إنّ التّخلّق يأتي دونه الخلق «٧» .
وقال ابن منظور: الخلق هو الدين والطبع والسجية، وحقيقته أن صورة الإنسان الباطنة وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها، ولهما (أي للصورتين) أوصاف حسنة وقبيحة، والثواب والعقاب يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلّقان بأوصاف الصورة الظاهرة، ولهذا تكررت الأحاديث في مدح حسن الخلق «٨» ، أما قول الله تعالى: إِنْ هذا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (الشعراء/ ١٣٧) . فالخلق قيل: هو شيمة الأولين، وقيل: عادة الأولين، أما قراءة خلق (بفتح الخاء وسكون اللام) ، فالمراد به الافتراء والكذب «٩» ، أي أنه في معنى الاختلاق وقال صاحب «التحرير والتنوير» في تفسير هذه الآية: الخلق السجية المتمكنة في النفس باعثة على عمل يناسبها من خير أو شر، وتشمل طبائع الخير وطبائع الشر ولذلك لا

(١) انظر حديث عائشة- رضي الله عنها- في صفة حسن الخلق (حديث رقم ٥) .
(٢) تفسير القرطبي ١٨/ ٢٢٨.
(٣) تفسير الماوردي (النكت والعيون) ٦/ ٦١- ٦٢.
(٤) مفردات الراغب ١٥٨.
(٥) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ١/ ٥٠٣.
(٦) تفسير القرطبي ٢/ ٥٦.
(٧) الصحاح ٤/ ٤٧١.
(٨) لسان العرب ١٠/ ٨٦ (ط. بيروت) ، وانظر هذه الأحاديث في صفة حسن الخلق.
(٩) لسان العرب ١٠/ ٨٨ (ط. بيروت) .

يعرف أحد النوعين من اللفظ إلّا بقيد يضم إليه، فيقال: خلق حسن، وفي ضده خلق قبيح، فإذا أطلق عن التقييد انصرف إلى الخلق الحسن «١» .
وقال الفيروزابادي: اعلم أن الدّين كله خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين، وهو يقوم على أربعة أركان: الصبر والعفة والشجاعة والعدل، وذكر أن كل واحد من هذه الأربعة يؤدي إلى غيره من المكارم ويحمل عليه، فالصبر (مثلا) يحمل على الاحتمال وكظم الغيظ وإماطة الأذى والأناة والرفق وعدم الطيش والعجلة.. وقال أيضا: والتوسط منشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة «٢» .
الأخلاق اصطلاحا:
لكي نوضح مفهوم الأخلاق الإسلامية، لابد من التعرّف أولا على المفهوم الاصطلاحي للفظي الخلق والأخلاق كما فهمه العلماء المسلمون، وسنحاول الكشف عن ذلك في الفقرات التالية:
يذهب الجاحظ (ت: ٢٥٥ هـ) إلى «أن الخلق هو حال النفس، بها يفعل الإنسان أفعاله بلا روية ولا اختيار، والخلق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعا، وفي بعضهم لا يكون إلّا بالرياضة والاجتهاد، كالسخاء قد يوجد في كثير من الناس من غير رياضة ولا تعمل، وكالشجاعة والحلم والعفة والعدل وغير ذلك من الأخلاق المحمودة» «٣» .

وكثير من الناس يوجد فيهم ذلك، فمنهم من يصير إليه بالرياضة ومنهم من يبقى على عادته، ويجري على سيرته.
ويعرّف ابن مسكويه (ت: ٤٢١ هـ) الأخلاق بأنها «٤» «حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية، وهذه الحال تنقسم إلى قسمين: منها ما يكون طبيعيّا من أصل المزاج، كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو غضب ويهيج من أقل سبب، وكالإنسان الذي يجبن من أيسر شيء، أو كالذي يفزع من أدنى صوت يطرق سمعه، أو يرتاع من خبر يسمعه، وكالذي يضحك ضحكا مفرطا من أدنى شيء يعجبه، وكالذي يغتم ويحزن من أيسر شيء يناله. ومنها ما يكون مستفادا بالعادة والتدرّب، وربما كان مبدؤه بالروية والفكر، ثم يستمر أولا فأولا حتى يصير ملكة وخلقا» .
أما الماوردي (ت: ٤٥٠ هـ) فقال: الأخلاق «غرائز كامنة، تظهر بالاختيار، وتقهر بالاضطرار» «٥»
.

---

(١) تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٩/ ١٧١- ١٧٢.
(٢) بصائر ذوي التمييز ٢/ ٥٦٨.
(٣) الجاحظ: تهذيب الأخلاق، دار الصحابة للتراث، ط ١، ١٤١٠ هـ- ١٩٨٩ م، ص ١٢.
(٤) ابن مسكويه: تهذيب الأخلاق لابن مسكويه في التربية، دار الكتب العربية، بيروت، ط ٢، ١٤٠١ هـ- ١٩٨١ م، ص ٤، ٥.
(٥) أبو الحسن البصري الماوردي: تسهيل النظر وتعجيل الظفر (تحقيق د. محيي هلال السرحان) ، بيروت، ١٩٨٣ م، ص ٥.

وقال الجرجاني: «الخلق عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كان الصادر عنها الأفعال الحسنة كانت الهيئة خلقا حسنا، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة سمّيت الهيئة التي هي مصدر ذلك خلقا سيئا، وإنما قلنا إنه هيئة راسخة لأن من يصدر منه بذل المال على الندور بحالة عارضة لا يقال خلقه السخاء ما لم يثبت ذلك في نفسه» «١» .
مفهوم الأخلاق عند ابن تيمية:
ومفهوم الأخلاق عند ابن تيمية مرتبط بمفهوم الإيمان، وما ينبثق عنه حيث إنه يقوم على عدة عناصر هي:
١- الإيمان بالله وحده خالقا، ورازقا بيده الملك (توحيد الربوبية) .
٢- معرفة الله سبحانه وتعالى، معرفة تقوم على أنه وحده- سبحانه- المستحق للعبادة (توحيد الألوهية)
.
٣- حبّ الله سبحانه وتعالى حبّا يستولي على مشاعر الإنسان، بحيث لا يكون ثمة محبوب مراد سواه سبحانه.
٤- وهذا الحب، يسلتزم أن يتجه الإنسان المسلم نحو هدف واحد هو تحقيق رضا الله سبحانه، والالتزام بتحقيق هذا الرضا في كل صغيرة وكبيرة من شئون الحياة.
٥- وهذا الاتجاه يستلزم من الإنسان سموّا عن الأنانية وعن الأهواء، وعن المآرب الدّنيا، الأمر الذي يتيح له تحقيق الرؤية الموضوعية والمباشرة لحقائق الأشياء، أو الاقتراب منها، وهذه شروط جوهرية في الحكم الخلقي.
٦- وعندما تتحقق الرؤية المباشرة والموضوعية للأشياء والحقائق، يكون السلوك والعمل خلقا من الدرجة الأولى.
٧- وعندما يكون العمل خلقا من الدرجة الأولى، نكون ماضين في طريق تحقيق، أو بلوغ الكمال الإنساني «٢» .

وهذا المنهج الذي سلكه ابن تيمية في تحديد مفهوم الأخلاق الإسلامية يعتبر جديدا، كما اتضح ذلك من دراسة «النظرية الخلقية عند ابن تيمية» ،.
إن ابن تيمية كان أوفى، وأكمل، وأكثر نضجا ممن سبقه من علماء المسلمين أو غيرهم في هذا المضمار، وذلك لأن التصور النظري للأخلاق لدى هؤلاء العلماء والفلاسفة جميعا، فيه من الثغرات وعليه من المآخذ ما يجعل من هذا التصور فكرة ناقصة، بل عاجزة عن تحقيق الكمال الإنساني، وفي التصور الإسلامي للأخلاق لدى ابن تيمية نرى الارتباط الوثيق بين مفهوم الأخلاق، ومفهوم الإيمان الذي حدّده الإسلام، وما ينبثق عنه من نظام في العبادة، يكمن في التصور الخلقي الصحيح، ففي الإيمان وطرائقه، وآفاقه تستطيع النفس الإنسانية أن تجد

---

(١) التعريفات للجرجاني، ص ١٠٤.
(٢) محمد عبد الله عفيفي، النظرية الخلقية عند ابن تيمية، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ط ١، ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٨ م، ص ٥٨- ٥٩.
جـ ١(ص: ٦٣)

حاجتها المادية والروحية معا، وليس ثمة طريق يبلغ بالإنسان إلى كماله المنشود، وصلاحه المرجو، وبالتالي سعادته المأمولة، غير طريق الإيمان.
ابن القيم ومفهوم الأخلاق:
لم يضع ابن القيم تحديدا أو تعريفا حدّيا للأخلاق وإنما عرّفها بالمثال، وقسمها إلى قسمين هما:
الأول: الأخلاق المذمومة.
الثاني: الأخلاق الفاضلة.
وأرجع كلا القسمين إلى أصوله فقال: أصل الأخلاق المذمومة كلها الكبر والمهانة والدناءة، وأصل الأخلاق المحمودة كلها الخشوع وعلو الهمة «١» ، ثم أشار- رحمه الله تعالى- إلى أن للأخلاق حدودا «٢» متى جاوزتها صارت عدوانا، ومتى قصرت عنها كانت نقصا ومهانة.
وعلى سبيل المثال فللشجاعة حد إذا جاوزته صارت تهورا، ومتى نقصت عنه صارت جبنا وخورا.
وقد اقتفى ابن القيم أثر شيخه ابن تيمية في الربط بين الإيمان والأخلاق وأشار إلى أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قد جمع بين تقوى الله وحسن الخلق، وفسّر ذلك بقوله «لأنّ تقوى الله تصلح ما بين العبد وبين ربه، وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه، فتقوى الله توجب له محبة الله، وحسن الخلق يدعو الناس إلى محبته» «٣» .
تعريفات الأخلاق عند المحدثين:
تعرف الأخلاق عند المحدثين بأنها «تصور وتقييم ما ينبغي أن يكون عليه السلوك متمشية في ذلك مع مثل أعلى أو مبدأ أساسي تخضع له التصرفات الإنسانية ويكون مؤازرا للجانب الخيّر في الطبيعة البشرية» «٤» .
ويرى عبد الودود مكروم أن الأخلاق هي «مجموعة القواعد السلوكية التي تحدد السلوك الإنساني وتنظمه، وينبغي أن يحتذيها الإنسان فكرا وسلوكا في مواجهة المشكلات الاجتماعية والمواقف الخلقية المختلفة، والتي تبرز المغزى الاجتماعي لسلوكه بما يتفق وطبيعة الآداب والقيم الإجتماعية السائدة» «٥» .
ويذهب عبد الرحمن الميداني: إلى أن الخلق «صفة مستقرة في النفس فطرية أو مكتسبة ذات آثار في السلوك محمودة أو مذمومة» ، «فالخلق منه ما هو محمود، ومنه ما هو مذموم، والإسلام يدعو إلى محمود الأخلاق، وينهى

---

(١) ابن قيم الجوزية، الفوائد، ص ١٩٧، ومعنى التعريف بالمثال أنه أشار إلى نوعي الأخلاق المحمودة والمذمومة، وكأنه قال: الأخلاق المحمودة ما كان مثل الخشوع، والأخلاق المذمومة ما كان مثل الكبر.
(٢) المرجع السابق نفسه، ص ١٩٢- ١٩٣.
(٣) المرجع السابق نفسه، ص ٧٤- ٧٥.
(٤) حسن الشرقاوي: نحو الثقافة الإسلامية، ج ١، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٩ م، ص ٢٣٨.
(٥) عبد الودود مكروم: «دراسة لبعض المشكلات التي تعوق الوظيفة الخلقية للمدرسة الثانوية» رسالة ما جستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة المنصورة، ١٩٨٣ م، ص ٢٢.

عن مذمومها» .
ويفسر رؤيته وتعريفه بقوله: «وتستطيع أن تقيس مستوى الخلق النفسي عن طريق قياس آثاره في سلوك الإنسان: فالصفة الخلقية المستقرة في النفس إذا كانت حميدة كانت آثارها حميدة، وإذا كانت ذميمة كانت آثارها ذميمة، وعلى قدر قيمة الخلق في النفس تكون- بحسب العادة- آثاره في السلوك، إلّا أن توجد أسباب معوقة أو صوارف صادرة عن ظهور آثار الخلق في السلوك» .
ويفرّق بين الصفات الخلقية والغرائز، فيقول: «وليست كل الصفات المستقرة في النفس من قبيل الأخلاق، بل منها غرائز ودوافع لا صلة لها بالخلق، ولكن الذي يفصل الأخلاق ويميزها عن جنس هذه الصفات كون آثارها في السلوك قابلة للحمد أو للذم، فبذلك يتميّز الخلق عن الغريزة ذات المطالب المكافئة لحاجات الإنسان الفطرية» .
ويقول: «إن الغريزة المعتدلة ذات آثار في السلوك، إلّا أن هذه الآثار ليست مما يحمد الإنسان أو يذم في باب السلوك الأخلاقي، ولكن الشره الزائد عن حاجات الغريزة العضوية أمر مذموم، لأنه أثر لخلق في النفس مذموم، هو الطمع المفرط، وعكس ذلك أثر لخلق في النفس محمود هو القناعة. وهكذا سائر الغرائز والدوافع النفسية التي لا تدخل في باب الأخلاق، إنما يميزها عن الأخلاق كون آثارها في السلوك أمورا طبيعية ليست مما تحمد إرادة الإنسان عليه أو تذم» «١» .
نخلص مما سبق إلى عدة أمور:
١- أن مبحث الأخلاق من المباحث العلمية الهامة والعظيمة التي اهتم بها العلماء المسلمون على اختلاف تخصصاتهم العلمية وما يزال هذا البحث من أهم المباحث على المستوى الفكري الإسلامي وغير الإسلامي مع اختلاف في الفهم.
٢- أن فهم الخلق بمقتضى اللغة، والتحديدات التي اصطلح عليها العلماء لا يخرج عن المعاني التالية:
- السجية أي الطبيعة المتمكنة في النفس سواء كانت حسنة أو قبيحة.
- العادة والطبيعة، والدين والمروءة.
- ملكة تصدر الأفعال بها عن النفس بسهولة من غير تفكير ولا روية وتكلف.
- صفة مستقرة في النفس ذات آثار في سلوك الفرد والمجتمع قد تكون محمودة أو مذمومة.
٣- أن الأخلاق تعكس مجموعة من التصورات الأساسية التي يعتنقها الناس، ويصوغون حولها

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: الأخلاق الإسلامية وأسسها، الطبعة الأولى، دمشق، دار القلم، ١٣٩٩ هـ- ١٩٧٩ م، ج ١، ص ٧- ٨.

منظومات أخلاقية، نابعة من نفس التصورات تشكل الممارسات الخلقية.
٤- أن الأخلاق تعتمد على:
- النظرة الإنسانية بإمكانياتها، وهو ما يسمّى عند البعض بالنور الفطري.

- الوحي السماوي ومحدداته الخلقية، وهو هنا الإسلام (قرآنا وسنة) . وباجتماع الأمرين ينتج الخلق الإسلامي الرفيع، ذلك أن الناس محتاجون على وجه التحديد إلى قاعدة صالحة للتطبيق على نظرته. ولهداية ضمائرهم، ولا أحد يعرف جوهر النفس، وشريعة سعادتها وكمالها، مع الصلاحية الكاملة، والبصيرة النافذة، غير خالق وجودها ذاته: أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (الملك/ ١٤) «١» .

٥- أن الأخلاق الإسلامية التزام بما ورد في القرآن والسنة من إلزامات وتوجيهات إلهية تقتضي رفعة الإنسان والسمو به إلى آفاق علوية، وتحقيق إنسانية الإنسان بما هو على فطرته.

٦- ويستلزم الالتزام الخلقي من الإنسان:

- معرفة فطرية بالمبادىء الخلقية الأساسية، والتصورات المنبثقة عنها.
- المعرفة العملية للأحكام الخلقية، والأدوار والمهارات اللازمة للحياة في المجتمع.
- الوعي الخلقي ليفكر الإنسان ويحكم بشكل خلقي ويتصرف طبقا لهذا الحكم.
- الخبرة الموجبة للالتزام بالأحكام الأخلاقية التي تسهل السلوك الخلقي وترغّب فيه.

وبهذه الأمور الأربعة يمكن أن يشكل خلق الإنسان تشكيلا جيدا.

٧- أن الأخلاق لا يمكن أن تكون نتاج عقل، فالعقل يستطيع أن يختبر العلاقات بين الأشياء ويحددها، ولكنه لا يستطيع أن يصدر حكما قيميّا عند ما تكون القضية قضية استحسان أو استهجان أخلاقي، ذلك أن التحليل العقلي للأخلاق يختزلها، إلى طبيعة، وأنانية وتضخيم للذات، ويكتشف العقل في الطبيعة مبدأ السببية العامة الكلية والقدرة، وفي الإنسان الغرائز، التي تؤكد عبودية الإنسان وانعدام حريّته. إن محاولة إقامة الأخلاق على أساس عقلاني لا يستطيع أن يتحرك أبعد مما يسمّى بالأخلاق الاجتماعية أو قواعد السلوك اللازمة
للمحافظة على جماعة معيّنة، وهي في واقع الأمر نوع من النظام الاجتماعي «٢» .

ويؤكد هذه الفكرة الشيخ محمد عبد الله دراز، بقوله: «فإذا ما قيل لنا إننا نحن الذين نشرع لأنفسنا، بوصفنا

---

(١) محمد عبد الله دراز: دستور الأخلاق في القرآن الكريم، ترجمة عبد الصبور شاهين، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٣٩٣ هـ- ١٩٧٣ م، ص ٣٣- ٣٤.

(٢) علي عزت بيجوفيتش: الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة محمد يوسف عدس، ط ١، الكويت، مجلة النور، مؤسسة بافاريا للنشر والإعلان والخدمات، ١٤١٤ هـ- ١٩٩٤ م، ص ١٨٦.

جـ ١(ص: ٦٦)

أعضاء في عالم عقلي، وجب علينا أن نتفق على ذلك الاستقلال الذي خص به العقل» .

ماذا تعني في الواقع هذه المقولة: «العقل يمنح نفسه قانونه» ؟ هل هو مبدع العقل والقانون، أو أنه يتلقاه معدّا، على أنه جزء من كيانه كما يفرضه على الإرادة.

ذلك لأنه إذا كان العقل مبدع القانون فإنه سوف يصبح السيد المطلق فيبقي عليه أو يبطله تبعا لمشيئته، فإذا لم يستطع ذلك فلأنه قانون سبق في وضعه وجود العقل، وأن صانع العقل قد طبعه فيه، كفكرة فطرية، لا يمكن الفكاك منها «١» .

أما علم الأخلاق فله تعريفات عديدة من أهمها:

١- علم الأخلاق هو جملة القواعد والأسس التي يعرف بواسطتها الإنسان معيار الخير في سلوك ما «أو مدى الفساد والشر المتمثل في سلوك آخر. والأخلاق كعلم معياري يكون وفق هذا المفهوم علما خاصّا بالإنسان دون باقي المخلوقات وهو يشكل منهاجه السلوكي القائم على مجموعة من المبادىء والقيم التي تحكم قناعات الفرد» «٢» .

٢- علم الأخلاق هو علم تحديد معايير وقواعد السلوك أو هي علم التعرف على الحقوق والواجبات» «٣» .

أما وجهة نظر القدماء فيمثلها التعريف التالي: الأخلاق «علم يعرف به حال النفس من حيث ماهيتها وطبيعتها وعلة وجودها وفائدتها وما هي وظيفتها التي تؤديها وما الفائدة من وجودها، ويبحث عن سجاياها وأميالها وما ينقلها بسبب التعاليم عن الحالة الفطرية، وذكر أن هذا أول علم تأسس منذ بدء الخليقة» «٤» .

الأخلاق الإسلامية:

إن الأخلاق الإسلامية هي السلوك من أجل الحياة الخيرة وطريقة للتعامل الإنساني، حيث يكون السلوك بمقتضاها له مضمون إنساني ويستهدف غايات خيرة.

وقد عرف بعض الباحثين الأخلاق في نظر الإسلام بأنها عبارة عن «مجموعة المبادىء والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني التي يحددها الوحي لتنظيم حياة الإنسان وتحديد علاقته بغيره على نحو يحقق الغاية من وجوده في هذا العالم على أكمل وجه» «٥» .

ويتضح من هذا التعريف أن الأخلاق في نظر الإسلام هي جمع شامل في منظور متكامل بين مصدرها

---

(١) محمد عبد الله دراز، دستور الأخلاق في القرآن، ص ٣٥.

(٢) أسعد الحمراني، الأخلاق في الإسلام والفلسفة القديمة، ص ١٥.

(٣) نقل أسعد الحمراني في المرجع السابق هذا التعريف عن معجم لاروس الصادر في باريس، ١٩٣١ م.

(٤) تهذيب الأخلاق لابن مسكويه، ص (ز) .

(٥) مقداد يالجين: التربية الأخلاقية الإسلامية، رسالة دكتوراه منشورة، ط ١، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٧٧، ص ٧٥.

وطبيعتها ومغزاها الاجتماعي وغايتها.

وللنظام الأخلاقي في الإسلام طابعان مميزان «١» :

الأول: طابع إلهي من حيث أنه مراد لله، إذ أنه يجب أن يتبع الإنسان في هذه الحياة رغبة الله في خلقه، ولذلك جاء الوحي بصورة هذا النظام.

الثاني: طابع إنساني من حيث إن هذا النظام عام في بعض نواحيه يتضمن المبادىء العامة، وللإنسان دوره في تحديد واجباته الخاصة والتعرف على طبيعة مظاهر السلوك الإنساني المعبرة عن القيم. لذا تعد الأخلاق روح الإسلام، حيث يقول الرسول صلّى الله عليه وسلّم «البر حسن الخلق» «٢» .

أصالة الفكر الأخلاقي عند المسلمين:

من الناس من يظن- وبعض الظن إثم- أنه لا يوجد فكر أخلاقي عند المسلمين، ومنهم من يجعل الفكر الفلسفي شاملا للفكر الأخلاقي في التراث الإسلامي، ومنهم من ينظر إلى الفكر الصوفي على أنه الفكر الأخلاقي المعتمد للمسلمين.

إن هذه الأطروحات المختلفة لا تلبث أن تتهاوى أمام حقيقة ناصعة البياض، وهي أن الفكر الأخلاقي قد وجدت أسبابه ودواعيه منذ تلك اللحظة التي أمر فيها الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم ب «مكارم الأخلاق» «٣» ، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه قد تقرر عند العلماء أنه لا يوجد فكر ديني دون أن يكون هناك فكر أخلاقي انطلاقا من أن الفكر الديني هو الذي يحدد الإطار العام لأفكار معتنقيه، ويجيب عن التساؤلات الإنسانية الكبرى مثل خلق الإنسان والتدبر في نعم الله وآلائه، أما الفكر الخلقي فإنه يحدد أنماط السلوك التي يمارسها الإنسان في هذه الحياة، ومن المعروف أن الإسلام عقيدة وشريعة؛ فالعقيدة تتضمن الفكر والشريعة تتضمن أنماط السلوك تجاه المولى- عز وجل- كما في العبادات، أو تجاه النفس كما في العفة والطهر ونحوها، أو تجاه الآخرين كما في البر والصدقة والإيثار ونحو ذلك.

لقد وجد الفكر الأخلاقي عند المسلمين طريقة للتأثير على الفكر الأخلاقي على المستوى العالمي بوجه عام والفكر الغربي بوجه خاص، ولا يزال هذا الفكر مسيطرا على سلوك المسلمين في الحاضر، ويعمل على صياغة حياتهم في المستقبل، ولم يكن الأمر كذلك إلا لكون هذا الفكر الإسلامي فكرا كونيا يعالج قضايا الحياة الإنسانية من منظور يسمو على النواحي القومية والعرقية والإقليمية، وما ذلك إلّا «لأن الإسلام الذي ينبعث منه هذا الفكر هو دين كوني وشمولي من ناحية، ولأن ممارسة هذا التفكير في ظل الإسلام، وانطلاقا من القيم والثوابت

---

(١) مقداد يالجين: التربية الأخلاقية الإسلامية، رسالة دكتوراه منشورة، ط ١، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٧٧، ص ٧٥، ٧٦.
(٢) صحيح مسلم (١٦/ ١١٠) .
(٣) انظر صفة حسن الخلق، حديث رقم (٨) .

الإسلامية تجعل هذا الفكر بالفعل فكرا عالميا أو إنسانيا، يؤمن به من يؤمن على هذا الأساس، أو ينكره على هذا الأساس» «١» ، من ناحية أخرى.
تطور الفكر الأخلاقي وثراؤه عند المسلمين:
إن أهم ما يميز هذا الفكر ويؤكد أصالته هو هذا التنوع الهائل، وذلك الكم الضخم من المؤلفات التي أسهم بها العلماء المسلمون في المجال الأخلاقي، وقد كانت هذه الجهود المباركة- شأنها شأن أي جهد علمي خلّاق- قد بدأت صغيرة ثم كبرت، مختلطة بغيرها في البداية ثم استقلت.
لقد أرسى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة المفاهيم والقيم اللازمة لإقامة حياة سعيدة على الأرض، مع ضمان الجزاء الأوفى في الآخرة، وقد تفاعل الفكر الإنساني مع هذه المبادىء والقيم، سواء أكانت حضارية أو عقدية أو أخلاقية أو اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية، وحاول التعامل معها، فقد دفع القرآن الكريم إلى الناس والعالم أجمع نظرة جديدة في الكون والحياة والمجتمع، وكانت هذه الجدة متمثلة في الوسطية والحيوية والحركة والتكامل.
وتطور الفكر الإسلامي كوحدة متكاملة بعد استقرار المقومات الأساسية باكتمال نزول القرآن وانتقال الرسول محمد صلّى الله عليه وسلّم إلى الرفيق الأعلى، ومن ثم ظهرت علوم كثيرة، في العقائد، والأحكام، واللغة، والأدب، والنحو والصرف، والاشتقاق والمعاني والبديع، والبيان، والحديث والتفسير، والأصول، والعلوم التجريبية. ولعل أبرز إنجاز في هذا المجال، والذي استطاع الفكر الإسلامي أن يبحث به كل هذه العلوم هو المنهج: منهج البحث، والذي استنبط من تعليمات القرآن، في دعوتها الإنسان للعلم واستخدام العقل: دعوتها الإنسان إلى تخليص النفس من أثر كل رأي وعقيدة سابقة، ثم البحث والملاحظة والنظر والموازنة والاستنباط، كل ذلك في إطار حرية العقل والفكر، فلم يترك القرآن وسيلة تهدف إلى تحرير الفكر إلا دعا إليها، ليقيم الإيمان والتدين على أساس راسخ من الفكر الدقيق واليقين المستوعب.
على هذه الأسس انطلق الفكر الإسلامي منتجا ومستوعبا ومواجها ومتحديا في كافة المجالات، وكانت حصيلة ضخمة خلّفها الفكر الإسلامي، وهي تبدو الآن ذخيرة حية، يمكنها أن تمد الحياة المعاصرة وحضارتنا بقوى روحية وعقلية كبيرة، ونحن نقف إزاءها موقف الإكبار والإعجاب.
وسوف نعرض في الفقر التالية لأهم الأعمال والمؤلفات الأخلاقية التي أسهم بها العلماء المسلمون في مجالي القيم والأخلاق الإسلامية، مما يؤدي إلى البرهنة على أن الفكر الإسلامي فكر أصيل، وأنه قد تطور تطورا طبيعيا، وأنه أسهم في مجال الفكر الخلقي على المستوى العالمي.

---

(١) محمد الكتاني، جدل العقل والنقل في مناهج التفكير الإسلامي ص ١٣.

الاهتمامات المبكرة:
ظهرت الاهتمامات المبكرة بالفكر الأخلاقي منذ عهد الصحابة- رضوان الله عليهم- والتابعين- رحمهم الله تعالى- في شكل وصايا ونصائح، أو في شكل تفسير الآيات المتعلقة بالأخلاق في القرآن الكريم.
وفي القرن الثاني الهجري بدأت الأعمال العلمية المنظمة في مجال العلوم الفقهية التي تضمنت إشارات واضحة إلى المجال الأخلاقي، وقد تمثلت هذه الجهود في أعمال المجتهدين الكبار من أمثال الإمام أبي حنيفة النعمان (ت ١٥٠ هـ) ، والإمام مالك بن أنس (ت ١٧٩) ، والإمام الشافعي (ت ٢٠٤ هـ) ، والإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١) ، وقد كان هؤلاء بذواتهم قدوة، وكان ما توصلوا إليه من أحكام شكلا من أشكال الحكم الخلقي الذي ينظم حياة الناس طبقا لاجتهادات شرعية على كافة مستويات الحياة من فردية وأسرية واجتماعية، وقد كانت اجتهادات هؤلاء الأئمة مصابيح أضاءت الطريق في المجتمع الإسلامي في إطار معياري أخلاقي سليم «١» .
وفي القرن الثالث الهجري ظهرت بواكير الأعمال العلمية التي خصصها مؤلفوها للحديث عن موضوعات أخلاقية، وهنا يبرز «الجاحظ» كرائد من رواد التأليف في هذا المجال، ومن مؤلفاته البارزة «تهذيب الأخلاق» .. ورسالة في كتمان السر وحفظ اللسان، ورسالة في النبل والتنبل وذم الكبر، ورسالة في المودة والخلطة وأخرى في الجد والهزل «٢» ، هذا بالإضافة إلى ما تضمنته كتاباته الأخرى مثل «البيان والتبيين» و «البخلاء» و «الحيوان» إذ تضمنت العديد من الوصايا الخلقية التي برزت في شكل أدبي جذاب.
وفي نفس الفترة (تقريبا) ظهرت الموسوعات الأدبية والتاريخية التي ضمنها مؤلفوها أبوابا في الأخلاق، من ذلك ما كتبه ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) عن الطبائع والأخلاق في موسوعة «عيون الأخبار» ، وقد تتابع تأليف هذه الموسوعات في القرون التالية «٣» .
مدرسة النظر العقلي:
لقد بدأ بزوغ هذه المدرسة في الفكر الفلسفي عامة والأخلاقي خاصة منذ منتصف القرن الثالث الهجري، وقد كانت إسهامات هؤلاء ذات قيمة عالية في المجال الأخلاقي وكان دورهم واضحا في أمرين:

---

(١) انظر في ذلك على سبيل المثال: ناجي الصاعدي، المضامين التربوية لفكر الإمام أبي حنيفة (رسالة ماجستير في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ١٤٠٨ هـ) ص ١٦٦ وما بعدها. وانظر أيضا: فاطمة محمد السيد علي، الفكر التربوي عند الإمام الشافعي (رسالة ماجستير، كلية التربية بالمنوفية ١٤٠١ هـ) ص ١٥١- ١٦١.
(٢) انظر رسائل الجاحظ التي حققها ونشرها عبد السلام هارون، القاهرة، د. ت.
(٣) انظر على سبيل المثال: العقد الفريد لابن عبدربه (ت: ٣٢٨ هـ) ، ومحاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢ هـ) ، وربيع الأبرار للزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ) .

الأول: أنهم استوعبوا الثقافة اليونانية وعدلوا فيها وأضافوا إليها كثيرا من الفكر الأخلاقي عند المسلمين.
الآخر: أنهم حفظوا هذه الثقافة من الضياع ثم أعطوها للعالم مرة أخرى بعد تجريدها من النزعات الوثنية اليونانية، ويذكر في هذا الإطار:
- يعقوب بن إسحاق الكندي (ت ٢٦٠ هـ) ، وله في الأخلاق «القول في النفس» .
- أبو بكر الرازي (ت ٣١٣ هـ) وله في المجال الأخلاقي كتاب «الفقراء والمساكين» .

- الحكيم الترمذي (ت ٣٢٠ هـ) وكان عالما بالحديث وأصول الفقه، ومن مؤلفاته في الأخلاق «كتاب الذوق» ويتضمن الفرق بين المداراة والمداهنة، والمحاجة والمجادلة والانتصار والانتقام، وله أيضا «الرياضة وأدب النفس» وكتاب المناهي، وغيرها.
- أبو نصر الفارابي (ت ٣٣٩ هـ) (محمد بن أحمد) ويعرف بالمعلم الثاني، ومن مؤلفاته في الأخلاق «آراء أهل المدينة الفاضلة» ، «الآداب الملوكية» .
- ابن مسكويه (ت ٤٢١ هـ) ، ومن أشهر مؤلفاته في الأخلاق، كتاب «تهذيب الأخلاق» في التربية.
- ابن سينا (ت ٤٢٨ هـ) ، قال عنه الإمام ابن تيمية: تكلم في أشياء من الإلهيات والنبوات والميعاد والشرائع لم يتكلم بها سلفه ولا وصلت إليها عقولهم، ولا بلغتها علومهم، وأنه استفادها من المسلمين «١» ، ومن مصنفاته في الأخلاق «رسالة في الحكمة» ، «كتاب الطير» في الفلسفة، «أسرار الصلاة» ، «الانصاف» في الحكمة «٢» .
- ابن باجة الأندلسي (ت ٥٣٣ هـ) المعروف بابن الصائغ، وقد شرح كتب أرسطو، وله كتب عديدة منها:
«اتصال العقل» ، «كتاب النفس» .
- ابن الطفيل (محمد بن عبد الملك) ، وهو صاحب قصة «حي بن يقظان» وله في المجال الأخلاقي رسالة «في النفس» .
- ابن رشد (ت ٥٩٥ هـ) ومن كتبه في الأخلاق: «فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال» ، وقد ترجمت كتبه إلى اللاتينية والعبرية والإسبانية «٣» .
إن هؤلاء جميعا وإن تأثروا بالفلسفة اليونانية، إلّا أنهم لم يقتصروا عليها، وإنما أضافوا إليها ونقوها من شوائبها، ثم أخذها عنهم الأوروبيون منذ مستهل عصر نهضتهم.

(١) انظر كلام ابن تيمية في كتاب «الأعلام» لخير الدين الزركلي، ج ٢ ص ٢٤١.
(٢) المرجع السابق نفسه، والصفحة نفسها.
(٣) راجع في جهود هؤلاء ومصنفاتهم، كتاب «الأعلام» للزركلي، وقارن بالمراجع العديدة المذكورة فيه، وقد رتبت أسماؤهم في الأعلام ترتيبا أبجديّا.

المدرسة الإسلامية الخالصة:
يقصد بالمدرسة الإسلامية الخالصة في المجال الأخلاقي ما أبدعته عقلية الفقهاء والمحدثين والزهاد في مجال التربية والسلوك اللذين يستمدان أصولهما من قواعد الشريعة الإسلامية ويستلهمان مبادئهما من الكتاب والسنة وغيرهما من المصادر الإسلامية الخالصة مثل الإجماع والقياس «١» ، وهذه المؤلفات وإن لم تغرق في المباحث النظرية المجردة إلا أنها أسهمت بنصيب وافر في مجال السلوكيات والأخلاق العملية، وسنعرض- بإيجاز- لأهم علماء هذه المدرسة وأبرز مؤلفاتهم في المجال الأخلاقي.
١- ابن المبارك (ت ١٨١ هـ) وله كتاب الزهد، وهو كتاب مليء بالتوجيهات الخلقية، وأدلتها من القرآن والسنة وأقوال التابعين خاصة الزهاد منهم.
٢- وكيع بن الجراح (ت ١٩٧ هـ) ، وله أيضا كتاب «الزهد» وقد رتبه على الأبواب، وضمنه أحاديث الزهد والرقائق والأدب والأخلاق.
٣- الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ) وله كتابا: «الزهد» و «الورع» وقد سلك فيه مسلك ابن المبارك.
٤- هنّاد بن السّري (ت ٢٤٣ هـ) وله أيضا كتاب الزهد وقد تلمذ على الإمام وكيع بن الجراح وتأثر به.
وقد تناولت هذه المصنفات في «الزهد» الحث على مكارم الأخلاق والزهد في الدنيا والتطلع إلى ثواب الله في الآخرة، ومادتها تتكون من القرآن الكريم والحديث الشريف وآثار السلف الصالح «٢» .

٥- أبو عبد الله المحاسبي (ت ٢٤٣ هـ) ، وكانت جهوده في المجال الأخلاقي متنوعة، فكتب في الوصايا، وآداب النفس، ورسالة المسترشدين والرعاية لحقوق الله، والتوبة، وقد تضمنت هذه المؤلفات نقودا لاذعة للسلوكيات الشائنة في عصره، ودعوة للرجوع إلى الكتاب والسنة.
٦- الإمام البخاري (ت ٢٥٦ هـ) ، وهو صاحب الجامع الصحيح (صحيح البخاري) ، وله في الأخلاق «كتاب الأدب المفرد» ، تعرض فيه لجمع الأحاديث المتعلقة بالآداب والأخلاق، ويعد هذا الكتاب من أسبق ما ألفه علماء الحديث في المجال التربوي والأخلاق الإسلامية.
٧- ابن أبي الدنيا (ت ٢٨١ هـ) ويعد من أبرز المؤلفين في الأخلاق والتربية الإسلامية، وقد تبحر أيضا في علوم الحديث، ومن أهم مصنفاته في التربية والأخلاق: «الإخلاص» ، «الأمر بالمعروف» ، «الحذر والشفقة» ، «ذكر الموت» ، «ذم الغضب» ، «الرضا عن الله والصبر على قضائه» ، «الغيبة والنميمة» ، «القناعة» ، «الصمت

---

(١) انظر مصادر الإلزام الخلقي في الإسلام.
(٢) حصر بعض الباحثين من هذه المؤلفات ما يربو على ستين مرجعا، وربما فاته كثير منها. انظر في ذلك: مقدمة كتاب الزهد للإمام وكيع بن الجراح بتحقيق عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي، المدينة المنورة ١٤٠٤ هـ، وراجع: فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، ج ٤ في العقائد والتصوف.
جـ ١(ص: ٧٢)

وآداب اللسان» وغيرها مما يتضمن محمود الأخلاق ومذمومها «١» ، وتمتاز هذه المصنفات بالوحدة الموضوعية، وجودة الترتيب، ونسبة الآثار والأقوال لأصحابها. مع الاعتناء الكامل بذكر الشواهد من القرآن الكريم والحديث الشريف.
٨- الإمام النسائي (ت ٣٠٣ هـ) ، ويعد كتابه «عمل اليوم والليلة» من أهم المساهمات التي قدمها علماء الحديث في الميدان الأخلاقي، إذ تضمن صفة الذكر في الصباح والمساء، ثم تناول جزئيات الحياة اليومية من صلاة وصيام وجهاد والوضوء ودخول المسجد، والبيع والشراء، وعيادة المرضى وغير ذلك مما يتناول تفصيل الحياة اليومية، الفردية والأسرية والاجتماعية، والكتاب في الواقع هو معجم للمثل والقيم الإسلامية.
٩- أبو بكر الخرائطي (ت ٣٢٧ هـ) وأبرز مؤلفاته كتابان: أحدهما «مكارم الأخلاق ومعاليها» والثاني «مساوىء الأخلاق ومذمومها وطرائق مكروهها» وكما يتضح من عنوان الكتابين أنهما يعنيان بسلوك المسلم إن إيجابا باتباع الأخلاق الحميدة المأمور بها، وإن سلبا باجتناب الأخلاق المذمومة المنهي عنها.
١٠- أبو بكر الآجري (ت ٣٦٠ هـ) ، وله في المجال الأخلاقي مصنفات عديدة منها: «أخلاق حملة القرآن» ، و «أخلاق العلماء» ، و «أدب النفس» ، و «كتاب أهل البر والتقوى» ، و «كتاب التوبة» ، و «كتاب التهجد» ، وغيرها كثير، وقد أجمل في هذه الكتب الأخلاق التي ينبغي أن يتحلى بها العلماء وحملة القرآن والمسلمين بوجه عام.
١١- ابن السني (ت ٣٦٤ هـ) وله كتاب «عمل اليوم والليلة» ويتضمن (مثل كتاب النسائي) قواعد السلوك الخلقي للمسلم في يومه وليلته، ومن ثم في حياته كلها.
١٢- أبو طالب المكي (ت ٣٨٦ هـ) وفي كتابه «قوت القلوب» آداب أخلاقية عديدة كالأخوة والصداقة والمودة والمحبة، كما تناول الأخلاق الأسرية والتوافق العائلي وغيرها، وقد تأثر مكي بالمحاسبي تأثرا كبيرا، كما أثر في فكر الغزالي خاصة في «إحياء علوم الدين» «٢» .
١٣- أبو عبد الله الحليمي (ت ٤٠٣ هـ) وقد تناول الأخلاق من منظور شعب الإيمان في كتابه «المنهاج في شعب الإيمان» ضم سبعة وسبعين بابا، وقد اكتفى بذكر متون الأحاديث الواردة في كل شعبة، كما ذكر الآثار، وكان من دوافعه لتأليف هذا الكتاب ما رآه من اشتغال جمهور الناس عن العلوم

بالتبقر (التوسع) في الأهل والمال، والتهافت في الحرام والحلال والتنافس في رتب الدنيا، والتغافل عن درج الآخرة» «٣» .

(١) انظر في مصنفات ابن أبي الدنيا مقدمة تحقيق كتابه: الصمت وآداب اللسان للأستاذ نجم عبد الرحمن خلف (بيروت: ١٤٠٦ هـ) ، ص ١٩ وما بعدها.
(٢) يرجع في تأثر مكي بن أبي طالب وتأثيره مقدمة كتاب العقل وفهم القرآن للمحاسبي التي كتبها حسين القوتلي ص ٨٦- ٩١، ومقدمة قوت القلوب التي كتبها عبد المنعم الحفني ص ٥- ٢٢.
(٣) ينظر في أهداف التأليف مقدمة الحليمي للمنهاج، ت. حلمي فوده، ص ٣- ١٥.

١٤- ابن حزم الأندلسي (ت ٤٢١ هـ) وكتابه «الأخلاق والسير في مداواة النفوس» يقدم نموذجا من التجربة العملية التي تؤكد إمكانية مقاومة الرذائل.
١٥- أبو زيد الدبوسي (ت ٤٣٠ هـ) ، ويعد كتابه «الأمد الأقصى» من أهم الكتب في المجال الأخلاقي حيث تناول العلل النفسية والقلبية التي تحبط الأعمال، كالرياء والعجب ونحوهما «١» .
١٦- أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) وله كتابات مهمة في علم الأخلاق مثل أدب الدنيا والدين، ونصيحة الملوك، وتسهيل النظر وتعجيل الظفر، ويحفل كتابه «أدب الدنيا والدين» بالمباحث الأخلاقية كالحياء والصدق، وآداب الكلام والصبر والشورى، وكتمان السر، والمروءة، كما تضمنت مباحثه أيضا الأخلاق المذمومة من نحو الكذب والغيبة والنميمة، أما الكتب الأخرى فقد تضمنت العلاقة بين الأخلاق وسياسة الناس، وهذا مبحث فريد مميز في فكر الماوردي «٢» .
١٧- البيهقي (ت ٤٥٨ هـ) وله «شعب الإيمان» وقد تحرى فيه ذكر الأحاديث بأسانيدها وأشار إلى درجة صحتها، وقد عقب على أحاديث كل شعبة بانطباعاته العقدية وآرائه الفقهية، وبلغت مروياته من الأحاديث والآثار ١١٢٦٩ حديثا وأثرا، ويعد كتابه من الكتب الجامعة في مجال الأخلاق.
١٨- الراغب الإصفهاني (ت ٥٠٢ هـ) ، وله مؤلفات عديدة في موضوع الأخلاق منها: «تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، و «الذريعة إلى مكارم الشريعة» وقد تضمن كتابه «محاضرات الأدباء» مباحث أخلاقية عديدة، وقد أولى الجانب النظري للأخلاق اهتماما كبيرا، وكان فكره إسلاميا خالصا.
١٩- أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) ويعد من أشهر من تحدث عن الأخلاق في التراث العربي نظرا لشهرة كتابه الموسوعي «إحياء علوم الدين، وله في المجال الأخلاقي أيضا «ميزان العمل» ، ويجمع فكره الأخلاقي أطراف وخيوط مذاهب أخلاقية عديدة، وقد اختلف الناس في تقويم آرائه اختلافا كبيرا.
٢٠- ابن الجوزي (ت ٥٩٦ هـ) ، ومن مؤلفاته في هذا المجال «صفة الصفوة» وقد تضمن وصايا أخلاقية عديدة من خلال التراجم التي قدمها، وله أيضا «صيد الخاطر» .
٢١- الحافظ المنذري (ت ٦٥٦ هـ) ، ويعد كتابه «الترغيب والترهيب» من أهم الكتب التي صنفت في الشريعة وفقا للمجالات الأخلاقية، إن حسنة بالترغيب فيها، وإن سيئة بالترهيب منها.

(١) انظر مقدمة الأمد الأقصى، ت: محمد عبد القادر عطا (بيروت: ١٤٠٥ هـ) .
(٢) انظر في ذلك: تسهيل النظر وتعجيل الظفر للماوردي، ت. محيي هلال السرحان، بيروت، ١٩٥٣، وأيضا أدب الدنيا والدين له، بتحقيق مصطفى السقا، بيروت، ١٩٧٨ م، (ط. رابعة) ، وقارن بما كتبه علي خليل مصطفى في كتابه: «قراءة تربوية في فكر أبي الحسن الماوردي» ط. أولى، المدينة المنورة ١٤١١ هـ.

٢٢- العز بن عبد السلام (ت ٦٦٠ هـ) ، وله في الأخلاق كتابه القيم «شجرة المعارف والأصول» الذي يحتوي على عشرين بابا، يستهدف منها إصلاح القلوب لأنها منبع كل إحساس.

٢٣- الإمام النووي (ت ٦٧٦ هـ) ، وكتابه «رياض الصالحين» تضمن أبوابا في الأخلاق من خلال الآيات والأحاديث التي استشهد بها.
٢٤- ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) ، وتتمثل أهم جهوده في ميدان التربية والأخلاق في «مجموع الفتاوى» وقد استخرج بعض الباحثين ما كتبه شيخ الإسلام عن الأخلاق «١» ، كما استطاع باحث آخر أن يستخلص أسس النظرية الأخلاقية عند ابن تيمية، فتحدث عن وهبية الأخلاق وكسبيتها، ومصدر الإلزام الخلقي، وغيرها من مباحث توضح الفكر الأخلاقي عنده «٢» .
٢٥- الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) ، ويعد كتابه عن «الكبائر» متعلقا بالجانب السلبي للأخلاق، حيث أوضح الأخلاق المذمومة التي تعد من كبائر الذنوب وذكر من الآيات والأحاديث ما يدل على غلظ العقوبة فيها.
٢٦- ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ) وله إسهامات عديدة في مجال الأخلاق نذكر منها: الفوائد، ومدارج السالكين، وعدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، وإعلام الموقعين، والداء والدواء، وإغاثة اللهفان، وقد تناول في هذه الكتب أسس علم الأخلاق.
٢٧- ابن مفلح (ت ٧٦٣ هـ) ، وقد طرح فكره الخلقي من خلال كتابه المشهور «الآداب الشرعية والمنح المرعية) وفيه الكثير عن الفضائل الخلقية التي يجب أن يتحلى بها المسلم.
٢٨- ابن حجر المكي الهيتمي (٩٧٤ هـ) ويمثل كتابه «الزواجر عن اقتراف الكبائر» جهدا لا غنى عنه في توضيح كبائر الذنوب التي ينبغي أن يبتعد عنها كل مسلم.
٢٩- السفاريني الحنبلي (ت ١١٨٨ هـ) ، وله في المجال الأخلاقي كتاب غذاء الألباب، وهو شرح لمنظومة الآداب «٣» ، وقد تضمن الحديث عن حسن الخلق إجمالا، ومكارم الأخلاق تفصيلا، مثل: البر وحسن الظن، ونحو ذلك، وتناول أيضا مذموم الأخلاق مثل الغيبة وآفات اللسان، والفحش ونحو ذلك، وقد تناول الحكم الفقهي لمعظم ما تناوله من الفضائل أو الرذائل.
وفي العصر الحديث تتابعت جهود العلماء في الكشف عن الخصائص الأخلاقية والقيم التربوية في

---

(١) انظر: كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية «مكارم الأخلاق» ، إعداد عبد الله بدران، وحمد عمر الحاجي، مكة المكرمة، ١٤١٤ هـ.
(٢) انظر: «النظرية الخلقية عند ابن تيمية» ، الرياض، ١٤٠٨ هـ، من تأليف محمد عبد الله عفيفي.
(٣) منظومة الآداب، قصيدة تحتوي آداب السلوك، وفضائل الأخلاق نظمها العلامة شمس الدين محمد بن عبد القوي المرداوي (ت: ٦٣٠ هـ) .

الإسلام وعلى رأس هذه الجهود يأتي كتاب الشيخ محمد عبد الله دراز «دستور الأخلاق في القرآن الكريم» «١» ، والشيخ محمد الغزالي في كتابه «خلق المسلم» وكتابه «هذا ديننا» وغير ذلك من مؤلفاته الأخلاقية، وقد صدر بعض الباحثين أطروحته للدكتوراه التي أعدها عن «الأحكام القيمية الإسلامية» باستعراض المؤلفات الحديثة في مجالي الأخلاق والتربية الإسلامية، وقد وصلت إلى ثلاث عشرة دراسة، منها: منهج القرآن في تربية المجتمع لعبد الفتاح عاشور، الاتجاه الأخلاقي في الإسلام لمقداد يالجن، والتربية الأخلاقية الإسلامية له أيضا، فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم لعلي خليل أبو العينين، والتربية الخلقية في الإسلام لسلوى رمضان وغير ذلك «٢» .
وخلاصة القول: أن هناك مؤلفات إسلامية عديدة ومتنوعة في المجال الأخلاقي، وبنظرة تحليلية إلى هذا الكم الهائل من مؤلفات يمكن استخلاص أهم ما تضمنته هذه المؤلفات في النقاط والموضوعات الآتية:
١- معنى الأخلاق وضرورتها وأهميتها في حياة الفرد والمجتمع وكل ما يتعلق بذلك من مباحث نظرية أو سلوكية.
٢- إصلاح النفس وإصلاح الجسد وإصلاح الأسرة، بل إصلاح المجتمع بأسره.
٣- الأخلاق في المجال السياسي وهي ما يترتب عليه إصلاح المجتمع البشري كله.

٤- الأخلاق التي يجب أن تكون عليها العلاقة بين الإنسان وخالقه عز وجل.
٥- الأخلاق النوعية كأخلاق العلماء وأهل القرآن.
٦- الأخلاق السلبية التي ينبغي أن يتخلى عنها الأفراد والمجتمع والتي هي بمثابة الأمراض الفتاكة التي لابد من محاربتها والقضاء عليها والوقاية منها ومعرفة كيفية معالجتها.
القيم الإسلامية:
يكثر استخدام مصطلح «القيم والقيمة والأحكام القيمية» في المجال التربوي، وذلك إلى جانب المصطلح «أخلاق» ، وقد ذكرنا فيما سبق ما يتعلق بمفهوم الأخلاق، فما معنى القيم؟
القيم في اللغة:
لفظ القيم في اللغة جمع قيمة وأصلها الواو «٣» ، لأنها من مادة (ق وم) ، التي تدل على انتصاب أو عزم، يقول ابن منظور والقيمة ثمن الشيء بالتقويم، و (سمي الثمن قيمة) لأنه يقوم مقام الشيء يقال: كم قامت ناقتك

---

(١) أصل هذا الكتاب دراسة بالفرنسية لنيل درجة الدكتوراة، وقد ترجمه إلى العربية الدكتور عبد الصبور شاهين.
(٢) انظر في تفصيل الدراسات الحديثة في المجال الأخلاقي والتربية «الأحكام القيمية الإسلامية» لعبد الودود مكروم ص ٢٨- ٤٣، (رسالة دكتوراة مخطوطة بكلية التربية بالمنصورة، مصر ١٩٨٧ م) .
(٣) المراد أن أصلها قومة فقلبت الواو ياء لسكونها وكسر ما قبلها.

أي كم بلغت، وقد قامت الأمة مائة دينار أي: بلغ قيمتها مائة دينار «١» ، وفي الحديث: قالوا يا رسول الله لو قوّمت لنا، فقال: الله هو المقوّم أي لو سعّرت لنا، وهو من قيمة الشيء، والمراد حددت لنا قيمتها «٢» .
وقد ورد لفظ «قيم» أيضا مرادا به جمع قامة، وذلك مثل تارات وتير، وذلك كما في قول الراجز:
واختلفت أمراسه وقيمه
كما ورد أيضا مصدرا لقام، مثل الصغر والكبر، ومعناه حينئذ الاستقامة، وذلك كما في قول كعب بن زهير:
فهم ضربوكم حين جرتم على الهدى ... بأسيافهم حتى استقمتم على القيم
وقال حسان:
وأشهد أنك عند المليـ ... ـك، أرسلت حقا بدين قيم
قال الزجاج: القيم مصدر بمعنى الاستقامة «٣» .
ومن ذلك «القيم» في قوله عز وجل: دِيناً قِيَماً (الأنعام/ ١٦١) قال القرطبي في تفسيره: قرأه الكوفيون وابن عامر «قيما» وهو مصدر كالشبع فوصف به «٤» ، (كما يقال رجل عدل) ، وقرأ الباقون «قيما» ، ومعناه: دينا مستقيما لا عوج فيه «٥» ، قال الراغب دِيناً قِيَماً: أي ثابتا مقوما لأمور معاشهم ومعادهم «٦» ، أما قوله عز وجل: وَذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (البينة/ ٥) . فقد قال ابن كثير في تفسيرها: دين الملة القائمة العادلة أو الأمة المستقيمة المعتدلة «٧» ، وقيل المراد دين الكتب القيّمة «٨» ، أما وصف الكتب بأنها قيمة فمعناه كما قال الماوردي: كتب الله المستقيمة التي جاء القرآن بذكرها وثبت فيه صدقها، أو فروض الله (المكنونة) العادلة «٩» .
ولعل أقرب الاستعمالات اللغوية إلى القيم بمعناها السائد الآن هو ما ذكره صاحب القاموس من قولهم:

---

(١) لسان العرب ١٢/ ٥٠٠.
(٢) النهاية لابن الأثير ٤/ ١٢٤.
(٣) لسان العرب ١٢/ ٥٠٢- ٥٠٣ (باختصار وتصرف) .

(٤) ويراد بذلك دينا ذا استقامة.
(٥) تفسير القرطبي ٧/ ١٥٢.
(٦) المفردات للراغب ص ٤١٧.
(٧) تفسير ابن كثير ٤/ ٥٧٤، وهو يشير بالمعنى الأول إلى أن قيمة صفة المحذوف هو الملة، وبالثاني إلى أن المحذوف هو الأمة.
(٨) هذا وجه ثالث نقله القرطبي عن محمد الطالقان، وهو يشير بذلك إلى ما جاء في الآية الثالثة من السورة الكريمة فِيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ انظر: تفسير القرطبي ٢٠/ ١٤٤.
(٩) النكت والعيون ٦/ ٣١٦.

فلان ما له قيمة: إذا لم يدم على شيء» «١» . وقول صاحب أساس البلاغة: القيمة ثبات الشيء ودوامه «٢» ، وهما يشيران بذلك إلى أن القيمة ترد بمعنى الأمر الثابت الذي يحافظ عليه الإنسان ويستمر في مراعاته.

ماهية القيم:

لقد تعددت الاتجاهات واختلفت المدارس العلمية في تحديد مفهوم القيمة ومن ثم فإن المعنى الاصطلاحي للقيمة يختلف باختلاف الاتجاهات والآراء وسنحاول فيما يلي إبراز أهم هذه المفاهيم حتى نصل بعد ذلك إلى تحديد واضح لمفهوم القيم الإسلامية.

أ- في المجال الاقتصادي تعرف القيمة بأنها «قيمة التبادل أي السعر المقرر للسلعة، ويميزون بين القيمة والسعر على أساس أن القيمة حقيقية أما السعر فاعتباري، وذلك راجع إلى التراضي بين المتبادلين للسلعة، ولهذا تكون القيمة أحيانا أكثر أو أقل من السعر «٣» .

ب- وأما في المجال السياسي فتعني اكتشاف المسلمات القيمية الضمنية التي تشكل السلوك السياسي، والتي تعد عوامل تفسيرية «٤» .

ج- واهتم بدراسة القيم علم النفس، وعلم الاجتماع كل من زاويته ورؤيته، واتضح أن هناك مفاهيم للقيمة تضم جوانب معنوية تتعلق بموضوعات معينة، تعرضت لها تعريفات ومفاهيم، تراوحت بين التحديد الضيق للقيم على أنها «مجرد اهتمامات أو رغبات غير ملزمة» إلى تحديدات واسعة «يراها معايير مرادفة للثقافة ككل» «٥» .

ولعل التعريف التالي يوضح مفهوم القيمة لدى المختصين في علم النفس الاجتماعي وهو:

د- «القيمة معيار اجتماعي ذو صيغة انفعالية قوية وعامة، تتصل من قريب بالمستويات الخلقية التي تقدمها الجماعة ويمتصها الفرد من بيئته الاجتماعية الخارجية ويقيم منها موازين يبرر بها أفعاله، ويتخذها هاديا ومرشدا» «٦» ، «٧» .

هـ- أما مفهوم القيمة عند علماء أصول التربية فمن الممكن تصوره من خلال ما كتبه بعض الباحثين

---

(١) القاموس المحيط ص ١٤٨٧ (ط. بيروت) .
(٢) أساس البلاغة للزمخشري، ص ٥٢٨.
(٣) عبد الرحمن بدوي، الأخلاق النظرية، ط ٢، الكويت، ١٩٧٥ م، ص ٧٩.
(٤) محمد أحمد بيومي، علم اجتماع القيم، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٠ م.
(٥) ضياء زهار، القيم في العملية التربوية، ص ١٠.
(٦) فؤاد البهي السيد، علم النفس الاجتماعي، ص ٩٤.
(٧) هناك تعريفات أخرى للقيمة لا تخرج عما ذكر منها أن القيمة مرادف للاصطلاح نافع أو لائق (فوزية دياب، القيم والعادات الاجتماعية) ص ٢١ وهناك من يرى أن القيم تكمن في اللذة أو الألم الذي يشعر به الإنسان ومن ثم تكون القيمة كل ما أحدثت لذة أو ألما، انظر: المرجع السابق، ص ٢٣) .

التربويين قائلا:
القيمة هي «محطات ومقاييس نحكم بها على الأفكار والأشخاص والأشياء والأعمال والموضوعات والمواقف الفردية والجماعية من حيث حسنها وقيمتها والرغبة بها، أو من حيث سوءها وعدم قيمتها وكراهيتها، أو من منزلة معينة ما بين هذين الحدين» «١» .
ز- وهناك تعريفات أخرى للقيمة لا تنتمي إلى أي من الاتجاهات السابقة نذكر منها:
- القيم عبارة عن «مستوى أو مقياس أو معيار نحكم بمقتضاه ونقيس به ونحدد على أساسه المرغوب فيه والمرغوب عنه» «٢» .
- القيم عبارة عن مفهوم أو تصور ظاهر أو ضمني يميز فردا أو يختص بجماعة، لما هو مرغوب فيه وجوبا مما يؤثر في انتقاء أساليب العمل ووسائله وغايته» «٣» .
ويلاحظ في كل المفاهيم السابقة أن القيم تتمتع بالخصائص أو الموجهات الآتية:
١- أنها عناصر توجيه في الحياة تعكس توجّها معينا حيال نوع معين من الخبرة.
٢- أنها تحمل صفة الانتقائية.
٣- أن الاختيار الذي تفرضه القيمة على الفرد في مجال التعامل يعد أفضل اختيار له.
وإذا نظرنا إلى هذه التعريفات المختلفة من وجهة النظر الإسلامية فإنه يمكن القول: إنها جميعا لا تعدو أن تكون اجتهادات نابعة من تخصص أصحابها، ومن ثم فإنه يلاحظ عليها ما يلي:
١- أن هذه المفاهيم تعبر عن بيئاتها وثقافتها التى نشأت فيها، وهى مختلفة متعددة، ومع هذا فإن فيها ما قد يتوافق مع البيئة العربية الإسلامية وفيها ما لا يتوافق.
٢- أقامت المفاهيم المختلفة- رغم تفاوتها واختلافها- من الفرد أو المجتمع مصادر للقيم، وجعلت الحكم على الأفعال يتأتى من قبل الإنسان فقط، يحكم عليها من خلال منفعتها الآنية أو ضررها الآنيّ، بغض النظر عن الخير أو الشر الكامن فيها، والإنسان لا يمكنه إدراك الحسن والقبح بعقله المحض، كما أنه لا يدركها إدراكا جامعا قبل الفعل أو بعده. ثم إن الإنسان بحكم نسبيته عرضة للتفاوت والاختلاف والتناقض، فقد يحكم على الفعل بالحسن تارة وبالقبح تارة، تبعا للظروف، أما الحكم الموضوعى الحقيقى فلا يستطيعه، لأن الذى يستطيع أن يزود الإنسان بهذا على وجه الحقيقة هو الدين السماوي، وهذا ما لم يرد فى تعريف أو مفهوم حتى لدى الباحثين العرب.

---

(١) ماجد الكيلاني، فلسفة التربية الإسلامية، ص ٢٩٩.
(٢) محمد إبراهيم كاظم، التطور القيمي وتنمية المجتمعات الدينية، ص ١١١.
(٣) جابر عبد الحميد وسليمان الخضري، دراسات نفسية في الشخصية العربية، ص ٢٢٨.

٣- إن هذه المفاهيم ناتجة عن عقلية وضعية خاصة، ومن ثم لا تكاد تفي بفهم القيم الإسلامية نظرا لأن الرؤية الإسلامية تلتزم بالتصورات الإسلامية الأساسية، وهى منبثقة من دلالات النص القرآني الكريم، والنص النبوي الصحيح، ولأن وصف الفعل الإنساني والحكم عليه إنما يصدر عنهما بعد النظر فيهما لاستجلاء الأحكام التى تشتمل عليها هذه النصوص، فى إطار هدف محدد وهو استجلاء «المراد الإلهى فى تحديد أفعال الإنسان دون أن يكون له أي مدخل فى الإضافة الذاتية بما يؤثر على ذلك المراد بالزيادة أو النقصان أو التغيير» «١» .
والأمر إذا: ليس خاضعا للوضعية العقلية الذاتية المحضة، وإن كان لها اعتبارها الخاص فى فهم النص وتنزيله.
٤- إن هذه المفاهيم تختلف عن الرؤية الإسلامية والنهج الإسلامي الذى يرى أن أعمال الإنسان ليست هدفا فى حد ذاتها، بل ترتبط بالله وتتجه نحو مرضاته، وإن لم يتحقق من هذا العمل أو ذاك نفع مباشر أو مصلحة عاجلة، أو لذة آنيّة. لأن الله تعالى هو وحده المتفرد بخلق الإنسان، ولهذا فهو متفرد بكمال

العمل بما خلق فى طبيعته وقدراته ونوازعه وحاجاته، وبناء على ذلك فهو متفرد بوضع منهاج الحياة له على الوجه الذى يكون فيه خيره، وسعادته وترقيه فى كافة شئون حياته الفردية والاجتماعية، وبذلك يكون الأساس والمعيار الأوحد فيما يأتى الإنسان ويذر فكرا أو سلوكا هو ميزان البيان الإلهى، ائتمارا بما أمر الله، وانتهاء عما نهى عنه «٢» .

٥- إن هذه المفاهيم لا تعبر عن المقاصد الكلية للحياة، وإنما تعطى الإنسان ضابطا للحياة الدنيا وعلاقتها، ولذلك ارتبط بعضها بتحقيق السعادة للإنسان على وجه الأرض فى الحياة الدنيا فى حين أنه من المسلم به فى المنهج الإسلامي وجود حياة آخرة فيها ثواب وعقاب على ما يأتى الإنسان ويدع وما يختار.

وانطلاقا من هذا، وتجنبا للثغرات التي وجدت في التعريفات السابقة فإنه يمكن تعريف «القيم» من المنظور الإسلامي بأن نقول:

القيم الإسلامية: مجموعة من المعايير والأحكام النابعة من تصورات أساسية عن الكون والحياة والإنسان والإله، كما صورها الإسلام، وتتكون لدى الفرد والمجتمع من خلال التفاعل مع المواقف والخبرات الحياتية المختلفة، بحيث تمكنه من اختيار أهداف وتوجهات لحياته تتفق مع إمكانياته، وتتجسد من خلال الاهتمامات أو السلوك العملي بطريقة مباشرة وغير مباشرة «٣» . وبحكم هذا التعريف تجيء عدة محددات أساسية على النحو الآتى:

١- أن حياة الإنسان تحكمها أهداف محددة، وهناك وسائل لبلوغها، ولا بد من الانتفاع بتلك الأهداف

---

(١) عبد المجيد النجار، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، ص ٨٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٣١.

(٣) علي خليل مصطفى، القيم الإسلامية والتربية ص ٣٤.

فى إطار ما تقدمه الجماعة وما ترتضيه، وينبع هذا من المنهج الأساسي الذى يشكل إطارا مرجعيا لها، وفى حالة المجتمع الإسلامي، فإن كل ذلك يرتد فى النهاية للقرآن الكريم والسنة المطهرة كمصدرين أساسيين لإطار الحياة فى هذا المجتمع.

٢- تتبلور أهداف الحياة لدى الإنسان المسلم فى شكل معايير ينظر من خلالها لكافة مكونات حياته إما بالإيجاب أو بالسلب، بمعنى أنه تتكون لديه أحكام تفضيلية إزاء عناصر وجزئيات حياته، فيكون إيجابيا فى بعضها وسلبيا فى بعضها، بقدر ما تحقق له قيمة أو لا تحقق.

٣- تشمل المعايير وتتصل بكافة مكونات المجتمع ومواقفه فى الحياة الدنيا وفى الآخرة باعتبارها مردودا للحياة الدنيا، ويمتصها الفرد من خلال عملية التطبيع الاجتماعي، والتفاعل الاجتماعي، وهى فى النهاية ترتد إلى ما يهدف إليه إطار الحياة العام فى المجتمع أى أهداف الإسلام ومقاصده فى المجتمع، كتوجهات القيم إلى المجتمع وأهدافه، والمسلم يهدف من وراء توجهاته القيمية رضوان الله تعالى الذى هو أبرز أهداف المجتمع الإسلامي.

٤- تتكشف تلك القيم، من خلال اختيارات الإنسان وتوجهاته، وبقدر إمكانياته ووضوح القيم لديه، بحيث نجعله مطمئنا إلى اختياره، مقتنعا به، فيوجه كافة إمكانياته من أجلها. ذلك أن الفرد الذى يتبنى القيمة يحاول أن يسلك من خلالها فى حياته، فهي تقوم بعملية التوجيه، ويعني هذا أنه لا بد من وجود وعي تام بالقيمة، مع شعور بأهميتها، فالقيمة لا تكتسب أهميتها لدى الفرد إلا إذا توفرت فيها شروط ثلاثة:

- أن يكون لديه وعي يتبلور حول وجود شيء أو فكرة أو موقف أو شخص.

- أن يحدث هذا الوعي لديه اتجاها انفعاليّا مع الشيء أو الفكرة أو الموقف أو ضده، فينظر إليه على أنه خير، أو شر إلى حد ما، بمعنى أن لا يقف موقف اللامبالاة أو عدم الاهتمام.

- أن يصبح وعيه واتجاهه الانفعالي ركيزة أساسية للسلوك وليس مجرد اهتمام وقتى عابر يأبى أن يدوم.
ومعنى هذا أن لها صفة الاختيار عند الفرد والذي يتكون عن وعى واقتناع تام. لأنها تنطوي على «أحكام معيارية للتمييز بين الصواب والخطأ، والخير والشر» «١» .
٥- تظهر هذه القيم من خلال المصادر الأصلية (القرآن والسنة) في شكل أوامر ونواه أو إلزامات تكليفية، في حين تظهر سلوكيا في صور التعبير الإيجابي أو السلبي.
ومن التصورات الأخرى لمفهوم «القيم الإسلامية» ما ذكره بعض الباحثين عندما قال: القيم الإسلامية: حكم يصدره الإنسان على شيء ما مهتديا بمجموعة المبادئ والمعايير التي ارتضاها الشرع محددا المرغوب فيه

(١) ضياء زاهر، القيم العملية التربوية، مرجع سابق، ص ٢٥.
جـ ١(ص: ٨١)

والمرغوب عنه من السلوك «١» .
خصائص القيم الإسلامية:
في ضوء ما سبق يمكن القول: إن خصائص القيم الإسلامية تتميز بما يلي:
أ- أنها تصدر من مصادر الإسلام ذاته، أي أنها تستمد من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ويعتبران الأساسين اللازمين للحديث والبحث عن القيم الإسلامية.
ب- أنها تستمد من الأحكام الشرعية، باعتبار أن الحياة الإسلامية كلها تقوم على هذه الأحكام، وتأتي القيم في صورة أمر بالفعل أو أمر بالترك والكف بكافة درجات أمر الفعل وأمر الترك، وهي بهذا تحدد توجيهات الإنسان في حياته حيال الأشياء والمواقف، تاركة له مساحة من الاختيار.
ج- أنها تقوم على أساس الشمول والتكامل بمعنى:
١- أنها تراعي عالم الإنسان وما فيه، والمجتمع الذي يعيش فيه، وأهداف حياة الإنسان طبقا للتصور الإسلامي، أي تحدد أهداف الحياة وغايتها وماوراءها، ومن ثم تكون قيمة أي إنجاز بشري في تقدير حسابه وجزائه، في الدار الآخرة مع عدم إهمال الدنيا «٢» .
٢- أنها جامعة لكافة مناشط الإنسان وتوجهاته، تستوعب حياته كلها من جميع جوانبها، ثم هي في هذا لا تقف عند حد الحياة الدنيا.
د- أنها تقوم على مبدأ التوحيد، باعتباره النواة التي تتجمع حولها اتجاهات المسلم وسلوكياته، حتى يصل لأهدافه، وبهذا تجعل لحياة الإنسان معنى ووظيفة.
هـ- أنها تتميز بالاستمرارية والعمومية لكل الناس في كل زمان ومكان، ويؤيد ذلك القرآن الكريم في قول الله سبحانه وتعالى تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً «٣» .
ولا تتأتى تلك الاستمرارية إلا إذا كانت هذه القيم موضوعية، أي من عند الله تعالى، فالإنسان لا يمكنه من تلقاء نفسه ودون معونة إلهية أن ينشىء نظاما حياتيا صالحا له، ولا يمكنه أن يقيم منظومة قيمية تساعده على أداء دوره في الأرض، بسبب ما يطرأ عليه من ميل للهوى، وما جبل عليه من ضعف، ولذا فإن الوحي هو الذي يستطيع ذلك، وهذا ما حدث فعلا، فقد جاء الوحي بقيم خالدة تحفظ على الإنسان جهده وحياته، ولترتفع به إلى المستوى اللائق به كخليفة الله في الأرض.

(١) حامد زهران، علم النفس الاجتماعي، ط ٤١، ١٩٧٧، ص ١٣٢.
(٢) محمد فتحي عثمان، القيم الحضارية في رسالة الإسلام، ط ١، الدار السعودية، ١٤٠٢ هـ/ ١٤٠٣ هـ، ص ٤٢.
(٣) سورة الفرقان، (١) - ويمكن الرجوع إلى سور: الأنبياء (٧) ، والقلم (٥٢) ، وسبأ (٢٨) ، والفتح (٢٨) .

جـ ١(ص: ٨٢)

وتأتي تلك القيم في استمراريتها من موضوعيتها، فهي لا يطرأ عليها أي تغيير أو تبديل بسبب تغير الظروف والأزمان، وهي ليست من نتاج بشر، بل هي وحي من الله تعالى لنبيه، وعلى هذا تكون الاستمرارية سمة فاصلة بين قيم الله سبحانه وتعالى وقيم البشر.
وأنها جامعة للثبات والمرونة، فهناك قيم عليا ثابتة لا تقبل الاجتهاد أو التغيير أو التبديل، كالقيم العقدية، وقيم العبادات وقيم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أما القيم الأخرى فهي نسبية، بمعنى أن القيم التي تستند إلى نص قطعي الدلالة لا يجوز فيها التغيير أو التبديل، أما تلك التي تعتمد على ظني الدلالة، فإن مجال الاختيار فيها واسع، وهي مرنة مرونة كافية لمواجهة ما يتولد في حياة الناس من مواقف وحوادث، وما تصير إليه الأمور في المجتمعات، وهي مما يحتاج إلى نظر وتأمل واستنباط.
فالقيم والقواعد القطعية الواجبة لا يجوز فيها التبديل، أما ما يستحدث من مواقف وما يجوز فيه الاجتهاد ويستجد من قيم بحسب اقتضاء المصلحة زمانا ومكانا وحالا، فتلحقها الحركة والمرونة، وبهذه الميزة استطاعت القيم الإسلامية الحفاظ على المجتمع الإسلامي بالرغم من التغيرات التي أصابته والتي واجهته على مر الزمن.
ز- أنها وسطية، تلك الوسطية الانتقائية لا التلفيقية، فقد عمد الإسلام إلى القيم الجيدة عند العربي فأبقاها وضبطها، وأضاف إليها، وزود الإنسان بقيم ليعيش عالمه المادي والمعنوي في توازن دقيق، وزوده بقيم تهتم بالفرد كما تهتم بالجماعة، كما وازن بين الدنيا والآخرة، القوة والرحمة ... الخ وبهذا كانت معبرة تعبيرا صحيحا عن الفطرة البشرية والطبيعة الإنسانية، في واقعية كاملة.
إن وسطية القيم الإسلامية لم تلغ الطبيعة البشرية، بل عملت وتعمل على توجيهها باعتبارها مفاهيم ضابطة، تعمل على توجيه هذه الطبيعة، فهي لا تضاد الفطرة ولا تلغيها ولا تكبتها ولا تقف في سبيلها، بل تحاول توجهها بطريقة دافعة، ومن منطلق هذه الوسطية يلزم الإسلام الإنسان بالقيم المحققة لإنسانيته، والتي لا تغلو في طرف وتهمل طرفا آخر، فالإنسان مطالب- مثلا- بالتوسط في الإنفاق، والعاطفة، والاعتقاد، وتوفية مطالب الروح والجسد، والآيات التي تؤيد ذلك عديدة منها:
- وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً «١» .
- وَابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ «٢» .

---

(١) سورة الإسراء (٢٩) .
(٢) سورة القصص (٧٧) .

جـ ١(ص: ٨٣)

إن تلك الوسطية التي تتميز بها القيم الإسلامية، تعد عملية انتقائية، إلا أنها توفيق دقيق جدا بين الوحي وإمكانات الإنسان الأرضية، وهو ضروري لأنه يولد لدى الإنسان حيوية الاختيار والانتقاء للالتزام بها «١» ، مما يتيح في النهاية عملا يتسم بالصدق في المظهر والمخبر، بخلاف عملية التلفيق التي لا تحمل دلالة نفسية على تقوى أو صلاح «٢» .
وهذه الوسطية تستلزم التفهم الكامل الواعي لموضوعات القيم، لأنها تستلزم الاختيار ولا اختيار بدون وعي، أي أنها تتعلم، فالإنسان لا يولد مزودا بها، ولكن لديه الاستعداد ومن ثم تنشأ وتتكون لديه من الخبرات والمواقف التي يعيشها الإنسان.
ح- أنها ترتبط بالجزاءات الدنيوية والأخروية، ولذا أوجد الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، ولكن هناك هدف آخر أسمى وراء الالتزام بعد الاختيار القائم على وعي كامل، لما جاء به الشرع وأمر بالالتزام به، ذلك الهدف هو إرضاء الله تعالى، ويأتي الجزاء بعد ذلك والذي لا يحرم منه الملتزم.

ط- أنها تقوم على أساس الضبط والتوجيه والتنمية والتربية، ولذا فإن أهداف التربية في أي مجتمع إنما تشتق من هذه القيم التي تهتم بجوانب الإنسان المختلفة وبصورة متكاملة، فسلطان القيم منبسط على كافة وجوه النشاط الإنساني كلها، لا يشذ عنها عمل تربوي ولا يتفاوت في حكمه نشاط بدني أو عقلي أو فني أو أدبي أو روحي «٣» .

تصنيف القيم الإسلامية:

في ضوء ما سبق سنعرض تصنيفا للقيم الإسلامية على النحو التالي:

١- من حيث الإطلاق والنسبية: ويوجد هنا مستويان:

الأول: القيم المطلقة: وترتبط بالأصول، وهي قيم ثابتة ومطلقة ومستمرة لا تتغير بتغير الزمان والأحوال، ولا مجال للاجتهاد فيها إلا الفهم والوعي، ومن ثم يجب على المسلم أن يتقبلها ويسلم بها ويعمل بمقتضاها، وهذه ترتد إلى القرآن الكريم والسنة المطهرة.

الثاني: القيم النسبية: وترتبط بما لم يرد فيه نص، أو تشريع صريح وهي تخضع للاجتهاد الذي لا يتعارض مع نص صريح، ومعنى نسبيتها أنها متغيرة بتغير المواقف عبر الزمان والمكان، وتحتاج إلى اجتهاد جمعي لإقرارها.

٢- من حيث تحقيق المصلحة: وهي تتعلق بحفظ الكليات الخمس وهي:

---

(١) محمد عبد الله دراز، دستور الأخلاق في القرآن، ص ١٢٦.

(٢) جابر قميحة، المدخل إلى القيم الإسلامية، القاهرة، دار الكتاب المصري، د. ت، ص ٧٨.

(٣) محمد عبد الله دراز، دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية، الكويت، دار القلم، ١٤٠٠ هـ- ١٩٨٠ م، ص ١٢٣، ١٢٤.

جـ ١(ص: ٨٤)

- الدين: وموضوع القيم هنا صلة الإنسان بربه.
- النفس: وموضوع القيم هنا صلة الإنسان بنفسه، وحياة الإنسان.
- العقل: وموضوع القيم الجوانب الفكرية والعقلية في حياة الإنسان.
- النّسل: وموضوع القيم صلة الإنسان بغيره على وجه العموم.
- المال: وموضوع القيم صلة الإنسان بالأشياء والمكاسب.

وتأتي القيم هنا مرتبة ترتيبا هرميا طبقا لمحورين أساسيين:

- درجة النفع: وهنا ثلاث درجات، الضروريات، الحاجيات، والتحسينيات.
- درجة الحكم: من حيث الحلال والحرام والمباح والمكروه والمندوب.

٣- من حيث تعلقها بأبعاد شخصية الإنسان وجوانبها: والتي تربى على القيم وتحتضنها:

- البعد الروحي: وتعبر عنه القيم التي تنظم علاقة الإنسان بربه، وتحدد صلته به.
- البعد الخلقي: وتعبر عنه القيم المتعلقة بالأخلاق والتي تتصل بالشعور والمسئولية.
- البعد العقلي: وتعبر عنه القيم المتعلقة بالعقل والمعرفة، وإدراك الحق، ووظيفة المعرفة.
- البعد الجمالي: وتعبر عنه القيم المتعلقة بالتذوق الجمالي والتعبير عنه، وإدراك الاتساق في الحياة.
- البعد الوجداني: وتعبر عنه القيم الوجدانية الانفعالية، وهي تلك التي تنظم الجوانب الانفعالية للإنسان وتضبطها، من غضب ورضا أو حب وكره، وغير ذلك.
- البعد المادي: وتعبر عنه القيم المتعلقة بالوجود المادي للإنسان.
- البعد الاجتماعي: وتعبر عنه القيم التي تتصل بالوجود الاجتماعي للإنسان من خلال مجتمعه والمجتمع العالمي.

وخلاصة القول أن صيغة التكامل بين هذه الأبعاد هي الأساس في تناول هذه القيم، فكل بعد متكامل مع الآخر، وتتكامل كافة أبعاد التصنيف الثلاثة بعضها مع بعض مكونة النسق القيمي الإسلامي الصحيح.

بين الأخلاق والقيم:

يبدو جليّا مدى التقارب بين مفهوم الأخلاق والقيم، ولعل مفهوم القيم أوسع دلالة من مفهوم الأخلاق، ولكن إذا كانت القيم تتعلق بجوانب شتى من الحياة، حتى إن البعض يقول: إن هناك قيما خلقية تختص بالشعور بالمسئولية والالتزام إلى جانب قيم أخرى، فإننا لا نكاد نلمح فارقا بين الاثنين باعتبار أن الأخلاق تتصل أيضا بكافة جوانب الحياة، فهى لا تنفصل عن حياة الإنسان فى كافة جنباتها.
ويمكن القول: إن الأخلاق تستند فى أصلها إلى قيم للسلوك الفردي أو الاجتماعي، والفعل الخلقي هو فى

جـ ١(ص: ٨٥)

صميمه فعل قيمي.
ومع هذا فلا يجب أن نهمل ما توصل إليه علماء الأخلاق ونحن ندرس القيم، ولا نهمل ما توصل إليه علماء التربية الذين اهتموا بدراسة القيم لأنها توضح وتجلي مجالات من مجالات الأخلاق ودراستها، ولذلك فإن حديثنا سينصب في باقي هذه المقدمة حول القيم الخلقية والتي تعني تلك القيم التي تتصل بشعور الإنسان بالالتزام والمسؤولية والجزاء.
وظائف القيم الخلقية:
للقيم الخلقية وظائف عديدة، فهى تنعكس على سلوك الفرد قولا وعملا، كما ينعكس أثر الالتزام بها على الجماعة أيضا، بل ويمكن أن يمتد أثرها إلى العلاقات الدولية في حالتي السلم والحرب، وسنتناول ذلك- بإيجاز- فيما يلي:
أ- على المستوى الفردى:
١- أنها تهيء للأفراد اختيارات معينة عن طريق الأوامر والنواهي والإلزامات التكليفية، تحدد السلوك الصادر عنهم، وبمعنى آخر؛ تحدد أشكال السلوك، وبالتالي تلعب الدور الهام فى تشكيل الشخصية الفردية السعيدة فى الحياة الدنيا. وفى الحياة الآخرة عن طريق تحديد أهدافها فى إطار معياري صحيح.
٢- أنها تعطي الفرد إمكانية تحقيق ما هو مطلوب منه فى إطار الرسالة الإسلامية، وتمنحه القدرة على التكيف والتوافق الإيجابيين، وتحقيق الرضا عن النفس بإرضاء الله تعالى عن طريق التجاوب مع الجماعة في مبادئها وعقائدها وأخلاقها الصحيحة.
٣- أنها تحقق للفرد الإحساس بالأمان، إذ هو يستعين بها على مواجهة ضعفه وضعف نفسه، ومواجهة التحديات والعقبات التى تواجهه فى حياته.
٤- أنها تعطي الفرد فرصة ودفعة نحو تحسين وعيه، ومعتقداته، وسلوكياته، لتتضح الرؤية أمامه، وبالتالى تساعده على فهم العالم حوله، وتوسع مدلولات الإطار الفكري لفهم حياته وعلاقاته.
٥- أنها تعطي الفرد فرصة للتعبير عن الذات، مؤكدا ذاته فى إطار العبودية الصحيحة لله وعن فهم عميق لها ولإمكانياتها.
٦- أنها تعمل على إصلاح الفرد نفسيا، وتوجهه نحو الخير والإحسان الواجب وكافة مكارم الأخلاق التي تضمن حياة نظيفة فى الدنيا، وجزاء أوفى فى الآخرة.
٧- أنها تعمل على ضبط الفرد لشهواته، ومطامعه، فلا تتغلب على فكره ووجدانه، لأنها تربط سلوكه وتصرفاته بمعايير وأحكام أهمها إرضاء الله سبحانه وتعالى، وبالتالي يتصرف فى ضوئها وعلى هديها.

جـ ١(ص: ٨٦)

٨- أنها تبعد الإنسان عن النقص البشري الذي يجعل الحياة جحيما لا يطاق، وذلك من جراء صفات من أبرزها الجبن والخوف، والاستهتار واللامبالاة إلى غير ذلك من صفات يجب أن يتجنبها الإنسان.
٩- تسمو بالإنسان وترفعه فوق الماديات المحسوسة حتى لا يرتبط بها ارتباطا كليا، فتتغلب عليه حيوانيته، وإلى سماء الإنسانية الرفيعة بكل ما فيها من جمال وقيم ومبادىء سامية لا تتحقق إلا بالتمسك بالأخلاق الإسلامية ومنهج الإسلام فى الحياة.

إلا أنه يجب أن لا ندرك هذه الوظائف منفصلة بعضها عن بعض، بل هي متداخلة متكاملة بعضها مع بعض وبالتالي تحقق ذاتية الفرد، وتجعله يحس ويستشعر عظمة وقيمة حياته، إنها في النهاية تحقيق لإنسانية الإنسان، ورضاه عن نفسه برضا الله تعالى عليه وتحقيق إرادته مع أوامره ونواهيه.

ب- على المستوى الاجتماعي:

للقيم الخلقية وظيفتها على المستوى الاجتماعي، حيث إنها تحقق للمجتمع وظائف عديدة، منها:

١- تحفظ على المجتمع تماسكه، فتحدد له أهداف حياته، ومثله العليا، ومبادئه الثابتة المستقرة التي تحفظ له هذا التماسك والثبات اللازمين لممارسة حياة اجتماعية سليمة ومتواصلة.

٢- تساعد المجتمع على مواجهة التغيرات التي تحدث فيه، بتحديدها الاختيارات الصحيحة والسليمة التي تسهل على الناس حياتهم، وتحفظ على المجتمع استقراره وكيانه في إطار موحد.

٣- تربط أجزاء ثقافة المجتمع بعضها ببعض حتى تبدو متناسقة، كما أنها تعمل على إعطاء النظم الاجتماعية أساسا إيمانيا وعقليا يصبح عقيدة في ذهن أعضاء المجتمع المنتمين والمتفاعلين بهذه الثقافة.

٤- تقي المجتمع من الأنانية المفرطة، والنزعات، والأهواء والشهوات الطائشة التي تضر به وبأفراده ونظمه، فهي تحمل الأفراد على التفكير في أعمالهم على أنها محاولات للوصول إلى أهداف هي غايات في حد ذاتها، وليس على أنها مجرد أعمال لإشباع الرغبات والشهوات.

ولذلك فإن القيم والمثل العليا في أي جماعة هي الهدف الذي يسعي جميع أعضائها للوصول إليه، والمثل الأعلى في المجتمع الإسلامي هو محمد صلّى الله عليه وسلّم، والمنهج الذي بلّغ به من قبل الله تعالى باعتباره المثل الأعلى.

٥- أنها تزود المجتمع بالصيغة التي يتعامل بها مع العالم الطبيعي والبشر، وتحدد له أهداف ومبررات وجوده، حتى يسلك في ضوئهما، ويستلهمها الأفراد في سلوكياتهم.

٦- أنها تزود المجتمع بالصبغة الملائمة التي تربط بين نظمه الداخلية من اقتصادية وسياسية وإدارية وبالتالي تحوطه بسياج حام من التفكك والانحلال.

جـ ١(ص: ٨٧)

ج- على مستوى العلاقات الدولية:

إن وظيفة القيم الأخلاقية- كما حددها القرآن الكريم وكما جاءت بها السنة المطهرة- قد تتجاوز في أحيان كثيرة الفرد والمجتمع إلى إطار أرحب وأوسع، ألا وهو مجال العلاقات الدولية في وقتي السلم والحرب على السواء، ويتضح ذلك من تأمل ما يلي:

أولا: في حالة السلم:

١- الاهتمام بالسلام العام، يقول الله تعالى: لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (التوبة/ ١٢٨) .

٢- مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، يقول الله تعالى: وَلا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلهُنا وَإِلهُكُمْ واحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (العنكبوت/ ٤٦) .

٣- عدم إكراه أحد على الدخول في الدين، يقول الله تعالى: لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ (البقرة ٢٥٦) ، ويقول سبحانه: فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ* لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (الغاشية ٢١/ ٢٢) .

٤- عدم إثارة الأحقاد أو الكراهية، يقول الله تعالى: وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ... يَعْمَلُونَ (الأنعام/ ١٠٨) .

٥- ترك الاستبداد والإفساد في الأرض، يقول سبحانه وتعالى: تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَساداً وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (القصص/ ٨٣) .

٦- الحفاظ على أمن المحايدين، يقول الله تعالى: فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَما جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (النساء/ ٩٠) .

٧- حسن الجوار وإقامة العلاقات الدولية على أساس من العدالة والبر يقول سبحانه: لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ... إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ* (الممتحنة/ ٨) .
ثانيا: في حالة الحرب أو الخصومة:
يتجلى دور القيم الإسلامية في هذه الحالة في النقاط الآتية:
١- ترك المبادرة بالشر أو العدوان، يقول الله تعالى: وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ* ... أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ* (المائدة/ ٢) .
٢- النهي عن القتال في الأشهر الحرم أو الأماكن المحرمة، يقول الله تعالى: إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً ... فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ (التوبة/ ٣٦) ، ويقول سبحانه: وَلا تُقاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ

حَتَّى يُقاتِلُوكُمْ فِيهِ (البقرة/ ١٩١) .
وهذه القواعد الأخلاقية المتعلقة بتحريم القتال في أزمنة معينة وأماكن معينة لا تزال تشكل أساسا متينا في العلاقات الدولية إذ يجب على الأطراف المتحاربة تجنب القتال في أوقات الهدنة المتفق عليها سلفا من الأطراف قياسا على حرمة القتال في الأشهر الحرم التي كانت بمثابة هدنة أقرها العرب قبل الإسلام في هذه الأشهر، ثم أقرهم الإسلام على ذلك. كما أنه يجب تجنيب دور العبادة والتعليم وما أشبهها من ويلات الحروب وآثارها المدمرة.
٣- عدم التعرض للمدنيين وقتال المقاتلة وحدهم، يقول الله تعالى: وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (البقرة/ ١٩٠) .
٤- الوفاء بالمعاهدات المبرمة بين أطراف النزاع، يقول الله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ (المائدة/ ١) .
٥- الوفاء بجميع الالتزامات قبل الطرف الآخر حتى ولو كانت غير مواتية، يقول الله تعالى: وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذا عاهَدْتُمْ ... تَخْتَلِفُونَ* (النحل ٩١/ ٩٢) .
٦- مراعاة الأخوة الإنسانية باعتبارها رباطا مقدسا يسمو على الأجناس والأنواع يقول الله تعالى: يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ... إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (النساء/ ١) .
٧- وأخيرا يدعو القرآن الكريم المحاربين من المسلمين إلى التحلي بالصبر كما يدعوهم إلى الوحدة والثبات وعدم الخوف من ملاقاة الأعداء مهما كثروا «١» يقول الله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصابِرُوا وَرابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (آل عمران/ ٢٠٠) ، ويقول جل من قائل: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ* وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ (الأنفال/ ٤٥- ٤٦) .

(١) بتصرف واختصار من دستور الأخلاق في القرآن الكريم ٧٥٣- ٧٦٠.

الفصل الثاني الأخلاق الإسلامية طبيعتها مصادرها أركانها

بعد أن تعرفنا على مفهوم الأخلاق، ووظائفها، يمكننا أن نعرض لطبيعة الأخلاق الإسلامية وخصائصها، باعتبارها معبّرا قويّا عن الذاتية الثقافية للأمة الإسلامية بعالميتها وشمولها، بما يدفع أي شك أو تردد في وجود تلك الأخلاق وتفردها، وصلاحيتها لكل زمان ومكان، وأهميتها في توليد الحركة الحضارية الذاتية للمجتمع الإسلامي، وذلك بتحريك الوعي بتلك القيم في نفوس الأفراد.
أولا: طبيعة الأخلاق الإسلامية:
للأخلاق الإسلامية طبيعة متميزة متفردة سواء فيما يتعلق بالإطار النظري لها، أو بأركانها،

وفي سبيل توضيح ذلك؛ نسوق مقدمتين،
ثم نتناول أركان الفعل الخلقي في الإسلام.
المقدمة الأولى: الأخلاق الإسلامية والعقيدة الإسلامية:
لا تصدر الأخلاق الإسلامية عن مصلحة مؤقتة أو منفعة ذاتية، ولما كانت الأخلاق تعتمد على أصل الشعور بها عند الإنسان، بحيث يترجم عنها في صورة أفعال أو انفعال أو لفظ، فإن الإسلام يجعل الإنسان الأساس الذي تقوم عليه الأخلاق، وهذه الأخلاق تهدف إلى تحقيق كرامة الإنسان بمراعاة طبيعته، وقدراته، وما سخر له في السماوات والأرض، وبما أنزل عليه من كتب وما أرسل إليه من رسل، وبذا تتحقق كرامة الإنسان ويتهيأ بها للعمل الصالح المحكوم بسياج العقيدة الصحيحة «١» .
إن هدف الإسلام هو «تحرير البشرية من الرق في جميع أشكاله، وتحريك الإنسان من أجل السعي والدأب على الاحتفاظ بالخصائص الإنسانية، وعدم الانحراف في توجيهها أو في ممارستها» وإذا تحدث الإسلام عن الأخلاق كضابط لسلوك الإنسان، فإنه لا يهدف إلا إلى «أن يبقى الأفراد على مستوى إنساني لا يستذل واحد آخر، ولا يؤذي فرد فردا في بشريته، وبهذا يكون المجتمع مجتمعا إنسانيّا، كل فرد فيه يشعر بالطمأنينة وبالارتياح في صلته بغيره» «٢» .
ومن أهدافه أيضا المحافظة على حرية الإنسان، التي لا يحدها إلا إطار الشرعية أو المصلحة العامة،

---

(١) محمد فتحى عثمان: القيم الحضارية فى رسالة الإسلام، الطبعة الأولى، الدار السعودية، ١٤٠٢/ ١٤٠٣ هـ، ص ٤٢.
(٢) محمد البهي: الدين والحضارة الإنسانية، الجزائر، الشركة الجزائرية، (بدون تاريخ) ، ص ٨٥ (بتصرف) .

فرسالة الإسلام هى رسالة الله للإنسان، وهذا يجعلنا نقول إن إرساء الإسلام لهذه الأخلاق إنما كان لتحقيق مصلحة الإنسان في الدنيا والآخرة، فأخلاق الإسلام كشريعته وعقيدته جاءت ليحصل بها السعادة في الدنيا والآخرة، وتحقيق كافة كمالات الإنسان، ذلك لأن جميع ما في الإسلام «من عقائد وعبادات ومعاملات تتكفل بتحقيق كل مصالح العباد بقسميها الدنيوي والأخروي، فالمسلم المتمسك بأحكام الدين في معاملاته مع الناس من حيث إنها أوامر إلهية، بالائتمار بها، ينال جزاء ذلك في الدنيا بالوصول إلى منافعه، وفي الآخرة بلوغ مرضاة الله وجناته» «١» .
وإذا كانت الغاية من الشرائع السماوية، حصول السعادة في الدارين، فإن هذا يدلنا على أن الله سبحانه لم يترك عباده سدى، بل أنعم عليهم بعد نعمة الخلق بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتب المتضمنة لهداية العباد إلى الحق والخير والسعادة، وجميع الأحكام الكلية والجزئية إنما تهدف إلى تحقيق مصالحهم، وقد اتفقت كلمة العلماء على أن أحكام الله تعالى قائمة على رعاية المصالح، وإن اختلفت العبارات في ذلك «٢» .
والمقاصد الكلية للشريعة تنحصر في المحافظة على كل من: الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال «٣» ، ولو اختل واحد من هذه الأمور الخمسة لاختلت لأجله الحياة، وقد شرع الله لحفظ هذه الضروريات أحكاما لوجودها، وأخرى للمحافظة عليها حتى لا تنعدم بعد الوجود، ووجوب المحافظة على هذه الأمور معلوم على سبيل القطع، وجاءت وسائل الحفاظ عليها في ثلاث مراحل حسب الأهمية، وتتمثل في الضروريات، والحاجيات والتحسينات.
فالضروريات: ما لا بد منه في حفظ الكليات الخمس، ويكون ذلك بإقامة أركانها، وتثبيت قواعدها وبدرء الفساد الواقع أو المتوقع عليها. وفي هذا الإطار شرع الشارع أوامر لتقويم الأركان والوجود، وأوامر أخرى لحفظها من الهدم والفساد، فهي أوامر ونواهي.

أما الحاجيات: فمعناها أنه قد تتحقق من دونها الأمور الخمسة، ولكن مع الضيق، فشرعت لحاجة الناس إلى رفع الضيق عن أنفسهم، كي لا يقعوا في حرج قد يفوت عليهم المطلوب، ومن هذا المجال الرّخص، وإباحة التمتع بالطيبات والتوسع في المعاملات، وغير ذلك.
والتحسينات: هى الأمور التي إذا تركت لا يؤدى تركها إلى ضيق، ولكن مراعاتها متفقة مع مبدأ الأخذ بما

---

(١) محمد سعيد رمضان: ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية، الطبعة الرابعة، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢ م، ص ٨٥.
(٢) يوسف حامد العالم: المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، الطبعة الأولى، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤١٢ هـ/ ١٩٩١ م، ص ٧٧.
(٣) الشاطبي: الموافقات في أصول الشريعة ج ١، ط ٤، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢ م، ص ٨٥.

يليق، وتجنب ما لا يليق، ومتمشية مع مكارم الأخلاق، ومحاسن العادات، ومن هذا المجال أحكام النجاسات، والطهارات، وستر العورة وما أشبه ذلك، وآداب الأكل وآداب الشرب وغير ذلك مما يندرج تحت ما يسمى بالآداب الشرعية «١» .
والهدف من ذلك كله أن يعرف الإنسان الغاية من خلقه وهى معرفة الله عز وجل، ولزوم موقف العبودية له، حيث ينال بذلك الخلود في جناته وظل مرضاته وهذه هي رابطة الحياة الآخرة بالدنيا» «٢» .
والأدلة على ذلك كثيرة وافرة من القرآن الكريم والسنة، ومن ذلك قوله تعالى:
وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ «٣» .
وَابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا «٤» .
أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ «٥» .
إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً «٦» .
مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ «٧» .
ويسوق الراغب تعليلا جيدا حيث يقول: «ما أحد إلا وهو فازع إلى السعادة يطلبها بجهد، ولكن كثيرا ما يخطئ فيظن ما ليس بسعادة في ذاته أنه سعادة فيغتر بها، والنعم الدنيوية تكون نعما وسعادة متى تناولها الإنسان على ما يجب وكما يجب، ويجري بها على الوجه الذي لأجله خلق، وذلك أن الله جعل الدنيا عاريّة ليتناول منه قدر ما يتوصل به إلى النعم الدائمة والسعادة الحقيقية، وشرع لنا في كل منها حكما بين فيه كيف يجب أن يتناول ويتصرف عنها، لكن صار الناس في تناولها فريقين: فريق يتناولونه على الوجه الذي جعله الله لهم فانتفعوا به، فصار ذلك لهم نعمة وسعادة وهم الموصوفون بقوله تعالى: الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ «٨» ، وقوله عز وجل: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَلَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ «٩» ، وقوله تعالى: وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ

---

(١) راجع: محمد سعيد رمضان، مرجع سابق، ص ١١٩- ١٢٠ ويوسف حامد العالم، المقاصد العامة، مرجع سابق، ص ٨٠- ٨٢.
(٢) محمد سعيد رمضان، مرجع سابق، ص ١٢١.
(٣) الذاريات: ٥٦.
(٤) القصص: ٧٧.

(٥) المؤمنون: ١١٥.
(٦) مريم: ٩٣.
(٧) الشورى: ٢٠.
(٨) الحج: ٤١.
(٩) النحل: ٣٠.

فِي الدُّنْيا حَسَنَةً* «١» ، فهؤلاء حيوا بها حياة طيبة كما قال تعالى: فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً «٢» ، وفريق يتناولها لا على الوجه الذي جعلها الله لهم، فركنوا إليها فصار ذلك لهم نقمة وشقاوة فتعذبوا بها عاجلا وآجلا، وهم الموصوفون بقوله تعالى: إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ «٣» ، «٤» .
فالأخلاق في الإسلام- إذا- تعتمد على أهداف العقيدة الإسلامية باعتبار أن العقيدة الإيمانية معيار توزن عليه الأعمال والأقوال وكافة التصرفات، لحفظ كرامة الإنسان وصيانته، وتحقيق سعادته في حياته الدنيا، والأخرى، وعلى هذا فمردود الالتزام الخلقي ليس دنيويا فحسب وإنما أخروي أيضا.
المقدمة الثانية: الأخلاق الإسلامية ومبدأ التكليف:
الإنسان كائن مكلف، ولهذا شواهده من القرآن الكريم والسنة المطهرة، وعلى هذا يمكن فهم الإنسان وفهم هدف حياته، فهو مبتلى بتبعة التكليف، ولذا فهو مسئول عن اختياراته وبناء حياته، قال تعالى: إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ «٥» .
يقول أبو حيان في تفسير هذه الآية الكريمة: بيّن الله أن ما كلفه الإنسان أمر عظيم فقال: إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ تعظيما لأمر التكليف، والظاهر أن الأمانة هي كل ما يؤتمن عليه من أمر ونهي، وشأن دين ودنيا، والشرع كله أمانة، وهذا قول الجمهور، والظاهر عرض الأمانة على هذه المخلوقات العظام- وهي الأوامر والنواهي- فتثاب أن أحسنت، وتعاقب إن أساءت، فأبت وأشفقت، ... وحملها الإنسان على ضعفه ورخاوة قوته «٦» .
والأمر كذلك، فإن الإنسان لا بد أن يكون قادرا على الفعل والترك، أي الاختيار لكي تصبح منه الطاعة بفعل المأمورية، إذ أنه يكون عاصيا بتركه، ويلزم أن يكون الإنسان عالما بالأفعال التي كلف بها، إتيانا أو تركا «٧» .
ويقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى: إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ ... «قال علي بن أبى طلحة عن ابن عباس: الأمانة: الفرائض عرضها الله على السموات والأرض والجبال إن أدوها أثابهم، وإن ضيعوها عذبهم فكرهوا ذلك وأشفقوا منه من غير معصية، ولكن تعظيما لدين الله أن لا يقوموا بها ثم عرضها على آدم

---

(١) النحل: ٤١.
(٢) النحل: ٩٧.
(٣) التوبة: ٥٥.
(٤) الراغب الأصفهاني: كتاب تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، بيروت، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، ١٩٨٣، ص ٦٥، ٦٦.
(٥) الأحزاب: ٧٢.
(٦) البحر المحيط ٧/ ٢٤٣ (بتصرف يسير) ، وانظر صفة الأمانة ج ٣ ص ٥١٠.
(٧) راجع: عبد القاهر البغدادى، كتاب أصول الدين، ط ٣، بيروت. دار الكتب العلمية، ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١ م ص ٢١٠- ٢١٣.

فقبلها بما فيها» «١» .
أيا كان الأمر فقد منح الإنسان ما يساعده على القيام بمهمة التكليف، ويمكن عرض ذلك بإيجاز فيما يلي:
١- الإنسان غاية حياته تحقيق وظائف الاستخلاف في الأرض: وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً «٢» ، وقال تعالى: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ «٣» .
٢- الإنسان وحده من بين سائر الكائنات هو المخصوص بالكرامة والتكريم وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا «٤» .
والفعل المختص بالإنسان ثلاثة:
أ- عمارة الأرض المذكورة في قوله تعالى: وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها «٥» وذلك تحصيل ما به تزجية المعاش وغيره.
ب- وعبوديته لله المذكورة في قوله تعالى: وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ «٦» وذلك هو طاعة الله- عز وجل- في عبادته، في أوامره ونواهيه.
ج- استخلافه المذكور في قوله تعالى: وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ «٧» وغيره من الآيات، وذلك هو الطاعة للباري سبحانه على قدر طاقة البشر في السياسة بامتثال الأوامر واجتناب النواهي واستعمال مكارم الشريعة، ومكارم الشريعة هى الحكمة، والقيام بالعدالة بين الناس في الحكم، والإحسان، والفضل، والقصد منها أن يبلغ الإنسان إلى جنة المأوى، وجوار رب العزة تبارك وتعالى «٨» .
٣- على هذا الأساس وهب الإنسان استعدادات وقدرات ومواهب تؤهله للقيام بتلك الوظيفة سواء المادية والمعنوية، وهما جماع الذات الإنسانية، وبهما تتم حياة الإنسان، ويعود الاهتمام بالجانب المادي إلى أنه وعاء الشخصية الإنسانية، ومن هنا تأتي علاقة الإنسان المادية بالأشياء طبيعية، إذ أنها مفطورة في جبلته «٩» . وهو بهذا قادر على المشى في الأرض، والسعي فيها، وتعميرها وتحسينها، ولو كان الإنسان روحا محضا ما وجدت لديه الدافعية الحافزة له على استخدام المادة والسير في مناكب الأرض، وممارسة معطياتها «١٠» .

---

(١) الإمام أبو الفداء إسماعيل بن كثير: تفسير ابن كثير ط ١، مكتبة الرياض الحديثة، دار الفكر ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م ج ٣، ص ٥٢٣.
(٢) البقرة: ٣٠.
(٣) الأنعام: ١٦٥.
(٤) الإسراء: ٧٠.
(٥) هود: ٦١.
(٦) الذاريات: ٥٦.
(٧) الأعراف: ١٢٩.
(٨) الراغب الأصفهاني، الذريعة إلى مكارم الشريعة، ط ١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٠ م، ص ٣٢.
(٩) اقرأ: سورة ص: ٧١.
(١٠) راجع: يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للإسلام، ط ١، القاهرة، مكتبة وهبة، ١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٧ م، ص ١٣٥.
جـ ١(ص: ٩٤)

وتعطي تعليمات الإسلام الجانب المادي حقه، ولم تنكر مطلبا من مطالبه، بل وجهت إلى ضبطها وضبط إشباعها. ومن التوجيهات النبوية الخالدة، إنكاره صلّى الله عليه وسلّم على من سولت له نفسه حرمان

جسده من حقه وحاجاته الأساسية، يروي البخاري- رحمه الله-: «جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلّى الله عليه وسلّم يسألون عن عبادة النبي صلّى الله عليه وسلّم، فلما أخبروا كأنهم تقالّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي صلّى الله عليه وسلّم؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدا، وقال الآخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» «١» .

إن الإسلام في توجيهاته لم يطغ الجانب المعنوي على الحاجات الحياتية ولكنه يعطي الجانب المعنوي مكانه وأثره حتى يؤدي غرضه، ومن هذه القوى المعنوية التي أولاها الإسلام عنايته العقل باعتباره القوة المدركة التي يستطيع الإنسان عن طريقها أن يعقل الأمور ويميز الخير من الشر، والنافع من الضار.

٤- ومن منطلق رسالة الإنسان فإن لديه الإمكانية والاستعداد لفعل الخير والشر، ويكتسب جانب الخير وجانب الشر بالتطبيع لا بالطبع، وهذا ما أوضحته الآية الكريمة: وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ «٢» . وقوله تعالى فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها «٣» . وهو قادر على فعل الخير وفعل الشر والأمر راجع إلى تربية الاختيار، وقد يختار الإنسان أن يسلك سلوكا مضادا للقوانين الأخلاقية، ولكنه لا يستطيع أن يفلت من الإطار الخلقي بعيدا عن الخير والشر «٤» .

وتعود تلك القدرة على الاختيار إلى التربية: تربية الاختيار، وهذا ما أشار إليه الحديث الشريف: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه» «٥» . والحديث يتضمن تصوير حالة الاستعدادات والقدرات القابلة للتشكيل والصياغة، ويبين أنه من خلال التربية والبيئة والتفاعل والتنشئة الاجتماعية يكون سلوك الإنسان، وتكون إرادته وقدرته على مواجهة الشر والتغلب عليه واختيار الخير، وعلى شكل هذه الإرادة وقوتها تكون حياة الإنسان.

---

(١) صحيح البخاري: بعناية مصطفى البغا، ج ٧، ص ٢٠.

(٢) البلد: ١٠.

(٣) الشمس: ٨.

(٤) علي عزت بيجوفتش، مرجع سابق، ص ٨٤.

(٥) ابن الديبع الشيباني، تيسير الوصول إلى أحاديث الرسول، ج ١، ص ٢٣.

والإسلام يقرر من خلال نصوصه أن هذه القضية ترتبط أصلا بالابتلاء، لأنها ترتبط بالإرادة الإنسانية والاختيار، وهذا يلقي على الإنسان مسئولية ضخمة، قال تعالى: إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً* إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً «١» . وهو سبحانه الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا «٢» .

فالابتلاء يجري على الإنسان في كل لحظة من لحظات حياته، فهو إما مبتلى بالسراء أو بالضراء، بالمعصية أو بالطاعة «٣» .

٥- إن تكليف الإنسان المشار إليه في الآية الكريمة: إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا (الأحزاب/ ٧٢) . هو أيضا ابتلاء، وعلى هذا الأساس كان خلق الإنسان تمهيدا وتأهيلا من حيث كانت قابلة لفعل الخير وتقبله، وكذلك لفعل الشر وتقبله وتحمّل نتائجه، ولذلك زود الإنسان بالصفات الخلقية والعقلية اللازمة للقيام بمهامه في إطار الابتلاء، وكانت القيم الخلقية طبقا للمنهج الإسلامي هي الضابط الأساسي لحركة الإنسان المكلف برسالة الاستخلاف في الأرض، وكانت الابتلاءات الخاصة من منح ومحن لإظهار جودة الإنسان أو رداءته من خلال التزامه بالمنهج الإسلامي في التعامل مع مواقف الابتلاء المختلفة «٤» .

لقد ثارت منذ القدم مسألة الجبر والاختيار، وتنوعت الآراء حولها، والذي يهمنا هنا هو توضيح الموقف الإسلامي الصحيح من خلال نصوص القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهناك عنصران أساسيان للإجابة هما:
أ- غيبية أفعالنا المستقبلة وَما تَدْرِي نَفْسٌ ماذا تَكْسِبُ غَداً (لقمان/ ٣٤) .
ب- قدرة الإنسان على أن يحسن أو يفسد كيانه الداخلي قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها* وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها (الشمس/ ٩- ١٠) .
ويمكن أن تكتمل هذه الإجابة القرآنية من خلال تفهم أن جميع المثيرات مهما بلغت لا تستطيع أن تمارس إكراها على قراراتنا في مواجهة الابتلاءات، يقول الله تعالى على لسان الشيطان: وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا

(١) الإنسان: ٢- ٣.
(٢) الملك: ٢.
(٣) انظر مظاهر الابتلاء.
(٤) انظر تعامل المسلم مع مواقف الابتلاء.
جـ ١(ص: ٩٦)

أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ (إبراهيم/ ٢٢) . هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن هناك إدانة شديدة للأعمال الناشئة عن الهوى أو التقليد الأعمى «١» ، يقول الله تعالى: وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَلكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (الأعراف/ ١٧٦) ، إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آباءَهُمْ ضالِّينَ* فَهُمْ عَلى آثارِهِمْ يُهْرَعُونَ (الصافات/ ٦٩- ٧٠) .
ويرى ابن تيمية: أن الطبيعة الإنسانية تتميز بأنها طبيعة حية، والإرادة والحركة من لوازم الحياة، ولما كانت الإرادة والعمل من لوازم ذاتها، فإذا أهداها الله، علمها ما ينفعها وما يضرها. فأرادت ما ينفعها، وتركت ما يضرها، وهذه الإرادة الحرة المتحركة، النشطة، الفاعلة، المتفاعلة هي من أخص الخصائص الإنسانية، وتبعا لهذه الحركة الإرادية يكون له دور في سلوكه، ومختلف أنماط نشاطه، وميوله، ومن ثم تكون الهداية الإلهية ضرورية، والمعرفة الدينية حيوية، حتى لا تنحرف به ميوله، وإراداته عن طريق الخير «٢» . ومعنى هذا: أن الإرادة الإنسانية لا بد أن يكون لها دورها في اختيار النمط السلوكي، الذي تتحمل مسئوليته، ومما يدعم هذه المسئولية، حريتها بالإضافة إلى الفطرة، والمعرفة الإلهية متمثلة في الكتب والرسل، ومن ثم تبرز مسئولية الإنسان عن فعل الشر «٣» .
إذن الإنسان يعيش بين جبر واختيار، ويتمثل الجانب الجبري في حياة الإنسان في الموروثات التي تكون نفسيته وشخصيته أو تشترك في تكوينها، «من ذكاء وطباع ومزاج وغرائز وعواطف، ومواهب، وقدرات، بالإضافة إلى الشكل العام للجسد وقوته» وكذلك «المكتسبات الناتجة عن تفاعل الموروثات ببيئة الفرد مثل العادات والتقاليد، والأنماط السلوكية والمكانة لكل مجتمع ولكل عصر وما إلى ذلك» ، وهو ضروري «لقيام التجربة الوجودية» «٤» .
ومن الجبر أيضا الرزق والعمر والولد والقوة والجاه وكل ما يمنح الله الإنسان من نعم، وكل ما يصيبه من نقم، وأما الجانب الاختياري فله ركائزه، وهي محققة في القرآن الكريم والسنة المطهرة «٥» ، وهذا الاختيار له مساحاته، وإذا أراد الإنسان ونوى وعزم على الفعل، يأتي الفعل من الإنسان، والتوفيق من الله، وفي كل أفعال الإنسان يظل في تلك الحركة الدائبة، وهذا الجانب الاختياري من حياة الإنسان يتكون من مجموع اختياراته حيال التجارب الائتلافية التي يجتازها في حياته كلها، ومن مجموع الجانبين وامتزاجهما نتج لنا شخصية الفرد واضحة

(١) انظر دستور الأخلاق في القرآن الكريم ص ٢٠٢ (بتصرف واختصار) .

(٢) محمد عبد الله عفيفي: النظرية الخلقية عند ابن تيمية، مرجع سابق ص ٢٥٣.
(٣) المرجع السابق، ص ٢٥٣، ٢٥٤.
(٤) فاروق الدسوقي: القضاء والقدر في الإسلام، مرجع سابق، ص ١٨٠.
(٥) المرجع السابق، ص ٢١٥، ٢٣١.

جلية محددة الاتجاه والمصير، فالإنسان ليس في نهاية حياته سوى عمله الذي اختاره ونفذه ومات عليه» «١» .

وبالإرادة القوية الصحيحة التي تتكون لدى الإنسان عن طريق العلم الصحيح والتربية السليمة المعتمدة على أن الإنسان مفكر ذكي ذو قدرات واستعدادات تساعده على الاختيار السليم يكون الاختيار السليم، ولعل هذا بعض مما يوحى به الحديث الشريف: «اعملوا فكلّ ميسّر» «٢» .

٦- والإنسان لا يعيش وحده بل في مجتمع، أي في علاقة، وهذا النوع من العلاقة لا يمكن أن يوجد إلا في وسط مجتمع له غايته الخاصة، وتأتى معطيات الإسلام مقررة أن الإنسان ليس فردا فردية مطلقة، ولا هو ذائب في الجماعة، بل هو يشكل جزءا من كل أكبر، وهذه الجماعة منسّقة لغايات أسمى، فالإسلام لا يضخم الفرد، ولا يضخم الجماعة، إذ هو يعطى الفرد ذاتيته المسئولة بحيث يصبح في النهاية فردا في مجموع، ويعطى المجتمع كيانا ووجودا في ضمير الأفراد، فهو يغذى في الفرد النزعة الفردية بحيث يشعر بذاتيته واستقلاله ويبين للإنسان دوره في المجموع، لأن الإنسان لا يمكن أن يعيش بمعزل عن المجتمع.

والدور الاجتماعي للفرد مطلوب، وفي الوقت نفسه يقرر الإسلام ضمانات معينة ليسير المجتمع على أساسها، وليوفر الجو المستقر الذي يستطيع الفرد فيه استغلال قدراته كقوة متميزة متفردة، مسئولا عن أعماله إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً* لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا* وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً «٣» .

وفي إطار هذه المسئولية الاجتماعية التي ترتب على الإنسان واجبات عديدة نحو مجتمعه وأسرته، بل ذاته، فإن له أيضا حقوقا لابد أن ينالها مثل حقه في الحياة والتملك، كل ذلك أي تلك الحقوق وما يقابلها من الواجبات يتم من خلال التوجه إلى مرضاة الله تعالى، وبهذا فقط ينشرح صدر الإنسان وتطمئن نفسه، ويتجاوب مع أهله وأصدقائه مشاركا لهم في أفراحهم، ومعينا لهم في وقت الشدة، ويتلقى منهم ما يسر خاطره، وقد جعل الإسلام هذه المشاعر النبيلة وتلك المشاركة الوجدانية الحقة ضمن عناصر الإيمان، يقول الرسول صلّى الله عليه وسلّم: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» «٤» .

ويعنى الإسلام كذلك بتقوية الروح الاجتماعية في الإنسان، ومحاربة القبلية والعائلية والانعزالية في نفسه لأنه مهما اتصف الفرد بأكمل الصفات وأتمها، فلن يتم كماله إلا إذا ملأت الروح الاجتماعية قلبه ووجهت عمله، وأيقظت ضميره، وكانت المسيطرة عليه في كل تصرفاته «٥» .

---

(١) فاروق الدسوقي: القضاء والقدر في الإسلام، مرجع سابق، ص ١٨٠.
(٢) صحيح البخاري، مرجع سابق ج ٣، ص ١٥٤.
(٣) مريم: ٩٣- ٩٥.
(٤) البخاري- الفتح (١٣) ، ومسلم (٤٥) ، وانظر أيضا الأحاديث ٦٣، ٦٥، ٦٧، ٦٨، ٧١.
(٥) مصطفى السباعي، هذا هو الإسلام، ط ١، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٩٧٩، ص ١٠، ١١.

وإلى هذا كله تشير الآيات الكريمة: يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ «١» .

يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَبَثَّ مِنْهُما رِجالًا كَثِيراً وَنِساءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسائَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحامَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً «٢» .
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهاجِرُوا ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا «٣» .
تؤكد الآيات ومعها الأحاديث النبوية مسئولية الإنسان الفرد في بناء المجتمع المسلم، وتؤكد أن الفرد عضو في كيان أكبر، هو المجتمع الإسلامي الذي يقوم على الإيمان والعدل والمساواة والأخوة والتحرك الواعي تجاه أهداف الجماعة الإسلامية.
هذه المعطيات الأساسية تعتبر المبادىء التي تم بناء الفرد المسلم عليها، وهى المنطلقات الأساسية للتكليف السليم، وهي أساس التربية الخلقية السليمة باعتبار أن الأخلاق الإسلامية تحتل المكان البارز في حياة المسلمين ولأن قواعد الأخلاق الإسلامية تتميز عن غيرها لاقترانها دائما بأمر التكليف حيث نرى اقتران أمر التكليف في كثير من آيات القرآن الكريم بالأمر بالفضائل الخلقية، كالبر والتعاون والمودة والأمانة وأمثالها «٤» .
وهذا ما نلاحظه في كثير من آيات القرآن الكريم والسنة المطهرة حيث يربط بين الاثنين في أمر واحد يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ «٥» .
يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ* وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ* وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ «٦» .
هذا ما يتعلق بطبيعة الإنسان كمكلف إلا أن هناك شقا آخر في فهم التكليف يعد ضروريا ومهما، وهو (الأحكام التكليفية) وقد حدد الفقهاء هذه الأحكام في أنها: «ما اقتضى طلب الفعل من المكلف، أو كفه عن فعل،

(١) الحجرات: ١٣.
(٢) النساء: ١.
(٣) الأنفال: ٧٢.
(٤) أبو الوفا مصطفى المراغي: السلوك الخلقي الاجتماعي في الإسلام، العدد ٦٩، سلسلة دراسات في الإسلام، القاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ص ١٤.
(٥) الحج: ٧٧.
(٦) لقمان: ١٧- ١٩.

أو تخيره بين فعل والكف عنه» «١» . أو هو: «خطاب الله، المتعلق بأفعال المكلفين بالاقتضاء أو التخير أو الوضع» «٢» .
وينقسم الحكم الشرعي التكليفي خمسة أقسام: الإيجاب، والندب، والتحريم، والكراهة، والإباحة، وهذه الأقسام تجعل الفعل الصادر من المكلف ذا قيمة أو غير ذي قيمة، وتفصيل ذلك فيما يلى:
* الإيجاب: هو «ما اقتضاه خطاب الله من المكلف اقتضاء جازما، لا يجوز تركه» كالأمر بالصلاة والزكاة والحج، والذي يتعلق بالإيجاب من فعل المكلف: الواجب وهو: «الفعل الذي يذم شرعا تاركه قصدا، أو هو الذي يثاب فاعله ويعاقب تاركه قصدا» «٣» .
- والندب: هو «ما اقتضاه خطاب الله من المكلف اقتضاء غير جازم بأن يجوز تركه» وذلك كالأمر بصلاة الليل والضحى، وصدقة التطوع وإفشاء السلام وغير ذلك، ويتعلق بفعل المكلف ويسمى (مندوبا) وهو الفعل الذي يحمد فاعله ولا يذم تاركه، أو هو الذي يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه، وقد قسمه العلماء أقساما كثيرة «٤» .

- والتحريم: هى «ما اقتضى خطاب الله تعالى من المكلف تركه اقتضاء جازما، بأن منع من فعله ولم يجوزه» كالنهي عن الزنا، وأكل مال اليتيم، والغيبة والنميمة.. ويتعلق بفعل المكلف، ويوصف (بالحرام) وهو الفعل الذي يذم شرعا فاعله قصدا، أو هو الذي يعاقب فاعله ويثاب تاركه «٥» .
والكراهة هي: ما طلب الشارع الكف عنه طلبا غير ملزم بأن كان منهيا عنه واقترن لفظ النهي بما يدل على أنه لم يقصد به التحريم «٦» .
- والإباحة: هى «ما كان الخطاب فيها غير مقتض شيئا من الفعل والترك، بل خيّر المكلف بينهما» ويتعلق بفعل المكلف ويوصف (بالمباح) وهو الفعل الذي لا يتعلق بفعله مدح ولا ذم، أو هو الفعل «الذي لا يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه «٧» .
وهكذا يتضح أن أفعال المكلف تتعلق ببواعث ومثيرات ومعايير معينة، تشكل اتجاهه نحو الأشياء والأفكار والأفعال، والناس مما يجعل هذا الفعل أو هذا السلوك ذا قيمة أو غير ذي قيمة فإذا ما انطبعت نفس الإنسان على الفعل والترك كان ذلك خلقا له.
وخلاصة الأمر أن الإسلام أتى بتلك الأحكام كمعايير لسلوك المسلم، لينظم لهم حياتهم ويصنع بهم العمارة الكبرى في الحياة، ولم يتركهم هملا ولم يكلفهم من أمرهم عسرا، وإنما أخذهم بخطة رشيدة تجعلهم يقومون

---

(١) عبد الوهاب خلاف: أصول الفقه، ط ٨، مكتبة الدعوة الإسلامية (بدون تاريخ) ، ص ١٠١.
(٢) محمد حسن هيتو: الوجيز في أصول التشريع، ط ١، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م، ص ٩٩.
(٣) المرجع السابق، ص ٤٣، ٤٤.
(٤) المرجع السابق ص ٤٣. ٤٤، وراجع: عبد الوهاب خلاف، مرجع سابق، ص ١١٢.
(٥) المرجع السابق ص ٤٣، ٤٤.
(٦) أصول الفقه لمحمد أبو زهرة ص ٤٢.
(٧) الوجيز في أصول التشريع ص ٤٣، ٤٤.

بأعباء الحياة ويعيشونها على نحو فاضل كريم، وكان هذا من باب تزكية الفرد والجماعة لتكون القيم الخلقية معايير ضابطة، ولتكون موصولة بالله تعالى. ومن خلال ذلك يتضح أن الإسلام أعطى للإنسان قيما حقيقية لضبط الحياة وتنظيمها فيتمكن الإنسان من أداء دوره ورسالته المكلف بها.
[ثانيا] أركان الفعل الخلقي في الإسلام:
على أساس مما سبق وعلى ضوئه يمكننا التعرض لبعض الجوانب المتصلة بالأخلاق في الإسلام، حيث إن الأخلاق الإسلامية تعنى إرساء القيم العالية الرفيعة المتصلة بكل نواحي الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والسلمية والحربية، والدينية.
أولا: الإلزام الخلقي ومصدره:
أي عمل يوجه إليه الإسلام لا بد أن يكون موصوفا بالصفة الخلقية، فالواجب، والخير وغيرهما يقومان على فكرة القيمة، التي تستمد من مثل أعلى، وفي الأخلاق الإسلامية فإن الوحي والعقل يعتبران المصدر الأساسي للإلزام الخلقي، جنبا إلى جنب، باعتبارهما مستويين للمصدر الخلقي، وعلى هذا فيمكن التعبير عن ذلك بالمصدر الفطري، والمصدر الموصى به.
وعلى هذا تكون مصادر الإلزام الخلقى كما يلى:
(أ) المصدر الأول: القرآن الكريم
وهو كتاب الله الذي نزل على النبي صلّى الله عليه وسلّم بألفاظه ومعانيه ليكون «حجة للرسول على أنه رسول الله، ودستورا للناس يهتدون بهداه، وقربة يتعبدون بتلاوته، وهو المدون بين دفتي

المصحف، المبدوء بسورة الفاتحة، المختوم بسورة الناس، المنقول إلينا بالتواتر كتابة ومشافهة جيلا عن جيل محفوظا من أي تغيير أو تبديل «١» .
وتشير المؤلفات في أصول الفقه وفي تفسير القرآن إلى احتواء القرآن على آيات تتصل بأحكام العقيدة، والأخلاق، والأعمال الصادرة عن المكلف، وهذه تسمى بالأحكام العملية، وتنتظم على فرعين: العبادات والمعاملات، ويمكن القول بأن القرآن باعتباره معبرا عن الإرادة الإلهية هو المصدر الأساسي للإلزام الخلقي، إذ أن آياته تنتظم على النحو التالي:
- آيات الاعتقاد وهى تتعلق بما يجب على المكلف أن يعتقده في الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره حلوه ومره.
- آيات تتعلق بما يجب على المكلف أن يتحلى به من الفضائل ويتخلى عنه من الرذائل.

(١) عبد الوهاب خلاف: أصول الفقه، مرجع سابق، ص ٢٣.
جـ ١(ص: ١٠١)

- آيات تتعلق بما يصدر عن المكلف من أعمال وأقوال وتصرفات وهي على نوعين: العبادات، ويقصد بها تنظيم علاقة الإنسان بربه، والمعاملات ويقصد بها تنظيم علاقات الناس بعضهم ببعض سواء كانت علاقات أفراد أو أمم أو جماعات، وهذه تضم أخلاقا تتصل بالأسرة، والقضاء ونظام الحكم، ومعاملات الدولة الإسلامية، ومعاملات غير المسلمين، كما تضم أخلاقا تتصل بالنواحى المادية والاقتصادية «١» .
وغاية الأمر، فإن القرآن يحتوى على النسق القيمى الإسلامي بأبعاده المتعددة، فهذا المصدر الأول للإلزام الخلقي. وهو جامع لكل ما يحتاج إليه البشر من موعظة حسنة لإصلاح أخلاقهم وأعمالهم الظاهرة والباطنة، والحكم البالغة لإصلاح خبايا النفس وشفاء أمراضها الباطنة وهداية واضحة للصراط المستقيم الموصل إلى سعادة الدنيا والآخرة. وهذا مقتضى قوله تعالى: يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ «٢» .
والقرآن كتاب الله سبحانه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قال الله تعالى: هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ «٣» . وقال: ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ «٤» .
(ب) المصدر الثانى: السنة:
وهى «ما صدر عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من قول أو فعل أو تقرير» «٥» . فهى بهذا سنة قولية، وسنة فعلية وسنة تقريرية «٦» . وهى مكملة للكتاب وشارحة له، وقد أجمع المسلمون على مر العصور على أن «ما صدر عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من قول أو فعل أو تقرير، ونقل إلينا بسند صحيح يفيد القطع أو الظن الراجح بصدقه يكون حجة على المسلمين، ومصدرا تشريعيا يستنبط منه المجتهدون الأحكام الشرعية لأفعال المكلفين. أي أن الأحكام الواردة في هذه السنن تكون مع الأحكام الواردة في القرآن قانونا واجب الاتباع» «٧» .
ومع هذا فالسنة «أصل في الاستنباط قائم بذاته» «٨» . وقد أمرنا الله- عز وجل- باتباع الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم في كثير من آيات القرآن، يقول الحق تبارك وتعالى:

(١) عبد الوهاب خلاف، ص ٣٢- ٣٤.
(٢) يونس: ٥٧.
(٣) الجاثية: ٢٩.
(٤) الأنعام: ٣٨.
(٥) عبد الوهاب خلاف: أصول الفقه ص ٣٦.
(٦) الإمام أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصري الماوردي: الحاوي الكبير، تحقيق محمد مطرحي، ج ١، بيروت، دار الفكر، ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٤ م ص ٢٩ من المقدمة للمحقق.

(٧) عبد الوهاب خلاف، مرجع سبق ص ٣٧ (بتصرف) .
(٨) محمد أبو زهرة: أصول الفقه، القاهرة، دار الفكر العربي، (بدون تاريخ) ، ص ٨٤.
جـ ١(ص: ١٠٢)

- فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً «١» .
- مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ «٢» .
- وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ «٣» .
- يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ «٤» .
وكما يقول محمد عبد الله دراز: «إن كل حديث صحيح لم يرد ما ينسخه، وكان موضوعه جزءا من رسالة النبي صلّى الله عليه وسلّم، هذا الحديث له في نظر المسلمين نفس السلطة الأخلاقية التي للنص القرآني، ولو اشتمل الحديث علاوة على ذلك، تفصيلات وتحديدات أكثر مما اشتمل عليه النص القرآني، فإن هذا الحديث هو الذي يبين النص القرآني، ويفسره، ويحدده، ويبين نماذج تطبيقه» «٥» .
وقد أوجب الله تعالى لأمته أمرين:
أحدهما: البيان، والثاني: البلاغ.
قال تعالى: يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ «٦» .
وأوجب للرسول على أمته أمرين:
أحدهما: طاعته في قبول قوله، والثاني: أن يبلغوا عنه ما أخبرهم به «٧» .
كما قال صلّى الله عليه وسلّم: «ليبلغ الشاهد منكم الغائب» «٨» .
وقال صلّى الله عليه وسلّم: «بلغوا عني ولا تكذبوا فرب مبلغ أوعى من سامع، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه» «٩» .
يقول الماوردي: «ولما كان الرسول صلّى الله عليه وسلّم لا يقدر أن يبلغ جميع الناس للعجز عنه اقتصر على إبلاغ من حضر

---

(١) النساء: ٦٥.
(٢) النساء: ٨٠.
(٣) النور: ٥٦.
(٤) الأنفال: ٢٤.
(٥) محمد عبد الله دراز: دستور الأخلاق فى القرآن، مرجع سابق، ص ٤١.
(٦) المائدة: ٦٧، أبو الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، أدب القاضي، تحقيق محيي هلال السرحان، ج ١، بغداد، مطبعة الإرشاد، ١٣٩١ هـ/ ١٩٧١ م، ص ٣٦٨.
(٧) المرجع السابق، ص ٣٦٩.
(٨) حديث صحيح، انظر: صحيح الجامع الصغير وزياداته للألباني، ص ٩٤٥ حديث رقم ٥٣٥٢، بلفظ «ليبلغ الشاهد الغائب» . «وليبلغ شاهدكم غائبكم» . ورواه كثيرون، انظر: مجمع الزوائد ١/ ١٣٩.
(٩) حديث صحيح، أخرجه أبو داود فى كتاب العلم، باب (١٠) حديث رقم (٣٦٦٠) ٣/ ٣٢٢، والترمذي في كتاب العلم، (٢٦٥٦) ٥/ ٣٣، والدارمي (٢٢٨) ١/ ٨٦، وابن حبان (٦٢٥٦) ١٤/ ١٤٩.
جـ ١(ص: ١٠٣)

لينقله الحاضر إلى الغائب، ولما لم يبق فيهم إلى الأبد فكل من يأتي في عصر بعد عصر يأخذون بمن تقدمهم من عصر وينقلون إلى من بعدهم من عصر، لينقل عنه كل سلف إلى خلفه فيستديم على الأبد نقل سننه ويعلم جميع ما يأتي لشرائعه.

فصار نقل الأخبار عنه واجبا على أهل كل عصر وصار قبولها واجبا في كل عصر، فلذلك صارت الأخبار عنه أصلا من أصول الشرع» «١» .

ويذكر ابن حبان: «قال أبو حاتم- رحمه الله- قوله «بلغوا عني ولو آية» أمر قصد به الصحابة، ويدخل في جملة هذا الخطاب من كان بوصفهم إلى يوم القيامة في تبليغ من بعدهم عنه صلّى الله عليه وسلّم، وهو فرض على الكفاية، إذا قام البعض بتبليغه سقط عن الآخرين فرضه، وإنما يلزم فرضيته من كان عنده منه ما يعلم أنه ليس عند غيره، وأنه متى امتنع عن بثه، خان المسلمين، فحينئذ يلزم فرضه.

وفيه دليل على أن السنة يجوز أن يقال لها: الآي، إذ لو كان الخطاب على الآي نفسه دون السنن، لاستحال، لاشتمالهما معا على المعنى الواحد» «٢» .

وكل هذا يؤكد المعنى الذي نريد وهو أن السنة الأصل الثاني أو المصدر الثاني من مصادر الإلزام الخلقي في الإسلام، لأن ما صدر عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم مما يتصل ببيان المنهج الإسلامي هو شرع متبع، وبالتالي يكون خلقا من أخلاق الإسلام، وما صدر عنه بمقتضى طبيعته البشرية فهو ملزم إذا قام على ذلك دليل يدل على أن المقصود من فعله الاقتداء، وكذا ما صدر عنه بمقتضى الخبرة البشرية أو بمقتضى العادات الجارية، أما ما صدر عنه ودل الدليل على أنه خاص به فلا يعتبر تشريعا لعموم المسلمين. وعليه: فإن ما يثبت بدليل يقصند به التشريع العام واقتداء المسلمين به فهو من قبيل الإلزام، لأنه قانون يجب اتباعه «٣» .

ومهما يكن من أمر، فإن السنة زاخرة بالأخلاق، ولا غرو فهي حياة النبى صلّى الله عليه وسلّم، والمجتمع الإسلامي المعاصر له، ولأنها مصدر تشريعى لهذه الحياة كانت بالتوجيه ملازمة للقرآن، وبالتالي فإن اعتبارها مصدر الإلزام الخلقي أمر واجب.

(ج) المصدر الثالث: الإجماع:

وهو «اتفاق جميع المجتهدين من المسلمين في عصر من العصور بعد وفاة الرسول صلّى الله عليه وسلّم على حكم شرعى في

---

(١) الماوردي: أدب القاضي، مرجع سابق، ص ٣٧٠.

(٢) الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي: الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، تحقيق شعيب الأرنؤوط. الطبعة الأولى، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٢ هـ/ ١٩٩١ م، ج ١٤/ ١٤٩.

(٣) عبد الوهاب خلاف: مرجع سابق ص ٤٤، ٤٣، ومحمد أبو زهرة، مرجع سابق ص ٨٩، ٩٠.

واقعة» «١» .

ومعنى الاتفاق: الاشتراك إما في القول أو في الفعل أو الاعتقاد، والمقصود بأهل الحل والعقد المجتهدون في الأحكام» «٢» . وإذا أجمعوا على فعل نحو أكلهم طعاما دل إجماعهم على إباحته، كما يدل أكله عليه الصلاة والسلام على الإباحة، ما لم تقم قرينة دالة على الندب أو الوجوب» «٣» .

والأدلة عليه في القرآن كثيرة منها:

- وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ «٤» .

- كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ... «٥» .

- وَمَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصِيراً «٦» .

- وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا ... «٧» .

- يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ... «٨» .

ومن النصوص النبوية، قوله صلّى الله عليه وسلّم، «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون» «٩» . وفي تفسير البخاري: أن الطائفة هم أهل العلم.

ويعلق محمد عبد الله دراز: «أنه إذا كانت عصبة الحق لا تزال باقية في العالم الإسلامي، فإن فكرة الاتفاق الإجماعي على الضلالة سوف تكون إذن مستبعدة، على أنها أمر محال من الوجهة العملية في العالم الإسلامي» «١٠» .

ودور الإجماع هو حسم مشكلة جديدة، ذات طابع أخلاقي أو فقهي، أو عبادي، أما الحياة المادية فليس

---

(١) عبد الوهاب خلاف: مرجع سابق ص ٤٥.

(٢) يوسف حامد العالم، مرجع سابق، ص ٦١.

(٣) المرجع السابق: ٦١.

(٤) البقرة: ١٤٣.

(٥) آل عمران: ١١٠.

(٦) النساء: ١١٥.

(٧) آل عمران: ١٠٣.

(٨) النساء: ٥٩.

(٩) ابن حجر: الفتح (ط المكتبة التجارية) (٧٣١١) ١٣/ ٢٢٧.

(١٠) محمد عبد الله دراز، مرجع سابق، ص ٤٣.

جـ ١(ص: ١٠٥)

له النظر فيها، وشرط الإجماع أن يكون كل عضو مدركا لاستقلاله الأدبي ولمسئوليته الأخلاقية وأن يعبر عن رأيه في حرية، بعد تأمل ناضج في المشكلة المعروضة ولا أحد يمكن أن يكون مجتهدا في هذه الجماعة إلا إذا كان له حق الاجتهاد، أما من له هذا الحق فهم أولئك الذين توفرت فيهم الشروط التي نص عليها العلماء في هذا الشأن، وقد كان الشافعي- رحمه الله- من أسبق من جمع الآلة التي له القياس بها، وهي العلم بأحكام كتاب الله، فرضه وأدبه، وناسخه ومنسوخه، وعامّه وخاصّه وإرشاده، ويستدل على ما احتاج التأويل منه بسنن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فإذا لم يجد سنّة فبإجماع المسلمين، فإن لم يكن إجماع فبالقياس، ولا يمكن أن يقيس حتى يكون عالما بما مضى فيه من السّنّة وأقاويل السلف، وإجماع الناس واختلافهم ولسان العرب، وعليه في ذلك بلوغ غاية جهده، والإنصاف من نفسه حتى يعرف من أين قال ما قال، وترك ما يترك. فأما من تمّ عقله ولم يكن عالما بما وصفنا فلا يجوز أن يقول بقياس، ومن كان عالما بما وصفنا بالحفظ لا بحقيقة المعرفة فليس له أيضا أن يقول بقياس، لأنه قد يذهب عليه عقل المعاني «١» ، وقد استنبط بعض الباحثين شروطا أخرى للمجتهد ليس هنا محل تفصيلها «٢» . ولينظرها من شاء في مظانها من كتب الأصوليين.

(د) المصدر الرابع: القياس:

القياس يفترض وجود حالة نقيس عليها، تمثل بها الحالة الجديدة، وعلى ذلك فالحالة الأصلية ينبغي أن يكون قد سبق لها ذكر في القرآن أو في السنة، أو في الإجماع، ولذا يعرف بأنه «إثبات حكم معلوم في معلوم آخر لاشتراكهما في علة الحكم عند المثبت» «٣» .

وللقياس حجيته، ولهذه الحجية أدلتها من القرآن، والسنة، والإجماع «٤» . ومهما قيل في أمر القياس فإننا لا نجد وراء جهود الفقهاء إلا التوصل إلى المنبع الوحيد الذي يستقي منه الناس جميعا هو حكم الله وهو الحكم الذي أثبته القرآن، ثم الحديث، فالإجماع فالقياس. فالله سبحانه هو إذن المشرع، وليس الآخرون سوى مقررين لأمره وحكمه، بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة «٥» .

---

(١) بتلخيص من الرسالة للإمام الشافعي (٥٠٩- ٥١٠) .

(٢) انظر في ذلك مثلا: كتاب الاجتهاد في الشريعة الإسلامية لمحمد فوزي فيض الله، والبحثين القيمين للشيخ زكريا البري (٢٣٣- ٢٥٦) ، والشيخ علي الخفيف (٢٥٠- ٢٣٢) المنشوران ضمن منشورات المجلس العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض ١٤٠٤ هـ.
(٣) نادية محمد شريف العمري: القياس في التشريع الإسلامي، ط ١، القاهرة، دار هجر، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧ م، ص ٥٣.
(٤) راجع فى هذا: الطيب خضري السيد، الاجتهاد فيما لا نص منه، الرياض، مكتبة الحرمين، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م ج ١ ص ١٣٢- ١٦٥.
(٥) محمد عبد الله دراز، مرجع سابق ص ٥٠.
جـ ١(ص: ١٠٦)

وعموم القول هنا، أن الإلزام الخلقي في الإسلام يستند إلى ما قرره الإسلام عن طبيعة الإنسان من حيث كونه حرّا مختارا وهدى إلى طريقي الفضيلة والرذيلة، ففي الإنسان من حيث كونه فاعلا، عنصر أخلاقي بالمعنى الحق، وفي الأمر الخلقي عنصر آخر هو العقل والحرية، والمشروعية، وتلكم هي العوامل الأساسية في الالتزام الخلقي، ولذا كان القرآن يقف موقفا دافعا أمام عدوين خطيرين للأخلاق الإسلامية، أولهما: اتباع الهوى دون تفكير، والثاني: الانقياد الأعمى دون تمييز.
إذن فالإلزام الخلقي يقوم على مصدرين أساسيين أولهما: النور الفطري، والثاني: النور الشرعي.
والأمر اختيار حر دنيوي ليس مفروضا علويا، ويرجع إلى استخدامنا الحسن أو السيء لملكاتنا وقدراتنا وهي ملكات يزكي تثقيفها النفس، كما يدسيها ويطمسها إهمالها «١» .
ثانيا: المسئولية الخلقية:
كل مسئولية تفترض الإلزام سلفا ويتبعه جزاء، وقد رأينا أن الإنسان مكلف، والأخلاق الإسلامية قائمة على التكليف، ويعني هذا أن الأخلاق الإسلامية قائمة على المسئولية التي تلزم الإنسان بالعمل الخلقي، وتعني المسئولية «تحمل الشخص نتيجة التزاماته وقراراته واختياراته العملية من الناحية الإيجابية والسلبية أمام الله» «٢» .
وتقوم المسئولية على الحرية، ولا يكلف بها مجنون، وتسقط عن صاحب الإرادة المسلوبة، ويشترط في المسئولية الكاملة أن يكون هناك نص ثابت يأمر بالفعل أو بالترك، وأن يكون المسئول كامل الأهلية، ومعنى هذا أن المسئولية الخلقية تقوم على مبدأ الالتزام الخلقي «٣» .
وقد ثبت أن الإنسان لديه أهلية للقيام بهذه المسئولية، والقيام بها شرف للإنسان، وعلى هذا نجد أنفسنا أمام أنواع من السلطة التي تحدد المسئولية، وهي:
١- سلطة داخلية، أي إلزام الفرد نفسه بإرادة وقصد وتصميم، وهناك العزم على فعل شيء وهذا كاف لتحمل مسئولياته إن خيرا فخير وإن شرّا فشر.
٢- سلطة خارجية، أي إلزام من خارج النفس، كأن يتلقى المسئولية من أناس آخرين، أو من سلطة أعلى.

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٩.
(٢) مقداد يالجن: التربية الأخلاقية الإسلامية، ط ١، القاهرة، مكتبة الخانجى، ١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٧ م، ص ٣٣١ (بتصرف) .
(٣) راجع: عبد المنعم الحفني: المعجم الفلسفي، القاهرة، الدار الشرفية، ١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠ م ص ٣١٩، ٣٢٠.
جـ ١(ص: ١٠٧)

وأيا كان الأمر، فإن الإنسان يكون مسئولا أمام نفسه، أو أمام الآخرين (الإنسان والمجتمع) أو أمام الله، هذا ما يعنيه التقسيم السابق، ومع هذا فإن الإنسان يظل مسئولا عن كل شيء أمام الله تعالى.

وعلى ما سبق يمكن أن يكون هناك ثلاثة أنواع من المسئولية:
١- المسئولية الأخلاقية المحضة.
٢- المسئولية الاجتماعية.
٣- المسئولية الدينية.
والمسئولية الأخلاقية المحضة هي ما تقابل الالتزام الذاتي من الإنسان نفسه على الإتيان بشيء أو الانتهاء عن فعل شيء، والمسئولية الاجتماعية هي ما تقابل الالتزام تجاه الإنسان وما يفرضه المجتمع من قواعد، أما المسئولية الدينية فهي ما تقابل الالتزام أمام الله تعالى. ولعله من الضروري الإشارة إلى أن كلا من المسئولية الأخلاقية والمسئولية الاجتماعية إنما هما مسئولية دينية، وفي الوقت ذاته هي مسئولية خلقية، إذ أنه على حد قول (دراز) : «فالمسئولية التي يحملنا إياها غيرنا تصبح بمجرد قبولنا لها مطلبا صادرا إليه شخصنا. وإذا فليس من المستغرب أن نرى القرآن يقدم لنا المسئولية الدينية ذاتها في صورة مسئولية أخلاقية محضة حين يقول بمناسبة بعض التعاليم المتعلقة بالصوم المفروض، وقد تحايل بعض الناس على التخلص منه سرا: عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ «١» . وفي كثير من الأحيان لا يكتفي الكتاب، حين يستحث المؤمنين إلى الطاعة بأن يذكرهم بالأمر الإلهي، بل يذكرهم في الوقت نفسه بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم بأن يطيعوا هذا الأمر» «٢» .
معنى هذا أن الالتزام الذاتي، والمؤسسات الاجتماعية لا حق لها في إصدار التكليف، والمسئولية، ما لم تكن مفوضة من قبل السلطة الإلهية، ويعني هذا أن الأخلاق مرتبطة بالدين ارتباطا واسعا، ولا يمكنها الفكاك من أسره، وعليه فعلى الإنسان المسلم أن يتحمل مسئوليته الخلقية التي أقرتها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ويراعي الأمانة بناء على الأمانة التي حمّلها له القرآن، على أساس من المبادرة الفردية وحفظ العهد، في إطار شرع الله وهذا واجب عليهم.
كما أن عليه أن يتحمل مسئوليته عن التكاليف والأعمال تجاه الآخرين، وذلك انطلاقا من قول الله تعالى:
يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ «٣» . وذلك في إطار شرع الله، أما إذا كان أي من هذه الأمور مخالفا لما في القواعد الإسلامية مخالفة صريحة، فإن عليه أن لا يأتيها. يقول الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم: «السمع والطاعة على المرء

(١) البقرة: ١٨٧.
(٢) اقرأ: وَقَدْ أَخَذَ مِيثاقَكُمْ الحديد: ٨. إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنا وَأَطَعْنا المائدة: ٧. محمد عبد الله دراز مرجع سابق ص ١٤١.
(٣) المائدة: ١.

المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة» «١» . أي لا يجب السمع والطاعة في الأمر بالمعصية، قال ابن حجر: «يحرم على من كان قادرا على الامتناع، وفي حديث معاذ عند أحمد «لا طاعة لمن لم يطع الله» وعنده وعند البزار في حديث عمران بن حصين والحكم بن عمرو الغفاري «لا طاعة في معصية الله» وسنده قوي «٢» . وفي مسند أحمد «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» «٣» .
وعن جنادة بن أبي أمية قال: دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض، قلنا: أصلحك الله حدث بحديث ينفعك الله به سمعته من النبي صلّى الله عليه وسلّم، قال: دعانا النبي صلّى الله عليه وسلّم فبايعناه.
فقال: فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان» «٤» .
يقول ابن حجر في قوله: «أن لا ننازع الأمر أهله» أي الملك والإمارة، زاد أحمد عن طريق عمير بن هانيء عن جنادة «وإن رأيت أن لك رأيا وإن اعتقدت أن لك في الأمر حقا فلا تعمل بذلك الظن بل

اسمع وأطع إلى أن يصل إليك بغير خروج عن الطاعة» وفي قوله «إلا أن تروا كفرا بواحا» قال الخطابي: معنى قوله بواحا يريد ظاهرا باديا من قولهم باح بالشيء يبوح به بوحا وبواحا إذا أذاعه وأظهره» «وعندكم من الله فيه برهان» : «أي نص آية أو خبر صحيح لا يحتمل التأويل، ومقتضاه أنه لا يجوز الخروج عليهم ما دام فعلهم يحتمل التأويل، قال النووي:
المراد بالكفر هنا المعصية، ومعنى الحديث: لا تنازعوا ولاة الأمور في ولايتهم، ولا تعترضوا عليهم إلا أن تروا منهم منكرا محققا تعلمونه من قواعد الإسلام، فإذا رأيتم ذلك فأنكروا عليهم وقولوا بالحق حيثما كنتم» «٥» .
وبهذا يتحقق الاتزان حيث يطيع الإنسان المسلم الأوامر المتسقة مع نصوص القرآن والسنة، ولا يتبع ما يخرج عن أوامرهما أو يتعارض معهما. ولا بد إذن من الإشارة إلى أن المسئولية شاملة متكاملة، إذ أن كل إنسان مسئول مسئولية كاملة عن كافة أعماله، وما منحه من قدرات وإمكانيات، يقول الله تعالى: إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا «٦» . وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره

---

(١) البخاري- الفتح، مرجع سابق، ١٣/ ١٣٠ حديث رقم ٧١٤٤، ط الريان.
(٢) فتح الباري، مرجع سابق ١٣/ ٣١- ١٣٢، ط الريان.
(٣) أحمد بن حنبل، المسند، رقم أحاديثه محمد عبد السلام عبد الشافي ط ١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٣ م (٥/ ٦٦) ، حديث رقم ٢٠٦٨٠.
(٤) البخاري- الفتح، مرجع سابق، ١٣/ ٧، حديث رقم ٧٠٥٥، ٧٠٥٦.
(٥) فتح الباري، مرجع سابق ١٣/ ١٠، ١١.
(٦) الإسراء: ٣٦.

فيم أفناه وعن علمه ما عمل به، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه» «١»
.
ويقول الرسول صلّى الله عليه وسلّم: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية، ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته» «٢» .
وكما نلاحظ، فإن المسئولية شاملة كل شيء في حياة الإنسان. إذ أن كل فرد مسئول مسئولية تامة عن حسن سير الأمور في مجاله، سواء كانت عامة أم خاصة، إذا وكلت إليه، وأسند إليه مسئوليتها.
شروط المسئولية الخلقية في الإسلام:
ذكرنا أن الأخلاق في الإسلام تقوم على أساس من التكليف، وذكرنا أن الإنسان لكي يكون مكلفا، لابد وأن يكون حرا، وأن تكون لديه الإمكانيات اللازمة للقيام بمهام التكليف، وأوضحنا ذلك بما يكفي للإفادة في هذا المجال، ومع هذا فيمكن عرض شروط تحمل المسئولية في إيجاز فيما يأتي:
١- الإعلام والبيان:
إن الإنسان يجب أن تصل إليه الدعوة، وذلك حتى تستيقظ الضمائر الغافلة، وهذا لا يتم إلا بإعلام الإنسان بما هو مفروض وواجب عليه فعلا أو تركا، بمعنى أن الإنسان لابد أن يكون عالما بما هو مكلف به.
وقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يعلم الإنسان وتعلم الأمم بواجباتها وحقوقها عن طريق الرسل الذين يذكرونهم دائما بالأوامر الشرعية من أجل تحقيق المسئولية والالتزام، وقد وردت الآيات القرآنية دالة على ذلك، فما كان الله ليحاسب إلا بعد الإبلاغ والبيان والإعلام، وما كان الله ليعذب أهل القرى دون أن يرسل لهم الرسل والأنبياء لدعوتهم إلى التقوى والصلاح وحتى يكونوا شهداء عليهم، يقول الحق تبارك وتعالى:

- وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (الإسراء: ١٥) .
- وَما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا (القصص: ٥٩) .
- وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَها مُنْذِرُونَ* ذِكْرى وَما كُنَّا ظالِمِينَ (الشعراء: ٢٠٨، ٢٠٩) .
- هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (آل عمران: ١٣٨) .
- وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ (إبراهيم: ٤) .

إن معنى ذلك أن هذا البيان والإعلام هدفه الأساسي رد الناس إلى الاهتداء بنور الوحي المنزل حتى

---

(١) أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة: الجامع الصحيح، سنن الترمذي، تحقيق كمال يوسف، ط ١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٧ م، ٤/ ٥٢٩ حديث رقم ٢٤١٧، وقال: هذا حديث حسن صحيح. وقال محقق «جامع الأصول» (١٠/ ٤٣٦) : وهو كما قال.

(٢) ابن حجر- الفتح، مرجع سابق، ١٠/ ٣٧٥، حديث رقم ٥٢٠٠ وقد وردت روايات متعددة فى أرقام: ٢٥٥٤، ٢٥٥٨، ٢٧٥١، ٥١٨٨.

جـ ١(ص: ١١٠)

يصلوا إلى الهداية، فإذا ضلوا كان العذاب الغليظ، وإذا اهتدوا كانوا في سعادة في الدنيا والآخرة. وذلك حتى يكون الجزاء لعمل ناتج عن عمل. وحتى يكون الحساب على أفعال قد علموا مسبقا أحكامها.

٢- الالتزام الشخصي:

وتتسم المسئولية الخلقية في الإسلام بأنها ذات طابع شخصي فردي خالص، ونجد كثيرا من الآيات القرآنية الدالة على ذلك:

- لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها لَها ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ «١» .
- مَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى «٢» .
- وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى «٣» .

فالإنسان مسئول مسئولية كاملة عما يصدر عنه من أفعال، وعلى ذلك يأتي الثواب والعقاب. فمسئولية كل فرد واضحة جلية عن العمل الذي يقوم به سواء كان هذا العمل من أجل نفسه أو من أجل الغير إذ هو لا يتحمل تبعة عمل إنسان غيره، ولكنه مسئول عن الطريقة التي أتى بها هذا العمل أو ذاك بعد أن علم وتعلم سبل الخير والشر.

إلا أن هذه المسئولية الفردية لا تمنع الفرد أن يكون مسئولا عن انحراف مسلك أقرانه، فعليه أن يتدخل بوسائل مشروعة ليمنع الجماعة من التمادي في الأعمال التي تضر المجتمع الإسلامي، وهنا تتحول المسئولية إلى مسئولية ذات طابع جماعي، حيث إن هذه الجماعة ما هي إلا مجموعة الضمائر التي تربت في أحضان المدرسة الإسلامية الحقة. فأوجدت المجتمع المتكافل والمتعاون الذي يعمل من أجل الخير والسلام «٤» .

٣- النية (القصد) :

وهذا الشرط يتعلق بعلاقتنا بالعمل، وهذه العلاقة علاقة إرادة، فبعد المعرفة والإعلام، والذي أنتج الطابع الشخصي للمسئولية، فإن هناك مركزا داخليّا في النفس الإنسانية تصدر عنه إرادة العمل، أو النية، حيث يتبنى الإنسان الفعل أو يحققه ويؤكده من داخله، والإنسان ليس بما يفعل، فحسب بل بما يرغب فيه بشغف، وبدون ذلك يصبح عمل الإنسان آليا، ومجرد صدفة في العالم الذي يعيش فيه، فالأخلاق الحقيقية ينصب اهتمامها على النية أن تريد وأن تعمل، وذلك أمر إنساني فبالإرادة والعمل ينتهي مجال الأخلاق، أما النتائج والمعطيات فهي أمور بيد الله تعالى.

---

(١) البقرة: ٢٨٦.

(٢) الإسراء: ١٥.

(٣) النجم: ٣٩.

(٤) محمد ممدوح محمد علي العربي: الأخلاق السياسية في الفكر الإسلامي، مرجع سابق، ص ٢٢٠، ٢٢١. وراجع: محمد عبد الله دراز: دستور الأخلاق للقرآن، مرجع سابق، ص ١٥٥.

ولعله من المهم الإشارة إلى أن الإنسان غير مسئول عن الأعمال اللاإرادية للإنسان حيث يفتقر إلى الإرادة، ولا هو مسئول عن الفعل الخطأ غير المقصود أو المراد وذلك لعدم استهدافها الشر أو الخطأ. فالإنسان لا يحاسب على عمل إلا إذا توافر القصد الكامل له. وهذا مصداق قوله سبحانه وتعالى: وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فِيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ «١».

وهكذا يظهر دور النية في الأخلاق الإسلامية باعتبارها شرطا ضروريا، وعلى ذلك هي شرط للمسئولية، ومصداق هذا قول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنما الأعمال بالنيات» «٢». ويفيد الحديث أن الأعمال لا قيمة لها إلا بالنية، وأن الأعمال بنياتها، وعلى هذا فالأعمال لا توجد «أخلاقيا» إلا بالنية، وهذا يؤكد وجود النية كشرط لقيمة الفعل الخلقي «٣».

٤- حرية الاختيار:

حين تتحقق شروط المعرفة والعمل الإرادي على بصيرة من الفرد بما يعمل، فليس معنى ذلك أن العمل قد استوفى جميع شروط المسئولية، إذ أن هناك شرطا آخر على درجة من الأهمية، وهو القدرة وفاعلية الجهد الإنساني، أو بتعبير آخر: الحرية. ويؤكد «دراز على ذلك بقوله: «إن مبدأ التناسب بين المسئولية والحرية تمتد جذوره بعمق في الضمير الإنساني، بحيث لا يمكن تجاهله دون أن يبدو في موقفنا شيء من الإجحاف «٤».

إن المسلم مطلوب منه استخدام قدرته على الاختيار حتى لا يتخذ من القضاء والقدر ذريعة للتهرب من المسئولية، وقد بسطنا القول قبل ذلك فيما يتعلق بشرط التكليف، وهو أن يكون الإنسان مختارا فلا معنى لكون الإنسان مجبرا على شيء ونحاسبه عليه وإنما يحاسب على اختياراته. إن الإنسان يصبح مسئولا، وهو يحقق ذاته بنفسه، وهكذا يصبح مسئولا أمام الله عما آتاه من فعل بإرادته وحريته.

لعله قد تبين أن المعرفة لا تكفي دليلا على تحمل المسئولية الخلقية، ما لم تصاحبها النية (الإرادة الجازمة) تجاه الخير أو الشر، وهذه الإرادة وحدها- أيضا- لا تكفي، بل لا بد من الاختيار والقدرة والحرية التي تسلك معها في نمط واحد حتى تكون الخلقية هي الصفة الجوهرية التي تميز الإنسان المسئول في هذه الحالة «٥».

وكما يقرر «دراز» : فالشروط الضرورية والكافية لمسئولياتنا أمام الله وأمام أنفسنا هي: أن يكون العمل

---

(١) الأحزاب: ٥.

(٢) ابن حجر- الفتح ج ١، حديث رقم (١).

(٣) محمد ممدوح العربي: الأخلاق السياسية، مرجع سابق، ص ٢٢٠، ٢٢١، محمد عبد الله دراز: دستور الأخلاق فى القرآن، ص ١٧٩، ١٨٠، وابن حجر: فتح البارى، (ط الشيخ بن باز، ج ١، ص ٢٠، ٢١).

(٤) محمد عبد الله دراز: دستور الأخلاق فى القرآن، مرجع سابق، ص ١٨١.

(٥) محمد عبد الله عفيفى: الأخلاق عند ابن تيمية، مرجع سابق، ص ١٨٧، ١٨٨.

شخصيا، إراديا، تم أداؤه بحرية «أي بدون إكراه» وأن نكون على وعي كامل وعلى معرفة بالشرع أو القانون «١».

ثالثا: الجزاء:

يعتبر الجزاء العنصر الثالث من عناصر النظرية الخلقية. فالقانون الخلقي يبدأ بتوجيه الدعوة إلى الإرادة، فتستجيب لتلك الدعوة، ثم بإعلان الالتزام تأتي المسئولية، كاستجابة جازمة، ثم يأتي التقويم بعد ذلك، أي يأتي الجزاء.

فالجزاء هو رد فعل القانون الخلقي على موقف الأشخاص الخاضعين لهذا القانون والملتزمين به.

وللجزاء ثلاثة ميادين هي:

١- الجزاء الأخلاقي. ٢- الجزاء الشرعي. ٣- الجزاء الإلهي.

وفيما يلي تناول موجز لهذه الأنواع:

(١) الجزاء الأخلاقي:

يباشر الإنسان عمله طبقا لقواعد يعرفها ويحس بها، وبعد ذلك تحدث في النفس أصداء معبرة عن الرضا في حالة النجاح، وعن الألم في حالة الفشل، هذا يتعلق بالإنسان الذي يعرف أن هناك قواعد للسلوك، أما ذلك الإنسان الذي لا يعرف قواعد السلوك فإنه يكون فاقدا لمعنى الخير والشر تماما، فما معنى هذا بالنسبة للجزاء الخلقي؟.

يحلل ذلك الدكتور دراز متوصلا إلى أن الندم لا يعتبر جزاء لما يقترفه الفرد، وهو ليس بعقوبة أو مكافأة للقانون الأخلاقي. ويرى كذلك أن المتعة والألم اللذين نحس بهما بعد أن نفعل خيرا أو شرا هما رد فعل لضميرنا على ذاته، أكثر من أن يكون رد فعل للقانون علينا. فهما تعبيران طبيعيان يدلان على توافق في الذات مع المثل الأعلى، أو على تضاد الذات معه. وهذا ما تدل عليه النصوص النبوية. يقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إذا ساءتك سيئتك، وسرتك حسنتك فأنت مؤمن» «٢» . فالحديث لم ينظر إلى حالات النفس هذه على أنها ثواب يقتضيه سلوكنا، وإنما رأي فيه ترجمة وتحديدا للإيمان الخلقي.

وفي حديث آخر: «إنه المؤمن يرى ذنوبه كأنه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه» «٣» . وهذا يعود إلى درجة شدة اللوم الباطن التي تعكس صدق إيماننا وتقيس درجته قياسا دقيقا فنحن نشعر بمساءة الذنب وخطورته فينا لدرجة شعورنا الحي بالتكليف.

---

(١) محمد عبد الله دراز: دستور الأخلاق فى القرآن، مرجع سابق، ص ٢٢٢.

(٢) مسند أحمد ٥/ ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٦.

(٣) الترمذى، كتاب صفة القيامة ٤/ ٥٦٨ برقم ٢٤٩٧.

وهذا كله يشير إلى أن الندم لا ينشيء جزاء ثوابيّا، ولا جزاء إصلاحيّا. ولذا فإن الجزاء الخلقي الصحيح هو ذلك الشعور الذي يعيد تثبيت القانون المنتهك وهو (التوبة) ، والندم هو مقدمة التوبة وإعداد لها. وهو محاولة لتجميع قوى النفس ورأب لصدعها، وتجد في حرارة الندم المؤلمة وسيلتها لتلتئم وتقوى، وتعاود حمل الأمانة من جديد بمزيد من الطاقة والحماس وقد يثير الندم التوبة، وقد لا يثيرها على وجه الإطلاق، أي أنه لا يستتبعها كنتيجة مبدئية «١» .

وعلى هذا فالتوبة هي الجزاء الخلقي، يفرض تدخل الجهد من أجل الإصلاح، إنها واجب يفرضه الشرع على أثر تقصير في أداء الواجب، وهناك الكثير من الآيات والأحاديث الدالة على ذلك «٢» . لكون التوبة كذلك، فإنها في ذاتها ندم على ما سلف، وإقلاع عنه في الحال، وعزم على عدم المعاودة في المستقبل «٣» .

إن التوبة لا يمكن أن تؤدي وظيفتها الإصلاحية في الأخلاق الإسلامية إذا اقتصرت على الأسف على ما اقترفناه من شر والعزم على عدم المعاودة ولكنها موقف أكثر تعقيدا، موقف ينظر للماضي والحاضر والمستقبل، ويتجلى في الأفعال لا في اتخاذ خط سلوكي جديد فقط، بل أيضا في إعادة تجديد البناء الذي تهدم بصورة منهجية، وقد أوضح القرآن مجموع الشروط الموضوعية الضرورية ليصبح للتوبة عائدها الحقيقي هو الغفران.

- إِلَّا الَّذِينَ تابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ «٤» .
فليس المهم التوبة فقط، وإنما الإصلاح، إصلاح ما نقص أو فسد أو أفسده الإنسان وهذا الإصلاح يتمثل في أمور عدة:
- إما في عمل ناقص، ويجب أن يعاد، ويؤدى بطريقة مناسبة آجلا أو عاجلا.
وإما في إصلاح شر بتعويض آثاره من سلبيات إلى تقليل آثاره السلبية بأداء أفعال ذات طبيعة مناقضة للفعل الأول: إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ «٥» .
وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ* خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها «٦» .

---

(١) محمد عبد الله دراز: دستور الأخلاق في القرآن، مرجع سابق ص ٢٤٨- ٥٠٢ (بتصرف).
(٢) راجع: صفة التوبة من صفات الموسوعة.
(٣) راجع ابن القيم: مدارج السالكين لابن القيم، ج ١، ص ٢٠٢، ٢٠٣.
(٤) البقرة: ١٦٠، الأنعام: ٥٤، والنحل ١١٩.
(٥) هود: ١١٤.
(٦) التوبة: ١٠٢- ١٠٣.

- وإما في خطأ واجب إزالته: وفي هذا المجال يميز الرسول صلّى الله عليه وسلّم بين أخطاء تنتهك واجبا شخصيا، وما يطلق عليه: حق الله. وهو إما أن يكون خالصا أو مختلطا عن إنسان آخر. وبين أخطاء ترتكب في حق العباد، وهو ما يسمى: حق العباد.
والأخطاء التي في حق الله تعالى يغفرها الله تعالى، إلا الشرك. أما ما يتعلق بحق العباد فمهما فعلنا من أفعال طيبة مناقضة، ومهما دعونا الله أن يغفر لنا فإنه يظل عاجزا عن أن يصل إلى التوبة الكاملة، إذ يجب أن نحصل على إبراء صريح ومحدد من الذين أساءوا إليه، والأحاديث الشريفة في هذا المجال وافرة رويت في الصحيحين وفي المسانيد.
إلا أن الأمر لا يتوقف على مجرد الجزاء الإصلاحي. بل هناك جزاء ثوابي لممارسة القواعد الخلقية، فالفضيلة لها محاسنها، فالصلاة تجعلنا على اتصال بمنبع الكمالات، والزكاة تزكى، والصوم وسيلة إلى بلوغ التقوى، وبالجملة فإن ممارسة الفضائل تجعل الإنسان حكيما. شجاعا. كريما.
وكذلك ممارسة الرذيلة لا يتوقف أمرها على أضرار اجتماعية وفردية، بل يمتد أثرها إلى الجوانب النفسية والروحية. والأحاديث في هذا الباب كثيرة. ودلالتها واضحة.
وبالجملة كما يقول الدكتور دراز: «إن الجزاء الأخلاقي الثوابي يتمثل في الحسنة والسيئة أي في كسب القيمة أو خسارتها كَلَّا إِنَّ كِتابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ «١» . كَلَّا إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ «٢» «٣» .
٢- الجزاء الشرعي:
المراد بالجزاء الشرعي تلك العقوبات التي أقرتها الشريعة الإسلامية لأولئك الذين يتعدون حدود الله، فيظلمون بذلك أنفسهم أولا، وغيرهم ثانيا.
إنه إذا كان الجزاء الأخلاقي يتصل بتركيب النفس من حيث الإصلاح وتزكية النفس فإن الجزاء الشرعي جزاء تأديبي أو عقابي لكل من تسول نفسه تجاوز قانون الحياة في المجتمع الإسلامي.
إن الترغيب والترهيب وإن كان لهما أثر بالغ في الردع عن مخالفة القواعد الشرعية لما يحدثانه من خشية وخوف ورجاء وطمع، ويؤازرهما في ذلك ما يسمّى ب «الوازع الأخلاقي» المتمثل في محاسبة النفس ومجاهدتها وما ينجم عن ذلك من نهي النفس عن الهوى وابتعاد الإنسان عن ارتكاب الخطايا والآثام، إلا أن ذلك كله قد لا

---

(١) المطففين: ٧.

(٢) المطففين: ١٨.
(٣) محمد عبد الله دراز: دستور الأخلاق، مرجع سابق، ص ٢٦١.

يكفي- أحيانا- لكف بعض الأشقياء عن الظلم والاعتداء واقتراف الجرائم ومن ثم كان الوازع المتمثل في الحدود الشرعية، هاما وضروريا في هذا المجال، نظرا لما لهذا الوازع من خطورة اجتماعية.
وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا الجزاء الشرعي يرتبط بارتكاب الأمور المنهي عنها شرعا، تلك الأمور التي تعد في حد ذاتها من المفاسد الأخلاقية، ومن هنا ندرك أهمية الجزاءات الشرعية في دفع المفاسد الأخلاقية «١».
إن لهذه الجزاءات الشرعية أهدافا عديدة ترمي إلى تحقيقها منها:
١- الردع عن ارتكاب الجرائم أو تكرار ارتكابها، وبالتالي تربية هؤلاء وإصلاحهم.
٢- جعل من يرتكب هذه المفاسد أو الجرائم عبرة وعظة لغيرهم، وزجر هذا الغير عن التشبه بهم.
٣- تلافي الثأر، وإحلال الوئام والسلام في المجتمع والمحافظة على أمنه وسلامته «٢».
وبالنظر في نظام المجازاة في التشريع الإسلامي يمكن أن نميز فيه مرتبتين أساسيتين هما:
١- الحدود: وهي الجزاءات التي حددها الشرع بدقة وصرامة. وهي من حقوق الله تعالى، ولا تسقط بالعفو ولا بالصلح، وهذه تتعلق بالجرائم التالية:
الزنا، السرقة، القذف، شرب الخمر، البغي، قطع الطريق، الردة.
والصرامة في هذه العقوبات لا تتيح مجالا أمام أي تنازل أو حل وسط. وفي الأحاديث ما يوضح ذلك جيدا فلا شفاعة لأحد في حد من حدود الله ولا تنازل عن توقيع هذا الحد، يوضح هذا ما روي عن عائشة- رضي الله عنها- أن قريشا أهمتهم المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا: من يكلم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ومن يجتريء عليه إلا أسامة حب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فكلم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال: «أتشفع في حد من حدود الله؟» ثم قام فخطب قال:
«يا أيها الناس إنما ضل من كان قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد، وأيم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» «٣».
وهذه الأخطاء لا يجوز العفو فيها إلا إذا كان في المجال الخاص، فمتى وصلت السلطة الجريمة أصبح تطبيق الحد أمرا جازما لا رجعة فيه «٤».
إن هذه الحدود باعتبارها حق الله تعالى: إنما جعلت للحفاظ على حياة الإنسان، وبدنه وماله وعرضه،

---

(١) صبحي محمصاني، الدعائم الخلقية للقوانين الشرعية، ص ٤٣٠- ٤٣٣ (بتصرف واختصار).
(٢) السابق، ص ٤٣٣- ٤٣٥ (بتصرف).
(٣) صحيح البخارى (ط البغا)، ج ٦ حديث رقم ٦٤٠٦، كتاب الحدود. باب ١٢.
(٤) اقتصرنا هنا على ذكر الخصائص العامة، أما العقوبات نفسها فيمكن مراجعة كتب التشريع الإسلامي في هذا المجال.

بمعنى آخر الحفاظ على المقومات الأساسية لحياة الإنسان، ولأن الله خالقها وحده جل علاه، جعلها حرمات لا يجوز لأحد الاقتراب منها إلا بحقها فإذا ما تجاوز أحد ذلك كان الحد.
وفي هذا المجال يشير دراز إلى حقيقة مهمة، وهي أن الجرائم التي تقع تحت طائلة القانون هي تلك الرذيلة التي تتفشى، وتعرض نفسها، وتتحدى، أما حالة الإنسان الذي يستتر، وترتعد فرائصه حين يخضع لأهوائه، وهو الواقع الذي لا ينكشف لنا، لا بذاته، ولا بواسطة صاحبه، فإنه سيكون من اختصاص محاكمة الله تعالى له. وهذا ما يشير إليه الحديث الشريف حين يقول: «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا..... فمن وفي منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك

شيئا فعوقب به فهو كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله عليه، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه» «١» .
وفي نص آخر يشير إلى استهجان النبي صلّى الله عليه وسلّم فعل بعض الناس. ممن يقعون في الحرام خفية ثم يثرثرون بما فعلوا: «كل أمتي معافى إلا المجاهرين. وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا، ثم يصبح وقد ستره الله عليه. فيقول: عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه» «٢» .
٢- التعزيرات: وهي عقوبات تأديبية يفرضها القاضي على جناية أو معصية لا حد فيها. ويتعلق بالتعزير حقان: حق الله وحق العباد، وما كان حق العباد فيه غالبا فيجوز قبول العفو فيه، وما كان حق الله فيه أغلب فبرغم عفو المتضرر فإن التعزير واجب.
وهنا تتنوع العقوبة الموقعة على المجرم من تأنيب، إلى تعنيف أمام العامة إلى السجن، إلى الجلد، ومن حق القاضي أن يتغاضي عن بعض الأخطاء القليلة حين تقع من إنسان ذي خلق.
وقد روي عن النبي صلّى الله عليه وسلّم: «أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا الحدود» «٣» .
٣- الجزاء الإلهي:
إذا كان النوعان السالفان من الجزاء ينتميان إلى مجال الواقع الدنيوي، فإن الجزاء الإلهي له طبيعته وامتداداته، ولعل هذا يرتبط أساسا بنظام التوجيه الإسلامي في القرآن والسنة، ولهذا بحثه الخاص، إلا أنه يمكن القول أن القرآن حدد الجزاء الإلهي في ناحيتين.

---

(١) صحيح البخاري (ط. البغا) - ج ٦، حديث رقم ٦٤٠٢، كتاب الحدود، باب ٨.
(٢) المرجع السابق، ج ٥ حديث رقم ٥٧٢١، كتاب الأدب باب ٦٠ وراجع دستور الأخلاق في القرآن ٢٧٠، ٢٧٢.
(٣) سنن أبي داود، حديث رقم ٤٣٧٥.

١- الجزاء الإلهي في العاجلة: أي في الدنيا.
وهذا الجزاء الإلهي في الدنيا له عدة جوانب:
الجانب المادي: ويعني أن من يقوم بفعل الأوامر يلتزم بقواعد السلوك الخلقي يحصل على نصيب من ثوابها في الدنيا، وكذا من يتجنب فعل الفضيلة ويأتي مضادها فإن الله يصب سخطه عليه في غضبه على هذا السلوك المنحرف. وفي القرآن أمثلة تؤكد ذلك:
وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ «١» .
وفي سورة سبأ وبعد عرض قصتهم يقول الله عز وجل: فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَواتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ* ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا وَهَلْ نُجازِي إِلَّا الْكَفُورَ «٢» .
وهكذا في قصة صاحب الجنتين، وفي قصة أصحاب الجنة، وفي قصص الأمم الأوائل الذين كذبوا الرسل، كل ذلك يدلنا على أن غير الملتزمين، والمتمردين يدفعون ويجازون من حياتهم، أما حالات الإفساد العام أو انتشار الفساد الأخلاقي العام فإن الله سبحانه يقابلها بتدمير الشعب كله وإهلاكه، وينجي الله المتقين الصالحين المحسنين الطائعين.
وهكذا: وباستقراء آيات القرآن نجد أنه يثير اهتمامنا وانتباهنا وانتباه البشر جميعا إلى أن الأمن والترف ما كان ليعصم الناس من الجزاء الإلهي إذا انتشر الفساد.
وهناك حالات يحتوي الجزاء فيها على حالات مادية، أو عناصر مادية: وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ «٣» ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ «٤» . وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ «٥» .

- تأييد الله لجماعة المؤمنين:
وهذا التأييد والنصر من الله سبحانه لجماعة المؤمنين الملتزمين بالقانون الخلقي، وهذا التأييد يشمل النصر والمساعدة والتثبيت، أما خصوم المؤمنين فهم مسوقون إلى الهزيمة والعذاب، وموعودون بالذل، ومشمولون بالخزي.
وفي نص واحد يبين الحق تبارك وتعالى هذا الجزاء الدنيوي في قوله تعالى: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى لَهُمْ

---

(١) النحل: ١١٢.
(٢) سبأ: ١٦، ١٧.
(٣) الطلاق: ٢، ٣.
(٤) الزمر: ١٠.
(٥) النحل: ٤١.
جـ ١(ص: ١١٨)

وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً «١» .
أما إذا ركن الناس إلى الأخلاق المنحلة، والفوضي والعصيان فإن الجزاء عبر عنه القرآن بقوله تعالى: وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ «٢» .
- الهداية والرشاد:
إن الأمر لا يقتصر على ما سبق من جزاءات مادية، أو جزاءات جماعية، فالجزاء الإلهي في الدنيا يمتد إلى هداية المؤمنين، وهداية قلوبهم، ويبدد ظلماتهم، ويوصلهم إلى النور، ويرشدهم إلى الطريق المستقيمة، ويمنحهم القوة على تمييز الحق من الباطل والخير من الشر، ويصلح نواياهم، ويزيدهم نورا، ويهدي خطاهم على دروب مستقيمة، وينزل في قلوبهم الطمأنينة والسكينة.
أما الظالمون فيحدث لهم عكس ما يحدث للمؤمنين المتمسكين بالفضيلة. وكذلك المؤمنون إذا ما غيروا مواقفهم فإن ذلك يؤدي إلى سحب النعم الممنوحة لهم ليصبحوا كالظالمين تماما.
- رضا الله تعالى وحبه:
وهذا نوع من الجزاء العظيم، وهذا هو الهدف الأسمى الصالح للحصول عليه، حيث يسعى المسلم من خلال سلوكه إلى التمثل بالصفات المستحسنة عند الله، فهو من المحسنين والمقسطين، والصابرين، والمتقين، والمتطهرين، والمتوكلين، ومحبيه، الذين يقاتلون في سبيله، إن المسلم كلما وقف موقفا يحترم فيه أوامر الله تعالى كلما اقترب من رضاه ورحمته، وفي نفس الوقت كلما وقف موقفا لا يحترم فيه أوامر الله تعالى اقترب من سخط الله وعدم حبه.
٢- الجزاء الإلهي في الآجلة: (الحياة الأخرى) :
لا يقتصر الجزاء الإلهي على الجزاءات الدنيوية والتي سبق بيانها، بل إن الجزاء الإلهي يمتد إلى الآخرة فهناك عودة للعدالة الإلهية، أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ «٣» . أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً «٤» .
ومن ثم نجد تفرقة واضحة بين المؤمنين الصالحين، والظالمين، فلكل منهم جزاؤهم في الآخرة، مما يجعل العمل الدنيوي مرتبطا أيضا بالجزاء الأخروي: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ «٥» . أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ

---

(١) النور: ٥٥.
(٢) محمد: ٣٨.

(٣) المؤمنون: ١١٥.
(٤) القيامة: ٣٦.
(٥) الجاثية: ٢١.
جـ ١(ص: ١١٩)

كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ «١» .
ولذا نجد الجزاء الأخروي على نوعين: الجنة للصالحين، وفيها نعيم مقيم وخلود دائم. والنار للعصاة والمفسدين والفجار خالدين فيها أبدا. ثم هناك الرضوان على المؤمنين وعدم الرضوان على الكفار والفاسدين «٢» .
والخلاصة:
أن المؤمن مرتبط دائما بخالقه، وبالقرآن الكريم وبالرسول صلّى الله عليه وسلّم ولو غفل في ساعة الضعف البشري عن العقوبة الآجلة أو الأخروية لارتكاب المنكر فإن تفهمه للعقوبة الدنيوية وقوة حجمها وشدة وطأتها يبعده عن الاقتراب من المنكر وينهاه عن أن تمتد قدمه أو يده إلى المحرم، ويرجعه إلى رشده وإلى ملكاته العقلية، فيتيقظ لديه الرادع الديني ويخمد نداء الشيطان وسرعان ما يستطيع أن يلجأ إلى الوسيلة التي تطرد عنه وسوسة الشيطان وما قد يزينه له من عمل يراه حسنا، هذه الوسيلة ميسرة ومعروفة لدى كل مسلم، ولا تكلفه سوى التصميم على عمل الخير والإرادة القوية لأن يتجنب طريق الغواية وسبيل الهوى والفساد، هذه الوسيلة هي قول الله تبارك وتعالى:
وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ* وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (المؤمنون ٩٧/ ٩٨) .
فالعقوبة الدنيوية طريق لتنبيه الغافلين وإيقاظ اللاهين وحاجز منيع يحول دون تجاوز طريق المباحات إلى المحرمات فكانت كإشارة المرور في الطريق لتبين معالم الخطر وحدود السبل التي يحق للسائق أن يسير بها في سيارته آمنا مطمئنا وحدود السبل التي لا يحق له أن يصل إليها ولا أن يمر بها ولا أن يدخل مداخلها، والرجوع عنها واجتنابها خير من إيقاع الذات بالخطر وخير من المهالك التي قد تقضي عليه وعلى غيره.
والحدود الإسلامية التي هي العقوبات الدنيوية إنما شرعت للحفاظ على حياة الناس وأعراضهم ودمائهم وأعضائهم وقد يكون داعي القتل هو الغضب والعنف أو حب الجاه والمنصب والتعالي على الآخرين وقد عالج الإسلام ذلك بطريقة مثالية واقعية قبل أن يشتد الغضب وقبل أن يغلي حب الانتقام في النفس وقبل أن يسيطر العجب والكبر على الإنسان ويجعله كالريشة في مهب الهواء، فقد عالج الإسلام هذه الحالات النفسية كلها علاجا واقعيا مثاليا، بحيث يستطيع المسلم بعد المواظبة على ذلك العلاج فترة زمنية أن يتخلص من كافة أمراضه النفسية التي أوجدت لديه اختلالا في التوازن النفسي وجموحا نحو زاوية الانحراف والغواية، هذا العلاج يكمن في وسيلتين إحداهما مادية والأخرى معنوية.
أما المادية: فهي الوضوء والغسل وتغير الحالة التي هو فيها، فإن غضب وهو واقف فليمش وإن غضب

---

(١) ص: ٢٨.
(٢) في مبحث الجزاء الأخلاقي إلى جانب ما ذكرناه من مراجع يراجع المصدر الرئيسى في هذا المجال وهو كتاب: دستور الأخلاق في القرآن للشيخ دراز ص ٢٤٥- ٤١٧. وسنجد الكثير جدا من الإشارات حول الجزاء في ثنايا الموسوعة.
جـ ١(ص: ١٢٠)

وهو جالس فلينهض ثم ليأخذ ماء للوضوء والغسل، ومن توضأ فإنه يرى أن لله عليه ركعتين فيصليهما ويسأل الله تبارك وتعالى له الهداية ولمن أغضبه فيستحقق لديه النتائج المرضية للعلاج وهو ذهاب الغضب والصبر على ما لقيه من أخيه المسلم.

أما المعنوية: فهي ذكر الله تبارك وتعالى وذكر الله سبحانه أكبر من الصلاة فيما ينتج عنه من نتائج تلازم الفرد بسبب ملازمته للذكر فَتَعالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (المؤمنون/ ١١٦) .
إذا توصل المسلم إلى هذه المرحلة وإلى هذا العلاج النفسي والوجداني فسوف يلمس في نفسه الإحساس بالارتياح والاستقرار والأمن والطمأنينة وسوف يتجنب كل شر قد خطر له أو عرض لذهنه لحظة من الدهر، وهكذا في كل الحالات النفسية التي فيها ضعف أو فيها مرض فإن الإسلام يضع الأسباب الوقائية التي تحول دون أن يصل المسلم إلى الحالة المرضية أو إلى الضغط النفسي الشديد الذي يعمي البصر أو يصم السمع أو يغلق القلب.
فإن لم تجد معه الأسباب الوقائية ووقع في المرض النفسي فإن الإسلام يرشده إلى العلاج النفسي الذي يشفيه مما ابتلي به من أمراض قال الله تبارك وتعالى: وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (الإسراء/ ٨٢) وقال تعالى: يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (يونس/ ٥٧) وهكذا أرشدنا القرآن والسنة المطهرة إلى أن من وجد في صدره شيئا من الضيق أو القلق أو الاضطراب أو نزوعا للاعتداء على الآخرين فليفتح كتاب الله- تبارك وتعالى- بعد الوضوء وبعد الاستعاذة بالله تعالى من الشيطان وليقرأ ما تيسر له من الآيات الكريمة، أو ليستمع لغيره وهو يتلو كتاب الله تعالى فإن كافة تلك الأمراض الباطنية ستتقلص وتخف شدتها بالتدريج ثم تزول نهائيا.
فإن كان المرض مسيطرا ومتغلبا لديه وقد أسفر اتجاهه نحو الانحراف ونحو ارتكاب الجريمة التي اتجه إليها فليقرأ عقوبة هذه الجريمة وليتصور نفسه أنه قد وقعت عليه هذه العقوبة وأقيم عليه الحد، فماذا يا ترى؟ هل يستمر لديه خاطر الشر أم أنه يخمد نهائيا، ويزول تماما؟ فمن قوي لديه الانحراف في طلب الرزق وفكر في السرقة فليتصور نفسه ويده مقطوعة، فبم يأكل وبم يحمل الأشياء وكيف يعمل؟ وما هو موقفه من أسرته، من أولاده وزوجته، وقد جعلوه قدوة لهم، وهم يصبرون على الجوع ولا يصبرون على المحرم ولا يريدون أن يروا رب أسرتهم مقطوع اليد حدا. إنها آثار سيئة ومشينة ومكروهة من جميع أفراد المجتمع المحيط بهذا الإنسان، ثم ماذا هل يكتب على نفسه أن يكون في عداد المجرمين العابثين بأمن الأفراد والمجتمع؟ «١» .

(١) بتصرف واختصار يسير عن: القضاء في الإسلام ودوره في القضاء على الجريمة، ج ١، ص ٣٠٧- ٣١٠.

جـ ١(ص: ١٢١)

الفصل الثالث المنهج الإسلامي في تنمية القيم الخلقية

اتضح لدينا في الفصل السابق، طبيعة الأخلاق الإسلامية، ومصادرها، وفي أثنائها تناولنا فطرة الإنسان وطبيعته وأبعادها باعتبار أن الإنسان مكلف ومتحمل مشاق التكليف، ولعلنا نتساءل:
هل الأخلاق فطرية في الإنسان أو مكتسبة؟ بمعنى: على أي شيء تعتمد عليه تربية السلوك الخلقي؟
هل تعتمد على ما لدى الإنسان من فطرة وقوة واستعدادات؟ أم تعتمد على التنشئة والتوجيه؟
وعلى أي حال كان الموقف، فكيف يتم النمو الخلقي لدى الإنسان؟ وكيف يتم تنشئة السلوك الخلقي عند الإنسان؟
هذا هو حديثنا وتحليلنا في هذا الفصل، في محاولة لإيضاح هذا الأمر، وخاصة أن هناك نظريات كثيرة في هذا المجال، والباحثون فيه يعتمدون على نظريات صاغها علماء وباحثون غربيون يفسرون في ضوئها ويحللون.

وليس لدينا مساحة للاستفادة مما كتبوا، إلا أن الأفضل أن نحاول الاستفادة مما تحت أيدينا من أفكار في هذا المجال، مما أنتجه علماؤنا وخبروه.

أولا: هل تكتسب الأخلاق:

لعله قد تقرر لدينا أن الإنسان مخلوق لديه استعدادات كامنة تظهر بالتنشئة والاكتساب، بحيث تنمو وتنضج، وتصبح طابعا مميزا للإنسان «١» . وتقرر أيضا- أن الإسلام منهج شامل لكافة جوانب حياة الإنسان، والأخلاق الإسلامية هداية من الله للإنسان، من التزم بها فقد حمد ربه، لأنها سعادة في الدنيا والآخرة.

وإذا كان ثمة تفسيرات طرحت للسلوك الخلقي منها ما يرد تكوين السلوك إلى التكوين الحياتي للإنسان، ومنها ما يرده إلى مدى التفهم العقلي لدى الإنسان، ومنها ما يرده إلى التأثير الاجتماعي.

ويرتبط مدخل التفسير الحياتي لتكوين الأخلاق بما يسمى بالمثير والاستجابة، بمعنى أن الخلق يتكون عن طريق الربط بين مثيرات معينة مثل الخسائر المادية والعقاب أو ما يشبه العقاب من مثيرات غير محببة، وهذا الارتباط وتعميمه يختلف نوعا عن الصراعات بين الرغبة في إشباع المشاعر الداخلية، أو الحاجات الفورية وبين المتاعب التي تنشأ من القلق، ومن ثم يتكون الضمير باعتباره نوعا من أنواع القلق الذي يصاحب القيم بالفعل الشائن أو حتى التفكير في القيام به، ومن ثم ينصرف عنه لما يسببه من ألم لدى الإنسان «٢» .

---

(١) راجع: الفصل السابق.

(٢) انظر: محمد رفقي محمد فتحي، في النمو الأخلاقي، ط ١، الكويت، دار القلم، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣، ص ١٣- ٢٦.

وبالرغم من التفصيلات الكثيرة في هذا المجال والتي يمكن مراجعتها في مصادرها الأصلية، إلا أنه يمكن القول بأن هذه النظرية بكاملها وتفريعاتها وتطبيقاتها تنتمي إلى التفسير المادي لسلوك الإنسان، وتحاول أن تلخص السلوك الخلقي فيما يصدر عن الإنسان من أفعال فيما يمكن قياسه فقط، ولذلك يفقدون ما يسمى بالنور الداخلي أو الضوء الداخلي الكاشف للقيم لدى الإنسان ويرفضون أثره في تكوين الأخلاق بحجة أننا لا نستطيع أن نخضعه للبحث، ولأنه لا يستطيع أن يفسر الفروق الفردية في اكتساب الخلق.

ولا يخفى ما لهذه النظرة من آثار سلبية، حيث إنها تجعل المادة وتركيباتها واستجاباتها الأسباب الوحيدة المعتبرة لتفسير تصرفات الإنسان واستجاباته، وهي بذلك تجعل منه قطعة هامدة لا بد من تشغيلها بطاقة وبقوى خارجية «١» .

وهذه النظرية تؤمن بضرورة التدريب والتكرار والتقليد وإعطاء النموذج وغير ذلك من أساليب التدريب حتى تتحول الأخلاق إلى عادات ثابتة يمارسها الإنسان آليا بعد فترة دون تفكير، والتركيز دائما على السلوك الظاهري الذي يمكن ملاحظته، فموضوع مثل تكون مفهوم العدل أو العدالة يمكن تفسيره كردود فعل للتعزيز السابق أو محاولة لاكتساب القول، أو محاولة لتجنب العقاب الذي يصاحب السلوك غير العادل، ومن ثم فإن مفاهيم العدل أو القيم الأخلاقية يمكن تغييرها عن طريق الإثابة أو العقاب، أو التقليد أو التكرار «٢» .

أما من يرد تكوين السلوك الخلقي إلى التأثير الاجتماعي، فإنه يرى أن الجانب الخلقي في الإنسان يتكون من تعلم الطفل أن يكف أو يعبر عن أعمال معينة يتم تحديد نوعيتها من الخير أو الشر أو عن طريق ممثلي المجتمع الذين يقومون بعملية التنشئة الاجتماعية، ويتم تعزيزها أو عقابها عن طريقهم، فإذا كان السلوك مقبولا اجتماعيا، يتم تعزيزه، ويستمر أداؤه عبر الزمن، وفي مواقف مختلفة، وإذا ما كان السلوك غير مقبول اجتماعيا، فإنه سيتم العقاب عليه، بأي صورة من صور العقاب، ومن ثم فإنه

يختفي، وباختصار فإن الوقت كله يدور حول الإرادة الخارجية للسلوك والرغبة الداخلية في الحصول على الثواب وتجنب العقاب «٣» .
إن أصحاب هذا الموقف مع إيمانهم بنظرية المثير والاستجابة، والتعزيز والعقاب، يرون أن أثر التنشئة الاجتماعية المتمثلة في سلطة الوالدين، وضغوط جماعات الأقران وغيرها من القوى الاجتماعية، أمر مهم في تنظيم النشاط الإنساني، وأن اكتساب الاتجاهات الأخلاقية المتمثلة في مسايرة الأهداف الاجتماعية، إنما يتم عن طريق التعلم، وهم يركزون في الأساس على العلاقات الاجتماعية التي يمكن أن تقاس عن طريق المقاييس الاجتماعية

---

(١) روبرت م. أجروس، جورج ن. ستانسيو، العلم فى منظوره الجديد- ترجمة كمال خلايلي، العدد (٣٤) عالم المعرفة، الكويت، د. ت، ص ٨٤.
(٢) محمد رفقي محمد فتحي: مرجع سابق، ص ١٧.
(٣) المرجع السابق: ص ١٧، ١٨.
جـ ١(ص: ١٢٣)

(السوسيومترية) ، وهي مقاييس تقيس مدى تحقق العلاقات والصفات الاجتماعية، وما يتفق عليه المجتمع من خلال ممارسة التفاعلات الاجتماعية على أن ما يتصل بالأخلاق يكون أخلاقيا، وهذا ما جعل علماء الاجتماع يقولون أن الأخلاقيات تختلف من مجتمع لآخر، وأنها نسبية طبقا لدرجة التفاعل الحادث في المجتمع واتفاقه عليها «١» .
على أن لكل فرد في الجماعة «دورا» يرمز إلى مكانته فيها، وترفض الجماعة أخلاقا معينة على مختلف الأدوار الاجتماعية، فالأخلاق المتوقعة من «الأب» غير الأخلاق المتوقعة من «الابن» أو «الابنة» ، والأخلاق المتوقعة من «القائد» غيرها عند «الجندي» وهكذا، والتزام هذه الأخلاق يطلق عليه مصطلح «الضمير» وأصلها أن الأفراد «يضمرون أو يبطنون» معيارا أخلاقيا واحدا يتوقع منهم أن يسلكوا سلوكا متشابها وأن يصبح كل فرد شاهدا على الآخر، وأن يحسب حساب الآخرين فيخجل منهم عند سوء الخلق، ويسر عند حسنه «٢» .
أما من يرد تفسير السلوك الأخلاقي إلى مدى التفهم العقلي لدى الإنسان، وأصحابه يطلق عليهم «أصحاب نظرية النمو العقلي في السلوك الأخلاقي» فيتخذون موقفا يؤكد على أهمية المعرفة والفكر في تكوين المواقف والسلوك الخلقي وقد تبلورت هذه النظرية على يد المربي السويسري المعروف «بياجيه» الذي يرى أن الفرد لا يستجيب سلبيا لما يراه حوله أو ما يفرضه عليه الآخرون، وإنما هو كائن نشط يتفكر فيما يستقبله ويستنتج منه مبادىء عامة يسترشد بها في سلوكه وأحكامه، بمعنى أن السلوك الأخلاقي هو تفاعل الفرد مع بيئته أو هو عمل الفرد في البيئة وعمل البيئة في الفرد.
ويميز بياجيه بين مستويين من السلوك الأخلاقي: المستوى الأول: هو المجرد أو التركيب العميق المحتوى على الأسس النظرية، ويتميز باعتبارات الواجب والانصياع للسلطة الخارجية، فالطفل يتقبل من الراشد من الأوامر يجب الانصياع لها مهما كانت الظروف، والصواب عنده ما يتفق مع هذه الأوامر، والخطأ هو ما يتعارض معها، وهذا هو ما أسماه بالتحكم أو القسر وهنا تقوم الأخلاقيات على واقعية الاحترام من جانب الطفل، وبهذا الاعتبار يتم تطبيعه اجتماعيا وأخلاقيا إلا أن الطفل حين ينمو متفاعلا مع بيئته ومجتمعه يتفاعل مع أقرانه على أساس التبادل والعطاء، ومن ثم يأتي التعاون أساسا لتنمية السلوك الأخلاقي، وتظهر أهمية الاحترام المتبادل.
ولعله من المهم أن ندرك أن الأخلاقيات عند بياجيه أساسها الاتزان القائم على العدل، وليست حسب الإنسان أو الإحساس البديهي بالواجب، وقدسية الخير، وإنما الارتكاز إلى الأخذ والعطاء «٣» .

---

(١) إبراهيم عصمت مطاوع، أصول التربية، ط ٢، دار المعارف، ص ١٣١، ١٣٢.

(٢) ماجد عرسان الكيلاني، اتجاهات معاصرة في التربية الأخلاقية، مرجع سابق، ص ٢١.
(٣) محمد رفقي، مرجع سابق، ص ٤٨، ٤٩.
جـ ١(ص: ١٢٤)

أما المستوى الثاني: فهو الحسي الذي تميزه استجابات محددة وموضوعات فعلية، ويبدو من دراسات بياجيه، أن هناك تخلفا لدى الأطفال في الأحكام الخلقية في المراحل العمرية الأولى عكس الأطفال الكبار، وبالتالي فالطفل الأكثر نضجا لديه القدرة على ممارسة وتطبيق مبدأ التعاون أو الأخذ والعطاء «١» .
وإذا كان بياجيه قد قدم نظريات هامة في مجال النمو الإنساني طبقا لمراحل النمو، فإنه قدم أسسا للنمو الأخلاقي نوردها فيما يلي:
١- النمو الأخلاقي والنمو المعرفي:
حيث يرى أن هناك علاقة بين مستوى الذكاء ومستوى النمو الأخلاقي بمعنى أن الخبرة والذكاء وليس العمر الزمني يعتبران من أحسن المؤشرات الدالة على التعرف على الأعمال المشينة وغير المشينة، ولكن ليس معنى كون الإنسان ذكيا يعني أنه أخلاقي، فكثير من الحالات تشير إلى أن الذكاء البشري قد يتوجه إلى الشر، إلا أنه من المهم التأكيد على أن النمو في المعرفة الخلقية يلزمه قدرة معرفية مناسبة في الفرد أيا كان ذلك النمو.
٢- الخبرة الاجتماعية القائمة على المساواة:
ويرى أن التفاعل الاجتماعي بين الرفاق القائم على المساواة هو المصدر الرئيسي لإدراك أن أخلاقيات التعاون هي أساس العلاقات الاجتماعية المتناغمة وهي التي تحقق الانسجام بين أفراد المجتمع، وأشار بياجيه إلى أنه إذا أعطى الوالدان الطفل شعورا بالمساواة بتأكيد التزامات كل فرد ومظاهر عجزه، وأن يقوما بالوعظ عن طريق القدوة فإنهما يدفعان الطفل إلى الترقي على سلم النمو الخلقي، وهذا المنحى في تربية الأطفال يؤكد القيمة الكبرى للنمط غير التسلطي في التربية.
٣- الاستقلال عن سلطة الكبار القسرية:
حيث يعتبر أن الاستقلال المتزايد على سلطة الكبار- التي تعتبر قسرية وإكراها- سبب ونتيجة لتزايد إقبال الطفل على أخلاقيات التعاون، وبالتالي يقهر التمركز حول الذات ويقبل أكثر على التعاون بين الأقران، ومعنى هذا أنه كلما زاد استقلال الطفل عن سيطرة الكبار كلما زاد انطلاقه وإخلاصه لمبدأ التعاون بين الأقران الذي يؤكد هذه الاستقلالية. ومعنى هذا أن الاتجاهات الوالدية القسرية والمتطرفة في القسر ترتبط ارتباطا سالبا بالنمو الخلقي السليم.
وإذا كان ثمة اتفاق بين الباحثين على ما نادى به بياجيه في كثير من آرائه مثل: تأكيدهم أن الطفل- وهو لا يمكن أن ننظر إليه كبالغ- تنقصه جرعة من التلقين والإرشاد. وأن ما يبدو عدم نضج حين ننظر إلى الطفل قد

(١) المرجع السابق، ص ٤٩، وماجد عرسان الكيلاني، ص ٢٣.
جـ ١(ص: ١٢٥)

يعتبر نموا سويا ناضجا إذا ما نظرنا إليه في الإطار العام للنمو. وأن الأحكام الخلقية التي يصدرها الطفل لا توجد في مناخ اجتماعي أو ثقافي رغم ما يبدو من تلقائية نحوها، وإنما تخضع للمؤثرات الثقافية والاجتماعية في معدل نموها وهيئة تواجدها، والأبعاد التي تظهر فيها، إلا أن الفكر الخلقي لا ينمو ككل، وإنما كجهات متفرقة، وهذا ما لا يمكن أن نستخلصه من فكر بياجيه ولا من كتبه «١» .
ولا نريد أن نعرض أسماء بعض أصحاب نظريات كثيرة في هذا المجال، ولكن نكتفي بسرد بعض أسماء بعض أصحاب النظريات التي اشتهرت في هذا المجال والتي منها:
- نظرية كولبرج «٢» .- نظرية رست «٣» .- نظرية بل «٤» .

- نظرية دامون.- نظرية ايزنبرج.- نظرية البيئة الاجتماعية «٥» .
ونكتفي بهذا العرض الموجز للنظريات التي حاولت تفسير تكوين السلوك الخلقي والأخلاقيات لدى الأفراد والأطفال، وقد كان لها تطبيقات جيدة في مجال التربية الخلقية.
نظرة نقدية:
بالرغم من كثرة الآراء المتعلقة بالنمو الخلقي في الغرب، إلا أنّ الوضع يوحي بضعف شديد في التربية الخلقية، فتزعزعت القيم الجديدة، وهي مشتقة من عالم المال وأصحابه، وأصبحت الدراسة التقنية الفنية، وأرباب الإدارة والتنظيم، الذين لا يهمهم إلا تغليب قيم الكسب المادي، والربح، والاستثمار الأقصى للموارد المادية والبشرية. وقد خلت تلك القيم من القيم الإنسانية الرفيعة، وأصبح الإنسان صاغرا أمام سلطان الآلة وغدا العالم في ضياع خلقي وقيمي، حتى إن الإنسان- وعلى لسان علماء الغرب- يتساءل: هل هناك حاجة إلى قيم؟ أو ليس من الممكن أن يقوم عالم إنساني بلا أخلاق وبلا قيم؟ بل يذهب المنكرون للقيم والأخلاق إلى أن تمسك الإنسان بقيم خلقها المجتمع هو ضرب من الامتهان لقيمة الإنسان نفسه، وشكل من أشكال الطغيان على حريته، ولون من ألوان التسلط على الإنسان.
إن الذي نريد إبرازه هنا هو أنه على الرغم من انتشار النظريات والمذاهب الأخلاقية، إلا أن هناك نظريات تنكر الأخلاق، وهي أوسع انتشارا وهذا دليل على تدني الأوضاع القيمية والضياع القيمي في العصر الذي نعيشه،

---

(١) محمد رفقي، ص ٦٢- ٦٩. (بتصرف يسير) .
(٢) راجع نظريته فى المرجع السابق، ص ٧٦- ٨٩، وماجد عرسان، ص ٢٤- ٣٢.
(٣) راجع نظريته فى محمد رفقي، ص ١٠١- ١١٠.
(٤) راجع نظريته فى ماجد الكيلاني، ص ٣٢- ٤٠.
(٥) راجع محمد رفقي، ص ١٣٥- ١٥٨. ولم نحدد الأسماء لشهرتها بهذا الاسم.

وهذا بالتأكيد تجن على فطرة الإنسان، وانحطاط به إلى مستوى الحياة العضوية والغريزية الحيوانية.
والذي نعرفه ونؤمن به وما يؤمن به أصحاب التأمل في الواقع والتاريخ، وما تدل عليه الدراسات المنصفة:
«أن الإنسان بالتعريف كائن ذو قصد وهدف، وأنه لا يستطيع الحياة بلا هدف يؤمن به، وأنه يزداد رقيا في معارج إنسانيته حين يجد الرسالة التي يؤمن بها والتي يكتسب وجوده الإنساني من خلالها معناه أنه كما يدل الواقع وكما تدل الأبحاث لا يستطيع أن يلصق بحمأة الأرض ويحيا حياته البيولوجية المحضة ما لم يتخلّ عن إنسانيته، إن صح أنه في وسعه أن يتخلى عنها، أي عن طبيعته التي جبل عليها بوصفه إنسانا، أي كائنا ما هو بالملاك ولا هو بالشيطان، بل هو عوان بينهما، تتوق طبيعته الإنسانية الملكية دوما إلى التغلب على طبيعته الحيوانية والشيطانية، وهذا هو الذي يفسر ما يتعرض له إنسان العصر الحديث من اضطرابات وأمراض في حياته النفسية حين يجرب التنكر لطبيعته الإنسانية عن طريق تنكره للقيم الإنسانية، ولا نغلو إن قلنا إن الطبيعة الإنسانية حين ينكرها إنسان العصر الحديث ظنا منه أن في وسعه أن يغيرها أو يتنكر لها، تنتقم لنفسها عن طريق وقوعها في الاضطراب والتفكك والحيرة، أي عن طريق احتمائها بالمرض «١» . حيث إن جميع الشواهد تدل على أن التدخل المنافي للطبيعة الإنسانية في نمو الشخص، أثناء الطفولة وبعدها، هو أصل الأصول في المرض العقلي والاجتماعي عامة والتدمير خاصة «٢» .
ويشهد على فقدان القيم، وتدني المستوى الإنساني، أن أسلوب العيش المرتكز على التملك والأنانية، والسلوك الذي يتركز حول الملكية والربح يؤكد الأنانية المنوطة والفردية المفرطة، فهو لا بد وأن يخلق الرغبة، بل الحاجة إلى القوة، فمن أجل السيطرة على كائنات بشرية أخرى، يحتاج الإنسان إلى استخدام القوة لتحطيم مقاومتهم، ولإحكام القبضة على ما استولينا عليه من ممتلكات خاصة فهو

بحاجة لاستخدام القوة لحمايتها من الذين يمكن أن يأخذوها، لأنهم- والحال من بعضه- لا يمكن أن يقنعوا بما عندهم والرغبة في الحصول على أعلى ملكية خاصة وأكبرها تولد الرغبة في استخدام العنف من أجل سرقة الآخرين بوسائل سافرة أو خفية مما يؤكد الأنانية والفردية المطلقة «٣» .
ويتبع نزعة التمركز حول الذات والأنانية نزعة التميز عن شيء واحد ووحيد هو المتعة الفردية، والبحث الضيق عن المتعة الفردية المباشرة (اللذة الجنسية غالبا) وشيوع الأمراض النفسية الجنسية، والأمراض الجسدية الصحية، واضطرابات خطيرة في السلوك الجنسى، وانتشار المخدرات والعنف والإرهاب وما إلى ذلك من أمور

---

(١) عبد الله عبد الدايم، نحو فلسفة تربوية عربية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط ١، ١٩٩١ م، ص ٢٣٩.
(٢) أريك فروم، الإنسان بين الجوهر والمظهر، ترجمة سعد زهران، مراجعة وتقديم لطفي فهيم، عالم المعرفة، العدد (١٤٠) أغسطس ٨٩، ذو الحجة ١٤٠٩ هـ، ص ٨٣.
(٣) المرجع السابق: ص ٨٣ (بتصرف يسير) .
جـ ١(ص: ١٢٧)

تؤكد النزعة الأنانية المفرطة.
ومن مظاهر الاضطرابات الناجمة عن فقدان القيم الروحية والسند الروحي، انتشار اللجوء إلى السحر والشعوذة طلبا للشفاء من الأمراض الاجتماعية والنفسية بل مساعدة أصحاب الأعمال على تنظيم أعمالهم وغير ذلك من أمور «١» .
وتتعدد أشكال فقدان القيم الخلقية في المجتمع الغربي المعاصر، مما يدفعنا إلى القول بأن هذه النظريات في تكوين السلوك الخلقي تكاد تكون قد فقدت فعاليتها في واقع الحياة، بالرغم من تحقق مكاسب واضحة في المجال المادي وإن كان لهذه المكاسب انعكاسات على روح الإنسان وعقله وفكره، ومظاهر إيجابية من القيم الجيدة التي يرتكز عليها.
ثانيا: منهج الإسلام في تنمية القيم الخلقية:
لعله قد ظهر لدينا الآن ضرورة ملحة لطرح منهج الإسلام في تنمية القيم الخلقية لدى الإنسان المسلم وهذا المنهج بأصالته وربانيته استطاع أن يساعد على اكتساب الأخلاق الإسلامية واستمرارها استمرارا مشهودا، وسيادتها في حركة الإنسان المسلم الصادق، وبداية لا بد أن نقرر مجموعة من المبادىء الأساسية التالية:
١- إن تنمية القيم الخلقية لدى المسلم تعتمد على فطرة الإنسان وما زود به من استعدادات فطرية للتعلم والتخلق، ثم يأتي بعد ذلك عملية اكتساب الأخلاق من المجتمع المحيط في إطار التنمية المتكاملة المتوازنة لكامل شخصية الإنسان من خلال الجوانب الروحية والوجدانية والعقلية للإنسان وحواسه، وعلى ذلك فإن على التعليم والتربية أن يقدما الزاد لتنمية الإنسان من كافة النواحي، على صعيدي الفرد والجماعة وأن يحفزا هذه الجوانب كافة إلى الخير وطلب الكمال «٢» .
وهذا يعنى أن الجهد التوجيهي التربوي ينصب على كافة جوانب الشخصية الإنسانية وعلى التكامل بين المعرفة والسلوك، وينبغي للإنسان أن يعرف كيف يمزج بين المعرفة والعمل في إطار كلي، وبذلك تزداد خبرته وتجربته بالممارسة التي تعدل وتنسق الكثير من خبراته «٣» .
٢- إن وجود القيم الخلقية والمبادىء العليا والأهداف السامية ضروري لتوجيه حياة الإنسان توجيها

---

(١) راجع: عبد الله عبد الدايم، مرجع سابق ص ٢٤٠.
(٢) سيد على أشرف، آفاق جديدة في التعليم الإسلامي، ترجمة أمين حسين الرباط، السعودية، عكاظ، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م، ص ٢٨، ٢٩.

(٣) محمد النقيب عطاس، التعليم الإسلامي أهدافه ومقاصده، ترجمة عبد الحميد محمد الحديبي، سلسلة التعليم الإسلامي، عكاظ وجامعة الملك عبد العزيز، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م، ص ١٤.
جـ ١(ص: ١٢٨)

صحيحا يضبط حركته سليمة صحيحة، فالإنسان لكي يجعل نفسه في صورة إنسانية مرضية ينبغي أن يكون له في حياته أسلوبه الخاص الذي يميزه عن غيره، ويتمثل ذلك في مجموعة من القواعد الخلقية، والمثل العليا التي يلزم نفسه بها ويسير على منهاجها طوعا وتزيد فرادته في قوة خلقه ومثابرته في التمسك بها، وعندما ينعدم وجود هذه المباديء والمثل تفقد الحياة دوافعها ومعانيها، بل تبدو راكدة غير منتجة، ويضمحل الإنسان وتهمد إرادته بافتقادها الهدف والمبدأ والخلق والقيمة.
وهذا يعطينا مؤشرا هاما على أهمية القيم الخلقية في بناء الإنسان، وكذا أهميتها كمصدر من مصادر الأهداف التي ترتجى وتؤمل في نمو الشخصية المسلمة في المجتمع.
٣- إن هذه القيم والمباديء والأهداف تحتويها ثقافة المجتمع المسلم باعتبارها الإطار المرجعي لكافة سلوكيات الفرد والجماعة، وهي التي تمثل القيم والأخلاق والمهارات والأذواق وما إلى ذلك مما يكتسبه الإنسان وتشكل شخصيته القيمية والأخلاقية.
وهذه الثقافة تقوم على مبدأ التوحيد حيث تشتق منه وتدور حوله كافة القيم الإسلامية باعتبارها معايير واقعية توجه جميع أفعال الفرد في مختلف المواقف الفردية والاجتماعية، وباعتبارها تصورا للمعاني الكلية المسئولة عن الأحكام التي يصدرها الفرد على أي موضوع أو موقف، ويرى الفرد فيها شيئين: الحق والخير، وهذه لا تتم إلا بالاتصال بين الأجيال.
إن التوحيد، ومجموعة الأحكام المعيارية بما فيها الأخلاق لا يتحققان إلا في ثقافة هيئة اجتماعية وفي ذوات إنسانية، فالفرض يكتسب قيمه الخلقية من المصدرية الجماعية، ومن خلال التفاعل مع الجماعة يمتص الفرد القيم الخلقية وتنمو لديه الأحكام الخلقية، ويحرص المجتمع الحرص الشديد الأكيد على إكساب الفرد القيم الخلقية، حتى تصبح سمة من سمات شخصيته بل إنها في الحقيقة تعتبر الأساس الجوهري لبناء شخصيته.
٤- إن تنمية القيم الخلقية لدى الإنسان المسلم تعتمد على تكوين الوازع الداخلي في الفرد منذ الطفولة الأولى حيث يؤمن الفرد بالقيم، ويكتسبها ويتشربها ويضيفها إلى إطاره المرجعي للسلوك، ويتم ذلك من خلال التنشئة الاجتماعية، وعن طريق التفاعل الاجتماعي يتعلم الفرد أن مواقفه يجب أن تتسم بالخلقية وذلك حتى يشارك في حياة المجتمع بفاعلية.
وبعد فإن منهج الإسلام في تكوين القيم الخلقية يتأتى كما يلي:
باستطلاع الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، تطالعنا طريقة فذة في معالجة القيم الخلقية من حيث تكوينها لدى الفرد المسلم والجماعة المسلمة. وقد أتى الإسلام لا ليصطدم مع الطبيعة البشرية بل ليضبطها، ويفجر أحسن ما فيها، وقد أقام السلوك على أساس خلقي ضابط بوعي واختيار واع وذلك كما يلي:
جـ ١(ص: ١٢٩)

١- اهتم القرآن الكريم في مرحلته المكية ببناء الإيمان في نفوس الناس، والدعوة إليه بكافة الوسائل، وذلك بلفت النظر إلى خلق الله، والتأمل فيه، للاستدلال على الخالق- عز وجل- والإيمان به، والتصديق بما أنزله على رسوله.
وقد عرضت الآيات الواردة في هذا المجال: سنة الله في الأسباب والمسببات، سنة الله في جزاء من اتبع هداه، سنة الله في حال الإعراض عنه، سنة الله في التدافع بين الحق والباطل، سنة الله في الابتلاء والفتنة، سنة الله في الظلم والظالمين، سنة الله في الترف والمترفين، سنة الله في الطغاة والطغيان، سنة الله في بطر النعمة وتغييرها، سنة الله في الذنوب والسيئات، سنة الله في الاستدراج. وغير ذلك

من سنن عرضها القرآن في قصصه أو في آيات منفصلة، بهدف تعريف الناس بكيفية السلوك الصحيح في الحياة، حتى لا يقع الإنسان في الخطأ والعثار والغرور والأماني الكاذبة.
إنها الدعوة الكاملة إلى الإيمان الكامل الصحيح، وقد يصاحب بيان ذلك في الآيات ذكر الجنة والنار، والثواب والعقاب، ليحرك في النفس عاطفة الخوف والإحساس بالأمن، وهو في ذلك يريد أن يحرك في الإنسان الإحساس بالأمان النفسي والشعور بالحماية الإلهية في ظل الإيمان، وفي الوقت نفسه يعطيه الثقة بنفسه، وبأنه مكرم ومؤهل لحمل أمانة الوجود، وحمل أمانة التكليف.
فهي تستثير في الإنسان أقصى طاقاته الإنسانية لتسمو بها وتضعها على الطريق السوي السليم المنشود من الإيمان «١» . وتحويل الإنسان من التبعية الذليلة في كل شيء من جنبات حياته للطواغيت الكفرة والفجرة، إلى آفاق العزة والكرامة وتحقيق الإنسانية الكريمة وذلك ببث روح القوة والتخلص من العجز والاتكالية وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ «٢» .
٢- وقد صحح القرآن علاقة الإنسان بما حوله بأن جعلها علاقة تعاطف وتعارف، فلا عبودية لها ولا تأليه، ولا استهانة ولا إنكار، وقد ربى القرآن الإنسان على حضور واع، واتخذ في هذا السبيل طرقا مختلفة لعملية التصحيح هذه، وهي لازمة لتكوين قيم صحيحة سليمة، وكان أول ما قام به هو تصحيح علاقة الإنسان بالله الخالق الراعي لخلقه المعتنى بهم، الرحيم، المبدع، التواب. وهو الواحد؛ غرس في نفس المسلم التوحيد، الذي دفع الإنسان إلى حب الخير وفعله، وتجنب الشر وكراهيته، وبالتالي كانت العلاقة بين الإنسان والله طريق الإنسان إلى الكمال، وكانت طريقا إلى امتلاء قلب الإنسان بالولاء والانتماء إلى الله وحده، ومنهجه الذي إذا تمسك به الإنسان أصبح إنسانا فاضلا يسارع إلى فعل الخيرات، ويبتعد عن فعل الشر، وبالتالي يتصف الإنسان بمكارم الأخلاق، ويتشبه بأخلاق الله تعالى من حيث الاتصاف بالكمالات والتنزه عن النقائص، ويصبح مجتمعه كله ذا أخلاق

---

(١) اقرأ الآيات: ١٠ من سورة لقمان، ٥٣ من سورة طه، ٧ من سورة الشعراء والواقعة.
(٢) آل عمران: ١٣٩.

دينية، تسوده مكارم الأخلاق.
وكان ذلك منطلقا لتصحيح كافة العلاقات الأخرى بما حول الإنسان ومن حوله، وما دام الإنسان قد آمن موحدا وتولدت في نفسه حالة العبودية الكاملة لله وحده، فإن ذلك ينعكس على علاقاته بالأشياء حوله، وعلى كافة مكونات حياته؛ ذلك أن الإيمان الصحيح هو أكبر القيم الخلقية الدافعة للإنسان في مجرى الحياة الصحيح الموصل للسعادة.
ومن هنا تنبع مجموعة من القيم الخلقية الفذة النابعة من توجيه التوحيد، كحالة نفسية، وضرورية للتعايش مع الكون والعالم ومصادقة قوى الطبيعة، ودراستها وفهمها، واكتشاف أسرارها لتضفي قيمة عليا على العلم والبحث العلمي بالمعنى الواسع للكلمة.
ثم هو لا يذوب في الطبيعة المادية ولا يعاديها، لكنه لا بد أن ينفصل عنها إلى عالم التوحيد المطلق والمجرد، فالطبيعة ليست مقصودة لذاتها، وهي ليست ثابتة، بل هي متغيرة ومتقلبة، ومن حق المسلم أن يتجاوزها بعد أن يكتشف فيها لغة التسبيح لله. وفي هذا الذي أقره الإسلام ووجه إليه تحقيق سام لإنسانية الإنسان، لأن الإنسان بهذا يتحرر من عبودية أي شيء سوى الله تعالى، ويتخلص من قلقه المرضي؛ لأن المنهج الإسلامي يضع الإنسان حيث يجب أن يوضع، مخلوقا ذا رسالة سامية في هذه الحياة «١» .
٣- وصحح القرآن علاقة الإنسان مع نفسه ثم مع من حوله من الناس، وذلك بعد أن ضبط حركته بقيم خلفية معينة تجاه الخالق والأشياء، والآيات المدنية تأتي لبناء الإرادة الإنسانية وتكوين القيم السليمة لعلاقات الإنسان بنفسه، وبالإنسان في مجتمعه، وللجماعة كلها بعد أن قام البناء الإيماني في نفس المسلم.

وكثيرة هي تلك القيم الفاسدة التي كانت موجودة عند العرب وفي العالم، واستطاع الإسلام بتوجيهاته أن يقضي عليها، ويحولها إلى قيم إيجابية صحيحة على أساس من الإيمان الصحيح الخالي من الشوائب.

وقد اهتم القرآن كثيرا بتوضيح الانحرافات الخلقية التي يمكن أن توجد في المجتمع المسلم، فاهتم بإيضاح حقيقة النفاق وعدّها انحرافا نفسيا يسهل الوقوع فيه؛ لأن الإنسان المسلم- تحت الظروف المستبدة- قد يعيش حالة مزيفة، إنه يصبح ضد نفسه أحيانا، ويحبس حركتها الحرة في التنقل من حالة إلى حالة، ويوقف تيارها الداخلي وهذا مرض نفسي، يجمد حركة الإنسان، ويحرمه من الحركة الحية، ويصيبه بالخواء والزيف والخداع، وقد صور القرآن حالة المنافقين في آيات كثيرة منها:

---

(١) عبد الغني عبود: العقيدة الإسلامية والأيدولوجيات المعاصرة- الطبعة الأولى- القاهرة- دار الفكر العربي، ١٩٧٦ م ص ١٤٣.

جـ ١(ص: ١٣١)

- فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً «١» .
- إِنَّ الْمُنافِقِينَ يُخادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خادِعُهُمْ وَإِذا قامُوا إِلَى الصَّلاةِ قامُوا كُسالى يُراؤُنَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا
«٢» .
- وَإِذا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ «٣» .
- مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً فَلَمَّا أَضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ* صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ* أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فِيهِ ظُلُماتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ* يَكادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
«٤» .

إن القرآن يعرض النفاق كطبيعة منحرفة وسلوك مريض، ويشخص هذا المرض ويحلله ويتحدث عنه باستفاضة وعن مضاعفاته ونتائجه، وقصده من ذلك التحذير منه، ومن النتائج الخطيرة التي تترتب عليه، فهي نتائج تصيب الإنسان في وجوده الذي يرتبط بالصدق والحرية والتجدد، فيتحول وجوده إلى زيف وجمود وهراء «٥» .

ومن هذا المنطلق حارب البخل والجبن في نفس الإنسان، وحارب التواكل الذي يحيل الإنسان إلى طفل لا يستنفر ذاته، وإنما يعتمد على الآخرين في حل مشكلاته، وفي حربه تلك يجعل المسلم يجابه الواقع ويتحمل المسئولية، ويبتعد عن كل شيء يصادر تلك المسئولية «٦» .

لقد علم الإسلام المسلم أن يؤمن بوجود قوة عليا، وأن يستفيد من إمكانياته واستعداده للإيمان بالغيبيات فضبطها، بحيث لا يصل إلى التصادم مع الأسباب والمسببات. وعلمه القرآن أن الحق يبطل السحر، وأنه ليس بإمكان أحد أن يضره إلا بإذن الله، وأن التلصص على السماء لسماع الغيب قد بطل منذ بعثة النبي صلّى الله عليه وسلّم، وأن الشفاعة لا تنفع إلا لمن أذن له الرحمن، وقد كان ذلك كله إيذانا بتصحيح علاقة الإنسان بنفسه، فلا يخور ولا يجبن ولا ينافق ولا يدع الأسباب «٧» . وكان أيضا إيذانا بتصحيح علاقة الإنسان مع الآخرين، وانطلق المسلم بالدعوة الإسلامية إلى مرحلة العالمية.

٤- وأتم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بناء القيم الخلقية في النفوس المسلمة، وكانت طريقته في ذلك أبدع ما تكون الطريقة، وأساليبه أشهر ما تكون وأعظم، في ضربه المثل الأعلى والقدوة الصالحة من ذاته، في نفسه، وفي مجالسه،

---

(١) البقرة: ١٠.

(٢) النساء: ١٤٢.

(٣) المنافقون: ٤.
(٤) البقرة: ١٧: ٢٠.
(٥) عبد الحميد إبراهيم: الوسطية العربية، الكتاب الأول، المذهب، الطبعة الثالثة، القاهرة، دار المعارف، ١٩٩٠ م، ص ١٥٧.
(٦) المرجع السابق، ص ١٥٧، ١٥٩، واقرأ: الإسراء: ٩٣- ٩٥.
(٧) المرجع السابق، ص ١٦٠.

وتوجيهاته، وأفعاله، وأقواله، وباستخدام كافة الطرق لاستثارة إمكانيات الإنسان من أجل تمثل القيم الخلقية، والأمثلة على ذلك كثيرة في مواقف الرسول صلّى الله عليه وسلّم، نذكر منها- على سبيل المثال- ما يتعلق بمجلسه صلّى الله عليه وسلّم، فقد كان- كما جاء في حديث هند بن أبي هالة: «مجلس حلم وحياء، وصبر وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات، ولا تؤبّن فيه الحرم، ولا تثنى فلتاته، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير، فإذا سكت تكلموا، كان دائم البشر، سهل الخلق، ليّن الجانب، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخّاب في الأسواق، ولا فحّاش ولا عيّاب ولا مدّاح ولا يقبل الثناء إلا من مكافيء»
.
ولا عجب أن نجد في أثناء حياته صلّى الله عليه وسلّم وبعدها مجتمعا إسلاميا ملتزما، وفردا مسلما ملتزما توجهه قيم خلقية صحيحة في كافة نواحي سلوكه المختلفة. ونجد الأفراد في المجتمع الإسلامي أصحاء أزكياء مبدعين ملتزمين بالإسلام.

ثالثا: كيفية تكوين القيم الخلقية:

لتكوين القيم الخلقية عمليا- وبالوسائل السابقة، وعلى أساس القدوة الحسنة- نجد أن هناك عدة مراحل هامة، وقد استنبطنا بعضها من أسلوب عرض القرآن، واستعنا ببعض القراءات في هذا المجال، وهي كما يلي:

١- عرض المواقف الخلقية لجذب الانتباه إليها:

لقد عرض القرآن مواقف خلقية كثيرة، وذلك لجذب انتباه الإنسان، وإيقاظ إحساسه بالقيمة الخلقية وهنا تستخدم كافة الإمكانيات في سبيل هذا العرض بقصد الاستحواذ على انتباه المسلم. ويعتبر هذا درجة أولى لتكوين الوعي بها، وإثارة الرغبة في الترقي لتتم عملية تركيز الانتباه، ويظهر الإنسان نوعا من الاهتمام تأتي بعده الاستجابة النشطة الطوعية النابعة من داخله.
ومثال ذلك: قيمة الصلاة، حين نريد تكوينها في نفس الناشيء الصغير، فإنه لا بد من جذب انتباهه باستثارة حواسه، والسلوك الفعلي أمامه، بحيث نبين له أهمية الصلاة مرة بعد مرة، بحيث يبدأ تكون الوعي لديه بها، ويتطلب هذا إطلاع الناشيء على أهمية الصلاة وكيفية أدائها دون تمييز محدد أو إدراك للخصائص الموضوعية لها، بمعنى أنه لا بد من إتاحة وتهيئة
جو يظهر اهتمام الناشيء بالقيمة فيصحبه إلى المسجد وبغير قصد وعن طواعية من الناشيء، وبالتالي يمكن- وبهذه الطريقة المبسطة التي تحترم إنسانية الناشيء وتجذبه في جو تعاوني تعاطفي- أن نغرس قيمة أداء الصلاة في نفسه.

٢- موقف التقبل الواضح وتعزيز هذا التقبل:

فحيث يظهر الإنسان تجاوبا معينا مع القيمة والوعي بها فإنه لا بد من مصاحبة ذلك بقول لطيف مشجع يحرّض على ذكر هذه الاستجابة الطيبة التي تكاد تظهر إلى حيز الوجود الفعلي دون إشارة إلى ضعف ممكن،

وبهذه الخطوة يمكن القول إن القيمة أصبحت متمثّلة بدرجة كافية من العمق بحيث يمكن أن تصبح قوة مسيطرة باستمرار على السلوك، ومعنى هذا أن الإنسان تتكون لديه رغبة مستمرة في تطوير قدرته على الالتزام بالقيمة.
وقد أشار القرآن إلى هذه الخطوة، حيث يثير الانتباه إلى حضور الله العليم المطلع على كل ما يأتيه الإنسان:
وَما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (البقرة/ ٢١٥) . الَّذِي يَراكَ حِينَ تَقُومُ (الشعراء/ ٢١٨) .
إن دفع الإنسان نحو انطباع معين- وهو أن يجد في هذه الفكرة ما يحفزه حقا لدعم جهوده، وتغذية طاقاته، وترقية نفسه، ومضاعفة ما يقتضيه من ذاته وذلك من أجل المحافظة على جودة أعماله وطهارة نواياه، يقتضي أن يجد فيه ما يتقبله ليدفعه إلى أن يأتي دائما بالجديد وبالأفضل.
إن أفضل شيء يعزز هذا التقبل للقيمة هو دفع الإنسان إلى التفكير في صلته بالله لحظة العمل، حيث إن لهذا تأثيره على إرادة الإنسان، ليضاعف ذلك من حماسه، ويكمل عمله وبالتالي يتحقق ثبات القيمة، وتحقيق التقدم المطرد في سبيل تعزيز القيمة، وليس هناك أعظم من الحب في تثبيت هذا التعزيز، وهذا الشعور بالحب يولد شعورا بالارتياح وبالقوة البناءة «١» .
ونجد ذلك ملخصا في قول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين سئل: ما الإحسان؟ «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» «٢» .
٣- موقف تفضيل القيمة الخلقية:
ويظهر هذا الموقف من خلال التزام الفرد بالقيمة لدرجة تجعله يحرص على القيمة ويسعى وراءها ويريدها، وهنا تظهر استجابات معينة تعبر عن هذا التفضيل، حيث يسعى إلى تكوين أرضية واسعة عنها، ويمكن أن يتعدى ذلك إلى الكتابة عما يشعر به إزاءها.
وهنا يتدخل المربي من أجل زيادة العمل التوجيهي، ولا يجوز أن يكون هذا العمل صريحا بل ضمنيا عمليا. ذا رزانة وبرفق وأناة مع إتاحة فرصة أوسع للناشيء لإظهار استجابات أوسع وبتفكيره الذاتي المستقل «٣» .
٤- موقف الالتزام بالقيمة:
في هذه المرحلة- وبعد استخدام كافة إمكانياته- يصل الفرد إلى اليقين، بل إلى درجة عالية من اليقين فيصل إلى اقتناع عال وتأكد لا مجال للشك فيه، وإيمان راسخ بضرورة هذه القيمة، ومن ثم التقبل الوجداني

---

(١) محمد عبد الله دراز: دستور الأخلاق في القرآن، ص ٣٢٣، ٣٢٤.
(٢) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، حديث رقم ٥٠- فتح الباري، طبعة المكتبة التجارية، ج ١، ص ١٥٧.
(٣) راجع: على خليل مصطفى: القيم الإسلامية والتربية، مرجع سابق، ص ٨٤.

الكامل، فيعمل الفرد لتقرير القيمة وتأكيدها، وتتعمق مشاركته في هذا التقرير والتأكيد، كما يبحث عن أشباهه المؤمنين بهذه القيمة والملتزمين بها فيشاركهم أنشطتهم وتعبيراتهم، إلا أنه يجب أن نعي عدة أمور هامة، وهي:
- أن الالتزام ليس مجرد قدرة عاطفية وقتية عابرة، أو مجرد حماس يوجد ويتلاشى لتحل محلها عاطفة مؤقتة أخرى. إن الالتزام يعني استمرارا عاطفيا لتأكيد الالتزام. إنه يأخذ شكل العاطفة الثابتة.
- أن اعتناق الفرد لخلق معين فترة طويلة من الزمن لا يدل على الالتزام به، إذ لا يكون قد بذل فيه جهدا عاطفيا من طاقة الفرد العاطفية بحيث يتم الالتزام، وإنما لا بد من استغلال أكبر قدر ممكن من طاقة الفرد العاطفية وتشغيلها بطريقة فعالة حتى يتم الالتزام الحقيقي.

- أن الأعمال المؤيدة للقيمة تعد أمرا مهما، وهذه الأعمال إما أن تهيّأ في البيئة المحيطة أو من إتاحة مناخ تظهر فيه هذه الأعمال من الفرد؛ لأنها تدل على وعي والتزام بحكم طبيعتها «١» .
وفي هذه المرحلة- أيضا- يعبر الفرد عن اعتقاده بقيمة خلقية في سلوكه العلني البراني المترتب على القناعة الجوانية، بمعنى إلزام المرء نفسه، وتعهده بانتهاج خلق معين.
ولزيادة درجة الالتزام في تنمية القيمة الخلقية يمكن استخدام واحد أو أكثر من العناصر التالية:
- توضيح الفعل الخلقي- صالحا أو طالحا- بمعنى توضيحه وخلوه من الغموض.
- إبراز أهمية الفعل الخلقي الصالح.
- إبراز تعذر الرجوع في الفعل الخلقي الصالح أو الطالح.
- تكرار مواقف السلوك الخلقي.
- إتاحة فرصة الاختيار والحرية أمام الملتزم في إقدامه على الفعل الخلقي.
وبهذا يمكن تأكيد الالتزام وزيادة درجته بحيث تقوى وتتأكد لدى الشخص، ونجد هذه الملامح الأساسية من خلال نصوص القرآن والسنة النبوية المطهرة.
٥- وضوح التنظيم القيمي الأخلاقي:
ويعني هذا ترتيب القيم الخلقية في نظام ترتيبي معين أو في نسق معين، ويظهر ذلك في أنه حين يأخذ الفرد في تمثل القيم الخلقية بصورة متتابعة، يواجه العلاقة ذاتها بأكثر من قيمة واحدة، وهنا تنشأ الضرورة لأمور ثلاثة، وهي:
- ضرورة تثبيت القيم في نظام تتابعي أو نسق واحد.
- تحديد العلاقات المتبادلة بين هذه القيم الخلقية وبين المواقف الحياتية المختلفة.

---

(١) المرجع السابق، ص ٨٥.
جـ ١(ص: ١٣٥)

- إبراز القيم المسيطرة ذات اليقين العالي عند الفرد.
- وهنا يأتي التجريد للأحكام الخلقية المعلنة، ويكون التعبير عنها في صورة رمز أو عمل، ومن خلال عملية التجريد هذه يقوم الفرد بتحديد الأشياء العامة المعتمدة على التحليل والمفاضلة، حتى يصل إلى تنظيم معين لقيمه، مكونا أحكامه- بناءا على الخطوات السابقة- على الأشياء والعلاقات حوله. وهنا لا بد أن يتصف المرء بالمرونة الأخلاقية، التي تعني القدرة على صياغة قواعد أخلاقية مرنة. وحيث تفيده في التعرف على المبدأ الأخلاقي الكامن وراء التعليمات والقوانين وهذا من الأمور المهمة.
٦- التميز الخلقي والفعالية الأخلاقية:
وهذه مرحلة أخيرة حيث يصبح الفرد متميزا، ويصل إلى التصرف السلوكي الذاتي طبقا للقيم التي تمثلها والتي أصبحت تسيطر على أفعاله وتصرفاته وتراقبها، فهي تقوم بدور المراقب على قدر كبير من سلوك وتصرفات الإنسان، إذ يمكن وصفه وتقديره عن طريق هذه القيم الأخلاقية.
وهنا يكون طابعه تطبيق المباديء الخلقية التي آمن بها في مواقف وسلوكيات حياته بفعالية وإيجابية وإقبال، حيث يكون الفرد قد دمج قيمه وأفكاره ومواقفه واتجاهاته في رؤية متكاملة تشكل علاقته مع العالم المحيط به، واستجاباته الدائمة والثابتة تجاه المواقف والأشياء بصورة مترابطة، أي تشكل توجها سلوكيا أساسيا يمكن الفرد من الاستجابة لمواقف العالم المحيط والعمل بثبات وفعالية في هذا العالم.
ويرتبط بهذه النقطة ما يسمى بالإبداع الخلقي، حيث إن من يتصف بهذا الإبداع يتعامل مع كل موقف جديد بانفتاح كامل متوج بالحب والعقل، فهو يتعامل مع الناس بالحب، ويتعامل مع المشكلات بالعقل، وتنطلق لديه قدرات علمية وثقافية فائقة التصور. ومعنى هذا أنه لا يخضع خضوعا أعمى للأعراف والتقاليد، وإنما يتعامل معها بانفتاح ومرونة واستقلالية، ويبلور لنفسه ولمجتمعه قيما جديدة وأهدافا جديدة تتناسب مع طبيعة المجتمعات والتحديات التي تواجهها «١» .

٧- موقف دعوة الغير إلى الالتزام بالقيمة:
طالما أن القيمة الخلقية قد ترسخت جذورها، وأصبحت ديدنا للإنسان لا يحيد عنه في مواقف الحياة المختلفة، فإنه- ومن منطلق إيماني- يدعو غيره إليها، ويحببه فيها بشتى الوسائل الممكنة، فالمؤمن لا يكتمل إيمانه إلا إذا أحب لأخيه ما يحبه لنفسه، يقول المصطفى صلّى الله عليه وسلّم: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» «٢»

---

(١) ماجد عرسان الكيلاني، مرجع سابق، ص ٥٢.
(٢) البخاري- الفتح (١٣) ، ومسلم ٤٥، أنظر صفة الإيمان.
جـ ١(ص: ١٣٦)

وبهذا فقط تتحقق الخيرية المشار إليها في قول الله تعالى: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ (آل عمران/ ١١٠) .
إن الالتزام الكامل الناتج عن اقتناع تام بهذه القيمة الأخلاقية أو تلك يشكل مطلبا أساسيا من متطلبات الدعوة إلى الله «١» ذلك أن المطلوب من الداعية أن تكون حياته وأخلاقه تطبيقا عمليا لعقيدته «٢» . «٣» .

---

(١) انظر الدعوة والدعاة من القرآن ص ٢٧.
(٢) صفة الدعوة إلى الله.
(٣) ولا يتحقق ذلك إلا بالاستقامة.
جـ ١(ص: ١٣٧)

الفصل الرابع وسائل تنمية الأخلاق الإسلامية

مقدمة:
لا يمكن لأي مذهب أو نظرية أو فكرة أن تترجم عن ذاتها، وتحقق أهدافها بدون وسيلة تمكنها من أن تتجسد في سلوك الناس.
وإذا كانت التربية الإسلامية- في هذا المجال- تقوم بدور عظيم، وهو تغيير أنماط من السلوك وبعض من الأخلاق التي تكبل المسيرة الصحيحة نحو أهدافها، إلى الأخلاق الإسلامية الصحيحة، وتخفيف حدة الصراع القيمي السائد، ذلك التغيير اللازم من وسط ومعطيات القيم الإسلامية، وما توحي به معطيات العصر المعقدة المتشابكة، ومتغيراته الثقيلة الشديدة، فإن السؤال الذي يطرح نفسه هنا- بالذات- وهو ما الوسيلة إلى ذلك؟
وما دور الوسائط التربوية المتعددة في هذا السبيل؟
والإجابة على هذا السؤال في ظل المعطيات السابقة تشكل تحديا حقيقيا، بل أمرا صعبا في ظل الوضعيات الاجتماعية السائدة، لأن الوسيلة لا يمكن أن تقدم، ولا يمكن تحديد دور الوسائط بعيدا عن تلك الوضعيات، لأنها البؤرة الحقيقية التي تنعكس عليها تلك الوضعيات.
ورغم هذا نحاول الاجتهاد استمدادا من الممارسات السابقة للمجتمع العربي الإسلامي، وخاصة في أزهى فتراته، فترة النبوة، لعرض الوسائل، وتحديد أدوار الوسائط في إطار من مراعاة متغيرات العصر وذلك في إطار تربوي عام لا يقتصر أو لا يقف عند مجرد الممارسات التدريسية أو التعليمية، ومن أجل تحقيق هذا الغرض، سنتعرض هنا للنقاط التالية:
- مفهوم الوسيلة التربوية.
- شروط الوسيلة.

- بعض وسائل تنمية القيم الإسلامية.
أولا: مفهوم الوسيلة التربوية:
الوسيلة: ما يتقرب به إلى الشيء، والجمع وسائل «١» ، ويقصد بها- تربويا- الإجراء المحدد لنقل المعلومات أو المعارف والمهارات أو الاتجاهات والقيم بهدف تحقيق هدف تربوي مرغوب فيه.
فإذا كنا نهدف- مثلا- إلى تنمية شيء ما، كالقيم فلا بد من إجراء نتخذه من أجل تحقيق هذا الهدف، ومعنى ذلك أننا اتخذنا لذلك وسيلة، قد تكون أسلوبا تدريسيا أو تربويا عاما.
فالوسيلة إجراء محدد يستخدم لتحقيق هدف تربوي، أما في التدريس فهي الأداة المستخدمة لنقل محتوى

(١) الفيومي، المصباح المنير- بيروت- مكتبة لبنان- ١٩٧٧، ص ٢٥٣.
جـ ١(ص: ١٣٨)

الرسالة المرغوب نقلها للتلميذ، ووسيلة التعلم أداة يستخدمها المتعلم بهدف تسهيل عملية استيعابه لمحتوى الرسالة «١» .
ثانيا: شروط الوسيلة:
إن تكوين الأخلاق في الشخصية العربية الإسلامية بحيث لا تخرج عن خصائصها الأصيلة أمر بالغ الأهمية، وهناك ثوابت لابد أن تأخذ عناية كافية، بحيث تتكون الشخصية الحضارية المتميزة، وانطلاقا من هذا فإننا لا نستطيع أن نلغي القدرات البشرية الهائلة، والطاقات المبدعة فيها، والتي يمكنها أن تثري تلك الأخلاق فلا بد- إذن- من التكامل في بناء الشخصية الأصيلة المبدعة، لتكون الوحدة ثم التنوع، وحدة الهدف وتنوع الوسائل، بما يكون مصدرا من مصادر عن هذه الشخصية، وبابا من أبواب التفتح والانطلاق والنمو عن طريق الحوار والتبادل، والاختيار «٢» .
ولا بد من التكامل بين الغايات والوسائل، وإذا كانت غاية الأخلاق الإسلامية تحقيق السعادة للبشر في الدنيا والآخرة من خلال تحقيق رضوان الله تعالى، فإن للوسائل التي تستغل في تنمية هذه القيم شروطها، المتمثلة فيما يلي:
١- أن تصطبغ بروح الإسلام، في إطار تعاليمه وأخلاقه.
٢- أن تكون مرنة، متفتحة، قابلة للتكيف حسب الظروف والأحوال.
٣- أن تربط بين الجوانب الفكرية النظرية والجوانب التطبيقية العملية.
٤- أن تحترم الإنسان ورأيه ودوره ونشاطه في كسب هذه القيم.
٥- أن تراعي الدوافع الإنسانية، والرغبات والأهداف التي تتوخاها العملية التربوية.
٦- أن تحترم مبدأ تكافؤ الفرص، وتراعي الفروق الفردية بين المتعلمين.
٧- أن تؤكد على مبدأ القدوة الصالحة.
٨- أن تحرص على جعل عملية تعليم أو تعلم الأخلاق عملية سارة ومحدثة للأثر المطلوب منها «٣» .
٩- أن تراعي واقع المجتمع الإسلامي إمكانياته وأوضاعه، وما يحيط به من ظروف.
١٠- أن تراعي ما استحدث في مجال التعليم والتعلم وغيرهما من أفكار ومستحدثات صالحة.

(١) حمدي أبو الفتوح عطيفة، أسلمة مناهج العلوم المدرسية- الطبعة الأولى- المنصورة- دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٦ م، ص ١٢٦.
(٢) محيي الدين صابر، من قضايا الثقافة العربية المعاصرة- الطبعة الثانية- بيروت- المكتبة العصرية- ١٩٨٧ م ص ٧٩.
(٣) عمر محمد التومي الشيباني، «إعداد المعلم ودوره في تطبيق منهج التربية الإسلامية» - مؤتمر بحوث خبراء التربية الإسلامية- مكة المكرمة- ١٣٩٩- ١٤٠٠ هـ، ص ٣٠.
جـ ١(ص: ١٣٩)

إن الوسيلة التي تنمي الأخلاق الإسلامية لا بد أن تكون نابعة من الإسلام ذاته، الذي حمل إلى العالم كله رسالة المدنية والتقدم، الذي لا يعارض التقدم العلمي والتكنولوجي بل يدفع إليه، ولذا سيظل هو وأخلاقه عامل تقدم ومعاصرة، لأنه مستقبلي، ولكي تحدث الوسيلة الأثر المطلوب فإنه من الضروري:
- تنقية العقيدة الإسلامية مما علق بها وشابها من زيف وجهل وابتداع.
- تنقية الثقافة الإسلامية- نظريا واجتماعيا- مما علق بها من أوهام ما زالت مسيطرة على أفكار الناس واعتقاداتهم، وتأكيد العقائد الصحيحة القائمة على الوحدانية، والعلم، والمعرفة، والعدالة والمساواة، والتفتح والقوة، وعمارة الأرض.
- توفير المناخ الصحي للقدرة الإسلامية أن تنمو، وأن تدعم الشخصية المسلمة، بأسباب التفتح والعطاء، لأنه من المهم «إطلاق طاقات المجتمع وتحقيق إرادته، وتحصينه ضد الخوف بأشكاله المختلفة» «١» ، مع الاهتمام بالفرد، وتوعيته بالقضايا المصيرية إسلاميا وعربيا «وحشد قواه وتمكينه من المشاركة فيها، مما يجعله أكثر التزاما بالمعاصرة، وأكثر اهتماما بالمستقبل» «٢» .
إن هذا يعني أن الإسلام لا يعارض إطلاق بعض النظريات التربوية والنفسية المعاصرة، طالما لا تتضمن ما يتعارض مع تعاليمه، وأيضا فإنه يعني توجيه العديد من الأساليب التي يمكن استخدامها لتحقيق أهداف الإسلام من تنمية الأخلاق الإسلامية.
ثالثا: وسائل تنمية القيم الإسلامية:
لتنمية القيم في المجتمع الإسلامي وسائل عديدة ومتنوعة منها:
أ- العبادات:
العبادات هي الأسلوب العملي والوسيلة الأولى في التربية (أي عبادة الله حق العبادة) إلا أن العبادات ليست من وسائل التربية الروحية فقط، ولكنها من وسائل تربية الإنسان المسلم ككل، ففي العبادات تربية جسمية وتربية اجتماعية وتربية خلقية وتربية جمالية وكذلك تربية عقلية (انظر صفة العبادة) .
فالصلاة تربي الإنسان خلقيا وعقليا، فهي تربط الإنسان بالله، كما أنها تقوي إرادة الإنسان وتعوده على ضبط النفس والصبر والمثابرة» «٣» يقول الله تعالى: إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ «٤» .
(انظر صفة الصلاة) .

---

(١) محيي الدين صابر (مرجع سابق) ، ص ٨٥.
(٢) المرجع السابق نفسه، الصفحة نفسها.
(٣) محمد فاضل الجمالي: نحو توحيد الفكر التربوي في العالم الإسلامي، الدار التونسية للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٢، ص ١٠٥.
(٤) سورة العنكبوت، الآية (٤٥) .

وكان من دعاء الرسول صلّى الله عليه وسلّم في افتتاح الصلاة «اللهم اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت» «١» كما أن تأدية الصلاة في أوقاتها «تعلم النظام والدقة في حفظ المواعيد، حتى إذا شب الطفل على إقامة الصلاة مع المحافظة عليها تعود الإقبال على العمل في الوقت المناسب، والمبادرة إلى انتهاز الفرصة قبل ضياعها، وابتعد عن التثاقل، وامتنع عن التكاسل» «٢» . (انظر صفة الدعاء) .
وفي الصوم، تربية خلقية، والأثر التربوي للصوم يتلخص في تربية الروح، وتربية الخلق حيث يتعود الإنسان على ضبط نفسه ومكافحة شهواته وبذلك تتقوى الإرادة، يقول الله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ «٣» .
والصوم عبادة تتضمن التربية الخلقية، عن عائشة رضي الله عنها قالت: «سمعت النبي صلّى الله عليه وسلّم يقول: «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم» «٤» . (انظر صفة الصوم) .

وفي الزكاة تربية روحية وخلقية، فعن طريقها يتعلم الإنسان إطاعة الأوامر الإلهية ومكافحة الأنانية والإفراط في النزعة المادية والفردية» «٥» . (انظر صفة الزكاة) .
والقرآن ينظم هذه الفريضة، ويجعل لها هدفا هو في غاية السمو «٦» .
ب- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي بالحق:
القرآن الكريم يوصي ويفرض ضرورة التذكير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي بالحق والصبر، يقول سبحانه وتعالى: وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ «٧» ، كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ «٨» .
وإن التذكير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي من أساليب التربية الإسلامية التي بدت خلال أحاديث المربي الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وفي طريقة التواصي دعوة كل مسلم إلى أن يكون مربيا يعلم أخاه المسلم، والتذكير

---

(١) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي: إحياء علوم الدين، الجزء الثامن، كتاب الشعب، دار الشعب، القاهرة، د. ت ص ١٤٣٠، ١٤٣١.
(٢) أحمد فؤاد الأهواني: التربية في الاسلام، ط ٢، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٦٧ م، ص ١١٧.
(٣) سورة البقرة، من الآية (١٨٣) .
(٤) رواه أبو داود والترمذي: الشيخ منصور علي ناصف، التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول صلّى الله عليه وسلّم، ط ٤، دار الفكر العربي، بيروت ١٩٣٥ هـ، ص ١٦، ١٧. وقال محقق «جامع الأصول» (٤/ ٥) : إسناده صحيح.
(٥) محمد فاضل الجمالي: تربية الإنسان الجديد، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٩٦٧ م، ص ١٣٥.
(٦) يمكن الرجوع إلى: سورة البقرة، الآيات: ٢٧١، ٢٦٣، ٢٦٤.
(٧) سورة الذاريات، آية (٥٥) .
(٨) يمكن الرجوع إلى سورة آل عمران آية (١١٠) ، سورة البلد آية (١٧) ، سورة العصر آية (٣) .
وانظر: صفة الأمر بالمعروف، وصفة النصيحة والتواصي. من هذه الموسوعة.

بالخير والحق، والدعوة إليهما، والتنبيه إلى الشر والضرر والنهي عنهما، هو من صميم الأساليب التربوية الإسلامية لتنمية القيم والأخلاق الإسلامية في نفس المسلم، وفي الحديث الشريف أن أبا ذر لما بلغه مبعث النبي صلّى الله عليه وسلّم قال لأخيه: اركب إلى هذا الوادي فاسمع من قوله، فرجع فقال: «رأيته يأمر بمكارم الأخلاق» «١» .
ولما كانت هذه الوسيلة من أهم الوسائل التربوية التي حث عليها القرآن الكريم والتي يتحقق بها الهدف من التربية، لأنها تقوم بصيانة الحياة من الشر والفساد وفي هذه الطريقة يتحقق المبدأ الديمقراطي في التربية.
ج- ضرب الأمثال:
الأمثال «تبرز المعقول في صورة المحسوس الذي يلمسه الناس فيتقبله العقل، لأن المعاني المعقولة لا تستقر في الذهن، إلا إذا صيغت في صورة حية قريبة الفهم، وتكشف الأمثال عن الحقائق وتعرض الغائب في معرض الحاضر، وتجمع الأمثال المعنى الرائع في عبارة موجزة.
والأمثال كثيرة في القرآن، وهي تلعب دورا هاما وبالغا، في التأثير في العواطف، وفي التأثير في السلوك الإنساني، وفي غرس القيم الاسلامية في نفس المسلم، فيما لو استعملت بحكمة، وفي الظروف المناسبة، ولذلك أبرزها القرآن، واهتم بضرب الأمثال وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ «٢» ، وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ «٣» .

كما تضرب الأمثال لتربية الإنسان تربية روحية وخلقية- ففي الحديث الشريف عن أبي موسى- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة، ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة طعمها طيب، ولا ريح لها، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر، ولا ريح لها» «٤» .
وفي الحديث الشريف أيضا «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين» «٥» .

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب، الجزء الثامن، ص ١٦.
(٢) العنكبوت، الآية (٤٣) .
(٣) الحشر، الآية (٢١) .
(٤) رواه البخاري رقم (٥٠٢٠) ومسلم رقم (٧٩٧) والترمذي رقم (٢٨٦٩) والنسائي (٨/ ١٢٤- ١٢٥) وأبو داود رقم (٤٨٣٠) وانظر: «جامع الأصول» (٢/ ٤٥٣) .
(٥) صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، الجزء التاسع، ص ١١٥.

وقد تضرب الأمثال لتربية المسلم تربية عقلية ينمو فيها العقل ويزداد علم الإنسان يقول صلّى الله عليه وسلّم: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا، فكان منها نقيّة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكان فيها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأ- فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» «١» .
وخلاصة القول: أن ضرب الأمثال وسيلة تربوية هامة تلعب دورا هاما في التأثير على سلوك الإنسان، وفي غرس القيم الإسلامية لدى النشء والمسلم، فيما لو استعملت بحكمة وفي الظروف المناسبة.
(د) الموعظة والنصح:
التربية بالوعظ، لها دورها الهام في غرس القيم الإسلامية بميادينها المختلفة، وهي قد تكون في صورة مباشرة على شكل نصائح، فالإنسان «قد يصغي ويرغب في سماع النصح من محبيه وناصحيه- فالنصح والوعظ يصبح في هذه الحالة ذا تأثير بليغ في نفس المخاطب» «٢» .
والقرآن الكريم زاخر بالمواعظ يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ «٣» .
إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ «٤» .
وفي الحديث الشريف «عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل» «٥» ، وعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: «قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: خصلتان لا تجتمعان في مؤمن: البخل وسوء الخلق» «٦» .
والموعظة المؤثرة تفتح طريقها إلى النفس مباشرة مما يؤثر في تغيير سلوك الفرد وإكسابه الصفات المرغوب فيها، وكمال الخلق: عن ابن عباس قال إن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خرج ومعه بلال فظن أنه لم يسمع فوعظهن وأمرهن بالصدقة فجعلت المرأة تلقي القرط والخاتم» «٧» .
وفي المواعظ القرآنية نلحظ أسلوبا تربويا رائعا: يبغي كمال الإنسان، بحيث «يجب أن يتمثلها المعلم

---

(١) صحيح البخاري، كتاب العلم، الجزء الأول، ص ٣٠.

(٢) محمد فاضل الجمالي: نحو توحيد الفكر التربوي في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص ١١١.
(٣) سورة يونس، الآية (٥٧) .
(٤) سورة النساء، الآية (٥٨) .
(٥) أخرجه ابو داود والترمذي، ابن الديبع الشيباني، تيسير الوصول، الجزء الثالث (مرجع سابق) ، ص ٣٧. وقال محقق «جامع الأصول» (٦/ ٦٦٧) : إسناده حسن.
(٦) أخرجه الترمذي (المرجع السابق) ، الجزء الأول، ص ٨١.
(٧) صحيح البخاري، كتاب العلم، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ٣٥.
جـ ١(ص: ١٤٣)

والمتعلم، إذ هي صادرة عن حكمة، وليس عن هوى» «١» والمثال على ذلك نأخذ خلاصة من عظة لقمان لابنه، التي تهدف إلى:

١- أن يكون الله هو مصدر السلوك، بمعنى إيمان الإنسان به، واتباع شريعته، وذلك هو محدد سلوك الإنسان، وهو الهدف والغاية لسلوكه، بمعنى أن يكون مخلصا لله، وذلك عن طريق عدم الإشراك بالله، والشكر له.

٢- أن يكون السلوك كما حددته الموعظة، في قصد واعتدال في كل شيء، فلا مغالاة ولا تفريط، إنما توسط واعتدال، وهذا يعكس هدف التربية الإسلامية السلوكية: إنها تنشىء إنسانا معتدلا في سلوكه وفي عقيدته.

وهكذا يبدو دور الوعظ كوسيلة في التربية الإسلامية، تصلح في ميدان التربية الخلقية، كما هي في ميدان التربية الاجتماعية والعقلية وباقي الميادين الإسلامية.

هـ- القدوة:

تعني القدوة هنا أن يكون المربّي أو الداعي مثالا يحتذى به في أفعاله وتصرفاته، وقد أشاد القرآن الكريم بهذه الوسيلة فقال عز من قائل: قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ (الممتحنة/ ٤) ، وقد كان المصطفى صلّى الله عليه وسلّم- ولا يزال- قدوة للمسلمين جميعا، والقدوة الحسنة التي يحققها الداعي بسيرته الطيّبة هي في الحقيقة دعوة عملية للإسلام «٢» بكل ما يحمله من مبادىء وقيم تدعو إلى الخير وتحث على الفضيلة.

ولأثر القدوة في عملية التربية، وخاصة في مجال الاتجاهات والقيم، كان الرسول صلّى الله عليه وسلّم هو قدوة المسلمين طبقا لما نص عليه القرآن الكريم، وقد استطاع بفضل تلك القدوة أن يحمّل معاصريه قيم الإسلام وتعاليمه وأحكامه، لا بالأقوال فقط، وإنما بالسلوك الواقعي الحي، وقد حرصوا على تتبع صفاته وحركاته ورصدها والعمل بها، وما ذلك إلا حرصا منهم على تمثل أفعاله صلّى الله عليه وسلّم، لقد كان المثل الأعلى لهم.

وقد تمثلت في الرسول صلّى الله عليه وسلّم صفات جليلة جعلت منه قدوة بالفعل، ويمكننا أن نعرض لبعض تلك الصفات التي تفيد في توضيح القدوة وصفاتها الفعالة كأسلوب من أساليب تنمية القيم.

١- العقل:

فهو الأصل، وعنصر الينابيع، ونقطة الدائرة، منه ينبعث العلم والمعرفة، ويتفرع عنه ثاقب الرأي وجودة الفطنة والإصابة، وصدق الظن، والنظر للعواقب ومصالح النفس، ومجاهدة الشهوة، وحسن السياسة والتدبير، وانتقاء الفضائل وتجنب الرذائل، وقد بلغ الرسول صلّى الله عليه وسلّم في العقل الغاية التي لم يبلغها بشر سواه، يقول القاضي عياض: «وإذ جلالة ذلك وما تنوع منه متحقق عند من تتبع مجاري أحواله، واطراد سيره، وطالع جوامع كلامه،

---

(١) علي خليل مصطفي أبو العينين، فلسفة التربية في القرآن الكريم، ط ٣، مكتبة ابراهيم حلبي، المدينة المنورة، ١٩٨٨ م.
(٢) مبادىء ونماذج في القدوة للشيخ صالح بن حميد، ص ٨.

وحسن شمائله، وبدائع سيره، وحكم حديثه، وعلمه مما في التوراة والإنجيل والكتب المنزلة، وحكم الحكماء، وسير الأمم الخالية وأيامها وضرب الأمثال وسياسات الأنام، وتقرير الشرائع، وتأصيل الآداب النفسية، والشيم الحميدة إلى فنون العلوم، التي اتخذ أهلها كلامه عليه السلام فيها قدوة، وإشاراته حجة، كالعبادة والطب والحساب والفرائض والنسب، وغير ذلك.. دون تعليم ولا مدارسة، ولا مطالعة كتب من تقدم، ولا الجلوس إلى علمائهم، بل نبي أمي لم يعرف بشيء من ذلك حتى شرح الله صدره، وأبان أمره وعلمه وأقرأه.. وبحسب عقله كانت معارفه صلّى الله عليه وسلّم إلى سائر ما علمه الله تعالى، وأطلعه عليه من علم ما يكون وما كان من عجائب قدرته وعظيم ملكوته» «١» .

٢- الحلم والاحتمال والعفو عند القدرة، والصبر على المكروه:

وهذا شرط آخر في القدوة، وقد كان صلّى الله عليه وسلّم متمثلا هذا، فقد أمره ربه خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ «٢» . وما يروى عنه صلّى الله عليه وسلّم يدل على هذا دلالة واضحة «٣» ، والمقتدي به إن لم يكن متحليا بهذه الصفات أو الشمائل فقد كثيرا من مؤهلاته التي يتمكن عن طريقها من احتواء انفعالات الناس، وهذا شرط ضروري كي يؤثر في الناس، أو يتأثر به الناس.

٣- الجود والكرم والسخاء:

كان صلّى الله عليه وسلّم لا يبارى في هذه الصفات، وبهذا وصفه كل من عرفه، ويروى عنه أنه كان «أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس» «٤» .

٤- الشجاعة والنجدة:

وقد كان صلّى الله عليه وسلّم منهما «بالمكان الذي لا يجهل، وقد حضر المواقف الصعبة، وفر الكماة والأبطال عنه غيره مرة، وهو ثابت لا يبرح، ومقبل لا يدبر، ولا يتزحزح، وما شجاع إلا وقد أحصيت له فرة، وحفظت عنه جولة سواه» «٥» .

وإذا كان القدوة يدعو إلى صفات مثل هذه، فلا بد وأن تكون فيه متمثلة، وهاتان الصفتان أساسيتان في القدوة، لأنها إذا ما توفرت فيه، كان قادرا على ترجمة القيم إلى سلوك، واعتراض ما يواجهه من صعاب في تأدية مهامه، إنهما أساسيتان لأي قدوة.

---

(١) القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، تحقيق علي محمد البجاوي، الجزء الأول، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م، ص ١٣٣، ١٣٤.

(٢) سورة الأعراف: ١٩٩.

(٣) القاضي عياض، مرجع سابق، ص ١٣٦- ١٤٧، وراجع صفة: الحلم والعفو، والصبر من الموسوعة.

(٤) حديث صحيح عن أنس: انظر مختصر صحيح مسلم، حديث رقم ١٥٨١، ومحمد ناصر الدين الألباني، صحيح الجامع الصغير وزيادته، المجلد الثاني، الطبعة الثانية، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م، حديث رقم ٤٦٣٤. وراجع صفة: الجود والكرم والسخاء من الموسوعة.

(٥) القاضي عياض، مرجع سابق، ص ١٤٧، ١٤٨. وراجع صفة: الشجاعة من الموسوعة.

٥- الحياء والإغضاء:

وقد كان صلّى الله عليه وسلّم «أشد الناس حياء، وأكثرهم عن العورات إغضاء» وعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: «كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أشد حياء من العذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئا عرفناه في وجهه» «١» . وكان صلّى الله عليه وسلّم:

«لطيف البشرة، رقيق الظاهر، لا يشافه أحدا بما يكرهه حياء وكرم نفس» . وعن عائشة- رضي الله عنها-: «كان النبي صلّى الله عليه وسلّم إذا بلغه عن أحد ما يكرهه، لم يقل: ما بال فلان يقول كذا؟ ولكن يقول: ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا؟ ينهى عنه ولا يسمي فاعله» «٢» .
إن الحياء يمنع صاحبه من ارتكاب النقائص والقبائح والمنكرات، ويدفع المرء إلى التحلي بكل جميل محبوب، وإذا كان الحياء خلقا إسلاميا عاما يطلبه الإسلام في أتباعه، فإنّ تحلّي القدوة به أوجب، ولذا وردت الأحاديث النبوية الكثيرة تصف حياء الرسول القدوة وتدفع المسلمين إلى التزامه.
٦- حسن العشرة والأدب، وبسط الخلق مع أصناف الخلق:
يقول علي- رضي الله عنه- في وصف النبي صلّى الله عليه وسلّم: «كان أوسع الناس صدرا، وأصدق الناس لهجة وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة» «٣» ، وكان يؤلف أصحابه، ولا ينفرهم، ويكرمهم «ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد بشره، ولا خلقه، يتفقد أصحابه، ويعطي كل جلسائه نصيبه، لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه، من جالسه أو قاربه لحاجة صابره، حتّى يكون هو المنصرف عنه، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها، أو بميسور من القول، وقد وسع الناس بسطه وخلقه، فصار لهم أبا، وصاروا عنده في الحق سواء» «٤» .
وصف بأنه كان «دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا عياب، ولا مزّاح، يتغافل عما لا يشتهي، ولا يؤيس منه (راجيه) ولا يخيب فيه، قد ترك نفسه من ثلاث: المراء والإكثار وما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث: كان لا يذمّ أحدا، ولا يعيّره، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه» «٥» .

---

(١) حديث صحيح، مختصر صحيح مسلم، حديث رقم ١٥٦٨، وانظر: الألباني مرجع سابق، ص ٨٧٠، حديث رقم ٤٧٩٩.
(٢) حديث صحيح، المرجع السابق، ص ٨٥٧، حديث رقم ٤٦٩٢. وراجع صفة: الحياء من الموسوعة.
(٣) القاضي عياض، الشفاء، مرجع سابق ص ١٥٥.
(٤) المرجع السابق، ص ١٥٦.
(٥) أبو نعيم الأصفهاني، دلائل النبوة، تحقيق محمد رواس قلعجي، عبد البر عباس، الجزء الثاني، الطبعة الثانية، بيروت، دار النفائس، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م، ص ٦٣١.
جـ ١(ص: ١٤٦)

ويقول جرير بن عبد الله: ما حجبني رسول الله منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسم، كان يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم، ويداعب صبيانهم، ويجلسهم في حجره، ويجيب دعوة الحر والأمة والمسكين، يعود المرضى في أقصى المدينة، ويقبل عذر المعتذر» «١» .
وكان «يبدأ من لقيه بالسلام، ويبدأ أصحابه بالمصافحة، ولم ير قط مادّا رجليه بين أصحابه حتى يضيق بهما على أحد، يكرم من يدخل عليه، وربما بسط له ثوبه ويؤثره بالوسادة التي تحته، ويعزم عليه في الجلوس عليها إن أبي ويكني أصحابه، ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرمة لهم، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجوّز فيقطعه بنهي أو قيام» «٢» .
٧- الشفقة والرأفة والرحمة لجميع الخلق:
وقد وصف القرآن محمدا صلّى الله عليه وسلّم: عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ «٣» . فهو رءوف ورحيم، وشفيق، ومن شفقته على الأمة «تخفيفه وتسهيله عليهم وكراهته أشياء مخافة أن تفرض عليهم كقوله: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل وضوء» «٤» . وكذا خبر صلاة الليل، ونهيه عن الوصال، وكراهته دخول الكعبة لئلا يعنت أمته، ورغبته لربه أن يجعل سبّه ولعنه رحمة بهم، وأنه كان يسمع بكاء الصبي فيتجوز في صلاته «٥» .

٨- الوفاء بالعهد، وصلة الرحم:
والشواهد على ذلك كثيرة، فقد كان صلّى الله عليه وسلّم وفيا لعهده، حسن العهد، يقول: «إن حسن العهد من الإيمان» ، وكان يصل ذوي رحمه من غير أن يؤثرهم على من هم أفضل منهم «٦» .
٩- التواضع:
والآثار المروية عنه صلّى الله عليه وسلّم في هذا المجال كثيرة، لم يكن يحب أن يعظمه الناس، فقد خرج ذات يوم متكئا على عصا فقام له الناس، فقال: «لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظّم بعضهم بعضا» «٧» .
وعن أنس- رضي الله عنه- قال: «جاء رجل إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم فقال: يا خير البرية، فقال: رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «ذاك

---

(١) القاضي عياض، الشفا، مرجع سابق، ص ١٥٧.
(٢) المرجع السابق، ص ١٥٨. وراجع صفة: حسن العشرة، وحسن الخلق من الموسوعة.
(٣) سورة التوبة: ١٢٨.
(٤) حديث صحيح، انظر الألباني، مرجع سابق، ج ٢، ص ٩٤٠، حديث رقم ٥٣١٧.
(٥) القاضي عياض، مرجع سابق، ص ١٦٢، وراجع ص ١٦٣، ١٦٤. وراجع صفة: الشفقة، والرأفة، والرحمة من الموسوعة.
(٦) المرجع السابق، ص ١٦٥- ١٦٧.
(٧) حديث حسن، انظر البغوي، مصابيح السنة، تحقيق يوسف عبد الرحمن المرعشلي وآخرون، مجلد ٣، الطبعة الأولى، بيروت، دار المعرفة، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧ م، ص ٢٨٧، حديث رقم ٣٦٤١.

إبراهيم» «١» . وقال صلّى الله عليه وسلّم: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله» «٢» .
والآثار والأحاديث في هذا الباب وافرة.
والأمر الذي نود التأكيد عليه، هو أنه مع نبوته كان متواضعا، ومع علو منصبه ورفعة رتبته، وغزارة علمه، كان أشد الناس تواضعا، فالتواضع من أهم شروط التأثير في الناس، ومع أن الله سبحانه وتعالى مدحه في القرآن، إلا أنه كان في أشد التواضع، لا يتطاول على الناس ولا على الخلق، وكان هذا أكبر داعية لاتخاذ الناس الرسول قدوة لهم.
١٠- العدل والأمانة والعفة، وصدق اللهجة:
فقد كان صلّى الله عليه وسلّم آمن الناس، وأعدلهم، وأعف الناس، وأصدقهم لهجة وقد كان مشهورا بهذه الأوصاف قبل الرسالة وبعدها، ولولا هذه الصفات، وخاصة الأمانة لما حصلت الثقة فيه بما يبلّغ به عن ربّه، ولما اصطفاه الله لحمل الرسالة إلى البشر «٣» .
وهذه الصفات ضرورية لحمل مسئولية القدوة، ولا بد أن تتوفر فيه حتى يثق الناس فيمن هو قدوة لهم، وبالتالي يثقون فيما يصدر عنه ويصدقونه فيه.
١١- الوقار والتؤدة والمروءة والهدى والرفق:
وقد جاء في ذلك الكثير من الآثار، فقد جاء في الروايات، أنه صلّى الله عليه وسلّم كان «أوقر الناس في مجلسه، لا يكاد يخرج شيئا من أطرافه» وأنه «كان كثير السكوت لا يتكلم في غير حاجة، يعرض عمن تكلم بغير جميل، وكان ضحكه تبسما، وكلامه فصلا، لا فضول ولا تقصير، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم، توقيرا له، واقتداء به، مجلسه مجلس حلم وحياء، وخير وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات، ولا تؤبّن فيه الحرم، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير» «٤» .
وقد كان حسن الهدى رفيقا بالناس والأشياء والحيوان، والآثار في ذلك كثيرة وافرة. ومن هذا مراعاته صلّى الله عليه وسلّم التوسط والاعتدال في سلوكه وتعامله، في قوله وفعله، في طعامه وشرابه،

ولباسه ومسكنه، ومات وهو على ذلك، ولأنه قدوة فقد تبعه في تلك الوسطية أصحابه، فقصوا أثره إلى حد بعيد خاصة الخلفاء الراشدين «٥» .

---

(١) حديث صحيح، أخرجه مسلم، انظر المرجع السابق، ج ٣، ص ٣٤٠، حديث رقم ٣٨٠٤.
(٢) حديث صحيح، أخرجه البخاري، ومسلم، المرجع السابق، ج ٣، ص ٣٤٠، حديث رقم ٣٨٠٥.
وراجع صفة: الوفاء بالعهد، وصلة الرحم، من الموسوعة.
(٣) القاضي عياض، مرجع سابق، ص ١٧٢- ١٧٦. وراجع صفة: العدل، والأمانة والعفة، من صفات الموسوعة.
(٤) المرجع السابق، ص ١٧٧، وانظر: أبو نعيم، دلائل النبوة، مرجع سابق ج ٢، ص ٦٢٩- ٦٣٢.
وتوبّن: تؤذي (القاموس «وبن») .
(٥) حسن خالد، مجتمع المدينة قبل الهجرة وبعدها، بيروت، دار النهضة العربية، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م، ص ١٧٧. وراجع صفة: الوقار والتؤدة والرفق من صفات الموسوعة.
جـ ١(ص: ١٤٨)

١٢- الزهد في الدنيا والتقلل منها:
ولم يكن هذا الزهد عن ضعف، فقد سيقت له الدنيا بحذافيرها، وترادفت عليه فتوحها، إلا أنه صلّى الله عليه وسلّم رغب عنها وكان يقول: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا» «١» . والآثار في ذلك وافرة.
ومن ذلك ما يرويه ابن مسعود أن النبي صلّى الله عليه وسلّم نام على حصير، فقام وقد أثر في جسده، فقال ابن مسعود: يا رسول الله لو أمرتنا أن نبسط لك ونعمل، فقال «مالي وللدنيا، وما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها» «٢» .
وعن أنس: «أنه مشى إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم بخبز شعير وإهالة سنخة، ولقد رهن النبي صلّى الله عليه وسلّم درعا بالمدينة عند يهودي وأخذ منه شعيرا لأهله، ولقد سمعته يقول: ما أمسي عند آل محمد صاع برّ ولا صاع حبّ، وأن عنده لتسع نسوة» «٣» . وهذا الزهد لم يكن زهد الحرمان والقهر وترك الأسباب، وإنما هو القدرة والقدرة واليسر والأخذ بالأسباب، وهو عدم تعلق همة القلب بمتع الحياة الدنيا وزخارفها وزينتها، وهذا الزهد النبوي، لم يكن يعني أن النبي صلّى الله عليه وسلّم يزهد بأن يدخل عليه المال الوفير، وإنما كان يعني زهده في ادخاره لنفسه وحرصه عليه، فهو الذي يقول: «لو كان لي مثل أحد ذهبا لسرني أن لا يمر على ثلاث ليال وعندي منه شيء، إلا شيء أرصده لدين» «٤» .
١٣- الخوف من الله وطاعته وعبادته:
وقد كان صلّى الله عليه وسلّم أخوف الناس من الله، وكان يصلي ويداوم العبادة، ويصوم، ويقرأ القرآن، ويستغفر ربه، ويدعوه، والآثار في ذلك وافرة.
هذه هي صفات القدوة كما تمثلت في النبي صلّى الله عليه وسلّم، وبهذه الصفات الجامعة استطاع صلّى الله عليه وسلّم أن يغرس القيم الإسلامية في نفوس أصحابه، ويرعاها نامية قوية وقد أدرك صلّى الله عليه وسلّم أنه ليس هناك أخطر على القيم ونموها مثل الانفصال بين الداعي والمدعوين، بين المعلم والمتعلمين، بين الدعوة والتنفيذ، بين القول والعمل، خاصة أن هذا ما نعاه الله على بني إسرائيل في القرآن:
أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ «٥» .

---

(١) حديث صحيح، أخرجه مسلم، انظر البغوي، مصابيح السنة، مرجع سابق، ج ٣، ص ٤١٧، حديث رقم ٤٠٠٦.
(٢) حديث صحيح، انظر: محمد نصر الدين الألباني، صحيح سنن ابن ماجه، المجلد الثاني، الطبعة الأولى، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٦ م، ص ٣٩٤، حديث رقم ٣٣١٧.

(٣) حديث صحيح، أخرجه البخاري، انظر مصابيح السنة، مرجع سابق، ج ٣، ص ٤٣١، حديث رقم ٤٠٤٨.
(٤) حديث صحيح، متفق عليه، انظر المرجع السابق ج ٢، ص ٢٣٨، حديث رقم ١٣١٤.
(٥) سورة البقرة: ٤٤ وانظر: محمد صابر قميحة، مرجع سابق، ص ١١٩. وراجع صفة: الزهد والقناعة من صفات الموسوعة.

إن دور القدوة مهم في حياة الأفراد والجماعات، وما أصيبت دعوة أو فكرة أو مذهب بافتقاد القدوة إلا فقدت تأثيرها، وما قدم صاحب دعوة الدليل العملي على صحة دعواه إلا بالسلوك والقدوة، وحينئذ يقتنع الناس وتصبح واقعا سلوكيا في حياة الناس.
وما أصيبت مجتمعاتنا الإسلامية في صميمها إلا حين افتقدت القدوة. إن القدوة ترجمة عملية واقعية للمبادىء والأفكار تستطيع أن تجمع الناس حول المثل الأعلى، ولذا حين تفتقد المثل الأعلى، ويصبح الناس فرقا وجماعات ومذاهب، فيفقدون إرادة الفعل ويغرقون في التناطح، ويتترّسون خلف متاريس الفكر، كل يحاول الانتصار لفكرته بالكلام والتراشق بالاتهامات، والتعصب الأعمى القائم على التقليد الأعمى.
إن مجتمعاتنا تشكو من فقر خلقي وعلمي وحضاري، وما ذلك إلا نتيجة لافتقادها للقدوة الصالحة ولو صحت عزائم الناس والعلماء منهم خاصة لأصبح كل واحد منهم قدوة حسنة في مجاله- فهو يملك مقوماتها- ولتحولت الأفكار والمبادىء إلى فعاليات سلوكية صحيحة، وهذا ما نحتاجه فعلا، ولكن- وللأسف- ما زلنا نعيش مرحلة اجترار المبادىء والأفكار بدون فعالية، فنحن في أمس الحاجة إلى القدوة الصالحة بكافة أشكالها وبشروطها السابقة، ويوم أن توجد تلك القدوة نستطيع أن نمتلك الفعالية، وننتج الحضارة، ويكون لنا مكاننا العالمي عطاء وإبداعا.
إن القدوة السلوكية أمر لازم لتنمية القيم وصبغها بالفعالية لتكون موجها حقيقيا، وما امتازت التربية الإسلامية عبر عهودها التي عاشتها إلا بتلك القدوة، ويوم أن فقدت القدوة فقدت فعاليتها في حياة الناس، ولذا فإن واجب التربية الإسلامية توفير هذه القدوة حتى تعاود التأثير والإبداع، ولها في هدي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم زاد كبير ومدد تستمد منه في إعداد المربين القدوة، وكذا الآباء والأمهات وسائر المجتمع الإسلامي الذي هو في أمس الحاجة إلى القيم الإسلامية مجسدة في أفراده.
والتربية العملية والتربية بالوقائع:
لتنمية الأخلاق لدى المسلمين اتبع الرسول صلّى الله عليه وسلّم أسلوب التربية العملية، تعليما وتدريبا، وربط التوجيه بالأحداث والوقائع الجارية في حياة الناس، والتربية الإسلامية في هذا المجال تظهر من خلال حديث الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وقبله القرآن الكريم «تربية عملية، تتحول بها الكلمة إلى عمل بناء، أو إلى خلق فاضل، أو إلى تعديل في السلوك على النحو الذي يحقق وجود ذلك الإنسان كما تصوره الإسلام» «١» . وكان الرسول صلّى الله عليه وسلّم يهمه أن يتحول ما يتلقاه المسلمون منه إلى مواقف عملية وسلوكيات، وكان كمرب «يثبت بالبراهين العملية والتجارب الفعلية أن ما

(١) عبد الغني عبود، فى التربية الإسلامية، الطبعة الأولى، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٧٧ م، ص ١٥٧.

يدعو إليه هو أمر ممكن التنفيذ، وآية ذلك أنه مشخص في سلوكه» «١» . وهناك الكثير من مواقف حياة الرسول صلّى الله عليه وسلّم تترجم هذا وتدل عليه.
إن التربية الحقيقية هي التي تحاول أن تجعل من العلم سلوكا حقيقيّا، ومن الأفكار مواقف، والرسول صلّى الله عليه وسلّم يصور هذا فيما يروى عنه، فالعلم قبل القول والعمل، ولكن العمل ضروري لا

يكفي القول ولا العلم، حتى الإيمان يعتبر عملا، وقد جاء في صحيح البخاري باب بعنوان: «من قال إن الإيمان هو العمل» لقول الله تعالى:
وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ «٢» . وقال عدة من أهل العلم في قوله تعالى: فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ «٣» . عن قول لا إله إلا الله، وقال: لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ «٤» . ويروى عن أبي هريرة أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سئل «أي العمل أفضل؟ فقال:
الإيمان بالله ورسوله، قيل: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله، قيل: ثم ماذا؟ قال: حج مبرور» «٥» .
ومن هذا القبيل الأمر بالتبليغ عن رسول صلّى الله عليه وسلّم، ومن هذا القبيل أيضا ما روي عن شعبة عن أبي جمرة، قال:
كنت أترجم بين ابن عباس وبين الناس، فقال: إن وفد بني عبد القيس أتوا النبي صلّى الله عليه وسلّم، فقال: «من القوم أو من الوفد؟» قالوا: ربيعة، فقال: «مرحبا بالقوم أو الوفد، غير خزايا ولا ندامى» قالوا: إنا نأتيك من شقة بعيدة، وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر، ولا نستطيع أن نأتيك إلا في شهر حرام، فمرنا بأمر نخبر به من وراءنا، ندخل به الجنة، فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع: أمرهم بالإيمان بالله- عز وجل- وحده، قال: «هل تدرون ما الإيمان بالله وحده» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وتعطوا الخمس من المغنم» . ونهاهم عن الدّبّاء والحنتم والمزفت، قال شعبة: ربما قال: «النقير» وربما قال «المقير» ، قال: «احفظوه وأخبروه من ورائكم» «٦» .

---

(١) سعيد إسماعيل على: أصول التربية الإسلامية، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٧٨ م، ص ٨٢.
(٢) سورة الزخرف: ٧٢.
(٣) سورة الحجر: ٩٢- ٩٣.
(٤) سورة الصافات: ٦١.
(٥) الإمام البخاري، صحيح البخاري، ضبط وإخراج: مصطفى ديب البغا، الطبعة الأولى، الجزء الأول، بيروت، دار القلم، ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١ م، ص ١٨، حديث رقم ٢٦.
(٦) الإمام البخاري، مصدر سابق، ج ١، كتاب الإيمان، ص ٢٩، حديث رقم ٥٣، والحنتم: جرار كانت تعمل من طين وشعر ودم، والدباء: اليقطين إذا يبس اتخذ وعاء. والنقير: أصل النخلة ينقر ويجوف فيتخذ منه وعاء. المزفت: ما طلي بالزفت. المقير: ما طلي بالقار.

وكما نلاحظ فإن الرسول يحرص كل الحرص على ترجمة الإيمان إلى سلوك، وكلا الأمرين النهي والأمر لا بد أن يترجما إلى سلوك، وهو حرص الوفد نفسه على أن يدله الرسول صلّى الله عليه وسلّم على عمل يدخلهم الجنة، ثم أمر آخر نلاحظه في الحديث، وهو قوله صلّى الله عليه وسلّم: (احفظوه، وأخبروه من وراءكم) حفظ ووعي وفهم وتطبيق ثم تبليغ.
إن الرسول صلّى الله عليه وسلّم يحرص على أن يعلم الناس، وأن ينشر العلم، لأنه أساس التربية العملية، يقول في خطبة بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «إن مكة حرمها الله، ولم يحرمها الناس، فلا يحل لا مرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دما، ولا يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخّص لقتال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيها، فقولوا: إن الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، وليبلغ الشاهد الغائب» «١» .
وعن أبي موسى- رضي الله عنه- عن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا، فكان منها نقية، قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله

ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» «٢» .

هذه شواهد متعددة تبين أن العبرة في العلم التطبيق والعمل، لا مجرد المعرفة، ومن هنا كانت عنايته صلّى الله عليه وسلّم بالتربية العملية، لأنها أكثر فعالية في تطبيق الأخلاق ورعايتها.

وكان الرسول صلّى الله عليه وسلّم يغتنم فرصة التصرفات العملية التي تقتضي توجيها تربويا أو عمليا ليأخذ منه المسلمون درسا إيجابيا، فكان يدعو إلى قيمة أو يصحح سلوكا، أو ينفي هذا السلوك الخاطيء وهي طريقة فعالة لأنها ترتبط بالوقائع المشاهدة وتتصل بما يعيشه الناس، ولذا ترسخ في الذهن، وتثبت في القلوب، وبهذا ترتبط القيم بواقع الحياة، وهذا يعني أن غرس القيم لا يقتصر على مجرد التعلم والحفظ والتسميع، وإنما يعتمد على واقع الحياة والخبرة المعيشية وبالتالي يكون تأثيرها قويا، لأنها «تثير الانتباه الذي يجمع الفاعلية النفسية حول ظاهرة ما، عن طريق الحس إن كانت هذه الظاهرة خارجية، وعن طريق التأمل إن كانت داخلية» «٣» .

والحديث الشريف مليء بالأمثلة من ذلك النوع، من ذلك:

- ما يروى عن أبي ذر- رضي الله عنه- قال: كان بيني وبين رجل كلام، وكانت أمه أعجمية، فنلت منها فذكرني إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم، فقال: «أساببت فلانا» قلت: نعم، قال: «أفنلت من أمه؟» قلت: نعم، قال: «إنك امرؤ

---

(١) المرجع السابق، كتاب العلم، ص ٥١، حديث رقم ١٠٤.

(٢) الإمام البخاري، صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب العلم، ص ٤٢، حديث رقم ٧٩.

(٣) التهامي نفرة، سيكولوجيية القصة في القرآن، الجزائر، جامعة الجزائر، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧١ م، ص ٥٧٢.

فيك جاهلية» ، قلت على حين ساعتي: هذه من كبر السن؟ قال: «نعم، هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن جعل الله أخاه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا يكلفه من العمل ما يغلبه، فإن كلفه فليعنه عليه» «١» .

- وذكر رجل عند النبي صلّى الله عليه وسلّم فأثنى عليه رجل خيرا، فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم: «ويحك، قطعت عنق صاحبك- يقول مرارا- إن كان أحدكم ما دحا لا محالة فذلك أحسب كذا وكذا، إن كان يرى أنه كذلك، والله حسيبه ولا يزكي على الله أحدا» «٢» .

- ويروى عن جابر بن عبد الله: أن معاذ بن جبل كان يصلي مع النبي صلّى الله عليه وسلّم، ثم يأتي قومه فيصلي بهم الصلاة، فقرأ بهم البقرة، قال: فتجوز رجل فصلى صلاة خفيفة فبلغ ذلك معاذ، فقال: إنه منافق، فبلغ ذلك النبي صلّى الله عليه وسلّم فقال: يا رسول الله إنا قوم نعمل بأيدينا، ونسقي بنواضحنا، وإن معاذا صلّى بنا البارحة فقرأ البقرة، فتجوزت، فزعم أني منافق، فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم: «يا معاذ، أفتان أنت- ثلاثا- اقرأ: وَالشَّمْسِ وَضُحاها وسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ونحوها» «٣» .

إن هذه الأمثلة وغيرها توضح أنه ما من واقعة تحدث، إلا وكان يبينها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وكان صلّى الله عليه وسلّم لا ينطق عن الهوى فإذا وقعت بعد ذلك، عرف الناس كيف يتصرفون حيالها، وهناك عدة أمور توافرت لتضمن فعالية هذا الأسلوب، وهي:

- وقوع الشخصية في موقف ما، اجتماعي أو إنساني أو غير ذلك من مواقف أو واقعات.

- إثارة قوى الشخصية الانفعالية والعقلية بكافة الأساليب الممكنة: السؤال، الاعتراض، الاستنكار ... الخ، وإشعارها أنها تقف موقفا يحتاج إلى معيار يضبطه.

- الإجابة عن السؤال أو الاعتراض.

- تزويد الشخصية بالحل الأمثل بالقيمة المطلوبة في هذا الموقف.

وتأتي بعد ذلك الاستجابة والاختيار في إطار هذا الخلق والالتزام به، وهكذا وبهذه الطريقة استطاع الرسول صلّى الله عليه وسلّم أن يبني الأخلاق في نفوس المسلمين.

ز- القصة:

وهي من أكبر وأكثر الوسائل فعالية في تنمية الأخلاق، وقد استخدمها الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وحرص على أن

---

(١) الإمام البخاري، صحيح البخاري، مرجع سابق، ج ٥، كتاب الأدب، ص ٢٢٤٨، حديث رقم ٥٧٠٣.

(٢) المصدر السابق، كتاب الأدب، ص ٢٢٥٢، حديث رقم ٥٧١٤.

(٣) المصدر السابق، كتاب الأدب، ص ٢٢٦٤، حديث رقم ٥٧٥٥.

يضمنها الكثير من الأخلاق الإسلامية، إما من أجل توضيحها أمام المسلمين من ناحية، وإما من أجل تعميقها في نفوسهم من ناحية ثانية، وذلك «من خلال جعلها موضوعات تدور حولها أو تتحدث عنها أحداث القصة ومواقفها، وهي قيم ذات جوانب متعددة» «١» .

وتأتي فعالية القصة من كونها «مزيجا من الحوار والأحداث والترتيب الزمني مع وصف للأمكنة والأشخاص والحالات الاجتماعية والطبيعية التي تمر بشخصيات القصة» «٢» .

وهي قادرة على تأكيد الاتجاهات المرغوبة وترسيخ القيم والأخلاق، وذلك عن طريق استثارة مشاركة الإنسان العاطفية لنماذج السلوك والقيم التي تقوم القصة بتقديمها وللمواقف التي تصورها.

وقد كانت القصة القرآنية وسيلة من وسائل التربية وتنمية القيم الخلقية الإسلامية، وذلك باستخراج العبرة من التجربة السابقة، واستخراج المثل وشرح طرق الخير، والتحذير من الكفر والجحود، يقول تعالى: إِنَّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ* نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ «٣» .

ويقول تعالى:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ «٤» .

تِلْكَ الْقُرى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبائِها «٥» .

فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ «٦» .

وهذا القصص باحتوائه على ألوان كثيرة وصور كثيرة عن الماضي من لدن آدم لبعث الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وما كان من أخبار الرسل والأمم السابقة، وما يعرض من صور المكذبين لتخليهم عن تحكيم القيم والمعايير التي جاء بها الرسل، كل هذا يؤكد معلما بارزا حيا في استخدام هذا القصص كوسيلة من أهم وسائل التربية وتنمية القيم.

تمد القصة القرآنية الفرد والجماعة بالقيم الأخلاقية الإسلامية الصادقة وتسهم- بإيجابية- في غرس هذه القيم في نفوسهم، وهي إحدى وسائل التربية، التي يميل إليها النشء. فإن «القصة تؤثر في النفس إذا وضعت في

---

(١) محمد بن حسن الزير، القصص في الحديث النبوي، الطبعة الثالثة، بدون ناشر، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م، ص ٣٨٨.

(٢) حسن إبراهيم عبد العال، أصول تربية الطفل والإسلام، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية تربية، جامعة طنطا، ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م، ص ٢٩٥.

(٣) سورة يوسف: ٢، ٣.

(٤) سورة غافر: ٧٨.

(٥) سورة الأعراف: ١٠١.

(٦) سورة الأعراف: ١٧٦.
جـ ١(ص: ١٥٤)

قالب عاطفي مؤثر، وهي تجعل القارىء أو السامع يتأثر بما يقرأ أو يسمع، فيميل إلى الخير وينفذه، ويمتعض من الشر فيبتعد عنه» «١» .
وكل القصص الذي تضمنه القرآن الكريم هو قصص واقعي، جاء به القرآن للتربية. «وهذا القصص يشتمل على كل أنواع التعبير الفني ومشخصاته، من حوار إلى سرد، إلى إحياء للشخص، إلى دقّة في رسم الملامح، إلى اختيار دقيق للخطة الحاسمة في القصة» «٢» .
والقرآن الكريم يقرر ذلك كله- منذ مئات السنين- في لفظ قصير، وأسلوب جميل، وبيان معجز، ونستدل من ذلك على أن القصة تلعب دورا فعالا في غرس كثير من القيم الإسلامية السامية في نفوس الأفراد.
والقصة لم تكن وسيلة من وسائل الدعوة الإسلامية إلى الله في القرآن «إلّا بعد أن قطعت الدعوة أشواطا من سيرها مع العقل الإنساني، والتعريف بالخالق العظيم الرزّاق، بالنظر في آيات الله، وما صورت من عجائب الخلق والإبداع» «٣» .
والقصة القرآنية الهادفة «سلاح نفسي، في الدعوة الإسلامية إلى عقيدة التوحيد، وفي إقناع المخالفين عن طريق الجدال والحوار بسمو هذه العقيدة ونيل أهدافها» «٤» .
وجاء القرآن الكريم بقصص تربوية، هي «غاية في الأهمية، في علاقات الإنسان الأخلاقية- ذلك مع جمال الأسلوب وبلاغة المعنى» «٥» .
كما نص القرآن الكريم على أهمية القصة، ودورها في غرس القيم الأخلاقية، وذلك في مثل قوله تعالى:
نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ «٦» .
ونتيجة لما للقصص من دور خطير في التوجيه الفني الخفي، ألح علماء التربية على حسن اختيار ما يعرض أو يقدم للناشئة من قصص، حتى لا ينقلب عاملا سيء الأثر من تربيتهم، وتكوينهم الفكري والخلقي، وهم لم يبلغوا درجة من النضج تؤهلهم للتمييز، وتمكنهم من الحكم الصحيح على المواقف والتصرفات «٧» .

---

(١) محمد فاضل الجمالي: تربية الإنسان الجديد، مرجع سابق، ص ١٤٠، ١٤١.
(٢) سعيد إسماعيل علي: أصول التربية الإسلامية، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٧٨، ص ٢٦.
(٣) عبد الكريم الخطيب، الله ذاتا وموضوعا، القاهرة، ط ٢، دار الفكر العربي، ١٩٧١، ص ٤٠٣.
(٤) التهامي نفرة، سيكولوجية القصة في القرآن، جامعة الجزائر، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧١ م، ص ٥٧٢.
(٥) محمد فاضل الجمالي: تربية الإنسان الجديد، مرجع سابق، ص ٤٩.
(٦) سورة يوسف: ٣.
(٧) التهامي نفرة، سيكولوجية القصة في القرآن، مرجع سابق، ص ١٤.
جـ ١(ص: ١٥٥)

والقرآن الكريم استخدم القصة لجميع أنواع التربية والتوجيه التي يشملها: تربية الخلق، تربية الوجدان، تربية الجسم، والتربية بالموعظة.
لقد كانت القصة- وما تزال- مدخلا طبيعيّا، يدخل منه أصحاب الرسالات والدعوات والهواة والقادة إلى الناس، وإلى عقولهم وقلوبهم، ليلقوا فيها ما يريدونهم عليه، من قيم وآراء ومعتقدات «١» .
والقصة في عصرنا الحاضر من «أقوى أجهزة التأثير في قيادة الجماعات البشرية، فلا عجب أن تكون القصة في القرآن ركيزة قوية من ركائز الدعوة الإسلامية، القائمة على الاقتناع العقلي، والاطمئنان

القلبي، لما تدعو إليه، من الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر «٢» . وبهذا تكون القصة القرآنية لها دور فعال في غرس القيم المرغوب فيها في نفوس النشء.
والقصة القرآنية يمكن أن تكون عملا تربويّا هامّا في نشر الاتجاهات والقيم المرغوب فيها، والدعوة إلى الإصلاح، والتحلي بكريم الأخلاق، بما لها من أثر عميق وعظيم في نفوس المتعلمين، ولما لها من قدرة على التأثير والتغيير والتوجيه، وفي هذا الشأن يقول رب العزة في قصة يونس عليه السلام:
فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ «٣» . ومن هذه الآية الكريمة، يمكن غرس قيمة وجدانية أساسية، وهي قيمة الإيمان بالله، وتشير الآية أيضا إلى أن الإيمان يجعل المؤمن مستجاب الدعوة، حيث ينجي الدعاء صاحبه حتى في أحرج الظروف.
ويمكن الإشارة إلى أن بعض الآيات الكريمة، التي فيها دلالة صريحة على القيم الأخلاقية التي يعني بها القصص القرآني، ومن هذه الآيات يمكن الإشارة إلى أهم القيم الخلقية، التي تتشكّل في ضوئها أهداف التربية الخلقية للقصص القرآني منها على سبيل المثال لا الحصر:-
أ- الرحمة، حيث يقول الله تعالى، على لسان أيوب- عليه السلام-: وَأَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ «٤» .
ب- العدل، يقول- جلّ شأنه- على لسان شعيب عليه السلام-: وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ «٥» .
ج- الصدق، يقول الله تعالى: ثُمَّ صَدَقْناهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْناهُمْ وَمَنْ نَشاءُ «٦» .

---

(١) سيد أحمد طهطاوي: القيم التربوية في القصص القرآني، رسالة ماجستير منشورة، دار الفكر العربي، ط ١، القاهرة، ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٦ م.
(٢) عبد الكريم الخطيب: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، القاهرة، ط ١، مكتبة السنة المحمدية، ١٩٦٤ م، ص ٦.
(٣) سورة الأنبياء: ٨٨.
(٤) سورة الأنبياء: ٨٣.
(٥) سورة الشعراء: ١٨٢.
(٦) سورة الأنبياء: ٩.

وجملة القول، أن القرآن الكريم يشتمل على كثير من القصص التربوية، التي تسهم إسهاما فعالا في تحقيق أهداف التربية الإسلامية، وذلك لأنها تضع المثل أمام المتعلمين، مما يساعد على غرس كثير من القيم التربوية السامية في نفوسهم، وتتميز القصة في القرآن بأنّها تمد القرّاء والجماعات بالقيم الإسلامية الصادقة النابعة منه.
القصة في الحديث الشريف:
لقد أدرك الرسول العربي صلّى الله عليه وسلّم الميل الفطري إلى القصة، وأدرك ما لها من تأثير ساحر على القلوب، فاستغلها لتكون وسيلة من وسائل التربية والتقويم. والقصة الهادفة المربية «سلاح نفسي في الدعوة المحمدية إلى عقيدة التوحيد، وفي إقناع المخالفين عن طريق الجدل والحوار بسمو بهذه العقيدة ونبل أهدافها «١» .
وفي الحديث الشريف، قصة موسى- عليه السلام- والخضر، التي وردت في القرآن الكريم، جاء بها الحديث مبينا دقائقها كما حدّث به الرسول صلّى الله عليه وسلّم، مستخدما هذه القصة- التي وقعت فعلا- في التربية العقلية للإنسان المسلم، ففي هذه القصة «جواز التمادي في العلم إذا كان كل واحد يطلب الحق ولم يكن تعنتا- الرجوع إلى قول أهل العلم عند التنازع، كما يجب على العالم الرغبة في التزود من العلم والحرص عليه، وألا يقنع بما عنده، كما لم يكتف موسى عليه الصلاة والسلام بعلمه. ويجب التواضع، لأن الله تعالى عاتب موسى- عليه السلام- حين لم يرد العلم إليه وأراه من هو أعلم منه، والرحلة في طلب العلم» «٢» . وفي الحديث: «حدثنا أبي بن كعب عن النبي صلّى الله عليه

وسلّم، أن موسى قام خطيبا في بني إسرائيل، فسئل أي الناس أعلم: فقال: أنا، فعتب الله عليه، إذ لم يرد إليه العلم ... » «٣» .
وقد تستخدم القصة في الحديث الشريف كوسيلة من وسائل تنمية الأخلاق الإسلامية، وعلى سبيل المثال هناك قصة أوردها الحديث الشريف عن «ثلاثة الأخوة الذين أووا للمبيت إلى الغار فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار» «٤» . في هذه القصة تربية خلقية وآداب اجتماعية، ففيها احترام الأبوين والعفة والطهارة، وأداء الحق إلى أصحابه ومخافة الله ومهابته، إيمانا حقيقيّا خالصا به.
وهناك أمثلة أخرى متعددة لا مجال هنا للحديث عنها «٥» .
وهكذا استخدم الرسول صلّى الله عليه وسلّم القصة، وترسم خطى القرآن في توظيف القصة من أجل نشر الوعي

---

(١) التهامي نفرة: سيكلوجية القصة في القرآن، رسالة دكتوراة، (الحلقة الثالثة) ، ص ٢٣٧.
(٢) العيني: عمدة القارىء، شرح صحيح البخاري، المجلد الأول (أجزاء ١ - ٢) ، كتاب العلم، ص ٦٤، ٦٥.
(٣) انظر الحديث الشريف: صحيح البخاري: كتاب بدء الخلق، الجزء الرابع، ص ١٨٣.
(٤) انظر الحديث الشريف: صحيح البخاري، كتاب الإجارة، الجزء الثالث، ص ١١٩، ١٢٤.
(٥) يمكن الرجوع إلى: سيد أحمد طهطاوي: القيم التربوية في القصص القرآني، مرجع سابق.
جـ ١(ص: ١٥٧)

الإسلامي وتعميق مبادىء الإسلام وقيمه في نفوس المسلمين، واستخدم هذه الوسيلة أيضا صحابة رسول الله- رضوان الله عليهم- وجاء استخدام القصة لأغراض شتى ومتنوعة وبأشكال شتى أيضا، كلها تؤدى إلى تعميق القيم أو تأسيسها، وتتمثل تلك الأغراض فيما يلي:
١- غرس القيم الخلقية:
تعرضت القصة القرآنية والنبوية لقضايا ومعايير تنمية القيم الخلقية، كالثبات على العقيدة، والتمسك بها، وعدم التنازل عن مبادئها، وبطريقة التكرار لتؤكد على «تعميق هذه المواقف وترسيخها في نفوس المسلمين، لتستقر في وجداناتهم ومشاعرهم ولتكون معلما يضيء لهم الطريق وهم يواجهون ما يواجهون من ألوان الاضطهاد والتنكيل بسبب ما يعتقدونه من دين وما يؤمنون به من عقيدة» «١» . كما تتعرض القصة للصلاة وفضلها، والصدقة وفضلها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتوبة، والأمانة والصدق، وغير ذلك من قيم إسلامية صحيحة أكدتها القصة ودعت إلى التزامها، سواء فيما يتصل بالسلوك الفردي أو السلوك مع الجماعة وما يصون عليها وحدتها وأفعالها من قيم «٢» .
إن القصة في المصادر الأصيلة تهدف إلى إيجاد عواطف متجاوبة مع تعاليم الإسلام وقيمه وأخلاقه، وذلك مما يدعو إلى الالتزام بهذه القيم، والأمثلة كثيرة ومتنوعة، فالقصص القرآني والنبوي زاخر وغني بالقيم الإسلامية، ونجد فيها توظيفا لإمكانيات القصة في سبيل تحقيق هذا الغرض وهو تنمية القيم الإسلامية، إلى جانب الأغراض الأخرى، فقد كانت «تسعى إلى هدفها بسلوك طرق مختلفة، لها أثرها الحيوي في تربية الإنسان وتوجيهه والأخذ بيده نحو الأفضل، وهو أثر نابع من الاستجابة الطبيعية التي يحس بها الإنسان، وهو يتعامل مع تلك الوسائل، لأنها وسائل تتجاوب مع إمكاناته النفسية، وما جبل عليه من طبائع واستعدادات وقوى، وتوقع على أوتارها ما تنشده من غايات تربوية» «٣» .
٢- تأكيد العقيدة وتعميقها في وجدان الناس:
باعتبارها القيمة الأساسية التي تقوم عليها وتحيا في ظلها جميع فروع الدين وجزئياته ونظمه، وذلك كتأكيد قضية وحدانية الله وإفراده بالألوهية والعبادة.

ولأهمية البناء العقيدي للمسلم فردا وجماعة، ولأهمية مبدأ التوحيد المحرر للإنسان وللجماعة تهتم القصة بعرض جزئيات قيم العقيدة، كصفات الله تعالى، والتأكيد على أنه هو المهيمن المتصرف في هذا الوجود، وأنه تعالى

(١) محمد بن حسن الزير، مرجع سابق، ص ٣٩٠.
(٢) المرجع السابق، ص ٣٩٧- ٤٠٢.
(٣) المرجع السابق، ص ٤٤٤.

صاحب الشأن في هذا الكون الفعال لما يريد، كما تؤكد أهمية الثقة في الله والكفاية به، والاعتماد الدائم عليه والاعتصام به، والإيمان بالملائكة، والرسل والكتب واليوم الآخر، وبالقضاء والقدر، خيره وشره، وحلوه ومره، وأن الإنسان لم يسلب إرادته وحريته بهذا الإيمان، بل أعطى حريته وإرادته المختارة، وأعطى عقلا يميز به، وهو أساس التكليف والمسئولية، إلى غير ذلك من جزئيات القيم العقيدية التي تعتبر الأساس لكل القيم، وعرضته القصة عرضا جيدا «١» .
٣- عرض حياة الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وما تضمنته من قيم خلقية:
حيث إنه الرائد الذي لا يكذب أهله، وهو الهادي إلى الحياة الصحيحة، من تبعه فيما دعا إليه فاز ونجا، ومن كذبه خسر وبار، وأنه خاتم الرسل ولا نبي بعده، وتعرض دلائل النبوة وبراهين الرسالة، كما تعرض لصفات النبي صلّى الله عليه وسلّم.
وتعرض القصة حياة الرسل- صلوات الله وسلامه عليهم- ودعوتهم إلى أقوامهم، ومواقف الأمم من الدعوة وانتصار الحق وغير ذلك من ملامح تاريخ الرسل، ومحاولتهم تخليص العقيدة من الأمراض التي تفتك بها، وإرساء القيم الصحيحة للاقتداء بهم، والتأسي بهم فيما كانوا عليه من الهدى.
وجملة الأمر أن القصة كوسيلة من وسائل تنمية القيم الخلقية تتسع إمكاناتها، إذ إنها تستخدم كافة الإمكانات التى تفيد في هذا المجال، استخدام عناصر التشويق، والتقرير والحوار والسؤال وغير ذلك من إمكانات «٢» . كالنموذج والقدوة للاحتذاء بها، والتوجيه التقريري على لسان أحد شخصياتها، والمادة التاريخية الواردة بها، والوسائل التعليمية والتربوية، ومعنى هذا أن إمكانياتها واسعة جدا، يمكن الاستفادة منها في مجال تنمية القيم الخلقية الإسلامية.
وقد أحس المسلمون قيمة القصة في تنمية القيم الخلقية، فبعد وفاة الرسول صلّى الله عليه وسلّم، كان الآباء والأمهات من الصحابة والصحابيات يستخدمون القصة من أجل تحقيق هذا الهدف، وبدأ القصّاص يجلسون في المساجد يقصون أخبار الرسول صلّى الله عليه وسلّم وسيرته، وأخبار الأمم السابقة، والقارىء للفكر الإسلامي وفنونه يستدل على الكثير من الشواهد الدالة على شيوع استخدام القصص عند المسلمين.
وإذا كانت القصة تحتل تلك الأهمية في تاريخ التربية الإسلامية، فإن أهميتها لا تزال مستمرة وتحقق أهدافا تربوية جيدة للأطفال والشباب والشيوخ، فلكلّ قصصه الذي يناسبه، ويمكن استخدامها بطريقة فعالة لغرض القيم الخلقية الإسلامية، ولذلك شروطه كما يلي:
- أن تكون القصة منسجمة مع أهداف الإسلام ومبادئه وقيمه بحيث تقدم هذه القيم في إطار أهداف

(١) راجع: المرجع السابق، ص ٣٧٩- ٣٨٥، وعبد الوهاب لطف الديلمي، معالم الدعوة في قصص القرآن الكريم، الطبعة الأولى، ج ١، جدة، دار المجتمع للنشر والتوزيع، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م، ص ٦١- ١٢٠.
(٢) راجع: المرجع السابق، ص ٩٤- ١٢٣، وعبد الوهاب بن لطف الديلمي، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٠٨٤.

الإسلام بعيدة عن التهويل والمبالغات، فضلا عن الأساطير والأكاذيب والبدع.
- أن تكون القصة مناسبة للسن الذي تكتب له، فجمهور القصة ليس واحدا متجانسا في صفاته، وخصائصه ورغباته وقدراته، ومعنى هذا مراعاة خصائص النمو بكافة جوانبها النفسية واللغوية والحضارية والعلمية.
- أن تختار الموضوعات المناسبة، بحيث يحوي جوهر الموضوع الاتجاهات والقيم والمعلومات المناسبة لما تعرضه.
- أن تراعي العناصر الأساسية للقصة، من حيث البنية العامة، والنسيج القصصي، والأسلوب المناسب، والتشويق، ومراعاة الإطارين الزمني والمكاني، وطريقة العرض والشخصية الأساسية والشخصيات الثانوية، ثم نوع القيم ومصادرها، وطريقة عرضها، وغير ذلك من شروط تتصل بهذا الموضوع «١»
.
إن القصة تلعب دورا بالغ الأهمية في تنمية القيم الخلقية والاتجاهات الإسلامية، لو وجهت التوجيه الإسلامي في الهدف والنزعة والأسلوب، وقد تكون فائدة القصة أكثر في مرحلة الطفولة مما يستدعي اهتماما جيدا بهذا اللون من القصص وتضمينه القيم الإسلامية الصحيحة.

ح- السؤال والحوار والمناقشة:

قد تكون هذه الوسيلة من أساليب التدريس العامة، إلا أن استخدامها في مجال تنمية القيم الخلقية يعتبر فعالا، وهذا ما تدل عليه النصوص القرآنية والنبوية، فقد كان المسلمون يسألون الرسول صلّى الله عليه وسلّم ويستفتونه فيما يواجههم من شئون الدين والدنيا، وكان القرآن يجيب على تلك الأسئلة، وكثيرة تلك الموضوعات التي أجاب القرآن فيها على أسئلة المسلمين «٢» .
واستخدم الرسول صلّى الله عليه وسلّم الطريقة نفسها، فكان يجيب المسلمين على ما يعن لهم من أسئلة تواجههم معطيا كل سؤال حقه من الإجابة، إيجازا وتفصيلا تبعا لمقتضيات الحال، «والإجابة دائما شافية، بحيث لا يترك النبي صلّى الله عليه وسلّم السائل وفي نفسه أثارة من حرج أو أثارة من جهل، بأي جانب من جوانب الموضوع الذي يسأل عنه» «٣» .
والأمثلة من السنة كثيرة وافرة، ونلاحظ أن السؤال تارة يأتي من المسلمين للنبي صلّى الله عليه وسلّم، وتارة يسأل الرسول

---

(١) انظر حسن إبراهيم عبد العال، مرجع سابق، ص ٣٠٣- ٣٠٥، ورشدي طعيمة: تحليل المحتوى في العلوم الإنسانية، مفهومه، أسسه، استخداماته، القاهرة، دار الفكر العربي، بدون تاريخ، ص ٣٢٢- ٣٤٠.
(٢) اقرأ: المائدة: ٤، البقرة: ١٨٩، ٢١٥، ٢١٧، ٢١٩، ٢٢١، ٢٢٢.
(٣) جابر قميحة، مرجع سابق، ص ١٢٣.

صلّى الله عليه وسلّم مستثيرا الرغبة في المعرفة لدى المستمعين. ونذكر هنا أمثلة حسب مقتضى الحال.
يروى «أن سعد بن عبادة- رضي الله عنه- استفتى النبي صلّى الله عليه وسلّم نذرا كان على أمه، فتوفيت قبل أن تقضيه، فأفتاه بأن يقضيه عنها» «١» .
ويروى عن عقبة بن عامر- رضي الله عنه- أنه سأل النبي صلّى الله عليه وسلّم عن أخت له نذرت أن تحج حافية غير مختمرة؟ فقال: «مرها فلتختمر ولتركب، ولتصم ثلاثة أيام» «٢» .
ويروى عن أبي موسى- رضي الله عنه- قال: جاء رجل إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم فقال: يا رسول الله، ما القتال في سبيل الله؟ فإن أحدنا يقاتل غضبا، ويقاتل حمية، فرفع إليه رأسه، قال: وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائما، فقال:

«من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله حتى يرجع» «٣» .
والأمثلة على أسئلة المسلمين للنبي صلّى الله عليه وسلّم كثيرة، متنوعة، تتعلق بمسائل كثيرة ومواقف عديدة من مواقف الحياة التي كان يعيشها الناس.
أما سؤال النبي صلّى الله عليه وسلّم للمسلمين فأمثلته كثيرة، تدل على حرص النبي صلّى الله عليه وسلّم على تعليم المسلمين أمر دينهم وغرس القيم لديهم، من ذلك ما يروى عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وهي مثل المسلم، حدثوني ما هي؟» فوقع الناس في شجر البادية، ووقع في نفسي أنها النخلة، قال عبد الله: فاستحييت، فقالوا: يا رسول الله، أخبرنا بها، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «هي النخلة» . قال عبد الله: فحدثت أبي بما وقع في نفسي، فقال: لأن تكون قلتها أحب إليّ من أن يكون لي كذا وكذا» «٤» .
وسواء كان السؤال للاستفهام أو للاستفسار أو للتقرير أو للإنكار أو للتوبيخ، أو للتهكم، أو للأمر أو للتنبيه أو للتحقيق، وغير ذلك من أغراض السؤال، فإنه يعد وسيلة من أهم وسائل تقرير القيمة الخلقية وتنميتها، فضلا عن أنه أسلوب من أساليب التعليم والتعلم، بل إن صياغته تعتبر فنا له شروطه وطريقته يستخدمه المربون استخداما له أهدافه في مجالهم، وما تزال له فعالية وله شيوعه في أساليب التعليم منذ القدم وحتى اليوم «٥» .

---

(١) حديث صحيح: متفق عليه، انظر البغوي، مرجع سابق، ج ٢، ص ٥٩٧، حديث رقم ٢٥٧٣.
(٢) حديث حسن، انظر: المرجع السابق، ص ٥٠٠، حديث رقم ٢٥٨٢.
(٣) الإمام البخاري، مصدر سابق، ج ١، كتاب العلم، ص ٥٨، حديث رقم ١٢٣.
(٤) الإمام البخاري، مصدر سابق، ج ١، كتاب العلم، ص ١، حديث رقم ١٣١.
(٥) انظر: محمد عبد العليم مرسي، المعلم والمناهج، الطبعة الأولى، الرياض، دار عالم الكتب، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م، ص ١٩١، ١٩٢.

ج ١(ص: ١٦١)

هذه بعض وسائل تنمية القيم الخلقية الإسلامية، ولكنها ليست كل ما كان يستخدمه صلّى الله عليه وسلّم أو استخدمه القرآن الكريم، فهناك طرق ووسائل أخرى كثيرة كاستخدام العقل «١» ، والترغيب والترهيب، وغير ذلك «٢» . وقد حققت نتائج تربوية بالغة الأهمية في غرس القيم الإسلامية، والتي بدت آثارها في تقدم وتفوق المجتمع الإسلامي، وهذه استخدمت بفعالية كطريقة في حد ذاتها، وكوسيلة تتخلل الوسائل السابقة الذكر وتتكامل معها، فكل هذه الوسائل مترابطة، لها أثرها في تنمية جانب أو أكثر من القيم الإسلامية.
وهذه هي أهم وسائل تنمية القيم الخلقية الإسلامية في الشخصية المسلمة، فإن محاولتنا ربطها أو استنباطها من النصوص القرآنية الكريمة والسنة المطهرة الشريفة لا تعني أنها ثابتة غير مرنة، مغلقة جامدة غير متفتحة، أو عاجزة عن استيعاب الجديد من وسائل التعليم والتعلم، إذ هي من الأصول العامة التي يمكنها أن تستوعب الجديد من الوسائل، ما لم يتعارض مع نص صريح من النصوص الإسلامية، أو يعمل على الإخلال بأهداف ومبادىء الإسلام، وإلا فإن هذه الوسائل في حد ذاتها أكبر داعية للأخذ بأي وسيلة مستحدثة، ما دامت تفيد في تحقيق أهداف رسالة الإسلام.
ولكن العبرة في كل هذا بالاستخدام لا باستهلاك الكلام، ومن ثم فإن فعالية الاستخدام تعود إلى المربي والمعلم الكفء الناجح والذي يستطيع بتمكنه العلمي والمهني أن يستخدم هذه الوسائل بفعالية مستفيدا من كل جديد في المجال، مستغلا كافة الطاقات والإمكانيات المتاحة في سبيل تنمية القيم الخلقية بطريقة صحيحة وجيدة.
هذا فيما يتعلق بالوسائل التربوية بوجه عام، أما إذا تعلق بتربية التلاميذ فإنه يمكن أن يضاف إلى الوسائل السابقة مجموعة أخرى من الوسائل أهمها:
١- أسلوب الأحداث الجارية:

إن استخدام الأحداث الجارية والمناسبات الدينية كمدخل لترغيب التلاميذ وتشويقهم لدراسة موضوعات التربية الإسلامية، طريقة لها أثرها الفعال في العملية التعليمية، وذلك لكونها تربط ما يتعلمه التلاميذ من الكتاب المدرسي بواقع حياتهم وخبراتهم ومشاهداتهم، الأمر الذي يزيد من فعالياتهم ونشاطهم ومشاركتهم الايجابية في دراسة موضوعات التربية الإسلامية.
ليس ثمة من شك في أن كشف أسباب النزول تؤدي في هذا الصدد خدمة كبيرة في تربية النشء، ولكن لن

(١) يراد باستخدام العقل وسيلة للتنمية الخلقية: النظر بواسطة الحجة والتعليل والقياس، مما يؤدي إلى الاقتناع بسواء بما يتلقاه الإنسان من معلومات أو يتخذه من سلوك.
(٢) راجع: على خليل أبو العينين، فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم، الطبعة الأولى، القاهرة، دار الفكر العربي ١٩٨٠ م، ص ٢١٩- ٢٥٢، وعبد الجواد سيد بكر، فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، ١٩٧٣، ص ٣٠١- ٣٥٥.
جـ ١(ص: ١٦٢)

تتحقق هذه الخدمة إلا إذا عرف المعلم بصورة محددة ما يجب أن نستكشفه في ضوء هذه الأسباب، فليس في مقدور هذه الحوادث المروية وحدها أن تقود التلاميذ قيادة مثمرة للفهم، إلا إذا أحسن المعلم تدبرها واستطاع أن يساعد التلاميذ ليروا من ثناياها الأوضاع العامة التي أدت إلى نزول القرآن من لدن رب العالمين ليحق الحق ويبطل الباطل، وليمحوا العقائد الضالة والأوضاع الاجتماعية الفاسدة.
٢- أسلوب تفريغ الطاقة:
تحرص التربية الإسلامية على النظر إلى الإنسان باعتباره جهازا معقدا من الطاقات، ومن ثم يجب توجيه هذه الطاقات وجهتها الصحيحة لكل ما يجلب المنفعة للفرد، ويحميه من الدوافع والميول التي قد تعرضه للانحراف أو السلوك غير السوي، ويتجلى هذا الأسلوب فيما يلي:
أ- الاهتمام بحاجات وميول ورغبات التلاميذ وجعلها أساسا محددا في موضوعات التربية الإسلامية.
ب- الاهتمام بأوجه النشاط المختلفة وحفز التلاميذ على الاشتراك فيها مما يؤدي إلى تفريغ الشحنات المتجمعة في داخلهم بصورة تهدف إلى تحقيق أغراض التربية «١» .
ج- مساعدة التلاميذ على الاطلاع الخارجي، والقيام بالرحلات التي تؤدي إلى اكتساب المهارات المستخدمة في إفراغ طاقتهم بصورة سليمة.
٣- أسلوب العادة:
يشغل أسلوب العادة مركزا مهما في ميدان التربية والتعليم لما له من قدرة في تربية النشء وتوجيهه التوجيه الأمثل المحقق لأهداف التربية الإسلامية. والعادة هي (كل سلوك متكرر يكتسب اجتماعيا ويتعلم اجتماعيا، ويمارس اجتماعيا، ويتوارث اجتماعيا «٢» .
٤- أسلوب الممارسة والعمل:
إن تكوين أخلاق الإنسان وبناء علاقاته الاجتماعية لا تقوم بالوعظ وحده ولا بالحفظ وحده، بل تحتاج إلى أفعال يمارسها الإنسان لتتكون أخلاقه عمليّا ليبني علاقات مع بني الإنسان بالواقع «٣» . إذ مما تجدر الإشارة إليه أن «تعود المرء على النظام في الحياة، وعلى ضبط النفس وعلى الحياة الاجتماعية التعاونية، كلها تتطلب مرانا وممارسة يومية تلازم حياة الإنسان ليل نهار» «٤» .

(١) بإيجاز وتصرف عن التربية الإسلامية، كيف نرغبها لأبنائنا ص ٥٢- ٥٣.
(٢) انظر في ذلك، وفي الموجهات التي يجب الالتزام بها، المرجع السابق، ص ٦٤.
(٣) محمد فاضل الجمالي، نحو توحيد الفكر التربوي، ص ١٠٤.
(٤) محمد فاضل الجمالي، المرجع السابق، ص ١٠٥، وقارن ب: التربية الإسلامية، كيف نرغبها لأبنائنا، ص ٩٩.

جـ ١(ص: ١٦٣)

الفصل الخامس وسائط تنمية الأخلاق

إن وسائط تنمية القيم الخلقية كثيرة ومتعددة، ويتم عن طريقها تنشئة الأفراد المسلمين على القيم الإسلامية الصحيحة، وهذه الوسائط هي نفسها وسائط أو وكالات الثقافة المنوط بها تنشئة الأفراد على ثقافة المجتمع، ذلك أن الثقافة هي «الإطار الأساسي والوسط الذي تنمو فيه الشخصية وتترعرع، فهي التي تؤثر في أفكاره ومعتقداته ومعلوماته ومهاراته، وخبراته ودوافعه، وطرق تعبيره عن انفعالاته ورغباته، كما تحدد له القيم والمعايير التي يسترشد بها وتفرض عليه التقاليد التي يتمسك بها» «١» ، إلا أن الثقافة لا يمكنها أن تشكل الشخصية بهذا الشكل، وتقدم لها القيم اللازمة لاستمرار حياتها إلا عن طريق التربية والتعليم أو ما يسمى بالتنشئة الاجتماعية، والتي ينظمها المجتمع تنظيما دقيقا بها وكالاته أو مؤسساته أو وسائطه «٢» .

فالثقافة- إذن- «بكل وسائطها، تعتبر الوعاء التربوي العام حيث تحدث عملية التنشئة الاجتماعية للأفراد بما تؤدي إليه من اكتسابهم أنماطا سلوكية تحدد علاقاتهم وتعبر عن نفسها فيما يقومون به من أدوار اجتماعية «٣» .

ولذا يأتي البحث هنا عامّا بمعني أنه لن يقتصر على المدرسة وحدها كمؤسسة تعليمية وتربوية مقصودة، بل سنبحث عن الوسائط الثقافية كلها، لما لها من دور بالغ الأهمية في عملية تنمية القيم، ولأن حديثنا عن القيم الإسلامية موصول، فإن تناولنا لهذه الوسائط يأتي في هذا الإطار الإسلامي غير مغفلين أثر التطورات والتغيرات التي لحقت بالحياة المعاصرة وما صاحبها من تخصص وتداخل وتكامل أو حتى ضياع مراكز كانت تحتل الصدارة فأصبحت في المؤخرة، وتقدم أخرى حتى أصبحت في المقدمة.

ويأتي الحديث عن هذه الوسائط في محاولة لتحديد دور كل واحد من هذه الوسائط وما يجب أن يقوم بأدائه من أدوار في إطار تنمية القيم الإسلامية في المجتمع الإسلامي المعاصر.

أ- الأسرة:

وهي الوعاء الاجتماعي الذي يتلقي الطفل معلوماته، ويتفاعل مع أفرادها، ويشعر بالانتماء إليه، وبذلك يكسب الطفل أول عضوية له في جماعة، ويتعلم منها كيف يتعامل مع الآخرين في سعيه لإشباع حاجاته وتحقيق مصالحه من خلال تفاعله مع أعضائها.

---

(١) سامية الساعاتي، الثقافة والشخصية، بحث في علم الاجتماع الثقافي، الطبعة الثانية، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٣ م ص ٢٢٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٢٤- ٢٢٦.

(٣) محمد الهادي عفيفي، في أصول التربية، الأصول الثقافية للتربية، القاهرة، الأنجلو المصرية، (بدون تاريخ) ، ص ٢١٨.

جـ ١(ص: ١٦٤)

ويولد الطفل خلوا من أي شيء يحدد شكل تعامله مع المواقف والأشياء والأشخاص والأهداف التي تنتظم عليها حياته بعد ذلك، والأسرة هي التي تتولى رسم توجهاته في الحياة من خلال القيم التي تحتويها ثقافة المجتمع ويستجيب الطفل لها نظرا لما للأسرة من قدرة وإمكانات على إشباع حاجاته، ومعاونته على مواجهة المواقف التي تواجهه في حياته المبكرة «١» .

وأهم مشكلة تواجه الفرد في حياته، تلك التي تتمثل في الكيفية التي يتعامل بها مع محيطه، بعبارة أخرى:

كيف يتمكن من التعامل مع عالمه بطريقة منسقة؟ والجواب هنا يتمثل في الخبرات التي يستمدها الطفل من بيئته، وما تتضمنه من مسلمات تتعلق بدلالات الأشياء والأشخاص والأحداث، أي من خلال القيم التي يتشربها ويستدخلها في ذاته من خلال أسرته، وتظل معه طوال حياته في بنائه الشخصي والذات «٢» .

وهنا تبرز أهمية التنشئة الاجتماعية عن طريق الأسرة، التي يكتسب الطفل عن طريقها الحكم على الأشياء والمواقف والخبرات، وتتأثر تلك العملية بالجو الأسري وما يسوده من تعاون واستقرار، أو تشاحن واضطراب، وكلما كانت العلاقة القائمة بين الوالدين تستند إلى المحبة والتفاهم والتعاون، تأتي التنشئة الاجتماعية صحيحة وسليمة، فيتشرب الطفل القيم بطريقة صحيحة سليمة.

وكلما كانت الأسرة متمسكة بدينها، ومبادئه وقيمه، انعكس ذلك على تربية الأطفال، حيث تعمل على تنشئة أبنائها على القيم الصحيحة، فيحكمون الدين ومبادئه وأحكامه في كل تصرفات حياتهم، والعكس صحيح «٣» .

وقد أراد الله للأسرة أن تقوم على الأسس الصحيحة السليمة، فأرسى الدعائم السليمة الصحيحة، والأسس القويمة لتكوينها تكوينا سليما كحاضن جيد للطفل، بحيث ينشأ نشأة سوية، متمسكا بالقيم الإسلامية، ولهذا وردت النصوص الوافرة موجهة إليه، عاكسة روح الإسلام وأهدافه في بناء الأسرة «٤» .

إن الأسرة المسلمة تقوم على مبادىء معينة، هامة وجليلة الشأن من أجل توفير جو صحي سليم لتربية الأولاد تربية سليمة على القيم الإسلامية، فهي تقوم على المودة والرحمة: وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ «٥» .

---

(١) محيي الدين أحمد حسين (مرجع سابق) ، ص ٥٩.
(٢) المرجع السابق، ص ٥٩.
(٣) منير المرسي سرحان، في اجتماعيات التربية، الطبعة الثانية، بيروت، دار النهضة العربية ١٩٨١ م، ص ١٨٤، ١٨٣.
(٤) راجع في نظام الأسرة في الإسلام- مثلا-: أحمد محمد العسال، مرجع سابق، ص ١٧٩- ٢٠٠.
(٥) سورة الروم: ٢١.

كما تقوم على مبدأ العدل والمساواة: وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ «١» . على اعتبار أن لكل من الرجل والمرأة وظيفة في الأسرة، كما أن الأسرة تقوم على مبدأ المعاشرة بالمعروف:

وَعاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ «٢» .

وفي مثل هذا الجو الأليف الودود تقوم عملية التربية للأبناء وسط جو من ضمان حقوقهم، ووسط الشعور بالمسئولية التامة عن هذه التربية التي أكدها الشارع الحكيم، فالأسرة قائمة على قيم ومن أجل قيم، يقول الرسول صلّى الله عليه وسلّم: «ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده وهي مسئولة عنهم، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسئول عنه، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» «٣» .

ولا بد من التنويه بأمرين هامين في هذا المجال يؤثران تأثيرا واضحا في مسئولية الأسرة عن تنمية القيم الخلقية،

وهما:

الأمر الأول: إن مسئولية الأسرة متكاملة تجاه الأطفال وتربيتهم،

ذلك أن تنمية القيم لا يأتي وحده، بل في إطار إشباع الحاجات التي يحتاجها الطفل، جسمية وعقلية وخلقية وجمالية ونفسية وعقدية واجتماعية، ومعلوم أن القيم تتخلل كافة هذه الحاجات، ومعنى العناية بهذه الحاجات وإشباعها الاهتمام الشامل بتنمية هذه الجوانب على أساس قيمي.

وتشير السنة المطهرة إلى ذلك، فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها» «٤» .

فحاجات الطفل المتعددة وإشباعها هي الأساس في تنمية القيم لديه، فالحاجات الجسمية، توفرها الأسرة، من أكل وشرب وملبس ومسكن وعناية بالجوانب الصحية وغير ذلك، وعن طريقها يتعلم الطفل الضبط وغير ذلك، فهي المدخل الأساسي لتكوين نواة الالتزام، وكذا الحاجات العقلية والخلقية، ويحتاج الطفل إلى

---

(١) سورة البقرة: ٢٢٨.

(٢) سورة النساء: ١٩.

(٣) صحيح متفق عليه، راجع: البغوي، مصابيح السنة، مرجع سابق، ج ٣، ص ١٢، حديث رقم ٢٧٧٦. وراجع صفة المسئولية من صفات الموسوعة.

(٤) صحيح متفق عليه، راجع: المرجع السابق، ج ١، ص ١٣٦، حديث رقم ٦٩. والجمعاء: السليمة من العيوب فمجتمعة الأعضاء كاملها لا جدع بها ولا كي (ابن الأثير في النهاية: ١/ ٢٩٦) .

جـ ١(ص: ١٦٦)

مجموعة حاجات أخرى تؤهله لاكتساب القيم، كالحاجة إلى الأمن، والتقبل، والتقدير الاجتماعي، والحب، كما أنه يحتاج إلى إشباع حاجته إلى التحصيل والنجاح، وإلى تعلم المعايير السلوكية، وإلى السلطة الضابطة المرشدة، وغير ذلك من حاجات «١» .

إن الإشباع وطريقته يعتبر الأساس في تنمية القيم الإسلامية، فالطفل يولد وهو مزود ببعض القابليات، إلا أنه يعيش في بيئة معينة يتفاعل معها وتتفاعل معه، والبيئة السلوكية التي يعيش فيها تضطره إلى تعديل إشباع بعض دوافعه الأولية، وتكوين بعض العادات الانفعالية. أي أن البيئة السلوكية لا تدعه يعبر عن دوافعه تعبيرا حيوانيا، ذلك لأن القيود الاجتماعية التي يمليها النظام الحضاري تملي عليه نوعا من تعديل هذه الميول الفطرية «٢» .

إن أهمية الأسرة المسلمة في تنشئة الطفل المسلم على المعايير والقيم الإسلامية غاية في الأهمية، ومسئوليتها متكاملة تجاه تلك التنشئة بحيث يكتسب الطفل المسلم الشخصية الإسلامية الصحيحة، والمتكاملة المتوازنة.

الأمر الثاني: أن الأسرة المسلمة أصابها من التغيير ما أصابها، وتواجه مشكلات جمة، بل يمكن القول بأنها تعيش صراعا قيميا ليس هذا مجال تحليله وبيان أسبابه، فقد انسحب عليها ما انسحب على المجتمع الإسلامي، والمجتمع العالمي معا، وكان لهذا تأثيراته الواضحة عليها.

ومع التغير الاجتماعي تغيرت أشياء في الأسرة منها الإيجابي، ومنها السلبي، وكان للتغيير الذي صاحب التصنيع والتقنية أثره الفعال على الأسرة في نواح متعددة «٣» . وهذا التغيير يجعل وظيفة الأسرة المسلمة أكثر أهمية وصعوبة، خاصة في مجال تنمية القيم الإسلامية، وفي إطار أهداف الرسالة الإسلامية الخالدة المتجددة، وفي إطار تلك المتغيرات التي أصابت الأسرة، فإن دورها في تنمية القيم الخلقية في إطار رعايتها للنمو المتكامل لشخصية الطفل يتحدد كما يلي:

١- مساعدة الطفل على تأكيد الإيمان بالله- عز وجل-، بكافة الطرق المناسبة، بالكلمة الحانية، والسلوك القويم، بالقصة الهادفة الملتزمة، بالترغيب في العبادات وقراءة القرآن، وغير ذلك من أسباب ووسائل تحقق الأهداف الإسلامية وتغرس عقيدة التوحيد في نفس الناشىء.

٢- مساعدة الطفل على تمثل القيم والحقائق والمبادىء الإسلامية، وإمداده بالخبرات الاجتماعية المثيرة له

---

(١) انظر: حسن إبراهيم عبد العال، مرجع سابق، ص ١١٩- ١٢٤، ص ٢٠١- ٢٢٠.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٢٣.
(٣) انظر: سناء الخولي، الزواج والعلاقات الأسرية، بيروت، دار النهضة العربية، (بدون تاريخ)، ص ٢٩٩- ٣١٠.

والتي تضيف إلى خبرته قيما وحقائق جديدة في إطار إسلامي، مع التبسيط المناسب المعبر عن حاجات الطفل ومشكلاته.
٣- مساعدة الطفل على توضيح وترجمة قيمه واتجاهاته ومشاعره وآرائه التي تمثلها، وكذا مشكلاته الخاصة، وتوجيهه لحلها في اطار إسلامي صحيح.
٤- تهيئة المناخ المناسب المساعد على اكتساب القيم، عن طريق صلاح الأسرة وصلاح الأبناء وتهيئة المجال للطفل للاقتراح والتخطيط المناسب، ومزاولة الأنشطة التي تبدو هامة بالنسبة له.
٥- توجيه الطفل إلى ما يجب أن يفعله في المواقف المختلفة، وبيان أنه يتعين عليه أن يفعله دون ضغط أو إكراه من أحد.
٦- وانطلاقا من احترام الإسلام لذاتية الطفل، فعلى الأسرة أن تحترم ذاتيته، وتقدر ما ينوي فعله، وقدرته على الأداء، واحترام أسئلته عن عالمه، والإجابة عنها بأسلوب مناسب، حتى يتمكن من فهم عالمه واستقاء المعاني منه، وتكوين القيم الإيجابية تجاه هذا العالم.
٧- العدل بين الأطفال والمساواة بينهم، على النحو الذي أشار إليه الإسلام مما يحفظ على الطفل كرامته واعتزازه بنفسه، ويساعده على التمثل الفعال للقيم الإسلامية.
٨- تعويد الطفل على الآداب الاجتماعية الإسلامية، والأخلاق الإسلامية بالممارسة العملية وليس عن طريق الكلام النظري وإلقاء الأوامر ليقتنع بها اقتناعا كاملا.
٩- تعويد الطفل على السيطرة على بيئته، والتعامل معها تعاملا رفيقا، من خلال المحاولة والخطأ وتعليمه أن الواقع المحيط به يحتاج إلى التفاعل الجاد معه.
١٠- تقبل الأفكار الجديدة من الطفل، واحترام حبه للاستطلاع دون التقليل من شأنه أو قهره أو احتقاره، لأن هذا يقلل من شعور الطفل بذاتيته مما يعتبر معوقا في نمو القيم لديه «١».
وقد يكون هذا الكلام جميلا مثاليّا، وكثير غيره كذلك، ويأتي السؤال الطبيعي جدا والواقعي: ما الطريق إلى تحقيق هذا؟ نقول: إن تربية الأطفال بهذه الصورة تحتاج إلى جهد ومشقة، ولن يتم هذا إلا في ظل أبوة حانية، وأمومة رحيمة لديها الوعي الكامل بأهمية وخطورة ما يقومان به. لذا فإن تربية الآباء يجب أن تأتي قبل تربية

---

(١) يقصد بالذاتية: هوية الذات في إطارها الفردي والتي بها يتمايز الإنسان عن غيره من البشر، وهو أمر أكده الإسلام في القرآن والسنة وانظر: محمود فهمي قمير، ذاتية الطفل والنظرية التربوية في الإسلام، في: أحمد إبراهيم كاظم وآخرون، دراسات في التربية الإسلامية وأصولها النظرية والفلسفية- مركز البحوث التربوية- المجلد التاسع- جامعة قطر- ١٩٨٥ م، ص ٢٨٢.

الآبناء.
إن هذا يستدعي- أولا- أن يتمثل الآباء والأمهات القيم الإسلامية، ويستعينوا بالحكمة والأناة والصبر، فالتربية لا تأتي بين يوم وليلة، وإنما بمجاهدة الأيام والليالي، وليس لسياسة الزجر والعنف، لأنها تدفع

بالطفل إلى التطلع للممنوع، وإشباع حاجاته من هذا الممنوع، بالتمرد على توجيه الأبوين، أو بالظهور بمظهر الخضوع الكاذب ... وربما انتهى الأمر إلى ازدواج في شخصية الناشيء، مما يؤدي في النهاية إلى أن يصبح منافقا، وهو المرض الفردي الاجتماعي الذي نشكو منه مر الشكوى «١» .
ولعلنا نعود هنا إلى ما سبق أن ذكرناه عن القدوة وما تتطلبه من الشفقة والرحمة. وقد أدرك ابن خلدون- وغيره- خطورة هذا، فقال: «ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم، سطا به القهر وضيق على النفس في انبساطها، وذهب بنشاطها ودعاه إلى الكسل وحمل على الكذب والخبث، وهو التظاهر بغير ما في ضميره، خوفا من انبساط الأيدي بالقهر عليه، وعلمه المكر والخديعة لذلك، وصارت له هذه عادة وخلقا، وفسدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتمدن، وهي الحمية والمدافعة عن نفسه أو منزله، وصار عيالا على غيره في ذلك، بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل، فانقبضت عن غايتها ومدى إنسانيتها، فارتكس وعاد في أسفل السافلين» «٢» .
إن الأسرة المسلمة يجب عليها أن تتخلص من قيم الضعف وما يسودها من ضعف وقيم لا تنتمي لقيم الإسلام الصحيحة، وإذا كان لنا أن نبني مجتمعا مسلما على قيم الإسلام الصحيحة، فلا بد من تغيير قيم الأسرة وما يسودها من قيم ضعف وهوان تجاه القيم الإسلامية الصحيحة، في بنائها وفي تربية أبنائها، وهذا هو أساس التغيير الصحيح نحو القيم الإسلامية، إن عين الطفل وسمعه يجب ألا يقعا إلا على سلوك صحيح مترجم عن واقع صحيح وقيم سليمة، ولذا فإن المطلوب من الوالدين أن يكونا فعلا قدوة صالحة، ليتلقى الطفل منهما مباشرة وبدون مباشرة ما يؤكد ذاتيته واستقلاله في إطار التصور الإسلامي الصحيح.
وينبغي أن تكون سياسة الأسرة قائمة على التفتح واختيار الجيد، والبعد عن سياسة الانغلاق والحرمان وإيصاد الأبواب، والاعتماد على تكوين الحس الإسلامي في نفوس الأطفال، وبالتدرج وإنضاج القدرة على الاختيار الجيد، والبعد عن السفاسف والرذائل.

---

(١) أحمد محمد العسال، مرجع سابق، ص ٢٠٦، ٢٠٧.
(٢) ابن خلدون، المقدمة، الجزء الثاني، المدينة المنورة، مكتبة ودار المدينة المنورة للنشر والتوزيع، ١٩٨٤ م، ص ٧٠٤.

جـ ١(ص: ١٦٩)

ب- جماعة الأقران:
بمرور الأيام، وتقدم عمر الطفل تتحول ميوله من الأسرة إلى الالتحاق بجماعات الرفاق على أساس من تقارب السن، فجماعة الأقران أو الرفاق، تكوين طبيعي ينشأ من اختلاط الأطفال ببعضهم في إطار العائلات أو الحي أو الشارع الذي يسكنون فيه، والناشىء بنزعته الاستقلالية يندمج مع هذه الجماعة، ويؤدي به الأمر إلى مجاراة ما يسود بينهم من قيم ومعايير.
ويقضي النشء وقتا طويلا مع هذه الجماعة، خارج المدرسة وداخلها، الأمر «الذي يؤثر في سلوكهم واتجاهاتهم تأثيرا كبيرا، وكذلك في قدرتهم على التعلم» «١» .
وجماعة الأقران أو الرفاق أكثر «من مجرد جماعة من الأصدقاء يهتمون بأمورهم الخاصة وعلاقاتهم المتبادلة فحسب، بل تعتبر كذلك، بمعنى خاص معين، جماعة يتدخل فيها الكبار ويحددون مركز كل طفل والغرض من المحافظة على بقاء هذه المراكز» «٢» . وتلعب هذه الجماعة دورا بالغ الأهمية في إكساب الناشىء القيم، نظرا لأنها تضم جماعة متناسقة من حيث العمر، ومن ثم يتمكن الناشىء من اكتساب خبرات وقيم معينة لا يمكن اكتسابها داخل الأسرة، وتنجح جماعة الأقران في نقل قيم متميزة للأفراد، كما يمكنها أن ترسخ قيما سائدة في المجتمع «٣» .
وكذا يمكنها أن تحطم قيما سائدة في المجتمع أيضا «٤» .

فجماعة الأقران ناتج اجتماعي يتكون على أساس فئات السن، لإشباع حاجات محددة، ومعنى هذا أنها تقوم بوظيفة شرعية في نمو الطفل وإكسابه القيم السائدة في المجتمع. ومن أهم ما تقوم به هذه الجماعة في هذا المجال: الاعتراف بحقوق الآخرين، وهنا تنمو صيغة الواجب، ومعايير التصرف السليم بتلقائية كما أنها تقوم بدورها كأداة من أدوات الضبط، ذلك أن هذه الجماعة تتكون من أشخاص متكافئين، تقوم بينهم علاقات ودية وثيقة، ويسود بينهم التآلف، ويتوحد فيها الأعضاء بعضهم ببعض فتكون النتيجة أن يصبح الأعضاء شديدي الحساسية لموافقة الآخرين أو اعتراضهم، وهذا يعني شدة الضغوط التي تفرضها الجماعة على الفرد «٥» ، وهكذا تساعد جماعة الرفاق في ضبط الاتجاهات وتكوين القيم، وتصحيح السلوك المتطرف أو

---

(١) محمد مصطفى الشعبي: علم الاجتماع التربوي في اجتماعيات التربية، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٧٨ م ص ٧٦.
(٢) محمود حسن، الأسرة ومشكلاتها، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨١، ص ٤٣٠.
(٣) انظر: محيي الدين أحمد حسين، مرجع سابق، ص ٦٣، ٦٤.
(٤) انظر: محمود حسن، مرجع سابق، ص ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٥، ٤٣٦.
(٥) المرجع السابق، ص ٤٤٤، ٤٤٥.

المنحرف بين أعضائها.
كما أنها أداة من أدوات توفير الأمن والاطمئنان الجسمي والنفسي، كما أنها تكون وحدة ثقافية خاصة ومتميزة، أي يكون لكل جماعة مجال محدد للنشاط والميول، ومجموعة معينة من القيم والاختيارات والتفضيلات تتضافر فيما بينها ويتكون منها النمط الاجتماعي للجماعة «١» .
ومن المهم الإشارة إلى أن جماعة الرفاق تعتبر انعكاسا لثقافة المجتمع الذي يعيشون فيه، وتتبلور فيها قيم المجتمع التي يؤمن بها، فالناشىء ينقل إلى هذه الجماعة ثقافة أسرته وثقافة المجتمع الذي ينتمي إليه، وبالجملة فإن جماعة الرفاق من أهم الجماعات التربوية المؤثرة في نقل القيم وغيرها من المكونات الثقافية للمجتمع، ولذا تعتبر وسطا مهمّا جدّا في هذا المجال.
ولهذه الأهمية فقد حظيت باهتمام خاص من توجيهات الإسلام، ومفكريه ورجالات التربية الإسلامية، ففي صلاحها صلاح الفرد، وصلاح الفرد صلاح لها، ونجد توجيهات إسلامية واضحة تدعو الآباء والأمهات والمربين إلى العناية بتوجيه أبنائهم إلى اختيار رفقائهم من الأخيار الصالحين دينا وخلقا وسلوكا حتى يقتدوا بهم، ويكتسبوا منهم الصفات الحميدة والخلال الفاضلة، وأن يجنبوهم مخالطة الأشرار حتى لا يقلدوهم ويسلكوا طريقهم المعوج «٢» .
وبتوجيه عام نقرأ في القرآن آيات عن أهمية الصحبة والرفقة، تؤكد ما ذهبنا إليه، يقول الله تعالى: وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ يَقُولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا* يا وَيْلَتى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلًا «٣» . الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ «٤» . وَما أَضَلَّنا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ* فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ* وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ «٥» .
وعن أبي سعيد- رضي الله عنه- أنه سمع النبي صلّى الله عليه وسلّم يقول: «لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقي» «٦» . وعن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل» «٧» .
وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مثل الجليس الصالح والسوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك: إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير: إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحا

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٤٨، ٤٤٩.

(٢) عبد الحميد السيد الزنتاني، أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، ليبيا، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٤ م، ص ٧٧٦.
(٣) سورة الفرقان: ٢٧، ٢٨.
(٤) سورة الزخرف: ٦٧.
(٥) سورة الشعراء: ٩٩- ١٠١.
(٦) حديث حسن، انظر: البغوي، مصابيح السنة، مرجع سابق، ج ٣، ص ٣٨١، حديث رقم ٣٩٠٢.
(٧) حديث حسن غريب، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، المرجع السابق، ص ٣٨٢، حديق رقم ٣٩٠٣.

خبيثة» «١» .
وطبقا لهذه التوجيهات العامة، فإن اختيار الرفاق، وتوجيه الأبناء نحو اختيارهم صالحين، أمر واجب، والأساس في ذلك كله هو تنشئة الأطفال في أحضان الأسرة تنشئه صحيحة وسليمة وقويمة، وإذا ما عمت تلك التنشئة أسر المسلمين كانت جماعة الرفاق على نفس الدرجة من الصلاح، فلا يكتسب الناشيء إلا قيما صالحة، ويدعم هذا الوسط الاجتماعي العام والذي بقدر ما يكون صالحا يكون الأفراد كذلك، ومن ثم يعم الصلاح جماعة الرفاق وغيرها.
إن من الواجب مساعدة الناشيء على اختيار جماعته، لأنها تساعده على تحقيق استقلاليته على نحو تدريجي، كما تنمي لديه مفهومه عن ذاته، وتدعم القيم الصالحة «٢» . لأن ميل الأطفال إلى اختيار الأقران وتقبل قيم الآخرين واتجاهاتهم النفسية يعتبر متغيرا من متغيرات الشخصية كما دلت على ذلك دراسات علمية متنوعة «٣» .
وقد أدرك المربون المسلمون قيمة هذه الصحبة، ولهم في ذلك اجتهادات وأقوال قيمة، يقول الجاحظ: «الصبي عن الصبي أفهم وبه أشكل» «٤» .
إن حرص الإسلام والمفكرين المسلمين على سلامة البيئة الاجتماعية، وعلى إشباع حاجات الطفل إلى جماعة الرفاق والأتراب واضح، ومن خلال كل هذا نعود فنؤكد أهمية المحافظة على الوسط الاجتماعي حتى لا يتسرب الفساد أو الخلل للناشئة، لتنمو القيم الإسلامية نموا سليما وصحيحا وقويا.
ج- المسجد:
كان المسجد وما يزال شعار الحياة في المجتمع الإسلامي، ويدل على ذلك اهتمام الرسول صلّى الله عليه وسلّم ببناء المسجد أول قدومه إلى المدينة، مما يدل دلالة صادقة على أهميته وضرورته، ولم يكن المسجد بناية لأداء الصلاة فقط، بل كانت له وظائف أخرى كثيرة تتعلق بسياسة الدولة، وفي هذا إشارة إلى أن المسجد إنما أقيم كمؤسسة محققة لأهداف الإسلام ورعاية مصالح الدنيا والآخرة، فقد كان مقرا للتعليم لاستقبال الوفود وإقامة الاحتفالات

---

(١) متفق عليه. من رواية أبي موسى الأشعري، المرجع السابق، ص ٣٧٨، حديث رقم ٣٨٩٥.
(٢) كافية رمضان، فيولا البيلاوي، ثقافة الطفل، الكويت، كلية التربية، ١٩٨٣ م، ص ٢٢٨، ٢٢٩.
(٣) انظر: كونجر وآخرون، سيكولوجية الطفولة والشخصية، ترجمة أحمد عبد العزيز سلامة وجابر عبد الحميد، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٨٥ م، ص ٤٨٢.
(٤) أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، كتاب المعلمين، (على هامش الكامل في اللغة والأدب للمبرد) ، الطبعة الأولى، الجزء الأول، مصر، مطبعة التقدم، ١٣٢٣، ص ٢٦. وانظر: ابن سينا، السياسة (نشرة الأب لويس معلوف) مجلة المشرق البيروتية، السنة التاسعة، الأعداد، ٢١، ٢٣، ١٩٠٦، ص ١٠٧٤، ١٠٧٥.

وغير ذلك، مما يدل على أهميته في حياة المسلمين.
وتظهر أهمية المسجد في إطار تنمية القيم الخلقية الإسلامية في قيامه بالوظائف التالية:
١- نشر العلم وتعليم الأفراد والجماعة التعاليم الدينية وغيرها، مما ينمي لديهم معايير سلوكية إسلامية تحقق سعادة الفرد والمجتمع.
٢- إمداد الأفراد بالإطار السلوكي المعياري القائم على التعاليم الإسلامية، مما يمكن للعمل الصالح لديهم، حبا وسلوكا، ويكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، لأن صلاتهم فيه تنهاهم عن الفحشاء والمنكر، وتأمرهم بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، كما تأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر.
٣- تنمية الوازع الداخلي لدى الأفراد والجماعة، ومن ثم دعوتهم إلى ترجمة المبادىء والتعاليم الإسلامية إلى سلوك عملي واقعي.
٤- دعم روح الأخوة والتعارف بين المؤمنين مما يؤدي إلى دعم القيم الخلقية الإسلامية وتوحيد السلوك الاجتماعي، ونبذ كل ما يضعف الروح الإيمانية والاجتماعية من قيم سالبة، كالظلم والحسد، واحتقار الغير، والسخرية بالآخرين، والغيبة والنميمة، وغير ذلك من أمراض اجتماعية تضعف البناء الاجتماعي الإسلامي، وتفرق جهده.
٥- محاولة تذويب الصراع القيمي بين الأجيال الجديدة والأجيال القديمة، لأن الأفراد الجدد يقتدون بالأفراد القدامى، فالقدوة الصالحة والنماذج السلوكية تبرز جيدا من خلال المسجد، ومن ثم تضعف اتجاهات الصراع القيمي، في ظل القدوة ومبدأ الشورى، والمناقشات الموضوعية في شتى شئون الحياة بين الصغار والكبار.
٦- الإرشاد والتوجيه المستمرين تحت رعاية أئمة المساجد الواعين، خاصة للالتزام بالقيم الخلقية الإسلامية، واستشارتهم فيما يجد من شئون الحياة «١» .
٧- إن للمسجد دوره الهام والخطير في عملية تنمية القيم الخلقية الإسلامية لدى الأفراد والجماعات، خاصة إذا توافرت له الإمكانيات من قوى بشرية وإمكانيات مادية، وإذا كان دوره في حاضرنا المعاصر قد تراجع- إلى حد ما- لوجود المدارس، ووسائل الإعلام، فإن ذلك لا يعني اختفاء دوره، فدوره قائم، ولذا تجب العناية به، وتطويره بناية وأهدافا، مما يعيقه من القيام بوظيفته وأهدافه، بما يجعله قادرا على خدمة الحياة الإسلامية المعاصرة في إطار أهداف الإسلام.

(١) انظر: عبد الله بن أحمد قادري، دور المسجد في التربية، جدة، دار المجتمع، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧ م، ص ١٠٩- ١٣٢.
جـ ١(ص: ١٧٣)

إن المسجد مؤسسة اجتماعية مثلها مثل باقي المؤسسات بل هو تنظيم من تنظيمات المجتمع الإسلامي، التي استخدمها لتنشئة الأجيال، ولذا فهو يتكامل أو يجب أن يتكامل مع المؤسسات والتنظيمات الاجتماعية الأخرى، مع ضرورة التركيز على إعداد القائمين عليه إعدادا جيدا بما يهيؤهم للتعامل مع رواد المسجد صغارا وكبارا، وبالقدر نفسه من الأهمية، يجب العناية بالمؤسسات الأخرى في المجتمع، بحيث تتكامل مع وظيفة المسجد، فإذا كان المجتمع يغلب فيه انحراف ما فإن المسجد لن يستطيع أن يؤدي وظيفته كما ينبغي، لأن هذا الانحراف سيحول بين أفراد المجتمع والتأثر بالمسجد وما يقدمه.
ولقد اعتبر المسجد منذ أن وجد مؤسسة للصغار والكبار، للرجال والنساء، لكل طوائف المجتمع، وكان مؤسسة تربوية للصغار، وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لا يمنع الصغار عن المسجد، بل كانت له مواقف معينة تؤكد اهتمامه بهم، ومما يروى في هذا المجال:
عن أبي قتادة الأنصاري- رضي الله عنه- أنه قال: «رأيت النبي صلّى الله عليه وسلّم يؤم الناس وأمامه بنت أبي العاص على عاتقه، فإذا ركع وضعها، وإذا رفع من السجود أعادها (ويروى) رفعها» «١» .
وكان صلّى الله عليه وسلّم يراعي وجود الأطفال في المسجد، يقول: «إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد إطالتها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي مما أعلم من شدة وجد أمه من

بكائه» «٢» .
وعن أنس- رضي الله عنه- قال: «ما صليت وراء إمام قط أخف صلاة ولا أتم من النبي صلّى الله عليه وسلّم، وإن كان ليسمع بكاء الصبي فيخفف مخافة أن تفتن أمه من بكائه» «٣» .
وعن جابر بن سمرة- رضي الله عنه- قال: «صليت مع النبي صلّى الله عليه وسلّم صلاة الأولى، ثم خرج إلى أهله وخرجت معه فاستقبله ولدان، فجعل يمسح خدي أحدهم واحدا واحدا، وأما أنا فمسح خدي فوجدت ليده بردا أو ريحا كأنما أخرجها من جؤنة عطار» «٤» .
إن هذا كله يدل على حضور الصغار المسجد. وهناك أدلة غير هذه كثيرة نكتفي هنا بما ذكرناه، فصلة الناشىء بالمسجد في عهد الرسول صلّى الله عليه وسلّم كانت قوية ومقصودة، وإن تنشئته على ذلك تجعله يألفه ويرتبط به، ليكون من رواده فيه مصلحة عظيمة، ولذلك أثره في تنمية القيم الخلقية الإسلامية.

---

(١) متفق عليه، مصابيح السنة (مرجع سابق) ج ١، ص ٣٣٦، حديث رقم ٦٩٩.
(٢) متفق عليه، المرجع السابق، ص ٤٠٨، حديث رقم ٨٠٩.
(٣) متفق عليه، المرجع السابق، ص ٤٠٨، حديث رقم ٨٠٨.
(٤) أخرجه مسلم، المرجع السابق، ج ٤، ص ٤٩، حديث رقم ٤٥١٢.
جـ ١(ص: ١٧٤)

ولكي يؤدي المسجد وظيفته في تنشئة الأجيال المسلمة على القيم الإسلامية نقدم هنا بعض المقترحات، سواء فيما يتصل بالأهداف أو الوسائل، كما يلي:
فيما يتصل بالإشراف على المسجد والقائمين عليه:
١- أن يقدم للمسلم كيفية أداء العبادات بطريقة صحيحة.
٢- أن يعرّف المسلم بأركان الإسلام وأسسه وأحكامه.
٣- أن يعتني بتحفيظ القرآن الكريم وتفسيره.
٤- أن يعني بتعليم الأحاديث الشريفة، حفظا وتفسيرا، وكذا العناية بالسيرة النبوية.
٥- أن يعتني بتنمية الآداب والأخلاق الإسلامية.
٦- أن يعني الإمام بالإجابة على استفسارات رواد المسجد.
٧- أن يعني بتزويد المسلمين بآداب المسجد والصلاة واحترام المصلين.
٨- أن يعني بتمرين المسلم على ممارسة السلوك الاجتماعي الإسلامي.
٩- أن يعني بوسائل جذب الناشئة إلى زيارة المسجد المنتظمة وحضور الصلوات فيه.
١٠- أن يمرن الناشىء على خدمة المسجد ورواده، مما يساعد على غرس قيم العمل في نفسه.
وفي سبيل تحقيق هذه الأهداف، فإن هناك مواصفات معينة يجب أن تراعى، وهي:
١- أن يكون المسجد مركز نشاط اجتماعي وثقافي وعلمي، يضم مكتبة جيدة ومتنوعة.
٢- أن يقدم المسجد دروسا متنوعة حول ما يتعلق بأمور حياة الناس، ويقدم المعارف المتنوعة.
٣- أن يضم مركزا للمعلومات يرجع الناس إليه ليجدوا ما يجيب عن تساؤلاتهم.
٤- أن يكون مقرا لتوجيه الشباب لما يتطلبه تكوين الأسرة المسلمة الصالحة، بل يتعاون أهل كل مسجد على تزويج الشباب كل بقدر استطاعته.
٥- أن يكون المسجد مركزا إعلاميا يسهم في تقديم ما تتطلبه ظروف الحياة المعاصرة وما يجد في الساحة الإسلامية من أخبار، وتحليلها بعقلية واعية ومتفتحة لكي تواكب الحياة وما يدور فيها.
٦- أن يكون المجتمع هو الذي يضرب القدوة الصحيحة في إجابة نداء المؤذن بسرعة واستمرار بحيث يشاهد الناشئة هذا فيتمثلونه.
٧- أن يذكر على أسماع الصغير وخاصة من أمه فضائل المساجد، والثناء على المصلين فيها وما أعد الله لهم من ثواب، كل ذلك بهدف غرس حب المسجد في قلبه.

جـ ١(ص: ١٧٥)

٨- أن يصطحب الكبير الصغير إلى المسجد، حتى يألفه، ويألف المصلين ولا يستوحش منهم.
٩- أن يعامل العاملون بالمسجد والمصلون الصغير معاملة لطيفة، وألّا يغلظوا له القول، فإن الملاطفة والمداعبة تجعله يألف المصلين ويحب أن يتردد على المسجد.
١٠- تنويع الوسائل المتاحة، لجذب الناشىء إلى المسجد، كنظم الأناشيد وغير ذلك من وسائل «١» .
د- المدرسة:
وهي مؤسسة وتنظيم اجتماعي، أنشأها المجتمع خاصة لتربية وتعليم صغاره، وكالة عن الكبار المشغولين في مشاغل الحياة، ونيابة عن المجتمع في نقل تراثه الثقافي إلى الصغار، وللمدرسة وظائفها الهامة في المجتمع، إذ يوجد فيها المتخصصون في مجالات العلم والمعرفة لتقوم بتلك الوظائف، ومن ثم فهى تبلور اتجاهات المجتمع وتعكس إطار حياته.
وتمتاز المدرسة عن بقية المؤسسات الاجتماعية والوسائط الثقافية بأنها: بيئة تربوية مبسطة للمواد العلمية والثقافية، وأنها بيئة تربوية منقية للثقافة مما قد يتخللها من فساد وانحرافات، وأنها بيئة تربوية موسعة تضم جميع أبناء المجتمع الواحد، وتوسع أفق الناشىء عن طريق تعليمه المباشر من خلال خبراته الشخصية وخبرات الآخرين، وأنها بيئة تربوية جاهزة وموحدة لميول ونزعات التلاميذ وصهرهم في بوتقة ثقافية واحدة مما ييسر التفاهم والتعاون بينهم بعد الخروج إلى معترك الحياة العملية. ثم هي تستكمل ما بدأ في الأسرة لتتمه وتهذبه، وتقوم من الاعوجاج الخلقي عند الناشىء، إذا ما كان قد تعرض لرفقاء السوء واتخذ طريقا خاطئا في سلوكه «٢» .
وتمتاز المدرسة أيضا باتساق جهدها الذي تبذله مع المؤسسات الأخرى في سبيل تربية النشء ولذا فهي على اتصال دائم بتلك المؤسسات، وتتعاون معها في هذا السبيل.
إن دور المدرسة واضح وجلي، ويتمثل في تثقيف الناشئة وتربيتهم، بما تقدمه لهم من خبرات منظمة ومتنوعة وأنشطة مختلفة، ومعلومات تغطي مختلف مجالات المعارف الإنسانية، كل ذلك في إطار فلسفة تربوية واضحة المعالم، تشتق من الإطار العام لحياة المجتمع وأهدافه، وحاجات التلميذ ومطالبه ومتطلبات العصر.
وتستطيع المدرسة أن تسهم الإسهام الفعال في بناء شخصية الفرد بما تهيؤه له من مناخ صحي يساعد على

(١) انظر: كافية رمضان وأخرى، مرجع سابق، ص ٢٢١، ٢٢٢ وعبد الله أحمد قادري، مرجع سابق، ص ١٣٢- ١٤٦ أحمد قادري، مرجع سابق، ص ١٣٢- ١٤٦.
(٢) سمير عبد اللطيف هوانة، الأدوار التربوية للمؤسسات الاجتماعية، الفصل الخامس من: محمد عكيلة وآخرون: مدخل إلى مبادىء التربية، الطبعة الأولى، الكويت، دار القبس، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م، ص ١٣٥- ١٣٧.
جـ ١(ص: ١٧٦)

النمو المعرفي والانفعالي والجمالي والاجتماعي والعقدي، لا بما تقدمه من معلومات نظرية فقط، بل بالممارسة العملية وما يعينه هذا من تكامل بين المعرفة والممارسة،
وهذا يعني أن دور المدرسة في تنمية القيم الإسلامية ليس نظريا وإنما هو نظري تطبيقي وذلك في ضوء الاعتبارات التالية:
الاعتبار الأول:
أن العملية التربوية تعتبر- في الأساس- عملية خلقية، وتنمي الأفراد عليها، وعلى هذا فإن العملية لا يجب أن تقوم على القيم الثابتة فقط، بل يجب أن تعتني بالقيم النسبية التفضيلية والتي هي اتجاهات تغيير حادثة في نوع الخبرات المقدمة، والمعبرة عن نفسها في سلوك الناشئة والمتعلمين.

الاعتبار الثاني:
أن هذه القيم يجب أن تتخلل جميع المناهج الدراسية، إذ لا بد أن تسيطر على كل ميادين الدراسة، إذ أن الهدف لتنمية القيم في نفوس الأفراد إنما يمكن في إعادة توجيه الحياة في إطار تكاملي شمولي إيجابي، بحيث يصبح الأفراد أكثر إيجابية في حياتهم.
الاعتبار الثالث:
أن المدرسة وحدها لا يمكن أن تتم هذا الجهد بدون مشاركة كافة أنظمة المجتمع وهيئاته ومؤسساته وأنظمته وأفراده، وهذه المشاركة التكاملية في تنمية القيم تمكن المدرسة من القيام بواجبها وتحقيق أهدافها كما ينبغي «١» .
الاعتبار الرابع:
أن المدرسة في قيامها بهذه العملية يجب أن تعتمد على فلسفة تربوية نابعة من المجتمع الإسلامي ذاته، معبرة عن أهدافه، عاكسة لصورة المجتمع وفهمه عن الإنسان، وأهدافه في الحياة. وإذا لم تفعل باءت محاولتها بالفشل، ووقعت في محذور الانعزالية عن الواقع الاجتماعي.
إن وظيفة المدرسة في هذا الإطار تشمل كل مكوناتها وأركانها، من مربين، ومناهج وأنشطة، والمدرسة نفسها كأسلوب حياة وكمجتمع تعلم، والمادة التي تقدمها، والطريقة التي تقدم بها هذه المادة وبكلمة جامعة، فإن المدرسة لكي تقوم بتنمية القيم الإسلامية يجب أو ينبغي أن تتحقق بالشروط التالية:
١- توفير الخبرات المتنوعة لتنمية هذه القيم لدى الناشئة، وإتاحة الفرص أمامهم للتعرف عليها

---

(١) محمد عبد الهادي عفيفي، الأصول الفلسفية للتربية، مرجع سابق، ص ٣١٨- ٣٢٢.
جـ ١(ص: ١٧٧)

والانفعال بها والوعي بها، إذ أن المسألة ليست مجرد تقديم للقيم الخلقية واستيعابها نظريا، وإنما كيفية بناء هذه القيم واستدخالها في نفوسهم، ثم إنه إذا لم يكن للفرد أهداف ينفعل بها ويتجه نحوها وينمو في إطارها من خلال المشاركة والممارسة فلا يمكن أن يكون هناك تأثير ما لما يعيشه.
إن هذه الخبرات يجب أن تخضع للاختبار القائم على أساس القيمة، إذ أن القيمة أو القيم بعموم تحدد ما هو جيد، ومعنى هذا أن القائمين على أمر المدرسة وتخطيط مناهجها يجب أن يكونوا على وعي تام بأهداف القيم الخلقية الإسلامية وبنسق هذه القيم لأن هذا يساعدهم في اختيار محتوى المنهج وتوجيه السلوك، إذ أن هناك مجموعة من التساؤلات الملحة التي تواجه مخططي هذه الخبرات في المنهج والتي يجب على المدرسة أن تضمّنها في برنامجها التعليمي:
- ما المعلومات المرتبطة بالقيمة الخلقية التي ينبغي نقلها للتلاميذ عن طريق المدرسة؟
- كيف يمكن تنظيم هذه المعلومات بطريقة فعالة لتكون جزءا من المنهج؟
- ما العمليات التي سوف تؤكدها المدرسة للتعامل مع المشكلات المتعلقة بالقيم الخلقية؟
- كيف يمكن ترتيب العبارات عن العمليات في المنهج لتساعد في تطوير استراتيجيات تعليمية فعالة؟ «١» .
إن الإجابة عن هذه الأسئلة مهمة جدا من قبل المخططين وواضعي المناهج، حيث إنه يحدد نوع الخبرات اللازمة لتنمية القيم الخلقية الإسلامية كما ينبغي أن يكون.
٢- الاهتمام بتوفير مواقف ممارسة هذه القيم، وهي مواقف عملية لأنه لا يكفي ترديد المعلومات ولا الوعظ والتلقين، وإنما لا بد من النشاط الواقعي والمواقف الحية التي لا بد أن يعيشها الناشىء في المدرسة، ومعنى هذا أنه بعد تحديد القيم التي ستقدم لا بد من إتاحة الفرصة أمام الناشئة للمشاركة في تحمل المسئولية إزاء المهام والقيم المطلوب الالتزام بها.

٣- الاهتمام باتجاهات الناشئة ومشاعرهم، واستخدام القوة الانفعالية والتفكير معا في تنمية القيم الإسلامية، وإشعارهم بأهمية القيم بالنسبة لهم وبالنسبة للجماعة التي ينتمون إليها، وتدريبهم على الاستقلال في الاختيار، ومنحهم مساحة كافية من الحرية للتدريب على الاختيار والممارسة لهذه القيم.
٤- الاهتمام بتوفير القدوة الصالحة المتمثلة في المعلم الخيّر الكفء الذي يكون على درجة عالية من المهارة، وعلى وعي وتدريب كافيين لتنمية القيم، ليمكن الناشىء من التفاعل مع المواقف المتغيرة بشكل جيد، ومعنى هذا

---

(١) جورج بوشامب، نظرية المنهج، ترجمة: ممدوح محمد سليمان وآخران، مراجعة ممدوح محمد سليمان، القاهرة، الدار العربية للنشر، توزيع ١٩٨٧، ص ١٠٥.

أن هناك شروطا معينة لا بد من توافرها في المعلم:
- أن يكون واعيا بوظيفته وأهميتها في مجال تنمية القيم الخلقية.
- أن يكون على علم بتوجيهات الكتاب والسنة في هذا المجال.
- أن يكون عالما بما يريد تعليمه وتنميته من قيم في الأفراد.
- أن يكون ملتزما بتلك القيم، أي أن يكون قدوة متمثلة فيه الشروط التي سبق تناولها، اقتداء بالرسول صلّى الله عليه وسلّم.
- أن يكون عالما متمكنا بتخصصه العلمي، وبالأساليب التي يستطيع عن طريقها تنمية القيم الخلقية من خلال تدريس التخصص.
٥- الاهتمام بتنظيم العلاقة القائمة بين المدرسة والمجتمع ومؤسساته، وكذا العلاقة القائمة بين العاملين في المدرسة، إذ يجب أن يسودها جو قيمي موات لأن يتأثر به الناشئة إيجابيا.
٦- الاهتمام بالجو الاجتماعي المدرسي القائم على أساس الحب والألفة والتفاهم والتشجيع، إذ أن هذا يعطي المتعلم فرصا مناسبة ليكون على علاقة وطيدة توجيهية وإرشادية مع معلمين وإداريين وعاملين يعرفونه جيدا، وبالتالي يتشرب القيم الإسلامية عن طريق العلاقة الحميمة مع أساتذته ومعلميه.
٧- الاهتمام بالأنشطة المدرسية المتنوعة، والتي تعتبر بيئة مناسبة جدا لتنمية القيم الخلقية، إذ يمكن عن طريقها ممارسة تلك القيم، كالشورى والحوار وتبادل الرأي والخبرة، والتعاون، والصدق، والتخطيط وحسن اتخاذ القرار، وتقديم أفكار جديدة، والالتزام بالقرارات والاقتراحات، كما أنها تعمل على تنمية القيم السياسية والإدارية، وقيم التنظيم، والرقابة، وغير ذلك، وتؤدي دورا ملحوظا في تنمية المسئولية وقيمها «١».
٨- الاهتمام بالمكتبة المدرسية، على أن تختار محتوياتها بعناية بالغة من حيث الشكل والمضمون ومراعاة نوعها، وتنظيمها، وكذا الاهتمام بأماكن الرياضة واللعب، وغير ذلك «٢».
إن دور المدرسة مهم في مجال تنمية القيم الخلقية الإسلامية ولا بد أن يعلم القائمون عليها هذا وأن يجعلوا منها بيئة تربوية مناسبة تعمل على تنمية هذه القيم، ولكن كما أشرنا، نؤكد أهمية التكامل بين المدرسة ومؤسسات المجتمع، والوسط الاجتماعي العام الذي تترجم عنه المدرسة وتعكس إطاره الثقافي وعلاقاته وقيمه.

---

(١) راجع: كافية رمضان وأخرى، مرجع سابق، ص ٢٢٠، ٢٠١.
(٢) راجع: المرجع السابق، ص ٢١٢، ٢١٤.

هـ- وسائل الإعلام:

تقوم وسائل الإعلام والاتصال بدور بالغ الخطورة والأهمية في حياة الناس بعامة، وفي حياة الناشيء بصفة خاصة، فقد احتلت مركزا بالغ الأهمية لديهم، حتى إنها أصبحت- في كثير من الأحيان- بديلا عن الكتاب من مؤسسات التربية والتعليم والتثقيف.
ولأنها تقدم مواد متنوعة ومختلفة فإن تأثيرها في مجال تنمية المفاهيم والقيم والاتجاهات بالغ الأهمية، فهي تنقل إلى الناس معتقدات واتجاهات وقيما، في شكل قصة أو في شكل أنماط سلوكية قد تحظى بالقبول وقد ترفض، ومن خلال وسائل الإعلام هذه يتلقى الناشئة تلك المعتقدات والاتجاهات والقيم، والتي من المفروض أن تكون متوافقة مع ما يرتضيه المجتمع الذي تنتمي إليه وما ترتضيه ثقافته، وأن تعرض المثل الأعلى المنشود في هذا المجتمع أو ذاك، وبمعنى آخر: أن تعكس أهداف المجتمع من الإنسان والحياة.
ولأن وسائل الإعلام متنوعة ومتعددة، فإنه يمكن أن ننظر إليها في ضوء وظائفها الأساسية والمتمثلة فيما يلي:
١- إضفاء المكانة: فوسائل الاتصال تلقي الضوء على بعض الحركات والقضايا العامة والأشخاص والمؤسسات، وتؤيدها أو ترفضها مما يضفي عليها مكانة أو يؤثر في مكانها سلبيا.
٢- تقويم ثقافة المجتمع ومعاييره: إذ أن لها من القوة في استثارة العمل الاجتماعي المنظم وفقا للمعايير الأخلاقية والمثالية في المجتمع، ولو حدث انحراف ما عن هذه المعايير تقوم تلك الوسائل بالتنبيه عليه، حيث تقوم بإعلام أفراد المجتمع به وبحقائقه وبأساليب مواجهته كي تتفق الأنماط السلوكية للناس مع المعايير الاجتماعية المقبولة.
إن هذه الوسائل تفرض ضغطا كبيرا للوقاية من مظاهر الانحراف عن المعايير والقيم، لإعادة تثبيتها ودعمها وتطبيقها، وجعلها في بؤرة الوعي الاجتماعي ولب اهتماماته.
٣- تنمية الذوق العام: حيث تقوم بتنمية الإحساس بالجمال في الحياة، وكذا جمال النفس الذي يستطيع الإنسان به أن يرى الوجود جميلا، وكذا تنمية الذوق العام في السلوك العام في الأماكن العامة والالتزام بمعايير المجتمع وقيمه.
٤- خدمة المجتمع: وهي في هذا تساعد وتكمل عمل التربية، فهي تعمل على تشكيل الشخصية الإنسانية القادرة على تحقيق التقدم والتنمية، وذلك عن طريق بيان أهمية العمل وتغيير المفاهيم السائدة التي لا تصلح لمسيرة المجتمع، وتقديم المعلومات التي تفيد في هذا المجال، وهي تخدم قضية التغيير الثقافي والاجتماعي.
جـ ١(ص: ١٨٠)

كما أن هذه الوسائل في عملية التطبيع الاجتماعي، عن طريق نقلها لأنماط السلوك المقبولة ومساندتها، وبالتالي يكتسبها الناس صغارا وكبارا ويحتضنونها من خلال تلك الوسائل، وبالتالي تؤثر في تكوين الشخصية، وتساعدها على التكيف للمواقف والخبرات الجديدة «١» .
وتساعد عدة عوامل على إحداث التأثير الكبير في الشيء، من هذه العوامل: التكرار، والجاذبية والمشاركة، ولا نريد أن نستفيض في هذا المجال، لأن المقام لا يسمح، ولكن عوامل تأثر النشء بالمواد الإعلامية- وخاصة التليفزيون- يستحق منا التركيز. ويمكن ذكر تلك العوامل فيما يلي:
١- الاستيعاب: ومعناه: امتصاص المواد المبثوثة في وسائل الإعلام لما تنطوي عليه من مغريات فنية وأدبية وإخراجية، وكلما تكررت المادة بصورة أو أخرى زاد الاستيعاب.
٢- التقليد: وخاصة بين الصغار، فالصغير يقلد النماذج التي تعرض له، ويتوقف التقليد على بيئة الناشيء، وعلى ردود الفعل لدى أفراد هذه البيئة تجاه ما يقرأونه ويشاهدونه.
٣- التقمص: وهو حالة نفسية واجتماعية تتوحد خلالها شخصية المشاهد أو القارىء مع النماذج التي تقدم له من خلال وسائل الإعلام، ويستخدم المتلقي التقمص كوسيلة لإرضاء أو إشباع الحاجات الأساسية «٢» .

إن أهمية وسائل الإعلام قد غدت واضحة في مجال التربية، والأمر كذلك، فإنها تقوم على قيم معينة، هي قيم المجتمع الذي نعيش فيه، وهي إما أن تساعد على تثبيت هذه القيم ودعمها، وإما أن تعمل ضدها، بحيث تغرس في نفوس الأفراد قيما أصيلة جيدة، أو تخلع منها قيما رديئة وتغرس محلها قيما أخرى جيدة، وهذا يعود بالتأكيد إلى القائمين على أمر هذه الوسائل ومدى فهمهم لثقافة المجتمع ومعاييره وقيمه.

وقد تستخدم هذه الوسائل استخداما سيئا يعطل في الإنسان عقله ووجدانه، واهتمامه بالقيم مما يؤدي إلى حالة من الركود والخمول واللامبالاة، أو ما يسمى بعدم الاهتمام أو الاهتمام الظاهري الكاذب بمشكلات المجتمع، فكما أن لها استخداماتها الفعالة، فإن لها استخدامات ضارة أيضا، خاصة إذا ما وجهت توجيها ضد قيم المجتمع الأصيلة، فهي في هذه الحالة تهدم ولا تبني.

ومن الملاحظ في حياتنا تسرب ظواهر معينة من خلال وسائل الإعلام، كإشاعة العنف، والهروب من الواقع، والاستغراق في الخيال، والسلبية، والتقليد الأعمى، وغير ذلك وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه، وتؤكده دراسات

---

(١) راجع كافيه رمضان وأخرى، مرجع سابق، ص ٢٥٢، ٢٥٣.

(٢) راجع عبد اللطيف هوانة، مرجع سابق، ص ١٢٦، ١٢٧.

متعددة عن الأثر السلبي لوسائل الإعلام «١» . فهذه الوسائل قد تصبح معوّقا كبيرا- في بعض مواقفها- لتنمية الإنسان وقيمه المنشودة، وفي هذه الحالة لا بد أن نعي أن الإعلام في هذا الوضع يشكل معوّقا وخطرا على القيم، ويكمن هذا في التناقض الأساسي بين القائمين على الإعلام، أو بعضهم وبين الأغلبية الساحقة في المجتمع صاحبة المصلحة الحقيقية في تنمية القيم الإسلامية الدافعة نحو التقدم والتغيير الهادف البناء تجاه أهداف الإسلام «٢» .

وتزداد خطورة وأهمية وسائل الإعلام في مجال تنمية القيم، وذلك مع ما يمر به المجتمع العربي والإسلامي من ظروف التغير وسرعته ومن انفجار سكاني ومعرفي، وما يعانيه الإنسان من فراغ، واهتزاز في نظم العلاقات الاجتماعية الناتج عن اهتزاز القيم لدى الأفراد والمجتمعات، وما يتطلبه هذا المجتمع من جهود تنموية تدفعه نحو التقدم ليعبر هوة التخلف المادي التي يعاني منها، والتي تتطلب تنمية القيم اللازمة لمساندة هذه الجهود لتحقيق إنسانية الإنسان وتوفير جهده وحفظه وحفظ كرامته.

ولكل هذا نقول إن خطورة وأهمية وسائل الإعلام في مجال تنمية القيم الإسلامية المعبرة عن حركة المجتمع الإسلامي واضحة، فهي تقوم بدور رائد وفعال في هذا المجال، ولكي تكون هذه الوسائل أكثر فعالية، فإنه من اللازم عليها:

١- أن تنبثق رسالتها من تصور إسلامي خالص، وبطريقة متكاملة مع بقية الوسائط الأخري، حتى تتضافر الجهود في سبيل تقديم القيم الخلقية الإسلامية الخالصة.

٢- أن تخضع لتنظيم وتخطيط متكامل شامل لإيصال القيم الخلقية الإسلامية الخالصة للناس كافة بأسلوب عصري يعتمد على العقل والمنطق، وبكافة الأساليب الممكنة، ولا بد أن يأتي هذا التخطيط على أساس دراسة الواقع وفهمه فهما جيدا ومن ثم تتحدد الأهداف التي تسعى إليها وسائل الإعلام في هذا المجال.

٣- أن تستخدم الحكمة في مخاطبة الناس، فتأتيهم من جانب اهتماماتهم وآلامهم اليومية مع انتقاء الكلمة الطيبة التي تفتح أقفال العقول والقلوب، التزاما بالتوجيه القرآني الكريم: ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ «٣» . فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذا

---

(١) انظر في هذا المجال: نور الدين عبد الجواد، الإعلام والرسالة التربوية، في: ماذا يريد التربويون من الإعلاميين، الجزء الثاني، الرياض، مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤ م، ص ٢٠٥.

(٢) انظر: محمد سيد محمد، الإعلام والتنمية، الطبعة الثالثة، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥ م، ص ٢٧٩- ٢٨٩.

(٣) سورة النحل: ١٢٥.

عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ «١» .

٤- أن تتصدى للقيم والاتجاهات الهابطة التي تقدم بقصد أو عن غير قصد في المادة الإعلامية، بهدف التشكيك في القيم الإسلامية، بل في الإسلام كله، وهنا لا بد من استخدام الحجة والبرهان مع الصراحة والوضوح، وحسن البيان مع الالتزام بالأدب في القول.

٥- أن تعمل على إيجاد كوادر إعلامية مسلمة، تقدم المادة الإعلامية، وتبدع من أجل إيصال القيم الإسلامية لكل فرد في المجتمع الإسلامي وبصورة مناسبة ومشوقة، وتستطيع توجيه الناس إلى الإسلام الصحيح للإفادة به على نطاق واسع ومفيد.

٦- أن تعمل على تكريس الطاقات المسلمة وتكثيفها، فكرا وثقافة وعلما واقتصادا، وأن تحشدها في سبيل تقديم ما يفيد المسلمين في دنياهم وأخراهم، مع تكييف الدعوة للقيم الإسلامية عن طريق الكلمة المسموعة أو المقروءة أو المرئية، والمعبرة تعبيرا صادقا عن القيم الإسلامية الصحيحة.

٧- أن تعمل على توفير القدوة الحسنة إعلاميا والملتزمة بالقيم الإسلامية والصادقة مع نفسها وربها، والموجهة جهودها نحو الخير، المجانبة للكلمة النابية والعبارة الخارجة، وذلك لأن هذه الوسائل تؤثر في الإنسان وخاصة ميله للتقليد والمحاكاة والتي لها تأثير فعال في ميدان الإعلام، وميدان التربية والتعليم على السواء، لذلك يعتمد عليها رجال هذه الميادين كلها بدون استثناء.

فرجال الإعلام ينظرون إلى القدوة الحسنة على أنها من وسائل الإعلام، تغني في ذاتها عن بذل الجهود الإعلامية في سبيل دعوة ينشرونها أو فكرة يدعون إليها، أو عقيدة أو سياسة جديدة ينشرونها، ونحو ذلك لذا فإن «القدوة الحسنة هي من أنجح الأساليب والوسائل للاتصال بالناس» «٢» .

٨- أن تركز باهتمام بالغ على برامج الأطفال بوجه خاص، بحيث تقدم لهم القيم الإسلامية بصورة مبسطة تعتمد على المواقف الحياتية والإسلامية وخصائصها، متفتحة على العصر بأسلوب سهل ميسر، بحيث يساعد على تكوين وتنمية ذاتيتهم الإسلامية العربية فيعتزون بالقيم الإسلامية ويعملون على المحافظة عليها بالقول والسلوك.

٩- أن تركز باهتمام على برامج المرأة المسلمة، وتقدم لها كافة ما يهمها، وبصورة تتمكن معها المرأة المسلمة قارئة وغير قارئة من الاستفادة من هذه البرامج، ذلك لأن المرأة هي أخطر عامل مؤثر في تنمية القيم لدى الطفل المسلم.

---

(١) سورة آل عمران: ١٥٩.

(٢) عبد اللطيف حمزة، الإعلام في صدر الإسلام، الطبعة الثانية، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٧٨، ص ٧٤.

هذه هي أهم الوسائط التي يناط بها تنمية القيم الإسلامية، وهذه هي الصورة التي ينبغي أن تكون عليها تلك الوسائط لتقوم بوظيفتها، أو تبدأ بأدائها، حاولت توضيحها حتى لا تفقد قيمتها، وحتى لا تقع في تناقضات تفقدها ثقة الناس بها، وحتى لا تصبح عبئا ثقيلا على المجتمع الإسلامي، بحيث تقع في جانب الاستهلاك المرذول بدلا من أن تكون في جانب الإنتاج المطلوب، وبحيث يتكامل بعضها مع بعض

وبطريقة شاملة منسقة مع أهداف المجتمع الإسلامي المتشوق بدور حضاري جديد مبني على القيم الإسلامية الصحيحة الدافعة نحو التقدم والتحضر والرقي والتنمية الصحيحة.
إلا أن الأمر ليس بهذه السهولة، بل هو أمر جد صعب وجاد، يحتاج إلى جهد وجهاد للعبور فوق التخلف، لبناء إسلامي صحيح، والدفاع عنه بكل ما يستطاع بطريقة مدروسة ومخططة تخطيطا جيدا.
إن الأمر أوسع مما يتصور، وأخطر مما نقدر، ومن حجم هذه الكلمات، إن الجهد المبذول من أجل تقدم المجتمعات العربية الإسلامية لن يكون ذا جدوى إذا لم تواكبه حركة قوية في بناء وتنمية القيم الإسلامية التي بإمكانها أن تحفظ هذا الجهد فلا يضيع وتحفظ الإنسان الذي يبذل هذا الجهد من الضياع والعدم والاغتراب والاستلاب واللامبالاة، ولذا فإن القيمة الحقيقية لتلك الوسائط وهذه الوسائل هي في الالتزام بتلك القيم والمحافظة عليها ورعايتها في أعماق الإنسان الذي تحاول أن تبنيه، وهي في هذا تستجيب استجابة حقيقية لحاجات الإنسان في هذه المجتمعات، وتنسق مع إمكانياته، وقدراته وتفجرها تفجيرا من أجل خيره وخير الإنسانية.
جـ ١(ص: ١٨٤)

السيرة النبوية العطرة الأخلاق ودراسة السيرة

إن لدراسة السيرة العطرة- خاصة فيما يتعلق بالمجال الأخلاقي- أهدافا عديدة يمكن إبراز أهمها فيما يلي:
١- يجد المرء في سيرته صلّى الله عليه وسلّم ما يعينه على فهم كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلّى الله عليه وسلّم.
٢- إن الدارس لسيرة الرسول صلّى الله عليه وسلّم يقف على التطبيق العملي لأحكام الإسلام التي تضمنتها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة في مجالات الحياة المختلفة.
٣- إن الاقتداء برسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقتضي معرفة شمائله وأحواله صلّى الله عليه وسلّم في المجالات المختلفة ومن عرف شمائله وأحواله وأحبه واقتدى به فسيهتدي بإذن الله إلى الصراط المستقيم وسينال ما يدخره الله عز وجل له على ذلك. قال تعالى: لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (الأحزاب/ ٢١) . فقد كان صلّى الله عليه وسلّم في هدايته الناس كما وصفه ربه: وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ* صِراطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (الشورى/ ٥٢- ٥٣) .
٤- إن الاقتداء برسول الله صلّى الله عليه وسلّم واتباعه دليل على محبة العبد ربه، وسينال العبد محبة الله له، وفي هذا يقول الله تعالى: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ (آل عمران/ ٣١) .
٥- يقف الدارس لسيرته صلّى الله عليه وسلّم على حقائق معجزاته- دلائل نبوته- مما يقوي ويزيد الإيمان من ناحية، والفهم الجيد لهذه المعجزات في ضوء معرفة هذه الوقائع من ناحية أخرى.
٦- إن معرفة ما حفلت به السيرة من مواقف إيمانية عقدية، وقفها الرسول صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه لإعلاء كلمة الله، تقوي من عزائم المؤمنين السائرين على درب الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وتثبتهم للدفاع عن الدين والحق، وتبعث في قلوبهم الطمأنينة.
٧- في سيرته صلّى الله عليه وسلّم دروس كثيرة لجميع الناس، ومواساة لهم في كافة أنواع الابتلاءات التي يتعرضون لها، لا سيما الدعاة.
٨- إن سيرة الرسول صلّى الله عليه وسلّم هي المثل الأعلى للإنسان الكامل في جميع الجوانب.
٩- يحصل دارس السيرة على قدر كبير من المعارف الصحيحة في علوم الإسلام المختلفة، من عقيدة وشريعة وأخلاق وتفسير وحديث وسياسة وتربية واجتماع ... الخ.
١٠- يقف الدارس لسيرته صلّى الله عليه وسلّم على تطور الدعوة الإسلامية، وما كابده الرسول صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه لإعلاء كلمة الله، وما واجهه هو وأصحابه من مشكلات، وكيفية التصرف في تذليل تلك العقبات، وحل تلك المشكلات.

١١- إن معرفة أسباب نزول الآيات القرآنية ومناسبات أقوال كثيرة للنبي صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه لا تعرف إلا بمعرفة السيرة النبوية، ولهذا أهمية قصوى في الفهم الصحيح للآيات الكريمة والأحاديث الشريفة.
١٢- إن علم الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم والسنة، لا يتأتى فهمه ومعرفته إلا في ضوء وقائع السيرة.
١٣- إن معرفة السيرة على وجهها الصحيح يمكن المسلم من تفنيد الترهات والأباطيل التي يحاول بعض المستشرقين أن يفسروها على غير وجهها الصحيح.
١٤- في السيرة العطرة ما يساعد المسلمين على الخروج من المحنة التي ابتلى بها كثير منهم في هذه الأيام حيث توضح مواقف السيرة كيف يتآخى المسلمون ويصبرون على الشدائد ويثقون بنصر الله تعالى.
جـ ١(ص: ١٨٥)

تمهيد
مصادر دراسة السيرة النبوية:
القرآن الكريم هو المصدر الأول والأساسي من مصادر دراسة السيرة النبوية المطهرة، ذلك أنه يشتمل على بيان واضح للعقيدة والشريعة والأخلاق ويتضمن وصفا للعديد من الغزوات والأحداث الجليلة التي واجهت الرسول صلّى الله عليه وسلّم، كما أنه يتضمن تصويرا للصراع الفكري والمادي بين الرسول عليه السلام وخصومه، وبين الإسلام ومعانديه. ولا شك في أن القرآن الكريم من المصادر التي لها خصوصية الصدق والدّقة والثبوت المطلق من ناحيتي العقيدة والتاريخ عند المسلمين، كما لا يشك أحد فيه من الناحية التاريخية، وإن حصل بعض الاختلاف بين عموم المسلمين من جهة وبين غيرهم من الجهة الأخرى حول مصدره.
ويرد في الكتاب العزيز ذكر لبعض الأحداث التاريخية المهمة في عصر النبوة مثل معركة بدر، التي نجد تفصيلات عنها في سورة الأنفال، ومعركة أحد التي وردت في سورة آل عمران تفصيلات عنها، ومعركة الخندق في سورة الأحزاب، وحنين في سورة التوبة، ونجد آيات عن هذه الغزوات في سور أخرى. كما أن هناك آيات نزلت في مناسبات أخرى من عصر السيرة، كما نجد في بعض الآيات تصويرا دقيقا للصراع الفكري والمادي بين المسلمين واليهود في الحجاز كما يتضح ذلك في سور البقرة والحشر والأحزاب.
وإضافة إلى ذلك فإن القرآن الكريم يتناول في بعض آياته مناقشات مع عرب الجاهلية تتضمن استعراض مجالات حياتهم العقدية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية، كما يلمّح القرآن الكريم إلى الحضارات القديمة في الجزيرة وما جاورها، مما يعين على فهم أحوال المجتمعات الإنسانية قبل ظهور الإسلام، وعند ظهوره. غير أنه من غير الممكن تحقيق الاستفادة الكاملة من جميع ذلك إلّا بالرجوع إلى كتب التفسير وبشكل خاص التفسير بالمأثور مثل تفسير الطبري وابن كثير وابن الجوزي والحافظ السيوطي في تلخيصه الموسوم «بالدر المنثور في التفسير بالمأثور» ، كما ينبغي الإنتباه إلى ما صنّف في ناسخ القرآن ومنسوخه، وكتب أسباب النزول وغيرها مما له صلة وثيقة بالقرآن وعلومه «١» .
والمصدر الثاني للسيرة المطهرة، كتب الحديث وهي متنوعة، منها الكتب المرتبة على المسانيد، ومنها الكتب المرتبة على الموضوعات الفقهية، وهذه الكتب تقدم مادة واسعة، فهي تعنى بالدرجة الأولى بجمع أقوال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأفعاله، وتقريراته، وفضائله، وسيرته، ومغازيه، وسراياه، وبعوثه، وتحتوي على تفاصيل أخرى كثيرة متصلة بالحياة الاجتماعية والاقتصادية والتربوية، وهي توضح جذور النظم الإسلامية وكيفية تطبيق التشريعات الأولى.
وتمتاز المصادر الحديثية بأنها أوثق رواة وأدق متونا من كتب السيرة المتخصصة، وينطبق هذا الوصف بشكل دقيق

---

(١) أكرم العمري- السيرة النبوية الصحيحة ١/ ٤٧- ٩، مهدي رزق الله أحمد- السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص/ ١٥- ١٦، فاروق حماده- مصادر السيرة النبوية وتقويمها ص/ ٣٤- ٣٥.

على الكتب الستة وفي مقدمتها صحيحا البخاري ومسلم. ولا بد من ملاحظة أن السيرة تستقي من كتب أسباب النزول والناسخ والمنسوخ في القرآن، وكتب التفسير وخصوصا تفسير الطبري وتفسير ابن أبي حاتم الرازي، ذلك أن التفسيرين يسوقان الروايات بالأسانيد مما يخدم توثيق النصوص عن طريق المتابعات والشواهد ومعرفة اختلاف المخارج بالنسبة للمراسيل «١» .

وتبين كتب الدلائل صدق معجزات النبي صلّى الله عليه وسلّم، وأقدم من أفردها عن كتب الحديث محمد بن يوسف الفريابي (ت ٢١٢ هـ/ ٨٢٧ م) «٢» في كتابه «دلائل النبوة» «٣» . أما كتب الشمائل فتتناول أخلاق وآداب وصفات النبي صلّى الله عليه وسلّم، وأقدم من أفردها أبو البختري وهب الأسدي (ت ٢٠٠ هـ/ ٨١٥ م) «٤» .

وتأتي كتب السيرة النبوية والمغازي، ضمن المصادر المهمة، وقد ظهر عدد كبير من هذه الكتب خلال القرون الثلاثة الأولى من الهجرة، ونشير من بين رجال القرن الأول إلى عروة بن الزبير، وسعيد بن المسيّب، وأبان بن عثمان بن عفان. ومن رجال القرن الثاني إلى ما كتبه موسى بن عقبة، ومحمد بن إسحاق بن يسار، ومعمر بن راشد، والزهري. أما في القرن الثالث الهجري فقد برز محمد بن عمر الواقدي، وعبد الرزاق بن همّام الصنعاني، وعمر بن شبّة بن عبيد. ولا يمكن أن نغفل المجلدين الأولين من كتاب الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد وهما في السيرة النبوية «٥» . وتمتاز كتب السيرة المتخصصة بسهولة العرض، وتتابع الأحداث التاريخية واتصالها، ومراعاة التتابع التاريخي في سردها، كما أنها تقدم وصفا مفصلا للأحداث بحكم تخصصها، ومع أن أغلب كتب المغازي والسير الأولى لا يزال مفقودا فإن ما أمكن رصده منها في المصادر المتأخرة يعكس مفردات الهيكل العام للمؤلّف، وأساليب المؤلفين ومستوى الدقة التي يتمتع بها كل منهم.

ويعتبر كتاب السيرة النبوية الذي هذّبه ابن هشام عن سيرة ابن إسحاق من أوثق كتب السيرة المتخصصة، وعلى الرغم من موقف علماء مدرسة المدينة من ابن إسحاق، وما ذكره النقّاد المحدثون عنه من تساهل في الإسناد، وقبول مرويات الإخباريين ووجود المناكير والعجائب في رواياته، وما في أصل سيرته من الشّعر المنتحل، فإنه اعتمد عند الحافظ الذهبي حجة في المغازي. وقد قبل من أحاديثه في أمور العقيدة والشريعة ما صرّح فيها بالتحديث ولم يدلس، ما لم يخالف من هو أوثق منه، واعتبرها في مرتبة «الحسن» الذي يحتج به. وقد اطلعت على نسخة فريدة كاملة من السيرة الواسطية، فلم أجد فيها ما يزيد على ما ورد في تهذيب السيرة لابن هشام إلا ما اتصل بالمرويات الخاصة بالعصر الجاهلي، وثبت لدي أنهما يصدران عن مصدر واحد.

---

(١) أكرم العمري- السيرة الصحيحة ١/ ٥٠- ٥١.

(٢) الألباني- فهرست مخطوطات الظاهرية/ ٣٧٣.

(٣) أورد العمري في السيرة الصحيحة ١/ ٥١- ٥٢ ذكرا لأحد عشر كتابا في الدلائل.

(٤) ذكرت المصادر تسعة كتب في «الشمائل» باستثناء من خرّج الأحاديث ومن شرحها من العلماء، المرجع السابق ١/ ٥٢- ٥٣، وانظر ابن النديم- الفهرست ص/ ٢٧٢. (تحقيق: رضا تجدد المازندراني، (طهران ١٣٩١ هـ/ ١٩٧١ م) ..

(٥) الدوري- بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ص/ ١٣٧- ٢١٤.

أما محمد بن عمر الواقدي، فلم يرد له في الصحيحين رواية واحدة، ورفض النقاد من المحدثين قبول مروياته. وقد ورد في ثنايا كتابه في المغازي الكثير من المرويات بأسانيد فيها رواة لا نجد لهم تراجم

في كتب علم الرجال، كما قبل وثائق مزورة، كان الوضع فيها بيّنا واضحا ولعل أبرزها كتاب النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى يهود مقنى والذي كان الكذب والوضع فيه ظاهرين للعيان. ومع ذلك فإنهم اهتموا بكتاب «المغازي» لغزارة ما فيه من المعلومات، ولتقديمه تفصيلات كثيرة ينفرد بها.
وعند الانتقال إلى كتب التاريخ والأنساب فإن الطبري يقدم في كتابه «تاريخ الأمم والملوك» معلومات موسّعة عن السيرة يعتمد فيها بشكل كبير على ما قدمه ابن إسحاق، وإن كان يضيف روايات من مصادر أخرى.
أما القسم الأول من كتاب «أنساب الأشراف» للبلاذري، فإنه من المصادر التي تقدم معلومات تمتاز بأهميتها وقدمها في مجال السيرة المطهرة.
ويبقى بعد ذلك أن نشير إلى عدد من المؤلفات المتأخرة التي كتبت بعد منتصف القرن الخامس الهجري والتي قام مؤلفوها بجمع معلوماتهم فيها من كتب الحديث وكتب السير الأولى وهذبوها واختصروها.
ويمكن الإشارة في هذا المجال إلى عدد كبير من المؤلفين أمثال ابن عبد البر القرطبي في «الدرر» ، وابن حزم في «جوامع السير» ، وابن سيد الناس في «عيون الأثر» والحافظ الذهبي في «السيرة النبوية» ، والواسطي في «السيرة» ، وابن كثير في قسم السيرة من «البداية والنهاية» ، والدمشقي الشامي في «سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد» .
وتأتي المصادر التكميلية، بعد القرآن الكريم، وكتب الحديث، وكتب السيرة المختصة، والمغازي، وكتب الشمائل والدلائل، لكي تكمّل معالم الصورة وتسد بعض الثغرات التي يمكن أن تبقى بعد استيفاء المعلومات الأساسية من المصادر الأصلية. وتتمثل هذه المصادر التكميلية في كتب «معرفة الصحابة والتراجم» ، وكتب «الأدب في صدر الإسلام» ، وخصوصا الشّعر، ثم كتب «الجغرافية التاريخية» التي تعطي الباحث صورة دقيقة عن الإطار المكاني للأحداث.
لقد حفظ الله سيرة النبي صلّى الله عليه وسلّم من الضياع والتحريف والمبالغة والتهويل، بأن هيأ لها جهابذة المحدثين ليعنوا بها ويدونوا أصولها الأولى قبل أن تتناولها أقلام المؤرخين ومبالغات القصّاصين وهذه ميزة لمصادر السيرة لم تتوفر لغيرها، حيث إن المحدثين ثقاة مأمونون في الرواية، وهم في الوقت نفسه علماء لهم مناهج واضحة في نقد الروايات، ولهم أسلوبهم الجاد البعيد عن الحشو والمبالغات «١» .

---

(١) في هذا الموضوع انظر: الدوري- بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، ص/ ٣٠- ٤٦، صبحي الصالح- علوم الحديث ص/ ١٥- ١٦، محمد عزت دروزة- سيرة الرسول، مصطفى السباعي- السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ص/ ٢٩٣- ٤، جواد علي- تاريخ العرب في الإسلام- السيرة ص/ ٩- ١١، العمري- السيرة النبوية الصحيحة ص ٤٧- ٧٠.

جـ ١(ص: ١٨٨)

بيئة الدعوة:

يقع البيت العتيق وما يحيط به من مناطق سكنية وأسواق في واد تشرف عليه الجبال من أغلب النواحي، فمن الشرق يشرف عليه جبل «أبو قبيس» ، ومن الغرب جبل «قعيقعان» ، والجبلان يطوقان المنطقة على شكل هلالين متقابلين ويتركان من الناحية الشرقية منفذا إلى الأبطح وأعالي مكة مما يلي الحجون، أما من الجهة الثانية فالمسفلة حيث تنحدر الأرض مع مجرى السيل القديم، ويعرف الوادي الذي يقوم فيه البيت العتيق باسم البطحاء «١» ، وتحيط بالمسجد الحرام بيوت قريش «البطاح» التي امتازت بالتحضر والغنى والجاه. أما خارج أطراف الجبال فكانت تسكن «قريش الظواهر» وهم من العشائر الفقيرة ولكنها شديدة البأس. وتنتمي قريش إلى كنانة التي كانت تسكن قريبا من مكة، مما يعطي مكة عمقا معنويّا للحماية والدعم. وقد تعززت العلاقات النّسبيّة وصلة القربى والرحم بالمحالفات بين الطرفين، وكان الأحابيش الذين يعيشون عند مشارف مكة حلفاء لقبيلة قريش، تساندهم في حروبهم وتستخدمهم في حراسة قوافل التجارة المكية إلى اليمن والشام وأطراف الجزيرة

في طريق العراق، وقد شملت محالفات قريش عددا كبيرا من القبائل العربية التي تقع مواطنها على امتداد طرق التجارة التي يباشرونها. ولما كان الاقتصاد التجاري يعتمد على استتباب الأمن، فقد اعتمدت قريش على مكانتها عند العرب، وتحالفاتها مع القبائل العربية، وما كان يظهره زعماؤها من الحصافة والحلم واللين وبعد النظر في سبيل الوصول إلى غاياتهم في تحقيق الأمن لطرق مواصلاتها التجارية. ومع أن قريشا قد دخلت قبل الإسلام في حروب الفجار الأربع التي كانت مناوشات محدودة، فإنها لم تستطع أن تحرز نصرا في تلك الحروب الصغيرة على الأعراب، وذلك يشير إلى عدم اعتمادها على القوة في تأمين مصالحها، بقدر ما تعتمد على مكانتها التي بوأها لها وجود البيت العتيق الذي يحج إليه العرب من شتّى المناطق والذي كانت تحيط به أصنامهم التي زاد عددها كثيرا حتى تجاوز ثلاثمائة وخمسين صنما، وذلك مما ساعدها على تحقيق الأمن، إضافة إلى ما كانوا يحققونه من مكاسب مادية.

لقد قام قصيّ بتوحيد قريش وجمعها في مكة وما حولها، ومكّن لها ونظّم شئونها. وقام أبناؤه بأعمال جليلة أدت إلى ازدهار الحياة في مكة وأبرزت مكانتهم وفضلهم وشرفهم ومكّنت لسيادتهم، فقد تولوا السقاية والرفادة والحجابة واللواء والندوة، وتمكّن هاشم بن عبد مناف بن قصي من عقد الإيلاف وتوسيع نطاق التجارة المكية بنقلها من النطاق الإقليمي إلى آفاق العالم القديم الرحبة، لِإِيلافِ قُرَيْشٍ* إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَالصَّيْفِ «٢» .

وقام هاشم كذلك بحفر عدد من الآبار وتوفير المياه لسكان مكة وحجاج البيت العتيق على حد سواء.

وقد عرف «المطلب» بن عبد مناف بالدعوة إلى مكارم الأخلاق، والأمر بترك الظلم والبغي والعدوان، كما عرف بشدّة التزامه بالنسك. وقد حاز عبد المطلب بن هاشم على مكانة متميّزة في قلوب الناس لكرمه وجوده، واشتهر بحفره بئر زمزم التي وفرت المياه في مكة، فلم تعد هناك حاجة لنقل المياه إلى مكة من خارجها، ومع أن عبد المطلب

---

(١) جواد علي- المفصل في تاريخ العرب ٦/ ١٠- ٢٥، أكرم العمري- السيرة النبوية الصحيحة ١/ ٧٧- ٨٨.

(٢) القرآن الكريم، سورة قريش، الآية/ ١- ٢.

لم يكن أغنى رجال مكة ولا هو زعيمها الوحيد، غير أن صلته المباشرة بشئون البيت العتيق، وقيامه بخدمة حجاج البيت جعلته من أبرز زعماء مكة، فكان هو الذي فاوض أبرهة حين قدم بالأحباش غازيا لمكة بقصد هدم الكعبة: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ «١» .

ومع ظهور الإسلام، وبدء نزول الوحي، وقبيل اشتداد مقاومة قريش للدعوة الإسلامية، تولى أبو طالب بن عبد المطلب الرفادة والسقاية بعد وفاة والده، ولم يكن موسرا لينفق من ماله، فاضطر إلى الاقتراض من أخيه العباس ابن عبد المطلب مبلغا كبيرا من المال أنفقه على الحجيج، ولما عجز عن إيفاء القرض تنازل عن السقاية والرفادة إلى أخيه العباس مقابل ذلك.

نتبيّن مما تقدّم بأن عشيرة النبي محمد صلّى الله عليه وسلّم كانت تتبوأ مكانة متميّزة في مكة عند ظهور الإسلام، رغم أنهم لم يكونوا من أهل الثراء الواسع، ولعلهم كانوا وسطا في ذلك، ودون أوساط تجار مكة الآخرين. في حين كان الثراء قبيل الإسلام في بني عبد شمس وبني نوفل وبني مخزوم، وقد نازعتهم العشائر القرشية الأخرى السيادة على مكة، وكان هذا النزاع قد بدأ بين أبناء قصي وأدى إلى انقسامهم إلى محورين هما: «المطيّبون» : وهم بنو عبد مناف ومن حالفهم من بني أسد بن عبد العزى وبني زهرة وبني تيم وبني الحارث بن فهر. أما المحور الثاني فهم «الأحلاف» وهو تجمّع يضم بني عبد الدار ومن حالفهم من بني سهم وجمح ومخزوم وعدي. وحصلت منافرات ومنازعات بين زعماء الأسر الكبيرة أحيانا، مثال ذلك ما حصل بين أميّة بن عبد شمس وعمه عبد المطلب بن هاشم.

لقد بيّن الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم أن العرب المشركين في جاهليتهم كانوا يعبدون آلهة مزعومة لتقربهم من الله وتشفع لهم عنده، قال تعالى: وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللهِ «٢» .
ولقد اتصلت فيهم هذه الوثنية مع شعائرها وعاداتها واعتقاداتها فترة طويلة، وهم يتشفعون بالأصنام والأوثان: أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرى «٣» .
ولقد ترسخت لديهم الوثنية بمرور الزمان لما كانوا عليه من إجلال أسلافهم وتعظيمهم: إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ «٤» .
وهكذا فقد أعماهم التقليد عن نقد تراثهم العقدي وتحكيم العقل، واستتبع الانحراف في العقيدة انحرافا في العبادة والسلوك والشعائر والشرائع. وهكذا جرى تحريف الحنيفية الإبراهيمية، فدخلت الوثنية مناسك الحج، ووضعوا الأصنام حول الكعبة، وجرى الطواف بها مع التعري من الثياب أحيانا «الحمس» . وأصبحت قريش في

---

(١) القرآن الكريم، سورة الفيل، الآية/ ١.
(٢) القرآن الكريم، سورة يونس، الآية/ ١٨.
(٣) القرآن الكريم- سورة الأنعام، الآية/ ١٩.
(٤) القرآن الكريم- سورة الزخرف، الآية/ ٢٣.
ج ١(ص: ١٩٠)

آخر المطاف لا تخرج إلى صعيد عرفات لتقف مع الناس للحج، بل تقف في مزدلفة، متميّزة عن غيرها من بقية القبائل «وكانوا لا يسلئون ولا يأقطون ولا يرتبطون عنزا ولا بقرة، ولا يغزلون صوفا ولا وبرا، ولا يدخلون بيتا من الشّعر والمدر، وإنما يكتنّون بالقباب الحمر في الأشهر الحرم، ثم فرضوا على العرب قاطبة أن يطرحوا أزواد الحل إذا دخلوا الحرم، وأن يتركوا ثياب الحل ويستبدلوها بثيات الحرم إما شراء وإما عارية وإما هبة، فإن وجدوا ذلك فبها، وإلّا طافوا بالبيت عرايا، وفرضوا على نساء العرب مثل ذلك. وهكذا فقد شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله مع أنهم كانوا يزعمون بأنهم إنما يسيرون وفق شريعة إبراهيم عليه السلام.
أما تصوراتهم عن الله سبحانه وتعالى فقد كان يعتورها القصور والنقص فهم ينحرفون عن الطريق القويم في جملة أمور أساسية في العقيدة، فقد اتخذوا أصناما لهم في كل بيت، يعبدونها ويتمسحون بها عند سفرهم وعند قدومهم ولذلك فإنهم عابوا التوحيد وقالوا: أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ «١» .
وروى الشيخان أن عمرو بن عامر الخزاعي كان أول من سيّب السوائب «٢» ، وأورد ابن كثير عددا من الأحاديث الصحيحة التي تدل على أن عمرو بن لحيّ كان أول من غيّر دين إبراهيم عليه السلام، فنصب الأوثان، وبحّر البحيرة، وسيّب السائبة، ووصل الوصيلة وحمى الحامي، فاتّبعته العرب فضلوا ضلالا بعيدا «٣» .
وقد أنكر الله تعالى عليهم ذلك في أكثر من آية فقال عزّ وجلّ: وَلا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هذا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ «٤» .
ذلك أنهم يشركون بالله فلا يوحدونه بل إنهم يلحدون في أسمائه سبحانه وصفاته «٥» ، فيسمونه بأسماء لا توقيف فيها، أو بما يوهم معنى فاسدا، وينكرون بعض صفاته سبحانه، وينسبون إليه النقائص كالحاجة والولد فزعموا أن الملائكة بناته «٦» ، والجن شركاؤه «٧» ، وجحدوا القدر، وقالوا- كما في القرآن الكريم على ألسنتهم-:
لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ «٨» .
وأنكروا القيامة والبعث والنشور والدار الآخرة والحساب والجنة والنار، رغم إقرارهم بالربوبية وقسمهم

(١) القرآن الكريم- سورة ص، الآية/ ٥.
(٢) البخاري- فتح ١٧/ ١٥٦- ١٥٨ (التهذيب ٤٦٢٣- ٤٦٢٤) ، مسلم- الصحيح ٤/ ٢١٩٢ (حديث ٢٨٥٦) .
(٣) ابن كثير- البداية ٢/ ٢٠٦- ٢٠٧، ابن هشام- السيرة ١/ ١٢١.
(٤) القرآن الكريم- سورة النحل، الآية ١١٦، وانظر سور: النحل/ ٥٦، المائدة، الآية/ ١٠٣، الأنعام، الآيات ١٣٦- ١٤٠، وقال ابن عباس- رضي الله عنهما-: «إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام» ، الطبري- تفسير ١٢/ ١٥٥.
(٥) قال تعالى في ذلك: وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ سَيُجْزَوْنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ سورة الأعراف، الآية/ ١٨٠.
(٦) قال تعالى في ذلك: وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَناتِ سُبْحانَهُ وَلَهُمْ ما يَشْتَهُونَ سورة النحل، الآية/ ٥٧.
(٧) قال تعالى في ذلك: وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ الْجِنَّ ... سورة الأنعام، الآية/ ١٠٠.
(٨) القرآن الكريم- سورة الأنعام، الآية/ ١٤٨.

بالله: وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ «١» .
وأما عبادتهم الناقصة لله تعالى، وحجهم إلى بيته العتيق، وتوسيطهم الأصنام والأوثان لتقربهم إلى الله زلفى وتقديم القرابين، ونذرهم النذور، فإنه لا يعكس إلّا الرغبة في الحياة السعيدة الرغيدة في الدنيا والحصول على الأموال والثراء، وتحقيق آمال دنيوية أخرى مثل جلب المنفعة، ودفع الشر والإضرار، فهم يعبدون الأصنام لتقربهم من الله تعالى الذي يطمعون منه أن يمنحهم ما يأملون في هذه الحياة التي تنتهي عادة بالهلاك الأبدي الدائم عندهم، الذي ينسبونه إلى الدهر: وَقالُوا ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ «٢» .
ويفضح القرآن الكريم إنكارهم للآخرة في مواضع كثيرة من الكتاب العزيز «٣» : وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ «٤» .
وفي قوله تعالى: وَقالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ «٥» .
وقد زادوا في شعائر الحج التي جاء بها إبراهيم- عليه السلام-، ونقصوا فيها، وحرّفوها عن مقاصدها فقد كانت قريش كما أسلفنا لا تقف مع الناس في عرفات ولا تفيض معهم منها، وذلك ما وضحه حديث أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- «٦» عنهم، وفي أسباب نزول قوله تعالى: ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ «٧» .
وكانوا يحرّمون العمرة في أشهر الحج ويرون أن ذلك من أفجر الفجور في الأرض. ولم يبق من دين إبراهيم- عليه السلام- إلّا القليل، مثل تعظيم البيت العتيق والطواف به والحج والعمرة، مع ما فيهما من تحريف، والوقوف في عرفات والمزدلفة وإهداء البدن، مع أنهم أدخلوا في هذا ما ليس منه فقد كانت قريش وكنانة إذا أهلوا بالحج أو بالعمرة قالوا: «لبيك اللهم لبيك لا شريك لك، إلّا شريكا هو لك تملكه وما ملك» «٨» . فهم يوحدونه بالتلبية، في الوقت الذي يدخلون معه أصنامهم ويجعلون ملكها بيده.
ومما زادوه في عباداتهم المكاء والتصدية في المسجد الحرام وهو التصفيق والصفير. قال تعالى: وَما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكاءً وَتَصْدِيَةً «٩» ، إضافة إلى ذبحهم على النصب تعظيما للأصنام.
ويستسقون بالأنواء، ويقسمون باللّات والعزى.
أما أخلاقهم وأعرافهم وعاداتهم، فكثير منها هدمه الإسلام، ومن ذلك ممارسة الكثير من الرذائل من

(١) القرآن الكريم- سورة النحل، الآية/ ٣٨.
(٢) القرآن الكريم- سورة الجاثية، الآية/ ٢٤.

(٣) سورة الحج، الآية/ ٥، سورة هود، الآية/ ٧، سورة الإسراء، الآية/ ٤٩، ٩٨، سورة المؤمنون، الآية/ ٣٧، ٨٢، سورة الصافات، الآية/ ١٦، سورة الواقعة، الآية/ ٤٧، سورة المطففين، الآية/ ٤، سورة الأنعام، الآية/ ٢٩.
(٤) القرآن الكريم- سورة هود، الآية/ ٧.
(٥) القرآن الكريم- سورة الأنعام، الآية/ ٢٩.
(٦) مسلم- الصحيح ٢/ ٨٩٣ (الحديث ١٢١٩) .
(٧) القرآن الكريم- سورة البقرة، الآية/ ١٩٩.
(٨) ابن هشام- السيرة ١/ ١٢٢، البزار- كشف الأستار ٢/ ١٥، الهيثمي- مجمع الزوائد ٣/ ٢٢٣، ورجاله رجال الصحيح. وفي صحيح مسلم من حيث جاء الطويل.
(٩) القرآن الكريم- سورة الأنفال، الآية/ ٣٥.

شرب للخمور، ولعب الميسر، والزواج بغير عدد، وقتل بعضهم للأولاد بسبب الفقر، ووأد البنات خوف العار والفقر، وإثارتهم الحروب لأتفه الأسباب وأخذ الثأر، وقد حكى عنهم الله تعالى كل تلك الرذائل في القرآن الكريم وعابهم عليها ومن ذلك قوله تعالى: وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ* بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ «١» .
وقوله تعالى: وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ «٢» .
وقوله تعالى: وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ* يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ «٣» .
وقوله تعالى: وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ «٤» .
وقوله تعالى: إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ «٥» .
سادت في بعض الأوساط أنواع من الأنكحة، التي لا تختلف عن الدعارة، فقد أورد البخاري وأبو داود بسندهما رواية عن أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- ذكرت فيها أنواع الأنكحة الفاسدة في الجاهلية «٦» . حيث إنها ذكرت تفصيلات عن «نكاح الاستبضاع» ، و «نكاح الرهط» ، و «نكاح ذوات الرايات» ، ويظهر أنهم لم يكونوا يشعرون بالعار من هذه الممارسات «٧» . كما أنهم يجمعون بين الأختين، ويتزوجون بزوجات آبائهم إذا ما طلقن أو ماتوا عنهن.
ومن خصال الجاهلية تعييرهم بعضهم لبعض بفعل الأمهات والآباء، وافتخارهم بولاية المسجد الحرام «٨» ، وازدراؤهم الفقراء والضعفاء «٩» ، وقد شاعت فيهم العيافة والطّرق والطيرة والكهانة «١٠» ، وكانوا يتعوذون بالجن خوفا منهم «١١» .

---

(١) القرآن الكريم- سورة التكوير، الآيات/ ٨- ٩.
(٢) القرآن الكريم- سورة الزخرف، الآية/ ١٧.
(٣) القرآن الكريم- سورة النحل، الآيات/ ٥٨- ٥٩.
(٤) القرآن الكريم- سورة الاسراء، الآية/ ٣١.
(٥) القرآن الكريم- سورة المائدة، الآية/ ٩٠.
(٦) البخاري- الفتح ١٩/ ٢٢٠- ٢٢٢ (حديث ٥١٢٧) ، أبو داود- السنن ٢/ ٧٠٢- ٧٠٣.
(٧) البخاري- الفتح ٩/ ١٣٨ (حديث ٢٠٥٣) ، مسلم- الصحيح ٢/ ١٠٨٠ (حديث ١٧٥٧) .
(٨) قال تعالى في ذلك: مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سامِراً تَهْجُرُونَ سورة المؤمنون، الآية/ ٦٧.
(٩) قال تعالى في ذلك: لَوْلا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ، القرآن الكريم- سورة الزخرف، الآية/ ٣١.
(١٠) العمري- السيرة النبوية الصحيحة ١/ ٨٦. والطّرق: الضرب بالحصا الذي يفعله النساء، وقيل هو الخط في الرمل.

(١١) قال تعالى في ذلك: وَأَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً سورة الجن، الآية/ ٦، البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ١٥٦) ، مسلم- الصحيح ٢/ ٦٤٤، حديث رقم ٩٣٤.

جـ ١(ص: ١٩٣)

نسبه صلّى الله عليه وسلّم

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان «١» .

وأمه آمنة بنت وهب من بني زهرة ويلتقي نسب أمه بنسب أبيه في كلاب بن مرّة «٢» .

قال تعالى: اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ «٣» .

وأورد البخاري الحديث الصحيح، الذي قال فيه صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم» «٤» . وقال صلّى الله عليه وسلّم أيضا في حديث آخر:

«بعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرنا حتّى كنت من القرن الّذي كنت فيه» «٥» .

صفته صلّى الله عليه وسلّم

كان صلّى الله عليه وسلّم متوسط القامة ليس بالنحيف ولا الجسيم، عريض الصدر، ضخم اليدين والقدمين، مبسوط الكفين ليّنهما، قليل لحم العقبين، يحمل في أعلى كتفه اليسرى خاتم النبّوة وهو شعر مجتمع كالزّرّ. وهو أحسن الناس وجها أبيض اللون بياضا مزهرا، مستدير الوجه مليحه، واسع الفم، طويل شقّ العينين، رجل الشعر، ولم يشب من شعره الأسود إلّا اليسير. وإضافة إلى حسن خلقته وسلامة حواسّه وأعضائه فقد اعتنى بمظهره من النظافة وحسن الهيئة والتطيب بالطيب «٦» .

أما صفاته الخلقية فقد وصفه الله سبحانه وتعالى بقوله: وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ «٧» .

وأكدت أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- على أنه: «كان خلقه القرآن» «٨» .

إن دراسة سيرته صلّى الله عليه وسلّم تعكس صور التواضع المقترن بالمهابة، والحياء المقترن بالشجاعة، والكرم الصادق البعيد عن حب الظهور، والأمانة المشهورة بين الناس، والصدق في القول والعمل، والزهد في الدنيا عند إقبالها، وعدم التطلع إليها عند إدبارها، والإخلاص لله في كل ما يصدر عنه، مع فصاحة اللسان وثبات الجنان، وقوة العقل وحسن الفهم، والرحمة للكبير والصغير ولين الجانب، ورقة المشاعر وحب الصفح والعفو عن المسيء، والبعد عن الغلظة والجفاء والقسوة، والصبر في مواطن الشدّة، والجرأة في قول الحق.

---

(١) البخاري- الصحيح ٤/ ٢٣٨، كتاب الفضائل ١٥/ ٣٦، خليفة بن خياط- الطبقات ص ٣، ابن القيم- زاد المعاد ١/ ٧١.

(٢) البخاري- فتح ١٤/ ٢٢٣٠ (كتاب المناقب) .

(٣) القرآن الكريم- سورة الأنعام، الآية/ ١٢٤.

(٤) البخاري- الصحيح ١٥/ ٢٦.

(٥) المرجع السابق ٦/ ٥٦٦، (فتح الباري ٦/ ٥٧٤) ، وانظر كذلك: البيهقي- دلائل النبوة ١/ ١٧٤- ١٧٥.

(٦) البيهقي- دلائل ١/ ١٧٥.

(٧) القرآن الكريم- سورة القلم، الآية/ ٤ .
(٨) مسلم- الصحيح ١/ ٧٤٦.

أسماؤه صلّى الله عليه وسلّم

للنبي محمد صلّى الله عليه وسلّم أسماء كثيرة استخرجها العلماء وشرحوا معانيها وما تدل عليه «١» . وقد ثبت في الصحيحين من حديث جبير بن مطعم عن أبيه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لي خمسة أسماء: أنا محمّد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الّذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الّذي يحشر النّاس على قدمي، وأنا العاقب» «٢» . وقال أيضا: «أنا محمّد وأحمد والمقفّى والحاشر ونبيّ التّوبة، ونبيّ الرّحمة» «٣» .

وأسماؤه صلّى الله عليه وسلّم نوعان: أحدهما خاصّ به لا يشاركه فيه غيره من الرسل مثل الأسماء الخمسة التي وردت في الحديث الصحيح الآنف الذكر كمحمد وأحمد ... ، والنوع الثاني ما يشاركه في معناه غيره من الرسل ولكن له منه كما لهم، كرسول الله، والشاهد، والنذير، ونبي الرحمة.

ومن أشهر أسمائه صلّى الله عليه وسلّم محمد. وهو في الأصل اسم مفعول من الحمد. وهو يتضمن الثناء على المحمود ومحبته وإجلاله وتعظيمه. هذا هو حقيقة الحمد وبني على وزن «مفعّل» مثل معظم، ومحبب، ومسوّد، ومبجّل، ونظائرها، لأن هذا البناء موضوع للتكثير، فإن اشتق منه اسم فاعل فمعناه من كثر صدور الفعل منه مرة بعد مرة، كمعلم، ومفهم، ومبيّن، ومخلّص، ومفرّج ونحوها. وإن اشتق منه اسم مفعول فمعناه من كثر تكرر وقوع الفعل عليه مرة بعد أخرى، إما استحقاقا أو وقوعا. فمحمد هو الذي كثر حمد الحامدين له مرة بعد أخرى، أو الذي يستحق أن يحمد مرة بعد أخرى. ويقال: حمّد فهو محمد كما يقال: علّم فهو معلّم. وهذا «علم» وصفة، اجتمع الأمران في حقه صلّى الله عليه وسلّم، وإن كان علما مختصّا في حق كثير ممن تسمى به غيره» «٤» .

زواج عبد الله بن عبد المطلب من آمنة بنت وهب:

الثابت تاريخيّا أن عبد الله بن عبد المطلب قد تزوج من آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، ولم ترد تفاصيل الزواج من طرق صحيحة، ولكن موضوع الزواج وعلاقات النسب من الموضوعات المستفيضة التي لا تحتاج إلى سند موثق «٥» .

ولم ير الرسول صلّى الله عليه وسلّم أباه، فقد مات في المدينة عند أخواله بني عدي بن النجار، وقد ذكر الزهري أنه: «بعث عبد المطلب (ولده) عبد الله بن عبد المطلب يمتار له تمرا من يثرب فتوفي عبد الله بها، وولدت آمنة رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم)

(١) انظر تفاصيل ذلك على سبيل المثال في: ابن القيم- زاد المعاد ١/ ٨٦- ٩٧، وما قاله الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٦/ ٦٤١- ٦٤٤، والنووي في شرحه صحيح مسلم ١٥/ ١٠٤- ١٠٦.
(٢) البخاري- فتح الباري ٦/ ٦٤١ (حديث ٣٥٣٢) ، صحيح مسلم بشرح النووي ١٥/ ١٠٤- ١٠٥، السيوطي- الرياض الأنيقة في شرح أسماء سيد الخليقة، البيهقي دلائل النبوة ١/ ١٥٥- ١٥٦.
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ١٥/ ١٠٥.
(٤) ابن القيم- جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام/ ٨٣- ٨٤.
(٥) ابن سعد- الطبقات ١/ ٨٦، ٩٤- ٩٥، الطبراني- المعجم الكبير ٣/ ١٤٩، الحاكم- المستدرك ٢/ ٦٠١، أبو نعيم- الدلائل ١/ ١٦١.

فكان في حجر عبد المطلب «١» . وقد أشار القرآن الكريم إلى يتمه (صلّى الله عليه وسلّم) فقال تعالى:
أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى «٢» .
وقد صحت الرواية واشتهرت بأنه قد ولد يتيم الأب «٣» .

مولده صلّى الله عليه وسلّم

تفيد أوثق الروايات التي ذكرت مولده صلّى الله عليه وسلّم أنه ولد في الثاني عشر من شهر ربيع الأول من عام الفيل. وقد صح أنّ ذلك التاريخ كان يوم الاثنين «٤» .
إن القرائن التاريخية التي تتصل بالروايات التي تفيد أن مولده صلّى الله عليه وسلّم عام الفيل قوية، وقد ذهب ابن القيم إلى القول بأنه: «لا خلاف أنه ولد صلّى الله عليه وسلّم بجوف مكة، وأن مولده كان عام الفيل، وكان أمر الفيل تقدمة قدّمها الله لنبيّه وبيته، وإلا فأصحاب الفيل كانوا نصارى أهل كتاب، وكان دينهم خيرا من دين أهل مكة إذ ذاك، لأنهم كانوا عبّاد أوثان، فنصرهم الله على أهل الكتاب نصرا لا صنع للبشر فيه، إرهاصا وتقدمة للنبي صلّى الله عليه وسلّم الذي خرج من مكة، وتعظيما للبيت الحرام» «٥» .
وقد صح أن ثويبة مولاة أبي لهب أرضعته، كما ثبت أن عمه حمزة بن عبد المطلب كان أخاه من الرضاعة «٦» ، كما صح أن حليمة السعدية أرضعته، وعاش معها في البادية «٧» .
وقد حدثت معجزة شق صدره صلّى الله عليه وسلّم وغسل قلبه ولأمه مرتين، الأولى عند ما كان طفلا في الرابعة من عمره «٨» . وقد روى الإمام مسلم في صحيحه خبر معجزة الشق الأول هذا عن أنس بن مالك: «إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أتاه جبريل صلّى الله عليه وسلّم وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشقّ عن قلبه فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: «هذا حظّ الشّيطان منك» ، ثمّ غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثمّ أعاده إلى مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمّه- يعني ظئره- فقالوا إنّ محمّدا قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللّون» . قال أنس: وقد

---

(١) الصنعاني- مصنف ٥/ ٣١٧ بإسناد صحيح إلى الزهري مرسلا، وهذا يتفق مع حديث الصحابي قيس بن مخرمة- رضي الله عنه- عن ولادته صلّى الله عليه وسلّم ورد فيه قوله «وتوفي أبوه وأمه حبلى به» / الحاكم- المستدرك ٢/ ٦٠٥.
(٢) القرآن الكريم- سورة الضحى، الآية/ ٦.
(٣) مسلم- الصحيح ٣/ ١٣٩٢، ابن كثير- السيرة ١/ ٢٦٠.
(٤) مسلم- الصحيح ٨/ ٥٢، أبو داود- السنن ٢/ ٨٠٨- ٩، الإمام أحمد- المسند ٥/ ٢٩٧- ٢٩٩. أما عن تحديد عام الفيل فهي الأقوى بين الروايات: الحاكم- المستدرك ٢/ ٦٠٣، ابن هشام- السيرة ٢/ ١٥٥، وذكر خليفة في تاريخه (ص/ ٥٣) بأن ذلك هو «المجتمع عليه» واختلف في تحديد تاريخ يوم ولادته وأوثق ما لدينا رواية ابن إسحاق- سيرة ابن هشام ١/ ١٧١.
(٥) ابن القيم- زاد المعاد ١/ ٧٦، وانظر القسطلاني- شرح المواهب/ ١٣٠.
(٦) البخاري- الصحيح (فتح ٩/ ١٤٠، ١٤٣) ، صحيح مسلم (بشرح النووي) ١٠/ ٢٣- ٢٤.
(٧) ابن هشام- السيرة ١/ ١٤٩- ١٥٣، ابن حبّان- موارد الظمآن ص/ ٥١٢- ٥١٣، الطبراني- المعجم الكبير ٢٤/ ٢١٢- ٢١٥، أبو نعيم- دلائل النبوّة ١/ ١٩٣- ١٩٦.
(٨) ابن سعد- الطبقات ١/ ١١٢، أبو نعيم- دلائل ١/ ٤٩، أحمد- المسند ٥/ ١٣٩، الذهبي- ميزان ٤/ ٤٤.

كنت أرى أثر المخيط في صدره «١» .

ولا شك في أن التطهير من حظ الشيطان هو إرهاص مبكر للنبوّة، وإعداد للعصمة من الشر وعبادة غير الله. فلا يحل في قلبه شيء إلّا التوحيد، وقد دلت أحداث صباه على تحقق ذلك، فلم يرتكب إثما، ولم يسجد لصنم. أما معجزة شق الصدر الثانية فكانت ليلة الإسراء «٢» .
وتوفيت أمه آمنة بالأبواء بين مكة والمدينة وهو في السادسة من عمره «٣» . وقد ترك يتم النبي صلّى الله عليه وسلّم في نفسه أعمق الأثر فكان قد ولد يتيم الأب، ثم فقد أمه في طفولته، وقد بيّن الزهري أن جده عبد المطلب كفله ورعاه «٤» ، غير أن جده ما لبث أن توفّي، بعد أن أوصى ولده أبا طالب برعايته «٥» . وكان صلّى الله عليه وسلّم قد بلغ الثامنة، ولا شك في أن أثر ذلك كان كبيرا على أحاسيسه، لما كان يحبوه به جده من العطف والرعاية «٦» .
وقد وردت روايات تفيد عطف أبي طالب عليه وتعلقه به، ومما يدل على شدة محبة أبي طالب إياه صحبته له في رحلته إلى الشام «٧» . ولعل ضيق حال عمه أبي طالب قد دفعه صلّى الله عليه وسلّم إلى العمل لمساعدته فرعى له غنمه، كما رعى لأهل مكة على قراريط «٨» .
حياة العمل والكدح:
عمد محمد صلّى الله عليه وسلّم منذ أن أضحى يعيش في كنف عمه أبي طالب إلى مساعدته، ولا سيّما أن أبا طالب كان في أشد الحاجة للمساعدة لفقره وكثرة عياله، فاشتغل برعي الأغنام في شعاب مكة وفجاجها. وقد ثبت في الحديث الصحيح قيامه بهذا العمل، حيث روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال:
«ما بعث الله نبيّا إلّا رعى الغنم» . فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكّة» «٩» .
وفي رعي الغنم ما فيه من تهيئة الله سبحانه وتعالى لنبيه لتلقي الرسالة والقيام بأمر الدعوة. ويورد الحافظ ابن حجر في شرحه للحديث خلاصة أقوال العلماء في ذلك فيقول: «الحكمة في إلهام الأنبياء من رعي الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يكفلونه من القيام بأمر أمتهم، ولأن في مخالطتها ما يحصّل لهم الحلم والشفقة لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها في المرعى، ونقلها من مسرح إلى مسرح، ودفع عدوها من سبع وغيره، كالسارق، وعلموا اختلاف طباعها وشدة تفرقها، مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة، ألفوا من ذلك الصبر على

---

(١) مسلم- الصحيح (كتاب الإيمان- باب الإسراء/ ٧٤، شرح النووي على مسلم ٢/ ٢١٦، ابن هشام- السيرة ١/ ١٦٦.
(٢) البخاري- الصحيح- كتاب الصلاة- (الفتح ١/ ٤٥٨، ٣/ ٤٩٢، ٦/ ٣٧٤) ، مسلم- الصحيح ١/ ١٤٨.
(٣) ابن سعد- الطبقات ١/ ١١٦- ١١٧، ابن هشام- السيرة ١/ ١٥٥، أبو نعيم- دلائل النبوة ١/ ١١٨.
(٤) الصنعاني- المصنّف ٥/ ٣١٨.
(٥) ابن سعد- الطبقات ١/ ١١٧- ١١٩.
(٦) البيهقي- دلائل النبوة ٢/ ٢١- ٢٢، ابن سعد ١/ ١١٢- ١١٣، الحاكم- المستدرك ٢/ ٦٠٣- ٦٠٤، الذهبي- تقريب ص ٢٩٣.
(٧) ابن سيد الناس- عيون الأثر ص/ ٤٠، وانظر: الترمذي- جامع ٥/ ٥٩٠، الحاكم- المستدرك ٢/ ٦١٥، الطبري- تاريخ ٢/ ٢٧٧.
(٨) البخاري- الصحيح (فتح ٤/ ٤٤١، ٦/ ٤٣٨) ، مسلم- الصحيح (شرح النووي ١٤/ ٦٠٥) .
(٩) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٤/ ٥١٦ حديث رقم ٢٢٦٢) ، وانظر صحيح مسلم (بشرح النووي) ١/ ٥- ٦.

الأمة، وعرفوا اختلاف طباعها، وتفاوت عقولها، فجبروا كسرها، ورفقوا بضعيفها، وأحسنوا التعاهد لها، فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك من أول وهلة لما يحصل لهم من التدريج على ذلك برعي الغنم، وخصت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها، ولأن تفرقها أكثر من تفرق الإبل والبقر لإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها في العادة المألوفة، ومع أكثرية تفرقها فهي أسرع انقيادا من غيرها» «١» .

حلف الفضول:

وشهد محمد صلّى الله عليه وسلّم في شبابه حين بلغ العشرين من عمره حلف الفضول الذي تداعى زعماء قريش لعقده وتواثقوا بينهم ألّا يجدوا بمكة مظلوما إلّا نصروه، ولا صاحب حق مسلوب إلّا أعادوا إليه حقه، وسبب عقد هذا الحلف أن رجلا من زبيد باع سلعة للعاص بن وائل السهمي فمطله في الثمن، فشكا الزبيدي إلى قبائل قريش والأحلاف فلم يلتفتوا إليه، فوقف عند الكعبة وأنشد بأعلى صوته قائلا:

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ... ببطن مكّة نائي الدّار والنّفر

ومحرم أشعث لمّا يقض عمرته ... يا للرّجال، وبين الحجر والحجر

إنّ الحرام لمن تمّت كرامته ... ولا حرام بثوب الفاجر الغدر

فأثار هذا الشعر نخوة الزبير بن عبد المطلب (عم الرسول صلّى الله عليه وسلّم) ، فنادى زعماء قريش فاجتمع بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسد بن عبد العزى وبنو زهرة بن كلاب وبنو تيم، في دار عبد الله بن جدعان، وتم عقد هذا الحلف الذي حضره محمد صلّى الله عليه وسلّم قبل بعثته «٢» . وقد أشاد به بعد نبوته فقال صلّى الله عليه وسلّم: «لقد شهدت مع عمومتي حلفا في دار عبد الله بن جدعان ما أحبّ أنّ لي به حمر النّعم» «٣» .

شهوده صلّى الله عليه وسلّم حلف المطيّبين:

لم يثبت أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قد شهد حرب الفجار التي حصلت بين قريش وكنانة من جهة، وقيس عيلان من جهة أخرى وهي من الحروب التي حصلت في إطار الأحلاف والأعراف الجاهلية «٤» .

أما حلف المطيبين فقد ثبت أنه صلّى الله عليه وسلّم قد أخبر عن شهوده وأثنى عليه بقوله صلّى الله عليه وسلّم: «شهدت حلف المطيّبين مع عمومتي وأنا غلام فما أحبّ أنّ لي به حمر النّعم وأنّي أنكثه» «٥» . وقد عقد الحلف في دار عبد الله بن جدعان

---

(١) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٤/ ٥١٦) .

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ١/ ٨٢، ابن الجوزي: المنتظم ٢/ ٣٠٨- ٣١٢، المسعودي- مروج الذهب ٢/ ٢٧٦- ٢٧٧، الغزالي فقه السيرة ص/ ٧٢- ٧٣.

(٣) البيهقي- دلائل النبوة ٢/ ٣٨، انظر: محمد الغزالي- فقه السيرة ص/ ٧٢ حاشية رقم (٢) . وسبب تسميته بحلف الفضول أنه كان أحياء لحلف سابق في الجاهلية دعا إليه ثلاثة اسمهم مشتق من الفضل هم: الفضيل بن الحرث الجرهمي، والفضيل بن وداعة القطوري والفضل بن فضاله الجرهمي، ابن الأثير: الكامل ح ١ ص ٥٧.

(٤) وردت في ذلك رواية أوردها ابن إسحاق والواقدي دون إسناد. ولم يرد في المصادر الصحيحة ما يثبت ذلك.

(٥) أحمد- المسند ١/ ١٩٠- ١٩٣، وقال الشيخ شاكر: إسناده صحيح (حديث ١٦٥٥) ، البخاري- الأدب المفرد رقم/ ٥٦٧، الحاكم- المستدرك ٢/ ٢١٩- ٢٢٠، الطبراني- المعجم ١١/ ٢٩٣.

جـ ١(ص: ١٩٨)

أيضا بمكة المكرمة، بين بني هاشم وبني أمية وبني زهرة وبني مخزوم «١» . وهو تحالف على التناصر والأخذ للمظلوم من الظالم، ورد الفضول على أهلها، وإنما سمي بحلف المطيبين لأنهم

أحضروا جفنة فيها طيب فوضعوا أيديهم فيها وتحالفوا، فلما قاموا مسحوا أيديهم بأركان البيت وقد كانت القبائل التي عقدته هي نفس القبائل التي عقدت حلف المطيبين القديم بعد وفاة قصي بن كلاب وتنازع بني عبد مناف وبني عبد الدار على الرفادة والسقاية بمكة «٢» . ولا شك في أن العدل قيمة مطلقة وليست نسبية. وأن الرسول صلّى الله عليه وسلّم يظهر اعتزازه بالمشاركة في تعزيز مبدأ العدل قبل بعثته بعقدين من الزمان. فالقيم الإيجابية تستحق الإشادة حتى لو صدرت من أهل الجاهلية.

زواجه صلّى الله عليه وسلّم بخديجة بنت خويلد رضي الله عنها

ولما سرت أخلاق محمد صلّى الله عليه وسلّم في أرجاء مكة، وعرف القاصي والداني أمانته وصدقه وحسن خلقه رغبت خديجة بنت خويلد في أن يدير لها تجارتها. وكانت خديجة امرأة ذات شرف ومال من خيرة نساء قريش نسبا وأعظمهن شرفا وحسبا، فاختارت محمدا صلّى الله عليه وسلّم ليتاجر لها في أموالها. وقد سافر بتجارتها مرتين إلى بلاد الشام وإلى سوق حباشة بتهامة جنوب مكة، فربحت تجارتها ربحا وفيرا بفضل إدارته صلّى الله عليه وسلّم وكان غلامها ميسرة قد صحبه في تلك الرحلات فلما عاد حدثها بما شاهده من أخلاقه وصدقه وأمانته، الأمر الذي رغبها في الزواج منه، فأرسلت إليه من أفصح له عن رغبتها، فأبدى رغبته في الزواج منها وعرض الأمر على أعمامه فخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب ودخلا على خويلد بن أسد فخطبها إليه وتزوجها «٣» .

قريش وبناء البيت العتيق:

ذكر بعض المؤرخين أن البيت العتيق انهدم مرتين بعد بناء إبراهيم- عليه السلام- بفعل السيول فبنته العمالقة في المرة الأولى، وجرهم في المرة الثانية «٤» . أما الماوردي فيذكر أن «أول من جدد بناء الكعبة من قريش بعد إبراهيم- عليه السلام- قصي بن كلاب وهو جد من أجداد الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وسقفها بخشب الروم وجريد النخل» «٥» . على أن المهم هنا هو بناء قريش للكعبة وهو البناء الثابت بنص الصحيحين حيث شارك فيه النبي صلّى الله عليه وسلّم قبيل بعثته.

ويعود سبب بناء قريش للكعبة إلى جملة عوامل منها: أنها كانت نحو القامة في الارتفاع أو فوقها بقليل، ولم يكن لها سقف، وكانت ذات ركنين كهيئة الحلقة. وكانت الكسوة تدلّى على جدر الكعبة من الخارج وتشد من أعلى الجدر في بطنها، وكانت البئر التي جعلها إبراهيم- عليه السلام- خزانة داخل الكعبة ليوضع فيها ما يهدى إليها من أموال وحلي، وقد امتدت أيدي اللصوص إلى خزانة الكعبة عدة مرات عبر القرون فسرقوا ما بها من مال وحلي، إضافة إلى أنّ امرأة من قريش ذهبت تجمّر الكعبة فطارت من مجمرتها شرارة فاشتعلت النار في كسوة الكعبة والتهمتها، وكانت

---

(١) البيهقي- السنن الكبرى ٦/ ٣٦٦، ابن هشام- السيرة ١/ ١٣٣.

(٢) البيهقي- السنن ٦/ ٣٦٧، ابن قتيبة- المعارف/ ٦٠٤، وانظر هامش (١٦٥٥) في المسند بتحقيق الشيخ شاكر ح ٣ ص ١٢١.

(٣) ابن هشام- السيرة ١/ ١١٤- ١١٥، الحاكم- المستدرك ٣/ ١٨٢، ابن سعد- الطبقات الكبرى ١/ ١٥٥- ١٥٧.

(٤) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ١٨٠، الأزرقي: أخبار مكة ١/ ٦٢، محمد صالح الشيبي- إعلام الأنام بتاريخ بيت الله الحرام، ص/ ١٢٥.

(٥) الماوردي- الأحكام السلطانية ص/ ١٨٠، وانظر أيضا حسين باسلامة: تاريخ الكعبة المعظمة ص/ ٤٧- ٤٩.

الكسوة توضع فوق بعضها البعض، فلما احترقت وهنت جدران الكعبة من كل جانب وتصدعت، ومما زاد الطين بلة أنه أعقب ذلك الحريق سيل جارف غمر الكعبة حتى دخل في جوفها، فجزعت قريش لذلك جزعا شديدا، وخافوا أن تنهدم، وخشوا إن قاموا بهدمها وبنائها أن ينزل عليهم العذاب، وأخذوا ينظرون ويتشاورون في أمر البيت العتيق «١» .

خطة البناء والتنفيذ:

واستقر رأيهم أخيرا على إعادة بناء الكعبة، وسمعوا أن سفينة رومية تحطمت قرب الشعيبة، ميناء مكة القديم، فركب الوليد بن المغيرة ومعه نفر من زعماء قريش واشتروا خشبها لاستخدامه في سقف الكعبة، واستعانوا بنجار رومي يسمى باقوم «وتعاونوا وترافدوا في النفقة، واختلفوا في بنيان مقدّم البيت، فقال أبو أمية بن المغيرة:

يا معشر قريش لا تنافسوا ولا تباغضوا فيطمع فيكم غيركم، ولكن جزّئوا البيت أربعة أجزاء، ثم ربّعوا القبائل فلتكن أرباعا، ثم اقترعوا عند هبل في بطن الكعبة على جوانبها، فطار قدح بني عبد مناف وبني زهرة على الوجه الذي فيه الباب وهو الشرقي، وقدح بني عبد الدار، وبني أسد بن عبد العزى، وبني عديّ على الشق الذي يلي الحجر وهو الشق الشامي. وطار قدح بني سهم، وبني جمح، وبني عامر بن لؤي على ظهر الكعبة وهو الشق الغربي. وطار قدح بني تيم وبني مخزوم وقبائل من قريش ضمّوا معهم على الشق اليماني الذي يلي الصفا وأجياد.

وأمروا بالحجارة أن تجمع بين أجياد والضواحي، فكانت قريش تنقل بأنفسها الحجارة تبرّرا وتبركا بالكعبة» «٢» وقد شارك محمد صلّى الله عليه وسلّم قومه في نقل الحجارة، وكان عمره حينذاك خمسا وثلاثين سنة «٣» .

ولما أجمعت قريش على هدم الكعبة، أخرجوا ما كان بها من مال وحلية، وجعلوه عند أبي طلحة عبد الله بن عبد العزى بن عبد الدار بن قصي، وأخرجوا كبير الأصنام هبل، ونصبوه عند المقام. ولما أرادوا الشروع في الهدم ظهرت لهم حية كانت داخل الكعبة وكشّت «٤» وفتحت فاها، فهابوها، فقال لهم الوليد بن المغيرة: «يا قوم ألستم تريدون بهدمها الإصلاح؟ قالوا: بلى. قال: فإن الله لا يهلك المصلحين، ولكن لا تدخلوا في عمارة بيت ربكم إلّا من طيّب أموالكم، ولا تدخلوا فيه مالا من ربا، ولا من مال ميسر، ولا مهر بغيّ، ولا مظلمة أحد من الناس، وجنبوه الخبيث من أموالكم، فإن الله لا يقبل إلّا طيبا» ، ففعلوا، ثم وقفوا عند المقام ودعوا الله أن يذهب عنهم تلك الحية، فأقبل طائر كبير فاختطفها وألقى بها في أجياد، فاعتبروا ذلك دليلا على رضا الله عن عملهم «٥» .

تقدم الوليد بن المغيرة بمعول في يده وبدأ في الهدم بمفرده دون أن يشاركه أحد من قريش خوفا من أن ينزل به العذاب إذا أمسى، ولما أصبح سليما اشتركوا معه في هدم البيت حتى بلغوا حجارة خضرا لا يطيق تحريك الحجر

---

(١) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٣/ ٥١٦، ٧/ ١٨٠، ابن هشام: السيرة ١/ ١١٧، ابن فهد- إتحاف الورى ١/ ١٤٤- ١٤٥.

(٢) ابن فهد: إتحاف الورى ١/ ١٤٦- ١٤٧، انظر أيضا: الأزرقي- أخبار مكة ١/ ١٦٠- ١٦١، المسعودي- مروج الذهب ٢/ ٢٨٠.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ١١٧، ابن كثير: البداية والنهاية ٢/ ٢٩٨، ابن الجوزي- المنتظم ٢/ ٣٢٨.

(٤) كشّت أي ضربت باحتكاك جلد بعضها ببعض.

(٥) الأزرقي- أخبار مكة ١/ ١٦١- ١٦٢، ابن فهد- إتحاف الورى ١/ ١٤٩- ١٥٠، باسلامة- تاريخ الكعبة المعظمة ص/ ٦١- ٦٢، والسيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢٢.

الواحد منها عدة رجال، فاتخذوا من ذلك أساسا للبناء. ولما جمعوا ما أخرجوه من النفقة وجدوها أقل من أن تبلغ بهم عمارة البيت كله، فتشاوروا في ذلك، واستقر رأيهم على أن يقصروا عن القواعد ويحجّروا ما يقدرون عليه من بناء «١» البيت، ويتركوا بقيته في الحجر عليه جدار مدار يطوف الناس من ورائه، ففعلوا ذلك وبنوا في بطن الكعبة أساسا يبنون عليه من جهة الحجر، وتركوا من ورائه من فناء البيت في الحجر ستة أذرع وشبرا، ثم شرعوا في بنائها، ورفعوا بابها عن الأرض حتى لا تدخلها السيول، ولا يرقى إليها إلا بسلّم ولا يدخلها إلّا من أرادوا، وبنوها بمدماك من حجارة ومدماك من خشب بين الحجارة «٢» . وبذلك يتضح أن هذا البنيان للكعبة قد قصر عما كان عليه منذ زمن الخليل- عليه السلام-. وقد أشار النبي صلّى الله عليه وسلّم بعد البعثة إلى هذا الأمر في الأحاديث الصحيحة التي رواها البخاري ومسلم، فقد قالت أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها-: سألت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن الحجر أمن البيت هو؟ قال: «نعم» . قلت: فما لهم لم يدخلوه في البيت؟ قال: «إنّ قومك قصّرت بهم النّفقة» ، قلت: فما شأن بابه مرتفعا؟ قال: «فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا، ولولا أنّ قومك حديثو عهد بالجاهليّة فأخاف أن تنكر قلوبهم أن أدخل الجدر في البيت وأن ألصق بابه بالأرض» «٣» .

الحكم الأمين

عندما انتهت قريش إلى موضع الحجر الأسود اختلفوا في رفعه وأراد كل فريق أن يذهب بشرف وضعه في مكانه، وزعمت كل قبيلة أنها أحق بذلك الشرف حتى كاد ينشب بينهم القتال. وظلوا على تلك الحال بضع ليال، ثم تشاوروا فأشار عليهم أبو أمية حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر، وكان أسنّ قريش، بأن يحكّموا أول من يطلع عليهم من باب بني شيبة، فرضوا بذلك فطلع عليهم محمد صلّى الله عليه وسلّم، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، قد رضينا بما قضى بيننا، فلما أخبروه الخبر أمر بثوب فوضع فيه الحجر الأسود وطلب أن يتقدم من كل ربع من أرباع قريش رجل وأن يأخذ كل رجل بزاوية من زوايا الثوب، ثم رفعوه فأخذه بيده ووضعه مكانه وشده، وبذلك حسم خلافا خطيرا كاد أن يمزق قريشا. ثم واصلوا البناء وزادوا في ارتفاعها تسعة أذرع وجعلوا لها سقفا مسطحا تحمله ست دعائم في صفين في كل صف ثلاث دعائم.

وكان الخشب خمسة عشر مدماكا والحجارة ستة عشر مدماكا وبلغ ارتفاعها من خارج الأرض إلى أعلاها ثمانية عشر ذراعا، وجعلوا ميزابها يسكب في الحجر، وأقاموا داخلها درجة من خشب يصعد بها إلى ظهرها، وزوّقوا سقفها وجدرانها الداخلية، ودعائمها، وصوروا فيها صور الأنبياء، ويبدو أن ذلك كان بتأثير باقوم، ذلك الروميّ البنّاء الذي استعانوا به، فكانت فيها صورة إبراهيم عليه السلام يستقسم بالأزلام، وصور الملائكة، وصور مريم- عليها السلام- وفي حجرها ابنها عيسى- عليه السلام- ، وجعلوا لها بابا يفتح ويغلق، ثم ردوا المال والحلية في الجب وعلقوا فيه قرني الكبش ونصبوا هبل على الجب كما كان قبل ذلك، وكسوها حبرات يمانية وردموا الردم الأعلى وصرفوا السيل عن الكعبة» «٤» .

---

(١) معنى هذه العبارة أنهم اقتصروا في النباء على ما يقدرون عليه ووضعوا الأحجار في هذا الجزء الذي اكتفوا به.

(٢) الأزرقي- أخبار مكة ١/ ١٦٢- ١٦٣، ابن فهد- إتحاف الورى ١/ ١٥٦.

(٣) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٣/ ٥١٣- ٥١٤) حديث (١٥٨٤- ٨٦) ، صحيح مسلم (شرح النووي) ٩/ ٨٨- ٩١.

(٤) الأزرقي- أخبار مكة ١/ ١٦٣- ١٦٥، ابن فهد- إتحاف الورى ١/ ١٥٦- ١٦٠، ابن كثير- البداية والنهاية ٢/ ٣٠٣- ٣٠٤، المسعودي- مروج الذهب ٢/ ٢٧٨- ٢٧٩، الشيبي- إعلام الأنام ص/ ١٣٦- ١٣٨.

جـ ١(ص: ٢٠١)

الصادق الأمين

ولا غرابة أن يشارك محمد صلّى الله عليه وسلّم قومه ذلك العمل الجليل وأن يعرف بينهم بالصادق الأمين فقد نشأ والله سبحانه وتعالى يكلؤه ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية وأنجاسها لما يريده له من كرامته ورسالته، فما إن أصبح رجلا حتى أضحى أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقا، وأكرمهم حسبا، وأحسنهم جوارا، وأعظمهم حلما، وأصدقهم حديثا، وأشهرهم أمانة، وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال، تنزها وتكرما، حتى لقبه قومه بالأمين، لما جمع الله فيه من الخصال الصالحة «١» .

وظهرت أمانة محمد صلّى الله عليه وسلّم أبين الظهور حين اشتغل بالتجارة، فقد روي أنه شارك السائب بن أبي السائب قبل بعثته فلما كان يوم الفتح جاءه السائب فقال له: «مرحبا بأخي وشريكي كان لا يداري ولا يماري» «٢» . وفي رواية أبي داود أن السائب قال للنبي صلّى الله عليه وسلّم: «بأبي أنت وأمّي كنت شريكي. فنعم الشّريك كنت لا تداري ولا تماري» «٣» .

هكذا عاش محمد صلّى الله عليه وسلّم بين قومه قبل بعثته نزيه النفس فما حكيت عنه مغامرة لنيل جاه أو مداهنة لاصطياد ثروة بل على العكس بدأت سيرته تومض في أنحاء مكة بما امتاز به على سائر أقرانه، بل على أشراف قومه من خلال عذبة، وشمائل كريمة، وفكر صائب، ورأي راجح، ومنطق صادق، ونهج أمين، حتى وصلت رجولته إلى القمة، وازدانت تلك الرجولة بمحامد الأدب، والاستقامة والقنوع، وسمو روحه، وصفاء نفسه، فقد صانه الله تعالى من حب العظمة ومن التظاهر والرياء، أو طلب الرياسة عن طريق المداهنة، فإذا أضفنا إلى هذا كرهه الشديد للأصنام التي عكف عليها قومه، وازدراءه للعقائد المحرفة التي تسود عالمه، وإدراكه أن الحق شيء آخر وراء هذه الخرافات والأوهام السائدة.. تبينا السر في استئناسه للجبال والفضاء، واستراحته إلى رعي الغنم في هذه الأنحاء القصية، مكتفيا بالقليل الذي يعود عليه من كسبها «٤» .

إرهاصات البعثة

لقد عصم الله نبيه صلّى الله عليه وسلّم من الكفر وجنّبه عبادة الأوثان التي عبدها قومه، فلم يعبدها، ولم يقدم لها القرابين، ولم يكن يأكل مما يذبح على النصب، وكان يستمسك بإرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في حجهم ومناكحهم وبيوعهم «٥» ، فكان يطوف بالكعبة المشرفة، وقد طاف معه مولاه زيد بن حارثة مرة، فلمس زيد بعض الأصنام

---

(١) ابن هشام- السيرة ١/ ١١٢.

(٢) أحمد- المسند ٣/ ٤٢٥، أبو داود- السنن، حديث رقم (٤٨٣٦) ، ابن ماجه- السنن حديث رقم (٢٢٨٧) ، وقال عنه الحافظ الهيثمي: رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح. انظر: مجمع الزوائد ١/ ٩٤، وصححه الألباني، انظر: صحيح سنن أبي داود ٣/ ٩١٧ (حديث رقم ٤٠٤٩) .

(٣) أبو داود- السنن حديث رقم ٤٨٣٦.

(٤) محمد الغزالي- فقه السيرة ص/ ٧٤- ٧٥.

(٥) البيهقي- دلائل النبوة ٢/ ٣٧.

فنهاه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وقد حلف زيد أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ما مسّ منها صنما حتى أكرمه الله بالوحي «١» وكان التعري عند الطواف مألوفا، ولكن النبي صلّى الله عليه وسلّم عصم من ذلك. وقد اشترك مع عمه العباس في نقل الحجارة لما جددت قريش بناء الكعبة، فاقترح عليه عمه العباس أن يرفع إزاره ويجعله على رقبته ليقيه أثر الحجارة ما دام بعيدا عن الناس، فلما فعل ذلك سقط على الأرض مغشيّا عليه، فلما أفاق طلب أن يشدّوا عليه إزاره «٢» .
وعرف صلّى الله عليه وسلّم بالصدق والأمانة، وصلة الأرحام ومساعدة الضعفاء والبذل في الخير، فكانت قريش تلقبه بالأمين، وصفته خديجة- رضي الله عنها- بقولها: «إنّك لتصل الرّحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكلّ وتكسب المعدوم، وتقري الضّيف، وتعين على نوائب الحقّ» «٣» .
وكان أقرب أصدقاء رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى نفسه ثلاثة هم أبو بكر الصديق، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله- رضي الله عنهم- وثلاثتهم من تجار قريش، وقد اتسموا بالأخلاق العالية، والنظرة السليمة، والبعد عن الرذائل، والتثقف بثقافة حسنة من معرفة الأحساب والأنساب والشعر كما عرفوا بإكرام الضيف والإنفاق في الخير، وهذه الخصال الحميدة قربتهم إلى رسول صلّى الله عليه وسلّم، فكانوا أصدقاء قبل البعثة، وأتباعه الأولين بعدها، فقد هدتهم فطرتهم إلى الإسلام.
بشارات الأنبياء بمحمد صلّى الله عليه وسلّم:
رغم التحريف الحاصل في نسخ التوراة والإنجيل المتداولة حاليّا، فلا زالت نسخة «توراة السامرة» ، «وإنجيل برنابا» الذي حرمت الكنيسة تداوله في أواخر القرن الخامس الميلادي، تحتوي على نصوص صريحة تبشر بظهوره ونبوته صلّى الله عليه وسلّم. وقد نص إنجيل برنابا على التصريح برسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم مثال ذلك، ما ورد في الإصحاح الحادي والأربعين عن إخراج آدم وحواء من الجنة حيث ورد فيه: «فاحتجب الله، وطردهما الملاك ميخائيل من الفردوس، فلما التفت آدم رأى مكتوبا فوق الباب: لا إله إلّا الله محمد رسول الله» «٤» . وقد أيدت المخطوطات التي عثر عليها في منطقة البحر الميت حديثا ما ورد في نصوص إنجيل برنابا المذكورة.
وحين تحدث المسيح- عليه السلام- إلى الحواريين عن الرسول محمد صلّى الله عليه وسلّم وبشرهم أنه قادم إلى العالم سأله الحواريون: «يا معلم: من عسى أن يكون ذلك الرجل الذي سيأتي إلى العالم؟» أجاب يسوع بابتهاج قلب: «إنه محمد رسول الله» «٥» . ومثل هذه البشارات تتكرر في إنجيل برنابا في مواضع كثيرة.
وفي الإصحاح الثاني من إنجيل لوقا «٦» قوله: «الحمد لله في الأعالي وعلى الدنيا السلام، وللناس أحمد» وقد

---

(١) الطبراني- المعجم الكبير ٥/ ٨٨.
(٢) البخاري- الصحيح (فتح الباري ١/ ٤٧٤) ، مسلم- الصحيح (شرح النووي ٤/ ٣٣- ٣٤) .
(٣) البخاري- (فتح الباري ١/ ٣٠، ومسلم (حديث ١٦٠) ح ١ ص ١٤١ واللفظ لمسلم.
(٤) انجيل برنابا (مطبوع) الإصحاح ٤١ الفقرات/ ٢٩- ٣٠.
(٥) انجيل برنابا ١٦٣/ ٧.
(٦) انجيل لوقا ٢/ ١٤.

تم تحريف الفقرة الأخيرة عند ترجمتها من النص السرياني إلى العربية «١» .
وفي الإصحاح السادس عشر من إنجيل لوقا يرد قول المسيح: «إن لم أنطلق يأتكم الفارقليط» «٢»
وأما بشارة عيسى ابن مريم- عليهما السلام- قومه ببعثة النبي محمد صلّى الله عليه وسلّم فقد كانت صريحة نص عليها القرآن الكريم في قوله تعالى: وَإِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ

اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ «٣» .

وكانت صفات النبي محمد صلّى الله عليه وسلّم وعلاماته قد وردت في كل من التوراة والإنجيل بشكل صريح كما أخبر الله تعالى في الكتاب العزيز بقوله الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ «٤» .

ويرى شيخ الإسلام ابن تيمية بأن الأخبار متواترة بمعرفة أهل الكتاب بصفة النبي محمد صلّى الله عليه وسلّم «٥» . وقد أخبر الله تعالي بذلك عن أهل الكتاب كما ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: وَلَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وَكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكافِرِينَ «٦» .

وعلى الرغم من ثبوت قيام اليهود والنصارى بتحريف التوراة والإنجيل وتعمدهم حذف اسم النبي صلّى الله عليه وسلّم وحذف النصوص الواضحة الدالة على صفاته كما يتضح ذلك من النقول والاقتباسات التي أوردها العلماء المسلمون في مؤلفاتهم أمثال ابن قتيبة، والماوردي، والقرافي، وابن تيمية، وابن قيم الجوزية، وغيرهم مما يدل على أن التحريف قد استمر حتى العصور المتأخرة، ومع ذلك فقد بقيت بعض النصوص التي تشير بشكل صريح إلى ذلك فقد نصت التوراة المتداولة بين الأحبار على ظهور النبي محمد صلّى الله عليه وسلّم في مكة في نص جاء فيه:

«جاء الرب من سينا.. ... واشرق لنا من ساعير

استعلن من جبل فاران ... ومعه الوف الأطهار

في يمينه سنة نار» «٧» .

---

(١) لقد حقق ذلك واكتشف الخطأ في الترجمة الأستاذ عبد الأحد داود، وانظر: حجازي- التوراة السريانية.

(٢) فارقليط: لفظ سرياني مشتق من «فاران» بمعنى مكة وجبل فاران هو جبل حراء، والقليط بمعنى الجاثم أو المتحنث أو المتعبد وتأتي بمعنى الحامد وأحمد.

(٣) القرآن الكريم- سورة الصف، الآية/ ٦.

(٤) القرآن الكريم- الأعراف، الآية/ ١٥٧.

(٥) ابن تيمية- الجواب الصحيح ١/ ٣٤٠.

(٦) القرآن الكريم- سورة البقرة، الآية/ ٨٩.

(٧) الإشارة إلى جبل فاران أي جبل حراء في مكة المكرمة، أما الإشارة إلى الأطهار فقد وردت كذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى: لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (التوبة/ ١٠٨) .

ومما لا شك فيه أن الدلائل على صدق النبوة المحمدية لا تتوقف على هذه البشارات، فدلالات القرآن الكريم من التشريع الباهر، والإعجاز البلاغي، ودلالات السنة النبوية المطهرة الصحيحة على وقوع المعجزات الحسيّة ومشاهدة الألوف من المسلمين لها، ودلالات السيرة النبوية المطهرة، في إيمان النبي محمد صلّى الله عليه وسلّم ويقينه، وعبادته ومجاهدته، ودعوته وجهاده وعدله وصدقه وإيمان المقربين إليه العارفين به يقطع بصدق البعثة المحمدية «١» .

وينقل ابن إسحاق عن رجال من الأنصار قولهم: «إن مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله تعالى وهداه، لما كنا نسمع من رجال يهود، كنا أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنه تقارب زمان نبي يبعث

الآن، نقتلكم معه قتل عاد وإرم» «٢» . ولا شك في أن يهود المدينة كانوا يعرفون أن زمان النبي محمد صلّى الله عليه وسلّم قد اقترب، وكانوا يزعمون أنه منهم ويتوعدون به العرب وقد بين الله سبحانه وتعالى أنهم يعرفونه بصفاته وإنما أنكروا نبوّته وجحدوها لما تبين لهم أنه من العرب، قال تعالى: وَلَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وَكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكافِرِينَ «٣» .

وأورد البخاري في صحيحه «٤» ، ومسلم في كتاب الجهاد والسير «٥» ما صرح به هرقل ملك الروم حين استلم رسالة النبي صلّى الله عليه وسلّم إليه في قوله: «وقد كنت أعلم أنّه خارج، ولم أكن أظنّ أنّه منكم» «٦» .

إرهاصات نبوته صلّى الله عليه وسلّم

كانت الرؤيا الصادقة هي أول ما بديء به من الوحي فكان صلّى الله عليه وسلّم لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح «٧» . ومن ذلك تسليم الحجر عليه قبل النبوة كما أخبر «٨» وقد «حبّب إليه الخلاء، فكان يخلوا بغار حراء فيتحنّث فيه- وهو التعبد- اللّيالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزوّد لذلك ... » «٩» . حتى نزل عليه الوحي فجأة وهو في الغار «١٠» .

---

(١) أكرم العمري- السيرة النبوية الصحيحة ١/ ١٢١.
(٢) ابن هشام- السيرة ١/ ٢٣١، ابن سعد- الطبقات ١/ ١٥٨- ١٥٩، أبو نعيم- دلائل النبوة ١/ ٨٨.
(٣) القرآن الكريم- سورة البقرة، الآية/ ٨٩. وعن أسباب النزول: انظر ابن هشام- السيرة ١/ ١٩٥، الطبري- التفسير ٢/ ٧٥- ٦.
(٤) البخاري- الصحيح (كتاب بدء الوحي) ، ١/ ٦.
(٥) مسلم- صحيح ٣/ ١٣٩٥ (كتاب النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى هرقل) .
(٦) البخاري- الصحيح ١/ ٦، مسلم- الصحيح ٣/ ١٣٩٥.
(٧) البخاري- الصحيح ١/ ٣، مسلم- الصحيح ١/ ١٣٩.
(٨) مسلم- الصحيح ٤/ ١٧٨٢، الترمذي- سنن ٥/ ٥٩٣.
(٩) البخاري- الصحيح ١/ ٣، وأطرافه في الحديث ٣٣٩٢، ٤٩٥٣، ٤٩٥٥، ٤٩٥٦، ٤٩٥٧، ٦٩٨٢، مسلم- الصحيح ١/ ١٤٠.
(١٠) البخاري- الصحيح ١/ ٣، مسلم- الصحيح ١/ ١٤٠.

نزول الوحي والبعثة النبوية

بدأ نزول الوحي على محمد صلّى الله عليه وسلّم وعمره أربعون سنة «١» . وقصة بدء نزول الوحي على النبي صلّى الله عليه وسلّم ثابتة بنص الصحيحين من حديث عروة بن الزبير، فعن عائشة أم المؤمنين- رضي الله عنها- أنها قالت: «كان أول ما بديء به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حبب
إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه- وهو التعبد- الليالي ذوات العدد، قبل أن يرجع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقاريء. قال فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقاريء. فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقاريء

فأخذني فغطّني الثالثة، ثم أرسلني فقال: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ* خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ «٢» .
فرجع بها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد- رضي الله عنها- فقال: زمّلوني زمّلوني. فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع، ثم قال لخديجة: أي خديجة مالي لقد خشيت على نفسي، وأخبرها الخبر.
فقالت خديجة: «كلّا، أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق» . فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى- وهو ابن عم خديجة أخي أبيها- وكان امرءا تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب. وكان شيخا كبيرا قد عمي، فقالت له خديجة: يا عم اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزله الله على موسى، يا ليتني فيها جذع، ليتني أكون حيّا إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: أو مخرجيّ هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا «٣» . ثم لم ينشب ورقة أن توفّي، وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي (صلّى الله عليه وسلّم) حزنا غدا منه مرارا كي يتردى من رءوس شواهق الجبال، فكلما أو فى بذروة جبل لكي يلقي منه نفسه تبدى له جبريل فقال: يا محمد: إنك رسول الله حقّا، فيسكن لذلك جأشه، وتقر نفسه فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي، غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل، فقال له مثل ذلك» «٤» .
لقد كان بدء نزول الوحي على النبي صلّى الله عليه وسلّم ونزول صدر سورة «اقرأ» نقطة تحول في تاريخ البشرية، نقلتها من طريق الاعوجاج والظلام إلى طريق الهدى والنور، طريق الله المستقيم المؤدي إلى النجاة في الدنيا والآخرة.

---

(١) البخاري (فتح الباري) ج ٦/ ٥٦٤، ٧/ ١٦٢، ٢٢٧، ١٠/ ٣٥٦ (كتاب المناقب) ، مسلم- الصحيح (شرح النووي) ٤/ ١٨٢٤، ١٨٢٧، ابن هشام- السيرة ١/ ٢٥١- ٢٥٢.
(٢) سورة العلق/ ١- ٥.
(٣) البخاري (فتح الباري) ١/ ٣٠- ٣١، كتاب بدء الوحي (حديث رقم ٣) ، ٨/ ٥٨٥- ٦ كتاب التفسير (حديث رقم ٤٩٥٣) ، مسلم- الصحيح (شرح النووي) ٢/ ١٩٧- ٢٠٤.
(٤) البخاري- الصحيح ٨/ ٦٧، (فتح الباري ١/ ٢٢، ٨/ ٧١٥، ٧٢٢، ١٢/ ٣٥١- ٢) ، مسلم- الصحيح ١/ ١٣٩.

ويعلق أحد الباحثين على ذلك بقوله: «لقد تحول خط التاريخ كما لم يتحول من قبل قط، وكما لم يتحول من بعد أيضا. وكان هذا الحدث هو مفرق الطريق. وقامت المعالم في الأرض واضحة عالية لا يطمسها الزمان، ولا تطمسها الأحداث. وقام في الضمير الإنساني تصور للوجود وللحياة وللقيم لم يسبق أن اتضح بمثل هذه الصورة، ولم يجئ بعده تصور في مثل شموله ونصاعته وطلاقته من اعتبارات الأرض جميعا، مع واقعيته وملاءمته للحياة الإنسانية.
ولقد استقرت قواعد هذا المنهج الإلهي في الأرض وتبينت خطوطه ومعالمه لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ «١» . لا غموض ولا إبهام. إنما هو الضلال عن علم، والانحراف عن عمد، والالتواء عن قصد. إنه الحادث الفذ في تلك اللحظة الفريدة. الحادث الكوني الذي ابتدأ به عهد في هذه الأرض وانتهى عهد. والذي كان فرقانا في تاريخ البشر لا في تاريخ أمة ولا جيل. والذي سجلته جنبات الوجود كله وهي تتجاوب به، وسجله الضمير الإنساني. وبقي أن يتلفت هذا الضمير اليوم على تلك الذكرى العظيمة ولا ينساها وأن يذكر دائما أنه ميلاد جديد للإنسانية لم يشهده إلا مرة واحدة في الزمان» «٢» .

أيقن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه رسول الله بعد أن نقشت تلك الآيات من سورة «اقرأ» في صدره، وبعد حديث ورقة بن نوفل له، وازداد يقينه بعد نزول الآيات الأولى من سورة المدثر، فقد روى جابر بن عبد الله الأنصاري وهو يحدث النبي صلّى الله عليه وسلّم عن فترة الوحي- فقال في حديثه: «بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتا من السّماء فرفعت بصري فإذا الملك الّذي جاءني بحراء جالس على كرسيّ بين السّماء والأرض، فرعبت منه فرجعت فقلت: زمّلوني زمّلوني. فأنزل الله تعالى: يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ* قُمْ فَأَنْذِرْ- إلى قوله- وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ «٣» فحمي الوحي وتتابع «٤» . وهذه الآيات الأولى من سورة المدثر فيها الأمر من الله سبحانه وتعالى لمحمد صلّى الله عليه وسلّم بإنذار البشر «٥» ودعوتهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فهي تمثل في حياة محمد صلّى الله عليه وسلّم حدّا فاصلا بين عهدين، عهد ما قبل البعثة الذي يمثل أكثر عمره صلّى الله عليه وسلّم والذي لم يكن فيه مكلفا من الله تعالى بشيء. وعهد ما بعد البعثة الذي يمثل أخطر وأصعب مرحلة في حياته صلّى الله عليه وسلّم لأنها مرحلة تغيير طريق البشرية وهي مرحلة خطيرة عندما نتصورها بكل أبعادها فها هي الأوامر الربانية تأمره صلّى الله عليه وسلّم أن يترك عهد النوم وأن يشمر عن ساعد الجد، ليس لتغيير عقيدة قومه فحسب، بل لتغيير مسار البشرية بأكمله، ونقل تلك البشرية من طريق الهلاك والردى الذي كانت تتردى فيه، إلى طريق النجاة الذي يؤدي إلى سعادة الدنيا والنجاة العظمى في الأخرى. وهذه المهمة، وهذا التكليف الإلهي لم يكن يسيرا بل كانت دونه من الصعوبات والأخطار ما لا يستطيعه أحد سوى محمد صلّى الله عليه وسلّم الذي اختاره الله تعالى لهذه المهمة الشاقة ونجح فيها- كما يشهد التاريخ- أيما نجاح، ووضع البشرية على الطريق الصحيح وأوضح لها السبيل الحق، وأنار لها الطريق ولم يعد لفرد أو جماعة أو فئة عذر في تنكب طريق الحق والزيغ عن الهدى والنور.

---

(١) القرآن الكريم- الانفال، الآية/ ٤٢.
(٢) قارن بمقدمة الأستاذ العقاد لكتابه «عبقرية محمد» ، وانظر صفة تكريم الإنسان.
(٣) القرآن الكريم- المدثر الآية/ ١- ٥.
(٤) البخاري- فتح الباري ١/ ٣٧ حديث (رقم ٤) ، مسلم- الصحيح (شرح النووي) ٢/ ٢٠٦.
(٥) انظر صفة الإنذار، وصفة التبليغ.

ج ١(ص: ٢٠٧)

وقد ثبت أن الوحي قد نزل عليه أول ما نزل يوم الإثنين «١» . كما أن المشهور أن ذلك قد حصل في شهر رمضان. قال تعالى: شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى وَالْفُرْقانِ «٢» . والوحي إلى محمد صلّى الله عليه وسلّم نظير الوحي الإلهي إلى الأنبياء السابقين، قال تعالى: إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ وَعِيسى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهارُونَ وَسُلَيْمانَ وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً «٣» .
وكان الرسول صلّى الله عليه وسلّم يعالج من التنزيل شدّة «٤» ، وكان جبينه يتفصّد عرقا في اليوم الشديد البرد، وكان وجهه يتغير ويكرب «٥» ، وجسمه يثقل يقول زيد بن ثابت: «فأنزل على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وفخذه على فخذي، فثقلت عليّ حتّى خفت أن ترضّ فخذي» «٦» . وكان يركز ذهنه بشدّة لحفظ القرآن، فيحرك به لسانه وشفتيه، فنزلت الآية:
لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ* إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ* فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ* ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ «٧» .
كان حرص النبي صلّى الله عليه وسلّم على تبليغ القرآن الكريم يدفعه إلى التعجل في تلقيه والشوق إليه، وقد بيّنت ذلك الآية وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً «٨» .
ولقد أوضح النبي صلّى الله عليه وسلّم كيف يأتيه الوحي حين قال: «أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس- وهو أشدّه عليّ- فيفصم عنّي وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانا يتمثّل لي الملك رجلا فيكلّمني فأعي ما يقول» «٩» . وكان الوحي يأتيه في اليقظة كما تدل على ذلك الأحاديث الصحيحة «١٠» .

استغرق نزول الوحي ثلاثا وعشرين سنة، منها ثلاثة عشر عاما بمكة المكرمة وهذا هو المشهور «١١» وعشر سنين في المدينة وهو المتفق عليه «١٢» .
إن ظاهرة الوحي معجزة خارقة للسنن الطبيعية حيث تلقى النبي صلّى الله عليه وسلّم كلام الله- القرآن الكريم- بواسطة الملك جبريل (عليه السلام) ، وبالتالى فلا صلة لظاهرة الوحي بالإلهام أو التأمل الباطني، أو الاستشعار

---

(١) مسلم- الصحيح ٨/ ٥١- ٥٢، أبو داود- السنن ٢/ ٨٠٨- ٩.
(٢) القرآن الكريم- سور البقرة، الآية/ ٨٥١.
(٣) القرآن الكريم- سورة النساء، الآية ١٦٣.
(٤) مسلم- الصحيح ١/ ٣٣٠.
(٥) المرجع السابق ٤/ ١٨١٧.
(٦) البخاري- الصحيح ٥/ ١٨٢.
(٧) القرآن الكريم- سورة القيامة، الآيات/ ١٦- ١٩، وانظر: البخاري- الصحيح ٦/ ٧٦، مسلم- الصحيح ١/ ٣٣٠.
(٨) القرآن الكريم- سورة طه، الآية/ ١١٤.
(٩) البخاري- الصحيح ١/ ٣٢، مسلم- الصحيح ٤/ ١٨١٦- ١٨١٧.
(١٠) البخاري- المصدر السابق ١/ ٢- ٣، مسلم- الصحيح ٤/ ١٨١٦- ٧.
(١١) البخاري- الصحيح ٢/ ٢٣٨، مسلم- الصحيح ٤/ ١٨٢٥- ٦ وكلاهما عن ابن عباس- رضي الله عنهما-، وانظر: الحاكم- المستدرك ٣/ ٢ عن طريق علي بن أبي طالب- رضي الله عنه-.
(١٢) ابن سيد الناس- عيون الأثر ١/ ٨٩.

الداخلي، بل إن الوحي يتم من خارج الذات المحمدية المتلقية له، ودون أن يكون لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم أي أثر في الصياغة والمعني، وتنحصر مهمته بتلقى الوحي وحفظ الموحى به وتبليغه «١» ، أما بيانه وتفسيره فيتم عن طريق النبي صلّى الله عليه وسلّم بأسلوبه ولفظه كما تدل على ذلك أحاديثه المحفوظة. وهو أسلوب مغاير تماما لأسلوب القرآن الكريم.
الدعوة الإسلامية ومنطلقاتها الفكرية:
إن الخطاب الإسلامي موجه للناس كافة بشتى بقاعهم ومختلف أزمانهم وبكل أجناسهم وقومياتهم وألوانهم وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ «٢» . وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً «٣» ، وهذا العموم في الخطاب للبشرية اقتضى أن يقوم الرسول صلّى الله عليه وسلّم وأتباعه بدعوة الآخرين إلى الدخول في الإسلام قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي «٤» . وقد حفلت العصور الإسلامية المتعاقبة بنشاط دعوي في أوضاع الحرب والسلام كان له أثره البالغ في تكثير أعداد المسلمين وتوسيع رقعة دار الإسلام. وكان الباعث الرئيسي على الدعوة هو طلب مرضاة الله والحصول على مثوبته ففي الحديث النبوي: «لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النّعم» «٥» .
إن موضوع الدعوة هو الإسلام بشموله للعقيدة والشريعة والأخلاق- أو بتعبير معاصر- لجوانب الحياة المتنوعة فكرية واجتماعية واقتصادية وسياسية، ولكن المحور الأساسي هو التوحيد الخالص لله تعالى، وأنه الرب الخالق والمنعم الرازق، وأنه خلق البشر لتحقيق العبودية له وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ «٦» ، ويتم اختبار طاعتهم في هذه الدنيا ويجازون على أعمالهم في اليوم الآخر، حيث يدخل المؤمنون الجنة والكافرون النار زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِما عَمِلْتُمْ وَذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ «٧» سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ

وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ «٨» وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ خالِدِينَ فِيها وَبِئْسَ الْمَصِيرُ «٩».
إن الدخول في الإسلام يبدأ ب «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله»، وبها يعلن الإنسان إخلاصه في العبودية لله وحده، والتزامه باتباع أحكام الإسلام التي جاء بها محمد صلّى الله عليه وسلّم «١٠» وهكذا يدخل الإنسان مرحلة الوعي الديني.. الوعي بالهدف النبيل من الوجود، والوعي بضرورة الارتقاء الروحي والمادي، والوعي بوسائل

---

(١) انظر صفة التبليغ.
(٢) القرآن الكريم- سورة الأنبياء، الآية/ ١٠٧.
(٣) القرآن الكريم- سورة سبأ، الآية/ ٢٨.
(٤) القرآن الكريم- سورة يوسف، الآية/ ١٠٨.
(٥) البخاري- الصحيح ٧/ ٥٤٤، حديث رقم (٤٢١٠) مسلم- الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة باب ٤) رقم ٣٤.
(٦) القرآن الكريم- سورة الذاريات، الآية/ ٥٦، وانظر صفة العبادة.
(٧) القرآن الكريم- سورة التغابن، الآية/ ٧.
(٨) القرآن الكريم- سورة الحديد، الآية/ ٢١، وانظر صفة الفضل.
(٩) القرآن الكريم- سورة التغابن، الآية/ ١٠.
(١٠) انظر صفة الاتباع.

الارتقاء من الاحساس بمعاني الإيمان «١» والتدبر «٢» والتفكر «٣» والذكر «٤» والشكر «٥» والعبادات المتنوعة من صلاة «٦» وصوم «٧» وحج «٨» لتوثيق الصلة بالخالق «الصلاة معراج المؤمن»، ومن الانتصار للحق والعدل والخير والجمال، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر «٩»، ومن تمثل القيم الإسلامية في واقع حياته ليكون مثال «الإنسان الصالح» «١٠»، ومن العطاء السخي للآخرين «١١» عن طريق «العمل الصالح» «١٢»، الذي يقربه إلى الله تعالى.
إن دائرة العمل الصالح واسعة، وهو يهدف إلى الارتقاء بالحياة الروحية والمادية ومساندة قيم الحق والخير والجمال في الأرض. وهي معاني كبيرة لا يسهل تحقيقها نسبيّا، وإن تحققت في جيل فليس ثمة ما يضمن تحققها في جيل لاحق، فالصعود والهبوط يتعاقبان في تاريخ البشر، وتجديد الدين وإحياء السنن وتوثيق عرى الإيمان يرتبط بالدعوة الإسلامية «١٣»، ومدى وعي الدعاة لمضامين الإسلام وشموليته، وقدرتهم على تمثل تعاليمه، وإقناع الآخرين بها.
إن القرآن هو أول كتاب باللغة العربية حرّك وعي الإنسان قبل أربعة عشر قرنا، وفتح عقله على مكانه في الكون والحياة، وعرّف بالحقوق والواجبات التي تعمق وعيه الاجتماعي ونظرته الإنسانية، وقد كان النبي صلّى الله عليه وسلّم يوضح ذلك كله بأقواله وسيرته الشخصية، ونظرا لتمثله القرآن بعمق ووعي خاصين، وتأثيره الكبير في جيله خاصة، فإن الرؤية القرآنية تحولت إلى واقع إنساني معاش، تفاعل مع الوحي الإلهي- قرآنا وسنة، وأثمر ارتقاء عظيما في الوعي الإنساني العام عندما انتشر الإسلام عبر الزمان والمكان.
هدفت الدعوة الإسلامية إلى تخفيف معاناة الإنسان في الحياة، والتي يمكن أن تتضاءل بازدياد وعيه في ظل الوحي الإلهي، في حين قد يؤدي ازدياد الوعي إلى زيادة المعاناة عند غياب الإيمان، فقسوة الحياة تشتد عندما تفتقد المعنى، والدين هو الذي يعطيها المعنى، نعني بذلك التحلي بالصبر «١٤».
وقصدت الدعوة الإسلامية إلى تحرير الإنسان من الأوهام والأساطير والخرافات والشعوذة التي يقوم بها منتفعون يزعمون أنهم وسطاء بين الله والناس. وأحيانا اتخذ الإنسان وسطاء من الحجر والشجر

والبشر يناجونهم ويسألونهم، فأعلنت الدعوة الإسلامية أن ذلك محض شرك وأنه لا واسطة بين الله والإنسان «١٥» ، وفي الحديث

(١) انظر صفة الإيمان.
(٢) انظر صفة التدبر.
(٣) انظر صفة التفكر.
(٤) انظر صفة الذكر.
(٥) انظر صفة الشكر.
(٦) انظر صفة إقامة الصلاة.
(٧) انظر صفة الصوم.
(٨) انظر صفة الحج والعمرة.
(٩) انظر صفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
(١٠) انظر صفة الصلاح.
(١١) انظر صفات: الجود- الكرم- السخاء.
(١٢) انظر صفة العمل.
(١٣) انظر صفة الدعوة إلى الله.
(١٤) انظر صفة الصبر.
(١٥) انظر صفة الشرك.

«اتّق دعوة المظلوم فإنّه ليس بينه وبين الله حجاب» «١» مما يفتح بصيرة المؤمن على عاقبة ظلم الإنسان «٢» ، ويرسي أساسا للعدل السياسي والاجتماعي.
وتحمل الدعوة الإسلامية ميزانا دقيقا للحقوق والواجبات حسب الشريعة، فلا يجوز التفريط فيها أو التخلي عنها، فهي منحة إلهية للبشرية، وقد اقتضى تطبيق تلك التعاليم جهادا وبذلا منذ نزول الوحي حتى استقرت دولة الإسلام، فلولا الجهاد «٣» لما قضي على الشرك وطابع الحياة الجاهلية، ولما استقرت معاني العقيدة وقيم الإسلام الاجتماعية ومضامينه الخلقية في نفوس الملايين.
وحرصت الدعوة الإسلامية على بناء مجتمع العدل والقوة «٤» لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ «٥» مما يوضح الأسس اللازمة لبناء مجتمع قوي متحضر يقوم على العدل والقوة، فالكتاب والميزان لإقامة العدل، والحديد لايجاد القوة التي تحمي العدل وتكفل استمراره. والعدل الشامل يمتد إلى المسلم والذمي والكافر، والأغنياء والفقراء، والأقوياء والضعفاء، والرجال والنساء، حيث تتحدد حقوق الجميع وفق موازين العدل دون احتكار أو استغلال أو استئثار أو ظلم إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ «٦» .
وتنطلق الدعوة الإسلامية من مبدأ المساواة «٧» بين البشر دون اعتبار للثروة والجاه، ولا اللون أو العرق «النّاس بنو آدم وآدم من تراب» «٨» . ويقتضي ذلك تحقيق تكافؤ الفرص أمام الناس والتزام العدل المطلق بينهم، وهدم النظم الطبقية، إذ لا مكان للعنجهية والصلف والكبرياء والاستعلاء على الناس «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمّتهم أدناهم» «٩» . وهذا يفسر تجاوب الأمم المختلفة مع الدعوة الإسلامية ودخولها في دين الله أفواجا.
وربما من أجل ذلك كله قال الفيلسوف الألماني هيجل: «يعتبر المبدأ الإسلامي- أو روح التنوير في العالم الشرقي- أول مبدأ يقف في وجه البربرية» «١٠» .
وتعلن الدعوة الإسلامية الشورى «١١» أساسا للنظام السياسي والاجتماعي انطلاقا من الآية الكريمة

(١) البخاري- الصحيح ٧/ ١٦٨، مسلم- الصحيح ٤/ ١٧٤٠.
(٢) انظر في الصفات السلبية: صفة الظلم.
(٣) انظر صفة جهاد الأعداء.
(٤) انظر صفة القوة والشدة.
(٥) القرآن الكريم- سورة الحديد، الآية/ ٢٥.
(٦) القرآن الكريم- سورة النحل الآية/ ٩٠.
(٧) انظر صفة العدل والمساواة.
(٨) الترمذي- الجامع حديث رقم (٣٩٥٦) ، أحمد- المسند ٢/ ٣٦١. وقال محقق «جامع الأصول»
(١٠/ ٦١٧) : وهو حديث حسن.
(٩) أبو داود- السنن حديث رقم (٤٥٣١) ، وانظر صفة تكريم الانسان. وقال محقق «جامع الأصول»
(١٠/ ٢٥٥) : إسناده حسن.
(١٠) هيجل- محاضرات في فلسفة التأريخ ص/ ٢٥٠.
(١١) انظر صفة الشورى.
جـ ١(ص: ٢١١)

وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ «١» والآية وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ «٢» وقد بيّن عمر- رضي الله عنه- أن الحكم يخص الأمة وأن من يسلبها هذا الأمر يكون غاصبا. «٣» .
وتوازن الدعوة الإسلامية بين المطالب الروحية والدنيوية، وتنظر إلى عمران الأرض وزينة الحياة وطيباتها نظرة متفائلة، فلا تطالب البشر بالتبتل والحرمان والنأي عن استثمار الطاقات المتنوعة لمصالحهم قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ «٤» وَابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ «٥» . فالمطلوب أن يكون العمران والاستثمار في نطاق الإحساس دون الظلم والانحراف عن الفطرة وتسخير القوى نحو الشر والدمار والطغيان ...
وهي في دعوتها إلى العمران تربي الأتباع على الإتقان، والإتقان يقابل بمصطلحات العصر (التكنولوجيا) ، والإحسان مرتبة عليا فوق الإسلام والإيمان، وفيها تتفجر الطاقات الإنسانية، وتنفتح على عالم الغيب بتركيز عال:
من العبادة والرقابة واليقين «الإحسان أن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك» «٦» .
وقد أثمرت هذه الدعوة حضارة مادية رائعة في العصور الإسلامية الذهبية شملت الفكر والعلوم والزراعة والصناعة.
وكان من مقاصد الدعوة الإسلامية حفظ النوع الإنساني واستمراره في الوجود، بتشريع الزواج، وتحصين الأسرة «٧» ، وتحريم إتلاف النفس البشرية بالقتل أو الانتحار مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْياها فَكَأَنَّما أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً «٨» معتبرة تحقيق الأمان الفردي أساسا لتحقيق الأمن الجماعي.
وتفتح الدعوة الإسلامية أبواب التوبة «٩» أمام العالمين مهما بلغت معاصيهم دون الحاجة إلى الاعتراف أمام وسيط أو كشف مستور للآخرين قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ «١٠» وبذلك تم التأكيد على قيم إيجابية تحارب اليأس «١١» والقنوط «١٢» والتردي والعبثية والإحساس بالضنك في الحياة، وتمحو الصور القاتمة المظلمة الموحية بالاكتئاب والقلق «١٣» مثل

(١) القرآن الكريم- سورة الشورى/ ٣٨.
(٢) القرآن الكريم- سورة آل عمران/ ١٥٩.
(٣) الفسوي- المعرفة والتأريخ ١/ ٣٥١ بإسناد صحيح.

(٤) القرآن الكريم- سورة الأعراف، الآية/ ٣٢.
(٥) القرآن الكريم- سورة القصص، الآية/ ٧٧.
(٦) البخاري- الصحيح ١/ ١٨.
(٧) انظر صفة حفظ الفرج.
(٨) القرآن الكريم- سورة المائدة، الآية/ ٣٢.
(٩) انظر صفة التوبة.
(١٠) القرآن الكريم- سورة الزمر، الآية/ ٥٣.
(١١) انظر صفة اليأس.
(١٢) انظر صفة القنوط.
(١٣) انظر صفة القلق.
جـ ١(ص: ٢١٢)

الطّيرة «١» (التشاؤم) والخوف «٢» من المستقبل. سأل صحابي النبي صلّى الله عليه وسلّم: منّا رجال يتطيّرون؟ فأجابه: «ذاك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدّنّهم» «٣» .
وتكثر الصور المتفائلة، والمعالم المضيئة، والمعاني الإيجابية الملطفة للحياة والمجمّلة للاجتماع البشري بإشاعة السلام «٤» والمحبة بين الناس «٥» ، والاهتمام بحسن المنظر والمظهر والنظافة «٦» وطيب الرائحة.
وأكدت الدعوة الإسلامية على التكافل والتعاون بين الناس ابتداء بصلة الأرحام «٧» وانتهاء بالمجتمع، بالحثّ على السخاء، والكرم، والإيثار، ومراعاة حقوق الجيران «٨» حيث ينخلع الناس عن أموالهم التي يحبونها استجابة لحديث النبي صلّى الله عليه وسلّم «الصّدقة برهان» «٩» يعني أنها دليل قاطع على تذوق حلاوة الإيمان.
وأعلنت الدعوة الإسلامية حماية الملكية الفردية، وحثّت على عدم دوام تداول الأموال بالاستثمار، ومنعت تبديدها حتى من قبل صاحبها فحجرت عليه إذا كان سفيها لا يدرك عواقب إتلاف الثروة، وحرّمت الربا «١٠» والاحتكار «١١» منعا لانحصار المال بأيد قليلة كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ «١٢» .
وكانت عقيدة الايمان بالقضاء والقدر تحفز روح المغامرة الجهادية والعلمية والتجارية، وتدفع للبذل والتضحية لبناء الأمة وكيانها الحضاري.
وقد اهتمت الدعوة الإسلامية بالعلم «١٣» ، فهو فريضة على كل مسلم، ووعدت بالأجر العظيم على طلبه، وقد وردت كلمة العلم في (٦٢٤) موضعا من القرآن الكريم، وأعلت مكانة العلماء حتى اعتبرتهم ورثة الأنبياء «١٤» وأرست قيما ثقافية تضمن استمرار التقدم العلمي. فالعلم حق للجميع، وليس حكرا لفئة معينة مما يؤدي للارتفاع بالمستوى الثقافي لجمهور الأمة. والعلم يجب أن يقترن بالعمل والسلوك، وهو دليل توفيق الله للإنسان «من يرد الله به خيرا يفقّهه في الدّين» «١٥» ، وفقه الدين يقتضي فهم الحياة، والنظر إلى أحداثها وقضاياها وفق مفاهيم الإسلام الذي انتظم جوانب الحياة المتنوعة، فلا عجب إذا ما تفتحت بصيرة المسلم على جوانب الاجتماع والاقتصاد والحس والذوق وقيم الجمال بصورة أرحب وأعمق وأشمل كلما ازداد بصيرة في دينه.

---

(١) انظر صفة التطير.
(٢) انظر صفة الخوف.
(٣) مسلم- الصحيح ١/ ٣٨٢ حديث رقم (٥٣٧) ، أبو داود- السنن ١/ ٢٤٤- ٢٤٥.
(٤) انظر صفة إفشاء السلام، والسلم.
(٥) انظر صفة المحبة.
(٦) انظر صفة حسن السمت.

(٧) انظر صفة صلة الرحم.
(٨) انظر صفة حق الجوار.
(٩) مسلم- الصحيح ١/ ٢٠٣.
(١٠) انظر صفة الربا.
(١١) انظر صفة الاحتكار.
(١٢) القرآن الكريم- سورة الحشر، الآية/ ٧.
(١٣) انظر صفة العلم.
(١٤) انظر صفة الفقه.
(١٥) جزء من حديث رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن عدد من الصحابة. انظر «جامع الأصول» (٩/ ٢٠٥) و (١٠/ ١٦٤).

والعلم تترتب عليه مسئولية دينية، فالعالم يسأل عن موقفه العلمي يوم القيامة «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتّى يسأل عن أربع خصال: ... وعن علمه ماذا عمل فيه» «١» والعالم مسئول عن نشر العلم وعدم كتمانه «من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة» «٢».
والعلم بحر لا ساحل له، ولا يمكن للفرد الإحاطة به، لذلك لا بد من الاستمرار في طلبه دون انقطاع، وقد أثمرت هذه القيم الثقافية حركة فكرية زاهرة حيث صار «التعلم المستمر» و «تراكم المعرفة» و «تجميع العلم» ودراسته بصورة منظمة من أبرز خصائص الحركة الفكرية في عصور الإسلام الذهبية.
وكانت الدعوة الإسلامية ترتكز على مفهوم أن العقل وحرية الفكر مناط التكليف، وطالبت أتباعها بالبحث الحر عن الدليل أو البرهان، وأنكرت تقليد الآخرين، فلم يظهر في الإسلام كهنوت يدّعي احتكار فهم الإسلام وحق تفسير نصوصه كما حدث في تاريخ الأديان الأخرى، بل بوسع كل مسلم أن يرجع إلى القرآن والسنة وأن يتضلع في علومهما ويأخذ بعد ذلك عنهما، ويناقش الآخرين في صحة الدليل وطريقة الاستدلال.
وأخيرا.. فإن التأمل في المنطلقات الفكرية للدعوة الإسلامية يكشف عن مباديء أساسية تتمثل في تحقيق العبودية لله، والكرامة والحرية والعلم والعدل والمساواة والشورى «٣» للإنسان الذي يتجه إليه الخطاب الإسلامي في مطلق الزمان والمكان.

مرحلة الدعوة السرية

بدأت الدعوة الإسلامية بمكة المكرمة بشكل سري وتتراوح مدة هذه المرحلة بين ثلاث وأربع سنوات «٤». وكانت مكة تخضع لقريش بعشائرها الأربع عشرة التي كان لكل منها كيانها الخاص مع تحالفها ضمن الإطار العام لقبيلة قريش. وكان من المتوقع أن ينتشر الإسلام في عشيرة النبي صلّى الله عليه وسلّم ثم في قريش التي ينتمي إليها أخيرا، غير أن انتشار الإسلام لم يرتبط بالعشائرية ولا بالعصبية القبلية. ورغم أن بني هاشم قد تعاطفوا مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم فإن ذلك لم يدفعهم إلى الدخول في الإسلام أكثر من غيرهم. وانتشر الإسلام في هذه المرحلة في سائر عشائر قريش بشكل متوازن وهو أمر يخالف طبيعة الحياة البدوية والنظرة القبلية. ولعل ذلك قد أعان على انتشار الإسلام بين مختلف العشائر دون تحفظات عصبية، ولو دققنا في انتماءات كل من أبي بكر الصديق التيمي، وعثمان بن عفان الأموي، والزبير بن العوام الأسدي، وعلي بن أبي طالب الهاشمي، ومصعب بن عمير الداري،

(١) أبو داود- السنن ٣/ ٣٢٣، وابن ماجه- السنن ١/ ٩٣. وقال محقق «جامع الأصول» (١٠/ ٤٣٦) : وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وهو كما قال.
(٢) أبو داود- السنن ٣/ ٣٢١، والترمذي- الجامع ٥/ ٢٩. وقال محقق «جامع الأصول» (/ ١٢) : وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وهو كما قال، وله شاهد عند الحاكم من حديث عبد الله بن عمرو، وصححه ووافقه الذهبي.
(٣) انظر الصفات الخاصة بهذه الأمور في مواضعها من الموسوعة.
(٤) المرويات التي أوردها ابن إسحاق والواقدي حددت الفترة بثلاث سنين: ابن سعد- الطبقات ١/ ١٩٩، ابن هشام- السيرة النبوية ١/ ٢٦٢، وحددها البلاذري في أنساب الأشراف (١/ ١١٦) بأربع سنين.

وعمر بن الخطاب العدوي، وعبد الرحمن بن عوف الزهري، وعثمان بن مظعون الجمحي، لتبين لنا ذلك. وإضافة إلى هؤلاء فقد خرج اعتناق الإسلام عن إطار رجالات قريش، فعبد الله بن مسعود من هذيل، وعتبة بن غزوان من مازن، وعمار بن ياسر من مذحج، وزيد بن حارثة من كلب، والطفيل بن عمرو من دوس، وعبد الله بن قيس من الأشعريين، وهكذا فلم يقتصر اعتناق الإسلام على أفراد ينتمون إلى قريش أو يقيمون في مكة.
أول من أسلم:
وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ* أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ «١» : لقد كانت خديجة- رضي الله عنها- أول من آمن بمحمد صلّى الله عليه وسلّم من البشر كما هو واضح من حديث بدء الوحي عند ما بشرته وصدقته فيما أخبرها به وخديجة «مثل طيب للمرأة التي تكمل حياة الرجل العظيم. إن أصحاب الرسالات يحملون قلوبا شديدة الحساسية، ويلقون غبنا بالغا من الواقع الذي يريدون تغييره، ويقاسون جهادا كبيرا في سبيل الخير الذي يريدون فرضه. وهم أحوج ما يكونون إلى من يتعهد حياتهم الخاصة بالإيناس والترفيه، بله الإدراك والمعونة! وكانت خديجة سبّاقة إلى هذه الخصال، وكان لها في حياة محمد صلّى الله عليه وسلّم أثر كريم» «٢» ، ولذلك نالت خديجة مكانة عليّة عند ربها (عز وجل) فقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: «أتى جبريل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال: يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السّلام من ربّها ومنّي وبشّرها ببيت في الجنّة من قصب لا صخب فيه ولا نصب» «٣» .
ولما كان علي بن أبي طالب يعيش حينذاك في كنف الرسول صلّى الله عليه وسلّم فقد تأثر بالنبي، فكان أول من أسلم من الصغار أو من الشباب. وكان في العاشرة من عمره «٤» . كما كان من أوائل من أسلم زيد بن حارثة مولى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم «٥» . أما أول من أسلم من الرجال من خارج بيت النبي صلّى الله عليه وسلّم باتفاق الجمهور فهو أبو بكر الصديق «٦» «وكان أبو بكر رجلا مؤلفا لقومه، محببا سهلا، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر، وكان رجلا تاجرا ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه ... لعلمه وتجارته وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه، ممن يغشاه ويجلس إليه.. فأسلم على يديه.. عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، فجاء بهم إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين استجابوا له فأسلموا» «٧» .

---

(١) القرآن الكريم- سورة الواقعة ١٠- ١١.
(٢) محمد الغزالي- فقه السيرة ص/ ٧٥.
(٣) البخاري- فتح الباري ٧/ ١٦٦ (حديث رقم ٣٨٢٠) ، مسلم- الصحيح (شرح النووي) ١٥/ ١٩٩.
(٤) الترمذي- الجامع ٥/ ٦٤٢، أحمد- المسند ص/ ٣٣٠- ٣٣٢، ابن هشام- السيرة ١/ ١٥٣.
(٥) ابن هشام- السيرة ١/ ١٥٤.

(٦) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٤/ ٤٧٥، ٦/ ١٨، ٧/ ٢٠٧- ٢٠٨، ابن كثير- السيرة ١/ ٤٣٤.
(٧) ابن هشام- السيرة ١/ ١٥٥.

ويذكر أن عبد الله بن مسعود أسلم قبل دخول النبي صلّى الله عليه وسلّم دار الأرقم، وأنه أسلم وهو غلام، وأنه أخذ من فم النبي صلّى الله عليه وسلّم سبعين سورة من القرآن الكريم «١» . ولا شك في تقدم إسلام خباب بن الأرت «٢» . وكذلك تقدم إسلام بلال الحبشي وكان رقيقا اشتراه أبو بكر وأعتقه «٣» . وثبت أن عمّار بن ياسر أسلم مبكرا «٤» .

إسلام الجن:

ويستدل من القرآن الكريم والسنة الصحيحة أن نفرا من الجن رأوا النبي صلّى الله عليه وسلّم في نخلة عامدا إلى عكاظ فاستمعوا إليه وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فآمنوا ورجعوا إلى قومهم، ولم يرهم الرسول في هذه المرة وإنما أوحي إليه خبرهم وأنزل الله تعالى عليه سورة الجن «٥» . مما يدل على أن بعثته صلّى الله عليه وسلّم كانت لعالمي الجن والإنس.

بدء الجهر بالدعوة

دامت دعوة النبي صلّى الله عليه وسلّم السرّية زهاء ثلاث سنوات أو أربع سنوات «٦» . ولما «نزلت وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ «٧» صعد النبي صلّى الله عليه وسلّم على الصفا فجعل ينادي: «يا بني فهر، يا بني عديّ» - لبطون قريش- حتّى اجتمعوا، فجعل الرّجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: «أرأيتم لو أخبرتكم أنّ خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدّقي؟» قالوا: نعم، ما جرّبنا عليك إلّا صدقا. قال:
«فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد» ، فقال أبو لهب: تبّا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ* ما أَغْنى عَنْهُ مالُهُ وَما كَسَبَ «٨» » «٩» .

«ومن الطبيعي أن يبدأ الرسول صلّى الله عليه وسلّم دعوته العلنية بإنذار عشيرته الأقربين إذ أن مكة بلد توغلت فيه الروح القبلية، فبدء الدعوة بالعشيرة قد يعين على نصرته وتأييده وحمايته. كما أن القيام بالدعوة في مكة لا بد أن يكون له أثر خاص لما لهذا البلد من مركز ديني خطير فجلبها إلى حظيرة الإسلام لا بد أن يكون له وقع كبير على بقية القبائل.. على أن هذا لا يعني أن رسالة الإسلام كانت في أدوارها الأولى محدودة بقريش، لأن الإسلام، كما يتجلى

---

(١) أحمد- المسند ١/ ٣٧٩، ابن سعد- الطبقات ٣/ ١٥٠- ١٥١، ابن أبي شيبة- المصنف ١١/ ٥١٠.
(٢) ابن أبي شيبة ١٢/ ١٤٩ بإسناد صحيح.
(٣) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٩٩) ، أحمد- فضائل الصحابة ١/ ١٨٢، ٢٣١ بأسانيد صحيحة، ابن سعد- الطبقات ٣/ ٢٣٣، الحاكم- المستدرك ٣/ ٢٨٤.
(٤) البخاري- الصحيح (فتح ٧/ ١٨، ١٧٠) ، أحمد- مسند ١/ ١١٢، ٤٠٤، ابن سعد- الطبقات ٤/ ٢١٥، وانظر صحيح مسلم ١/ ٥٩٦.
(٥) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٢/ ٢٥٣، ٧/ ١٧١، ٨/ ٦٦٩- ٦٧٠) ، مسلم- الصحيح (شرح النووى) ٤/ ١٦٧- ١٦٨، ١٧١ وأنظر سورة الجن، واسباب النزول.
(٦) ابن هشام- السيرة ١/ ١٥٩.
(٧) القرآن الكريم- سورة الشعراء، الآية/ ٢١٤.
(٨) القرآن الكريم- سورة المسد، الآيات/ ١- ٢.
(٩) البخاري- فتح الباري ٨/ ٣٦٠، ٦٠٩ (الاحاديث رقم ٤٧٧٠، ٤٩٧١) .

جـ ١(ص: ٢١٦)

من القرآن، اتخذ الدعوة في قريش خطوة أولى لتحقيق رسالته العالمية. والواقع أن كثيرا من الآيات المكيّة كانت تنص على أن القرآن إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ* «١» » «٢» .
وقد أسلم أبوذر الغفاري في هذه المرحلة «٣» ، فقد قدم مكة وكان قد بلغته أخبار ظهور النبي صلّى الله عليه وسلّم فقصد لقاءه، وقد استضافه علي بن أبي طالب، وهيأ له مقابلة الرسول صلّى الله عليه وسلّم واستمع إلى قوله فأسلم، وأمره النبي صلّى الله عليه وسلّم بالرجوع إلى قومه فيدعوهم حتى يأتيه أمره، غير أنه ذهب إلى المسجد الحرام ونادى بأعلى صوته بالشهادتين مما أثار زعماء قريش وضربوه حتى أضجعوه، وتمكن العباس بحكمته من إنقاذه منهم. وقد عاد أبو ذر إلى غفار فأسلم نصفهم وأسلم النصف الثاني بعد الهجرة «٤» .
وفي هذه المرحلة أسلم ضماد، من أزد شنوءة، الذي حدثه الرسول صلّى الله عليه وسلّم ودعاه إلى الإسلام فأسلم «٥» .
وأسلم في هذه المرحلة أيضا الطفيل بن عمرو الدوسي «٦» . وعثمان بن مظعون «٧» ، كما أسلم حمزة بن عبد المطلب، وفي هذه الفترة اشتدت جرأة قريش على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم «٨»
.

(١) القرآن الكريم- سورة التكوير، الآية/ ٢٧.
(٢) عماد الدين خليل- دراسة في السيرة ص/ ٦٦.
(٣) البخاري- فتح الباري ٧/ ١٧٤.
(٤) البخاري- صحيح (فتح الباري ٧/ ١٧٣) ، مسلم- صحيح ٤/ ١٩٣- ٥.
(٥) مسلم- الصحيح ٢/ ٥٩٣.
(٦) ابن كثير- السيرة النبوية ٢/ ٧٦.
(٧) أحمد- المسند ١/ ٣١٨، ابن سعد- الطبقات ١/ ١٧٤- ١٧٥.
(٨) الطبراني- المعجم الكبير ٣/ ١٥٢- ١٥٣.

جـ ١(ص: ٢١٧)

كتابة التنزيل:
كانت الأمة أميّة عند نزول الوحي لم تنتشر بين أفرادها القراءة والكتابة، غير أن هذا لا يعني الانعدام التام للكتابة في جميع الأنحاء، فقد كانت مكة المكرمة منطقة تجارية ولها علاقاتها المستمرة مع اليمن والشام والعراق، ولا شك في أن علاقات التجار وصفقاتهم تقتضي كتابة الاتفاقات والعقود والحسابات وأن تجري المراسلات بينهم وبين نظرائهم الموردين والمستوردين، وعقود القروض والرهون وغير ذلك من المعاملات التجارية. ولقد كان من الثابت انتشار الخط الحميري في اليمن فقد كانت حمير تكتب الخط المسند وهي كتابة تختلف عن الكتابة العربية المعهودة، وقد نقل ابن النديم نموذجا لذلك الخط في خزانة الخليفة المأمون عبد الله بن هارون مما أمر به الخليفة «١» وكذلك الحال في العراق وبلاد الشام حيث انتشرت الكتابة النبطيّة، ثم وضعت الأبجدية العربية لأول مرة في الأنبار والحيرة.
إن المشكلة التي تواجه الباحث في موضوع كتابة آيات التنزيل تحتم عليه الفصل بين أصل الخط العربي ونشأته، وبين ما كان يدونه كتاب النبي صلّى الله عليه وسلّم وخاصة كتاب الوحي من خطوط. وذلك أن مسألة نشأة الخط العربي وأصوله مسألة خاصة لدينا حولها العديد من النظريات والنصوص، ولا يخرج الحديث عنها عن إطار الفرضيات رغم وفرة النصوص، حيث لا يستطيع أحد الجزم بدقتها خاصة في إطار التناقض في وجهات النظر المتعددة في هذا المجال.
أما كتّاب الوحي فلا شك في أنهم باشروا بتدوين آيات الكتاب الحكيم بالخط العربي الذي كان سائدا في مكة المكرمة خلال فترة نزول الوحي، ثم في المدينة بعد الهجرة. وذلك ما يفسر قول ابن النديم «فأول

الخطوط العربية، الخط المكي وبعده المدني «٢» » ولذلك فإنه عاد فأشار إلى النمطين المذكورين في النص نفسه فقال: «فأما المكي والمدني ففي ألفاته تعويج إلى يمنة اليد وأعلى الأصابع وفي شكله انضجاع (يسير) «٣» » «٤» وذلك صريح في أن المقصود بالأولية هو بداية الكتابة في رسم المصاحف أو في فترة الدعوة الإسلامية. ومما يدعم هذا الرأى أن ابن النديم قد نص بعد ذلك على رسم صورة البسملة فاتحة لعنوان «خطوط المصاحف» ثم أورد بعد ذلك العنوان مباشرة ذكرا لعدد كبير من الخطوط «٥» بدأها «بالمكى والمدني» «٦» مما يوحي بمتابعته لتطور خطوط المصاحف في المدينة، ولعل أولهما ما كتبت به صحف التنزيل الكريم، وثانيهما ما كتب به المصحف عند جمعه في عهد الراشدين «٧» . وقد روى البلاذري عن أبي بكر بن عبد الله العدوي قال: «دخل الإسلام (مكة)

---

(١) ابن النديم- الفهرست ص/ ٨.
(٢) المرجع السابق ص/ ٩.
(٣) في الأصل «يصير» ولا معنى لها في الجملة التي انتهت وهى تصحيف.
(٤) الفهرست ص/ ٩.
(٥) تجاوزت العشرين.
(٦) الفهرست ص/ ٩.
(٧) انظر الجمع الأول والجمع الثاني في عهدي الصديق وعثمان بن عفان، في الفصل الثالث من هذا البحث.

وفي قريش سبعة عشر رجلا كلهم يكتب ... » «١» .

لغة القرآن

لقد أكد القرآن الكريم في عدد كبير من المواضع أنه قد أنزل بلسان عربي مبين «٢» ؛ قال تعالى: إِنَّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ «٣» ، وقال سبحانه: وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا «٤» ، ووصفه بأنه: قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ «٥» ، وأنه قد فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا «٦» ، وكذلك إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ «٧» . وبهذا فقد أنزل حُكْماً عَرَبِيًّا «٨» ، وأكد الباري سبحانه لرسوله صلّى الله عليه وسلّم وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا «٩» ، وهذا التأكيد النصي القاطع يحسم المسألة بشكل ثابت ومستقر بأن القرآن الكريم قد نزل بلغة العرب على عمومها، وذلك ما يسر قراءته على الأحرف السبعة التي نصت عليها كتب القراءات وما هو واضح في أبحاث العلماء المختصين في ذلك. على أن ذلك لا يمكن أن يتعارض مع القول بأنه قد نزل بلغة قريش فقد أخرج أبو داود من طريق كعب الأنصاري أن عمر كتب إلى ابن مسعود «أن القرآن نزل بلسان قريش، فأقريء الناس بلغة قريش لا بلغة هذيل» ، وأما عطف العرب عليه فمن عطف العام على الخاص، لأن قريشا من العرب «١٠» . وقد أخرج ابن أبي داود في «المصاحف» من طريق آخر عن عمر قال: «إذا اختلفتم في اللغة فاكتبوها بلسان مضر» . ومضر هو ابن نزار بن معد بن عدنان وإليه تنتهى أنساب قريش وقيس وهذيل وغيرهم «١١» . ثم أبيح أن يقرأ بلغة غيرهم ذلك «أنه نزل أولا بلسان قريش أحد الأحرف السبعة، ثم نزل بالأحرف السبعة المأذون في قراءتها تسهيلا وتيسيرا «١٢» . وأورد الإمام البخاري في باب نزول القرآن على سبعة أحرف حديثا برواية الزهري عن ابن عباس- رضي الله عنهما- «أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «أقرأني جبريل على حرف فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتّى انتهى إلى سبعة أحرف» «١٣» .

ونقل الزهري رواية عن طريق عروة بن الزبير وسمعها عن طريق المسور بن مخرمة وعبد الرحمن بن عبد القارّيّ حدثاه أنهما سمعا عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- يذكر أنه صلّى خلف هشام بن حكيم فقرأ سورة الفرقان في

---

(١) البلاذري- فتوح ٣/ ٥٨٠ (رقم ١١٠٤).
(٢) القرآن الكريم- سورة الشعراء، الآية/ ١٩٥، سورة النحل، الآية/ ١٠٣.
(٣) القرآن الكريم- سورة يوسف، الآية/ ٢.
(٤) القرآن الكريم- سورة طه، الآية/ ١١٣.
(٥) القرآن الكريم- سورة الزمر، الآية/ ٢٨.
(٦) القرآن الكريم- سورة فصلت، الآية/ ٣.
(٧) القرآن الكريم- سورة الزخرف، الآية/ ٣.
(٨) القرآن الكريم- سورة الرعد، الآية/ ٣٧.
(٩) القرآن الكريم- سورة الشورى، الآية/ ٧.
(١٠) البخاري- (فتح الباري ٨/ ٦٢٥) كتاب فضائل القرآن.
(١١) المرجع السابق ٨/ ٦٢٥- ٦.
(١٢) المرجع السابق ٨/ ٦٢٦.
(١٣) المرجع السابق ٨/ ٦٣٩ (حديث رقم ٤٩٩١).

حياة النبي صلّى الله عليه وسلّم قال: «فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم» وقد أنكر عمر عليه ذلك وعرضا الأمر على الرسول صلّى الله عليه وسلّم فلما سمع قراءة هشام قال: «كذلك أنزلت» ، كما أقر عمر على قراءته وقال صلّى الله عليه وسلّم: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فأقرأوا ما تيسر منه» «١» . وكان القرآن يحفظ في صدور الرجال، ويكتب على العسب واللخاف «٢» .

كتّاب الوحي:

أما كتّاب النبي صلّى الله عليه وسلّم فقد اشتهر زيد بن ثابت بينهم رغم أنه أسلم بعد الهجرة واقتصر في الكتابة لذلك على ما نزل في المدينة ولم يكتب من السور المكية شيئا عند الوحي، وحتى في المدينة فربما غاب زيد فيكتب الوحي غيره.

وأول من كتب آيات التنزيل في مكة لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم من قريش عبد الله بن سعد بن أبي سرح «٣» وممن كتب له في الجملة الخلفاء الأربعة، والزبير بن العوام، وخالد وأبان ابنا سعيد بن العاص بن أمية، وحنظلة بن الربيع الأسدي، ومعيقب بن أبي فاطمة وعبد الله بن الأرقم الزهري، وشرحبيل بن حسنة وعبد الله بن رواحة في آخرين.

وكان أبي بن كعب هو أول من كتب له بالمدينة «٤» .

وروى الإمام أحمد، وأصحاب السنن الثلاثة وصححه ابن حبان والحاكم من حديث عبد الله بن عباس عن عثمان بن عفان قال: «كان الرسول صلّى الله عليه وسلّم مما يأتي عليه الزمان ينزل عليه من السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنده فيقول: «ضعوا هذه في السّورة الّتي يذكر فيها كذا» الحديث «٥» .

وفي رواية الواقدي عن أشياخه: «إن أول من كتب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم مقدمه المدينة أبيّ بن كعب الأنصاري، وهو آخر من كتب في آخر الكتاب وكتب فلان، فكان أبيّ إذا لم يحضر دعا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم زيد بن ثابت الأنصاري فكتب له، فكان أبيّ وزيد يكتبان الوحي بين يديه، وكتبه إلى من يكاتب من الناس وما يقطع وغير ذلك» «٦» .

قال الواقدي: وأول من كتب له من قريش عبد الله بن سعد بن أبي سرح، ثم ارتد ورجع إلى مكة وقال لقريش: أنا آتي بمثل ما يأتي به محمد، وكان يملّ عليه «الظالمين» فيكتب «الكافرين» يمل عليه «سميع عليم» فيكتب «غفور رحيم» وأشباه ذلك. فأنزل الله تعالى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ «٧» .

---

(١) البخاري- (فتح الباري ٨/ ٦٣٩- ٦٤٠- حديث رقم ٤٩٩٢) .
(٢) البخاري- فتح الباري (باب جمع القرآن) ٨/ ٦٢٧ وورد في رواية ابن عيينة عن الزهري «القصب والعسب والكرانيف وجرائد النخل» ووقع في رواية شعيب «من الرقاع» جمع رقعة وقد تكون من جلد أو ورق أو كاغد، وفي رواية ابن غزيّة «وقطع الأديم» ، وفي رواية ابن أبي داود «والصحف» ، فتح الباري ٨/ ٦٣١.
(٣) ارتد ثم عاد إلى الإسلام يوم الفتح، فتح الباري ٨/ ٦٣٩، وقول ابن حجر: في الجملة: يعني في مكة والمدينة.
(٤) البخاري- (فتح الباري ٨/ ٦٣٩) باب: كاتب النبي صلّى الله عليه وسلّم.
(٥) المرجع السابق ٨/ ٦٣٩.
(٦) البلاذري- فتوح البلدان ٣/ ٥٨٢ (حديث ١١١٢) .
(٧) القرآن الكريم- سورة الأنعام، الآية/ ٩٣، وانظر عن الرواية: المصدر السابق ٣/ ٥٨٢ (حديث ١١١٢) .

فلما كان يوم الفتح أمر الرسول صلّى الله عليه وسلّم بقتله فكلمه فيه عثمان بن عفان وقال: «أخي من الرضاعة وقد أسلم» فأمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بتركه «١» .
وتذكر المصادر الموثقة أن معاوية بن أبي سفيان أسلم عام الفتح «٢» ، وأنه كتب للرسول صلّى الله عليه وسلّم أيضا «٣» .
وقال الواقدي وغيره: وكتب حنظلة بن الربيع بن رباح الأسيدي، من بني تميم، بين يدى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مرة فسمي حنظلة الكاتب «٤» .
ويبدو أن الكتابة كانت قليلة في المدينة كما هو الحال في مكة، فيذكر الواقدي أنه «كان الكتّاب بالعربية في الأوس والخزرج قليلا، وكان بعض اليهود قد علم كتاب (كتابة) العربية، وكان يعلمه الصبيان بالمدينة في الزمن الأول، وجاء الإسلام وفي الأوس والخزرج عدة يكتبون وهم: سعد بن عبادة بن دليم، والمنذر بن عمرو، وأبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت- وكان يكتب بالعربية والعبرانية- ورافع بن مالك، وأسيد بن حضير، ومعن بن عديّ البلوي حليف الأنصار، وبشير بن سعد، وسعد بن الربيع، وأوس بن خولي، وعبد الله بن أبيّ «المنافق» «٥» . وعدد البلاذري من أسماهم «الكملة» ، وهم الذين جمعوا العوم والرمي إلى الكتابة، فذكر خمسة من كتاب المدينة، في الإسلام مميزا لهم عن اثنين «ممن جمع هذه الأشياء في الجاهلية من أهل يثرب» وهما سويد بن الصامت وحضير الكاتب «٦» كما ذكر كاتبا نصرانيا من أهل الحيرة كان في المدينة، وهو جفينة العبادي، والذي استمر يسكن المدينة حتى نهاية عهد عمر ابن الخطاب «٧» .
وأورد البلاذري رواية عن أبي الزناد عن خارجة بن زيد بن ثابت ذكر فيها أن الرسول صلّى الله عليه وسلّم كان قد أمره أن يتعلم كتابة العبرانية، فتعلمها، فكان يكتب له إلى يهود، ويقرأ له ما يكتبون إليه به «٨» .

الدعوة في مكة

نزلت معظم سور القرآن الكريم على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في مكة. وكانت القضية الكبرى والمحورية التي ركّز عليها القرآن في معظم سوره وآياته المكية هي قضية أن «لا إله إلّا الله وحده لا شريك له» وهو التوحيد المطلق والخالص لله سبحانه وتعالى وإفراده وحده بالعبادة وعدم صرف شيء منها لغير الله. فالوحدانية المطلقة هي القضية الأساسية التي قامت عليها دعوة الأنبياء عليهم السلام من لدن آدم عليه السلام إلى محمد صلّى الله عليه وسلّم.

لقد كانت مهمة الأنبياء جميعا توضيح وبيان توحيد الله «٩» سبحانه وتعالى وإفراده وحده بالربوبية والألوهية وأن يوصف بما وصف به نفسه أو وصفه به أنبياؤه من غير تحريف ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل. وبعد أن يتضح

---

(١) البلاذري- فتوح البلدان ٣/ ٥٨٢.

(٢) الاستيعاب ٣/ ٣٩٥، أسد الغابة ٤/ ٣٨٥، البداية والنهاية ٨/ ١٩- ١٤٦.

(٣) البلاذري- فتوح البلدان ٣/ ٥٨٢.

(٤) المرجع السابق ٣/ ٥٨٢.

(٥) المرجع السابق ٣/ ٥٨٣ (حديث ١١١٣) .

(٦) المرجع السابق ٣/ ٥٨٣.

(٧) المرجع السابق ٣/ ٥٨٣، ويذكر الواقدي بأنه كان ظئرا لسعد بن أبي وقاص وأن عبيد الله بن عمر اتهمه بمشايعة أبي لؤلوة المجوسي على قتل أبيه.

(٨) المرجع السابق ٣/ ٥٨٣ (حديث ١١١٥) .

(٩) انظر صفة التوحيد.

جـ ١(ص: ٢٢١)

توحيد الله في العقول، ويسكن في القلوب، وتطمئن به النفوس، عند ذلك يبدأ العمل بتنفيذ أوامر الله سبحانه وتعالى واجتناب نواهيه وتأدية ما فرضه الله على العباد وفق ما جاء به وحيه، أو أمر به رسوله صلّى الله عليه وسلّم ثم يبدأ التنافس بين العباد في الأعمال الصالحة. ولذلك نجد جوهر دعوة النبي محمد صلّى الله عليه وسلّم واضحة جلية في كثير من الآيات والسور التي نزلت بمكة، ومنها على سبيل المثال قول الله تعالى: قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ* وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها وَإِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ* وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ «١» .

ويجمل شيخ الإسلام ابن تيمية دعوة النبي الكريم محمد صلّى الله عليه وسلّم بقوله: «وعامة السور المكية كالأنعام والأعراف ... هي الأصول الكلية التي اتفقت عليها شرائع المرسلين كالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له والصدق والعدل والإخلاص، وتحريم الظلم والفواحش والشرك بالله والقول على الله بلا علم» «٢» .

شرع النبي الكريم محمد صلّى الله عليه وسلّم يبين حقيقة أن «لا إله إلّا الله» التي تعني الوحدانية المطلقة لله سبحانه وتعالى وعدم صرف أي شيء من أنواع العبادة لغير الله، «فالإنسان ليس عبدا لكائن في الأرض أو عنصر في السماء، لأن كل شيء في السماء والأرض عبد لله، يعنو لجلاله ويذل في ساحته ويخضع لحكمه، وليس هناك شركاء ولا شفعاء ولا وسطاء، ومن حق كل امرىء أن يهرع إلى ربه رأسا غير مستصحب معه خلقا آخر، كبيرا أو حقيرا. واجب على كل امرىء أن ينكر من أقاموا أنفسهم أو أقامهم غيرهم للتقرب إلى الله زلفى، وأن ينزل بهم إلى مكانهم المحدود سواء كانوا بشرا أو حجارة أو ما سوى ذلك، ويجب أن تبنى جميع الصلات الفردية والجماعية على أساس تفرد الله في

ملكوته بهذه الوحدانية التامة. ونتيجة هذه العقيدة أن الحجارة التي يعبدها العرب أصبحت لا تزيد عن الحجارة التي تبنى بها البيوت أو ترصف بها الطرق» «٣» .
أبعاد تأثير الدعوة على مجتمع مكة:
جاء الرسول محمد صلّى الله عليه وسلّم بدعوة، قلبت حياة البشر رأسا على عقب، ولم تكن تلك الدعوة تتناول عقيدتهم وحدها، بل شملت حياتهم في جميع مظاهرها: في السياسة، وفي الاجتماع، وفي المال، وفي البيت. ولم يكن طبعيا ولا مألوفا أن ينكروا ما وجدوا عليه آباءهم وبلادهم طواعية، فكان لا بدّ لهم من التصدي لهذه الدعوة، ومقاومة صاحبها، ليرجع إلى الصف الذي خرج عنه، فيعظّم حرماتهم التي يعظّمون.
ولهذا فقد قاومت قريش الدعوة التي نقضت عقيدتها الفاسدة والمنحرفة، والرسول صلّى الله عليه وسلّم الذي كان يدعو

---

(١) القرآن الكريم- سورة الأنعام، الآيات/ ١٥١- ١٥٣.
(٢) ابن تيمية- الجواب الصحيح ٣/ ٣٦٠.
(٣) محمد الغزالي- فقه السيرة ص/ ٩٢- ٩٣.

إلى التوحيد، وينذر بالبعث «١» ، فلا هي راضية بإله غير آلهتها، ولا هي واجدة في البعث والحساب الذي ينذرها به ما تعقله أو ترضاه.
ولو أن محمدا صلّى الله عليه وسلّم قصر دعوته على التوحيد، وتسفيه أحلام القوم، لكفى بذلك إعناتا، ولكنه زيادة على ذلك دعا إلى الإيمان بالبعث، فاستغربوا ذلك، واستبعدوه كل الاستبعاد، وقالوا: أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ* «٢» .
لقد سخروا من هذه الفكرة، واستدلّوا بها على ضعف رأي صاحب الدعوة. مشى إليه يوما أبيّ بن خلف بعظم بال، فقال: يا محمّد، أنت تزعم أنّ الله يبعث هذا! ثمّ فتّه بيده، ثمّ نفخه في الرّيح نحو رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فردّ القرآن على ذلك بقوله:
وَضَرَبَ لَنا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ* قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ «٣» .
صدمت الدعوة إلى التوحيد والبعث دين قريش وعقلها فسخرت لذلك قريش من الداعي، ثم هبت إلى الإيذاء والعدوان.
لم يكتف محمد صلّى الله عليه وسلّم بدعوته هذه التي كانت غريبة في رأي القوم، بل زاد عليها أن دعا إلى تحريم الخمر، والزنا، والميسر، والربا. وقريش لا تستغني عن هذه الأربعة، ففيها متعهم، وفيها تفاخرهم، وفيها غناهم وثروتهم.
فربا قريش كان في القبائل كلها، والرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم يريد أن يحرم عليها ما تعدّه من طيبات الحياة، ومصادر الثروة، فأنّى لها أن تستطيع على ذلك صبرا؟.
لم يكتف الرسول صلّى الله عليه وسلّم بالتوحيد، والبعث، وتحريم بعض ما طاب لنفوس القوم، بل دعا كذلك إلى أمر غريب عليهم، مستنكر لديهم، ذلك هو حق المساواة، وهم الذين قضوا أعمارهم في التفاخر بالأحساب والأنساب. فما بال محمد صلّى الله عليه وسلّم يخرج عليهم بالمساواة بين السادة والعبيد، ويجعل الناس سواسية كأسنان المشط؟
إنها للكبيرة التي لن ترضى قريش أن تقرّه عليها، قريش التي أنفت أن تسوّى بالناس، فحرّفت لذلك دينها، وأنفت أن تقف على عرفة، وأن تفيض منها كما يقف الناس ويفيضون، وهي تعلم أن ذلك من مشاعر إبراهيم وفرائض الحج. قريش التي ألزمت العرب ألا يطوفوا بالبيت في أثواب جاءوا بها من البدو، فطافوا عراة ... قريش التي كانت تختص بأنواع الامتياز التي جعلتها لنفسها كما تشاء، كيف

ترضى للرسول صلّى الله عليه وسلّم أن يدعو للمساواة المطلقة، وأن يقول لعشيرته: «يا بني هاشم لا يجئني النّاس بأعمالهم وتجيئوني بأنسابكم ... » .
بل من الغريب أن محمدا صلّى الله عليه وسلّم، وهو في بيت الرياسة من قريش، وفي طليعة الممتازين، رفض في الجاهلية ضروب هذا الامتياز، وسوّى نفسه ببقية الأمة قبل أن يكون رسولا يوحى إليه.
إن دخول المستضعفين في دين الإسلام أزعج زعماء قريش وخافوا مغبته فأرسلوا لمحمد صلّى الله عليه وسلّم يقولون:
«اطرد هؤلاء عنك ونحن لا نرى بأسا من اعتناق دينك» فرفض الرسول صلّى الله عليه وسلّم هذا العرض، فبعثوا إليه مرة أخرى

---

(١) انظر صفة الإنذار.
(٢) القرآن الكريم- سورة الصافات، الآية/ ١٦.
(٣) القرآن الكريم- سورة يس، الآيات/ ٧٨- ٧٩.

يقولون له: «إن لم يكن من بقائهم بدّ فليكونوا في مؤخرة الصفوف ونتولى نحن الصدارة» ففكر الرسول صلّى الله عليه وسلّم في هذا العرض الجديد، إن الصدارة إنما يظفر بها أهل الكفاية وأصحاب السبق في الإيمان والعمل، أيمكن أن تكل المؤمنين إلى إيمانهم، وتتألف هؤلاء الأقوياء بإحلالهم في مكان الصدارة حتى إذا تشرّبت أفئدتهم الإيمان كاملا تركوا هذه العنجهية من تلقاء أنفسهم.
وبينما رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في هذه المقابلة نزل الوحي بحسم القضية كلها وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ* وَكَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ «١» .
وهكذا ألقت السماء كلمتها إن المبادىء لا يضحّى بها ولو من ناحية الشكل ومن دخل في دين الله فيلخلع عن نفسه أردية الجاهلية كلها، ولا يشعر بأنه أرجح من غيره لامتيازات مبهمة مدّعاة «٢» .
لم تستطع قريش صبرا على الدعوة إلى المساواة، فبطشت بالعبيد، وقست على المستضعفين الذين وجدوا في قول النبي صلّى الله عليه وسلّم إنصافا.
ولم يكتف النبي بأن عاب أوثانها، وأنذرها ببعث وحساب شديد، وقوّض جاهها وسلطانها، وحرمها شهواتها والاتجار بالربا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا «٣» وسوى بينها وبين العبيد المستضعفين، بل قام يطلب لهؤلاء العبيد والفقراء وأبناء السبيل حقّا في أموال الأغنياء: وَالَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ* لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ «٤» يؤخذ منهم قسرا، ويضرب عليهم ضريبة، وما كان أبغض إلى نفوس القوم من ضريبة يؤدونها مفروضة! فلما انتقل الرسول صلّى الله عليه وسلّم إلى الرفيق الأعلى كانت تلك الضريبة أول ما عصوا عليه، وارتدوا من أجله.
ذلك مجمل من القول يصوّر حالة المجتمع الذي قام فيه محمد صلّى الله عليه وسلّم داعيا إلى الله، وإلى نظام سياسي واقتصادي واجتماعي بغيض إلى القوم. وقد صوّر ذلك القرآن في أبدع إيجاز بهذه الآية:
وَقالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا «٥» .
ويجيب القرآن على قولهم هذا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ* وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ* وَما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلَّا وَأَهْلُها ظالِمُونَ «٦» .
كما أن النبي محمدا صلّى الله عليه وسلّم ذكّر قومه قريشا بفضل الله عليهم وطالبهم بشجاعة وإصرار بترك آلهتهم

---

(١) القرآن الكريم- سورة الأنعام، الآيات/ ٥٢- ٥٣.
(٢) محمد الغزالي- فقه السيرة ص/ ٩٠- ٩٣.
(٣) القرآن الكريم- سورة البقرة، الآية/ ٢٧٥.
(٤) القرآن الكريم- سورة المعارج، الآيات/ ٢٤- ٢٥، وانظر صفة «الزكاة» .
(٥) القرآن الكريم- سورة القصص، الآية/ ٥٧.
(٦) القرآن الكريم- سورة القصص، الآيات/ ٥٧- ٥٩.

وأصنامهم وأن يعبدوا الله وحده ربّ حرمهم الآمن بلفظ واضح جامع: لِإِيلافِ قُرَيْشٍ* إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَالصَّيْفِ* فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ* الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ «١» .
ولقد نقل النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى قومه ما جاء به القرآن الكريم في وصف القيامة ومشاهدها ووصف الجنة وما فيها من نعيم للمؤمنين والنار وما فيها من عذاب مهين للكافرين، فنجد سورا كاملة تتحدث عن ذلك «٢» . ويعلق شيخ الإسلام ابن تيمية على ذلك بقوله: «وأما وصف القيامة الكبرى في الكتاب والسنة، فكثير جدّا، لأن محمدا صلّى الله عليه وسلّم خاتم الأنبياء وقد بعث بين يدي الساعة فلذلك وصف القيامة بما لم يصفها به غيره» «٣» .
وقد واصل النبي صلّى الله عليه وسلّم عرض دعوته على قومه، وأخذت الآيات البينات تتنزل عليه من ربه تبين لهم أن تلك الأصنام التي يعبدونها من دون الله لا تضر ولا تنفع، وتنذرهم بأن من يعبدها ويموت على ذلك فمصيره إلى النار وبئس القرار.
ولم يكن النبي صلّى الله عليه وسلّم يخاطبهم بلسانهم فحسب، بل كان يخاطبهم بتلاوة كلام الله عليهم، ذلك الكلام العربي المبين الذي يهزهم بفصاحته وبلاغته، وكانت كثير من سور القرآن تبتديء بحروف لها وقع غريب تلفت انتباههم وتشدهم ثم يتلوها كلمات لها معان لم يسمعوا بها قط. يتلوها عليهم، كما نزلت عليه من عند ربّه ليخبرهم برسالته ويعلمهم بحالهم وحاله حم* تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ* كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ* بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ* وَقالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ وَفِي آذانِنا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ* قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ «٤» .
ثم يعود ليؤكد لهم بالأسلوب نفسه والطريقة ذاتها أنه رسول الله إليهم وإلى الناس أجمعين لينذرهم ويوضح لهم جوهر دعوته إلى ربه: الر كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ* اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ شَدِيدٍ* الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً أُولئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ* وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ «٥» .
أصبحت قريش بعد كلّ هذا في حيرة من أمر ابنهم هذا الذي أعجزهم بلغتهم وهم سادة لسان العرب.
وكان أبو طالب في هذه الفترة قد حدب على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ومنعه وقام دونه، ومضى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على أمر الله مظهرا لأمره، لا يرده عنه شيء، فلما رأت قريش أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لا يعتبهم (أي لا يرضيهم) من شيء وأنكروه عليه

(١) القرآن الكريم- سورة قريش، الآيات ١- ٤.
(٢) منها على سبيل المثال لا الحصر سور: ق، الطور، الرحمن، الواقعة، الحاقة، المعارج، المدثر، القيامة، الإنسان، المرسلات، النبأ، النازعات، عبس، الانفطار، الانشقاق ... وغيرها.
(٣) ابن تيمية- الجواب الصحيح، ص/ ٩٩.
(٤) القرآن الكريم- سورة فصلت، الآيات/ ١- ٦.
(٥) القرآن الكريم- سورة إبراهيم، الآيات/ ١- ٤.

جـ ١(ص: ٢٢٥)

ورأوا أن عمه أبا طالب قد حدب عليه وقام دونه، فلم يسلمه لهم مشى رجال من أشرافهم إلى أبي طالب «١» ، فقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا، وضلل آباءنا، ف إما أن تكفه عنا، وإما أن تخلى بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه، فقال لهم أبو طالب قولا رفيقا، وردهم ردا جميلا فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على ما هو عليه يظهر دين الله. فذهب الوفد مرة أخرى إلى أبي طالب، فقالوا له: يا أبا طالب: إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك عن ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين ... ثم انصرفوا عنه، فعظم على أبي طالب فراق قومه وعدوانهم، ولم يطب نفسا بتسليم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لهم ولا خذلانه، فدعا أبو طالب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقال له: يابن أخي: إن قومك قد جاؤوني فقالوا لي كذا وكذا فأبق عليّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق، فقال عليه الصلاة والسلام: «يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه ما تركته» «٢» ، ثم استعبر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فبكى ثم قال، فلما ولى ناداه أبو طالب، فقال: أقبل يابن أخي، فأقبل عليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: اذهب يابن أخي فقل ما أحببت، فو الله لا أسلمك لشيء أبدا «٣» .

ولما فشل المشركون مع أبي طالب في أن يتخلى عن النبي صلّى الله عليه وسلّم عمدوا إلى المستضعفين من المسلمين فأنزلوا بهم من الأذى والاضطهاد والتعذيب الشيء الكثير «٤» . ولما ازداد الأذى بالمسلمين أمرهم النبي صلّى الله عليه وسلّم بالهجرة إلى الحبشة لأنها أرض صدق وبها ملك لا يظلم أحدا، فهاجر عدد من الرجال والنساء في السنة الخامسة ثم لحق بهم مهاجرون آخرون بعد بضعة شهور حتى وصلوا إلى ثلاثة وثمانين رجلا مع بعض النساء.

وخافت قريش من انتشار الإسلام خارج مكة فأرسلت رجلين إلى النجاشي ملك الحبشة بهدايا قيمة بغية استعادة المهاجرين إلى مكة، فلما طلبا من النجاشي تسليمهم استدعاهم النجاشي وسألهم عن أمرهم فتحدث نيابة عنهم جعفر بن أبي طالب- رضي الله عنه- وعرض في إيجاز جوهر دعوة الرسول صلّى الله عليه وسلّم حيث قال:

«أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٩٧، وقد ذكر ابن هشام من هؤلاء عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، وأبو البختري، والأسود بن عبد المطلب، وأبو جهل، والوليد بن المغيرة، وغيرهم.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٢٩٩، وتاريخ الطبري ٢/ ٣٢٦، سيرة ابن كثير ١/ ٤٧٤- ٤٧٥.

(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٢٩٩، وقارن بالمراجع العديدة التي ذكرت هناك.

(٤) ابن تيمية- الجواب الصحيح ١/ ١٩٤، البلاذري- أنساب الأشراف ١/ ١٥٨- ١٩٧.

جـ ١(ص: ٢٢٦)

والزكاة والصيام- فعدد عليه أمور الإسلام- فصدّقناه وآمنا به، واتّبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرّم علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من

الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك» ، فرفض النجاشي تسليم المهاجرين لمبعوثي قريش وتعهد بحمايتهم «١» .
ثم لجأت قريش إلى ترويج الاتهامات الباطلة لصد الناس عن النبي صلّى الله عليه وسلّم ومن ذلك أنهم اتهموه بالجنون.
وفي ذلك نزل قول الله تعالى: وَقالُوا يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ «٢» . وقد أجابهم الله في سورة القلم ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ «٣» ، وحكى ذلك عنهم في قوله وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ «٤» . واتهموه بالسحر وفي ذلك نزل قوله تعالى: وَعَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقالَ الْكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ «٥» ، وَقالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً «٦» .
وقد تحير الوليد بن المغيرة فيما يصف به القرآن. فعندما أوشك دخول موسم الحج جمع فريقا من عتاة المعاندين، فقال لهم: «يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيا واحدا، ولا تختلفوا فيكذّب بعضكم بعضا ... » وعلى الرغم من استبعادهم أنه كاهن أو شاعر أو ساحر إلّا أنهم اتفقوا على أن يقولوا للناس إنه ساحر، لأنه يفرق بين الأقارب، فأنزل الله في الوليد ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ... «٧» ثم أخذوا يتلقون الناس يحذرونهم من أمر محمد صلّى الله عليه وسلّم وشاء الله أن تصدر العرب من ذلك الموسم وقد شاع بينهم أمر الدعوة وأخبار الرسول صلّى الله عليه وسلّم، فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها «٨» وكان مثل هذه المواقف سببا في إسلام الناس في المواسم.
واتهموه بالكذب، وفي ذلك يقول الله تعالى: وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذا إِلَّا إِفْكٌ افْتَراهُ وَأَعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ «٩» .

---

(١) ابن هشام- السيرة ١/ ٢٠٦- ٢٠٧، أحمد- المسند ١/ ٢٠١- ٢٠٣، البيهقي- دلائل النبوة ٢/ ٣٠١- ٣٠٤، ابن عبد البر- الدرر في اختصار المغازي والسير ص/ ٩٣- ٩٤، الذهبي- السيرة النبوية ص/ ١١٦- ١١٩ وقال الألباني إنّ سنده صحيح، وانظر: محمد الغزالي- فقه السيرة ص/ ١١٥ حاشية رقم (٢) .
(٢) القرآن الكريم- سورة الحجر، الآية/ ٦.
(٣) القرآن الكريم- سورة القلم، الآية/ ٢ .
(٤) القرآن الكريم- سورة القلم، الآية/ ٥١.
(٥) القرآن الكريم- سورة ص، الآية/ ٤.
(٦) القرآن الكريم- سورة الفرقان، الآية/ ٨.
(٧) القرآن الكريم- سورة المدثر، الآية/ ١١. وانظر الآيات التي بعد هذه الآية في صفات الوليد.
(٨) ابن هشام- السيرة (٢/ ٣٣٤- ٣٣٧) من رواية ابن إسحاق، ورواه الطبري في تفسيره (١٤/ ١٥٧) من طريق ابن إسحاق أيضا.
(٩) القرآن الكريم- سورة الفرقان، الآية/ ٤. وانظر تفسيرها في زاد المسير (٦/ ٧٢- ٧٣) . قال مجاهد في قوله وَأَعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ: يعنون اليهود. وقال مقاتل: أشاروا إلى عداس مولى حويطب ويسار غلام عامر بن الحضرمي وحبر مولى لعامر أيضا، وثلاثتهم من أهل الكتاب.
جـ ١(ص: ٢٢٧)

واتهموه بالإتيان بالأساطير. قال تعالى: وَقالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا «١» .
واتهموا المؤمنين بالضلالة.. وَإِذا رَأَوْهُمْ قالُوا إِنَّ هؤُلاءِ لَضالُّونَ «٢» .

أذى المشركين للرسول صلّى الله عليه وسلّم

واجهت قريش الرسول صلّى الله عليه وسلّم بالسخرية والاستهزاء والضحك والغمز واللمز والتعالي عليه صلّى الله عليه وسلّم وعلى المؤمنين.
يقول الله تعالى عن سخريتهم من الذين آمنوا: وَكَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ «٣» وروى البخاري «٤» أن امرأة قالت للرسول صلّى الله عليه وسلّم ساخرة مستهزئة: «إنّي لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثا!»
فأنزل الله تعالى: وَالضُّحى * وَاللَّيْلِ إِذا سَجى * ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى «٥» .
وروى البخاري «٦» أن أبا جهل قال مستهزئا: اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ» . فنزلت: وَإِذْ قالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ* وَما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ* وَما لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَما كانُوا أَوْلِياءَهُ إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ «٧» .
وقال الله تعالى عن ضحكهم وغمزهم: إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ* وَإِذا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغامَزُونَ* وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ «٨» .
ومن منطلق الاستعلاء والسخرية، قال المشركون للنبي صلّى الله عليه وسلّم: «لا نرضى بمجالسة أمثال هؤلاء- يعنون صهيبا وبلالا وخبّابا- فاطردهم عنك» . فهمّ النبي صلّى الله عليه وسلّم بذلك طمعا في إسلامهم وإسلام قومهم، فأنزل الله تعالى وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ «٩» .
ومر الرسول صلّى الله عليه وسلّم يوما بجماعة من زعماء قريش فهمزوه واستهزؤوا به، فغاظه ذلك، فأنزل الله- عز وجل-

---

(١) القرآن الكريم- سورة الفرقان، الآية/ ٥. قال المفسرون: إن الذي قال هذا هو النضر بن الحارث. انظر: زاد المسير (٦/ ٦٣) .
(٢) القرآن الكريم- سورة المطففين، الآية/ ٣٢.
(٣) القرآن الكريم- سورة الأنعام، الآية/ ٥٣.
(٤) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٨/ ٥٨٠) . وقد وردت أقوال أخرى في سبب نزول هذه الآيات، منها المقبول ومنها المردود، انظر ابن حجر: الفتح (٨/ ٥٨١) .
(٥) القرآن الكريم- سورة الضحى، الآيات/ ١- ٣، ونص البخاري: «اشتكى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فلم يقم ليلتين أو ثلاثا، فجاءت امرأة فقالت: يا محمد إني لأرجو ... » الحديث.
(٦) فتح الباري (١٧/ ١٨٥/ ح ٤٦٤٨) .
(٧) القرآن الكريم- سورة الأنفال، الآيات/ ٣٢- ٣٤.
(٨) القرآن الكريم- سورة المطففين، الآيات/ ٢٩- ٣١.
(٩) القرآن الكريم- سورة الأنعام، الآية/ ٥٢. وانظر سبب نزولها في تفسير الطبري (١١/ ٣٧٤- ٣٨٨) وقد جمع الطبري الآثار الواردة في ذلك، وخرجها وحققها الشيخ شاكر. وما أثبتنا معناه هنا في المتن هو مضمون الأثر رقم (١٣٢٥٨) بإسناد صحيح. وقد روى مسلم والنسائي بعضه من حديث سعد بن أبي وقاص.

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ* «١» . كما كان المشركون يتواصون بينهم بافتعال ضجة عالية وصياح منكر عند ما يقرأ القرآن، حتى لا يسمع فيفهم فيترك أثرا في عقل نقي وقلب طيب.
وفي ذلك قال المولى- عز وجل-: وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ «٢» .
لجوء المشركين إلى المطالبة بالمعجزات:
وطالبت قريش أن يريهم الرسول صلّى الله عليه وسلّم معجزات أو مزايا ليست عند البشر العاديين: من ذلك قولهم ... مالِ هذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً* أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْها «٣» فرد عليهم الله تعالى: وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ «٤» .
وقولهم: وَقالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً* أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيراً* أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلًا* أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ. ولذا قال لهم الرسول صلّى الله عليه وسلّم كما جاء في الآية نفسها قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا «٥» .
وسألوه أن يسيّر لهم جبال مكة، ويقطع لهم الأرض ليزرعوها، ويبعث لهم من مضى من الآباء الموتى أمثال قصي ليسألوه عن صدق محمد، ورد الله عليهم في قوله: وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً «٦» ، ولقد كان طلبهم على وجه العناد، لا على وجه طلب الهدى والرشاد. قال تعالى:
وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِها قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَما يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ «٧» وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتى وَحَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ «٨» . وقال تعالى: وَما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ... «٩» .

---

(١) القرآن الكريم- سورة الأنعام، الآية/ ١٠. وذكر ذلك ابن إسحاق بلاغا- ابن هشام- السيرة (٢/ ٤٢) . ولم يذكر المفسرون سببا معينا لهذه الآية. ومن ذكره منهم رواه من طريق ابن إسحاق، مثل ابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٣/ ٥) .
(٢) القرآن الكريم- سورة فصلت، الآية/ ٢٦، انظر زاد المسير (٧/ ٢٥٢) .
(٣) القرآن الكريم- سورة الفرقان، الآيات/ ٧- ٨.
(٤) القرآن الكريم- سورة يونس، الآية/ ١٥.
(٥) القرآن الكريم- سورة الإسراء، الآيات/ ٩٠- ٩٣.
(٦) القرآن الكريم- سورة الرعد، الآية/ ٣١. وانظر سبب نزولها عند ابن كثير- التفسير (٤/ ٣٨٢) ، والطبري- التفسير (١٦/ ٤٤٦- ٤٥٠/ شاكر) متلا إلى ابن عباس- رضي الله عنهما- ومرسلا إلى مجاهد والضحاك، ابن إسحاق- بدون إسناد: ابن هشام- السيرة (١/ ٣٨١) ، الشامي: سبل الهدى (٢/ ٤٥٦- ٤٥٧) من خبر رواه أبو يعلى وأبو نعيم عن الزبير بن العوام، وفي (٢/ ٤٥٢) حول هذا الخبر من رواية ابن إسحاق وابن جرير والبيهقي- كما قال.
(٧) القرآن الكريم- سورة الأنعام، الآية/ ١٠٩.
(٨) القرآن الكريم- سورة الأنعام، الآية/ ١١١.
(٩) القرآن الكريم- سورة الإسراء، الآية/ ٥٩.

لجوء قريش إلى المفاوضات

حاولت قريش من خلال أسلوب المساومة الذي اكتسبته وأتقنته من خلال خبرتها الطويلة في التجارة، أن يلتقي الإسلام والجاهلية في منتصف الطريق، وذلك بأن يترك المشركون بعض ماهم عليه، ويترك النبي صلّى الله عليه وسلّم بعض ما هو عليه. قال تعالى وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ «١» .
وعند ما قالوا له اعبد آلهتنا يوما ونعبد إلهك يوما، أنزل الله تعالى سورة الكافرون: قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ* لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ* وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ* وَلا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ* وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ* لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ «٢» وحسم بذلك هذه المساومة الهزلية.
وكانوا قد ساوموا عمه فيه، حين اقترحوا عليه بأن يعطوه عمارة بن الوليد بن المغيرة بدلا عن محمد صلّى الله عليه وسلّم فيأخذوه ويقتلوه «٣» .
وعند ما اشتكى أبو طالب مرض موته، وبلغ قريشا ثقله، قال بعضهم لبعض: إن حمزة وعمر قد أسلما وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش كلها. فانطلقوا بنا إلى أبي طالب فليأخذ لنا على ابن أخيه وليعطه منا فإنا والله ما نأمن أن يبتزونا أمرنا. وعند ما جاء وفدهم إلى أبي طالب، قال لمحمد صلّى الله عليه وسلّم: «يابن أخي هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليعطوك وليأخذوا منك» . فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «نعم كلمة واحدة يعطونيها يملكون بها العرب وتدين لهم بها العجم» . وفي رواية: «تدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم بها العجم الجزية» . ففزعوا لكلمته ولقوله.
فقال القوم: كلمة واحدة؟ قال: نعم. فقال أبو جهل: نعم وأبيك عشر كلمات. قال: «تقولون لا إله إلّا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه» . فصفقوا بأيديهم ثم قالوا: يا محمد تريد أن تجعل الآلهة إلها واحدا؟ إن أمرك لعجب. ثم قال بعضهم لبعض: ما هذا الرجل بمعطيكم شيئا مما تريدون فانطلقوا وامضوا على دينكم حتى يحكم الله بينكم وبينه. ثم تفرقوا، فأنزل الله فيهم أول سورة «ص» ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ* بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقاقٍ* كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنادَوْا وَلاتَ حِينَ مَناصٍ* وَعَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقالَ الْكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ* أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ* وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ* ما سَمِعْنا بِهذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ* أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ* أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ* أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ «٤» .

---

(١) القرآن الكريم- سورة القلم، الآية/ ٩.
(٢) القرآن الكريم- سورة الكافرون، الآيات/ ١- ٦.
(٣) ابن هشام- السيرة (١/ ٣٣٠) من رواية ابن إسحق بدون إسناد.
(٤) القرآن الكريم- سورة ص، الآيات/ ١- ١٠.
جـ ١(ص: ٢٣٠)

لجوء قريش إلى سبّ القرآن ومنزله ومن جاء به:
روى البخاري «١» ومسلم «٢» والترمذي «٣» وغيرهم في قوله تعالى: وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخافِتْ بِها أن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «نزلت ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم مختف بمكة. كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمع المشركون قراءته سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به، فقال الله تعالى لنبيه محمد صلّى الله عليه وسلّم: وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن وَلا تُخافِتْ بِها عن أصحابك فلا تسمعهم وَابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلًا «٤» .
وروى ابن إسحق «٥» أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان إذا جهر بالقرآن وهو يصلي تفرقوا عنه وأبوا أن يسمعوا منه، وكان الرجل إذا أراد أن يستمع من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعض ما

يتلو وهو يصلي يسترق السمع فرقا منهم، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع ذهب خشية أذاهم ولم يستمع، وإن خفض رسول الله صلّى الله عليه وسلّم صوته لم يسمعوا شيئا من قراءته، فأنزل الله تعالى وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ أي فيتفرقوا عنك، وَلا تُخافِتْ بِها فلا يسمع من أراد أن يستمعها ممن يسترق ذلك دونهم لعله يرعوي إلى بعض ما يسمع فيقتنع به وَابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلًا.

وعند ما كان المسلمون يسبون أصنام الكفار، أخذ المشركون يسبون الله عدوا بغير علم، فأنزل الله: وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ «٦» .

التعاون مع اليهود للتصدي للدين الجديد:

أوفدت قريش نفرا منهم إلى المدينة، على رأسهم: النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط ليأتوا من اليهود بأسئلة تعجيزية فيطرحونها على الرسول صلّى الله عليه وسلّم. فقالت لهم يهود: سلوه عن أهل الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح. ولكن الله أبطل كيدهم عند ما أنزل الله قرآنا في شأن الإجابة عن أسئلتهم «٧» .

---

(١) فتح الباري (١٧/ ٢٩٩- ٣٠٠/ ح ٤٧٢٢) . والحديث الذي يليه (٤٧٢٣) فيه تفسير عائشة- رضي الله عنها- بأن الآية نزلت في الدعاء، قال ابن حجر: «ورجح النووي وغيره قول ابن عباس- رضي الله عنهما-، كما رجحه الطبري، لكن يحتمل الجمع بأنها نزلت في الدعاء داخل الصلاة. وقد روى ابن مردويه من حديث أبي هريرة قال: كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا صلى عند البيت رفع صوته بالدعاء فنزلت. وجاء عند أهل التفسير في ذلك أقوال أخر..» - الفتح (١٧/ ٣٠٠) .

(٢) مسلم- الصحيح (١/ ٣٢٩/ ح ١٤٥) .

(٤) القرآن الكريم- سورة الإسراء، الآية/ ١١٠.

(٣) صحيح سنن الترمذي (٣/ ٧٠/ ٣٣٦٦- ٣٣٦٧) ، قال الألباني: «صحيح متفق عليه» .

(٥) السير والمغازي، ص/ ٢٠٦ بإسناد ضعيف لضعف داود بن الحصين في روايته عن عكرمة- انظر الكامل (٣/ ٩٥٩) ، التهذيب (٣/ ١٨١) ، التقريب، ص/ ١٩٩.

(٦) القرآن الكريم- سورة الأنعام، الآية/ ١٠٨.

(٧) روى هذه القصة ابن إسحق- بدون إسناد- ابن هشام- السيرة (١/ ٣٧١- ٣٧٢) ، والترمذي صحيح الترمذي (٣/ ٦٩/ ح ٣٣٦١- ٣٣٦٢) من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما-، وقال الألباني: «صحيح الإسناد» ، وفيها السؤال عن الروح فقط.

اتباع قريش أسلوب الترغيب للرسول صلّى الله عليه وسلّم:

أرادت قريش أن تجرب أسلوب الترغيب، فأرسلت عتبة بن ربيعة، الذي قال للرسول صلّى الله عليه وسلّم: «يابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من المكان في النسب، وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورا لعلك تقبل بعضها: إن كنت إنما تريد بهذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا. وإن كنت تريد شرفا سوّدناك علينا فلا نقطع أمرا دونك. وإن كنت تريد ملكا ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ» .

فلما فرغ من قوله تلا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم صدر سورة «فصلت» إلى قوله تعالى فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ «١» وعندها وضع عتبة يده على جنبه وقام كأن الصواعق ستلاحقه، وعاد إلى قريش مخبرا إياهم بأن ما سمع ليس بشعر ولا سحر ولا كهانة، واقترح على قريش أن تدع محمدا وشأنه «٢» . وفي رواية البيهقي وابن أبي شيبة وابن حميد من حديث جابر، زادوا: «وإن كان بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختار من أي أبيات قريش شئت» . وفي رواية أن الوليد بن المغيرة جاء إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقرأ عليه القرآن، فكأنه رقّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه، فقال: «يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا» . قال: «لم؟» قال: «ليعطوك، فإنك

أتيت محمدا لتعرض لما قبله..» ثم قال عن القرآن الذي سمعه من محمد صلّى الله عليه وسلّم: «ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته» «٣» .

اتباع قريش لأسلوب الترهيب:

كان أبو جهل، إذا سمع عن رجل قد أسلم وله شرف ومنعة، أنّبه وأخزاه، وقال له: «تركت دين أبيك وهو خير منك! لنسفهن حلمك ولنضعفن رأيك ولنضعن شرفك» ، وإن كان تاجرا قال له: «لنكسدن تجارتك، ولنهلكن مالك» ، وإن كان ضعيفا ضربه وأغرى به «٤» .

أذى المشركين للرسول صلّى الله عليه وسلّم:

عند ما لم تثمر كل الأساليب السابقة في صد الرسول صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه عن دينهم، لجأت قريش إلى أسلوب الاعتداء والتصفية الجسدية.

لقد استفحل إيذاؤهم للرسول صلّى الله عليه وسلّم في الفترة العلنية لغضبهم منه حين أضحى يظهر شعائر دينه مثل الصلاة عند الكعبة. فقد روى مسلم «٥» عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال أبو جهل: «هل يعفر محمد

(١) القرآن الكريم- سورة فصلت، الآية/ ١٣.

(٢) روى هذا الخبر ابن إسحق بإسناد منقطع- ابن هشام- السيرة (١/ ٣٦٢- ٣٦٣) .

(٣) رواه الحاكم في المستدرك موصولا (٢/ ٥٠٦- ٥٠٧) .

(٤) ابن إسحق، معلقا- ابن هشام- السيرة (١/ ٣٩٥) .

(٥) مسلم- الصحيح، (٤/ ٢١٤٥- ٢١٥٥/ ح ٢٧٩٧، وانظره مختصرا عند البخاري في الفتح (١٨/ ٣٨٠/ ح ٤٩٥٨) .

وجهه بين أظهركم؟ قال فقيل: نعم. فقال: واللات والعزى! لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته- أو لأعفرن وجهه في التراب، قال فأتى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو يصلي- زعم ليطأ على رقبته. قال: فما فجأهم منه إلّا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، قال: فقيل له: مالك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقا من نار وهولا وأجنحة» . فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لو دنا منّي لاختطفته الملائكة عضوا عضوا» ، قال: فأنزل الله- عز وجل- كَلَّا إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى * إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى * أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى * عَبْداً إِذا صَلَّى* أَرَأَيْتَ إِنْ كانَ عَلَى الْهُدى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى* أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى * ... إلى قوله: كَلَّا لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ «١» .

وروى البخاري بسنده إلى عروة بن الزبير، قال: سألت عبد الله بن عمر عن أشد ما صنع المشركون برسول الله صلّى الله عليه وسلّم، قال: رأيت عقبة بن أبي معيط، جاء إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم، وهو يصلي، فوضع رداءه في عنقه فخنقه خنقا شديدا، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه صلّى الله عليه وسلّم، فقال: «أتقتلون رجلا أن يقول ربّي الله، وقد جاءكم بالبيّنات من ربّكم؟» «٢» .

وروى البخاري «٣» ومسلم «٤» من حديث ابن مسعود، قال: «بينما رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، وقد نحرت جزور بالأمس، فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان فيأخذه فيضعه في كتفي محمد إذا سجد. فانبعث أشقى القوم «٥» فأخذه. فلما سجد النبي صلّى الله عليه وسلّم وضعه بين كتفيه، قال: فاستضحكوا، وجعل بعضهم يميل على بعض وأنا قائم أنظر. لو كان لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، والنبي صلّى الله عليه وسلّم ساجد ما يرفع رأسه حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة، فجاءت هي وجويرية، فطرحته عنه، ثم أقبلت عليهم تشتمهم. فلما قضى النبي صلّى الله عليه وسلّم صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم ... فو الذي بعث محمدا صلّى الله عليه وسلّم بالحق لقد رأيت الذي سمى (أي ذكر أسماءهم بالدعاء عليهم) صرعى يوم بدر ثم سحبوا إلى القليب، قليب بدر» .

قال ابن حجر «٦» وقد أخرج أبو يعلى والبزار بإسناد صحيح عن أنس، قال: «لقد ضربوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مرة حتى غشي عليه، فقام أبو بكر فجعل ينادي: ويلكم، أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله؟ فتركوه وأقبلوا على أبي بكر ... » .
وحاولت أم جميل- زوجة أبي لهب- أن تعتدي عليه بحجر فحماه الله منها فلم تره- كما روى البيهقي «٧» . وكانت تحمل الحطب لتضعه في طريقه صلّى الله عليه وسلّم- كما حكاه القرآن الكريم وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ* فِي جِيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ «٨» .

---

(١) القرآن الكريم- سورة العلق، الآيات/ ٦- ١٩.
(٢) البخاري- الصحيح- الفتح: (١٤/ ١٧٩/ ح ٣٦٧٨) و (١٥/ ٩- ١١/ ح ٣٨٥٦) .
(٣) البخاري- الصحيح- الفتح (١٢/ ٦٦/ ح ٢٩٣٤) .
(٤) مسلم- الصحيح (٣/ ١٤١٨- ١٤١٩/ ح ١٧٩٤) .
(٥) هو عقبة بن أبي معيط كما صرح به في الرواية الثانية عند مسلم- الصحيح (٣/ ١٤١٩/ ح ١٧٩٤) .
(٦) فتح الباري (١٥/ ١١/ ح ٣٨٥٦) .
(٧) الدلائل (٢/ ١٩٦) بإسناد حسن لغيره لأنه تقوّى بآخر.
(٨) القرآن الكريم- سورة المسد، الآيتين/ ٤، ٥.

وروى أحمد «١» أن الملأ من قريش اجتمعوا في الحجر فتعاقدوا باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ونائلة وإساف: «لو قد رأينا محمدا لقد قمنا إليه قيام رجل واحد فلم نفارقه حتى نقتله» ... وأخبرته ابنته فاطمة بالذي قالوا، فجاءهم وحصبهم بقبضة من تراب، من أصابته منهم قتل يوم بدر كافرا.
وروى الإمام أحمد «٢» من حديث أنس، أن جبريل- عليه السلام- جاء ذات يوم إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم وهو جالس حزينا قد خضب بالدماء، ضربه بعض أهل مكة، فقال له مالك؟ قال: «فعل بي هؤلاء وفعلوا» . فقال له جبريل: أتحبّ أن أريك آية؟ قال: «نعم» ، فنظر إلى شجرة من وراء الوادي فقال: ادع بتلك الشّجرة، فدعاها، فجاءت حتى قامت بين يديه، فقال مرها فلترجع، فأمرها فرجعت إلى مكانها، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «حسبي» .
ويرى ابن كثير «٣» ان غالب ما وقع للرسول صلّى الله عليه وسلّم من أذى، كان بعد وفاة عمه أبي طالب.

اضطهاد قريش للمسلمين

ونال أبا بكر- رضي الله عنه- نصيبه من الأذى، حتى فكر في الهجرة إلى الحبشة فرارا بدينه «٤» .
وقام أبو بكر خطيبا في المسجد الحرام ذات يوم فضربه المشركون ضربا شديدا، وممن ضربه عتبة بن ربيعة حيث جعل يضربه على وجهه بنعلين مخصوفتين حتى ما يعرف وجهه من أنفه. وجاء بنو تميم يتعادون، فأجلت المشركين عن أبي بكر، وحملوه في ثوب إلى منزله، ولا يشكون في موته، وأقسموا لئن مات أبو بكر ليقتلن عتبة بن ربيعة «٥» .
وكان عم عثمان بن عفان يلفه في حصير من أوراق النخيل، ثم يدخنه من تحته «٦» . وروي أنه عند ما أسلم أخذه عمه الحكم بن أبي العاص بن أمية فأوثقه رباطا، وأقسم ألا يحله إلّا إذا ترك الإسلام، فأقسم عثمان على عدم تركه الإسلام، فلما رأى عمه صلابته في دينه تركه «٧» .
ولما علمت أم مصعب بن عمير بإسلامه أجاعته وأخرجته من بيتها، وكان من أنعم الناس عيشا، فتخشف جلده تخشف الحية، وحتى حمله أصحابه على قسيهم، لشدة ما به من الجهد «٨» .

وعند ما سمع أبوذر الغفاري بخبر النبي صلّى الله عليه وسلّم جاء ودخل مكة، وأخذ يسأل عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم، ضربه أهل مكة حتى غشي عليه، وكاد أن يموت، فخلصه العباس- رضي الله عنه- منهم «٩» .

---

(١) المسند (٤/ ٢٦٩/ ح ٢٦٧٢) .
(٢) الساعاتي- الفتح الرباني (٢٠/ ٢٢٠) .
(٣) البداية والنهاية (٣/ ١٤٨) .
(٤) انظر الحديث بتمامه من رواية البخاري- الصحيح (فتح الباري ١٠/ ٤٣- ٤٤/ ح ٢٢٩٧) .
(٥) ابن كثير- في البداية (٣/ ٣٣- ٣٤) .
(٦) المنصور فوري- رحمة للعالمين (١/ ٥٢) .
(٧) ابن سعد- الطبقات (٣/ ٥٥) من رواية الواقدي.
(٨) ابن إسحق- السيرة، ص/ ١٩٣، بسند معضل.
(٩) طرف من حديث في قصة إسلام أبي ذر، متفق عليه: البخاري- الصحيح (فتح الباري ١٤/ ٣٣/ ح ٣٥٢٢) ، مسلم- الصحيح (٤/ ١٩٢٠/ ح ٢٤٧٣) ، (٤/ ١٩٢٣- ٢٤/ ح ٢٤٧٤) .

تعذيب الموالي:
بعد أن بذلت قريش كل ما في وسعها من قوة وحيلة في إطفاء أنوار الدعوة المحمدية، وباءت بخيبة مريرة حوّلت ذلك إلى نقمة على المستضعفين من المؤمنين كبلال وعمّار ووالده ياسر وأمه سمية، وصهيب الرومي، وخبّاب ابن الأرت وأبي فهيرة، وأبي فكيه، ومن النساء زنّيرة، والنهدية، وأم عبيس.
أمّا بلال فكان مملوكا لأميّة بن خلف الجمحي، وكان يعذبه بإلقائه في الرمضاء على وجهه وظهره، ويضع الصخرة العظيمة على صدره، وذلك إذا حميت الشمس وقت الظهيرة، ويقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى، وبلال صابر يردد كلمة: «أحد.. أحد» . وأخيرا استبدله أبو بكر الصديق بعبد مشرك عنده وأعتقه- رضي الله عنهما-.
وأمّا عمّار وأمه ووالده ياسر فقد كانوا يخرجونهم إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء يعذبونهم بحرّها، فمر بهم النبي صلّى الله عليه وسلّم وهم يعذبون، فقال: «صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنّة» . فمات ياسر تحت العذاب رحمه الله رحمة واسعة.
وأمّا سميّة فقد أغلظت القول لأبي جهل فطعنها بحربته في قبلها فماتت شهيدة، فكانت أول شهيد في الإسلام.
وشدد أعداء الله العذاب على عمّار ونوّعوا العذاب عليه فمرة بالجرّ ومرة بوضع الصخرة على صدره، وأخرى بالغمس في الماء إلى حد الاختناق ويقولون له لا نتركك حتى تسب محمدا، وتقول في اللات والعزى خيرا، وفعل ما طلبوه منه فتركوه، فأتى النبي صلّى الله عليه وسلّم يبكي فقال: «ما وراءك؟» . فقال: شر يا رسول الله، كان الأمر كذا وكذا.
فقال له: «كيف تجد قلبك؟» . قال: أجده مطمئنا بالإيمان. فقال: «إن عادوا يا عمّار فعد» . وأنزل الله تعالى قوله من سورة النحل: إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ وَلكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً «١» .
وأمّا خبّاب فقد أسلم سادس ستة فقد عذبه المشركون عذابا شديدا إذ كانوا يلصقون ظهره بالرمضاء ثم بالحجارة المحماة بالنار ويلوون رأسه. وأمّا عامر بن فهيرة فقد أسلم قديما قبل دخول الرسول صلّى الله عليه وسلّم إلى دار الأرقم، وكان من المستضعفين فعذّب عذابا شديدا، ولم يرده ذلك عن دينه، وكان يرعى غنما لأبي بكر، وكان يروح بها الى النبي صلّى الله عليه وسلّم وأبي بكر وهما في الغار طوال المدة التي كانا فيها في الغار، وأمّا أبو فكيهة واسمه أبو يسار فكان عبدا لصفوان بن أمية بن خلف الجمحي، أسلم مع بلال فأخذه أميّة بن خلف وربط في رجليه حبلا وأمر فجرّ ثم ألقاه في الرمضاء، ومر

به جعل (حشرة معروفة) فقال له أمية: أليس هذا ربك؟. فقال: الله ربي وربك وربّ هذا. فخنقه خنقا شديدا، وكان معه أخوه أبي بن خلف فيقول: زده عذابا حتى يأتي محمد فيخلصه بسحره ولم يزالوا يعذبونه كذلك حتى أغمي عليه فظنوه مات ثم أفاق فاشتراه أبو بكر الصديق وأعتقه.
وأمّا النساء المؤمنات زنّيرة وأم عبيس ولبيبة والنهدية فقد عذّبن كذلك أشدّ العذاب من قبل مواليهنّ ولم يرجعن عن دينهنّ، فرضي الله عنهن وأرضاهن.

---

(١) القرآن الكريم- سورة النحل، الآية/ ١٠٦.

لقد نفس الكفار أغلب أحقادهم على الإسلام ومعتنقيه في أشخاص الموالي، لأنه لم تكن لهم منعة. فكان العذاب أقسى وأفظع.
وقد عذر الله المعذّبين فيما يتلفظون به حينما يبلغ الجهد منهم مبلغه. قال سعيد بن جبير لابن عباس: «أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم؟» قال: «نعم والله، إن كانوا ليضربون أحدهم ويجوعونه ويعطشونه، حتى ما يقدر أن يستوي جالسا من شدة الضرب الذي نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتى يقولوا له اللات والعزى إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم، افتداء منهم مما يبلغون من جهده» «١» . قال ابن كثير «٢» : «وفي مثل هذا أنزل الله تعالى: مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ وَلكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ» «٣» .
وكان النبي صلّى الله عليه وسلّم يحث أصحابه دائما على الصبر على الأذى ويخبرهم بأن الله تعالى سوف ينصر دينه. فقد جاء إليه خبّاب بن الأرت يشكو إليه ما يصيبهم من شدة من المشركين وقال له: «يا رسول الله ألا تدعو الله لنا؟
فقعد وهو محمرّ وجهه فقال: «لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد، ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشقّ باثنين، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمّنّ الله هذا الأمر حتّى يسير الرّاكب من صنعاء إلى حضر موت ما يخاف إلّا الله» «٤» .
لقد عرضت قريش المال والجاه، الثروة والملك على الرسول الأعظم صلّى الله عليه وسلّم فأجابهم: «ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشّرف فيكم، ولا الملك عليكم ولكنّ الله بعثني إليكم رسولا وأنزل عليّ كتابا، وأمرني أن أكون بشيرا ونذيرا فبلّغتكم رسالات ربّي ف إن تقبلوه فهو حظّكم في الدّنيا والآخرة، وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله حتّى يحكم الله بيني وبينكم» «٥» .
ولما فشل المشركون في محاولاتهم في التصدي للدعوة الإسلامية، تعاهدوا على مقاطعة بني هاشم فلا يبيعونهم شيئا ولا يبتاعون منهم ولا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم. وكتبوا بذلك صحيفة علقوها في جوف الكعبة، فاضطر أبو طالب وعشيرته إلى التحصن بالشعب ودام حصارهم زهاء ثلاث سنوات عانوا خلالها أشد المعاناة من الجوع والعوز. حتى تمكن بعض زعماء قريش بزعامة هشام بن عمرو من نقض ما جاء في الصحيفة الظالمة، وانتهت مقاطعة بني هاشم «٦» .

---

(١) رواه ابن إسحق، ابن هشام- السيرة (١/ ٣٩٦) .
(٢) البداية والنهاية (٣/ ٦٥) .
(٣) القرآن الكريم- سورة النحل، الآية/ ١٠٦.
(٤) البخاري- الصحيح (فتح الباري) (٧/ ٢٠٢- حديث رقم ٣٨٥٢) .
(٥) ابن هشام: السيرة ٢/ ٣١٦.
(٦) ابن هشام- السيرة ٢/ ٢١٩- ٢٢١، ٢٣٤- ٢٣٧، البيهقي- دلائل النبوة ٢/ ٣١١- ٣١٤، ابن عبد البر- الدرر ص/ ٢٧- ٣٠، البلاذري- أنساب الأشراف ١/ ٢٣٥- ٢٣٦.

وقامت بين أبي بكر الصديق ومجموعة من مشركي قريش مجادلة حادة حول الحرب القائمة بين الامبراطوريتين الرومية والفارسية بعد نزول الآية الم* غُلِبَتِ الرُّومُ* فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ* فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ* بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ «١» .
وكان المسلمون يحبون أن ينتصر الروم لأنهم نصاري وكانت عاطفة المشركين مع الفرس لأنهم أهل أوثان مجوس. وقد راهن أبو بكر على انتصار الروم خلال خمس سنوات، وذلك قبل تحريم الإسلام للمراهنات «٢» . ولا بد أن فرحة المؤمنين بانتصار الروم كانت كبيرة لما في ذلك من تأييد القرآن وخذلان المشركين فضلا عن انتصار أهل الكتاب على المجوس، وقد أسلم عدد من الناس على أثر ذلك «٣» . وينبغي أن نشير إلى أن الصراع بين الدولتين الكبيرتين فارس والروم كان له أثره في التجارة من جهة، ويستلزم استمرار المراقبة للأوضاع خارج الجزيرة وعلى أطرافها لما كان له من آثار على التعامل الخارجي التجاري في بلد يعتمد على التجارة مثل مكة «٤» . كما أن نزول الآيات الخاصة بذلك الصراع تشير إلى أهمية متابعة التطورات السياسية التي تجري على أطراف جزيرتهم، كما أن فيها ما يشير إلى وحدة مواقف المؤمنين بالله وتمايزهم أمام الإلحاد والوثنية. وكان الجدل حول هذه المسألة يوضح أحد جوانب الصراع العديدة بين الجانبين «٥» .
ولقد تصاعد العنف مع مرور الأيام، وأصبح المسلمون يشكلون مجتمعا معزولا عن المجتمع المكي، تحيط بهم النظرات الغاضبة والألسن الشاتمة والأيدي التي تسومهم أصناف العذاب، ولذلك فقد أصبح استقرار المسلمين في مكة أمرا ينطوي على المخاطر الكبيرة، وذلك ما أدى إلى ضرورة التفكير بالهجرة إلى أماكن آمنة يهاجرون إليها فرارا بدينهم ونأيا بأنفسهم عن العذاب، وكانت الحبشة أول المناطق التي فكروا بجدوى الهجرة إليها.

الهجرة الأولى إلى الحبشة

نزلت آيات الذكر الحكيم تلمح إلى الهجرة في قوله تعالى: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ واسِعَةٌ إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ «٦» .
ولما رأى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ما يصيب أصحابه من البلاء وما كان ينالهم من التعذيب والإهانة، وأنه لا يقدر أن يمنع عنهم ما يصيبهم، نصح المسلمين بالخروج إلى أرض الحبشة «٧» .
وفي تلك الظروف الحرجة كانت هجرة المسلمين إلى الحبشة فرارا بدينهم من بلاد الفتنة إلى بلاد الأمان. ومن الثابت أن المسلمين هاجروا إلى الحبشة

---

(١) القرآن الكريم- سورة الروم، الآيات/ ١- ٥.
(٢) الترمذي- السنن ٥/ ٣٤٣- ٣٤٤، الحاكم- المستدرك ٢/ ٤١٠، الطبراني- المعجم الكبير ١٢/ ٢٩، الطبري- التفسير ٢١/ ١٢، البيهقي- دلائل النبوة ٢/ ٣٣٠.
(٣) الترمذي- السنن ٥/ ٣٤٤- ٣٤٥.
(٤) ابن كثير- التفسير ٦/ ٣٠٥- ٣٠٦ (ط. الشعب) ، وانظر الطبري- التفسير ٢١/ ١٩.
(٥) ابن كثير- التفسير ٣/ ٤٢٣.
(٦) القرآن الكريم سورة الزمر، الآية/ ١٠.
(٧) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ١٨٩، ابن هشام- السيرة ١/ ٣٣٤، وانظر السير والمغازي ص/ ١٢٣.

مرتين «١» . وكانت الهجرة الأولي في شهر رجب من سنة خمس من المبعث، وهم أحد عشر رجلا وأربع نسوة خرجوا متسللين سرّا «٢» . حتى انتهوا إلى الشعيبة، منهم الراكب والماشي، ووفق الله تعالى للمسلمين ساعة جاءوا الساحل سفينتين للتجار حملوهم فيهما إلى أرض الحبشة بنصف دينار «٣» .

وقد ثبت من طرق صحيحة «٤» ما ورد عن أم المؤمنين أم سلمة- رضي الله عنها- «٥» وكانت ضمن من هاجر إلى الحبشة في الهجرة الأولي، حيث قالت: «لما ضاقت علينا مكة، وأوذي أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في منعة من قومه وعمه لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه، فقال لهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إن بأرض الحبشة ملكا لا يظلم أحد عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجا ومخرجا مما أنتم فيه» «٦» . فخرجنا إليها أرسالا حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار إلى خير جار آمنّا على ديننا ولم نخش منه ظلما» «٧» .

وكان عثمان بن عفان أول من خرج مهاجرا ومعه زوجته رقية بنت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وأورد الإمام البخاري حديثا بسند موصول إلى أنس قال: «أبطأ على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خبرهما، فقدمت امرأة فقالت له: لقد رأيتهما وقد حمل عثمان امرأته على حمار، فقال صلّى الله عليه وسلّم: «صحبهما الله إن عثمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط» «٨» .

وقد سرد ابن إسحاق وغيره أسماء مهاجرة الحبشة وهم عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وأبو حذيفة بن عتبة، ومصعب بن عمير، وأبو سلمة بن عبد الأسد، وعثمان بن مظعون، وعامر بن ربيعة، وسهيل بن بيضاء، وأبو سبرة بن أبي رهم العامري، وحاطب بن عمرو العامري. وأما النسوة فهن رقية بنت النبي صلّى الله عليه وسلّم وسهلة بنت سهل امرأة أبي حذيفة، وأم سلمة بنت أبي أمية، امرأة أبي سلمة، وليلى بنت أبي حثمة امرأة عامر بن ربيعة «٩» . وقد عرفت هذه بالهجرة الأولى إلى الحبشة «١٠» .

---

(١) البخاري- الصحيح (فتح الباري ١٠/ ٤٣- ٤٤ (حديث ٢٢٩٧) ، ابن كثير- البداية والنهاية ٣/ ٧٣.

(٢) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ١٨٧) .

(٣) المرجع السابق ٧/ ١٨٧- ١٨٨، ابن سعد- الطبقات ١/ ٢٠٤.

(٤) البخاري- الصحيح (فتح ٧/ ١٨٩) ، ابن إسحاق- السيرة ص/ ١٩٤، ابن هشام- السيرة ١/ ٣ إإ، وأنظر ابن سعد- الطبقات ١/ ٢٠٤، ابن كثير- البداية والنهاية ٣/ ٧٤.

(٥) ولم تكن قد تزوجها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حينذاك.

(٦) إسناده حسن، ذلك أن رواية يونس بن بكير قد توبعت برواية البكائي، كما أن محمد بن إسحاق بن يسار قد صرح بالتحديث (السيرة ص/ ١٩٤) . وقد أورد البخاري الحديث بتقديم «أحد عنده» وتبديل «فالحقوا» بعبارة «فلو خرجتم إليه حتى يجعل الله» (فتح ٧/ ٢٧٧، حديث ٣٨٧٦) .

(٧) البخاري- الصحيح (فتح ٧/ ١٨٩) ، ابن هشام- السيرة النبوية ١/ ٣٣٤.

(٨) البخاري- الصحيح (فتح ٧/ ٢٢٧ (رقم ٣٨٧٦) وعقب ابن حجر على ذلك بقوله «وبهذا تظهر النكتة في تصدير البخاري الباب بحديث عثمان» وأنظر البيهقي- دلائل النبوة ٢/ ٢٩٧.

(٩) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٢٢٧- ٨) ، ابن سعد- الطبقات ١/ ٢٠٤، ابن هشام- السيرة ١/ ٤٣٠.

(١٠) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٢٢٨) ، ابن سعد- الطبقات ١/ ٢٠٤.

أراد أبو بكر الصديق- رضي الله عنه- الالتحاق بالمهاجرين إلى الحبشة في هذه الهجرة الأولى بعد أن اشتد أذى قريش عليه، ويظهر أنه سلك طريقا آخر، إذ تشير الأخبار بأنه سار في طريق اليمن حتى إذا ما بلغ برك الغماد- وهو موضع على خمس ليال من مكة لقيه ابن الدّغنة- وهو سيد قبائل القارة حلفاء بني زهرة القرشية- فقال له أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي فأنا أريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي. فقال له ابن الدّغنة: إن مثلك لا يخرج ولا يخرج، فإنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكلّ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. فأجاره وأعاده معه إلى مكة حيث أعلن لقريش أنه في جواره، فوافقت قريش على ذلك واشترطت عليه أن تكون عبادته في داره وأن لا يستعلن «١» . وبعد مدة أخذ أبو بكر يجتهد بالقراءة في فناء داره «وكان رجلا بكّاء لا يملك دمعه حين يقرأ القرآن» فيجتمع إليه ابناء ونساء المشركين يعجبون وينظرون إليه ويستمعون القرآن مما أفزع قريشا ودفعها إلى مطالبة ابن الدّغنة بأن يكفّه عن ذلك، فخيّره ابن الدّغنة بين الإسرار بعبادته، أو أن يردّ عليه جواره، فرد أبو بكر عليه جواره وقال: «إني أردّ عليك جوارك وأرضى بجوار الله» «٢» وهكذا بقي أبو بكر بمكة إلى جوار الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم، مستجيرا بالله سبحانه وتعالى يحتمل أذى مشركي قريش، بعد أن كان الرسول قد أذن له بالهجرة إلى الحبشة «٣» .

قصة الغرانيق الباطلة والهجرة الثانية إلى الحبشة:

وبعد هجرة الحبشة الأولى بفترة قليلة، حدث أن صلّى النبي صلّى الله عليه وسلّم في المسجد الحرام، فقرأ سورة النجم وسجد في موضع السجود فسجد معه كل من كان يسمعه من المسلمين والمشركين «٤» . وشاع أن قريشا قد أسلمت، وبلغ المسلمين وهم بأرض الحبشة «أن أهل مكة أسلموا فرجع ناس منهم عثمان بن مظعون إلى مكة فلم يجدوا ما أخبروا به صحيحا فرجعوا وسار معهم جماعة إلى الحبشة، وهي الهجرة الثانية، وقد ذكرت إحدى الروايات الصحيحة أنهم «كانوا اثنين وثمانين رجلا سوى نسائهم وأبنائهم ... وقيل إن عدة نسائهم كانت ثماني عشرة امرأة» «٥» . ولا شك في أن دوافع الهجرة الثانية قد شملت اشتداد البلاء وتعاظم الفتنة والتعذيب الدائم للمستضعفين من المسلمين، والعدوان المستمر على أصحاب الرسول صلّى الله عليه وسلّم «٦» .

وقد ذهبت روايات مرسلة صحيحة السند «٧» إلى أن الشيطان كان قد ألقى على لسان الرسول صلّى الله عليه وسلّم في قراءته لسورة النجم في صلاته تلك في الحرم عبارة «تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهنّ لترتجى» ، وذهبت روايات مرسلة أخرى ضعيفة الأسانيد إلى أن هذه العبارة قد قالها الشيطان، وسمعها المشركون دون المسلمين، فسجد

---

(١) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٤/ ٤٧٥- ٤٧٦) .

(٢) المرجع السابق ٤/ ٤٧٥- ٤٧٦.

(٣) ابن هشام- السيرة النبوية ٢/ ٣٧٢- ٣٧٤ بإسناد حسن.

(٤) صحيح البخاري (فتح الباري ٢/ ٥٥١، ٥٥٣، ٥٥٧، ٥٦٠، ٨/ ٦١٤) ، مسلم- الصحيح ١/ ٤٠٥.

(٥) البخاري- صحيح (فتح الباري ٧/ ١٨٩) .

(٦) ابن إسحاق- السير والمغازي ص/ ٢١٣.

(٧) ورد في أسانيدها سعيد بن جبير، وأبا بكر بن عبد الرحمن وأبا العاليه.

المشركون بسجود المسلمين «١» . وقد اعترض على هذه القصة عدد كبير من أفاضل العلماء والنقاد «٢» . والحق أن هذه القصة تصطدم بنصوص القرآن الكريم «٣» . وعصمة النبوة في قضية الوحي «٤» ، وتتعارض مع عقيدة التوحيد وهي الأصل في العقيدة الإسلامية.

محاولة قريش استرداد المهاجرين المسلمين:

بادرت قريش بعد الهجرة الثانية وفشلها في منع المسلمين من الهجرة، ونتيجة تخوفها من انتشار الدعوة الإسلامية، فأرسلت وفدا مؤلفا من عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة، ومعهما الهدايا إلى النجاشي وبطارقته، بهدف إعادة من هاجر من المسلمين إلى مكة. وحاول الوفد إقناع البطارقة عن طريق الهدايا، وعن طريق تصوير المهاجرين المسلمين لهم بأنهم «غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وأنهم جاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم..» «٥» ، وبيّتوا الأمر مع البطارقة على أن يشيروا على النجاشي بأن يسلمهم إليهم ولا يكلمهم، غير أن النجاشي رأى ضرورة أن يتحرى الأمر بنفسه فدعا المسلمين وطلب منهم توضيح حقيقة دينهم، فانبرى جعفر بن أبي طالب- رضي الله عنه- وتكلم نيابة عن إخوانه المهاجرين كما سبق وأسلفنا، قائلا: «أيها الملك:
كنا قوما على الشرك، نعبد الأوثان ونأكل الميتة، ونسيء الجوار ونستحل المحارم بعضنا من بعض في سفك الدماء وغيرها، ولا نحل شيئا ولا نحرّمه. فبعث الله إلينا نبيّا من أنفسنا نعرف وفاءه وصدقه وأمانته، فدعانا إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له، ونصل الرحم ونحسن الجوار، ونصلّي ونصوم، ولا نعبد غيره» وحين طلب النجاشي من جعفر أن يقرأ عليه شيئا مما جاء به محمد صلّى الله عليه وسلّم، قرأ عليه صدر «سورة مريم» ، فبكى النجاشي ومن معه من أساقفته وقال:
«إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة التي جاء بها موسى، انطلقوا راشدين» . وأقسم بألّا يسلمهم لقريش أبدا «٦» .
ورغم فشل المحاولة فقد أثار عمرو بن العاص في اليوم التالي موقف الإسلام من عيسى ابن مريم ونظرة المسلمين إليه بزعمه، وذكر للنجاشي بأنهم يقولون في عيسى قولا عظيما. فسألهم النجاشي فقال جعفر: نقول فيه «هو عبد الله ورسوله وكلمته وروحه ألقاها إلى مريم العذراء البتول» . فقال النجاشي: «ما عدا عيسى ابن مريم مما

---

(١) روى هذه القصة ابن سعد في طبقاته ١/ ٢٠٥- ٢٠٦، عن طريق الواقدي وهو ضعيف جدّا، والطبري في التفسير وفي إسناده أبو معشر وهو ضعيف، والبيهقي في دلائل النبوة ٢/ ٢٨٥- ٢٨٧ وإسناده ضعيف، ولم يروها أحد من أصحاب الكتب الستة والإمام أحمد ولا غيرهم من أصحاب الكتب المعتمدة.
(٢) نذكر منهم الحافظ ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٢٩) ، والقاضي عياض في الشفا (٢/ ٧٥٠ وما بعدها) ، وابن حجر (فتح الباري ١٨/ ٤١) ، وللشيخ محمد ناصر الدين الألباني رسالة عنوانها «نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق» خرّج فيها أحاديثها وحكم عليها بالضعف والبطلان وقد فسر الألوسي سبب سجود المشركين بما اعتراهم من خوف ودهشة وهم يستمعون إلى أخبار هلاك من سبقهم من الأمم السابقة. انظر: روح المعاني (١٧/ ١٨٩) الطبعة المنيرية.
(٣) القرآن الكريم- سورة النجم، الآية/ ٢٣، سورة الحجر، الآية/ ٤٢، سورة ص، الآيات/ ٨٢- ٨٣، سورة النحل، الآية/ ٩٩.
(٤) ناصر الدين الألباني- نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق، أبو شهبة- السيرة النبوية ١/ ٣٦٤- ٣٧٤.
(٥) ابن إسحاق- السيرة والمغازي/ ٢١٣- ٢١٧، ابن هشام- السيرة ١/ ٢٨٩- ٩٣.
(٦) ابن هشام- السيرة ١/ ٢٨٩- ٢٩٣.

قلت هذا العود» «١» واستقر رأي النجاشي على منح المسلمين الأمان، «فأقاموا في خير دار مع خير جار» «٢» .
أما القسيسون والرهبان الذين سمعوا قول جعفر واستمعوا إليه وهو يرتل القرآن، فقد ذرفوا الدموع مما عرفوا من الحق فأنزل الله تعالى قوله الكريم: وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا إِنَّا

نَصارى ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْباناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ* وَإِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ «٣» .

وعلى الرغم من فشل مبادرة قريش في محاولتها استعادة المهاجرين المسلمين، فإن هذه المحاولة تدل على إدراكها لخطورة الموقف الناجم عن حصول المسلمين على ملجأ يأوون إليه آمنين، وخاصة أن الحبشة تدين بالنصرانية، وقد شاع عن ملكها العدل والإنصاف، كما أنها قريبة من مكة مما كان يشكل خطرا متوقعا على قريش ومصالحها في المستقبل.

مكث المسلمون في الحبشة ما شاء الله لهم، ولقد توفي عبيد الله بن جحش زوج أم حبيبة بنت أبي سفيان فخطبها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وتزوجها وهي بالحبشة، زوجه إيّاها النجاشي ومهرها أربعة الاف، ثم جهزها من عنده ولم يرسل إليها النبي صلّى الله عليه وسلّم بشيء، وقد بعثها النجاشي مع شرحبيل بن حسنة «٤» .

انضم إلى مهاجرة الحبشة أبو موسى الأشعري مع جمع من قومه بلغوا ثلاثة وخمسين رجلا وكانوا قد ركبوا سفينة يريدون الهجرة إلى المدينة حين بلغهم استقرار الوضع فيها لصالح المسلمين فألقتهم الرياح إلى الحبشة فالتحقوا بالمسلمين ومكثوا معهم إلى أن عادوا جميعا إلى المدينة حين افتتح المسلمون خيبر «٥» . فعاد بعضهم إلى المدينة بعد هجرة المسلمين إليها وقبل وقعة بدر الكبرى، وكانت عدتهم ثلاثة وثلاثين رجلا وثماني نسوة، وعاد الباقون وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب في العام السابع من الهجرة في أعقاب فتح خيبر «٦» . ولم تخل هجرتهم هذه من الصعوبات، ويستفاد من نقاش جرى بين أسماء بنت عميس- إحدى المهاجرات إلى الحبشة- وعمر بن الخطاب أن المهاجرين المسلمين إلى الحبشة رغم ما تحقق لهم من الاستقرار والتخلص من أذى قريش وعذابها فإنهم لاقوا العنت، وتحملوا الغربة والمشاق، وأنهم كانوا يتعرضون أحيانا للخوف والإرهاب. وقد أنصفهم الرسول صلّى الله عليه وسلّم حين قال لهم: «ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان» «٧» . وذلك

---

(١) ابن هشام- السيرة ١/ ٤١٣- ٤١٨.

(٢) المرجع السابق ١/ ٢٨٩- ٢٩٣.

(٣) القرآن الكريم- سورة المائدة، الآيات/ ٨٢- ٨٣، وانظر تفسير الطبري ٧/ ٣.

(٤) أحمد- المسند ٦/ ٤٢٧، أبو داود- السنن ٢/ ٥٣٨، ٥٦٩ بإسناد صحيح، النسائي- السنن ٦/ ١١٩، الحاكم- المستدرك ٢/ ١٨١.

(٥) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٦/ ٢٣٧، ٧/ ١٨٨، ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٨٧) ، صحيح مسلم (بشرح النووي) ١٦/ ٦٤.

(٦) البخاري- الصحيح (فتح الباري ١٥/ ٣٦ (ح ٣٨٧٦) ، ابن سعد- الطبقات ١/ ٢٠٧.

(٧) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٦/ ٢٣٧، ٧/ ١٨، ٤٨٤، ٤٨٧) ، مسلم- الصحيح (بشرح النووي ١٦/ ٦٤- ٦٦) .

أسعد مهاجرة الحبشة وأثلج صدورهم.

وقد وردت العديد من الدلائل التي تفيد إسلام النجاشي فقد ورد في الأخبار أنه أسلم ولذلك خرج عليه قومه، ولكنه حرص قبل محاربتهم على أن يؤمن للمسلمين سفنا ليغادروا عليها إذا ما تعرض للهزيمة «١» . وأنه كتب كتابا يشهد فيه بإسلامه «٢» . وأورد الشيخان أن النبي صلّى الله عليه وسلّم نعى النجاشي أصحمة في اليوم الذي مات فيه في العام التاسع من الهجرة النبوية، وأنه صلّى بالمسلمين صلاة الغائب عليه «٣» .

إسلام حمزة بن عبد المطلب- رضي الله عنه

علم حمزة بن عبد المطلب بعد عودته إلى مكة من الصيد- وذلك في السنة السادسة من المبعث- أن أبا جهل قد شتم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأساء إليه إساءات بذيئة، فبادر إلى أبي جهل وهو في مجلسه بين قومه فضربه بالقوس على رأسه فشجه شجة منكرة، وقال له: «أتشتمه وأنا على دينه؟» وانشرح صدر حمزة للإسلام وعرفت قريش أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد عزّ وامتنع، وأن حمزة سيمنع عنه الأذى، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه «٤» .

إسلام عمر بن الخطاب- رضي الله عنه-:

كان عمر بن الخطاب رجلا قويا مهيبا، وكان يؤذى المسلمين ويشتد عليهم. وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يدعو الله أن ينصر دينه به «٥» .

قال سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، ابن عم عمر وزوج أخته: «والله لقد رأيتني، وأن عمر لموثقي وأخته على الإسلام قبل أن يسلم» «٦» .

ولم تصح رواية في تعيين وقت إسلام عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- وتحديده بشكل دقيق، فقد جعل ابن إسحاق ذلك بعد هجرة المسلمين إلى الحبشة في هجرتهم الأولى «٧» ، ويجعل الواقدي إسلامه في ذي الحجة نهاية السنة السادسة من البعثة النبوية حيث يتراوح عدد المسلمين حينئذ بين أربعين وخمسين، أو ستّا وخمسين منهم عشر أو إحدى عشرة امرأة «٨» . وقد أخبرت أم عبد الله بنت أبي حثمة، وهي من مهاجرة الحبشة، أن عمر اطلع استعداداتها وزوجها للهجرة إلى الحبشة، وأنه قد رق لها ولزوجها رغم ما كانوا يلقون منه من البلاء والأذى

---

(١) ابن هشام- السيرة ١/ ٤٢١.

(٢) مسلم- الصحيح (٢/ ٦٥٧ (ح ٩٥١) .

(٣) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٦/ ١٤١ حديث ١٢٤٥) ، ابن حجر- فتح الباري ٦/ ٢٢٨- ٢٣٠، وانظر مسلم- الصحيح ٢/ ٦٥٧ واللفظ للبخاري.

(٤) ابن إسحاق- السير والمغازي ص/ ١٧١- ١٧٢، ابن سعد- الطبقات ٣/ ٩، ابن هشام- السيرة ١/ ٣٦٠- ٣٦١، الهيثمي- مجمع الزوائد ٩/ ٢٦٧، الحاكم- المستدرك ٣/ ١٩٣.

(٥) أحمد- المسند ٦/ ٤٢٧، أبو داود- السنن ٢/ ٥٣٨، ٥٦٩، النسائي- السنن ٦/ ١١٩.

(٦) البخاري- الصحيح (فتح الباري ١٥/ ٢٥ (حديث ٣٨٦٧) ، أحمد- فضائل الصحابة ١/ ٢٧٨.

(٧) ابن حجر- فتح الباري ٧/ ١٨٣، ابن هشام- السيرة ١/ ٣٤٢.

(٨) ابن سعد- الطبقات ٣/ ٢٦٩- ٧٠، ابن حجر- فتح الباري ٧/ ١٧٨.

قبل ذلك، وبأنها قد رأت منه رقة لم تكن تراها من قبل، قالت: «ثم انصرف وقد أحزنه فيما أرى خروجنا» .

ويستفاد من الرواية أنها طمعت في إسلامه في حين أظهر زوجها اليأس من ذلك لما كان يرى من غلظته وقسوته على المسلمين قبل ذلك. أما القصة التي توردها بعض المرويات عن أن إسلام أخته وزوجها كان سببا في إسلامه فلم ترد عنها رواية بإسناد صحيح، وهي تتناقض مع ما رواه زوج أخته آنفا بشأن موقف عمر من إسلامهما.

وكذلك الحال مع قصة استماعه لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو يتلو القرآن في صلاته عند الكعبة المشرفة وعمر مستخف بأستارها «١» . ومع ذلك فإن الحافظ ابن حجر أشار إلى أن الباعث على دخوله في الإسلام ما سمع في بيت أخته فاطمة من القرآن الكريم «٢» . ولا شك في أن ما يتجلى في الكتاب العزيز من البيان وروعة التصوير لمشاهد القيامة، ووصف الجنة والنار كان له أثر كبير في

اجتذاب عمر إلى صفوف المسلمين، كما أن عدم ثبوت الروايات الحديثية هنا لا يعني حتمية عدم حصولها في التاريخ.
استجاب الله تعالى لدعوة الرسول صلّى الله عليه وسلّم، فأسلم عمر، فأعز الله به الإسلام والمسلمين، وصلى المسلمون بالبيت العتيق دون أن يتعرض لهم المشركون، وهذا ما أشار إليه الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود حين قال:
«لقد رأيتنا ما نستطيع أن نصلّي بالبيت العتيق حتى أسلم عمر» و «ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر» ، «إن إسلامه كان نصرا» «٣» ، وهو ما عناه حبر الأمة عبد الله بن عباس- رضي الله عنهما- حين خاطب عمر- رضي الله عنه- بعد حادثة طعنه، فقد قال له « ... فلما أسلمت كان إسلامك عزّا وأظهر الله بك الإسلام ورسول الله وأصحابه» «٤» .
ولقد كانت ردّة فعل زعماء المشركين من قريش عنيفة عند سماعهم نبأ إسلام عمر- رضي الله عنه-.
وكان عمر- رضي الله عنه- قد تعمد إبلاغهم جميعا عن طريق أكثر الرجال نقلا للأخبار في قريش وهو جميل بن معمر الجمحي، فما أن أعلمه عمر بإسلامه حتى قام يجر رداءه، وعمر خلفه، حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: «يا معشر قريش- وهم في أنديتهم حول الكعبة- ألا إنّ عمر قد صبأ» ، وعمر خلفه يقول «كذب والله، ولكني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلّا الله وأن محمدا عبده ورسوله» فثاروا حتى لقد سال بهم الوادي من كثرتهم يريدون قتله لولا أن أجاره العاص بن وائل السهمي «٥» . وقد روي أن النبي صلّى الله عليه وسلّم سمّاه الفاروق أي الذي

---

(١) أحمد- المسند ١/ ١٧- ١٨ بسند صحيح إلى شريح بن عبيد لكنه مرسل ضعيف لأن شريحا لم يدرك عمر الهيثمي- مجمع الزوائد ٩/ ٦٢. أما قصته مع أخته فقد أوردها ابن هشام- السيرة ١/ ٤٢٥ وهي ترد دون إسناد وقد ضعّف الذهبي إسنادها في السيرة ص/ ١٧٩، ورواها ابن سعد- الطبقات ٣/ ٢٦٧- ٩ بإسناد ضعيف، وأبو نعيم- دلائل النبوة ١/ ٢٤١ بإسناد ضعيف جدّا وفي سنده أبو فروة وهو متروك.
(٢) ابن حجر- فتح الباري ٧/ ١٧٦.
(٣) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٤١، ١٣٧) ، ابن سعد- الطبقات ٣/ ٢٧٠، الطبراني- المعجم الكبير ٩/ ١٨١.
(٤) الطبراني- المعجم الأوسط ١/ ٣٣٤ بإسناد حسن.
(٥) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ١٧٧) ، ابن اسحاق- السيرة/ ١٨٤- ١٨ إ بإسناد حسن، وابن هشام- السيرة ١/ ٢٩٨- ٩ وقال ابن كثير «هذا إسناد جيد قوي» ، السيرة النبوية ٢/ ٣٨- ٣٩.
جـ ١(ص: ٢٤٣)

فرق بين الحق والباطل «١» .

المقاطعة ودخول المسلمين شعب أبي طالب

ذكر البخاري في صحيحه أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قد حدد خيف بني كنانه للموضع الذي تقاسمت فيه قريش على الكفر، وتحالفت على مقاطعة بني هاشم «٢» غير أنه لم تثبت رواية في تفاصيل حادثة مقاطعة قريش للمسلمين، وفي تفاصيل دخول المسلمين شعب أبي طالب، على الرغم من أن أصل الحادث ثابت «٣» ، كما أن ذلك لا يعني عدم وقوع تفاصيل الحادث تاريخيا «٤» ، ولقد وردت الأخبار عن المقاطعة ودخول المسلمين الشعب في مراسيل عروة بن الزبير وتلاميذه الزهري وأبي الأسود «٥» . أما عن تاريخ بداية الحصار، فإنه وقع بعد فشل قريش في استعادة المسلمين المهاجرين إلى الحبشة، فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد كثروا وعزّوا بعد إسلام حمزة

بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب- رضي الله عنهما-، وأن المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة قد نزلوا بلدا أصابوا به أمنا وقرارا، وأن النجاشي قد منع المسلمين وأمّنهم، وأن الإسلام بدأ يفشو في القبائل؛ أهاجها الأمر واشتد بلاؤهم على المسلمين في مكة، وعزمت قريش على قتل النبي صلّى الله عليه وسلّم، فأجمع بنو عبد المطلب أمرهم على أن يدخلوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم شعبهم وأن يحموه، فدخلوا الشعب جميعا مسلمهم وكافرهم، ولم يشذ عن ذلك إلّا أبو لهب بن عبد المطلب فقد انحاز إلى كفار قريش وظاهرهم.

أجمع مشركو قريش أمرهم، وائتمروا بينهم على أن لا يجالسوا بني هاشم وبني المطلب، ولا يخالطوهم ولا يبيعوهم ولا يدخلوا بيوتهم حتى يسلموا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم للقتل، وكتبوا في ذلك صحيفة «٦» علقوها في جوف الكعبة المشرفة في هلال المحرم سنة سبع من المبعث، وجزم موسى بن عقبة «٧» بأن المقاطعة استمرت ثلاث سنين، صمد خلالها المسلمون ومن شايعهم من بني هاشم والمطلب، واشتد عليهم البلاء والجهد والجوع، ولم يكن يأتيهم من الأقوات إلّا خفية «٨» . وكان ممن يصلهم حكيم بن حزام، وهشام بن عمرو العامري، وزهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدي، وزمعة بن الأسود، وأبو البختري بن هشام بن الحارث، وكانت تربطهم ببني هاشم والمطلب صلات

---

(١) ابن سعد- الطبقات ٣/ ٢٧٠ بأسانيد ضعيفة، ابن الجوزي- تاريخ عمر بن الخطاب ص/ ٢٣، ٣٠، ٣١، الذهبي السيرة ص/ ١٧٩.

(٢) البخاري- الصحيح (فتح الباري) ٧/ ١٩٢، ٨/ ١٤، مسلم- الصحيح (بشرح النووي) ٩/ ٥٩.

(٣) البخاري- الصحيح (فتح الباري) ٧/ ١٩٣.

(٤) أكرم العمري- السنة الصحيحة ١/ ١٨١.

(٥) أبو نعيم- دلائل ١/ ٣٥٧- ٣٦٢، البيهقي- دلائل النبوّة ٢/ ٣١١- ٣١٤، ابن عبد البر- الدرر ص/ ٢٧- ٣٠.

(٦) ابن إسحاق- السير والمغازي ص/ ١٥٦- ١٦٧، ابن هشام- السيرة ١/ ٤٣٠ بدون إسناد، نقله ابن حجر في فتح الباري وهي عند البيهقي- دلائل النبوة ٢/ ٣١١ موقوفة على الزهري، عروة بن الزبير- المغازي ص/ ١١٤- ١١٦ موقوفة على عروة، ونقلها أبو نعيم- الدلائل ١/ ٢٧٢- ٢٧٥، وانظر ابن سعد- الطبقات ١/ ٢٠٨- ٢١٠.

(٧) ابن حجر- فتح الباري ١٥/ ٣٨، ابن سعد- الطبقات ١/ ٢٠٨- ٢١٠، الذهبي- السيرة ص/ ٢٢١ بأسانيد ضعيفة.

(٨) ابن سعد- الطبقات ١/ ٢٠٨- ٢١٠.

الأرحام. فلما كان رأس ثلاث سنين تلاوم رجال من قريش على ما حدث، وأجمعوا على نقض الصحيفة، وقد أعلمهم الرسول صلّى الله عليه وسلّم بأنه لم يبق فيها سوى كلمات الشرك والظلم «١» . وهكذا انتهت المقاطعة، وكان خروج المسلمين من الشعب السنة العاشرة من المبعث «٢» .

وعلى الرغم من المقاطعة، وما أصاب المسلمين من جرّائها من معاناة فإن الرسول صلّى الله عليه وسلّم لم يتوقف عن الدعوة، فقد كان يخرج في الموسم يتلقى من يقدم إلى مكة للحج ويعرض عليهم الإسلام، كما كان يعرض ذلك على كل من يتصل به من مشركي قريش «٣» .

وفاة أبي طالب وخديجة- رضي الله عنها-:

كانت مصيبة الرسول صلّى الله عليه وسلّم كبيرة بوفاة عمه أبي طالب بن عبد المطلب، وزوجته أم المؤمنين خديجة بنت خويلد- رضي الله عنها- في آخر السنة العاشرة من المبعث بعد أن غادر المسلمون شعب أبي طالب «٤» . وكان أبو طالب «يحوط النبي صلّى الله عليه وسلّم ويغضب له» «٥» . كما كان «ينصره» «٦» . وكانت قريش تحترمه، وقد جاء زعماؤها حين حضرته الوفاة فحرضوه على التمسك بدينه، وعدم الدخول في الإسلام. وعرض عليه الرسول صلّى الله عليه وسلّم

الإسلام بإلحاح طالبا منه أن يتلفظ بالشهادتين ليشهد له بها يوم القيامة، وكان رد عمه عليه قوله: «لولا أن تعيّرني بها قريش يقولون إنما حمله عليها الجزع، لأقررت بها عينك» «٧» ، فأنزل الله تعالى: إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ «٨» .

أما ما نقله ابن إسحاق من أن العباس نظر إلى أبي طالب يحرك شفتيه، فقال لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: يابن أخي، والله لقد قال أخي الكلمة التي أمرته أن يقولها، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لم أسمع» ، فهو خبر لا يصح «٩» .

لقد فقد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بوفاة عمه سندا كبيرا، إذ لم يعد بنو هاشم مستعدين بعده لتقديم القدر نفسه من الحماية للرسول صلّى الله عليه وسلّم لما يصيبهم من أضرار مادية ونفسية، كما تبين من حادثة المقاطعة «١٠» .

---

(١) ابن حجر- فتح الباري ٧/ ١٩٢.

(٢) عروة- المغازي ص/ ١٦٧، الذهبي- السيرة ص/ ٢٢٤، ولم ترد تفصيلات هذه المقاطعة في الصحاح وأشار إليها الإمام البخاري بشكل مقتضب- فتح الباري ١٥/ ٣٨ (حديث ٣٨٨٢) ، ٧/ ٢٤٢ (حديث ١٥٨٩) ، (حديث ١٥٩٠) .

(٣) ابن هشام- السيرة ١/ ٤٣٤.

(٤) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٨/ ٥١١، ٥٤٧، ٥٧١، ٥٧٢، ٥٧٣، ٥٧٤) .

(٥) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ١٩٣) .

(٦) مسلم- الصحيح ١/ ١٩٥.

(٧) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٨/ ٥٠٦) ، مسلم- الصحيح (بشرح النووي ١/ ٢١٣- ٢١٦) .

(٨) القرآن الكريم- سورة القصص، الآية/ ٥٦، وانظر البخاري- الصحيح (فتح الباري ١/ ٥٩٢) ، مسلم- الصحيح (بشرح النووي ٣/ ٨٤- ٨٥) .

(٩) ابن هشام- السيرة ١/ ٤١٧ وانظر فتح الباري ٧/ ١٩٤.

(١٠) العمري- السنة الصحيحة ١/ ١٨٤.

أما خديجة بنت خويلد- رضي الله عنها- فقد توفيت قبل الهجرة النبوية إلى المدينة بثلاث سنين في عام وفاة أبي طالب نفسه «١» . وكانت خديجة وزيرة صدق على الإسلام يسكن النبي صلّى الله عليه وسلّم إليها عند الشدائد «٢» وقد وردت آثار كثيرة تدل على فضائلها ومكانتها عند الله ورسوله «٣» .

ونظرا لتوالي مثل هذه الآلام في هذا العام فقد سمّاه بعض المؤرخين «عام الحزن» «٤» ، ولم يرو أن النبي صلّى الله عليه وسلّم سمّاه بهذا الاسم «٥» .

رحلة الرسول صلّى الله عليه وسلّم إلى الطائف

اشتدت مقاومة قريش للدعوة الإسلامية، ونالت من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب. فخرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى الطائف وحده- من أجل إيجاد مركز جديد للدعوة- يلتمس النصرة من ثقيف والمنعة بهم من قومه. ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله- عز وجل-. ولكن ثقيفا لم تستجب له، وأغرى زعماؤها وأشرافها صبيانهم وعبيدهم وسفهاءهم، يسبّونه ويصيحون به، واجتمع عليه الناس ورشقوه بالحجارة وألجئوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظل حبلة من عنب، فجلس فيه «٦» . وذكرت كتب السيرة أنه صلّى الله عليه وسلّم، لما اطمأن، توجه إلى ربه بالشكوى: «اللهمّ إليك أشكو ضعف قوّتي، وقلّة حيلتي وهواني على النّاس، يا أرحم الرّاحمين، أنت ربّ المستضعفين،

وأنت ربّي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهّمني؟ أم إلى عدو ملّكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الّذي أشرقت له الظّلمات، وصلح عليه أمر الدّنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحلّ عليّ سخطك، لك العتبى حتّى ترضى، ولا حول ولا قوّة إلّا بك» «٧» .
وفي طريق عودته من الطائف، وعند حائط ابني ربيعة، التقى بعداس النصراني فأسلم «٨» .
وقد ورد في الصحيحين ما يكفي من الدلائل لإثبات رحلته صلّى الله عليه وسلّم إلى الطائف، وأن ما لقيه كان شديدا عليه، وما عرضه عليه الله تعالى من عقوبتهم، ورحمته بهم ورغبته في استبقائهم في قوله صلّى الله عليه وسلّم: «.. بل أرجو أن يخرج

---

(١) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٢٢٤) .
(٢) ابن إسحاق- السيرة ص/ ٢٤٣، ابن هشام- السيرة ٢/ ٦٦.
(٣) ابن إسحاق- السيرة ص/ ٢٤٣- ٢٤٤، أحمد- فضائل ٢/ ٨٥٠- ٨٥٦.
(٤) المباركفوري- الرحيق المختوم ص/ ١٣٣.
(٥) الألباني- دفاع عن الحديث النبوي والسيرة ص/ ٨.
(٦) ابن هشام- السيرة ٢/ ٧٠- ٧٢، ابن سعد- الطبقات ١/ ٢١١- ٢١.
(٧) ابن هشام- السيرة (٢/ ٧٠- ٧٢) وإسناده حسن مرسل ورواه ابن سعد في الطبقات (١/ ٢١١- ٢١٢) مختصرا وفي إسناده الواقدي، ورواه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٤١٤- ٤١٧) عن طريق موسى بن عقبة عن الزهري، ورواه الإمام أحمد في المسند (٤/ ٣٣٥) كما ذكره السيوطي في الجامع الصغير، وعزاه للطبراني وحسّنه.
(٨) أرّخ الواقدي الرحلة في شوال سنة عشر من المبعث بعد وفاة أبي طالب وخديجة- رضي الله عنها- وذكر أن مدة إقامته بالطائف عشرة أيام، ابن سعد- الطبقات ١/ ١٢١.

الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا» «١» .

إسلام نفر من الجن في وادي نخلة

وفي طريق عودته من الطائف، أقام الرسول صلّى الله عليه وسلّم أياما في وادي نخلة القريب من مكة- وخلال فترة إقامته هذه بعث الله إليه نفرا من الجن استمعوا إلى القرآن الكريم، وأسلموا وعادوا إلى قومهم منذرين ومبشرين كما ذكر الله تعالى في كتابه العزيز: وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ* قالُوا يا قَوْمَنا إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ* يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ «٢» .
ودخل النبي صلّى الله عليه وسلّم مكة عند عودته من الطائف في جوار المطعم بن عدي، الذي تهيأ هو وبنوه لحماية الرسول صلّى الله عليه وسلّم «٣» ، وذلك ما أشار إليه حسّان بن ثابت عند رثائه مطعم في قصيدته التي مطلعها:
أجرت رسول منهم فأصبحوا ... عبيدك ما لبّى مهلّ وأحرما
فلو سئلت عنه معدّ بأسرها ... وقحطان أو باقي بقيّة جرهما
لقالوا هو الموفي بخفرة جاره ... وذمّته يوما إذا ما تذمما «٤» .

الإسراء والمعراج

لقد كان لفقد الرسول صلّى الله عليه وسلّم لعمه وزوجته، وما قاساه بعدهما من اشتداد أذى قريش وما أسفرت عنه محاولته إلى الطائف من مشاق ونتائج أليمة، ثم ما لقيه من قريش عند عودته إلى مكة من عنت وصلف بدت آثارها على النبي صلّى الله عليه وسلّم وقد رأينا كيف أنه توجه إلى الله تعالى شاكيا همومه ومعاناته، ملتمسا النصر، مجددا العزم على المضي قدما في تحمل مسئوليته في نشر الدعوة، مستهينا بكل الصعاب مادام الله راضيا عنه.
وقعت حادثة الإسراء والمعراج بعد هذه الغمرة من المآسي والأحزان والشدائد المتلاحقة، فكان ذلك تسرية عن نفس النبي صلّى الله عليه وسلّم ومواساة له وتكريما وتثبيتا. وقد وقع ذلك في السنة العاشرة من المبعث، بعد وفاة عمه أبي طالب، وقبل هجرته إلى المدينة بأكثر قليلا من السنة «٥» .

---

(١) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٦/ ٣١٢- ٣١٣) ، مسلم- الصحيح ٣/ ١٤٢٠.
(٢) القرآن الكريم- سورة الأحقاف، الآيات/ ٢٩- ٣١، وانظر البخاري- الصحيح (فتح الباري ١٨/ ٣١٤ حديث ٤٩٢١) ، مسلم- الصحيح ١/ ٣٣١ (حديث ٤٤٩) ، وانظر البيهقي- دلائل (٢٥٥/ ٦- ٢٣٣) ، أبو نعيم- دلائل ٢/ ٣٦٣- ٣٦٦، ابن حجر- فتح الباري ١٨/ ٣١٥، ابن هشام- السيرة ٢/ ٧٣، ابن سعد- الطبقات ١/ ٢١١- ٢١٢، الهيثمي- مجمع الزوائد ٦/ ٣٥.
(٣) ابن هشام- السيرة ٢/ ٢٤، ابن كثير- البداية والنهاية ٣/ ١٥١، وانظر ابن سعد- الطبقات ١/ ٢١٢.
(٤) ابن هشام- السيرة ٢/ ٢٣- ٢٤، وانظر ابن حجر- فتح الباري ١٥/ ١٩٤ وقد حفظ النبي صلّى الله عليه وسلّم لمطعم بن عدي صنيعه هذا وما سبق من صنيعه في نقض صحيفة المقاطعة وأشاد به، انظر البخاري- الصحيح (فتح الباري ١٢/ ٢٢٦- ٢٢٧، حديث ٣١٣٩) ، وأخرجه أبو داود في السنن (٣/ ٦١ حديث ٣٦٨٩) .
(٥) البيهقي- دلائل النبوة ٢/ ٣٥٤، الذهبي- تاريخ الإسلام ١/ ١٤١، ابن كثير- البداية والنهاية ٣/ ١٠٧، وانظر: البخاري- الصحيح (فتح الباري ٣/ ٤٩٢، ٦/ ٣٧٤، ٧/ ١٩٦) ، مسلم- الصحيح ١/ ١٤٨.

إن الإسراء والمعراج حادثتان متلازمتان ومترادفتان وهما ثابتتان بنص القرآن الكريم «١» ، والسنة النبوية الصحيحة «٢» . فلقد نص الكتاب العزيز على أن معجزة الإسراء قد تمت ليلا حين تم انتقال الرسول صلّى الله عليه وسلّم من المسجد الحرام في مكة المكرمة إلى المسجد الأقصى في القدس الشريف بأرض فلسطين: سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ «٣» .
أما المعراج، فهو الانتقال بالرسول صلّى الله عليه وسلّم إلى السماوات، لتصل به إلى سدرة المنتهى وليطلّع بحواسه ودون شك على آيات الله الكبرى، قال الله تعالى: وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى * عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى * ما زاغَ الْبَصَرُ وَما طَغى * لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى «٤» .
ولقد صحت الروايات عن قيام الملك جبريل- عليه السلام- بشق صدر الرسول صلّى الله عليه وسلّم ثانية في هذه المناسبة، وغسله لقلبه صلّى الله عليه وسلّم بماء زمزم، وإفراغه الحكمة والإيمان في صدره «٥» . ففي الصحيحين عن أنس- رضي الله عنه- قال: كان أبو ذر تحدّث أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «فرج سقف بيتي وأنا بمكّة، فنزل جبريل، ففرج صدري، ثمّ غسله بماء زمزم، ثمّ جاء بطست من ذهب ممتليء حكمة وإيمانا فأفرغه في صدري ثمّ أطبقه، ثمّ أخذ بيدي فعرج بي إلى السّماء الدّنيا ... » «٦» مما يؤكد أن هذه العملية قد تمت في ليلة الإسراء وأن ذلك كان إعدادا له لتحمل الرحلة، وهي تظهر في عدم تأثر جسمه صلّى الله عليه وسلّم بشق الصدر وإخراج القلب وغسله، مما

يشير إلى تأمينه من جميع المخاطر. إن هذه الأمور الخارقة لقوانين الحياة البشرية والعادة وما جرى التعارف عليه هى أمور وقعت، ويجب التسليم بها وعدم صرفها عن حقيقتها الثابتة، وهي إنفاذ لإرادة الله تعالى وقدرته التي لا يستحيل عليها شيء «٧» .
وبعد الانتهاء من شق الصدر وغسله ولأمه أسري برسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى بيت المقدس، وهو راكب ظهر البراق «٨» . فقد ذكر أنس قول النبي صلّى الله عليه وسلّم: «أتيت بالبراق، وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره

---

(١) القرآن الكريم- سورة الإسراء، الآية/ ١.
(٢) البخاري- الصحيح (فتح ١/ ٤٥٨، ٣/ ٤٩٢، ٦/ ٣٧٤، مسلم- الصحيح ١/ ١٤٨) .
(٣) القرآن الكريم- سورة الإسراء، الآية/ ١.
(٤) القرآن الكريم- سورة النجم، الآيات/ ١٣- ١٨.
(٥) البخاري- الصحيح- كتاب الصلاة، الباب الأول (الفتح ١/ ٤٥٨) ، كتاب الحج، باب ما جاء في زمزم، (الفتح ٣/ ٤٩٢) ، كتاب الأنبياء، الباب الخامس: ذكر إدريس عليه السلام (الفتح ٦/ ٣٧٤) ، مسلم- الصحيح باب الإسراء ١/ ١٤٨.
(٦) البخاري- الصحيح (فتح الباري ١/ ٤٥٨، ٣/ ٤٩٢، ٦/ ٣٧٤) ، مسلم- الصحيح (١/ ١٤٨) ووردت روايات أخرى صحيحة تفيد أن الرسول صلّى الله عليه وسلّم كان نائما في الحجر، في المسجد الحرام حين شق صدره وغسل قلبه، ويمكن الجمع بين الروايات بأنه كان في بيته ثم جاء به جبريل- عليه السلام- إلى المسجد الحرام لإتمام الإستعدادات للرحلة ثم الإنطلاق من باب المسجد الحرام، (مسلم الصحيح ١/ ١٥٠) وانظر أيضا: البخاري- الصحيح (فتح الباري ٦/ ٣٠٢، ٧/ ٢١٠، ١٣/ ٤٧٨) .
(٧) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٢٠٥) .
(٨) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٢٠١- ٢٠٢) .

عند منتهى طرفه، فركبته فسار بي حتى أتيت بيت المقدس ... » «١» .
وفي بيت المقدس صلّى الرسول صلّى الله عليه وسلّم ببعض الأنبياء، ووصف هيئاتهم «٢» ، ثم عرج إلى السماء السابعة مارّا بما قبلها من السماوات حيث التقى بالأنبياء آدم، ويوسف وإدريس وعيسى ويحيى وهارون وموسى وإبراهيم- عليهم السلام-. وقد رأى خلال هذه الرحلة السماوية الفريدة الجنة ونعيمها ووصف أنهارها وخاصة الكوثر «٣» ، كما رأى النار ومن يعذب فيها «٤» وسمع صريف أقلام الملائكة الكاتبين «٥» ، ورأى البيت المعمور في السماء السابعة وما يدخله من الملائكة «٦» ، كما وصف سدرة المنتهى «٧» ، ووصف جبريل- عليه السلام- «٨» الذي قدم له خمرا ولبنا فاختار اللبن، فقال جبريل هي الفطرة «٩» . وفرضت عليه وعلى أمته خمسون صلاة في اليوم والليلة ثم خفضت إلى خمس صلوات «١٠» ، قبل أن ينزل ثانية إلى بيت المقدس ليعود منه إلى مكة «١١» .
وفي حين كان البراق هو الوسيلة التي تمت بواسطتها رحلة الإسراء إلى المسجد الأقصى، فإن «المعراج» لم توضح الروايات الصحيحة ماهيته حيث استعملت صيغة (عرج بي) فلم توضح الوسيلة، في حين أوردت بعض الروايات «نصب المعراج» أو «أتي بالمعراج» «١٢» وفي بعضها «نصب لي المعراج» «١٣» . وينقل ابن إسحاق الحديث الذي أورده أبو سعيد الخدري عن النبي صلّى الله عليه وسلّم والذي ورد فيه قوله: «لما فرغت مما كان في بيت المقدس، أتي بالمعراج، ولم أر شيئا قطّ أحسن منه، وهو الذي يمدّ إليه ميّتكم عينيه إذا حضر، فأصعدني صاحبي فيه حتى انتهى بي إلى باب من أبواب السماء..» «١٤» ، وهكذا فلم يكن الصعود إلى السماء قد حصل على البراق كما توهم البعض. ولقد وردت قصة الإسراء والمعراج مفصلة طويلة في كتب المغازي والسيرة والتاريخ وفيها طرق ضعيفة في الأسانيد، متونها تشبه أخبار القصاصين والإخباريين «١٥» .

---

(١) رواه أحمد- الفتح الرباني (٢٠/ ٢٥١- ٢) ، وإسناده صحيح، وانظر: البخاري- صحيح (فتح الباري ٩/ ١٧٦ حديث ٥٥٧٦) ، مسلم- الصحيح (١/ ١٤٥ حديث ١٦٢) .
(٢) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٦/ ٤٧٧) ، مسلم- الصحيح (١/ ١٥١- ١٥٧) .
(٣) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٢٠١- ٢٠٢، ٨/ ٧٣١) .
(٤) أحمد- المسند ٣/ ٢٢٤، ابو داود- السنن ٥/ ١٩٤.
(٥) البخاري- الصحيح (فتح الباري ١/ ٤٥٨، ٣/ ٤٩٢، ٦/ ٣٤٧) .
(٦) مسلم- الصحيح ١/ ١٤٦.
(٧) أحمد- المسند ٣/ ١٢٨ بإسناد صحيح.
(٨) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٨/ ٦١٠- ١١) ، مسلم- الصحيح ١/ ١٥٨- ١٦٠.
(٩) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٢١٠- ٢٠٢، ٨/ ٣٩١ مسلم- الصحيح ١/ ١٤٥، ٥/ ١٥٠- ١٥١.
(١٠) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٦/ ٣٧٤، ٧/ ٢٠١.
(١١) ابن هشام- السيرة ١/ ٤٠٢ برواية ابن إسحاق عن أم هانيء هند بنت أبي طالب وإسناده ضعيف وأخرجه البيهقي في الدلائل (٢/ ٣٥٥- ٥٧) من رواية الترمذي بإسناده إلى شداد بن أوس وقال البيهقي: هذا إسناد صحيح.
(١٢) ابن هشام- السيرة ١/ ٤٠٣.
(١٣) ابن كثير- البداية والنهاية ٣/ ١٢٢.
(١٤) ابن هشام- السيرة النبوية ١/ ٤٠٣.
(١٥) مثال ذلك: ما أورده ابن هشام في السيرة ١/ ٣٩٦- ١٠٨، الطبري- تفسير ١٥/ ٦- ١٤، الحاكم- المستدرك ٢/ ٥٧١ وانظر عن ذلك: ابن كثير- التفسير ٣/ ٢١، الذهبي- السيرة ص/ ١٨٢.

أعلن النبي صلّى الله عليه وسلّم ما حصل له في تلك الليلة المباركة وكان مشفقا أن يكذّبه قومه، وقد صدّقه المؤمنون وكذّبه المشركون. يقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لقد رأيتني في الحجر، وقريش تسألني عن مسراي فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكربت كربة ما كربت مثلها قط. قال: «فرفعه الله لي أنظر إليه، ما يسألوني عن شيء إلّا نبّأتهم به» «١» . ولقد افتتن المشركون بأخبار الإسراء، فمن بين مصفق، وبين واضع يده على رأسه متعجبا، فقد استنكروا أن يذهب الرسول صلّى الله عليه وسلّم إلى الشام ثم يعود في ليلة واحدة في الوقت الذي يقتضيهم ذلك فترة شهرين.
ورغم ذلك فقد اضطروا للاعتراف بصحة وصفه لمسجد بيت المقدس «٢» . وقد صح أن بعض المسلمين قد ارتدّوا «٣» ، ذلك أنهم كانوا ضعفاء الإيمان فزلزل الحادث إيمانهم، فكفروا ولم يعودوا إلى حظيرة الإيمان حتى قتلوا «٤» .
أما أبو بكر الصدّيق- رضي الله عنه- فعندما أخبره بخبر الإسراء والمعراج صدقه دون تردد، قائلا للمشركين: «لئن قال ذلك لقد صدق. فتعجّبوا وقالوا: أو تصدّقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟ فقال: وما يعجّبكم من ذلك! فو الله إني لأصدقه بما هو أبعد من ذلك، أصدقه في خبر السماء في غدوه أو رواحه. ثم أقبل على النبي صلّى الله عليه وسلّم يسأله عن وصفه، وكلما ذكر شيئا قال صدقت. أشهد أنك رسول الله. فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم: «وأنت يا أبا بكر «الصدّيق» «٥» ، فيومئذ سماه «الصديق» .
لقد تأول بعض العلماء حادث الإسراء والمعراج فزعموا أنها رؤيا منامية، وذهب بعضهم إلى القول بأنها حصلت بالروح دون الجسد «٦» ، وقد ثبت عن طريق ابن عباس- رضي الله عنهما- أنها كانت «رؤيا عين بالروح والجسد يقظة لا بالمنام» وهذا هو رأي جمهور العلماء «٧» .
أسرى بك الله ليلا إذ ملائكه ... والرسل في المسجد الأقصى على قدم

(١) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٨/ ٣٩١ حديث ٤٧١٠) ، مسلم- الصحيح (١/ ١٥٦- ١٥٧ حديث ١٧٠) ، أحمد- الفتح الرباني ٢٠/ ٢٦٢ من حديث عبد الله بن عباس بإسناد صحيح.
(٢) أحمد- المسند ١/ ٣٠٩ بإسناد صحيح، وقد صححه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٥٥، والهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٦٤- ٦٥.
(٣) ابن هشام- السيرة النبوية ٢/ ٤٥، الحاكم- المستدرك ٣/ ٦٢- ٦٣، وصححه ووافقه الذهبي.
(٤) أحمد- المسند ١/ ٣٤٩ بإسناد صحيح، ابن كثير- التفسير ٣/ ١٥ وفي إسناده هلال بن خبّاب صدوق.
(٥) الحاكم- المستدرك ٣/ ٦٢- ٦٣، ٧٦- ٧٧، وفي إسناده محمد بن كثير الصنعاني صدوق كثير الغلط (التقريب ص/ ٥٠٤) .
(٦) الخفاجي- نسيم الرياض في شرح الشفا للقاضي عياض ٢/ ٢٦٥.
(٧) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٢٠٢، وانظر نفي سفيان بن عيينة أن تكون رؤيا منام عن تفسير الطبري ١٥/ ١١٠، ويقول ابن حجر: إن الإسراء والمعراج وقعا في ليلة واحدة في اليقظة بجسد النبي صلّى الله عليه وسلّم وروحه بعد البعث، وإلى هذا ذهب الجمهور من علماء المحدثين والفقهاء والمتكلمين، وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة، ولا ينبغي العدول عن ذلك، إذ ليس في العقل ما يحيله حتى يحتاج إلى تأويل» (فتح الباري (١٥/ ٤٤) ، وانظر ابن القيّم- زاد المعاد ١/ ٩٩، ٣/ ٣٤، ٤٠ حيث نص إلى أن الإسراء والمعراج كانا في ليلة واحدة.

لما خطرت به التفّوا بسيّدهم ... كالشّهب بالبدر أو كالجند بالعلم
صلى وراءك منهم كلّ ذي خطر ... ومن يفز بحبيب الله يأتمم
جبت السماوات أو ما فوقهن بهم ... على منوّرة درّية اللّجم
ركوبة لك من عزّ ومن شرف ... لا في الجياد، ولا في الأينق الرسم
مشيئة الخالق الباري، وصنعته ... وقدرة الله فوق الشك والتّهم
حتى بلغت سماء لا يطار لها ... على جناح، ولا يسعى على قدم

كفاية الله رسوله صلّى الله عليه وسلّم أمر المستهزئين:

أقام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد الإسراء والمعراج على أمر الله تعالى صابرا محتسبا، مؤديا إلى قومه النصيحة على ما يلقى منهم من التعذيب والأذى والاستهزاء، «وكان عظماء المستهزئين خمسة نفر وكانوا ذوى شرف في قومهم» ، وأورد ابن إسحاق رواية عن يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير ذكر فيها أسماءهم وهم: الأسود بن المطلب بن أسد من بني أسد، والأسود بن عبد يغوث من بني زهرة، والوليد بن المغيرة من بني مخزوم، والعاص بن وائل بن هشام من بني سهم، والحارث بن الطلاطلة من بني خزاعة. «١» فلما تمادوا في الشر، وأكثروا برسول الله صلّى الله عليه وسلّم الإستهزاء أنزل الله تعالى قوله فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ* إِنَّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ* الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ* وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِما يَقُولُونَ* فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ* وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ «٢» .

---

(١) ابن هشام- السيرة ١/ ٤٠٨- ١٠.
(٢) القرآن الكريم- سورة الحجر، الآيات/ ٩٤- ٩٩.

عرض الرسول صلّى الله عليه وسلّم نفسه على القبائل

حرص الرسول صلّى الله عليه وسلّم على الاجتماع بالناس وتبليغهم دعوة الإسلام، وكان يتحرى مواضع اجتماع القبائل وخاصة في موسم الحج وفترات عقد أسواق العرب، حيث كان يلتقي بذوي الشأن من رؤساء القبائل وغيرهم، وكان يطالب الرؤساء بحمايته دون أن يكره أحدا على قبول دعوته «١» . وقد نقل الإمام أحمد رواية ربيعة بن عباد الدؤلي، وكان من شهود العيان الذين رأوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في مواسم الأسواق وهو يباشر الدعوة قال: «رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بذى المجاز يتبع الناس في منازلهم يدعوهم إلى الله- عز وجل-، ووراءه رجل أحول تقد وجنتاه وهو يقول: لا يخرجنكم هذا من دينكم ودين آبائكم» «٢» .

وكان عليه الصلاة والسلام قد عرض نفسه على كندة «٣» وبني كلب «٤» وبني حنيفة، وكان ردهم قبيحا «٥» ، كما عرض نفسه على بني عامر بن صعصعة «٦» ، ومحارب، وفزارة، وغسان، ومرّة، وسليم، وعبس، وبني النضر، وبني البكاء، وعذرة، وربيعة، وبني شيبان، والحضارمة «٧» .

وكان مما يقوله صلّى الله عليه وسلّم في المواسم: «هل من رجل يحملني إلى قومه ف إنّ قريشا منعوني أن أبلّغ كلام ربّي عزّ وجلّ» «٨» .

وخاطب صلّى الله عليه وسلّم الناس في سوق ذى المجاز بقوله: «أيّها النّاس قولوا لا إله إلّا الله تفلحوا» وكان الناس يزدحمون عليه غير أنهم لم يتجاوبوا مع دعوته، ومع ذلك فقد كان صلّى الله عليه وسلّم يواصل الدعوة فلا يسكت، بل يكرر مقولته «٩» .

وحين يعرض صلّى الله عليه وسلّم نفسه على القبائل كان يقول: «يا بني فلان، إنّي رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه، وأن تؤمنوا بي وتصدّقوني وتمنعوني حتّى أبيّن عن الله ما بعثني به..» «١٠» .

---

(١) عروة- المغازي ص/ ١١٧، البيهقي- الدلائل ٢/ ٤١٤.

(٢) أحمد- المسند ٣/ ٤٩٢، الطبراني- المعجم الكبير ٥/ ٥٦، الحاكم- المستدرك ١/ ١٥.

(٣) ابن هشام- السيرة ٢/ ٧٥، ابن إسحاق- السيرة/ ٢٣٢.

(٤) المرجع السابق ٢/ ٧٥، والحديث في إسناده ضعف.

(٥) المرجع السابق ٢/ ٧٥- ٧٦ ولم يسمّ من حدثه.

(٦) المرجع السابق ٢/ ٧٦ مرسلا.

(٧) ابن سعد- الطبقات ١/ ٢١٦- ٢١٧ من حديث الواقدي.

(٨) أحمد- المسند ٣/ ٣٩٠ بإسناد صحيح، أبو داود- السنن (حديث ٤٧٣٤) ، ابن ماجه- السنن ص/ ٧٣ (حديث ٢٠١) ، وانظر أحمد- الفتح ٢٠/ ٢٦٧ من حديث جابر، الذهبي- السيرة ص/ ٢٨٢ وهو على شرط البخاري.

(٩) أحمد- المسند ٤/ ٦٣ بإسناد صحيح.

(١٠) المرجع السابق ٣/ ٤٩٢، ٤/ ٣٤١، الطبراني- الكبير ٥/ ٥٦- ٦٣ (الأحاديث ٤٥٨٣- ٩٠) .

اتّصال الرسول صلّى الله عليه وسلّم برهط من الأوس والخزرج ودعوتهم:

مكث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يتبع الناس في منازلهم وأسواقهم بعكاظ ومجنّة، وفي مواسم الحج في منى، «حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر فيأتيه قومه فيقولون: احذر غلام قريش لا يفتنك، ويمشي بين رجالهم وهم يشيرون عليه بالأصابع «١» .

ولقد كان أهل يثرب من الأوس والخزرج أكثر الناس تجاوبا مع دعوة الرسول صلّى الله عليه وسلّم عندما عرض عليهم الإسلام «٢» . وكانت الاتصالات الأولى بالأنصار قد تمّت في مواسم الحج

والعمرة، وقد عرض الرسول صلّى الله عليه وسلّم الإسلام على سويد بن الصامت، غير أنه لم يعلن إسلامه، كما أنه لم يبعد عنه، وقد استحسن ما سمع من القرآن، ثم انصرف عنه فقدم المدينة على قومه فلم يلبث أن قتله الخزرج في حرب «بعاث» ، وكان رجال من قومه يقولون إنه مات مسلما «٣» .

ويذكر جابر بن عبد الله الأنصاري مجيء أعداد من الأوس والخزرج إلى الحج، وعلاقتهم بالرسول صلّى الله عليه وسلّم فيقول «فأويناه وصدقناه فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلّا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام» «٤» .

وكانت الأوس قد سعوا لمحالفة قريش على الخزرج الذين كانوا أكثر منهم عددا، فقدم أبو الحيسر أنس بن رافع في وفد من بني عبد الأشهل لهذا الغرض، فسمع بهم الرسول صلّى الله عليه وسلّم فجاءهم ودعاهم إلى الإسلام وتلا عليهم القرآن فقال أحدهم، وهو إياس بن معاذ: «أي قوم! هذا والله خير مما جئتم له، فانتهره أبو الحيسر فصمت، وقام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عنهم، ورجعوا إلى المدينة، وجرت الحرب بين الأوس والخزرج «يوم بعاث» ، ثم مات إياس بن معاذ، وكان قومه يسمعونه يهلل الله ويكبره ويحمده ويسبّحه حتى مات، فما كانوا يشكّون أنه مات مسلما، فقد استشعر الإسلام في لقائه مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في ذلك المجلس «٥» .

ومع أن هذين الرجلين من الأوس كانا قد استشعرا الإسلام، فإن المصادر لم تذكر قيامهما بالدعوة في وسط قومهما، فإن البداية المثمرة للاتصال بالأنصار كانت مع وفد الخزرج في موسم الحج عند عقبة منى، الذين التقاهم النبي صلّى الله عليه وسلّم وجلس معهم وكلمهم ودعاهم إلى الله- عز وجل-، وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن. وقد ذكر ابن إسحاق إسلامهم وقيامهم بالدعوة في المدينة «٦» .

---

(١) أحمد- المسند ٣/ ٣٢٢، ٣٣٩- ٣٤٠ وإسناده حسن.
(٢) ابن هشام- السيرة النبوية ٢/ ٧٧- ٧٩ بإسناد حسن، وقال ابن حجر في الإصابة ١/ ١٤٦ بإنه من صحيح الحديث.
(٣) المرجع السابق ٢/ ٣٤.
(٤) أحمد- المسند ٣/ ٣٣٩- ٣٤٠.
(٥) ابن هشام- السيرة ٢/ ٣٦- ٣٧ بإسناد حسن.
(٦) المرجع السابق ٢/ ٣٧- ٣٩ بإسناد حسن.

بيعة العقبة الأولى

وفي السنة التالية للقاء النبي صلّى الله عليه وسلّم مع وفد الخزرج جرت بيعة العقبة الأولي، فقد حضر اثنا عشر رجلا عشرة منهم من الخزرج واثنان من الأوس، مما يشير إلى أن نشاط الرجال الذين أسلموا من الخزرج في السنة السابقة قد تركز ضمن قبيلتهم بشكل رئيسي، وإن كانوا قد تمكنوا من اجتذاب رجال من الأوس، وكان ذلك بداية ائتلاف القبيلتين تحت راية الإسلام. وكان الصحابي الجليل عبادة بن الصامت قد شارك في بيعة العقبة الأولي لذلك فإنه من مصادر المعلومات الأساسية والدقيقة عنها، وقد وردت روايته عن البيعة في الصحيحين، كما أوردها ابن إسحاق في السيرة بشكل أوضح وأكمل. قال عبادة بن الصامت: «كنت فيمن حضر العقبة الأولى وكنا اثني عشر رجلا، فبايعنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفترض علينا الحرب: على أن لا نشرك بالله

شيئا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف.
فإن وفّيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئا، فأمركم إلى الله عز وجل، إن شاء عذّب وإن شاء غفر» «١» .
وبعد أن تمّت البيعة، وأراد المبايعون العودة إلى يثرب، بعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم معهم الصحابي مصعب بن عمير ليقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين «٢» ، وقد أسلم خلق كثير من الأنصار على يده بعون من الصحابي أسعد بن زرارة «٣» ، وعندما بلغ عدد المسلمين الأربعين أمهم مصعب، ثم كتب إليه النبي صلّى الله عليه وسلّم بأن يصلي الجمعة بهم «٤» .
وقبل حلول موسم الحج للسنة الثالثة عشرة من المبعث، عاد مصعب بن عمير إلى مكة ليطلع النبي صلّى الله عليه وسلّم على ما أصابه من نجاح وتوفيق من الله سبحانه وتعالى في مهمته.
بيعة العقبة الثانية:
وفي العام التالي قدم إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم من مسلمي الأوس والخزرج ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان، فبايعوه بيعة العقبة الثانية وهي أن يمنعوه- إذا قدم عليهم- مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم وأنفسهم. وهذه البيعة هي نقطة التحول الكبرى في تاريخ الدعوة حيث أصبح للإسلام دار يمكن أن يتخذ منها قاعدة للانتشار وهو ما حصل بالفعل، فأذن النبي صلّى الله عليه وسلّم لأصحابه بالهجرة إلى المدينة «٥» .

---

(١) البخاري- الصحيح (فتح الباري ١/ ٦٦) ، مسلم- الصحيح ٣/ ١٣٣٣، وما أثبتناه من سيرة النبي صلّى الله عليه وسلّم لابن هشام ٢/ ٤٣٣- ٤٣٤ عن ابن إسحاق بإسناد صحيح لغيره والنص ورد في الصحيحين قريبا من نص ابن هشام وقد ورد حديث عبادة كذلك في النسائي- السنن (كتاب البيعة على الجهاد ٧/ ١٤١- ١٤٢، الإمام أحمد- المسند ٥/ ٣١٣، وابن سعد- الطبقات ١/ ٢١٩- ٢٢٠
والمقصود ببيعة النساء المذكورة في النص ما نصت عليه الآية (١٢) من سورة الممتحنة التي كانت قد نزلت فيما بعد.
(٢) ابن هشام- السيرة ١/ ٤٣٨.
(٣) ابن حجر- فتح الباري ١٥/ ٧٥، ابن كثير- البداية ٣/ ١٦٦.
(٤) ابن هشام السيرة ١/ ٤٣٨.
(٥) ابن حجر- فتح الباري: ٧/ ٢٦١- ٢٦٢، ابن هشام- السيرة ٢/ ٢٧٧- ٢٨٤، أحمد- المسند ٣/ ٣٢٢- ٣٢٣، ابن القيم: زاد المعاد ١/ ١٠٠- ١٠١.

يحدثنا الصحابي الجليل كعب بن مالك الأنصاري عن تفاصيل بيعة العقبة الثانية فيقول: «خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالعقبة من أوسط أيام التشريق. فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، نتسلل تسلل القطا مستخفين. حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلا ومعنا امرأتان من نسائنا. فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلّا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له: فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب، فقال: يا معشر الخزرج- قال: وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار: الخزرج، خزرجها وأوسها-: إن محمدا منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلّا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلّموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده. قال: فقلنا له لقد سمعنا ما قلت،:

فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت. قال: فتكلم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فتلا القرآن، ودعا إلى الله ورغب في الإسلام ثم قال: «أبايعكم على أن تمنعوني ممّا تمنعون منه نساءكم وأبناءكم» قال: فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق نبيّا لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة، ورثناها كابرا عن كابر. قال: فاعترض القول، والبراء يكلم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أبو الهيثم بن التّيهان، فقال:

يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالا، وإنا قاطعوها- يعني اليهود- فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال: فتبسم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ثم قال: «بل الدّم الدّم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم منّي، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم» . قال كعب: وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيبا، ليكونوا على قومهم بما فيهم. فأخرجوا منهم اثني عشر نقيبا، تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس» «١» .

وبعد هذه البيعة، قام العباس بن عبادة بن نضلة فقال لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: والله الذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلنّ على أهل منى غدا بأسيافنا «٢» . فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم» فرجعوا إلى رحالهم.

وفي صباح اليوم التالي جاءهم جمع من كبار رجال قريش يسألونهم عما بلغهم من بيعتهم للنبي صلّى الله عليه وسلّم ودعوتهم له بالهجرة، فحلف المشركون من الخزرج والأوس بأنهم لم يفعلوا ذلك، والمسلمون ينظرون إلى بعضهم «٣» وبذلك مرت هذه الأزمة بسلام، وعاد الأنصار إلى يثرب وهم ينتظرون هجرة النبي صلّى الله عليه وسلّم والمسلمين بلهف كبير.

---

(١) ابن هشام- السيرة، ١/ ٢٧٨- ٩، وانظر البخاري- الصحيح (فتح ٨/ ٥٧ (حديث ٧٠٥٦) ، مسلم- الصحيح/ ٣١٤٧٠ (حديث ١٧٠٩) ، أحمد- الفتح الرباني ٢٠/ ٢٧٠، الحاكم- المستدرك ٢/ ٦٢٤- ٥، ابن كثير- البداية ٣/ ١٧٥.

(٢) ابن هشام- السيرة ٢/ ١٠١- ١٠٢.

(٣) المرجع السابق ١/ ٤٣٩- ٤٣، ٤٤٧- ٨ بإسناد حسن، وقد صححه ابن حبان، انظر: فتح الباري ٧/ ٢٢١، وأورد ابن هشام رواية عن تثبت قريش من صحة الخبر وإدراكهم بأنهم قد خدعوا، وخروجهم في طلب القوم، وإدراكهم سعد بن عبادة وعودتهم به إلى مكة مغلولا وهم يعذبونه حتى أنقذه الله منهم بجوار جبير بن مطعم والحارث بن حرب له (السيرة ٢/ ١٠٣- ١٠٤) .

الهجرة إلى يثرب

لم يكن اختيار يثرب دارا للهجرة مما اقتضته ظروف الدعوة فقط، وإنما كان ذلك بوحي من الله سبحانه وتعالى وقد وردت أحاديث صحيحة تؤكد ذلك، منها قوله صلّى الله عليه وسلّم للمسلمين في مكة، كما ورد في حديث عائشة- رضي الله عنها-: «إنّي أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين- وهما الحرّتان- » «١» . وقوله صلّى الله عليه وسلّم: «رأيت في المنام أنّي أهاجر من مكّة إلى أرض بها نخل، فذهب وهلي إلى أنّها اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب» «٢» .

ولا شك في أن الابتلاء والاضطهاد كانا من أسباب الهجرة «٣» ، كما أن توفير ملاذ آمن للدعوة يهيىء لها المناخ الملائم للعمل الإيجابي كان من أسبابها المهمة، ويتضح ذلك بشكل بارز من نصوص بيعة العقبة الثانية «٤» التي بيّنت أن تكذيب قريش للرسول كان وراء الانتقال عن مكة «٥» ، فقد «كان المؤمنون يفر أحدهم بدينه إلى الله تعالى وإلى رسوله مخافة أن يفتن ... » «٦» . وبعبارة أخرى فقد كانت قريش تضطهد من يتّبع الرسول صلّى الله عليه وسلّم من أهل مكة «حتى فتنوهم عن دينهم، ونفوهم من بلادهم، فهم بين مفتون في دينه، وبين معذب في أيديهم، وبين هارب في البلاد

فرارا منهم..» «٧» . وذكر ابن إسحاق بأنه قد أذن للمسلمين بعد الهجرة بقتال من بغى عليهم «٨» ، وقد أكّد ذلك حبر الأمة عبد الله بن عباس- رضي الله عنهما- فقال: «كان مشركو أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيقول لهم: «اصبروا فإني لم أومر بالقتال» حتى هاجر صلّى الله عليه وسلّم فأنزل الله هذه الآية «٩» أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ.. الآيات، وهي أول آية أنزلت في القتال «١٠» .

أول المهاجرين:

كان مصعب بن عمير وعبد الله بن أم مكتوم أول من هاجر إلى المدينة وكانا يقرئان الناس القرآن كما صرح بذلك الإمام البخاري «١١» . في حين وردت روايات أخرى تفيد بأن أول من هاجر هو أبو سلمة بن عبد الأسد وذلك بعد أن آذته قريش على أثر رجوعه من هجرته إلى الحبشة فتوجه إلى يثرب قبل بيعة العقبة بسنة واحدة «١٢» ، على أنه يمكن الجمع بين الخبرين بحمل الأولوية في حالة مصعب بن عمير وعبد الله بن أم مكتوم على أنها بعد

---

(١) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٢٣١) ، واللابتان هما: الحرتان، الصحيح (فتح ٧/ ٢٣٤) .
(٢) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٢٢٦) ، مسلم الصحيح ٤/ ١٧٧٩.
(٣) البخاري- الصحيح (فتح الحديث ١٨٨٩) .
(٤) ابن هشام- السيرة النبوية ٢/ ١٢١.
(٥) البخاري- فتح الباري (حديث ٣٩٠١) ، ابن هشام- السيرة ٢/ ١٢١.
(٦) البخاري- فتح الباري (حديث ٣٩٠٠) .
(٧) ابن هشام- السيرة النبوية ٢/ ١٢١.
(٨) المرجع السابق ٢/ ١٢١.
(٩) القرآن الكريم، سورة الحج، الآيات ٣٩- ٤١.
(١٠) أحمد بن حنبل- المسند ١/ ٢٦٢ (حديث ١٨٠٦٥) ، ابن الجوزي- زاد المسير ٥/ ٤٣٦، ابن كثير- التفسير ٥/ ٤٣٠.
(١١) البخاري- الصحيح (فتح الباري، الأحاديث ٣٩٢٤، ٣٩٢٥) ، وانظر الفتح ٧/ ٢٦٠ من حديث البراء بن عازب.
(١٢) ابن سعد- الطبقات ١/ ٢٢٦، ابن هشام- السيرة ٢/ ١٢٢، الذهبي- السيرة ص/ ٣١٣ بإسناد مرسل رواه الزهري.

الإذن بالهجرة، وبنيّة الإقامة بها، وليعلّما من أسلم من أهلها، وذلك بأمر النبي صلّى الله عليه وسلّم، في حين كان خروج أبو سلمة من مكة فرارا بدينه وليس بقصد الهجرة إلى المدينة للاستقرار بها «١» .

وقد ذكرت المصادر المعتمدة الكثير من المعلومات عن أساليب قريش في محاولتها عرقلة هجرة المسلمين إلى يثرب، وإثارتها للمشاكل في وجه المهاجرين من الإرهاب، وحجز الزوجات والأطفال، وسلب الأموال، أو الاحتيال لإعادة من هاجر منهم، غير أن ذلك لم يعرقل موكب الهجرة، فقد كان المهاجرون على استعداد تام للانخلاع عن الدنيا ومباهجها في سبيل الفرار بدينهم. والمصادر الموثقة تحكي قصص البطولة والفداء في هذا المجال، فقد ذكرت أم المؤمنين أم سلمة- رضي الله عنها- قصة هجرتها مع زوجها الأول، وكيف أن قريشا انتزعتها وطفلها من زوجها. وكيف أن رحلة العذاب قد استمرت قرابة السنة قبل أن يتاح لها أن تسترجع ابنها وأن تلحق بزوجها، وتعكس القصّة، إلى جانب الإيمان العميق والمعاناة في سبيل العقيدة، إحدى صور المروءة التي عرفها المجتمع العربي قبل الإسلام حين تطوع عثمان بن طلحة بمصاحبة أم سلمة وطفلها والإحسان في معاملتهما بشرف وكرامة وحياء إلى أن أوصلها مشارف يثرب واطمأن على سلامتها قبل أن يعود إلى مكة «٢» .

أما صهيب الرومي فقد منعه زعماء قريش من الهجرة بحجة أنه كان قد أتى إلى مكة فقيرا، فقالوا له: «كثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك؟ والله لا يكون ذلك أبدا» وحين عرض صهيب عليهم أن يجعل لهم المال في مقابل أن يخلّوا سبيله، فإنهم وافقوا على ذلك، وبلغ ذلك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال:

«ربح صهيب» «٣» ، ثم تلا قوله تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ «٤» .

ويروي عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- خبر هجرته حيث اتعد مع عياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص السهمي، على الالتقاء في سرف على أميال عن مكة، وكيف أن هشام بن العاص قد حبس عنهما، وفتن فافتتن، ثم تحدث عن خبر وصولهما إلى ظاهر المدينة، ونزولهما في بني عمرو بن عوف بقباء، وخروج أبي جهل بن هشام وأخيه الحارث إلى عياش بن أبي ربيعة وإقناعهما إياه بضرورة العودة معهما إلى مكة ليبر بقسم أمه التي نذرت ألا يمس رأسها مشط حتى تراه، وكيف حذره عمر منهما وقوله له «يا عياش إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم:» ، وعدم استماعه إلى التحذير، أو إلى عرض عمر بمقاسمته ماله الكثير، وقد صدق حدس عمر في الأمر حيث عدوا عليه في بعض الطريق فأوثقاه وربطاه ثم دخلا به مكة وفتناه فافتتن «٥» . يقول عمر: «فكنا نقول: ما الله بقابل ممن افتتن صرفا ولا عدلا ولا توبة، قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم» ، فلما قدم

---

(١) ابن حجر- فتح الباري (حديث ٣٩٢٥) .

(٢) ابن هشام- السيرة ١/ ٤٦٩- ٧٠ بإسناد حسن.

(٣) الحاكم- المستدرك ٣/ ٣٨٩، اورده موصولا وقال: صحيح على شرط مسلم، والطبراني: (الهيثمي- المجمع ٦/ ٦٠) ، البيهقي (ابن كثير- البداية ٣/ ١٩١) ، وانظر: أحمد وفضائل ٢/ ٢٨٢.

(٤) القرآن الكريم- سورة البقرة، الآية/ ٢٠٧، وانظر الطبري- تفسير ٤/ ٢٥٠، ابن كثير- التفسير ١/ ٣٦٠.

(٥) ابن هشام- السيرة النبوية ٢/ ١٢٩- ١٣١، ابن الأثير- أسد الغابة ٤/ ٥٨.

النبي صلّى الله عليه وسلّم أنزل الله تعالى فيهم وفي قولنا وقولهم لأنفسهم «١» : قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ* وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ* وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ «٢» .

قال عمر: «فكتبتها بيدي في صحيفة وبعثت بها إلى هشام بن العاص» . ويظهر أن هشاما قد وجد صعوبة في فهمها إلى أن ألقى الله في قلبه أنها نزلت في أمثاله فلحق برسول الله صلّى الله عليه وسلّم في المدينة» «٣» . وقد ثبت أن الرسول صلّى الله عليه وسلّم كان يدعو في قنوته أن ينجي الله الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة «٤» .

نزل أغلب المهاجرين في بني عمرو بن عوف بقباء في موضع يدعى «العصبة» قبل مقدم المصطفى عليه الصلاة والسلام، وكانوا يجتمعون للصلاة في مسجد قباء، يؤمهم سالم بن معقل مولى أبي حذيفة- رضي الله عنهما- لكونه أكثر المهاجرين قرآنا «٥» ..

هجرة النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى يثرب

إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي الْغارِ إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ «٦» .

تآمرت قريش على حياة الرسول صلّى الله عليه وسلّم بعد أن علم المشركون بما تم بين الرسول صلّى الله عليه وسلّم والأنصار في العقبة الثانية، ورأوا المسلمين يهاجرون إلى يثرب جماعات وأفرادا. وقد أرّخ الزهري لهجرة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم فقال: «مكث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد الحج بقية ذي الحجة، والمحرم وصفر، ثم إن المشركين اجتمعوا» «٧» - يعني على قتله- وقد تواترت الأخبار بأن خروج النبي صلّى الله عليه وسلّم من مكة كان يوم الاثنين «٨» ودخوله المدينة كان يوم الاثنين.

عقد زعماء قريش إجتماعا خطيرا في دار الندوة حيث تشاوروا في أضمن الوسائل للتخلص من الرسول صلّى الله عليه وسلّم «٩» ، وقد لخّص القرآن الكريم الآراء التي طرحوها في ذلك الاجتماع في قوله تعالى: وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ

---

(١) ابن هشام- السيرة ٢/ ١٢٩- ١٣١.
(٢) القرآن الكريم- سورة الزمر، الآيات/ ٥٣- ٥٥.
(٣) الحاكم المستدرك ٢/ ٤٣٥، ابن هشام- السيرة ٢/ ١٣١- ١٣٢. أما ما روى من إعلان عمر لهجرته على قريش عند البيت العتيق وتهديده لمن تحدثه نفسه أن يلحق به بثكل أمه وترميل زوجته ويتم أولاده فلم يصح، حيث ورد الخبر بإسناد فيه مجاهيل ثلاثة، انظر: ابن الأثير- أسد الغابة ٤/ ٥٢، وانظر الألباني- دفاع عن الحديث والسيرة ص/ ١٤٣.
(٤) البخاري- الصحيح (فتح الباري- الحديث ٤٥٦٠) ، أورد البخاري حديثا آخر بزيادة «.. اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين» . المرجع السابق (حديث/ ٢٩٣٢) .
(٥) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٢/ ١٨٤، ١٣/ ١٦٧) .
(٦) القرآن الكريم- سورة التوبة، الآية/ ٤٠.
(٧) ابن حجر- فتح الباري ٧/ ٢٣٦.
(٨) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٢٣٦) .
(٩) ابن حجر- فتح ٧/ ٢٣٦.

كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ «١» .

بيّن حبر الأمة عبد الله بن عباس- رضي الله عنهما- حصار المشركين لبيت النبي صلّى الله عليه وسلّم ابتغاء قتله، ومبيت علي ابن أبي طالب- رضي الله عنه- في فراشه. كما أورد خبر انتقال النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى غار جبل ثور، وقيام المشركين بقص أثره إلى الغار، ورؤيتهم نسيج العنكبوت على مدخله وتركهم التحري فيه، ولكن هذه الرواية لا تصلح للاحتجاج بها وإن كانت هي «أجود ما روي في قصة نسيج العنكبوت على فم الغار» «٢» . وقد ورد، إضافة إلى ذلك، حديث آخر ضعيف جدّا بشأن الشجرة التي نبتت في وجه الغار والحمامتين الوحشيتين اللتين وقعتا بفم الغار، وقد تسربت هذه الأخبار وأمثالها في العديد من كتب الحديث والسيرة «٣» .

الإذن بالهجرة:

وحين أمر الله تعالى رسوله الكريم صلّى الله عليه وسلّم بالهجرة إلى يثرب، جاء صلّى الله عليه وسلّم متقنعا إلى منزل أبي بكر الصديق- رضي الله عنه- في وقت لم يعتد أن يزوره فيه، في نحر الظهر، وهو

أشد ما يكون في حرارة النهار، وقد روت أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- وقائع ما جرى، فقالت: «فبينما نحن يوما جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم متقنعا، في ساعة لم يكن يأتينا فيها. فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر» . قالت: فجاء رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فاستأذن، فأذن له، فدخل، فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم لأبي بكر:
أخرج من عندك، فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله، قال: فإنّي قد أذن لي في الخروج، فقال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت يا رسول الله، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: نعم، قال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتيّ هاتين، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالثّمن، قالت عائشة: فجهزناهما أحثّ الجهاز، وصنعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب فبذلك سميت ذات النطاقين، قالت: ثم لحق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأبو بكر بغار في جبل ثور فكمنا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شابّ ثقف لقن، فيدلج من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمرا يكتادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم فيريحهما عليها حين تذهب ساعة من العشاء فيبيتان في رسل وهو لبن منحتهما ورضيفهما «٤» - حتى ينعق بها عامر بن فهيره بغلس، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث. واستأجر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأبو بكر- رضي الله عنه- رجلا

---

(١) القرآن الكريم- سورة الأنفال، الآية/ ٣٠، وانظر أحمد- المسند ٥/ ٨٧. وقد بينت رواية ضعيفة بسبب الإرسال قصة اجتماع المشركين على باب دار الرسول صلّى الله عليه وسلّم لمراقبته والتهيؤ لقتله، وخروجه إليهم دون أن يروه وذره التراب على رؤوسهم (ابن هشام- السيرة ١/ ٤٨٣ بسند صحيح إلى محمد بن كعب القرظي) ، ولكنه مرسل.
(٢) أحمد- المسند ١/ ٣٤٨ بإسناد ضعيف، وقد حسّنه ابن كثير- البداية والنهاية ٣/ ١٧٩، كما حسّنه ابن حجر في فتح الباري ٧/ ٢٣٦، والزرقاني- شرح المواهب ١/ ٣٢٣، ويرى الألباني أنه لا يصح حديث في العنكبوت والحمامتين، سلسلة الأحاديث الضعيفة ٣/ ٣٣٩.
(٣) ابن سعد- الطبقات ١/ ٢٢٩، البزار- المسند ٢/ ٢٣٢، وتسرب الحديث في المعجم الكبير للطبراني ٢٠/ ٤٤٣، ودلائل النبوة لأبي نعيم ٦/ ٢٦٩- ٢٧٠، ودلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢٣١، والبداية والنهاية لابن كثير ٣/ ١٨١، وشرح المواهب اللدنّية للزرقاني ١/ ٣٣.
(٤) اللبن المرضون هو الذي طرحت منه الرضفة وهي الحجارة المحماة التي تذهب وخامته.

من بني الدّيل وهو من بني عبد ابن عدي هاديا خرّيتا- والخرّيت الماهر بالهداية- قد غمس حلفا في آل العاص بن وائل السهميّ، وهو على دين كفار قريش، فأمناه، فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل فأخذ بهم طريق السواحل» «١» .
وأخرج الإمام أحمد عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: كان النبي صلّى الله عليه وسلّم بمكة ثم أمر بالهجرة فنزل عليه قوله تعالى: وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً «٢» .
وأورد الإمام أحمد في مسنده رواية حسنة تشير إلى أن الرسول صلّى الله عليه وسلّم قد انطلق إلى الغار من بيته حيث حاصره المشركون يريدون قتله، فلبس علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- ثوبه ونام في مكانه، واخترق النبي صلّى الله عليه وسلّم حصار المشركين دون أن يروه، بعد أن أوصى عليّا بأن يخبر أبا بكر أن يلحق به فجاء أبو بكر وعلي نائم، وأبو بكر يحسب أنه نبي الله فقال: يا نبي الله، فقال علي: إن نبي الله قد انطلق نحو بئر ميمون فأدركه، قال: فانطلق أبو بكر فدخل معه في الغار، قال:

وجعل علي يرمى بالحجارة كما كان يرمى نبي الله وهو يتضوّر، قد لفّ رأسه في الثوب لا يخرجه حتى أصبح «٣» . ثم كشف عن رأسه، فقالوا: إنك للئيم كان صاحبك نرميه فلا يتضوّر، وأنت تتضوّر وقد استنكرنا ذلك «٤» .
أمر أبو بكر الصديق- رضي الله عنه- عامر بن فهيرة أن يصحبهما في هجرتهما ليخدمهما ويعينهما على الطريق «٥» . وحمل أبو بكر. رضي الله عنه- ثروته ليضعها تحت تصرف الرسول صلّى الله عليه وسلّم وقد ذكرت أسماء بنت أبي بكر أنها كانت خمسة آلاف أو ستة آلاف درهم «٦» . ومكث النبي صلّى الله عليه وسلّم والصديق- رضي الله عنه- في الغار ثلاث ليال، تمكن المشركون خلالها من اقتفاء آثارهم إلى الغار، وقد بكى الصديق خوفا على سلامة النبي صلّى الله عليه وسلّم وهو يرى أقدامهم عند فم الغار وقال: «يا نبي الله: لو أن أحدهم طأطأ بصره رآنا» «٧» . فقال له الرسول صلّى الله عليه وسلّم «أسكت يا أبا بكر اثنان الله ثالثهما» «٨» . وإلى هذا اليقين والتوكل الكامل تشير الآية الكريمة: ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي الْغارِ إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا «٩» .

---

(١) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٢٣١- ٢٣٢ (حديث ٣٩٠٥) . وقد أورد البخاري في صحيحه (الفتح ٧/ ٣٨٩) رواية صحيحة أخرى تذكر إن النبي صلّى الله عليه وسلّم وأبا بكر- رضي الله عنه- ركبا فانطلقا حتى أتيا الغار وهو بثور.
(٢) أحمد المسند ٣/ ٢٩١، الترمذي- السنن ٨/ ٢٩١، ابن كثير التفسير ٥/ ٢٢٣، الطبري- التفسير ١٥/ ١٤٨- سورة الإسراء- آية ٨٠.
(٣) أحمد- المسند ١/ ٢٥- ٢٦، ٨٤، وانظر: ابن أبي شيبة- المصنف ١٤/ ٤٨٨- ٩، النسائي- الخصائص ص/ ١٣٤- ١٣٥، الطبري- تهذيب الآثار ٣/ ٢٣٧، الحاكم- المستدرك ٣/ ٥، الخطيب- تاريخ بغداد ١٣/ ٣٠٢.
(٤) أحمد- المسند ٥/ ٢٦- ٢٧ ولا تقوى هذه الرواية على معارضة ما في الصحيح ولكن يمكن التوفيق بينهما.
(٥) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٢٣١- ٢ حديث ٣٩٠٥) .
(٦) الحاكم- المستدرك ٣/ ٥، البيهقي- دلائل ٢/ ٤٨٠، ابن هشام- السيرة ١/ ٤٨٨.
(٧) البخاري- الفتح (الحديث ٣٩٢٢) ، أحمد- المسند ١/ ١٥٩.
(٨) البخاري- الصحيح (فتح، حديث ٤٦٦٣، حديث ٣٩٢٢) ، مسلم- الصحيح ٤/ ١٨٤٣ بإسناد صحيح، عروة- مغازي ص/ ١٢٩.
(٩) القرآن الكريم- سورة التوبة، الآية/ ٤٠.

وبعد أن أخفقت قريش في العثور عليهما، أعلنت عن مكافأة لمن يقتلهما أو يأسرهما، وانقطع الطلب عنهما، جاءهما الدليل، عبد الله بن أريقط بعد ثلاث من بقائهما في الغار ومعه الراحلتان، وكان معهما عامر بن فهيرة فانطلق الأربعة متوجهين إلى المدينة. ويبدو أنهما كانا يحسان برصد المشركين لهما، يقول أبو بكر الصديق- رضي الله عنه-:
«أخذ علينا بالرصد فأخرجنا ليلا» «١» . وقد تحدث أبو بكر الصديق عن بداية رحلة الهجرة النبوية فقال: «أسرينا ليلتنا كلها حتى قام قائم الظهيرة، وخلا الطريق فلا يمر فيه أحد، حتى رفعت لنا صخرة طويلة لها ظل، لم تأت عليه الشمس بعد، فنزلنا عندها، فأتيت الصخرة فسويت بيدي مكانا ينام فيه النبي صلّى الله عليه وسلّم في ظلها ثم بسطت عليه فروة، ثم قلت: «نم يا رسول الله وأنا أنفض لك ما حولك، فنام» . وهذا أول معجزة وقعت للنبي صلّى الله عليه وسلّم في طريق الهجرة «٢» .
وذكر أبو بكر خبر قدوم راع مقبل إلى الصخرة يريد منها مثل الذي أرادوا، وعرف أبو بكر منه أنه رجل من أهل مكة ورضي أن يحلب لهم من شاة له وطلب منه أبو بكر أن ينظف الضرع قبل الحلب، وكره أن يوقظ النبي صلّى الله عليه وسلّم ليشرب، فانتظره حتى استيقظ فشرب ثم أمر بالرحيل «٣» .

كان الرسول يردف أبا بكر معه على راحلته، وكان إذا سأل أحد أبا بكر عن الرسول يقول: هذا رجل يهديني السبيل فيحسبه السائل دليلا لطريقه، وإنما كان يكنّي عن سبيل الخير «٤» .
وحصلت المعجزة الثانية حين عصم الله رسوله صلّى الله عليه وسلّم وحماه من سراقة بن مالك، الذي طلبهم طمعا في جائزة قريش. فقد علم سراقة بخبرهم من رجل من بني مدلج رآهم عن بعد وهم مرتحلون مع الساحل «٥» . فاتّبعهم سراقة وهم في جلد من الأرض «٦» . وينقل البخاري حديث سراقة حيث يقول: «وقد كنت أرجو أن أردّه على قريش فآخذ المائة الناقة. قال فركبت فرسي على أثره، فبينما فرسي يشتد بي، عثر بي فسقطت عنه، قال فقلت ما هذا؟! قال ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها فخرج السهم الذي أكره. قال فأبيت إلا أن أتبعه. قال فركبت في أثره، فبينما فرسي يشتد بي عثر بي فسقطت عنه، قال فقلت ما هذا!، فلما بدا لي القوم ورأيتهم عثر بي فرسي، وذهبت يداه في الأرض، وسقطت عنه، ثم انتزع يديه من الأرض وتبعهما دخان كالإعصار قال: فعرفت حين رأيت أنه قد منع مني، وأنه ظاهر قال: فناديت القوم، فقلت أنا سراقة بن مالك بن جعشم انظروني أكلمكم، فو الله لا أريبكم ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه. قال: فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لأبي بكر: «قل له وما تبغي منا؟» فقال له ذلك أبو بكر قال: قلت: تكتب لي كتابا يكون آية بيني وبينك. قال:

---

(١) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٢٥٥) .
(٢) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٢٥٥) ، مسلم- الصحيح ٤/ ٢٣٠٩.
(٣) مسلم- الصحيح- ٤/ ٢٣٠٩ من حديث البراء بن عازب، وانظر كذلك البخاري الأحاديث (٣٩١٧- ١٨، ٣٦٥٢) وابن عبد البر- الاستيعاب ٣/ ٢٤٠، أحمد- المسند ١/ ١٥٤- ١٥٥، الحاكم- المستدرك ٣/ ٨ وصححه عن حديث البخاري.
(٤) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٣٩١١) ، ابن سعد- الطبقات ١/ ٣٤، أحمد- الفتح الرباني ٢٠/ ٢٩٠.
(٥) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٢٥٥- ٢٥٦ حديث ٣٩٠٦) ، مسلم- الصحيح ٤/ ٣٠٩ حديث ٢٠٠٩.
(٦) مسلم- الصحيح ٤/ ٢٣٠٩.

«اكتب له يا أبا بكر» . فكتب لي كتابا في عظم أو في رقعة أو في خزفة، ثم ألقاه إلي فأخذته فجعلته في كنانتي ثم رجعت فسكتّ فلم أذكر شيئا مما كان، ثم حكى خبر لقائه برسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد فتح مكة وإسلامه «١» .
وقد ذكر سراقة في رواية صحيحة أنه اقترب من الاثنين حتى سمع قراءة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات، كما ذكر أنه عرض عليهما الزاد والمتاع فلم يأخذا منه شيئا، وأن وصيته كانت: أخف عنا «٢» .
وقد اشتهر في كتب السيرة والحديث خبر نزول الرسول صلّى الله عليه وسلّم وصحبه بخيمة أم معبد بقديد طالبين القرى، فاعتذرت لهم لعدم وجود طعام عندها، إلّا شاة هزيلة لا تدر لبنا فأخذ صلّى الله عليه وسلّم الشاة فمسح ضرعها بيده، ودعا الله، وحلب في إناء حتى علت الرغوة، وشرب الجميع «٣» . أما الصحابي قيس بن النعمان السكوني فقد ذكر نزولهما في خيمة أبي معبد وقوله لهم: والله ما لنا شاة، وإن شاءنا لحوامل فما بقي لنا لبن. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:- فما تلك الشاة؟ فأتى بها، فدعا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالبركة عليها، ثم حلب عسا فسقاه، ثم شربوا. فقال أنت الذي تزعم قريش أنك صابيء؟ قال: إنهم يقولون، قال: أشهد أن ما جئت به حق. ثم قال: أتبعك، قال: لا حتى تسمع أنا قد ظهرنا. فاتّبعه بعد. ولا شك في أن هذا الخبر فيه معجزة حسيّة للرسول صلّى الله عليه وسلّم شاهدها أبو معبد فأسلم «٤» .
وصول النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى المدينة:

كان المسلمون في المدينة قد سمعوا بخروج النبي صلّى الله عليه وسلّم من مكة فكانوا يغدون كل غداة إلى ظاهر المدينة ينتظرونه حتى إذا اشتد الحر عليهم عادوا إلى بيوتهم، فلما كان يوم الاثنين الثاني من ربيع الأول سنة أربع عشرة من المبعث «٥» . انتظروه حتى لم يبق لهم ظل يستظلون به، فعادوا وقدم الرسول صلّى الله عليه وسلّم وقد دخلوا بيوتهم، فبصر به يهودي فناداهم، فثار المسلمون إلى السلاح فتلقوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بظهر الحرّة وهم يهللون ويكبرون، وسمعت الرجّة والتكبيرة في بني عمرو بن عوف، فكبر المسلمون فرحا بقدومه وخرجوا وتلقوه وحيّوه بتحية النبوّة «٦» . فنزل النبي صلّى الله عليه وسلّم في قباء في بني عمرو بن عوف أربع عشرة ليلة وأسس مسجد قباء «٧» .
ولما عزم النبي صلّى الله عليه وسلّم على أن يدخل المدينة أرسل إلى زعماء بني النجار فجاءوا متقلدين سيوفهم «٨» . وقدر

---

(١) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٢٣٠- ٢٤٨ حديث ٣٩٠٦) ، ابن هشام ٢/ ١٥٢- ١٥٤، مسلم- الصحيح ٤/ ٢٣٠٩- ١٥ (حديث ٢٠٠٩) ، أحمد- الفتح الرباني ٢٠/ ٢٨٤.
(٢) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٢٣٨- ٢٣٩) .
(٣) طرق هذه الرواية بين ضعيفة وواهية وردت في دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٤٩٣، الطبراني- المعجم الكبير ٤/ ٥٦، ابن سعد- الطبقات ١/ ٢٣٠، البخاري- التاريخ الكبير ٢٠/ ٢/ ٢٨ وشك البخاري في انقطاع السند، وفي إسناده عبد الملك بن وهب متروك.
(٤) البزار- كشف الأستار ٢/ ٣٠١، ابن حجر- الإصابة ٥/ ٥٠٦ بسند صحيح.
(٥) الموافق ٢٣ ايلول (سبتمبر) ٦٢٢ م.
(٦) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٢٣٩، ٢٦٥ الاحاديث ٣٩٠٦، ٣٩٢٥) ، ابن هشام- السيرة ٢/ ١٥٦- ٧، الحاكم- المستدرك ٣/ ١١.
(٧) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٢٦٥ حديث ٣٩٢٥) وكان ذلك يوم الاثنين لاثنى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، الحاكم- المستدرك ٣/ ٨ بإسناد حسن، وصححه ابن حجر وأشار إلى طريقين آخرين له (فتح الباري ٧/ ٢٣٨) .
(٨) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٢٦٥) .

عدد الذين استقبلوه من المسلمين الأنصار خمسمائة حيث أحاطوا بركب النبي صلّى الله عليه وسلّم وصاحبه «١» . ومضى الموكب داخل المدينة والجموع تهتف: «جاء نبي الله ... جاء نبي الله» «٢»
.
وقد صعد الرجال والنساء فوق البيوت وتفرق الغلمان في الطرق وهم ينادون: «يا محمد يا رسول الله يا محمد يا رسول الله» «٣» .
وقال أحد شهود العيان وهو الصحابي البراء بن عازب- رضي الله عنهما-: «ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله صلّى الله عليه وسلّم» «٤» .
وتطلع زعماء الأنصار إلى استضافة الرسول صلّى الله عليه وسلّم «٥» ، وأقبل النبي صلّى الله عليه وسلّم بناقته حتى نزل إلى جانب دار أبي أيوب الأنصاري، فتساءل: «أيّ بيوت أهلنا أقرب» فقال أبو أيوب: «أنا يا نبي الله، هذه داري، وهذا بابي» فنزل صلّى الله عليه وسلّم في داره «٦» . وكانت داره طابقين، قال أبو أيوب: «لما نزل عليّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في بيتي نزل في السّفل وأنا وأم أيوب في العلوّ، فقلت له صلّى الله عليه وسلّم: يا نبي الله- بأبي أنت وأمي- إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك، وتكون تحتي، فاظهر أنت فكن في العلوّ وننزل نحن فنكون في السفل، فقال صلّى الله عليه وسلّم: «يا أبا أيّوب: إنّ أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت» . قال أبو أيوب: «فلقد انكسر

حبّ لنا فيه ماء، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا مالنا لحاف غيرها ننشف بها الماء تخوفا أن يقطر على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم منه شيء يؤذيه» «٧» .
اقترعت الأنصار على سكنى إخوانهم المهاجرين وآثروهم على أنفسهم «٨» فأثنى الله تعالى عليهم ثناء عظيما خلّد ذكرهم وحسّن صنيعهم أبد الدهر، فقال تعالى: وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَالْإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ

---

(١) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٢٥١) .
(٢) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٢٥٠) .
(٣) مسلم- الصحيح ٤/ ٢٣١١، أما الروايات التي تفيد استقباله صلّى الله عليه وسلّم بنشيد: طلع البدر علينا..» فلم ترد بها روآية صحيحة، انظر عن ذلك ابن حجر- فتح الباري ٧/ ٢٦١، ٢٦٢، ابن القيم- زاد المعاد ٣/ ٥٥١، الزرقاني- شرح المواهب اللدنيّة ١/ ٣٥٩، ٣٦٠.
(٤) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٢٦٠) .
(٥) ابن هشام- السيرة ١/ ٤٩٤، موسى بن عاقبة- المغازي ١/ ١٨٣، ابن حجر- فتح الباري ٣/ ٢٤٥، ٧/ ٢٤٦، التقريب ص/ ٣٩٣، ابن كثير- البدآية والنهاية ٣/ ٢٠٠، وانظر ابن سعد- الطبقات ٢٣٦- ٢٣٧، وقد ورد في المصادر المذكورة روآية عن النبي صلّى الله عليه وسلّم يقول فيها للأنصار: «دعوا الناقة فإنها مأمورة» وهي بدون إسناد عند ابن هشام وموسى بن عاقبة، وهي عند الحاكم وابن كثير بسند ضعيف فيه محمد بن سلمان لا يعرف حاله، وعند ابن سعد بسند الواقدي متروك، كما أوردها بسند معضل (١/ ٢٣٧) .
(٦) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٢٥٠، ٢٦٥) .
(٧) ابن هشام- السيرة ١/ ٤٩٨- ٤٩٩ بإسناد صحيح، الحاكم- المستدرك ٣/ ٤٦٠- ٤٦١، وقال هذا إسناد صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي، ابن حجر- فتح الباري ٧/ ٢٥٢، ابن كثير- البدآية والنهاية ٣/ ١٩٩، وأورد ابن سعد في الطبقات الكبرى ١/ ٢٣٧ بإسناد ضعيف روآية تشير إلى أن مقامه بدار أبي أيوب قد استمر سبعة أشهر.
(٨) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٢٤٧) .

نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ «١» .
ولقد أثنى النبي صلّى الله عليه وسلّم على الأنصار ثناء عظيما فقال صلّى الله عليه وسلّم في مناسبة تالية: «لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار» «٢» ، وقال صلّى الله عليه وسلّم: «ولو سلكت الأنصار واديا أو شعبا لسلكت وادي الأنصار أو شعبهم» «٣» .

بناء المسجد النبوي:

كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يصلي حيث أدركته الصلاة وكان رجال من المسلمين يقيمون الصلاة في مبرك ناقة النبي صلّى الله عليه وسلّم عند بيت أبي أيوب الأنصاري، وكانت الأرض لسهل وسهيل، وهما غلامان يتيمان من بني النجار، وفيها نخل لهما «٤» . كما كانت فيها بعض قبور المشركين، وقد اشتراها النبي صلّى الله عليه وسلّم، وتولى المسلمون تسويتها وقطع نخيلها ونقل قبورها وحجارتها، فجعلوا صخورها وجذوع نخلها في قبلة المسجد «٥» . وقد ساهم النبي صلّى الله عليه وسلّم مع المسلمين من المهاجرين والأنصار في المدينة في بناء المسجد، وكانوا في حالة من السعادة الغامرة والسرور العظيم، وهم يهزجون:

«اللهمّ إنّه لا خير إلّا خير الآخره ... فانصر الأنصار والمهاجره» «٦» .

وكان النبي صلّى الله عليه وسلّم يقدم في العمل من يجيده، وأورد البخاري قوله صلّى الله عليه وسلّم: «قرّبوا اليمامي «٧» من الطّين، فإنّه أحسنكم له مسّا، وأشدّكم له سبكا» «٨» . وفي رواية صحيحة أخرى: «دعوا الحنفي والطين، فإنه أضبطكم» «٩» .
وكان عمار بن ياسر من العاملين المجيدين في بناء مسجد النبي صلّى الله عليه وسلّم، ففي حين كان كل واحد من الصحابة يحمل لبنة واحدة في كل مرة، كان عمار يحمل لبنتين واحدة عنه وأخرى عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم، فأكرمه النبي صلّى الله عليه وسلّم بأن مسح على ظهره مبرّكا وقال له: «للناس أجر ولك أجران.. وتقتلك الفئة الباغية» «١٠» . وقد تم بناء المسجد أول الأمر بالجريد، واستغرق بناؤه إثني عشر يوما «١١» .

---

(١) القرآن الكريم- سورة الحشر، الأية/ ٩.
(٢) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ١١٢) .
(٣) المرجع السابق ٧/ ١١٠.
(٤) المرجع السابق ٧/ ٢٦٥.
(٥) المرجع السابق ٧/ ٢٦٥.
(٦) المرجع السابق ٧/ ٢٦٥.
(٧) المقصود هو: الطلق بن علي اليمامي الحنفي انظر ترجمته في الخزرجي- تذهيب ٢/ ١٤ (ترجمة ٣٢١٠) .
(٨) ابن حجر- فتح الباري ٣/ ١١٢.
(٩) المرجع السابق ٣/ ١١٢، والإصابه ٢/ ٢٣٢، البيهقي- دلائل النبوة (٢/ ٥٤٥) بإسناد صحيح، وابن حبان- الزوائد ص/ ٩٨ (رقم ٣٠٣) .
(١٠) مسلم- الصحيح ٤/ ٢٢٣٦ (حديث ٢٩١٦) ، وأحمد- المسند ٣/ ٥، ٤/ ٣١٩، الحاكم- المستدرك ٣/ ٣٨٩ وهذا الحديث من دلائل النبوّة، فقد قتل عمار في صفين خلال أحداث الفتنة التي جرت بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان- رضي الله عنهما-، وقد فصل ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٢٣٨- ٣٩) وابن حجر في فتح الباري (٣/ ١١٠- ١١٢) في ذلك.
(١١) البيهقي- دلائل النبوة (٢/ ٥٠٦) بإسناد صحيح عن عبد الله بن الزبير، ابن حجر- فتح الباري ٧/ ٢٤٦ نقلا عن الزبير بن بكار. وتشير الرواية الأخيرة إلى أنه قد أعيد بناؤه باللبن بعد الهجرة بأربع سنين.
جـ ١(ص: ٢٦٤)

وبعد الفراغ من بناء المسجد النبوي بنيت بيوت أزواج النبي صلّى الله عليه وسلّم على شاكلة بناء المسجد «١» . وكانت إلى جنب المسجد قصيرة البناء متقاربة «٢» . ولم يكن في المسجد النبوي حين بني منبر يخطب الناس عليه، وكان النبي صلّى الله عليه وسلّم يخطب وهو مستند إلى جذع عند مصلّاه، ثم اتخذ له كرسيا بدرجتين «٣» .
وواجه المسلمون المهاجرون من مكة الكثير من المصاعب الصحية الناجمة عن اختلاف المناخ، ذلك أنهم لم يكونوا قد اعتادوا على البرودة القاسية، والرطوبة العالية وقد تفشت بينهم الحمى، وينقل البخاري مرويات عن بعض كبار الصحابة من المهاجرين الذين أصابهم المرض، وكان أبو بكر الصديق ممن أصيب بالحمى «٤» . ويذكر عنه أنه إذا أخذته الحمى كان يقول:
كل امريء مصبّح في أهله ... والموت أدنى من شراك نعله
وكان بعض الصحابة يظهرون السأم من الإقامة في المدينة بسبب ذلك ويشتاقون إلى العودة إلى مكة، وذلك ما كان يشعر به بلال الحبشي- رضي الله عنه- فكان إذا ما انتهت دورة الحمى التي كانت تأخذه ينشد «٥» .
ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بواد وحولي إذخر وجليل

وهل أردن يوما مياه مجنّة ... وهل يبدون لي شامة وطفيل
وحين علم النبي صلّى الله عليه وسلّم بذلك من أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- قال: «اللهمّ حبّب إلينا المدينة كحبّنا مكّة أو أشدّ، وصحّحها، وبارك لنا في صاعها ومدّها، وانقل حمّاها فاجعلها بالجحفة» «٦» . وقال أيضا:
«اللهمّ أمض لأصحابي هجرتهم، ولا تردّهم على أعقابهم» «٧» .
لقد صارت الهجرة فرضا واجبا على كل مسلم في تلك المرحلة من أجل نصرة النبي صلّى الله عليه وسلّم ودعوته ومواساته بالنفس، وتعزيز وتقوية معسكر الإيمان، والابتعاد عن الفتنة من الكافرين، ولقد استمر الحث على الهجرة وبيان فضل المهاجرين بنزول الآيات القرآنية، واستمر معها تدفق المهاجرين من كل مكان. وتتابعت الآيات بالأمر

---

(١) ابن حجر- فتح الباري ٣/ ١١٢- ١١٤، ابن كثير- البداية ٣/ ٢٢٢، ابن سعد- الطبقات ١/ ٢٤٠.
(٢) أحمد- الفتح الرباني ٢١/ ٦- ٧، ابن كثير- البداية ٣/ ٢٤١- ٢ وقد بنيت في بداية الأمر حجرتان إحداهما لأم المؤمنين سودة بنت زمعة، والأخرى لأم المؤمنين عائشة بنت الصديق وهما أول بيتين بنيا، ونقل البخاري عن الحسن البصري قوله أنه دخل حجرات نساء النبي في خلافة عثمان وأنه كان يتناول سقفها بيده، ابن كثير- البداية والنهاية ٣/ ٢٤١، الشامي- سبل الهدى ٣/ ٥٠٨.
(٣) أورد البخاري في صحيحه (فتح الباري: ح ٣٥٨٤، ٣٥٨٥) خبرا عن حنين الجذع، ونقله ابن كثير- البداية ٣/ ٢٣٩- ٢٤٠، وأورد البيهقي في دلائل النبوة ٢/ ٥٥٩ تعقيب الحسن البصري على ذلك بعد ذكره الحديث عن أنس- رضي الله عنه-.
(٤) يظهر من وصف المصادر لحالة المرض، والدورات التي تنتابهم فيها الحمى أنها- على الأرجح مرض الملاريا.
(٥) نقل البخاري في الصحيح «عن- بلال رضي الله عنه- اللهم العن شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة، وأمية بن خلف كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء ... » (الفتح الحديث ١٨٨٩) .
(٦) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٢٦٢) .
(٧) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٢٦٩) .

بالهجرة وبيان عظيم أجرها حتى وعد الله تعالى المهاجرين بمنعهم وحمايتهم وتمكينهم من مراغمة أعدائهم والتوسعة عليهم في أرزاقهم قال تعالى: وَمَنْ يُهاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُراغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً «١» .
وقال تعالى: وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ ماتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ «٢» . وقد شرع الله تعالى الهجرة على المسلمين القادرين عليها ومنعهم من الاستمرار في الإقامة مستضعفين مع المشركين، فقال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ قالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها فَأُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَساءَتْ مَصِيراً «٣» .
وتغلب المهاجرون على المشكلات العديدة، واستقروا في دار الهجرة مغلبين متطلبات الدعوة ومصالح العقيدة.
ولقد تأخر بعض المسلمين بمكة عن الهجرة تحت ضغوط أزواجهم وأولادهم، فلما هاجروا ووجدوا أن من سبقهم بالهجرة من إخوانهم قد تفقهوا في الدين، تألموا وهمّوا بمعاقبة ذويهم، وكان ذلك سببا في نزول قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ «٤» .

ومما يمكن ملاحظته أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قد استبدل اسم يثرب فقد أورد مسلم حديثا عن جابر أنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: «إنّ الله تعالى سمّى المدينة: طابة» «٥» .
وروى البخاري بسنده إلى أبي هريرة أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطّاعون ولا الدّجّال» «٦» . وروى أحمد في مسنده بسنده أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال: «من سمّى المدينة يثرب فليستغفر الله- عزّ وجلّ- هي طابة، هي طابة» «٧» . وقد سماها الله تعالى في كتابه العزيز «المدينة» في مواضع متعددة «٨» .
لم يعد سكان المدينة، كما كانوا عليه قبل الهجرة، يقتصرون على يهود وأوس وخزرج، فقد استوطنها المهاجرون من قريش وغيرهم من القبائل الأخرى «٩» . وحيث إن أساس المجتمع الجديد يستند إلى العقيدة التي

---

(١) القرآن الكريم- سورة النساء، الآية/ ١٠٠.
(٢) القرآن الكريم- سورة الحج، الآية/ ٥٨.
(٣) القرآن الكريم- سورة النساء، الآية/ ٩٧.
(٤) القرآن الكريم- سورة التغابن، الآية/ ١٤.
(٥) مسلم- الصحيح (٢/ ١٠٠٧ حديث ١٣٨٥) ، وقد أورده عمر بن شبة في تاريخ المدينة ١/ ١٦٤.
(٦) البخاري- الصحيح (فتح الباري- حديث ٧١٣٣) .
(٧) أحمد- المسند ٤/ ٢٨٥ بسنده إلى البراء بن عازب، وانظر ابن حجر في الفتح، والهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ٣٠٠، ابن شبة- تاريخ المدينة ١/ ١٦٤- ٦٥.
(٨) القرآن الكريم- سورة التوبة، الآية/ ١٠١، ١٢٠، سورة الأحزاب- الآية/ ٦٠، سورة المنافقون- الآية/ ٨ كما ورد اللفظ نفسه ليعرف مواضع أخرى في مناطق متعددة من جزيرة العرب ومصر.
(٩) ابن هشام- السيرة ٢/ ١١٥- ١٤٤، ٣٤٢- ٣٤٦، ابن سعد الطبقات ٢/ ١٢.

جـ ١(ص: ٢٦٦)

أصبحت أساس تقسيمات السكان الذين انقسموا بموجب ذلك إلى ثلاث مجموعات متميزة وهم: المؤمنون، والمنافقون، واليهود.

تنظيم الأمة بعد الهجرة

أدى تدفق المهاجرين إلى المدينة المنورة إلى حصول العديد من المشكلات الاقتصادية والاجتماعية والصحية، ذلك أن المهاجرين كانوا قد تركوا أهليهم ومعظم أموالهم في مكة، كما أنهم كانوا- في الغالب- خبراء متمرسين في أعمال التجارة، ولم تكن لهم مهارة في الزراعة والصناعة اليدوية الشائعة في المدينة، وشكّل حاجاتهم إلى رأس المال حاجزا دون ممارستهم للتجارة. ولقد أبدى الأنصار توجها واضحا نحو البذل والتعاون مع إخوانهم المهاجرين فقد أعطوهم الأرض والنخل ليعملوا بها بنصف ثمارها، ومنهم من أعطى مثل ذلك منيحة دون مقابل، وقد استغنوا عنها حين فتح الله عليهم خيبر «١» . ولا شك في أن عمل الأنصار هذا يعكس مدى اهتمامهم ورعايتهم وحبهم لإخوانهم المهاجرين، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَالْإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ «٢» .
وتحدثت الروايات الصحيحة عن صور رائعة من صور الإيثار الذي مارسه الأنصار تجاه إخوانهم المهاجرين «٣» . وإلى جانب ذلك فإن انتقال المهاجرين إلى مجتمع جديد زاد من مشاكلهم، وإحساسهم بالوحشة والحنين إلى مكة، كما أن البيئة المناخية الجديدة تختلف عما اعتادوه في ديارهم

بمكة، كما تعرّضوا للإصابة ببعض الأمراض. وكانت الحمى من الأمراض الظاهرة التي شاعت بينهم وسببت لهم الكثير من المتاعب وزادت من إحساسهم بالضيق والغربة. وذلك ما أدركه النبي صلّى الله عليه وسلّم حين سأل ربه قائلا: «اللهمّ امض لأصحابي هجرتهم ولا تردّهم على أعقابهم» «٤» .
وذلك يعكس دون أدنى شك أن وضع المهاجرين كان يقتضي علاجا سريعا، وحلّا استثنائيّا عاجلا، وذلك ما يوضح السبب في تشريع نظام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار في السنة الأولى من الهجرة «٥» . فلقد أراد الرسول صلّى الله عليه وسلّم أن يشرع نظاما يعالج فيه أوضاع المهاجرين الاقتصادية ويشعرهم بأنهم ليسوا عالة على إخوانهم الأنصار.

---

(١) مسلم- الصحيح (شرح النووي ١٢/ ٩٩- ١٠١ كتاب الجهاد والسير، باب رد المهاجرين إلى الأنصار منائحهم) .
(٢) القرآن الكريم- سورة الحشر، الآية/ ٩، وانظر البخاري- الصحيح (فتح الباري حديث ٣٧٧٩) .
(٣) البخاري- الصحيح الأحاديث ٣٩٢٩، ٣٧٨٢، ٣٧٩٤، ٣٧٩٧، وانظر: أحمد- الفتح الرباني ٢١/ ١٠، البلاذري- أنساب ١/ ٢٧٠، الترمذي- السنن ٢/ ٣٠٣- ٣٠٤.
(٤) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٢٦٩) .
(٥) حدد ابن عبد البر تاريخ تشريع المؤاخاة بخمسة أشهر بعد الهجرة (الدرر ص/ ٩٦) ، أما ابن سعد (الطبقات ٢/ ٩) فيجعلها قبل غزوة بدر الكبرى دون تحديد دقيق.

نظام المؤاخاة:

حصل جدل بين العلماء حول مدى صحة المعلومات التي أوردتها بعض المصادر «١» . عن مؤاخاة جرت في مكة بين بعض المهاجرين من أهل السابقة «٢» . ولكن ابن تيمية وتلميذه ابن القيم قد فنّدا ذلك، وتابعهما الحافظ ابن كثير «٣» . ولم تشر كتب السيرة الأولى إلى وقوع المؤاخاة بمكة، كما لم يرد عنها رواية صحيحة.
شرع الرسول صلّى الله عليه وسلّم نظام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وقد شمل ذلك خمسة وأربعين من المهاجرين ومثلهم من الأنصار «٤» ، وترتب على هذا النظام حقوق خاصة بين المتآخيين كالمواساة في مواجهة أعباء الحياة والتوارث بينهما دون ذوي الأرحام «٥» . وتصور بعض المرويات الصحيحة عمق التزام الأنصار بنظام المؤاخاة ومدى حرصهم على تنفيذه، كما تصور مدى أنفة وكرم أخلاق المهاجرين وامتناعهم عن استغلال إخوانهم «٦» .
استمر العمل بنظام المؤاخاة إلى ما بعد غزوة بدر الكبرى حيث ألف المهاجرون جو المدينة، وعرفوا مسالك الرزق فيها، ووثقوا علاقتهم بإخوانهم المسلمين من الأنصار وغيرهم، وأصابوا من غنائم معركة بدر الكبرى ما كفاهم. ولذلك فقد ألغي التوارث في نظام المؤاخاة، وعاد إلى وضعه الطبيعي القائم على أساس صلة الرحم «٧» . وقد جاء ذلك الإبطال بنص القرآن الكريم في قوله تعالى: وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ «٨» .
غير أن ذلك لا يعني إبطال مؤاخاة المواساة والتعاون والتناصح فقد أورد البخاري في صحيحه خبرا عن المؤاخاة بين أبي الدرداء وسلمان الفارسي «٩» ، كما تورد المصادر مرويات عن مناسبات جرت فيها حالات مؤاخاة أخرى تقتضي المؤازرة والرفقة دون حقوق التوارث، هذا إضافة إلى أن المؤاخاة التي شرعت بين المؤمنين والتي نص

---

(١) أورد ذلك البلاذري- الأنساب ١/ ٢٧٠، ابن عبد البر- الدرر في اختصار المغازي والسير ص/ ١٠٠، ابن سيد الناس- عيون الأثر ١/ ١٩٩، إضافة إلى الحاكم (نقله ابن حجر- فتح الباري ٧/ ٢٧١) .

(٢) مؤاخاة أبي بكر وعمر، وطلحة والزبير، وعبد الرحمن بن عوف وعثمان، والزبير وابن مسعود، والنبي صلّى الله عليه وسلّم وعلي بن أبي طالب، وحمزة وزيد بن ثابت.
(٣) ابن تيمية- منهاج السنة ٤/ ٩٦- ٩٧، ابن القيم- زاد المعاد ٢/ ٧٩، ابن كثير- السيرة النبوية ٢/ ٣٢٤.
(٤) يذكر البلاذري- أنساب ١/ ٢٧٠: أنه لم يبق من المهاجرين أحد إلّا آخى بينه وبين أنصاري، وانظر ابن سعد- الطبقات ١/ ٢١ مما يجعل عدد المهاجرين معلوما عند التشريع.
(٥) البخاري- الصحيح ٣/ ١١٩، ٦/ ٥٥- ٦٥، ٨/ ١٩٠- ٩١، مسلم- الصحيح ٤/ ١٩٦٠، ابن سعد- الطبقات ١/ ٩ د، ابن عبد البر- الدرر ٩٦، ابن القيم- زاد المعاد ٣/ ٧٩.
(٦) انظر مثلا قصة مؤاخاة عبد الرحمن بن عوف بسعد بن الربيع الأنصاري وما جرى بينهما: البخاري- الصحيح ٥/ ٣٩، النسائي- السنن ٦/ ١٣٧.
(٧) ابن سعد- الطبقات ١/ ٩، ابن القيم- زاد المعاد ٢/ ٧٩.
(٨) القرآن الكريم- سورة الأنفال، الآية/ ٧٥، ويذكر ابن عباس- رضي الله عنهما-: أن نسخ التوارث بالمؤاخاة قد تم حين نزل قوله تعالى وَلِكُلٍّ جَعَلْنا مَوالِيَ (النساء/ ٣٣) ، مسلم- الصحيح ٤/ ١٩٦٠.
(٩) البخاري- الصحيح ٣/ ٤٧، ٥/ ٨٨.

عليها الكتاب العزيز: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ... «١» . باقية لم تنسخ، وأن ما نسخ هو التوارث المترتب عليها. مما حصر الموالاة والأخوّة بين المؤمنين دون غيرهم، وقطع الولاية بين المؤمنين والكافرين من المشركين واليهود والنصارى قال تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وَإِخْوانَكُمْ أَوْلِياءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ «٢» .
وتعرّض الصحابة من المهاجرين والأنصار إلى امتحان شديد في عقيدتهم حين خيّرهم الله بين الالتزام بمصالحهم الدنيوية وعلاقاتهم النسبية من جهة وبين الالتزام بالعقيدة فقال تعالى: قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ وَإِخْوانُكُمْ وَأَزْواجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَتِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها وَمَساكِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ «٣» .
وقد نجح صحابة النبي صلّى الله عليه وسلّم في هذا الامتحان العسير، وغلّبوا حب الله ورسوله وآصرة العقيدة على كل ما سوى ذلك، فكان مجتمع المدينة الجديد مجتمعا عقديّا يرتبط بالإسلام ولا يعرف الموالاة إلّا لله ولرسوله وللمؤمنين، ومع ذلك فهو مجتمع مفتوح لمن أراد أن يلتحق به فيؤمن بعقيدته بعد أن يخلع نفسه عن عقيدة الجاهلية وصفاتها ودون أي اعتبار لجنسه أو لونه أو انتمائه السابق.

---

(١) القرآن الكريم- سورة الحجرات، الآية/ ١٠.
(٢) القرآن الكريم- سورة التوبة، الآية/ ٢٣.
(٣) القرآن الكريم- سورة التوبة، الآية/ ٢٤.

موادعة اليهود

وقد كتبت وثيقة هذه الموادعة في المدينة المنورة أول قدوم النبي صلّى الله عليه وسلّم إليها وقبل معركة بدر الكبرى «١» ، وهي تستهدف تنظيم العلاقة بين الأمة الإسلامية وبين يهود المدينة، وهي تتألف من أربعة وعشرين بندا «٢» . ويدل أولها على التزام اليهود بالمساهمة في نفقات الحرب الدفاعية عن المدينة: «وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين» «٣» . وقد ركزت الوثيقة

في عشرة بنود من صدرها على تنظيم العلاقة بالمتهودين من قبيلتي الأوس والخزرج، مع التركيز على نسبتهم إلى عشائرهم العربية حيث أقرت تحالفهم مع المؤمنين.
«وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم نفسه وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته» «٤» .
وهكذا تعرضت الوثيقة إلى ذكر اليهود من بني النجار، وبني الحارث، وبني ساعدة، وبني جشم، وبني الأوس وبني ثعلبة، وجفنة، وبني الشطيبة، وموالي ثعلبة، فأفردت ليهود كل مجموعة قبلية «٥» بندا خاصّا بهم وأعطت لكل مجموعة منهم «مثل ما ليهود بني عوف» الذين ورد ذكرهم في الفقرة الأولى، والتي كفلت لهم حريتهم الدينية وحددت مسئولية الجرائم وحصرتها في مرتكبيها الذين ينبغي أن ينالوا عقوباتهم وإن كانوا من المتعاهدين.
ولقد منعت الوثيقة يهود المدينة من الخروج منها إلّا بعد الحصول على إذن من الرسول صلّى الله عليه وسلّم: «وأنه لا يخرج منهم أحد إلّا بإذن محمد» «٦» وذلك حرمهم من القيام بأي نشاط عسكري خارج المدينة قد يؤثر على أمن المدينة وعلاقاتها الاقتصادية.
وفي الوقت الذي أكدت الوثيقة على المسئولية الشخصية للجرائم، فإنها ضمنت «النصر للمظلوم» «٧» .
وأكدت على «أن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم» «٨» .
غير أن ذلك لا يعني إعفاء اليهود من أعباء المساهمة في نفقات الدفاع عن المدينة. «وأن اليهود ينفقون مع

---

(١) أبو عبيد القاسم بن سلام- كتاب الأموال رقم «٥١٨» حيث قال: «كتبت حدثان مقدم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المدينة قبل أن يظهر الإسلام ويقوى وقبل أن يؤمر بأخذ الجزية من أهل الكتاب» ، وانظر البلاذري- أنساب ١/ ٢٨٦، ٣٠٨، الطبري- تاريخ ٢/ ٤٠٢، ابن هشام- السيرة ١/ ٥٩٥.
(٢) نشرت الوثيقة بكاملها في مجموعة الوثائق السياسية لمحمد حميد الله الحيدر آبادي مع مقارنة بين سائر الروايات، وأثبت المحقق الاختلافات (٤١- ٤٧) .
(٣) البند (٢٤) من الوثيقة، انظر المصدر السابق.
(٤) البند (٢٥) من الوثيقة. ويوتغ: أي يهلك. انظر «النهاية» لابن الأثير (وتغ) (٥/ ١٤٩) .
(٥) انظر البنود ٢٦- ٣٥ من الوثيقة.
(٦) البند (٣٦) من الوثيقة.
(٧) البند (٣٧ ب) من الوثيقة.
(٨) البند (٣٧ أ) من الوثيقة.

المؤمنين ما داموا محاربين» «١» . وقد اعتبرت الوثيقة منطقة المدينة حرما آمنا: «وأن يثرب حرام جوفها على أهل هذه الصحيفة» «٢» . وتعرض بعض بنود الوثيقة إلى حقوق الجار: «و
أن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم» «٣» ، وأكدت على «أنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها» «٤» .
اعترف اليهود بموجب بنود هذه الاتفاقية بوجود سلطة قضائية عليا متمثلة في الرسول صلّى الله عليه وسلّم يرجع إليها سائر المواطنين في المدينة بما فيهم اليهود في حالات الأحداث، أو حصول الشجار والاختلاف بينهم وبين المسلمين: «وأن ما كان بين أهل الصحيفة من حدث، أو اشتجار يخاف فساده، فإن مردّه إلى الله وإلى محمد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وإن الله على أتقى ما في الصحيفة وأبره» «٥» .
وقد منعت الوثيقة اليهود من إجارة قريش أو نصرها: «وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها» «٦» .
وكان الهدف من ذلك هو ضمان حرية المسلمين في التعرض لتجارة قريش التي كانت تمر غربي

المدينة في طريقها من الشام وإليها. ويمكن اعتبار هذا البند ضمانة لمنع احتمال حصول خلاف حول ذلك مع اليهود في المدينة.
وقد امتدت المعاهدة لتشمل «حلفاء» الطرفين إذ اشترطت المعاهدة على كل من الطرفين مصالحة حلفاء الطرف الآخر، باستثناء من حارب في الدين، وذلك لأن المسلمين كانوا في حالة حرب دائمة معهم. ومن الواضح أن المقصود من ذلك هو التأكيد على استثناء قريش من المصالحة «٧» .
وفي الختام تضمنت الوثيقة مبدأ عاما في تحمل المسئولية الكاملة عن الظلم والجريمة لمرتكبيها بغض النظر عن بنود هذه الاتفاقية، وإعلانا عامّا بالأمن والسلام لمن خرج من المدينة ولمن بقي فيها باستثناء المجرمين: «وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلّا من ظلم وأثم» ، «وأن الله جار لمن برّ واتّقى، ومحمد رسول الله» «٨» .
إعلان دستور المدينة: «وثيقة التحالف بين المهاجرين والأنصار» :
نظّمت وثيقة التحالف هذه العلاقات بين سكان المدينة، ووضّحت التزامات جميع الأطراف داخل المدينة، فقد شملت المعاهدة الخاصة بموادعة الرسول صلّى الله عليه وسلّم لليهود، كما أوضحت التزامات كل من المهاجرين والأنصار في جانبي الحقوق والواجبات.

---

(١) البند (٣٨) من الوثيقة.
(٢) البند (٣٩) من الوثيقة.
(٣) الفقرة (٤٠) من الوثيقة.
(٤) الفقرة (٤١) منها.
(٥) الفقرة (٤٢) من الوثيقة، ثم ألزمهم بضرورة التحاكم إلى شرع الله ما داموا تحت سلطان الحكومة المسلمة. لما نزل قول الله تعالى: وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ (سورة المائدة، الآية ٤٢) .
(٦) الفقرة (٤٣) من الوثيقة.
(٧) الفقرات (٤٤- ٤٦) من الوثيقة.
(٨) الفقرة (٤٧) من الوثيقة.

وقد استعرضنا آنفا نصوص موادعة اليهود، والتي أعلنت بعض بنودها أن المدينة حرم آمن لا يجوز انتهاكه، وبذلك ضمنت استقرار الأمن، ومنعت الحروب الداخلية فيها، وأصبحت المدينة مركز انطلاق الدعوة، وعاصمة للدولة الإسلامية الناشئة.
يتناول القسم الثاني من الوثيقة أو المعاهدة، بنود التحالف بين المهاجرين والأنصار، وبينت الوثيقة في صدرها أطراف التحالف فذكرت «المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم» «١» .
وجعلت الوثيقة أطراف التعاقد «أمة واحدة من دون الناس» «٢» .
وتعرضت تسع فقرات تالية «٣» إلى ذكر الكيانات العشائرية. والملاحظ أن المهاجرين اعتبروا كتلة واحدة متميزة في حين نسب الأنصار إلى عشائرهم، وقد اتضح أن القصد من ذلك إبراز فكرة التكافل الإجتماعي، دون التناصر في العصبية والظلم. وبهذا فقد حوّل الرسول صلّى الله عليه وسلّم التوجهات القبلية إلى ما يحقق الأهداف السامية للدعوة الإسلامية. وبما أن التكافل يحتم على القبيلة أن تعين أفرادها، وهو أمر كان سائدا في الجاهلية، فقد أقرته الوثيقة لما فيه من روح تعاون وتضامن وتكافل.
وهكذا فقد ورد في أعقاب ذكر المهاجرين والقبائل الأنصارية الأخرى قوله بأنهم:
«على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين» «٤» .

وأكدت الوثيقة على مسئولية المؤمنين الشاملة في التكافل مع كل فرد من أبناء الأمة: «لأن المؤمنين لا يتركون مفرحا بينهم أن يعطوه بالمعروف من فداء أو عقل» «٥» . وإلى جانب ذلك، أكدت الوثيقة على المسئولية الجماعية، فقد أصبحت مسئولية المؤمنين جميعا تحقيق الأمن والاستقرار والعدالة في المدينة: «وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم «٦» ، أو إثما، أو عدوانا أو فسادا بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعا، ولو كان ولد أحدهم» «٧» .
وتبرز في الوثيقة بجلاء روح الإسلام في استعلاء المؤمنين على الكافرين، وأن دم الكافر لا يكافيء دم المؤمن، والتأكيد على الترابط الوثيق بين المؤمنين وموالاتهم بعضهم لبعض: «ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر، ولا ينصر كافرا على مؤمن، وأن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس» «٨» .

---

(١) الفقرة الأولى من الوثيقة- مجموعة الوثائق، محمد حميد الله.
(٢) الفقرة (٢) ، المرجع السابق: (الوثيقة) .
(٣) الفقرات (٣- ١١) من الوثيقة.
(٤) الفقرات (٣- ١١) من الوثيقة.
(٥) الفقرة (١٢) من الوثيقة.
(٦) طلب عطية دون وجه حق، انظر ابن الأثير- النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/ ١١٧.
(٧) الفقرة (١٣) من الوثيقة.
(٨) الفقرتان (١٤- ١٥) من الوثيقة.
جـ ١(ص: ٢٧٢)

والفقرة الأخيرة تشير إلى إقرار الوثيقة لمبدأ الجوار الذي كان معروفا قبل الإسلام، فقد أتاحت لكل مسلم أن يجير، وألزمت المجتمع الإسلامي بأن لا يخفر جواره، وحصرت الموالاة بين المؤمنين. غير أن الوثيقة استثنت من بقي على الشرك من قبائل الأوس والخزرج من إجارة قريش وتجارتها، أو الاعتراض على تصدي المسلمين لها، فذكرت بأنه:
«لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا، ولا يحول دونه على مؤمن» «١» .
وقد بينت المعاهدة أن إعلان حالة السلم والحرب هي من اختصاص النبي صلّى الله عليه وسلّم، وأنّ «سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلّا على سواء وعدل بينهم» «٢» .
ثم بيّنت الوثيقة عقوبة القتل العمد حيث جاء فيها: «وأنه من اعتبط «٣» . مؤمنا قتلا عن بدنة فإنه قود به إلّا أن يرضى ولي المقتول، وأن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلّا قيام عليه» «٤» .
وأخيرا فقد أصبح الرسول بموجب هذه الوثيقة هو المرجع الوحيد للفصل في كل خلاف قد يقع بين أطراف التعاقد (المسلمين وحلفائهم) في المدينة: «وأنه مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد صلّى الله عليه وسلّم» «٥» .

الجهاد انتشار الإسلام

١- الجهاد:
قامت دولة الإسلام في المدينة النبوية، وشرع الله سبحانه وتعالى الجهاد، وكانت البداية للدفاع عن النفس، قال تعالى: أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ «٦» .
وقال تعالى: وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ «٧» .

واخيرا شرع قتال العدو الكافر من أجل التمكين للعقيدة من الانتشار دون عقبات، ومن أجل صرف الفتنة عن الناس ليتمكنوا من اختيار الدين الحق بإرادة حرّة، فقال تعالى: وَقاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ «٨» .

ولم تكن العقيدة تفرض بالقوة على سكان المناطق التي يفتحها المجاهدون، فقد كانوا يخيرون باديء ذي بدء بين أن يسلموا، أو يحافظوا على دينهم ويدفعوا الجزية، أو يأذنوا بالحرب. وسمح لمن رغب من أهل الكتاب بالمحافظة على دياناتهم بذلك وقد التزم المقاتلون المسلمون بضوابط الحق والعدل والرحمة، فسجل التاريخ لهم انضباطهم الدقيق، حيث لم ترد أية إشارة إلى قيامهم بالمجازر أو سلب الأموال. وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يبيّن

---

(١) الفقرة (٢٠) من الوثيقة.

(٢) الفقرة (١٧) من الوثيقة.

(٣) أي قتله بدون مبرر أو جناية توجب قتله، انظر لسان العرب ٧/ ٣٤٨.

(٤) الفقرة (٢١) من الوثيقة.

(٥) الفقرة (٢٣) من الوثيقة.

(٦) القرآن الكريم- سورة الحج، الأية/ ٣٩.

(٧) القرآن الكريم- سورة البقرة، الأية/ ١٩٠.

(٨) القرآن الكريم- سورة الأنفال، الأية/ ٣٩.

ج ١(ص: ٢٧٣)

للمسلمين ضرورة اقتران النيّة بالجهاد، وأن لا يكون الدافع إلى القتال الحصول على الغنائم، أو الرغبة في الشهرة والمجد الشخصي أو الوطني، فقد سئل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن رجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية أي ذلك في سبيل الله؟

فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» «١» .

بل لا بد من إخلاص النية لله، وأن لا يقترن القصد من الجهاد بأي غرض دنيوي لأن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا له وابتغي به وجهه «٢» .

وفي الحديث عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «تضمّن الله لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلّا جهادا في سبيله، وإيمانا بي، وتصديقا برسلي، فهو عليّ ضامن أن أدخله الجنّة، أو أرجعه إلى مسكنه، الّذي خرج منه، نائلا ما نال من أجر أو غنيمة، والّذي نفس محمّد بيده! ما من كلم- أي جرح- يكلم في سبيل الله إلّا جاء يوم القيامة كهيئته حين كلم، لونه لون دم، وريحه مسك، والّذي نفس محمّد بيده، لولا أن يشقّ على المسلمين ما قعدت خلاف سريّة تغزو في سبيل الله أبدا، ولكن لا أجد سعة فأحملهم، ولا يجدون سعة، ويشقّ عليهم أن يتخلّفوا عنّي، والّذي نفس محمّد بيده، لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل، ثمّ أغزو فأقتل، ثمّ أغزو فأقتل» «٣» .

ومن الصعب تقديم النماذج الكثيرة التي توضح أثر هذه التوجيهات النبوية على نفسية المقاتل المسلم، ولكن يمكن اختيار نموذجين لمقاتلين من عامة الجند، فقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم للمسلمين أثناء القتال في غزوة أحد: «قوموا إلى جنة عرضها السّماوات والأرض» ، فسمعه عمير بن الحمام الأنصاري فقال: يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: «نعم» . قال: بخ بخ- كلمة تقال لتعظيم الأمر في الخير- فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «ما يحملك على قولك بخ بخ؟» ، قال: لا والله يا رسول الله إلّا رجاءة أن أكون من أهلها. قال: «فإنّك من أهلها» . فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة. قال: فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل» «٤» . فهذا النموذج الأول، وأما الثاني: فقد صح أن أعرابيّا شهد فتح خيبر أراد النبي صلّى الله عليه وسلّم أثناء المعركة أن يقسم له قسما وكان غائبا، فلما حضر أعطوه ما

قسم له، فجاء به إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم فقال: ما على هذا اتبعتك، ولكني اتبعتك على أن أرمى ههنا- أشار إلى حلقه- بسهم فأدخل الجنة. قال: «إن تصدق الله يصدقك» . قال:
فلبثوا قليلا، ثم نهضوا في قتال العدو فأتي به يحمل قد أصابه سهم حيث أشار، فكفنه النبي صلّى الله عليه وسلّم بجبته وصلى عليه ودعا له، فكان مما قال: «اللهمّ هذا عبدك خرج مهاجرا في سبيلك فقتل شهيدا، وأنا عليه شهيد» «٥» . إن هذه الرواية شاهد قوي على ما يبلغه الإيمان من نفس أعرابي ألف حياة الغزو والسلب والنهب في الجاهلية فإذا به لا يقبل ثمنا لجهاده إلّا الجنة، فكيف يبلغ الإيمان إذا من نفوس الصفوة من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؟.

---

(١) البخاري- الصحيح ١/ ٢٢٢ (ح ١٢٣) ، ٦/ ٢٨ (ح ٢٨١٠) ، مسلم- الصحيح ٣/ ١٥١٣ (ح ١٥١٣) .
(٢) النسائي- السنن ٥/ ٢٥، ٦/ ٢٥.
(٣) مسلم- الصحيح ١٤٩٥/ ٣ (ح ١٨٧٦) .
(٤) مسلم- الصحيح ٣/ ١٥٠٩- ١٥١٠ (ح ١٩٠١) .
(٥) عبد الرزاق الصنعاني- المصنف ٥/ ٢٧٦.

٢- انتشار الإسلام:
كان واضحا منذ المرحلة المكية أن الرسالة الإسلامية خطاب للعالمين وليس لقريش ولا للعرب وحدهم، فالآية: وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ «١» ، هي مما نزل من القرآن في مكة.
وقد خطط النبي صلّى الله عليه وسلّم لنشر الإسلام خارج مكة منذ وقت مبكر، فلما أسلم أبو ذر الغفاري- رضي الله عنه- طلب منه الإقامة في بني غفار ودعوتهم إلى الإسلام، ولما أسلم الطفيل بن عمرو الدوسي، طلب منه الإقامة في قبيلته دوس التي كانت تقيم بين الطائف واليمن لنشر الإسلام فيها، ولم تثمر جهود الطفيل إلّا عقب قيام الدولة في المدينة حيث قدم الدوسيون إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم مسلمين عند فتح خيبر. وقام النبي صلّى الله عليه وسلّم بمحاولة نشر الإسلام في الطائف، ولكن قبيلة ثقيف صدت عن الدعوة بعنف وسخرية، ولم تستجب لدعوة الإسلام إلّا عام تسعة من الهجرة بعد حصارها.
ومن المعروف أن جهود نشر الدعوة في مكة ذاتها لم تفلح في إقناع معظم القرشيين طيلة المرحلة المكية وما تلاها وحتى فتح مكة حيث دانت قريش بالإسلام بصورة جماعية ولم يشذ إلّا أفراد قلائل.
وعلى الرغم من تأخر إسلام قبيلة قريش في مكة، وثقيف في الطائف وما جاورها، إلّا أن تلك الاستجابة المتأخرة اتسقت وتمثلت في تعاطف شديد وإيمان عميق راسخ وتحولت القبيلتان إلى أشد أنصار الإسلام حماسة وذودا عن حياضه كما ظهر من خلال أحداث الردة حيث التزمت كل منهما بالإسلام وكانتا أشد القبائل بأسا في مواجهة المرتدين، قبل أن تتحولا إلى مادة رئيسية من مواد الإسلام، حاملة لواءه متوغلة في كل صوب في أحداث الفتوحات ونشر دعوة الحق.
وكان الإسلام قد انتشر في قبائل الحجاز التي تقطن على طريق (مكة- المدينة) مثل مزينة، وجهينة، وغفار، وبلي، وأشجع، وأسلم، وكعب، في وقت مبكر من قيام الدولة الإسلامية بالمدينة، وخاصة في قبائل خزاعة التي كانت متعاطفة مع المسلمين كما أظهرت أحداث عمرة الحديبية، وربما تكون عشيرة بني المصطلق الحجازية قد أفردت بموقف عدائي من المسلمين حتى خضعت بعد غزوة المريسيع عام ٤ هـ «٢» .
أما بلاد اليمن فقد نجحت الدعوة الإسلامية فيها على نطاق واسع بعد قدوم علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- إليها سنة تسعة من الهجرة، وخاصة إسلام قبيلة همدان الكثيرة العدد، ويبدو أن الانتشار السريع كان عام ثمانية من الهجرة قريبا من فتح مكة. وقد قدمت وفود القبائل اليمانية إلى المدينة للبيعة عام تسعة من الهجرة وهي كندة، والأشعريون، وهمدان، ودوس. وتوضح حركة الردة انتشار

الإسلام في قبائل ذي مران، وذي الكلاع، وذي ظليم، وبجيلة، وزبيد، والنخع، وجعفي، والأبناء، والسكون، والسكاسك. وكان انتشار الإسلام في حضرموت التي تقطنها قبيلة كندة محدودا بالقياس إلى انتشاره في رجال كندة القاطنين في اليمن.
وأما مناطق نجد فإن انتشار الإسلام فيها قوي بعد غزوة الخندق حيث تعرض الدعاة السابقون في الرجيع وبئر معونة للإبادة من قبل الأعراب. وقد امتد الإسلام بعد ذلك في قبائل بني سليم، وطيء، وهذيل،

---

(١) القرآن الكريم- سورة الأنبياء، الآية/ ١٠٧.
(٢) الطبري- تاريخ ٣/ ١٣١- ١٣٢.

وتميم، وخاصة بطونها عوف والأبناء والرباب ويهوى، ولكن لم تتح الفرصة لتعميق الإيمان والثقافة الإسلامية في فروع أخرى مهمة منها مثل بني حنظلة، ومقاعس، والبطون «١» . كما أن الإسلام امتد إلى الأقسام الشمالية من شبه الجزيرة العربية حيث أسلمت قبيلة شيبان، وقبيلة بني عذرة «٢» . وأما المناطق الشرقية من شبه الجزيرة العربية، فإن أسرعها استجابة هي منطقة البحرين وخاصة جواثا التي تقطنها عبد القيس حيث أقيمت فيها أول جمعة بعد إقامتها في المسجد النبوي بالمدينة.
ويمثل إرسال الرسل إلى الملوك والأمراء عام سبعة من الهجرة أول اتصال بين الدولة الإسلامية والقوى الكبرى في العالم- آنذاك- والمتمثلة بالامبراطورية الساسانية (الفرس) والامبراطورية البيزنطية (الروم) ، وكان رد فعل الملك الساساني عنيفا، في حين أظهر هرقل في الشام والمقوقس في مصر تعاطفا شخصيّا، وإن لم يدخلا في الإسلام. ومن الواضح أن الدعوة الإسلامية شقت طريقها في عصر الرسالة بمدى عميق مكنها من الصمود في وجه المرتدين والاستعداد لمواجهة القوى العالمية الخارجية «٣» .

تأسيس الدولة الإسلامية حكومة النبي صلّى الله عليه وسلّم

يشير كتاب تنظيم المدينة، أو ما يعرف بالوثيقة التي نظمت علاقة المهاجرين والأنصار، وكذلك كتاب الموادعة الذي ضبط العلاقة بيهود المدينة وحدد التزاماتهم، ومسئولياتهم، وإذعانهم لسلطة النبي صلّى الله عليه وسلّم، وما سبق ذلك من هجرة المسلمين إلى المدينة وانتشار الإسلام فيها، ثم إعلانها حرما آمنا، وتشريع الجهاد والإذن بقتال المشركين إرهاصا بقيام الدولة الإسلامية التي تمثلت مقوماتها في أرض المدينة وما حولها، والامّة وهم المهاجرون والأنصار، ومن التحق بهم فأعلن الإسلام، وهم الغالبية العظمى من السكان، ومن تعاقد وأذعن لسلطة النبي صلّى الله عليه وسلّم من اليهود والمشركين من القبائل العربية التي شملتها الوثيقة. ولم تكن هناك حاجة إلى إعلان قيام السلطة الحاكمة، لأن نبوة محمد صلّى الله عليه وسلّم تقتضي طاعته. وكان المسلمون يتنافسون على تنفيذ أوامر النبي صلّى الله عليه وسلّم وتوجيهاته، وطاعة الرسول صلّى الله عليه وسلّم عبادة وفرض، وقد وعى ذلك المسلمون وسارعوا إلى تنفيذه. وكانت بيعتا العقبة الأولى والثانية على الطاعة، كما أن الوثيقة التي نظمت العلاقات بين السكان في المدينة في أعقاب الهجرة قد تضمنت: «بأنه مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد» «٤» . وبذلك أصبح الرسول صلّى الله عليه وسلّم، كما أسلفنا، المرجع الوحيد للفصل في كل ما يقع بين السكان من مشكلات.
وهو تحديد واضح لمرجعية السلطة في المدينة بين الجميع مسلمين كانوا أو مشركين أو يهود ومن شملتهم الوثيقة.

اعتمد الرسول صلّى الله عليه وسلّم في تنظيم الدولة الإسلامية الناشئة وإدارتها على الصحابة، فاتخذ من كبارهم مستشارين وكان في مقدمتهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب- رضي الله عنهما-، كما اتخذ منهم ولاته وعماله على الصدقات.

---

(١) الطبري- تاريخ ٣/ ٢٦٨، ٢٦٩.
(٢) ابن أعثم الكوفي- الفتوح ص/ ٤٥.
(٣) أكرم العمري- السيرة النبوية الصحيحة ٢/ ٤٥٤- ٤٦٠.
(٤) الفقرة (٢٣) من الوثيقة.

جـ ١(ص: ٢٧٦)

وبعد أن توسعت الدولة الإسلامية عيّن الرسول صلّى الله عليه وسلّم الولاة على مكة المكرمة والطائف والبحرين وعمان واليمامة كما عيّن عددا من الولاة على مقاطعات بلاد اليمن. وحيث إن مهمة الوالي تتمثل في تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية فقد كان ولاته صلّى الله عليه وسلّم من فقهاء الصحابة الكبار، فكان من ولاته عتّاب بن أسيد على مكة المكرمة، وعلي بن أبي طالب على نجران، ومعاذ بن جبل على الجند، وأبو موسى الأشعري على زبيد وما والاها، وخالد بن سعيد بن العاص على صنعاء، وعثمان بن أبي العاص على الطائف، وعمرو بن سعيد بن العاص على خيبر، والمهاجر بن أبي أمية على كندة، والعلاء بن الحضرمي على البحرين، وسليط بن سليط على اليمامة، وعمرو بن العاص على عمان.
أما عماله على الصدقات، فقد أرسل أبو هريرة لجمع صدقات البحرين، وأبا عبيدة عامر بن الجراح على صدقات هذيل وكنانة، وعبد الرحمن بن عوف على صدقات كلب، وعباد بن بشر الأشهلي على صدقات سليم ومزينة، والوليد بن عقبة على صدقات بني المصطلق. وكان جمع الصدقات يتم عند تجمع العشائر على المياه في أوائل الربيع، وإلى جانب هؤلاء العمال فقد تولى رؤساء العشائر جمع الصدقات، وكان ذلك يحقق أهدافا إدارية واجتماعية ونفسية، إذ لم يكن دفع الزكاة في البادية من الأمور المستساغة عند الأعراب. ولكن حين يتولى شيخ القبيلة مهام جمعها وتوزيعها فإن ذلك يخفف من الأثر النفسي عليهم، إضافة إلى أن الشيخ يعرف الأغنياء وأصحاب الثروات منهم وكذلك الفقراء. وقد يتولى بعض كبار الصحابة مسئولية جمع الصدقات وتوزيعها حين لا يتوفر في الشيخ القدرة على استيعاب أحكام الزكاة وفقهها.
وقد أشارت المصادر الإسلامية إلى «النقباء» في سياق الحديث عن بيعة العقبة الثانية، حيث اختار النبي صلّى الله عليه وسلّم اثني عشر نقيبا، كانوا كفلاء على قومهم، وهم يمثلونهم أمام النبي صلّى الله عليه وسلّم ويبلّغون تعليماته وتوجيهاته إليهم، ويتولون تنفيذ أوامره بينهم. أما «العرفاء» فقد كان النبي صلّى الله عليه وسلّم يختار لكل قبيلة عريفا، وكان كل من قدم المدينة من الأعراب ينزل على عريفه، أما إذا كان من قبيلة ليس لها عريف فإنه ينزل في الصّفة «١» بمسجد النبي صلّى الله عليه وسلّم حيث يتم قراهم من قبله صلّى الله عليه وسلّم.
واحتاجت الدولة الإسلامية الناشئة إلى عدد كبير من الكتاب، وحيث إن مثل هذا العدد لم يكن متوفرا في باديء الأمر بعد الهجرة مباشرة، فقد سعت حكومة النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى إعداد الكتّاب عن طريق توسيع نطاق التعليم، وقد أثمرت تلك الجهود حيث بلغ عدد كتّاب النبي صلّى الله عليه وسلّم وحدهم قرابة الخمسين، بينهم كتّاب الوحي أمثال: زيد ابن ثابت وأبي بن كعب، وعلي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح، وحنظلة بن الربيع، وأبان بن سعيد، وخالد بن سعيد، ومعاوية بن أبي سفيان. ومنهم كتّاب أموال الصدقات أمثال الزبير بن العوام، وجهيم بن الصلت. ومنهم كتاب العقود والعهود والمداينات مثل عبد الله بن الأرقم الزهري، والعلاء بن عقبة «٢» .
وأسندت الولايات والأعمال وقيادة الجيوش إلى كبار الصحابة من ذوي الفقه والخبرة والقوة والأمانة مما عمل على شيوع الأمن والاستقرار وتثبيت الناس على الإسلام خاصة في المدن الرئيسية.

(١) ابن شبّة- تاريخ المدينة ١/ ٢٨٦.
(٢) الخزاعي- تخريج الدلالات السمعية ص/ ١٥٩، ١٧٣.

وتمكنت الحكومة الإسلامية من حماية المدينة من الهجمات من خارجها، ومن كيد اليهود والمنافقين من داخلها، ووسعت حدود سلطاتها تدريجيا حتى امتد في أواخر عصر النبوة إلى معظم أنحاء جزيرة العرب. وقد بذلت الكثير من الجهود لتنظيم عمليات الدفاع والهجوم، وزيادة أعداد المقاتلين حتى وصل في غزوة تبوك ما يزيد على ثلاثين ألف مقاتل. وكانت التجهيزات تعتمد على جهود الأفراد، وما يقدمه أغنياء المسلمين من أموال لغرض تجهيز الجيش.
ونظمت حكومة النبي صلّى الله عليه وسلّم المجتمع الإسلامي، فأقامته على أساس الحب والتكافل الاجتماعي والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واحترام الإنسان، وتطمين حاجاته الروحية والمادية حسب إمكانات الدولة آنذاك.
وكانت تقوم بجباية الزكاة عن طريق المصدّقين الذين يرسلون إلى القرى والبوادي، وعن طريق الولاة في المدن، وكانت الأموال المجموعة تنفق على الفقراء من مناطق الجباية، وما فضل منها يرسل إلى المدينة. واعتمدت الحكومة النبوية في مواردها المالية على أغنياء الصحابة الذين يبذلون الكثير من أموالهم في مواجهة حاجات الدولة، كالإنفاق على الجيوش، واستضافة الوافدين من خارج المدينة، وإعانة المحتاجين من المهاجرين، وبقية فقراء المسلمين من أهل الصفة. ولكن الدولة حازت على موارد دائمة عقب غزوة أحد، حيث أوصى الحبر اليهودي مخيريق بأمواله للنبي صلّى الله عليه وسلّم، وكانت سبع بساتين سخرت إيراداتها لسد نفقات المصالح العامة، فضلا عن نفقات النبي صلّى الله عليه وسلّم وآل بيته.
وقد ازدادت الأموال التي حازتها الدولة بعد فتح خيبر وأراضيها الزراعية الغنية. ولا شك في أن الغنائم التي حازها المسلمون في المعارك الكثيرة قد أسهمت في زيادة موارد الدولة، حيث كان النبي صلّى الله عليه وسلّم يأخذ الخمس من الغنائم. غير أن الغنائم لم تكن تمثل ثروة كبيرة إلّا في غزوات معينة مثل غزوة هوازن.
وقد ساعدت تعاليم الإسلام الماليّة على ازدهار الحياة الإقتصادية من تجارة وصناعة وزراعة، وخاصة ما يتعلق من تلك التعاليم بحقوق التملك، وحرية العمل، وسيادة الأمن، وقيم العدل والوعد بالأجر الأخروي للتجار والصناع والزراع إذا ما أخلصوا النية في أعمالهم، وأتقنوا أداءها ونصحوا فيها.
وقد ظهر أثر التعاليم الإقتصادية الإسلامية بصورة أكثر جلاء في العصور التي تلت عصر السيرة، حيث إن السنوات العشر الأولى التي مضت على قيام الدولة الإسلامية، لم تكن كافية لتوضيح الآثار الإقتصادية للتعاليم الجديدة بصورة جليّة.
ولم تكن القيود الجديدة على النشاط الاقتصادي لتؤثر سلبا على تكون رؤوس الأموال، فالربا الذي حرّم منع تكدس الأموال بأيد قليلة، لكن السماح بتكوين رءوس أموال مشتركة لتمويل العمليات التجارية- مما كانت قريش تعرفه قبل الإسلام- عوض النقص في رءوس الأموال، كما أن تفتيت الثروة يساعد على زيادة القوة الشرائية في المجتمع، مما ينشط الحركة الإقتصادية. وكانت نصوص تحريم الربا، وتحريم الاحتكار، ونظام الميراث، والزكاة والحث على الصدقات تساعد على تفتيت الثروة وتداولها كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ «١» .

(١) القرآن الكريم- سورة الحشر، الآية/ ٧.

واهتمت حكومة النبي صلّى الله عليه وسلّم بالقضاء الذي يهدف إلى تحقيق العدل والإنصاف بين المتخاصمين. وَإِذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ «١» . وكان النبي صلّى الله عليه وسلّم يقضي بنفسه بين الناس في المدينة فهو أول القضاة في الإسلام. وقد أمره الله تعالى بذلك فقال: فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ «٢» . وقال تعالى: فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً «٣» .
ولما انتشر الإسلام خارج المدينة عين الولاة على المدن من أهل الفقه ليقضوا بين الناس في خصوماتهم إلى جانب إدارة المدينة أو الإقليم. وقد قال علي بن أبي طالب- رضي الله عنه-: «بعثني رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى اليمن قاضيا» «٤» ، كما «أرسل معاذا إلى اليمن قاضيا وقال له: كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟» قال: أقضي بكتاب الله. قال: «فإن لم تجد في كتاب الله؟ قال: فبسنة رسول الله. قال: «فإن لم تجد في سنّة رسول الله ولا في كتاب الله؟» قال: أجتهد برأيي ولا آلوا. فضرب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم صدره وقال: «الحمد لله الّذي وفّق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله» «٥» .
ومن آداب مجلس القضاء في عصر السيرة جلوس الخصمين بين يدي القاضي «٦» . ومنها أن لا يقضي القاضي بين اثنين وهو غضبان «٧» . وأن يحتج القاضي بإقرار المتهم، وهو شهادة الإنسان على نفسه، فقد قبل النبي صلّى الله عليه وسلّم إقرار ما عز والغامدية بالزنا «٨» . ويعمل بشهادة الشهود العدول، ولا يعذر الشاهد إذا امتنع عن الإدلاء بشهادته وَلا يَأْبَ الشُّهَداءُ إِذا ما دُعُوا «٩» ، وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ «١٠» . وقد شدّد النبي صلّى الله عليه وسلّم على شهادة الزور «١١» . وقضى: «البيّنة على من ادّعى واليمين على من أنكر» الذي ورد في ثنايا حديث شريف «١٢» .
ولم تكن في المدينة خلال عصر السيرة، قوى أمن أو شرطة تفرض النظام وتحقق الأمن، لذلك نصت الوثيقة على أن هذه المهمة يقوم بها جميع المؤمنين، فهم يسعون للضرب على أيدي الجناة، ولا يساعدونهم في الهرب من العدالة «ولو كان ولد أحدهم» . وقد نجحت هذه الخطة، وبعد أن كان الثار هو القاعدة لتسوية الحسابات قبل الإسلام، فإنه صار حالة استثنائية نادرة، ولم يسجل التاريخ إلّا بضع حالات جرت في ظروف خاصة

---

(١) القرآن الكريم- سورة النساء، الآية/ ٥٨.
(٢) القرآن الكريم- سورة المائدة، الآية/ ٤٨.
(٣) القرآن الكريم- سورة النساء، الآية/ ٦٥.
(٤) الماوردي- أدب القاضي ٢/ ٢٥٤- ٢٥٨.
(٥) أحمد- المسند ٥/ ٢٣٦، ٢٤٢.
(٦) أبو داود- السنن (عون المعبود ٩/ ٤٩٨- ٩) .
(٧) البخاري- الصحيح- كتاب الأحكام ١٣، أحمد- المسند ٥/ ٥٢، ١٨١.
(٨) مسلم- الصحيح- كتاب الحدود ص/ ٢٢- ٢٣، الدارمي- السنن- الحدود ص/ ١٧، ابن ماجه- السنن، حدود ص/ ٢٤. والبخاري في مواضع.
(٩) القرآن الكريم- سورة البقرة، الآية/ ٢٨٢.
(١٠) القرآن الكريم- سورة الطلاق، الآية/ ٢.
(١١) البخاري- الصحيح، الاستتابة/ ١، الديات/ ٢، الحيل/ ١١، مسلم- الصحيح، كتاب الإيمان ص/ ١٤٣- ١٤٤.
(١٢) البخاري- الصحيح، كتاب الرهن ص ٦.
جـ ١(ص: ٢٧٩)

مشتبهة. كما لم تسجل في المجتمع المدني سوى حالة اغتصاب واحدة لامرأة تعرضت لها في الغلس قبيل صلاة الفجر، وهي في طريقها إلى المسجد النبوي. وسجلت حادثة تشهير بامرأة مسلمة من قبل

صائغ يهودي. وسجلت أربع حوادث زنا اعترف اثنان من مرتكبيها طواعية طلبا للتطهر من الذنب، وأقيم الحد عليهما وعلى الاثنين الآخرين. وسجلت حالة قتل لمسلم في منطقة سكن اليهود، وحادثة قتل أخرى لمسلمة قتلها يهودي برضخ رأسها بالحجارة. ويمكن إضافة حادثة ارتداد أدت إلى مقتل راعي سرح الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وهذا هو كل الذي سجلته المصادر من الجرائم والجنايات خلال السنوات العشر التي حكم فيها النبي صلّى الله عليه وسلّم الدولة الإسلامية الأولى.

أما في مجال التعليم، فقد منح الإسلام العلم مكانة عالية مقدّسة حين جعل طلبه فريضة على كل مسلم، واعتبره عبادة «١» . وقد سعت الحكومة النبوية إلى نشر التعليم بين المسلمين، وكانت مشكلة الأمية الشائعة بحاجة إلى علاج سريع، لحاجة الدولة إلى كتّاب للوحي، وكتّاب للعقود، وكتّاب رسائل، لمراسلة الأمراء والملوك الحاكمين في الدول المجاورة، وكذلك كتاب إدارة يستعان بهم في مراسلة الولاة والعمال والقضاة الموظفين في الدولة.

وقد صدرت البادرة الأولى عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم نفسه عند ما أمر بعض المتعلمين من المسلمين بتعليم الآخرين، وأمر بعض الأسرى ببدر بتعليم شباب الأنصار الكتابة مقابل مفاداتهم، وأرسل المعلمين- وسط الأخطار- في البوادي للدعوة ولتعليم الناس القرآن وتفقيههم بالدين. وكانت حلقات العلم في المسجد النبوي وبقية المساجد التي شيدت في عصر الرسالة تقوم بعملية التثقيف بصورة يومية، وهي تتسع مع الأيام لتشمل أعدادا كبيرة متزايدة.

وكان التعليم يحقق القوة والاستقرار والتماسك في المجتمع الوليد، لأنه ارتبط منذ البدء بالقيم الدينية والأخلاقية.

وقد تحددت عدة قيم تخص التعليم منها: استحضار النية الخالصة لله في طلب العلم «٢» . وعدم جواز كتم العلم لوجود حق عام للناس في علم العالم «٣» . والتعليم حق للجميع وهو مجاني «٤» . وقد لوحظ في التعليم اختلاف الاستعداد العقلي عند الناس «٥» . وروعيت الحالة النفسية للمتعلمين «٦» . وكانت طرق التلقي هي السماع والعرض والمذاكرة والسؤال، ولكن السماع كان أكثر انتشارا، لقلة المواد المكتوبة إلّا ما يتعلق بكتابة القرآن.

ومن أشهر المعلمين في عصر السيرة بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم- وهو المعلم الأول- مصعب بن عمير الذي قام بتفقيه أهل المدينة وتعليمهم القرآن قبل الهجرة النبوية «٧» ، وعبادة بن الصامت الذي كان يعلم أهل الصفة القراءة

---

(١) ابن ماجه- السنن ١/ ٨١ (حديث ٢٤٤) ، أبو داود- السنن (حديث ٣٦٦٤) .

(٢) أبو داود- السنن (حديث ٣٦٦٤) .

(٣) القرآن الكريم- سورة البقرة، الآيات/ ١٥٩، ٧٤، أبو داود- السنن (حديث ٣٦٥٨) .

(٤) أبو داود- السنن (حديث ٣٤١٦) ، البيهقي- السنن ٦/ ١٢٦.

(٥) الترمذي- سنن ٥/ ٣٤.

(٦) البخاري- الصحيح (فتح الباري ١/ ١٦٣ حديث ٧٠) ، مسلم- الصحيح ٤/ ٢١٧٢.

(٧) ابن حجر- الإصابة ١/ ١٢٤.

والكتابة «١» ، والحكم بن سعيد بن العاص وكان يعلم الكتابة والحكمة «٢» ، وعبد الله بن سعيد بن العاص وكان يعلم الكتابة «٣» . ومن المعلمين الرواد في المسجد النبوي: سعد بن الربيع الخزرجي، وبشير بن سعد بن ثعلبة، وأبان بن سعيد بن العاص «٤» .

ومن النساء: الشفاء بنت عبد الله العدوية القرشية وكانت تعلم النساء الكتابة «٥» .

وكان من ثمار السياسة التعليمية التي اختطها الرسول صلّى الله عليه وسلّم ازدياد عدد الكاتبين حتى بلغ عدد كتاب النبي صلّى الله عليه وسلّم وحدهم خمسين كاتبا «٦» .

وقد تعرضت الوفود التي أرسلها النبي صلّى الله عليه وسلّم لتعليم أبناء القبائل في البوادي للأخطار فقد استشهد معظم المشاركين فيها «٧» . وتم إرسال معاذ بن جبل إلى مكة، ثم إلى الجند باليمن، لتعليم الناس القرآن وشرائع الإسلام «٨» ، كما تمّ إرسال أبي عبيدة عامر بن الجراح إلى أهل نجران، وأرسل بعده عمرو بن حزم لتفقيههم في الدين والقرآن والسنة «٩» .
وكانت موضوعات التعليم هي القرآن وعلومه، والحديث، والفقه، واللغة العربية، والتاريخ والأنساب، والشعر، والقصص والحكم والأمثال.
وكانت المدينة أهم مراكز العلم في عصر السيرة، ومنها انتشر إلى بقية المدن.

خبر الأذان

أورد ابن هشام رواية ابن إسحاق التي جاء فيها: «لما اطمأن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالمدينة، واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين، واجتمع إليه أمر الأنصار، استحكم أمر الإسلام، فقامت الصلاة، وفرضت الزكاة والصيام، وقامت الحدود، وفرض الحلال والحرام وتبوّءوا الإسلام بين أظهرهم، وكان هذا الحي من الأنصار هم الذين تبوّءوا الدار والإيمان، وقد كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حينما قدمها إنما يجتمع الناس إليه للصلاة لحين مواقيتها، بغير دعوة» «١٠» . وهذا صريح في أن الأذان لم يشرع إلى ما بعد تنظيم المدينة ونشأة الحكومة الإسلامية، وقد نقل ابن

---

(١) أحمد- المسند ٥/ ٣١٥.
(٢) ابن حجر- الاصابة ٢/ ١٠٢- ١٠٣.
(٣) المرجع السابق ١/ ٣٤٤.
(٤) ابن سعد- الطبقات ٣/ ٥٣١، ابن حجر- الاصابة ١/ ١٠.
(٥) ابن حجر- الاصابة ٧/ ٧٢٧، ٧٢٩.
(٦) الخزاعي- تخريج الدلالات ص/ ١٥٩، ١٧٣.
(٧) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٣٨، ٣٨٦- ٣٨٨) .
(٨) ابن سعد- الطبقات ٧/ ٣٨٨.
(٩) أحمد- المسند ٣/ ٢١٢، ابن سعد- الطبقات ٣/ ٤١١- ٤١٢.
(١٠) ابن هشام- السيرة النبوية ١/ ٥٠٨، وقد رواه الترمذي وابن ماجه بإسناد صحيح كما قال الشيخ الألباني- صحيح سنن الترمذي ١/ ٦١- ٦٢، وقد ورد كذلك في صحيح مسلم بشرح النووي ٤/ ٧٥، وانظر: مادة «أذان» في مفتاح كنوز السنّة، وكذلك ابن حجر- فتح الباري ٣/ ٢٧٢.

هشام خبرا عن رؤيا عبد الله بن زيد الخزرجي الأنصاري النداء بالأذان، وأنه أعلم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بذلك «١» ، فطلب إليه أن يعلمه بلال بن رباح، ففعل، وأذن بلال فسمع ذلك عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- وهو في بيته، فخرج إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وهو يجر رداءه، وهو يقول: «يا نبي الله، والذي بعثك بالحق، لقد رأيت مثل الذي رأى» «٢» .
وأورد ابن إسحاق رواية أخرى عن عبيد بن عمير الليثي جاء فيها قوله: «ائتمر (تشاور) النبي صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه بالناقوس للاجتماع للصلاة، فبينما عمر بن الخطاب يريد أن يشتري خشبتين للناقوس، إذ رأى في المنام من يقول له: لا تجعلوا الناقوس، بل أذّنوا للصلاة، فذهب عمر إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم ليخبره بالذي رأى، وقد جاء النبي صلّى الله عليه وسلّم الوحي بذلك، فما راع عمر إلّا بلال يؤذن، فقال الرسول صلّى الله عليه وسلّم حين أخبره بذلك: «قد سبقك بذلك الوحي» «٣» .

---

(١) ابن هشام- السيرة ١/ ٥٠٨.
(٢) المرجع السابق ١/ ٥٠٩.
(٣) المرجع السابق نفسه، والصفحة نفسها.
جـ ١(ص: ٢٨٢)

طلائع حركة الجهاد

مرحلة ما بعد الهجرة حتى معركة بدر:
وتتمثل هذه المرحلة في الغزوات والسرايا التي قام بها المسلمون وفق مخطط رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لتهديد اقتصاد مكة، وتأمين الوجود الإسلامي في المدينة عن طريق عقد المحالفات مع القبائل حول المدينة، وإبراز قوة المسلمين أما اليهود والمشركين داخل المدينة، والقبائل العربية خارجها، إضافة إلى تدريب قوات الجهاد على التحمل والطاعة وتنفيذ الأوامر والانضباط وحسن التصرف في حالة حصول مفاجئات إلى جانب التعرف الدقيق على الطرق والمواضع واكتساب الخبرات المتنوعة في فنون القتال.
وتشير المصادر إلى أن الرسول صلّى الله عليه وسلّم عقد عددا من العهود والمواثيق على النصح والسلم والمناصرة والتعاون في القتال مع عدد من الزعماء، ومن ذلك كتاب الأمان إلى بديل بن ورقاء وبسر بن عمرو الخزاعي وأخيه سروات بن عمرو «١» ، وكتابه إلى أسلم بن خزاعة وفيه الإقرار بالمناصرة «٢» ، وكتابه إلى بني غفار وفيه اتفاق على المناصرة المتبادلة ضد من يحاربهم ويحارب المسلمين «٣» ، وكتابه إلى نعيم بن مسعود الأشجعي على المحالفة والنصر والنصيحة «٤» .
غزوة ودّان «الأبواء» :
وهي أول غزواته صلّى الله عليه وسلّم، فقد خرج غازيا من المدينة في الثاني عشر من شهر صفر بعد مضي سنة كاملة على قدومه إلى المدينة (سنة ٢ هـ) ، حتى بلغ ودان «٥» ، وكان يستهدف قريشا وبني ضمرة بن بكر بن عبد مناه بن كنانة.
وقد وادعه مخشي بن عمرو الضّمري عن بني ضمرة «ألّا يكثروا عليه ولا يعينوا عليه أحدا» «٦» .
وقد عاد عليه الصلاة والسلام بقواته إلى المدينة ولم يلق كيدا، «فأقام بها بقية صفر، وصدرا من شهر ربيع الأول» «٧» .
سريّة عبيدة بن الحارث:
وكانت أول راية عقدها النبي صلّى الله عليه وسلّم هي راية سريّة عبيدة بن الحارث الذي بعثه في ستين رجلا من المهاجرين بعد عودته من غزوة ودّان، فسار حتى بلغ ماء بالحجاز بأسفل ثنية المرّة، فلقي جمعا عظيما من قريش عليهم عكرمة ابن أبي جهل، فلم يكن بينهم قتال، إذ حصل تناوش وتراشق بالسهام، وكان سعد بن أبي وقاص أول من رمى بسهم في الإسلام في هذه السريّة، ثم انصرف القوم بعضهم عن بعض، وللمسلمين حامية، وفر من المشركين إلى المسلمين المقداد بن عمرو البهراني حليف بني زهرة، وعتبة بن غزوان بن جابر المازني حليف بني نوفل بن عبد مناف وكانا

---

(١) ابن الأثير- أسد الغابة ١/ ١٧٠، ابن سعد- الطبقات ١/ ٢٧٢.
(٢) ابن سعد- الطبقات ١/ ٢٧١.
(٣) المرجع السابق ١/ ٢٧٤.
(٤) ابن هشام- السيرة ١/ ٢٩٩/ ١/ ٢٧٤.
(٥) إحدى القرى الجامعة في منطقة الفرع، تبعد عن المدينة حوالي ٢٤ ميلا.
(٦) أورد ابن سعد- الطبقات ١/ ٢٧٥ نص الكتاب.

(٧) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٢٧٩) ، خليفة بن خياط- تاريخ ص/ ٥٦، ابن هشام- السيرة ١/ ٥٩٠- ٩١.

مسلمين ولكنهما جعلا خروجهما مع الكفار وسيلة للوصول إلى المسلمين «١» .

سريّة حمزة إلى سيف البحر:

وأرسل الرسول صلّى الله عليه وسلّم سريّة من ثلاثين رجلا جعل عليهم عمه حمزة بن عبد المطلب، إلى سيف البحر ليعترضوا قافلة تجارية لقريش قادمة من الشام فيها أبو جهل في ثلاثمائة رجل، ولكنهم لم يشتبكوا مع قريش في قتال فقد حجز بينهم مجدي بن عمرو الجهني وكان حليفا للطرفين «٢» .

غزوة بواط:

قاد الرسول صلّى الله عليه وسلّم غزوة شارك فيها مائتين من الصحابة، استهدفت اعتراض قافلة تجارية لقريش يرأسها أمية ابن خلف ويرعاها مائة رجل من قريش، وفيها ألفان وخمسمائة بعير محملة بأنواع البضائع- وقد وصل النبي صلّى الله عليه وسلّم بقواته إلى بواط، وهي من جبال جهينة من ناحية رضوى، ثم رجع حين لم يعثر على القافلة، ولم يلق حربا «٣» .

وكان قد استعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون «٤» .

غزوة العشيرة:

وغزا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قريشا لاعتراض قوافلها التجارية، وكان معه مائة وخمسون من أصحابه، فبلغ العشيرة بناحية ينبع، وفاتته العير، ووادع في هذه الغزوة بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة، ثم عاد إلى المدينة، ولم يلق حربا «٥» .

سريّة سعد بن أبي وقاص إلى الخرّار:

بلغ النبي صلّى الله عليه وسلّم أن عيرا لقريش في طريقها إلى مكة، وأنها قد أخذت طريق الخرّار «٦» ، فانتدب سعد بن أبي وقاص لقيادة سريّة لاعتراضها، يقول سعد: «فخرجت في عشرين رجلا أو إحدى وعشرين «٧» على أقدامنا، نكمن بالنهار ونسير بالليل حتى صبحناها صبح خمس، فنجد العير قد مرّت بالأمس، وقد كان النبي صلّى الله عليه وسلّم عهد إليّ ألّا أجاوز الخرّار، ولولا ذلك لرجوت أن أدركهم» «٨» .

غزوة بدر الأولى (الصغرى) :

أغار كرز بن جابر الفهري على سرح المدينة المنورة في أعقاب غزوة العشيرة، ونهب بعض الإبل والمواشي،

---

(١) ابن هشام- السيرة ١/ ٥٩١- ٢، الواقدي- المغازي ١/ ١٠ دون إسناد، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٧.
(٢) الواقدي- المغازي ١/ ٩، ابن هشام- السيرة النبوية ١/ ٥٩٥، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٦.
(٣) ابن هشام- السيرة ١/ ٥٩٨، الواقدي- المغازي ١/ ١٢، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٩٠٨.
(٤) ابن هشام- السيرة ١/ ٥٩٨.
(٥) البخاري- الصحيح (الفتح باب غزوة العشيرة، الحديث ٣٩٤٩) ، ابن هشام- السيرة ١/ ٥٩٨- ٩٩، الواقدي- المغازي ١/ ١٢، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٩- ١٠.
(٦) الخرار- موضع من الجحفة، قريب من خم، الواقدي ١/ ١١.
(٧) جعلهم ابن إسحاق ثمانية، ابن هشام- السيرة ١/ ٦٠٠.
(٨) الواقدي- المغازي ١/ ١١ بإسناد متصل، ابن هشام- السيرة ١/ ٦٠٠، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٧.

فخرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يطارده مع عدد من الصحابة، إلى أن وصلوا وادي سفوان من نواحي بدر، وتمكن كرز الفهري من الإفلات من حملة المطاردة، وقد تأكد من جرّاء هذا الحادث ضرورة توثيق المسلمين لعلاقاتهم مع القبائل المجاورة للمدينة «١» . وكان النبي صلّى الله عليه وسلّم قد استعمل على المدينة زيد بن حارثة «٢» .

سريّة عبد الله بن جحش إلى نخلة:

أراد الرسول صلّى الله عليه وسلّم أن يربك قريشا ويضيق عليها في تجارتها، ولذلك فإنه صلّى الله عليه وسلّم لم يقتصر في تعرضه لتجارة قريش على الشام وإليها، وإنما وسّع ذلك ليشمل طرق تجارتها مع اليمن أيضا، ولذلك فقد بعث عبد الله بن جحش بن رئاب الأسدي عند عودته من غزوة بدر الصغرى، وأرسل معه ثمانية من المهاجرين، ليس فيهم أحد من الأنصار، وكتب له كتابا وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه، «فيمضي لما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحدا» . وقد نفذ عبد الله بن جحش توجيهات الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وتبين له أنه قد أمره بالتوجه إلى نخلة- بين الطائف ومكة- ليرصد قريشا ويعلم أخبارهم وألّا يستكره أحدا ممن كانوا معه. غير أن أحدا منهم لم يتخلّف عن تنفيذ أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ولكنهم تعرضوا لقافلة تجارية قرشية، فظفروا بها وقتلوا قائدها، وأسروا اثنين من رجالها وعادوا بها وبالأسرى إلى المدينة «٣» . وقد أبى النبي صلّى الله عليه وسلّم تسلم الغنيمة وقال لعبد الله بن جحش وأصحابه: «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام» وظن القوم أنهم هلكوا.

استغلت قريش حصول هذه الحادثة في الشهر الحرام، فأثارت ضجة إعلامية كبيرة أعلنت فيها أن المسلمين ينتهكون حرمة الأشهر الحرم، وكان لذلك أثره الخطير على نظرة القبائل العربية والحواضر إلى المسلمين، فالحادثة تمثل خروجا على المألوف، وهي خرق للأعراف التي التزم بها العرب في منع الاقتتال في الأشهر الحرم فترة طويلة قبل الإسلام. ولكن لما كثر الكلام في ذلك، أنزل الله تعالى حكمه في ذلك، قال تعالى: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرامِ قِتالٍ فِيهِ قُلْ قِتالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَإِخْراجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزالُونَ يُقاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كافِرٌ فَأُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ* إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هاجَرُوا وَجاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ «٤» . وعند ذلك تسلم الرسول صلّى الله عليه وسلّم الغنائم، وفادى الأسيرين مع قريش «٥» .

---

(١) ابن هشام- السيرة ١/ ٦٠١، الواقدي- مغازي ١/ ١٢، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٩، وانظر: خليفة بن خياط- تاريخ ص ٥٧.

(٢) ابن هشام- السيرة ١/ ٦٠١ برواية بدون اسناد.

(٣) خليفة بن خياط- التاريخ ص/ ٦٣، وذكر ابن حجر في الإصابة ٢/ ٢٧٨ أن قصة هذه السرية قد خرجها الطبراني، وانظر: الهيثمي- مجمع الزوائد ٦/ ٦٦- ٦٧، ابن هشام- السيرة ١/ ٦٠١- ٦٠٥، ابن كثير- البداية ٣/ ٢٧٤، التفسير ١/ ٣٦٨- ٣٦٩.

(٤) القرآن الكريم- سورة البقرة، الآيات/ ٢١٧- ٢١٨.

(٥) ابن كثير- التفسير ١/ ٣٦٨- ٩. وانظر: ابن هشام- السيرة ١/ ٦٠١- ٦٠٥، من مراسيل عروة بن الزبير، البيهقي- السنن ٩/ ١٢، ٥٨- ٥٩، بسند صحيح إلى عروة، ابن كثير- البداية ١/ ٢٥١.

تحويل القبلة إلى الكعبة

ورد عن عبد الله بن عباس رواية صحيحة الإسناد جاء فيها أن النبي صلّى الله عليه وسلّم كان يتجه في صلاته بمكة قبل الهجرة إلى بيت المقدس تاركا الكعبة المشرفة بينه وبين بيت المقدس «١» .
وكذلك كان يفعل المسلمون إذ يتوجهون إلى بيت المقدس، وبيّن سعيد بن المسيّب أن الأنصار كانوا يصلون إلى بيت المقدس قبل الهجرة بثلاث سنوات.
وبعد هجرة النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى المدينة استمر في التوجّه بصلاته نحو بيت المقدس ستة عشر شهرا «٢» .
وفي منتصف رجب من السنة الثانية للهجرة أمر الله تعالى نبيه والمسلمين بالتحول في الصلاة نحو الكعبة المشرفة قبلة إبراهيم وإسماعيل- عليهما السلام- وقد حدد سعيد بن المسيب تاريخ هذا الحادث بشهرين قبل معركة بدر «٣» .
كان النبي صلّى الله عليه وسلّم يكثر من الدعاء والتضرع يسأل ربه أن يصرف قبلته والمسلمين إلى الكعبة المشرفة، فأنزل الله تعالى قوله: قَدْ نَرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاها فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَحَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ «٤» .
وكانت أول صلاة صلاها النبي صلّى الله عليه وسلّم مستقبلا الكعبة المشرفة والمسجد الحرام صلاة الظهر «٥» . أما أهل قباء من المسلمين فقد تأخر وصول الخبر إليهم إلى فجر اليوم التالي وهم يصلون الصبح، فتحولوا عند ذلك «٦» .
وكان اليهود قبل تحويل القبلة يرون بأن شريعة الإسلام تابعتهم في قبلتهم، ويشيعون كذبا بأن محمدا صلّى الله عليه وسلّم يأخذ عنهم في التقاليد والطقوس، حتى أنهم قالوا عنه صلّى الله عليه وسلّم:
«يخالفنا محمد ويتبع قبلتنا» «٧» .
ولذلك فقد كان وقع تغيير القبلة من بيت المقدس وتوجيهها إلى الكعبة المشرفة شديدا على اليهود، وقاموا عند ذلك بدعاية مضادّة واسعة النطاق تساءلوا فيها عن مبررات تحويل القبلة «الحق التي كانوا عليها» بزعمهم، فأنزل الله تعالى: سَيَقُولُ السُّفَهاءُ مِنَ النَّاسِ ما وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كانُوا عَلَيْها قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ «٨» .
ولما يئس اليهود من محاولتهم الأولى، زعموا بأن البر هو التوجّه بالصلاة إلى بيت المقدس، فأنزل الله في ذلك قرآنا: لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمالَ عَلى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقابِ وَأَقامَ

---

(١) ابن سعد- الطبقات ١/ ٢٤٣، البخاري- الصحيح (فتح الباري ١/ ٩٥- ٩٦) .
(٢) الطبري- تفسير ٢/ ٤، وانظر: البخاري (فتح الباري ١/ ٩٦- ٩٧) .
(٣) خليفة بن خياط- التاريخ ص/ ٦٤، ابن سعد- الطبقات ١/ ٢٤٢، تفسير الطبري ٢/ ٣.
(٤) القرآن الكريم- سورة البقرة، الآية/ ١٤٤.
(٥) وكان ذلك في مسجد بني سلمة، وحين عاد إلى مسجده صلّى الله عليه وسلّم صلى فيه العصر، فتح الباري ١/ ٩٧، وانظر: (الحديث ٤٤٨٦) .
(٦) البخاري- الصحيح (فتح الباري ١/ ٩٧) .
(٧) الطبري- تفسير ٢/ ٢٠.
(٨) القرآن الكريم- سورة البقرة، الآية ١٤٢، وانظر: الطبري- تفسير ٢/ ١- ٢.

الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ «١» . وبذلك أفشلت جميع محاولات اليهود الدعائية الواسعة للتشكيك في القبلة.

غزوة بدر الكبرى

لم يكن المسلمون قد اشتبكوا مع قريش بشكل حاسم حتى تاريخ هذه الغزوة، وذلك ما أتاح لقريش مواصلة إرسال قوافلها التي كانت تمثل شريان الحياة لاقتصادها، ويلاحظ أن قريشا استشعرت الخطر فأخذت تهيىء لقوافلها حراسات شديدة وكثيفة، وتنوع الطرق التي تسلكها. وكان المسلمون يرصدون تحرك القوافل القرشية وتتجمع لديهم الأخبار عن محتواها وبضاعتها وحراساتها والطرق التي تسلكها.
بلغ المسلمين تحرك قافلة تجارية كبيرة من الشام وهي تحمل أموالا عظيمة «٢» لقريش يقودها أبو سفيان ويقوم على حراستها بين ثلاثين وأربعين رجلا «٣» ، فأرسل الرسول صلّى الله عليه وسلّم بسبس بن عمرو «٤» لاستطلاع أخبار القافلة، فلمّا عاد بسبس بخبرها ندب النبي صلّى الله عليه وسلّم أصحابه للخروج متعجلا بمن كانوا على استعداد دون أن ينتظر تهيؤ الآخرين ممن أبدى رغبة في الخروج، حرصا منه على ألّا تفوتهم القافلة «٥» ، وكلّف عبد الله بن أم مكتوم بالصلاة بالناس في المدينة عند خروجه إلى بدر، ثم أعاد أبا لبابة من الروحاء إلى المدينة وعيّنه أميرا عليها «٦» .
أرسل النبي صلّى الله عليه وسلّم اثنين من أصحابه «٧» إلى بدر طليعة للتعرف على أخبار القافلة، فرجعا إليه بخبرها «٨» ، وقد حصل خلاف بين المصادر الصحيحة حول عدد الصحابة الذين رافقوا النبي صلّى الله عليه وسلّم في غزوته هذه إلى بدر، ففي حين جعلهم البخاري «بضعة عشر وثلاثمائة» «٩» ، يذكر مسلم بأنهم ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا «١٠» ، في حين ذكرت المصادر أسماء ثلاثمائة وأربعين من الصحابة البدريين «١١» . غير أن علينا أن نتذكر بأن قوات المسلمين هذه التي صاحبت النبي صلّى الله عليه وسلّم في غزوته إلى بدر لا تمثل الطاقة العسكرية القصوى للحكومة النبوية، ذلك أنهم إنما

---

(١) القرآن الكريم- سورة البقرة، الآية/ ١٧٧.
(٢) قدرت قيمة البضائع التي تحملها القافلة بخمسين ألف دينار، انظر: الواقدي- المغازي ١/ ٢٠٠، البلاذري- أنساب الأشراف ١/ ٣١٢.
(٣) ابن حزم- جوامع السيرة ص/ ١٠٧.
(٤) ورد الإسم في صحيح مسلم بصيغة التأنيث مصحّفا إلى «بسيسة» ، وصححه ابن حجر في الإصابة ١/ ١٥١.
(٥) مسلم- الصحيح (شرح النووي ١٢/ ٨٤ حديث ١١٥٧) .
(٦) الحاكم- المستدرك ٣/ ٦٣٢. ابن كثير، البداية والنهاية ٣/ ٢٦٠.
(٧) وهما عدي بن الزغباء، وبسبس بن عمرو، انظر ابن سعد- الطبقات ٢/ ٢٤.
(٨) ابن سعد- الطبقات ٢/ ٢٤ بإسناد صحيح.
(٩) فتح الباري ٧/ ٢٩٠- ٢٩٢.
(١٠) مسلم- الصحيح (بشرح النووي ١٢/ ٨٤) وتذكر الرواية وهي عن طريق الزبير بن العوام وقد شهد الموقعة بأن منهم مائة من المهاجرين والباقي من الأنصار، في حين ذكر البراء بن عازب أن المهاجرين كانوا يزيدون على الستين وأن الأنصار يزيدون على أربعين ومائتين (فتح الباري ٧/ ٢٩٠- ٢٩٢، ٣٢٤- ٣٢٦) .
(١١) مثلا: ابن كثير- البداية والنهاية ٣/ ٣١٤، وكذلك كتب الطبقات لابن سعد وخليفة بن خياط العصفري.

خرجوا لاعتراض قافلة تجارية واحتوائها، يدل على ذلك قول النبي صلّى الله عليه وسلّم للمسلمين: «هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعلّ الله ينفلكموها» «١» ، ولم يكونوا يعلمون أنهم سوف يواجهون قوات قريش وأحلافها مجتمعة للحرب والتي بلغ تعدادها ألفا «٢» ، معهم مائتا فرس يقودونها إلى جانب جمالهم، ومعهم القيان يضربن بالدفوف ويغنين بهجاء النبي صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه «٣» ، في حين لم يكن مع القوات الإسلامية من الخيل إلا فرسان، وكان معهم سبعون بعيرا يتعاقبون ركوبها «٤» .

بلغ أبا سفيان خبر مسير النبي صلّى الله عليه وسلّم بأصحابه من المدينة بقصد اعتراض قافلته واحتوائها، فبادر إلى تحويل مسارها إلى طريق الساحل، في نفس الوقت الذي أرسل فيه إلى قريش يستنفرها لإنقاذ قافلتها وأموالها. وكان وقع ذلك شديدا على قريش، التي اشتاط زعماؤها غضبا لما يرونه من امتهان للكرامة، وتعريض للمصالح الاقتصادية للأخطار إلى جانب ما ينجم عن ذلك من انحطاط لمكانة قريش بين القبائل العربية الأخرى ولذلك فقد سعوا إلى الخروج لمجابهة الأمر بأقصى طاقاتهم القتالية «٥» .

وأرسل أبو سفيان بعد ذلك إلى زعماء قريش وهم بالجحفة برسالة أخبرهم فيها بنجاته والقافلة، وطلب منهم العودة إلى مكة، وذلك أدّى إلى حصول انقسام حاد في آراء زعماء قريش، فقد أصر أغلبهم على التقدم نحو بدر من أجل تأديب المسلمين وتأمين سلامة طريق التجارة القرشية «٦» وإشعار القبائل العربية الأخرى بمدى قوة قريش وسلطانها «٧» . وقد انشق بنو زهرة «٨» ، ومن كان مع قريش من بني هاشم «٩» . وعادوا إلى مكة، أما غالبية قوات قريش وأحلافهم فقد تقدمت حتى وصلت إلى منطقة بدر.

بلغت أخبار تجمع قريش وتقدمهم تجاه منطقة بدر إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم وهو في طريقه إلى بدر، فاستشار أصحابه في الأمر «١٠» ، وأبدى بعض الصحابة عدم ارتياحهم لمسألة المواجهة الحربية مع قريش حيث إنهم لم يتوقعوا المواجهة ولم يستعدوا لها، وحاولوا اقناع الرسول صلّى الله عليه وسلّم بوجهة نظرهم، وقد صور القرآن الكريم موقفهم

---

(١) ابن هشام- السيرة ٢/ ٦١ بسند صحيح إلى عبد الله بن عباس- رضي الله عنهما-.

(٢) مسلم- الصحيح (بشرح النووي ١٢/ ٨٤) .

(٣) ابن كثير- البداية ٣/ ٢٦٠.

(٤) أحمد- المسند ١/ ٤١١، والحاكم- المستدرك ٣/ ٢٠. الهيثمي- مجمع الزوائد ٦/ ٦٩، ابن كثير- البداية والنهاية ٣/ ٢٦٠، ابن حزم- جوامع السيرة ص ١٠٨.

(٥) ابن حجر- فتح الباري ٧/ ٢٨٣، ابن هشام- السيرة ٢/ ٢٩٨، ٣١١ بأسانيد حسنة.

(٦) كان عدد بني زهرة في قوات قريش حوالي ثلاثمائة مقاتل، ابن هشام- السيرة ٢/ ٢١٢.

(٧) الطبري- تفسير ١٣/ ٥٧٩.

(٨) نصحهم بذلك الأخنس بن شريف في أعقاب وصول أنباء نجاة القافلة، ابن هشام- السيرة ٢/ ٣٠١، الطبري- تاريخ ٢/ ٤٤٣.

(٩) كانوا بقيادة طالب بن أبي طالب، وكانت قريش قد اتهمتهم بأن هواهم مع محمد صلّى الله عليه وسلّم، ابن هشام- السيرة ٢/ ٣١١- ٣١٢.

(١٠) البخاري- الصحيح (حديث ٣٩٥٢) ، مسلم- الصحيح (حديث ١٧٧٩) ، أحمد- الفتح الربّاني ٢١/ ٢٩- ٣٠، ابن أبي شيبة- المصنف ١٤/ ٣٥٥، ابن كثير- البداية ٣/ ٢٦٢- ٦٣.

وأحوال الفئة المؤمنة عموما في قوله تعالى: كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ* يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ* وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّها لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَيَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ* لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْباطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ «١» .

وقد أجمع قادة المهاجرين على تأييد فكرة التقدم لملاقاة العدو «٢» . وبعد ذلك عاد النبي صلّى الله عليه وسلّم فقال: «أشيروا عليّ أيّها النّاس» وكان إنما يقصد الأنصار، لأنهم غالبية جنده، ولأن بيعة العقبة الثانية لم تكن في ظاهرها ملزمة لهم بحماية الرسول صلّى الله عليه وسلّم خارج المدينة. وقد أدرك الصحابي سعد بن معاذ، وهو حامل لواء الأنصار، مقصد النبي صلّى الله عليه وسلّم من ذلك فنهض قائلا: «والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟» قال صلّى الله عليه وسلّم: «أجل» ، قال: «لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غدا، إنا لصبر في الحرب، صدق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك، فسر على بركة الله» «٣» .

سرّ النبي صلّى الله عليه وسلّم من مقالة سعد بن معاذ، ونشّطه ذلك، فقال صلّى الله عليه وسلّم: «سيروا وأبشروا، فإنّ الله تعالى قد وعدني إحدى الطّائفتين. والله لكأنّي أنظر إلى مصارع القوم» «٤» .

نظّم النبي صلّى الله عليه وسلّم جنده، بعد أن رأى طاعة الصحابة وشجاعتهم واجتماعهم على القتال، وعقد اللواء الأبيض وسلمه إلى مصعب بن عمير، وأعطى رايتين سوداوين إلى سعد بن معاذ، وعلي بن أبي طالب، وجعل على الساقة قيس بن أبي صعصعة «٥» .

وحصل الرسول صلّى الله عليه وسلّم على معلومات كثيرة عن موقع الجيش المكي، ومن به من الأشراف، واستنتج عدد أفراده من معرفته لعدد ما ينحر لهم يوميّا من الجمال وتوجّه صلّى الله عليه وسلّم لقومه قائلا: «هذه مكّة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها» «٦» .

وقد ظهر الخلاف بين زعماء قريش، فقد حاول عتبة بن ربيعة أن يثني قومه عن القتال محذرا من مغبته وخاصة أن بين الفريقين أرحام موصولة، غير أن أبا جهل خطّل رأيه واتهمه بالجبن «٧» .

أنزل الله تعالى في ليلة بدر على المؤمنين نعاسا أمنهم وأراحهم، ومطرا طهرهم به، وأذهب عنهم رجس الشيطان وربط على قلوبهم وثبّت به أقدامهم، قال تعالى: إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ

---

(١) القرآن الكريم- سورة الأنفال، الآيات/ ٥- ٨.

(٢) البخاري- الصحيح (فتح الباري- حديث ٣٩٥٢) ، أحمد- المسند ٥/ ٢٥٩، ابن هشام- السيرة ٢/ ٣٠٥.

(٣) مسلم- الصحيح ٣/ ١٤٠٤ (حديث ١٧٧٩) ، ابن كثير- البداية ٣/ ٣٥١.

(٤) ابن كثير- البداية ٣/ ٢٦٢- ٣ بإسناد صحيح، وذكر الحافظ ابن كثير أن له شواهد في وجوه كثيرة إذ رواه البخاري والنسائي والإمام أحمد (فتح الباري- ٧/ ٢٨٧) ، وأحمد- المسند ٥/ ٢٥٩ (حديث ٣٦٩٨) .

(٥) ابن القيم- زاد المعاد ٢/ ٨٥.

(٦) مسلم- الصحيح ٣/ ١٤٠٤، كما ورد في السيرة النبوية لابن هشام بروآية ابن إسحاق.

(٧) أحمد- الفتح الرباني ٢١/ ٤٣، الهيثمي- مجمع الزوائد ٦/ ٧٦، ابن كثير- البداية ٣/ ٢٩٥- ٦.

ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطانِ وَلِيَرْبِطَ عَلى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ «١» .

وقد وصف الصحابي الجليل علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- حال المسلمين في معسكر النبي صلّى الله عليه وسلّم ليلة السابع عشر من رمضان وهي ليلة معركة بدر الكبرى، فقال: «لقد رأيتنا يوم بدر، وما منا إلا نائم، إلا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فإنه كان يصلي إلى شجرة ويدعو حتى أصبح ... ثم إنه أصابنا من الليل طش من مطر ... وبات النبي صلّى الله عليه وسلّم يدعو ربه ويقول: «اللهمّ إن تهلك هذه الفئة لا تعبد» ، فلما طلع الفجر نادى للصلاة ... فصلى بنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وحرّض على القتال» «٢» .

وصل المسلمون إلى بدر واستطلعوا الموضع قبل وصول قوات قريش، وقد وردت رواية حسنة السند تذكر أن الحباب بن المنذر أشار على النبي صلّى الله عليه وسلّم بأن: «نأتي أدنى ماء من القوم، فننزله ونغوّر ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضا فنملأه ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون» «٣» ، وأن النبي صلّى الله عليه وسلّم قد قبل مشورته وفعل بما أشار به الحباب بن المنذر «٤» .

وفي صباح السابع عشر من شهر رمضان نظّم الرسول صلّى الله عليه وسلّم جيشه على هيئة صفوف «٥» ، ثم بني للنبي صلّى الله عليه وسلّم عريش- باقتراح من سعد بن معاذ- ليدير منه المعركة. وأكثر النبي صلّى الله عليه وسلّم من الدعاء، واستغاث بالله تعالى «فما زال يهتف بربه حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه ... فأنزل الله عزّ وجلّ: إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ «٦» ، فأمده الله بالملائكة» «٧» .

وقد ثبت أنه صلّى الله عليه وسلّم خرج من مقر قيادته- العريش- وهو يقرأ قول الله عزّ وجلّ: سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ «٨» .

ويفهم من النصوص الكثيرة والصحيحة الواردة عن أحداث المعركة يوم بدر أن النبي عليه السلام شارك شخصيّا في القتال وكان أقرب الناس إلى خطوط العدو كما كان أشد المؤمنين بأسا «٩» . وقد نقل الإمام أحمد بسنده عن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- قوله: «لما حضر البأس يوم بدر، اتقينا برسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وكان من أشد الناس، ما كان أو لم يكن أحد أقرب من المشركين منه» «١٠» .

---

(١) القرآن الكريم- سورة الأنفال، الآية/ ١١، وانظر: أحمد- الفتح الربّاني ٢١/ ٤٣.

(٢) أحمد- الفتح الرباني ٢١/ ٣٠.

(٣) ابن حجر- الإصابة ١/ ٣٠٢ بسند حسن إلى عروة ولكنه مرسل.

(٤) ابن هشام- السيرة ٢/ ٣١٢- ٣١٣ وإسناده مرسل موقوف على عروة كما في المصدر السابق، والحاكم- المستدرك ٣/ ٤٤٦- ٤٤٧، قال الذهبي عنه حديث منكر، وفي البداية والنهاية ٣/ ٢٩٣: إسناده منقطع.

(٥) أحمد- المسند، وهو أسلوب جديد لم تعتد عليه العرب قبل ذلك يقلل من خسائر الجيش ويعوض عن قلة العدد أمام العدو ويمكن القيادة من إحكام السيطرة. انظر: محمود شيت خطاب- الرسول القائد ص ٧٨- ٧٩.

(٦) القرآن الكريم- سورة الأنفال، الآية/ ٩.

(٧) مسلم- الصحيح (بشرح النووي ١٢/ ٨٤- ٨٥) .

(٨) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٢٨٧) .

(٩) أحمد- المسند ٢/ ٦٤ بإسناد صحيح.

(١٠) المرجع السابق ٢/ ٢٢٨.

وأمر النبي صلّى الله عليه وسلّم أصحابه صبيحة يوم المعركة أنه: «لا يتقدّمنّ أحد منكم إلى شيء حتّى أكون أنا دونه» «١» ، فدنا المشركون فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «قوموا إلى جنّة عرضها السّماوات والأرض» «٢» .

تقابل الجيشان ودنا بعضهم من بعض، وأخذ أبو جهل يدعو على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: «اللهم أيّنا كان أقطع للرحم وأتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة» فكان ذلك استفتاحه الذي أشارت إليه الآية الكريمة: إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ «٣» .

وبدأ القتال بمبارزات فردية، فقد خرج عتبة بن ربيعة وولداه الوليد وشيبة طالبين المبارزة، ورفضوا مبارزة بعض شباب الأنصار الذين انتدبوا لقتالهم، فأمر النبي صلّى الله عليه وسلّم عمه حمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، وعبيدة ابن الحارث فبارزوهم وقتلوهم. وفي هؤلاء الستة نزل قوله تعالى: هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ* يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ* وَلَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ* كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها وَذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ* إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ* وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلى صِراطِ الْحَمِيدِ «٤» . مما كان له آثاره على الطرفين المتحاربين. وبدأت قريش بالهجوم.

وكانت توجيهات النبي صلّى الله عليه وسلّم: «إذا أكثبوكم فارموهم واستبقوا نبلكم. ولا تسلّوا السّيوف حتّى يغشوكم» «٥» .

وحرضهم صلّى الله عليه وسلّم على القتال قائلا: «والّذي نفس محمّد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا غير مدبر إلّا أدخله الله الجنّة» «٦» .

وقد ثبت أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قد رمى الحصا في وجوه المشركين وذلك صريح في مشاركته الشخصية في المعركة راجلا في مقدمة المسلمين. ويشير القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى: وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ رَمى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ «٧» .

والتقى الجمعان، وكان المسلمون يقاتلونهم وهم يؤملون إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة، وكان شعارهم التوحيد «أحد أحد» ، فشدوا على المشركين واستهدفوا زعماءهم، فقتلوا فرعون الأمة أبا جهل عمرو بن

---

(١) مسلم- الصحيح ٣/ ١٥١٠ (حديث ١٩٠١) .

(٢) المنذري- مختصر صحيح مسلم ٢/ ٧٠ (حديث ١١٥٧) .

(٣) القرآن الكريم- الأنفال، الآية/ ١٩، وانظر: الطبري- التفسير ١٣/ ٤٥٤، والحاكم- المستدرك ٢/ ٣٢٨.

(٤) القرآن الكريم- سورة الحج، الآيات/ ١٩- ٢٤، وانظر: البخاري- الصحيح (فتح الباري- الأحاديث: ٣٩٦٦- ٣٩٦٩) .

(٥) أبو داود- السنن ٤/ ٤٩.

(٦) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٣٠٦ الحديث ٣٩٨٥) .

(٧) القرآن الكريم- سورة الأنفال، الآية/ ١٧، وانظر: الهيثمي- مجمع الزوائد ٦/ ٨٤، قال: ورواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، وانظر: ابن هشام- السيرة ١/ ٣٢٣.

هشام، وأمية ابن خلف وابنه علي بن أمية وغيرهم كثير «١» . وقد بلغ عدد صرعى المشركين سبعين قتيلا، ومثلهم كان عدد الأسرى «٢» . وفر باقي مقاتلة المشركين لا يلوون على شيء. وتركوا أثقالهم وأموالهم في ميدان المعركة، وأمر النبي صلّى الله عليه وسلّم بأربعة وعشرين قتيلا من صناديد قريش فقذفوا في بعض آبار بدر «٣» .

أما شهداء المسلمين فقد دفنوا في أرض المعركة، وكان عددهم أربعة عشر شهيدا «٤» ، ولم يرد ما يشير إلى الصلاة عليهم ولم يدفن أحد منهم خارج بدر «٥» .

وقد ثبت من نصوص القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهرة، ومرويات عدد من الصحابة البدريين أن الله سبحانه وتعالى قد أمدّ الفئة المؤمنة بالنصر، وبأنه أمدهم بالملائكة الذين ثبّتوا الذين آمنوا فقاتلوا معهم، وأنه تعالى ألقي في قلوب الذين كفروا الرعب، قال تعالى: إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ «٦» . وقال تعالى: وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ* إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ* بَلى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ* وما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ «٧» .

وأورد البخاري ومسلم وأحمد بن حنبل وغيرهم عددا من الأحاديث الصحيحة التي تشير إلى مشاركة الملائكة في معركة بدر، وقيامهم بضرب المشركين وقتلهم «٨» .

وقد حصل خلاف بين المسلمين بعد المعركة بشأن الغنائم إذ لم يكن حكمها قد شرع حتى ذلك الوقت.

فنزلت سورة الأنفال: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ

---

(١) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٤/ ٤٨٠، ٧/ ٢٩٣- ٩٦، ٣٢١) ، مسلم- الصحيح (بشرح النووي ١٢/ ٥٩- ٦٠) ، وابن كثير- البداية ٣/ ٢٨٦، والهيثمي- مجمع الزوائد ٦/ ٧٩، وانظر: عن الشعار ابن هشام- السيرة/ ٦٣٤.

(٢) مسلم- الصحيح (بشرح النووي ١٢/ ٨٦- ٨٧) وقد صرع عدد منهم في مواضع كان النبي صلّى الله عليه وسلّم قد بينها لأصحابه قبل المعركة ذكرهم بأسمائهم. أحمد- المسند ١/ ٢٣٢ بإسناد صحيح.

(٣) البخاري- الصحيح (فتح الباري حديث ٣٩٧٦) ، مسلم- الصحيح ٤/ ٢٢٠٤ (حديث ٢٨٧٥) ، أحمد- المسند ١/ ٢٣٢ بإسناد صحيح، ابن هشام- السيرة ١/ ٣٣٩، الهيثمي- مجمع الزوائد ٦/ ٩١ نقلا عن الطبراني، وقال المؤلف: رجاله رجال الصحيح.

(٤) ابن هشام- السيرة ١/ ٤٢٨، ابن كثير- البداية ٣/ ٣٢٧، وزاد ابن حجر عليهم اثنين آخرين، انظر: الإصابة ٣/ ٣٢٨، ٦٠٨.

(٥) وهذا هو السنّة في الشهداء.

(٦) القرآن الكريم- سورة الأنفال، الآية/ ١٢.

(٧) القرآن الكريم- سورة آل عمران، الآيات/ ١٢٣- ١٢٦.

(٨) البخاري- الصحيح (فتح الباري ١/ ٣١١- ٣١٢، ٧/ ٣١٢) ، مسلم- الصحيح (بشرح النووي ١٢/ ٨٥- ٨٦) ، أحمد- المسند ٢/ ١٩٤ بإسناد صحيح، الهيثمي- مجمع الزوائد ٦/ ٧٥- ٧٦، ابن كثير- البداية ٣/ ٢٨٤. وأشار أكرم العمري في السيرة النبوية الصحيحة إلى أن بعض الكتاب المسلمين يتحاشون الإشارة إلى مشاركة الملائكة ببدر وهو يرى بأن «هذا من مظاهر الهزيمة أمام الفكر المادّي الذي لا يؤمن إلّا بالمحسوسات» في حين أن الإيمان برسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم يقتضي الإيمان بالملائكة (٢/ ٣٦٦) .

وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ «١» .

وقد قسمها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على فواق بين المسلمين «٢» ، بعد أن أخرج منها الخمس، حيث نزل في ذلك قرآن: وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ «٣» .

وأسهم النبي صلّى الله عليه وسلّم لتسعة من الصحابة لم يشهدوا بدرا بسبب تكليفهم من قبله بأعمال في المدينة، أو لأنهم لم يشاركوا لأعذار مباحة مثل إصابتهم وهم في طريقهم إلى بدر بجروح أو كسور مما حرمهم من فرصة المشاركة ومن هؤلاء الصحابي عثمان بن عفان الذي أمره النبي صلّى الله عليه

وسلّم بالبقاء في المدينة للعناية بزوجته رقية بنت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في مرض موتها «٤» .
إن اتضاح الحكم الشرعي في شأن الغنائم بعد نزول آيات الأحكام الخاصة بها، وبكيفية توزيعها قد أدى إلى إلغاء الخلاف الذي كان قد حصل حولها، فقد ثاب الناس إلى طاعة الله ورسوله، وقد تم توزيع الغنائم في موضع الصفراء في طريق عودة الجيش الإسلامي إلى المدينة.
أما الأسرى، فقد استشار النبي صلّى الله عليه وسلّم أصحابه في أمرهم، فأشار عليه عمر بن الخطاب بقتلهم ضمانا لقوة الدولة الإسلامية حيث إنهم يشكلون عامل تحدّ وخطورة، ولأنهم أئمة الكفر وصناديد مكة، وأشار أبو بكر الصديق بأخذ الفدية منهم إذ كان يرى أن في ذلك قوة للمسلمين على الكفار، وكان يأمل أن يهديهم الله تعالى للإسلام. وقد أخذ النبي صلّى الله عليه وسلّم برأي أبي بكر، وقد تباين فداء الأسرى، فمن كان ذا مال أخذ فداؤه، وتتناقص الأموال المأخوذة منهم بعد ذلك تبعا لكفاءتهم المالية وقد حفظت لنا المصادر نماذج منها، فمن ذلك أنه استوفى من العباس بن عبد المطلب مائة أوقية من الذهب فداء عنه، ومن عقيل بن أبي طالب ثمانين أوقية، واستوفى من آخرين أربعين أوقية لكل منهم «٥» .
ولقد نزل القرآن الكريم بعد ذلك موافقا لرأي عمر، وذلك في قوله تعالى: ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ* لَوْلا كِتابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيما أَخَذْتُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ* فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالًا طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. ثمّ قال: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ «٦» .
أطلق النبي صلّى الله عليه وسلّم سراح عمرو بن أبي سفيان مقابل إطلاق قريش سراح سعد بن النعمان بن أكال الذي

---

(١) القرآن الكريم- سورة الأنفال، الآية/ ١، الطبري- التفسير ١٣/ ٣٦٧- ٣٧١، ابن هشام- السيرة ١/ ٣٤٤، الحاكم- المستدرك ٢/ ٣٢٦، أحمد- الفتح الرباني ١٤/ ٧٢.
(٢) أي بالتساوي بين المقاتلين المسلمين في بدر، أحمد- المسند (الفتح الرباني ١٤/ ٧٣) ، ابن حبّان- الموارد ص ٤١٠، الحاكم المستدرك ٢/ ١٣٥.
(٣) القرآن الكريم- سورة الأنفال، الآية/ ٤١، وانظر: البخاري- الصحيح (فتح حديث ٤٠٠٣) ، ابن كثير- البداية والنهاية ٣/ ٣٠٢- ٣٠٣.
(٤) أحمد- المسند ٨/ ١٠١ بإسناد صحيح.
(٥) مسلم- الصحيح ٣/ ١٣٨٥ حديث ١٧٦٣.
(٦) القرآن الكريم- سورة الأنفال، الايات/ ٦٧- ٧٠.

أسره أبو سفيان وهو يعتمر بالبيت العتيق «١» .
وكان المسلمون يقبلون من بعض الأسرى ما عندهم إذا تعذر دفع ما فرض عليهم من الفداء «٢» .
وأطلق النبي صلّى الله عليه وسلّم أسر بعض الأسرى الذين لم يقدروا على دفع شيء «٣» .
أما الأسرى الذين يعرفون القراءة والكتابة، ولم يكن لدى أهليهم أو لديهم مقدرة على الفداء، فقد جعل فداؤهم أن يعلموا أبناء الأنصار القراءة والكتابة، وقد وردت رواية صحيحة الإسناد عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة ... » «٤» .
وفي طريق عودة الجيش الإسلامي إلى المدينة أمر النبي صلّى الله عليه وسلّم بقتل اثنين من الأسرى وهما النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط اللذين كانا من أئمة الكفر، يؤذيان المسلمين بمكة

ويشتدان في عداوتهما لله ولرسوله، وكان في قتلهما درسا بليغا للطغاة ونهاية حاسمة للجبروت «٥» . أما بقية الأسرى فقد استوصى الرسول صلّى الله عليه وسلّم بهم خيرا «٦» .
وقد أسلم عدد منهم على فترات قبل فتح مكة وبعد ذلك «٧» .
أرسل النبي صلّى الله عليه وسلّم زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة إلى المدينة ليزفا بشرى النصر، وقد تلقى المسلمون الخبر بسرور بالغ، وقد ذكر أسامة بن زيد أنه لم يصدق الخبر إلى أن رأى الأسرى مقرنين «٨» ، وكانت الدهشة تعلو الوجوه إذ لم يصدق الناس في بادىء الأمر أن قريشا قد هزمت، وأن زعماءها قد أصبحوا بين قتيل وأسير، وأن كبرياءها قد تحطمت، وظهرت حقيقة آلهتها الزائفة وعقائدها الباطلة.
لقد كانت معركة بدر من المعارك الفاصلة في تاريخ الإسلام وقد عرفت في القرآن الكريم بيوم الفرقان لأنها فرّقت بين الحق والباطل، وكان لها أثرها الكبير في إعلاء شأن الإسلام، وانتصار العقيدة السمحاء. ولقد أوضحت الأحاديث النبوية الشريفة مبلغ فضل البدريين وعلو مقامهم. كما كانت أصداء انتصار المسلمين شديدة على أعداء الإسلام من يهود ومشركين، ولم تكد قريش تصدق ما حدث، وحين تأكدت لديها الأخبار، فإنها أقدمت على اتخاذ بعض الإجراءات التي تؤكد عجزها وإسقاط ما في يدها، فقد أمر زعماء مكة بالامتناع عن إقامة العزاء

---

(١) ابن هشام- السيرة ١/ ٣٥٧- ٣٥٨.
(٢) أحمد- الفتح الرباني ١٤/ ١٠٠، ابن هشام- السيرة ١/ ٣٥٩.
(٣) ابن هشام- السيرة ١/ ٣٦٨- ٩.
(٤) أحمد- المسند ٤/ ٤٧ (حديث ٢٢١٦) وإسناده صحيح.
(٥) الهيثمي- مجمع الزوائد ٦/ ٨٩، السهيلي- الروض الآنف ٣/ ٥٣، وانظر: الطبراني- الكبير ١١/ ٤٠٦ (حديث ١٢١٥٤) ، وأورد ابن هشام في السيرة ٢/ ٣٢٧ أن الآية (٢٧) من سورة الفرقان قد نزلت في عقبة بن أبي معيط هذا، وأخرج ذلك الطبري في تفسيره (١٩/ ٦) عن طريق عبد الله بن عباس- رضي الله عنهما-، وانظر: ابن كثير- التفسير ٦/ ١١٦ وقال: «وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي معيط أو في غيره، فإنها عامة في كل ظالم» .
(٦) الهيثمي- مجمع الزوائد ٦/ ٨٦، ونقل عن الطبراني في الكبير والصغير، وقال إسناده حسن. وانظر: ابن هشام- السيرة ٢/ ٣٤٩- ٥٠.
(٧) السهيلي- الروض الآنف ٣/ ١٢٥، ابن الأثير- عيون الأثر ١/ ٣٨٧.
(٨) ابن كثير- البداية والنهاية ٣/ ٣٠٤ بإسناد صحيح.

على القتلى أو بكائهم والنياحة عليهم، في محاولة لإظهار التجلد حتى لا يشمت بهم المسلمون، كما تصرفت بعصبية ونزق، فقد تآمر صفوان بن أمية على حياة الرسول صلّى الله عليه وسلّم بإرساله عمير بن وهب الجمحي بعد أن تحمل عنه ديونه وإعالة أهله، غير أن عالم الغيب أعلم نبيه ومصطفاه صلّى الله عليه وسلّم بالأمر مما أفشل الخطة، بل وأدى ذلك إلى إسلام عمير بن وهب وعودته إلى مكة داعية للإسلام «١» ، كما منعت زينب بنت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من اللحاق بأبيها في المدينة، وحاول بعض فرسان قريش الاعتداء عليها فأرعبوها برماحهم وأكرهوها على العودة إلى مكة «٢» . كما أقدموا على أسر أحد المعتمرين خلافا لما كان عليه العرف في احترام الحجاج والمعتمرين وعدم الاعتداء عليهم.
وهم وإن كانوا قد نجحوا في مقايضته بعمرو بن أبي سفيان «٣» فإن ذلك قد كشف للقبائل العربية الأخرى مدى طغيانهم وعدوانهم وحقارتهم. وأخيرا فقد اشترت قريش اثنين من أسرى الرجيع وهما خبيب وابن الدّثنّة وأقدمت على قتلهما للتشفي من المسلمين «٤» .

وأورد ابن هشام رواية عن ابن إسحاق قال: «فلما انقضى أمر بدر، أنزل الله عزّ وجلّ فيه من القرآن سورة الأنفال بأسرها» .
ومن العدد الكبير من القصائد التي قيلت في بدر والتي عبّرت عن وجهات نظر الطرفين، نذكر قول حسّان ابن ثابت- رضي الله عنه-:
لقد علمت قريش يوم بدر ... غداة الأسر والقتل الشديد
بأنّا حين تشتجر العوالي ... حماة الحرب يوم أبي الوليد
قتلنا ابني ربيعة يوم سارا ... إلينا في مضاعفة الحديد
وفرّ بها حكيم يوم جالت ... بنو النجار تخطر كالأسود
وولت عند ذاك جموع فهر ... وأسلمها الحويرث من بعيد
لقد لاقيتم ذلّا وقتلا ... جهيزا نافذا تحت الوريد

---

(١) ابن حجر- الإصابة ٣/ ٢٦.
(٢) ابن هشام- السيرة ٢/ ٦٥٤- ٦٥٥.
(٣) المرجع السابق ٢/ ٣٥٧- ٣٥٨.
(٤) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٣٠٨) .

وكل القوم قد ولّوا جميعا ... ولم يلووا على الحسب التليد
وقال حسّان أيضا:
ألا ليت شعري هل أتى أهل مكة ... إبارتنا الكفار في ساعة العسر
قتلنا سراة القوم عند مجالنا ... فلم يرجعوا إلا بقاصمة الظهر
قتلنا أبا جهل وعتبة قبله ... وشيبة يكبو لليدين وللنحر
قتلنا سويدا ثم عتبة بعده ... وطعمة أيضا عند ثائرة القتر
فكم قد قتلنا من كريم مرزّء ... له حسب في قومه نابه الذكر
تركناهم للعاويات ينبنهم ... ويصلون نارا بعد حامية القعر
لعمرك ما حامت فوارس مالك ... وأشياعهم يوم التقينا على بدر
النشاط العسكري الإسلامي بين بدر وأحد:
ارتفعت معنويات المسلمين كثيرا بعد انتصارهم الكبير في معركة بدر الكبرى، وقد حرص المسلمون على تأديب المعاندين من المشركين في نطاق المدينة وما حولها، فقد أقدم عمير بن عدي الخطمي- رضي الله عنه- على قتل عصماء بنت مروان التي كانت تحرض على النبي صلّى الله عليه وسلّم وتعيب الإسلام «١» ، وحين سأل النبي صلّى الله عليه وسلّم بعد ذلك عما إذا كان عليه شيء؟ قال له النبي صلّى الله عليه وسلّم: «نصرت الله ورسوله يا عمير» «٢» ، ثم قال: «لا ينتطح فيها عنزان» «٣» .
وقد أسلم نتيجة ذلك عدد من بني خطمة وجهر بالإسلام منهم من كان يستخفي «٤» .
وقد غزا النبي صلّى الله عليه وسلّم بعد سبع ليال من عودته إلى المدينة من غزوة بدر، وبلغ ماء الكدر في ديار بني سليم

---

(١) ابن هشام- ٤/ ٣٧٧- ٧٩، الواقدي- المغازي ١/ ١٧٢، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٢٧.
(٢) ابن هشام- السيرة ٤/ ٣٧٩ بإسناد ضعيف، وانظر: أبو داود- السنن ٤/ ٥٢٨- ٢٩.
(٣) أبو داود- السنن- كتاب الحدود، باب الحكم فيمن سبّ النبي صلّى الله عليه وسلّم، ٤/ ٥٢٨- ٥٢٩ بإسناده متصل ورجاله ثقات، انظر: ابن حجر- بلوغ المرام ٢/ ٢٤١.
(٤) ابن هشام- السيرة ٤/ ٣٧٩، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٢٧.

الذين قصدهم بغزوته هذه، غير أنه لم يلق حربا فأقام ثلاث ليال على الماء ثم رجع إلى المدينة «١» .
وحين قتل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الحارث بن سويد بن صامت، نجم نفاق الشاعر أبي عفك من بني عمرو بن عوف وقال شعرا هجا فيه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال عليه السلام: «من لي بهذا الخبيث؟» ، فخرج إليه الصحابي سالم بن عمير فقتله «٢» .

غزوة بني قينقاع

أورد الزهري أنها حصلت في السنة الثانية من الهجرة، وذكر الواقدي وابن سعد أنها وقعت يوم السبت للنصف من شوال من السنة الثانية «٣» ، واتفق معظم من كتب في مغازي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وسيرته على أنها وقعت بعد معركة بدر، إذ لم يلتزم اليهود بالمعاهدة التي أبرمها الرسول صلّى الله عليه وسلّم معهم، ولم يوفوا بالتزاماتهم التي حددتها، ووقفوا من الرسول صلّى الله عليه وسلّم والمسلمين مواقف عدائية، فأظهروا الغضب والحسد عند ما انتصر المسلمون في بدر، وجاهروا بعداوتهم للمسلمين «٤» . وقد جمعهم النبي صلّى الله عليه وسلّم في سوقهم بالمدينة ونصحهم، ودعاهم إلى الإسلام، وحذّرهم أن يصيبهم ما أصاب قريشا في بدر «٥» ، غير أنهم واجهوا النبي صلّى الله عليه وسلّم بالتحدي والتهديد رغم ما يفترض أن يلتزموا به من الطاعة والمتابعة لبنود المعاهدة التي جعلتهم تحت رئاسته، فقد جابهوه بقولهم: «يا محمد! لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرا من قريش كانوا أغمارا لا يعرفون القتال. إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا» «٦» .
وهكذا بدأت الأزمة تتفاعل إذ لم يكن في جوابهم ما يشير إلى الالتزام والاحترام، بل على العكس فإنهم قد أظهروا روحا عدائية، وتحدّيا واستعلاء واستعدادا للقتال، فأنزل الله سبحانه وتعالى فيهم قوله: قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهادُ* قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتا فِئَةٌ تُقاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرى كافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشاءُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ «٧» .
واستمر اليهود من بني قينقاع يظهرون الروح العدائية ضد المسلمين، فقد أقدم أحدهم على الاعتداء على كرامة إحدى النساء المسلمات، فقد عقد طرف ثوبها وهي جالسة دون أن تعلم، فلما قامت انكشفت فاستصرخت المسلمين فأغاثها أحدهم وقتل اليهودي، غير أن اليهود تواثبوا على ذلك المسلم وقتلوه، واستصرخ أهل المسلم إخوانهم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع «٨» .

---

(١) ابن هشام- السيرة النبوية ٣/ ٦٤.
(٢) المصدر السابق ٤/ ٣٧٦- ٣٧٧، ابن حجر- الإصابة ٤/ ٢٣٨، الواقدي- مغازي ١/ ١٧٤ وفيه أنه حسد النبي صلّى الله عليه وسلّم، ابن سعد- الطبقات.
(٣) الطبري- تاريخ ٢/ ٤٧٩- ٤٨٠، الواقدي- المغازي ١/ ١٧٦، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٢٨- ٢٩.
(٤) ابن حجر- فتح الباري ٧/ ٣٣٢، أبو داود- السنن ٣/ ٤٢٢- ٣ (حديث ٣٠٠١) ، ابن هشام ٣/ ٧١- ٧٢.
(٥) ابن هشام- السيرة ٢/ ٢٩٤، أبو داود- السنن ٣/ ٤٠٢- ٣، وانظر: ابن حجر- فتح الباري ٧/ ٣٣٢.
(٦) وردت عن طريق ابن إسحاق، انظر: ابن هشام- السيرة ٢/ ٢٩٤- ٣ وهي وإن كان ابن حجر قد حسنها في الفتح ٧/ ٣٣٢ فإن في سندها مجهول (التقريب ٢/ ٢٠٥) .
(٧) القرآن الكريم- آل عمران، الآيات/ ١٢- ١٣.

(٨) ابن هشام- السيرة ٣/ ٧٠.
جـ ١(ص: ٢٩٧)

وهكذا فإن سبب الأزمة كان يكمن في رفضهم التعايش مع المسلمين، وتحديهم الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وتهديدهم أمن المدينة واعتدائهم المباشر على أفراد المجتمع الإسلامي، ورفضهم الانصياع لبنود المعاهدة التي أبرمها الرسول صلّى الله عليه وسلّم معهم. وقد خشي الرسول صلّى الله عليه وسلّم خيانتهم فنبذ إليهم على سواء تنفيذا لأمر الله تعالى: وَإِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ «١» .
أما تفاصيل حصارهم وإجلائهم فإنها ثابتة في المصادر بروايات صحيحة «٢» ، ذلك أنهم أظهروا صريح البغضاء والعداء، فعقد النبي صلّى الله عليه وسلّم لواء أبيض لحمزة بن عبد المطلب، واستخلف على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر، وخرج بقواته وحاصرهم خمس عشرة ليلة إلى هلال ذي القعدة، وحين اشتد عليهم الحصار نزلوا على حكم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيهم: على أن له أموالهم، وأن لهم النساء والذرّية. فأمر بهم فكتّفوا، ثم كلمه فيهم حليفهم عبد الله بن أبي بن سلول، وألحّ عليه قائلا: «أربعمائة حاسر، وثلاثمائة دارع منعوني من الأحمر والأسود وتحصدهم في غداة واحدة» .
فقال له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «هم لك» وأمر بهم أن يجلوا عن المدينة، وتولى أمر إجلائهم عبادة بن الصامت، فلحقوا بأذرعات، وتولى قبض أموالهم محمد بن مسلمة الأنصاري، فخمّست وقسم الباقي بين الصحابة «٣» .
وأعلن عبادة بن الصامت براءته من حلفائه اليهود لمحاربتهم المسلمين، ومظاهرة لله ورسوله فقال: «يا رسول الله إن لي موالي من يهود كثير عددهم وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود، وأتولى الله ورسوله» .
ولقد أنزل الله سبحانه وتعالى في موالاة عبد الله بن أبي بن سلول لليهود، وبراءة عبادة بن الصامت منهم قرآنا، فقال تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصارى أَوْلِياءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ ... «٤» .
غزوة السويق:
أراد أبو سفيان القيام بعمل انتقامي ضد المسلمين، فاصطحب معه مائتي فارس، وتقدم سرّا نحو المدينة، وتخفّى عند بني النضير، وفي أوائل الحجة من السنة الثانية من الهجرة هاجم أبو سفيان بقواته ناحية العريض فقتلوا رجلين من المسلمين وأحرقوا نخلا، وفروا مسرعين عائدين إلى مكة، وقد تخففوا من حمولتهم من الطعام في سبيل التعجيل بالفرار، وضمانا لعدم لحاق المسلمين بهم وطلبا للنجاة. وقد نفر الرسول صلّى الله عليه وسلّم بالمسلمين في أثرهم حين بلغه الخبر حتى وصلوا قرقرة الكدر فلم يلحقوا بهم «٥» ، فعادوا بأزوادهم التي رموها وغالبها من السويق

---

(١) القرآن الكريم- سورة الأنفال، الآية ٥٨.
(٢) البخاري- الصحيح ٣/ ١١ (حديث ٤٠٢٨) ، مسلم- الصحيح ٣/ ١٣٨٧- ٨ (حديث ١٧٦٦) ، ابن هشام- السيرة ٣/ ٧٠- ٧١، الواقدي- المغازي ١/ ١٧٦، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٩٢.
(٣) الواقدي- المغازي ١/ ١٧٦- ١٧٧، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٢٩.
(٤) القرآن الكريم- سورة المائدة، الآيات ٥١- ٥٢، وروى الخبر ابن إسحاق بإسناد مرسل يتقوي مع المتابعات والشواهد. انظر: ابن هشام- السيرة ٣/ ٧١- ٧٢، الطبري- التفسير ٦/ ٢٧٥، السيوطي- الدر المنثور ٢/ ٢٩١.
(٥) ابن هشام- السيرة ٢/ ٤٢٢- ٤٢٣ بإسناد صحيح إلى عبد الله بن كعب بن مالك، الطبري- تاريخ ٢/ ٤٨٤، الواقدي- مغازي ١/ ١٨١، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٣٠، وذكر الحافظ ابن كثير في البداية ٣/ ٣٧٨ بأنها غزوة قرقرة الكدر.
جـ ١(ص: ٢٩٨)

فسميت بذلك «١» . وقد وقعت هذه الغزوة في شهر محرم سنة ثلاث للهجرة «٢» .
غزوة قرقرة الكدر:
جمعت قبيلتا غطفان وبنو سليم جموعا على ماء لبني سليم بقرقرة الكدر بهدف التحرك ضد المسلمين بسبب ما لحقهم من آثار سلبية اقتصاديّا من جرّاء جهود المسلمين في التصدي لقريش وإحكامهم الحصار الاقتصادي عليها. ويظهر أن هاتين القبيلتين كانتا تستفيدان من أنشطة الحركة التجارية المكية. وحين بلغت أنباء هذا التجمع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قاد بنفسه جيشا من مائتي مقاتل وداهمهم على الماء. وقد فر المقاتلون من الجانب المعادي لمجرد سماعهم أنباء قدوم الرسول صلّى الله عليه وسلّم «٣» تاركين خلفهم جمالهم التي بلغ تعدادها ٥٠٠ بعير، فكانت غنيمة للمسلمين، وأقام النبي صلّى الله عليه وسلّم ثلاثة أيام في الموقع- كعادته في غزواته- قبل أن يعود إلى المدينة «٤» .
سريّة مقتل كعب بن الأشرف:
فصّل الإمام البخاري في خبر سريّة قتل ابن الأشرف وفي حادثة قتله «٥» ، وينتسب كعب بن الأشرف إلى بني نبهان من قبيلة طيء، كان أبوه قد أصاب دما في الجاهلية، فقدم إلى المدينة وحالف يهود بني النضير وتزوج عقيلة بنت أبي الحقيق فولدت له كعبا «٦» . وكان كعب شاعرا، ناصب الإسلام العداء، وقد غاظه انتصار المسلمين على قريش في معركة بدر، فسافر إلى مكة يهجو النبي صلّى الله عليه وسلّم ويحرّض قريشا على الثأر لقتلاهم الذين كان ينوح عليهم ويبكيهم في شعره، ويدعو إلى القضاء على الرسول والمسلمين «٧» . ولم يكتف كعب بذلك، بل إنه فضّل عقائد الجاهلية على الإسلام حين سأله أبو سفيان، وأكد أنها أحب إلى الله وأقرب إلى الحق، فأنزل الله بشأنه قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هؤُلاءِ أَهْدى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا «٨» .
وعلى الرغم من كل ذلك، فإنه عاد بصلافة إلى المدينة، وبادر بالتشبيب بنساء المسلمين بكل وقاحة «٩» ، وقد أهدر الرسول صلّى الله عليه وسلّم دمه وأمر بقتله «١٠» ، فأبدى محمد بن مسلمة الأنصاري استعداده لإنفاذ أمر النبي صلّى الله عليه وسلّم فيه،

---

(١) الواقدي- مغازي ١/ ١٨١، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٣١.
(٢) الطبري- تاريخ ٢/ ٤٨٤.
(٣) ابن هشام- السيرة ٢/ ٤٢١ وهذه الغزوة هي ليست ما ذكره ابن إسحاق حين خرج النبي صلّى الله عليه وسلّم بعد سبع ليالي من عودته من بدر إلى بني سليم ولم يلق حربا (٣/ ٦٤) ، وانظر: الواقدي- مغازي ١/ ١٨١ وقد أشار الواقدي إلى وجود غلام اسمه يسار مع الجمال جعله المسلمون في سهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من الغنيمة فأعتقه النبي صلّى الله عليه وسلّم.
(٤) ابن سعد- الطبقات ٢/ ٣١.
(٥) البخاري- الصحيح ٥/ ٢٥- ٢٦.
(٦) ابن هشام- السيرة ٣/ ٧٤- ٧٥ بإسناد مرسل، الطبري- تاريخ ٢/ ٤٨٨.
(٧) أبو داود- السنن ٣/ ٤٠٢، البيهقي- دلائل النبوّة ٣/ ١٩٧.
(٨) القرآن الكريم- سورة النساء، الآية/ ٥١.
(٩) ابن هشام- السيرة ٢/ ٥٦٤- ٦٥.
(١٠) ورد ذلك في الصحيحين: البخاري- الفتح (حديث ٤٠٣٧) ، مسلم ٣/ ١٤٢٥ (حديث ١٨٠١) ، أبو داود- السنن ٣/ ٢١١- ١٢.

وأعانه أبو نائلة الأنصاري أخو كعب من الرضاعة، وأعانهما ثلاثة آخرون من الصحابة «١» ، وتم وضع خطة محكمة لتنفيذ العملية واستدرجوا كعبا خارج حصنه ليلا حيث أجهزوا عليه «٢» . وقد

اشتكى اليهود عند رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من ذلك، فبيّن لهم- عليه السلام- ما بدر من كعب بن الأشرف من عداء وتحريض وهجاء، وفزع اليهود وبقية المشركين مما حدث وخافوا على أنفسهم أن يصيبهم ما أصاب كعبا فدعاهم النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى كتابة معاهدة بينهم فكتبت صحيفة عامة بين الطرفين، جاءت تأكيدا لما في المعاهدة التي كتبها النبي صلّى الله عليه وسلّم بين المسلمين واليهود في المدينة بعد الهجرة والتي عرفت بالصحيفة «٣» . وقد ذهب الجمهور إلى أن قتل ابن الأشرف وقع في السنة الثالثة للهجرة في ليلة النصف من شهر ربيع الأول «٤» .

غزوة ذي أمر:

في صفر سنة ٣ هـ غزا النبي صلّى الله عليه وسلّم قبيلة غطفان التي تجمعت في ذي أمر من أرض نجد بهدف محاربة المسلمين، غير أنهم سرعان ما تهاربوا حين علموا بتوجه الرسول صلّى الله عليه وسلّم ناحيتهم «٥» . وكان عدد جيش المسلمين أربعمائة وخمسين رجلا، ولم يقع قتال، وأقام النبي صلّى الله عليه وسلّم بقواته على ماء ذي أمر طيلة شهر صفر ثم قفل عائدا إلى المدينة «٦» .

غزوة بحران:

غزا النبي صلّى الله عليه وسلّم بحران من ناحية الفرع بقوة بلغ تعدادها (٣٠٠) مقاتل مستهدفا بني سليم الذين كانوا يؤمّنون الطريق التجارية لقريش بين مكة المكرمة وبلاد الشام، وذلك في جمادى الأولى سنة ٣ هـ «٧» . ويبدو أنه لم يلق كيدا، ولم يقع قتال «٨» . وعاد عليه السلام بقواته بعد عشرة أيام «٩» .

---

(١) أبو داود- السنن ٣/ ٢١١- ٢١٢ كتاب الجهاد، البيهقي- دلائل النبوة ٣/ ١٨٧- ٢٠٠، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٣٢- ٣٤، الواقدي ١/ ١٨٤- ١٩٣، ابن هشام- السيرة ٣/ ٨١- ٨٤.

(٢) البخاري- الصحيح ٥/ ٢٥- ٢٦، ابن هشام- السيرة ٣/ ٨١- ٨٤ مع بعض الإختلاف غير أن المضمون واحد.

(٣) أبو داود- السنن ٣/ ٤٠٢، البيهقي- دلائل ٢/ ٤٦٢.

(٤) ابن هشام ٣/ ٦٦، الواقدي- مغازي ١/ ١٨١، وانظر: الطبري- تاريخ ٢/ ٤٨٤.

(٥) ابن هشام- السيرة ٢/ ٤٢٥، وقد ذكر الواقدي في مغازيه ١/ ١٩٤، وتلميذه ابن سعد في طبقاته ٢/ ٣٤ بأن المجتمعين على ماء ذي أمرهم من بني ثعلبة بن محارب من غطفان. وخالف ابن إسحاق في تاريخها فجعله الخميس ١٢ ربيع الأول سنة ٣ هـ.

(٦) انفرد الواقدي في مغازيه، وتابعه تلميذه ابن سعد بإيراد قصة محاولة دعثور المحاربي الفتك برسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأورد القصة ضمن هذه الغزوة خلاف ما ورد في الصحيحين عن وقوعها في غزوة ذي الرقاع (المغازي ١/ ٩٣) .

(٧) ابن هشام- السيرة ٢/ ٤٢٥، الواقدي- المغازي ١/ ١٩٦، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٣٥.

(٨) ابن هشام- السيرة ٢/ ٤٢٥.

(٩) ابن كثير- البداية ٤/ ٣.

سريّة القردة:

أرادت قريش حماية تجارتها من الأخطار التي تتعرض لها عند سلوكها أحد الطريقين- الساحلي والداخلي- بين مكة وبلاد الشام، وخصوصا بعد أن ازدادت العمليات العسكرية الإسلامية شدة وتأثيرا بعد معركة بدر الكبرى وما يتعرض له حلفاء قريش من غزوات مما جعل الطريق تحت رحمة المسلمين «١» . ولهذا فقد فكر تجار قريش في إرسال تجارتهم عبر الطريق المتجهة إلى نجد فالعراق من أجل التخلص من الحصار الاقتصادي الإسلامي، فخرج أبو سفيان على رأس قافلة شارك في تمويلها عدد كبير من تجار قريش، وهي تحمل كميات كبيرة من الفضة إضافة إلى البضائع الأخرى، وقد استأجروا دليلا من بني بكر بن وائل «٢» . وحين علم النبي صلّى الله عليه وسلّم بخبر القافلة، أرسل زيد بن

حارثة على رأس مائة من المسلمين في أثرهم، فلحقوا بهم على ماء بنجد يسمى القردة، فأصاب القافلة وحمولتها الثمينة، بعد أن فر الرجال. وقد تم ذلك بعد مرور ستة شهور من غزوة بدر الكبرى «٣» .
وقد بلغت قيمة الغنائم مائة ألف درهم، مما عرض تجارة قريش لضربة عنيفة «٤» ، كما أن نجاح المسلمين في عرقلة طريق العراق أمام تجارة قريش أدى إلى إحكام الحصار التجاري عليها مما دعاها إلى التفكير الجاد في ضرورة القيام بعمل عسكري ضد المسلمين دفعا للأخطار التي تتعرض لها تجارتها، وتأمينا لطرقها، ومحاولة استعادة مكانتها وسمعتها التي تردت في أعقاب هزيمتها في معركة بدر الكبرى.

غزوة أحد

تعود أسباب هذه المعركة إلى جملة من الأسباب المتداخلة، أبرزها رغبة قريش في الانتقام من المسلمين لقتلاها يوم بدر حيث كانت قد فقدت صناديد رجالها ولحق بها عار الهزيمة المنكرة إضافة إلى ما فقدته من أموالها التي غنمت، ومكانتها التي تهاوت وسمعتها التي مرغت في الوحل «٥» .
يضاف إلى ذلك ما كان يشعر به زعماء قريش من أخطار تهددهم وتجارتهم التي كادت أن تتوقف مع بلاد الشام بعد أن تحكم المسلمون في كافة طرق التجارة الداخلية والساحلية، وخاصة بعد أن فقدوا أملهم الأخير في سلوك طريق العراق، وما جرى في سريّة القردة حين غنم المسلمون تجارتهم وعيرهم وقطعوا عليهم آخر طريق كانوا يؤملونه لاستمرار سير تجارتهم «٦» . هذا إلى جانب تعنت قريش وإصرارها على دين الآباء والأجداد ومقاومتها التوحيد، وحقدها التاريخي على الرسول صلّى الله عليه وسلّم والمسلمين الذين أفلتوا من قبضتها، فأصبحوا لها ندّا يناصبونها العداء ويقطعون عليها سبل حياتها.
كانت استعدادات قريش لحرب المسلمين قد بدأت مبكرة في أعقاب هزيمتها في بدر، فقد رصدوا أموال

---

(١) ابن هشام- السيرة ٢/ ٤٢٩- ٤٣٠.
(٢) المرجع السابق ٢/ ٤٣٠، ابن كثير- البداية ٤/ ٤، وذكر الواقدي في مغازيه أن قائد القافلة لقريش كان صفوان بن أمية. انظر: البداية والنهاية لإبن كثير ٤/ ٥.
(٣) الواقدي- المغازي ١/ ١٩٧، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٣٦.
(٤) ابن سعد- الطبقات ٢/ ٣٦ بدون إسناد.
(٥) ابن إسحاق- السيرة ص/ ٣٢٢، ابن هشام- السيرة ٣/ ٨٦، الواقدي ١/ ١٩٩، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٣٧.
(٦) انظر مصادر سرية القردة فيما سبق.

تجارتهم التي تمكن أبو سفيان من الإفلات بها قبيل معركة بدر مع أرباحها لتجهيز جيش الثأر «١» ، وجمعت ثلاثة آلاف مقاتل من أبنائها وحلفائها من كنانة وأهل تهامة «٢» ، بينهم مائتا فارس وسبعمائة دارع «٣» ، وجعلت على قيادة الميمنة خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل «٤» ، وصاحب الجيش عدد من نساء قريش لغرض إثارة الحماس ومنع المقاتلين من التفكير بالفرار خشية العار «٥» . بلغت أنباء تقدم قوات قريش إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم «٦» ، فشاور أصحابه في الموضع الذي يرونه لمواجهة جيش المشركين «٧» ، وحيث إن المدينة كانت قد شبكت بالبنيان فهي كالحصن «٨» . فقد كان النبي صلّى الله عليه وسلّم يرى البقاء والتحصّن فيها، وقال: «إنّا في جنّة حصينة» «٩» ، وقد أبدى بعض أصحابه من الأنصار كراهة القتال في طرق المدينة وقالوا: «وقد كنا نمتنع من الغزو في الجاهلية، فبالإسلام أحق أن نمتنع منه، فابرز إلى القوم» «١٠» . انطلق

رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فلبس لامته. وتلاوم القوم وقالوا: «عرض نبي الله صلّى الله عليه وسلّم بأمر وعرّضتم بغيره، فاذهب يا حمزة فقل لنبي الله صلّى الله عليه وسلّم: «أمرنا لأمرك تبع» . فأتى حمزة فقال له: «يا رسول الله إن القوم قد تلاوموا فقالوا: أمرنا لأمرك تبع» ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّه ليس لنبيّ إذا لبس لامته أن يضعها حتّى يناجز» «١١» .

لبس النبي صلّى الله عليه وسلّم درعين، رغم علمه بأن الله تعالى يعصمه من القتل تعويدا للأمة على الأخذ بالأسباب المادية ثم التوكل على الله «١٢» . وعقد صلّى الله عليه وسلّم راية سوداء وثلاثة ألوية أحدها للمهاجرين والثاني للأوس من الأنصار والثالث للخزرج منهم «١٣» . وانتظمت قوات المسلمين التي قدرت بألف مقاتل بما فيهم المنافقون المتظاهرون بالإسلام ومعهم فرسان فقط ومائة دارع تحت قيادة النبي صلّى الله عليه وسلّم وتحركت تاركة المدينة من الجانب الغربي من الحرة

---

(١) ابن هشام- السيرة ٣/ ١، الواقدي- المغازي ١/ ٢٠٠، ابن إسحاق- السيرة ص/ ٣٢٢.

(٢) ابن هشام- السيرة ٣/ ٨٤، الواقدي- مغازي ١/ ١٠١.

(٣) ابن هشام- السيرة ٣/ ٨٧، الطبري- تاريخ ٣/ ٥٠٢ من رواية الواقدي.

(٤) ابن هشام- السيرة ٣/ ٨- ١٢، الطبري- تاريخ ٣/ ٥٠٤.

(٥) ابن هشام- السيرة ٣/ ٨٧ برواية ابن إسحاق دون إسناد، الطبري- تاريخ ٣/ ٥٠٤، الواقدي- مغازي ١/ ٢٠١، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٣٧.

(٦) عن رؤيا النبي صلّى الله عليه وسلّم وتفسيرها انظر: البخاري- الصحيح [فتح الباري (حديث ٣٦٢٢)] ، مسلم- الصحيح ٤/ ١٧٧٩- ١٧٨٠ (حديث ٢٢٧٢) ، أحمد- الفتح الرباني ٢١/ ٥٠، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٢٤٥.

(٧) الطبري- التفسير ٧/ ٢٧٢، التاريخ ٣/ ١١.

(٨) الصنعاني- المصنف ٥/ ٣٦٣.

(٩) أحمد- المسند ٣/ ٣٥١، الفتح الرباني ٢١/ ٥١- ٥٢، الطبري- تفسير ٧/ ٣٧٢ بإسناد حسن إلى قتادة، وقد جاء بطرق عديدة وبمجموع الطرق يصح الحديث، وانظر: البيهقي- دلائل النبوة ٣/ ٢٠٤، ٣٠٨، الصنعاني- المصنف ٥/ ٣٦٤- ٣٦٥، الحاكم- المستدرك ٢/ ١٢٨- ١٢٩، ٢٩٦- ٢٩٧، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٣٨.

(١٠) الطبري- تفسير ٧/ ٣٧٢.

(١١) انظر الهامش (٤) أعلاه.

(١٢) الحاكم- المستدرك ٣/ ٢٥.

(١٣) خليفة بن خياط- تاريخ ص/ ٦٧، الواقدي- المغازي ١/ ٣٣، ابن عبد البر- الاستيعاب ٣/ ٥٤٠، وحمل مصعب بن عمير لواء المهاجرين، وأسيد بن حضير لواء الأوس، والحباب بن المنذر لواء الخزرج.

جـ ١(ص: ٣٠٢)

الشرقية «١» . وقد انسحب من جيش المسلمين المنافق عبد الله بن أبيّ بن سلول وثلاثمائة من أتباعه المنافقين، بدعوى أنه لن يقع قتال مع المشركين، ومعترضا على قرار الرسول صلّى الله عليه وسلّم بالخروج من المدينة لملاقاة المشركين بقوله «أطاع الولدان ومن لا رأي له، أطاعهم وعصاني، علام نقتل أنفسنا» «٢» . وقد انقسم الصحابة في مسألة قتال هؤلاء المنافقين «٣» ، فأنزل الله تعالى: فَما لَكُمْ فِي الْمُنافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِما كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا «٤» .

وقد حاول الصحابي عبد الله بن عمرو بن حرام تدارك الأمر فلحق بالمنافقين المنسحبين، وحاول إقناعهم بضرورة نصرة نبيهم وقومهم، غير أنهم أصروا على موقفهم، وقالوا له: «لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم» ، وبعد أن يئس عبد الله منهم سأل الله أن يبعدهم، وأن يغني الله نبيه عنهم «٥»

، وقد أشار القرآن إلى ذلك في قوله تعالى: وَما أَصابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ* وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتالًا لَاتَّبَعْناكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمانِ يَقُولُونَ بِأَفْواهِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما يَكْتُمُونَ «٦» .
وكاد بنو سلمة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس، وهما طائفتان من المسلمين، أن يتخاذلا وينسحبا مع المنافقين، وفكروا جديّا في التراجع إلى المدينة، لولا أن الله تعالى أنقذهم وثبّت قلوبهم مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم ومع إخوانهم المؤمنين «٧» ، وفيهم قال تعالى: إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُما وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ «٨» .
عسكر الجيش الإسلامي في منطقة الشيخين حيث استعرض الرسول صلّى الله عليه وسلّم المتطوعين من صغار السن فرد منهم أربعة عشر صبيّا «٩» ، ثم تقدم الجيش بعد ذلك إلى ميدان أحد حيث اتخذ مواقعه وفق الخطة المحكمة التي وضعها الرسول صلّى الله عليه وسلّم؛ فقد نظّم صلّى الله عليه وسلّم صفوف جيشه بحيث أنه حمى ظهر المسلمين بالجبل وهم يستقبلون عدوهم «١٠» ، وجعل خمسين من الرماة بقيادة عبد الله بن جبير فوق تل عينين المقابل لجبل أحد بقصد منع المشركين من تطويق

---

(١) ابن هشام- السيرة ٣/ ٨- ١٢.
(٢) البخاري- الصحيح (حديث ٤٠٥٠) ، ابن هشام- السيرة ٢/ ٩٢، الواقدي- مغازي ١/ ٢١٩، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٣٩، البيهقي- دلائل ٣/ ٢٠٨.
(٣) البخاري- الصحيح (فتح حديث ٤٠٥٠) ، الطبري- تفسير ٩/ ٧- ٩.
(٤) القرآن الكريم- سورة النساء، الآية/ ٨٨.
(٥) ابن هشام- السيرة ٣/ ٩.
(٦) القرآن الكريم- سورة آل عمران، الآيات/ ١٦٦- ١٦٧.
(٧) البخاري- الصحيح (حديث ٤٠٥١) ، مسلم- الصحيح ٤/ ١٩٤٨ (حديث ٢٥٠٥) ، ابن هشام- السيرة ٣/ ١٥٤، الطبري- تفسير ٧/ ١٦٦، البيهقي- دلائل النبوة ٣/ ٢٢٠- ٢٢.
(٨) القرآن الكريم- سورة آل عمران، الآية/ ١٢٢.
(٩) البخاري- فتح الباري ٥/ ٢٧٦، مسلم الصحيح ٢/ ١٤٢.
(١٠) البخاري- الصحيح (حديث ٣٠٣٩) ، أحمد- المسند ٤/ ٢٠٩.

المسلمين، وأمر الرماة بالثبات في مواقعهم مهما حصل، وقال لهم: «إن رأيتمونا تخطّفنا الطّير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتّى أرسل لكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا مكانكم» «١» .
وهكذا فقد سيطر المسلمون على المرتفعات تاركين الوادي لجيش المشركين الذي تقدم ليواجه المسلمين «٢» .
وقاتل المسلمون عند لقاء العدو، تحت شعار: أمت، أمت، واستماتوا في قتال بطولي ملحمي سجل فيه صناديد الإسلام صورا رائعة في البطولة والبسالة «٣» ، وسجل التاريخ روائع بطولات حمزة بن عبد المطلب، ومصعب ابن عمير وأبي دجانة، وأبي طلحة الأنصاري، وسعد بن أبي وقاص، وأمثالهم كثير «٤» ، وحقق المسلمون الانتصار في الجولة الأولى من المعركة «٥» . وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ... «٦» . الآية. ولما رأى الرماة الهزيمة التي حلت بقريش وأحلافها تنادوا: «الغنيمة الغنيمة ظهر أصحابكم فما تنتظرون» فقال لهم أميرهم عبد الله بن جبير: «أنسيتم ما قال لكم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؟» قالوا:
«والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة» ، وهرعوا إلى جمع الغنائم تاركين مواضعهم الحصينة الخطيرة، عاصين أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، باستثناء أميرهم عبد الله بن جبير «٧» .
وكانت فرصة مواتية للمشركين الذين التف خيّالتهم حول المسلمين، واستفاد من ذلك مقاتلة المشركين

فعادوا إلى ميدان القتال ثانية، حيث استطاعوا أن يشكّلوا طوقا حول قوات المسلمين «٨» . وفقد المسلمون مواقعهم الأولى، وبدأو يقاتلون دون تخطيط ولم يعودوا يميّز بعضهم بعضا «٩» .
ولم ينفع بأس المسلمين وحرارة قتالهم ما داموا لا يقاتلون وفق خطة تستهدف أمرا واضحا، وتساقطوا في ميدان المعركة شهداء أبرارا، بعد أن انقطع اتصالهم بالرسول القائد صلّى الله عليه وسلّم، وشاع في ميدان المعركة أنه قد استشهد «١٠» . وفر

---

(١) البخاري- الصحيح [فتح الباري ٦/ ١٦٢ (حديث ٣٠٣٩)] ، أحمد- المسند ٤/ ٢٠٩، الحاكم- المستدرك ٢/ ٢٩٦، الواقدي- المغازي ١/ ٢١٩- ٢٢٠، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٣٩- ٤٠.
(٢) البخاري- الصحيح [فتح ٦/ ١٦٢ (حديث ٣٠٣٩)] .
(٣) مسلم- الصحيح ٤/ ١٩١٧ (حديث ٢٤٧٠) ، أحمد- المسند ٣/ ١٢٣، ٤/ ٤٦، الحاكم- المستدرك ٢/ ١٠٧- ١٠٨، ٣/ ٢٣٠، الدارمي- السنن ٢/ ٢١٩.
(٤) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٣٦٧) ، مسلم- الصحيح ٢/ ٢٨٤، أحمد- الفتح الرباني ٢١/ ٦٠٥٩، الواقدي- المغازي ١/ ٣٠١، خليفة بن خياط- التاريخ ص/ ٦٧.
(٥) البخاري- الصحيح [فتح الباري ٦/ ١٦٢، ٣٧٥ (حديث ٣٠٤٣)] ، الطبري- تفسير ٧/ ٢٨١- ٢٨٨، ابن كثير- التفسير ٢/ ١١٤- ١١٥ من رواية الإمام أحمد (انظر: المسند ١/ ٢٨٧- ٨) ، الحاكم- المستدرك ٢/ ٢٩٦.
(٦) القرآن الكريم- سورة آل عمران، الآية/ ١٥٢.
(٧) ابن كثير- البداية والنهاية، وانظر: الطبري- التفسير ٧/ ٢٨١- ٢٨٢.
(٨) ابن هشام- السيرة ٢/ ١١٢.
(٩) البخاري- الصحيح (فتح الباري- حديث ٤٠٦٥) ، الحاكم- المستدرك ٣/ ٢٠٢، أحمد- المسند ٤/ ٢٠٩- ٢١١، ابن هشام ٣/ ١٢٧.
(١٠) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٣٦١) ، ابن هشام- السيرة ٣/ ١١٢.

جمع من المسلمين من ميدان المعركة، وجلس بعضهم إلى جانب ميدان المعركة دون قتال «١» ، وآثر آخرون الشهادة بعد أن تصوروا أنهم قد فقدوا نبيّهم! ومن هؤلاء أنس بن النضر الذي كان يأسف لعدم شهوده بدرا والذي قال في ذلك: «والله لئن أراني الله مشهدا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ليرين الله كيف أصنع» ، فلما رأى بعض المسلمين جلوسا تائهين محتارين في أحد صاح: «واها، لريح الجنة أجد دون أحد» وقاتل بشجاعة نادرة حتى استشهد. وقد وجد في جسده بضع وثمانون أثرا بين ضربة سيف وطعنة رمح ورمية نبل «٢» ، ونزل فيه وفي أمثاله قول الله تعالى: مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلًا «٣» .
أما أولئك النفر الذين فرّوا لا يلوون على شيء رغم دعوة النبي صلّى الله عليه وسلّم لهم بالصمود والثبات فقد نزل فيهم قوله تعالى: إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْراكُمْ فَأَثابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلى ما فاتَكُمْ وَلا ما أَصابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ «٤» .
ولقد حكى القرآن الكريم خبر فرار هذه المجموعة من الصحابة الذين ترخصوا في الفرار بعد سماعهم نبأ مقتل النبي صلّى الله عليه وسلّم الذي شاع في ساحة المعركة، وكان أول من علم بنجاة الرسول صلّى الله عليه وسلّم وأنه حي هو الصحابي كعب بن مالك الذي رفع صوته بالبشرى فأمره النبي صلّى الله عليه وسلّم بالسكوت حتى لا يفطن المشركون إلى ذلك «٥» . وقد نص القرآن الكريم على أن الله تعالى قد عفا عن تلك الفئة التي فرت، قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطانُ بِبَعْضِ ما كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ «٦» .
ويبدو أن بعض مقاتلة المشركين قد انتبهوا إلى وجود الرسول صلّى الله عليه وسلّم مع تسعة من أصحابه، سبعة منهم من الأنصار فهاجموهم، واستبسل الأنصار واستشهدوا واحدا بعد الآخر «٧» ،

ثم قاتل عنه طلحة بن عبيد الله حتى أثخن وأصيب بسهم شلّت يمينه «٨» ، وقاتل سعد بن أبي وقاص بين يدي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وكان يناوله النبال ويقول له: «إرم يا سعد، فداك أبي وأمّي» «٩» ، كما قاتل بين يديه أبو طلحة الأنصاري الذي كان من أمهر الرماة، وهو الذي قال عنه النبي صلّى الله عليه وسلّم: «لصوت أبي طلحة في الجيش أشدّ على المشركين من فئة» «١٠» .

---

(١) ابن هشام- السيرة ٣/ ٣٣، الطبري- التفسير ٧/ ٢٥٦.
(٢) ابن المبارك- كتاب الجهاد ص/ ٦٣، البخاري- الصحيح (فتح الباري ٦/ ٢١، ٧/ ٢٧٤، ٨/ ٥١٧) .
(٣) القرآن الكريم- سورة الأحزاب، الآية/ ٢٣.
(٤) القرآن الكريم- سورة آل عمران الآية ١٥٣، وانظر: تفسيرها عند الطبري- تفسير ٧/ ٣٠١- ٣٠٢.
(٥) الحاكم- المستدرك ٣/ ٢٠١، الهيثمي- مجمع الزوائد ٦/ ١١٢.
(٦) القرآن الكريم- آل عمران، الآية/ ١٥٥، وانظر: ابن الجوزي- زاد المسير ١/ ٤٨٣.
(٧) مسلم- الصحيح ٣/ ١٤١٥ (حديث ١٧٨٩) .
(٨) البخاري- الصحيح [فتح الباري ٧/ ٣٥٩ (حديث ٣٧٢٤)] .
(٩) المرجع السابق ٧/ ٣٥٨ (حديث ٣٧٢٤) .
(١٠) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٣٦١) ، أحمد- المسند (الفتح الرباني ٢٢/ ٥٨٩ بإسناد رجاله ثقات، الواقدي- مغازي ١/ ٢٤٣ باختلاف في نص الحديث.

وعلى الرغم من استبسال الصحابة في الدفاع عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم، فقد أصيب إصابات عديدة فقد كسرت رباعيته، وشجّ في وجهه، فأخذ يمسح الدم عن وجهه الكريم وهو يقول: «كيف يفلح قوم خضّبوا وجه نبيّهم وهو يدعوهم إلى الإسلام؟» «١» . فأنزل الله تعالى في ذلك: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظالِمُونَ «٢» . فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لما طمع في إسلامهم: «ربّ اغفر لقومي فإنّهم لا يعلمون» «٣» .
وبرزت مواقف بطولية شامخة لها دلالاتها الإيمانية تمثّلت في استشهاد عدد من المهاجرين والأنصار، وكان حمزة بن عبد المطلب عم الرسول صلّى الله عليه وسلّم من الذين استشهدوا في ذلك اليوم، قتله وحشيّ غلام جبير بن مطعم «٤» . كما استشهد أيضا عبد الله بن جحش، وعمرو بن الجموح وحنظلة بن أبي عامر، وثابت بن وقش «٥» . وساهمت النساء المسلمات في جيش المسلمين، يسقين العطشى ويداوين الجرحى، ويحاربن عند الضرورة «٦» .
وقد استمر القتال بين الطرفين حتى أجهدا، وانسحب النبي صلّى الله عليه وسلّم بمن معه ومن لحق به من أصحابه إلى أحد شعاب جبل أحد «٧» ، وكان المسلمون في حالة من الألم والخوف والغم لما أصاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وما أصابهم رغم نجاحهم في رد المشركين «٨» . فأنزل الله عليهم النعاس فناموا يسيرا ثم أفاقوا آمنين مطمئنين «٩» ، قال تعالى:
ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعاساً يَغْشى طائِفَةً مِنْكُمْ وَطائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ ما لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كانَ لَنا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ما قُتِلْنا هاهُنا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلى مَضاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ ما فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ ما فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ «١٠» .
وقد أجمع المفسرون على أن الطائفة التي قد أهمتهم أنفسهم هم المنافقون وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول وبعض من بقي منهم مع الجيش الإسلامي «١١» .

---

(١) مسلم- الصحيح ٢/ ١٤٩، البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٣٦٥) معلقا، ابن هشام- سيرة ٣/ ٢٩.
(٢) القرآن الكريم- سورة آل عمران، الآية/ ١٢٨.
(٣) مسلم- الصحيح ٣/ ١٤١٧ (حديث ١٧٩١) .
(٤) ابن هشام، السيرة ٣/ ١٢٩.
(٥) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٣٥٤) ، مسلم- الصحيح ٢/ ١٥٤، الحاكم- المستدرك ٣/ ١٩٩، ابن المبارك- كتاب الجهاد ص/ ٦٩، ابن هشام- السيرة ٣/ ٤٤، وانظر: أحمد- المسند ٥/ ٢٩٩، الهيثمي- مجمع الزوائد ٩/ ٣١٥، أبو داود- السنن ٢/ ١٩.
(٦) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٦/ ٧٨، ٧/ ٣٦٦) ، مسلم- الصحيح (بشرح النووي ١٢/ ١٨٩) وممن شاركن أم عمارة، وحمنة بنت جحش، وأم سليط، وأم سليم، وأم المؤمنين عائشة.
(٧) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٣٥٨، مسلم- الصحيح ٢/ ٣٢١.
(٨) لم يصح قتال الملائكة في أحد ذلك أن الله تعالى قد علّق وعده بأن يمدّهم بالملائكة لنصرهم إذا ما تحققت ثلاثة أمور وردت في قوله تعالى: بَلى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (آل عمران- الآية/ ١٢٥) وحيث إن هذه الأمور لم تتحقق فإن الإمداد لم يحصل، وانظر: الطبري- التفسير ٧/ ١٣٧- ١٩٠.
(٩) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٣٦٥) .
(١٠) آل عمران، الآية/ ١٥٤.
(١١) الطبري- التفسير ٧/ ٣٢٣، ابن كثير- التفسير ١/ ٤١٨.

أما قريش فإنها يئست من تحقيق نصر حاسم، وأجهد رجالها من طول المعركة، ومن صمود المسلمين وجلدهم، وخاصة بعد أن اطمأنوا وأنزل الله عليهم الأمنة والصمود فالتفوا حول النبي صلّى الله عليه وسلّم ولذلك فقد كفّوا عن مطاردة المسلمين وعن محاولة اختراق قوتهم «١» . ولم يملك أبو سفيان إلّا أن يأمر بالانسحاب باتجاه مكة بعد أن توعد المسلمين بحرب أخرى في السنة القادمة فوافق النبي صلّى الله عليه وسلّم على ذلك «٢» .
وقد ثبت أن أبا سفيان خاطب المسلمين من بعد فقال: أفي القوم محمد؟» ، فقال صلّى الله عليه وسلّم: «لا تجيبوه» ، فقال:
«أفي القوم ابن أبي قحافة؟» ، فقال صلّى الله عليه وسلّم: «لا تجيبوه» ، فقال: «أفي القوم ابن الخطّاب؟» ، ثم قال: «إن هؤلاء قتلوا فلو كانوا أحياء لأجابوا» . فلم يملك عمر نفسه فقال: «كذبت يا عدو الله أبقى الله عليك ما يخزيك» . قال أبو سفيان: «أعل هبل» . فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم: «أجيبوه» . قالوا: «ما نقول؟» . قال: «قولوا: الله أعلى وأجلّ» . قال أبو سفيان: «لنا العزّى ولا عزّى لكم» . فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم: «أجيبوه» . قالوا: «ما نقول؟» . قال: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم» . قال أبو سفيان: «يوم بيوم والحرب سجال. وتجدون مثلة لم آمر بها ولم تسوئني» . قال عمر: «لا سواء قتلانا إلى الجنة وقتلاكم إلى النار» «٣» .
والواقع فأن السكوت عن استفسارات أبي سفيان وعدم إجابتها بأمر النبي صلّى الله عليه وسلّم إنما كانت تصغيرا لشأنه واحتقارا لكفره، فلما انتشى وملأ الكبر قلبه، بادر المسلمون إلى إخباره بحقيقة الأمر وردوا عليه بكل إيمان وشجاعة.
انسحبت قريش من أرض المعركة، وامتطت إبلها مكتفية بما حققت من نصر مكّنها من الانتقام، ودون أن تتطلع إلى نصر حاسم ضد المسلمين المعتصمين في شعاب أحد، بغية القضاء عليهم أو إلى غزو قاعدتهم المدينة «٤» .
وبعد أن غادرت قريش، أمر الرسول بدفن شهداء المسلمين وكانوا سبعين شهيدا «٥» ، ولم يؤسر أحد من المسلمين، في حين بلغ عدد قتلى قريش اثنين وعشرين رجلا «٦» .

جمع الرسول صلّى الله عليه وسلّم بين الرجلين من الشهداء في ثوب واحد، وقدم عند الدفن أحفظهم لكتاب الله، وأمر أن يدفنوا في دمائهم فلم يغسلوا ولم يصلّ عليهم وقال: «أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة» . ودفن الاثنان والثلاثة في قبر واحد، وأمر أن يدفنوا حيث صرعوا «٧» .
وقد جمع النبي صلّى الله عليه وسلّم أصحابه بعد دفن الشهداء وجعلهم صفّا وأثنى على ربه ودعاه أن يمنحهم نعيم الدنيا وحسن ثواب الآخرة وأن يقتل الكفرة المكذبين «٨» .

---

(١) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٢/ ٣٤٩) ، أحمد- المسند ٤/ ٢١١، ٦/ ١٨١.
(٢) ابن هشام- السيرة ٣/ ٤٩، الواقدي- المغازي ١/ ٢٩٧.
(٣) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٣٤٩) ، أحمد- المسند ٤/ ٢١١، ٦/ ١٨١ بإسناد حسن.
(٤) ابن هشام- السيرة النبوية ٣/ ١٣٦- ١٣٧، الواقدي- المغازي ١/ ٢٩٨، البيهقي- دلائل النبوة ٣/ ٢٨٢.
(٥) البخاري- الصحيح (فتح الباري- حديث ٤٠٤٣) ، ابن هشام- السيرة ٣/ ١٧٩، الواقدي- المغازي ١/ ٢٠٠.
(٦) ابن هشام- السيرة ٣/ ١٨٢، الواقدي- المغازي ١/ ٣٠٧، أما عند ابن سعد- (الطبقات ٢/ ٤٢) فإن عددهم ثلاثة وعشرون.
(٧) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٣/ ٢٠٩- حديث ٤٠٧٩) ، أبو داود- السنن ٢/ ١٧٤.
(٨) أحمد- المسند ٣/ ٤٢٤، الحاكم- المستدرك ٣/ ٢٣.

جـ ١(ص: ٣٠٧)

ولقد نزلت في موضوع غزوة أحد ومعركتها ثمان وخمسون آية من سورة آل عمران تبدأ بذكر المراحل الأولى للمعركة في قوله تعالى: وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقاعِدَ لِلْقِتالِ «١» .
ونزلت آيات القرآن تمسح جراحات المسلمين وآلامهم وتعطيهم جرعات كبيرة من التربية الإيمانية، وهي تسجل مشاهد متعددة من هذه الغزوة والدرس، منها قوله تعالى: وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ «٢» . ومنها: إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ «٣» .
ومنها قوله تعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ «٤» .
وقوله: وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ «٥» .
وقوله: وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ «٦» .
وقوله تعالى: وَما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ «٧» .
وقوله: وَما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتاباً مُؤَجَّلًا «٨» .
وقوله تعالى: إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَما تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ ما لا يَرْجُونَ «٩» .
وتقدم في النهاية تعليقا جامعا على نتائج المعركة والحكمة التي أرادها الله من جرّائها، في قوله تعالى: ما كانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلى ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَما كانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ «١٠» .
واجه المسلمون عند عودتهم إلى المدينة اليهود الشامتين، والمنافقين المرجفين، وكانوا يواجهون في أطرافها الأعراب المشركين الذين تطلعوا بشراهة إلى ثمار المدينة وخيراتها.
لقد كان التحرك السريع والدقيق من أجل استعادة مواقع المسلمين ومكانتهم ضروريّا للردّ على كل الأخطار والاحتمالات السلبية. ومن هذا المنطلق كان أمر النبي صلّى الله عليه وسلّم أصحابه أن يخرجوا- رغم كل ما أصابهم-

---

(١) القرآن الكريم- سورة آل عمران، الآية/ ١٢١.
(٢) القرآن الكريم- سورة آل عمران، الآية/ ١٣٩.
(٣) القرآن الكريم- سورة آل عمران، الآية/ ١٤٠.
(٤) القرآن الكريم- سورة آل عمران، الآية/ ١٤٢.
(٥) القرآن الكريم- سورة آل عمران، الآية/ ١٤٠.
(٦) القرآن الكريم- سورة آل عمران، الآية/ ١٤٣.
(٧) القرآن الكريم- سورة آل عمران، الآية/ ١٤٤.
(٨) القرآن الكريم- سورة آل عمران، الآية/ ١٤٥.
(٩) القرآن الكريم- سورة النساء، الآية/ ١٠٤.
(١٠) القرآن الكريم- سورة آل عمران، الآية/ ١٧٩.

لمطاردة جيش قريش إلى حمراء الأسد في غزوة اقتصرت على من شهد أحدا دون غيرهم «١» .

غزوة حمراء الأسد:

استجاب المسلمون الذين شاركوا في غزوة أحد فخرجوا في اليوم التالي، وهو الثامن من شوال سنة ٣ هـ، مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم إلى حمراء الأسد على ما بهم من خوف وإرهاق وقروح، وقالوا سمعا وطاعة وأذن النبي لجابر بن عبد الله بالمسير معه مع أنه لم يشهد أحدا، إذ كان أبوه قد خلّفه على بناته «٢» ، وتقدم المسلمون حتى بلغوا حمراء الأسد، وكان عددهم حينذاك ستمائة وثلاثين مقاتلا «٣» .

وأقبل معبد بن أبي معبد الخزاعي إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم فأسلم، فأمره النبي صلّى الله عليه وسلّم أن يلحق بأبي سفيان ويخذله، فلحقه بالروحاء- ولم يعلمه بإسلامه- فخذّله إذ أخبره بخروج النبي صلّى الله عليه وسلّم والمسلمين خلفهم إلى حمراء الأسد، ونصحه وقريش بالعودة إلى مكة على عجل «٤» .

ولقد أثنى الله تعالى على مبادرة أصحاب النبي بالخروج معه في هذه الغزوة فقال تعالى: الَّذِينَ اسْتَجابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ ما أَصابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ «٥» .

وأقدم أبو سفيان على محاولة تخذيل المسلمين عن ملاحقتهم فأرسل مع ركب من عبد القيس رسالة إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم ورد فيها: «إنّا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم» وحين سمع النبي صلّى الله عليه وسلّم ذلك قال:

حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ «٦» .

وأنزل الله تعالى في ذلك قوله: الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزادَهُمْ إِيماناً وَقالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ* فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ* إِنَّما ذلِكُمُ الشَّيْطانُ يُخَوِّفُ أَوْلِياءَهُ فَلا تَخافُوهُمْ وَخافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ «٧» .

أقام النبي صلّى الله عليه وسلّم في حمراء الأسد ثلاثة أيام «٨» ، وقد أسروا في طريق عودتهم كلا من معاوية بن المغيرة وأبا عزّة

---

(١) البخاري- الصحيح (الحديث ٤٠٧٧) ، مسلم- الصحيح (حديث ٢٤١٨) .
(٢) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٣٧٣) .
(٣) خرج معبد ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم بحمراء الأسد حتى لقي أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه ... فلما رأى أبو سفيان معبدا قال: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط يتحرقون عليكم تحرقا، قد اجتمع معه من كان تخلّف عنه في يومكم وندموا على ما صنعوا، فيهم من الحنق

عليكم شيء لم أر مثله قط. قال: ويحك! ما تقول؟ قال: والله ما أرى أن ترتحل حتى أرى نواصي الخيل ... (ابن هشام- السيرة ٣/ ١٠١) .
(٤) ابن هشام- السيرة ٢/ ١٠٢.
(٥) القرآن الكريم- سورة آل عمران، الآية/ ١٧٢، وانظر: البخاري- الصحيح (فتح الباري- حديث ٢٤١٨) ، مسلم- الصحيح ٤/ ١٨٨١ (حديث ٢٤١٨) .
(٦) القرآن الكريم- سورة آل عمران، الآية/ ١٧٣.
(٧) القرآن الكريم- سورة آل عمران، الآية/ ١٧٣- ١٧٥، وانظر: الطبري- تفسير ٧/ ٣٩٩- ٤١٥.
(٨) ابن هشام- السيرة ٣/ ١٠١.

الجمحي الشاعر الذي كان النبي صلّى الله عليه وسلّم قد منّ عليه فأطلقه من أسره ببدر دون فداء واشترط عليه بألّا يحارب المسلمين. وقد حاول الاعتذار غير أن النبي صلّى الله عليه وسلّم حسم الموقف فأمر الزبير بضرب عنقه «١» .
لقد حققت غزوة حمراء الأسد أهدافها المرجوّة فقد أظهرت قدرة المسلمين- وهم في أحلك الظروف- على التصدي لخصومهم. كما أنها بيّنت أنهم إذا كانوا قادرين على متابعة التحرك العسكري خارج المدينة بقسم من قواتهم فإنهم لا شك أقدر على مواجهة أعدائهم داخل المدينة من اليهود والمنافقين وبقايا المشركين. وحفلت كتب السيرة بالكثير من الشعر الصحيح والمنحول في تبيان وجهتي النظر المتصارعتين في معركة أحد ومن ذلك قول شاعر النبي صلّى الله عليه وسلّم حسّان بن ثابت الأنصاري في التعريض بزعماء قريش في هذه المناسبة «٢» :
سقتم كنانة جهلا من سفاهتكم ... إلى الرّسول فجند الله مخزيها
أوردتموها حياض الموت ضاحية ... فالنار موعدها والقتل لاقيها
جمّعتموها أحابيشا بلا حسب ... أئمّة الكفر غرّتكم طواغيها
ألا اعتبرتم بخيل الله إذ قتلت ... أهل القليب ومن ألقينه فيها
كم من أسير فككناه بلا ثمن ... وجزّ ناصية كنّا مواليها
وقال حسان في قصيدة أخرى يرد فيها على ابن الزبعري: «٣»
أشاقك من أمّ الوليد ربوع ... بلاقع ما من أهلهنّ جميع
عفاهنّ صيفيّ الرّياح وواكف ... من الدلو رجّاف السّحاب هموع
فلم يبق إلّا موقد النّار حوله ... رواكد أمثال الحمام كنوع
فدع ذكر دار بددت بين أهلها ... نوى لمتينات الحبال قطوع
وقل إن يكن يوم بأحد يعدّه ... سفيه فإنّ الحقّ سوف يشيع
فقد صابرت فيه بنو الأوس كلهم ... وكان لهم ذكر هناك رفيع

---
(١) البخاري- الصحيح (فتح الباري- حديث ٦١٣٣) ، ابن هشام- السيرة ٣/ ١٥٢ بلاغا عن ابن المسيّب.
(٢) ابن هشام- السيرة ٣/ ١٣٢.
(٣) المرجع السابق ٣/ ١٤٢- ١٤٣.

وحامى بنو النّجار فيه وصابروا ... وما كان منهم في اللّقاء جزوع
أمام رسول الله لا يخذلونه ... لهم ناصر من ربّهم وشفيع
وفوا إذ كفرتم باخسين بربّكم ... ولا يستوي عبد وفي ومضيع
يكفّ رسول الله حيث تنصّبت ... على القوم مما قد يثرن نقوع

أولئك قوم سادة من فروعكم ... وفي كلّ قوم سادة وفروع
فلا تذكروا قتلى وحمزة فيهم ... قتيل ثوى لله وهو مطيع
فإن جنان الخلد منزلة له ... وأمر الذي يقضي الأمور سريع
وقتلاكم في النار أفضل رزقهم ... حميم معا في جوفها وضريع
وقال عمرو بن العاص من قصيدة له طويلة «١» :
ينزو شرّها بالرّضف نزوا ... وتناولت شهباء تلحو الناس بالضرّاء لحوا
أيقنت أنّ الموت حقّ، والحياة تكون لغوا ... حمّلت أثوابي على عتد يبذّ الخيل رهوا
سلس إذا نكّبن في البيداء يعلو الطرف علوا ... وإذا تنزّل ماؤه من عطفه يزداد زهوا
شنح نساه ضابط للخيل إرخاء وعدوا

(١) ابن هشام- السيرة ٣/ ١٤٦- ١٤٧.
جـ ١(ص: ٣١١)

ففدى لهم أمّي غداة الرّوع إذ يمشون قطوا
سيرا إلى كبش الكتيبة إذ جلته الشمس جلوا
قال ابن إسحاق: فأجابه كعب بن مالك «١» :
أبلغ قريشا وخير القول أصدقه ... والصدق عند ذوي الألباب مقبول
إن قد قتلنا بقتلانا سراتكم ... أهل اللّواء ففيما يكثر القيل
ويوم بدر لقيناكم لنا مدد ... فيه مع النّصر ميكال وجبريل
إن تقتلونا فدين الحقّ فطرتنا ... والقتل في الحقّ عند الله تفضيل
وإن تروا أمرنا في رأيكم سفها ... فرأي من خالف الإسلام تضليل
إنّا بنو الحرب نمريها وننتجها ... وعندنا لذوي الأضغان تنكيل
وقال حسّان يذكر عدّة أصحاب اللواء يوم أحد:
منع النّوم بالعشاء الهموم ... وخيال إذا تغور النّجوم
من حبيب أضاف قلبك منه ... سقم فهو داخل مكتوم
يالقومي هل يقتل المرء مثلي ... واهن البطش والعظام سئوم
لو يدبّ الحوليّ من ولد الذ ... ر عليها لأندبتها الكلوم
شأنها العطر والفراش ويعلو ... ها لجين ولؤلؤ منظوم
لم تفتها شمس النهار بشيء ... غير أن الشباب ليس يدوم

(١) ابن هشام- السيرة ٣/ ١٤٧- ١٤٩.
جـ ١(ص: ٣١٢)

لا تسبّنّني فلست بسبّي ... إنّ سبّي من الرّجال الكريم
ما أبالي أنبّ بالحزن تيس ... أم لحاني بظهر غيب لئيم
ولي البأس منكم إذ رحلتم ... أسرة من بني قصي صميم
تسعة تحمل اللواء وطارت ... في رعاع من القنا مخزوم
وأقاموا حتّى أبيحوا جميعا ... في مقام وكلهم مذموم
بدم عاتك وكان حفاظا ... أن يقيموا إن الكريم كريم
وقريش تفرّ منا لواذا ... أن يقيموا وخفّ منها الحلوم
لم تطق حمله العواتق منهم ... إنما يحمل اللواء النّجوم «١»
وقال كعب بن مالك في يوم أحد:

سائل قريشا غداة السّفح من أحد ... ماذا لقينا وما لاقوا من الهرب
كنا الأسود وكانوا النّمر إذ زحفوا ... ما إن نراقب من آل ولا نسب
فكم تركنا بها من سيّد بطل ... حامي الذمار كريم الجدّ والحسب
فينا الرّسول شهاب ثم يتبعه ... نور مضيء له فضل على الشّهب
الحق منطقه والعدل سيرته ... فمن يجبه إليه ينج من تبب
نجد المقدّم، ماضي الهمّ معتزم ... حين القلوب علي رجف من الرّعب
يمضي ويذمرنا من غير معصية ... كأنه البدر لم يطبع على الكذب
بدا لنا فاتّبعناه نصدّقه ... وكذّبوه فكنّا أسعد العرب
جالوا وجلنا فما فاءوا وما رجعوا ... ونحن نثقفهم لم نأل في الطّلب
ليسا سواء وشتّى بين أمرهما ... حزب الإله وأهل الشّرك والنّصب

---

(١) ابن هشام- السيرة ٣/ ١٤٩- ١٥٠، قال ابن هشام عن هذه القصيدة بأنها أحسن ما قيل.
جـ ١(ص: ٣١٣)

سريّة أبي سلمة لتأديب بني أسد:
بلغت النبي صلّى الله عليه وسلّم أخبار الاستعدادات التي قام بها بنو أسد بن خزيمة بقيادة طليحة الأسدي من أجل غزو المدينة طمعا في خيراتها وانتصارا لشركهم، ومظاهرة لقريش في عدوانها على المسلمين. وقد سارع النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى تشكيل سريّة من مائة وخمسين رجلا من المهاجرين والأنصار، وأمّر عليهم أبا سلمة بن عبد الأسد، أرسلهم إلى ديار بني أسد، فباغتوهم على ماء لهم في ديارهم، غير أنّ بني أسد سرعان ما تفرقوا تاركين ماشيتهم وإبلهم غنيمة للمسلمين من هول المباغتة «١» .
سريّة عبد الله بن أنيس:
كان خالد بن سفيان بن نبيح الهذلي قد جمّع المقاتلة من هذيل وغيرها في عرفات، وكان يتهيأ لغزو المسلمين في المدينة مظاهرة لقريش، وتقربا إليها، ودفاعا عن عقائدهم الفاسدة، وطمعا في خيرات المدينة «٢» ، فأرسل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الصحابي عبد الله بن أنيس الجهني إليه بعد أن كلّفه بمهمة قتله، فقتله في وادي عرنة وهو يرتاد بماشيته هناك وكان عبد الله قد غادر المدينة في الخامس من محرم. على رأس خمسة وثلاثين شهرا من الهجرة، وعاد إليها بعد أن أنجز مهمته يوم السبت لسبع بقين من محرم. «٣» وقد هش في وجهه النبي صلّى الله عليه وسلّم حين عاد وقال له: «أفلح الوجه ... » ثم أدخله بيته، وأعطاه عصا ليتكيء عليها- آية بينه وبين الرسول صلّى الله عليه وسلّم يوم القيامة «٤» .
سريّة الرجيع:
اختلفت مرويات سريّة الرجيع فيما بينها كثيرا حول السبب الذي من أجله بعث بها النبي صلّى الله عليه وسلّم، وفي الوقت الذي يورد البخاري بأنه إنما بعث بالسريّة عينا لتجمع المعلومات عن العدو «٥» ، فإن مرويات أخرى بأسانيد صحيحة ورد فيها أنه قدم على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رهط من قبيلتي عضل والقارة المضريتين إلى المدينة وقالوا:
«إن فينا إسلاما فابعث معنا نفرا من أصحابك يفقهونا ويقرئونا القرآن ويعلمونا شرائع الإسلام» «٦»
.

---

(١) الواقدي- مغازي ١/ ٣٤٠، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٥٠ دون إسناد، ابن هشام- السيرة ٤/ ٣٤٤، ابن كثير- البداية والنهاية ٤/ ٧٠ وكان تاريخ هذه السرية في أول محرم من نهاية السنة الثالثة من الهجرة.
(٢) ابن سعد- الطبقات ٢/ ٥٠، ابن القيم- زاد المعاد ٢/ ١٢١.

(٣) ابن سعد- الطبقات ٢/ ٥٠، ابن هشام- السيرة ٤/ ٣٥٤- ٣٥٥ بإسناد منقطع وقد وصلها البيهقي في السنن- كتاب صلاة الخوف وإسنادها حسن، وفي دلائل النبوة (٤/ ٤٢- ٤٣) ، وانظر: أحمد- المسند ٣/ ٤٩٦، أبو داود- السنن ٢/ ٤١- ٤٢ كتاب الصلاة (حديث ٢٢٤٩) ابن حجر- فتح الباري- غزوة الرجيع، الواقدي- المغازي ٢/ ٥٣١.

(٤) فصّل الرواية ابن إسحاق في السيرة (ابن هشام ٤/ ٣٥٤- ٥) وقد وردت في عدد من المصادر كسنن البيهقي وأبي داود ودلائل البيهقي، وأحمد في المسند ٣/ ٤٩٦ وكذلك مغازي الواقدي وطبقات ابن سعد، انظر: الهامش السابق.

(٥) البخاري- الصحيح (فتح الباري- حديث ٤٠٨٦) ، رواه أحمد- المسند (الرباني ٢١/ ٦٠- ٦٢) بمثل سياق البخاري.

(٦) ابن إسحاق (ابن هشام- السيرة ٣/ ٢٤١- ٢٦٠) بإسناد موقوف على عاصم بن عمر بن قتادة، الواقدي- مغازي ١/ ٣٥٤- ٣٦٣، ابن سعد- طبقات ٢/ ٥٥- ٥٦ بإسناد صحيح، وفي مغازي عروة بن الزبير (ص ١٧٥) ورد سبب إرسال السرية وهو عين ما أورده البخاري في صحيحه.

والراجح أن قبيلة هذيل قد سعت للثأر من المسلمين لسفيان الهذلي فلجأت إلى الخديعة والغدر، وقد جزم الواقدي «١» بأن السبب هو أن بني لحيان وهم حي من هذيل، مشت إلى عضل والقارة وجعلت لهم جعلا ليخرجوا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ويطلبوا منه أن يخرج معهم من يدعوهم إلى الإسلام، ويفقههم في الدين، فيكمنوا لهم ويأسروهم ويصيبوا بهم ثمنا في مكة «٢» .

وهكذا بعث الرسول صلّى الله عليه وسلّم هذه السريّة التي تتألف من عشرة من الصحابة «٣» . وجعل عليهم عاصم بن ثابت ابن الأقلح أميرا، حتى إذا كانوا بين عسفان ومكة أغار عليهم بنو لحيان- وهم قريب من مائتي مقاتل- فألجئوهم إلى تل مرتفع بعد أن أحاطوا بهم من كل جانب، ثم أعطوهم الأمان من القتل، ولكن قائد السريّة أعلن رفضه أن ينزل في ذمة كافر، فقاتلوهم حتى قتلوا عاصما في سبعة من أفراد السريّة بالنبال، ثم أعطى الأعراب الأمان من جديد للثلاثة الباقين، فقبلوا غير أنهم سرعان ما غدروا بهم بعد ما تمكّنوا منهم وقد قاومهم عبد الله بن طارق فقتلوه، واقتادوا الاثنين إلى مكة- وهما خبيب وزيد بن الدثنّة فباعوهما لقريش «٤» وكان ذلك في صفر سنة ٤ هـ «٥» . فأما خبيب فقد اشتراه بنو الحارث بن عامر بن نوفل فقتلوه بالحارث الذي كان خبيب قتله في بدر. ولما أخرجوا خبيبا من الحرم ليقتلوه صلى ركعتين قبل أن يقتل فكان أول من سن ذلك ثم دعا ربه قائلا: «اللهم أحصهم عددا واقتلهم بددا ولا تبق منهم أحدا» ، ثم تمثّل بشعر قال فيه:

ولست أبالي حين أقتل مسلما ... على أي شقّ كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزّع «٦»

وأما ثانيهما- وهو زيد بن الدثنّة فقد اشتراه صفوان بن أميّة وقتله ثأرا لأبيه أميّة بن خلف الذي كان قد قتل ببدر. وقد سأله أبو سفيان قبل قتله: «أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمدا الآن عندنا مكانك نضرب عنقه وأنت في أهلك؟ فقال والله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإني جالس في أهلي» «٧» .

---

(١) الواقدي- مغازي ١/ ٣٥٤- ٣٥٥.

(٢) يمكن التوفيق بين رواية البخاري وما ورد في كتب السيرة والمغازي بأن يكون الرسول قد قرر إرسالهم عينا للمسلمين ووافق ذلك قدوم الرهط من عضل والقارة فكلف أعضاء السرية بذلك الواجب في طريقهم لإنفاذ مهمتهم مما يوفر لهم الغطاء والحماية. وانظر: عرجون- محمد رسول الله ٤/ ٤١.

(٣) في رواية البخاري- الصحيح ٥/ ٤٠- ٤١ (حديث ٤٠٨٦) ورد أنهم عشرة من الصحابة، وقال ابن إسحاق (ابن هشام- السيرة ٣/ ١٦٥- ١٦٧) أنهم ستة، في حين جعلهم موسى بن عقبة سبعة.

(٤) ابن هشام- السيرة ٣/ ١٦٥- ١٦٧، الواقدي- مغازي ١/ ٣٥٧.

(٥) ابن حزم- جوامع السيرة ص/ ١٧٦.
(٦) البخاري- الصحيح ٥/ ٤٠- ٤١، أحمد- المسند ٢/ ٣١٠، ابن هشام- السيرة ٣/ ١٦٥- ١٦٧، وقد أورد ابن حجر زيادة في القصيدة إذ جعلها ثمانية أبيات.
(٧) ابن هشام- السيرة ٣/ ٢٤٥، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٥٦ مرسلا عن ابن إسحاق.
جـ ١(ص: ٣١٥)

وقد عرفت هذه الحادثة المفجعة بالرجيع نسبة إلى ماء الرجيع الذي حصلت عنده.
وقد أنزل الله سبحانه في أفراد هذه السريّة قوله تعالى «١» : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ «٢» .
وكان المنافقون قد تظاهروا بالتوجع لقتلى سريّة الرجيع وقالوا ويحهم- لا هم أقاموا في أهلهم ولا هم أدّوا رسالة صاحبهم فأنزل الله تعالى فيهم قوله: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلى ما فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ «٣» .
سريّة بئر معونة:
لم تتوقف وفود الصحابة عن الخروج من المدينة لدعوة الأعراب إلى الإسلام إذ لا بد من تبليغ الدعوة الإسلامية مهما غلت التضحيات؛ ففي الشهر نفسه الذي أرسل فيه الرسول صلّى الله عليه وسلّم سريّة الرجيع، أرسل صلّى الله عليه وسلّم سريّة أخرى إلى بئر معونة «٤» ، وذلك أن أبا براء عامر بن مالك المعروف بملاعب الأسنّة قدم إلى المدينة، ودعاه النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى الإسلام، فلم يسلم ولم يبعد ووعد بإجارة وفد من الدعاة يرسلهم النبي صلّى الله عليه وسلّم لدعوة الأعراب من أهل نجد.
وقد ثبت في الصحيح أن الرسول صلّى الله عليه وسلّم أرسل إلى نجد سبعين من خيار الصحابة- رضي الله عنهم- ممن عرفوا بالقرّاء «٥» ، وقد أمّر عليهم المنذر بن عمرو الخزرجي «٦» . فلما وصلوا بئر معونة وحرّة بني سليم من أرض عامر بن الطفيل، بعثوا حرام بن ملحان بكتاب النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى ابن الطفيل الذي غدر بهم فأمر بقتل رسولهم إليه الذي طعن في ظهره برمح فصاح:
«الله أكبر فزت ورب الكعبة» وقد استنفر ابن الطفيل قومه من بني عامر إلى قتل السريّة فامتنعوا لأجل الجوار الذي سبق من أبي براء، فاستنفر عدو الله بني سليم فأجابته عشائر عصيّة ورعل وذكوان، وخاضوا مع المسلمين معركة ضارية استشهد فيها القرّاء جميعا عدا عمرو بن أميّة الضمري الذي كان قد تأخر عن إخوانه «٧» . وقد عاد عمرو بن أميّة بالخبر الأليم إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالمدينة وقد فتك وهو في طريقه إلى المدينة

---

(١) ابن كثير- البداية ٤/ ٧٦، وإسناده منقطع ابن هشام في السيرة ٣/ ٢٤٨.
(٢) القرآن الكريم- سورة البقرة، الآية/ ٢٠٧.
(٣) القرآن الكريم- سورة البقرة، الآية/ ٢٠٤.
(٤) ابن إسحاق- ابن هشام- السيرة ٣/ ١٧٤، الواقدي- المغازي ١/ ٣٤٦، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٥١.
(٥) البخاري- الصحيح ٥/ ٤١- ٤٤ (حديث ٤٠٩٠) ، وجعلهم ابن إسحاق أربعين صحابيّا.
(٦) خليفة بن خياط- تاريخ ٢/ ١٧٤، الطبري- تاريخ ٢/ ٣٠- ١، وانظر: ابن هشام- السيرة ٣/ ١٧٤. وفي الوقت الذي يذكر البخاري سببا آخر لإرسالهم وهو أن الرسول صلّى الله عليه وسلّم قد أرسلهم مددا لبطون من بني سليم (الفتح- الحديث ٤٠٩٠) ، ابن سعد- الطبقات ٣/ ٥٣ بإسناد صحيح، فإن مسلم يذكر في صحيحه (٣/ ١٥١١- حديث ٦٧٧) بأن سبب إرسالهم إنما هو للدعوة وتعليم الأعراب القرآن والسنّة بناء على طلبهم.
(٧) أشارت الروايات العديدة إلى أن كعب بن زيد بن النجار ترك في أرض المعركة وبه جراحات كثيرة وبه رمق فعاش وشفي وعاش حتى استشهد في غزوة الخندق. البخاري- الصحيح (الأحاديث ٤٠٨٨-

٤٠٩٦) ، مسلم- الصحيح ٣/ ١٥١١ (حديث ٦٧٧) ، أحمد- المسند: الفتح الرباني ١٢/ ٦٣- ٦٥، الهيثمي- مجمع الزوائد ٦/ ١٢٦، ابن سعد- ٢/ ٥١- ٥٤، ابن هشام- السيرة ٣/ ٢٦٠- ٢٦٧.
جـ ١(ص: ٣١٦)

برجلين من بني كلاب وهو يرى أنه قد أصاب ثأر أصحابه، ولكن تبين أن معهما عهدا من النبي صلّى الله عليه وسلّم وهو لم يعلم به مما دفع الرسول صلّى الله عليه وسلّم إلى الالتزام بدفع ديتهما. وقد تألّم الرسول صلّى الله عليه وسلّم والمسلمون كثيرا لفاجعتي بئر معونة والرجيع، وأخذ عليه السلام يقنت في صلاة الفجر ثلاثين يوما وهو يدعو على من قتل أصحابه «١» في هاتين السريّتين من رجال عشائر رعل وذكوان ولحيان وعصيّة «٢» .

غزوة بني النضير

قدمت المصادر الحديثة والتاريخية معلومات متنوعة عن تاريخ هذه الغزوة وأسبابها ففي حين روى الزهري أنها وقعت في سنة ٢ هـ «٣» ، ووردت رواية ثانية مرسلة عن عروة بن الزبير أنها كانت على رأس ستة أشهر من معركة بدر الكبرى «٤» ، في حين وردت رواية أخرى عن عروة أنها كانت في محرم من السنة الثالثة للهجرة «٥» .
وهذا موافق لما ورد عن طريق موسى بن عقبة «٦» ، في حين ذكر محمد بن إسحاق أنها كانت سنة ٤ هـ، وهذا يتفق مع ما أورده الواقدي وابن سعد «٧» ، ومع ما ذكره هشام كذلك «٨» . وقطع ابن القيم بوهم الزهري ولم يشك في أنها وقعت بعد معركة أحد كما ذهب أغلب من كتب في السيرة والمغازي «٩» . ورغم توثيق ابن حجر لمرويات الزهري، فإنه يرى بضرورة الأخذ بقول ابن إسحق في هذه المناسبة لأن بئر معونة كانت بعد معركة أحد بالاتفاق «١٠» .
أما عن سبب الغزوة فتؤكد المصادر على المحاولتين اللتين قام بهما يهود بني النضير لقتل النبي صلّى الله عليه وسلّم، أولاهما بعد معركة بدر الكبرى بمواطأة ودعم من قريش لاستدراج النبي صلّى الله عليه وسلّم وقتله غيلة بالخناجر من قبل ثلاثة من أحبارهم «١١» .
أما الثانية ففي أعقاب مأساة سريّة الرجيع، وإقدام عمرو بن أميّة الضمري على قتل رجلين معاهدين خطأ، فقد استعان النبي صلّى الله عليه وسلّم بيهود من أجل جمع الدية، وقد همّ اليهود بقتله غيلة بإلقاء حجر عليه وهو جالس إلى جدار لهم،

---

(١) كان القراء السبعون أهل سرية الرجيع من خيار المسلمين تواترت الروايات على أنهم كانوا يحتطبون بالنهار ويبيعون حطبهم ويتصدقون به على أهل الصفة ويصلون بالليل ويتدارسون القرآن، انظر: البخاري- الصحيح ٥/ ٤١- ٤٤، ابن حجر- فتح الباري ٧/ ٣٨٦- ٣٨٨.
(٢) انظر البخاري- الصحيح (حديث ٤٠٩٣) حول كرامة ظهرت لعامر بن فهيرة، مسلم ٣/ ١٥١١ (حديث ٦٧٧) .
(٣) الصنعاني- المصنف ٥/ ٣٥٧، أبو داود- السنن ٢/ ١٣٩- ١٤٠، الحاكم- المستدرك ٢/ ٣٨٤.
(٤) الصنعاني- المصنف ٥/ ٣٥٧.
(٥) البيهقي- دلائل النبوة ٣/ ٤٤٦- ٤٥٠، أبو نعيم- دلائل النبوة ٣/ ١٧٦- ١٧٧.
(٦) انظر الهامش السابق.
(٧) الواقدي- المغازي ١/ ٣٦٣، ابن سعد- الطبقات ٣/ ٥٧، وهما بدون إسناد وورد فيهما أنها كانت في شهر ربيع الأول على رأس سبعة وثلاثين شهرا من الهجرة.
(٨) ابن هشام- السيرة ٣/ ٦٨٣ وذكر أنها وقعت في ربيع الأول وقد تابع جل كتاب السيرة ما أورده ابن إسحاق في تحديده لتاريخ الغزوة.

(٩) ابن القيم- زاد المعاد ٢/ ١١٠.
(١٠) ابن حجر- فتح الباري ٦/ ٣٨٨- ٣٨٩.
(١١) الصنعاني- المصنف ٥/ ٣٥٩- ٦٠، ابن حجر- فتح الباري ٧/ ٣٣١، أبو داود- السنن ٢/ ١٣٩- ١٤٠، الحاكم- المستدرك ٢/ ٤٨٣.

فأعلمه الوحي بذلك فانصرف عنهم بسرعة راجعا إلى المدينة حيث أمر بحصارهم «١» . وقد انفرد موسى ابن عقبة بالقول بأن بني النضير كانوا «قد دسّوا إلى قريش وحضّوهم على قتال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ودلّوهم على العورة» وذلك عندما نزلوا بأحد لقتال الرسول صلّى الله عليه وسلّم والمسلمين «٢» . وعند تدقيق الأخبار فإن بالإمكان التعرف على مدى حقد يهود بني النضير على الرسول صلّى الله عليه وسلّم والمسلمين، فقد تواطئوا مع أبي سفيان وفرسانه حين كمنوا عندهم في غزوة السويق قبل الاعتداء على أطراف المدينة، وكان كعب بن الأشرف قد أعلن مجاهرته بعداوة المسلمين فهجاهم وحرّض قريشا عليهم وشبب بنسائهم، إلى جانب محاولتهم قتل النبي صلّى الله عليه وسلّم غيلة في المناسبتين المذكورتين آنفا، وذلك ما يكمن وراء قرار النبي صلّى الله عليه وسلّم الحكيم والحازم بضرورة طردهم من منطقة المدينة حيث إنه وضع بذاك حدّا لممارستهم الإجرامية المتكررة.
إنذار بني النضير بالجلاء وحصارهم:
سجلت معظم كتب السيرة النبوية خبر إنذار النبي صلّى الله عليه وسلّم لبني النضير بالجلاء خلال عشرة أيام دون أسانيد «٣» ، كما سجلت موقف المنافقين وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول وتحريضهم لليهود على التمرد وعدم الجلاء ووعدهم بالنصر بروايات ضعيفة لا تصلح للاحتجاج بها «٤» ، ولكن يكفي لثبوته ما ورد في سورة الحشر «٥» التي ثبت أنها نزلت في بني النضير «٦» .
أما عن الحصار فقد صح أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قد حاصرهم وطالبهم بأن يعاهدوه كشرط لتأمينهم فقال صلّى الله عليه وسلّم لهم: «إنكم لا تأمنون عندي إلّا بعهد تعاهدوني عليه، فأبوا أن يعطوه عهدا، فقاتلهم يومهم ذلك هو والمسلمون، ثم غدا الغد على بني قريظة بالخيل والكتائب، وترك بني النضير، ودعاهم إلى أن يعاهدوه، فعاهدوه، فانصرف عنهم وغدا إلى بني النضير بالكتائب فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء وعلى أن لهم ما أقلّت الإبل إلّا الحلقة- السلاح- فجاءت بنو النضير واحتملوا ما أقلّت الإبل من أمتعتهم، وأبواب بيوتهم، فكانوا يخربون بيوتهم فيهدمونها، فيحملون ما وافقهم من خشبها» «٧» .
وفي ذلك يقول عزّ وجلّ: هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ دِيارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ما ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ

---

(١) ابن إسحاق- السيرة ٣/ ١٩١.
(٢) البيهقي- دلائل النبوة ٣/ ١٨٠.
(٣) الواقدي- مغازي ١/ ٣٦٣- ٣٧٠، ابن هشام- السيرة ٣/ ٦٨٢، ابن سعد- الطبقات ٣/ ٥٧- ٥٨، البيهقي- دلائل النبوة ٣/ ٤٦٦- ٤٤٨، الطبري- تاريخ ٣/ ٣٣٤- ٣٣٥، ابن سيد الناس- عيون الأثر ٣/ ٤٨، ابن كثير- البداية والنهاية ٣/ ٤٥.
(٤) ابن سيد الناس- عيون الأثر ٢/ ٤٩.
(٥) القرآن الكريم- سورة الحشر، الآيات/ ١١- ١٢.
(٦) الطبري- التفسير ٢٨/ ٤٦، ابن هشام- السيرة ٣/ ٢٧٢- ٣، وانظر فتح الباري ٧/ ٣٣١، وفي آية الحشر ونزولها في بني النضير انظر: البخاري- الصحيح الحديث (٤٠٢٨) ، عبد الرزاق الصنعاني- المصنف ٥/ ٣٥٨- ٦١، أبو داود- السنن ٣/ ٤٠٤- ٧، البيهقي- دلائل ٣/ ٤٤٦- ٨.
(٧) الصنعاني- المصنف ٥/ ٣٥٨- ٦١.

يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الْأَبْصارِ «١» .
وقد ثبت بنص القرآن الكريم «٢» والحديث النبوي الشريف «٣» أن النبي صلّى الله عليه وسلّم أمر بتحريق وقطع بعض نخل بني النضير خلال الحصار، قال تعالى: ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوها قائِمَةً عَلى أُصُولِها فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ «٤» .
وقد خرج يهود بني النضير إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام «٥» ، وقد أسلم منهم اثنان ولذلك فإنهما أحرزا أموالهما «٦» . أما باقي أموالهم وبساتينهم فكانت نفلا للرسول صلّى الله عليه وسلّم «٧» ، كان ينفق على أهله منها نفقة سنة، ويجعل الفاضل عدّة في سبيل الله «٨» . أما أرضهم فقد قسمها بين المهاجرين خاصّة، وأعطى اثنين من الأنصار لفقرهما «٩» .
لم يتوقف حقد يهود بني النضير وكيدهم للإسلام بإجلائهم وتخليص المدينة وما حولها من شرورهم، فقد ثبت أنهم ساهموا في التحريض على تجميع الأحزاب في مواجهة الإسلام والكيد له فكانت غزوة الخندق «١٠» .
غزوة بدر الموعد:
تنفيذا للموعد الذي كان أبو سفيان قد اقترحه في أعقاب معركة أحد، والتزام الرسول صلّى الله عليه وسلّم بذلك، فقد خرج النبي صلّى الله عليه وسلّم من المدينة على رأس جيش من أصحابه قوامه ألف وخمسمائة مقاتل بينهم عشرة من الخيّالة وذلك في ذي القعدة سنة ٤ هـ، وحمل لواء الجيش علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- فوصلوا بدرا فأقاموا فيها ثمانية أيام بانتظار وصول قوات المشركين من قريش بقيادة أبي سفيان بحسب الموعد بين الطرفين، غير أن أحدا من المشركين لم يصل إلى بدر، وكان أبو سفيان قد جمّع قوات قريش وحلفائها التي تألفت من ألفي مقاتل معهم خمسون فرسا، فلما وصلوا إلى مر الظهران، نزلوا على مياه مجنّة على بعد أربعين ميلا من مكة، ثم عاد بهم أبو سفيان إلى مكة بحجة أن

---

(١) القرآن الكريم- سورة الحشر، الآية ٢.
(٢) القرآن الكريم- سورة الحشر، الآية/ ٥.
(٣) البخاري- الصحيح ٣/ ١١، ١٤٣، أبو داود- السنن ٣/ ٣٦، الترمذي- السنن (تحفة الأحوذي ٥/ ١٥٧- ١٥٨) ، ابن ماجه- السنن ٣/ ٩٤٨- ٩٤٩.
(٤) سورة الحشر- الآية/ ٥.
(٥) عبد الرزاق الصنعاني- المصنف ٥/ ٣٥٨- ٣٦١ بإسناد صحيح، ابن هشام- السيرة ٣/ ٢٦٩، برواية ابن إسحاق معلّقا.
(٦) وهما يامين بن عمر بن كعب، وأبو سعد بن وهب، انظر: ابن هشام- السيرة ٣/ ٢٧٠.
(٧) كما ورد بنص القرآن في قوله تعالى: وَما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكابٍ ... الآية، ونزول سورة الحشر في بني النضير، وانظر: البخاري- الصحيح (الأحاديث ٤٨٨٢- ٤٨٨٣) ، مسلم- الصحيح ٣/ ١٣٨٨- ١٣٩٠ (الأحاديث ١٧٦٨- ١٧٦٩) .
(٨) البخاري- الصحيح (حديث ٤٨٨٥) .
(٩) وهما سهل بن حنيف وأبو دجانة، انظر: الصنعاني ٥/ ٣٥٨- ٦١، أبو داود ٣/ ٤٠٣- ٤٠٤ (حديث ٣٠٠٤) ولم يصرح باسميهما، وابن إسحاق بإسناد منقطع، ابن هشام- السيرة ٣/ ٢٧٠.
(١٠) يرد ذكر مقتل سلام بن أبي الحقيق في غزوة خيبر لأنه حرّض الأحزاب. وقد أورد ابن هشام في السيرة أسماء اليهود الذين ساهموا في ذلك التحريض، بإسناد منقطع، وانظر: الصنعاني- المصنف ٥/ ٣٦٨- ٣٧٣، ابن سعد- الطبقات ٣/ ٦٥- ٦٦.

ذلك العام كان عام جدب. وكان لإخلاف قريش موعدهم مع الرسول والمسلمين صدى واسع بين القبائل العربية، وأثر كبير في الارتفاع بمكانة المسلمين واستعادتهم لهيبتهم التي كانت قد انتكست بعد معركة أحد «١» .

سريّة أبي عبيدة إلى نجد:

واصل الرسول صلّى الله عليه وسلّم إرسال سراياه إلى أنحاء مختلفة من نجد والحجاز، ومن ذلك إرساله سريّة أبي عبيدة عامر ابن الجراح إلى قبيلتي طيء وبني أسد في نجد فنذروا به، فرجع أبو عبيدة ولم يلق كيدا «٢» .

سرايا المسلمين الأخرى بعد بدر الموعد:

بعث النبي صلّى الله عليه وسلّم عمر بن الخطاب على رأس سريّة إلى قبيلة القارة، فتهاربوا واعتصموا بالجبال فعاد بأصحابه ولم يلق كيدا «٣» .

وبعث بلال بن مالك المزني على رأس سريّة من المسلمين إلى بني مالك بن كنانة، فنذروا به فلم يصب من دارهم إلّا فرسا واحدا «٤» .

وبعث بشير بن سويد الجهني إلى بني الحارث بن عبد مناف بن كنانة، فاعتصموا في غيضة، فأحرقهم، فلامه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم «٥» .

غزوة النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى بني لحيان:

كان النبي صلّى الله عليه وسلّم قد وجه السرايا المذكورة آنفا، وهو غاز إلى بني لحيان، ثم أتى عسفان من وجهه ذلك، وبعث بعدد من السرايا تحت قيادة بعض كبار الصحابة فقد بعث عمر بن الخطاب إلى تربة وبعث محمد بن مسلمة إلى القرطاء من بني كلاب، بشير بن سعد الخزرجي إلى فدك، وغالب بن عبد الله الليثي إلى بني مرة في فدك؛ وغالب بن عبد الله الكلبي إلى بني الملوّح بالكديد وفي السنة التالية وهي سنة ٦ هـ بعث بشير بن سعد إلى خيبر، وكعب بن عمير الغفاري إلى ذات أطلاح، وعبد الرحمن بن عوف إلى كلب، وعلى بن أبي طالب إلى فدك، وعثمان بن عفان إلى الهدى، وعبد الله بن رواحة إلى خيبر، دعما لعلي بن أبي طالب الذي فتح الله عليه فدك «٦» .

غزوة دومة الجندل:

لم ترد أخبار غزوة دومة الجندل في الصحيحين، بل في كتب المغازي والسير التي اتفقت على أنها كانت في

---

(١) ابن هشام- السيرة ٣/ ٢٩٢، الواقدي- مغازي ١/ ٣٨٤، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٥٩، ابن القيم- زاد المعاد ٢/ ١٢٠، ابن كثير- البداية والنهاية ٤/ ٨٧.

(٢) خليفة بن خياط- تاريخ ٧٧/ ٧٨.

(٣) خليفة بن خياط- تاريخ ص/ ٧٧.

(٤) المرجع السابق ص/ ٧٨.

(٥) المرجع السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٦) المرجع السابق نفسه، والصفحة نفسها، ابن هشام- السيرة ٣/ ٣٨٧، الواقدي- المغازي ٢/ ٥٣٥، ابن سعد- الطبقات ٧٨/ ٢- ٧، ٩.

ربيع الأول على رأس تسعة وأربعين شهرا من الهجرة النبوية «١» . ويرجع الواقدي سببها إلى أنه قد بلغ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن بدومة الجندل جمعا كثيرا من الناس وأنهم يظلمون من مرّ بهم من تجار الميرة والمتاع المتنقلين بين المدن- وكان بدومة الجندل سوق عظيم وتجارة رائجة، وأنه قد ضوى إليهم قوم من العرب كثير، وأنهم يريدون التوجه إلى المدينة طمعا في أموالها «٢» ، فندب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الناس وخرج في ألف من المسلمين، ومعهم دليل من بني عذرة، وقبل وصولهم دومة الجندل هجموا علي ماشيتهم ورعائهم، فأصابوا قسما منها، وهرب من هرب، فبلغ

الخبر دومة الجندل، فتهاربوا إذ لم يجد المسلمون أحدا فيها عند وصولهم، فأقام النبي صلّى الله عليه وسلّم بالمسلمين فيها أياما، وبعث بالسرايا من هناك إلى مختلف الأنحاء وكانت ترجع بالإبل فقط، إلّا سريّة محمد بن مسلمة الذي أسر رجلا منهم وعرض عليه الإسلام فأسلم. وعاد الرسول صلّى الله عليه وسلّم بالمسلمين إلى المدينة «٣» .

غزوة المريسيع (بني المصطلق) :

ساهم بنو المصطلق- وهم من خزاعة الأزدية اليمانية «٤» مع قوات المشركين التي قادتها قريش ضد المسلمين في معركة أحد «٥» . وقد تجرّأ بنو المصطلق فيمن تجرّأ من الأعراب على المسلمين، فأخذ زعيمهم الحارث بن أبي ضرار في جمع السلاح والرجال وتأليب القبائل المجاورة للقيام بهجوم على المدينة «٦» . وحين علم الرسول صلّى الله عليه وسلّم بذلك، أرسل عينا جاءه بتأكيد نيّتهم في ذلك «٧» .

وفي يوم الاثنين الثاني من شعبان سنة ٥ هـ خرج النبي صلّى الله عليه وسلّم من المدينة «٨» ، في سبعمائة مقاتل وثلاثين فرسا، وتوجه نحو بني المصطلق «٩» . وحيث إنهم كانوا ممن بلغتهم دعوة الإسلام، وكانوا قد شاركوا في غزوة أحد ضمن جيش المشركين ضد المسلمين، كما أنهم كانوا يجمعون الجموع ويستعدون لحرب المسلمين، فإن النبي صلّى الله عليه وسلّم قد أغار

---

(١) ابن هشام- السيرة ٣/ ٢٩٧- ٢٩٨، الواقدي- المغازي ١/ ٤٠٢، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٦٢.

(٢) الواقدي- المغازي ١/ ٤٠٢- ٤٠٤، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٦٢- ٦٣، وقد أضاف الواقدي سببا آخر وهو أن الرسول صلّى الله عليه وسلّم أراد أن يقترب بتحركاته العسكرية من حدود الشام لكي يفزع الروم (المغازي ١/ ٤٠٣) ، وانظر ابن هشام- السيرة ٣/ ٢٩٧- ٢٩٨.

(٣) الواقدي- المغازي ١/ ٤٠٢- ٤٠٤، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٦٢- ٦٣ معلقا.

(٤) خليفة بن خياط- الطبقات ص ٧٦، ١٠٧، ابن هشام- السيرة ١/ ١٣٦ وكانوا يسكنون قديدا وعسفان بين مكة والمدينة (الحربي- المناسك ٤٥٨- ٤٦٠) ، القلقشندي- قلائد الجمان ص ٩٣، النويري- نهاية الأرب ٢/ ٣٣٢.

(٥) ابن هشام- السيرة ٢/ ٦١، الواقدي- مغازي ١/ ٢٠٠.

(٦) ابن سعد- الطبقات ٢/ ٦٣ بإسناد جمعي.

(٧) المرجع السابق نفسه، والصفحة نفسها، وانظر: البيهقي- السنن ٩/ ٥٤، ودلائل النبوة ٤/ ٤٤، الواقدي- ١/ ٤٠٤، ابن كثير- البداية ٣/ ٢٤٢، ٤/ ١٥٦. وكذلك ابن هشام- السيرة ٣/ ٤٠١.

(٨) ابن كثير- البداية ٣/ ٢٤٢، ٤/ ١٥٦ وهذا هو الراجح حكاه موسى بن عقبة عن الزهري وعن عروة، وتابعه أبو معشر والواقدي وابن سعد انظر ابن حجر فتح الباري ٧/ ٤٣٠، مغازي ١/ ٤٠٤، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٦٣، البيهقي- السنن ٩/ ٥٤، ابن القيم- زاد المعاد ٣/ ١٢٥، الذهبي- تاريخ الإسلام ٢/ ٢٧٥.

(٩) الذهبي- تاريخ الإسلام (المغازي) ١/ ٢٣٠، الواقدي- مغازي ١/ ٤٠٤.

عليهم وهم غارّون، وكانت أنعامهم تسقى على الماء، فقتل مقاتلتهم، وسبى ذراريهم وغنم أموالهم «١» . ولم تتفق الروايات في عدد القتلى ومقدار السبي والأموال سوى ما ذكره ابن إسحاق من عتق «مائة أهل بيت من بني المصطلق» «٢» ، في حين يذكر الواقدي بأنه قد قتل عشرة من بني المصطلق وأسر سائرهم «فما أفلت منهم إنسان» «٣» .

وعاد النبي صلّى الله عليه وسلّم من هذه الغزوة إلى المدينة هلال رمضان، بعد أن غاب عنها ثمانية وعشرين يوما «٤» .

وفي هذه الغزوة كشف المنافقون عن مدى حقدهم على الإسلام والمسلمين، فقد ازدادوا غيظا بالنصر الذي تحقق على بني المصطلق، وسعوا في بادىء الأمر إلى إثارة العصبية القبلية بين المهاجرين

والأنصار «٥» . فلما فشلت المحاولة، عمل عبد الله بن أبي بن سلول على عرقلة جهود الرسول صلّى الله عليه وسلّم في الدعوة، وعلى منع الأموال من أن تدفع لأجل ذلك بغية أن ينفض الناس من حول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وتوعد بإخراجه ذليلا من المدينة عند العودة إلى المدينة «٦» .
وحين استدعى النبي صلّى الله عليه وسلّم عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه المنافقين حين علم بما قالوا، واستفسر منهم عن الأمر، فإنهم أنكروا ذلك وحلفوا بأنهم ما قالوا شيئا، ثم أنزل الله تعالى سورة المنافقين وفيها تكذيب لهم «٧» ، وفضح لأيمانهم الكاذبة «٨» وتأكيد وتصديق لما نقله الصحابي زيد بن أرقم، وذلك في قوله تعالى: هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ* يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ «٩» .
ولقد ضعف مركز عبد الله بن أبي بن سلول في قومه بعد هذه الحادثة، فقد أصبحوا يعنفونه ويلومونه كلما أخطأ، واحتقره المسلمون، وفقد مكانته «١٠» ، حتى إن ابنه عبد الله استأذن النبي صلّى الله عليه وسلّم في قتله، فنهاه الرسول صلّى الله عليه وسلّم عن ذلك وأمره بأن يبره ويحسن صحبته «١١» . وقد أقدم مع شدة برّه بأبيه وهيبته له، على منعه من دخول المدينة

---

(١) البخاري- الصحيح ٣/ ١٢٩، مسلم- الصحيح ٥/ ١٣٩.
(٢) ابن إسحاق- السيرة ١/ ٣٣٦٢٤٥، ابن هشام- السيرة ٢/ ٢٩٣- ٤، ٦٤٥.
(٣) الواقدي- المغازي ١/ ١٤٠، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٦٤ ويذكر الواقدي أن الغنائم كانت ألفي بعير وخمسة آلاف شاة، وأن السبي كان مائتي أهل بيت. وأورد الزرقاني رواية له أن السبي أكثر من سبعمائة (شرح المواهب اللدنية ٣/ ٢٤٥) .
(٤) الواقدي- مغازي ١/ ٤٠٤.
(٥) البخاري- الصحيح ٤/ ١٤٦، ٦/ ١٢٨، مسلم- الصحيح ٨/ ١٩.
(٦) سمع ذلك الصحابي زيد بن أرقم فنقله إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم إما عن طريق عمه سعد بن عبادة، أو عمر بن الخطاب، انظر في ذلك: الإمام أحمد- المسند ٣/ ٣٩٢- ٣٩٣ بإسناد صحيح، فتح الباري ٨/ ٦٤٩، الترمذي- السنن ٥/ ٩٠.
(٧) القرآن الكريم- سورة المنافقون، الآية/ ١.
(٨) القرآن الكريم- سورة المنافقون، الآية/ ٢.
(٩) القرآن الكريم- سورة المنافقون، الآية/ ٧- ٨.
(١٠) ابن هشام- السيرة ٢/ ٢٩٠- ٢٩٣ ويؤيد ذلك أحد المراسيل الجيدة لعروة بن الزبير (فتح الباري ٨/ ٦٤٩) وأصله في الصحيحين البخاري- الفتح ٦/ ١٢٧، مسلم- الصحيح ٨/ ١١٩.
(١١) الهيثمي- مجمع الزوائد ٩/ ٣١٨.

حتى يأذن له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بدخولها «١» .
استغل المنافقون بعد ذلك حادثة حصلت لأم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- في طريق العودة من غزوة بني المصطلق فقد نزلت من هودجها لبعض شأنها، فلما عادت افتقدت عقدا لها فرجعت تبحث عنه، وحمل الرجال الهودج ووضعوه على البعير وهم يحسبون أنها فيه، وحين عادت افتقدت الركب فمكثت مكانها تنتظر أن يعودوا إليها بعد أن يكتشفوا غيابها، وصادف أن مرّ بها أحد أفاضل أصحاب النبي صلّى الله عليه وسلّم وهو صفوان بن المعطل السلمي، فحملها على بعيره وأوصلها إلى المدينة بعد وصول الرسول صلّى الله عليه وسلّم، فاستغل المنافقون هذا الحادث ونسجوا حوله الإشاعات الباطلة وتولى ذلك عبد الله بن أبي بن سلول، وأغرى بالكلام ثلاثة من المسلمين هم مسطح بن أثاثة، وحسّان بن ثابت، وحمنة بنت جحش، فاتّهمت أم المؤمنين عائشة بالإفك. وقد أوذي النبي صلّى الله عليه وسلّم بما كان يسمع من دعايات المنافقين، وصرّح بذلك للمسلمين في المسجد حيث أعلن ثقته

التامة بزوجته وبالصحابي ابن المعطل السلمي، وحين أبدى سعد بن معاذ استعداده لقتل من تسبب في ذلك إن كان من الأوس، أظهر سعد بن عبادة معارضته بسبب كون عبد الله بن أبي بن سلول من قبيلة الخزرج، ولولا تدخل النبي صلّى الله عليه وسلّم وتهدئته الصحابة من الفريقين لوقعت الفتنة بين الأوس والخزرج «٢» .
ومرضت عائشة بتأثير تلك الإشاعات الكاذبة، فاستأذنت النبي صلّى الله عليه وسلّم في الانتقال إلى بيت أبيها، وانقطع الوحي شهرا عانى الرسول صلّى الله عليه وسلّم خلاله كثيرا، حيث طعنه المنافقون في عرضه وآذوه في زوجته، ثم نزل الوحي موضحا: إِنَّ الَّذِينَ جاؤُ بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذابٌ عَظِيمٌ «٣» .
وتوالت الآيات بعد ذلك تكشف مواقف الناس من هذه الفرية، وتعلن بجلاء ووضوح براءة أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- التي أكرمها الله سبحانه فمنحها الجائزة والتعويض المناسب لمحنتها وصبرها وحسن توكلها عليه سبحانه، إذ نزل في براءتها آيات من القرآن يتعبّد بها المسلمون أبد الدهر، كما علّم المؤمنين آداب التعامل مع هذه المسائل الحسّاسة، وآداب التعامل مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم قبل ذلك «٤» .
لقد كادت حادثة الإفك أن تحقق للمنافقين ما كانوا يسعون إلى تحقيقه من هدم وحدة المسلمين وزعزعة عقيدتهم في النبي صلّى الله عليه وسلّم، وإشعال نار الفتنة بين المسلمين، ولكن الله سلّم فقد تمكّن الرسول القائد صلّى الله عليه وسلّم من قيادة الأمة بكفاءة وهو في تلك الظروف الحالكة لتجتاز الامتحان الصعب، ويصل بها بأمان إلى شاطىء السلامة.

---

(١) ابن هشام- السيرة ٢/ ٢٩٣، الترمذي- السنن ٥/ ٩٠.
(٢) الهيثمي- مجمع الزوائد ٩/ ٢٣٠، السيوطي- الدر ٥/ ٢٧.
(٣) القرآن الكريم- سورة النور، الآية ١١، وانظر: البخاري- الصحيح ٩/ ٨٩، مسلم- الصحيح ٨/ ١١٢- ١١٨، الطبري- التفسير ١٨/ ٨٩.
(٤) انظر: سورة النور، الآيات ١٢، ١٦، ٢٢، وانظر: البخاري- الصحيح (فتح الباري- حديث ٧٣٧٠) ، مسلم- الصحيح ٤/ ٢١٢٩ (حديث ٢٧٧٠) .

ومن نتائج هذه الغزوة، زواج النبي صلّى الله عليه وسلّم من جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار بعد أن كانت قد كاتبت في عتق نفسها ممن وقعت في سهمه، وقد ذكرت للنبي صلّى الله عليه وسلّم مكانها في قومها فقضى عنها كتابها وتزوجها «١» . وقد أطلق الصحابة بسبب هذا الزواج سائر السبي وقالوا: «أصهار رسول الله صلّى الله عليه وسلّم» ، فأعتق مائة أهل بيت «فما كانت امرأة أعظم بركة على قومها منها» «٢» . وقد أسلم أبوها وقومه «٣» . وكان لزواج النبي صلّى الله عليه وسلّم من جويرية وإطلاق الأسرى أكبر الأثر في تجميع قلوبهم على الهدى ومشاركتهم الجادّة في الجهاد للذود عن الإسلام «٤» .

غزوة الخندق الأحزاب

كانت تحركات المسلمين المتواصلة في مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية، وتحديهم المستمر لقريش، وتهديدهم لطرق تجارتها، وكذلك إجلاء الرسول صلّى الله عليه وسلّم بني قينقاع وبني النضير عن المدينة، قد هيأت الظروف لتحالف المشركين مع يهود بني قريظة بهدف اجتثاث المسلمين من قاعدتهم المدينة. ولقد عمد بنو قريظة إلى التظاهر باحترام الحلف المبرم بينهم وبين المسلمين متسترين على مشاعرهم الحاقدة ورغبتهم العارمة في الانتقام.

جرت غزوة الأحزاب للمدينة في شوال سنة خمس من الهجرة «٥» . وليس هناك ما يدعو للبحث عن أسبابها فهي حلقة من سلسلة صراع متواصلة، ويمكن ملاحظة أنها جاءت على أثر فشل قريش في محاولتها تأمين طرق تجارتها مع بلاد الشام إذ أنه على الرغم من خسائر المسلمين الكبيرة في معركة أحد، فإنها لم تكن حاسمة ولم تؤمّن الطريق التجاري بين مكة والشام «٦» . كما أن ازدياد وعنف النشاط الإسلامي في الغزوات والسرايا العديدة التي جرت بعد معركة أحد، عمل على إنهاء الأثر السلبي لهذه المعركة سواء في المدينة أو في البوادي «٧» . ولذلك فإن قريشا عادت من جديد إلى التفكير بإعداد حملة عسكرية ضخمة تأمل أن تحسم بها الأمور، وتقضي نهائيّا على الوجود

---

(١) ابن هشام- السيرة ٢/ ٢٩٤، ٦٤٥ بإسناد حسن.
(٢) أبو داود- السنن ٢/ ٣٤٧، وقد ذكر خليفة بن خياط خبرا مرسلا عن قدوم والدها الحارث إلى المدينة وتخيير الرسول لها واختيارها البقاء مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم (تاريخ ص ٨٠) .
(٣) أحمد- المسند ٤/ ٢٧٩.
(٤) الهيثمي- مجمع الزوائد ٧/ ١٠٨، الطبري- تفسير ٢٦/ ١٢٤، وانظر: ابن هشام- السيرة ٢/ ٢٩٦.
(٥) وهذا قول الجمهور ومنهم ابن إسحاق والواقدي ومن تابعهم (ابن كثير- البداية ٤/ ٩٣، الواقدي- مغازي ٢/ ٤٤٠) ، ونقل عن الزهري ومالك بن أنس وموسى بن عقبة أنها جرت سنة أربع (البخاري- الصحيح ٥/ ٤٤) حيث أنه نقل رواية موسى بن عقبة، وانظر ابن كثير- البداية ٤/ ٩٣، ويمكن التوفيق بين القولين إذا ما لا حظنا بداية تاريخ كل فئة إذ اعتاد البعض احتساب سنوات الهجرة من المحرم وإلغاء ما سبق ذلك من أشهر إلى ربيع الأول.
(٦) ابن هشام- السيرة ٣/ ٢١٤ بإسناد صحيح إلى عروة.
(٧) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٣٩٣) .

الإسلامي، وبالتالي على الأخطار التي تهدد مصالحها «١» . غير أن زعماء قريش كانوا يدركون أن قوة المسلمين قد تنامت كثيرا، وأن قوتهم الذاتية لم تعد وحدها قادرة على تحقيق الهدف المنشود، ولذلك فإنهم سعوا إلى عقد محالفات عديدة من أجل تجميع القوى الحاقدة والقادرة على تحقيق ما يأملون. وقد واتتهم الفرصة حينما اتصل بهم زعماء يهود بني النضير الموتورين من مقر إقامتهم الجديد في خيبر، داعين قريشا إلى حرب المسلمين. وقد وفد منهم إلى مكة سلام بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب من زعماء بني النضير، فتعاقدوا مع قريش على المشاركة في قتال المسلمين، بعد أن شهدوا أنّ الشرك خير من الإسلام وقد نزلت في حقهم الآية الكريمة: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هؤُلاءِ أَهْدى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا «٢» ، ثم خرجوا من مكة إلى نجد فحالفوا غطفان على حرب المسلمين، بعد أن وعدوهم بنصف تمر خيبر «٣» . أما قريش فقد نجحت في تجميع حلفائها من بني سليم وكنانة وأهل تهامة والأحابيش «٤» .
تحركت قوات «الأحزاب» نحو المدينة، فنزلت قريش وأحلافها «بمجمع الأسيال» ، بين الجرف وزغابة، ونزلت غطفان ومعها بنو أسد «بذنب نقمي» إلى جانب أحد «٥» . وقد بدأ الرسول صلّى الله عليه وسلّم باستشارة أصحابه فيما ينبغي عمله لمواجهة الخطر الداهم، فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر الخندق شمال المدينة بين حرتي «واقم والوبرة» ، والاعتماد في الجهات الأخرى من المدينة على حصانتها وعلى ما يحيط بها من الحرّات التي يصعب اختراقها «٦» . ولم يعترض أحد على الاقتراح الذي كان يهيء حاجزا يمنع الالتحام المباشر مع قوات الأحزاب، كما يمنعها من اقتحام المدينة «٧» ، وفي الوقت نفسه يوفر للمسلمين فرصة جيّدة للدفاع، ولتكبيد الغزاة الكثير من الخسائر البشرية، وذلك بالتصدي لهم عند محاولة اقتحام الخندق، وبرشقهم بالسهام من وراء التحصينات.

تولى المسلمون مهمة حفر الخندق، ورغم طوله الذي بلغ خمسة آلاف ذراع، بعرض تسعة أذرع وعمق سبعة إلى عشرة أذرع، وبرودة الجو، وقلة التموين التي تسببت في مجاعة أصابت المدينة «٨» ، فقد تم إنجاز الحفر بسرعة مذهلة، لم تتجاوز ستة أيام، وكان لمشاركة الرسول صلّى الله عليه وسلّم الفعلية في مراحل العمل المختلفة أثر كبير في الروح

---

(١) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٣٩٣) من رواية موسى بن عقبة دون إسناد.
(٢) القرآن الكريم- سورة النساء، الآية/ ٥١، واورد الطبري آراء العلماء في سبب نزول الآية، وخلص إلى القول بأن أولى الأقوال بالصحة قول من قال بأن ذلك خبر من الله جل ثناؤه عن جماعة من أهل الكتاب من يهود. وجائز أنهم الذين سماهم ابن عباس، أو أن يكون حييّا وآخر معه إما كعبا وإما غيره (تفسير الطبري ٨/ ٤٦٩- ٤٧١) ، وذكر آخرون أنه كعب بن الأشرف وقد سبقت الإشارة إليه آنفا.
(٣) الواقدي- مغازي ٢/ ٤٤٣، ابن كثير- التفسير ١/ ٥١٣.
(٤) البيهقي- دلائل النبوة ٣/ ٣٩٩، ابن حجر- فتح الباري ٧/ ٣٩٣، ابن هشام- السيرة ٢/ ٢١٩- ٢٢٠.
(٥) وذكر السيوطي أسماء القبائل النجدية التي شاركت في هذا التجمع وهم غطفان وبنو سليم وبنو أسد وفزارة وأشجع وبنو مرة. انظر: الخصائص الكبرى ١/ ٥٦٥.
(٦) ابن حجر- فتح الباري ٧/ ٣٩٣، وانظر: الواقدي- مغازي ٢/ ٤٤٥ بدون إسناد، ابن هشام- السيرة ٢/ ٢٢٤.
(٧) ابن سعد- الطبقات ٢/ ٦٦- ٦٧.
(٨) ابن سعد- الطبقات ٢/ ٦٦- ٦٧، الهيثمي- مجمع الزوائد ٦/ ١٣٠، الطبري- تفسير ٢١/ ٣٣، ابن حجر- فتح الباري ٧/ ٣٩٧.

الإيمانية العالية التي سيطرت على المسلمين في موقع العمل مما مكّنهم من إنجاز متطلبات خطة الدفاع، والاستعداد قبل وصول طلائع قوات الأحزاب «١» . وكان المسلمون يرددون الأهازيج والرجز ويردد معهم النبي القائد صلّى الله عليه وسلّم مشاركة لهم وتواضعا، وروى البخاري قوله صلّى الله عليه وسلّم معهم:

«اللهمّ لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدّقنا ولا صلّينا
فأنزلن سكينة علينا ... وثبّت الأقدام إن لا قينا
إنّ الألى قد بغوا علينا ... وإن أرادوا فتنة أبينا»

وكان عليه الصلاة السلام يمد صوته الكريم بآخرها «٢» ، أما المسلمون فكانوا يرتجزون:

نحن الذين بايعوا محمدا ... على الإسلام ما بقينا أبدا «٣»

وكان النبي صلّى الله عليه وسلّم يجيبهم بقوله:

«اللهمّ إنّه لا خير إلّا خير الآخره، ... فبارك في الأنصار والمهاجره» «٤» .

وحصلت خلال مرحلة حفر الخندق ثلاث معجزات حسّية للنبي صلّى الله عليه وسلّم وهي تكثير الطعام الذي أعدّه الصحابي جابر بن عبد الله للرسول صلّى الله عليه وسلّم بعد أن باركه صلّى الله عليه وسلّم، فقد أكل منه ألف صحابي حتى شبعوا مع النبي صلّى الله عليه وسلّم وتركوا الكثير «٥» . ومن معجزاته إخباره لعمار بن ياسر وهو يعمل معهم بأمر غيبي يتعلّق بقتله- رضي الله عنه- «٦» . وقيامه صلّى الله عليه وسلّم بتفتيت صخرة عظيمة عجز الصحابة عن كسرها، فقد ضربها ثلاث ضربات وفتتها ومع كل ضربة كان صلّى الله عليه وسلّم يعلن عن تسلّمه لمفاتيح أقاليم كل من الشام، وفارس، واليمن، وهي بشارة تنبىء عن اتساع الفتوحات الإسلامية والإخبار عنها في وقت كان المسلمون فيه محصورين في المدينة، يواجهون المشاق والخوف والجوع والبرد القارص «٧» .

وكان جواب المؤمنين كما حكى القرآن الكريم قولهم: وَلَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَما زادَهُمْ إِلَّا إِيماناً وَتَسْلِيماً «٨» .

---

(١) البخاري- الصحيح ٥/ ٤٥- ٤٧، فتح الباري ٧/ ٣٩٥، وانظر: مسلم- الصحيح ٣/ ١٤٣٠.
(٢) البخاري- الصحيح ٥/ ٤٧، فتح الباري ٧/ ٣٩٩.
(٣) المرجع السابق (فتح الباري ٧/ ٣٩٢- ٣٩٣) .
(٤) المرجع السابق- الصحيح ٥/ ٤٥، وفيه الجهاد بدل الإسلام. انظر الهامش السابق، (فتح ٧/ ٣٩٣) .
(٥) البخاري- الصحيح ٥/ ٤٦، مسلم- الصحيح ٣/ ١٦١٠.
(٦) وكان قتله- رضي الله عنه- في صفين انظر: مسلم- الصحيح ٤/ ٢٢٣٥.
(٧) أحمد- المسند ٤/ ٣٠٣، الهيثمي- مجمع الزوائد ٦/ ١٣١، ابن حجر- فتح ٧/ ٣٩٧، الطبراني- المعجم الكبير ١١/ ٣٧٦.
(٨) القرآن الكريم- سورة الأحزاب، الآية/ ٢٢.

جـ ١(ص: ٣٢٦)

أما المنافقون فإنهم سخروا من هذه البشارة، وهذا الموقف منهم يتسم بالجبن والإرجاف وتخذيل المؤمنين.

وقد صوّر القرآن الكريم موقف المنافقين بشكل دقيق، قال تعالى: وَإِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً «١» . وقوله تعالى: أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً «٢» . وقوله تعالى: يَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ فِي الْأَعْرابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ وَلَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا «٣» .

وبالرغم من كل تخذيل المنافقين وإرجافهم، وظروف المجاعة، وشدّة البرد، فقد مضى المسلمون في تنفيذ مهامهم واستعداداتهم، وإكمال خطة الدفاع عن المدينة. وحين انتهى حفر الخندق، وضع الرسول صلّى الله عليه وسلّم النساء والأطفال في حصن فارع، وهو لبني حارثة، وكان أقوى حصون المسلمين «٤» . ثم رتّب صلّى الله عليه وسلّم المسلمين للدفاع، فأسند ظهر الجيش إلى جبل سلع داخل المدينة، ووجوههم إلى الخندق الفاصل بينهم وبين المشركين الذين نزلوا «رومه» بين الجرف والغابة ونقمى «٥» . وكان تفوق عدد قوات المشركين كبيرا، فقد بلغ عددهم عشرة آلاف مقاتل في مقابل ثلاثة آلاف من المسلمين «٦» . وإزاء ذلك رأى النبي صلّى الله عليه وسلّم أن يصالح قبيلة غطفان في مقابل أن يعطيهم ثلث ثمار المدينة لتلك السنة، غير أن زعيمي الأوس والخزرج سألا النبي صلّى الله عليه وسلّم: أهو وحي من السماء فالتسليم لأمر الله، أو عن رأيك وهواك؟ فرأينا تبع لرأيك وهواك. فإن كنت إنما تريد الإبقاء علينا، فو الله لقد رأيتنا وإياهم على سواء ما ينالون منا ثمرة إلّا شراء أو قرى» فقطع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المفاوضة مع زعماء قبيلة غطفان «٧» .

واشتد تأزم الوضع على المسلمين حين بلغهم أن حلفاءهم يهود بني قريظة قد نقضوا العهد وغدروا بهم وكانوا يسكنون العوالي في جنوب شرق المدينة مما يمكنهم من طعن المسلمين من الخلف. وقد أرسل النبي صلّى الله عليه وسلّم الزبير ابن العوام للاستطلاع في أول الأمر، ثم أرسل سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فوجداهما قد نقضوا العهد ومزقوا الصحيفة، إلّا بني سعفة منهم، فإنهم خرجوا إلى المسلمين من حصونهم معلنين التزامهم ووفاءهم بالعهد «٨» . وبعد

---

(١) القرآن الكريم- سورة الأحزاب، الآية/ ١٢.
(٢) القرآن الكريم- سورة الأحزاب، الآية/ ١٩.

(٣) القرآن الكريم- سورة الأحزاب، الآية/ ٢٠.
(٤) مسلم- الصحيح ٤/ ١٨٧٩، الهيثمي- مجمع الزوائد ٦/ ١٣٣، الطبري- تاريخ ٢/ ٥٧٠- ٥٧١.
(٥) الطبري- تفسير ٢١/ ١٢٩- ١٣٠.
(٦) ابن هشام- السيرة ٢/ ٢١٥، ٢٢٠، الطبري- تفسير ٢١/ ١٣٠، ابن حجر- فتح الباري ٧/ ٣٩٣، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٦٦، ابن الجوزي- الوفا ص ٢٩٢.
(٧) الهيثمي- مجمع الزوائد ٦/ ١٣٢، ابن هشام- السيرة ٣/ ٣١٠- ٣١١، وانظر: ابن سعد- الطبقات ٢/ ٧٣.
(٨) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٨٠) .

جـ ١(ص: ٣٢٧)

أن أعلن نقض اليهود للعهد، وشاع الخبر بين المسلمين خافوا على ذراريهم من اليهود «١» .
ووصف القرآن الكريم حالة المسلمين بقوله تعالى: إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا* هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزالًا شَدِيداً «٢» .
والآية تشير إلى قوات الأحزاب وبني قريظة، كما تعكس حال المنافقين الذين ظنوا بالله الظنون، أما المؤمنون فقد أصابهم البلاء وزلزوا زلزالا شديدا غير أن الإيمان العميق والتربية النبوية، جعلتهم يصمدون أمام سائر تلك الأخطار. فبادروا إلى تسيير دوريات لحراسة المدينة تطوف فيها على الدوام وتظهر التكبير لإشعار بني قريظة بوجودهم واستعدادهم ويقظتهم «٣» .
أما الأحزاب فقد فوجئوا بالخندق واحتاروا في كيفية اجتيازه، وكانوا كلما همّوا باقتحامه واجهوا سيلا من سهام المسلمين، واشتد الحصار وتواصل طيلة أربع وعشرين ليلة «٤» ، وكانت هجمات المشركين متواصلة حتى إن الرسول صلّى الله عليه وسلّم والمسلمين أخّروا صلاة العصر في أحد الأيام إلى ما بعد المغرب «٥» بسبب ذلك. ورغم طول وشدة الحصار فقد كانت خسائر الطرفين محدودة فقد استشهد ثمانية من المسلمين «٦» . وقتل أربعة من المشركين «٧» .
وحيث إن أهداف المشاركين في قوات الأحزاب من المشركين لم تكن واحدة، فقد نجم عن طول فترة الحصار حصول ضعف حاد في معنويات المشاركين في الحرب. وقد وردت في كتب السير والمغازي مرويات لا تثبت من الناحية الحديثية عن دور نعيم بن مسعود الغطفاني في تخذيل الأحزاب وشق صفوفهم، وإلقاء الشكوك بينهم، وخداعه لهم وهي على كل حال، لا تتنافي- إن تأكد حصولها- مع قواعد السياسة الشرعية ذلك أن الحرب خدعة «٨» .
وقد ثبت أن الله تعالى قد نصر المسلمين بالريح والملائكة «٩» ، وذلك ما نص عليه الكتاب العزيز في قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَكانَ اللَّهُ

---

(١) ابن كثير- البداية ٤/ ١٠٣.
(٢) القرآن الكريم- الأحزاب، الآيات/ ١٠- ١١.
(٣) ذكر ابن سعد- الطبقات ٢/ ٦٧ أن الصحابي مسلمة بن أسلم الأوسي كان يقود مائتي رجل، وزيد بن حارثة كان يقود ثلاثمائة رجل كانوا يدورون بالمدينة ويحرسونها.
(٤) ابن سعد- الطبقات ٢/ ٧٣، الطبري- تفسير ٢١/ ١٢٨، ابن حجر- فتح الباري ٧/ ٣٩٣.
(٥) ابن حجر- فتح الباري ٢/ ٦٨، ٥/ ٩٢.
(٦) من رواية ابن إسحاق (ابن هشام- السيرة ٣/ ٢٥٣) معلّقا، الواقدي- المغازي ٢/ ٤٩٥- ٤٩٦، وقد ذكرا الأسماء والانتماء والعدد، وانظر: ابن سعد- الطبقات ٢/ ٧٠.
(٧) ابن هشام- السيرة ٢/ ٢٢٤، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٦٨، وانظر: الطبري- تاريخ ٣/ ٤٨.
(٨) ابن هشام- السيرة ٢/ ٢٢٩- ٢٣٠، الواقدي- المغازي ٢/ ٤٨١- ٢، ابن كثير- البداية ٤/ ١١٣.

(٩) ابن سعد- الطبقات ٢/ ٧١، البيهقي- دلائل النبوة ٣/ ٤٠٦.
جـ ١(ص: ٣٢٨)

بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً «١» .
واشتدت الرياح الباردة العاصفة العاتية، فاقتلعت خيام المشركين، وأطفأت نيرانهم، وقلبت قدورهم، ودفنت رحالهم، وكان لذلك مع طول فترة الحصار وعدم جدوى الانتظار عوامل أسهمت في انهيار معنويات الأحزاب «٢» . وحين انتدب الرسول صلّى الله عليه وسلّم حذيفة بن اليمان ليأتيه بخبر الأحزاب، فإنه عاد وأخبره بتفرق الناس عن أبي سفيان، وأنه لم يبق معه إلّا عصبة قليلة «٣» .
وكان النبي صلّى الله عليه وسلّم يديم الدعاء خلال الحصار فيقول: «اللهمّ منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب، اللهمّ اهزمهم وزلزلهم» «٤» .
واستجاب الله سبحانه لدعاء نبيه فأعزّ جنده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، وتنفس المسلمون الصعداء: وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ وَكانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً «٥» .
لقد بذلت قريش ومن حالفها أقصى طاقاتهم من أجل القضاء على الدعوة الإسلامية واستئصال شأفة المسلمين، ولكن الله تعالى ردهم خائبين. وقد ترتّب على ذلك الفشل آثار خطيرة تمثلت في تغير ميزان القوى لصالح المسلمين، وذلك ما عبّر عنه الرسول صلّى الله عليه وسلّم بقوله: «الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم» «٦» . وذلك يعكس التغير الجذري في سياسة الدولة الإسلامية من اتباع سياسة الدفاع عن المدينة، إلى مرحلة الهجوم والتهديد، وذلك يشير بوضوح إلى أن مناطق الصراع قد انتقلت في أعقاب هذه الغزوة إلى مناطق أخرى مثل مكة وما حولها، وتبوك، وغيرهما بعيدا عن المدينة المنورة عاصمة الدولة الإسلامية.

غزوة بني قريظة

كان نقض بني قريظة لوثيقة العهد التي أبرموها مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم عند حصار قوات الأحزاب للمدينة في غزوة الخندق وإصرارهم على خيانة الله ورسوله صلّى الله عليه وسلّم والمسلمين، وتعريضهم أمن وسلامة المسلمين ودولتهم للخطر، السبب في هذه الغزوة، فقد أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلّى الله عليه وسلّم بقتالهم بعد انسحاب الأحزاب وانتهاء الحصار والخطر وعودته بالمسلمين من الخندق ووضعهم السلاح «٧» . وقد وقعت الغزوة في أول ذي الحجة سنة ٥ هـ «٨» . حيث أمر النبي صلّى الله عليه وسلّم أصحابه بالتوجه إلى ديار بني قريظة ومحاصرتهم، وبأن الله سبحانه وتعالى قد أرسل جبريل- عليه السلام-

---

(١) القرآن الكريم- سورة الأحزاب، الآية/ ٩.
(٢) مسلم- الصحيح ٣/ ١٤١٤- ١٤١٥ (حديث ١٧٨٨) .
(٣) المرجع السابق ٣/ ١٤١٥، ابن هشام- السيرة ٢/ ٢٣٠، الحاكم- المستدرك ٣/ ٣١، الهيثمي- كشف الأستار ٢/ ٣٣٥، مجمع الزوائد ٦/ ١٣٦.
(٤) مسلم- الصحيح ٣/ ١٣٦٣ (حديث ١٧٤٢) .
(٥) القرآن الكريم- سورة الأحزاب، الآية/ ٢٥.
(٦) البخاري- الصحيح ٥/ ٤٨ (الأحاديث ٤١٠٩، ٤١١٠) وشرحه ابن حجر، ورواه ابن إسحاق بلاغا، ابن هشام- السيرة ٣/ ٣٥٢.
(٧) البخاري- الصحيح ٣/ ٣٠٦، مسلم- الصحيح ٧/ ١٣٨.

(٨) ابن سعد- الطبقات ٣/ ٧٤، ابن هشام- السيرة ٣/ ٧١٥، الطبري- تاريخ ٣/ ٥٩٣، ابن سيد الناس- عيون الأثر ٣/ ٦٨.

ليزلزل حصونهم ويلقي في قلوبهم الرعب «١» ، وطلب إليهم: «ألّا يصلّينّ أحد العصر إلّا في بني قريظة» «٢» . كما خرج النبي صلّى الله عليه وسلّم بنفسه إلى بني قريظة واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم «٣» ، وبعث عليّا على المقدمة برايته «٤» .
وكان عدد جيش المسلمين ثلاثة آلاف رجل معهم ستة وثلاثون فرسا «٥» . واختلفت المصادر في تحديد مدة حصار بني قريظة، وأقوى الأدلة تبين أنه كان خمسا وعشرين ليلة «٦» .
أراد بنو قريظة، بعد أن اشتد عليهم الحصار، أن يستسلموا وينزلوا على حكم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فاستشاروا الصحابي أبا لبابة بن عبد المنذر، وكان حليفا لهم، فأشار عليهم بأن ذلك يعني ذبحهم «٧» . ونزل يهود بني قريظة على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس أملا في أن يرأف بهم بسبب الحلف القديم بينهم وبين الأوس. وقد قضى سعد فيهم أن «تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم، وتقسّم أموالهم» ، فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم: «قضيت بحكم الله» «٨» .
وقد نفذ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حكم الله فيهم، وكانوا أربعمائة مقاتل «٩» . ولم يقتل من نسائهم إلّا امرأة واحدة كانت قد قتلت أحد الصحابة حين ألقت عليه رحى من أعلى الحصن، أما الغلمان الذين لم يبلغوا الحلم فقد أطلق سراحهم «١٠» . ثم شرع النبي صلّى الله عليه وسلّم بعد ذلك في تقسيم أموالهم وذراريهم بين المسلمين «١١» . وإلى ذلك يشير القرآن الكريم في قوله تعالى:
وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيارَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَؤُها وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً «١٢» .
الغزوات والسرايا والبعوث بعد غزوة بني قريظة حتى الحديبية:
بعد ما حقق المسلمون ما حققوه من نجاح في صد الأحزاب وإفشال خططهم، وردهم كيد يهود بني قريظة في نحورهم، فباشروا نشاطا واسع النطاق ضد خصومهم على كافة الجبهات، فقد ضيّقوا الخناق الاقتصادي على قريش من جديد كما نفذوا العديد من السرايا لمعاقبة المشاركين في الأحزاب من جهة أو للثأر من

---

(١) البخاري- الصحيح (فتح الباري- ٣/ ١٣٤- ١٤٤) .
(٢) المرجع السابق ٣/ ٣٤، ووردت في رواية مسلم (الصحيح ٥/ ١٦٣) الظهر بدلا من العصر وقد جمع العلماء بين الروايتين (ابن حجر- فتح الباري ٧/ ٤٠٨- ٤٠٩) .
(٣) ابن هشام- السيرة ٣/ ٧١٦- ٧١٧.
(٤) المرجع السابق ٣/ ٧١٧، ابن حجر- فتح ٧/ ٤١٣.
(٥) ابن سعد- الطبقات ٣/ ٧٤، ابن سيد الناس- عيون الأثر ٣/ ٦٨ دون إسناد.
(٦) ابن حزم- جوامع السيرة ص/ ١٩٣، الطبري- تاريخ ٢/ ٥٨٣.
(٧) وقد ندم أبو لبابة على ذلك وربط نفسه إلى إحدى سواري المسجد النبوي حتى قبلت توبته (أحمد- الفتح الرباني ٢١/ ٨١- ٨٣) .
(٨) البخاري- الصحيح (فتح الباري- ٢/ ١٢٠، ٣/ ٢٤- ٢٥) ، مسلم- الصحيح ٥/ ١٦٠- ١٦١.
(٩) أحمد- المسند ٣/ ٣٥٠، وفصل ابن حجر (فتح ٧/ ٤١٤) في اختلاف المرويات بشأن عددهم والتي تراوحت بين ٤٠٠- ٩٠٠ وقد نجا ثلاثة منهم اعتنقوا الإسلام، كما نجا بنو سعفه منهم بسبب التزامهم بالعهد في غزوة الخندق.
(١٠) ابن سعد- الطبقات ٢/ ٧٦- ٧، ابن هشام- السيرة ٣/ ٧٢٤.
(١١) البخاري- الصحيح ٣/ ١١، مسلم- الصحيح ٥/ ١٥٩.
(١٢) سورة الأحزاب، الآية/ ٢٧.

القبائل التي كانت قد غدرت بالدعاة أو ناصبت الإسلام العداء وقد تمثّل النشاط العسكري الإسلامي خلال هذه الفترة في ما يلي:

سريّة ابن عتيك لقتل ابن أبي الحقيق:

وكان سلام بن أبي الحقيق ممن ألّب الأحزاب ضد المسلمين، وكان يؤذي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ويعين عليه «١» .

وقد رغبت الخزرج في قتله مساواة للأوس في قتلهم لابن الأشرف، وحين استأذنوا الرسول صلّى الله عليه وسلّم في ذلك أذن لهم ونهاهم أن يقتلوا وليدا أو امرأة «٢» . وخرج إليه خمسة من الخزرج أمّر الرسول صلّى الله عليه وسلّم عليهم عبد الله بن عتيك الذي تمكّن بمفرده من دخول الحصن، ومن قتله دون أن يؤذي أحدا من ولده أو نسائه، وحينما عادوا ورآهم النبي صلّى الله عليه وسلّم قال: «أفلحت الوجوه» «٣» . وقد خرجت هذه السريّة في أعقاب غزوة بني قريظة «٤» .

سريّة محمد بن مسلمة إلى بني القرطاء:

أرسل النبي صلّى الله عليه وسلّم سريّة من ثلاثين من أصحابه عليهم محمد بن مسلمة لشن الغارة على بني القرطاء من قبيلة بكر بن كلاب، وذلك في العاشر من محرم سنة ٦ هـ «٥» ، وقد داهموهم على حين غرّة فقتلوا منهم عشرة، وفر الباقون وغنم المسلمون إبلهم وماشيتهم «٦» . وفي طريق عودتهم أسروا ثمامة بن أثال الحنفي سيد بني حنيفة وهم لا يعرفونه فقدموا به المدينة، وربطوه بسارية من سواري المسجد. وقد اطّلع عليه النبي صلّى الله عليه وسلّم وكلمه، ثم أمر بإطلاق سراحه في اليوم التالي. وقد تأثر بالجو العام السائد بين المسلمين وأخلاقهم الفاضلة، ومعاملتهم الكريمة، لذلك فإنه بادر إلى إعلان إسلامه، وذكر للرسول صلّى الله عليه وسلّم: «أن وجهه أصبح أحب الوجوه إليه، وأن دينه أصبح أحب الدين كله إليه، وأن بلده أصبحت أحب البلاد كلها إليه» ، واستأذن في أداء العمرة، فأذن له الرسول صلّى الله عليه وسلّم بعد أن بشّره.

وفي مكة عيّره أحد معارفه من قريش بأنه صبأ، فكان جوابه: «لا ولكني أسلمت، وأقسم ألا يأتيهم من اليمامة حبة واحدة حتى يأذن فيها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم» «٧» . وورد في الصحيحين «٨» أنه قد أبر بقسمه مما دفع وجوه مكة إلى أن يكتبوا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة ليخلي لهم حمل الطعام «٩» .

---

(١) البخاري- الصحيح (فتح الباري- حديث ٤٠٣٩) .

(٢) ابن هشام- السيرة، من رواية ابن إسحاق بإسناد مرسل موقوف على عبد الله بن كعب (٣/ ٣٨٠) .

(٣) البخاري- الصحيح (فتح الباري- حديث ٤٠٣٩) .

(٤) الواقدي- المغازي ١/ ٣٩١- ٣٩٥، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٩٢، البيهقي- السنن ٩/ ٨٠، الصنعاني- المصنّف ٥/ ٤١.

(٥) الواقدي- المغازي ٢/ ٥٣٤، ابن كثير- البداية ٤/ ١٦٨، الذهبي- تاريخ الإسلام (المغازي) ص ٣٥١.

(٦) البخاري- الصحيح (فتح الباري- حديث ٤٣٧٢) ، مسلم- الصحيح ٣/ ١٣٨٦ (حديث ١٧٦٤) ، أحمد- الفتح الرباني ٢١/ ٨٨- ٩٠، أبو داود- السنن (كتاب الجهاد ٣/ ١٢٩) ، ابن شبّة- تاريخ المدينة ٢/ ٤٣٣- ٩ بإسناد البخاري ولفظه.

(٧) انظر المصادر في الهامش السابق.

(٨) البخاري- الصحيح (فتح الباري- الأحاديث ٥٣٩٣- ٥٣٩٨) ، مسلم- الصحيح ٣/ ١٣٨٦ (حديث ١٧٦٤) .

(٩) وزاد ابن هشام على سيرة ابن إسحاق قوله: فأذن النبي صلّى الله عليه وسلّم في ذلك (٢/ ٣٨١) معلّقا.

جـ ١(ص: ٣٣١)

غزوة بني لحيان:
خرج النبي صلّى الله عليه وسلّم في مائتين من الصحابة في ربيع الأول سنة ٦ هـ لينتقم لأصحاب الرجيع من بني لحيان، ولم يعلن وجهته، واتبع أسلوب التعمية، وقد سمعت به بنو لحيان فهربوا إلى رءوس الجبال فلم يقدر على أحد منهم «١» . فتقدم إلى عسفان القريبة من مكة، وبعث بعض فرسانه إلى «كراع الغميم» لتسمع به قريش، ويداخلهم الرعب، ويريهم من نفسه والمسلمين قوة «٢» .
وفي عسفان واجههم جمع من المشركين، وحين صلّى النبي صلّى الله عليه وسلّم بأصحابه الظهر، تلاوم المشركون لعدم هجومهم على المسلمين وهم يؤدون الصلاة، ثم انتظروا الصلاة التالية، فنزل جبريل- عليه السلام- بآية صلاة الخوف على النبي صلّى الله عليه وسلّم، فصلّى العصر بأصحابه وفق أحكامها، وكانت أول صلاة خوف صلّاها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم «٣» .
سريّة عكاشة إلى الغمر:
وفي ربيع الأول سنة ٦ هـ انتدب النبي صلّى الله عليه وسلّم عكاشة بن محصن في أربعين رجلا من أصحابه إلى بني أسد في ماء الغمر، ورغم أنهم أسرعوا، فقد نذر بهم بنو أسد فهربوا، ونزلت السريّة على مياههم وأصابت الطلائع من دلّهم على بعض ماشيتهم، ووجدوا مائتي بعير فغنموها وساقوها إلى المدينة «٤» .
سريّة محمد بن مسلمة إلى ذي القصّة «٥» :
وفي ربيع الآخر سنة ٦ هـ بعث النبي صلّى الله عليه وسلّم الصحابي محمد بن مسلمة في عشرة من الصحابة إلى بني ثعلبة وعوال، فكمن لهم القوم حتى ناموا، فقتلوهم كلهم وسقط محمد بن مسلمة بين أصحابه جريحا فظنوه ميّتا. وقد هيأ الله له بعد ذلك أحد المسلمين الذي أنقذه وأطعمه وسقاه وحمله إلى المدينة، فبعث النبي صلّى الله عليه وسلّم أبا عبيدة عامر بن الجراح في أربعين رجلا إلى مصارع القوم فلم يجدوا أحدا، ووجدوا نعما وشاء فساقوها غنيمة ورجعوا إلى المدينة «٦» .
سريّة زيد بن حارثة إلى بني سليم بالجموم:
وفي ربيع الآخر سنة ٦ هـ بعث النبي صلّى الله عليه وسلّم سريّة عليها زيد بن حارثة، فورد الجموم، فأصابوا من دلّهم على محلة لبني سليم أصابوا بها نعما وشاء وأسرى عادوا بهم إلى المدينة «٧» .

---

(١) الواقدي- مغازي ٢/ ٥٣٥، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٧٩.
(٢) الواقدي- مغازي ٢/ ٥٣٥- ٥٣٧، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٧٨- ٨٠.
(٣) ابن كثير- البداية والنهاية ٤/ ٩٤، وقد فصل آخرون في بيان الوقت الذي فرضت فيه صلاة الخوف وكيفيتها، انظر: الطبري- تفسير ٩/ ١٢٧- ١٦٢، وهناك من رجح أنها قد فرضت في غزوة الحديبية، انظر ذلك في غزوة الحديبية أدناه.
(٤) ابن سعد- الطبقات ٢/ ٨٥ بدون إسناد، وانظر: خليفة بن خياط- تاريخ ص/ ٨٥.
(٥) موضع على الطريق من المدينة إلى الشام، لا يبعد كثيرا عن المدينة وهو منزل ثعلبة وعوال.
(٦) الواقدي- مغازي ٣/ ٥٥١، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٨٥.
(٧) ابن سعد- الطبقات ٢/ ٨٦ بدون إسناد.

جـ ١(ص: ٣٣٢)

سريّة زيد بن حارثة إلى العيص:
وفي جمادى الأولى سنة ٦ هـ بعث النبي صلّى الله عليه وسلّم زيدا في مائة وسبعين راكبا من الصحابة ليتعرضوا لقافلة تجارية قرشية قادمة من بلاد الشام، فتمكنوا من احتوائها وما فيها، وغنموا فيها فضة كثيرة كانت لصفوان بن أميّة، وأسروا عددا ممن كان مع القافلة، منهم أبو العاص بن الربيع الذي استجار بزوجته زينب بنت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأجارته، وقبل الرسول صلّى الله عليه وسلّم

إجارتها ورد عليه ما أخذ منه «١» . وعاد أبو العاص إلى مكة حيث رد ما كان معه من أموال القوم وأماناتهم، ثم أعلن إسلامه في مكة، وهاجر إلى المدينة فرد عليه النبي صلّى الله عليه وسلّم زوجته زينب على نكاحها الأول «٢» .

سريّة زيد بن حارثة إلى الطّرف «٣» :

وفي جمادى الآخرة سنة ٦ هـ بعث النبي صلّى الله عليه وسلّم زيدا في خمسة عشر رجلا إلى بني ثعلبة بالطرف، فهرب القوم وكان بلغهم أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد سار إليهم، وأصابت السريّة نعما وشاء غنيمة، وعادوا إلى المدينة سالمين «٤» .

سريّة عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل:

وفي شعبان سنة ٦ هـ بعث النبي صلّى الله عليه وسلّم الصحابي عبد الرحمن بن عوف على رأس سريّة إلى قبيلة كلب بدومة الجندل، وأمره أن يقاتل من كفر بالله، وبألّا يغل ولا يغدر ولا يقتل وليدا. ويذكر ابن سعد أنه قد جاءهم فمكث فيهم ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام، فأسلم رئيسهم الأصبغ بن عمرو الكلبي- وكان نصرانيّا- وأسلم معه خلق كثير من قومه، وأقام من أقام على إعطاء الجزية، وتزوج عبد الرحمن تماضر بنت الأصبغ وقدم بها المدينة «٥» .

سريّة علي بن أبي طالب إلى فدك:

بعثها النبي صلّى الله عليه وسلّم في شعبان سنة ٦ هـ وهي تتألف من مائة رجل، جعل عليهم علي بن أبي طالب- رضي الله عنه-. وقد وجهها النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى بني عبد الله بن سعد بن بكر عندما بلغه أن لهم جمعا يريدون أن يمدوا به يهود خيبر. وكانت السريّة تكمن في النهار وتسير في الليل، وأصاب علي في طريقه عينا أقر له أنه أرسل إلى خيبر ليعرض عليهم نصرهم مقابل تمر خيبر لعام، وقد أمنه علي فدلّهم على مكان اجتماعهم، فأغار المسلمون عليهم فغنموا منهم ألفي شاة وخمسمائة بعير، وهرب بنو عبد الله بن سعد بما معهم من ظعن «٦» .

وإلى جانب هذه السرايا تذكر المصادر الخاصة بالمغازي والسير معلومات متضاربة عن «سرية زيد بن

---

(١) ابن سعد- الطبقات ٢/ ٨٦ معلّقا.

(٢) ابن هشام- السيرة ٢/ ٣٦٨، عن ابن إسحاق بإسناد متصل وفيه ابن الحصين.

(٣) ماء قريب من المراض دون النخيل على مسافة قريبة من المدينة، انظر: ابن سعد- الطبقات ٢/ ٨٧، ياقوت- معجم ٤/ ٣١.

(٤) الواقدي- مغازي ٢/ ٥٥٥، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٨٧.

(٥) الواقدي- المغازي ٢/ ٥٦٠ بإسناد متصل، ابن سعد ٢/ ٨٩ معلّقا، كما أورده ابن إسحاق بإسناد منقطع على أنها سرية دومة الجندل، ابن هشام- السيرة ٤/ ٣٦٩.

(٦) الواقدي- المغازي ٢/ ٥٦٢- ٥٦٤، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٨٩- ٩٠.

ثابت إلى بني فزارة» «١» ، وسريّة عبد الله بن رواحة إلى اليسير بن رزّام اليهودي «٢» ، وسريّة عمرو بن أمية الضّمري لقتل أبي سفيان «٣» . ولم يرد عن هذه السرايا مرويات في الصحيحين، والتناقض والتضارب كبير في مرويات كتب المغازي والسير بشأنها.

سريّة كرز بن جابر الفهري إلى العرنيين:

قدم إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم جماعة من قبيلتي عكل والعرينة في شوال سنة ٦ هـ، وتكلموا بالإسلام، فقالوا يا نبي الله إنا كنا أهل ضرع ولم نكن أهل ريف، واستوخموا المدينة، فأمر لهم النبي صلّى الله عليه وسلّم بذود وراع.. فانطلقوا حتى إذا كانوا بناحية الحرّة كفروا بعد إسلامهم، وقتلوا الراعي واستاقوا الذود، فبلغ النبي صلّى الله عليه وسلّم الخبر فبعث الطلب تحت إمرة كرز بن جابر الفهري في آثارهم فقبضوا عليهم، فأمر بهم فسمروا ... وقطعت أيديهم وأرجلهم وتركوا في ناحية

الحرّة حتى ماتوا «٤» . وقال الجمهور نزل فيهم قوله تعالى: إِنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ «٥» .

سريّة الخبط (سيف البحر) :

بعث النبي صلّى الله عليه وسلّم أبا عبيدة عامر بن الجرّاح في ثلاثمائة راكب نحو ساحل البحر الأحمر ليرصدوا عيرا لقريش، فنفدت أزوادهم، وأصابهم الجوع حتى أكلوا الخبط، ثم نحروا من إبلهم فنهاهم أبو عبيدة لحاجتهم إليها إذا لقوا عدوهم، وألقى إليهم البحر بحوت عظيم أكلوا منه نصف شهر وحملوا بعضا منه إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم فأكل منه «٦» . ولم يلق المسلمون كيدا، وعادوا إلى المدينة سالمين. وقد وردت مرويات أخرى في المغازي وكتب السير تفيد بأن النبي صلّى الله عليه وسلّم كان أرسلهم إلى حي من أحياء قبيلة جهينة «٧» . وقال ابن حجر بأن ذلك لا يغاير ظاهره ما في الصحيح لأنه

---

(١) ابن سعد- الطبقات ٢/ ٨٩ معلّقا، وانظر: الواقدي- المغازي ٢/ ٥٦٤، الطبري- تاريخ ٢/ ٦٤٣ وأورد ذلك الإمام مسلم في الصحيح ٣/ ١٣٧٥- ٧٦ (حديث ١٧٥٥) ، الإمام أحمد (عنه ابن كثير في البداية ٤/ ٢٦٤) ، والبيهقي- دلائل النبوة ٤/ ٢٩٠، ورواية ثانية في الطبري- تاريخ ٢/ ٦٤٣- ٦٤٤ رواية مغايرة يرد فيها أن أبا بكر الصديق- رضي الله عنه- كان أميرا لسرية إلى بني فزارة علما بأن رواية أهل المغازي مضطربة من ناحية المتن ومناقضة لأوامر النبي صلّى الله عليه وسلّم بشأن الأسرى.

(٢) رواه ابن إسحاق وابن سعد معلّقا ٢/ ٩٢، والبيهقي- دلائل النبوة ٤/ ٢٩٣- ٤، وأبو نعيم- الدلائل ٢/ ٥١٦- ٥١٧، وابن كثير في البداية ٤/ ٢٧٤ ويلاحظ في المرويات تناقض كبير في اسم أمير السرية وفي اسم اليهودي المذكور.

(٣) ابن سعد- الطبقات ٢/ ٩٣- ٩٤ معلّقا، والبيهقي في السنن بإسناد فيه الواقدي والطبري- تاريخ ٢/ ٥٤٢ بإسناد فيه ابن إسحاق، وفيه مجهول لم يترجم له أحد، وهو جعفر بن الفضل.

(٤) البخاري- الصحيح (الفتح- الأحاديث ٤١٩٢، ٥٦٨٥، ٥٦٨٦، ٦٨٠٥) ، مسلم- الصحيح ٣/ ١٢٩٦- ٨ (حديث ١٦٧١) ، كما أورد خبرها الجماعة وأهل المغازي والسير، وانظر الطبري- التفسير ١٠/ ٢٤٤- ٢٥٣.

(٥) القرآن الكريم- سورة المائدة، الآية/ ٣٣، وانظر: الطبري- تفسير ١٠/ ٢٤٢- ٤٤، الشامي- سبل الهدى والرشاد ٦/ ١٨١- ١٩٠.

(٦) أورده الإمام البخاري في صحيحه من طرق متعددة (الأحاديث ٤٣٦٠- ٤٣٦٢) ، وكذلك فعل الإمام مسلم ٣/ ١٥٣٥- ١٥٣٧ (حديث ١٩٣٥) ، ابن القيم- زاد ٢/ ١٥٨.

(٧) الواقدي- مغازي ٢/ ٧٧٤.

يمكن الجمع بين كونهم ذهبوا يتلقون عيرا لقريش ويقصدون حيّا لجهينة «١» ، ومما يقوي ذلك ما أورده الإمام مسلم في الصحيح أن البعث كان إلى أرض جهينة «٢» .

غزوة الحديبية «٣»

وفي يوم الاثنين الأول من ذي القعدة سنة ٦ هـ «٤» ، خرج الرسول صلّى الله عليه وسلّم من المدينة متوجها بأصحابه إلى مكة لأداء العمرة «٥» . وقد كشف بذلك عن حقيقة النظرة الإسلامية إلى البيت العتيق، والمشاعر الإسلامية نحوه وتعظيمهم لشعائر الله في حجه وعمرته. وكان ذلك في الوقت نفسه إظهارا لخطل دعاية قريش المعادية التي حاولت عبر فترة الصراع أن تبثها بين بطون القبائل والتي أرادت أن تظهر أنّ المسلمين لا يعترفون بمكانة البيت العتيق وحرمته. على أن هذا التوجه نحو أداء العمرة من قبل الرسول صلّى الله عليه وسلّم والمسلمين، وخططهم في الوصول إلى مكة ودخولها لأداء النسك قد أحرج قريشا إلى درجة كبيرة وخصوصا أن ذلك يأتي في أعقاب فشل غزوة الأحزاب وانهيار التحالفات القرشية مع القبائل الأخرى ومع يهود. وهي تبرز بوضوح وجلاء قوة المسلمين واستعلائهم في نظر العرب، في نفس الوقت الذي تخطّل فيه جميع الدعايات القرشية المعادية للمسلمين وأوقعت قريشا في الحرج الشديد، فهي إما أن تسمح للمسلمين وعلى رأسهم النبي صلّى الله عليه وسلّم بالعمرة، فيتحقق العرب من ضعفها وكذب دعاياتها، وإما أن تعارض ذلك، فتصد الرسول صلّى الله عليه وسلّم والمسلمين عن دخول مكة وأداء العمرة، وبذلك ينكشف زيف ادعائها بالحرص على البيت العتيق وحرمته، ويتحدث العرب عن صد قريش لمن قصدوا تعظيمه وتكريمه والحج إليه، وكانت جميع هذه المعاني ماثلة أمام زعماء قريش حين واجهوا هذا الحدث الكبير.

أما النبي صلّى الله عليه وسلّم فقد كان قد أعد للأمر عدته، وأدخل في اعتباره أن تقدم قريش على صده وأصحابه عن الوصول إلى مكة وأداء العمرة، بل حتى مقاتلته ومن معه، ولذلك عزم على الخروج بأكبر عدد ممكن من المسلمين، ولذلك فإنه استنفر المسلمين من أهل البادية، غير أنهم أبطئوا عليه وتعلل بعضهم بأعذار شتى كشفها القرآن الكريم: سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرابِ شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَأَهْلُونا فَاسْتَغْفِرْ لَنا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً* بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ

---

(١) ابن حجر- فتح الباري ٨/ ٩٧.

(٢) مسلم- الصحيح/ ١٥٣٧ (حديث ١٩٣٥) .

(٣) موضع فيه بئر يقع على مشارف مكة الشمالية الغربية وعلى مسافة تزيد على عشرين كيلا من المسجد الحرام. وجعلها ابن هشام: «أمر الحديبية» على اعتبار أن الأصل في ذلك الخروج للعمرة وليس للغزو، وقد سميت بالغزوة بها لأن قريشا منعت المسلمين من دخول مكة وهم في الحديبية (السيرة ٣/ ٤٢٧) .

(٤) أجمع أهل العلم على تاريخها بلا خلاف. وقد رواه الزهري وموسى بن عاقبة وقتادة، كما في دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٩١، وانظر: النووي- المجموع ٧/ ٧٨.

(٥) البخاري- الصحيح (فتح الباري- حديث ٤١٧٩) .

يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً «١» .

وهكذا فقد خرج النبي صلّى الله عليه وسلّم بأصحابه من المهاجرين والأنصار وبلغ عددهم ألفا وأربعمائة رجل «٢» ، حملوا معهم سلاحهم توقعا لشر قريش «٣» . وكانوا مستعدين للقتال «٤» . صلى النبي صلّى الله عليه وسلّم والمسلمون بذي الحليفة، وأهلّوا معه محرمين بالعمرة «٥» ، وساقوا الهدي معهم سبعين بدنة «٦» ، وبعث النبي صلّى الله عليه وسلّم بالصحابي بسر بن سفيان الخزاعي عينا إلى مكة ليأتيه بأخبار قريش وردود فعلها «٧» .

وأرسل النبي صلّى الله عليه وسلّم بعد وصوله الروحاء سريّة جعل عليها أبا قتادة الأنصاري- ولم يكن محرما بالعمرة- في جمع من الصحابة إلى ساحل البحر الأحمر بعد أن علم بوجود تجمع للمشركين في «غيقة» ، وخشية أن يباغتوا المسلمين، فلم يلقوا كيدا ويظهر أنهم أخذوا طريق الساحل لتأمينه، إذ لم يلتحقوا بركب النبي صلّى الله عليه وسلّم إلّا في «السقيا» «٨» .
وحين وصل المسلمون عسفان «٩» جاءهم بسر بن سفيان الخزاعي بأخبار استعدادات قريش وتجميعها الجموع لصد المسلمين عن دخول مكة، وإرسالها طلائع من الفرسان إلى «كراع الغميم» «١٠» . وحين استشار الرسول صلّى الله عليه وسلّم أصحابه في الأمر «١١» ، أشار عليه أبو بكر الصديق بالتوجه إلى مكة لأداء العمرة والطواف بالبيت وقال: «فمن صدنا عنه قاتلناه» «١٢» ، فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم: «امضوا على اسم الله» «١٣» . وقد صلّى النبي صلّى الله عليه وسلّم بأصحابه في عسفان صلاة الخوف «١٤» ، ثم سلك بهم طريقا وعرة عبر ثنية المرار إلى الحديبية متجنبا الاصطدام بخيالة قريش

---

(١) القرآن الكريم- سورة الفتح، الايات/ ١١- ١٢، وذكر مجاهد بأن المراد بالآية أعراب المدينة: مزينة، وجهينة، الطبري- تفسير ٢٦/ ٧٧، بإسناد حسن إلى مجاهد، غير أنه مرسل.
(٢) البخاري- الصحيح (فتح الباري- حديث ٣٥٧٦، ٤١٥١، ٤١٥٤) ، مسلم- الصحيح، كتاب الإمارة ص ٧٣، ٧٥، يحيى بن معين- التاريخ ١/ ٣٢١، البيهقي- دلائل النبوة ٢/ ٢١٤.
(٣) البخاري- الصحيح (فتح الباري- حديث ٤١٧٩) .
(٤) وانفرد الواقدي بالقول بأنهم لم يكونوا يحملون السلاح، المغازي ٢/ ٥٧٣.
(٥) البخاري- الصحيح (فتح الباري- حديث ١٦٩٤- ١٩٦٥) وهذا يدل على أن ميقات ذي الحليفة كان قد جرى تحديده قبل غزوة الحديبية.
(٦) أحمد- المسند ٤/ ٣٢٣، ابن هشام- السيرة ٣/ ٣٠٨.
(٧) البخاري- الصحيح (فتح الباري- حديث ٤١٧٩) ، أحمد- المسند ٤/ ٣٢٣، ابن هشام- السيرة ٣/ ٣٠٨.
(٨) البخاري- الصحيح (فتح الباري- الأحاديث ١٨٢١- ١٨٢٤) ، والسقيا موضع يبعد ١٨٠ كيلا من المدينة في الطريق إلى مكة.
(٩) موضع على طريق المدينة- مكة، يبعد ٨٠ كيلا عن مكة.
(١٠) واد بين عسفان ومكة قريب إلى عسفان، يبعد عنها ١٦ كيلا عن مكة، انظر: البلادي- معجم المعالم الجغرافية في السيرة، ص/ ٢٦٤.
(١١) البخاري- الصحيح (فتح الباري، الأحاديث ٤١٧٨- ٤١٧٩) ، أحمد- المسند ٤/ ٣٢٣.
(١٢) البخاري- الصحيح (فتح الباري- حديث ٤١٧٩) .
(١٣) البخاري- الصحيح (فتح الباري- حديث ٤١٧٩) ، أبو داود- السنن ٢/ ٢٨ (حديث ١٢٣٦) ، النسائي- السنن (حديث ١٥٥٠- ١٥٥١) ، ابن كثير- التفسير ١/ ٥٤٨.
(١٤) مسلم- الصحيح ٤/ ٢١٤٤ (حديث ٢٧٨٠) ، البيهقي- السنن الكبرى ٣/ ٢٥٧، ابن كثير- التفسير ١/ ٥٤٨، وهذا على رأي من أخر غزوة ذات الرقاع إلى ما بعد فتح خيبر، وهو الصحيح، وخلافا لما ذكره ابن إسحاق وابن هشام والواقدي (السيرة ٣/ ٢٠٣، المغازي ١/ ٣٩٦) .

والقتال «١» . وقد عجل خالد بن الوليد- وكان يقود فرسان قريش- بالعودة إلى مكة حين علم بذلك، وخرجت قريش فعسكرت على طريق المسلمين «ببلدح» «٢» حيث سبقوا المسلمين إلى الماء «٣» . وتقدم النبي صلّى الله عليه وسلّم بالمسلمين حتى إذا اقتربوا من الحديبية بركت ناقته فقالوا: «خلأت القصواء» فقال صلّى الله عليه وسلّم:

«ما خلأت القصواء وما ذلك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل» . ثم قال: «والّذي نفسي بيده، لا يسألونني خطّة يعظّمون فيها حرمات الله إلّا أعطيتهم إيّاها» «٤» .
عدل الرسول صلّى الله عليه وسلّم عن الطريق المتجه إلى مكة، وسار بأصحابه حتى نزل بأقصى الحديبية على بئر قليل الماء، فلما اشتكى المسلمون العطش، انتزع صلّى الله عليه وسلّم سهما من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيها، فما زالت تجيش بالماء حتى صدروا عنه وكان ذلك من معجزاته صلّى الله عليه وسلّم «٥» .
عمل الرسول صلّى الله عليه وسلّم على إبلاغ رسالة واضحة لزعماء قريش تضمنت أنه لم يأت لحربهم أو حرب غيرهم، وإنما جاء بقصد الاعتمار وتعظيم البيت العتيق وتكريمه وزيارته والطواف به «٦» .
وقد بيّن الرسول هذه الوجهة لعدد من الرجال المحايدين أحيانا، وبواسطة رسل أرسلهم لهذا الغرض كذلك. وحين وفد عليه بديل بن ورقاء الخزاعي وبيّن له أن قريشا تعتزم صدّ المسلمين عن دخول مكة، أوضح له النبي صلّى الله عليه وسلّم سبب قدومه وأصحابه، وأظهر التوجّع لما أصاب قريشا من عنادها وحربها، وقد نقل بديل الخزاعي ذلك لقريش فاتهموه وخاطبوه بما يكره، وقالوا: «إن كان إنما جاء لذلك فلا والله لا يدخلها عنوة أبدا، ولا تتحدث بذلك العرب» «٧» . ثم أرسل خراش بن أميّة الخزاعي- وهو يقصد بيان موقفه أمام الناس جميعا- فعقروا جمله وأرادوا قتله فمنعته الأحابيش «٨» . وأراد أن يرسل عمر بن الخطاب فبيّن عمر شديد عداوته لقريش وعلمها بذلك وبأن قومه من بني عدي يناصبونه العداء ولا يحمونه «٩» ، فعدل النبي صلّى الله عليه وسلّم عنه إلى عثمان بن عفان الذي دخل مكة في جوار أبان بن سعيد بن العاص، وأبلغ قريشا رسالة النبي صلّى الله عليه وسلّم «١٠» ، وحين سمح زعماء قريش لعثمان بالطواف بالبيت العتيق فإنه أبى أن يسبق النبي صلّى الله عليه وسلّم بالطواف

---

(١) مسلم- الصحيح- كتاب صفات المنافقين، ص/ ١٢.
(٢) وهو أحد وديان مكة المكرمة، أعلاه عند وادي العشر وأوسطه منطقة الزاهر، ومصبّه في مر الظهران شمال الحديبية، انظر: البلادي- معجم المعالم الجغرافية ص/ ٤٩.
(٣) البيهقي- دلائل النبوة ٢/ ٢١٩- ٢٢٠، الواقدي- المغازي ٢/ ٥٨٢، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٩٥.
(٤) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٥/ ٣٢٩- حديث ٢٧٣١) .
(٥) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٥/ ٣٣١- حديث ٢٧٣٢) ، وفي رواية صحيحة أخرى أنه صلّى الله عليه وسلّم دعا بماء فتمضمض ومج في البئر (البخاري- الصحيح، فتح الباري- حديث ٢٥٧٧) ويمكن الجمع بين الحديثين.
(٦) البخاري- الصحيح (فتح الباري- الأحاديث ٢٧٣١، ٢٧٣٢) .
(٧) أحمد- المسند ٤/ ٣٢٤، وابن إسحاق بإسناد حسن، سيرة ابن هشام ٣/ ٣٠٨.
(٨) أحمد- المسند ٤/ ٣٢٤، الفتح الرباني ٢١/ ١٠١- ١٠٤، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٩٦- ٩٧.
(٩) أحمد- المسند ٤/ ٣٢٤، ابن هشام- السيرة ٣/ ٣٠٨ بإسناد حسن.
(١٠) أحمد- المسند ٤/ ٣٢٤.
ج ١(ص: ٣٣٧)

بالبيت، وقد أخرت قريش عودته إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم، فحسب المسلمون أنها قتلته «١» ، وبلغ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن عثمان قد قتل «٢» فدعا أصحابه إلى البيعة تحت شجرة سمرة، فبايعوه جميعا على الموت «٣» سوى الجد بن قيس وكان من المنافقين «٤» ، وكان أول من بايع من الصحابة أبو سنان عبد الله بن وهب الأسدي «٥» وتابعه الصحابة يبايعون النبي صلّى الله عليه وسلّم على بيعته فأثنى عليهم النبي صلّى الله عليه وسلّم وقال: «أنتم خير أهل الأرض» «٦» وقال صلّى الله عليه وسلّم أيضا: «لا يدخل النّار إن شاء الله من أصحاب الشّجرة أحد الّذين بايعوا تحتها» «٧» .

ولما كان عثمان بن عفان قد حبس في مكة، فقد أشار النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى يده اليمنى وقال: «هذه يد عثمان» ، فضرب بها على يده، وقال: «هذه لعثمان» «٨» وبذلك فقد عدّ عثمان بن عفان- رضي الله عنه- في المبايعين تحت الشجرة. وقبل أن تتطور الأمور وتتأزم، عاد عثمان إلى معسكر المسلمين بعد بيعة الرضوان هذه مباشرة. وقد عرفت البيعة بذلك لأن الله تعالى أخبر أنه رضي عن المبايعين فيها فقال جل جلاله: لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً* وَمَغانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَها وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً «٩» .
أرسلت قريش عددا من المبعوثين للتفاوض مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم بعد سفارة بديل بن ورقاء، فقد أرسلوا عروة بن مسعود الثقفي، وقبل أن يباشر عروة ما عهدت به إليه قريش، ورغبة منه في منع تكرار ما حصل مع بديل قبله من تعنيف وسوء المقالة، وضح لهم موقفه منهم وأقروا له بأنه غير متهم لديهم، ثم أوضح لهم أن ما عرضه عليهم محمد صلّى الله عليه وسلّم هو أمر رشد دعاهم إلى قبوله، فوافقوا على رأيه، وعندما وصل عروة إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم، قال له مثل ما قال لبديل فأجابه عروة: «أي محمد، أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله

---

(١) أحمد- المسند ٤/ ٣٢٤ بإسناد حسن وقد تقدم.
(٢) أحمد- المسند ٤/ ٣٢٤.
(٣) البخاري- الصحيح (فتح الباري حديث ٤١٦٩) ، مسلم- الصحيح- كتاب الإمارة (ص/ ٨١) ، وفي رواية صحيحة أخرى كانت البيعة على الصبر وعدم الفرار، البخاري- الصحيح (حديث ٤١٦٩) ، مسلم- الصحيح (٣/ ١٤٨٣، حديث ١٨٥٦) ، ولا تعارض في ذلك لأن المبايعة على الموت تعني الصبر وعدم التولي، انظر ابن حجر- فتح الباري (شرح الحديث ٤١٦٩ ج ٦/ ١١٨) .
(٤) مسلم- الصحيح ٣/ ١٤٨٣ (حديث ١٨٥٦) وانظر كتاب الإمارة (ص/ ٦٩) من حديث الصحابي جابر بن عبد الله- رضي الله عنهما- وهو من الذين بايعوا تحت الشجرة.
(٥) ابن حجر- الإصابة ط/ ٩٥- ٩٦ من حديث الشعبي، وقال: وأخرجه ابن منده من طريق عاصم عن ذر بن حبيش، وصححهما.
(٦) البخاري- الصحيح (فتح الباري، حديث ٤١٥٤) .
(٧) مسلم- الصحيح- كتاب فضائل الصحابة ٤/ ١٩٤٢ حديث ٢٤٩٦) .
(٨) البخاري- الصحيح (فتح الباري، حديث ٣٦٩٨) .
(٩) القرآن الكريم- سورة الفتح، الآيات ١٨- ١٩، وانظر الطبري- التفسير ٢٦/ ٨٦.

قبلك؟ «١» .. ولاحظ عروة مبلغ تعظيم المسلمين للرسول صلّى الله عليه وسلّم وحبهم له وتفانيهم في طاعته، فلما رجع إلى مكة، قال لقريش: «أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله ما رأيت ملكا قط، يعظمه أصحابه مثل ما يعظم أصحاب محمد محمدا» «٢» .
وبعثت قريش بعد ذلك سيد الأحابيش، الحليس بن علقمة الكناني، فلما اقترب من معسكر المسلمين ورآه النبي صلى الله عليه وسلّم قال: «إنّ هذا من قوم يتألّهون فابعثوا الهدي في وجهه حتّى يراه» «٣» ، كما أمر المسلمين أن يلبوا، فلما رأى الحليس الهدي في قلائده، وسمع تلبية المسلمين عاد أدراجه قبل أن يصل إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم، وذلك إعظاما لما رأى، وقال لقريش: «رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت» «٤» ، فكان جوابهم عليه أن طلبوا منه السكوت واتهموه بالجهل «٥» ، وقد أنكر الحليس عليهم موقفهم وقال: «يا معشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم، أيصدّ عن بيت الله من جاءه معظما له؟! والذي نفس الحليس بيده لتخلنّ بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرنّ بالأحابيش نفرة رجل واحد» ، فقالوا له: «كف عنا حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به» «٦» .

أرسل زعماء قريش مكرز بن حفص الذي وصفه النبي صلّى الله عليه وسلّم بأنه «رجل فاجر» ، ثم أعقبوه بسهيل بن عمرو، فتفاءل النبي صلّى الله عليه وسلّم بقدومه قائلا لأصحابه: «لقد سهّل لكم أمركم» «٧» ، وقال صلّى الله عليه وسلّم «قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل» «٨» ،
وكانت قريش قد ألزمت سهيل بن عمرو أن «لا يكون في صلحه (محمدا) إلّا أن يرجع عنا عامه هذا، فو الله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدا» ، فلما انتهى إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم تكلم فأطال الكلام، وتراجعا، ثم جرى بينهما الصلح «٩» .
بدأ الرسول صلّى الله عليه وسلّم يملي شروط الصلح، وعلي بن أبي طالب- رضي الله عنه- هو كاتب الصحيفة «١٠» ، وأراد النبي صلّى الله عليه وسلّم إعطاء عقد الصلح صبغة إسلامية فبدأه بالبسملة، فاعترض سهيل قائلا: «ما (الرحمن) فو الله ما أدري ما هو ولكن اكتب (باسمك اللهم) كما كنت تكتب» ، ورفض المسلمون ذلك، ولكن النبي صلّى الله عليه وسلّم وافق على اعتراض سهيل، ثم اعترض سهيل على عبارة «محمد رسول الله» التي وردت في صدر الصحيفة قائلا: «والله لو كنا

---

(١) البخاري- الصحيح (فتح الباري- الاحاديث ٢٧٣١- ٢٧٣٢) ، أحمد- المسند ٤/ ٣٢٤ باسناد حسن.
(٢) مصادر الهامش السابق.
(٣) البخاري- الصحيح (فتح الباري- حديث ٢٧٣١) .
(٤) المرجع السابق (الحديث ٢٧٣٢) .
(٥) ورد في الرواية الصحيحة قولهم له: «اجلس، إنما أنت أعرابي لا علم لك» ، مع أنهم كانوا قد أوفدوه ليفاوض نيابة عنهم.
(٦) البخاري- الصحيح (فتح الباري- الأحاديث ٢٧٣١، ٢٧٣٢) .
(٧) المرجع السابق (الأحاديث ٢٧٣١- ٢٧٣٢) .
(٨) المرجع السابق نفسه، وانظر ابن هشام- السيرة ٣/ ٤٣٩ من حديث برواية ابن إسحاق وبإسناد حسن.
(٩) البخاري- الصحيح (الأحاديث ٢٧٣١- ٢) ، ابن هشام- السيرة ٣/ ٤٣٩.
(١٠) صرح بهذه التسمية الشيخان (البخاري- الصحيح حديث ٢٦٩٨- ٢٦٩٩، مسلم- الصحيح ٣/ ١٤١٠ حديث ١٧٨٣) .

نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب «محمد بن عبد الله» فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم: «والله إنّي لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب: محمّد بن عبد الله» ، وحين أراد النبي صلّى الله عليه وسلّم أن يثبت في صحيفة الصلح عبارة «على أن تخلّوا بيننا وبين البيت فنطوف به» إعترض سهيل قائلا: «والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة (قهرا) ، ولكن ذلك في العام المقبل، فنخرج عنها فتدخلها في أصحابك، فأقمت فيها ثلاثا معك سلاح الراكب لا تدخلها بغير السيوف في القرب» ، فوافق النبي صلّى الله عليه وسلّم على ذلك «١» ، ثم قال سهيل: «وعلى أن لا يأتيك منا رجل- وإن كان على دينك- إلّا رددته إلينا» فقال المسلمون: سبحان الله، كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلما؟ فبينما هم كذلك إذ دخل عليهم أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن تردّه إليّ، فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم: «إنّا لم نقض الكتاب بعد» ، فقال سهيل: «والله إذا لن أصالحك على شيء أبدا» ، وقد حاول النبي صلّى الله عليه وسلّم استثناء أبا جندل من الشرط غير أن سهيلا أصر على موقفه رغم موافقة مكرز بن حفص على طلب النبي صلّى الله عليه وسلّم، فلم يجد النبي صلّى الله عليه وسلّم إزاء إصرار سهيل بدّا من إعادته إليه «٢» .

وقد تم الاتفاق في الصلح بعد ذلك «على وضع الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض. وعلى أنه من أتى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من أصحابه بغير إذن وليه رده عليهم، ومن أتى قريشا ممن مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لم يردّوه عليه. وأن بيننا عيبة مكفوفة (صدور نقية) وأنه لا إسلال ولا إغلال (ولا سرقة ولا خيانة) . وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.. «٣» ،
وأنك ترجع عنا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكة. وإنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فتدخلها بأصحابك، وأقمت فيهم ثلاثة معك سلاح الراكب، لا تدخلها بغير السيوف في القرب» (أغمادها) . «٤»
ولقد تذمر كثير من الصحابة من أغلب شروط هذا الصلح، وخصوصا من التعديلات التي أحدثها سهيل ابن عمرو فيها وأصر عليها، فقد امتنع علي بن أبي طالب عن محو عبارة «رسول الله» التي كانت قد وردت في ديباجة العقد في بادىء الأمر «٥» ، وغضب المسلمون لشرط رد المسلمين لإخوانهم الذين يفرون من مكة إلى

---

(١) البخاري- الصحيح (فتح الباري، الحديثان ٢٧٣١- ٢٧٣٢) .
(٢) المرجع السابق نفسه، مسلم- الصحيح ٣/ ١٤١٠ حديث ١٧٨٣، عبد الرزاق الصنعاني- المصنف ٥/ ٣٤٣.
(٣) ورد في ثنايا الرواية عن الصلح بعد هذا الموضع من المتن قوله: «فتواثبت خزاعة فقالوا نحن مع عقد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعهده، وتواثبت بكر فقالوا نحن مع عقد قريش وعهدهم» . ولا شك أن هذا قد حصل في وقت لاحق، بناء على ما ورد في العقد وهو ليس جزءا منه، انظر أحمد- المسند ٤/ ٣٢٥.
(٤) أحمد- المسند ٤/ ٣٢٥، ابن هشام- السيرة ٣/ ٣٠٨ بإسناد حسن.
(٥) البخاري- الصحيح (فتح الباري حديث ٢٦٩٩، ٤٢٥١، ٢٦٩٨، وقد حصل التباس في تحديد الشخص الذي تولّى الكتابة عند امتناع علي- رضي الله عنه- عن ذلك، أورد الامام مسلم في صحيحه أنه صلّى الله عليه وسلّم قال لعلي رضي الله عنه: «أرني مكانها» فأراه مكانها فمحاها-

المعسكر الإسلامي بغير إذن أوليائهم، وسألوا النبي صلّى الله عليه وسلّم: «يا رسول الله تكتب هذا؟ فقال صلّى الله عليه وسلّم: «نعم.. إنّه من ذهب إليهم فأبعده الله ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجا ومخرجا» «١» .
ولقد ظهر الغضب الشديد على عمر بن الخطاب بسبب ما تضمنته شروط الصلح التي تصور أنها مهينة وأنها لا تعكس موقفا صلبا في الدفاع عن الحق، ولنستمع من عمر- رضي الله عنه- إلى ردة فعله حينذاك، قال: «فأتيت نبي الله صلّى الله عليه وسلّم فقلت: ألست نبي الله حقّا؟، قال: «بلى» . قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى» ، قلت:
فلم نعط الدنية في ديننا إذا؟ قال: «إنّي رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري» ، قلت: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «بلى. أفأخبرتك أنّك تأتيه العام؟»
قلت: لا، قال: «فإنّك آتيه ومطوّف به» «٢» .
ولما أعاد عمر- رضي الله عنه- الكلام مع أبي بكر- رضي الله عنه- بمثل ما كلم النبي صلّى الله عليه وسلّم، قال له أبو بكر: «يا عمر: إنه لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم ولن يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه، فو الله إنه على الحق» «٣» .
ولم يكن المسلمون يشكّون في أنهم سيدخلون مكة ويطوفون بالبيت العتيق كما سبق وأعلمهم النبي صلّى الله عليه وسلّم، فلما جرى صلح الحديبية على الشروط التي تضمنها، فإنهم تألموا وساورت بعضهم الشكوك «حتى كادوا أن يهلكوا» وخصوصا حين أعيد أخوهم أبو جندل وهو يستنجد بهم قائلا: يا معشر المسلمين: أتردونني إلى أهل الشرك فيفتنوني عن ديني» والرسول صلّى الله عليه وسلّم

يقول: «يا أبا جندل اصبر واحتسب فإنّ الله- عزّ وجلّ- جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا» «٤» .
وكان عمر يمشي بجانب أبي جندل يغريه بأبيه ويقرب إليه سيفه ولكن أبا جندل لم يفعل، فأعيد إلى المشركين «٥» .
ولم تكف قريش عن التحرش بالمسلمين خلال مرحلة المفاوضات وكتابة وثيقة الصلح بل حتى بعد إنجاز

- رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وكتب مكانها «ابن عبد الله» ، ولا يستدل من ذلك على معرفته صلّى الله عليه وسلّم القراءة والكتابة فإن معرفة رسم هاتين الكلمتين ومحوه لهما أو معرفته رسم اسمه صلّى الله عليه وسلّم مما يتكرر كتابته أمامه كثيرا من قبل كتابه، لا يخرجه عن كونه أميّا كما وصفه القرآن الكريم، وذهب الجمهور إلى أن المقصود من قوله «كتب» بمعنى أمر بالكتابة انظر ابن حجر- فتح الباري ٧/ ٥٠٤ (حديث ٤٢٥١) .
(١) مسلم- الصحيح- كتاب الجهاد ص/ ٩٣، (٣/ ١٤١١- حديث ١٠٨٤) .
(٢) البخاري- الصحيح (فتح الباري، حديث ٢٧٣١- ٢٧٣٢، ٣١٨٢) ، مسلم- الصحيح ٣/ ١٤١٢، حديث ١٧٨٥، أحمد- المسند ٤/ ٣٢٥ باسناد حسن.
(٣) البخاري- الصحيح الأحاديث ٢٧٣١، ٢٧٣٢، ٣١٨٢، وفي مسند أحمد ٤/ ٣٢٥ بإسناد حسن حيث صرح ابن إسحاق بالتحديث (ابن هشام- السيرة ٣/ ٣٠٨) وفيه أن عمر- رضي الله عنه- تكلم أولا مع أبي بكر- رضي الله عنه- ثم أعاد الكلام مع النبي صلّى الله عليه وسلّم، وفيه قوله: يا عمر الزم غرزه (أي تمسك بأمره) حيث كان فإني أشهد أنه رسول الله قال عمر: وأنا أشهد» ... كما نقل قول عمر- رضي الله عنه-: «ما زلت أصوم وأتصدق وأعتق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ حتى رجوت أن يكون خيرا، ويرى ابن حجر أن «جميع ما صدر منه كان معذورا فيه بل هو مأجور لأنه مجتهد» فتح الباري ٥/ ٣٤٦- ٧.
(٤) أحمد- المسند ٤/ ٣٢٥.
(٥) المرجع السابق نفسه، والصفحة نفسها.

ذلك؛ وربما كان ذلك من أساليب الضغط على المسلمين خلال مرحلة المفاوضات، وقد تكون التحرشات المتأخرة بسبب طيش شبابها وتهورهم، غير أن الملاحظ هو أن المسلمين قد احتملوا تلك التحرشات بصبر وجلد، وانضباط دقيق، مع يقظة تامة واستعداد، وعند ما حاولت مجموعة كبيرة من رجال قريش قاربت ثمانين رجلا الاستيلاء على معسكر المسلمين بشكل مباغت، سارع المسلمون بتطويقهم وأسرهم، ثم عفا الرسول صلّى الله عليه وسلّم عنهم فأطلق سراحهم «١» ، ثم أسر المسلمون بعد ذلك ثلاثين شابّا من قريش اعتدوا على معسكرهم، وأطلق النبي صلّى الله عليه وسلّم سراحهم «٢» .
كما عفا صلّى الله عليه وسلّم عن سبعين آخرين أسروا بعد إبرام الصلح، وعن أربعة آخرين كانوا يقعون بالرسول صلّى الله عليه وسلّم بعد عقد الصلح واختلاط المسلمين بالمشركين «٣» ، وفي ذلك نزل قوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ «٤» .
وحينما تم الصلح وأبرم العقد، أمر النبي صلّى الله عليه وسلّم من معه من المسلمين أن ينحروا الهدي ويحلقوا رءوسهم، وكرر ذلك ثلاث مرات فلم يقم أحد منهم بالاستجابة لأمر النبي صلّى الله عليه وسلّم، وذلك ما يعكس الحالة النفسية الانفعالية التي قاسى منها المسلمون حينذاك بسبب استفزازات قريش المتكررة إضافة إلى تصورهم الخاطيء في أن شروط الصلح قد تضمنت إجحافا بهم، وكأنهم كانوا يأملون الرجوع عن الصلح.
قام النبي صلّى الله عليه وسلّم بمشورة من أم المؤمنين أم سلمة- رضي الله عنها- بذبح الهدي وحلق رأسه، فتابعه المسلمون عند ذلك، «فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا

غمّا» «٥» فدعا لهم النبي صلّى الله عليه وسلّم «٦» وبذلك تحلل النبي صلّى الله عليه وسلّم ومن معه من المسلمين من عمرتهم، وشرع التحلل للمحصر وأنه لا يلزمه القضاء «٧» .
وبعد أن أقام المسلمون في الحديبية عشرين يوما «٨» عاد بهم النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى المدينة وكانت غيبتهم هذه عنها قد امتدت شهرا ونصف الشهر «٩» .
وفي طريق عودة المسلمين من الحديبية تكررت معجزة النبي صلّى الله عليه وسلّم في تكثير الطعام والماء «١٠» ، وأنزلت سورة

---

(١) مسلم- الصحيح، كتاب الجهاد ص/ ٣٣.
(٢) أحمد- المسند ٤/ ٨٦ بسند صحيح.
(٣) مسلم- الصحيح- كتاب الجهاد (ص/ ١٣٢) حديث ١٨٠٧.
(٤) القرآن الكريم- سورة الفتح، الآية/ ٢٤.
(٥) البخاري- الصحيح (فتح الباري- الاحاديث ٢٧٣١، ٢٧٣٢) ، أحمد- المسند ٤/ ٣٢٦.
(٦) أحمد- المسند ٢/ ٣٤ باسناد صحيح.
(٧) البخاري- الصحيح (حديث ٢٧٠١) ، مسلم- الصحيح، كتاب الجهاد والسير ص/ ٩٧، أبو داود- السنن- كتاب المناسك (م ١٧٤٩) ، الحاكم- المستدرك ١/ ٤٦٧.
(٨) وقيل سبعة عشر يوما، انظر الواقدي- مغازي ٢/ ٦١٦، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٩٨.
(٩) ابن سيد الناس- عيون الأثر ٢/ ١٢٣.
(١٠) البخاري- الصحيح (فتح الباري، حديث ٤١٥٢) ، مسلم- الصحيح ٣/ ١٣٥٤ (حديث ١٧٨٥) ، أحمد- المسند ٣/ ٤١٧- ٤١٨، البيهقي- دلائل النبوة ٢/ ٢٢٢- ٣.

الفتح، وكان النبي صلّى الله عليه وسلّم واقفا براحلته «بكراع الغمام» ، فأسرع الناس إليه، فقرأ عليهم قوله تعالى: إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً «١» .
فقال رجل: يا رسول الله أفتح هو؟ قال: «نعم والّذي نفسي بيده إنّه لفتح» «٢» ، وأورد البخاري برواية صحيحة»
أن أصحابه قالوا: هنيئا مريئا فما لنا؟ فأنزل الله تعالى: لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَكانَ ذلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً «٤» ، فانقلبت كآبة المسلمين وحزنهم إلى فرح وحبور، وأدركوا أنهم لا يمكنهم أن يحيطوا بالأسباب والنتائج، وأن الخير كله هو في التسليم لأمر الله ورسوله.
ولقد أتاحت الهدنة المبرمة بين الطرفين للمسلمين فرصة التفرغ لتصفية آخر معاقل يهود في خيبر والتي كانت بؤرة تحريض ومكر ضد الدعوة الإسلامية، كما أتاحت لهم فرصة التفرغ لنشر الإسلام في بطون القبائل، وذلك ما عمل على التعجيل بنشر عقيدة التوحيد على نطاق واسع وهذا ما عناه الزهري في قوله عن صلح الحديبية: «فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضا، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلّم أحد بالإسلام يعقل إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك» «٥» وقد ساق ابن هشام في السيرة الدليل على صحة قول الزهري ودقته فقال: «إن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة، ثم خرج في عام الفتح بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف» «٦» .
فترة ما بين الحديبية وفتح مكة:
ما إن عاد الرسول صلّى الله عليه وسلّم والمسلمون إلى المدينة، حتى جاءه أبو بصير مسلما فارّا من قريش. وقد أرسلت قريش اثنين من رجالها مطالبة النبي صلّى الله عليه وسلّم بتنفيذ بنود صلح الحديبية بشأنه، فسلمه النبي صلّى الله عليه وسلّم إليهما، غير أن أبا بصير سرعان ما تمكن من قتل

أحد الرجلين وهم في طريق العودة إلى مكة، وفر ثانيهما إلى المدينة وخلفه أبو بصير، فلما انتهى إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم قال أبو بصير: «قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم ثم نجّاني الله منهم» . فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم: «ويل أمّه، مسعر حرب لو كان له أحد» !. فلما سمع أبو بصير مقالة النبي صلّى الله عليه وسلّم عرف أنه سيرده ثانية إلى

---

(١) القرآن الكريم- سورة الفتح، الآية/ ١، البخاري- الصحيح (فتح الباري: حديث ٤١٧٢) ، وفيه أوضح قتادة رواية عن أنس- رضي الله عنه- أن تفسيره الفتح بالحديبية مأخوذ عن أنس.
(٢) أبو داود- سنن، كتاب الجهاد (م ٢٧٣٦) ، أحمد- المسند ٣/ ٤٢٠.
(٣) البخاري- الصحيح (فتح الباري، حديث ٤١٧٢) .
(٤) القرآن الكريم- سورة الفتح، الآية/ ٥.
(٥) ابن هشام- السيرة ٣/ ٣٢٢.
(٦) المرجع السابق نفسه، والصفحة نفسها.
جـ ١(ص: ٣٤٣)

قريش، فخرج من المدينة وحده حتى أتى سيف البحر «١» .
فهم المسلمون المستضعفون بمكة من مقالة النبي صلّى الله عليه وسلّم لأبي بصير أنه بحاجة إلى أن يدعمه إخوانه من مسلمي مكة، فأخذوا يتسللون من مكة فرارا إلى أبي بصير عند سيف البحر، وكان من بين من لحق به أبو جندل بن سهيل بن عمرو وآخرون، حتى اجتمعت معه عصبة كبيرة، تسببت في نكبة كبيرة لتجارة قريش إلى الشام، فقد تعرضوا لقوافل قريش التجارية، يقتلون رجالها وحراسها ويستولون على أموالها وعيرها، فاضطرت قريش إلى التنازل عن البند الخاص بإعادة المسلمين الفارّين من قريش إلى ذويهم، وكتبت تستنجد بالنبي صلّى الله عليه وسلّم «تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم، فمن أتاه فهو آمن، فأرسل النبي صلّى الله عليه وسلّم إليهم» وهم بناحية العيص، فاستجابوا وقدموا عليه صلّى الله عليه وسلّم إلى المدينة «٢» . وبعد هذا الحدث وبعد أن تنازلت قريش عن شرط إعادة المسلمين من قريش إلى ذويهم جاء إسلام خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وهذا عزز معسكر المسلمين وقدراته، وخذّل قريشا وأحرجهم.
ولقد اقتصر الرسول صلّى الله عليه وسلّم في البداية على رد المسلمين الفارّين من الرجال بموجب بنود الصلح، أما النساء فلم يردّهن، ويرجع السبب في ذلك إما لعدم دخولهن في بنود العهد أصلا «٣» ، أو لأن القرآن قد نسخ ما ورد بحقهن في العقد في قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ ما أَنْفَقُوا وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ وَسْئَلُوا ما أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُوا ما أَنْفَقُوا ذلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ «٤» .
استمرت هدنة الحديبية نحو السبعة عشر أو الثمانية عشر شهرا، قبل أن تنقض قريش الهدنة حيث أعانت حلفاءها بني بكر ضد خزاعة حلفاء المسلمين على ماء الوتير قرب مكة، مما كان سببا في إبطال المعاهدة ومهد لفتح مكة.

رسائل النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى الملوك والأمراء

لقد كان صلح الحديبية فتحا كبيرا للإسلام، ذلك أنه أتاح الفرصة لتوسيع نطاق الدعوة إلى الله- عز وجل- داخل جزيرة العرب وخارجها، فقد وردت رواية صحيحة «٥» ، تضمنت نص كتاب النبي صلّى الله عليه وسلّم الذي بعثه

---

(١) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٥/ ٣٣٢ حديث ٢٧٣١، ٢٧٣٢) .
(٢) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٥/ ٣٣٢، حديث ٢٧٣٢) ، البيهقي- السنن ٩/ ٢٢٧، وقد وردت روايات متعددة حول عددهم فقد ساقه البيهقي من رواية الزهري مرسلا، ويذكر أنهم كانوا ثلاثمائة رجل في حين وردت روايات أخرى تجعلهم بين ٦٠- ٧٠ رجلا، وفي دلائل النبوة أن أبا بصير توفي قبل أن يقدموا المدينة، وأن أبا جندل قدم بالرجال بعد أن دفنه (٢/ ٣٤٣- ٤) .
(٣) وقد ورد في نصوص البخاري: «وعلى أنه لا يأتيك منا رجل» انظر (فتح الباري الاحاديث ٢٧١١، ٢٧١٢) ، وقد ورد أيضا نصّا آخر: «وعلى أنه لا يأتيك منا أحد» (فتح الباري ٦/ ٢٤٠) .
(٤) القرآن الكريم- سورة الممتحنة، الآية/ ١٠.
(٥) حديث أبي سفيان الطويل في صفة النبي صلّى الله عليه وسلّم والذي ورد في الصحيحين: البخاري- الصحيح (فتح الباري ١/ ٣٢- ٣٣ الأحاديث ٢٩٤٠- ٢٩٤١) ، مسلم- الصحيح ٣/ ١٣٩٣- ١٣٩٧، حديث ١٧٧٣) .

مع دحية الكلبي إلى هرقل- عظيم الروم «١» وذلك في مدّة هدنة الحديبية، وهو كما يلي:
«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتّبع الهدى: أمّا بعد، فإنّي أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرّتين، فإن تولّيت فإنّما عليك إثم الأريسيّين قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ «٢» . «٣» .
ولقد تسلم هرقل رسالة النبي صلّى الله عليه وسلّم ودقق في الأمر كما في الحديث الطويل المشهور بين أبي سفيان وهرقل المروي في الصحيحين حين سأله عن جميع أحوال النبي، وقال بعد ذلك لأبي سفيان: «إن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدميّ هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه» «٤» .
وأرسل النبي صلّى الله عليه وسلّم بكتاب إلى كسرى ملك الإمبراطورية الفارسية، مع عبد الله بن حذافة السهمي، «أمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين «٥» ، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه مزقه، فدعا عليهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يمزّقوا كلّ ممزّق» «٦» .

---

(١) دفعه دحية الكلبي إلى عظيم بصري فدفعه إلى هرقل.
(٢) القرآن الكريم- سورة آل عمران، الآية/ ٦٤.
(٣) استشكل عدد من الحفاظ المتأخرين ورود هذه الآية في الخطاب الذي ثبت أنه أرسل آخر العام السادس الهجري خلال هدنة الحديبية- وذلك لأنهم قالوا إنها إنما نزلت في السنة التاسعة بمناسبة قدوم وفد نجران، في حين وردت روايات أخرى تشير إلى أنها نزلت في يهود المدينة، ولعل في إيراد الشيخين لها في هذا الموضع ما يشير إلى ترجيهما لنزولها قبل تاريخ الرسالة، وقد وردت تفصيلات عن تتمة الخبر في موارد الظمآن لابن حبان (حديث ١٦٢٨) بإسناد صحيح، وفي كتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام (ص/ ٢٥٥) بإسناد صحيح، وانظر مسلم (شرح النووي ١٢/ ١٠٧، كتاب الجهاد/ ٥، كتب النبي صلّى الله عليه وسلّم) .
(٤) مسلم- الصحيح ٣/ ١٣٩٣- ٧، (حديث ١٧٧٣) .
(٥) وهو ملك البحرين المنذر بن ساوى كما في شرح المواهب اللدنية للزرقاني (٣/ ٣٤١) ، ولم يرد في صحيح البخاري اسم عظيم البحرين (فتح ٨/ ١٢٨) .
(٦) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٨/ ٢٦/ ح/ ٤٤٢٤) وقد ثبت أن الملك كسرى أبرويز بن هرمز هو الذي تسلم رسالة النبي صلّى الله عليه وسلّم ومزقها، قد مات في مارس ٦٢٨ م بمؤامرة دبرها له ولده شيرويه، وذلك يطابق ما أوردته النصوص من أن موته كان بعد ذلك ببضعة أشهر. الرواية مطولة في الطبري- تاريخ ٢/ ٦٥٥- ٦٥٧، وانظر ابن سعد- الطبقات ١/ ٢٦٠، وقد حصل اختلاف

كبير بين المصادر بشأن تاريخ الرسالة إلّا أن المعوّل عليه هو ما ذكره ابن القيم: أن إرسالها قد جرى في محرم سنة ٧ هـ (زاد المعاد ١/ ٣٠) ، وأما في تاريخ خليفة ابن خياط ص/ ٧٩، والواقدي (السيرة لابن هشام ٤/ ٢٧٩) ، والطبري- تاريخ ٢/ ٢٨٨) ، فقد جعلوها سنة ٦ هـ، ولم يحدد البخاري تاريخا للرسالة. وإنما مر بذكرها بعد حديثه عن غزوة تبوك دون مراعاة لعنصر الزمن مما يشير إلى أنه أراد الإشعار بها، وذلك ما ذهب إليه ابن حجر (فتح ١/ ٣٩، ٨/ ١٢٩) .
جـ ١(ص: ٣٤٥)

أما نص الرسالة فقد ورد في التاريخ للطبري «١» والأموال لأبي عبيدة القاسم بن سلام «٢» ، كما أورده ابن طولون في إعلامه «٣» ونص الكتاب كما أورده الطبري كالتالي: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمّد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتّبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلّا الله وأنّي رسول الله، إلى النّاس كافة، لينذر من كان حيّا، أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس» «٤» .
أما كتاب النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى النجاشي ملك الحبشة فقد ثبت أنه أرسله مع عمرو بن أمية الضمري، وأورد الإمام مسلم خبر إرسال الكتاب، وأوضح أن النجاشي المقصود ليس النجاشي الذي أسلم «٥» ، وأورد أبو داود في سننه قطعة من كتاب النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى النجاشي «٦» .
ونقل الزيلعي وابن طولون وغيرهما نص كتاب النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى النجاشي برواية الواقدى «٧» ، وقد جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمّد رسول الله، إلى النّجاشيّ ملك الحبشة، أسلم أنت، فإنّي أحمد إليك الله الّذي لا إله إلّا هو الملك القدّوس السّلام المؤمن المهيمن، وأشهد أنّ عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطّيّبة الحصينة فحملت به، فخلقه من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده، وإنّي أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة عن طاعته، وأن تتّبعني وتؤمن بالّذي جاءني فإنّي رسول الله، وإنّي أدعوك وجنودك إلى الله- عزّ وجلّ-، وقد بلّغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتي، والسّلام على من اتّبع الهدى» «٨» .

---

(١) الطبري- تاريخ الرسل والملوك ٢/ ٦٥٤- ٥ وروايته بإسناد مرسل.
(٢) أبو عبيد- الأموال ٢٥٣ بإسناد مرسل.
(٣) ابن طولون- إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين ص/ ٦١- ٢.
(٤) تاريخ ٢/ ٦٥٤- ٦٥٥ واورد الطبري بعدها نص الرسالة برواية ابن إسحاق وقد جاء فيها بعد التشهد عبارة، «وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأدعوك بدعاء الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيّا ويحق القول على الكافرين فأسلم تسلم، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك» (٢/ ٦٥٤- ٥) .
(٥) مسلم- الصحيح ٣/ ١٣٩٧ حديث ١٧٧٤، وعن حامل الرسالة انظر أسد الغابة ٤/ ١٩٣- ٤، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٢٥٨.
(٦) أبو داود- السنن ٤/ ٤٩٠ كتاب الملاحم- النهي عن تهييج الحبشة (حديث ٤٣٠٩) ، ولم يثبت نص الكتاب فقد أورده ابن إسحاق دون إسناد (مسلم- الصحيح ٣/ ١٣٩٧) (حديث ١٧٧٤) وذكرت المصادر عددا من النصوص الاخرى التي لا تثبت عند المحدثين إذ وردت دون أسانيد صحيحة.
(٧) الزيلعي- نصب الراية لأحاديث الهداية ٤/ ٤٢١، ابن طولون- إعلام السائلين ص ٥٠- ١ ونقل عن ابن المديني نصوص جواب النجاشي إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم، انظر ابن طولون- إعلام السائلين ص/ ٥٠، الزيلعي- نصب الراية ٤/ ٤٢١، الطبري- تاريخ ٢/ ٦٥٣، ابن سيد الناس- عيون الأثر ٢/ ٢٦٤- ٢٦٥. ومع أن إسلام النجاشي وصلاة النبي صلّى الله عليه وسلّم صلاة الغائب عليه عند وفاته سنة ٩ هـ هي من الأمور الثابتة والصحيحة، فإن حال الكتاب الذي أرسله لم يثبت من طريق صحيح (حميد الله الحيدر آبادي- مجموعة الوثائق- الأرقام ٢٣، ٢٤) .
(٨) الزيلعي- نصب الراية ٤/ ٤٢١.

أما كتاب النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى المقوقس حاكم مصر «١» وكذلك رد المقوقس إليه «٢» فلم تثبت من طرق صحيحة، ولا يعني ذلك نفي إرسال الكتاب إليه، كما أن ذلك لا يعني الطعن بصحة النصوص من الناحية التاريخية فربما تكون صحيحة من حيث الشكل والمضمون غير أنها لا يمكن أن يحتج بها في السياسة الشرعية وذلك يسري على معظم وثائق العهد النبوي الأخرى إذ لا مجال لتصحيحها من الناحية الحديثية ولم تعن الكتب الستة بتخريجها مع بعض الاستثناءات، رغم أن الكثير منها يمكن أن يكون صحيحا من الناحية التاريخية «٣» ، فلقد أورد محمد بن سعد في طبقاته «٤» أن النبي صلّى الله عليه وسلّم بعث إلى المقوقس، جريج بن مينا ملك الإسكندرية وعظيم القبط، كتابا مع حاطب بن أبي بلتعة اللخمي، وأنه قال خيرا وقارب الأمر، غير أنه لم يسلم وأهدى إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم عدة هدايا كان بينها ماريّة القبطية، وأنه لما ورد جواب المقوقس إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم قال: «ضنّ الخبيث بملكه، ولا بقاء لملكه» «٥» .

وأورد الطبري رواية أسندها إلى ابن إسحاق جاء فيها أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعث شجاع بن وهب، أخا بني أسد ابن خزيمة، برسالة إلى المنذر بن الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق «٦» ، حين عودته والمسلمين من الحديبية، وقد تضمن نص الرسالة التي أسندها الطبري إلى محمد بن عمر الواقدي قوله: «سلام على من اتّبع الهدى، وآمن به، إنّي أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقي لك ملكك» . «٧»

وقد أظهر الحارث الغساني رفض الإسلام، والامتعاض من محتويات الرسالة، وحشد قواته لغزو المدينة، غير أن هرقل تدخل في الأمر ودعاه إلى إيلياء «٨» .

---

(١) أوردت بعض المصادر التاريخية وكذلك كتب السيرة كتابين نسبوهما إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم، غير أنهما لم يثبتا من طريق صحيحة.

(٢) ذكرت بعض المصادر كتابين رد بهما المقوقس على النبي صلّى الله عليه وسلّم وهما لم يثبتا أيضا من طريق صحيحة.

(٣) أكرم العمري- السيرة النبوية الصحيحة ٢/ ٤٥٩.

(٤) الطبقات الكبرى ١/ ٢٦٠- ٢٦١.

(٥) المصدر السابق ١/ ٢٦٠- ٦١ برواية الواقدي، وابن هشام- السيرة ١/ ٢٤٧، وانظر: ابن حجر- الإصابة ٣٠٠١، ٣/ ٣٣٥، ٤/ ٤٠٥، ابن كثير- البداية ٥/ ٣٤٠. وقد أورد الزيلعي- نصب الراية ٤/ ٤٢٤ نصوص الرسائل المتبادلة بين الرسول صلّى الله عليه وسلّم والمقوقس وكذلك ابن طولون- إعلام السائلين ص/ ٧٧- ٨١. وقد عثر المستشرق الفرنسي (ymelehtraB) في منطقة أخميم في صعيد مصر عام ١٨٥٠ م على رسالة النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى المقوقس مكتوبة على جلد قديم، وقد نشرها في المجلة الآسيوية ١٨٥٤ م وقد وثق بها كل من المستشرقين بلين، ونولدكه. ونشر الدكتور عون الشريف قاسم الرسالة في كتابه «دبلوماسية محمد» ص/ ٨٠- ٨٦، ومن الجدير بالذكر أن أقدم نص لرسالة النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى المقوقس قد أوردها ابن عبد الحكم في فتوح مصر ص/ ٤٦ ونقلها القسطلاني في المواهب اللدنية ١/ ٢٩٢- ٢٩٣.

(٦) وهو من أمراء الغساسنة وكانت إقامته على ما يظهر من النص في دمشق، الطبري- تاريخ ٢/ ٦٥٢.

(٧) الطبري- تاريخ ٢/ ٦٥٢، والسند الأول من طريق ابن إسحاق، والثاني من طريق الواقدي وكلاهما ضعيف.

(٨) ابن سعد- الطبقات ٣/ ٣٥٦، والراجح أن هذه الرسالة قد وصلت الحارث في الوقت نفسه الذي تسلم فيه هرقل رسالة النبي صلّى الله عليه وسلّم التي وجهها له مع دحية الكلبي، وبقية القصة أوردها ابن سيد الناس- عيون الاثر ٢/ ٢٧٠- ٧١، من رواية الواقدي أيضا وفيها نص الرسالة، وأورد ابن

هشام- السيرة ٤/ ٣٣٩ خبر إرسال النبي صلّى الله عليه وسلّم لشجاع بن وهب إلى الحارث بن أبي شمر الغساني بإسناد ضعيف.
جـ ١(ص: ٣٤٧)

وكتب النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى هوذة بن علي الحنفي «١» كتابا أرسله مع سليط بن عمرو العامري، مقدمه من الحديبية، وقد اشترط هوذة الحنفي على الرسول صلّى الله عليه وسلّم بعد قراءته رسالته إليه أن يجعل له بعض الأمر معه، فرفض النبي صلّى الله عليه وسلّم أن يقبل ذلك» .
وكتب النبي صلّى الله عليه وسلّم كتابا إلى المنذر بن ساوى العبدي، أمير البحرين، مع أبي العلاء الحضرمي «٣» بعد انصرافه من الحديبية، ونقلت المصادر التاريخية أن المنذر قد استجاب لكتاب النبي صلّى الله عليه وسلّم، فأسلم، وأسلم معه جميع العرب بالبحرين، فأما أهل البلاد من اليهود والنصارى والمجوس فإنهم صالحوا العلاء والمنذر على الجزية من كل حالم دينار «٤» ، ونقل أبو عبيد القاسم بن سلام نص كتاب النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى المنذر بن ساوى برواية عروة بن الزبير، وجاء فيه: «سلام أنت، فإنّي أحمد إليك الله الّذي لا إله إلا هو، أمّا بعد: فإنّ من صلّى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الّذي له ذمّة الله وذمّة الرّسول، فمن أحبّ ذلك من المجوس فإنّه آمن ومن أبى فإنّ الجزية عليه» «٥» .
وفي ذي القعدة سنة ثمان من الهجرة بعث النبي صلّى الله عليه وسلّم عمرو بن العاص بكتابه إلى جيفر وعبد ابني الجلندى الأزديين بعمان «٦» . وقد جاء فيه: «من محمّد النّبيّ رسول الله لعباد الله الأسبذيّين ملوك عمان، وأسد عمان «٧» ، ومن كان منهم بالبحرين إنّهم إن آمنوا وأقاموا الصّلاة، وآتوا الزّكاة وأطاعوا الله ورسوله وأعطوا حقّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ونسكوا نسك المؤمنين، فإنّهم آمنون وأنّ لهم ما أسلموا عليه، غير أنّ مال بيت النّار ثنيا لله ورسوله، وأنّ عشور التّمر صدقة، ونصف عشور الحبّ، وأنّ للمسلمين نصرهم ونصحهم، وأنّ لهم على المسلمين مثل ذلك، وأنّ لهم أرحاءهم يطحنون بها ما شاءوا» «٨» .

---

(١) وكان صاحب اليمامة، ومات بعد فتح مكة بقليل، الزيلعي- نصب الراية ٤/ ٤٢٥.
(٢) ذكر ابن سعد الخبر في طبقاته (١/ ٢٦٢) دون أن يذكر نصوص الرسائل المتبادلة، وانظر ابن سيد الناس- عيون الأثر ٢/ ٢٦٩- ٢٧٠، الزيلعي- نصب الراية ٤/ ٤٢٥، ابن طولون- إعلام السائلين ص/ ١٠٥- ١٠٧.
(٣) أوردها ابن سيد الناس- عيون الأثر ٢/ ٢٦٦- ٢٦٧، أبو عبيد القاسم- الأموال ص/ ٣٠ من رواية عروة بن الزبير مرسلا، وأرخه قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي في السنة الثامنة للهجرة، ابن طولون- إعلام السائلين ص/ ٥٦- ٥٧ كما أورد ابن سعد في الطبقات ١/ ٢٦٣، طرفا منها، وانظر الزيلعي نصب الراية ١٤/ ٤٢٠، القلقشندي- صبح الأعشى ٦/ ٣٦٨، ابن الأثير- الكامل في التاريخ ٢/ ٢٦٥.
(٤) ابن الأثير- الكامل ٢/ ١٤٦- ١٤٧، ولم يورد نص رسالة النبي صلّى الله عليه وسلّم إليه ولا جوابه وكذلك فعل ابن سيد الناس- عيون ٢/ ٢٦٦- ٢٦٧، وهناك روايات أخرى تشير إلى رسالة الرسول صلّى الله عليه وسلّم الأولى إلى المنذر، ولكنها مؤرخة في رجب سنة ٩ هـ منصرفه من تبوك انظر ابن طولون- إعلام السائلين ص/ ٥٨ من رواية الواقدي، وذكر ذلك الزيلعي- تخريج أحاديث الهداية ٤/ ٤١٩- ٤٢٠.
(٥) أبو عبيد- الأموال ص/ ٢٨.
(٦) ابن طولون- إعلام السائلين ص/ ٥٨، الزيلعي- تخريج أحاديث الهداية ٤/ ٤١٩- ٤٢٠، القلقشندي- صبح ٦/ ٣٧٦.
(٧) أشد عمان: قبيلة، يقال لها أزد وأسد (بالزاي والسين) .

(٨) أبو عبيد- الأموال ص/ ٢٨- ٢٩، وانظر النص في البلاذري- فتوح ص/ ١/ ٩٦ من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما-، ونص فيه: «ولم تمجّسوا أولادكم، فلكم ما أسلمتم عليه، غير أن بيت النار لله ورسوله، فإن أبيتم فعليكم الجزية» والمقصود هو أنّ خزائن بيوت النار التي ألغاها الإسلام تصبح فيئا.

جـ ١(ص: ٣٤٨)

وأوردت المصادر بعد ذلك عددا كبيرا من المرويات عن رسائل أخرى لم تثبت من الناحية الحديثية منها كتاب النبي صلّى الله عليه وسلّم؟ إلى كل من أهل دما «١» ، ورعية السّحيمي «٢» ، ومسيلمة الكذاب «٣» ، وعظيم بصري «٤» ، وبكر بن وائل «٥» ، وبني عمرو بن حمير «٦» ، وجبلة بن الأيهم «٧» ، وذي الكلاع بن ناكور، وذي عمرو «٨» ، ومعد يكرب بن أبرهة «٩» ، وأسقف بني الحارث، وأساقفة نجران «١٠» ، وصاحب أيلة «١١» ، وابن ظبيان الأزدي الغامدي «١٢» ، وزعماء حمير «١٣» ، ونفاثة بن فروة الدئيلي ملك السماوة «١٤» . ومن الممكن أن تكون هذه الرسائل صحيحة من الناحية التاريخية، ولكنها تبقى دون الاحتجاج بها في موضوعات العقيدة والشريعة، وإلى جانب ذلك فإن هذه الرسائل في مجموعها تؤكد على عالمية الإسلام وأن النبي صلّى الله عليه وسلّم قام بالتبليغ على أوسع نطاق.

غزوة ذي قرد:

وقعت هذه الغزوة قبل غزوة خيبر بثلاث ليال «١٥» ، فقد أغار عبد الرحمن بن عيينة بن حصن الفزاري على لقاح «١٦» لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم كانت ترعى بذي قرد، فأخذها بعد أن قتل راعيها، وحين علم سلمة بن الأكوع بما حدث فإنه أنذر إخوانه المسلمين وبادر بعد ذلك فلحق بعبد الرحمن الفزاري ورجاله، وأخذ يرميهم بنبله حتى استنقذ اللقاح من أيديهم وتهاربوا عنه حين وصله النبي صلّى الله عليه وسلّم والمسلمون، وقد أردف النبي صلّى الله عليه وسلّم سلمة بن الأكوع

---

(١) ابن طولون- إعلام السائلين ص/ ٩٧- ٩٨، ابن الأثير- الكامل ٢/ ٢٢٥، وعن موضع دما وهي من قرى البحرين، انظر: معجم البلدان ٢/ ٤٦١.

(٢) ابن حجر- الإصابة ١/ ٥١٦، ابن طولون- إعلام السائلين ص/ ٩٩- ١٠١، وانظر أحمد- المسند ٥/ ٥٨٥.

(٣) ابن سعد- الطبقات ١/ ٢٧٣.

(٤) الواقدي- المغازي ٢/ ٧٥٥- ٧٥٦.

(٥) ابن حبان- موارد الظمآن، رقم (١٦٢٦) . بسنده إلى أنس بن مالك، ابن طولون- إعلام ص/ ١٣٢، الزيلعي- نصب الراية ٤/ ٤١٩.

(٦) ابن سعد- الطبقات ١/ ٢٦٥ من رواية الواقدي.

(٧) المرجع السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٨) المرجع السابق ١/ ٢٦٥- ٢٦٦.

(٩) المرجع السابق ١/ ٢٦٦.

(١٠) المرجع السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(١١) المرجع السابق ١/ ٢٧٧- ٢٧٨.

(١٢) المرجع السابق ١/ ٢٨٠.

(١٣) المرجع السابق ١/ ٢٨٢ من حديث الزهري.

(١٤) المرجع السابق ١/ ٢٨٤.

(١٥) حدد تاريخها الإمام البخاري عند ترجمته لهذه الغزوة وقد رجح ابن حجر في الفتح ٧/ ٤٦٠ (حديث ٤٦٠) ، وابن كثير في البداية والنهاية ٤/ ١٧٣ ذلك.

(١٦) جمع لقحة وهي النياق ذات اللبن.

خلفه على راحلته تكريما له حتى دخلوا المدينة. «١»
سرية أبان بن سعيد بن العاص:
لم تحدد المصادر الجهة التي وجه النبي صلّى الله عليه وسلّم هذه السرية إليها في نجد، كما لم يرد ما يوضح عدد المشاركين فيها، أو نتائجها، وقد عادت السرية على النبي صلّى الله عليه وسلّم وهو بخيبر بعد أن تم فتحها «٢» .

غزوة خيبر

كان إجلاء بني النضير عن المدينة ونزول زعمائهم في خيبر حاسما في بلورة موقف معاد ليهود خيبر تجاه المسلمين، وهو أمر لم يكن ظاهرا قبل ذلك «٣» ، وحين نزل سلّام بن أبي الحقيق وابن أخيه كنانة بن الربيع، وحيي بن أخطب خيبر فقد دان لهم أهلها بالولاء والطاعة «٤» ، وكان لذلك أثره في تصدي يهود خيبر للصراع ضد الإسلام والمسلمين، حيث جرهم قادتهم الجدد إلى التصدي للإسلام بغية الانتقام وبدافع حقدهم الدفين على المسلمين، ورغبتهم العارمة في استعادة ديارهم ومواقعهم ومصالحهم في المدينة ولذلك فقد أجلوا منها. وهكذا فقد قام يهود خيبر وزعماؤهم الجدد بدور بارز في تجميع الأحزاب وحشدهم ضد المسلمين، بل إنهم أنفقوا أموالهم، واستغلوا علاقاتهم مع يهود بني قريظة من أجل نصرة الأحزاب. وطعن المسلمين في ظهورهم «٥» ، وهكذا أصبحت خيبر مصدر خطر كبير على المسلمين ودولتهم النامية.
تفرغ المسلمون بعد صلح الحديبية لتصفية خطر يهود خيبر الذي أصبح يهدد أمن المسلمين، ولقد تضمنت سورة الفتح التي نزلت بعد الحديبية وعدا إلهيّا بفتح خيبر وحيازة أموالها غنيمة، قال تعالى: لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً* وَمَغانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَها وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً* وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً* وَأُخْرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها قَدْ أَحاطَ اللَّهُ بِها وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً «٦» .

---

(١) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٤/ ١٧٣، حديث ٤١٩٤) ، مسلم- الصحيح ٣/ ١٤٣٢- ١٤٤١، (حديث ١٨٠٦) ، ابن كثير- البداية والنهاية ٤/ ١٧٣.
(٢) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٤٩٨- ٩، حديث ٤٢٣٨) .
(٣) ينقل ابن هشام في السيرة (٣/ ٢٧٢) ما يفيد بأن حادثة إجلاء بني النضير عن المدينة لم يكن كافيا لكسر شوكتهم فقد غادروا المدينة ومعهم النساء والأولاد والأموال بل وحتى القيان، وأنهم خرجوا في تظاهرة اعتداد بالنفس غريبة، فقد «كانت العازفات خلفهم يضر بن بالدفوف ويزمرن بالمزامير وهم يغادرون بخيلاء وفخر واعتداد بالنفس لم يحصل مثله في حي من الناس في زمانهم» .
(٤) المرجع السابق ٣/ ٢٧٣.
(٥) ابن هشام- السيرة ٣/ ٢٥٣- ٢٥٥، وكان ذلك سببا في العقوبة الرادعة التي أنزلت ببني قريظة بعد فشل غزوة الأحزاب، وكذلك في إرسال سرية عبد الله بن عتيك لقتل سلام بن أبي الحقيق (البخاري- الصحيح، فتح الباري- كتاب المغازي ٧/ ١٣٤٠) .
(٦) القرآن الكريم- سورة الفتح، الآيات/ ١٨- ٢١. وقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن الإشارة في قوله تعالى: وعجّل لكم هذه تعني فتح خيبر، انظر ابن كثير- التفسير ٧/ ٣٢٢ وهو قول مجاهد، وانظر ما أورده ابن حجر- فتح الباري ٧/ ٤٦٤ برواية ابن إسحاق عن المسور، ومروان وقولهما: «يعني خيبر» .

وقد كانت غزوة خيبر في المحرم من السنة السابعة للهجرة على أرجح الأقوال «١» رغم الخلاف بين مؤلفي كتب السيرة والمغازي حول ذلك «٢» .
وقاد الرسول صلّى الله عليه وسلّم جيش المسلمين وكان عدده ألفا وأربعمائة مقاتل فيهم مائتا فارس، ولم يغب عن المشاركة في غزوة خيبر أحد من أصحاب بيعة الرضوان في الحديبية سوى جابر بن عبد الله «٣» وكانت الروح المعنوية للمسلمين عالية، وكانوا يلهجون بالتهليل والتكبير لله تعالى بأصوات مرتفعة، مما يشعر بمدى إيمانهم وتوكلهم على الله، وثقتهم بالنصر منه سبحانه، وقد طلب منهم النبي صلّى الله عليه وسلّم أن يرفقوا بأنفسهم فقال:
«إنّكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم» «٤»
، وقد سلك المسلمون طريق ثنية الوداع فزغابة، ونقمي، فالمستناخ، فعصر، فالصهباء، فالخرصة، وحين وصلوا منطقة خيبر سلكوا بين الشق والنطاة، ثم المنزلة، ثم الرجيع التي تقع شمال شرق خيبر حيث عسكروا فيها «٥» ، ويبدو أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قصد من ذلك أن يعزل خيبر عن المنطقة الشمالية، كما يعزلها عن حلفائها من غطفان.
نزل المسلمون بساحة يهود خيبر قبل بزوغ الفجر، وصلوا الصبح مع النبي صلّى الله عليه وسلّم، ثم باشروا الهجوم مع شروق الشمس «٦» ، وقد فوجيء الفلاحون من يهود بالمسلمين حين كانوا في طريقهم إلى أشغالهم، فصاحوا: «محمد والخميس!» ، فقال الرسول صلّى الله عليه وسلّم: «الله أكبر خربت خيبر، إنّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين» «٧» .
وقد تهارب اليهود إلى حصونهم وأغلقوها دونهم فحاصرهم المسلمون، وحاولت قبيلة غطفان نجدة حلفائها اليهود، ولكنهم لم يشتركوا في القتال خوفا من أن يهاجم المسلمون ديارهم «٨» .

---

(١) قال بذلك ابن إسحاق، انظر سيرة ابن هشام ٢/ ١٣٠، الواقدي- مغازي رسول الله ٢/ ٦٣٤، ابن حجر- فتح الباري ٧/ ٤٦٤.
(٢) يكمن مرد الخلاف في الأصل إلى الاختلاف في تحديد بداية السنة الهجرية الأولى فقد احتسب بعضهم الأشهر بين محرم وربيع الأول وهو شهر الهجرة مما نجم عن احتساب إضافة سنة واحدة كاملة الى تواريخ الحوادث بسبب أن السنة الهلالية الشرعية تبدأ من المحرم، ومنهم من امتنع عن ذلك واهملها معتبرا ربيع الأول بداية التقويم، وبذلك فإنه أسقط تسعة أشهر من تاريخ الحوادث، وفي هذه المناسبة ذهب كل من الزهري ومالك إلى أن خيبر وقعت في المحرم من السنة السادسة (ابن عساكر- تاريخ دمشق ١/ ٣٣) في حين ذهب محمد بن سعد إلى أنها وقعت في جمادى الأولى سنة ٧ هـ (الطبقات ٢/ ١٠٦) في حين اعتبرها شيخه الواقدي في صفر أو ربيع الأول السنة السابعة (المغازي ٢/ ٦٣٤) .
(٣) أبو داود- السنن، كتاب الخراج والفيء والأمارة ٣/ ٤١٣، الحاكم- المستدرك، ٢/ ١٣١، وكان غياب جابر بعذر مشروع (ابن هشام- السيرة النبوية ٣/ ٤٦٧) .
(٤) البخاري- الصحيح، كتاب المغازي- باب غزوة خيبر ٧/ ٤٧٠ (حديث ٤٢٠٥) .
(٥) الواقدي- مغازي ٢/ ٦٣٩.
(٦) الواقدي- مغازي ٢/ ٦٣٩، ابن هشام- سيرة ٣/ ٤٣٨.
(٧) البخاري- الصحيح، كتاب الصلاة ١/ ٤٧٨، (حديث ٦١٠) ، مسلم- الصحيح ٣/ ١٤٢٦- ١٤٢٧، حديث ١٣٦٥) .
(٨) ذكر ابن إسحاق أنهم تجمعوا وساروا نحو خيبر وبعد أن قطعوا مرحلة، سمعوا خلفهم في أموالهم وأهليهم حسا فظنوا أن المسلمين قد خالفوا إليهم فرجعوا وخلوا بين الرسول صلّى الله عليه وسلّم وبين خيبر (ابن هشام- السيرة ٣/ ٤٣٨) ، ويقرر الواقدي وصول غطفان إلى حصون خيبر وينفرد بالقول أنهم رفضوا عرضا من النبي صلّى الله عليه وسلّم بمنحهم تمر خيبر لذلك الموسم مقابل إنسحابهم، ولا

يصح الاعتماد على هذه المعلومات لضعف الواقدي وعدم ورود ذلك من طرق أخرى (الواقدي- مغازي ٣/ ٦٥٠) .
جـ ١(ص: ٣٥١)

بدأ المسلمون حصارهم لحصون خيبر، وحمل أبو بكر الصديق- رضي الله عنه- الراية خلال اليومين الأولين من حصار حصن ناعم، ولقي المسلمون مقاومة عنيفة وأصابتهم شدة وجهد، ولم يتمكنوا من فتح الحصن خلال تلك الفترة فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم: «إنّي دافع اللّواء غدا إلى رجل يحبّه الله ورسوله، ويحبّ الله ورسوله، ولا يرجع حتّى يفتح له» «١» ، فطابت نفوس المسلمين، فلما صلّى فجر اليوم الثالث دعا علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- ودفع إليه اللواء فحمله فتم فتح الحصن على يديه «٢» ، وكان النبي صلّى الله عليه وسلّم قد أوصى عليّا بأن يبدأ بدعوة يهود إلى الإسلام وبأن يقاتلهم إذا رفضوا ذلك «حتّى يشهدوا أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّدا رسول الله، فإذا فعلوا ذلك منعوا منك دماءهم وأموالهم إلّا بحقّها وحسابهم على الله» «٣» ، وقد استشهد في حصار حصن ناعم محمود بن مسلمة الأنصاري الذي ألقى عليه مرحب اليهودي رحى من أعلى الحصن، وقد بارزه عليّ بعد ذلك فقتله، وكان لذلك أثره السلبي في هبوط معنويات اليهود، فقد كان مرحب من أبطالهم المعدودين «٤» . وواصل اليهود في حصن الناعم مقاومتهم الحصار الإسلامي الذي استمر لمدة عشرة أيام «٥» .
توجه المسلمون بعد فتح حصن الناعم إلى حصار حصن الصعب بن معاذ في منطقة النطاة، وقد تحصن فيه خمسمائة مقاتل من اليهود ومعهم المؤن والطعام والمتاع، وقد أبلى المسلمون، وحامل رايتهم الحباب بن المنذر، بلاء حسنا وأحكموا الحصار، واستمرت مقاومة اليهود ثلاثة أيام قبل أن يفتح الله بالنصر للمسلمين، وقد غنموا منه الكثير من الطعام والمتاع «٦» .
وكان حصن قلعة الزبير آخر حصون منطقة النطاة، وأكثرها حصانة، وقد تجمع فيه إضافة إلى من كان فيه أصلا، أولئك الذين فروا من حصني ناعم والصعب وبقية حصون اليهود القريبة، وحاصرهم المسلمون، وقطعوا عن الحصن مجرى الماء واضطروهم إلى الخروج من الحصن للقتال، وأصابوا منهم عشرة من مقاتليهم، قبل أن يتم فتح الحصن بعد ثلاثة أيام من الحصار «٧» .

(١) أحمد- المسند ٥/ ٣٥٣.
(٢) أحمد- المسند ٥/ ٣٥٣، الحاكم- المستدرك ٣/ ٣٧، الهيثمي- مجمع الزوائد ٦/ ١٥٠، وأصل الرواية ورد في صحيح مسلم ٤/ ١٨٧٢ (الاحاديث ٢٤٠٥- ٢٤٠٧) وليس فيه خبر حمل أبي بكر الراية، ووردت عدة روايات ضعيفة أخرى فيها أن عمر- رضي الله عنه- هو حامل الراية، وبأنه قد تعاقب مع أبي بكر- رضي الله عنه- عليها.
(٣) مسلم- الصحيح، كتاب الفضائل ٤/ ١٨٧٢، وانظر شرح النووي على صحيح مسلم ١٥/ ١٧٧.
(٤) مسلم- الصحيح ٣/ ١٤٣٣ (حديث ١٨٠٧) ، وانظر ابن هشام- السيرة ٣/ ٤٣٨، الواقدي- مغازي ٢/ ٦٤٥ وقد وردت عدة روايات تفيد أن عليا تترس بأحد أبواب الحصن بعد أن أسقط ترسه بعد مبارزته لأحد أبطال اليهود وكلها روايات ضعيفة وإهمالها وعدم إعتبارها لا ينفي عن علي- رضي الله عنه- قوته وشجاعته وجهاده وصلابته ويكفيه ما قاله الرسول صلّى الله عليه وسلّم عنه وما ورد في فضائله بالمرويات الصحيحة. انظر الساعاتي- الفتح الرباني ٢١/ ١٢٠، ابن هشام السيرة ٣/ ٤٤٦، ابن كثير- السيرة ٣/ ٣٥٩، ابن حجر الإصابة ٢/ ٥٠٩، البيهقي- دلائل ٤/ ٢١٢، الشامي السيرة ٥/ ٢٠١.
(٥) الواقدي- المغازي ٢/ ٦٥٧، وانظر البيهقي- دلائل ٤/ ٢١٢.
(٦) الواقدي- المغازي ٢/ ٦٥٩- ٦٦٣.
(٧) الواقدي- المغازي ٢/ ٦٦٣- ٦٧٠، الشامي- سبل ٥/ ٢٠٢- ٢٠٦.
جـ ١(ص: ٣٥٢)

انتقل المسلمون بعد ذلك من معسكرهم في الرجيع، وعسكروا في منطقة المنزلة بعد أن تخلصوا من أهل النطاة الذين كانوا أشد وأشرس اليهود، وقد ارتفعت معنويات المسلمين كثيرا بسبب انتصاراتهم المتكررة على عدوهم وحيازتهم طعامه ومتاعه، في الوقت الذي انحطت فيه معنويات يهود خيبر الآخرين، إضافة إلى ما أصابهم من رعب وقنوط وهم يشاهدون حصون منطقة النطاة وهي تتهاوى تحت ضربات المسلمين وحصارهم.
وتوجه المسلمون لفتح منطقة الشق التي تحتوي على عدد من حصون اليهود أهمها حصن أبيّ، وحصن النزار، وبعد مبارزات فردية هجم المسلمون على حصن أبّي فاقتحموه وحازوا ما فيه من طعام ومتاع، وتمكن بعض مقاتلة اليهود من الانتقال إلى حصن نزار، فدعموا مقاومته بوجه الهجوم الإسلامي، وقاتلوا بالنبال والحجارة، غير أنهم سرعان ما تهاوت مقاومتهم، وكتب الله النصر للمسلمين، وفتح الحصن، وفر من تمكن من مقاتلته إلى منطقة الكتيبة حيث تحصنوا في حصن القموص المنيع، كما التحق بعضهم بمن كان في حصني الوطيح والسلالم. وقد حاصرهم المسلمون أربعة عشر يوما، حتى طلبوا الصلح دون أن يحصل قتال «١» ، وكان القتال عند حصن نزار في منطقة الشق هو آخر قتال ليهود خيبر، فقد انهارت بعد ذلك مقاومتهم، فاقتصروا على التحصن في قلاعهم وآطامهم وحصونهم وكانوا دائما ينزلون على الصلح «٢» والثابت أن يهود حصن القموص سألوا النبي صلّى الله عليه وسلّم الصلح ثم نكثوا العهد فحاز أموالهم «٣» ، وتواترت الروايات الصحيحة على أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قد فتح خيبر عنوة فقد غلب على الأرض والنخل وألجأهم إلى حصونهم التي قاتلهم عليها أو صالحهم فنكثوا العهد «٤» .
ولقد أيقن يهود حصني الوطيح والسلالم بعدم جدوى المقاومة بعد أن سقطت حصونهم الشمالية المنيعة:
النطاة والشق والقموص، ولذلك فإنهم سألوا النبي صلّى الله عليه وسلّم أن يسيّرهم وأن يحقن دماءهم، وقد وافق النبي صلّى الله عليه وسلّم على ذلك «٥» . وبذلك فقد سقطت سائر منطقة خيبر أرضها وزروعها ومياهها وحصونها بيد المسلمين «٦» .

---

(١) الواقدي- المغازي ٦٥٨- ٦٧١.
(٢) انفرد الواقدي بتقديم صورة واضحة عن أحداث فتح منطقة خيبر ووادي القرى وفدك وما جاورها، ومع أنه ضعيف عند المحدثين والنقاد، فإنه إخباري غزير المعلومات، وما يقدمه في هذا المجال هو مما يتساهل فيه من الأخبار.
(٣) وكان صلحهم على أن للمسلمين ما كان عندهم من ذهب وفضة وسلاح ودروع «الصفراء والبيضاء والحلقة» ، وأن لهم ما حملت ركابهم، على ألّا يكتموا ولا يغيبوا شيئا فإن فعلوه فلا ذمة لهم ولا عهد، فغيبوا مسكا لحيي بن أخطب، وحين سئلوا عنه أنكروا وجوده وادعوا أنه إنما أذهبته الحروب والنفقات، فوجد المسلمون المسك عندهم مما أسقط ذمتهم وعهدهم (ابو داود- السنن ٣/ ٤٠٨) .
(٤) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٣/ ٣٢ حديث ١٣٦٥) ، مسلم الصحيح ٣/ ١٤٢٧ (حديث ١٣٦٥) ، أبو داود- السنن ٣/ ٤٠٨- ٤١٠، كتاب الخراج (حديث ٣٠٠٩) بإسناد صحيح وقد جزم ابن القيم في زاد المعاد ٣/ ٣٥٢- ٣٥٤ أنها فتحت عنوة، وبه قال ابن عبد البر- الدرر ص/ ٢١٤.
(٥) ابن هشام- السيرة ٣/ ٤٤٩.
(٦) لقد صح عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه أبقى يهود خيبر فيها على أن يعملوا في زراعتها وينفقوا عليها من أموالهم ولهم نصف ثمارها على أن للمسلمين حق إخراجهم منها متى ما أرادوا ذلك، وكان هذا الاتفاق بمبادرة من يهود أنفسهم انظر: البخاري- الصحيح (باب معاملة النبي صلّى الله عليه وسلّم أهل خيبر) ٧/ ٤٩٦، مسلم- الصحيح- كتاب المساقاة ٣/ ١١٨٦- ١١٨٧، أبو داود- السنن، كتاب البيوع ٣/ ٦٩٧.

ولما فرغ المسلمون من فتح خيبر، بلغت يهود فدك أخبارهم، فقذف الله في قلوبهم الرعب، فبعثوا إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم يطلبون الصلح على أن يحقن دماءهم ويسيرهم، ويتنازلوا في المقابل عن أموالهم له، وقد وافق النبي صلّى الله عليه وسلّم على طلبهم «١» ، وبذلك كانت فدك خالصة للرسول صلّى الله عليه وسلّم. «٢»
حاصر المسلمون بعد ذلك وادي القرى فاستسلمت، وغنم المسلمون منها أموالا كثيرة وتركوا الأرض والنخل بيد يهود وعاملوهم عليها مثل خيبر «٣» ، وكذلك الحال مع تيماء التي صالحت وعومل أهلها في زراعة أرضهم على مثل معاملة خيبر ووادي القرى «٤» .
استشهد من المسلمين خلال هذه المعارك عشرون رجلا «٥» ، في حين بلغ عدد قتلى يهود في معارك خيبر ثلاثة وتسعين رجلا «٦» ، وذلك من خذلان الله تعالى ليهود، حيث كانوا يقاتلون من خلف حصونهم وهم يدافعون عنها، في حين كان المسلمون في حالة هجوم وهم بدون حواجز أو سواتر سوى عصمة الله تعالى.
أحدث فتح خيبر وفدك ووادى القرى وتيماء دويّا هائلا في الجزيرة العربية بين مختلف القبائل، وقد أصيبت قريش بالغيظ والكآبة إذ لم تكن تتوقع ذلك، وهي تعلم مدى حصانة قلاع يهود خيبر، وكثرة مقاتلتهم، ووفرة سلاحهم ومتاعهم ومئونتهم «٧» ، أما القبائل العربية الأخرى المناصرة لقريش فقد أدهشها خبر هزيمة يهود خيبر، وخذّلها انتصار المسلمين الساحق، ولذلك فإنها جنحت إلى مسالمة المسلمين وموادعتهم بعد أن أدركت عدم جدوى استمرارها في عدائهم، مما فتح الباب واسعا لنشر الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية، بعد أن تعززت مكانة المسلمين في أعين أعدائهم إلى جانب ما تحقق لهم من خير وتعزيز لوضعهم الاقتصادي.
وقد نزلت آية من الذكر الحكيم، أوضحت بأن غنائم خيبر هي خاصة بمن شهد الحديبية من المسلمين

---

(١) أبو داود- السنن ٣/ ٤١٤ كتاب الخراج (حديث ٣٠١٦) ، المنذري- مختصر سنن أبي داود ٤/ ٢٣٩، أبو يوسف- الخراج ص/ ٥٠.
(٢) حيث أنها لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب، وهي الفيء الذي نصت عليه الآية/ ٦ من سورة الحشر.
(٣) خليفة بن خياط- التاريخ ص/ ٨٥ وهي مجموعة قرى في واد كثير الزراعة إلى الشمال من خيبر بينها وبين تيماء، وانظر ابن القيم- زاد المعاد ١/ ٤٠٥.
(٤) ابن القيم- زاد المعاد ١/ ٤٠٥.
(٥) أورد ابن هشام في السيرة ٢٠/ ٨٠٤- ٨٠٥ قائمة بأسماء الشهداء في خيبر، أما الواقدي فقد ذكر أنهم خمسة عشر شهيدا (المغازي ٢/ ٧٠٠) .
(٦) الواقدي- المغازي ٢/ ٦٩٩، وقد سبيت نساؤهم، وكانت أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب- رضي الله عنها- أصلا ضمن سبي خيبر وقعت في سهم دحية الكلبي، فاشتراها النبي صلّى الله عليه وسلّم وأعتقها ثم تزوجها في طريق العودة إلى المدينة (البخاري- الصحيح) فتح الباري حديث ٤٢١١) ، وعنده أنه اصطفاها لنفسه، وانظر مسلم- الصحيح ٢/ ١٠٤٥- ١٠٤٦ (حديث ١٣٦٥) ، الحاكم- المستدرك ٤/ ٢٨.
(٧) أحمد- المسند ٣/ ١٣٨، الهيثمي- موارد الظمآن ص/ ١٤٣.
جـ ١(ص: ٣٥٤)

لا يشاركهم فيها أحد، قال تعالى: سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلى مَغانِمَ لِتَأْخُذُوها ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونا كَذلِكُمْ قالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنا بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا «١» .
غزوة ذات الرقاع:

جزم الإمام البخاري بأنها حصلت بعد غزوة خيبر «٢» وكانت وجهة الغزوة بلاد غطفان القريبة من خيبر شمال المدينة، ولم يقع في هذه الغزوة قتال بين المسلمين وغطفان، ولكن أخاف بعضهم بعضا، فصلى المسلمون صلاة الخوف بمنطقة نخل التي تبعد يومين عن المدينة «٣» ، وقد حصلت في هذه الغزوة بعض الأحداث التي كانت لها دلالاتها الكبيرة، منها قصة الأعرابي الذي تسلل إلى معسكر المسلمين وهم في طريق عودتهم إلى المدينة، في وقت القيلولة وقد نزل النبي صلّى الله عليه وسلّم تحت شجرة علق عليها سيفه، فاخترطه الأعرابي والنبي نائم فاستيقظ، فقال له الأعرابي من يمنعك مني؟ فقال له الرسول صلّى الله عليه وسلّم: «الله» «٤» ، فسقط السيف من يده ولم يعاقبه النبي، ونزلت الآية:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ «٥» .

السرايا بين غزوة خيبر وعمرة القضاء:

كان أول تلك السرايا، هي سرية عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- الذي بعثه النبي صلّى الله عليه وسلّم في ثلاثين راكبا إلى تربة القريبة من الطائف، وحينما علمت بطون هوازن الساكنة في تربة بذلك هربوا، فرجع عمر بأصحابه إلى المدينة، وكان ذلك في شعبان السنة السابعة من الهجرة. «٦»

وفي الوقت نفسه كان أبو بكر الصديق- رضي الله عنه- قد تولى أمر سرية بعثها النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى بني فزارة

---

(١) القرآن الكريم- سورة الفتح، الآية/ ١٥، وانظر الطبري- تفسير ٢٦/ ٥٠، وقد قسم الرسول صلّى الله عليه وسلّم خيبر إلى قسمين قسم وزعه على الفاتحين وقسم جعله لما ينزل به من نوائب ووفود، وقسمت حصة المقاتلة على أساس أن للفارس سهمين وأن للراجل سهما واحدا (أبو داود- السنن ٣/ ٤١٣، الحاكم- المستدرك ٢/ ١٣١) وقد ثبت أن مهاجرة الحبشة عادوا خلال هذا الوقت إلى المدينة، وتوجهوا إلى خيبر حين علموا بأمر غزوة النبي صلّى الله عليه وسلّم إليها، غير أنهم وصلوا إليها بعد الفتح وكان عددهم يتراوح بين ٥٢- ٥٣ بقيادة جعفر بن أبي طالب، فأعطاهم النبي صلّى الله عليه وسلّم من الغنائم ولم يقسم لأحد لم يشهد الفتح سواهم (البخاري- الصحيح- كتاب فرض الخمس ٦/ ٢٣٧، مسلم- الصحيح كتاب فضائل الصحابة ٤/ ١٩٤٦) .

(٢) البخاري- الصحيح (فتح الباري حديث ٤١٢٨) وكذلك عند أبي معشر مما ذكره ابن حجر، وهو الراجح عند ابن حجر أيضا. وذهب ابن إسحاق أنها سنة ٤ هـ بعد الخندق (ابن هشام- السيرة ٣/ ٢٨٢) ، وعند الواقدي وابن سعد أنها كانت في أول السنة الخامسة من الهجرة (مغازي ١/ ٣٩٥، الطبقات ٢/ ٦١) .

(٣) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٤١٦- ٤٢١) .

(٤) المرجع السابق (فتح الباري- الأحاديث: ٤١٣٥- ٤١٣٦) وفيه تصريح باسم الأعرابي.

(٥) القرآن الكريم- سورة المائدة، الآية/ ١١، وانظر ابن كثير- التفسير ٣/ ٥٨- ٥٩، من رواية عبد الرزاق بسنده عن طريق معمر إلى جابر، والطبري- تفسير ١٠/ ١٠٦، ابن هشام- السيرة ٣/ ٢٨٧- ٢٨٨ بإسناد متصل، وانظر ابن حجر الفتح ٧/ ٤١٧.

(٦) الواقدي- مغازي- رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ٢/ ٧٢٢، ابن سعد- الطبقات ٢/ ١١٧ معلقا.

من أرض نجد، فشن عليهم الغارة فقتل منهم وسبى «١» .

وبعث النبي صلّى الله عليه وسلّم بشير بن سعد على رأس سرية من ثلاثين رجلا إلى بني مرّة بفدك، فاستاق أنعامهم بينما كانوا في بواديهم، وقد لحقوا بالسرية فقتلوا من لم يتجنبهم، وقاتل بشير بن سعد ببسالة حتى سقط فحسبوه ميتا ورجعوا بأنعامهم، فانحاز بشير بعد ذلك إلى فدك وأقام بها أياما حتى ضمدت جراحه ورجع إلى المدينة، ونقل خبر مصابهم علبة بن زيد الحارثي» .

وبعث النبي صلّى الله عليه وسلّم غالب بن عبد الله في مائة وثلاثين راكبا بينهم أسامة بن زيد، إلى الحرقة من جهينة، فصبحوا القوم، وهزموهم قال أسامة: «ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم فلما غشيناه، قال: لا إله إلا الله، فكف عنه الأنصاري، فطعنته برمحي حتى قتلته، فلما قدمنا بلغ ذلك النبي صلّى الله عليه وسلّم، فقال: «أقتلته بعد ما قال لا إله إلّا الله؟» قلت: يا رسول الله، إنما كان متعوذا، قال: «أقتلته بعد أن قال لا إله إلّا الله؟» فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم» «٣» .

وبعث النبي صلّى الله عليه وسلّم بشير بن سعد على رأس سرية من ثلاثمائة رجل وعقد له اللواء في شوال سنة ٧ هـ بعد أن بلغه أن عيينة بن حصن قد واعد جمعا من غطفان بالجناب قرب خيبر ليكونوا معا في الزحف على المدينة، وقد هاجمت السرية ديارهم وأصابت غنائم كثيرة من الأنعام، غير أنهم تهاربوا ولم يأسروا منهم إلّا رجلين قدم بهما بشير إلى المدينة فأسلما فأطلق النبي صلّى الله عليه وسلّم أسرهما «٤» .

عمرة القضاء

خرج النبي صلّى الله عليه وسلّم ومعه ألفان من المسلمين سوى النساء والصبيان، منهم الذين شهدوا الحديبية، في ذي القعدة من السنة السابعة للهجرة «٥» ، ميمّمين نحو مكة المكرمة لأداء العمرة، حسب شروط معاهدة الحديبية «٦» ، حيث كانوا تعاقدوا على أن يدخل هو ومن معه من المسلمين مكة المكرمة لأداء العمرة وأن تترك لهم قريش مكة ثلاثة أيام وألا يدخلوا معهم سلاحا إلّا السيوف في الغمد «٧» . وقد أشارت رواية عن موسى بن عقبة أن المسلمين

---

(١) مسلم- الصحيح ٣/ ١٣٧٥- ١٣٧٦ (حديث ١٧٧٥) ، وانظر ابن سعد- الطبقات ٢/ ١١٧- ١١٨.

(٢) الواقدي- مغازي ٢/ ٧٢٣، ابن سعد الطبقات ٢/ ١١٨- ١١٩.

(٣) البخاري- الصحيح (فتح الباري حديث ٦٨٧٢) واللفظ للبخاري، مسلم- الصحيح ١/ ٩٦- ٩٧، الأحاديث ١٨٥- ١٥٩، أورده عن غير طريق أسامة في الصحيح ١/ ٩٧ (حديث ١٦٠) ، ابن إسحاق (انظر ابن كثير البداية ٤/ ٢٤٨ بإسناد حسن، الواقدي- مغازي ٢/ ٧٢٤، ابن سعد ٢/ ١٩٩.

(٤) ابن سعد- الطبقات ٢/ ١٢٠، الواقدي- مغازي ٢/ ٧٢٧- ٧٢٩.

(٥) ابن حزم- جوامع السيرة ص/ ٢١٩، ابن حجر- فتح ٧/ ٥٠٠، البيهقي- دلائل النبوة ٤/ ٣١٣- ٣١٤.

(٦) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٤٤٩) .

(٧) المرجع السابق نفسه، والصفحة نفسها.

صحبوا معهم أسلحتهم وذلك خشية من غدر قريش «١» ، وأنهم أبقوها خارج حدود الحرم في ياجج «٢» ، وتركوا عليها مجموعة من المسلمين لحراستها «٣» ، ودخلوا مكة بسلاح الراكب والسيوف في غمدها وفقا لشروط الصلح.

دخل الرسول صلّى الله عليه وسلّم والمسلمون مكة في موكب مهيب وهم يلهجون بالتكبير والتلبية، وأورد الترمذي رواية حسنة غريبة جاء فيها أن عبد الله بن رواحة كان يمشي بين يدي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو ينشد:

خلّوا بني الكفار عن سبيله ... اليوم نضربكم على تنزيله

ضربا يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله «٤» .

طاف المسلمون مع النبي صلّى الله عليه وسلّم بالبيت العتيق وأظهروا القوة والجلد في طوافهم وسعيهم كما أمرهم النبي صلّى الله عليه وسلّم «٥» ، ردّا على إشاعة قريش عنهم بأنهم ضعفاء «قد وهنتهم حمّى يثرب» فقد أرملوا وسارعوا بالعدو في الأشواط الثلاثة الأولى من الطواف، كما هرولوا في السعي ليظهروا للمشركين مدى قوتهم وجلدهم. «٦» وكانت قريش قد خرجت من مكة وتجمعت على جبل قعيقعان المواجه للركنين الأسود واليماني من البيت العتيق ينظرون إلى المسلمين في طوافهم وسعيهم ويتعجبون من قوتهم ويلومون بعضهم بعضا بشأن الزعم بأن حمى المدينة قد أوهنتهم «٧» .

وبعد أن أدى النبي صلّى الله عليه وسلّم مناسك العمرة هو ومن معه، وجه جماعة من أصحابه إلى موضع سلاحهم في ياجج ليتيحوا الفرصة لإخوانهم الذين كانوا يحرسون السلاح لأداء نسكهم وقضاء عمرتهم، ففعلوا «٨» ، ثم دخل النبي صلّى الله عليه وسلّم الكعبة المشرفة ومكث فيها إلى الظهر، وأورد ابن سعد رواية غير صحيحة جاء فيها أن النبي صلّى الله عليه وسلّم أمر بلالا فأذن على ظهر الكعبة «٩» .

ولما انقضت الأيام الثلاثة على إقامة النبي صلّى الله عليه وسلّم والمسلمين في مكة، جاء المشركون من قريش إلى علي بن أبي طالب وقالوا له: «قل لصاحبك: اخرج عنا فقد مضى الأجل» ، فخرج النبي صلّى الله عليه وسلّم من مكة في اليوم الرابع ونزل

---

(١) نقله ابن حجر في فتح الباري ٧/ ٤٤٩- ٥٠٠، وكذلك البيهقي- دلائل ٤/ ٣١٤ بإسناد مرسل من حديث موسى بن عقبة عن الزهري، ابن سعد- الطبقات ٢/ ١٢١ معلقا.

(٢) موضع يقع على ثمانية أميال من مكة، ياقوت- معجم ٥/ ٤٢٤.

(٣) ابن سعد- الطبقات ٢/ ١٢٢.

(٤) فتح الباري ٧/ ٥٠٢ وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

(٥) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٥٠٨- ٥٠٩) ، مسلم- الصحيح ٢/ ٩٢٣ (حديث ١٢٦٦) .

(٦) أحمد- المسند ٤/ ٢٣٩، رقم (٣٥٣٦) ، وانظر الهامش السابق.

(٧) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٥٠٨- ٥٠٩، حديث ٤٢٥٦، ٤٢٥٧) ، مسلم- الصحيح ٢/ ٩٢٣ (حديث ١٢٦٦) ، أحمد- المسند ٤/ ٢٣٩.

(٨) ابن سعد- الطبقات ٢/ ١٢٢.

(٩) المرجع السابق نفسه، والصفحة نفسها.

بسرف فأقام بها إلى أن تتامّ الناس، ثم انصرف بهم إلى المدينة «١» ، وقد نزل في عمرة القضاء هذه قوله تعالى: لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً «٢» .

وقد اتضحت في عمرة القضاء هذه جملة أحكام منها حكم من نوى العمرة وأهل بها وصد عن الوصول إلى البيت العتيق، ومنها ما يتعلق بأحكام الرضاعة كما في قصة عمارة بن حمزة بن عبد المطلب، ومنها تقديم الخالة في الحضانة على سائر الأقارب بعد الوالدين «٣» .

السرايا والأحداث بين عمرة القضاء وغزوة فتح مكة:

بعث النبي صلّى الله عليه وسلّم بعد عودته من عمرة القضاء سرية من خمسين فارسا إلى بني سليم جعل عليها ابن أبي العرجاء السلمي، فلما فصلوا من المدينة، خرج عين لبني سليم كان معهم إلى قومه فحذرهم، فجمّعوا واستعدوا للقتال؛ وحين وصلت السرية، ودعوا إلى الإسلام رفضوا واستكبروا وأحدقوا بالسرية فقتلوا عامة من فيها وأصيب ابن أبي العرجاء وسقط بين القتلى ثم تحامل ومن عاد إليه من بقايا سريته حتى بلغوا المدينة في شهر صفر سنة ٨ هـ «٤» .

وفي الأول من شهر صفر من السنة الثامنة للهجرة خرج عمرو بن العاص عامدا إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم ليسلم، فلقيه خالد بن الوليد وهو في الطريق إلى المدينة، يريد ما يريد عمرو، فقدما سويا على الرسول صلّى الله عليه وسلّم وبايعاه على الإسلام «٥» .
وفي صفر من السنة الثامنة للهجرة، بعث النبي صلّى الله عليه وسلّم سرية من بضعة عشر رجلا جعل عليهم غالب بن عبد الله، وجهّهم إلى بني الملوّح وهم بالكديد «٦» ، وقد كمنت السرية بعد وصولها الموضع وفي السحر شنّوا الغارة

---

(١) البخاري- الصحيح، فتح الباري ٧/ ٤٩٩ (حديث ٤٢٥١) ، وكان ذلك في ذي الحجة انظر: ابن سعد- الطبقات ٢/ ١٢٢، ابن هشام- السيرة ٤/ ٢٢- ٢٣. في سرف تزوج صلّى الله عليه وسلّم بأم المؤمنين ميمونة بنت الحارث العامرية: البخاري- الصحيح (فتح الباري، حديث ٤٢٥٩) ، ابن القيم- زاد المعاد (٣/ ٣٧٢- ٤) ، أبو داود- السنن ٢/ ٤٢٥، البيهقي- دلائل (٤/ ٣٣٢- ٦) ، مسلم- الصحيح (٢/ ١٠٣٢ حديث ١٤١١) .
(٢) القرآن الكريم- سورة الفتح، الآية/ ٢٧.
(٣) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٥٠٥- حديث ٤٢٥١) ، أبو داود- السنن، ٢/ ٧٠٩- ٧١٠، كتاب الطلاق (حديث ٢٢٧٨) ، ابن القيم- زاد المعاد ٣/ ٣٧٥- ٣٧٦.
(٤) الواقدي- مغازي ٢/ ٧٤١ بإسناده إلى الزهري، ابن سعد- الطبقات ٢/ ١٢٣ معلقا، البيهقي- دلائل ٤/ ٣٤١ من مراسيل موسى بن عقبة عن الزهري.
(٥) أورد الإمام أحمد قصة إسلام عمرو بن العاص في الفتح الرباني ٢١/ ١٣٣- ١٣٦ من رواية ابن إسحاق بإسناد حسن، وكذلك فعل ابن هشام في السيرة (٣/ ٣٨٤- ٨٦) برواية ابن إسحاق أيضا وبإسناد حسن كما فعل الإمام أحمد وأورده الواقدي في مغازيه (٢/ ٧٤١/ ٥٠) بتفاصيل أكثر، وفيه قصة إسلام خالد بن الوليد أيضا. وانظر في ذلك ابن سعد- الطبقات ٤/ ٢٥٢.
(٦) موضع يقع بين عسفان والكديد.

جـ ١(ص: ٣٥٨)

على الأعداء واستاقوا الأنعام وعادوا بها، وقد عصمهم الله من عدوهم الذي حاول اللحاق بهم «١» .
وفي صفر من السنة الثامنة للهجرة- أيضا، هيأ النبي صلّى الله عليه وسلّم سرية من مائتي رجل ليرسلهم إلى فدك للانتقام من قتلة أصحاب بشير بن سعد، وكانت تحت إمرة غالب بن عبد الله الليثي «٢» ، وقد أصابوا منهم غنائم وقتلوا منهم قتلى «٣» .
وفي ربيع الأول من العام الثامن للهجرة عهد النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى كعب بن عمير بأن يقود سرية تتألف من خمسة عشر رجلا إلى ذات أطلاح من أرض الشام شمال وادي القرى. وقد أنذر القوم بالسريّة فجاءوهم على الخيول وأحدقوا بهم وقتلوهم إلّا رجلا واحدا من المسلمين أفلت منهم وعاد إلى المدينة، وأعلم النبي صلّى الله عليه وسلّم بما حدث «٤» .
وفي ربيع الأول من العام الثامن للهجرة بعث النبي صلّى الله عليه وسلّم سرية من أربعة وعشرين رجلا بإمرة شجاع بن وهب إلى جمع من هوازن «بالسيّ» من أرض بني عامر ناحية «ركبة» فأغاروا عليهم، فأصابوا نعما كثيرا وشاء وسبيا وعادوا بعد خمس عشرة ليلة، وجاء في أثرهم وفد القوم إلى المدينة وأعلنوا إسلامهم فرد المسلمون السبي «٥» .
ولم تذكر المصادر تاريخا معينا لسريّة زيد بن حارثة التي بعثها النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى مدين «٦» وقد أصابوا سبيا من أهل ميناء على ساحل البحر الأحمر، ولما عادت السرية وبيع السبي جرى التفريق بين الأمهات والأولاد «٧» ، فلما علم النبي صلّى الله عليه وسلّم بذلك قال: «لا تبيعوهم إلّا جميعا» «٨» .

---

(١) أحمد- المسند (الفتح الرباني ٢١/ ١٢٨) بإسناد ابن إسحاق وقال الساعاتي: «سنده جيد» ، ورواه ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ٤/ ٣٤١- ٤٣، وابن سعد- الطبقات ٢/ ١٢٤، أبو داود- السنن ٣/ ١٢٨- ١٢٩، حيث أورد قصة أسر الحارث بن مالك الذي اوثقوه وتركوه إلى أن أنجزوا أمر الرسول في الغارة ثم عادوا فاصطحبوه إلى المدينة (حديث ٢٦٧٨) ، وكذلك الواقدي- مغازي ٢/ ٧٥٠- ٧٥٢.

(٢) عهد النبي صلّى الله عليه وسلّم بأمر السرية في بداية تشكيلها إلى الصحابي الزبير بن العوام- رضي الله عنه-، غير أنه عاد وعهد بإمرتها إلى غالب بن عبد الله بعد عودته من سرية الكديد (ابن سعد- الطبقات ٢/ ١٢٦) .

(٣) الواقدي- مغازي ٢/ ٧٢٣- ٧٢٦، ابن سعد- الطبقات ٢/ ١٢٦.

(٤) الواقدي- مغازي ٢/ ٧٥٢- ٧٥٣، ابن سعد- الطبقات ٢/ ١٢٧- ١٢٨، ابن إسحاق مختصرا، ابن هشام ٤/ ٣٥٦- ٣٥٧ معلّقا، وقد هم النبي صلّى الله عليه وسلّم أن يبعث إليهم، سرية لمعاقبتهم والانتقام منهم غير أن معلومات بلغته تضمنت أنهم رحلوا عن ديارهم، فتركهم. (نفس المصادر المذكورة آنفا) .

(٥) البخاري- الصحيح (الفتح حديث ٣١٣٤) ، (حديث ٤٣٣٨) ، مسلم- الصحيح ٣/ ١٣٦٨ (حديث ١٧٤٩) ، الواقدي ٢/ ٧٥٣- ٧٥٤ ولم يذكر اشتراك عبد الله بن عمر فيها كما لم يذكر ما أصاب المشاركين في السرية من الغنيمة، وانظر ابن سعد ٢/ ١٢٧ من رواية الواقدي، ابن كثير- البداية والنهاية ٤/ ٢٦٧.

(٦) حيث أن سرية مؤتة قد أرسلت في جمادى الأولى سنة ثمان الهجرية فمن المتوقع أن يكون تاريخ إرسال سرية زيد هذه في ربيع الآخر من ذلك العام حيث أن زيد بن حارثة استشهد في مؤته كما هو ثابت في المصادر.

(٧) ابن حجر- فتح الباري (شرح الحديث ٤٣٣٨) ، الطبري- تاريخ ٣/ ٣٤، الواقدي- مغازي ٢/ ٧٧٧، ابن سعد- الطبقات ٢٠/ ١٣٢.

(٨) رواه ابن هشام في السيرة ٤/ ٣٧٥- ٦، وعن أحاديث التفريق هذه انظر: ابن حجر- الاصابة ٢/ ٢٠٦، عبد الرزاق الصنعاني- المصنف ٨/ ٣٠٧، الألباني- صحيح سنن الترمذي ٢/ ٢٤- ٢٥، أبو داود- السنن ٣/ ١٤٤- ١٤٥ (حديث ٢٦٩٦) ، الدارمي- السنن ص/ ٣٢٧، البيهقي- السنن ٩/ ١٢٦.

سرية مؤتة:

أعد النبي صلّى الله عليه وسلّم جيشا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل وبعثه إلى تخوم بلاد الشام في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة بعد عودته بمن اعتمر معه من المسلمين عمرة القضاء بخمسة أشهر «١» ، وقد انفرد الواقدي، بالقول بأن شرحبيل بن عمرو الغسّاني قد اعتدى على مبعوث النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى ملك بصرى حين حمل له رسالته وهو الحارث بن عمير الأزدي وقتله صبرا رغم أن العرف الجاري هو أن الرسل لا تقتل «٢» . مما أغضب النبي صلّى الله عليه وسلّم ودفعه إلى إرسال الجيش إلى مؤتة وقد اتخذ النبي صلّى الله عليه وسلّم في هذه السرية إجراء احتياطيّا للمرة الأولى، حيث ولّى عددا من الأمراء بالترتيب، مما دلل على جواز تعليق الإمارة بشرط. فقد عين زيد بن حارثة أميرا على الجيش، فإن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب فعبد الله بن أبي رواحة «٣» . والراجح أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قد توقع أن تحف بالسرية الأخطار بسبب بعد المسافة، وجهلهم بالمنطقة التي وجهوا إليها، وعدم حصول تجربة سابقة في الاحتكاك بقوات الإمبراطورية البيزنطية وحلفائها من القبائل العربية في بلاد الشام» .

ودّع المسلمون في المدينة إخوانهم المشاركين في الجيش، والأمراء الذين اختارهم النبي صلّى الله عليه وسلّم لهذه المهمة، وسألوا الله أن يوفقهم ويدفع عنهم ويردهم صالحين «٥» ، وتحرك الجيش

حتى وصل إلى معان من أرض الشام وأناخ فيها، وبلغ المسلمون أن هرقل قد نزل بأرض البلقاء في مائتي ألف مقاتل نصفهم من الروم ونصفهم من نصارى العرب من قبائل لخم وجذام وقضاعة «٦» .
تشاور المسلمون وهم في معان طوال ليلتين، فاقترح بعضهم مكاتبة الرسول صلّى الله عليه وسلّم وإعلامه بعدد جيش العدو وما توفر لديهم من معلومات عن قوته لكي يرسل إليهم مددا أو يأمرهم بأمره، ومال بعضهم إلى التريث وعدم الاندفاع في مناجزة العدو حتى يأتيهم من النبي صلّى الله عليه وسلّم ما ينير لهم سبيلهم، غير أن عبد الله بن أبي رواحة

---

(١) ابن إسحاق بإسناد حسن الى عروة الذي أرسله، ابن هشام- السيرة ٣/ ٤٢٧، ابن سعد- الطبقات ٢/ ١٢٨، ابن حجر- فتح الباري (٧/ ٥١٠- كتاب المغازي- غزوة مؤتة) .
(٢) الواقدي- المغازي ٢/ ٧٥٥- ٦، ابن سعد- الطبقات ٢/ ١٧، ابن حجر- الإصابة ١/ ٥٨٩، فتح الباري- ٧/ ٥١١.
(٣) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٥١٣ حديث ٤٢٦١) .
(٤) زاد الواقدي (المغازي ٢/ ٧٥٦ باسناد ضعيف، وابن سعد- الطبقات ٢/ ١٢٨ معلقا، وفيه: «فإن أصيب عبد الله بن رواحة فليتريض المسلمون بينهم رجلا فيجعلوه عليهم» .
(٥) ابن إسحاق بإسناد حسن إلى عروة: ابن هشام- السيرة ٣/ ٤٣٠ وورد في الرواية كيف بكى عبد الله بن رواحة في هذه المناسبة وهو يستذكر قول الله تعالى: وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا (سورة مريم الآية/ ٧١) ، ثم تمثله شعرا سأل الله فيه المغفرة والشهادة جاء فيه قوله:
لكنني أسأل الرحمن مغفرة ... وضربه ذات فرغ تقذف الزبدا
(٦) ابن هشام- السيرة ٣/ ٤٣٢- ٥، ابن حزم- جوامع السيرة ص/ ٢٢٠- ٢٢.

انبرى يخاطب الجيش مشجعا على قتال العدو قائلا: «يا قوم، والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون:
الشهادة. وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ولا نقاتلهم إلّا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة» فقال الناس «قد والله صدق ابن أبي رواحة» وأحدثت عباراته الإيمانية الواثقة بقضاء الله وقدره أثرها في نفوس المسلمين «١» . أصدر زيد بن حارثة أمره لقواته بالتقدم نحو قوات العدو متخذا من قرية مؤتة مقرّا لقواته التي عبأها فجعل على ميمنته قطبة بن قتادة العذري، وعلى الميسرة عبادة بن مالك الأنصاري، والتقى الجيشان غير المتكافئين في عددهم وعدتهم، وكانت ملحمة بطولية خالدة سجل فيها المجاهدون وقادتهم الثلاثة بطولات وجرأة وثباتا نادرا غير أنها انتهت باستشهاد القادة واحدا تلو الآخر «٢» ، واختار المسلمون- حسب توجيه النبي صلّى الله عليه وسلّم قائدا بديلا، هو خالد بن الوليد الذي كان يدرك خطورة الوضع، فأعاد تنظيم الجيش، وأوهم العدو بوصول الإمدادات مما مكنه من اهتبال الفرصة للقيام بانسحاب منظم لم يخسر فيه إلا عددا محدودا من قواته، وبذلك أنقذ الجيش الإسلامي من خطر الإبادة الكاملة أمام جموع العدو الهائلة «٣» ، ويعتبر هذا الإنجاز فتحا كبيرا عند مقارنة خسارة المسلمين المحدودة بما يقابلها من خسائر الروم الذين أثخنت قواتهم بأعداد كبيرة من القتلى والجرحى.
ولا شك في أن بسالة المقاتل المسلم وشجاعته النادرة وحرصه على الموت في سبيل الله، إلى جانب عبقرية خالد العسكرية ونظراته الثاقبة، وقدرته على المناورة، وذكائه، وفطنته قد مكنت المسلمين من التخلص من مأزقهم أمام الجيش البيزنطي.
وقد ظهرت معجزة للرسول صلّى الله عليه وسلّم في أمر هذه السرية فقد نعى للمسلمين في المدينة زيدا وجعفرا وابن أبي رواحة، قبل أن يصل إليه خبرهم، وحزن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لما وقع للسرية وذرفت عيناه الدموع. ثم أخبرهم باستلام خالد للراية، وبشرهم بالفتح على يديه وأسماه سيف الله «٤» ، وبعد ذلك قدم من أخبرهم بأخبار السرية، ولم يزد عما أخبرهم به النبي صلّى الله عليه

وسلّم «٥» ، وكان لشهداء مؤتة مكانة عظيمة عند الله لذلك قال النبي صلّى الله عليه وسلّم: «ما يسرّني أو قال ما يسرّهم أنّهم عندنا» «٦» .

(١) ابن هشام- السيرة ٣/ ٤٣٥- ٤٤٢.
(٢) المرجع السابق ٣/ ٤٤٢- ٤٤٧، ولم يسند ابن إسحاق من قصة الوقعة سوى خبر عقر جعفر بن أبي طالب لفرسه ونزوله للمعركة راجلا، وخبرين أولهما عن تردد عبد الله بن رواحة وثانيهما عن تصميمه وإقدامه وهي بأسانيد حسنة فيها ذكر لصحابي مجهول.
(٣) المرجع السابق ٣/ ٤٤٧، ابن حزم- جوامع السيرة ص/ ٢٢٢.
(٤) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٧/ ٥١٢ حديث ٦٢٦٢، ٦٢٦٣) .
(٥) جاء بأخبار الغزوة إلى المدينة يعلى بن أمية، كما في رواية موسى بن عقبة: انظر ابن كثير- البداية والنهاية ٤/ ٢٧٥، ابن حجر- فتح ٧/ ٥١٢ في شرح الحديث (٦٢٦٢) ، وأورد ابن حجر كذلك رواية أخرى تجعله (عامر الاشعري) وهي من رواية الطبراني. عنده.
(٦) البخاري- الصحيح (فتح الباري- ٦/ ١٣٥ حديث ٣٠٦٣) .
جـ ١(ص: ٣٦١)

سرية ذات السلاسل:
بلغ النبي صلّى الله عليه وسلّم بعد عودة سرية مؤتة إلى المدينة في جمادى الآخرة سنة ثمان للهجرة «١» ، أن قضاعة التي اشتركت في القتال إلى جانب الروم في مؤتة بدأت تتجمع مرة أخرى، وتريد الاقتراب من المدينة لتهديدها، فجهز النبي صلّى الله عليه وسلّم سرية من ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار عهد بأمرها إلى عمرو بن العاص بهدف أن يقضي على خطر قضاعة في مهده. وأمره أن يستعين ببعض فروع قضاعة وخاصة من أخواله من بلي، إلى جانب عذرة وبلقين ومحاولة استئلافهم.
وقد تقدمت السرية حتى وصلت ماء السلسل بأرض جذام، فبلغ عمرو بن العاص ضخامة الجموع التي جمعتها قضاعة لمواجهتهم فسارع بإرسال رافع بن مكيث الجهني إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم يستمده، فأمده بمائتين من المهاجرين والأنصار بينهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب- رضي الله عنهما- جعل عليهم أبا عبيدة بن الجراح. وطلب إلى عمرو بن العاص وأبي عبيدة بن الجراح أن يتطاوعا «٢» .
توغلت السرية في بلاد قضاعة التي بلغها الخبر فهربت جموعها وتفرقت «٣» ، وقد مكنت حملة هذه السرية الناجحة المسلمين من استعادة هيبتهم في التخوم الشمالية للجزيرة بعد أن كانت قد تزعزعت في أعقاب سرية مؤتة «٤» .
وفي أعقاب سرية ذات السلاسل، تحدثت المصادر التي تعنى بالسيرة والتاريخ عن سريتين أخريين قبل فتح مكة، أولهما سرية ابن حدرد إلى الغابة حيث كان رفاعة بن قيس قد جمّع الجموع فيها يريد أن يقاتل الرسول صلّى الله عليه وسلّم والمسلمين، فدعا النبي صلّى الله عليه وسلّم عبد الله بن حدرد الأسلمي ورجلين من المسلمين ليخرجوا إليه، وقد أمكنهم الله منه فهرب قومه عنه، واستاقت السريّة الكثير من السبي والغنائم التي عادوا بها إلى

(١) ابن سعد- الطبقات ٢/ ١٣٢ بدون اسناد.
(٢) أحمد- المسند: الفتح الرباني ٢١/ ١٤٠ بإسناد صحيح، وانظر البخاري- الصحيح (فتح الباري كتاب الفضائل، حديث ٢٣٨٤) بدون التفاصيل، الواقدي- مغازي ٢/ ٧٦٩- ٧٧١، وابن سعد- الطبقات ٢/ ١٣١) .
(٣) ابن سعد- الطبقات ٢/ ١٣١.
(٤) أورد أبو داود في السنن (كتاب الطهارة- باب: إذا خاف البرد تيمم رقم/ ٣٤٤- ٣٣٥) خبر احتلام عمرو بن العاص في ليلة باردة في طريق العودة من هذه السرية وتيممه وعدم اغتساله للجنابة،

وشكوى المسلمين ذلك إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم بعد عودتهم، وبيان عمرو دوافعه في ذلك وأن النبي صلّى الله عليه وسلّم أعجبه ذلك: وانظر البيهقي- دلائل ٤/ ٤٠٢، السنن ١/ ٢٢٥- ٦، ابن القيم- زاد المعاد ٣/ ٣٨٨، وقال عنه: «وسنده قوي» . وعلقه البخاري في الصحيح ١/ ٣٨٥، ونقل الهيثمي في الموارد ص/ ٢٠٢ أن الحافظ ابن حجر وابن حبان قد صححاه، وكذلك فعل الحاكم- المستدرك ١/ ١٧٧، وأحمد- المسند ٤/ ٢٠٣، وانظر ابن كثير- التفسير ٢/ ٢٣٥.

جـ ١(ص: ٣٦٢)

المدينة «١» .

أما السرية الثانية، فهي سرية أبي قتادة إلى بطن أضم «٢» وكانت في أول رمضان سنة ثمان من الهجرة «٣» وذكر الواقدي أن الرسول صلّى الله عليه وسلّم لما أراد غزو مكة بعث أبا قتادة في ثمانية نفر إلى بطن أضم ليظن الظانّ أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم متوجه إلى تلك الناحية، ولتذهب بذلك الأخبار «٤» . وقد شارك في السرية محلّم بن جثامة بن قيس، حتى إذا كانوا ببطن أضم مر بهم عامر بن الأخبط الأشجعي فحياهم بتحية الإسلام فأمسكوا عنه، ولكن محلّما سرعان ما حمل عليه فقتله لشيء كان بينهما وسلب بعيره ومتاعه «٥» ، وفي ذلك نزل قول الله تعالى:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَياةِ الدُّنْيا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغانِمُ كَثِيرَةٌ كَذلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً «٦» .

---

(١) ابن كثير- البداية والنهاية ٤/ ٢٤٩- ٥٠ برواية ابن إسحاق وإسناده ضعيف، ورواه ابن هشام- السيرة ٤/ ٣٦٧- ٣٦٩ عن ابن إسحاق مرسلا، أحمد- المسند ٦/ ١١- ١٢ من غير طريق ابن إسحاق، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: وفيه رواه لم يسمّ وبقية رجاله ثقات» (٦/ ٢٠٧) ، والواقدي- مغازي ٢/ ٧٧٧، البيهقي- دلائل النبوة ٤/ ٣٠٣- ٣٠٤، ونقل الطبري في تاريخه (٣/ ٣٤) أنها كانت في شعبان سنة ثمان للهجرة وأن أميرها كان أبو قتادة.

(٢) ماء على طريق مكة- اليمامة عند السمينة، ياقوت- معجم ١/ ٢٨١، وحدد ابن سعد في (الطبقات ٣/ ١٧٩) المسافة بينها وبين المدينة بثلاثة برد.

(٣) الواقدي- مغازي ٢/ ٧٩٧ بإسناد متصل، ابن سعد- الطبقات ٢/ ١٣٣.

(٤) الواقدي- مغازي ٢/ ٧٩٦- ٧٩٧.

(٥) المرجع السابق ٢/ ٧٩٧ بإسناد متصل، وجعل أمير السرية أبا قتادة بن ربعي الأنصاري، وانظر الطبري- التفسير ٩/ ٧٢، ابن سعد- الطبقات ٢/ ١٣٣.

(٦) القرآن الكريم- سورة النساء، الاية/ ٩٤، وانظر ابن هشام- السيرة، من رواية ابن إسحاق بإسناد حسن (٤/ ٣٦٣- ٤) ، الواقدي- المغازي ٢/ ٧٩٧ بإسناد متصل، وابن سعد- الطبقات ٣/ ١٣٣ معلقا، والطبري- تفسير ٩/ ٧٢. وذكر المحدثون أكثر من سبب في نزول هذه الآية، انظر البخاري- الصحيح (الفتح حديث ٤٥٩١) ، أحمد- المسند ٤/ ١٥٣ بإسناد صحيح، الترمذي- السنن، تحفة الأحوذي ٨/ ٣٨٦، بإسناد حسن، الحاكم- المستدرك ٢/ ٢٣٥ وصححه، وانظر كذلك «الألباني- صحيح الترمذي ٣/ ٤٠، حديث ٢٤٢٦» وصححه، وروى البزار بسنده إلى عبد الله بن عباس- رضي الله عنهما- أنها نزلت في المقداد بن الأسود. (ابن كثير- التفسير ٢/ ٣٣٨) .

جـ ١(ص: ٣٦٣)

غزوة فتح مكة

التزمت قريش بشروط صلح الحديبية حوالي السنة ونصف السنة، ثم وقعت في خطأ كبير حين أعانت حلفاءها بني بكر على خزاعة حلفاء الرسول صلّى الله عليه وسلّم والمسلمين، حين وثبوا عليهم ليلا على ماء بأرض خزاعة يعرف بالوتير. وقد أعانت قريش بكرا بالخيل والسلاح والرجال «١» ؛ وقالوا: «ما يعلم بنا محمد، وهذا الليل وما يرانا أحد» ، فعلوا ذلك للضغن على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم «٢» . وقد استنجدت خزاعة بالمسلمين، وقدم عمرو بن سالم الخزاعي إلى المدينة يستنصر الرسول صلّى الله عليه وسلّم وأنشد في ذلك أبياتا من الشعر أمامه، فقال له النبي صلّى الله عليه وسلّم.
«نصرت يا عمرو بن سالم» ، ثم مرت بهم سحابة، فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ هذه السّحابة لتستهلّ بنصر بني كعب» «٣» . وليس هناك من شك في أن انتصار قريش لحلفائها ودعمها لهم على حلفاء المسلمين، هو نقض صريح لبنود صلح الحديبية أدركت قريش أخطاره، وندمت على فعلها له، ولذلك فإنها بادرت إلى إرسال أبي سفيان إلى المدينة بهدف تجديد المعاهدة، وتشير بعض الروايات إلى أن النبي صلّى الله عليه وسلّم أرسل إلى قريش «٤» يخيّرهم بين دفع دية قتلى خزاعة، أو البراءة من حلف بني بكر، أو القتال، فاختارت الحرب، ثم ندمت فبادرت إلى إرسال أبي سفيان كما أسلفنا، لكنه عاد خائبا «٥» ، فقد فشل في الحصول على أي وعد بتجديد المعاهدة التي تضمنت بنود صلح الحديبية «٦» .
أمر النبي صلّى الله عليه وسلّم أصحابه بالتجهز والاستعداد للغزو غير أنه لم يسمّ وجهته، وحرص على ضمان السرية التامة

---

(١) أوضح موسى بن عقبة أ: ن من بين أشراف قريش الذين أعانوا بكرا على خزاعة: صفوان بن أمية، وشيبة بن عثمان، وسهيل بن عمرو، وأن الإعانة كانت بالسلاح والرقيق. ابن كثير- البداية والنهاية ٤/ ٣١٣، من رواية موسى دون إسناد، وانظر ابن حجر- فتح الباري ٨/ ٦.
(٢) ألجأت بكر خزاعة أثناء الحرب إلى منطقة الحرم وواصلت حربهم فيه كما ذكر ابن إسحاق (ابن هشام- السيرة ٢/ ٣٨٩) بدون إسناد، وبلغ عدد قتلى خزاعة عشرين قتيلا، الواقدي مغازي ٢/ ٧٨٤ بإسناد ضعيف.
(٣) رواه ابن إسحاق بإسناد حسن لذاته وصرح بالتحديث، ورجاله رجال الصحيح، ما عدا ابن إسحاق انظر: ابن كثير- البداية ٤/ ٢٧٨- ٣٠٩- ٣١٠، وله شاهدان ضعيفان أولهما في المعجم الصغير للطبراني ٢/ ٧٣، وثانيهما أورده أبو يعلى في مسنده ٤/ ٤٠٠، وقد روى البزار- كشف الأستار ص/ ٣٤٢ القصيدة التي أنشدها عمرو بن سالم الخزاعي أمام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين قدم مستنجدا مطالبا بتنفيذ بنود الحلف. ورواه ابن أبي شيبة مرسلا. الصنعاني- المصنف ٥/ ٣٧٤ مختصرا بإسناد صحيح وفيه اختلاف يسير في ألفاظه مع إسقاطه للشعر، وانظر الهيثمي- مجمع الزوائد ٦/ ١٦٢.
(٤) ابن حجر- المطالب العالية ٤/ ٢٣٤، بإسناد صحيح، فتح الباري ٨/ ٦ (حديث ٤٢٨٠) ، ابن كثير- البداية والنهاية ٤/ ٢٨١، الواقدي- المغازي ٢/ ٧٨٦- ٧ وعنده أن اسم مبعوث النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى قريش هو حمزة.
(٥) ابن حجر- فتح الباري ٨/ ٦ عن مرسل عكرمة عن ابن أبي شيبة، وابن إسحق معلقا. ابن كثير- البداية والنهاية ٤/ ٣١٢.
(٦) فقد ردّه أبو بكر وعمر وعلي وفاطمة، وأغلظ عليه عمر في الرد، وأبت ابنته أم المؤمنين أم حبيبة أن تسمح له بالجلوس على فراش رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقالت له: «إنك رجل مشرك نجس» ، وحين كلم النبي صلّى الله عليه وسلّم فإنه لم يجبه بشيء. ابن كثير- البداية ٤/ ٣١٣- ١٤، البيهقي- دلائل النبوة ٥/ ٩/ ١١، السنن الكبرى ٩/ ١٢٠، الصنعاني- المصنف ٥/ ٣٧٥. بإسناد

صحيح، وهو جزء من رواية ابن إسحاق الطويلة في فتح مكة، ابن هشام- السيرة ٢/ ٣٨٩، بدون إسناد.
جـ ١(ص: ٣٦٤)

في هذا المجال، وسأل ربه قائلا: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتّى نبغتها في بلادها» «١»
.
بدأت الاستعدادات لحشد القوة الإسلامية القصوى المستطاعة، وكان لا بد من أن يعلم النبي صلّى الله عليه وسلّم أصحابه بأنه سائر إلى مكة، ثم استنفر القبائل التي تقطن قرب المدينة: سليما وأشجع ومزينة وأسلم وغفارا، فمنهم من التحق بالجيش الإسلامي في المدينة، ومنهم من التحق بالمسلمين في الطريق إلى مكة «٢» ، وقد ارتفعت معنويات المسلمين كثيرا، وكان حسان بن ثابت يلقي شعره الذي يذكر فيه بمصاب خزاعة، ونقض المشركين للعهد، ويحرض المسلمين على القتال «٣» ، وبلغ عدد جيش المسلمين عشرة آلاف مقاتل «٤» ، وأوعب مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المهاجرون والأنصار فلم يتخلف عنه منهم أحد» «٥» ، وهذا يدل على مدى تعاظم قوات المسلمين خلال فترة السنة ونصف التي أعقبت صلح الحديبية «٦» ، ورغم ذلك فقد التزم الجميع بالسرية التامة وحجبت الأخبار تماما عن قريش «٧» مما يعكس مدى الضبط والربط والالتزام الدقيق بأوامر القيادة، والتقويم السليم للمصلحة الإسلامية العليا. وكان الاستثناء الوحيد في هذا المجال المحاولة الفاشلة التي أقدم عليها الصحابي البدري حاطب ابن أبي بلتعة حين أرسل مع امرأة كتابا إلى قريش يخبرهم فيه بأمر الغزوة»
. وهنا تظهر إحدى معجزات النبي صلّى الله عليه وسلّم فقد أمر ثلاثة من الصحابة «٩» بأن يقتفوا أثر المرأة وقال لهم: «انطلقوا حتّى تأتوا روضة خاخ، فإنّ بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها» «١٠» ، وقد نفذ الصحابة أمر النبي صلّى الله عليه وسلّم فأمسكوا بالمرأة في الموضع المحدد وطالبوها بالكتاب فأنكرت أمره في باديء الأمر، ولكنهم هددوها بالقيام بتفتيشها، فسلمته لهم، وحينما رجعوا بالكتاب والمرأة أرسل النبي صلّى الله عليه وسلّم في طلب حاطب وسأله عن أمر الكتاب فلم ينكر وقال للنبي صلّى الله عليه وسلّم: «يا رسول

---

(١) ابن كثير- البداية ٤/ ٢٨٣ بإسناد صحيح عن طريق محمد بن جعفر عن عروة عن عائشة- رضي الله عنها-، وأورده ابن هشام- السيرة ٢/ ٣٨٩ بإسناد حسن من حديث الزهري عن عروة عن المسور.
(٢) ابن سعد- الطبقات ٢/ ٣٩٧ بدون إسناد، وابن إسحاق (ابن هشام- السيرة ٢/ ٣٩٩) بإسناد حسن لذاته، الواقدي- مغازي ٢/ ٨٠١.
(٣) ابن كثير- البداية ٤/ ٢٨٣، ابن هشام- السيرة ٢/ ٣٨٩.
(٤) ابن سعد- الطبقات ٢/ ٣٩٧ بدون إسناد، ومن رواية البخاري- الصحيح (الفتح حديث ٤٢٧٦) ، الواقدي- المغازي ٢/ ٨٠١.
(٥) ابن إسحاق، أورده ابن هشام- السيرة ٢/ ٣٩٩ بإسناد حسن لذاته.
(٦) انظر تعليق ابن هشام على تقويم الزهري لأهمية صلح الحديبية ابن هشام- السيرة ٣/ ٣٢٢، والعمري- السيرة النبوية الصحيحة ٢/ ٤٧٤.
(٧) ابن حجر- المطالب العالية ٤/ ٢٤٤.
(٨) البخاري- الصحيح (فتح الباري- حديث ٤٢٧٤) ، مسلم- الصحيح ٤/ ١٩٤١- ٢ (حديث ٢٤٩٤) ، الواقدي- المغازي ٢/ ٧٩٨- ٩.
(٩) وهم: علي والزبير والمقداد- رضي الله عنهم-.
(١٠) البخاري- الصحيح ٤/ ٧٢، ٥٧٩- ٥٩٩، مسلم- الصحيح ٢/ ١٧٠.
جـ ١(ص: ٣٦٥)

الله، لا تعجل عليّ، إني كنت: امرأ ملصقا في قريش حليفا، ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتي، ولم أفعله ارتدادا عن ديني، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام» فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم: «أما إنه قد صدقكم» . فقال عمر بن الخطاب- رضي الله عنه-: «يا رسول الله: دعني أضرب عنق هذا المنافق» ، فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم: «إنّه قد شهد بدرا، وما يدريك لعلّ الله اطّلع على من شهد بدرا وقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» «١» ، فأنزل الله تعالى:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِما جاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغاءَ مَرْضاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِما أَخْفَيْتُمْ وَما أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ «٢» .

فدمعت عينا عمر وقال: «الله ورسوله أعلم» «٣» .

بدأت قوات الفتح مسيرتها المظفرة من المدينة في العاشر من رمضان سنة ثمان من الهجرة «٤» ، بعد أن استخلف النبي صلّى الله عليه وسلّم على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين الغفاري «٥» ، وكانوا صياما فواصلوا الصوم حتى بلغوا كديدا فأفطر النبي صلّى الله عليه وسلّم وأفطر الجيش «٦» ، وقد وصل المسلمون إلى مرّ الظهران وعسكروا هناك دون أن تصل قريشا أية أخبار عن تحركهم مما يدل على نجاح المسلمين في تعمية الأخبار «٧» وفي الطريق إلى مكة، قدم بعض زعماء قريش إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم فأعلنوا إسلامهم، منهم ابن عم أبيه وأخوه من الرضاعة أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب «٨» ،

---

(١) البخاري- الصحيح ٤/ ٧٢ (حديث ٤٢٧٤) ، مسلم- الصحيح ٢/ ١٧٠، ٤/ ١٩٢١- ١٩٢٢ (حديث ٢٤٩٤) ، ابن هشام- السيرة ٢/ ٣٩٩، الواقدي- مغازي ٢/ ٧٩٨- ٧٩٩، ابن كثير- البداية والنهاية ٤/ ٣٣٣ من حديث البيهقي.

(٢) القرآن الكريم- سورة الممتحنة، الآية/ ١، وانظر البخاري- الصحيح (فتح الباري- حديث ٤٢٧٤) ، مسلم- الصحيح ٤/ ١٩٤١- ١٩٤٢ (حديث ٢٤٩٤) .

(٣) البخاري- الصحيح (فتح الباري، حديث ٣٩٨٣) .

(٤) مسلم- شرح النووي ٣/ ١٧٦ (حديث ١١٣- ١١٤) .

(٥) ابن هشام- السيرة ٢/ ٣٩٩، ابن حجر- المطالب العالية ٤/ ٢٤٨، الحاكم- المستدرك ٣/ ٤٤، وانفرد ابن سعد- الطبقات ٢/ ١٣٥ بأنه عبد الله بن أم كلثوم، معلقا.

(٦) البخاري- الصحيح ٥/ ١٨٥، فتح الباري ٤/ ١٨٠- ١٨١ (حديث ٤٢٧٥) ، مسلم- الصحيح ٢/ ٧٨٤ (حديث ١١١٣) وفي رواية ثانية عند مسلم: أن الإفطار كان بكراع الغميم (الصحيح حديث ١١١٤) والموضعان متقاربان.

(٧) صحيح مسلم- شرح النووي ٣/ ١٧٦ وقد وردت روايات صحيحة بخروج بعض زعماء قريش يتحسسون الأخبار وإلى أنهم رأوا نيران المسلمين وتعجبوا من كثرة الجيش وأن أحدهم قد ظن أنهم خزاعة، ابن حجر- المطالب ٤/ ٢٤٤- ٢٤٨.

(٨) كان أبو سفيان بن الحارث من أشد وألد خصوم الإسلام فقد استمر في مقاومته للرسول والإسلام طوال عشرين سنة وشارك في أغلب الحروب مع قوات المشركين وكان يهجو المسلمين. ولكنه أسلم وحسن إسلامه وجاهد مع النبي صلّى الله عليه وسلّم، وكانت له مواقف بطولية وصمود مشهود مع النبي صلّى الله عليه وسلّم في يوم حنين، الحاكم- المستدرك ٣/ ٤٣- ٤٥، ابن هشام- السيرة ٢/ ٤٠٠، الطبري- تاريخ ٣/ ٥٠، البيهقي- دلائل النبوة ٥/ ٢٧- ٨، الهيثمي- مجمع الزوائد ٦/ ١٦٤- ١٦٧، ونقل مسلم في صحيحه ٢/ ٣٩٥- قصيدته التي قالها في إسلامه.

وكان قد لقيه بالأبواء فأسلم على يديه، وأسلم عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة «١» ، وكان قبل ذلك شديد العداوة للمسلمين أيضا، وكان إسلامه حين التقى النبي صلّى الله عليه وسلّم بين السقيا والعرج.
ولقي الرسول صلّى الله عليه وسلّم في الجحفة عمه العباس ابن عبد المطلب مهاجرا بعياله يريد المدينة «٢» ، وكان العباس قد أسلم قبيل غزوة خيبر «٣» .
خرج ثلاثة من زعماء قريش من مكة ليتحسسوا الأخبار عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والمسلمين وهم أبو سفيان بن حرب، وحكيم بن جزام، وبديل بن ورقاء، ولم تكن الأخبار قد وصلت مسامع قريش عن خروج المسلمين وتقدمهم ووصولهم إلى مرّ الظهران، ولكنهم كانوا يتوقعون أمرا بسبب فشل سفارة أبي سفيان إلى المدينة ومسعاه عند الرسول صلّى الله عليه وسلّم في تجديد معاهدة الصلح، وكان الزعماء القرشيون الثلاثة قد أبصروا جيشا كثيفا يعسكر في المنطقة ولا حظوا كثرة نيران معسكره، وكان أبو سفيان ورفيقاه يتناقشون في أمر هذا الجيش، فقد ظن بديل بن ورقاء أنها جموع خزاعة، وعارضه أبو سفيان في ذلك، فمر بهم العباس بن عبد المطلب وأخبرهم بأنه جيش المسلمين، وحين سألوه عن رأيه طلب من أبي سفيان أن يمضي معه وبجواره إلى معسكر المسلمين، رغبة من العباس فيما يبدو في أن يصون مكة ويمنع الدماء والقتال، فوافقه أبو سفيان، ولما دخل أبو سفيان معسكر المسلمين أراد عمر قتله واستأذن الرسول صلّى الله عليه وسلّم في ذلك فصرفه عنه، وأدخل العباس أبا سفيان على الرسول صلّى الله عليه وسلّم، فدعاه إلى الإسلام، وأمضى معه في ذلك شطرا من الليل، فتلطف في الكلام غير أنه تردد في إعلان إسلامه، ولكنه بعد أن أمضى ما بقي من ليلته تلك مع العباس عاد في صباح اليوم التالي فحضر مجلس النبي صلّى الله عليه وسلّم وأسلم «٤»
.
أراد النبي صلّى الله عليه وسلّم أن يطلع أبا سفيان على قوة المسلمين وعددهم وعدتهم وتنظيمهم، فأمر عمه العباس أن يقف مع أبي سفيان عند مضيق الجبل بمر الظهران، ومر جيش المسلمين أمامه وأدرك بأنهم أصبحوا قوة غالبة

---

(١) وهو أخو أم المؤمنين أم سلمة- رضي الله عنه- لأبيها وقد حسن إسلامه وجاهد مع النبي صلّى الله عليه وسلّم واشترك في حصار الطائف واستشهد خلال ذلك، انظر ابن عبد البر- الاستيعاب ٢/ ٢٦٣.
(٢) ابن هشام- السيرة ٢/ ٤٠٠ وهو من مراسيل الزهري.
(٣) أحمد- المسند، الفتح ٢١/ ١٢٢، الصنعاني، المصنف ٥/ ٤٦٦، وأخرجه النسائي، ابن كثير- البداية والنهاية ٤/ ٢١٧. وقد وردت روايات ضعيفة تبين إسلامه قبل غزوة بدر الكبرى، ابن سعد- الطبقات ٤/ ١٠- ١١، بل إن إحدى الروايات جعلت إسلامه قبل الهجرة إلى المدينة، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٣١ بإسناد منقطع وفيه الواقدي، ومع التأكيد على ما قدمه الصحابي الجليل العباس بن عبد المطلب عم النبي صلّى الله عليه وسلّم من خدمات جليلة للإسلام قبل إسلامه وبعد ذلك حيث كان عينا للرسول صلّى الله عليه وسلّم على قريش وملاذا للمستضعفين من المسلمين في مكة قبل أن يسلم، فإن أسره في معركة بدر مع المشركين ومطالبة النبي صلّى الله عليه وسلّم إياه بأن يفتدي نفسه من الأسر تقطع بعدم دخوله الإسلام حتى ذلك الوقت. ويترجح أنه كتم إسلامه في الفترة التي أعقبت غزوة خيبر لمقتضيات مصلحة المسلمين.
(٤) ابن حجر- المطالب العالية ٤/ ٢٤٤، قال ابن حجر وهو حديث صحيح، وقد أسلم بديل الخزاعي وحكيم بن حزام حال وصولهما النبي صلّى الله عليه وسلّم- الواقدي- مغازي ٢/ ٨١٥، ابن سعد- الطبقات ٢/ ١٣٥.

لا تستطيع قريش مواجهتهم، حتى إذا مرت به كتيبة المهاجرين والأنصار وفيهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، قال أبو سفيان للعباس: «والله لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيما» ، فقال له العباس: «ويحك يا أبا سفيان، إنها النبوّة» ، قال:

«فنعم إذا» «١» . وطلب العباس من النبي صلّى الله عليه وسلّم أن يجعل لأبي سفيان شيئا يفخر به- وهو يعرف أنه يحب الفخر- فوافق على ذلك وقال: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه داره فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن» «٢» .
وحين مرت كتيبة الأنصار بأبي سفيان عند المضيق بمر الظهران، قال سعد بن عبادة حامل رايتهم: «اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة» «٣» فتأثر أبو سفيان من ذلك واشتكى إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم من مقالة سعد، فقال صلّى الله عليه وسلّم: «كذب «٤» سعد، ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة» «٥» ، وأخذ النبي صلّى الله عليه وسلّم راية الأنصار من سعد بن عبادة ودفعها إلى ابنه قيس، ولكن سعدا كلم النبي صلّى الله عليه وسلّم بعد ذلك ملتمسا أن يصرف ابنه عن الموضع الذي هو فيه، مخافة أن يقع في خطأ، فأخذها منه «٦» .
ويقدم محمد بن عمر الواقدي تفصيلات دقيقة عن تشكيلات الجيش الإسلامي وأعداد المهاجرين والأنصار وكل من القبائل المشاركة، وأسماء المبعوثين الذين أرسلهم النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى القبائل لاستنفارها، وتوزيع الرايات والألوية على أمراء الكتائب «٧» .
عاد أبو سفيان إلى مكة بعد أن رأى مبلغ قوة المسلمين وكثرتهم واستعدادهم وعدتهم وبسالتهم، وحين دخل مكة صرخ في قومه محذرا أنه لا قبل لهم بما جاء به النبي صلّى الله عليه وسلّم من قوات ونهاهم عن المقاومة، ووجههم إلى

---

(١) ابن حجر- المطالب العالية ٤/ ٢٤٤، الطحاوي- شرح معاني الآثار ٣/ ٣٢٢.
(٢) حديث صحيح من رواية إسحاق بن راهويه أورده ابن حجر في المطالب العالية (حديث ٤٣٦٢) وقال هذا حديث صحيح، ورواه ابن إسحاق في السيرة بإسناد حسن (ابن هشام ٤/ ٦٢- ٦٧ وسياقهما واسع بالمقارنة مع ما أورده الإمام البخاري في الصحيح (فتح الباري حديث ٤٢٨٠) ، وقال ابن حجر في ترجمته لحكيم بن حزام: «وثبت في السيرة وفي الصحيح أنه صلّى الله عليه وسلّم قال: «من دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن» (الإصابة/ ٣٤٩١) . وأورد الحافظ ابن كثير حديث ابن إسحاق الذي فيه «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن» وقال: زاد عروة «ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن» ، البداية والنهاية ٥/ ٣٢٣.
(٣) البخاري- الصحيح ٥/ ١٨٦ (حديث ٤٢٨٠) .
(٤) كانت تستعمل بمعنى أخطأ.
(٥) البخاري- الصحيح (فتح الباري حديث ٤٢٨٠) .
(٦) ابن حجر- مختصر زوائد البزار، ص/ ٢٤٨ وصححه، وانظر فتح الباري- شرح حديث (٤٢٨٠) وقال ابن حجر فيه أن إسناده على شرط البخاري، وقد دفع النبي صلّى الله عليه وسلّم الراية إلى الزبير بن العوام- رضي الله عنه- وأن الزبير دخل مكة بلوائين: ابن حجر- المطالب العالية ٤/ ٢٤١، الهيثمي- مجمع الزوائد ٦/ ١٦٩، والثابت في الصحيح أن راية الرسول صلّى الله عليه وسلّم كانت مع الزبير بن العوام (البخاري- الصحيح- فتح الباري، حديث ٢٤٨٠) ، وجزم موسى بن عقبة في المغازي عن طريق الزهري أنه قد دفعها إلى الزبير، ابن حجر- فتح الباري (شرح الحديث ٢٤٨٠) وانظر ابن كثير- البداية والنهاية ٤/ ٣٢٣- ٣٢٨.
(٧) الواقدي- مغازي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم (٢/ ٧٩٩- ٨٠١، وهو متروك عند المحدثين فيما يختص بالمسائل المتصلة بالسياسة الشرعية، ولكن هذه المعلومات تاريخية عامة ولا ضرر من قبولها، إذا أسندت بطرق أخرى.
ج ١(ص: ٣٦٨)

ما يحقق أمنهم مما قاله رسول الله صلّى الله عليه وسلّم «١» .

قرر النبي صلّى الله عليه وسلّم وهو في مر الظهران الزحف على مكة فعبأ الجيش وقسمه إلى مجنبتين وقلب من الفرسان، وجعل خالد بن الوليد على المجنبة اليمنى، والزبير بن العوام على المجنبة اليسرى، وأبا عبيدة عامر بن الجراح على الرجالة «٢» ، وكانت رايته سوداء ولواؤه أبيض «٣» .
لم يرتدع المشركون المعاندون ورءوس الكفر من قريش عن غيهم حتى بعد أن أحدقت بهم قوات المسلمين، فقد عولوا على تجميع قوات من قبائل شتى من حلفائهم لكي يدفعوهم لحرب المسلمين بقصد منعهم من دخول مكة، وكانوا مهيّئين للالتحاق بتلك القوات إذا حققت ما يؤملون، أما في حالة الفشل فإنهم يعطون ما طلب أبو سفيان منهم من الصلح. وقاد جموع أحلاف قريش التي تجمعت في الخندمة «٤» صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو «٥» .
أمر النبي صلّى الله عليه وسلّم قواته بدخول مكة لفتحها وقتال المقاومين، فتقدم المسلمون حتى وصلوا إلى الصفا ما يعرض لهم أحد يقاومهم إلّا قتلوه «٦» .
دخل النبي صلّى الله عليه وسلّم مكة من أعلاها من جهة كداء «٧» ، في حين دخل خالد بن الوليد بقواته من أسفلها «٨» ، وكانت مقاومة المشركين يسيرة، وكانت أعنف المواجهات قد حصلت عند جبل الخندمة حين التحمت قوات خالد بالمشركين فاستشهد اثنان من فرسان المسلمين على أصح الروايات «٩» ، في حين قتل من المشركين اثنا عشر رجلا «١٠» ، وكان هذا القتال الذي جرى في مكة بسبب عدم احترام المقاومين للأمان الذي أعلنه النبي صلّى الله عليه وسلّم لأهل مكة، وقد توجع أبو سفيان بسبب كثرة القتلى وخاطب النبي صلّى الله عليه وسلّم قائلا: «يا رسول الله، أبيحت خضراء قريش، لا قريش بعد

---

(١) حديث «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن..» من رواية إسحاق بن راهويه، وهو صحيح وقد مر ذكره آنفا.
(٢) مسلم- الصحيح ٣/ ١٤٠٦ (حديث ١٧٨٠) ، ابن هشام- السيرة ٢/ ٤٠٧.
(٣) ابن ماجه- السنن ٢/ ٩٤١ بإسناد حسن، الألباني- صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ١٢٣ رقم (٢٢٧٤، ٢٨١٨) ، وانظر كذلك النسائي- السنن ٥/ ٣٠٠.
(٤) أحد جبال مكة.
(٥) ابن هشام- السيرة ٢/ ٤٠٧.
(٦) مسلم- الصحيح ٣/ ١٤٠٥ (حديث ١٧٨٠) .
(٧) البخاري- الصحيح ٥/ ١٨٩ (حديث ٤٢٩٠- ٤٢٩١) .
(٨) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٨/ ١٠) .
(٩) البخاري- الصحيح (فتح الباري حديث ٤٢٨٠) ، وفي رواية ابن إسحاق ثلاثة (ابن هشام- السيرة ٢/ ٤٠٧) ، والعمدة على ما أورده البخاري فقد نص على اثنين من الشهداء بين المسلمين.
(١٠) ابن هشام- السيرة ٢/ ٤٠٧، الحاكم المستدرك ٣/ ٢٤١، ونقل البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١٢٠) من مراسيل موسى بن عقبة أنهم قريب من عشرين رجلا بالإضافة إلى ثلاثة أو أربعة من هذيل وذكر الواقدي أنهم أربعة وعشرون من قريش وأربعة من هذيل (المغازي ٢/ ٨٢٧- ٨٢٩) ، ابن سعد- الطبقات ٢/ ١٢٦، وجعلهم الطبراني سبعين رجلا وهو ما نقل عنه الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ٣٣١) .

اليوم» .
ولقد أهدر النبي صلّى الله عليه وسلّم دماء أربعة رجال وامرأتين بسبب ما كانوا قد ألحقوه من أذى شديد وتنكيل بالمسلمين فكان في إهدار دمائهم عبرة للطغاة والمستهترين، ولكل من تسول له نفسه الظلم والطغيان «٢» . وأباح النبي صلّى الله عليه وسلّم لخزاعة أن تثأر من بني بكر في اليوم الأول

من فتح مكة حتى العصر وذلك لما كان منهم بالوتير «٣» ، وعند ما دخل العصر أمر بكف السلاح عن بني بكر، وبيّن حرمة مكة «٤» .
أعلن النبي صلّى الله عليه وسلّم العفو العام عن عامة أهل مكة حيث اجتمعوا إليه قرب الكعبة المشرفة ينتظرون حكمه فيهم فقال لهم: «ماذا تظنّون أنّي فاعل بكم؟» ،: فقالوا «خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم» فقال لهم: «لا تثريب عليكم يغفر الله لكم» ، وفي: رواية «اذهبوا فأنتم الطّلقاء» «٥» . وقد نزل قول الله تعالى: وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ «٦» .
لم يدخل النبي صلّى الله عليه وسلّم مكة دخول الفاتحين، بل إنه دخل خاشعا لله تعالى وهو يقرأ سورة الفتح ويرجّع في قراءتها وهو على راحلته «٧» ، وقد دخل المسجد الحرام وطاف بالكعبة المشرفة فاستلم الركن بمحجنه كراهة أن يزاحم الطائفين ولكي يعلّم أبناء الأمة آداب الطواف، وأعلن صلّى الله عليه وسلّم حرمة مكة وبأنها لا تغزى بعد الفتح «٨» ، ورفع من مكانة قريش وأمر بألّا يقتل قرشي صبرا بعد الفتح وإلى يوم القيامة «٩» . وقد أمر صلّى الله عليه وسلّم بتحطيم الأصنام والأوثان، وشارك صلّى الله عليه وسلّم بنفسه في ذلك وهو يقرأ قول الله تعالى: قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَما يُعِيدُ «١٠» . وقوله تعالى: وَقُلْ جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً «١١» .

---

(١) مسلم- الصحيح ٢/ ٩٥- ٩٦.
(٢) البخاري- الصحيح ٥/ ١٨٨، مسلم- الصحيح ١/ ٥٧٠، ابن هشام- السيرة ٢/ ٤١٠، البيهقي- السنن ٩/ ١٢٠، ابن كثير- البداية والنهاية ٤/ ٢٩٩، كما نقله السيوطي عن النسائي وزهر الربا ٧/ ١٠٥) .
(٣) أحمد- الفتح الرباني ٢١/ ١٥٩، المسند ٤/ ٣٢.
(٤) أحمد- الفتح الرباني ٢١/ ١٥٩، المسند ٤/ ٢، ٣ وقد قتلت خزاعة في اليوم الثاني من أيام الفتح رجلا في مزدلفة تطلبه بثأر، فظهر على النبي صلّى الله عليه وسلّم الغضب الشديد ودفع دية القتيل البكري، وبين أن من قتل بعد ذلك قتيلا فأهل القتيل بالخيار بين القصاص والدية. وانظر حديث شريح في حرمة مكة، رواه البخاري في الصحيح (الفتح حديث ٤٢٩٥) ، مسلم ٢/ ٩٨٧- ٩٨٨ (حديث ١٣٥٤) .
(٥) القاسم بن سلام- الأموال/ ١٤٣، ابن سعد ٢/ ١٤١- ١٤٢.
(٦) القرآن الكريم- سورة النحل، الآية/ ١٢٦.
(٧) البخاري- الصحيح (فتح الباري- حديث ٤٢٨٠) .
(٨) الترمذي- السنن ٣/ ٨٣، وقال عنه: إنه حسن صحيح، أحمد- المسند ٤/ ٤١٢.
(٩) مسلم- الصحيح ٢/ ٩٧ (حديث ١٧٨٢) ، أحمد- المسند ٣/ ٤١٢، بإسناد صحيح.
(١٠) القرآن الكريم- سورة سبأ، الآية/ ٤٩.
(١١) القرآن الكريم- سورة الإسراء، الآية/ ٨١ وقد ورد في رواية البخاري الآية (٤٩) من سورة سبأ ولم ترد الثانية (حديث ٤٢٨٧) وفي مسلم- الصحيح ٣/ ١٤٠٨ (حديث ١٧٨١) وردت الأولى والثانية، وفي روايتين أخريين له أورد الآية من سورة الإسراء.

وقد تم تحطيم الأصنام جميعا، وكان عددها ثلاثمائة وستين صنما «١» . وكانت قد علقت في جدران الكعبة الداخلية صورا لإبراهيم وإسماعيل وإسحق وهم يستقسمون بالأزلام فقال صلّى الله عليه وسلّم: «قاتلهم الله ما كان إبراهيم يستقسم بالأزلام» «٢» . ووردت رواية أخرى تذكر وجود صورة مريم معلقة داخل الكعبة «٣» فغطيت جميع الصور بالزعفران وتم إزالتها من جوف الكعبة قبل أن يدخل النبي صلّى الله عليه وسلّم فيها «٤» ، ووجد فيها حمامة من عيدان فكسّرها ورمى بها خارج الكعبة «٥» ، وعند ما طهرت الكعبة دخلها النبي صلّى الله عليه وسلّم وصلى بها «٦» . وحين خرج صلّى الله عليه وسلّم من الكعبة دعا عثمان ابن طلحة فأعطاه مفتاح الكعبة فأبقى الحجابة في أيدي بني شيبة

كما كانت في الجاهلية «٧» ، ثم استلم الحجر الأسود وطاف بالبيت من غير إحرام مهللا مكبرا شاكرا ذاكرا حامدا «٨» .
أمر النبي صلّى الله عليه وسلّم بلالا الحبشي أن يؤذن، فصعد إلى ظهر الكعبة وأذن عليها «٩» ، وبعد تطهير البيت العتيق من الأصنام عاد البيت كما أراه الله تعالى مركزا للتوحيد الخالص، وكان ذلك أكبر ضربة للوثنية في جزيرة العرب حيث كانت الكعبة من أعظم مراكزها، وإتماما لهذا الهدف الأساسي، فإنه ما أن تم فتح مكة وجرى تطهير الكعبة، حتى بادر النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى إرسال بعض أصحابه لهدم ما تبقى من مراكز الوثنية، فقد وجّه خالد بن الوليد إلى نخلة من ديار ثقيف لهدم «العزّى» التي كانت قبائل مضر وقريش وكنانة تعبدها وتعظمها، فهدمها، وكان ذلك في الخامس والعشرين من شهر رمضان «١٠» ، وأرسل سعد بن زيد الأشهلي في عشرين فارسا إلى «مناة»

---

(١) البخاري- الصحيح ٥/ ١٨٨، حديث ٤٢٨٧، مسلم- الصحيح ٣/ ١٤٠٨ (حديث ١٧٨١) .
(٢) البخاري- الصحيح ٥/ ١٨٨، احمد- المسند ١/ ٣٦٥، وأورد البخاري رواية أخرى جاء فيها قوله صلّى الله عليه وسلّم: «هذا إبراهيم مصور فما له يستقسم» (حديث ٣٣٥١) .
(٣) البخاري- الصحيح (حديث ٣٣٥١) .
(٤) المرجع السابق ٥/ ١٨٨.
(٥) الذهبي- المغازي ص/ ٥٥٢ من رواية لابن إسحاق بإسناد حسن.
(٦) البخاري- الصحيح ٥/ ٢٢٢ (حديث ٤٤٠٠) وقد أورد الإمام البخاري في هذه الرواية الصحيحة تفاصيل دقيقة عن المكان الذي صلّى فيه النبي صلّى الله عليه وسلّم في جوف الكعبة، كما أورد تفصيلات عن بناء الكعبة والأعمدة الداخلية.
(٧) الصنعاني- المصنف ٥/ ٨٣- ٨٥ الأحاديث ٩٠٧٣، ٩٠٧٤، ٩٠٧٦، وانظر ابن حجر- فتح الباري- شرح حديث (٤٢٨٩) .
(٨) البخاري- الصحيح ٣/ ٢١ (حديث ٤٢٨٦) ، مسلم- الصحيح ٢/ ٩٩٠ (حديث ١٣٥٨) وفيه أنه كان يلبس المغفر منذ دخل مكة، ثم نزعه عن رأسه ولبس عمامة سوداء.
(٩) الذهبي- المغازي ص/ ٥٥٥ بإسناد حسن، البيهقي- دلائل النبوة ٥/ ٧٨ بإسناد صحيح، ابن سعد- الطبقات ٣/ ٢٣٤- ٢٣٥، الواقدي- مغازي ٢/ ٨٤٦ ونقل الواقدي تعليقات بعض وجهاء قريش على صعود بلال على ظهر الكعبة وهي تعكس الامتعاض والتمييز العنصري المخالف للإسلام بطبيعة الحال. ولم يكونوا قد أسلموا بعد.
(١٠) ابن هشام- السيرة ٤/ ١١٢ برواية ابن إسحاق، وفيه أن سدنتها وحجابها كانوا من بني شيبان وبني سليم حلفاء بني هاشم، وانظر الواقدي- المغازي ٢/ ٨٧٣، ابن سعد- الطبقات ٢/ ١٤٥.

بالمشلل من ناحية قديد، وكانت من الأصنام التي تعظمها قبائل العرب وخصوصا الأوس والخزرج قبل الإسلام فهدمها وذلك لست بقين من رمضان «١» . كما أرسل عمرو بن العاص إلى «سواع» صنم هذيل فهدمه، وأرسل الطفيل بن عمرو الدوسي لإحراق (ذي الكفّين) صنم عمرو بن حممة فأنجز الطفيل مهمته «٢» . مما أزال أكبر مراكز الوثنية التي أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى: أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى* وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى «٣» .
اجتمع الناس لمبايعة النبي صلّى الله عليه وسلّم على السمع والطاعة لله ورسوله «٤» ، فلما فرغ من بيعة الرجال، بايع النساء وأورد الطبري في تاريخه تفصيلات بيعة النساء، وهي لم ترد عن طريق صحيحه، وقد تضمنت «ألّا يشركن بالله تعالى ولا يسرقن ولا يزنين ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصين الرسول في معروف» «٥» .
ولقد خشي بعض الأنصار أن يكون الأمان الذي منحه الرسول صلّى الله عليه وسلّم لقريش وتسامحه معهم دليلا على رغبته في قريته ورغبته في المقام بين أبناء عشيرته، فأخبره الوحي بما قالوا

فخاطبهم قائلا: «إنّي عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، والمحيا محياكم والممات مماتكم» ، فاعتذروا إليه فقبل اعتذارهم «٦» .
خطب النبي صلّى الله عليه وسلّم بعد فتح مكة عدة خطب وردت بمرويات صحيحة ومتواترة، أولها كانت خطبته يوم الفتح على باب الكعبة بيّن فيها دية الخطأ شبه العمد في القتل، وألغى مآثر الجاهلية وثاراتها مستثنيا منها سقاية الحاج وسدانة البيت العتيق «٧» .
وفي الخطبة الثانية أبطل أحلاف الجاهلية وبأنه «لا حلف في الإسلام، وما كان من حلف الجاهلية فإن الإسلام لا يزيده إلا شدة، والمؤمنون يد على من سواهم يجير عليهم أدناهم، ويرد عليهم أقصاهم، يرد سراياهم على قعيدهم» ، كما بين صلّى الله عليه وسلّم فيها أنه: «لا يقتل مؤمن بكافر، دية الكافر نصف دية المسلم» ، وأنه «لا جلب ولا

---

(١) ابن سعد- الطبقات ٢/ ١٤٦، هشام ابن محمد الكلبي- الأصنام ص/ ١٥.
(٢) ابن سعد- الطبقات ٢/ ١٤٦ معلقا، ابن هشام- السيرة ١/ ٣٨٥ بدون إسناد.
(٣) القرآن الكريم- سورة النجم، الآية/ ١٩- ٢٠.
(٤) بايع النبي صلّى الله عليه وسلّم المسلمين بعد الفتح على الإسلام والإيمان والجهاد، انظر: البخاري- الصحيح ٥/ ٧٢، ١٩٣، مسلم- الصحيح ٢/ ١٤٠.
(٥) الطبري- تاريخ ٣/ ٦١- ٦٢ بلاغا، وذكر الطبري تفصيلات عن مناقشة هند بنت عتبة ومداخلاتها في أثناء البيعة وبأن النبي صلّى الله عليه وسلّم أمر عمر بأن يأخذ له البيعة عليهن، وقد ثبت في الصحيح أن الرسول صلّى الله عليه وسلّم كان يبايع النساء بالكلام بالآية ولا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً ... سورة الممتحنة (الآية/ ١٢، وأنه ما مست يده الكريمة امرأة أجنبية عنه (البخاري- الصحيح- فتح الباري حديث ٢٥٨٨) ، مسلم- الصحيح (حديث ١٨٦٦) .
(٦) مسلم- الصحيح ٣/ ١٤٠٦ حديث ١٧٨٠، وأورد الإمام البخاري أن أسامة بن زيد- رضي الله عنه- سأل النبي صلّى الله عليه وسلّم إن كان سينزل في بيته، فقال صلّى الله عليه وسلّم: «وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دور؟» ، ولذلك فقد أقام صلّى الله عليه وسلّم في قبة ضربت له في الحجون (البخاري- الصحيح ٥/ ١٨٧) ، (مسلم- الصحيح ١/ ٥٦٧) .
(٧) أحمد- المسند ٣/ ٤١٠ بإسناد حسن لذاته، أبو داود- السنن (٢/ ٤٩٢) بإسناد صحيح.

جنب ولا تؤخذ صدقاتهم إلّا في دورهم» «١» .
أما في الخطبة الثالثة فقد أعلن صلّى الله عليه وسلّم تحريم مكة وتحريم صيدها وخلالها ولقطتها والقتال فيها، وقال إن الله قد أحلها له ساعة من نهار وهو وقت الفتح، وبين أنه لا هجرة بعد الفتح ولكن يبقى الجهاد والنية «٢» .
وأوضح صلّى الله عليه وسلّم في خطبته الرابعة: أن وليّ المقتول بالخيار بين قبول الدية أو القصاص «٣» .
وفي فتح مكة نزل قول الله تعالى: إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ* وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً* فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً «٤» .
ولقد كان من أبرز نتائج فتح مكة مبادرة قبائل العرب إلى قبول الإسلام بعد أن تيقنوا من نتيجة الصراع بين المسلمين وقريش، وقد أورد الإمام البخاري رواية من حديث عمرو بن سلمة جاء فيها: أن العرب كانت «تلوّم بإسلامها الفتح، يقولون: انظروا فإن ظهر عليهم فهو صادق وهو نبي، فلما جاءتنا وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم»
» ، ويرى ابن إسحاق أن العرب كانت «تربّص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش وأمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وذلك أن قريشا كانوا إمام الناس وهاديهم، وأهل البيت الحرام، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وقادة العرب لا ينكرون ذلك، وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله

صلّى الله عليه وسلّم وخلافه، فلما افتتحت مكة ودانت له قريش، ودوخها الإسلام، وعرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ولا عداوته، فدخلوا في دين الله، كما قال عز وجل أفواجا يضربون إليه من كل وجه» «٦» .
ومن نتائج فتح مكة المكرمة تحول مركز ثقل معسكر الشرك إلى الطائف حيث سارعت كل من قبيلتي هوازن وثقيف إلى التصدي للإسلام وقيادة معسكر الشرك المعادي له.
وإضافة إلى ما تحقق في فتح مكة من اتساع رقعة ديار الإسلام، وتسارع وتيرة دخول العرب في الإسلام، وإنهاء مقاومة قريش وحلفائها، وتحولهم إلى قوة إيجابية دافعة لنشر العقيدة الإسلامية والتصدي لخصومها ودفع الخطر عنها، فقد اتضحت بعض الأحكام الشرعية المهمة من جراء فتح مكة وخلال أحداث غزوتها، من ذلك جواز الصيام والإفطار في نهار رمضان للمسافر في غير معصية «٧» .

---

(١) أخرج مسلم أوله في الصحيح ٤/ ١٩٦١ (حديث ٢٥٣٠) ، وأخرجه الإمام أحمد كاملا في الفتح الرباني (٢١/ ١٦٠- ١) ، كما صححه الإمام الترمذي، وقال الساعاتي: «حديث صحيح» .
(٢) ولهذا فقد بايع النبي صلّى الله عليه وسلّم المسلمين بعد الفتح في مكة المكرمة وغيرها على الإسلام والإيمان والجهاد.
(٣) البخاري- الصحيح ١/ ٣٨ (حديث ٦٨٨٠) ، مسلم ٣/ ١٤٨٧- ١٤٨٨ (حديث ١٨٦٤) .
(٤) القرآن الكريم- سورة النصر، وانظر البخاري- الصحيح ٥/ ١٨٩ (حديث ٤٢٩٤) . وأصل تلوّم تتلوّم ومعناها: تنتظر. انظر فتح الباري (٧/ ٦١٧) .
(٥) البخاري- الصحيح (فتح الباري، حديث ٤٣٠٢) ، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٧٠.
(٦) ابن هشام- سيرة ٢/ ٥٦٠.
(٧) مسلم- الصحيح ١/ ٤٥١.

كما اتضحت بعض الأحكام المتعلقة بإمامة الصلاة «١» وتحديد مدة قصر الصلاة للمسافر «٢» ، وتأكيد صلاة سنة الضحى وعدد ركعاتها «٣» ، وكان في إقرار الرسول صلّى الله عليه وسلّم لجوار أم هاني «٤» إقرارا لأمان النساء «٥» ، وقد أبيحت المتعة يوم الفتح ثم حرمت بعد ذلك تحريما أبديا إلى يوم القيامة «٦» ، كما توضحت الأحكام الخاصة بنكاح المشرك إذا أسلمت زوجته قبله «٧» ، وكذلك حكم «الولد للفراش» «٨» ، ومنها حق الزوجة في الإنفاق على نفسها وعيالها من مال زوجها بالمعروف دون علمه إذا امتنع عن النفقة «٩» ، ومنها تحريم بيع الخمر والميتة والأصنام والأوثان «١٠» ، ومن ذلك تحريم الشفاعة في حد من حدود الله «١١» ، ومنها منع صبغ الشيب بالسواد وبيان حكم خضابه بالحناء «١٢» ، والنهي عن قتل المرأة مادامت لا تقاتل «١٣» ، وعدم جواز الوصية بأكثر من ثلث المال «١٤» ، ومنها جواز دخول مكة بغير إحرام «١٥» .

---

(١) البخاري- الصحيح ٥/ ١٩١.
(٢) المرجع السابق ٥/ ١٩٠.
(٣) المرجع السابق ٥/ ١٨٩، مسلم- الصحيح ١/ ٢٨٩.
(٤) البخاري- الصحيح ٤/ ١٢٢.
(٥) أبو داود- عون المعبود ٧/ ٤٤.
(٦) مسلم- الصحيح بشرح النووي ٣/ ٥٥٣، وانظر الصحيح ١/ ٥٨٦، ٥٨٧.
(٧) مالك- الموطأ (شرح الزرقاني ٣/ ١٥٦، ١٥٧) .
(٨) البخاري- الصحيح ٨/ ١٩١.
(٩) مسلم- الصحيح ٢/ ٦٠.

(١٠) البخاري- الصحيح ٣/ ١١٠، مسلم- الصحيح ١/ ٦٩٠، ٦٨٩.
(١١) البخاري- الصحيح ٥/ ١٩٢، مسلم- الصحيح ٢/ ٤٧.
(١٢) مسلم- الصحيح ٢/ ٢٤٤.
(١٣) البخاري- الصحيح، فتح (حديث ٣٠١٤- ٣٠١٥) ، مسلم- الصحيح (حديث ١٧٤٤) ، أحمد- المسند ٢/ ١١٥.
(١٤) البخاري- الصحيح، الفتح الأحاديث ٢٧٤٣، ٢٧٤٤) ، الترمذي- السنن ٣/ ٢٩١.
(١٥) البخاري- الصحيح، فتح الباري (حديث ٤٢٨٦) ، مسلم- الصحيح (حديث ١٣٥٨) .
جـ ١(ص: ٣٧٤)

سرية خالد بن الوليد إلى بني جذيمة:
وخلال إقامته في مكة المكرمة بعث النبي صلّى الله عليه وسلّم خالد بن الوليد على رأس سرية كبيرة من المهاجرين والأنصار وغيرهم من بني سليم بلغ عددهم ثلاثمائة وخمسين رجلا فيهم عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمر إلى بني جذيمة «١» ، وذلك في شوال سنة ثمان من الهجرة، داعيا لهم إلى الإسلام «٢» ، فلما وصلت السرية وعرض خالد عليهم الإسلام لم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا، فقتل منهم وأسر، ثم دفع بعد ذلك إلى كل رجل من السرية أسيرا، ثم أمرهم ذات يوم بقتل أسراهم فأبى ذلك جماعة من الصحابة منهم عبد الله بن عمر حيث قال: «والله لا أقتل أسيري، ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره» ، وجرت ملاحاة بين عبد الرحمن بن عوف وخالد بن الوليد بسبب ذلك حتى كاد أن يقع بينهما شر «٣» فلما قدموا على النبي صلّى الله عليه وسلّم وأخبروه بما جرى وما فعل خالد، رفع النبي صلّى الله عليه وسلّم يديه إلى السماء وقال: «اللهمّ إنّي أبرأ إليك ممّا صنع خالد» ، كررها مرتين «٤» كما أنكر صلّى الله عليه وسلّم على خالد ما فعله من شتم عبد الرحمن بن عوف وقال: «لا تسبّوا أحدا من أصحابي، فإنّ أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبا، ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه» «٥» .
وبعث النبي صلّى الله عليه وسلّم علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- إلى بني جذيمة لإصلاح ما أحدثه خالد في تأوله الأمر واجتهاده الخاطيء فيها «٦» ، فودى لهم قتلاهم وزادهم فيها تطييبا لنفوسهم وبراءة من دمائهم «٧» .

---

(١) وكانوا يقيمون في يلملم، قال ابن سعد إنهم بأسفل مكة على ليلة منها ناحية يلملم (الطبقات ٢/ ١٤٧) ، وذكر أن «يلملم» جبل من الطائف على ليلتين أو ثلاث، وقيل هو واد، ويمكن الجمع بينهما فيكون جبل يشرف على واد، انظر ياقوت- معجم البلدان ٨/ ٥١٤. وبلادهم تبعد ثمانين كيلا إلى الجنوب من مكة.
(٢) البخاري- الصحيح ٥/ ١٣١، ابن كثير- التفسير ٤/ ٣٠٦.
(٣) البخاري- الصحيح ٥/ ١٣١، وعن تفصيلات حول الملاحاة وأسبابها، انظر مسلم- الصحيح ٤/ ١٩٦٧- ١٩٦٨ (حديث رقم ٢٥٤١) .
(٤) البخاري- الصحيح ٥/ ١٣١ (حديث ٤٣٣٩) ، أحمد- الفتح الرباني ٢١/ ١٦٦- ١٦٧ بإسناد ولفظ البخاري وأوردت المصادر المختصة بالسيرة قول النبي صلّى الله عليه وسلّم لبعض رجال السرية الذين اشتركوا في قتل أحد فتيان بني جذيمة بعد أن سمع قصته مع قاتليه والفتاة التي كان يحبها فماتت كمدا عليه قال: «أما كان فيكم رجل رحيم» ، أوردها النسائي بإسناده إلى ابن عباس وكذلك من حديث ابن عيينه (البيهقي- دلائل النبوة ٥/ ١١٦- ١١٨) ، وكلاهما بإسناد صحيح كما ذكر الحافظ ابن حجر في الفتح في شرحه الحديث (٤٣٣٩) ، وابن حبّان في صحيحه (موارد الظمآن ص/ ١٥٩- ١٦٠، الأحاديث ٦٦٩٦- ٦٦٩٧) وانظر مجمع الزوائد ٦/ ٢١٠.
(٥) مسلم- الصحيح ٤/ ١٩٦٧- ٨ (حديث ٢٥٤١) .

(٦) لا شك في أنه كان اجتهادا من خالد بن الوليد- رضي الله عنه- أخطأ فيه، ولذلك لم يعاقبه النبي صلّى الله عليه وسلّم، انظر في ذلك كلام الحافظ ابن حجر في شرحه للحديث (٣٤٣٩) في فتح الباري ٨/ ٥٧.

(٧) ابن إسحاق (ابن هشام- السيرة ٢/ ٤٣٠) بإسناد منقطع، فهو من مراسيل محمد الباقر الذي ولد بعد عام ٤٠ هـ (ابن حجر- التهذيب ٩٠/ ٣٥١) ، وفي سنده حكيم بن حكيم وفيه كلام- وانظر ابن سعد- الطبقات ٢/ ١٤٧- ٨ معلّقا مختصرا.

جـ ١(ص: ٣٧٥)

غزوة حنين

تحركت قوات هوازن وثقيف في أعقاب فتح مكة يريدون قتال المسلمين، فنزلوا حنينا، وقد أرادوها موقعة حاسمة فحشدوا كل ما لديهم من القوات «١» والأموال والنساء والأبناء حتى يستقتلوا فلا يفكر أحد منهم في الفرار ويترك أهله وماله. واستنفروا معهم غطفان وغيرها «٢» . وكان يقود الجموع مالك بن عوف النصري- الذي اجتمع إليه بنو نصر قومه، وبنو جشم، وبنو سعد بن بكر، وقليل من بني هلال، وعدد من بني عوف بن عامر، وعمرو بن عامر، وتخلف من هوازن كعب وكلاب، أما ثقيف فقد التحقت بهم كلها مع أحلافها بالإضافة إلى بني مالك «٣» وقد بلغ تعداد قوات المشركين هذه عشرين ألف مقاتل «٤» ، وقد رتب مالك بن عوف قواته في صفوف حسنة، جعل الخيالة في المقدمة ثم الرجالة، وخلفهم حشد النساء والأولاد والأنعام والأثقال «٥» .

بلغت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أخبار التحشدات التي جمعتها قوى الشرك لمواجهة الإسلام، وأراد جمع المعلومات الدقيقة عنهم، ولذلك فإنه بادر بإرسال عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي للتعرف على أمرهم، فارتحل إليهم ومكث فيهم يوما أو يومين قبل أن يعود بأخبارهم إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم «٦» ، وبعد جمع المعلومات العسكرية المطلوبة عن المشركين بدأ النبي صلّى الله عليه وسلّم بالاستعدادات المطلوبة لمواجهتهم فاستعار مائة درع من صفوان بن أمية «٧» ، واستدان أربعين ألف درهم من حويطب بن عبد العزى»

، وقبل عون نوفل بن الحارث بن عبد المطلب له بثلاثة آلاف رمح «٩» .

كان جيش الفتح في مكة مستعدا إذ لم يلق مقاومة تذكر في فتح مكة، كما أن إقامته في مكة بعد الفتح مدة خمسة عشر يوما قد منحته الكثير من الراحة واستعادة النشاط، إضافة إلى ما تحقق له من ارتفاع في الروح المعنوية بما منحه الله من نصر، ولذلك فإنه كان مهيأ لمواجهة عدوان المشركين، وقد تحرك جيش المسلمين بناء على أمر قائده النبي صلّى الله عليه وسلّم في اليوم الخامس من شوال سنة ٨ هـ ميمما نحو تجمعات المشركين في حنين «١٠» ، وقد ثبت في الصحيحين مشاركة أبناء مكة في غزوة حنين في صفوف المسلمين «١١» ، فقد شارك ألفا مقاتل من أهل مكة، فبلغ عدد قوات

---

(١) البخاري- الصحيح ٥/ ١٣٠- ١٣١، مسلم- الصحيح ٢/ ٧٣٥.

(٢) مصادر الهامش السابق، وانظر الطبري- تاريخ ٣/ ٧٠.

(٣) ابن إسحاق- المغازي ص/ ٥٧١، الحاكم- المستدرك ٣/ ٤٨، ابن هشام- السيرة ٥٤/ ٤١٤.

(٤) الواقدي- المغازي ٣/ ٨٩٣.

(٥) مسلم- الصحيح ٢/ ٧٣٦ (حديث ١٠٥٩) .

(٦) الذهبي- المغازي ص/ ٥٧١- ٧٢، الحاكم- المستدرك ٣/ ٤٨.

(٧) الحاكم- المستدرك ٣/ ٤٨- ٤٩، البيهقي- السنن ٦/ ٨٩- ٩٠.

(٨) ابن عبد البر- الاستيعاب ١/ ٣٨٥.

(٩) المرجع السابق ٣/ ٥٣٧.

(١٠) ابن هشام- السيرة ٢/ ٤٣٧، البيهقي- السنن ٣/ ١٥١، النسائي- السنن ٣/ ١٠٠، ابن حجر- فتح الباري ٢/ ٥٦٢.

(١١) خليفة بن خياط- تاريخ ص/ ٨٨، ابن سعد- الطبقات ٢/ ١٥٤- ٥٥، الحاكم- المستدرك ٢/ ١٢١، وانظر ابن هشام- السيرة ٢/ ٤٤٠.

الجيش الإسلامي اثنى عشر ألف مقاتل، وهو أكبر جيش للمسلمين يخرج للقتال في حياة النبي صلّى الله عليه وسلّم حتى هذه الغزوة «١» ، وكان النبي صلّى الله عليه وسلّم حريصا على تأمين قواته لذلك فقد اهتم بحراسة الجيش ومراقبة تحركات العدو «٢» .

ولقد كان لوجود «الطلقاء» من أبناء مكة الذين كانوا حديثي عهد بالإسلام آثاره السلبية فقد رأى بعضهم أثناء تقدم الجيش الإسلامي نحو حنين شجرة تعرف بذات أنواط يعلق عليها المشركون أسلحتهم فطالبوا النبي صلّى الله عليه وسلّم أن يجعل لهم مثلها، فانتهرهم النبي صلّى الله عليه وسلّم قائلا: «سبحان الله، كما قال قوم موسى: اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ «٣» ، والّذي نفسي بيده لتركبنّ سنن من قبلكم» «٤» .

ومن تلك الآثار السلبية، ما أصاب بعض المسلمين من غرور وإعجاب بكثرتهم، فقال أحدهم: «لن نغلب من قلة» ، وقد أصاب هذا الشعور آخرين منهم مما استحقوا معاقبة الله لهم فأذاقهم مرارة الهزيمة في المواجهة الأولى في حنين، وعاقبهم وبيّن لهم أن النصر هو من عند الله، وبأن شعورهم بالزهو لكثرتهم كان سببا في ذلك الدرس القاسي، ولقد انتبه النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى ذلك الانحراف، فأكد لهم أن النصر من عند الله، وأنه يفتقر لربه ويدعوه وحده فقال صلّى الله عليه وسلّم: «اللهمّ بك أحول، وبك أجول، وبك أقاتل» ، كما قص على أصحابه قصة النبي الذي أعجب بكثر أمته فابتلاهم الله بالموت، فكان إدبارهم في المواجهة الأولى والأهوال التي واجهوها قد أرجعتهم إلى التصور الصحيح وإفراد التوكل على الله سبحانه «٥» .

ولعل من المناسب أن نشير إلى تصرفات بعض الأعراب والطلقاء الذين لم تكن تهمهم نتائج الصراع ومدلولاته بقدر ما كان يعنيهم الحصول على الغنائم «٦» ، وكذلك بعض زعماء قريش الذين كانوا يقفون في مؤخرة جيش المسلمين يراقبون تطور المعركة وينتظرون معرفة المنتصر فيها «٧» .

كانت قوات المشركين قد سبقت المسلمين إلى وادي حنين، فاختاروا مواقعهم، ووزعوا قواتهم، وأحكموا خطتهم التي اعتمدت على الاستفادة من طبوغرافية الموقع وثناياه وأشجاره وانحدار طريق المسلمين إليهم، وعلى المفاجأة ومباغتة المقاتلة المسلمين بالنبال بهدف إبادتهم، وكانت معنوياتهم عالية بسبب كثرتهم وشجاعتهم

---

(١) الواقدي- المغازي ٣/ ٨٩٠، الهيثمي- كشف الأستار ٢/ ٣٤٦- ٣٤٧، ابن إسحاق: ابن هشام- السيرة ٤/ ١٢٤، البيهقي- دلائل ٥/ ١٢٣.

(٢) أبو داود- السنن ١/ ٢١٠، ٢/ ٩، وانظر ابن حجر- الإصابة ١/ ٨٦.

(٣) القرآن الكريم- سورة الأعراف، الآية/ ١٣٨.

(٤) الترمذي- السنن ٣/ ٣٢١- ٣٢٢، النسائي- السنن الكبرى (تحفة الاشراف ١١/ ١١٢، حديث ١٥٥١٦) ، أحمد المسند ٥/ ٢١٨، ابن كثير- التفسير ٢/ ٢٤٣.

(٥) ذكر القرآن الكريم ذلك صراحة: انظر سورة التوبة، الآية/ ٢٥، وما بعدها، وانظر الدارمي- السنن ٥/ ١٣٥، أحمد- المسند ٤/ ٣٣٣.

(٦) البخاري- الصحيح ٤/ ٢٥، مسلم- الصحيح ٣/ ١٤٠١.

(٧) ابن كثير- البداية والنهاية ٤/ ٣٦٨ من رواية موسى بن عقبة عن الزهري مرسلا.

وخبراتهم القتالية «١» .
وعلى الجانب الإسلامي، عبأ النبي صلّى الله عليه وسلّم جيشه بالسّحر وعقد الألوية والرايات ورتب الجند على هيئة صفوف منتظمة، واستقبل بجيشه وادي حنين «٢» ، وانحدروا مع بزوغ الفجر تتقدمهم على المجنبات الخيالة بقيادة خالد بن الوليد «٣» ، وكان المقاتلة من بني سليم في طليعة القوات الإسلامية منذ خروجها من مكة «٤» .
اندفع المسلمون نحو جموع هوازن، فانكشفوا، فانكب المسلمون على ما تركوه من الغنائم، وبينما هم منشغلون بذلك، نفذت هوازن الخطوة الثانية من خطتها إذ سرعان ما عادت قواتها لتستقبل المسلمين، في الوقت الذي ظهرت قواتها الكامنة فأمطرتهم بوابل عنيف من السهام من الجانبين «ما يكاد يسقط لهم سهم، فرشقوهم رشقا ما كانوا يخطئون» «٥» ، وفوجيء المسلمون وتساقط شهداؤهم «٦» وضاقت عليهم الأرض بما رحبت فولوا مدبرين لا يلوون على شيء، حيث انكشفت خيالة المسلمين في البداية ثم اتبعهم المشاة، ثم بقية الجيش، واستمر القتال في هذه الجولة من الفجر إلى الليل ثم استمرت طوال ذلك الليل، وتقدم المصادر الموثقة معلومات مفصلة عن الصعوبات التي واجهها المسلمون من الحر الشديد، والأرض الرملية، وارتفاع الغبار في وجوههم مما حد من قدرتهم على الرؤية «٧» .
وكان ذلك درسا قاسيا عاقب الله تعالى به أولئك الذين أصابهم العجب والزهو ووصفهم القرآن الكريم بقوله تعالى: وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ «٨» .
أما النبي صلّى الله عليه وسلّم فقد ثبت وصمدت معه فئة قليلة من الصحابة، وكان يركب بغلته «٩» ، وينظر إلى إدبار المسلمين ويدعوهم إلى الثبات، وهو يدفع بغلته نحو العدو وهو يردد: «أنا النّبيّ لا كذب، أنا ابن عبد المطّلب» ، ومعه العباس بن عبد المطلب، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يمسكان بعنان بغلته لئلا تسرع به بين جموع العدو، وقد تراجع قليل من المسلمين يسيرا في الوقت الذي ابتعد معظمهم مدبرين ولم يصمد معه سوى عشرة أو اثني عشر من الصحابة فيهم العباس وأبو سفيان بن الحارث وأبو بكر الصديق وعمر بن
الخطاب وعلي بن أبي

---

(١) ابن كثير- البداية والنهاية ٤/ ٣٣٠، الواقدي- المغازي ٣/ ٨٩٣، وانظر ابن هشام السيرة- ٢/ ٤٤٢، أحمد- المسند ٣/ ٣٧٦.
(٢) الواقدي- المغازي ٣/ ٨٩٥- ٧.
(٣) البخاري- الصحيح ٥/ ١٣٠- ١٣١، مسلم- الصحيح ٢/ ٧٣٥.
(٤) الواقدي- المغازي ٣/ ٨٩٦- ٨٩٧.
(٥) البخاري- الصحيح ٤/ ٣٥ (حديث ٤٣١٧) ، مسلم- الصحيح ٣/ ١٤٠٠- ١٤٠١ (حديث ١٧٧٦)
.
(٦) البخاري- الصحيح (الفتح حديث ٤٣١٥) ، مسلم- الصحيح ٣/ ١٣٩٨ (حديث ١٧٧٥) .
(٧) أحمد- المسند ٥/ ٢٨٦، الهيثمي- مجمع الزوائد ٦/ ١٨٢.
(٨) القرآن الكريم- سورة التوبة، الآية/ ٢٥.
(٩) مسلم- الصحيح ٣/ ١٣٩٨- ١٤٠٠، القسطلاني- المواهب اللدنية ١/ ١٦٣، الواقدي- المغازي ٣/ ٨٩٥- ٦.

طالب- رضي الله عنهم) «١» .
وطلب الرسول صلّى الله عليه وسلّم من عمه العباس وكان جهوري الصوت أن ينادي الناس بالثبات وخص منهم أصحاب بيعة الرضوان فأسرعوا إليه عجلين، ثم نادى الأنصار ثم بني الحارث بن الخزرج فتلاحقوا نحوه حتى أصبحوا بين ثمانين ومائة مقاتل، عادوا إلى قتال هوازن وحلفائها، وكانت جولة

جديدة أخلصوا فيها النية وحسن التوجه إلى الله وأظهروا فيها من الشجاعة وصدق العزيمة والثبات ما مكنهم من الصمود بوجه المشركين «٢» ، وكان النبي صلّى الله عليه وسلّم يدعو ربه ويسأله النصر، وهو يقول: «أنا النّبيّ لا كذب أنا ابن عبد المطّلب اللهمّ نزّل نصرك» «٣» .
وحين غشيه الأعداء ترجل عن بغلته وقاتل، وكان الصحابة إذا اشتد البأس والتحم القتال يتقون به لشجاعته وثباته «٤» . وعند ما رأى من فر من المسلمين موقفه وثباته وسمعوا صوت العباس يناديهم عادوا إلى المعركة والتحقوا بقوات الرسول صلّى الله عليه وسلّم وهم ينادون: لبّيك لبّيك! حتى إن بعضهم لم ينتظر حتى يتمكن من أن يلوي عنان بعيره ليعود به، فهو يتركه ويأخذ درعه وسيفه ورمحه ويعود راكضا حتى ينتهي إلى موقع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيجالد المشركين «٥» .
واشتد القتال وتكاتفت قوى الإيمان والخير فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم: «هذا حين حمي الوطيس» «٦» .
وأخذ النبي صلّى الله عليه وسلّم قبضة من تراب وحصيات من الأرض فرمى بهما وجوه الكفار وهو يقول: «شاهت الوجوه» «٧» ؛ فما كان منهم أحد إلّا ملئت عينه ترابا من تلك القبضة فولوا مدبرين، والرسول صلّى الله عليه وسلّم يقول: «انهزموا وربّ محمّد» كررها مرتين «٨» .
وهكذا لم تصمد قوات المشركين طويلا في الجولة الثانية حين صدق المسلمون ما عاهدوا الله عليه، وأجرى الله تعالى على يد نبيه المعجزة الواضحة، وإلى ذلك يشير القرآن الكريم من قوله تعالى: ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذلِكَ جَزاءُ الْكافِرِينَ* ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ

---

(١) مسلم- الصحيح ٣/ ١٣٩٨- ١٤٠٠، الحاكم- المستدرك ٣/ ٢٥٥، أبو يعلى- المسند ٣/ ٣٣٨ (رقم ٣٠٣) ، ابن هشام- السيرة ٢/ ٤٤٢.
(٢) مسلم- الصحيح ٣/ ١٣٩٨- ١٤٠٠، ابن هشام- السيرة ٢/ ٤٤٤- ٥، الصنعاني- المصنّف ٥/ ٣٨٠- ٨١، ابن سعد- الطبقات ٤/ ١٨.
(٣) مسلم- الصحيح ٣ (١٤٠١) .
(٤) البخاري- الصحيح ٤/ ٣٥- ٥٣، مسلم- الصحيح ٣/ ١٤٠٠- ١٤٠١ (حديث ١٧٧٦) ، النووي- شرح صحيح مسلم ٤/ ٤٠١- ٤٠٢.
(٥) مسلم- الصحيح ٣/ ١٣٩٨- ١٤٠٠، ابن هشام- السيرة ٢/ ٤٤٤- ٤٤٥.
(٦) مسلم- الصحيح ٣/ ١٣٩٨- ١٤٠٠.
(٧) المرجع السابق ٣/ ١٤٠١- ١٤٠٢.
(٨) المرجع السابق ٣/ ١٤٠٢.

عَلى مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ «١» .
انهارت قوى الشرك، وفرت من ميدان المعركة بشكل غير منظم مخلفة وراءها أعدادا كثيرة من القتلى وكمية كبيرة من الغنائم، كما خلفت شراذم من قواتها تمكن المسلمون من القضاء عليهم بسهولة، وأمر النبي صلّى الله عليه وسلّم بتعقب المشركين المهزومين وقتلهم حتى يمنع إمكانية تجمعهم ثانية واحتمال عودتهم إلى القتال فكانت خسائر المشركين في القتلى خلال هزيمتهم أعظم من خسارتهم خلال المعركة. وقد نهى النبي صلّى الله عليه وسلّم عن قتل النساء والأجراء وكل من لا يحمل السلاح، كما نهى عن قتل الأولاد والذراري حين بلغه أن بعضهم قد قتل خلال المعركة، وقال له أحد المسلمين: «إنما هم أولاد المشركين» ، فأجاب النبي صلّى الله عليه وسلّم: «أو هل خياركم إلّا أولاد المشركين؟، والّذي نفس محمّد بيده ما من نسمة تولد إلّا على الفطرة حتّى يعرب عنها لسانها» «٢» .
وكان سبي حنين كثيرا، فقد بلغ ستة آلاف من النساء والأبناء «٣» ، أما الغنائم فقد بلغت أربعة آلاف أوقية فضة «٤» ، أما الإبل فكانت أربعة وعشرين ألفا»

، أما الأغنام فكانت أكثر من أربعين ألف شاة «٦» ، وقد حبس الرسول صلّى الله عليه وسلّم هذا السبي والغنائم بالجعرانة ليتصرف فيها بعد الفراغ من أمر الطائف «٧» .
لم تكن خسائر المسلمين كبيرة خلافا للتوقعات من خلال المعلومات العامة عن إصابات المسلمين في الجولة الأولى وفرار الكثير منهم، بل إنها كانت طفيفة جدا إذا ما أدخلنا قوة المشركين واستعداداتهم وخططهم في الاعتبار وذلك من فضل الله وحفظه ورحمته بالمسلمين، فقد استشهد منهم أربعة شهداء «٨» ، وجرح عدد منهم، أشارت المصادر من بينهم إلى أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعبد الله بن أبي أوفى وخالد بن الوليد «٩» ، ومما يؤكد صحة هذه الأرقام بالإضافة إلى ورودها في مرويات صحيحة، قيام المسلمين بعد الجولة الثانية بمطاردة المشركين إلى مسافات بعيدة، كما أنهم توجهوا إلى حصار الطائف بعد انتهاء معركة حنين مباشرة.
تفرق من نجا من مقاتلة المشركين في الجبال والوديان بعد هزيمتهم في معركة حنين، ولجأت مجموعة كبيرة

---

(١) القرآن الكريم- سورة التوبة، الآيات/ ٢٦- ٢٧.
(٢) أحمد- المسند ٣/ ٤٣٥.
(٣) الصنعاني- المصنف ٥/ ٣٨١، ابن سعد- الطبقات ٢/ ١٥٥ من رواية الزهري عن ابن المسيب مرسلا، الطبري- تاريخ ٣/ ٨٢، الذهبي- المغازي ص/ ٦٠٦.
(٤) ابن سعد- الطبقات ٢/ ١٥٢.
(٥) المرجع السابق ٢/ ١٥٢ وكان معهم خيل وأبقار وحمير وبغال غير أن المصادر لم تذكر عددها.
(٦) المرجع السابق نفسه، والصفحة نفسها.
(٧) أخرجه البزار كما في كشف الأستار للهيثمي ٢/ ٣٥٣، قال الحافظ ابن حجر: «إسناده حسن» ، انظر، الإصابة ١/ ١٤٥.
(٨) هم: أبو عامر الأسلمي، وأيمن بن عبيد، ويزيد بن زمعة بن الأسود، وسراقة بن الحارث، انظر: البخاري- الصحيح ٥/ ١٢٦، الحميدي- المسند ٢/ ٣٩٨، الهيثمي- كشف الأستار ٢/ ٣٤٦، وحسن إسناده الحافظ ابن حجر، فتح الباري ٨/ ٤٢.
(٩) البخاري- الصحيح ٥/ ١٢٦ (حديث ٤٣١٤) ، الهيثمي- كشف الأستار ٢/ ٣٤٦، البزار- مختصر الزوائد ص/ ٤٩- ٥٠ (رقم ٨١٦) ، الحميدي- المسند ٢/ ٣٩٨ بإسناد صحيح.
جـ ١(ص: ٣٨٠)

منهم إلى أوطاس «١» ، وعسكرت مجموعة أخرى منهم في نخلة «٢» ، أما غالبية من انهزم من ثقيف فقد تبعوا قائدهم مالك بن عوف النصري إلى حصونهم بالطائف، وقد لا حق مقاتلة المسلمين الفارين حسب توجيهات النبي صلّى الله عليه وسلّم، حيث بعث أبا عامر عبيد بن سليم بن حضار الأسلمي على رأس قوة من المسلمين إلى أوطاس فقاتلهم وقتل دريد ابن الصمة «٣» ، وقد أصيب أبو عامر الأسلمي بسهم وهو يقاتلهم فاستخلف أبا موسى الأشعري في القيادة وطلب منه أن يبلغ سلامه للنبي صلّى الله عليه وسلّم وأن يطلب منه الاستغفار له «٤» ، قبل أن يستشهد، وأكمل المسلمون بقيادة الأشعري المهمة وهزموا الأعداء بعد أن قتل في أوطاس من المشركين من بني مالك ثلاثمائة قتيل بينهم دريد بن الصمة «٥» ، كما قتل خلق كثير من بني نصر بن معاوية من قبيلة رئاب. «٦»
وهكذا فإنه ليس بالإمكان إعطاء رقم دقيق لعدد قتلى المشركين الإجمالي في معركة حنين فقد كان عدد قتلى بني مالك من ثقيف في الجولة الثانية من حنين قد بلغ اثنين وسبعين قتيلا وقتل من الأحلاف قتيلان، وقتل بأوطاس كما أسلفنا ثلاثمائة من بني مالك، وتشير المصادر إلى أنه قتل خلق كثير من فروع هوازن الأخرى وخاصة من بني نصر بن معاوية وغيرهم ممن قتلوا أثناء فرارهم إلى نخلة من حنين.

وتشير مرويات مرسلة إلى أن الشيماء أخت الرسول صلّى الله عليه وسلّم من الرضاعة، ومرضعته حليمة السعدية قد التقتا الرسول صلّى الله عليه وسلّم فأكرمهما. «٧»

غزوة الطائف:

تجمعت قوات المسلمين في أعقاب النصر المظفر الذي كتبه الله لهم في معركة حنين، وتوجهوا بقيادة النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى الطائف بهدف القضاء على قوات ثقيف التي فرت من حنين، وكانت فلول ثقيف بقيادة مالك بن عوف قد لجأت إلى حصونها المنيعة في الطائف وجمعت ما يكفيها من المؤن الغذائية لعام كامل، وأغلقت أبوابها واتخذت كافة الإجراءات والاستعدادات التي تمكنها من مواجهة حصار طويل وواصلت ترميم الحصون وتدعيمها إلى حين وصول طلائع المسلمين المتجهة نحوهم «٨» .

---

(١) واد بين حنين والطائف، معجم البلدان ١/ ٢٨١.

(٢) موضع بين حنين وسبواحة (تعليق حمد الجاسر على كتاب المناسك للحربي) .

(٣) البخاري- الصحيح ٥/ ١٢٨، وفيه أن الذي قتله هو الزبير بن العوام، الهيثمي- كشف الأستار ٢/ ٣٤٦، وحسّنه الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٨/ ٤٢.

(٤) البخاري- الصحيح ٤/ ٢٨، ٥/ ١٢٨، ٨/ ٦٩، مسلم الصحيح ٤/ ١٩٤٣، وفيه أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قد دعا له، (حديث ٢٤٩٨) .

(٥) ابن إسحاق- سيرة ابن هشام ٢/ ٤٥٣- ٥٤، الواقدي- المغازي ٣/ ٩١٦، ابن سعد- الطبقات ٢/ ١٥٢.

(٦) ابن هشام- السيرة ٢/ ٤٥٤، وجعلهم الواقدي في المغازي ٣/ ٩١٦ «بني رباب» ، عوضا عن «رئاب» ، ولم يرد الخبر في مرويات حديثية صحيحة.

(٧) ابن إسحاق- سيرة ابن هشام ٢/ ٤٥٨، البيهقي- دلائل النبوة ٣/ ٥٦، الطبري- جامع البيان ١٠/ ١٠١ وعن لقاء حليمة السعدية، انظر البخاري- الأدب المفرد ص/ ٤٤٠، أبو داود- السنن ٢/ ٦٣٠، الحاكم- المستدرك ٣/ ٦١٨، ٤/ ١٦٤، ابن كثير- البداية ٤/ ٣٦٤.

(٨) ابن هشام- السيرة ٤/ ١٧٠- ١٧١، ابن سعد- الطبقات ٢/ ١٥٨.

وصل الجيش الإسلامي إلى الطائف في حدود نهاية الأسبوع الثالث من شهر شوال، فباشروا إحكام الحصار حول حصون العدو مدة أسبوعين، وكان نزولهم أول الأمر قريبا من حصون العدو وعلى مرمى سهامهم مما أدى إلى سقوط عدد من الشهداء وجرح عدد آخر منهم، ثم تحول المسلمون وعسكروا في الموضع الذي بنى فيه المسجد «١» ، وكان القتال تراشقا بالسهام في أول الأمر، ثم استخدم المسلمون «الدبابة» بهدف الوصول إلى الأسوار وثقبها آمنين من السهام، ولكن ثقيفا فطنت للأمر فألقت عليهم قطع حديد محمّاة أحرقت الدبابة وحين خرج المقاتلون المسلمون منها، ضربوهم بالسهام فقتلوا بعضهم.. واستخدم المسلمون المنجنيق لرمي التحصينات بالحجارة بهدف هدمها وإيقاع إصابات في قوات العدو في الوقت نفسه، غير أن قلة هذه الآلات وعدم وجود خبراء في استعمالها وإجادة التهديف بها جعل أثرها محدودا. «٢» ولذلك فقد وجد النبي صلّى الله عليه وسلّم أن أفضل وسيلة للضغط على ثقيف هي في تهديد مواردها الاقتصادية الحيوية المتمثلة في بساتينها، فأمر صلّى الله عليه وسلّم بتحريق بساتين الأعناب والنخيل في ضواحي الطائف، مما كان له أثره الكبير في كسر معنوياتهم، فناشدوا النبي صلّى الله عليه وسلّم أن يدعها لله وللرحم، فاستجاب لهم النبي صلّى الله عليه وسلّم بعد أن تحقق الهدف المنشود «٣» .

ونادى منادي النبي صلّى الله عليه وسلّم عبيد الطائف قائلا: أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر» ، فنزل إليهم ثلاثة وعشرون عبدا، منهم أبو بكرة نفيع بن الحارث الثقفي، فأسلموا، فأعتقهم النبي صلّى الله عليه وسلّم، ولم يعدهم إلى ثقيف بعد إسلامهم «٤» . غير أن كل ذلك لم يؤثر كثيرا في

عناد ثقيف التي صمدت بوجه الحصار، ورغم ما واجهته من وابل السهام التي أمطرها بها المسلمون لينالوا بها درجة من الجنة وعدهم بها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وقد تمكنت ثقيف من إيقاع إصابات شديدة بالمسلمين فقد كثرت الجراحات بينهم واستشهد منهم اثنا عشر شهيدا، وكل ذلك مقابل ثلاثة قتلى في صفوف ثقيف التي كانت ممتنعة بالحصون والأسوار العالية «٥» .

أورد الإمام البخاري رواية صحيحة تدل على أن النبي صلّى الله عليه وسلّم لم يكن يستهدف من غزو الطائف وحصارها تحقيق فتحها، وإنما أراد أن يكسر شوكة ثقيف، ويجعل للمسلمين اليد العليا عليهم في وصولهم إليها ومحاصرتها في عقر دارها حيث عرفها أن بلادها- الطائف- هي في قبضة المسلمين وأنهم سيدخلونها متى شاءوا ذلك، «٦» ويظهر أن النبي صلّى الله عليه وسلّم لم يرغب في أن يشق على المسلمين ويكثر من تقديم الشهداء منهم لفتح بلدة صغيرة حصينة تحيط بها ديار الإسلام من كل صوب، إذ لم يكن لثقيف رغم عنادها وصمودها إلا الإسلام أو الاستسلام،

---

(١) مسلم- الصحيح ٢/ ٧٣٦، أحمد- المسند ٣/ ١٥٧، وانظر رأي الحافظ ابن كثير- البداية والنهاية ٤/ ٣٥٦، ابن هشام- السيرة ٢/ ٤٧٨.

(٢) ابن هشام- السيرة ٢/ ٤٧٨- ٤٨٣ برواية ابن إسحاق.

(٣) البيهقي- السنن الكبرى ٩/ ٨٤، الشافعي- كتاب الأم ٧/ ٣٢٣.

(٤) البخاري- الصحيح ٥/ ١٢٩، أحمد- المسند ١/ ٢٣٦، ابن حجر- فتح الباري ٨/ ٤٦، الصنعاني- المصنّف ٥/ ٣٠١، ابن سعد- الطبقات ٢/ ١٥٨- ١٥٩، وانظر ابن هشام- السيرة ٢/ ٤٨٥.

(٥) البخاري- الصحيح ٨/ ٢٠، ابن هشام- السيرة ٢/ ٤٨٦- ٤٨٧، الواقدي- المغازي ٣/ ٩٢٩- ٣٠.

(٦) البخاري- الصحيح ٥/ ١٢٨، ٩/ ١١٣.

وإضافة إلى ذلك فقد كان النبي صلّى الله عليه وسلّم يدرك أن ثقيفا إذا تحولت إلى الإسلام فإنها ستكون مادة له وقوة ومنعة فهم أهل شجاعة وفطنة وذكاء وكان يطمع في إسلامهم ويدعو لهم بالهداية.

اقترح النبي صلّى الله عليه وسلّم على أصحابه فك الحصار، فلما رأى حرصهم على القتال سمح لهم بذلك حتى اقتنعوا بعدم جدوى ذلك، فلما أعاد عليهم فكرة فك الحصار ثانية أظهروا الرضا بقراره الحكيم ونفذوه وعادوا مرة أخرى إلى الجعرانة حيث خلفوا غنائم حنين قبل أن يتوجهوا إلى الطائف «١» ، وكان النبي قد أخر قسمتها، كما أنه لم يتعجل في قسمتها بعد عودته مع الجيش سوى شيء قليل من الفضة قسمه عند وصوله «٢» ، ثم انتظر بضع عشر ليلة مؤملا قدوم هوازن وإسلامها ولكنه، حين أبطأت عليه، بادر إلى تقسيم الغنائم «٣» ، حيث قسمها صلّى الله عليه وسلّم بصورة خفيت حكمتها على بعض الصحابة آنذاك، حيث حظي بهذه الغنائم الطلقاء والأعراب تأليفا لقلوبهم لقرب عهدهم بالإسلام، فأعطى مائة من الإبل لأحد زعماء غطفان، ومثلها لأحد زعماء تميم ولستة آخرين من زعماء قريش. وقسم أيضا لاثنين وخمسين رجلا ذكرتهم المصادر من المؤلفة قلوبهم «٤» ، وقد استمالت هذه القسمة قلوب الزعماء وأتباعهم فاظهروا الرضا بها وزادهم ذلك رغبة في الإسلام، ثم حسن إسلامهم فأبلوا في الإسلام بلاء حسنا وبذلوا أموالهم وأنفسهم في سبيل الله «٥» . وذلك ما عناه أنس بن مالك- رضي الله عنه- بقوله: «إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلّا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها» «٦» .

ولقد أوضح النبي صلّى الله عليه وسلّم الحكمة من وراء تقسيمه الغنائم على تلك الصورة التي كان لها أثر سلبيّ على مشاعر بعض المسلمين الذين لم تشملهم القسمة فقال صلّى الله عليه وسلّم:

«والله إنّي لأعطي الرّجل وأدع الرّجل، والّذي أدع أحبّ إليّ من الّذي أعطي، ولكن أعطي أقواما لما أرى في قلوبهم من الجزع والهلع، وأكل أقواما إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير» .

وقال: «إنّي لأعطي رجالا حدثاء عهد بكفر أتألّفهم» وحين بلغ النبي صلّى الله عليه وسلّم أن الأنصار قد وجدوا في أنفسهم بسبب قسمة الغنائم هذه، وأن بعضهم قال: «يعطي قريشا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم» ، وقالوا:
«إذا كانت الشدة فنحن ندعى، وتعطى الغنائم غيرنا» «٧» ، وقد وردت روايات صحيحة تضمنت كيف أوضح لهم

---

(١) البخاري- الصحيح ٥/ ١٢٨- ٩/ ١١٣.
(٢) الحاكم- المستدرك ٢/ ١٢١.
(٣) البخاري- الصحيح- فتح ٨/ ٣٢.
(٤) ابن هشام- السيرة ٢/ ٤٩٤- ٤٩٦، الزرقاني- شرح المواهب اللدنية ٣/ ٣٧، ابن حجر- فتح الباري ٨/ ٤٨.
(٥) ابن عبد البر- الاستيعاب ١/ ١٠٣، وانظر: ابن سعد- الطبقات ٧/ ٣٧، ابن حجر- الإصابة ١/ ٥٨، ابن حزم- جوامع السيرة ص/ ٢٤٨.
(٦) مسلم- الصحيح ٤/ ١٨٠٦، وانظر البخاري- الصحيح ٢/ ١٠٤، ٤/ ٧٣، ٨/ ٧٩، ابن حجر- فتح الباري ٣/ ٣٣٦.
(٧) نقل ابن هشام أنه لما أعطى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ما أعطى في قريش وقبائل العرب، ولم يعط الأنصار شيئا، قال حسان بن ثابت يعاتبه في ذلك في قصيدة أوردها (السيرة ٣/ ٤٩٧) ورد فيها قوله:
وأت الرسول وقل يا خير مؤتمن ... قدام قوم هم آووا وهم نصروا
علام تدعى سليما وهي نازحة ... للمؤمنين إذا ما عدّل البشر
سماهم الله أنصارا بنصرهم ... دين الهدي وعوان الحرب تستعر
وهي قصيدة تقع في ثلاثة عشر بيتا.

النبي صلّى الله عليه وسلّم الحكمة من التوزيع، وأنه إنما وكلهم إلى إيمانهم «١» ، وأورد ابن إسحاق رواية نص فيها على التحديث عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد عن أبي سعيد الخدري، أن النبي صلّى الله عليه وسلّم جمع الأنصار ثم أتاهم، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال:
«يا معشر الأنصار، مقالة بلغتني عنكم، وجدة عليّ في أنفسكم، ألم آتكم ضلّالا فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله وأعداء فألّف الله بين قلوبكم! قالوا: بلى، الله ورسوله أمنّ وأفضل..» ثم قال صلّى الله عليه وسلّم:
«أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدّنيا تألّفت بها قوما ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب النّاس بالشّاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فو الّذي نفس محمّد بيده، لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار ولو سلك النّاس شعبا وسلكت الأنصار شعبا، لسلكت شعب الأنصار، اللهمّ ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار» «٢» ، قال فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا رضينا برسول الله قسما وحظا، ثم انصرف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وتفرقوا «٣» ، وهكذا فلم يكن يهمهم المال، ولذلك فإنهم ما إن عرفوا سبب منع الأعطيات عنهم ووضحت لهم الحكمة في توزيعه صلّى الله عليه وسلّم للغنائم حتى أعلنوا رضاهم، وأسعدهم كثيرا اعتماد النبي صلّى الله عليه وسلّم على إخلاصهم لعقيدتهم، وأنه وكلهم إلى إيمانهم فكانوا عند حسن الظن بهم.
وتحدثت المصادر عن نماذج من جفاء وغلظة الأعراب وتصرفاتهم الصلفة وغير المنضبطة مع النبي صلّى الله عليه وسلّم أثناء توزيعه الغنائم، كما تحدثت عن قوة تحمله صلّى الله عليه وسلّم وصبره

الكبير على جفاء الأعراب وطمعهم في الأموال وحرصهم على المكاسب، وإدراكه لأحوالهم وما جبلوا عليه من قساوة وفظاظة وأنانية، وقد طمأنهم على مصالحهم وعاملهم على قدر عقولهم وكان بهم رحيما ولهم مربيا ومصلحا «٤» .

وبعد قسمة الغنائم قدم وفد من هوازن يعلن إسلامهم ويلتمس من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رد أموالهم وذراريهم عليهم، فخيرهم بين الأموال والسبي فاختاروا السبي، فجمع النبي صلّى الله عليه وسلّم المسلمين وخطب فيهم، وقال إنه يريد أن يرد السبي لهوازن «فمن أحبّ منكم أن يطيب ذلك فليفعل، ومن أحبّ أن يكون على حظّه حتّى نعطيه إيّاه من أوّل ما يفيء الله علينا فليفعل» ، ورغم أن المسلمين نادوا: «طيبنا يا رسول الله لهم» ، فإنه صلّى الله عليه وسلّم قال لهم:

«إنّا لا ندري من أذن منكم فيه ممّن لم يأذن، فارجعوا حتّى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم» ، فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم، فأخبروه أنهم طيبوا وأذنوا» «٥» .

ولقد كان إسلام هوازن نصرا آخر كتبه الله للمسلمين سرّ به النبي صلّى الله عليه وسلّم فسألهم عن زعيمهم مالك بن

---

(١) البخاري- الصحيح ٤/ ٧٤، ١٤٥، ٥/ ٢٦، ٢٨، ١٣٠، ٧/ ١٣٣، ٨/ ١٣٠، ٩/ ١٠٦ (الأحاديث ٤٣٣١، ٤٣٣٢، ٤٤٣٣، ٤٣٣٤، ٤٣٣٧، مسلم- الصحيح ٢/ ٧٣٣- ٧٣٦ (حديث ١٠٥٩) .

(٢) ابن هشام- السيرة ٣/ ٤٩٨- ٤٩٩.

(٣) المرجع السابق ٣/ ٥٠٠.

(٤) القرآن الكريم- الآيات/ ٩٧- ٩٨.

(٥) البخاري- الصحيح ٣/ ٨٧، ١٥٦.

عوف ووعدهم برد أهله وأمواله عليه وبإكرامه بمائة من الإبل إن قدم عليه مسلما، فأسلم وحسن إسلامه وقاتل المشركين في الطائف وضيق عليهم، وقد أسلم بعد ذلك بعض زعماء ثقيف أمثال عروة بن مسعود الثقفي الذي لحق بالنبي صلّى الله عليه وسلّم في طريق المدينة فأسلم على يديه وعاد إلى الطائف يدعو إلى الإسلام، ويؤذن من على سطح منزله فرماه بعض المشركين فأصابه، ودفن بناء على وصيته مع شهداء المسلمين أثناء حصار الطائف «١» .

أما غالبية قبيلة ثقيف فقد تأخر إسلامهم إلى ما بعد عودة النبي صلّى الله عليه وسلّم من غزوة تبوك وسنعرض لذلك في حينه إن شاء الله.

وقد استنبطت من غزوة حنين والطائف جملة أحكام منها ما يتعلق بأحكام المسبيات المتزوجات» ، والنهي عن قتل من لا يشترك في القتال من جبهة المشركين من النساء والأطفال والشيوخ والأجراء «٣» ، وإقامة الحد في دار الحرب «٤» ، وجواز إعطاء الغنائم للمؤلفة قلوبهم. وجواز قطع وتحريق أشجار وبساتين الكفار إذا كان في ذلك إضعاف لهم، كما شرعت العمرة من الجعرانة «٥» .

تنظيم استيفاء الصدقات والجزية:

شرع الرسول صلّى الله عليه وسلّم بعد عودته إلى المدينة في أواخر ذي القعدة في تنظيم الإدارة والجباية، وكان صلّى الله عليه وسلّم قد استخلف عتاب بن أسيد على مكة حين انتهى من أداء العمرة، وخلف معه معاذ بن جبل يفقّه الناس ويعلمهم القرآن، وكان رزق عتاب ثلاثين درهما في الشهر «٦»

.

وفي مطلع المحرم من العام التاسع وجّه الرسول صلّى الله عليه وسلّم عماله على المناطق المختلفة. فبعث: بريدة بن الحصيب إلى أسلم وغفار وعباد بن بشر الأشهلي إلى سليم ومزينة، ورافع بن مكيث إلى جهينة، وعمرو بن العاص إلى فزارة، والضحاك بن سفيان الكلابي إلى بني كلاب، وبسر بن سفيان الكعبي إلى بني كعب، وابن اللّتبيّة الأزدى إلى بني ذبيان، ورجلا من بني سعد بن هذيم إلى بني هذيم «٧» ، والمهاجر بن أبي أمية إلى صنعاء، وزياد بن لبيد إلى حضرموت، وعدي بن حاتم الطائي إلى

طيء وأسد، ومالك بن نويرة إلى بني حنظلة، والزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم إلى بني سعد «٨» ، والعلاء بن الحضرمي إلى البحرين، وعلي بن أبي طالب إلى نجران ليجمع صدقتهم، ويقدم عليه بجزيتهم «٩» .

---

(١) ابن هشام- السيرة ٢/ ٥٣٧- ٨، ابن كثير- البداية والنهاية ٥/ ٢٩.
(٢) أحمد- المسند ٣/ ٤٨٨.
(٣) أحمد- المسند ٣/ ٤٨٨، الحاكم- المستدرك ٢/ ١٢٣، البيهقي- السنن ٩/ ١٣٠.
(٤) أبو داود- السنن ١٢/ ١٩٦- ١٩٧، أحمد- المسند ٤/ ٣٥٠، الدارقطني- السنن ٣/ ١٥٧- ١٥٨.
(٥) مسلم- الصحيح ٤/ ١٨٠٦.
(٦) ابن حجر- الإصابة ٢/ ٤٥١، البخاري- التاريخ الكبير ٧/ ٥٤، خليفة بن خياط- التاريخ ص/ ٨٨.
(٧) الواقدي- المغازي ٣/ ٩٧٣، ابن سعد- الطبقات ٢/ ١٦٠.
(٨) ابن هشام- السيرة ٤/ ٣٢٨.
(٩) المرجع السابق نفسه، والصفحة نفسها.

جـ ١(ص: ٣٨٥)

السرايا والأحداث حتى غزوة تبوك

كان النبي صلّى الله عليه وسلّم قد بعث الطفيل بن عمرو من مقرّه في حنين وقبل أن يسير إلى الطائف، وأمره بأن يهدم «ذي الكفّين» صنم عمرو بن حممة الدوسي، ثم يستمد قومه ويوافيه مع المدد إلى الطائف، وقد نفذ الطفيل بن عمرو أوامر النبي صلّى الله عليه وسلّم فهدم «ذي الكفين» وحرقه وقاد أربعمائة من قومه ومعهم دبابة ومنجنيق مددا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم فوصلوا إليه بعد مقدمه الطائف بأربعة أيام «١» .

إسلام كعب بن زهير بن أبي سلمى المزني الشاعر:

كان الرسول صلّى الله عليه وسلّم قد أهدر دم كعب بن زهير في أعقاب هجوه لأخيه بجير بقصيدة عرّض فيها بالرسول صلّى الله عليه وسلّم وبأبي بكر (رضي الله عنه) «٢» ، فكتب إليه أخوه محذرا وأغراه بالقدوم وقد سمع كعب نصيحة أخيه بجير التي ضمنها قصيدته التي جاء فيها قوله:

إلى الله لا العزى ولا اللات وحده ... فتنجو إذا كان النجاء وتسلم

فأسلم وقدم على النبي صلّى الله عليه وسلّم فأمنه، فأنشده قصيدته المشهورة «بانت سعاد» التي ألقاها في المسجد على مسامع النبي صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه وهي قصيدة طويلة نقل منها ابن هشام أكثر من خمسين بيتا فيها اعتذار وإقرار بالخطأ ومديح ودفاع عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم ودينه ورد فيها قوله:

نبئت أن رسول الله أوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الذي أعطاك ... نافلة القرآن فيها مواعيظ وتفصيل
لا تأخذنّي بأقوال الوشاة ولم ... أذنب ولو كثرت فيّ الأقاويل

وقد سر النبي صلّى الله عليه وسلّم ذلك، وحين بلغ قوله:

إن الرسول لنور يستضاء به ... مهنّد من سيوف الله مسلول
في عصبة من قريش قال قائلهم ... ببطن مكة لما أسلموا زولوا

أشار النبي صلّى الله عليه وسلّم بكمه إلى الناس ليأتوا ويسمعوا منه، ورمى على كعب ببردة كانت عليه «٣» ، ولا شك في أن إسلام شاعر فذ موهوب من الشعراء المخضرمين المرموقين، وتصديه لمدح النبي صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه والإسلام كان له أثره الكبير في المجتمع القبلي في الدعوة للإسلام، والدعاية له، والرد على مناوئيه وخصومه.

(١) ابن هشام- السيرة ٢/ ٣٨٥ بدون إسناد.
(٢) ابن هشام- السيرة ٤/ ٢٠١، الذهبي- المغازي ص/ ٦١٨- ٢١، البيهقي- دلائل النبوة ٥/ ٢٠٧.
(٣) ابن هشام- المصدر السابق، وانظر ٣/ ٥٠٣.
جـ ١(ص: ٣٨٦)

سرية عبد الله بن حذافة السهمي:
وردت روايات صحيحة «١» تفيد أن النبي صلّى الله عليه وسلّم استعمل رجلا من أصحابه، يرجح أن يكون عبد الله بن حذافة السهمي «٢» ، على سرية وأمرهم أن يطيعوه، فأغضبوه في شيء، فأمرهم فأوقدوا نارا، ثم ذكرهم بأمر النبي صلّى الله عليه وسلّم لهم بالسمع والطاعة له، وأمرهم أن يدخلوا النار التي أوقدوها، فامتنعوا وقالوا: «إنما فررنا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من النار» وحين علم النبي صلّى الله عليه وسلّم بالأمر قال «لو دخلوها ما خرجوا منها، إنّما الطّاعة في المعروف» .
وقد روى الشيخان أن الآية: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ «٣» قد نزلت فيه عندما أرسله النبي صلّى الله عليه وسلّم في السرية «٤» .

غزوة تبوك جيش العسرة «٥»

أمر الله سبحانه وتعالى المسلمين بجهاد أهل الكتاب، كما أمرهم بجهاد المشركين، وخلافا لما حصل مع المشركين الذين لا يقبل منهم إلا الدخول في الإسلام أو أن يأذنوا بقتال، فإن أهل الكتاب لهم حق الاحتفاظ بدينهم إذا ما اعترفوا بالسيادة لدولة الإسلام وأدّوا الجزية عن يد وهم صاغرون. قال تعالى: قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صاغِرُونَ «٦» .
ولذلك فليس هناك ما يدعو إلى البحث عن الأسباب المباشرة لهذه الغزوة، كما حاول بعض المؤرخين المسلمين حين ذكروا أن هرقل قد جمع الجموع «٧» ، أو كما ذكر آخرون أنه قد قصد منها أخذ الثأر لقتلى المسلمين في مؤتة عامة وجعفر بن أبي طالب خاصة «٨» ، أو ادعاء البعض أنها ناجمة عن مشورة يهود «٩» .

(١) البخاري- الصحيح (فتح الباري حديث ٧١٤٥) ، مسلم- الصحيح ٣/ ١٤٦٩، كتاب الإمارة، (الحديث ١٨٤٠) .
(٢) البخاري- الصحيح (فتح الباري حديث ٤٥٨٤) ، مسلم- الصحيح ٣/ ١٤٦٥، (الحديث ١٨٣٤) ، أحمد- المسند ٣/ ٦٧، وانظر صحيح سنن ابن ماجه للألباني ٢/ ١٤٢ (حديث ٢٨٦٣) والحاكم- المستدرك ٣/ ٦٣٠- ١.
(٣) القرآن الكريم- سورة النساء، الآية/ ٥٩.
(٤) خالف ذلك الحافظ ابن كثير (التفسير ٢/ ٣٠٣) والطبري (التفسير ٨/ ٤٩٨- ٩) وقالا إنها إنما نزلت في خالد بن الوليد، وقالا إن الآية في جميع أولي الأمر من الأمراء والعلماء، وذكر الواقدي في المغازي (٣/ ٩٨٣) وتابعه ابن سعد في الطبقات (٢/ ١٦٣) أنها نزلت في علقمة بن محرز حين بعثه النبي صلّى الله عليه وسلّم في سرية لرد الأحباش عن جدة.
(٥) وردت «العسرة» تسمية للغزوة في القرآن الكريم سورة التوبة، الآية (٢٩) ، وعنون البخاري لها «باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة» ، وأورد مسلم في صحيحه أن الرسول صلّى الله عليه وسلّم هو الذي سماها تبوك (الصحيح- كتاب الفضائل ٧/ ٦٠- ٦١) .
(٦) القرآن الكريم- سورة التوبة (٢٩) .

(٧) ابن سعد- الطبقات ٢/ ١٦٥.
(٨) اليعقوبي- التاريخ ٢/ ٦٧.
(٩) ابن كثير- التفسير ٥/ ٢١٠- ٢١١. وانظر ابن عساكر- تاريخ دمشق ١/ ١٦٧- ١٦٨، والخبر في ذلك مرسل وضعيف.

وهكذا فقد كانت غزوة تبوك استجابة إيمانية لفريضة الجهاد حيث كان الروم أقرب الناس إلى ديار الإسلام ولذلك فإنهم أولى الناس بالدعوة. «١» وقد قال تعالى:
يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ «٢» ، وهكذا، فبعد القضاء على الوثنية في جزيرة العرب، وإجلاء يهود من المدينة وغيرها، كان على المسلمين أن يقاتلوا أهل الكتاب من النصارى الذين كانوا يقطنون على المشارف الشمالية الغربية من جزيرة العرب، حيث كانت المنطقة التي توجه إليها الرسول في هذه الغزوة من ديار قضاعة وهي خاضعة لسلطان الإمبراطورية البيزنطية (الروم) .
ولقد دعا النبي صلّى الله عليه وسلّم الصحابة إلى الإنفاق على هذه الغزوة نظرا لكثرة المشاركين فيها، وبعد المسافة التي كان على الجيش أن يقطعها، ووعد المنفقين بعظيم الأجر من الله سبحانه وتعالى، فسارع أغلب الصحابة إلى المشاركة في توفير الأموال المطلوبة كل حسب مقدرته، وكان عثمان بن عفان أكثر المنفقين على جيش العسرة استجابة لقول النبي صلّى الله عليه وسلّم «من جهّز جيش العسرة فله الجنّة» ، وتواترت الأخبار الصحيحة بأن عثمان بن عفان قد تحمل نفقات جيش العسرة، فلقد سارع بتقديم ألف دينار في بداية الاستعدادات صبها في حجر النبي صلّى الله عليه وسلّم «٣» كما قدم أموالا أخرى تتمثل في الجمال والعدد التي يحتاج إليها في نقل الجيش والحرب «٤» . وساهم عبد الرحمن بن عوف في تحمل قسط من نفقات الجيش حين قدم نصف أمواله حينذاك وبلغت مساهمته في حدود ألفي درهم «٥» . كما قدم عمر بن الخطاب مائة أوقية «٦» ، ولا شك في أن عددا آخر من الصحابة قد ساهموا في تغطية بقية النفقات كل على قدر طاقته، والدليل على ذلك أن فقراء المسلمين قدموا ما قدروا عليه من النفقة، رغم بساطته وقلته، على استحياء منهم فقد جاء أحدهم بصاع من تمر، وجاء آخر بنصف صاع منه، مما عرضهم لسخرية ولمز المنافقين، فأنزل الله تعالى قوله الكريم:
الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ «٧» .
ولا شك في أن المنافقين كانوا يتهمون أغنياء المسلمين بالرياء، في نفس الوقت الذي يسخرون فيه من صدقة الفقراء، وكان علبة بن زيد، وهو من البكائين، واحدا من سبعة رجال من المسلمين الذين أرادوا المشاركة في الغزوة وطلبوا من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يجد لهم ما يحملهم عليه، فلم يجد فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألّا يجدوا

---

(١) يقول الحافظ ابن حجر «فعزم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على قتال الروم، لأنهم أقرب الناس إليه وأولى الناس بالدعوة لقربهم إلى الإسلام وأهله» (البداية والنهاية ٢/ ٥) .
(٢) القرآن الكريم- سورة التوبة، الآية/ ١٢٣، وانظر الطبري- التفسير ١١/ ٧١.
(٣) البخاري- الصحيح ٤/ ١١ (كتاب الوصايا) ، فتح الباري ٥/ ٣٠٦، أحمد- المسند ٥/ ٥٣.
(٤) الترمذي- السنن ١٣/ ١٥٣- ١٥٤، الحاكم- المستدرك ٣/ ١٠٢.
(٥) الطبري- التفسير ١٠/ ١٩١- ١٩٦.
(٦) ابن عساكر- تاريخ دمشق ١/ ٤٠٨- ٤٠٩، وانظر الترمذي- السنن ٩/ ٢٧٧.
(٧) القرآن الكريم- سورة التوبة، آية (٧٩) ، وانظر: البخاري- الصحيح (فتح الباري، حديث ٤٦٦٨)
.

ما ينفقون وقد أنزل الله سبحانه وتعالى فيهم وفي أمثالهم قوله: لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ* وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ «١» .

أعلن النبي صلّى الله عليه وسلّم النفير العام فأمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم، وقد انفرد الواقدي بذكر خبر إرسال النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى القبائل يستنفرها بالخروج مع الجيش الإسلامي من المدينة إلى تبوك وقد أشار القرآن الكريم إلى إعلان النفير فقال تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ما لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ «٢» .

وكان النفير المعلن أمرا واجبا على الجميع تنفيذه والالتزام به؛ فقد طالبهم القرآن الكريم أن ينفروا شبابا وشيوخا أغنياء وفقراء وأن يكون جهادهم جميعا بالأموال والأنفس، فقال تعالى: انْفِرُوا خِفافاً وَثِقالًا وَجاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ «٣» .

وقد أورد ابن هشام مروية لابن إسحاق جمع فيها معلومات أخذها من عدة مصادر، جاء فيها: «أن الرسول صلّى الله عليه وسلّم أمر أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم وذلك في زمان من عسرة الناس، وشدة من الحر، وجدب من البلاد، وحين طابت الثمار، والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم عليه، وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة: لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَلكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ «٤» ، وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قلما يخرج في غزوة إلا كنّى عنها ويخبر أنه يريد غير الوجه الذي يصمد له، إلا ما كان من غزوة تبوك فإنه بيّنها للناس، لبعد الشقة، وشدة الزمان، وكثرة العدو الذي يصمد له، ليتأهب الناس لذلك أهبته، فأمر الناس بالجهاز، وأخبرهم أنه يريد الروم» «٥» .

ولقد نجم النفاق في المدينة واستعلن بشأن هذه الغزوة، «وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض: لا تنفروا في الحر، زهادة في الجهاد، وشكّا في الحق، وإرجافا برسول الله صلّى الله عليه وسلّم» ، فأنزل الله تعالى فيهم: وَقالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ* فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ «٧» .

---

(١) القرآن الكريم- سورة التوبة، الآيات/ ٩١- ٩٢.
(٢) القرآن الكريم- سورة التوبة، الآية/ ٣٨.
(٣) القرآن الكريم- سورة التوبة، الآية/ ٤١.
(٤) القرآن الكريم- سورة التوبة، الآية/ ٤٢، الطبري- تفسير ١٤/ ٢٧٢ بإسناد حسن الى قتادة ولكنه مرسل.
(٥) «وقد ذكر لنا الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم من علمائنا» ، ابن هشام- السيرة ٣/ ٥١٦.
(٦) ابن هشام- السيرة ٣/ ٥١٧.
(٧) القرآن الكريم- سورة التوبة، الآية ٨١- ٨٢.

وحين عرض النبي صلّى الله عليه وسلّم على الجد بن قيس أحد بني سلمة المشاركة في جهاد الروم، اعتذر عن ذلك تحت ستار الخوف من الفتنة بسبب شدة ولعه بالنساء وقال: «وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألا أصبر» ، فأعرض عنه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقال: قد أذنت لك» ، وفيه

نزلت الآية: وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ. «١»

وكما اعتذر الجد بن قيس كذبا ونفاقا، فقد بادر عدد من المنافقين إلي تقديم أعذار كاذبة للنبي صلّى الله عليه وسلّم لكي يأذن لهم بالتخلف عن الغزوة، ولذلك نزلت الآية. عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكاذِبِينَ. «٢»

لم يقتصر النفاق على من نافق من أهل المدينة بل إنه امتد إلى البادية حولها، قال تعالى: وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرابِ مُنافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلى عَذابٍ عَظِيمٍ «٣».

وحيث إن المنافقين من الأعراب، وهم أقسى قلوبا وأكثر جفوة وأقل علما بالأحكام والسنن، فإنهم أشد كفرا ونفاقا من منافقي أهل المدينة، كما وصفهم القرآن الكريم. الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ. «٤»

لقد كانت غزوة تبوك منذ بداية الإعداد لها مناسبة للتمييز بين المؤمنين والمنافقين، وضحت فيها الحواجز بين الطرفين ولم يعد هناك أي مجال للتستّر على المنافقين أو مجاملتهم بل أصبحت مجابهتهم أمرا ملحا بعد أن عملوا كل ما في وسعهم لمجابهة الرسول والدعوة، وتثبيط المسلمين عن الاستجابة للنفير الذي أعلنه الله تعالى والرسول صلّى الله عليه وسلّم والذي نزل به القرآن الكريم، بل أصبح الكشف عن نفاق المنافقين، وإيقافهم عند حدهم واجبا شرعيا. فحين بلغ النبي صلّى الله عليه وسلّم أن أعدادا من المنافقين كانوا يجتمعون في بيت سويلهم اليهودي يثبطون الناس عن الغزوة، أرسل النبي صلّى الله عليه وسلّم إليهم من أحرق عليهم بيت سويلم «٥» ، وحين ابتنى المنافقون مسجدا لهم ليجتمعوا فيه مكايدة للمسلمين وتفريقا لاجتماعهم ووحدتهم وطلبوا من النبي صلّى الله عليه وسلّم أن يصلي فيه، نهاه الله تعالى عن ذلك وسماه (مسجدا ضرارا) فقال جل شأنه: وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصاداً لِمَنْ حارَبَ

---

(١) القرآن الكريم- سورة التوبة، الآية/ ٤٩.
(٢) القرآن الكريم- سورة التوبة، الآية/ ٤٣.
(٣) القرآن الكريم- سورة التوبة، الآية/ ١٠١.
(٤) القرآن الكريم- سورة التوبة، الآية/ ٩٧، الطبري- تفسير ١١/ ٣.
(٥) ابن هشام- السيرة ٤/ ٢١٧- ٢١٨ بإسناد منقطع.

اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنا إِلَّا الْحُسْنى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ* لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ «١».

وجاء المعذرون من الأعراب فاعتذروا إليه، فلم يعذرهم الله تعالى «٢» .

وهكذا فقد تخلف عن هذه الغزوة كثير من الأعراب والمنافقين، وعدد قليل من الصحابة من أهل الأعذار، وثلاثة من الصحابة تخلفوا دون أن يكون لهم عذر «٣» .

سارع المؤمنون إلى الالتحاق بهذه الغزوة التي كشف النبي صلّى الله عليه وسلّم عن وجهتها كما أسلفنا لكي يستعدوا لذلك، ولم يهابوا المشاق التي تنتظرهم بسبب بعد المسافة والحر الشديد وقلة المئونة، كما لم تفتنهم طيبات الحياة الدنيا ورغد العيش والأمن الذي يوفره لهم البقاء في المدينة.

ولما خرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بجيشه من المدينة ضرب معسكره بالجرف عند ثنية الوداع لكي يتلاحق أفراد الجيش به «٤» ، واستعمل على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري «٥» ، وخلف على أهله علي بن أبي طالب رضي الله عنه حيث أمره بالإقامة فيهم. وقد أرجف به المنافقون وقالوا «ما خلفه إلا استثقالا له وتخففا منه» ، وأخذ عليّ سلاحه وخرج من المدينة حتى أتى رسول الله صلّى

الله عليه وسلّم وهو نازل بالجرف، فأخبره بما قاله المنافقون عنه «٦» ، وقال: يا رسول الله تخلفني في النساء والصبيان؟، وقد كذّب النبي صلّى الله عليه وسلّم مقولة المنافقين وقال لعلي: «ولكنّي خلّفتك لما تركت ورائي فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا علي أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى، إلّا إنّه لا نبيّ بعدي» «٧» ، فرجع علي إلى المدينة. وأورد ابن إسحاق خبرا مرسلا «٨» ذكر فيه أن عبد الله بن أبي بن سلول ضرب معسكرا خاصا به أفرده عن معسكر النبي صلّى الله عليه وسلّم وجعله «على حدة، عسكره أسفل منه نحو ذباب» «٩» ، وكان فيما يزعمون ليس بأقل العسكرين، فلما سار رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تخلف عنه عبد الله بن أبي،

---

(١) القرآن الكريم- سورة التوبة، الآيات ١٠٧- ١٠٨، الطبري- التفسير ١٤/ ٤٦٨- ٤٧٥.
(٢) من مرويات ابن إسحاق بدون إسناد، ابن هشام- السيرة ٣/ ٥١٨.
(٣) وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية، وسوف يرد تفصيل أمرهم بعد اكتمال الحديث عن الغزوة وعودة النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى المدينة.
(٤) البخاري- الصحيح (الفتح حديث ٤٤١٦) ، مسلم- الصحيح ١٨٧٠- ١٨٧١ (حديث ٢٤٠٤) .
(٥) ابن هشام- السيرة ٣/ ٥١٩، كما أورد خبرا نقله عن الدراوردي أنه استعمل على المدينة مخرجه إلى تبوك سباع بن عرفطة.
(٦) وردت مرسلة في ابن هشام- السيرة ٣/ ٥١٩- ٥٢٠.
(٧) وردت الحادثة، في البخاري- الصحيح ٥/ ٧، وفي مواضع أخرى منه، كما أوردها مسلم في صحيحه ٧/ ١٢٠- ١٢١ مع بعض التعديل لبعض المفردات، فقد جاء فيه: «أما ترضى» بدلا من «أفلا» ، وأسقط اسم علي من وسط الحديث، وانظر أحمد- فضائل الصحابة.
(٨) ابن هشام- السيرة ٣/ ٥١٩. والحديث أورده الإمام أحمد في كتابه «فضائل الصحابة» بطرق صحيحة عديدة أثناء تعرضه لفضائل الصحابي علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) (فضائل ٢/ ٥٩٤ رقم ١٠١٠) .
(٩) جبل قرب المدينة.

فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب» «١» .
أما عن عدد جيش المسلمين في غزوة تبوك فالراجح أنه كان أكثر من ثلاثين ألف مقاتل «٢» ، وكان معهم عشرة آلاف فرس «٣» ، وقد سلك الجيش طريق الشام «٤» وفي الطريق إلى تبوك لحق بالجيش أبو خيثمة مالك بن قيس وكان من الأنصار بعد أن كان تخلف بالمدينة «٥» ، كما لحق به أبوذر رضي الله عنه وهو لم يتخلف وإنما أبطأ به بعيره، مما دعاه إلى أن يأخذ متاعه فيحمله على ظهره، ويتبع أثر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ماشيا «٦» .
وأورد الواقدي وغيره من أهل السير والمغازي مرويات عن جملة معجزات حصلت خلال غزوة تبوك ولكنها كلها ضعيفة «٧» وأورد ابن إسحاق خبرا مرسلا عن تخذيل المنافقين للمسلمين أثناء الغزوة والجيش في طريقه إلى تبوك.
وأورد الطبري في تفسيره «٨» آثارا متعددة في سبب نزول قوله تعالى: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآياتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ* لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طائِفَةً بِأَنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ «٩» .
ومن ذلك أثر صحيح عن عبد الله بن عمر جاء فيه أن رجلا من المنافقين ذكر القراء بسوء فرد عليه رجل

---

(١) على الرغم من ضعف الرواية وتفرد ابن إسحاق بإيرادها دون سند، فإن تصرفات عبد الله بن أبي زعيم المنافقين هذه قد تكون السبب في منع النبي صلّى الله عليه وسلّم من الصلاة عليه عند موته بعد رجوع النبي صلّى الله عليه وسلّم والمسلمين من تبوك.
(٢) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٨/ ١١٣- مسلم- الصحيح ٨/ ١١٢ (حديث ٢٧٦٩) ، ابن حجر فتح الباري ٨/ ١١٨، وما ورد لا يتعارض مع ما أورده ابن إسحاق والواقدي.
(٣) الواقدي- المغازي ٣/ ٩٩٦ برواية زيد بن ثابت، ابن سعد- الطبقات ٢/ ١٦٦.
(٤) تفصيلات قصته أوردها الطبراني (فتح الباري ٨/ ١١٩) كما أوردها ابن هشام برواية ابن إسحاق دون إسناد في سيرته ٣/ ٥٢٠- ٥٢١ كما أوردها الحافظ ابن كثير في البداية ٥/ ٧- ٨ وقد أخرج قسما منها الإمام مسلم في صحيحه ٨/ ١٠٧، والإمام أحمد في المسند ٦/ ٣٨٧- ٣٨٨، كما أورده الواقدي- المغازي ٣/ ٩٩٨- ٩٩٩ وجعله عبد الله بن خيثمة السالمي خلافا لما ورد برواية الزهري وابن إسحاق.
(٥) الحاكم- المستدرك ٣/ ٥٠- ٥١، والذهبي- ميزان ١/ ٣٠٦، ابن كثير- البداية ٥/ ١٠- ١١، وأورد ابن هشام في السيرة حيث ساق خبر إبطاء بعيره والتحاقه مع خبر وفاته بالربذة، ثم خبر وصول ركب عبد الله بن مسعود مع رهط من أهل العراق، وترحمه عليه وذكره لحديث النبي صلّى الله عليه وسلّم عن مسيره من تبوك (السيرة ٣/ ٥٢٤) .
(٦) من ذلك ما ورد في مغازي الواقدي ٣/ ١٠٠٨- ١٠١٥ عن الأفعى التي اعترضت طريق المسلمين، ومعجزة الماء الذي نبع من بين أصابع النبي صلّى الله عليه وسلّم (المغازي ٣/ ١٠٤٠- ٤٢) ، ومعجزة تكثير الطعام في تبوك (المغازي- ٣/ ١٠١٧- ١٠١٨) ، ومعجزة نزول المطر بدعائه صلّى الله عليه وسلّم في غزوة تبوك (السيوطي- الخصائص الكبرى ٢/ ١٠٦) ، ومعجزة لقاء النبي صلّى الله عليه وسلّم مع إلياس- عليه السلام- (الخصائص ٢/ ١٠٩) ، ومع أن معجزات كثيرة قد وقعت للرسول صلّى الله عليه وسلّم وردت بطرق صحيحة ولا شك في حصولها ولا يمكن التشكيك فيها ولا مجال مطلقا لإنكار أي منها، فإن ما أشرنا إليه آنفا وقع مثلها في غير هذا الموضع وبأسانيد صحيحة. لكنها هنا ضعيفة الأسانيد.
(٧) ابن هشام- السيرة ٣/ ٥٢٤.
(٨) الطبري- التفسير ١٤/ ٣٣٣ (رقم ١٦٩١٢) بإسناد صحيح.
(٩) القرآن الكريم- سورة التوبة، الآيات/ ٦٥- ٦٦.

وكذبه وأخبر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بذلك، فنزل القرآن في ذلك. قال ابن عمر: فأنا رأيته متعلقا بحقب ناقة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تنكبه الحجارة وهو يقول يا رسول الله إنما كنّا نخوض ونلعب «١» .
وصل المسلمون إلى تبوك، وأوردت المصادر نص خطبة النبي صلّى الله عليه وسلّم في المسلمين عند ذلك «٢» ، ولم يقع قتال مع الروم ولا مع القبائل العربية المتنصرة التي كانت تحت سيادتهم، ومكث النبي صلّى الله عليه وسلّم بجيشه عشرين ليلة في تبوك قبل أن يعود به إلى المدينة «٣» .
وكان النبي صلّى الله عليه وسلّم قد أعطى اللواء الأعظم لأبي بكر الصديق- رضي الله عنه-، والراية العظمى للزبير بن العوام، وجعل أسيد بن حضير على راية الأوس، والحباب بن المنذر على راية الخزرج، كما أمر بطون الأنصار أن يتخذوا الألوية والرايات وكذلك الحال مع القبائل العربية الأخرى «٤» .
ومن تبوك أرسل النبي صلّى الله عليه وسلّم سرية من أربعمائة وعشرين مقاتلا شارك فيها عدد من الصحابة عهد بها إلى خالد ابن الوليد، وجهها إلى دومة الجندل، وتم أسر ملكها أكيدر بن عبد الملك الكندي وهو في البادية يتصيد، وصالحه النبي صلّى الله عليه وسلّم على الجزية «٥» . وكانت غنائم هذه السرية ثمانمائة من السبي وألف بعير وأربعمائة درع ومثلها من الرماح «٦» ، وقد وردت عدد

من المرويات الصحيحة عن هدية أكيدر إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم وأنها شملت عددا من الحلل «٧» .

(١) الطبري- التفسير ١٤/ ٣٣٣، واصح ما روى في تفسير الآية (٦٦) ، من التوبة هو أن الذي عفى عنه هو مخشي بن حمير الأشجعي الذي أنكر بعض ما سمع وعن ذلك انظر: الطبري- التفسير ١٤/ ٣٣٦- ٧، ابن كثير- التفسير ٤/ ١١٢ السيوطي- الدار المنثور ٣/ ٢٥٤. وأورد ابن هشام في السيرة ٣/ ٥٢٤- ٢٥ رواية ابن إسحاق في أمر هؤلاء المنافقين، وقال: إنهم إنما كانوا يشيرون إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو في الطريق إلى تبوك، وذكر أن أحدهم قال لبعضهم: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا! والله لكأنا بكم مقرنين بالحبال إرجافا وترهيبا للمؤمنين، فقال مخشي بن حمير: «والله لوددت أني أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة، وأنّا نتفلت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه» ، وذكر تمام الخبر. والتّفلّت هو التخلص من الشيء فجأة من غير تمكث (النهاية ٣/ ٤٦٧) .

(٢) لم تثبت هذه الخطبة من طريق صحيح رغم أن فقراتها مأخوذة من أحاديث أخرى بعضها صحيح وبعضها حسن، وقد أخرج الإمام أحمد في المسند ٣/ ٣٧ نص خطبة أخرى قصيرة في إسنادها مجهول، وكذلك فعل القاسم بن سلام في الأموال (ص/ ٢٥٥- ٢٥٦) ، كما أخرج الحافظ ابن كثير نص خطبة طويلة (البداية والنهاية ٥/ ١٣- ١٤) في إسنادها أحد المتروكين. وقد رجح الدكتور العمري أن يكون بعض الرواة قد لفق هذه الخطبة من بعض الأحاديث الصحيحة المعروفة.

(٣) موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان ص/ ١٤٥ بإسناد صحيح.

(٤) الواقدي- مغازي رسول الله، ٢/ ٩٩٢، ابن سعد- الطبقات، ٣/ ١٦٩، ابن عساكر- تاريخ دمشق ١/ ٤١٦.

(٥) ابن كثير- البداية ٥/ ١٧، من مراسيل عروة وفي سنده ابن لهيعة وهو ضعيف، ابن حجر- الإصابة (٤١٢- ٤١٥، السيوطي- الخصائص الكبرى ٢/ ١١٢- ١١٣ وكلاهما عن طريق ابن إسحاق ضعيف مدلس، ابن هشام- السيرة ٣/ ٥٢٦ بإسناد حسن حيث صرح ابن إسحاق بالسماع والرواية عن عاصم عن قتادة عن أنس بن مالك.

(٦) ابن كثير- البداية ٥/ ١٧، من مراسيل عروة بن الزبير.

(٧) البخاري- الصحيح (فتح الباري، الحديث ٣٨٠٢) ، مسلم- الصحيح ٤/ ١٩١٦- ١٨١٧ (الأحاديث ٢٤٦٨- ٢٤٦٩) . وقد أوردها ابن حجر في الفتح عند شرح حديث البخاري المذكور آنفا، والذهبي في المغازي ص/ ٦٤٦، وانظر كذلك البخاري- الصحيح (فتح الباري، الأحاديث ٢٦١٢، ٢٦١٤، ٢٦١٩)

.

وفي تبوك وصلت النبي صلّى الله عليه وسلّم هدية من ملك أيلة في أرض فلسطين وهي بغلة بيضاء، وكساء من البرد، وقد صالح على دفع الجزية للمسلمين» .

وأورد الإمام أحمد «٢» مرويات تشير إلى حصول مراسلة بين النبي صلّى الله عليه وسلّم- وهو في تبوك- وبين هرقل ملك الروم، وأن الأخير أرسل رسولا من قبيلة تنوخ العربية ليتعرف له على بعض علامات النبوة عند النبي صلّى الله عليه وسلّم «٣» .

في طريق العودة إلى المدينة:

مر المسلمون في طريق عودتهم من تبوك بالحجر وقد ثبت أن النبي صلّى الله عليه وسلّم نهى المسلمين عن دخول مساكن ثمود خشية أن يصيبهم ما أصابهم، «إلّا أن تكونوا باكين» ، وأنه قنع رأسه وأسرع السير حتى جاوز الوادي «٤» ، كما وردت رواية حسنة، ورد فيها أنه نهى الجيش عن شرب ماء الحجر أو الوضوء منه أو أن يعلفوا إبلهم بما عجنوه بماء بئر الحجر «٥» . وحين اشتكى

المسلمون ما أصاب إبلهم من التعب والجهد دعا الله سبحانه وتعالى قائلا: «اللهمّ احمل عليها في سبيلك إنّك تحمل على القويّ والضّعيف، وعلى الرطب واليابس، في البرّ والبحر» .
وإن الله تعالى- جل شأنه- استجاب لدعاء النبي صلّى الله عليه وسلّم فنشطت الإبل حتى وصلت بهم المدينة دون أن يشتكي أحد منها «٦» .
وحاول جماعة من المنافقين المشاركين في الجيش وهم ملثمون حتى لا يعرفوا أن ينفروا دابة النبي صلّى الله عليه وسلّم لتطرحه من رأس عقبة في الطريق مع عتمة الليل، فعلم بمؤامرتهم وفطن لهم وأمر بإبعادهم بعد أن عصمه الله

---

(١) البخاري- الصحيح ٦/ ٧٧ (كتاب الجزية- الحديث ٣١٦١) ، مسلم- الصحيح ٧/ ٦١ (كتاب الفضائل) ، وذكر ابن إسحاق أن أهل جرباء وأذرح قد أعطوا الجزية أيضا، وأن النبي صلّى الله عليه وسلّم كتب لهم كتابا فهو عندهم (ابن هشام- السيرة ٣/ ٥٢٥) معلقا، ونقل ابن هشام في سيرته كذلك نص كتاب النبي صلّى الله عليه وسلّم ل «يوحنا بن رؤية» صاحب أيلة: (٣/ ٥٢٥) .
(٢) أحمد- المسند ١/ ٢٠٣، ٣/ ٤٤٢، ٤/ ٧٤، ٥/ ٢٩٢، بإسناد فيه سعيد بن أبي راشد وهو مقبول وقد تفرد به. وقال ابن كثير عن ذلك: هذا حديث غريب، وإسناده لا بأس به، تفرد به الإمام أحمد. (البداية والنهاية ٥/ ١٩) .
(٣) كان دحية الكلبي قد حمل رسالة النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى هرقل في أول السنة السابعة من الهجرة، فإذا صح هذا الخبر، فإن إرسال دحية الكلبي يكون للمرة الثانية، وقد أورد الإمام أحمد تفصيلات عن وصول الرجل التنوخي إلى تبوك وأن النبي صلّى الله عليه وسلّم عرض عليه الإسلام فامتنع بحجة أنه مكلف برسالة هرقل، ونقل التنوخي عن النبي ذكره لكتبه التي أرسلها إلى الملوك وكيف رد النبي صلّى الله عليه وسلّم على سؤال هرقل عن رسالته قال: «تدعوني إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، فأين النار؟، فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم: «سبحان الله أين اللّيل إذا جاء النّهار؟» ، كما ذكر الرجل التنوخي اعتذار النبي صلّى الله عليه وسلّم له بأنهم في سفر وإلّا لمنحه جائزة، وأن عثمان ابن عفان قدم الجائزة نيابة عن النبي صلّى الله عليه وسلّم وهي «حلة صفورية» . ويذكر التنوخي بعد ذلك بأن النبي صلّى الله عليه وسلّم قد أنزله ضيفا على أحد أصحابه من الأنصار، فلما قام من المجلس ناداه الرسول صلّى الله عليه وسلّم، فلما وصل التنوخي إليه حل النبي صلّى الله عليه وسلّم حبوته عن ظهره وقال: «ههنا إمض كما أمرت له» ، قال التنوخي: فجلت في ظهره فإذا أنا بخاتم النبوة في موضع غضون الكتف مثل الحجمة الضخمة» أحمد- (المسند ٣/ ٤٤٢) .
(٤) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٨/ ١٢٥) ، أحمد- المسند ٤/ ٢٣١.
(٥) ابن كثير- البداية والنهاية ٥/ ١١.
(٦) أحمد- المسند ٦/ ٢٠، موارد الظمآن في زوائد ابن حبّان ص/ ٤١٨، بإسناد حسن.

تعالى من أذاهم «١» .
ولما اقترب الجيش الإسلامي من المدينة خرج الصبيان إلى ثنية الوداع لاستقباله «٢» ، ومعهم النساء والولائد وهم يرددون «٣» :
طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع
كان أول ما فعله النبي صلّى الله عليه وسلّم عند دخوله المدينة أن صلّى في مسجده الشريف ركعتين، ثم جلس للناس فجاءه المنافقون المتخلفون عن الغزوة فاعتذروا بشتى الأعذار فقبل منهم علانيتهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله تعالى «٤» .

وقد أصبح الموقف جديّا من المنافقين بعد الرجوع من غزوة تبوك، فقد امتنع النبي صلّى الله عليه وسلّم عن الصلاة في مسجد الضرار الذي كانوا بنوه قبل الغزوة، وأمر بتحريقه «٥» ، كما امتنع عن الصلاة على أمواتهم فقد منعه الله من ذلك فنزل قوله تعالى: وَلا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَماتُوا وَهُمْ فاسِقُونَ «٦» .
وقد نهى الله تعالى عن قبول أعذار المنافقين، فقال في محكم التنزيل: يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ «٧» .
وقد أمر الله تعالى بعدم تصديقهم وبالإعراض عنهم ووصفهم بأنهم رجس فقال تعالى: سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ* يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضى عَنِ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ «٨» .
المتخلفون عن غزوة تبوك:
كان عدد المتخلفين كبيرا، ولما كان عدد أفراد الجيش كبيرا فقد ظن المتخلفون أن أحدا لا يفطن إلى غيابهم

---

(١) أحمد- المسند ٥/ ٣٩٠- ٩١، البيهقي- السنن ٩/ ٣٢- ٣.
(٢) البخاري- الصحيح ٦/ ٨ (كتاب المغازي) .
(٣) أورد ذلك الحافظ ابن حجر في فتح الباري عند شرح الحديثين (٤٤٢٦- ٤٤٢٧) .
(٤) البخاري- الصحيح (فتح الباري- الحديث ٤٤١٨) ، مسلم ٤/ ٢١٢٣- حديث (٢٧٦٩) .
(٥) القرآن الكريم- سورة التوبة، الآيات/ ١٠٧- ١٠٨، وانظر الطبري- التفسير ١١/ ٢٣- ٢٤. وأورد ابن إسحاق خبرا عن إرسال النبي صلّى الله عليه وسلّم لاثنين من الصحابة، هما مالك بن الدخشم ومعن بن عدي إلى مسجد الضرار لهدمه وتحريقه وأنهما نفذا أوامره صلّى الله عليه وسلّم، كما قدم قائمة بالاثنى عشر منافقا الذين قاموا بتأسيسه (ابن هشام- السيرة ٣/ ٥٣٠ والرواية مرسلة الإسناد.
(٦) القرآن الكريم- سورة التوبة، الآية/ ٨٤، البخاري- الصحيح (فتح الباري ٣/ ٢١٤، ٨/ ٣٣٣) .
(٧) القرآن الكريم- سورة التوبة، الآية/ ٩٤.
(٨) القرآن الكريم- سورة التوبة، الآيات/ ٩٥- ٩٦.

وكان الصحابة الأنصار الثلاثة: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي أبرز وأشهر المتخلفين وهم من المشهود لهم بالبلاء في الإسلام وبحسن إيمانهم «١» .
وإلى جانب هؤلاء، فقد تخلف بضعة وثمانون رجلا آخرين «٢» ، ذكر الواقدي أنهم من منافقي الأنصار كما ذكر أن المعذّرين من الأعراب كانوا اثنين وثمانين آخرين، وهم من بني غفار وغيرهم، أما عبد الله بن أبي بن سلول ومن أطاعه من قومه فكانوا يشكلون مجموعة كبيرة أخرى وهم غير من مر ذكرهم «٣» .
ولقد أقر الصحابة الثلاثة الذين تخلفوا بأنهم لا عذر لهم في تخلفهم عن الغزوة، ونهى النبي صلّى الله عليه وسلّم المسلمين عن الكلام معهم، وأمروا باعتزال نسائهم «٤» ، فاجتنبهم الناس خمسين ليلة، وضاقت بهم الأرض بما رحبت «٥» واستمرت المقاطعة حتى نزل القرآن يعلن قبول توبتهم في قوله تعالى: وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ وَضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ «٦» .
حققت غزوة تبوك، رغم خلوها من المعارك، أهدافها في ترصين وترسيخ حكم الإسلام الذي امتد من خلالها ومن جراء ما ارتبط بها من اتفاقات ونتائج ليشمل الأطراف الشمالية من شبه جزيرة العرب وليضع المسلمين على أعتاب الفتوحات، ومهدت بذلك للفتوحات في كل من العراق وبلاد الشام على حد سواء، ومع أن جيش أسامة ابن زيد لم يقدر له أن يتحرك نحو الحدود الشمالية إلّا في أيام خلافة أبي

بكر الصديق- رضي الله عنه-، فإن قيام الرسول صلّى الله عليه وسلّم بالأمر بتجهيزه وتحديد وجهته قبيل وفاته كان مؤشرا واضحا لوجهة نشر الدعوة وحركة الفتوحات الإسلامية.

توحيد الجزيرة العربية تحت حكم الرسول صلّى الله عليه وسلّم:

تأثر موقف القبائل العربية من الرسول والدعوة الإسلامية بمؤثرات متداخلة، كان من أبرزها موقف قريش وأحلافها، ولعل بعضها كان يحسب لبني الأصفر- الروم- حسابا، وخاصة تلك القبائل التي سكنت في أطراف

---

(١) البخاري- الصحيح (فتح الباري، حديث ٤٤١٨) ، مسلم- الصحيح ٤/ ٢١٢٠- ٨ (حديث ٢٧٦٩) ، ابن حجر الإصابة ٤/ ٣٩٦، ٦٠٤.

(٢) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٨/ ١١٤) ، الطبري- التفسير ١١/ ٥٨ وهو من مراسيل الزهري.

(٣) البخاري- الصحيح (فتح ٨/ ١١٤) .

(٤) أصدر النبي صلّى الله عليه وسلّم أمر اعتزالهم للنساء بعد مرور أربعين يوما من عودته إلى المدينة ومقاطعة المسلمين لهم، وقد نفذوا أمر النبي صلّى الله عليه وسلّم، واستأذنته زوجة هلال بن أمية في خدمته ذلك أنه شيخ كبير ضائع لا خادم له، فأذن لها واشترط عليها أن لا يقربها. ابن هشام- السيرة ٣/ ٥٣٥.

(٥) حاول ملك الغساسنة النصراني أن يستغل الحالة التي كان عليها كعب بن مالك فكتب له رسالة مع أحد الأنباط دعاه فيها إلى الالتحاق به لمواساته، وقد أدرك كعب أن ذلك ابتلاء وامتحان من الله تعالى فقال: «قد بلغ بي ما وقعت منه أن طمع فيّ رجل من أهل الشرك» فأحرق الرسالة. ابن هشام- السيرة ٣/ ٥٣٥.

(٦) القرآن الكريم- سورة التوبة، الآية/ ١١٨، وانظر في ذلك البخاري- الصحيح (فتح الباري ٨/ ١١٣/ ١١٦) .

الجزيرة الشمالية قريبا من تخوم الروم، فلما كان فتح مكة وما تبع ذلك من إسلام قريش وكسر شوكة هوازن في موقعة حنين، وإذلال ثقيف ومحاصرتها سقط الحاجز الأساسي الأول فبادر كل قوم بإسلامهم، ثم كانت غزوة تبوك وامتداد سلطان المسلمين إلى خطوط التماس مع الروم وعقد المحالفات مع أيلة وأذرح وغيرهما، وتسوية الأمور مع دومة الجندل بالصلح، ثم مصالحة نصارى نجران في الأطراف الجنوبية على أن يدفعوا الجزية، فلم يعد أمام القبائل العربية إلّا المبادرة الشاملة إلى اعتناق الإسلام والالتحاق بركب النبوة بالسمع والطاعة، ونظرا لكثرة وفود القبائل العربية التي قدمت إلى المدينة من أنحاء الجزيرة العربية بعد عودة النبي صلّى الله عليه وسلّم من غزوة تبوك لتعلن إسلامها هي ومن وراءها، فقد سمّي العام التاسع للهجرة في المصادر الإسلامية بـعام الوفود، ويعد كتاب الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد من أهم المصادر وأشملها في تقديم المعلومات المبوبة عن أخبار هذه الوفود كما أشار الحافظ ابن حجر «١» .

عام الوفود

أشارت المصادر الحديثية والتاريخية إلى قدوم بعض الوفود إلى المدينة في تاريخ مبكر عن السنة التاسعة، ولعل ذلك ما أدى إلى الاختلاف في تحديد عدد الوفود بين ما يزيد على ستين وفدا عند البعض، وليرتفع فيبلغ أكثر من مائة وفد عند آخرين،؟ ولعل البعض قد اقتصر على ذكر المشهور منهم «٢» ، فقد أورد محمد بن إسحاق أنه «لما فتح رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مكة المكرمة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه» «٣» .

كان أول الوفود قدوما إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم بعد رجوعه من تبوك هو وفد قبيلة ثقيف. وقد سبق أن أشرنا إلى إسلام عروة بن مسعود الثقفي على يدي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قبيل وصوله المدينة، عند عودته من مكة بعد الفتح، وذكرنا أن النبي صلّى الله عليه وسلّم أمره أن يرجع إلى قومه بالإسلام، وقد فعل ذلك فأظهر لهم دينه، ودعاهم إلى الإسلام، غير

---

(١) عند تدقيق النسخة المطبوعة الأولى (طبعة لايدن) من كتاب الطبقات وكذلك الطبعات الأخرى في القاهرة وبيروت والتي كانت عيالا على الطبعة الأولى، يتبين أن النقص لا يقتصر على إغفال محمد بن سعد لذكر وفد هوازن كما صرح بذلك الحافظ ابن كثير، وإنما يدفع إلى التصور أن الإغفال شامل لأغلب الوفود، وكان ذلك مثيرا للتساؤل، ودافعا إلى البحث والتقصي، ولم يكن يخطر ببال أحد أن جميع الطبعات التي حفل بها الكتاب ناقصة مبتسرة، ويعتورها نقص كبير، خاصة وقد مضى على طبع أولها ما يزيد على قرن كامل، واطلع عليها أجيال من العلماء، وأصبح موضوع الشك في حصول النقص فيها أمرا بعيد الاحتمال، ولكن ذلك قد تحقق، وإذا بنا نجد نقصا كبيرا في المطبوع شمل الطبقة الرابعة وهي طبقة «من أسلم عند فتح مكة وما بعد ذلك» من الصحابة، والطبقة الخامسة وهي تختص بصغار الصحابة «الذين توفي النبي صلّى الله عليه وسلّم عنهم وهم صغار السن» . ويتزايد النقص لنكتشف أن ما هو مطبوع من الطبقة الثالثة يعتوره الكثير من النقص أيضا، فقد سقط منه في موضعين، ما يعادل القسم المطبوع منه، والمعلومات التي سقطت غاية في الأهمية، إلى جانب نقص وسقط مخل حاصل في مواضع كثيرة من المطبوع، وذلك لا يشمل قطعا النقص الواقع في طبقة النساء وطبقات التابعين. وقد استخرت الله سبحانه وتعالى في تدقيق كامل الكتاب وتخريج نصوصه وترجمة ما فيه من أعلام متونا وأسانيد وإخراجه في طبعة موحدة، فاطمأن قلبي وانشرح صدري إلى ذلك خدمة للعلم وتيسيرا للعلماء وطلاب الحديث النبوي الشريف، ومن الله العون وعليه سبحانه التكلان.

(٢) ابن هشام- السيرة ٣/ ٥٩٩.

(٣) ابن كثير- البداية والنهاية ٥/ ٤٦- ٤٧.

أنهم اجتمعوا عليه فرموه بسهامهم وهو يؤذن في أعلى داره فقتلوه، ثم ائتمر زعماء ثقيف فيما بينهم فوجدوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من قبائل العرب وقد بايعت وأسلمت» فأجمعوا على أن يرسلوا إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم وفدا، ففعلوا وقد حاول الوفد بعد وصوله المدينة تأجيل هدم اللات «الطاغية» بعض الوقت غير أن النبي صلّى الله عليه وسلّم رفض ذلك، وأصر على أن يبعث المغيرة ابن شعبة وأبا سفيان بن حرب لهدمها، كما أنه أمّر عليهم عثمان بن أبي العاص وكان أحرصهم على تعلم القرآن والتفقه في الدين «١» .

وبالإضافة إلى أخبار وفد ثقيف الذي كان برئاسة عبد ياليل بن عمرو بن عمير، أورد ابن إسحاق معلومات مبوّبة عن ستة عشر وفدا تضمنت تفصيلات عن رؤساء وفود ورجالها وأخبار قدومهم وإقامتهم، وحوارهم، والأشعار التي قيلت، وما انتهى إليه أمرهم، والآيات التي نزلت في أمرهم إن كان ذلك قد حصل.

وقد استقصى ابن سعد في جمع المعلومات عن الوفود، كما فصل كثيرا وقدم ترجمات وافية عن رجال الوفود، ومن كانت له صحبة منهم، وما ورد عن طريقهم من آثار. ولا تخلوا أسانيد ابن سعد أحيانا من المطاعن، كما أن فيها أسانيد من الثقاة أيضا، ولا شك في أن الأخبار التي أوردها المؤرخون ليست ثابتة بالنقل الصحيح المعتمد وفق أساليب المحدثين، رغم أن عددا كبيرا من المرويات عن تلك الوفود ثابتة وصحيحة، فمثلا: أشارت سورة الحجرات إلى ما صدر عن بعض رجال وفد تميم من أعمال تتسم بعدم العقلانية «٢» ، كما أورد الإمام البخاري معلومات عن وفد قبيلة تميم وقدومه إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم «٣» ، وتعززت أخبار هذا الوفد بمعلومات إضافية وردت في مصادر تاريخية إلى جانب ما ورد عنها في كتب السير والمغازي «٤» .

وإضافة إلى معلوماته عن وفد تميم يقدم الإمام البخاري معلومات عن وفود أخرى مثل: عبد القيس «٥» ، وبني حنيفة «٦» ، ووفد نجران «٧» ، ووفد الأشعريين «٨» ، وأهل اليمن «٩» ، وووفد دوس ١»
، ووفد بني عامر «١١» .

---

(١) ابن هشام- السيرة ٣/ ٥٩٩.
(٢) حكت آيات من سورة الحجرات بعض ما صدر من أفراد وفد تميم من تصرفات تتسم بالبداوة وجفاء الطبع وقلّة الذوق، كالمناداة على النبي صلّى الله عليه وسلّم من وراء الحجرات وبصوت مرتفع بدلا من أن يستأذنوا ويسلموا عليه صلّى الله عليه وسلّم. انظر في ذلك الطبري- التفسير ٢٦/ ١٢٢.
(٣) الطبري- الصحيح (فتح الباري ٨/ ٨٣- ١٠٢) .
(٤) ابن كثير- البداية ٥/ ٤٠- ٩٨ مثلا.
(٥) البخاري- الصحيح (فتح الباري حديث ٤٣٦٨- ٩) ، مسلم- الصحيح ١/ ٤٦- ٥ (الأحاديث ١٧- ١٨) .
(٦) البخاري، المصدر السابق (حديث ٤٣٧٣) .
(٧) المرجع السابق (حديث ٤٣٨٠، ٤٣٨١) ، مسلم- الصحيح ٤/ ١٨٢٢، (حديث ٢٤٢٠) .
(٨) البخاري- الصحيح (فتح الباري، حديث ٣١٣٦) .
(٩) المرجع السابق (الفتح حديث ٢٧١٤، ٢٧١٥) مسلم- الصحيح ١/ ٧٥ (حديث ٥٦) .
(١٠) البخاري- الصحيح (فتح، حديث ٤٣٩٢) ، مسلم- الصحيح ٤/ ١٩٥٧، (حديث ٢٥٢٤) ، أحمد- المسند ١٣/ ٣٩ (حديث ٧٣١٣) .
(١١) البخاري- الصحيح (فتح الباري، حديث ٤٠٩١) ، أحمد- المسند ٤/ ٢٥.

وقد أورد الإمام مسلم أخبارا عن أغلب الوفود المذكورة آنفا «١» ، كما أوردت بقية الكتب الستة معلومات أوسع شملت عددا كبيرا من الوفود «٢» .. وذلك كله يقطع بقدوم الوفود في العام التاسع إلى المدينة لإعلان إسلام قبائلهم وانضمامهم إلى دولة الإسلام وخضوعهم لها، حتى توحدت جزيرة العرب عامة تحت حكم النبي صلّى الله عليه وسلّم، وتبقى مسألة الحاجة الماسة إلى نقد تاريخي لمتون الأخبار المفصلة التي وصلتنا عن الوفود، كما تحتاج القصائد المطولة التي ملئت بها الكتب التاريخية وكتب السيرة والمغازي إلى النقد الأدبي الدقيق، والتأكد من صحة نسبتها.

إن من الثابت تاريخيا سيادة الإسلام على كافة أنحاء الجزيرة العربية في العام التاسع، حيث تمت الوحدة السياسية لجميع أصقاعها تحت رايته، فلقد تمكن النبي صلّى الله عليه وسلّم من تحقيق الوحدة السياسية للجزيرة في أقل من عشر سنوات رغم جميع العراقيل والنزعات القبلية والجاهلية والمشكلات المتنوعة، وقوة الروح الفردية والأنانية الشخصية.

وما حققه الرسول صلّى الله عليه وسلّم لم يكن رسوما لوحدة صورية شكلية، بل مثّل امتزاجا فريدا لسلوك الإنسان وروحه وعقله مما هيأ الأساس المتين لامتداد وتطور الدولة الإسلامية التي استمرت في عطائها خلال القرون التالية.

الأحداث والبعوث والسرايا حتى وفاة النبي صلّى الله عليه وسلّم:

حج أبي بكر بالناس:

ذكرنا آنفا عمرة النبي صلّى الله عليه وسلّم بعد الفراغ من حصار الطائف حيث أهلّ بالعمرة من الجعرانة، ثم عاد بالجيش إلى المدينة، وقد حج المسلمون والمشركون معا عام الفتح، ثم أمّر أبا بكر (رضي الله عنه) على الحج في العام التاسع الهجري، فخرج في ذي الحجة إلى مكة ومعه عدد كبير من الصحابة «٣» ، وساقوا معهم الهدي «٤» .

نزلت سورة براءة بعد ارتحال ركب الحج من المدينة، فبعث النبي صلّى الله عليه وسلّم علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- ليعلنها على الناس في يوم النحر بمنى «٥» ، وقد التقى أمير الحج وعلي في الطريق، وبعد أن اطمأن الصدّيق إلى

---

(١) ورد فيها معلومات واسعة عن الوفود مثل عبد القيس، بني حنيفة، وفد نجران، وفد الأشعريين، وفد الحميريين، وفد بني عامر، وفد بني سعد بن بكر، وفد دوس، وفود فروة بن مسيك المرادي، وفد كندة، رسول ملوك حمير، قدوم جرير بن عبد الله البجلي، وفد حضرموت، وفد بني المنتفق، وفد صداء، وفد عبد الرحمن بن أبي عقيل مع قومه، وفد بكر، وفادة طارق عبد الله وقومه ... مثلا.

(٢) وفد عبد القيس، مسلم- الصحيح ١/ ٤٦- ٥٠ (حديث ١٧- ١٨) ، وفد نجران (الصحيح ٤/ ١٨٢٢ (حديث ٢٤٢٠) ، قصة الطفيل بن عمر ووفد دوس، مسلم- الصحيح ٤/ ١٩٥٧ (حديث ٢٥٢٤) .

(٣) ابن سعد- الطبقات الكبرى ٢/ ١٦٨ بإسناد صحيح وبلغ عدد الصحابة الذين رافقوا أبا بكر الصديق- رضي الله عنه- في هذه الحجة ثلاثمائة صحابي (ابن حجر- فتح الباري ٨/ ٨٢) برواية الواقدي، ضعيف.

(٤) انفرد الواقدي بذكر ذلك وقال إنهم ساقوا معهم عشرين بدنة. ابن حجر- فتح الباري ٨/ ٨٢.

(٥) أورد ابن إسحاق حديث النبي صلّى الله عليه وسلّم: «لا يؤدّي عنّي إلّا رجل من أهل بيتي» وإسناده حسن، ولكنه مرسل من محمد بن علي الباقر (ابن هشام- السيرة ٤/ ٢٠٣) ، وانظر كذلك: الطبري- التفسير ١٠/ ٦٥، وله شاهد يتقوى به انظر أحمد- الفتح الرباني ٢١/ ٢١٢ عن أنس، ابن كثير- البداية والنهاية ٥/ ٣٧- ٣٨، واستعرض البغوي أقوال العلماء في سبب إرسال النبي صلّى الله عليه وسلّم لعلي بن أبي طالب في هذه المهمة وقال: إن العرب قد تعارفوا فيما بينهم على ألا يتولى عقد العهود ونقضها إلا سيدهم أو رجل من رهطه، ولذلك فإنه صلّى الله عليه وسلّم بعث عليّا دفعا للعلة ومنعا لهم من إنكار إلغاء العهد بسبب تبليغه إياهم خلاف ما جرت عليه عاداتهم وتقاليدهم. (التفسير ٣/ ٤٩ (بهامش تفسير الخازن) ، ونقله عنه الساعاتي في الفتح الرباني (٢١/ ٢١٢) .

طبيعة مهمته مضيا سويّا إلى مكة «١» ، وقد ذكر علي بن أبي طالب أنه مكلف بتبليغ المسلمين صدر سورة براءة، وأنه بعث في أربع:

«لا يدخل الجنة إلا مؤمن، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عهد فعهده إلى مدته، ولا يحج بعد العام مشرك» «٢» .

وكان قد عهد إلى رهط من الصحابة بمساعدة علي بن أبي طالب في إنجاز مهمته، منهم أبو هريرة والطفيل ابن عمرو الدوسي «٣» .

إن نزول صدر سورة براءة يمثل مفاصلة نهائية مع الوثنية وأتباعها، حيث منعت حجهم وأعلنت الحرب عليهم، قال تعالى: بَراءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ* فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكافِرِينَ* وَأَذانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذابٍ أَلِيمٍ «٤» .

وقد أمهل المعاهدين لأجل معلوم منهم إلى انتهاء مدتهم، فقال تعالى: إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ «٥» .

كما أمهل من لا عهد له من المشركين إلى انسلاخ الأشهر الحرم، حيث يصبحون بعدها في حالة حرب مع المسلمين، قال تعالى: فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تابُوا وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ «٦» .

وكان من نتائج ذلك أن بدأت حملة توعية واسعة النطاق في المناطق النائية التي تحتاج إلى ذلك، فقد ثبت في الصحيحين إرسال النبي صلّى الله عليه وسلّم معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري إلى اليمن كلا منهما إلى جهة «٧» ، وأوصاهما بقوله

---

(١) ابن هشام- السيرة ٤/ ٢٠٣ برواية ابن إسحاق بإسناد حسن لكنه مرسل.
(٢) البخاري- الصحيح (فتح الباري حديث ٤٣٦٣) ، مسلم الصحيح ٢/ ٩٨٢ (حديث ١٣٤٧)
واقتصرا على ذكر منع حج المشركين، ومنع العري في طواف البيت العتيق، أما الإمام أحمد فقد أورده كاملا بإسناد صحيح (الفتح الرباني ٢١/ ٢١١) ، الترمذي- السنن ٤/ ١١٦، ابن كثير- البداية ٥/ ٣٨، الطبري- التفسير (١٤/ ٩٥- ١٠٢) .
(٣) الترمذي- السنن ٤/ ١١٦، الطبري- التفسير ١٠/ ٦٣- ٦٤.
(٤) القرآن الكريم- سورة التوبة، الآيات ١- ٣.
(٥) القرآن الكريم- سورة التوبة، الآية/ ٤.
(٦) القرآن الكريم- سورة التوبة، الآية/ ٥.
(٧) البخاري- الصحيح (فتح الباري، الأحاديث ٤٣٤١- ٤٣٤٥) ، مسلم- الصحيح ٣/ ١٥٨٧ (حديث ١٧٣٣) .

«يسّرا ولا تعسّرا، وبشّرا ولا تنفّرا وتطاوعا» «١» ، وبعث صلّى الله عليه وسلّم خالد بن الوليد إلى اليمن أيضا ثم استبدله بعلي بن أبي طالب، وكان من مهامه أن يستوفي الأخماس، وقد نجح علي في مهمته، وقد أسلمت همدان على يديه «٢» .
وبعث النبي صلّى الله عليه وسلّم سرية من مائة وخمسين راكبا عليهم جرير بن عبد الله البجلي فكسروا الصنم ذا الخلصة في الكعبة اليمانية وقتلوا من كان عنده، فدعا لهم الرسول صلّى الله عليه وسلّم «٣» .

حجة الوداع

أعلن النبي صلّى الله عليه وسلّم عزمه على أداء فريضة الحج- وهي الحجة الوحيدة التي أداها بعد هجرته إلى المدينة «٤» - فقدم المدينة عدد كبير من المسلمين وفدوا من مختلف أنحاء جزيرة العرب للحج معه، والاقتداء بهديه، وقد خرج من المدينة في الخامس والعشرين من ذي القعدة من السنة العاشرة للهجرة «٥» . وقد جاءت حجته صلّى الله عليه وسلّم حافلة بالأحكام والمناسك والوصايا، أفرد لها العلماء كتبا خاصة بها «٦» ، واستنبطوا منها الكثير من أحكام المناسك مما تزخر به كتب الفقه والحديث وشروحه «٧» ، وقد تعلم المسلمون مناسك الحج من الرسول صلّى الله عليه وسلّم مباشرة بناء على توجيهه الكريم حين قال لهم: «خذوا عنّي مناسككم» .
ولما وقف صلّى الله عليه وسلّم في عرفات نزلت عليه الآية: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً «٨» .
وكان مما قاله صلّى الله عليه وسلّم في خطبة حجة الوداع التي ألقاها على الحجاج في عرفات: «إنّ دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، وإنّكم
ستلقون ربّكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلّغت فمن كانت عنده أمانة فليؤدّها إلى من ائتمنه عليها، وإنّ كلّ ربا موضوع، وأوّل ربا أضع، ربا عبّاس بن عبد المطّلب فإنّه موضوع كلّه. وإنّ كلّ دم في الجاهليّة موضوع، وإنّ أوّل دم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطّلب.

---

(١) البخاري- الصحيح (فتح الباري- حديث ٤٣٤٧) ، وذكر ابن كثير أنه قد «أخرجه بقية الجماعة من طرق متعددة» . البداية والنهاية ٥/ ١١٣.
(٢) البخاري- الصحيح (فتح الباري حديث ٤٣٤٩) ، مسلم الصحيح ٢/ ٨٨٨ (حديث ١٢١٨) ، أحمد- المسند ٣/ ٨٦، أبو داود- السنن ١٤/ ١١- ١٢ (حديث ٣٥٨٢) .
(٣) البخاري- الصحيح (فتح الباري- الأحاديث ٤٣٥٥- ٥٧) ، مسلم- الصحيح ٤/ ١٩٢٦ (حديث ٢٤٧٦) ، واليمانية نسبة إلى موقعها، وقد تعرف أحيانا بالشامية باعتبار أن بابها يواجه بلاد الشام، أو الشمال.
(٤) مسلم- الصحيح ٢/ ١٨٨٧ (الحديث ١٢١٨) .
(٥) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٨/ ١٠٤) . ابن هشام- السيرة ٤/ ٢٧٢ برواية ابن إسحاق، بإسناد حسن، ابن كثير- البداية والنهاية ٥/ ١٢٥ بإسناد جيد.
(٦) انظر مثلا ابن كثير- البداية ٥/ ٢٢٣- ٢٣٣.
(٧) ابن القيم- زاد المعاد ٢/ ١٠١- ٣٢٤، وانظر مسلم- الصحيح بشرح النووي ٨/ ١٧٠.
(٨) القرآن الكريم- سورة المائدة، الآية/ ٣، وانظر البخاري- الصحيح (فتح الباري، حديث ٤٤٠٧) ، ابن كثير- البداية والنهاية ٥/ ١٢٣.
جـ ١(ص: ٤٠١)

أيّها النّاس: اتّقوا الله في النّساء فإنّكم أخذتموهنّ بأمانة الله واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله، وإن لكم عليهنّ ألّا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهنّ ضربا غير مبرّح، ولهنّ عليكم رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف، وإنّي قد تركت فيكم ما لن تضلّوا بعد إن اعتصمتم به، كتاب الله. وأنتم تسألون عنّي فما أنتم قائلون؟» ، قالوا نشهد أنّك قد بلّغت رسالات ربّك، وأدّيت، ونصحت لأمّتك، وقضيت الّذي عليك، فقال صلّى الله عليه وسلّم:
«اللهمّ اشهد» «١» .
وقد ألقى الرسول صلّى الله عليه وسلّم خطبا أخرى في مزدلفة ومنى، فأكد في عرفات أن عرفة كلها موقف، وقال حين وقف في قزح صبيحة المزدلفة: «هذا الموقف وكلّ المزدلفة موقف» «٢» . ثم لما نحر بالمنحر في منى، قال: «هذا المنحر وكلّ منى منحر» . وقال في إحدى خطبه في منى: «لا ترجعوا من بعدي كفّارا يضرب بعضكم رقاب بعض» «٣» .
وهكذا قضى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الحج، وقد أرى المسلمين مناسكهم، وأعلمهم ما فرض الله عليهم في حجهم، من الموقف ورمي الجمار، وطواف بالبيت، وما أحل لهم من حجهم، وما حرم عليهم، فكانت حجة البلاغ، وحجة الوداع، وذلك أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لم يحج بعدها «٤» .

وقد وافى علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- عند عودته من اليمن، رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في الحج، فحج معه «٥» ، وقد اشتكى بعض الجند عليّا عند النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه اشتد في معاملتهم، وأنه استرجع منهم حللا كان نائبه على اليمن قد وزعها عليهم، فأوضح لهم النبي صلّى الله عليه وسلّم في غدير خم قرب الجحفة مكانة عليّ وفضله لينتهوا عن الشكوى «٦» . وقال صلّى الله عليه وسلّم: «من كنت مولاه فعليّ مولاه» «٧» .

---

(١) مسلم- الصحيح بشرح النووي ٨/ ١٧٠، وهو أهم المرويات الصحيحة التي وردت فيها أحكام حجة النبي صلّى الله عليه وسلّم ووصاياه فيها وهو حديث جابر- رضي الله عنه- الذي رواه مسلم وتفرد به، ولم يرد في صحيح البخاري، ورواه أبو داود، ونقل النووي قول القاضي عياض: «وتكلم الناس على ما فيه من الفقه وأكثروا وصنف فيه أبو بكر بن المنذر جزءا كبيرا وخرّج فيه من الفقه مائة ونيفا وخمسين نوعا، ولو تقصى لزيد على هذا القدر قريبا منه ... » ، وانظر تخريجه في كتاب «حجة النبي صلّى الله عليه وسلّم» للألباني ص/ ٣٨- ٤١، ووردت بعض الخطبة في صحيح البخاري

(فتح الباري ٨/ ١٠٨، ورواه أئمة الحديث في كتبهم مقطعا في أبواب متفرقة متعددة من طرق صحيحة، وانظر أحمد- الفتح الرباني ٢١/ ٢٨٠- ١، البيهقي- دلائل ٥/ ٤٤٩، الحاكم- المستدرك ١/ ٩٣، البزار- كشف الأستار (رقم ١٥٢٤) .
(٢) ابن هشام- السيرة ٤/ ٦٠٥- ٦٠٦.
(٣) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٨/ ١٠٧ حديث ٤٤٠٣) ، مسلم- الصحيح ١/ ٨٢ (حديث ٦٥- ٦٦) ، احمد- الفتح الرباني ١٢/ ٢١٠- ٢١٢، ابن القيم- زاد المعاد ٢/ ١٠١- ٣١١.
(٤) ابن هشام- السيرة ٤/ ٦٠٦ برواية ابن إسحاق.
(٥) المرجع السابق ٤/ ٦٠٢- ٦٠٣، وأورد ابن كثير- البداية ٥/ ٢٠٩ رواية قوية جيدة الإسناد.
(٦) ابن كثير- البداية ٥/ ٢١٢.
(٧) أحمد- فضائل الصحابة ٢/ ٥٩٤ (رقم ١٠١٠) بإسناد صحيح، المسند ٤/ ١٦٤، وأخرجه النسائي في السنن الكبرى، كما في تحفة الأشراف (٣/ ١٣) من طريق يحيى بن آدم، والنسائي- الخصائص (ص/ ٢٠) وابن ماجه ١/ ٤٤، وانظر المسند أيضا ٥/ ٤١٩، (بإسناد صحيح الحاكم المستدرك ٣/ ١١٠، والترمذي ٥/ ٦٣، وأحمد ٥/ ٣٤٧ عن ابن عباس. وأخرجه أبو بكر بن أبي شيبة عن بريدة، وجابر، وأبي هريرة (المطالب العالية ٤/ ٥٩- ٦٠) ، وعقد الهيثمي في مجمعه (٩/ ١٠٣) بابا في ذلك ذكر فيه طرقا كثيرة جدّا غير ما أسلفنا.
جـ ١(ص: ٤٠٢)

بعث أسامة بن زيد إلى أرض فلسطين

عاد النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى المدينة بعد أن أدى حجة الوداع مع من صحبه من المسلمين ومن شهده معه من أهل الموقف، فأقام بالمدينة بقية ذي الحجة من السنة العاشرة، والمحرم وصفر من السنة الحادية عشرة، وضرب على الناس بعثا إلى الشام، وأمّر عليهم أسامة بن زيد بن حارثة مولاه «١» ، وأمره أن يوطيء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين فتجهز الناس «٢» ، وأوعب مع أسامة بن زيد المهاجرين والأنصار وفيهم أبو بكر وعمر «٣» ، وكان أسامة بن زيد شابّا في الثامنة عشرة من عمره، فتكلم البعض في تأميره وهو مولى وصغير السّن، فلم يقبل النبي صلّى الله عليه وسلّم اعتراض أحد على إمارة أسامة بن زيد وأوصى به خيرا» .
ولم يقدر لهذا البعث أن يخرج في عهد النبي صلّى الله عليه وسلّم، فقد عقد النبي صلّى الله عليه وسلّم اللواء لأسامة الذي خرج به إلى الجرف وعسكر فيه بانتظار استكمال التجهيز والتحاق الجند وتكاملهم «٥» ، غير أن النبي صلّى الله عليه وسلّم مرض بعد ذلك بيومين واستغرق مرضه عشرة أيام ثم توفي صلّى الله عليه وسلّم مما أخر خروج الجيش إلى ما بعد بيعة الصديق- رضي الله عنه- «٦» .

وفاة النبي صلّى الله عليه وسلّم

قال تعالى: إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ «٧» . اشتكى النبي صلّى الله عليه وسلّم من سم أصابه منذ العام السابع الهجري، فقد تناول بعد فتح خيبر قطعة لحم من شاة مسمومة مشوية قدمتها له زوجة سلام بن مشكم اليهودية «٨» ، ورغم أنه صلّى الله عليه وسلّم كان قد لفظ اللقمة ولم يبتلعها، فإن نوعية وكثافة السم الذي احتوته قد أثر عليه «٩» ، أما مرضه الأخير فكان قد ألم به أول ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة وبعد شهرين ونصف من عودته إلى المدينة من حجة الوداع، حين شعر صلّى الله عليه وسلّم بالمرض وهو في بيت أم المؤمنين ميمونة «١٠» ، وطلب من زوجاته أن يمرّض في بيت أم المؤمنين عائشة «١١» ، واستغرق مرضه عشرة أيام «١٢» .

وكانت عائشة- رضي الله عنها- تقرأ بالمعوذتين والأدعية المأثورة عن النبي صلّى الله عليه وسلّم، وتمسحه بيده رجاء البركة «١٣» .

---

(١) أحمد- الفتح الرباني ٢١/ ٢٢٠- ٢٢٣، الواقدي- مغازي ٣/ ١١١٧- ١١١٨، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٢٤٨.
(٢) ابن هشام- السيرة ٤/ ٦٠٦ برواية ابن إسحاق مرسلا.
(٣) أحمد- الفتح ٢١/ ٢٢٠- ٢٢١.
(٤) المرجع السابق ٢١/ ٢٢١- ٢٢٣، وانظر ابن حجر- فتح الباري ٨/ ١٥٢.
(٥) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٨/ ١٥٢ حديث ٤٤٦٩) .
(٦) المرجع السابق ٨/ ١٥٢ (حديث ٤٤٦٩) وقد انفرد الواقدي بذكر عدد هذا الجيش (المغازي ٣/ ١١٢٠- ١١٢٣) .
(٧) القرآن الكريم- سورة الزمر، الآية/ ٣٠.
(٨) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٨/ ١٣٨) .
(٩) المرجع السابق ٨/ ١٣٨.
(١٠) ابن حجر- فتح الباري ٨/ ١٢٩.
(١١) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٨/ ١٤١ حديث ٤٤٤٢، ٤٤٥٠) ، أحمد- الفتح الرباني ٢١/ ٢٢٦ بإسناد صحيح.
(١٢) ابن حجر- فتح الباري ٨/ ١٢٩.
(١٣) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٨/ ١٣٨ حديث ٤٤٢٩، ٤٤٥١) ، مسلم- الصحيح ٤/ ١٧٢١- ١٧٢٤، (الأحاديث ١٢٩١- ٢١٩٢) .

جـ ١(ص: ٤٠٣)

وفي اليوم الخامس من مرضه صلّى الله عليه وسلّم اشتدت عليه الحمى فطلب أن يصبّوا عليه الماء، حتى يخرج للناس فيعهد إليهم، وبعد أن استحم أحس بخفة، فعصب رأسه ودخل المسجد فصعد المنبر وخطب فنهى عن اتخاذ قبره وثنا يعبد «١» ، ولعن اليهود والنصارى لاتخاذهم قبور أنبيائهم مساجد «٢» ، وعرض نفسه للقصاص، وأوصى بالأنصار خيرا، وفي نهاية خطبته قال صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ عبدا خيّره الله بين الدّنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله» . «٣»
وقد اشتد بكاء أبي بكر (رضي الله عنه) فعجب الناس من ذلك، فكان المخير رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وكان أبو بكر أعلمهم بذلك، وأثنى النبي على أبي بكر صحبته، وما أنفق في سبيل الله ونصرة الإسلام فقال: «لو كنت متّخذا خليلا عند ربّي لاتّخذت أبا بكر خليلا، ولكن أخوّة الإسلام ومودّته» ، وأمر صلّى الله عليه وسلّم بألا يبقى في المسجد باب إلّا سدّ، إلا باب أبي بكر. «٤»
وقبل وفاته صلّى الله عليه وسلّم بأربعة أيام أوصى بإخراج اليهود والنصارى والمشركين من جزيرة العرب، كما أمر صلّى الله عليه وسلّم بإجازة الوفود بنحو ما كان يجيزهم «٥» ، وحين اشتد وجعه ذلك اليوم قال للصحابة الذين كانوا معه: «هلمّوا اكتب لكم كتابا لا تضلّوا بعده» فاختلفوا وقال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : «قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله، فلما أكثروا اللغط والاختلاف قال صلّى الله عليه وسلّم: «قوموا عنّي» . «٦»
وفي اليوم التالي أثر عنه صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: «أحسنوا الظّنّ بالله عزّ وجلّ» . «٧»
وقد أثقله بعد ذلك المرض، ومنعه من الخروج للصلاة بالناس، فقال: «مروا أبا بكر أن يصلّي بالنّاس» ، وقد راجعته عائشة- رضي الله عنها- فقالت: «إن أبا بكر رجل رقيق ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن» فأصرّ صلّى الله عليه وسلّم على ذلك، فمضى أبو بكر يصلي بهم «٨» ، وحين شعر النبي صلّى الله عليه وسلّم بعد ذلك بتحسن، وخرج لصلاة الظهر وهو يتوكأ على رجلين رآه أبو بكر فأراد أن يتأخر، فأومأ إليه ألّا يتأخر، فأجلسه بجانبه، فجعل أبو بكر- رضي الله

(١) البخاري- الصحيح (فتح الباري، الأحاديث ٤٢٥، ٤٣٦، ٤٣٧) مسلم ١٠/ ٤٧٥٦ (حديث ٥٢٩، ٥٣٢) ، مالك- الموطأ ص/ ٣٦٠.
(٢) مالك- الموطأ ص/ ٣٦٥، البيهقي- دلائل النبوة (٧/ ١٦٩- ١٨٠) .
(٣) البخاري- الصحيح (فتح الباري، الأحاديث ٤٤٣١- ٤٤٣٢) ، مسلم ٣/ ١٢٥٧- ٥٩، (الحديث ١٦٣٧) .
(٤) البخاري- الصحيح (فتح الباري الحديث ٤٤٣٢) مسلم- الصحيح (الحديث ١٦٣٧) .
(٥) الذهبي- السيرة ص/ ٥٥٧، ابن ماجه- صحيح ابن ماجه للألباني ١/ ٢٧١، كتاب الجنائز (حديث ١٦٢٥) وقال: صحيح، وصححه الهيثمي- مجمع الزوائد ٤/ ٢٣٧.
(٦) هناك قرائن تشير إلى أن أمره صلّى الله عليه وسلّم بإحضار أدوات الكتابة لم تكن على الوجوب وإنما فيه تخيير، فلما قال عمر مقولته لم يكرر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ذلك، ولو كان الأمر لازما لأوصاهم به، وانظر البخاري- الصحيح (فتح الباري ٨/ ١٣٢) .
(٧) الذهبي- السيرة ص/ ٥٥٧ وقال إنه حديث صحيح من العوالي.
(٨) أحمد- الفتح الرباني ٢١/ ٢٢٦- ٢٢٧ من طريق ابن إسحاق ورجاله ثقات، أبو داود- السنن، ٥/ ٤٧- ٤٨، ابن كثير- البداية ٥/ ٢٣٢- ٢٣٣.
ج ١(ص: ٤٠٤)

عنه- صلي وهو قائم بصلاة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والناس يصلون بصلاة أبي بكر «١» .
أعتق النبي صلّى الله عليه وسلّم في اليوم السابق لوفاته غلمانه، وتصدق بما كان معه من دنانير، وقال صلّى الله عليه وسلّم: «لا نورث وما تركنا صدقة» «٢» .
أطل الرسول صلّى الله عليه وسلّم فجر يوم وفاته على المسلمين وهم يستوون لصلاة الصبح حيث كشف ستر حجرته ونظر إليهم وتبسم، وهمّ المسلمون أن يفتنوا في صلاتهم فرحا برسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وتأخر أبو بكر عن موضع الإمام ملتحقا بالصف الأول، غير أن النبي صلّى الله عليه وسلّم أشار إليهم بيده الكريمة: أن أتمّوا صلاتكم، ثم دخل حجرة عائشة، وأرخى الستر. «٣»
ودخلت عليه فاطمة الزهراء- رضي الله عنها- عند الضحى فقالت: «واكرب أباه» . فقال لها صلّى الله عليه وسلّم:
«ليس على أبيك كرب بعد اليوم» «٤» .
ثم دعاها فسارّها بشيء فبكت، ثم دعاها فسارّها بشيء فضحكت، فأخبرت بعد وفاته أنه أخبرها بموته فبكت ثم أخبرها بأنها أول أهله لحاقا به فضحكت «٥» ، والحديث من دلائل نبوته صلّى الله عليه وسلّم لأن ما أخبرها به قد كان.
وكان آخر ما تكلم به صلّى الله عليه وسلّم قوله وهو يستند إلى صدر أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها-: «مع الّذين أنعمت عليهم من النّبيّين والصّدّيقين والشّهداء والصّالحين، اللهمّ اغفر لي وارحمني، وألحقني بالرّفيق الأعلى، اللهمّ في الرّفيق الأعلى» كررها ثلاثا «٦» . ثم مالت يده، ولحق بالرفيق الأعلى «٧» .
وكانت وفاته صلّى الله عليه وسلّم حين اشتد الضحى من يوم الاثنين، الثاني عشر من ربيع الأول عام إحدى عشرة للهجرة «٨» وقد نادت فاطمة الزهراء: «يا أبتاه، أجاب ربا دعاه، يا أبتاه إلى جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه: إلى جبريل ننعاه» «٩» .
ولم يصدق عمر بن الخطاب نبأ وفاته صلّى الله عليه وسلّم وتهدد من يقول ذلك «١٠» . أما أبو بكر فقد جاء من بيته بالسنح، ودخل على النبي صلّى الله عليه وسلّم وكشف عن وجهه وقبله وبكى. ثم خرج إلى الناس وهم بين مصدق ومنكر، فقال: «أما

(١) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٨/ ١٤١، أحمد- المسند (الفتح الرباني ٢١/ ٢٣١) ، ابن كثير- البداية ٥/ ٢٢٩- ٢٣٠، وانظر كذلك مسلم- الصحيح ١/ ٣١٣- ٤ (حديث ٤١٨) .
(٢) البخاري- الصحيح (فتح الباري، الأحاديث ٦٧٢٦- ٦٧٢٨، ٦٧٣٠) ، وانظر ابن سعد- الطبقات ٢/ ٢٣٧- ٨، ٣١٦- ٣١٧، من عدة طرق يتقوى بعضها ببعض ولها شاهد من حديث البخاري أن الرسول صلّى الله عليه وسلّم لم يترك عند موته عبدا ولا أمة.
(٣) البخاري- الصحيح (فتح الباري حديث ٤٤٤٨) .
(٤) المرجع السابق (فتح الباري ٨/ ١٤٩ حديث ٤٤٦٢) .
(٥) البخاري- الصحيح (فتح الباري ١/ ٢٠٨ الاحاديث ٤٤٣٣- ٤) ، مسلم- الصحيح ٤/ ١٩٠٤ (حديث ٢٤٥٠) .
(٦) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٨/ ١٣٦ حديث ٤٤٤٩) ، ابن هشام- السيرة ٣/ ٣٢٩ بإسناد صحيح.
(٧) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٨/ ١٤٢ حديث ٤٤٦٣) ، مسلم- الصحيح ٤/ ١٨٩٤ (حديث ٢٤٤٤) .
(٨) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٨/ ١٥٠ حديث ٤٤٦٦) ، وانظر ابن حجر- الفتح ٨/ ١٢٩.
(٩) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٨/ ١٤٩) حديث ٤٤٦٢.
(١٠) أحمد- الفتح الرباني ٢١/ ٢٤١- ٢٤٢، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٢٦٦، الصنعاني- المصنف ٥/ ٤٣٣- ٤٣٤.

جـ ١(ص: ٤٠٥)

بعد. من كان يعبد محمدّا فإن محمدا قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت، ثم تلا قول الله تعالى: وَما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ «١» .
هدأ الناس واطمأنت نفوسهم إلى قضاء الله تعالى وكأنهم لم يكونوا قد سمعوا الآية من قبل «٢» .
وفي يوم الثلاثاء، التالي ليوم وفاة النبي صلّى الله عليه وسلّم تم غسله وهو في ثيابه، شارك في غسله عمه العباس وولداه الفضل وقثم إلى جانب ابن عمه وصهره علي بن أبي طالب، كما شارك في ذلك شقران مولى النبي صلّى الله عليه وسلّم وأسامة بن زيد وأوس ابن خولي «٣» ، وتم تكفينه في ثلاثة أثواب بيض ليس فيها قميص ولا عمامة «٤» .
صلى المسلمون على النبي صلّى الله عليه وسلّم أرسالا أرسالا، لا يؤمهم أحد»
، وحفروا له قبرا في حجرة عائشة (رضي الله عنها) ، ودفنوه ليلة الأربعاء «٦» .
قال حسان بن ثابت عددا من المراثي في الرسول صلّى الله عليه وسلّم، منها قوله «٧» :
بطيبة رسم للرسول ومعهد ... منير وقد تعفو الرسوم وتهمد
ولا تمتحي الآيات من دار حرمة ... بها منبر الهادي الذي كان يصعد
وواضح آثار وباقي معالم ... وربع له فيه يصلّى ومسجد
بها حجرات كان ينزل وسطها ... من الله نور يستضاء ويوقد
ظللت بها أبكي الرسول فأسعدت ... عيون ومثلاها من الجفن تسعد
فبوركت يا قبر الرسول وبوركت ... بلاد ثوى فيها الرشيد المسدّد

---

(١) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٨/ ١٤٥ الأحاديث ٤٤٥٢- ٤٤٥٤) ، والآية/ ١٤٤ من سورة آل عمران.
(٢) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٨/ ١٤٥) .
(٣) ابن هشام- السيرة ٤/ ٦٦٢- ٦٦٣.
(٤) البخاري- الصحيح (فتح الباري حديث ١٢٦٤) ، مسلم- الصحيح ٢/ ٦٤٩- ٦٥٠ (حديث ٩٤١) .

(٥) أحمد- الفتح الرباني ٢١/ ٢٥٣- ٤ وقال الهيثمي وقد رواه في مجمع الزوائد: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح» ، ابن سعد- الطبقات ٢/ ٢٨٨- ٢٩٢ من عدة طرق وقال ابن كثير عن صلاة المسلمين فرادى بأنه «أمر مجمع عليه لا خلاف فيه» (البداية ٥/ ٢٩٩) .
(٦) ابن إسحاق بإسناد حسن، سيرة ابن هشام ٤/ ٦٦٤.
(٧) ابن هشام- السيرة (برواية ابن إسحاق) ٤/ ٦٦٦- ٩.
جـ ١(ص: ٤٠٦)

وهل عدلت يوما رزيّة هالك ... رزيّة يوم مات فيه محمد
وما فقد الماضون مثل محمد ... ولا مثله حتى القيامة يفقد
أعف وأوفى ذمّة بعد ذمة ... وأقرب منه نائلا لا ينكّد
وأكرم صيتا في البيوت إذا انتمى ... وأكرم جدا أبطحيّا يسوّد
وقال في قصيدة أخرى: «١»
تالله ما حملت أنثى ولا مضعت ... مثل الرسول نبيّ الأمة الهادي
ولا برا الله خلقا من بريته ... أوفى بذمة جاد أو بميعاد
من الذي كان فينا يستضاء به ... مبارك الأمر ذو عدل وإرشاد
يا أفضل الناس إني كنت في نهر ... أصبحت منه كمثل المفرد الصادي

---

(١) ابن هشام- السيرة ٤/ ٦٧١.
جـ ١(ص: ٤٠٧)

ما خلّف النبيّ صلّى الله عليه وسلّم

أ زوجاته أمهات المؤمنين

تزوج النبي صلّى الله عليه وسلّم في شبابه خديجة بنت خويلد- رضي الله عنها- كما سبق أن ذكرنا في ثنايا سيرته العطرة، ولم يتزوج عليها حتى توفيت بعد أن مكثت عنده أربعا وعشرين سنة وأشهرا، وكان صلّى الله عليه وسلّم إذا ذكرها أثنى فأحسن الثناء عليها والاستغفار لها «١» .
وقد تزوج صلّى الله عليه وسلّم في مكة قبل الهجرة سودة بنت زمعة- رضي الله عنها- على أثر وفاة أم المؤمنين خديجة- رضي الله عنها-، وكانت سودة ثيبا كبيرة السن، توفي عنها زوجها السكران بن عمر بعد عودتهما من هجرتهما إلى الحبشة «٢» ، فخطبها الرسول صلّى الله عليه وسلّم من أبيها، وملكها «٣» . وإلى جانب حاجته صلّى الله عليه وسلّم إلى الزوجة فإن زواجه من سودة- رضي الله عنها- كان تطييبا لخاطرها بفقدها زوجها المسلم المهاجر، ولغرض تهيئة من يرفق بأولاده الصغار من خديجة- رضي الله عنها- «٤» . وقد هاجرت أم المؤمنين سودة بنت زمعة إلى المدينة في أعقاب هجرته عليه السلام. وقد بنى لها النبي صلّى الله عليه وسلّم بيتها الملاصق لمسجده صلّى الله عليه وسلّم وهو أحد البيتين اللذين بنيا مع بناء المسجد بعد الهجرة «٥» .
أما أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق- رضي الله عنهما- فقد أورد الشيخان وابن حبان عنها قالت: تزوجني رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأنا بنت ست سنين «٦» . ويفهم من رواية أوردها الطبراني بإسناد حسن عنها- رضي الله عنها- بأنها هاجرت مع بقية الأسرة، وأنهم سلكوا في مسالك صعبة «٧» . وقد تزوجها صلّى الله عليه وسلّم بالمدينة وهي البكر الوحيدة بين نسائه «٨» .
وفي المدينة تزوج صلّى الله عليه وسلّم أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب- رضي الله عنهما- «٩» ، وكانت تحت

---

(١) محمد بن الحسن بن زبالة- أزواج النبي صلّى الله عليه وسلّم ص/ ٣٥- ٥٠، ابن سعد- الطبقات ٨/ ١٤١- ١٥٠، البيهقي- دلائل النبوة ٧/ ٢٨٨، أبو عبيدة- تسمية أزواج النبي صلّى الله عليه وسلّم ص/ ٧٧، ابن حبيب- المحبّر ص/ ٩٨، الشامي- سبل الهدى ١١/ ١٥٥- ١٦٣.
(٢) ابن سعد- الطبقات ٨/ ٥٣، ابن هشام- السيرة ٢/ ٩، ابن عبد البر- الاستيعاب ٢/ ١٢٥.
(٣) ابن سعد- الطبقات ٨/ ٥٢- ٥٣، ابن كثير- البداية والنهاية ٣/ ١٤٩، الشامي- سبل الهدى ١١/ ١٩٨- ٢٠٠.
(٤) أحمد- المسند ٦/ ٢١١، ابن حجر- فتح الباري ٧/ ٢٢٥، وانظر العمري- السنة الصحيحة ٢/ ٦٥٠.
(٥) البخاري- الصحيح (فتح الباري ٨/ ٢٦٥) ، مسلم- الصحيح ٢/ ١٠٨٥ (الأحاديث: ١٤٦٣- ١٤٦٤) ، ٤/ ٢٣١٦، أبو داود- السنن ٢/ ٦٠١- ٦٠٢، الترمذي- السنن ٥/ ٢٤٩.
(٦) وأورد مسلم والنسائي عنها «وأنا ابنة سبع وبنى بي وأنا ابنة تسع» . انظر: البخاري- الصحيح ٨/ ٧٥- ٧٦، مسلم- الصحيح ٤/ ١٨٩٠ (حديث ٢٤٣٨) .
(٧) الهيثمي- مجمع الزوائد ٩/ ٢٢٨، الشامي- سبل ١١/ ١٦٥.
(٨) البخاري- الصحيح (حديث ٥٠٧٧) ، الشامي- سبل الهدى ١١/ ١٦٤- ١٨٢.
(٩) ابن زبالة- أزواج النبي صلّى الله عليه وسلّم ص/ ٥٧- ٥٩، الشامي- سبل الهدى ١١/ ١٨٤- ١٨٦، البخاري- الصحيح (فتح الباري، حديث ٥١٢٢) ، ابن حجر- الإصابة ١/ ٤٥٦.
جـ ١(ص: ٤٠٨)

خنيس بن حذافة السهمي الذي هاجر معها إلى المدينة وتوفي من جراحات أصابته في بدر «١» . وقد تزوجها النبي صلّى الله عليه وسلّم في السنة الثانية من الهجرة «٢» .
وتزوج صلّى الله عليه وسلّم أم المؤمنين زينب بنت خزيمة الهلالية «٣» ، وكانت قبله عند الطفيل بن الحارث، ولما خطبها النبي صلّى الله عليه وسلّم جعلت أمرها إليه فتزوجها وأشهد وأصدقها اثنى عشر أوقية وكساء «٤» . وهي أم المساكين سميت بذلك لكثرة إطعامها المساكين «٥» ، وتوفيت ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم حي، وقد مكثت عنده ثمانية أشهر ودفنت بالبقيع «٦» .
أما أم المؤمنين أم سلمة بنت أبي أميّة- رضي الله عنها-، فقد هاجرت مع زوجها الأول أبي سلمة بن عبد الأسد- رضي الله عنه- إلى الحبشة الهجرتين فكانا أول من هاجر إلى الحبشة وكانت أول مهاجرة من المسلمات «٧» ، فلما شرعت الهجرة إلى يثرب كانت أم سلمة «أول ظعينة دخلت المدينة مهاجرة» «٨» ، وقد شهد أبو سلمة بدرا وأحدا ورمي بسهم في عضده، برأ منه، ثم انقض عليه فمات في جمادى الآخرة سنة ٤ هـ «٩» ، وبعد أن اعتدّت- رضي الله عنها- تزوجها النبي صلّى الله عليه وسلّم في أواخر شوال من السنة الرابعة «١٠» . وقد كانت مع النبي صلّى الله عليه وسلّم حين خرج إلى مكة وتصالح مع قريش في الحديبية وكان لرأيها أثره في متابعة المسلمين لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد ما ترددوا في النحر والحلق «١١» .
- أما أم المؤمنين جويرية بنت الحارث- رضي الله عنها- فكانت قبل النبي صلّى الله عليه وسلّم عند مسافع بن صفوان، وقد قتل كافرا يوم المريسيع في غزوة بني المصطلق «١٢» ، ووقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس، فكاتبها على تسع أواق، فأتت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تستعينه على كتابتها فقالت: يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث سيد قومه وقد أصابني من البلاء ما لا يخفى عليك فأعنّي على كتابتي قال صلّى الله عليه وسلّم: «أو خير من ذلك، أؤدّي عنك كتابتك وأتزوّجك» ، فقالت نعم «١٣» ، ففعل، فبلغ الناس أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد تزوجها، فقالوا: أصهار رسول الله صلّى الله عليه وسلّم

---
(١) ابن حجر- الإصابة ١/ ٤٥٦، ابن عبد البر- الاستيعاب ١/ ٤٣٨.
(٢) ابن سعد- الطبقات ٨/ ٨١- ٨٢، أحمد- الفتح ٢٢/ ١٣٠.

(٣) ابن زبالة- أزواج النبي صلّى الله عليه وسلّم ص/ ٦٠، ابن حبيب- المحبّر ص/ ١٠٥- ٩.
(٤) الشامي- سبل الهدى ١١/ ٢٠٥.
(٥) ابن هشام- السيرة ٤/ ٣٩١، ابن سعد- الطبقات ٨/ ١١٥.
(٦) ابن سعد- الطبقات ٨/ ١١٥- ١١٦.
(٧) ابن زبالة- أزواج النبي صلّى الله عليه وسلّم ص/ ٦٢.
(٨) مسلم- الصحيح ٢/ ٦٣٢- ٣٥٠، حديث ٩١٨- ٩١٩، الألباني- صحيح الترمذي ١/ ٢٨٨، ابن سعد- الطبقات ٨/ ٨٩، الشامي- سبل الهدى ١١/ ١٨٧.
(٩) الشامي- سبل الهدى ١١/ ١٨٧، وانظر ابن زبالة- أزواج ص/ ٦٢- ٣، مسلم- الصحيح ٢/ ٦٣١.
(١٠) الشامي- سبل الهدى ١١/ ١٨٨، وانظر ابن سعد- الطبقات./ ٨٧.
(١١) الشامي- سبل الهدى ١١/ ١٩١.
(١٢) البخاري- الصحيح (فتح الباري، حديث (٢٥٤) ، مسلم- الصحيح ٣/ ١٣٥٦، حديث ١٧٣٠.
(١٣) ابن هشام- السيرة ٣/ ٤٠٨- ٤٠٩.

يسترقون! فأعتقوا ما بأيديهم من بني المصطلق، فكان ذلك من خيرها على قومها «١» .
- وتزوج النبي صلّى الله عليه وسلّم ابنة عمته زينب بنت جحش في السنة الرابعة من الهجرة «٢» ، وكانت قبله تحت زيد «مولاه زوجها له النبي صلّى الله عليه وسلّم «٣» ، ولما أخفق الزواج حاول النبي صلّى الله عليه وسلّم إصلاح ذات بينهما دون جدوى، ثم نزل أمر الله تعالى له يأمره بالزواج منها لحكمة ارادها الله تعالى في إبطال عادة التبني الجاهلية، وما يترتب عليها من علاقات، وقد أنزل الله في ذلك قوله تعالى وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْواجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً «٤» .. ولذلك فإنها كانت تفخر على بقية نسائه بأنها بنت عمته وبأن الله تعالى قد زوجها له من فوق سبع سماواته «٥» . وبسببها نزلت آية الحجاب «٦» . في قوله تعالى:
يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلى طَعامٍ غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ وَلكِنْ إِذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذلِكُمْ كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ ذلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذلِكُمْ كانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً» .
ووردت عن أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- رواية صحيحة قالت فيها: «كانت زينب بنت جحش «٨» هي التي تساميني من أزواج النبي صلّى الله عليه وسلّم في المنزلة عند النبي صلّى الله عليه وسلّم وما رأيت امرأة قط خيرا من زينب في الدين، وأتقى لله، وأصدق حديثا، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة» «٩» .
أما أم المؤمنين أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان- رضي الله عنها- فقد كانت عند عبيد الله بن جحش وولدت له حبيبة، وقد هاجرت مع زوجها إلى الحبشة في الهجرة الثانية، غير أنه ما لبث أن ارتد وتنصر ومات على النصرانية وبقيت أم حبيبة. رضي الله عنها- على دين الإسلام، فأتم الله تعالى لها الإسلام والهجرة وتزوجها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذ بعث عليه السلام إلى النجاشي فزوجه إياها وأصدقها النجاشي عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وبعث بها مع شرحبيل بن حسنة «١٠» .
وقيل لأبي سفيان يومئذ وهو مشرك يحارب النبي صلّى الله عليه وسلّم: «إن محمدا قد نكح ابنتك، قال ذاك

---

(١) ابن هشام- السيرة ٣/ ٤٠٩.

(٢) القرآن الكريم- سورة الأحزاب، الآية/ ٣٧، البخاري- الصحيح (فتح الباري، حديث ٤٧٨٧) .
(٣) البخاري- الصحيح (الحديث ٧٤٢٠) .
(٤) القرآن الكريم- سورة الأحزاب، الآية/ ٣٧.
(٥) ابن زبالة- أزواج النبي صلّى الله عليه وسلّم ص/ ٦٩، البخاري- الصحيح، حديث (٧٤٢٠) .
(٦) البخاري- الصحيح، حديث (٤٧٩١) .
(٧) القرآن الكريم- سورة الأحزاب، الآية/ ٥٣.
(٨) انظر ترجمتها وأخبارها في «جامع الأصول» (١٢/ ٢٥١) بتحقيق محمود الأرناؤوط، طبع دار ابن الأثير ببيروت..
(٩) مسلم- الصحيح، الحديث (٢٤٢٤) .
(١٠) أحمد- الفتح الرباني ٢٢/ ١٣٣، ابن هشام- السيرة ٤/ ٣٨٩، ابن سعد- الطبقات ٨/ ٩٦- ٩٩، وانظر: ابن زبالة- أزواج ص/ ٧١- ٣.
جـ ١(ص: ٤١٠)

الفحل لا يقرع أنفه» «١» .
ومما يؤثر عنها أنها رغبت بفراش النبي صلّى الله عليه وسلّم حين أراد أبو سفيان أن يجلس عليه عندها فطوته دونه وحتى سألها أبوها عن ذلك قالت:
«بل هو فراش رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأنت امرؤ نجس مشرك» «٢» .
وقد نزل بسبب زواج النبي صلّى الله عليه وسلّم منها قوله تعالى:
عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ «٣» .
وتزوج النبي صلّى الله عليه وسلّم أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث، وكانت قبله تحت أبي رهم بن عبد العزى القرشي، وقد خطبها النبي صلّى الله عليه وسلّم في عمرة القضاء بمكة فجعلت أمرها إلى العباس بن عبد المطلب، فأنكحها له العباس وهو محرم سنة ثمان، فلما رجع من مكة بنى بها بسرف على بضعة أميال من مكة، وروى الطبراني برجال ثقات عن الزهري رحمه الله أن ميمونة بنت الحارث هي التي وهبت نفسها لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم. ونزل فيها قوله تعالى:.. وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ... «٤» .
أما أم المؤمنين صفية بنت حيي (رضي الله عنها) فقد كانت عند كنانة بن أبي الحقيق الذي قتل يوم خيبر وقد اصطفى النبي صلّى الله عليه وسلّم صفية من النفل وتزوجها بأن جعل عتقها صداقها «٥» .
وروى البزار بسند جيد عن أنس أن النبي صلّى الله عليه وسلّم لم يولم على أحد من نسائه إلا صفية «٦» .
ووردت جملة مرويات تفيد أنه صلّى الله عليه وسلّم كانت له أربع ولائد: مارية القبطية، وريحانة القرظية، وثالثة وهبتها له أم المؤمنين زينب بنت جحش بعد أن رضي عنها إثر مخاصمتها أم المؤمنين صفية، ورابعة أصابها في السبي وكانت جميلة نفيسة «٧» . وعقد الشامي في سيرته بابا خاصّا أفرده «في ذكر من عقد عليها ولم يدخل بها صلّى الله عليه وسلّم» «٨» عدد فيها

(١) الحاكم- المستدرك ٤/ ٢٠، الهيثمي- مجمع الزوائد ٩/ ٢٥٢، أي: أنه كفء كريم لا يرد.
(٢) أورد ذلك ابن الجوزي في صفة الصفوة عن طريق الزهري، وانظر: الشامي- سبل الهدى ١١/ ١٩٥- ١٩٦.
(٣) القرآن الكريم- سورة الممتحنة، الآية/ ٧.
(٤) القرآن الكريم- سورة الأحزاب، الآية/ ٥٠، وعن زواج النبي صلّى الله عليه وسلّم منها انظر: ابن زبالة- أزواج ص/ ٧٥- ٦، ابن عبد البر- الاستيعاب ٤/ ٤٠٧.
(٥) مسلم- الصحيح، ٢/ ١٠٤٦، أحمد- المسند ٦/ ٨٣٤، برواية أبي يعلى عن طريق أنس.

(٦) أورد ابن سعد في طبقاته (٨/ ١٠٠) رواية مرسلة ذكر فيها أن عائشة وحفصة (رضي الله عنهما) كانتا تنالان من صفية وأن النبي صلّى الله عليه وسلّم علمها أن ترد عليهن بأن أباها هارون صلّى الله عليه وسلّم وعمها موسى صلّى الله عليه وسلّم وزوجها محمد صلّى الله عليه وسلّم. ونقل الشامي في سبل الهدى (١١/ ٢١٦) خبرا عن غضب النبي صلّى الله عليه وسلّم.
(٧) كان النبي صلّى الله عليه وسلّم قد خاصم زينب بنت جحش وقاطعها قرابة ثلاثة أشهر بسبب أنها عرّفتها «باليهودية» في حضرته صلّى الله عليه وسلّم، وقد ورد ذلك في رواية البزار والضياء المقدسي في صحيحه عن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه-، والبزار بسند جيد عن أنس بن مالك- رضي الله عنه-، (الهيثمي- مجمع الزوائد ٤/ ٣٣٤) ، ومنها ما أورده ابن أبي خيثمة عن أبي عبيدة معمر بن المثنى (ابن سعد- الطبقات ٤/ ٣٣٤) ، الشامي- سبل الهدى ١١/ ٢١٩- ٢٢٠.
(٨) الشامي- سبل الهدى ١١/ ٢٢٠- ٢٣٣.
جـ ١(ص: ٤١١)

أسماء ست وعشرين من النساء اللاتي ذكرت المرويات المتنوعة، وبعضها صحيح، أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قد عقد عليهن النكاح ثم فارقهن مبينا أسباب ذلك، ذكر البخاري منهن ابنة الجون التي تعوذت من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين أدخلت عليه «١» ، وروى الإمام أحمد وابن أبي خيثمة، خبر الغفارية التي تزوجها النبي صلّى الله عليه وسلّم فلما أدخلت إليه وجد في كشحها بياضا ففارقها ولم يأخذ مما آتاها شيئا «٢» . وروى البخاري عن أبي أسيد خبر زواج النبي صلّى الله عليه وسلّم من أميمة بنت شراحيل ومفارقة النبي صلّى الله عليه وسلّم لها بسبب ذلك «٣» .
ولقد اجتمعت أمهات المؤمنين عند النبي صلّى الله عليه وسلّم في حياته بالمدينة فكان لكل واحدة منهن حجرة صغيرة يدخل إليها من فناء صغير يفضي إلى المسجد من جهته الشرقية ولا شك في أن هذا العدد من الزوجات كان من خصائص النبي صلّى الله عليه وسلّم.

أولاده صلّى الله عليه وسلّم

أولهم القاسم، ثم زينب، ثم رقية، وأم كلثوم، وفاطمة، ثم عبد الله.
وهؤلاء كلهم من خديجة، ولم يولد له من زوجة غيرها، ثم ولد له إبراهيم بالمدينة من سريته مارية سنة ثمان من الهجرة ومات قبل الفطام، وكل أولاده توفي قبله إلا فاطمة فإنها تأخرت بعده بستة أشهر.

أعمامه وعماته صلّى الله عليه وسلّم

منهم سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، والعباس، وأبو طالب، وأبو لهب، والزبير، وعبد الكعبة، والمقوّم، وضرار، وقثم، والمغيرة، والعيداق، وزاد بعضهم العوام ولم يسلم منهم غير حمزة والعباس.
وأما عماته فصفية أم الزبير بن العوام، وعاتكة، وبرّة، وأروى، وأميمة، وأم حكيم البيضاء. أسلم منهن صفية، واختلف في إسلام عاتكة وصحح بعضهم إسلام أروى.
كتابه صلّى الله عليه وسلّم:
أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، والزبير، وعامر بن فهيرة، وعمرو بن العاص، وأبيّ بن كعب، وعبد الله بن الأرقم، وثابت بن قيس بن شماس، وحنظلة بن الربيع الأسدي، والمغيرة بن شعبة، وعبد الله بن رواحة، وخالد بن الوليد، وخالد بن سعد بن العاص، وقيل إنه أول من كتب له صلّى الله عليه وسلّم- ومعاوية بن أبي سفيان، وزيد بن ثابت، وكان ألزمهم لهذا الشأن وأخصهم به.
كتبه صلّى الله عليه وسلّم إلى أهل الإسلام في الشرائع:

فمنها كتابه في الصدقات الذي كان عند أبي بكر- وكتبه أبو بكر لأنس بن مالك لما وجهه إلى البحرين- ومنها كتابه إلى أهل اليمن وهو الكتاب الذي رواه أبو بكر بن عمرو بن حزم، ورواه الحاكم في صحيحه والنسائي وغيرهما وهو كتاب عظيم فيه أنواع من الفقه، ومنها كتابه إلى بني زهير، وكتاب كان عند عمر بن الخطاب في نصب الزكاة وغيرها.

---

(١) البخاري- الصحيح، حديث (٥٢٥٥) .
(٢) الشامي- سبل الهدى ١١/ ٢٢٣.
(٣) المرجع السابق ١١/ ٢٢٤.
جـ ١(ص: ٤١٢)

كتبه صلّى الله عليه وسلّم ورسله إلى الملوك

لما رجع صلّى الله عليه وسلّم من الحديبية كتب إلى ملوك الأرض وأرسل إليهم رسله فكتب إلى ملك الروم. فقيل له: إنهم لا يقرءون كتابا إلّا إذا كان مختوما، فاتخذ خاتما من فضة ونقش عليه ثلاثة أسطر: «محمد» سطر، و «رسول» سطر، و «الله» سطر. وختم به الكتب إلى الملوك. وبعث بها ستة نفر في يوم واحد في المحرم من سنة سبع. فأولهم عمرو بن أمية الضمري بعثه إلى النجاشي- واسمه أصحمة وتفسيره بالعربية عطية- وقد روى أنه عظم كتاب النبي صلّى الله عليه وسلّم ثم أسلم وشهد شهادة الحق وكان من أعلم الناس بالإنجيل. وأنه صلى عليه النبي صلّى الله عليه وسلّم يوم مات بالمدينة وهو بالحبشة، هكذا قال جماعة منهم الواقدي وابن سعد، وليس كما قال هؤلاء فإن أصحمة النجاشي الذي صلى عليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ليس هو الذي كتب إليه وهذا الثاني لا يعرف إسلامه بخلاف الأول فإنه مات مسلما، وقد روى مسلم في صحيحه من حديث قتادة عن أنس قال: كتب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشي، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وقال محمد بن حزم: إن هذا النجاشي الذي بعث إليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عمرو بن أمية الضمري لم يسلم، والأول هو اختيار ابن سعد وغيره. والظاهر قول ابن حزم.

وبعث دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر ملك الروم- واسمه هرقل وهمّ بالإسلام وكاد ولم يفعل. وقد روى ابن حبان في صحيحه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم «من ينطلق بصحيفتي إلى قيصر وله الجنة؟» فقال رجل من القوم: وإن لم يقبل؟ قال: «وإن لم، يقبل» فوافق قيصر وهو يأتي بيت المقدس فرمى بالكتاب على البساط وتنحى فنادى قيصر من صاحب الكتاب فهو آمن! قال أنا. قال: فإذا قدمت فأتني، فلما قدم أتاه فأمر قيصر بأبواب قصره فغلقت، ثم أمر مناديا ينادي: ألا إن قيصر قد اتبع محمدا وترك النصرانية فأقبل جنده وقد تسلحوا فقال لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: قد ترى أني خائف على مملكتي! ثم أمر مناديه فنادى: ألا إن قيصر قد رضي عنكم وكتب إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إني مسلم وبعث إليه بدنانير، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم «كذب عدو الله ليس بمسلم وهو على النصرانية» وقسم الدنانير.

وبعث عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى- واسمه أبرويز بن هرمز بن أنوشروان- فمزق كتاب النبي صلّى الله عليه وسلّم! فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم: «اللهم مزق ملكه» فمزق ملكه وملك قومه.

وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس- واسمه جريج بن مينا ملك الإسكندرية عظيم القبط- فقال خيرا وقارب الأمر ولم يسلم وأهدى للنبي صلّى الله عليه وسلّم مارية وأختيها سيرين وقيسرى، فتسرى مارية، ووهب سيرين لحسان بن ثابت، وأهدى له جارية أخرى وألف مثقال ذهبا وعشرين ثوبا من قباطي مصر وبغلة شهباء هي دلدل وحمارا أشهب- وهو عفير- وغلاما خصيّا يقال له مابور- وقيل هو ابن عم مارية- وفرسا- وهو اللزاز- وقدحا من زجاج وعسلا.

جـ ١(ص: ٤١٣)

وبعث شجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ملك البلقاء، وبعث سليط بن عمرو إلى هوذة ابن علي الحنفي باليمامة فأكرمه، وقيل بعثه ابن هوذة إلى ثمامة بن أثال الحنفي فلم يسلم هوذة وأسلم ثمامة بعد ذلك.
فهؤلاء الستة قيل هم الذين بعثهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في يوم واحد، وبعث عمرو بن العاص في ذي القعدة سنة ثمان إلى جيفر وعبد ابني الجلندي الأزديين بعمان فأسلما وصدقا وخليا بين عمرو وبين الصدقة والحكم فيما بينهم، فلم يزل فيما بينهم حتى بلغته وفاة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.
وبعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى العبدي ملك البحرين قبل منصرفه من الجعرانة، وقيل قبل الفتح فأسلم وصدق.
وبعث المهاجر بن أبي أمية المخزومي إلى الحارث بن عبد كلال الحميري باليمن، فقال: سأنظر في أمري.
وبعث أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل إلى اليمن عند انصرافه من تبوك، وقيل سنة عشر من ربيع الأول داعيين إلى الإسلام فأسلم عامة أهلها طوعا من غير قتال ثم بعث بعد ذلك عليّ بن أبي طالب إليهم وعند عودته وافى النبي صلّى الله عليه وسلّم بمكة في حجة الوداع.
وبعث جرير بن عبد الله البجلي إلى ذي الكلاع الحميري وذي عمرو يدعوهما إلى الإسلام فأسلما وتوفي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وجرير عندهم، وبعث عمرو بن أمية الضمري إلى مسيلمة الكذاب بكتاب وكتب إليه بكتاب آخر مع السائب بن العوام أخي الزبير فلم يسلم، وبعث إلى فروة بن عمرو الجذامي يدعوه إلى الإسلام، وقيل لم يبعث إليه، وكان فروة عاملا لقيصر بمعان فأسلم وكتب إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم بإسلامه.
وبعث إليه هدية مع مسعود بن سعد- وهي بغلة شهباء يقال لها فضة- وفرس يقال له الضرب، وحمار يقال له يعفور. وبعث أثوابا وقباء سندس مخوص بالذهب فقبل هديته ووهب لمسعود بن سعد اثنتي عشرة أوقية ونشا. وبعث عياش بن أبي ربيعة المخزومي بكتاب إلى الحارث ومسروح ونعيم بن عبد كلال من حمير.

مؤذّنوه صلّى الله عليه وسلّم

كانوا أربعة اثنان بالمدينة، بلال بن رباح، وهو أول من أذن لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وعمرو بن أم مكتوم القرشي العامري الأعمى وبقباء سعد القرظ، مولى عمار بن ياسر، وبمكة أبو محذورة واسمه أوس بن مغيرة الجمحي.
وكان أبو محذورة يرجّع الأذان ويثني الإقامة وبلال لا يرجع ويفرد الإقامة.
أمراؤه صلّى الله عليه وسلّم:
منهم باذان بن ساسان أمّره رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على أهل اليمن كلّها بعد كسرى وأول من أسلم من ملوك العجم، ثم أمّر بعد موت باذان ابنه شهر بن باذان على صنعاء وأعمالها، ثم قتل شهر فأمر خالد بن سعيد بن العاص.
وولى المهاجر بن أبي أمية المخزومي كندة والصدف فتوفى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ولم يسر إليها فبعثه أبو بكر لقتال ناس من المرتدين.
جـ ١(ص: ٤١٤)

وولى زياد بن أمية الأنصاري حضر موت. وولى أبا موسى الأشعري زبيد وعدن وزمع والساحل، وولى معاذ ابن جبل الجند، وولى أبا سفيان صخر بن حرب نجران، وولى ابنه يزيد تيما، وولى عتاب بن أسيد مكة وإقامة الموسم بالحج بالمسلمين سنة ثمان، وله دون العشرين سنة، وولى علي بن أبي طالب الأخماس باليمن والقضاء بها.
وولى عمرو بن العاص عمان وأعمالها، وولى الصدقات جماعة كثيرة لأنه كان لكل قبيلة وآل رجل يقبض صدقاتها، وولى أبا بكر إقامة الحج سنة تسع وبعث في أثره عليّا يقرأ على الناس سورة براءة.
حرسه صلّى الله عليه وسلّم:
فمنهم سعد بن معاذ حرسه يوم بدر حين نام في العريش، ومحمد بن مسلمة حرسه يوم أحد، والزبير بن العوام حرسه يوم الخندق.
ومنهم عباد بن بشر وهو الذي كان على حرسه.
وحرسه جماعة آخرون غير هؤلاء، فلما نزل قوله تعالى: وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ استغنى عن الحرس.

شعراؤه صلّى الله عليه وسلّم

كان من شعرائه الذين يذبون عن الإسلام كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت- وكان أشدهم على الكفار حسانا- وكان كعب يعيرهم بالكفر والشرك، وكان خطيبه ثابت بن قيس بن شماس.
سلاحه وأثاثه صلّى الله عليه وسلّم:
كان له تسعة أسياف منها ذو الفقار- وكان لا يكاد يفارقه، وكانت قائمته وقبيعته وحلقته وذؤابته وبكراته ونعله من فضة، وسبعة أدرع، وست قسيّ، وترس يقال له الفتق، وترس يقال له الزلوق، وخمسة أرماح، وحربة يقال لها النبعة، وأخرى كبيرة تدعى البيضاء، وأخرى صغيرة شبه العكاز يمشي بها بين يديه في الأعياد وتركز أمامه فيتخذها سترة يصلي إليها، وكان يمشي بها أحيانا.
وكان له مغفر من حديد يقال له الموشح ومغفر آخر يقال له المسبوغ، وكان له ثلاث جبات يلبسها في الحرب، قيل فيها جبة سندس أخضر، وكان له راية سوداء. وفي سنن أبي داود عن رجل من الصحابة قال: رأيت راية رسول الله صلّى الله عليه وسلّم صفراء.
وكان له ألوية بيضاء، وربما جعل فيها الأسود، وكان له فسطاط يسمى الكن، ومحجن يمشي به ويركب به ويعلقه بين يديه على بعيره.
وكان له قدح مضبب بسلسلة فضة، وقدح من قوارير، ومدهن، وربعة فيها المرآة والمشط والمقراضان والسواك، وسرير قوائمه من ساج، وفراش من أدم حشوه ليف.
وكان له مائة شاة وكان لا يريد أن تزيد كلما ولد له الراعي بهمة ذبح مكانها شاة وغنم يوم بدر جملا مهريّا لأبي جهل في أنفه برة من فضة فأهداه يوم الحديبية ليغيظ بن المشركين.
جـ ١(ص: ٤١٥)

شمائل الرسول صلّى الله عليه وسلّم

الصفات الخلقيّة لسيد المرسلين صلّى الله عليه وسلّم
ممّا لا شكّ فيه أنّ الأنبياء والرّسل عليهم الصّلاة والسّلام يمثّلون الكمال الإنسانيّ في أرقى صوره فهم في غاية الكمال في خلقهم وخلقهم، أطهر البشر قلوبا، وأزكاهم أخلاقا، وأجودهم قريحة، اختارهم الله واصطفاهم لنفسه واللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ «١» .
فلم يكن بدعا من الأنبياء أن يكون كلّ ما عليه نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم من الخلق والتّكوين مسترعيا للأنظار؛ فكما هو قمّة الكمال والجمال في خلقه، كذلك هو قمّة الجمال والكمال في خلقه، ولا شكّ أنّ ذلك التناسق والجمال الجسميّ له أثره الكبير في الدّعوة والاستجابة لها «٢» ، فكم من رجل

دخل في الإسلام بمجرّد رؤيته رسول الهدى صلّى الله عليه وسلّم ومشاهدة نور وجهه الشّريف؟. فهذا عبد الله بن سلام حبر يهود وأعلمهم بالتّوراة يقول: «لمّا قدم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المدينة انجفل «٣» النّاس إليه، وقيل قدم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم- ثلاث مرّات- فجئت في النّاس لأنظر إليه فلمّا تأمّلت وجهه واستثبتّه «٤» عرفت أنّ وجهه ليس بوجه كذّاب..» «٥» ، وهذا على سبيل المثال لا الحصر.

فرسولنا صلّى الله عليه وسلّم كان أحسن النّاس وأجمل النّاس، لم يصفه واصف قطّ إلّا شبّهه بالقمر ليلة البدر، ولقد كان يقول قائلهم: لربّما نظرنا إلى القمر ليلة البدر فنقول: هو أحسن في أعيننا من القمر، أحسن النّاس وجها، وأنورهم لونا، يتلألأ تلألؤ الكوكب، ولقد وصفه أبو بكر الصّدّيق- رضي الله عنه- فقال:

أمين مصطفى للخير يدعو ... كضوء البدر زايله «٦» الظّلام

وكان عمر بن الخطّاب- رضي الله عنه- كثيرا ما ينشد قول زهير بن أبي سلمى حين يقول لهرم بن سنان:

---

(١) سورة الأنعام: آية (١٢٤) .

(٢) خاتم النبيين- للشيخ محمد أبو زهرة (١١/ ٣١٩، ٣٢٠) باختصار وتصرف.

(٣) انجفل: أسرع.

(٤) استثبته: استثبت الشيء. إذا تحققته وتبينته. قاله ابن الأثير في جامع الأصول (٩/ ٥٥١) .

(٥) رواه الترمذي برقم (٢٤٨٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه برقم (١٣٣٤) والدارمي برقم (١٤٦٨) ، والحاكم (٣/ ١٣) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٦) زايله: أي بارحه وفارقه. والمزايلة المفارقة. انظر لسان العرب (١١/ ٣١٧) .

جـ ١(ص: ٤١٦)

لو كنت من شيء سوى بشر ... كنت المضيء لليلة البدر «١»

فيقول عمر- رضي الله عنه- ومن سمع ذلك: كان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم كذلك ولم يكن كذلك غيره. وكذلك قالت عاتكة بنت عبد المطّلب، بعد ما سار من مكّة مهاجرا فجزعت عليه بنو هاشم فانبعثت تقول:

عينيّ جودا بالدّموع السّواجم «٢» ... على المرتضى كالبدر من آل هاشم

على المرتضى للبرّ والعدل والتّقى ... وللدّين والدّنيا بهيم «٣» المعالم

على الصّادق الميمون ذي الحلم والنّهى ... وذي الفضل والدّاعي لخير التّراحم

فشبّهته بالبدر ونعتته بهذا النّعت وإنّها لعلى دين قومها.

فهذه نماذج- وهي قلّ من كثر- لما وصفه به الواصفون، ممّا يدلّ على جماله وبهائه وملاحته صلّى الله عليه وسلّم.

صفة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم

وردت أحاديث جامعة شاملة تضمّنت صفات خلقيّة عديدة لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم كما وردت أحاديث أخرى تقتصر على صفة معيّنة أو أكثر ولكنّها لا تصل إلى درجة الشّمول والجمع.

وصف جامع:

وردت بعض الأحاديث والآثار الّتي تتضمّن وصفا شاملا للرّسول صلّى الله عليه وسلّم نذكر منها مايلي:

١- حديث أمّ معبد: عن حبيش بن خالد «٤» رضي الله عنه: أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين أخرج من مكّة مهاجرا إلى المدينة، هو وأبو بكر ومولى أبي بكر عامر بن فهيرة، ودليلهما اللّيثي: عبد الله بن أريقط- رضي الله عنهم- مرّوا على خيمتي أمّ معبد الخزاعيّة- وكانت برزة «٥» جلدة تحتبي بفناء القبّة، ثمّ تسقي وتطعم فسألوها لحما، وتمرا،

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى (ص ٩٥) .
(٢) السواجم: انسجم الدمع: أي انصب وسال. انظر لسان العرب (١٢/ ٢٨٠- ٢٨١) .
(٣) بهيم المعالم: أي ليس فيه شيء من الأمراض والعاهات مثل العمى والعور والعرج وغير ذلك من صنوف العاهات. انظر لسان العرب (١٢/ ٥٩) .
(٤) هو أخو أم معبد واسمها عاتكة بنت خالد.
(٥) برزة: قال ابن الأثير: يقال امرأة برزة إذا كانت كهلة لا تحتجب احتجاب الشواب وهي مع ذلك عفيفة عاقلة تجلس للناس وتحدثهم من البروز وهو الظهور والخروج. النهاية (١/ ١١٧) .
جـ ١(ص: ٤١٧)

ليشتروه منها، فلم يصيبوا عندها شيئا من ذلك، وكان القوم مرملين «١» مسنتين «٢» . فنظر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى شاة في كسر الخيمة «٣» ، فقال: «ما هذه الشّاة يا أمّ معبد؟» ، قالت: شاة خلّفها الجهد عن الغنم. قال: «أبها من لبن؟» ، قالت: هي والله أجهد من ذلك. قال: «أتأذنين لي أن أحلبها؟» . قالت: بأبي وأمّي! إن رأيت بها حلبا فاحلبها.
فدعا بها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فمسح بيده ضرعها، وسمّى الله تعالى، ودعا لها في شاتها، فتفاجّت «٤» عليه ودرّت واجترّت. ودعا بإناء يربض «٥» الرّهط، فحلب فيه ثجّا «٦» حتّى علاه البهاء»
، ثمّ سقاها حتّى رويت، وسقى أصحابه حتّى رووا، ثمّ شرب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم آخرهم، ثمّ أراضوا «٨» عللا بعد نهل «٩» ، ثمّ حلب فيه ثانيا بعد بدء حتّى ملأ الإناء، ثمّ غادره عندها، ثمّ بايعها، وارتحلوا عنها.
فقلّما لبثت حتّى جاءها زوجها أبو معبد يسوق أعنزا عجافا يتساوكن «١٠» هزلا ضحا «١١» مخّهنّ قليل.
فلمّا رأى أبو معبد اللّبن عجب وقال: من أين لك هذا اللّبن يا أمّ معبد، والشّاء عازب حيال «١٢» ، ولا حلوب في البيت؟. فقالت: لا والله إلّا أنّه مرّ بنا رجل مبارك من حاله كذا وكذا، قال: صفيه لي يا أمّ معبد.

(١) مرملين: أي نفذ زادهم. النهاية (٢/ ٢٦٥) .
(٢) مسنتين: أي مجدبين، أصابتهم السّنة وهي القحط والجدب. النهاية (٢/ ٤٠٧) .
(٣) كسر الخيمة: أي جانبها وتفتح الكاف وتكسر. النهاية (٤/ ١٧٢) .
(٤) فتفاجت عليه: أي فتحت ما بين رجليها للحلب، والتفاج المبالغة في تفريج ما بين الرجلين. النهاية (٣/ ٤١٢) .
(٥) يربض الرهط: أي يرويهم، يثقلهم حتى يناموا ويمتدوا على الأرض. والرهط: ما بين الثلاثة إلى العشرة. البداية والنهاية (٢/ ١٨٤، ٢٨٣) .
(٦) ثجا: أي لبنا سائلا كثيرا. النهاية (١/ ٢٠٧) .
(٧) حتى علاه البهاء: قال ابن قتيبة: يريد علا الإناء بهاء اللبن وهو وبيص رغوته يريد أنه ملأها. دلائل النبوة (١/ ٢٨٢) .
(٨) ثم أراضوا: قال ابن قتيبة: يريد أنهم شربوا حتى رووا فنقعوا بالري. دلائل النبوة (١/ ٢٨٢) .

(٩) عللا بعد نهل: المعنى ارتووا من الشرب مرة بعد مرة، فالنهل الشرب الأول، والعلل الشرب الثاني. منال الطالب ص ١٨٠.
(١٠) يتساوكن هزلا: يقال تساوكت الإبل إذا اضطربت أعناقها من الهزال. أراد أنها تتمايل من ضعفها. النهاية (٢/ ٤٢٥) . ويروى تشاركن هزلا أي عمهن الهزال، منال الطالب (١٨١) .
(١١) ضحا. قال ابن الأثير: وقوع هذه الكلمة بين صفات الغنم بعيد، وكان يغلب على الظن أنها تصحيف ومن الرواة من أسقطها من الحديث، ثم وجدت الحافظ أبا أحمد العسال قد روى «يتاركن هزلا مخاخهن قليل» ولا أظن الصحيح إلا كما رواه، والمخاخ جمع مخ فيكون قد تصحف «مخا» ب «ضحا» ويدل عليه أنه في أكثر النسخ مكتوب بالألف، وقد وصف المخاخ وهو جمع ب «قليل» وهو مفرد لأنه أراد أنها شيء قليل، ومما يبطل «ضحا» أنهم كانوا عندها في القائلة لا في وقت الضحى. انظر منال الطالب ص ١٨٢.
(١٢) عازب حيال: أي بعيدة المرعى لا تأوى إلى المنزل في الليل. و (الحيال) : جمع حائل وهي التي لم تحمل. النهاية (٣/ ٢٢٧) .
جـ ١(ص: ٤١٨)

قالت: رأيت رجلا ظاهر الوضاءة «١» ، أبلج «٢» الوجه، حسن الخلق، لم تعبه نحلة «٣» ، ولم تزر به، صعلة «٤» ، وسيم «٥» قسيم «٦» ، في عينه دعج «٧» ، وفي أشفاره غطف «٨» ، وفي صوته صهل «٩» ، وفي عنقه سطع «١٠» ، وفي لحيته كثاثة «١١» أزجّ «١٢» أقرن «١٣» إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلّم سما وعلاه البهاء، أجمل النّاس وأبهاه من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب. حلو المنطق، فصل، لا نزر ولا هزر «١٤» ، كأنّ منطقه خرزات نظم ينحدرن. ربعة لا يأس «١٥» من طول، ولا تقتحمه «١٦» عين من قصر، غصن بين

---

(١) ظاهر الوضاءة: ظاهر الحسن والجمال والنظافة. لسان العرب (١/ ١٩٥) .
(٢) أبلج الوجه: الأبلج: الأبيض الحسن الواسع الوجه. والمعنى: مشرق الوجه مضيئه. والبلج أيضا تباعد ما بين الحاجبين أي عدم التقائهما. ولم ترد أم معبد بلج الحاجب لأنها وصفته بالقرن والقرن هو التقاء الحاجبين. وقد صرح في غير حديث أم معبد بالبلج وهو عدم التقاء الحاجبين. والجمع بين وصفه بالبلج والقرن: هو أنه صلّى الله عليه وسلّم من شدة إضاءة وجهه لا يظهر الالتقاء الذي بين حاجبيه لخفته. النهاية (١/ ١٥١، ٤/ ٥٤) ، لسان العرب (٢/ ٢١٥) .
(٣) لم تعبه نحلة: أي دقة وهزال. النهاية (٥/ ٢٩) .
(٤) صعلة: هي صغر الرأس، وهي أيضا الدقة والنحول في البدن. البداية والنهاية (٣/ ٣٢) . ويروى صقلة وهي ضمور الخصر وقلة لحمه.
(٥) وسيم: الوسيم: الثابت الحسن. وفلان وسيم أي: حسن الوجه وسيما. انظر لسان العرب (١٢/ ٦٣٧) .
(٦) قسيم: القسامة: الجمال والحسن، ورجل مقسم الوجه: أي جميل كله. انظر لسان العرب (١٢/ ٤٨٢) .
(٧) في عينه دعج: الدعج والدعجة: السواد في العين وغيرها. والمراد أن سواد عينيه كان شديد السواد وقيل: الدعج: شدة سواد العين في شدة بياضها. النهاية (٢/ ١١٩) . لسان العرب (٢/ ٢٧١) .
(٨) وفي أشفاره غطف: الأشفار جمع شفر بالضم، وقد يفتح وهو العين الذي ينبت عليه الشعر. والغطف: هو أن يطول شعر الأجفان ثم ينعطف. النهاية (٢/ ٤٨٤، ٣/ ٣٧٣)) .
(٩) صهل: الصهل: حدة الصوت مع بَحَحٍ. النهاية (٣/ ٣٣٧) ، ولسان العرب (١١/ ٣٨٧) ، ويروى صحل وهو صوت فيه بحة وغلظ.
(١٠) في عنقه سطع: أي ارتفاع وطول. النهاية (٢/ ٣٦٥) .

(١١) وفي لحيته كثاثة: قال ابن منظور: في صفته صلّى الله عليه وسلّم أنه كان كث اللحية. أراد كثرة أصولها وشعرها، وأنها ليست بدقيقة، ولا طويلة، وفيها كثافة. لسان العرب (٢/ ١٧٩) ، النهاية (٤/ ١٥٢) .
(١٢) أزج: الزجج: تقوس في الحاجب مع طول في طرفه وامتداد. قاله ابن الأثير في النهاية (٢/ ٢٩٦) . وقال ابن منظور: الزجج: رقة محط الحاجبين ودقتهما وطولهما وسبوغهما واستقواسهما. وقيل: الزجج: دقة في الحاجبين وطول. انظر لسان العرب (٢/ ٢٨٧) .
(١٣) أقرن: القرن: بالتحريك: اقتران الحاجبين بحيث يلتقي طرفاهما. النهاية (٤/ ٥٤) .
(١٤) لا نزر ولا هزر: النزر: القليل. أي ليس بقليل فيدل على عي، ولا كثير فاسد. (النهاية (٥/ ٤٠) ، وفي رواية ولا هذر، والهذر الكلام الكثير غير المفيد.
(١٥) لا يأس من طول: أي ليس بالطويل الذي يؤيس مباريه عن مطاولته. (دلائل النبوة ١/ ٢٨٤) نقلا عن ابن قتيبة، والنهاية (٥/ ٢٩١) .
(١٦) ولا تقتحمه عين من قصر: أي لا تتجاوزه إلى غيره احتقارا له. وكل شيء ازدريته فقد اقتحمته. النهاية (٤/ ١٩) .
جـ ١(ص: ٤١٩)

غصنين فهو أنضر الثّلاثة منظرا، وأحسنهم قدرا، له رفقاء يحفّون به، إن قال أنصتوا لقوله، وإن أمر تبادروا إلى أمره، محفود «١» محشود «٢» ، لا عابس «٣» ولا مفنّد «٤» صلّى الله عليه وسلّم.
فقال أبو معبد: هو والله صاحب قريش الّذي ذكر لنا من أمره ما ذكر بمكّة، ولقد هممت أن أصحبه. ولأفعلنّ إن وجدت إلى ذلك سبيلا «٥» .
٢- حديث هند بن أبي هالة التّميميّ في صفة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: قال الحسن بن عليّ بن أبي طالب- رضي الله عنهما-:
سألت خالي هند بن أبي هالة التّميميّ عن حلية النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وكان وصّافا له، وأنا أشتهي أن يصف لي منها شيئا لعلّي أتعلّق به فقال: «كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فخما مفخّما، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر، أطول من المربوع «٦» ، وأقصر من المشذّب «٧» عظيم الهامة «٨» ، رجل الشّعر «٩» ، إن انفرقت عقيصته فرق وإلّا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا وفّره «١٠» ، أزهر

---

(١) محفود: المحفود الذي يخدمه أصحابه ويعظمونه ويسرعون في طاعته. النهاية (١/ ٤٠٦) .
(٢) محشود: أي أن أصحابه يخدمونه ويجتمعون إليه. النهاية (١/ ٣٨٨) .
(٣) لا عابس: العابس: الكريه الملقى الجهم المحيا. النهاية (٣/ ١٧١) .
(٤) ولا مفند: المفند هو الذي لا فائدة في كلامه لكبر أصابه. النهاية (٣/ ٤٧٥) .
(٥) حديث أم معبد رواه ابن إسحاق في السيرة. انظر سيرة ابن هشام (٢/ ١٢٩) . وابن سعد في الطبقات (١/ ٢٣٠) . والحاكم في المستدرك (٣/ ٩- ١١) ، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ورواه أبو نعيم في دلائل النبوة (٢٨٣- ٢٨٧) . والبيهقي في دلائل النبوة (١/ ٢٧٦- ٢٨٠) . ورواه كذلك الطبراني وابن عساكر في تاريخ دمشق. انظر تهذيب تاريخ دمشق (١/ ٣٢٦) . وابن عبد البر في كتابه الاستيعاب. انظر هامش الإصابة (٤/ ٤٩٥) . قال الحافظ ابن كثير: وقصتها (أم معبد) مشهورة مروية من طرق يشد بعضها بعضا. انظر النهاية (٣/ ١٨٨) . وقال الحافظ ابن حجر: أم معبد: الخزاعية التي نزل عليها النبي صلّى الله عليه وسلّم لما هاجر، مشهورة بكنيتها واسمها عاتكة بنت خالد. انظر الإصابة (٤/ ٤٩٧) . قال محققا كتاب زاد المعاد عبد القادر وشعيب الأرناؤوط: حديث حسن. انظر حاشية زاد المعاد (٣/ ٥٧) .
(٦) المربوع: المعتدل القامة، وسطا بين الطويل والقصير.

(٧) المشذب: الطويل البائن الطول، مع نقص في لحمه، والمراد أنه ليس بنحيف طويل، بل طوله وعرضه متناسبان على أتم صفة.
(٨) الهامة: الرأس، وعظم الرأس دليل على وفور العقل.
(٩) الشعر الرجل: الذي ليس شديد الجعودة، ولا شديد السبوطة بل بينهما.
(١٠) العقيصة: الشعر المجموع كهيئة المضفور، من العقص: العطف واللى وقيل: هي الخصلة من الشعر اذا عقصت. والانفراق: الفصل بين الشيئين، أي كان لا يفرق شعره إلا أن ينفرق هو لنفسه، ووفّره: إذا أعفاه عن الفرق، يعني أن شعره إذا فرقه تجاوز شحمة أذنيه، وإذا ترك فرقه لم يجاوزها.
جـ ١(ص: ٤٢٠)

اللّون»
واسع الجبينين «٢» أزجّ الحواجب «٣» سوابغ في غير قرن «٤» بينهما عرق يدرّه الغضب «٥» أقنى العرنين، له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمّله أشمّ «٦» كثّ اللّحية «٧» سهل الخدّين «٨» ضليع الفم «٩» ، أشنب «١٠» ، مفلّج الأسنان «١١» دقيق المسربة «١٢» كأنّ عنقه جيد دمية «١٣» في صفاء الفضّة، معتدل الخلق «١٤» ، بادنا متماسكا «١٥» ، سواء البطن والصّدر، عريض الصّدر «١٦» ، بعيد ما بين المنكبين «١٧» ضخم الكراديس «١٨» ، أنور المتجرّد «١٩» موصول ما بين اللّبّة والسّرّة- بشعر يجري كالخطّ «٢٠» ، عاري الثّديين والبطن ممّا سوى ذلك «٢١» أشعر الذّراعين والمنكبين وأعالي الصّدر، طويل

---

(١) اللون الأزهر: الأبيض المضيء المستنير.
(٢) الجبينان: ما عن جانبي الجبهة من مقدم الرأس.
(٣) الزجج: دقة الحاجبين وسبوغهما إلى محاذاة آخر العين مع تقوس خلقة، وقد تفعله النساء تكلفا، وقد نهى عنه.
(٤) القرن: أن يلتقي طرفاهما مما يلي أعلى الأنف، وهو غير محمود عند العرب، والمراد أن حاجبيه قد سبغا وامتدا حتى كادا يلتقيان ولم يلتقيا. والسوابغ جمع سابغ: وهو التام الطويل.
(٥) يدره الغضب: يحركه ويظهره، كان إذا غضب امتلأ ذلك العرق دما.
(٦) العرنين: الأنف، والقنا: طول الأنف ودقة أرنبته مع ارتفاع في وسط قصبته، والشمم: ارتفاع رأس الأنف وإشراف الأرنبة قليلا، واستواء أعلى القصبة، والمراد أنه كان يحسب لحسن قناه قبل التأمل أشم، فليس قناه بفاحش مفرط، بل يميل يسيرا إلى الشمم.
(٧) الشعر الكث: الكثيف المتراكب من غير طول ولارقة.
(٨) سهل الخدين: أي ليس في خديه نتوّ وارتفاع، وقيل أراد أن خديه أسيلان، قليلا اللحم، رقيقا الجلد.
(٩) الضليع الفم: العظيم الواسع.
(١٠) الشنب: رقة الأسنان ودقتها، وتحدد أطرافها.
(١١) الفلج: تباعد ما بين الثنايا والرباعيات.
(١٢) المسربة بضم الراء: ما دق من شعر الصدر، سائلا إلى السرة.
(١٣) الجيد: العنق، وإنما ذكرهما لئلا يتكرر لفظ واحد، والدمية: الصورة المصورة في جدار أو غيره.
(١٤) اعتدال الخلق: تناسب الأعضاء والأطراف، وألا تكون متباينة مختلفة في الدقة والغلظ، والصغر والكبر، والطول والقصر.
(١٥) البادن: الضخم التام اللحم، والمتماسك: الذي لحمه ليس بمسترخ ولا متهدل.
(١٦) سواء البطن والصدر: أي متساويهما، يعني أن بطنه غير خارج فهو مساو لصدره، وصدره عريض فهو مساو لبطنه.
(١٧) المنكبان: أعلى الكتفين، وبعد ما بينهما يدل على سعة الصدر والظهر.

(١٨) الكراديس: جمع كردوس وهو رأس كل عظم كبير، وملتقى كل عظمين ضخمين، كالمنكبين والمرفقين، والوركين والركبتين، ويريد به ضخامة الأعضاء وغلظها.
(١٩) المتجرد والمجرد: ما كشف عنه الثوب من البدن، يعني أنه كان مشرق الجسد نير اللون.
(٢٠) الأشعر: الذي عليه الشعر من البدن، واللّبة: الوهدة التي في أعلى الصدر، وفي أسفل الحلق بين الترقوتين.
(٢١) عاري الثديين والبطن مما سوى ذلك: أي أن ثدييه وبطنه ليس عليها شعر سوى المسربة.
جـ ١(ص: ٤٢١)

الزّندين «١» ، رحب الرّاحة «٢» ، سبط القصب، شثن الكفّين والقدمين «٣» ، سائل الأطراف، خمصان الأخمصين «٤» مسيح القدمين ينبو عنهما الماء «٥» إذا زال زال قلعا «٦» يخطو تكفّؤا، ويمشي هونا، ذريع المشية «٧» إذا مشى كأنّما ينحطّ من صبب «٨» ، وإذا التفت التفت جميعا «٩» خافض الطّرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السّماء، جلّ نظره الملاحظة «١٠» يسوق أصحابه، ويبدأ من لقيه بالسّلام «١١» قلت: صف لي منطقه.
قال: كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم متواصل الأحزان، دائم الفكر، ليست له راحة، طويل السّكت لا يتكلّم في غير حاجة، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه، ويتكلّم بجوامع الكلم، فصلا لا فضول ولا تقصير١» ، دمثا ليس

---

(١) الزندان: العظمان اللذان يليان الكف من الذراع، رأس أحدهما يلي الإبهام، ورأس الآخر يلي الخنصر.
(٢) الراحة: الكف، ورحبها: سعتها وهو دليل الجود، كما أن ضيقها وصغرها دليل البخل.
(٣) الشثن: الغليظ الأطراف والأصابع وكونها سائلة، أي ليست بمنعقدة ولا متجعدة، فهي مع غلظها سهلة سبطة، والقصب: جمع القصبة وهي كل عظم أجوف فيه مخ، والسبط: الممتد في استواء، ليس فيه تعقد ولا نتوء، ويوصف به الشعر والأعضاء والجلد.
(٤) الأخمص من القدم الموضع الذي لا يصل إلى الأرض منها عند الوطء، والخمصان المبالغ منه، أي أن ذلك الموضع من رجله شديد التجافي عن الأرض.
(٥) مسيح القدمين: أي أن ظاهرهما ممسوح غير منعقد، فإذا صب عليهما الماء مر سريعا لملاستهما فينبو عنهما الماء ولا يقف.
(٦) قلعا، ويروى قلعا، ويروى قلعا: والتقلع من الأرض قريب بعضه من بعض، أراد أنه كان يستعمل التثبت ولا يبين منه في هذه الحال استعجال ومبادرة شديدة، وقد جاءت صفته في حديث آخر «إذا مشى تقلع» أراد به قوة مشيه، وأنه كان يرفع رجليه من الأرض رفعا قويّا، لا كمن يمشي اختيالا ويقارب خطوه فإن ذلك من مشي النساء ويوصفن به.
(٧) التكفؤ: تمايل الماشي إلى قدام، والأصل في التكفؤ إذا كان مهموزا أن يكون بضم الفاء وإذا كان معتلا (أي بتسهيل الهمزة) فيكون بكسرها. أفاده ابن الأثير في منال الطالب، والهون: المشي في رفق ولين غير مختال ولا معجب، والذريع: السريع أي أنه كان واسع الخطو فيسرع مشيه.
(٨) الصبب: الموضع المنحدر من الأرض، وذلك دليل على سرعة مشيه لأن المنحدر لا يكاد يثبت في مشيه.
(٩) وإذا التفت التفت جميعا: أي لم يكن يلوي عنقه ورأسه إذا أراد أن يلتفت إلى ورائه، فعل الطائش العجل، إنما يدير بدنه كله وينظر، وقيل أراد أنه كان لا يسارق النظر.
(١٠) الطرف: العين، خفض الطرف: ضد رفعه، وهو الغض منه والإطراق، جل الشيء: معظمه وأكثره، الملاحظة: أن ينظر الرجل بلحظ عينه وهو شقها الذي يلي الصدغ والأذن، ولا يحدق إلى الشيء تحديقا، و «نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء» ، تفسير لخفض الطرف والملاحظة.
(١١) يسوق أصحابه: أي يقدمهم أمامه، ويمشي وراءهم.

(١٢) تواصل أحزانه، ودوام فكره، وعدم راحته: لاهتمامه بأمر الدين والقيام بما بعث به وكلف تبليغه وخوفه من أمور الآخرة. والسكت: السكوت، والأشداق: جمع شدق وهو جانب الفم وإنما يتكلم الرجل بأشداقه لرحبها وسعتها، والعرب تمتدح بذلك. وجوامع الكلم: هي القليلة الألفاظ الكثيرة المعاني، والقول الفصل: هو البين الظاهر المحكم الذي لا يعاب قائله، والفضول من الكلام: ما زاد عن الحاجة وفضل.
جـ ١(ص: ٤٢٢)

بالجافي ولا المهين «١» ، يعظّم النّعمة وإن دقّت ولا يذمّ منها شيئا، غير أنّه لم يكن يذمّ ذواقا ولا يمدحه «٢» ، ولا تغضبه الدّنيا ولا ما كان منها، فإذا تعوطي الحقّ لم يعرفه أحد، ولم يقم لغضبه شيء حتّى ينتصر له «٣» ، لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها، إذا أشار، أشار بكفّه كلّها، وإذا تعجّب قلبها، وإذا تحدّث اتّصل بها فيضرب بباطن راحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى «٤» ، فإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غضّ طرفه «٥» ، جلّ ضحكه التّبسّم ويفترّ عن مثل حبّ الغمام «٦» .
قال الحسن: فكتمتها الحسن زمانا، ثمّ حدّثته فوجدته قد سبقني إليه فسأله عمّا سألته ووجدته قد سأل أباه- يعني عليّا كرّم الله وجهه- عن مدخله ومخرجه وشكله «٧» فلم يدع منها شيئا، فقال: كان دخوله لنفسه مأذونا له في ذلك، فكان إذا أوى إلى منزله جزّأ دخوله ثلاثة أجزاء: جزءا لله عزّ وجلّ، وجزءا لأهله، وجزءا لنفسه، ثمّ جزّأ جزءه بينه وبين النّاس، فيردّ ذلك على العامّة بالخاصّة، ولا يدّخر عنهم شيئا «٨» .
وذكر دخول أصحابه عليه فقال: يدخلون روّادا ولا يفترقون إلّا عن ذواق، ويخرجون أدلّة «٩» ، وذكر مجلسه فقال: مجلس حلم وحياء، وصبر وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات، ولا تؤبن فيه الحرم، ولا تثنى فلتاته «١٠» ، إذا

---

(١) الدمث: السهل اللين الخلق، والجافي: المعرض المتباعد عن الناس، والمهين: بضم الميم من الإهانة وهي الإذلال والاطراح، أي لا يهين أحدا من أصحابه أو من الناس، وبفتح الميم من المهانة وهي الحقارة والصغر.
(٢) يعظم النعمة: لا يستصغر شيئا أوتيه وإن كان صغيرا، دق الشيء: إذا صغر مقداره، والذواق: اسم ما يذاق باللسان أي لا يصف الطعام بطيب ولا بشاعة.
(٣) «إذا تعوطي الحق لم يعرفه أحد» أي إذا نيل من الحق أو أهمل أو تعرض للقدح فيه تنكر عليهم وخالف عادته معهم حتى لا يكاد يعرفه أحد منهم، ولا يثبت لغضبه شيء حتى ينتصر للحق، والتعاطي: الأخذ والتناول.
(٤) وإذا تحدث اتصل بها: أي أنه كان يشير بكفه إلى حديثه، وجمله فيضرب بباطن راحته.. إلخ تفسير لها.
(٥) أشاح: بالغ في الإعراض وجدّ فيه، أي: إذا غضب لم يكن ينتقم ويؤاخذ، بل يقنع بالإعراض عمن أغضبه، وغض الطرف عند الفرح: دليل على نفي البطر والأشر.
(٦) التبسم: أقل الضحك وأدناه، يفتر: أي يكشف عند التبسم عن أسنانه، من غير قهقهة، والغمام: السحاب، وحبه: البرد.
(٧) الشكل هنا: السيرة والطريقة.
(٨) أوى: رجع، التجزئة: القسمة، والجزء المختص بالله تعالى: هو اشتغاله بعبادته ومناجاته في ليله ونهاره، والجزء المختص بأهله: هو الوقت الذي يصحبهم ويعاشرهم فيه، الجزء المختص بنفسه، هو الذي لا يتعبد فيه ولا يعاشر أهله فقسمه بقسمين بينه وبين الناس «فيرد ذلك على العامة بالخاصة» أراد أن العامة كانت لا تصل إليه في هذا الوقت فكانت الخاصة تخبر العامة بما سمعت منه، فكأنه أوصل الفوائد إلى العامة بالخاصة، وقيل إن الباء في «الخاصة» بمعنى من أي يجعل وقت العامة بعد وقت الخاصة وبدلا منهم.

(٩) الرواد جمع رائد: وهو الذي يتقدم القوم يكشف لهم حال الماء والمرعى قبل وصولهم، ويخرجون أدلة جمع دليل: أي يدلون الناس بما قد علموه منه وعرفوه، يريد أنهم يخرجون من عنده فقهاء، ويروى أدلة جمع دليل: يريد يخرجون من عنده متواضعين متعظين بما سمعوا، «ولا يفترقون إلا عند ذواق» ضرب الذواق مثلا لما ينالون عنده من الخير، أي لا يتفرقون إلا عن علم يتعلمونه، يقوم لهم مقام الطعام والشراب، لأنه يحفظ الأرواح كما يحفظان الأجسام.
(١٠) لا تؤبن: لا تقذف ولا ترمي بعيب، والحرم جمع حرمة وهي المرأة وما يلزم الإنسان حفظه وصونه. لا تثنى فلتاته: أي لا يتحدّث عن مجلسه بهفوة أو زلة إن حدثت فيه من بعض القوم، الفلتات جمع فلتة: وهي هنا الزلة والسقطة، وقيل معناه: أنه لم تكن فيه فلتات فتثنى أي تذاع.
جـ ١(ص: ٤٢٣)

تكلّم أطرق جلساؤه كأنّما على رءوسهم الطّير، فإذا سكت تكلّموا، كان دائم البشر، سهل الخلق، ليّن الجانب، ليس بفظّ ولا غليظ ولا سخّاب في الأسواق، ولا فحّاش ولا عيّاب ولا مدّاح ولا يقبل الثّناء إلّا من مكافيء «١» .
٣- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وكان كأنّ الشّمس تجري في جبهته «٢» . وما رأيت أحدا أسرع في مشيته من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كأنّما الأرض تطوى «٣» له، إنّا لنجهد أنفسنا «٤» وإنّه لغير مكترث «٥» » «٦» .
٤- وعن جابر بن سمرة- رضي الله عنهما- قال: رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في ليلة إضحيان «٧» وعليه حلّة حمراء فجعلت أنظر إليه وإلى القمر، فلهو عندي أحسن من القمر «٨» .
٥- وعن أبي عبيدة بن محمّد بن عمّار بن ياسر، قال: قلت للرّبيّع بنت معوّذ: صفي لي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قالت

---

(١) الإطراق: خفض الرأس وإدامة النظر إلى الأرض بين يديه كأنما على رءوسهم الطير: أراد وصفهم بالسكون والثبات في المجلس لأن الطير لا تسقط إلا على ساكن، والبشر: طلاقة الوجه وبشاشته، والفظ: السيء الخلق، والسخاب: من السخب وهو الضجة واضطراب الأصوات، والفحاش والعياب: مبالغة من الفحش في القول وعيب الناس والوقيعة فيهم. لا يقبل الثناء إلا من مكافيء: أراد أنه كان إذا ابتديء بثناء ومدح كره ذلك، وإذا اصطنع معروفا فأثنى عليه مثن وشكر له قبل ثناءه، وقيل: المعنى أنه لا يقبل الثناء عليه ممن لا يعرف حقيقة إسلامه، ولا يكون من المنافقين الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، وقيل: إنه لا يقبل الثناء إلا من مقارب غير مجاوز حد مثله، ولا مقصر عما رفعه الله إليه، والمكافأة: المجازاة على الشيء، والتكافؤ: التساوي. (الحديث وشرحه في منال الطالب لابن الأثير تحقيق د. محمود الطناحي: ص ١٩٧- ص ٢١٧- مطبعة المدني بالقاهرة نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٩٧٩) .
(٢) وفي رواية البيهقي في دلائل النبوة: «كأن الشمس تجري في وجهه» . قال الحافظ ابن حجر في الفتح: قال الطيبي: شبه جريان الشمس في فلكها بجريان الحسن في وجهه صلّى الله عليه وسلّم، وفيه عكس التشبيه للمبالغة، قال: ويحتمل أن يكون من باب تناهى التشبيه جعل وجهه مقرا ومكانا للشمس. انظر فتح الباري (٦/ ٦٦٢) .
(٣) تطوى له الأرض: أي تقطع مسافتها بسهولة ويسر وسرعة. انظر البداية والنهاية لابن الأثير (٣/ ١٤٦) بتصرف.
(٤) إنا لنجهد أنفسنا: أي نحمل عليها في السير، يقال جهد الرجل في الشيء: أي جد فيه وبالغ. انظر البداية والنهاية لابن الأثير (١/ ٣١٩) .
(٥) وإنه لغير مكترث: أي غير مبال.

(٦) رواه الترمذي برقم (٣٦٤٨) ، والإمام أحمد في المسند (٢/ ٣٥٠، ٣٨٠) وقال أحمد شاكر إسناده صحيح. انظر ترتيب المسند (١٦/ ٢٤٨) برقم (٨٥٨٨) ، ورواه البيهقي في دلائل النبوة (١/ ٢٩٠) .
(٧) إضحيان: قال ابن الأثير: يقال: ليلة إضحيان، وإضحيانة، أي مضيئة مقمرة، النهاية ٣/ ٧٨.
(٨) رواه الترمذي برقم (٢٨١١) وقال: حديث حسن غريب، ورواه الدارمي (١/ ٣٣) . ورواه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٨٦) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. رواه البيهقي في دلائل النبوة (١/ ١٩٦) بهذا اللفظ وفي آخره: « ... فلهو كان في عيني أحسن من القمر» ، وفي لفظ آخر عن جابر بن سمرة « ... فجعلت أماثل بينه وبين القمر» . وأيضا صححه الألباني. انظر مختصر شمائل الترمذي له: ص (٢٧) .
جـ ١(ص: ٤٢٤)

يا بنيّ لو رأيته رأيت الشّمس طالعة «١» .
صفة لون رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:
كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أزهر اللّون وهو الأبيض المستنير النّاصع البياض وهو أحسن الألوان، فلم يكن بالأبيض الأمهق الشّديد البياض «٢» ، ولم يكن بالآدم الشّديد السّمرة وكان بياضه صلّى الله عليه وسلّم مشربا بحمرة. حتّى كان الصّحابة رضي الله عنهم كثيرا ما يتمثّلون بنعت عمّه أبي طالب إيّاه في لونه حيث يقول:
وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال «٣» اليتامى عصمة للأرامل
ويقول كلّ من سمع ذلك: هكذا كان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم.
وهذه طائفة مختارة من وصف الواصفين ونعت النّاعتين لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم ممّن حضره وعاصره تؤكّد وتؤيّد ما ذكر:
- عن ربيعة بن أبي عبد الرّحمن: قال: سمعت أنس بن مالك- رضي الله عنه- يصف النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال:
«كان ربعة «٤» من القوم، ليس بالطّويل ولا بالقصير، أزهر «٥» اللّون، ليس بأبيض أمهق ولا آدم «٦» . ليس بجعد «٧» قطط «٨» ولا سبط «٩» رجل «١٠» .
- عن الجريريّ عن أبي الطّفيل- رضي الله عنه- قال: رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وما على وجه الأرض رجل رآه

---

(١) رواه الدارمي (١/ ٣٣) واللفظ له، والبيهقي في دلائل النبوة (١/ ٢٠٠) بلفظ « ... قالت: يا بني لو رأيته لقلت الشمس طالعة» . قال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٨٠) : رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجاله وثقوا.
(٢) الأمهق هو اللون الذي لا يخالطه شيء من الحمرة وليس بنيّر، وذلك كلون الجص (انظر منال الطالب ص ٢٢٣) .
(٣) ثمال اليتامى: أي الملجأ والغياث والمطعم في الشدة. انظر لسان العرب (١١/ ٩٤) .
(٤) ربعة: بفتح الراء وسكون الباء أي كان متوسطا بين الطول والقصر.
(٥) أزهر اللون: هو الأبيض المستنير وهو أحسن الألوان، والزهرة: البياض النير.
(٦) ولا آدم: الأدمة في الناس السمرة الشديدة.
(٧) ليس بجعد: الجعد بفتح وسكون: الشعر فيه التواء وانقباض.
(٨) القطط: بفتحتين على الأشهر ويجوز كسر ثانيه: الشديد الجعودة.
(٩) ولا سبط رجل: السبط بفتح فكسر: الشعر المسترسل الذي ليس فيه تعقد ولا نتوء أصلا، ورجل: بفتح فكسر ومنهم من يسكن الجيم: أي متسرح. (فالحاصل أن شعره صلّى الله عليه وسلّم لم يكن شديد الجعودة ولا شديد السبوطة بل بينهما) .

(١٠) رواه البخاري. انظر الفتح ٦ (٣٥٤٧) ، ورواه مسلم برقم (٢٣٤٧) .

غيري. قال: فقلت له: فكيف رأيته؟ قال: كان أبيض مليحا مقصّدا «١» » «٢» .
- عن عليّ بن أبي طالب- رضي الله عنه- قال: «كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أبيض مشربا بياضه بحمرة» «٣» .
- عن أبي هريرة- رضي الله عنه-: قال: «كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أبيض، كأنّما صيغ من فضّة» » .
- عن محرّش الكعبيّ- رضي الله عنه- أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم خرج من الجعرانة ليلا فاعتمر ثمّ رجع فأصبح بها كبائت فنظرت إلى ظهره كأنّه سبيكة فضّة «٥» » «٦» .
- عن عائشة- رضي الله عنها-: أنّها تمثّلت بهذا البيت وأبو بكر- رضي الله عنه- يقضي: «٧»
وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ربيع اليتامى عصمة للأرامل «٨» .
فقال أبو بكر- رضي الله عنه-: ذاك والله رسول الله صلّى الله عليه وسلّم «٩» .
- عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ربعة ليس بالطّويل ولا بالقصير حسن

---

(١) مقصدا: هو الذي ليس بجسيم ولا نحيف ولا طويل ولا قصير. وقال شمر: هو نحو الرّبعة. والقصد بمعناه. و (ملح) الشيء، من باب ظرف أي حسن فهو مليح.
(٢) رواه مسلم برقم (٢٣٤٠/ ٩٩) .
(٣) رواه الترمذي مطولا برقم (٣٦٣٨) ، ورواه الإمام أحمد في المسند (١/ ٩٦، ١١٦، ١١٧، ١٣٤) ، وابن سعد في الطبقات (١/ ٤١٠- ٤١٢) ، والحاكم في المستدرك (٢/ ٦٠٦) مطولا وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه بهذه الألفاظ ووافقه الذهبي، ورواه البيهقي في دلائل النبوة (١/ ٢٠٦) ، وأبو داود الطيالسي بلفظ: «كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مشربا وجهه حمرة» . وصحح الحديث كذلك الألباني. انظر صحيح الجامع الصغير برقم (٤٤٩٧) .
(٤) تفرد به الترمذي في الشمائل المحمدية (ص ٢٧) ، وحسنه الألباني. انظر صحيح الجامع برقم (٤٤٩٥) .
(٥) سبيكة فضة: سبك الذهب والفضة بمعنى ذوبه وأفرغه في قالب، والسبيكة: القطعة المذوبة منه. انظر لسان العرب (١٠/ ٤٣٨) والمراد تشبيهه صلّى الله عليه وسلّم- كما في رواية النسائي- أو تشبيه ظهره الشريف بالقطعة من الفضة في البياض والصفاء.
(٦) أبو داود مختصرا برقم (١٩٩٦) . ورواه النسائي (٥/ ١٩٩، ٢٠٠) بلفظ «أن النبي خرج من الجعرانة ليلا كأنه سبيكة فضة فاعتمر ثم أصبح بها كبائت» ، ورواه الإمام أحمد (٣/ ٤٢٦) ، (٤/ ٦٩) ، (٥/ ٣٨٠) واللفظ له. ورواه البيهقي في دلائل النبوة (١/ ٢٠٧) . وصححه الألباني- انظر صحيح سنن أبي داود برقم (١٧٥٨) .
(٧) يقضي. أي في حالة الاحتضار.
(٨) والبيت قاله أبو طالب في قصيدته اللامية المشهورة يمدح فيها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. انظر السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٩١- ٢٩٩) .
(٩) رواه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٧) ، قال الحافظ الهيثمي: رواه أحمد والبزار ورجاله ثقات. انظر مجمع الزوائد (٨/ ٢٧٢) .

الجسم أسمر اللّون «١» ، وكان شعره ليس بجعد ولا سبط إذا مشى يتكفّأ «٢» » «٣» .

- وقال ابن أبي خيثمة- رحمه الله- في صفته صلّى الله عليه وسلّم: «كان أزهر اللّون. والأزهر: الأبيض النّاصع البياض الّذي لا تشوبه حمرة ولا صفرة ولا شيء من الألوان ... » ، وقد نعته بعض من نعته بأنّه كان مشرب حمرة، وقد صدق من نعته بذلك ولكن إنّما كان المشرب منه حمرة ما ضحا للشّمس والرّياح، فقد كان بياضه من ذلك قد أشرب حمرة، وما تحت الثّياب فهو الأبيض الأزهر لا يشكّ فيه أحد ممّن وصفه بأنّه أبيض أزهر، فعنى ما تحت الثّياب فقد أصاب، ومن نعت ما ضحا للشّمس والرياح بأنّه أزهر مشرب حمرة فقد أصاب. ولونه الّذي لا يشكّ فيه: الأبيض الأزهر وإنّما الحمرة من قبل الشّمس والرّياح «٤» .

صفة وجه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأعضائه:

كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أحسن النّاس وجها فكان وجهه كالقمر والشّمس مستديرا. وكان- صلوات الله وسلامه عليه- عظيم العينين. أهدب الأشفار، مشرب العينين حمرة، أشكل أسود الحدقة، أدعج، أكحل العينين، دقيق الحاجبين، سابغهما، أزجّ، أقرن، أبلج واسع الجبين، أغرّ، أجلى كأنّه يتلألأ، وكان العرق في وجهه كاللّؤلؤ، وكان أسيل «٥» الخدّين سهلهما، أقنى «٦» الأنف، ضليع الفم، حسن الثّغر، برّاق الثّنايا، إذا ضحك كاد يتلألأ.

وفيما يلي باقة عطرة من وصف الواصفين لرسول الهدى صلّى الله عليه وسلّم ممّن حضره وشاهده تدلّل على ما ذكرناه.

- عن البراء بن عازب- رضي الله عنهما- قال: «كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أحسن النّاس وجها وأحسنه خلقا «٧»

---

(١) أسمر اللون: قال الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله في شرحه لحديث أنس المتفق عليه: « ... كان أزهر اللون ليس بأبيض أمهق ولا آدم» قال: المراد أنه صلّى الله عليه وسلّم ليس بالأبيض الشديد البياض ولا بالآدم الشديد الأدمة، وإنما يخالط بياضه حمرة، والعرب قد تطلق على من كان كذلك أسمر. ولهذا جاء في حديث أنس: « ... أن النبي صلّى الله عليه وسلّم كان أسمر..» إلى أن قال- رحمه الله-: وتبين من مجموع الروايات أن المراد بالسمرة: الحمرة التي تخالط البياض وأن المراد بالبياض المثبت: ما يخالطه الحمرة، والمنفي: ما لا يخالطه وهو الذي تكره العرب لونه وتسميه أمهق. انظر فتح الباري (٦/ ٦٥٨) .

(٢) إذا مشى يتكفأ: أي يتمايل إلى قدام، وقيل أن يرفع القدم من الأرض ثم يضعها ولا يمسح قدمه على الأرض كمشي المتبختر، كأنما ينحط من صبب أي يرفع رجله من قوة وجلادة والأشبه أن يتكفأ بمعنى صب الشيء دفعة. انظر تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للمباركفوري (٥/ ٤٤٣) .

(٣) رواه الترمذي برقم (١٧٥٤) ، وقال: حديث صحيح، وأصل الحديث في البخاري ومسلم. رواه البخاري. انظر الفتح ١٠ (٥٩٠٦) ، ومسلم برقم (٢٣٣٨) .

(٤) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (١/ ٢٩٩) ، وابن عساكر في تاريخ دمشق. انظر تهذيب تاريخ دمشق (١/ ٣٣٣) وغيرهم.

(٥) أسيل الخد أي قليل اللحم من غير نتوء (منال الطالب ٢٢٣) .

(٦) أقنى. قال في النهاية: القنا في الأنف: طوله ورقة أرنبته مع حدب في وسطه. (النهاية ٤/ ١١٦) .

(٧) وأحسنه خلقا: قال القاضي: ضبطناه خلقا، بفتح الخاء وإسكان اللام هنا، لأن مراده صفات جسمه. قال: أما في حديث أنس فرويناه بالضم لأنه إنما أخبر عن حسن معاشرته. وأما قوله: وأحسنه، فقال أبو حاتم وغيره: هكذا تقول العرب: وأحسنه يريدون وأحسنهم ولكن لا يتكلمون به. انظر شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/ ٩٢) .

ليس بالطّويل الذّاهب ولا بالقصير» «١» .

- وعن أبي إسحاق قال: سئل البراء: «أكان وجه النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم مثل السّيف «٢» ؟. قال: لا، بل مثل القمر» «٣» .
- وسأل رجل جابر بن سمرة- رضي الله عنهما-: «أكان وجه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مثل السّيف؟ قال: لا، بل كان مثل الشّمس والقمر وكان مستديرا» «٤» .
- وعن عليّ بن أبي طالب- رضي الله عنه- قال: «كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ... عظيم العينين أهدب الأشفار مشربا بحمرة» «٥» .- وعن عليّ بن أبي طالب- رضي الله عنه- في نعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: « ... كان أسود الحدقة «٦» أهدب الأشفار «٧» » «٨» .
- وفي حديث يزيد الفارسيّ في رؤيته المناميّة لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم والّتي قصّها على ابن عبّاس- رضي الله عنهما- وأقرّه عليها، جاء في الوصف: « ... رأيت رجلا ... حسن المضحك أكحل «٩» العينين، جميل، دوائر الوجه ... » «١٠» .
- وعن عليّ بن أبي طالب- رضي الله عنه- في صفة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أبيض اللّون

---

(١) رواه البخاري. انظر الفتح ٦ (٣٥٤٩) . ورواه مسلم برقم (٢٣٣٧/ ٩٣) .
(٢) قوله مثل السيف؟ قال: لا بل مثل القمر: قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: كأن السائل أراد أنه مثل السيف في الطول، فرد عليه البراء فقال: «بل مثل القمر» أي في التدوير. ويحتمل أن يكون أراد مثل السيف في اللمعان والصقال فقال: بل فوق ذلك، وعدل إلى القمر لجمعه الصفتين من التدوير واللمعان. وقد أخرج مسلم من حديث جابر بن سمرة «أن رجلا قال له: أكان وجه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مثل السيف؟ قال: لا بل مثل الشمس والقمر مستديرا» . وإنما قال «مستديرا» للتنبيه على أنه جمع بين الصفتين، لأن قوله «مثل السيف» يحتمل أن يريد به الطول واللمعان فرده المسئول ردا بليغا. ولما جرى التعارف في أن التشبيه بالشمس إنما يراد به غالبا الإشراق، والتشبيه بالقمر إنما يراد به الملاحة دون غيرهما، أتى بقوله «وكان مستديرا» إشارة إلى أنه أراد التشبيه بالصفتين معا: الحسن والاستدارة. انظر فتح الباري ٦ (٦٦٢) .
(٣) رواه البخاري. انظر الفتح ٦ (٣٥٥٢) .
(٤) رواه مسلم برقم (٢٣٤٤/ ١٠٩) .
(٥) رواه الإمام أحمد في مسنده مطولا (١/ ٨٩، ١٠١) . وقال عنه الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح. انظر ترتيب المسند (٢/ ٨٠، ٨١) برقم (٦٨٤) .
(٦) الحدقة: هي السواد المستدير وسط العين. وقيل: هي في الظاهر سواد العين، وفي الباطن خرزتها. انظر لسان العرب (١٠/ ٣٩) .
(٧) أهدب الأشفار: أي طويل الأشفار وهو الذي شعر أجفانه كثير مستطيل. وأشفار العين: هي منابت الشعر المحيط بالعين. انظر جامع الأصول (١١/ ٢٢٦) ، ولسان العرب (٤/ ٤١٨، ٤١٩) .
(٨) رواه البيهقي في دلائل النبوة (١/ ٢١٢، ٢١٣) ، وصححه الألباني. انظر صحيح الجامع الصغير برقم (٤٤٩٧) .
(٩) أكحل العينين: الكحل بفتحتين سواد يكون في مغارز الأجفان خلقة. قاله ابن الأثير. انظر جامع الأصول (١١/ ٢٣٣) ، ولسان العرب (١١/ ٥٨٤) .
(١٠) رواه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٣٦١، ٣٦٢) ، وابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ٤١٧) . وقال الحافظ ابن حجر عن الحديث: أخرجه أحمد وسنده حسن. انظر فتح الباري (٦/ ٦٥٨) . وقال الحافظ الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال ثقات. انظر مجمع الزوائد (٨/ ٢٧٢) .

مشربا حمرة، أدعج العين «١» .. سهل الخدّ» «٢» .

- عن أبي هريرة- رضي الله عنه- في وصف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، قال: «كان مفاضّ «٣» الجبين أهدب الأشفار» «٤» .
- وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- في وصفه لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: أحسن الصّفة وأجملها كان ربعة إلى الطّول أقرب أسيل «٥» الخدّين ... إذا ضحك كاد يتلألأ في الجدر لم أر قبله ولا بعده مثله» «٦» .
- عن سماك بن حرب؛ قال: سمعت جابر بن سمرة، قال: كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم «ضليع الفم أشكل العين.
منهوس العقبين. قال: قلت لسماك: ما ضليع الفم «٧» ؟ قال: عظيم الفم. قال: قلت: ما أشكل العين «٨» ؟ قال:
طويل شقّ العين، قال: قلت: ما منهوس العقب «٩» ؟ قال: قليل لحم العقب» ١» .
- وعن أبي هريرة- رضي الله عنه-: في صفة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حسن الثّغر «١١» » «١٢» .

---

(١) أدعج العين: الشديد سواد العينين. قال الأصمعي: الدعجة هي: السواد. انظر لسان العرب (٢/ ٢٧١) .
(٢) رواه ابن سعد في الطبقات (١/ ٤١٠) ، والبيهقي في الدلائل من طرق (١/ ٢١٢، ٢١٣) ، (١/ ٢٦٩، ٢٧٣) . وإسناده حسن، لكثرة طرقه وشواهده.
(٣) مفاض الجبين: أي واسع الجبين.
(٤) رواه البيهقي في دلائل النبوة (١/ ٢١٤) ، وابن عساكر في تاريخ دمشق. انظر تهذيب تاريخ دمشق (١/ ٣٣٦) وهذا قطعة منه. قال الحافظ ابن كثير: هذا إسناد حسن ولم يخرجوه. انظر الشمائل لابن كثير (٢٦) ، (٣١) . وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه يعقوب بن سفيان والبزار بإسناد قوي. انظر فتح الباري (٦/ ٦٥٨) .
(٥) أسيل الخدين: أسيل الخد هو الخد المستوي الذي لا يفوت بعض لحمه بعضا. وقيل سائل الخدين غير مرتفع الوجنتين انظر جمع الوسائل. شرح شمائل الترمذي (١/ ٤٥) . وقال ابن الأثير: الإسالة في الخد هي الاستطالة وأن لا يكون مرتفعا. انظر جامع الأصول (١١/ ٢٢٦) .
(٦) رواه البيهقي في الدلائل (١/ ٢٧٥) ، وابن عساكر في تاريخ دمشق. انظر تهذيب تاريخ دمشق (١/ ٣١٩) . ورواه الذهلي في الذهليات واللفظ له كما في شمائل ابن كثير (ص ٣٥) . قال الحافظ ابن حجر: إسناده حسن- انظر فتح الباري (٦/ ٦٥٧) . وقد ذكر هناك الزهريات بدلا من الذهليات. والجدر: جمع جدار وهو الحائط، أي يشرق نوره عليها إشراقا كالشمس.
(٧) ما ضليع الفم: عظيم الفم قال النووي: كذلك قاله الأكثرون وهو الأظهر. قالوا: والعرب تمدح بذلك وتذم بصغر الفم. وهو معنى قول ثعلب في ضليع الفم: واسع الفم. وقال شمر: عظيم الأسنان.
(٨) ما أشكل العين: طويل شق العين قال النووي: قال القاضي: هذا وهم من سماك باتفاق العلماء. وغلط ظاهر، وصوابه ما اتفق عليه العلماء ونقله أبو عبيد وجميع أصحاب الغريب: أن الشكلة حمرة في بياض العينين وهو محمود، والشهلة حمرة في سواد العينين، انظر شرح النووي على صحيح مسلم ١٥/ ٩٣.
(٩) ما منهوس العقب: قال النووي: هكذا ضبطه الجمهور: منهوس. وقال صاحب التحرير وابن الأثير: روي بالمهملة والمعجمة. وهما متقاربان ومعناه قليل لحم العقب، كما قال. انظر شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/ ٩٣) .
(١٠) رواه مسلم برقم (٢٣٣٩) .
(١١) الثغر: قال ابن منظور: الثغر الفم. وقيل: هو اسم الأسنان كلها ما دامت في منابتها قبل أن تسقط. وقيل: هي الأسنان كلها كن في منابتها أو لم يكن. وقيل: هو مقدم الأسنان. انظر لسان العرب (٤/ ١٠٣) .

(١٢) رواه البيهقي في الدلائل (١/ ٢١٧) وكذلك البزار، وهذا قطعة منه. قال الحافظ ابن كثير: إسناده حسن انظر الشمائل لابن كثير (ص ٢٦) . وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه يعقوب بن سفيان والبزار بإسناد قوي. انظر فتح الباري (٦/ ٦٥٨) . وقال الحافظ الهيثمي: رواه البزار ورجاله وثقوا. انظر مجمع الزوائد (٨/ ٢٨٠) .

صفة رأس رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وصفة لحيته صلّى الله عليه وسلّم:
كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عظيم الرّأس، ذا لحية عظيمة حسنة كثيرة الشّعر سوداء، كادت تملأ نحره إذا تكلّم في نفسه عرف ذلك من خلفه باضطرابها لعظمتها.
وهذه أحاديث في وصف ذلك ممّن شاهده ورآه تؤكّد ما ذكرناه.
- عن عليّ بن أبي طالب- رضي الله عنه- في صفة رسول الله قال: «لم يكن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالطّويل، ولا بالقصير، ضخم الرّأس» «١» .
- وعن عليّ بن أبي طالب- رضي الله عنه- في وصف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أبيض مشربا حمرة ضخم الهامة «٢» » «٣» .
- وعن عليّ بن أبي طالب- رضي الله عنه- في وصف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عظيم اللّحية» «٤» .
- وعن عليّ بن أبي طالب- رضي الله عنه- قال: «كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كثّ «٥» اللّحية» «٦» .
- وعن جابر بن سمرة- رضي الله عنهما- قال: «كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كثير شعر اللّحية» «٧» .
- وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- في وصف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أسود اللّحية» «٨» .

---

(١) رواه الترمذي واللفظ له برقم (٣٦٣٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح. ورواه الإمام أحمد في مسنده بلفظ «عظيم الرأس» (١/ ١١٧) . والحاكم في المستدرك (٢/ ٦٠٦) ، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
(٢) الهامة: قال ابن منظور في اللسان: قال الجوهري: الهامة الرأس والجمع هام. وقيل الهامة ما بين حرفي الرأس. انظر لسان العرب (١٢/ ٦٢٤) .
(٣) ورواه الإمام أحمد في مسنده (١/ ١١٦) . ورواه البيهقي في دلائل النبوة (١/ ٢١٧) . وحسنه الألباني. انظر صحيح الجامع الصغير برقم (٤٤٩٦) .
(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده (١/ ١١٦) . والبيهقي في دلائل النبوة (١/ ٢١٦) . وهذا قطعة منه. وحسنه الألباني. انظر صحيح الجامع الصغير برقم (٤٦٩٦) .
(٥) كث اللحية: قال ابن منظور: وفي صفته صلّى الله عليه وسلّم: أنه كان كث اللحية: أراد كثرة أصولها وشعرها، وأنها ليست بدقيقة، ولا طويلة وفيها كثافة. انظر لسان العرب (٢/ ١٧٩) ، النهاية (٤/ ١٥٢) .
(٦) رواه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٨٩، ١٠١) . وهذا قطعة منه. وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح. انظر ترتيب المسند (٢/ ٨١) رقم (٦٨٤) ورواه النسائي من رواية البراء ابن عازب (٨/ ١٨٣) .
(٧) رواه مسلم برقم (٢٣٤٤/ ١٠٩) . وهذه قطعة منه.
(٨) رواه البيهقي في دلائل النبوة (١/ ٢١٧) وكذلك البزار، وهذا قطعة منه. قال الحافظ ابن كثير: إسناده حسن انظر الشمائل لابن كثير (ص ٢٦) . وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه يعقوب بن سفيان

والبزار بإسناد قوي. انظر فتح الباري (٦/ ٦٥٨) . وقال الحافظ الهيثمي: رواه البزار ورجاله ثقاة.
انظر مجمع الزوائد (٨/ ٢٨٠) .

- وفي حديث يزيد الفارسيّ في رؤيته المناميّة لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم والتّي قصّها على ابن عبّاس- رضي الله عنهما- وأقرّه عليها، جاء فيه: « ... رأيت رجلا حسن المضحك جميل دوائر الوجه قد ملأت لحيته من هذه إلى هذه حتّى كادت تملأ نحره» «١» .
- وعن أبي معمر قال: قلت لخبّاب بن الأرتّ: أكان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقرأ في الظّهر والعصر؛ قال: نعم. قال:
قلت: بأيّ شيء كنتم تعلمون قراءته؟ قال: باضطراب لحيته» «٢» .
صفة شعر رأس رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:
كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رجل الشّعر حسنه، فلم يكن شعره شديد الجعودة ولا شديد السّبوطة بل بينهما. شديد السّواد، يبلغ إلى أنصاف أذنيه وتارة شحمة أذنيه وتارة بين أذنيه وعاتقه وتارة يضرب منكبيه، وكان أوّل أمره قد سدل ناصيته بين عينيه ثمّ فرقه بعد ذلك فجعله فرقتين، وكان ربّما جعله غدائر أربعا يخرج الأذن اليمنى من بين غديرتين يكتنفانها، ويخرج الأذن اليسرى من بين غديرتين يكتنفانها، وتخرج الأذنان ببياضهما من بين تلك الغدائر كأنّها توقّد الكواكب الدّرّيّة من سواد شعره.
وبهذا الّذي ذكرناه جاءت أوصاف الصّحب الكرام لشعر سيّد المرسلين صلّى الله عليه وسلّم، فدونك إيّاها:
- عن أنس بن مالك- رضي الله عنه-: قال: «كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رجل الشّعر ليس بالسّبط ولا بالجعد القطط» «٣» .
- عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: «كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم شديد سواد الشّعر» «٤»
.
- وعن أبي الطّفيل- رضي الله عنه- قال: «رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يوم فتح مكّة فما أنسى بياض وجهه مع شدّة سواد شعره» «٥» .
- وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه-: قال: «كان شعر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى أنصاف أذنيه» «٦» .

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) رواه البخاري. انظر الفتح ٢ (٧٦١) .
(٣) رواه البخاري. انظر الفتح ٦ (٣٥٤٧) . ورواه مسلم برقم (٢٣٤٧) .
(٤) رواه البيهقي في دلائل النبوة بسياق طويل (١/ ٢٧٥) . وهذا موضع الشاهد. وابن عساكر في تاريخ دمشق. انظر تهذيب تاريخ دمشق (١/ ٣١٩) . ورواه الذهلي في الذهليات. قال الحافظ ابن حجر: إسناده حسن. انظر فتح الباري (٦/ ٦٥٧) . وحسنه أيضا الألباني. انظر صحيح الجامع الصغير برقم (٤٥٠٩) .
(٥) قال الحافظ الهيثمي: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح. انظر مجمع الزوائد (٨/ ٢٨٠) .
والحديث أصله في مسلم برقم (٢٣٤٠) .
(٦) رواه مسلم برقم (٢٣٣٨) .

- عن البراء بن عازب- رضي الله عنهما- قال: «كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رجلا مربوعا له شعر يبلغ شحمة «١» أذنيه، عليه حلّة حمراء ما رأيت شيئا قطّ أحسن منه صلّى الله عليه وسلّم» «٢» ، وفي لفظ للبخاريّ: «له شعر يبلغ شحمة أذنيه إلى منكبيه» .

- عن البراء بن عازب- رضي الله عنهما- قال: «ما رأيت من ذي لمّة «٣» أحسن في حلّة حمراء من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم شعره يضرب منكبيه» «٤» .

- عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: «كان شعر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم شعرا رجلا، ليس بالجعد ولا السّبط، بين أذنيه وعاتقه «٥» » «٦» .

- عن ابن العبّاس- رضي الله عنهما- قال: «كان أهل الكتاب يسدلون «٧» أشعارهم، وكان المشركون يفرقون «٨»

---

(١) شحمة أذنيه: قال النووي: شحمة الأذن هو اللين منها في أسفلها وهو معلق القرط منها. انظر شرح مسلم للنووي (١٥/ ٩١) .

(٢) رواه البخاري. انظر الفتح ٦ (٣٥٥١) . ورواه مسلم برقم (٢٣٣٧) .

(٣) اللمة: قال ابن الأثير: الشعر الذي ألم بالمنكبين، أي: قاربهما. انظر جامع الأصول (١١/ ٢٣٣) .

(٤) رواه البخاري. انظر الفتح ١٠ (٥٩٠١) ولفظه «أن جمّته لتضرب قريبا من منكبيه» . ورواه مسلم برقم (٢٣٣٧/ ٩٢) .

(٥) عاتقه: قال النووي رحمه الله: العاتق ما بين المنكب والعنق. انظر شرح النووي علي صحيح مسلم ج ١٥ ص ٩١.

(٦) رواه البخاري. انظر الفتح ١٠ (٥٩٠٥) . ورواه مسلم برقم (٢٣٣٨) . تنبيه: جاءت الروايات تفيد أن شعر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان إلى أنصاف أذنيه وأحيانا يبلغ شحمة أذنيه وأحيانا بين أذنيه وعاتقه وأحيانا يضرب منكبيه ولا منافاة بين هذه الأحوال. وقد جمع العلماء رحمهم الله بين هذه الروايات بعدة أوجه: ١- قال القاضي عياض: والجمع بين هذه الروايات أن ما يلي الأذن هو الذي يبلغ شحمة أذنيه وهو الذي بين أذنيه وعاتقه وما خلفه هو الذي يضرب منكبيه. ٢- قال القاضي عياض: إن ذلك لاختلاف الأوقات فإذا غفل عن تقصيرها- أي الجمة- بلغت المنكب وإذا قصرها كانت إلى أنصاف الأذنين فكان يقصر ويطول بحسب ذلك. انظر شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/ ٩١) . وقد قال بهذا الجمع غير واحد من العلماء، منهم ابن كثير. انظر الشمائل (ص ٣٧) وابن بطال وابن حجر. انظر فتح الباري (١٠/ ٣٧٠) .

(٧) يسدلون: قال النووي: قال أهل اللغة: يقال سدل يسدل. قال القاضي: سدل الشعر إرساله. قال: والمراد به هنا، عند العلماء، إرساله على الجبين واتخاذه كالقصة. يقال: سدل شعره وثوبه إذا أرسله ولم يضم جوانبه. انظر شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/ ٩٠) .

(٨) يفرقون: قال ابن الأثير: مفرق الرأس وسطه، وفرق الشعر «جعله فرقتين» انظر جامع الأصول (١١/ ٢٣٦) . فائدة: قال النووي رحمه الله: الظاهر أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رجع إلى فرق الشعر بوحي لقوله (إنه كان يوافق أهل الكتاب فيما لم يؤمر به) وعلى هذا فيكون السدل منسوخا ولا يجوز فعله ولا اتخاذ الناصية والجمة. ويحتمل أن رجوعه صلّى الله عليه وسلّم إلى الفرق باجتهاد منه في مخالفة أهل الكتاب لا بوحي. وعلى هذا يكون الفرق مستحبا. ولهذا اختلف السلف فيه. ففرق منهم جماعة، واتخذ اللمة آخرون. وقد جاء في الحديث «أنه كان للنبي صلّى الله عليه وسلّم لمة فإن انفرقت فرقها وإلا تركها» . قال مالك: فرق الرجل أحب إلي. قال النووي: والحاصل أن الصحيح المختار جواز السدل والفرق وأن الفرق أفضل والله أعلم. انتهى كلام النووي (بتصرف) وقد عزا أكثره للقاضي عياض. انظر شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/ ٩٠) . وفتح الباري (١٠/ ٣٧٥) .

رءوسهم، وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يحبّ موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر به، فسدل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ناصيته «١» ثمّ فرق بعد» «٢» .
- عن أمّ هانيء- رضي الله عنها- قالت: «قدم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مكّة «٣» وله أربع غدائر «٤» » «٥» . وفي رواية لها، قالت: «رأيت في رأس رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ضفائر أربعا» «٦» .
ذكر شيب النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وخضابه:
كان لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم في رأسه ولحيته قليل من الشّيب، وكان أكثر شيب رأسه في فودى رأسه والفودان حرفا الفرق- وأكثر شيب لحيته في عنفقته «٧» فوق الذّقن، وكان شيبه كأنّه خيوط الفضّة يتلألأ بين ظهري سواد الشّعر الّذي معه. وإذا مسّ ذلك الشّيب الصّفرة- وكثيرا ما يفعل ذلك- صار كأنّه خيوط الذّهب يتلألأ بين ظهري سواد الشّعر الّذي معه صلوات الله وسلامه عليه.
وبنحو ما قلناه وردت الأحاديث والأخبار، وهذه نماذج منها:
- عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: «توفّي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء، قال ربيعة: فرأيت شعرا من شعر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فإذا هو أحمر فسألت فقيل: من الطّيب» » .
- عن محمّد بن سيرين؛ قال: سألت أنس بن مالك: أخضب «٩» رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؟ قال: إنّه لم ير من الشّيب إلّا قليلا. «١٠» .

---

(١) ناصيته: قال ابن الأثير: الناصية هي شعر مقدم الرأس. انظر جامع الأصول (١١/ ٢٣٧) .
(٢) رواه البخاري. انظر الفتح ٦ (٣٥٥٨) . ورواه مسلم واللفظ له برقم (٢٣٣٦) .
(٣) وذلك في فتح مكة. وأم هانئ أسلمت يوم الفتح.
(٤) غدائر: جمع غديرة، والضفائر: جمع ضفيرة. وكل من الضفيرة والغديرة بمعنى الذؤابة: وهي الخصلة من الشعر إذا كانت مرسلة. فإن كانت ملوية فعقيصة. انظر جامع الأصول (١١/ ٢٣٦) ، ولسان العرب (٤/ ٤٩٠) ، (٥/ ١٠) ، (٧/ ٥٦) .
(٥) رواه الترمذي برقم (١٧٨١) ، وقال: حديث حسن. وأبو داود برقم (٤١٩١) . وابن ماجه برقم (٣٦٣١) . والإمام أحمد (٦/ ٣٤١) . وابن سعد في الطبقات (١/ ٤٢٩) وقال عنه الحافظ ابن حجر: رجاله ثقات. انظر فتح الباري (٦/ ٦٦٢) .
(٦) هذه الرواية عند الإمام أحمد (٦/ ٤٢٥) ، وابن سعد في الطبقات (١/ ٤٢٩) .
(٧) العنفقة: الشعر الذي في الشفة السفلى، وقيل: الشعر الذي بينها وبين الذقن. وأصل العنفقة: خفة الشيء وقلته. أفاده ابن الأثير في النهاية (٣/ ٣٠٩) .
(٨) رواه البخاري. انظر الفتح ٦ (٣٥٤٧) . ورواه مسلم برقم (٢٣٤٧) عدا قول ربيعة.
(٩) أخضب: الخضاب ما يخضب به من حناء وكتم ونحوه. وخضب الشيء يخضبه خضبا: غير لونه بحمرة أو صفرة أو غيرهما. انظر لسان العرب (١/ ٣٥٧) .
(١٠) رواه البخاري. انظر الفتح ١٠ (٥٨٩٤) . ورواه مسلم- واللفظ له- برقم (٢٣٤١/ ١٠٢) .

- عن ثابت قال: سئل أنس بن مالك عن خضاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؟ فقال: «لو شئت أن أعدّ شمطات «١» كنّ في رأسه فعلت. وقال: لم يختضب؛ وقد اختضب أبو بكر بالحنّاء والكتم «٢» . واختضب عمر بالحنّاء بحتا «٣» » «٤» .
- عن قتادة قال: «سألت أنسا: هل خضب النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم؟ قال: لا، إنّما كان شيء في صدغيه «٥» » «٦» ، «٧» .
- عن أنس بن مالك- رضي الله عنه-: «أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لم يختضب، إنّما كان البياض في عنفقته «٨» وفي الصّدغين وفي الرّأس نبذ «٩» » «١٠» .

- عن جابر بن سمرة- رضي الله عنهما- قال: «كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد شمط «١١» مقدّم رأسه ولحيته، وكان إذا ادّهن ومشط لم يتبيّن وإذا شعث «١٢» رأسه تبيّن» «١٣» .
- عن إياد بن أبي رمثة- رضي الله عنهما- قال: «انطلقت مع أبي نحو رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فلمّا رأيته قال لي: هل تدري من هذا؟ قلت: لا. قال: إنّ هذا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فاقشعررت حين قال ذلك، وكنت أظنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم،

---

(١) شمطات: قال ابن الأثير: الشمط هو الشيب يخالطه السواد. انظر جامع الأصول (١١/ ٢٣٩) ، وقال النووي اتفق العلماء على أن المراد بالشمط هنا ابتداء الشيب. انظر شرح النووي على صحيح مسلم ١٥/ ٩٥.
(٢) الكتم: نبات يصبغ به الشعر يكثر بياضه أو حمرته إلى الدهمة.
(٣) بحتا: أي خالصا لم يخلط بغيره.
(٤) رواه مسلم برقم (٢٣٤١/ ١٠٣) .
(٥) صدغيه: الصدغ بضم المهملة وإسكان الدال بعدها معجمة: ما بين الأذن والعين ويقال ذلك أيضا لما انحدر من الرأس إلى مركب اللحيين. انظر لسان العرب (٨/ ٤٣٩) . والنهاية (٣/ ١٧) . وفتح الباري (٦/ ٦٦١) .
(٦) رواه البخاري. انظر الفتح ٦ (٣٥٥٠) .
(٧) قال الحافظ ابن حجر: وجه الجمع بين هذا الحديث والحديث السابق الذي يفيد أن الشعر الأبيض كان في عنفقته، هو حديث أنس عند مسلم « ... إنما كان البياض في عنفقته وفي الصدغين وفي الرأس نبذ» . انظر فتح الباري (٦/ ٦٦١) بتصرف يسير.
(٨) قال ابن حجر رحمه الله: وعرف من مجموع الأحاديث أن الذي شاب من عنفقته أكثر مما شاب من غيرها. انظر فتح الباري (٦/ ٦٦١) .
(٩) نبذ: قال النووي رحمه الله: ضبطوه بوجهين أحدهما ضم النون وفتح الباء، والثاني فتح النون وإسكان الباء. وبه جزم القاضي ومعناه شعرات متفرقة. انظر شرح مسلم للنووي (١٥/ ٩٦) .
(١٠) رواه مسلم برقم (٢٣٤١/ ١٠٤) .
(١١) قد شمط: قال النووي: اتفق العلماء على أن المراد بالشمط هنا: ابتداء الشيب. يقال منه شمط وأشمط. انظر شرح مسلم للنووي (١٥/ ٩٥) .. وقال ابن الأثير: الشمط هو الشيب يخالطه السواد. انظر
جامع الأصول (١١/ ٢٤٠) .
(١٢) إذا شعث: قال ابن الأثير: الشعث: بعد العهد بالغسل وتسريح الشعر. انظر جامع الأصول (١١/ ٢٤٠) .
(١٣) رواه مسلم برقم (٢٣٤٤/ ١٠٩) . والإمام أحمد في مسنده (٥/ ١٠٤) واللفظ له.

شيئا لا يشبه النّاس، فإذا هو بشر ذو وفرة «١» بها ردع «٢» من حنّاء، وعليه بردان أخضران» «٣» .
- عن ابن عمر- رضي الله عنهما- أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان يلبس النّعال السّبتيّة «٤» ويصفّر لحيته بالورس «٥» والزّعفران «٦» ، وكان ابن عمر يفعل ذلك» «٧» .
- عن عبد الله بن عقيل، قال: قدم أنس بن مالك المدينة وعمر بن عبد العزيز وال عليها، فبعث إليه عمر، وقال للرسول: سله هل خضب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فإنّي رأيت شعرا من شعره قد لوّن «٨» قال أنس: «إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان قد متّع بالسّواد، ولو عددت ما أقبل عليّ من شيبه في رأسه ولحيته ما كنت أزيدهنّ على إحدى عشرة شيبة، وإنّما هذا الّذي لوّن من الطّيب الّذي كان يطيّب به شعر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، هو الّذي غيّر لونه» «٩» .

فائدة:
يلحظ ممّا تقدّم من الأحاديث أنّ منها ما يدلّ على أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد خضب، مثل حديث أبي رمثة وحديث ابن عمر- رضي الله عنهم- ومنها ما ينفي ذلك مثل حديث أنس بن مالك- رضي الله عنه-.
ومن الأحاديث أيضا ما حدّد عدد شيب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مثل حديث أنس الآنف الذّكر فإنّه حدّد الشّيب بإحدى عشرة شيبة، بينما وردت أحاديث أخر دلّت على أنّ الشّيب أزيد من هذا العدد، مثل حديث ابن عمر.
وقد جمع العلماء رحمهم الله بين هذه الأحاديث ورجّحوا ما يأتي:
أ- أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد خضب.
قال ابن كثير- رحمه الله-: ونفي أنس للخضاب معارض بما تقدّم عن غيره من إثباته، والقاعدة المقرّرة أنّ

---

(١) ذو وفرة: الوفرة: شعر الرأس إذا كان إلى شحمة الأذن.
(٢) ردع: الردع: أثر الصبغ على الجسم وغيره. أفاد ذلك ابن الأثير. انظر جامع الأصول (٤/ ٧٤٠) .
(٣) رواه أبو داود برقم (٤٢٠٦) مختصرا. ورواه النسائي (٨/ ١٤٠) . والإمام أحمد (٢/ ٢٢٦، ٢٢٧) . ورواه البيهقي في دلائل النبوة (١/ ٢٣٧) واللفظ له. وصححه الألباني. انظر صحيح سنن أبي داود برقم (٣٥٤٣) .
(٤) السبتية: قال ابن الأثير: السبتية: جلود بقر مدبوغة بالقرظ، سميت سبتية لأن شعرها قد سبت عنها وحلق، وقيل لأنها انسبتت بالدباغ أي لانت. انظر جامع الأصول (٤/ ٧٣٦، ٧٣٧) .
(٥) الورس: بفتح فسكون: نبت أصفر باليمن يصبغ به.
(٦) الزعفران: نبات زهره أحمر إلى الصفرة وهو من الطيب.
(٧) رواه أبو داود برقم (٤٢١٠) ، والنسائي (٨/ ١٤٠) . قال محقق كتاب جامع الأصول: إسناده حسن. انظر جامع الأصول (٤/ ٧٣٦) .
(٨) ربما كانت هذه رؤيا منامية من خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز- رضي الله عنه-.
(٩) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦٠٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. ورواه أيضا البيهقي في دلائل النبوة واللفظ له برقم (١/ ٢٣٩) .

الإثبات مقدّم على النّفي، لأنّ المثبت معه زيادة علم ليست مع النّافي «١» .
ب- أنّ إثبات غير أنس من الصّحابة لأزيد ممّا ذكر من الشّيب مقدّم لا سيّما ما جاء عن ابن عمر الّذي يظنّ أنّه تلقّى ذلك عن أخته أمّ المؤمنين حفصة؛ ذلك أنّ اطّلاعها أتمّ من اطّلاع أنس، لأنّها ربّما فلّت رأسه الكريم عليه الصّلاة والسّلام «٢» .
صفات أخرى لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم:
جاءت أحاديث وآثار تصف وتنعت أعضاء جسميّة أخرى لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم- غير الّتي مرّ ذكرها- كخاتم نبوّته، ومنكبه، وذراعيه، وكفّيه، وساقيه، وقدميه.
وهذه مجموعة من تلك الأحاديث تصف ما ذكرنا من هذه الأعضاء.
خاتم النبوة:
عن عاصم عن عبد الله بن سرجس- رضي الله عنه-: قال: «رأيت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأكلت معه خبزا ولحما، أو قال: ثريدا. قال: فقلت: استغفر لك النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم؟ قال: نعم. ولك. ثمّ تلا هذه الآية: وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ (محمد/ ١٩) . قال: ثمّ درت خلفه فنظرت إلى خاتم النّبوّة بين كتفيه. عند ناغض كتفه «٣» اليسرى جمعا «٤» عليه خيلان «٥» كأمثال الثّاليل «٦» «٧» .

- عن جابر بن سمرة- رضي الله عنهما- قال: « ... كان وجه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مثل الشّمس والقمر مستديرا، ورأيت الخاتم عند كتفه مثل بيضة»
الحمامة يشبه جسده» «٩» .

---

(١) انظر الشمائل لابن كثير (ص ٤٢) .
(٢) أفاد ذلك ابن كثير. انظر الشمائل (ص ٤٢) .
(٣) ناغض كتفه: قال الجمهور: الناغض أعلى الكتف. وقيل: العظم الرقيق الذي على طرفه. وقيل: ما يظهر منه عند التحرك. سمي ناغضا لتحركه.
(٤) جمعا: معناه أنه كجمع الكف وهو صورته بعد تجمع الأصابع وتضامها.
(٥) خيلان: جمع خال. وهو الشامة في الجسد.
(٦) الثآليل: جمع ثؤلول وهي حبيبات تعلو الجسد. قال القاضي عياض: وهذه الروايات متقاربة متفقة على أنها شاخص في جسده قدر بيضة الحمامة. وهو نحو بيضة الحجلة وزر الحجلة. وأما رواية جمع الكف فظاهرها المخالفة، فتؤول على وفق الروايات الكثيرة. ويكون معناه على هيئة جمع الكف لكنه أصغر منه في قدر بيضة الحمامة. أورد جميع ذلك النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٥/ ٩٨، ٩٩) .
(٧) رواه مسلم برقم (٢٣٤٦) .
(٨) بيضة الحمامة: هي بيضتها المعروفة.
(٩) رواه مسلم برقم (٢٣٤٤/ ١٠٩) .

المنكبان:

- عن البراء بن عازب- رضي الله عنهما- قال: «كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعيد ما بين المنكبين» «١» .

الذّراعان:

- عن أبي هريرة- رضي الله عنه- في نعت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «كان شبح «٢» الذّراعين» «٣» .

الكفّان:

- عن أنس- رضي الله عنه- قال: «كان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ضخم اليدين. حسن الوجه لم أر بعده ولا قبله مثله وكان بسط «٤» الكفّين» «٥» .
- عن عليّ بن أبي طالب- رضي الله عنه- قال: «كان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم شثن «٦» الكفّين ... والكراديس «٧» طويل المسربة «٨» » «٩» .
- عن أنس- رضي الله عنه-: قال: «كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أزهر اللّون «١٠» كأنّ عرقه اللّؤلؤ «١١» ، إذا

---

(١) رواه البخاري. انظر الفتح ٦ (٣٥٥١) ، ومسلم برقم (٢٣٣٧) .
(٢) شبح الذراعين: قال ابن الأثير رحمه الله: أي طويلهما وقيل: عريضهما. انظر النهاية (٢/ ٤٣٩) . والشبح بسكون الباء. انظر لسان العرب (٢/ ٩٤٩٤) .
(٣) رواه الإمام أحمد- وهذا قطعة منه- في مسنده (٢/ ٣٢٨، ٤٤٨) . وابن سعد في الطبقات (١/ ٤١٤) . والبيهقي في دلائل النبوة (١/ ٢٤٤) . وحسنه الألباني. انظر صحيح الجامع الصغير برقم (٤٦٩٢) .
(٤) بسط الكفين: البسطة الزيادة والسعة. قاله ابن منظور. انظر لسان العرب (٧/ ٢٦٠) .
(٥) رواه البخاري. انظر الفتح ١٠ (٥٩٠٧) .

(٦) شثن الكفين: بفتح المعجمة وسكون المثلثة وبكسرها بعدها نون: أي غليظ الأصابع والراحة. قاله ابن حجر. وقال ابن الأثير (شثن الكف) : غليظ الكف. وقال أيضا: هو الذي في أنامله غلظ بلا قصر. ويحمد ذلك في الرجال لأنه أشد لقبضتهم وأصبر لهم على المراس. ويذم في النساء. انظر فتح الباري (١٠/ ٣٧١) . والنهاية (٢/ ٤٤) . ولسان العرب (١٣/ ٢٣٢) . جامع الأصول (١١/ ٢٢٧) .
(٧) الكراديس: قال ابن الأثير: كل عظمين التقيا في مفصل فهو كردوس والجمع الكراديس نحو الركبتين والمنكبين والوركين. انظر جامع الأصول (١١/ ٢٢٨) .
(٨) طويل المسربة: بفتح الميم وسكون السين وضم الراء: قال ابن الأثير: الشعر النابت على وسط الصدر نازلا إلى آخر البطن. انظر جامع الأصول (١١/ ٢٢٧) . تحفة الأحوذي (١٠/ ١١٧) .
(٩) رواه الترمذي برقم (٣٦٣٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح. ورواه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٩٦، ١١٦، ١١٧، ١٣٤) . وصحح إسناده أحمد شاكر في ترتيبه على المسند (٢/ ١٠٦، ١٠٧، رقم (٧٤٦) . ورواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ٤١١) . والحاكم في المستدرك (٢/ ٦٠٦) ، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
(١٠) أزهر اللون: هو الأبيض المستنير. وهو أحسن الألوان.
(١١) كأن عرقه اللؤلؤ: أي في الصفاء والبياض.
جـ ١(ص: ٤٣٧)

مشى تكفّأ «١» ، ولا مسست ديباجة ولا حريرة ألين «٢» من كفّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ولا شممت مسكة ولا عنبرة أطيب من رائحة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم «٣» .
الساقان:
- عن سراقة بن مالك- رضي الله عنه- قال: «أتيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فلمّا دنوت منه وهو على ناقته جعلت أنظر إلى ساقه كأنّها جمّارة «٤» » «٥» .
- عن أبي جحيفة- رضي الله عنه- قال: «دفعت إلى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وهو بالأبطح في قبّة كان بالهاجرة، فخرج بلال فنادى بالصّلاة، ثمّ دخل فأخرج فضل وضوء «٦» رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فوقع النّاس عليه يأخذون منه، ثمّ دخل فأخرج العنزة «٧» ، وخرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، كأنّي أنظر إلى وبيص «٨» ساقيه، فركز العنزة ثمّ صلّى الظّهر ركعتين، والعصر ركعتين، يمرّ بين يديه الحمار والمرأة» «٩» .
- عن جابر بن سمرة- رضي الله عنهما- قال: «كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، لا يضحك إلّا تبسّما وكان في ساقيه

---

(١) إذا مشى تكفأ. قال النووي رحمه الله: هو بالهمز. وقد يترك همزه. وزعم كثيرون أن أكثر ما يروى بلا همز. وليس كما قالوا. قال شمر: أي مال يمينا وشمالا، كما تكفأ السفينة. قال الأزهري: هذا خطأ لأن هذا صفة المختال. وإنما معناه أن يميل إلى سمته وقصد مشيه. كما قال في الرواية الأخرى: كأنما ينحط في صبب. قال القاضي: لا بعد فيما قاله شمر إذا كان خلقة وجبلة والمذموم منه ما كان مستعملا مقصودا- انظر شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/ ٨٦) ، ولسان العرب (١/ ١٤١، ١٤٢) .
(٢) وصف أنس وغيره كفي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالشثن وهو الغلظ، بينما هنا جاء وصف كفيه بالليونة والجمع بينهما. أنّ المراد باللين في الجلد والغلظ في العظام فيجتمع له نعومة البدن وقوته. جمع هذا غير واحد من العلماء. انظر تحفة الأحوذي (١٠/ ١١٦) .
(٣) رواه البخاري. انظر الفتح ٦ (٣٥٦١) . ومسلم برقم (٢٣٣٠/ ٨٢) واللفظ له.
(٤) جمارة: الجمارة قلب النخلة وشحمتها. انظر النهاية لابن الأثير (١/ ٢٩٤) . وقول الصحابي: «كأنها جمارة» يعني من شدة بياضها كأنها جمارة طلع النخل.

(٥) رواه ابن إسحاق في السيرة. انظر السيرة لابن هشام (٢/ ١٣٥) . وهو مقتطف من حديث الهجرة الطويل وأصله في البخاري ٧ (٣٩٠٦) عند ما ساخت يدا فرس سراقة في الأرض، وكتب له صلّى الله عليه وسلّم كتابا ووعده عدة. فجاء هذه المرة إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقابله وذلك بالجعرانة بعد غزوة حنين. قال سراقة فقلت: يا رسول الله هذا كتابك. فقال: يوم وفاء وبر ادن فأسلمت ... » . ورواه البيهقي في دلائل النبوة (١/ ٢٠٧) . وقد تابع ابن إسحاق في روايته عن الزهري موسى بن عقبة.
(٦) الوضوء بفتح الواو هو الماء الذي استعمل في الوضوء.
(٧) العنزة. قال في النهاية: العنزة: مثل نصف الرمح أو أكبر شيئا، وفيها سنان مثل سنان الرمح (٣/ ٣٠٨) .
(٨) وبيص ساقيه: قال ابن الأثير رحمه الله: الوبيص: البريق وقد وبص الشيء يبص وبيصا. انظر النهاية (٥/ ١٤٦) .
(٩) رواه البخاري. انظر الفتح ٦ (٣٥٦٦) . ورواه مسلم برقم (٥٠٣) .
جـ ١(ص: ٤٣٨)

حموشة «١» » «٢» .
القدمان:
- عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: «كان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ضخم القدمين ... » «٣» .
- وعنه- رضي الله عنه- قال: «كان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم شثن القدمين ... » «٤» .
- عن جابر بن سمرة- رضي الله عنهما- قال: «كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم منهوس «٥» العقبين» «٦» .
- وعن أبي هريرة- رضي الله عنه-: في صفة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: « ... كان يطأ بقدميه جميعا ليس له أخمص «٧» » «٨» .

---

(١) حموشة: دقة، قال ابن الأثير: رجل أحمش الساقين: دقيقهما. انظر جامع الأصول (١١/ ٢٣٣) . ولسان العرب (٦/ ٢٨٨) . قال ابن كثير: أي لم يكونا ضخمين. انظر الشمائل لابن كثير (ص ٤٣) .
(٢) رواه الترمذي برقم (٣٦٤٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب ورواه كذلك في الشمائل. انظر الشمائل (ص ١٨٩) . ورواه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٩٧، ١٠٥) وأيضا صححه الألباني. انظر صحيح الجامع الصغير برقم (٤٧٣٧) .
(٣) رواه البخاري. انظر الفتح ١٠ (٥٩٠٧) وهذا محل الشاهد فقط.
(٤) رواه البخاري. انظر الفتح ١٠ (٥٩١٠) وهذا محل الشاهد فقط.
(٥) منهوس العقبين: أي قليل لحم العقبين. والعقب هو مؤخر القدم. قال ابن كثير رحمه الله تعقيبا على أنه صلّى الله عليه وسلّم قليل لحم العقب: وهذا أنسب وأحسن في حق الرجال. انظر الشمائل لابن كثير (ص ٤٤) .
(٦) رواه مسلم برقم (٢٣٣٩) .
(٧) الأخمص: ما دخل من باطن القدم فلم يصب الأرض. انظر لسان العرب (٧/ ٣٠) .
(٨) رواه البيهقي في الدلائل (١/ ٢٧٥) وهذا موضع الشاهد. وابن عساكر في تاريخ دمشق. انظر تهذيب تاريخ دمشق (١/ ٣١٩) . قال الحافظ ابن حجر: إسناده حسن. انظر فتح الباري (٦/ ٦٥٧) .
جـ ١(ص: ٤٣٩)

الكمالات والخصائص الّتي انفرد بها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم

أولا: الكمالات:
ذكر الماورديّ- رحمه الله- في ذكر خصائص الرّسول صلّى الله عليه وسلّم وفضائله وشرف أخلاقه وشمائله المؤيّدة لنبوّته والمبرهنة على عموم رسالته:
فالكمال المعتبر في البشر يكون من أربعة أوجه: كمال الخلق وكمال الخلق وفضائل الأقوال وفضائل الأعمال.
الوجه الأول: كمال الخلق:
كمال خلقه؟ بعد اعتدال صورته يكون بأربعة أوصاف:
الوصف الأول:
السّكينة الباعثة على الهيبة والتّعظيم الدّاعية إلى التّقديم والتّسليم.
وكان أعظم مهيب في النّفوس حتّى ارتاعت رسل كسرى من هيبته حين أتوه مع اعتيادهم لصولة الأكاسرة ومكاثرة الملوك الجبابرة.
فكان صلّى الله عليه وسلّم في نفوسهم أهيب وفي أعينهم أعظم، وإن لم يتعاظم بأبّهة ولم يتطاول بسطوة، بل كان بالتّواضع موصوفا وبالوطأة- أي السّهولة- معروفا.
الوصف الثاني:
في الطّلاقة الموجبة للإخلاص والمحبّة الباعثة على المصافاة والمودّة.
وقد كان صلوات الله عليه محبوبا استحكمت محبّة طلاقته في النّفوس حتّى لم يقله «١» مصاحب ولم يتباعد منه مقارب وكان أحبّ إلى أصحابه من الآباء والأبناء وشرب الماء البارد على الظّمأ.
الوصف الثالث:
حسن القبول الجالب لممايلة القلوب حتّى تسرع إلى طاعته وتذعن بموافقته، وقد كان قبول منظره صلّى الله عليه وسلّم مستوليا على القلوب ولذلك استحكمت مصاحبته في النّفوس حتّى لم ينفر منه معاند ولا استوحش منه مباعد، إلّا من ساقه الحسد إلى شقوته وقاده الحرمان إلى مخالفته.

---

(١) لم يقله: أي لم يبغضه أو يجافه.
جـ ١(ص: ٤٤٠)

الوصف الرابع:
ميل النّفوس إلى متابعته وانقيادها لموافقته وثباته على شدائده ومصابرته، فما شذّ عنه معها من أخلص ولا ندّ عنه فيها إلّا من حرم الخير كلّه.
وهذه الأربعة من دواعي السّعادة وقوانين الرّسالة قد تكاملت فيه فكمل لما يوازيها واستحقّ ما يقتضيها.
الوجه الثّاني: كمال الخلق:
أمّا كمال أخلاقه صلّى الله عليه وسلّم فيكون بستّ خصال:
الخصلة الأولى:
رجاحة عقله وصدق فراسته، وقد دلّ على وفور ذلك فيه صحّة رأيه وصواب تدبيره وحسن تألّفه النّاس وأنّه ما استغفل في مكيدة ولا استعجز في شديدة بل كان يلحظ الإعجاز في المبادىء فيكشف عيوبها ويحلّ خطوبها وهذا لا ينتظم إلّا بأصدق حدس وأوضح رؤية.
الخصلة الثانية:

ثباته في الشّدائد وهو مطلوب، وصبره على البأساء والضّرّاء، وهو مكروب ومحروب «١» ونفسه في اختلاف الأحوال ساكنة لا يخور في شديدة ولا يستكين لعظيمة وقد لقي بمكّة من قريش ما يشيب النّواصي ويهدّ الصّياصي وهو مع الضّعف يصابر صبر المستعلي ويثبت ثبات المستولي» .

الخصلة الثّالثة:

زهده في الدّنيا وإعراضه عنها وقناعته منها فلم يمل إلى غضارتها ولم يله لحلاوتها وقد ملك من أقصى الحجاز إلى عذار العراق ومن أقصى اليمن إلى شحر عمان.

وهو أزهد النّاس فيما يقتنى ويدّخر وأعرضهم عمّا يستفاد ويحتكر، لم يخلّف عينا ولا دينا ولا حفر نهرا ولا شيّد قصرا ولم يورّث ولده وأهله متاعا ولا مالا ليصرفهم عن الرّغبة في الدّنيا كما صرف نفسه عنها فيكونوا على مثل حاله في الزّهد فيها.

وحقيق بمن كان في الدّنيا بهذه الزّهادة أن لا يتّهم بطلبها أو يكذب على الله تعالى في ادّعاء الآخرة ويقتنع في العاجل وقد سلب الآجل بالميسور النّزر ويرض بالعيش الكدر.

---

(١) الضمير «هو» يعود للنبي صلّى الله عليه وسلّم، والمحروب من فقد ماله، وصار به الإسلام من فقد دينه، والمقصود هو الأول.

(٢) المستولي أي الممسك بمقاليد الأمور المسيطر عليها.

جـ ١(ص: ٤٤١)

الخصلة الرابعة:

تواضعه للنّاس وهم أتباع، وخفض جناحه لهم وهو مطاع، يمشي في الأسواق ويجلس على التّراب ويمتزج بأصحابه وجلسائه فلا يتميّز عنهم إلّا بإطراقه وحيائه، فصار بالتّواضع متميّزا، وبالتّذلّل متعزّزا.

ولقد دخل عليه بعض الأعراب فارتاع من هيبته فقال خفّض عليك فإنّما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكّة وهذا من شرف أخلاقه وكريم شيمه فهي غريزة فطر عليها وجبلّة طبع بها لم تندر فتعدّ، ولم تحصر فتحدّ.

الخصلة الخامسة:

حلمه ووقاره عن طيش يهزّه أو خرق يستفزّه فقد كان أحلم في النّفار من كلّ حليم وأسلم في الخصام من كلّ سليم.

وقد مني بجفوة الأعراب فلم يوجد منه نادرة ولم يحفظ عليه بادرة، ولا حليم غيره إلّا ذو عثرة ولا وقور سواه إلّا ذو هفوة، فإنّ الله تعالى عصمه من نزع الهوى وطيش القدرة «١» ليكون بأمّته رءوفا وعلى الخلق عطوفا لقد تناولته قريش بكلّ كبيرة وقصدته بكلّ جريرة وهو صبور عليهم ومعرض عنهم.

وما تفرّد بذلك سفهاؤهم عن حلمائهم ولا أراذلهم دون عظمائهم، بل تمالأ عليه الجلّة والدّون، فكلّما كانوا عليه ألحّ، كان عنهم أعرض وأصفح، حتّى قدر فعفا، وأمكنه الله منهم فغفر.

وقال لهم حين ظفر بهم عام الفتح وقد اجتمعوا إليه: ما ظنّكم بي قالوا ابن عمّ كريم، فإن تعف فذاك الظّنّ بك وإن تنتقم فقد أسأنا، فقال: بل أقول كما قال يوسف لإخوته لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.

وقال: اللهمّ قد أذقت أوّل قريش نكالا فأذق آخرهم نوالا وأتته هند بنت عتبة، وقد بقرت بطن عمّه حمزة، ولاكت كبده فصفح عنها وبايعها.

فإن قيل: فقد ضرب رقاب بني قريظة صبرا في يوم واحد وهم نحو سبعمائة، فأين موضع العفو والصّفح قيل: إنّما فعل ذلك في حقوق الله تعالى.

وقد كانت بنو قريظة رضوا بتحكيم سعد بن معاذ عليهم فحكم أنّ من جرت عليه الموسى «٢» قتل ومن لم تجر عليه استرقّ فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: هذا حكم الله من فوق سبعة أرقعة «٣» ، فلم يجز أن يعفو عن حقّ وجب لله تعالى عليهم وإنّما يختصّ عفوه بحقّ نفسه.

---

(١) النفار أو المنافرة.
(٢) جرت عليه الموسى: أي بلغ مبلغ الرجال.
(٣) يعني من فوق سبع سموات. انظر النهاية (٢/ ٢٥١) .

الخصلة السادسة:
حفظه للعهد ووفاؤه بالوعد فإنّه ما نقض لمحافظ عهدا، ولا أخلف لمراقب وعدا، يرى الغدر من كبائر الذّنوب، والإخلاف من مساوىء الشّيم فيلتزم فيهما الأغلظ ويرتكب فيهما الأصعب حفظا لعهده ووفاء بوعده حتّى يبتدىء معاهدوه بنقضه فيجعل الله تعالى له مخرجا كفعل اليهود من بني قريظة وبني النّضير وكفعل قريش بصلح الحديبية إذ جعل الله تعالى له في نكثهم الخيرة.
فهذه ستّ خصال تكاملت في خلقه، فضّله الله تعالى على جميع خلقه.
الوجه الثّالث: فضائل الأقوال:
في فضائل أقواله صلّى الله عليه وسلّم خصال عديدة، منها:
الخصلة الأولى:
ما أوتي من الحكمة البالغة، وأعطي من العلوم الجمّة الباهرة، وهو أمّي من أمّة أمّيّة لم يقرأ كتابا ولا درس علما ولا صحب عالما ولا معلّما فأتى بما بهر العقول وأذهل الفطن من إتقان ما أبان وإحكام ما أظهر ولم يتعثّر فيه بزلل في قول أو عمل.
وقد شرع من تقدّم من حكماء الفلاسفة سننا حملوا النّاس على التّديّن بها حين علموا أنّه لا صلاح للعالم إلّا بدين ينقادون له ويعملون به فما راق لها أثر ولا فاق لها خبر.
الخصلة الثانية:
حفظه لما أطلعه الله تعالى عليه من قصص الأنبياء مع الأمم وأخبار العالم في الزّمن الأقدم حتّى لم يعزب عنه منها صغير ولا كبير ولا شذّ عنه منها قليل ولا كثير.
وهو لا يضبطها بكتاب يدرسه ولا يحفظها بعين تحرسه، وما ذاك إلّا من ذهن صحيح وصدر فسيح وقلب شريح، وهذه الثّلاثة آلة ما استودع من الرّسالة وحمّل من أعباء النّبوّة فجدير أن يكون بها مبعوثا وعلى القيام بها محثوثا.
الخصلة الثالثة:
إحكامه لما شرع بأظهر دليل وبيانه بأوضح تعليل حتّى لم يخرج منه ما يوجبه معقول «١» ولا دخل فيه ما تدفعه العقول.
ولذلك قال صلّى الله عليه وسلّم: أوتيت جوامع الكلم واختصرت لي الحكمة اختصارا، لأنّه نبّه بالقليل على الكثير فكفّ عن الإطالة وكشف عن الجهالة وما تيسّر ذلك إلّا وهو عليه معان وإليه مقاد.

---

(١) معقول هنا بمعنى العقل.

الخصلة الرابعة:
ما أمر به من محاسن الأخلاق ودعا إليه من مستحسن الآداب وحثّ عليه من صلة الأرحام وندب إليه من التّعطّف على الضّعفاء والأيتام.

ثمّ ما نهى عنه من التّباغض والتّحاسد وكفّ عنه من التّقاطع والتّباعد لتكون الفضائل فيهم أكثر ومحاسن الأخلاق بينهم أنشر، ومستحسن الآداب عليهم أظهر وتكون إلى الخير أسرع ومن الشّرّ أمنع.
فيتحقّق فيهم قول الله تعالى: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
فلزموا أمره واتّقوا زواجره فتكامل بهم صلاح دينهم ودنياهم حتّى عزّ بهم الإسلام بعد ضعفه وذلّ بهم الشّرك بعد عزّه فصاروا أئمّة أبرارا وقادة أخيارا.
الخصلة الخامسة:
وضوح جوابه إذا سئل وظهور حجاجه إذا جادل لا يحصره عيّ، ولا يقطعه عجز ولا يعارضه خصم في جدال إلّا كان جوابه أوضح وحجاجه أرجح.
الخصلة السادسة:
أنّه محفوظ اللّسان من تحريف في قول واسترسال في خبر يكون إلى الكذب منسوبا وللصّدق مجانبا، فإنّه لم يزل مشهورا بالصّدق في خبره كان فاشيا وكثيرا حتّى صار بالصّدق مرقوما، وبالأمانة موسوما.
وكانت قريش بأسرها تتيقّن صدقه قبل الإسلام فجهروا بتكذيبه في استدعائهم إليه فمنهم من كذّبه حسدا ومنهم من كذّبه عنادا ومنهم من كذّبه استبعاد أن يكون نبيّا أو رسولا.
ولو حفظوا عليه كذبة نادرة في غير الرّسالة لجعلوها دليلا على تكذيبه في الرّسالة، ومن لزم الصّدق في صغره كان له في الكبر ألزم ومن عصم منه في حقّ نفسه كان في حقوق الله تعالى أعصم وحسبك بهذا دفعا لجاحد وردّا لمعاند.
الخصلة السّابعة:
تحرير كلامه في التّوخّي به إبّان حاجته والاقتصار منه على قدر كفايته فلا يسترسل فيه هذرا ولا يحجم عنه حصرا وهو فيما عدا حالتي الحاجة والكفاية أجمل النّاس صمتا وأحسنهم سمتا.
ولذلك حفظ كلامه حتّى لم يختلّ وظهر رونقه حتّى لم يعتلّ واستعذبته الأفواه حتّى بقي محفوظا في القلوب مدوّنا في الكتب فلن يسلم الاكثار من الزّلل ولا الهذر من الملل.
الخصلة الثّامنة:
أنّه أفصح النّاس لسانا وأوضحهم بيانا وأوجزهم كلاما وأجزلهم ألفاظا وأصحّهم معاني، لا يظهر فيه
جـ ١(ص: ٤٤٤)

هجنة التّكلّف ولا يتخلّله فيهقة التّعسّف.
وقد دوّن كثير من جوامع كلمه ومن كلامه الّذي لا يشاكل في فصاحته وبلاغته ومع ذلك فلا يأتي عليه إحصاء ولا يبلغه استقصاء.
ولو مزج كلامه بغيره لتميّز بأسلوبه ولظهر فيه آثار التّنافر فلم يلتبس حقّه من باطله ولبان صدقه من كذبه هذا ولم يكن متعاطيا للبلاغة ولا مخالطا لأهلها من خطباء أو شعراء أو فصحاء وإنّما هو من غرائز طبعه وبداية جبلّته وما ذاك إلّا لغاية تراد وحادثة تشاد.
الوجه الرابع: فضائل الأعمال:
وأمّا في فضائل أفعاله صلّى الله عليه وسلّم فمختبر بثمان خصال:
الخصلة الأولى:
حسن سيرته، وصحّة سياسته في دين نقل به الأمّة عن مألوف، وصرفهم به عن معروف إلى غير معروف، فأذعنت به النّفوس طوعا، وانقادت خوفا وطمعا.
وحسبك بما استقرّت قواعده على الأبد حتّى انتقل عن سلف إلى خلف يزاد فيهم حلاوته، ويشتدّ فيهم جدّته، ويرونه نظاما لإعصار تنقلب صروفها، ويختلف مألوفها أن يكون لمن قام به برهانا ولمن ارتاب به بيانا.
الخصلة الثّانية:

أن جمع بين رغبة من استمال ورهبة من استطاع حتّى اجتمع الفريقان على نصرته، وقاموا بحقوق دعوته رغبا في عاجل وآجل، ورهبا من زائل ونازل، لاختلاف الشّيم والطّباع في الانقياد الّذي لا ينتظم بأحدهما، ولا يستديم إلّا بهما، فلذلك صار الدّين بهما مستقرّا، والصّلاح بهما مستمرّا.

الخصلة الثّالثة:

أنّه عدل فيما شرعه من الدّين عن الغلوّ والتّقصير إلى التّوسّط، وخير الأمور أوساطها، وليس لما جاوز العدل حظّ من رشد، ولا نصيب من سداد.

الخصلة الرّابعة:

أنّه لم يمل بأصحابه إلى الدّنيا ولا إلى رفضها، وأمدّهم فيها بالاعتدال، وقال: «خيركم من لم يترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه» . وهذا صحيح؛ لأنّ الانقطاع إلى أحدهما اختلال، والجمع بينهما اعتدال.

وقال صلّى الله عليه وسلّم: «نعم المطيّة الدّنيا فارتحلوها تبلّغكم الآخرة» ، وإنّما كان كذلك لأنّ منها يتزوّد لآخرته. ويستكثر فيهما من طاعته وأنّه لا يخلو تاركها من أن يكون محروما مضاعا أو مرحوما مراعى وهو في الأوّل كلّ وفي الثّاني مستذلّ.

جـ ١(ص: ٤٤٥)

الخصلة الخامسة:

تصدّيه لمعالم الدّين ونوازل الأحكام حتّى أوضح للأمّة ما كلّفوه من العبادات، وبيّن لهم ما يحلّ وما يحرم من مباحات ومحظورات، وفصّل لهم ما يجوز ويمتنع من عقود ومناكح ومعاملات.

حتّى احتاج أهل الكتاب في كثير من معاملاتهم ومواريثهم لشرعه ولم يحتج شرعه إلى شرع غيره ثمّ مهّد لشرعه أصولا تدلّ على الحوادث المغفلة ويستنبط لها الأحكام المعلّلة فأغنى عن نصّ بعد ارتفاعه وعن التباس بعد إغفاله ثمّ أمر الشّاهد أن يبلّغ الغائب ليعلم بإنذاره ويحتجّ بإظهاره فقال صلّى الله عليه وسلّم: «بلّغوا عنّي ولا تكذبوا عليّ فربّ مبلّغ أوعى من سامع وربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه» .

فأحكم ما شرع من نصّ أو تنبيه وعمّ بما أمر من حاضر وبعيد حتّى صار لما تحمّله من الشّرع مؤدّيا ولما تقلّده من حقوق الأمّة موفّيا لئلّا يكون في حقوق الله زلل وذلك في برهة من زمانه لم يستوف تطاول الاستيعاب حتّى أوجز وأنجز وما ذلك إلّا بديع معجز.

الخصلة السّادسة:

انتصابه لجهاد الأعداء وقد أحاطوا بجهاته وأحدقوا بجنباته وهو في قطب مهجور، وعدد محقور فزاد به من قلّ وعزّ به من ذلّ وصار بإثخانه في الأعداء محذورا وبالرّعب منه منصورا فجمع بين التّصدّي لشرع الدّين حتّى ظهر وانتشر وبين الانتصاب لجهاد العدوّ حتّى قهر وانتصر والجمع بينهما معوز إلّا لمن أمدّه الله بمعونته وأيّده بلطفه والمعوز معجز.

الخصلة السّابعة:

ما خصّ به من الشّجاعة في حروبه والنّجدة في مصابرة عدوّه فإنّه لم يشهد حربا في فزع إلّا صابر حتّى انجلت عن ظفر أو دفاع وهو في موقفه لم يزل عنه هربا ولا حاز فيه رغبا.

بل ثبت بقلب آمن وجأش ساكن قد ولّى عنه أصحابه يوم حنين حتّى بقي بإزاء جمع كثير وجمّ غفير في تسعة من أهل بيته وأصحابه على بغلة مسبوقة إن طلبت غير مستعدّة لهرب ولا طلب وهو ينادي أصحابه ويظهر نفسه ويقول إليّ عباد الله «أنا النّبيّ لا كذب أنا ابن عبد المطّلب» فعادوا أشذاذا وأرسالا وهوازن تراه وتحجم عنه فما هاب حرب من كاثره ولا انكفأ عن مصاولة من صابره.

وقد عضّده الله تعالى بأنجاد وأنجاد فانحازوا وصبر حتّى أمدّه الله بنصره وما لهذه الشّجاعة من عديل ولقد طرق المدينة فزغ فانطلق النّاس فتلقّوه نحو الصّوت فوجدوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد سبقهم إليه فتلقّوه عائدا على فرس عري لأبي طلحة الأنصاريّ وعليه السّيف فجعل يقول: أيّها النّاس لم تراعوا لم تراعوا ثمّ قال لأبي طلحة إنّا وجدنا بحرا وكان الفرس يبطىء فما سبقه فرس بعد ذلك.

جـ ١(ص: ٤٤٦)

وما ذاك إلّا عن ثقة من أنّ الله تعالى سينصره وأنّ دينه سيظهره تحقيقا لقوله تعالى: لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ* (التوبة/ ٣٣) وتصديقا لقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «زويت لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمّتي ما زوي لي منها» وكفى بهذا قياما بحقّه وشاهدا على صدقه.

الخصلة الثّامنة:

ما منح من السّخاء والجود حتّى جاد بكلّ موجود وآثر بكلّ مطلوب ومحبوب ومات ودرعه مرهونة عند يهوديّ على آصع من شعير لطعام أهله.

وقد ملك جزيرة العرب وكان فيها ملوك وأقيال لهم خزائن وأموال يقتنونها ذخرا ويتباهون بها فخرا ويستمتعون بها أشرا وبطرا وقد حاز ملك جميعهم فما اقتنى دينارا ولا درهما، لا يأكل إلّا الخشن ولا يلبس إلّا الخشن.

ويعطي الجزل الخطير، ويصل الجمّ الغفير، ويتجرّع مرارة الإقلال، ويصبر على سغب الاختلال، وكان يقول: أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن ترك دينا أو ضياعا فعليّ ومن ترك مالا فلورثته فهل مثل هذا الكرم والجود كرم وجود؟ أم هل لمثل هذا الإعراض والزّهادة إعراض وزهد؟ هيهات.

هل يدرك شأو من هذه شذور من فضائله ويسير من محاسنه التي لا يحصى لها عدد ولا يدرك لها أمد، ولم تكمل في غيره فيساويه. ولا كذّب بها ضدّ يناويه ولقد جهد كلّ منافق ومعاند وكلّ زنديق وملحد أن يزري عليه في قول أو فعل أو يظفر بهفوة في جدّ أو هزل فلم يجد إليه سبيلا وقد جهد جهده وجمع كيده.

فأيّ فضل أعظم من فضل شاهده الحسدة والأعداء فلم يجدوا فيه مغمزا لثالب أو قادح ولا مطعنا لجارح أو فاضح فهو كما قال الشّاعر:

شهد الأنام بفضله حتّى العدا ... والفضل ما شهدت به الأعداء

وبالجملة فآية أخلاقه صلوات الله عليه آية كبرى وعلم من أعلام نبوّته العظمى، وقد أجملها بعضهم بقوله وآية أخرى لا يعرفها إلّا الخاصّة، ومتى ذكرت الخاصّة فالعامّة في ذلك مثل الخاصّة.

وهي الأخلاق والأفعال الّتي لم تجتمع لبشر قطّ قبله ولا تجتمع لبشر بعده، وذلك أنّا لم نر ولم نسمع لأحد قطّ كصبره ولا كحلمه ولا كوفائه ولا كزهده ولا كجوده ولا كنجدته ولا كصدق لهجته ولا ككرم عشرته ولا كتواضعه ولا كحفظه ولا كصمته إذا صمت ولا كقوله إذا قال ولا كعجيب منشئه ولا كعفوه ولا كدوام طريقته وقلّة امتنانه.

ولم تجد شجاعا قطّ إلّا وقد جال جولة وفرّ فرّة وانحاز مرّة ولا يستطيع منافق ولا زنديق ولا دهريّ أن يحدّث أنّه صلّى الله عليه وسلّم جال جولة قطّ ولا فرّ فرّة قطّ ولا حام عن غزوة ولا هاب حربا من مكاثرة.

وذلك من أعجب ما آتاه الله نبيّا قطّ مع سائر ما جاء به من الآيات ومن ضروب البرهانات إذ أعداؤه جمّ

جـ ١(ص: ٤٤٧)

غفير وجمعهم كثير فخصمهم حين جادلوه وصابرهم حين عاندوه وكابد من الشّدائد ما لم يثبت عليها إلّا كلّ معصوم ولم يسلم منها إلّا منصور إلى أن علت كلمته وظهرت دعوته.

وكلّ هذه آيات تنذر بالحقّ وتلائم الصّدق، لأنّ الله لا يهدي كيد الخائنين ولا يصلح عمل المفسدين، انتهى كلامه.

ثانيا: الخصائص:

توطئة:

وردت الآيات القرآنيّة والأحاديث النّبويّة تصرّح بعلوّ منزلة نبيّنا الكريم صلّى الله عليه وسلّم وأنّه أعلى النّاس قدرا، وأعظمهم محلّا وأكملهم محاسن وفضلا وأنّ الله تبارك وتعالى قد أكرمه بخصائص لم يعطها غيره من الأنبياء والمرسلين- صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- والبشر.

الخصائص لغة:
قال صاحب القاموس: (خصّه) بالشيء، خصّا وخصوصا وخصوصيّة: فضّله «١» .
وقال في لسان العرب: خصّه بالشّيء يخصّه خصّا.. واختصّه: أفرده به دون غيره ويقال: اختصّ فلان بالأمر وتخصّص له إذا انفرد «٢» .
واصطلاحا:
هي ما اختصّ الله تعالى نبيّه صلّى الله عليه وسلّم وفضّله به على سائر الأنبياء والرّسل عليهم الصّلاة والسّلام وكذلك سائر البشر.
موارد الخصائص:
أولى العلماء رحمهم الله موضوع الخصائص النّبوية عناية كبرى قديما وحديثا فتناولوه بحثا وتأليفا فذكروا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم خصائص كثيرة انفرد بها عن إخوانه الأنبياء والمرسلين كما ذكروا له خصائص أخرى انفرد بها عن أمّته.
فمن العلماء رحمهم الله من صنّف تصانيف خاصّة بهذا الموضوع كصنيع الإمام العزّ بن عبد السّلام في كتاب «بداية السّول في تفضيل الرّسول» . والإمام ابن الملقّن في كتابه «خصائص أفضل المخلوقين» . والإمام جلال الدّين السّيوطيّ في كتابه «الخصائص الكبرى» ... وغير ذلك.
ومن العلماء رحمهم الله من أدرج موضوع الخصائص ضمن موضوعات أخرى كصنيع الإمام أبي نعيم

---

(١) القاموس (٢/ ٣٠٠) .
(٢) لسان العرب (٧/ ٢٤) .

الأصبهانيّ في كتابه «دلائل النّبوّة» . والإمام البيهقيّ في كتابه «دلائل النّبوّة» . والإمام القاضي عياض في كتابه «الشّفا بتعريف حقوق المصطفى» . والإمام النّوويّ في كتابه «تهذيب الأسماء واللّغات» ، والإمام ابن الجوزيّ في كتابه «الوفا بأحوال المصطفى» . والإمام ابن كثير في كتابيه «البداية والنّهاية» و «الفصول في سيرة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم» ... وغير ذلك.
بالإضافة إلى ما ورد مفرّقا على أبواب مختلفة بمناسبات شتّى في مدوّنات الحديث والتّفسير والسّير وغيرها من دواوين الإسلام.
فوائد معرفة الخصائص:
فمن ذلك الوقوف على ما انفرد به نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم عن غيره من الأنبياء والمرسلين عليهم الصّلاة والسّلام وما أكرمه الله به من المنح والهبات تشريفا له وتعظيما وتكريما ممّا يدلّ على جليل منزلته عند ربّه.
فمعرفة ذلك تجعل المسلم يزداد إيمانا مع إيمانه ومحبّة وتبجيلا لنبيّه وشوقا له ويقينا به. وتدعو غير المسلم لدراسة أحوال هذا النّبيّ الكريم صلّى الله عليه وسلّم ومن ثمّ الإيمان والتّصديق به وبما جاء به إن كان من المنصفين.
ويضمّ إلى ذلك فوائد ذكر ما اختصّ به عن أمّته من الأحكام. فمنها: تمييز تلك الخصائص ومعرفتها وثمرة ذلك بيان تفرّده واختصاصه بها وأنّ غيره ليس له أن يتأسّى به فيها. قال الحافظ ابن حجر رحمه الله عند ذكره لفوائد حديث «نهى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن الوصال» قالوا: «إنّك تواصل ...» قال فيه ثبوت خصائصه صلّى الله عليه وسلّم وأنّ عموم قوله تعالى لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ «١» مخصوص «٢» .
بم تثبت الخصائص؟
نصّ جمع من أهل العلم أنّ الخصائص لا تثبت إلّا بدليل صحيح «٣» . وتمشّيا مع هذه القاعدة فقد تركنا كثيرا ممّا ذكره بعض أهل العلم وتساهلوا في إيراده على أنّه ممّا اختصّ به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن الأنبياء والمرسلين- صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- أو اختصّ به عن أمّته ولم يقم

على ذلك دليل صحيح، واكتفينا بانتقاء طائفة عطرة من هذه الخصائص ممّا ساندها الدّليل الشّرعيّ الصّحيح.

---

(١) سورة الأحزاب: آية (٢١) .
(٢) فتح الباري (٤/ ٢٤٢) .
(٣) المواهب اللدنية بالمنح المحمدية (١/ ٣٨٦) نقلا عن العراقي.

أقسام الخصائص:

يتبيّن ممّا سبق أنّ الخصائص من حيث الأصل تنقسم إلى قسمين:

القسم الأوّل:

خصائص اختصّ بها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم دون غيره من الأنبياء والمرسلين عليهم الصّلاة والسّلام.

القسم الثّاني:

ما اختصّ به صلّى الله عليه وسلّم من الخصائص والأحكام دون أمّته. وقد يشاركه في بعضها الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام.

القسم الأوّل الخصائص التي انفرد بها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن بقية الأنبياء والمرسلين- صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين-

اختصّ الله تبارك وتعالى عبده ورسوله محمّدا صلّى الله عليه وسلّم دون غيره من الأنبياء عليهم السّلام بخصائص كثيرة تشريفا له وتكريما ممّا يدلّ على جليل رتبته وشرف منزلته عند ربّه.

ففي الدّنيا آتاه القرآن العظيم المعجزة المحفوظة الخالدة، ونصره بالرّعب، وأرسله إلى الخلق كافّة وختم به النّبيّين ... إلى غير ذلك من الخصائص ممّا سيأتي مفصّلا بإذن الله.

وفي الآخرة أكرمه بالشّفاعة العظمى والوسيلة والفضيلة والحوض وسيادة ولد آدم إلى غير ذلك ممّا سيأتي.

وأكرمه بخصائص في أمّته لم تعطها غيرها من الأمم. ففي الدّنيا أحلّ لها الغنائم وجعل لها الأرض طهورا ومسجدا وجعلها خير الأمم، إلى غير ذلك ممّا سيأتي. وفي الآخرة بأن جعلها شاهدة للأنبياء على أممهم، وجعلها أوّل الأمم دخولا الجنّة إلى غير ذلك ممّا سيأتي.

وقد قسّم العلماء- رحمهم الله- الخصائص الّتي انفرد بها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن بقيّة الأنبياء والمرسلين عليهم الصّلاة والسّلام إلى عدّة أنواع:

النّوع الأوّل: ما اختصّ به في ذاته في الدّنيا.
النّوع الثّاني: ما اختصّ به في ذاته في الآخرة.
النّوع الثّالث: ما اختصّ به في أمّته في الدّنيا.
النّوع الرّابع: ما اختصّ به في أمّته في الآخرة «١» .

---

(١) انظر الخصائص الكبرى للسيوطي (٢/ ٣١٤) .

النوع الأول: ما اختص به من الخصائص لذاته في الدنيا:

اختصّ الله تبارك وتعالى نبيّه محمّدا صلّى الله عليه وسلّم دون غيره من الأنبياء والمرسلين عليهم الصّلاة والسّلام بخصائص في الدّنيا لذاته منها ما يلي:

١- عهد وميثاق:

أخذ الله- عزّ وجلّ- العهد والميثاق «١» على جميع الأنبياء والمرسلين من لدن آدم إلى عيسى عليهما السّلام لما آتى الله أحدهم من كتاب وحكمة وبلغ أيّ مبلغ ثمّ بعث محمّد بن عبد الله صلّى الله عليه وسلّم ليؤمننّ به ولينصرنّه ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنّبوّة من اتّباعه ونصرته، كما أمرهم أن يأخذوا هذا الميثاق على أممهم لئن بعث محمّد صلّى الله عليه وسلّم وهم أحياء ليؤمننّ به ولينصرنّه «٢» .

قال الله تعالى: وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا قالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ «٣» .

قال عليّ بن أبي طالب وابن عبّاس- رضي الله عنهم-: «ما بعث الله نبيّا من الأنبياء إلّا أخذ عليه ميثاق لئن بعث الله محمّدا وهو حيّ ليؤمننّ به ولينصرنّه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمّته لئن بعث محمّد وهم أحياء ليؤمننّ به ولينصرنّه» . وقال هذا القول غير واحد من أئمّة التّفسير «٤» .

وعن جابر بن عبد الله- رضي الله عنهما-: «أنّ عمر بن الخطّاب أتى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فغضب فقال: «أمتهوّكون «٥» فيها يا ابن الخطّاب؟ والّذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقيّة لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحقّ فتكذّبوا به أو بباطل فتصدّقوا به، والّذي نفسي بيده لو أنّ موسى صلّى الله عليه وسلّم كان حيّا ما وسعه إلّا أن يتّبعني» «٦» .

قال الحافظ ابن كثير- رحمه الله-: «فالرّسول محمّد خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدّين، هو الإمام الأعظم الّذي لو وجد في أيّ عصر لكان هو الواجب الطّاعة المقدّم على الأنبياء كلّهم، ولهذا

---

(١) انظر: الوفا في أحوال المصطفى لابن الجوزي (٢/ ٦) . وشمائل الرسول لابن كثير (٥٤٥) ، والخصائص الكبرى للسيوطي (١/ ١٦) .

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٣٨٦) بتصرف.

(٣) سورة آل عمران: الآية (٨١) .

(٤) انظر تفسير ابن جرير الطبري (٢/ ٢٣٦) ، وتفسير ابن كثير (١/ ٣٨٦) ، وتفسير البغوي (١/ ٣٢٢) .

(٥) أمتهوكون: التهوك كالتهور، وهو الوقوع في الأمر بغير روية. والمتهوك: الذي يقع في كل أمر، وقيل: هو التحير. انظر النهاية في غريب الحديث لابن الاثير (٥/ ٢٨٢) .

(٦) رواه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٣٨٧) ، والدارمي برقم (٤٤١) ، وحسنه الألباني- انظر مشكاة المصابيح (١/ ٦٣) .

كان إمامهم ليلة الإسراء لمّا اجتمعوا ببيت المقدس ... » «١» .

٢- رسالة عامة «٢» :

كان الأنبياء والرّسل السّابقون- عليهم الصّلاة والسّلام- يرسلون إلى أقوامهم خاصّة كما قال الله تعالى: لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ* «٣» . وَإِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً* «٤» . وَإِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً* «٥» . وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ* «٦» ، وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً* «٧» . وأمّا نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم، فرسالته عامّة لجميع النّاس عربهم وعجمهم وإنسهم وجنّهم، وهذا من خصائصه صلّى الله عليه وسلّم.

قال العزّ بن عبد السّلام- رحمه الله-: «ومن خصائصه: أنّ الله تعالى أرسل كلّ نبيّ إلى قومه خاصّة، وأرسل نبيّنا محمّدا صلّى الله عليه وسلّم إلى الجنّ والإنس، ولكلّ نبيّ من الأنبياء ثواب تبليغه إلى أمّته. ولنبيّنا صلّى الله عليه وسلّم ثواب التّبليغ إلى كلّ من أرسل إليه، تارة لمباشرة البلاغ، وتارة بالنّسبة إليه، ولذلك تمنّن عليه بقوله تعالى: وَلَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً «٨» . ووجه التّمنّن: أنّه لو بعث في كلّ قرية نذيرا لما حصل لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلا أجر إنذاره لأهل قريته «٩» .

وقد جاءت الآيات القرآنيّة والأحاديث النّبويّة تشير إلى هذه الخصوصيّة:
- قال الله تعالى: وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً «١٠» .
- وقال تعالى: وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ «١١» .
- وقال تعالى: قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً «١٢» .
- وقال تعالى: تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً «١٣» .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (١/ ٣٨٦) .
(٢) انظر الفصول (ص ٢٨٥، ٢٨٦) ، وخصائص أفضل المخلوقين (ص ٤٠٠) ، والخصائص الكبرى (٢/ ٣١٩، ٣٢٠) .
(٣) سورة الأعراف: الآية (٥٩) .
(٤) سورة الأعراف: الآية (٦٥) .
(٥) سورة الأعراف: الآية (٧٣) .
(٦) سورة الأعراف: الآية (٨٠) .
(٧) سورة الأعراف: الآية (٨٥) .
(٨) سورة الفرقان: الآية (٥١) .
(٩) بداية السول في تفضيل الرسول (ص ٤٦، ٤٧) .
(١٠) سورة سبأ: آية (٢٨) .
(١١) سورة الأنبياء: الآية (١٠٧) .
(١٢) سورة الأعراف: الآية (١٥٨) .
(١٣) سورة الفرقان: الآية (١) .

- وقال تعالى: وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ «١» .
وعن جابر- رضي الله عنه-: أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «أعطيت خمسا لم يعطهنّ أحد قبلي: نصرت بالرّعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا فأيّما رجل من أمّتي أدركته الصّلاة فليصلّ، وأحلّت لي المغانم ولم تحلّ لأحد قبلي، وأعطيت الشّفاعة، وكان النّبيّ يبعث إلى قومه خاصّة وبعثت إلى النّاس عامّة «٢» .
وفي رواية: « ... كان كلّ نبيّ يبعث إلى قومه خاصّة وبعثت إلى كلّ أحمر وأسود»
« «٤» .
- وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «والّذي نفس محمّد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمّة يهوديّ ولا نصرانيّ ثمّ يموت ولم يؤمن بالّذي أرسلت به إلّا كان من أصحاب النّار» «٥» .
- وعن ابن عبّاس- رضي الله عنهما-؛ قال «إنّ الله فضّل محمّدا صلّى الله عليه وسلّم على الأنبياء وعلى أهل السّماء» .
فقالوا: يا ابن عبّاس بن فضّله على أهل السّماء؟ قال: إنّ الله قال لأهل السّماء: وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ «٦» الآية. وقال الله لمحمّد صلّى الله عليه وسلّم: إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً* لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ «٧» . قالوا: فما فضله على الأنبياء؟ قال: قال الله- عزّ وجلّ-: وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ «٨» الآية. وقال الله عزّ وجلّ لمحمّد صلّى الله عليه وسلّم وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ «٩» .
فأرسله إلى الجنّ والإنس» «١٠» .
٣- نبوة خاتمة: «١١»

من رحمة الله تعالى بعباده إرسال محمّد صلّى الله عليه وسلّم إليهم، ومن تشريفه له ختم الأنبياء والمرسلين به وإكمال الدّين الحنيف له. وقد أخبر الله تبارك وتعالى في كتابه ورسوله صلّى الله عليه وسلّم في السّنّة المتواترة عنه أنّه لا نبيّ بعده ليعلم العباد أنّ

---

(١) سورة الأحقاف: الآية (٢٩) .
(٢) رواه البخاري، واللفظ له- انظر الفتح (١/ ٥٥٣) ، ومسلم برقم (٥٢١) .
(٣) أحمر وأسود: أراد بذلك جميع العالم. فالأسود وهم الحبوش والزنوج وغيرهم. والأحمر هو الأبيض، والعرب تسمي الأبيض أحمر. أفاده ابن الاثير- انظر جامع الأصول (٨/ ٥٢٩، ٥٣٠) .
(٤) رواه مسلم برقم (٥٢١) .
(٥) رواه مسلم برقم (١٥٣) .
(٦) سورة الأنبياء: الآية (٢٩) .
(٧) سورة الفتح: الآية (١، ٢) .
(٨) سورة إبراهيم: الآية (٤) .
(٩) سورة سبأ: الآية (٢٨) .
(١٠) رواه الدارمي (١/ ٢٩، ٣٠) برقم (٤٧) ، ورواه أيضا ابن أبي حاتم- انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٥٤٧) . قال الحافظ الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير الحكم بن أبان وهو ثقة. ورواه أبو يعلي باختصار شديد- انظر مجمع الزوائد (٨/ ٢٥٥) .
(١١) انظر الخصائص للسيوطي (٢/ ٣١٨) .

كلّ من ادّعى هذا المقام بعده فهو كذّاب أفّاك دجّال. قال الله تعالى ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَلكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخاتَمَ «١» النَّبِيِّينَ وَكانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً «٢» .

وممّا يدلّ على هذه الخصوصيّة من السّنّة ما يأتي:

- عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «إنّ مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلّا موضع لبنة «٣» من زاوية فجعل النّاس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلّا وضعت هذه اللّبنة؟ فأنا اللّبنة وأنا خاتم النّبيّين» «٤» .

وزاد مسلم في حديثه؛ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «فأنا موضع اللّبنة جئت فختمت الأنبياء «٥» .

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه- في قصّة العرض على الله تبارك وتعالى يوم القيامة، وفزع النّاس إلى الأنبياء عليهم السّلام- قال صلّى الله عليه وسلّم: «أنا سيّد ولد آدم ... فيقول عيسى ... اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى محمّد صلّى الله عليه وسلّم، فيأتون محمّدا صلّى الله عليه وسلّم فيقولون: يا محمّد! أنت رسول الله وخاتم الأنبياء ... » «٦» .

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: فضّلت على الأنبياء بستّ: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرّعب، وأحلّت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهورا ومسجدا، وأرسلت إلى الخلق كافّة، وختم بي النّبيّون» . «٧»

- وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه-؛ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ الرّسالة والنّبوّة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبيّ. قال فشقّ ذلك على النّاس، قال: ولكن المبشّرات. قالوا: يا رسول الله وما المبشّرات؟ قال:

«رؤيا الرّجل المسلم وهي جزء من أجزاء النّبوّة» «٨» .

- وعن محمّد بن جبير بن مطعم عن أبيه- رضي الله عنهما-؛ أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «إنّ لي أسماء: أنا محمّد،

(١) خاتم وخاتم: لغتان بفتح التاء وكسرها مثل طابع، وقد قرىء بهما. والمعنى على فتح التاء: أنهم ختموا به، فهو كالخاتم والطابع لهم، والمعنى على كسر التاء، أنه ختمهم أي جاء آخرهم. انظر تفسير القرطبي (١٤/ ١٩٦) بتصرف.
(٢) سورة الأحزاب: الآية (٤٠) .
(٣) اللبنة: بفتح اللام وكسر الباء بعدها نون، وبكسر اللام وسكون الباء أيضا هي: القطعة من الطين تعجن وتجبل وتعد للبناء، ويقال لها ما لم تحرق لبنة، فإذا أحرقت فهي آجرة.
(٤) رواه البخاري- الفتح ٦ (٣٥٣٥) ، ومسلم برقم (٢٢٨٦) .
(٥) رواه مسلم برقم (٢٢٨٧) .
(٦) رواه البخاري- الفتح ٨ (٤٧١٢) ، ومسلم برقم (١٩٤) .
(٧) رواه مسلم برقم (٥٢٣) .
(٨) رواه الترمذي برقم (٢٢٧٢) وقال: حسن صحيح، والإمام أحمد في مسنده (٣/ ٢٦٧) ، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٩١) وقال: صحيح الإسناد علي شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وأيضا صححه الألباني- انظر صحيح الجامع برقم (١٦٢٧) ، والحديث أصله في الصحيحين.
جـ ١(ص: ٤٥٤)

وأنا أحمد، وأنا الماحي الّذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الّذي يحشر النّاس على قدميّ، وأنا العاقب الّذي ليس بعده أحد» «١» .
- وعن أبي هريرة- رضي الله عنه-: قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلّما هلك نبيّ خلفه نبيّ، وأنّه لا نبيّ بعدي، وسيكون بعدي خلفاء فيكثرون» قالوا: يا رسول الله! فما تأمرنا؟ قال «أوفوا ببيعة الأوّل فالأوّل، ثمّ أعطوهم حقّهم، واسألوا الله الّذي لكم، فإنّ الله سائلهم عمّا استرعاهم» «٢» .
٤- رحمة مهداة: «٣»
أرسل الله- تبارك وتعالى- رسوله محمّدا صلّى الله عليه وسلّم رحمة للخلائق عامّة مؤمنهم وكافرهم وإنسهم وجنّهم، وجعله رءوفا رحيما بالمؤمنين خاصّة فمن قبل الرّحمة وشكر هذه النّعمة «٤» سعد في الدنيا والآخرة، ومن ردّها وجحدها خسر الدّنيا والآخرة.
ويؤيّد هذه الخصوصيّة قوله تعالى: وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ «٥» .
- وعن أبي هريرة- رضي الله عنه-: قال: قيل: يا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ادع الله على المشركين. قال: «إنّي لم أبعث لعّانا وإنّما بعثت رحمة» «٦» .
- وعنه- رضي الله عنه-: قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «يا أيّها النّاس إنّما أنا رحمة مهداة» «٧» .
- وعن أبي موسى الأشعريّ- رضي الله عنه- قال: كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يسمّي لنا نفسه أسماء، فقال: «أنا محمّد، وأحمد، والمقفّى «٨» والحاشر، ونبيّ التّوبة، ونبيّ الرّحمة» «٩» .
- وعن سلمان- رضي الله عنه-؛ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم « ... أيّما رجل من أمّتي سببته سبّة أو لعنته لعنة

---

(١) رواه البخاري- الفتح (٦/ ٣٥٣٢) إلى قوله «وأنا العاقب» . ومسلم برقم (١٢٥/ ٢٣٥٤) . واللفظ له.
(٢) رواه البخاري- الفتح ٦ (٣٤٥٥) ، ورواه مسلم برقم (١٨٤٢) .
(٣) انظر بداية السول في تفضيل الرسول (ص ٦٥، ٦٦) ، والخصائص الكبرى (٢/ ٣٢٢) .
(٤) قال تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ* جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَبِئْسَ الْقَرارُ سورة إبراهيم: آية (٢٨، ٢٩) . قال عمر وابن عباس- رضي الله عنهم، في قوله تعالى: الَّذِينَ

بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً قالا: النعمة: محمد، والذين بدلوا نعمة الله كفرا: كفار قريش. انظر تفسير ابن جرير (١٣/ ١٤٥- ١٤٧) . وتفسير البغوي (٣/ ٣٥) . والشمائل لابن كثير (٥٥٩) .
(٥) سورة الأنبياء: الآية (١٠٧) .
(٦) رواه مسلم برقم (٢٥٩٩) .
(٧) رواه الحاكم في المستدرك (١/ ٣٥) واللفظ له وقال: هذا حديث صحيح على شرطهما ووافقه الذهبي. وقال الحافظ الهيثمي: رواه البزار والطبراني في الصغير والأوسط ورجال البزار رجال الصحيح. قلت: ولفظ الحديث عندهم هكذا: عن أبي هريرة.. «إنما بعثت رحمة مهداة» . انظر مجمع الزوائد (٨/ ٢٥٧) .
(٨) المقفى: قال ابن الأثير: هو المولي الذاهب. يعني أنه آخر الأنبياء المتبع لهم. فإذا قفى فلا نبي بعده- انظر النهاية (٤/ ٩٤) .
(٩) رواه مسلم برقم (٢٣٥٥) .

في غضبي فإنّما أنا من ولد آدم أغضب كما يغضبون وإنّما بعثني رحمة للعالمين فأجعلها عليهم صلاة يوم القيامة» «١» .
- قال ابن عبّاس- رضي الله عنهما- في قوله تعالى: وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ: «كان محمّد صلّى الله عليه وسلّم رحمة لجميع النّاس فمن تبعه كان له رحمة في الدّنيا والآخرة، ومن لم يتبعه عوفي ممّا كان يبتلى به سائر الأمم من الخسف والمسخ والقذف» «٢» .
- وقال بعض العلماء في قوله تعالى: وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ: لجميع الخلق للمؤمن رحمة بالهداية ورحمة للمنافق بالأمان من القتل ورحمة للكافر بتأخير العذاب «٣» .
- وأمّا كونه صلّى الله عليه وسلّم رحمة لأهل الإيمان خاصّة، فقد قال تعالى: لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ «٤» .
وقال تعالى: وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ «٥» .
٥- أمنة لأصحابه: «٦»
أكرم الله- تبارك وتعالى- نبيّه محمّدا صلّى الله عليه وسلّم فجعل وجوده بين أصحابه أمنة لهم من العذاب، بخلاف ما حصل لبعض الأمم السّابقة حيث عذّبوا في حياة أنبيائهم. وكان صلّى الله عليه وسلّم أمنة لأصحابه كذلك من الفتن والحروب وارتداد من ارتدّ من الأعراب واختلاف القلوب ونحو ذلك ممّا أنذر به صريحا ووقع بعد وفاته.
قال العزّ بن عبد السّلام- رحمه الله-: « ... ومن خصائصه صلّى الله عليه وسلّم أنّ الله تعالى أرسله (رحمة للعالمين) فأمهل عصاة أمّته ولم يعاجلهم إبقاء عليهم بخلاف من تقدّمه من الأنبياء فإنّهم لمّا كذّبوا عوجل مكذّبهم» » .
وقد جاء النّصّ على هذه الخصوصيّة من القرآن الكريم والسّنّة المطهّرة وآثار السّلف الصّالح، فمن ذلك ما روى البخاريّ ومسلم «٨» من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. قال: قال أبو جهل: اللهمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السّماء أو ائتنا بعذاب أليم «٩» . فنزلت وَما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ

---

(١) رواه أبو داود برقم (٤٦٥٩) واللفظ له، والامام أحمد (٥/ ٤٣٧) . والحديث أصله في مسلم برقم (٢٦٠١) .
(٢) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما. انظر تفسير ابن جرير (١٧/ ٨٣) ، وتفسير القرطبي (١١/ ٣٥٠) ، وتفسير ابن كثير (٣/ ٢١١، ٢١٢) .
(٣) انظر الشفا للقاضي عياض (١/ ٥٧) .

(٤) سورة التوبة: الآية (١٢٨) .
(٥) سورة التوبة: الآية (٦١) .
(٦) انظر الخصائص الكبرى (٢/ ٣٢٢) .
(٧) غاية السول (ص ٦٥، ٦٦) .
(٨) البخاري- الفتح ٨ (٤٦٤٨) واللفظ له، ومسلم برقم (٢٧٩٦) .
(٩) سورة الأنفال: الآية (٣٢) .
جـ ١(ص: ٤٥٦)

وَما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ* وَما لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ «١» .
وعن أبي موسى- رضي الله عنه-: قال: صلّينا المغرب مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ثمّ قلنا؛ لو جلسنا حتّى نصلّي معه العشاء. قال: فجلسنا فخرج علينا فقال: «ما زلتم ههنا؟» قلنا: يا رسول الله! صلّينا معك المغرب، ثمّ قلنا نجلس حتى نصلّي معك العشاء. قال: «أحسنتم أو أصبتم» . قال فرفع رأسه إلى السّماء وكان كثيرا ما يرفع رأسه إلى السّماء فقال: «النّجوم أمنة للسّماء «٢» فإذا ذهبت النّجوم أتى السّماء ما توعد. وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمّتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمّتي «٣» ما يوعدون «٤» .
- وقال صلّى الله عليه وسلّم- كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- في صلاة الكسوف: « ... ربّ ألم تعدني أن لا تعذّبهم وأنا فيهم؟ ألم تعدني أن لا تعذّبهم وهم يستغفرون؟» «٥» . وفي رواية « ... لم تعدني هذا وأنا فيهم، لم تعدني هذا ونحن نستغفرك» «٦» .
- وقال ابن عبّاس- رضي الله عنهما- «إنّ الله جعل في هذه الأمّة أمانين لا يزالون معصومين مجارين من قوارع العذاب ماداما بين أظهرهم فأمان قبضه الله إليه وأمان بقي فيكم قوله: وَما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ «٧» .
٦- القسم بحياته: «٨»
أقسم الله تبارك وتعالى بأشياء كثيرة من مخلوقاته «٩» الدّالّة على كماله وعظمته ليؤكّد المعنى في نفوس

---

(١) سورة الأنفال: الآية (٣٣، ٣٤) .
(٢) أمنة للسماء: قال العلماء: الأمنة والأمن والأمان بمعنى، ومعنى الحديث: أن النجوم مادامت باقية فالسماء باقية، فإذا انكدرت النجوم وتناثرت يوم القيامة وهنت السماء فانفطرت وانشقت وذهبت.
(٣) فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون: معناه من ظهور البدع والحوادث في الدين والفتن فيه وغير ذلك. وهذه كلها من معجزاته صلّى الله عليه وسلّم. شرح الجمل السابقة النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ٨٣) .
(٤) رواه مسلم برقم (٢٥٣١) .
(٥) رواه أبو داود برقم (١١٩٤) واللفظ له. والنسائي بمعناه (٣/ ١٣٨، ١٤٩) ، وصححه الألباني- انظر صحيح سنن أبي داود برقم (١٠٥٥) .
(٦) رواه النسائي (٣/ ١٨٣) ، ورواه الإمام أحمد في مسنده بمعناه (٢/ ١٥٩) ، وصحح إسناده أحمد شاكر في ترتيبه على المسند برقم (٦٤٨٣) ورقم (٦٧٦٣) .
(٧) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير بمعناه- انظر تفسير ابن جرير (٩/ ١٥٤) ، وتفسير ابن كثير (٢/ ٣١٧) .
(٨) انظر الخصائص للسيوطي (٢/ ٣٢٢) .
(٩) للخالق سبحانه أن يقسم بما يشاء من مخلوقاته، أما المخلوق فلا يجوز له القسم والحلف إلا بالله تعالى وأسمائه وصفاته والأدلة على ذلك كثيرة منها: قوله صلّى الله عليه وسلّم «من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت» . رواه البخاري- الفتح ١١ (٦٦٤٦) . ومسلم برقم (٣/ ١٦٤٦) . قال الحافظ ابن

حجر- رحمه الله-: قال العلماء: السر في النهي عن الحلف بغير الله أن الحلف بالشيء يقتضي تعظيمه والعظمة في الحقيقة إنما هي لله وحده- انظر الفتح (١١/ ٥٤٠) .

المخاطبين، فأقسم تعالى بالشّمس والقمر والفجر والسّماء وغير ذلك. بينما نجده سبحانه وتعالى لم يقسم بأحد من البشر إلّا بالرّسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم حيث يقول جلّ شأنه لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ «١» .
قال ابن عبّاس- رضي الله عنهما-: «ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفسا أكرم عليه من محمّد صلّى الله عليه وسلّم وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، قال الله تعالى: لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ.
يقول: وحياتك وعمرك وبقائك في الدّنيا «٢» .
وقال العزّ بن عبد السّلام- رحمه الله-: «ومن خصائصه أنّ الله تعالى أقسم بحياته صلّى الله عليه وسلّم.
فقال: لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ.
والإقسام بحياة المقسم بحياته يدلّ على شرف حياته وعزّتها عند المقسم بها، وأنّ حياته صلّى الله عليه وسلّم لجديرة أن يقسم بها لما فيها من البركة العامّة والخاصّة، ولم يثبت هذا لغيره صلّى الله عليه وسلّم «٣» .
٧- نداؤه بوصف النبوة والرسالة: «٤»
خاطب الله- عزّ وجلّ- رسوله صلّى الله عليه وسلّم في القرآن الكريم بالنّبوّة والرّسالة ولم يناده باسمه زيادة في التّشريف والتّكريم أمّا سائر الأنبياء والمرسلين عليهم الصّلاة والسّلام فخوطبوا بأسمائهم.
قال الله تعالى: يا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ «٥» .
قال الله تعالى: يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ «٦» .
وقال تعالى: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ «٧» .
إلى غير ذلك من الآيات.
بينما قال تعالى لأنبيائه:
- يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ* «٨» .
- يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ «٩» .

---

(١) سورة الحجر: الآية (٧٢) .
(٢) رواه ابن جرير (١٤/ ٣٠) . وانظر تفسير ابن كثير (٢/ ٥٧٥) .
(٣) بداية السول: (ص ٣٧) .
(٤) انظر الوفا بأحوال المصطفى ص (٣٦٢، ٣٦٣) والخصائص الكبرى (٢/ ٣٢٤) ، بداية السول ص (٣٧، ٣٨) .
(٥) سورة المائدة: الآية (٤١) .
(٦) سورة المائدة: الآية (٦٧) .
(٧) سورة الأنفال: الآية (٦٤) .
(٨) سورة البقرة: الآية (٣٥) .
(٩) سورة هود: الآية (٤٨) .

- يا مُوسى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ «١» .
- يا إِبْراهِيمُ* قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا «٢» .
- يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ ... «٣» في آيات كثيرة ...

قال العزّ بن عبد السّلام- رحمه الله-: «ولا يخفى على أحد أنّ السّيّد إذا دعى أحد عبيده بأفضل ما وجد فيهم من الأوصاف العليّة والأخلاق السّنيّة، ودعا الآخرين بأسمائهم الأعلام لا يشعر بوصف من الأوصاف ولا بخلق من الأخلاق، أنّ منزلة من دعاه بأفضل الأسماء والأوصاف أعزّ عليه وأقرب إليه ممّن دعاه باسمه العلم.
وهذا معلوم بالعرف أنّ من دعي بأفضل أوصافه وأخلاقه كان ذلك مبالغة في تعظيمه واحترامه» «٤»
.
قال ابن الجوزيّ- رحمه الله- «٥» «ولمّا ذكر اسمه للتّعريف قرنه بذكر الرّسالة، فقال تعالى: وَما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ «٦» . مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ «٧» . وَآمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ «٨» .
ولمّا ذكره مع الخليل، ذكر الخليل باسمه وذكره باللّقب، فقال تعالى: إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهذَا النَّبِيُّ «٩» .
٨- نهي المؤمنين عن مناداته باسمه: «١٠»
أدّب الله- عزّ وجلّ- عباده المؤمنين في مخاطبة نبيّه صلّى الله عليه وسلّم والكلام معه تشريفا وتعظيما وتقديرا له، فأمرهم أن لا يخاطبوه باسمه بل يخاطبوه: يا رسول الله، يا نبيّ الله، وإذا كان الله تبارك وتعالى خاطبه في كتابه العزيز بالنّبوّة والرّسالة ولم يناده باسمه زيادة في التّشريف والتّكريم كما مرّ ذكره. فمن باب أولى وأحرى أهل الإيمان. واختصّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بذلك بخلاف سائر الأنبياء والمرسلين فإنّ أممهم كانت تخاطبهم بأسمائهم.
قال الله- جلّ ذكره-: لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِواذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ «١١» .

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٤٤) .
(٢) سورة الصافات: الآية (١٠٤- ١٠٥) .
(٣) سورة المائدة: الآية (١١٠) .
(٤) بداية السول (ص ٣٨) .
(٥) انظر الوفا في أحوال المصطفى ص (٣٦٣) .
(٦) سورة آل عمران: الآية (١٤٤) .
(٧) سورة الفتح: الآية (٢٩) .
(٨) سورة محمد: الآية (٢) .
(٩) سورة آل عمران: الآية (٦٨) .
(١٠) انظر الوفا (٢/ ٧، ٨) ، والخصائص (٢/ ٣٢٤) .
(١١) سورة النور: الآية (٦٣) .
جـ ١(ص: ٤٥٩)

قال ابن عبّاس ومجاهد وسعيد بن جبير: «كانوا يقولون: يا محمّد، يا أبا القاسم، فنهاهم الله عزّ وجلّ عن ذلك إعظاما لنبيّه صلّى الله عليه وسلّم، وأمرهم أن يقولوا: يا نبيّ الله، يا رسول الله» » .
وقال قتادة- في تفسير الآية السّابقة-: أمر الله تعالى أن يهاب نبيّه صلّى الله عليه وسلّم وأن يبجّل وأن يعظّم وأن يسوّد «٢» .
بخلاف ما خاطبت به الأمم السّابقة أنبياءها، فقال تعالى- حكاية عنهم-:
- قالُوا يا مُوسَى ادْعُ لَنا رَبَّكَ ... «٣» .
- قالُوا يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ «٤» .
- إِذْ قالَ الْحَوارِيُّونَ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ قالَ اتَّقُوا اللَّهَ ... «٥» .

٩- كلم جامع: «٦»
فضّل الله- عزّ وجلّ- نبيّه صلّى الله عليه وسلّم على غيره من الأنبياء عليهم السّلام بأن أعطاه جوامع الكلم، فكان صلّى الله عليه وسلّم يتكلّم بالقول الموجز القليل اللّفظ الكثير المعاني «٧» أعطاه مفاتيح الكلام وهو ما يسّره له من البلاغة والفصاحة، والوصول إلى غوامض المعاني وبدائع الحكم ومحاسن العبارات والألفاظ الّتي أغلقت على غيره وتعذّرت عليه «٨» .
قال العزّ بن عبد السّلام- رحمه الله-: «ومن خصائصه أنّه بعث بجوامع الكلم، واختصر له الحديث اختصارا، وفاق العرب في فصاحته وبلاغته» «٩» .
وممّا جاء في السّنّة دالّا على هذه الخاصيّة:
- عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «فضّلت على الأنبياء بستّ: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرّعب، وأحلّت لي المغانم وجعلت لي الأرض طهورا ومسجدا، وأرسلت إلى الخلق كافّة، وختم

---

(١) انظر تفسير ابن جرير (١٨/ ١٣٤) ، وتفسير ابن كثير (٣/ ٣١٨) .
(٢) اخرجه ابن جرير وغيره. انظر تفسير ابن جرير (١٨/ ١٣٤) ، وتفسير ابن كثير (٣/ ٣١٨) .
(٣) سورة الأعراف: الآية (١٣٤) .
(٤) سورة الأعراف: الآية (١٣٨) .
(٥) سورة المائدة: الآية (١١٢) .
(٦) انظر الوفا (٢/ ١٤) ، والشمائل لابن كثير (٦٠٥) ، والخصائص (٢/ ٣٣١، ٣٣٣) .
(٧) قاله الحافظ ابن حجر- انظر فتح الباري (١٣/ ٢٦١) ، ومن قبله قاله الزهري رحمه الله- انظر الفتح (١٢/ ٤١٨) ، وابن الأثير- انظر جامع الأصول (٨/ ٥٣١) .
(٨) قاله ابن منظور في لسان العرب (٢/ ٥٣٧) .
(٩) غاية السول في تفضيل الرسول (ص ٤٧) .

بي النّبيّون» «١» .
- وعن أبي موسى- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أعطيت فواتح الكلم «٢» وجوامعه وخواتمه «٣» » «٤» .
قال الحافظ ابن رجب الحنبليّ- رحمه الله-: فجوامع الكلم الّتي خصّ بها النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم نوعان:
أحدهما: ما هو في القرآن كقوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبى وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ «٥» .
قال الحسن البصريّ- رحمه الله-: «لم تترك هذه الآية خيرا إلّا أمرت به ولا شرّا إلّا نهت عنه» .
الثّاني: ما هو في كلامه صلّى الله عليه وسلّم وهو منتشر موجود في السّنن المأثورة عنه «٦» .. أ. هـ.
ومن ذلك قوله «٧» : «إنّما الأعمال بالنّيّات وإنّما لكلّ امريء ما نوى» .
قال الشّافعيّ- رحمه الله-: هذا الحديث ثلث العلم، ويدخل في سبعين بابا من الفقه» «٨» .
قال القاضي عياض- رحمه الله-: «وأمّا كلامه المعتاد، وفصاحته المعلومة، وجوامع كلمه وحكمه المأثورة فقد ألّف النّاس فيها الدّواوين، وجمعت في ألفاظها ومعانيها الكتب ومنها ما لا يوازى فصاحة، ولا يباري بلاغة.
وذكر- رحمه الله- أمثلة كثيرة من أقوال الصّادق المصدوق صلّى الله عليه وسلّم.
فمن ذلك قوله: «اتّق الله حيثما كنت وأتبع السّيّئة الحسنة تمحها وخالق النّاس بخلق حسن» «٩» .
وقوله: «الدّين النّصيحة» قلنا لمن يا رسول الله؟ قال «لله عزّ وجلّ ولكتابه ولرسوله ولأئمّة المسلمين

(١) رواه مسلم برقم (٥٢٣) .
(٢) فواتح الكلم: قال ابن منظور: « ... وفي الحديث: أوتيت مفاتيح الكلم، وفي رواية: مفاتح، هما جمع مفتاح ومفتح، وهما في الأصل مما يتوصل به إلى استخراج المغلقات التي يتعذر الوصول إليها ... ومن كان في يده مفاتيح شيء مخزون سهل عليه الوصول إليه، لسان العرب (٢/ ٥٣٧) .
(٣) خواتمه: حسن الوقف ورعاية الفواصل.
(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٤٠٨، ٤٣٧) عن ابن مسعود رضي الله عنه، وأبو يعلي في مسنده (٤/ ١٧٣٧) عن أبي موسى الأشعري- رضي الله عنه-. وصحح الحديث الألباني بشواهده- انظر صحيح الجامع الصغير برقم (١٠٦٩) وسلسلة الأحاديث الصحيحة برقم (١٤٨٣) .
(٥) سورة النحل: الآية (٩٠) .
(٦) انظر كتاب «جامع العلوم والحكم» لابن رجب الحنبلي (ص ٣) .
(٧) رواه البخاري- الفتح ١ (١) . ومسلم بلفظ «إنما الأعمال بالنية..» برقم (١٩٠٧) .
(٨) جامع العلوم والحكم (ص ٥) .
(٩) رواه الترمذي برقم (١٩٨٧) وقال: حديث حسن صحيح، ورواه الإمام أحمد (٥/ ١٥٣، ١٥٨، ٢٢٨، ٢٣٦) ، والدارمي برقم (٢٧٩٤) ، الحاكم في المستدرك (١/ ٥٤) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
جـ ١(ص: ٤٦١)

وعامّتهم» «١» .
وقوله: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» «٢» ... إلى غير ذلك ممّا روته الكافّة عن الكافّة من مقاماته ومحاضراته وخطبه وأدعيته ومخاطباته وعهوده ممّا لا خلاف أنّه نزل من ذلك مرتبة لا يقاس بها غيره وحاز فيها سبقا لا يقدر قدره «٣» .
١٠- نصر بالرعب: «٤»
اختصّ نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم، بأنّ الله عزّ وجلّ نصره بالرّعب، وهو الفزع والخوف، فكان سبحانه يلقيه في قلوب أعداء رسوله صلّى الله عليه وسلّم، فإذا كان بينه وبينهم مسيرة شهر «٥» أو شهرين هابوه وفزعوا منه، فلا يقدمون على لقائه «٦» .
قال الحافظ ابن حجر- رحمه الله-: وهذه الخصوصيّة حاصلة له على الإطلاق حتّى لو كان وحده بغير عسكر، وهل هي حاصلة لأمّته من بعده؟ فيه احتمال «٧» .
وممّا ورد في السّنّة مؤيّدا لهذا المعنى:
عن جابر- رضي الله عنه- أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «أعطيت خمسا لم يعطهنّ أحد قبلي: نصرت بالرّعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا. فأيّما رجل من أمّتي أدركته الصّلاة فليصلّ، وأحلّت لي المغانم ولم تحلّ لأحد قبلي، وأعطيت الشّفاعة، وكان النّبيّ يبعث إلى قومه خاصّة وبعثت إلى النّاس عامّة» «٨» .
- وعن أبي أمامة- رضي الله عنه-؛ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «فضّلت بأربع: جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيّما رجل من أمّتي أتى الصّلاة فلم يجد ما يصلّي عليه وجد الأرض مسجدا وطهورا، وأرسلت إلى النّاس كافة، ونصرت بالرّعب من مسيرة شهرين يسير بين يديّ، وأحلّت لي الغنائم» «٩» .

(١) رواه مسلم برقم (٥٥) .
(٢) رواه الترمذي برقم (٢٥١٨) وقال: هذا حديث حسن صحيح. والإمام أحمد (١/ ٢٠٠) ، والنسائي (٨/ ٣٢٧، ٣٢٨) ، وابن حبان (٥١٢) ، والحاكم (٢/ ١٣) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٣) الشفا للقاضي عياض (١/ ١٧٣- ١٧٦) بتصرف.
(٤) انظر الفصول لابن كثير (ص ٢٨١، ٢٨٢) ، وخصائص أفضل المخلوقين لابن الملقن (ص ٣٩٩) ، والخصائص الكبرى للسيوطي (٢/ ٣٣١) .
(٥) ورد التقييد بمسيرة شهر في الصحيحين وبمسيرة شهرين في غيرهما ولا تعارض بينهما لأن الإخبار بالقليل لا ينافي الكثير- انظر السراج المنير شرح الجامع الصغير (٣/ ٢٣، ٢٤) .
(٦) قاله ابن الأثير الجزري- انظر جامع الأصول (٨/ ٥٣١) بتصرف يسيير.
(٧) انظر فتح الباري (١/ ٥٢١) .
(٨) رواه البخاري- الفتح ١ (٣٣٥) واللفظ له، ومسلم برقم (٥٢١) .
(٩) رواه البيهقي في السنن الكبرى (١/ ٢١٢) ، وصححه الألباني- انظر صحيح الجامع الصغير برقم (٤٠٩٦) .

- وعن السّائب بن يزيد رضي الله عنه؛ عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «فضّلت على الأنبياء بخمس: بعثت إلى النّاس كافّة، وادّخرت شفاعتي لأمّتي، ونصرت بالرّعب شهرا أمامي، وشهرا خلفي، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، وأحلّت لي الغنائم ولم تحلّ لأحد قبلي» «١» .
- وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «فضّلت على الأنبياء بستّ «٢» . أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرّعب، وأحلّت لي المغانم، وجعلت لي الأرض طهورا ومسجدا، وأرسلت إلى الخلق كافّة، وختم بي النّبيّون» «٣» .
- عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما؛ أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عام غزوة تبوك قام من اللّيل يصلّي فاجتمع وراءه رجال من أصحابه يحرسونه حتّى إذا صلّى انصرف إليهم فقال لهم «لقد أعطيت اللّيلة خمسا ما أعطيهنّ أحد قبلي. أمّا أنا فأرسلت إلى النّاس كلّهم عامّة وكان من قبلي إنّما يرسل إلى قومه، ونصرت على العدوّ بالرّعب ولو كان بيني وبينهم مسيرة شهر لملىء منه رعبا، وأحلّت لي الغنائم آكلها وكان من قبلي يعظّمون أكلها كانوا يحرّقونها، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا أينما أدركتني الصّلاة تمسّحت وصلّيت وكان من قبلي يعظّمون ذلك إنّما كانوا يصلّون في كنائسهم وبيعهم، والخامسة هي ما هي قيل لي سل فإنّ كلّ نبيّ قد سأل فأخّرت مسألتي إلى يوم القيامة فهي لكم ولمن شهد أن لا إله إلّا الله» «٤» .
١١- مفاتيح خزائن الأرض بيده: «٥»
أكرم الله عبده ورسوله محمّدا صلّى الله عليه وسلّم واختصّه على غيره من الأنبياء بأن أعطاه مفاتيح خزائن الأرض وهي ما سهّل الله تعالى له ولأمّته من بعده من افتتاح البلاد المتعذّرات والحصول على كنوزها وذخائرها ومغانمها واستخراج الممتنعات من الأرض كمعادن الذّهب والفضّة وغيرها»
ويحتمل أعمّ من ذلك. والله أعلم «٧» .
وممّا يؤيّد هذه الخصوصيّة:
- عن أبي هريرة- رضي الله عنه-؛ أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «بعثت بجوامع الكلم، ونصرت بالرّعب، فبينا أنا

---

(١) رواه الطبراني في معجمه الكبير برقم (٦٦٧٤) ، وصححه الألباني بشواهده- انظر صحيح الجامع الصغير برقم (٤٠٩٧) .
(٢) قال الطيبي رحمه الله: لا منافاة بين قوله صلّى الله عليه وسلّم في الروايات (ست) ، و (خمس) ، و (أربع) : لأن ذكر الأعداد لا يدل على الحصر، وقد يكون أعلم في وقت بأربع ثم بأكثر- انظر عمدة القاري (٤/ ٨) ، وفيض القدير (٤/ ٤٣٩) .
(٣) رواه مسلم برقم (٥٢٣) .

(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٢٢٢) ، قال الحافظ الهيثمي: رواه أحمد ورجاله ثقات- انظر مجمع الزوائد (١٠/ ٣٦٧) .
(٥) انظر الخصائص للسيوطي (٢/ ٣٣١) .
(٦) بنحوه قال الخطابي- انظر فتح الباري (٢/ ٤٤٢) ، وابن الأثير- انظر جامع الأصول (٨/ ٥٣٢) .
(٧) نقله الحافظ ابن حجر عن بعض العلماء- انظر الفتح (١٢/ ٤٤٢) .

نائم أوتيت مفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يدي» . قال أبو هريرة: وقد ذهب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأنتم تنتثلونها «١» «٢» .
- وعن أبي هريرة- رضي الله عنه-؛ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «بينما أنا نائم إذ أوتيت خزائن الأرض فوضع في يدي سواران من ذهب فكبرا عليّ وأهمّاني، فأوحي إليّ أن أنفخهما فنفختهما فطارا، فأوّلتهما الكذّابين اللّذين أنا بينهما: صاحب صنعاء وصاحب اليمامة «٣» » «٤» .
- عن عقبة- رضي الله عنه- أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم خرج يوما فصلّى على أهل أحد صلاته على الميّت، ثمّ انصرف على المنبر فقال «إنّي فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإنّي والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإنّي أعطيت مفاتيح خزائن الأرض- أو مفاتيح الأرض- وإنّي والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها» «٥» .
١٢- ذنوب مغفورة: «٦»
اختصّ الله تعالى عبده ورسوله محمّدا صلّى الله عليه وسلّم تشريفا له وتكريما بأن غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر وأخبره بهذه المغفرة وهو حيّ صحيح يمشي على الأرض.
قال العزّ بن عبد السّلام: «من خصائصه أنّه أخبره الله بالمغفرة ولم ينقل أنّه أخبر أحدا من الأنبياء بمثل ذلك، بل الظّاهر أنّه لم يخبرهم بدليل قولهم في الموقف: نفسي نفسي «٧» .
وقال ابن كثير في قوله تعالى: إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً* لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ «٨» : هذا من خصائصه صلّى الله عليه وسلّم الّتي لا يشاركه فيها غيره، وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغيره غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم ... » «٩» .
وبهذا المعنى وردت الآيات والأحاديث:
فقال الله تعالى: إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً* لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ

---

(١) وأنتم تنتثلونها: بوزن تفتعلونها- من النثل بالنون والمثلاثة- تقول: نثلت البئر إذا استخرجت ترابها. ونثل كنانته نثلا: استخرج ما فيها من النبل. والمقصود بها في الحديث (وأنتم تنتثلونها) : يعني الأموال وما فتح عليهم من زهرة الدنيا- انظر فتح الباري (٦/ ١٤٩، ١٥٠) ، ولسان العرب (١١/ ٦٤٥) .
(٢) رواه البخاري- الفتح ٦ (٢٩٧٧) ، ومسلم برقم (٦/ ٥٢٣) .
(٣) صاحب صنعاء: الأسود العنسي، وصاحب اليمامة: مسيلمة الكذاب.
(٤) رواه البخاري- الفتح ١٢ (٧٠٣٧) ، ومسلم برقم (٢٢/ ٢٢٧٤) .
(٥) رواه البخاري- الفتح ١١ (٦٥٩٠) ، ومسلم برقم (٢٢٩٦) .
(٦) انظر الخصائص الكبرى للسيوطي (٢/ ٣٣٦) .
(٧) انظر بداية السول (ص ٣٥) .
(٨) سورة الفتح: آية (١- ٢) .
(٩) انظر تفسير ابن كثير (٤/ ١٩٨) .

وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً «١» .
وقال تعالى: أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ* وَوَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ* الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ* وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ «٢» .
وفي حديث أنس- رضي الله عنه-؛ في الشّفاعة، وفيه: «فيأتون عيسى، فيقول: لست هناكم «٣» ولكن ائتوا محمّدا عبدا غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر ... » «٤» .
وفي حديث أبي هريرة- رضي الله عنه-؛ في الشّفاعة أيضا، وفيه: « ... فيأتون عيسى فيقول ... اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى محمّد صلّى الله عليه وسلّم، فيأتون محمّدا صلّى الله عليه وسلّم فيقولون: يا محمّد، أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر ... » «٥» .
- وعن عائشة- رضي الله عنها-؛ أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان يقوم من اللّيل حتّى تتفطّر قدماه، فقالت عائشة: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ قال: «أفلا أحبّ أن أكون عبدا شكورا» .
فلمّا كثر لحمه صلّى جالسا، فإذا أراد أن يركع قام فقرأ ثمّ ركع» «٦» .
- وعن أبي هريرة- رضي الله عنه-؛ أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم؛ قال: «فضّلت على الأنبياء بستّ لم يعطهنّ أحد كان قبلي: غفر لي ما تقدّم من ذنبي وما تأخّر، وأحلّت لي الغنائم، وجعلت أمّتي خير الأمم، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، وأعطيت الكوثر، ونصرت بالرّعب، والّذي نفسي بيده إنّ صاحبكم لصاحب لواء الحمد يوم القيامة تحته آدم فمن دونه» «٧» .
- وعن حذيفة- رضي الله عنه-؛ قال: غاب عنّا رسول الله فلم يخرج حتّى ظننّا أنّه لن يخرج فلمّا خرج سجد سجدة حتّى ظننّا أنّ نفسه قد قبضت فيها، فلمّا رفع رأسه قال: «إنّ ربّي تبارك وتعالى استشارني في أمّتي ماذا أفعل بهم فقلت ما شئت أي ربّ هم خلقك وعبادك فاستشارني الثّانية فقلت له كذلك فقال لا نخزيك في أمّتك يا محمّد وبشّرني أنّ أوّل من يدخل الجنّة من أمّتي سبعون ألفا مع كلّ ألف سبعون ألفا ليس عليهم حساب ثمّ أرسل إليّ فقال: ادع تجب وسل تعطه. فقلت لرسوله: أو معطيّ ربّي سؤلي؟ فقال ما أرسلني إليك إلّا ليعطيك.

---

(١) سورة الفتح: آية (١- ٢) .
(٢) سورة الشرح: آية (١- ٤) .
(٣) لست هناكم: أي لست أهلا لذلك- قاله النووي في شرحه على صحيح مسلم (٣/ ٥٥) .
(٤) رواه البخاري- الفتح ١٣ (٧٤١٠) ، ومسلم برقم (١٩٣) .
(٥) رواه البخاري- الفتح ٨ (٤٧١٢) ، ومسلم برقم (١٩٤) .
(٦) رواه البخاري- الفتح ٨ (٤٨٣٧) ، ومسلم برقم (٢٨٢٠) .
(٧) رواه البزار. قال الحافظ الهيثمي: إسناده جيد- انظر مجمع الزوائد (٨/ ٢٦٩) ، وجوّد إسناده كذلك الحافظ السيوطي في الخصائص الكبري (٢/ ٣٣٦) .

ولقد أعطاني ربّي عزّ وجلّ ولا فخر وغفر لي ما تقدّم من ذنبي وما تأخّر وأنا أمشي حيّا صحيحا وأعطاني أن لا تجوع أمّتي ولا تغلب وأعطاني الكوثر فهو نهر في الجنّة يسيل في حوضي وأعطاني العزّ والنّصر والرّعب يسعى بين يدي أمّتي شهرا وأعطاني أنّي أوّل الأنبياء أدخل الجنّة وطيّب لي ولأمّتي الغنيمة وأحلّ لنا كثيرا ممّا شدّد على من قبلنا ولم يجعل علينا من حرج» «١» .
١٣- كتاب خالد محفوظ: «٢»
أعطى الله- تبارك وتعالى- كلّ نبيّ من الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام من الآيات والمعجزات الدّالّة على صدقه وصحّة ما جاء به عن ربّه ما فيه كفاية وحجّة لقومه الّذين بعث إليهم، وهذه المعجزات كانت وقتيّة انقرض زمانها في حياتهم ولم يبق منها إلّا الخبر عنها.

وأمّا نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم فكانت معجزته العظمى الّتي اختصّ بها دون غيره هي القرآن العظيم. الحجّة المستمرّة الدّائمة القائمة في زمانه وبعده إلى يوم القيامة. كتاب خالد لا ينضب معينه ولا تنقضي عجائبه ولا تنتهي فوائده محفوظ بحفظ الله من التّغيير والتّبديل والتّحريف.

قال العزّ بن عبد السّلام- رحمه الله-: «ومن خصائصه أنّ معجزة كلّ نبيّ تصرّمت وانقرضت ومعجزة سيّد الأوّلين والآخرين وهي القرآن العظيم باقية إلى يوم الدّين» «٣» .

وقال: ... ومنها حفظ كتابه، فلو اجتمع الأوّلون والآخرون على أن يزيدوا فيه كلمة أو ينقصوا منه لعجزوا عن ذلك، ولا يخفى ما وقع من التّبديل في التّوراة والإنجيل» «٤» .

ومن أدلّة هذه الخصوصيّة:

قول الله تعالى: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ «٥» .

وقوله تعالى: وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ* لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ «٦» .

وقوله تعالى: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً «٧» .

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٣٩٣) . قال الحافظ الهيثمي: رواه أحمد وإسناده حسن- انظر مجمع الزوائد (١٠/ ٦٨، ٦٩) .

(٢) انظر الفصول: (ص ٢٨٧) ، وخصائص أفضل المخلوقين (ص ٣٩٨) ، والخصائص الكبرى (٢/ ٣١٥- ٣١٨) .

(٣) غاية السول في تفضيل الرسول (ص ٣٩) .

(٤) نفس المرجع السابق (ص ٧٠) .

(٥) سورة الحجر: آية رقم (٩) .

(٦) سورة فصلت: آية (٤١، ٤٢) .

(٧) سورة الإسراء: آية (٨٨) .

جـ ١(ص: ٤٦٦)

- وعن أبي هريرة- رضي الله عنه؛ قال: قال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «ما من الأنبياء نبيّ إلّا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنّما كان الّذي أوتيته وحيا أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة» «١» .

ووجه الدّلالة في الحديث يبيّنه الحافظ ابن حجر بقوله: رتّب صلّى الله عليه وسلّم هذا الكلام (فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة) على ما تقدّم من معجزة القرآن المستمرّة لكثرة فائدته وعموم نفعه، لاشتماله على الدّعوة والحجّة والإخبار بما سيكون، فعمّ نفعه من حضر ومن غاب ومن وجد ومن سيوجد، فحسن ترتيب الرّجوى المذكورة على ذلك وهذه الرّجوى قد تحقّقت، فإنّه أكثر الأنبياء تبعا» «٢» .

- وعن الحسن البصريّ رحمه الله في قوله تعالى: لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ قال «حفظه الله تعالى من الشّيطان فلا يزيد فيه باطلا ولا ينقص منه حقّا» «٣» .

- وعن يحيى بن أكثم قال: دخل يهوديّ على المأمون فتكلّم فأحسن الكلام، فدعاه المأمون إلى الإسلام، فأبى، فلمّا كان بعد سنة جاءنا مسلما، فتكلّم على الفقه فأحسن الكلام، فقال له المأمون: ما كان سبب إسلامك؟

قال: انصرفت من حضرتك فأحببت أن أمتحن هذه الأديان فعمدت إلى التّوراة. فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت وأدخلتها الكنيسة، فاشتريت منّي، وعمدت إلى الإنجيل فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت، وأدخلتها البيعة فاشتريت منّي. وعمدت إلى القرآن فعملت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت وأدخلتها الورّاقين فتصفّحوها، فلمّا أن وجدوا فيها الزّيادة والنّقصان رموا بها فلم يشتروها، فعلمت أنّ هذا الكتاب محفوظ، فكان هذا سبب إسلامي.

قال يحيى بن أكثم: فحججت تلك السّنة فلقيت سفيان بن عيينة، فذكرت له الحديث، فقال لي: مصداق هذا في كتاب الله تعالى. قلت: في أيّ موضع؟ قال: في قوله تعالى في التّوراة والإنجيل بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللَّهِ «٤» فجعل حفظه إليهم فضاع وقال إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ «٥» فحفظه الله تعالى علينا فلم يضع «٦» .

١٤- إسراء ومعراج:

وممّا اختصّ به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن غيره من الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام معجزة الإسراء «٧» والمعراج.

---

(١) رواه البخاري- الفتح (٨/ ٤٩٨١) ، ومسلم برقم (١٥٢) .
(٢) فتح الباري (٨/ ٦٢٣) بتصرف يسير.
(٣) قال السيوطي في الخصائص: أخرجه البيهقي. انظر الخصائص (٢/ ٣١٦) قلت: ورواه ابن جرير عن السدي بمعناه- انظر تفسير ابن جرير (٢٤/ ٧٩) .
(٤) سورة المائدة: آية (٤٤) .
(٥) سورة الحجر: آية (٩) .
(٦) قال السيوطي: أخرجه البيهقي- انظر الخصائص الكبرى (٢/ ٣١٦) .
(٧) انظر الشفا للقاضي عياض (١/ ٣٤٣) ، والفصول لابن كثير (ص ٢٨٧) ، والخصائص الكبرى للسيوطي (١/ ٢٥٢) .

فقد أسري به صلّى الله عليه وسلّم ببدنه وروحه يقظة من المسجد الحرام بمكّة المكرّمة إلى المسجد الأقصى وهو بيت المقدس بإيلياء في جنح اللّيل، ثمّ عرج به إلى سدرة المنتهى ثمّ إلى حيث شاء الله عزّ وجلّ ورجع مكّة من ليلته.

وأكرم صلّى الله عليه وسلّم في هذه الآية العظيمة بكرامات كثيرة، منها: تكليمه ربّه عزّ وجلّ، وفرض الصّلوات عليه، وما رأى من آيات ربّه الكبرى، وإمامته للأنبياء في بيت المقدس. فدلّ ذلك على أنّه هو الإمام الأعظم والرّئيس المقدّم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين» .

وقد ثبت الإسراء بالقرآن، كما ثبت المعراج بالمتواتر من الحديث، وإليه أشار القرآن. قال الله تعالى سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ «٢» .

وقال تعالى: وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى * ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى * فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى * فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى * ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى * أَفَتُمارُونَهُ عَلى ما يَرى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى * عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى * ما زاغَ الْبَصَرُ وَما طَغى * لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى «٣» .

- وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- أنّ مالك بن صعصعة حدّثه: أنّ نبيّ الله صلّى الله عليه وسلّم حدّثهم عن ليلة أسري به قال: «بينما أنا في الحطيم- وربّما قال في الحجر- مضطجعا، إذ أتاني آت- قال وسمعته يقول: فشقّ ما بين هذه إلى هذه. فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني به؟ قال: من ثغرة نحره إلى شعرته- وسمعته يقول من قصّه إلى شعرته فاستخرج قلبي، ثمّ أتيت بطست من ذهب مملوءة إيمانا، فغسل قلبي، ثمّ حشي، ثمّ أعيد، ثمّ أتيت بدابّة دون البغل وفوق الحمار أبيض، فقال له الجارود: هو البراق يا أبا حمزة؟ قال أنس: نعم- يضع خطوه عند أقصى طرفه- فحملت عليه فانطلق بي جبريل حتّى أتى السّماء الدّنيا فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمّد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به، فنعم المجيء جاء. ففتح. فلمّا خلصت فإذا فيها آدم، فقال: هذا أبوك آدم، فسلّم عليه. فسلّمت عليه، فردّ السّلام ثمّ قال: مرحبا بالابن الصّالح والنّبيّ الصّالح. ثمّ صعد بي حتّى أتى السّماء الثّانية فاستفتح، قيل: من هذا؟

قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمّد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحبا به، فنعم المجيء جاء. ففتح. فلمّا خلصت إذا يحيى وعيسى وهما ابنا خالة. قال: هذا يحيى وعيسى فسلّم عليهما فسلّمت، فردّا، ثمّ قالا: مرحبا بالأخ الصّالح والنّبيّ الصّالح، ثمّ صعد بي إلى السّماء الثّالثة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال:

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٣) بتصرف.
(٢) سورة الإسراء: آية (١) .
(٣) سورة النجم: آية (٣- ١٨) .

جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمّد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم قيل: مرحبا به فنعم المجيء جاء. ففتح، فلمّا خلصت إذا يوسف، قال: هذا يوسف فسلّم عليه، فسلّمت عليه، فردّ ثمّ قال: مرحبا بالأخ الصّالح والنّبيّ الصّالح. ثمّ صعد بي إلى السّماء الرّابعة، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال:
محمّد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم قيل: مرحبا به فنعم المجيء جاء. ففتح، فلمّا خلصت فإذا إدريس، قال:
هذا إدريس فسلّم عليه، فسلّمت عليه، فردّ ثمّ قال: مرحبا بالأخ الصّالح والنّبيّ الصّالح. ثمّ صعد بي حتّى أتى السّماء الخامسة، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمّد صلّى الله عليه وسلّم قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم قيل: مرحبا به فنعم المجيء جاء. ففتح، فلمّا خلصت فإذا هارون، قال: هذا هارون فسلّم عليه، فسلّمت عليه، فردّ ثمّ قال: مرحبا بالأخ الصّالح والنّبيّ الصّالح. ثمّ صعد بي حتّى أتى السّماء السّادسة، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمّد.
قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم قيل:
مرحبا به فنعم المجيء جاء. ففتح، فلمّا خلصت فإذا موسى، قال: هذا موسى فسلّم عليه، فسلّمت عليه، فردّ ثمّ قال: مرحبا بالأخ الصّالح والنّبيّ الصّالح. فلمّا تجاوزت بكى. قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأنّ غلاما بعث بعدي يدخل الجنّة من أمّته أكثر ممّن يدخلها من أمّتي. ثمّ صعد بي إلى السّماء السّابعة، فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟
قال: محمّد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم قيل: مرحبا به فنعم المجيء جاء. ففتح، فلمّا خلصت فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوك فسلّم عليه، فسلّمت عليه، فردّ السّلام، ثمّ قال:
مرحبا بالابن الصّالح والنّبيّ الصّالح. ثمّ رفعت لي سدرة المنتهى. فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة. قال: هذه سدرة المنتهى، وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران. فقلت: ما هذان يا جبريل؟ قال: أمّا الباطنان فنهران في الجنّة. وأمّا الظّاهران فالنّيل والفرات. ثمّ رفع لي البيت المعمور، ثمّ أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل، فأخذت اللّبن، فقال: هي الفطرة الّتي أنت عليها وأمّتك. ثمّ فرضت عليّ الصّلاة خمسين صلاة كلّ يوم، فرجعت فمررت على موسى، فقال: بم أمرت؟ قال: أمرت بخمسين صلاة كلّ يوم. قال: إنّ أمّتك لا تستطيع خمسين صلاة كلّ يوم. وإنّي والله قد جرّبت النّاس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشدّ المعالجة، فارجع إلى ربّك فاسأله التّخفيف لأمّتك، فرجعت، فوضع عنّي عشرا، فرجعت إلى موسى فقال مثله. فرجعت فوضع عنّي عشرا، فرجعت إلى موسى فقال مثله. فرجعت فوضع عنّي عشرا، فرجعت إلى موسى فقال مثله. فرجعت فأمرت بعشر صلوات كلّ يوم. فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كلّ يوم. فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ قلت: أمرت بخمس صلوات كلّ يوم. قال: إنّ أمّتك لا تستطيع خمس صلوات كلّ يوم. وإنّي قد جرّبت النّاس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشدّ المعالجة، فارجع إلى ربّك فاسأله التّخفيف لأمّتك. قال: سألت ربّي حتّى استحييت، ولكن أرضى

وأسلّم. قال: فلمّا جاوزت نادى مناد. أمضيت فريضتي، وخفّفت عن عبادي» «١» .
ودليل إمامته بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام:
- عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لقد رأيتني في الحجر. وقريش تسألني عن مسراي. فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها. فكربت كربة ما كربت مثله. قال فرفعه الله لي أنظر إليه.
ما يسألوني عن شيء إلّا أنبأتهم به. وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء. فإذا موسى قائم يصلّي. فإذا رجل ضرب جعد كأنّه من رجال شنوءة. وإذا عيسى ابن مريم عليه السّلام قائم يصلّي. أقرب النّاس به شبها عروة بن مسعود الثّقفيّ. وإذا إبراهيم عليه السّلام قائم يصلّي. أشبه النّاس به صاحبكم- يعني نفسه- فحانت الصّلاة فأممتهم. فلمّا فرغت من الصّلاة قال قائل: يا محمّد! هذا مالك صاحب النّار فسلّم عليه. فالتفتّ إليه فبدأني بالسّلام» «٢» .
النوع الثاني: ما اختصّ به صلّى الله عليه وسلّم لذاته في الآخرة:
اختصّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بخصائص لذاته في الآخرة لم يعطها غيره من الأنبياء عليهم السّلام. ممّا يدلّ على منزلته وعظيم قدره عند ربّه تبارك وتعالى. ومن ذلك الوسيلة، والفضيلة، والحوض والكوثر، واللّواء....
وغير ذلك ممّا سيأتي.
١- وسيلة وفضيلة: «٣»
الوسيلة أعلى درجة في الجنّة لا ينالها إلّا عبد واحد من عباد الله. وهو رسولنا صلّى الله عليه وسلّم.
قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «الوسيلة» علم على أعلى منزلة في الجنّة وهي منزلة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وداره في الجنّة، وهي أقرب أمكنة الجنّة إلى العرش» «٤» .
وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «الفضيلة» أي المرتبة الزّائدة على سائر الخلائق، ويحتمل أن تكون منزلة أخرى أو تفسيرا للوسيلة «٥» .
فمنزلة الوسيلة والفضيلة خاصّة برسول الله صلّى الله عليه وسلّم لا يشاركه فيهما غيره.
وممّا يؤيّد هذه الخصوصيّة:
- عن جابر بن عبد الله- رضي الله عنهما-؛ أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: من قال حين يسمع النّداء: اللهمّ ربّ هذه الدّعوة التّامّة والصّلاة القائمة آت محمّدا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاما محمودا الّذي وعدته. حلّت

---

(١) رواه البخاري- الفتح ٧ (٣٨٨٧) ، ورواه مسلم برقم (١٦٤) .
(٢) رواه مسلم برقم (١٧٢) .
(٣) انظر بداية السول (٥٢) ، والخصائص (٢/ ٣٩٠) .
(٤) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٥٥) .
(٥) انظر فتح الباري (٢/ ١١٣) .

له شفاعتي يوم القيامة» «١» .
- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما-؛ أنّه سمع النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول: «إذا سمعتم المؤذّن فقولوا مثل ما يقول. ثمّ صلّوا عليّ، فإنّه من صلّى عليّ صلاة صلّى الله عليه بها عشرا، ثمّ سلوا الله لي الوسيلة، فإنّها منزلة في الجنّة لا تنبغي إلّا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو. فمن سأل لي الوسيلة حلّت له الشّفاعة» «٢» .
- وعن أبي سعيد الخدريّ- رضي الله عنه-؛ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «الوسيلة درجة عند الله، ليس فوقها درجة، فسلوا الله أن يؤتيني الوسيلة» «٣» .

- وعن ابن عبّاس- رضي الله عنهما-؛ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «سلوا الله لي الوسيلة، فإنّه لا يسألها لي عبد في الدّنيا، إلّا كنت له شهيدا أو شفيعا يوم القيامة» «٤» .
- وعن عبادة بن الصّامت- رضي الله عنه-؛ أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «إنّ الله رفعني يوم القيامة في أعلى غرفة من جنّات النّعيم ليس فوقي إلّا حملة العرش» «٥» .
٢- مقام محمود:
لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم يوم القيامة، تشريفات وتكريمات لا يشركه ولا يساويه فيها أحد الأنبياء فمن دونهم.
ومن ذلك المقام المحمود، الّذي يقومه صلّى الله عليه وسلّم فيحمده الخالق عزّ وجلّ والخلائق من بعده.
قال تعالى وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً «٦» .
وقد تعدّدت أقوال المفسّرين في معنى «المقام المحمود» «٧» .

---

(١) رواه البخاري- الفتح ٢ (٦١٤) .
(٢) رواه مسلم برقم (٣٨٤) .
(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٨٣) ، وصحح الحديث الألباني- انظر صحيح الجامع الصغير برقم (٧٠٢٨) .
(٤) رواه الطبراني في الأوسط، وابن أبي شيبة. قال الحافظ الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه الوليد بن عبد الملك الحراني وقد ذكره ابن حبان في الثقات، وقال: مستقيم الحديث إذا روى عن الثقات، قلت: وهذا من روايته عن موسى بن أعين وهو ثقه. مجمع الزوائد (١/ ٣٣٣) ، وصحح الحديث أيضا الألباني- انظر صحيح الجامع برقم (٣٥٣١) .
(٥) قال السيوطي في الخصائص (٢/ ٣٩٠) : أخرجه عثمان بن سعيد الدارمي في كتاب الرد على الجهمية.
(٦) سورة الإسراء آية (٧٩) .
(٧) فمن ذلك أنه صلّى الله عليه وسلّم:* أول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع. قاله قتادة.* إعطاؤه لواء الحمد يوم القيامة. أورده الماوردي والقرطبي في تفسيرهما.* أنه يكون يوم القيامة بين الجبار جل جلاله وجبريل عليه السلام. قال ابن حجر: أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح عن سعيد ابن أبي هلال أحد صغار التابعين- انظر الفتح (١١/ ٤٣٥) .* ثناؤه على ربه- عز وجل-. انظر في ذلك كله تفسير ابن جرير (١٥/ ٩٧- ١٠٠) ، وتفسير ابن كثير (٣/ ٥٨- ٥٩) ، وفتح الباري (١١/ ٤٣٤- ٤٣٥) . قال الحافظ ابن حجر رحمه الله بعد ذكر أقوال المفسرين «ويمكن رد الأقوال كلها إلى الشفاعة العامة، فإن إعطاءه لواء الحمد وثناءه على ربه وكلامه بين يديه، وقيامه أقرب من جبريل، كل ذلك صفات للمقام المحمود الذي يشفع فيه ليقضى بين الخلق- انظر فتح الباري (١١/ ٤٣٥) .
جـ ١(ص: ٤٧١)

قال ابن جرير الطّبريّ- رحمه الله-: قال أكثر أهل العلم ذلك هو المقام الّذي يقومه صلّى الله عليه وسلّم يوم القيامة للشّفاعة للنّاس ليريحهم ربّهم من عظيم ما هم فيه من شدّة ذلك اليوم» «١» .
وقال ابن بطّال- رحمه الله-: « ... والجمهور على أنّ المراد بالمقام المحمود الشّفاعة وبالغ الواحدي فنقل فيه الإجماع» «٢» .
وقال ابن حجر- رحمه الله- بعد أن ذكر طرفا من أقوال أئمّة التّفسير: «والرّاجح أنّ المراد بالمقام المحمود الشّفاعة» «٣» .
- وعن حذيفة بن اليمان- رضي الله عنهما-: رفعه، في قوله عزّ وجلّ عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً «٤» قال: «يجمع النّاس في صعيد واحد يسمعهم الدّاعي وينفذهم البصر حفاة عراة كما خلقوا سكوتا لا تتكلّم نفس إلّا بإذنه، قال: فينادى: محمّد فأقول لبيّك وسعديك والخير في يديك، والشّرّ ليس إليك، المهديّ من هديت، وعبدك بين يديك، ولك وإليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلّا إليك، تباركت

وتعاليت، سبحان ربّ البيت» فذلك المقام المحمود الّذي قال الله تعالى: عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً «٥» .
- وقال ابن عبّاس- رضي الله عنهما-: «المقام المحمود: مقام الشّفاعة» «٦» .
وقد جاء ذكر المقام المحمود في بعض الأحاديث والآثار صريحا بالاسم، وفي بعضها الآخر تلميحا وذلك عند ذكر الشّفاعة العظمى أو غيرها من معاني المقام المحمود الّتي مرّت، وسيأتي اكثرها مفصّلا في مباحث بإذن الله، فممّا جاء صريحا:
- عن جابر بن عبد الله- رضي الله عنهما-؛ أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «من قال حين يسمع النّداء: اللهمّ ربّ هذه الدّعوة التّامّة والصّلاة القائمة آت محمّدا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاما محمودا الّذي وعدته، حلّت له شفاعتي يوم القيامة» «٧» .
- وعن عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما-؛ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ الشّمس تدنو يوم القيامة حتّى يبلغ العرق نصف الأذن، فبينا هم كذلك استغاثوا بآدم ثمّ بموسى ثمّ بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم، فيشفع ليقضى بين

---

(١) انظر تفسير ابن جرير (١٥/ ٩٧) .
(٢) نقله عنه الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١١/ ٤٣٤) .
(٣) انظر فتح الباري (١١/ ٤٣٥) .
(٤) سورة الإسراء: آية (٧٩) .
(٥) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٦٣) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. ورواه ابن جرير في تفسيره (١٥/ ٩٨) . قال الحافظ ابن حجر: رواه النسائي بإسناد صحيح من حديث حذيفة. انظر الفتح (٨/ ٢٥١) . وقال الحافظ ابن حجر في موضع آخر « ... ففي النسائي ومصنف عبد الرزاق ومعجم الطبراني من حديث حذيفة رفعه قال: « ... فذكره» إلى أن قال: قال ابن منده في كتاب الإيمان: هذا حديث مجمع على صحة إسناده وثقة رواته- انظر الفتح (١١/ ٤٤٥) .
(٦) رواه ابن جرير الطبري- انظر التفسير (١٥/ ٩٧) . وأورده ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٨) وهو قول مجاهد والحسن البصري وغيرهم.
(٧) رواه البخاري- الفتح ٨ (٤٧١٩) .

الخلق، فيمشي حتّى يأخذ بحلقة الباب فيومئذ يبعثه الله مقاما محمودا يحمده أهل الجمع كلّهم» «١» .
- وعن عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما-؛ قال: «إنّ النّاس يصيرون يوم القيامة جثا «٢» . كلّ أمّة تتبع نبيّها يقولون: يا فلان اشفع حتّى تنتهي الشّفاعة إلى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود» «٣» .
- وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم- في قوله تعالى-: عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً: سئل عنها، قال: هي الشّفاعة» «٤» .
- وعن كعب بن مالك- رضي الله عنه-؛ أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «يبعث النّاس يوم القيامة فأكون أنا وأمّتي على تلّ ويكسوني ربّي حلّة خضراء ثمّ يؤذن لي فأقول ما شاء الله أن أقول فذلك المقام المحمود» «٥» .
٣- شفاعة عظمى وشفاعات: «٦»
يجمع الله- عزّ وجلّ- الأوّلين والآخرين يوم القيامة في صعيد واحد، وتدنو منهم الشّمس وقد تضاعف حرّها وتبدّلت عمّا كانت عليه من خفّة أمرها ويعرق النّاس حتّى يذهب عرقهم في الأرض سبعين باعا ويلجمهم ويبلغ آذانهم «٧» في يوم مقداره خمسين ألف سنة، قياما على أقدامهم شاخصة أبصارهم منفطرة قلوبهم لا يكلّمون ولا ينظر في أمورهم. فإذا بلغ الكرب والجهد منهم ما لا طاقة لهم به كلّم

بعضهم بعضا في طلب من يكرم على مولاه ليشفع في حقّهم، فلم يتعلّقوا بنبيّ إلّا دفعهم، قال: نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري حتّى ينتهوا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فينطلق. فيشفع حتّى يقضي الله تبارك وتعالى بين الخلق. وستأتي وقائع ذلك المشهد العظيم مفصّلة في الأحاديث، وبالله التّوفيق.

---

(١) رواه البخاري- الفتح ٣ (١٤٧٥) .
(٢) جثا: أي جماعات جمع جثوة كخطوة وخطا. وتروى هذه اللفظة جثى بتشديد الياء: جمع جاث وهو الذي يجلس على ركبتيه- انظر النهاية لابن الأثير (١/ ٢٣٩) ، ولسان العرب (١٤/ ١٣١- ١٣٢) ، وفتح الباري (٨/ ٢٥٢) .
(٣) رواه البخاري- الفتح ٨ (٤٧١٨) .
(٤) رواه الترمذي برقم (٣١٣٧) وقال: هذا حديث حسن، ورواه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ٤٤٤، ٤٧٨) ، وابن جرير في تفسيره (١٥/ ٩٨) .
(٥) رواه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٤٥٦) وقال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٥١) : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، وقال الهيثمي في موضع آخر (١٠/ ٣٧٧) : رواه الطبراني في الكبير والأوسط وأحد إسنادي الكبير رجاله رجال الصحيح. ورواه كذلك الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٦٣) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
(٦) الشفاعة: كلام الشفيع للملك في حاجة يسألها لغيره.. وشفع إليه: في معنى طلب إليه. والشافع: الطالب لغيره يتشفع به إلى المطلوب. يقال: تشفعت بفلان إلى فلان فشفعني فيه واسم الطالب شفيع- انظر لسان العرب (٨/ ١٨٤) . وقال ابن حجر: الاستشفاع طلب الشفاعة وهي انضمام الأدنى إلى الأعلى ليستعين به على ما يرومه- انظر الفتح (١١/ ٤٤١) . والشفاعة ملك لله عز وجل ولا تسأل إلا منه ولا تكون إلا من بعد إذنه تبارك وتعالى سواء في ذلك شفاعة نبينا صلّى الله عليه وسلّم وشفاعة من دونه، وذلك الإذن يتعلق بالشافع والمشفوع فيه، وبوقت الشفاعة، فليس يشفع إلا من أذن الله له في الشفاعة. وليس له أن يشفع إلا بعد أن يأذن الله له، وليس له أن يشفع إلا فيمن أذن الله تعالى له أن يشفع فيه.
(٧) كما صح بذلك الخبر- انظر البخاري- الفتح (١١/ ٦٥٣٢) ، ومسلم برقم (٢٨٦٣) .
جـ ١(ص: ٤٧٣)

وبعد هذه الشّفاعة يكون له ولغيره شفاعات أخرى سنبيّنها- إن شاء الله تعالى- فهذه هي الشّفاعة العظمى وهي الشّفاعة الأولى لنبيّنا صلّى الله عليه وسلّم، وهي المقام المحمود. قال الحافظ ابن حجر: والمقام المحمود هو الشّفاعة العظمى. الّتي اختصّ بها، وهي إراحة أهل الموقف من أهوال القضاء بينهم، والفراغ من حسابهم «١» .
وقد جاءت الأحاديث النّبويّة مثبتة لهذه الشّفاعة العظمى؛ فمن ذلك:
- عن أبي هريرة- رضي الله عنه-؛ قال: أتي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بلحم. فرفع إليه الذّراع- وكانت تعجبه- فنهش منها نهشة ثمّ قال: أنا سيّد النّاس يوم القيامة، وهل تدرون ممّ ذلك؟ يجمع النّاس- الأوّلين والآخرين- في صعيد واحد- يسمعهم الدّاعي، وينفذهم البصر، وتدنو الشّمس فيبلغ النّاس من الغمّ والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون. فيقول النّاس: ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربّكم؟ فيقول بعض النّاس لبعض: عليكم بآدم فيأتون آدم عليه السّلام فيقولون له: أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربّك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إنّ ربّي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنّه نهاني عن الشّجرة فعصيته، نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح. فيأتون نوحا فيقولون: يا نوح إنّك أنت أوّل الرّسل إلى أهل الأرض، وقد سمّاك الله عبدا شكورا، اشفع لنا إلى ربّك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إنّ ربّي عزّ وجلّ قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله. وإنّه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي، نفسي

نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم أنت نبيّ الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربّك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إنّ ربّي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله. وإنّي قد كنت كذبت ثلاث كذبات، نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى، فيأتون موسى فيقولون: يا موسى، أنت رسول الله، فضّلك الله برسالته وبكلامه على النّاس. اشفع لنا إلى ربّك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إنّ ربّي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله. وإنّي قد قتلت نفسا لم أومر بقتلها، نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى، فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى، أنت رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وكلّمت النّاس في المهد صبيّا، اشفع لنا إلى ربّك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى صلّى الله عليه وسلّم: إنّ ربّي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله. ولم يذكر ذنبا- نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمّد صلّى الله عليه وسلّم، فيأتون محمّدا صلّى الله عليه وسلّم فيقولون: يا محمّد، أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر، اشفع لنا إلى ربّك، ألا ترى

---

(١) انظر فتح الباري (٣/ ٣٩٨) .

إلى ما نحن فيه؟ فأنطلق، فآتي تحت العرش فأقع ساجدا لربّي عزّ وجلّ، ثمّ يفتح الله عليّ من محامده وحسن الثّناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلي. ثمّ يقال: يا محمّد، ارفع رأسك سل تعطه، واشفع تشفّع. فأرفع رأسي فأقول:

أمّتي «١» يا ربّ، أمّتي يا ربّ، فيقال: يا محمّد، أدخل من أمّتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنّة، وهم شركاء النّاس فيما سوى ذلك من الأبواب. ثمّ قال: والّذي نفسي بيده إنّ ما بين المصراعين من مصاريع الجنّة كما بين مكّة وحمير، أو كما بين مكّة وبصرى «٢» .

- عن أنس- رضي الله عنه-؛ أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، قال: يحبس المؤمنون يوم القيامة حتّى يهمّوا»

بذلك فيقولون لو استشفعنا إلى ربّنا فيريحنا من مكاننا، فيأتون آدم فيقولون أنت آدم أبو النّاس، خلقك الله بيده وأسكنك جنّته، وأسجد لك ملائكته، وعلّمك أسماء كلّ شيء، لتشفع لنا عند ربّك حتّى يريحنا من مكاننا هذا، قال: فيقول لست هناكم، قال: ويذكر خطيئته الّتي أصاب أكله من الشّجرة وقد نهي عنها، ولكن ائتوا نوحا أوّل نبيّ بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض، فيأتون نوحا، فيقول لست هناكم، ويذكر خطيئته الّتي أصاب وسؤاله ربّه بغير علم، ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرّحمن. قال: فيأتون إبراهيم، فيقول: إنّي لست هناكم، ويذكر ثلاث كذبات كذبهنّ ولكن ائتوا موسى عبدا آتاه الله التّوراة وكلّمه وقرّبه نجيّا، قال فيأتون موسى فيقول إنّي لست هناكم، ويذكر خطيئته الّتي أصاب قتله النّفس، ولكن ائتوا عيسى عبد الله ورسوله وروح الله وكلمته، قال: فيأتون عيسى فيقول: لست هناكم، ولكن ائتوا محمّدا صلّى الله عليه وسلّم عبدا غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر.

فيأتوني فأستأذن على ربّي في داره، فيؤذن لي عليه، فإذا رأيته وقعت ساجدا، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، فيقول ارفع محمّد وقل يسمع واشفع تشفّع، وسل تعط، قال: فأرفع رأسي فأثني على ربّي بثناء وتحميد يعلّمنيه، فيحدّ لي حدّا فأخرج فأدخلهم الجنّة. قال قتادة: وسمعته أيضا يقول: فأخرج فأخرجهم من النّار، وأدخلهم الجنّة، ثمّ أعود فأستأذن على ربّي في داره فيؤذن لي عليه، فإذا رأيته وقعت ساجدا، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثمّ يقول: ارفع يا محمّد وقل يسمع واشفع تشفّع وسل تعطه، قال: فأرفع رأسي، فأثني على ربّي بثناء وتحميد يعلّمنيه. قال: ثمّ أشفع فيحدّ لي حدّا فأخرج فأدخلهم الجنّة. ثمّ أعود الثّالثة فأستأذن على ربّي في داره فيؤذن لي

(١) الشفاعة في أمته وغيرها من الشفاعات تأتي بعد الشفاعة العظمى الأولى وهي إراحة الخلائق من هول الموقف والفصل بين العباد وبعد وضع الصراط والمرور عليه وحساب الناس، فيشفع في تعجيل من لا حساب عليه من أمته إلى الجنة، ثم يشفع فيمن وجب عليه العذاب ودخل منهم النار، ثم فيمن قال لا إله إلا الله- انظر الشفا (١/ ٤٣١) ، وشرح النووي على صحيح مسلم (٣/ ٥٧، ٥٨) ، والفتح (١١/
٤٤٦) .
(٢) رواه البخاري- الفتح ٨ (٤٧١٢) ، ومسلم برقم (١٩٤) .
(٣) يهموا: هذا لفظ البخاري- ولفظ مسلم (فيهتمون) وفي رواية (فيلهمون) . قال النووي رحمه الله: معنى اللفظتين متقارب فمعنى الأولى أنهم يعتنون بسؤال الشفاعة وزوال الكرب الذي هم فيه، ومعنى الثانية أن الله تعالى يلهمهم سؤال ذلك. والإلهام أن يلقي الله تعالى في النفس أمرا يحمل على فعل الشيء أو تركه- انظر شرح النووي على صحيح مسلم (٣/ ٥٣) .
جـ ١(ص: ٤٧٥)

عليه، فإذا رأيته وقعت ساجدا فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثمّ يقول: ارفع محمّد وقل يسمع واشفع تشفّع، وسل تعطه، قال: فأرفع رأسي، فأثني على ربّي بثناء وتحميد يعلّمنيه، قال: ثمّ أشفع فيحدّ لي حدّا فأخرج فأدخلهم الجنّة. قال قتادة: وقد سمعته يقول: فأخرج فأخرجهم من النّار وأدخلهم الجنّة حتّى ما يبقى في النّار إلّا من حبسه القرآن، أي وجب عليه الخلود. ثمّ تلا الآية عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً «١» . قال: وهذا المقام الّذي وعده نبيّكم صلّى الله عليه وسلّم «٢» .
- وعن عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما-؛ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ الشّمس تدنو يوم القيامة حتّى يبلغ العرق نصف الأذن فبينا هم كذلك استغاثوا بآدم ثمّ بموسى «٣» ثمّ بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم فيشفع ليقضى بين الخلق فيمشي حتّى يأخذ بحلقة الباب فيومئذ يبعثه الله مقاما محمودا يحمده أهل الجمع كلّهم «٤» .
هذا، ولرسول الله صلّى الله عليه وسلّم شفاعات أخرى غير الشّفاعة العظمى، منها ما اختصّ بها وحده، ومنها ما شاركه فيها غيره ممّن أذن الله تعالى له من الملائكة المقرّبين والأنبياء والمرسلين والصّدّيقين والشّهداء والصّالحين وغيرهم.
فنسرد شفاعته «٥» صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ نقتصر في ذكر الأدلّة على ما اختصّ به منها دون غيره:
١- الشّفاعة في استفتاح باب الجنّة.
٢- الشّفاعة في تقديم من لا حساب عليهم في دخول الجنّة.
٣- الشّفاعة فيمن استحقّ النّار من الموحّدين أن لا يدخلها.
٤- الشّفاعة في إخراج عصاة الموحّدين من النّار.
٥- الشّفاعة في رفع درجات ناس في الجنّة.

---

(١) قال الحافظ ابن حجر- رحمه الله-: والراجح أن المراد بالمقام المحمود الشفاعة. لكن الشفاعة التي وردت في الأحاديث المذكورة في المقام المحمود نوعان: الأول العامة في فصل القضاء، والثاني الشفاعة في إخراج المذنبين من النار. ثم ذكر أقوالا أخرى في تفسير المقام المحمود ... إلى أن قال: ويمكن رد الأقوال كلها إلى الشفاعة العامة. فإن إعطاءه لواء الحمد وثناءه على ربه ... كل ذلك صفات للمقام المحمود الذي يشفع فيه ليقضى بين الخلق. وأما شفاعته في إخراج المذنبين من النار فمن توابع ذلك- انظر فتح الباري (١١/ ٤٣٥) .
(٢) رواه البخاري- الفتح ١٣ (٧٤٤٠) ، ومسلم برقم (١٩٣) .

(٣) قوله (بآدم ثم بموسى) : قال الحافظ ابن حجر: هذا فيه اختصار وسيأتي في الرقاق- أي في كتاب الرقاق- في حديث الشفاعة الطويل ذكر من يقصدونه بين آدم وموسى وبين موسى ومحمد صلّى الله عليه وسلّم- انظر فتح الباري (٣/ ٣٩٧) وقد مر ذلك قريبا.
(٤) رواه البخاري- الفتح ٣ (١٤٧٥) .
(٥) انظر في ذلك فتح الباري (١١/ ٤٣٦) ، والخصائص الكبرى للسيوطي (٢/ ٣٧٨) .
جـ ١(ص: ٤٧٦)

٦- الشّفاعة في تخفيف العذاب عن عمّه أبي طالب.
فالّذي اختصّ به صلّى الله عليه وسلّم من هذه الشّفاعات دون غيره هو:
١- شفاعته في استفتاح باب الجنّة:
ينتقل النّاس في عرصات القيامة من كرب إلى كرب فأهوال قبل فصل القضاء فشفاعة عظمى ثمّ يحاسب النّاس، وعند ذلك ينصب الميزان، وتطاير الصّحف ويكون التّمييز بين المؤمنين والمنافقين ثمّ يؤذن في نصب الصّراط والمرور عليه ويوقف بعض من نجا عند القنطرة للمقاصصة بينهم، فإذا انتهى ذلك كلّه يقوم المؤمنون وتقرّب لهم الجنّة فيطلبون من يكرم على مولاه ليشفع لهم في استفتاح باب الجنّة، فيأتون آدم فإبراهيم فموسى فعيسى عليهم السّلام وكلّ منهم يعتذر عن هذا المقام العظيم، فيأتون رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيشفع لهم إلى الله تبارك وتعالى، على ما ورد تفصيله في الأحاديث.
- فعن أبي هريرة وحذيفة- رضي الله عنهما-؛ قالا: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «يجمع الله تبارك وتعالى النّاس.
فيقوم المؤمنون حتّى تزلف «١» لهم الجنّة، فيأتون آدم، فيقولون: يا أبانا استفتح لنا الجنّة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنّة إلّا خطيئة أبيكم آدم! لست بصاحب ذلك. اذهبوا إلى ابني إبراهيم خليل الله. قال: فيقول إبراهيم: لست بصاحب ذلك. إنّما كنت خليلا من وراء وراء «٢» ، اعمدوا إلى موسى صلّى الله عليه وسلّم الّذي كلّمه الله تكليما، فيأتون موسى صلّى الله عليه وسلّم فيقول: لست بصاحب ذلك، اذهبوا إلى عيسى كلمة الله وروحه. فيقول عيسى صلّى الله عليه وسلّم: لست بصاحب ذلك، فيأتون محمّدا صلّى الله عليه وسلّم، فيقوم فيؤذن له. وترسل الأمانة والرّحم «٣» فتقومان جنبتي الصّراط «٤» يمينا وشمالا. فيمرّ أوّلكم كالبرق؟ قال: قلت بأبي أنت وأمّي! أيّ شيء كمرّ البرق؟ قال: «ألم تروا إلى البرق كيف يمرّ ويرجع في طرفة عين؟
ثمّ كمرّ الرّيح، ثمّ كمرّ الطّير وشدّ الرجال «٥» . تجري بهم أعمالهم «٦» . ونبيّكم قائم على الصّراط يقول: ربّ سلّم سلّم. حتّى تعجز أعمال العباد حتّى يجيء الرّجل فلا يستطيع السّير إلّا زحفا. قال وفي حافّتي الصّراط «٧» كلاليب

---

(١) تزلف: أي تقرب- كما قال الله تعالى: وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ* أي قريب.
(٢) من وراء وراء: قال النووي: قال صاحب التحرير: هذه كلمة تذكر على سبيل التواضع أي لست بتلك الدرجة الرفيعة- انظر شرح النووي على صحيح مسلم (٣/ ٧١) .
(٣) وترسل الأمانة والرحم: إرسال الأمانة والرحم لعظم أمرهما وكبير موقعهما، فتصوران مشخصتين على الصفة التي يريدها الله تعالى.
(٤) جنبتي الصراط: معناهما جانباه. ناحيتاه اليمنى واليسرى.
(٥) وشد الرجال: الشد هو العدو البالغ والجري.
(٦) تجري بهم أعمالهم: هو تفسير لقوله صلّى الله عليه وسلّم: «فيمر أولكم كالبرق ثم كمر الريح» إلى آخره.
(٧) حافتي الصراط: هما جانباه.
جـ ١(ص: ٤٧٧)

معلّقة مأمورة بأخذ من أمرت به، فمخدوش ناج ومكدوس «١» في النّار» . والّذي نفس أبي هريرة بيده! إنّ قعر جهنّم لسبعون خريفا» «٢» .
- وعن عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما-؛ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «ما يزال الرّجل يسأل النّاس حتّى يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحم، وقال: إنّ الشّمس تدنو يوم القيامة حتّى يبلغ العرق نصف الأذن فبينا هم كذلك، استغاثوا بآدم ثمّ بموسى، ثمّ بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم، فيشفع ليقضى بين الخلق فيمشي حتّى يأخذ بحلقة الباب فيومئذ يبعثه الله مقاما محمودا يحمده أهل الجمع كلّهم» «٣» .
ففي هذا الحديث الجمع بين ذكر الشّفاعتين الأولى في فصل القضاء والثّانية في استفتاح باب الجنّة وسمّي ذلك كلّه «المقام المحمود» «٤» .
- وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه-؛ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «آتي باب الجنّة يوم القيامة، فأستفتح فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمّد، فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك» «٥» .
٢- شفاعته في تقديم من لا حساب عليهم في دخول الجنّة:
وممّا اختصّ به رسولنا صلّى الله عليه وسلّم من الشّفاعات أنّه يشفع في تعجيل دخول الجنّة لمن لا حساب عليهم من أمّته.
وهذا من عظيم قدره صلّى الله عليه وسلّم ورفعة منزلته عند ربّه تبارك وتعالى.
وقد جاءت الأحاديث النّبويّة تنصّ على هذه الشّفاعة:
- ففي حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- الطّويل في الشّفاعة: « ... يا محمّد ارفع رأسك سل تعطه، واشفع تشفّع، فأرفع رأسي فأقول: أمّتي يا ربّ، أمّتي يا ربّ، فيقول: يا محمّد، أدخل من أمّتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنّة، وهم شركاء النّاس فيما سوى ذلك من الأبواب» «٦»
.
- وعن أبي هريرة- رضي الله عنه-؛ عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «سألت ربّي عزّ وجلّ فوعدني أن يدخل من أمّتي سبعين ألفا على صورة القمر ليلة البدر، فاستزدت فزادني مع كلّ ألف سبعين ألفا، فقلت أي ربّ، إن لم

(١) ومكدوس: قال في النهاية: أي مدفوع. وتكدّس الإنسان إذا دفع من ورائه فسقط. انظر النهاية (٤/ ١٥٥) .
(٢) رواه مسلم برقم (١٩٥) .
(٣) رواه البخاري- الفتح ٣ (١٤٧٤) .
(٤) انظر كتاب معارج القبول للشيخ حافظ حكمي (٢/ ٣١٤) .
(٥) رواه مسلم برقم (١٩٧) .
(٦) رواه البخاري- الفتح ٨ (٤٧١٢) ، ومسلم برقم (١٩٤) .

يكن هؤلاء مهاجري أمّتي. قال: إذن أكملهم لك من الأعراب» «١» .
- وعن أبي أمامة- رضي الله عنه-؛ قال: إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «إنّ الله عزّ وجلّ وعدني أن يدخل من أمّتي الجنّة سبعين ألفا بغير حساب. فقال يزيد بن الأخنس السّلميّ: والله ما أولئك إلّا كالذّباب الأصهب في الذّبّان. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: كان ربّي عزّ وجلّ قد وعدني سبعين ألفا مع كلّ ألف سبعون ألفا وزادني ثلاث حثيات ... » «٢» .
٣- شفاعته في تخفيف العذاب عن عمه أبي طالب:
كان أبو طالب يحوط ابن أخيه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وينصره ويقوم في صفّه ويبالغ في إكرامه والذّبّ عنه، ويحبّه حبّا شديدا طبعيّا لا شرعيّا، فلمّا حضرته الوفاة وحان أجله دعاه رسول الله

صلّى الله عليه وسلّم إلى الإيمان والدّخول في الإسلام، فسبق القدر فيه فاستمرّ على ما كان عليه من الكفر ولله الحكمة البالغة. ونظرا لما قام به من أعمال جليلة مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم جوزي على ذلك بتخفيف العذاب خصوصيّة له من عموم الكفّار الّذين لا تنفعهم شفاعة الشّافعين.
وذلك إكراما وتطييبا لقلب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.
- قال الحافظ ابن حجر ما معناه: الشّفاعة لأبي طالب معدودة في خصائص النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم «٣» .
وقد وردت الأحاديث تنصّ على هذه الشّفاعة:
- فعن العبّاس بن عبد المطّلب- رضي الله عنه-؛ أنّه قال: يا رسول الله، هل نفعت أبا طالب بشيء، فإنّه كان يحوطك «٤» ويغضب لك؟ قال: «نعم، هو في ضحضاح «٥» من نار، ولولا أنا لكان في الدّرك «٦» الأسفل من النّار» «٧» .

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ٣٥٩) ، قال الحافظ ابن حجر: وسنده جيد- انظر فتح الباري (١١/ ٤١٨) ، وقال الحافظ الهيثمي: رواه الإمام أحمد ورجاله رجال الصحيح- انظر مجمع الزوائد (١٠/ ٤٠٤) .
(٢) رواه الترمذي مختصرا برقم (٢٤٣٧) وقال: هذا حديث حسن غريب، ورواه ابن ماجة مختصرا برقم (٤٢٨٦) . ورواه الإمام أحمد في مسنده. وهذا قطعة منه (٥/ ٢٥٠) . قال الحافظ ابن كثير: إسناده حسن- انظر تفسير ابن كثير (١/ ٤٠٢) . وقال الحافظ الهيثمي عن الحديث: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، وعند الترمذي وابن ماجه بعضه- انظر مجمع الزوائد (١٠/ ٣٦٢، ٣٦٣) .
(٣) انظر فتح الباري (١١/ ٤٣٩) .
(٤) يحوطك: قال أهل اللغة: يقال حاطه يحوطه حوطا وحياطة، إذا صانه وحفظه وذب عنه وتوفر على مصالحه- انظر شرح النووي على صحيح مسلم (٣/ ٨٤) .
(٥) ضحضاح: ما رق من الماء على وجه الأرض إلى نحو الكعبين، واستعير في النار- انظر شرح النووي على صحيح مسلم (٣/ ٨٤) .
(٦) الدرك: بفتح الراء وإسكانها لغتان فصيحتان. والدرك الأسفل: قعر جهنم وأقصى أسفلها. ولجهنم أدراك فكل طبقة من أطباقها تسمى دركا- انظر شرح النووي على صحيح مسلم (٣/ ٨٥) وعزا ذلك المعنى إلى جماهير المفسرين وأهل اللغة والمعاني والغريب.
(٧) رواه مسلم برقم (٢٠٩) .

- وعنه- رضي الله عنه-؛ قال: قلت: يا رسول الله، إنّ أبا طالب كان يحوطك وينصرك فهل نفعه ذلك؟ قال: «نعم، وجدته في غمرات «١» من النّار فأخرجته إلى ضحضاح «٢» » .
- وعن أبي سعيد الخدريّ- رضي الله عنه-؛ أنّه سمع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وذكر عنده عمّه أبو طالب فقال: لعلّه تنفعه شفاعتي يوم القيامة. فيجعل في ضحضاح من النّار يبلغ كعبيه يغلي منه أمّ دماغه» «٣» .
- وعن ابن عبّاس- رضي الله عنهما-؛ أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «أهون أهل النّار عذابا أبو طالب وهو منتعل بنعلين يغلي منهما دماغه» «٤» .
٤- دعوة مستجابة:
أعطى الله- تبارك وتعالى- كلّ نبيّ من الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام دعوة أعلمهم أنّها تستجاب لهم ويبلغ فيها مرغوبهم، وإلّا فكم لكلّ نبيّ منهم من دعوة مستجابة ولنبيّنا صلّى الله عليه وسلّم منها ما لا يعدّ، لكنّ حالهم عند الدّعاء بها بين الرّجاء والخوف، وضمنت لهم إجابة دعوة فيما شاؤوا يدعون بها على يقين من الإجابة. فنالها كلّ نبيّ من الأنبياء في الدّنيا. وأمّا نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم فادّخرها

شفاعة لأمّته يوم الفاقة وخاتمة المحن وعظيم السّؤال والرّغبة، فجزاه الله أحسن ما جزى نبيّا عن أمّته.
وما فعله صلّى الله عليه وسلّم فهو من كمال شفقته على أمّته ورأفته بهم واعتنائه بالنّظر في مصالحهم «٥» .
لأنّه جعل الدّعوة فيما ينبغي وجعلها للمذنبين من أمّته لكونهم أحوج إليها من الطّائعين «٦» فهذه الدّعوة المدّخرة لنبيّنا صلّى الله عليه وسلّم لا يشاركه فيها غيره من الأنبياء عليهم السّلام. والّذي يبدو أنّ هذه الدّعوة المستجابة هي الشّفاعة المعطاة لنبيّنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم على ما سبق تفصيله في المبحث الماضي. غير أنّنا نورد بعض الأحاديث الّتي تسند هذا المعنى.
- فعن أبي هريرة- رضي الله عنه-؛ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لكلّ نبيّ دعوة مستجابة. فتعجّل كلّ نبيّ دعوته. وإنّي اختبأت دعوتي شفاعة لأمّتي يوم القيامة، فهي نائلة، إن شاء الله، من مات من أمّتي لا يشرك بالله شيئا» » .

---

(١) غمرات: فتح الغين والميم واحدتها غمرة بإسكان الميم وهي المعظم من الشيء. انظر شرح النووي على صحيح مسلم (٣/ ٨٤) .
(٢) رواه مسلم برقم (٢١٠/ ٣٥٨) .
(٣) رواه البخاري- الفتح ١١ (٦٥٦٤) واللفظ له، ورواه مسلم برقم (٢١٠) .
(٤) رواه مسلم برقم (٢١٢) .
(٥) قاله النووي- انظر شرحه على صحيح مسلم (٣/ ٧٥) . ونقله عنه أيضا ابن حجر في فتح الباري (١١/ ١٠٠) .
(٦) قاله ابن الجوزي- انظر فتح الباري (١١/ ١٠٠) .
(٧) رواه البخاري- انظر الفتح ١١ (٦٣٠٤) ، ومسلم برقم (١٩٩) واللفظ له.

- وعن عبد الله بن عمرو- رضي الله عنهما-؛ أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، عام غزوة تبوك، قام من اللّيل يصلّي فاجتمع وراءه رجال من أصحابه يحرسونه حتّى إذا صلّى انصرف إليهم فقال لهم: «لقد أعطيت اللّيلة خمسا ما أعطيهنّ أحد قبلي ... » وفيه: «قيل لي سل فإنّ كلّ نبيّ قد سأل فأخّرت مسألتي إلى يوم القيامة فهي لكم ولمن شهد أن لا إله إلّا الله» «١» .

النوع الثالث: ما اختص به صلّى الله عليه وسلّم في أمته في الدنيا

فضّل الله- عزّ وجلّ- هذه الأمّة على سائر الأمم واختصّها بكرامات كثيرة في الدّنيا ليست لغيرها وذلك إكراما وتشريفا لنبيّها صلّى الله عليه وسلّم سيّد الأوّلين والآخرين. وإنّما نالت هذه الأمّة ما نالته من تكريم وتشريف باتّباعها لرسولها محمّد صلّى الله عليه وسلّم والسّير على سنّته والعمل بشريعته.
ومن هذه الخصائص، أنّها خير الأمم، وأحلّت لها الغنائم، وجعلت لها الأرض مسجدا وطهورا، وصفوفها في الصّلاة كصفوف الملائكة. إلى غير ذلك ممّا سيأتي معنا بإذن الله.
خير الأمم: «٢»
شرّف- الله تعالى- هذه الأمّة ورفع ذكرها واصطفاها على غيرها فجعلها خير الأمم وأكرمها عليه، فقال عزّ من قائل: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ «٣» . وإنّما حازت هذه الأمّة قصب السّبق إلى الخيرات بنبيّها محمّد صلوات الله وسلامه عليه، فإنّه أشرف خلق الله، وأكرم الرّسل على الله، بعثه الله بشرع كامل عظيم لم يعطه نبيّ قبله ولا رسول من الرّسل،

فالعمل على منهاجه وسبيله يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه. وقد وردت الآيات والأحاديث والآثار تؤيّد هذا المعنى:

- قال الله تعالى: هُوَ اجْتَباكُمْ وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ «٤» .

- وقال تعالى: وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً «٥» .

- عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جدّه؛ أنّه سمع النّبي صلّى الله عليه وسلّم يقول في قوله: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ. قال: «إنّكم تتمّون سبعين أمّة أنتم خيرها وأكرمها على الله» «٦» .

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) انظر الخصائص للسيوطي (٢/ ٣٦١) .

(٣) سورة آل عمران: آية رقم (١١٠) .

(٤) سورة الحج: آية رقم (٧٨) .

(٥) سورة البقرة: آية رقم (١٤٣) .

(٦) رواه الترمذي برقم (٣٠٠١) وقال: حديث حسن. ورواه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ص ٣) . وابن ماجه برقم (٤٢٨٨) ، والحاكم في المستدرك (٤/ ٨٤) وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. قال الحافظ ابن كثير: وهو حديث مشهور. انظر تفسير ابن كثير (١/ ٣٩٩) .

- وعن أبي هريرة- رضي الله عنه-: أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «فضّلت على الأنبياء بستّ لم يعطهنّ أحد كان قبلي ... وفيه «وجعلت أمّتي خير الأمم ... » «١» .

- عن عليّ بن أبي طالب- رضي الله عنه-؛ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أعطيت ما لم يعط أحد من الأنبياء، فقلنا: يا رسول الله ما هو؟ قال: نصرت بالرّعب، وأعطيت مفاتيح الأرض، وسمّيت أحمد، وجعل التّراب لي طهورا، وجعلت أمّتي خير الأمم» «٢» .

- وعن أبي الدّرداء- رضي الله عنه- قال: سمعت أبا القاسم صلّى الله عليه وسلّم، يقول: «إنّ الله عزّ وجلّ يقول: يا عيسى إنّي باعث من بعدك أمّة إن أصابهم ما يحبّون حمدوا الله وشكروا، وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا، ولا حلم ولا علم. قال: يا ربّ، كيف هذا لهم ولا حلم ولا علم، قال: أعطيهم من حلمي وعلمي» «٣» .

ومن الآثار:

- قال قتادة في قوله تعالى: أَخَذَ الْأَلْواحَ «٤» قال «٥» : «ربّ إنّي أجد في الألواح أمّة خير أمّة أخرجت للنّاس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر اجعلهم أمّتي. قال: تلك أمّة أحمد. قال: ربّ إنّي أجد في الألواح أمّة هم الآخرون أي الآخرون في الخلق سابقون في دخول الجنّة ربّ اجعلهم أمّتي، قال: تلك أمّة أحمد. قال: ربّ إنّي أجد في الألواح أمّة أنا جيلهم في صدورهم يقرءونها وكان من قبلهم يقرءون كتابهم نظرا حتّى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئا ولم يعرفوه وإنّ الله أعطاهم من الحفظ شيئا لم يعطه أحدا من الأمم، قال: ربّ اجعلهم أمّتي، قال: تلك أمّة أحمد. قال ربّ إنّي أجد في الألواح أمّة يؤمنون بالكتاب الأوّل وبالكتاب الآخر ويقاتلون الضّلالة حتّى يقاتلون الأعور الكذّاب، فاجعلهم أمّتي، قال: تلك أمّة أحمد، قال: ربّ إنّي أجد في الألواح أمّة صدقاتهم يأكلونها في

---

(١) قال الحافظ الهيثمي: رواه البزار وإسناده جيد، انظر مجمع الزوائد (٨/ ٢٦٩) ، وجوّد إسناده كذلك الحافظ السيوطي في الخصائص الكبرى (٢/ ٣٣٦) .

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٩٨) ، وقال الحافظ ابن كثير: تفرد به أحمد من هذا الوجه وإسناده حسن. انظر تفسير ابن كثير (١/ ٤٠٠) ، وقال الحافظ ابن حجر: اسناده حسن. انظر فتح الباري (١/ ٥٢٢) ، وحسن الحديث كذلك الحافظ الهيثمي. انظر مجمع الزوائد (١/ ٢٦١) .

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده (٦/ ٤٥٠) . وقال الحافظ الهيثمي: رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط، ورجال أحمد رجال الصحيح غير الحسن بن سوار وأبي حلبس يزيد بن ميسرة وهما ثقتان. انظر مجمع الزوائد (١٠/ ٦٨، ٦٧) . وحسّن إسناده كذلك شعيب وعبد القادر الأرنؤوط. انظر تعليقهما على كتاب زاد المعاد (١/ ٤٦) .
(٤) الآية الكريمة من سورة الأعراف رقم (١٥٤) وتكملتها: وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْواحَ وَفِي نُسْخَتِها هُدىً وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ.
(٥) أي موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

بطونهم يؤجرون عليها وكان من قبلهم إذا تصدّق بصدقة فقبلت منه بعث الله نارا فأكلتها وإن ردّت عليه تركت فتأكلها السّباع والطّير وإنّ الله أخذ صدقاتهم من غنيّهم لفقيرهم، قال: ربّ فاجعلهم أمّتي، قال: تلك أمّة أحمد.
قال: ربّ إنّي أجد في الألواح أمّة إذا همّ أحدهم بحسنة ثمّ لم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشر أمثالها إلى سبعمائة، ربّ اجعلهم أمّتي، قال: تلك أمّة أحمد، قال: ربّ إنّي أجد في الألواح أمّة هم المشفوعون والمشفوع لهم فاجعلهم أمّتي، قال: تلك أمّة أحمد. قال قتادة فذكر لنا أنّ نبيّ الله موسى نبذ الألواح وقال: اللهمّ اجعلني من أمّة أحمد» «١» .
- وعن الرّبيع بن خثيم- رحمه الله-؛ قال: «لم تكن أمّة أكثر استجابة في الإسلام من هذه الأمّة فمن ثمّ قال تعالى: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ «٢» » «٣» .
حل الغنائم:
كانت الأمم فيمن قبلنا على ضربين «٤» فمنهم من لم يؤذن له في الجهاد فلم تكن لهم غنائم، ومنهم من أذن له فيه فكانوا يغزون ويجاهدون ويأخذون أموال أعدائهم وأسلابهم، لكن لا يتصرّفون فيها بل يجمعونها، وعلامة قبول غزوهم ذلك أن تنزل النّار من السّماء فتأكلها، وعلامة عدم قبوله أن لا تنزل، ومن أسباب عدم القبول أن يقع فيهم الغلول، وقد منّ الله تعالى على هذه الأمّة ورحمها وجبر عجزها وضعفها لشرف نبيّها عنده، فأحلّ لهم الغنائم وستر عليهم الغلول، فطوى عنهم فضيحة أمر عدم القبول، فلله الحمد على نعمه تترى وآلائه لا تحصى.
- قال الله تعالى: لَوْلا كِتابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيما أَخَذْتُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ* فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالًا طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ «٥» .
قال جمهور المفسّرين: إنّ المراد في قوله تعالى لَوْلا كِتابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ: يعني في أمّ الكتاب الأوّل، إنّ الغنائم حلال لهذه الأمّة «٦» .
وهذه جملة من الأحاديث النّبويّة تنصّ على هذه الخصوصيّة:
- عن جابر- رضي الله عنه-؛ أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «أعطيت خمسا لم يعطهنّ أحد قبلي؛ نصرت بالرّعب

---

(١) الأثر أخرجه ابن جرير في التفسير (٩/ ٤٥) ، وأورده ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٥٩) .
(٢) السورة آل عمران: آية (١١٠) .
(٣) لأثر رواه ابن جرير في التفسير (٤/ ٣٠) ، قال السيوطي في الخصائص: أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي بن كعب. انظر الخصائص (٢/ ٣٦٢) .
(٤) هذا التقسيم قاله الإمام الخطابي. انظر فتح الباري (١/ ٥٢٢) .
(٥) سورة الأنفال: آية رقم (٦٨، ٦٩) .
(٦) انظر تفسير ابن جرير (١٠/ ٣٢، ٣٣) ، وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٣٩) .

مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيّما رجل من أمّتي أدركته الصّلاة فليصلّ، وأحلّت لي المغانم، ولم تحلّ لأحد قبلي، وأعطيت الشّفاعة، وكان النّبيّ يبعث إلى قومه خاصّة، وبعثت إلى النّاس عامّة» «١» .

- عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «غزا نبيّ من الأنبياء، فقال لقومه: لا يتبعني رجل قد ملك بضع «٢» امرأة، وهو يريد أن يبني بها، ولمّا يبن. ولا آخر قد بنى بنيانا، ولمّا يرفع سقفها. ولا آخر قد اشترى غنما أو خلفات «٣» ، وهو منتظر ولادها «٤» : قال: فغزا. فأدنى للقرية حين صلاة العصر أو قريبا من ذلك، فقال للشّمس: أنت مأمورة وأنا مأمور، اللهمّ احبسها عليّ شيئا «٥» ، فحبست عليه حتّى فتح الله عليه. قال: فجمعوا ما غنموا. فأقبلت النّار «٦» لتأكله. فأبت أن تطعمه. فقال: فيكم غلول. فليبايعني من كلّ قبيلة رجل. فبايعوه. فلصقت يد رجل بيده. فقال: فيكم الغلول. فلتبايعني قبيلتك. فبايعته. قال: فلصقت بيد رجلين أو ثلاثة. فقال: فيكم الغلول. أنتم غللتم. قال: فأخرجوا له مثل رأس بقرة «٧» من ذهب. قال: فوضعوه في المال وهو بالصّعيد «٨» . فأقبلت النّار فأكلته. فلم تحلّ الغنائم لأحد من قبلنا. ذلك بأنّ الله تبارك وتعالى رأى ضعفنا وعجزنا «٩» ، فطيّبها «١٠» لنا» «١١» .

- عن أبي هريرة- رضي الله عنه-؛ عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «لم تحلّ الغنائم لأحد سود «١٢» الرّءوس من قبلكم، كانت تنزل نار من السّماء فتأكلها، قال سليمان الأعمش «١٣» : فمن يقول هذا إلّا أبو هريرة الآن، فلمّا كان يوم بدر وقعوا في الغنائم قبل أن تحلّ لهم، فأنزل الله تعالى: لَوْلا كِتابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيما أَخَذْتُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ «١٤» .١» .

- عن عبد الله بن عمرو- رضي الله عنهما-؛ أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم- عام غزوة تبوك- قام من اللّيل يصلّي

---

(١) رواه البخاري واللفظ له. انظر فتح الباري ١ (٣٣٥) ورواه مسلم برقم (٥٢١) .
(٢) بضع بضم الباء: هو فرج المرأة. أي ملك فرجها بالنكاح.
(٣) خلفات: جمع خلفة ككلمة وكلمات. وهي الحامل من الإبل.
(٤) ولادها: أي نتاجها. وقال النووي: وفي هذا الحديث أن الأمور المهمة ينبغي أن لا تفوض إلا إلى أولي الحزم وفراغ البال لها. ولا تفوض إلى متعلق القلب بغيرها. لأن ذلك يضعف عزمه، ويفوت كمال بذله وسعيه.
(٥) اللهم احبسها: قال القاضي: اختلف في حبس الشمس المذكور هنا. فقيل: ردت على أدراجها. وقيل: وقفت ولم ترد. وقيل أبطيء بحركتها.
(٦) فأقبلت النار: أي من جانب السماء لتأكله، كما هو السنة في الأمم الماضية، لغنائمهم وقرابينهم المتقبلة.
(٧) فأخرجو له مثل رأس بقرة: أي كقدره أو كصورته من ذهب كانوا غلوه أو أخفوه.
(٨) بالصعيد: يعني وجه الأرض.
(٩) قوله « ... رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا» : كما في رواية البخاري قال الحافظ ابن حجر: « ... وفيه اختصاص هذه الأمة بحل الغنيمة. وكان ابتداء ذلك من غزوة بدر ... » . انظر فتح الباري (٦/ ٢٥٨) .
(١٠) فطيبها: أي جعلها لنا حلالا بحتا، ورفع عنا محقها بالنار تكرمة لنا.
(١١) رواه البخاري. انظر الفتح (٦/ ٣١٢٤) ، ورواه مسلم برقم (١٧٤٧) . واللفظ له.
(١٢) سود الرءوس: المراد بهم بنو آدم لأن رءوسهم سود.
(١٣) سليمان الأعمش: أحد رواة الحديث وهو أحد الأئمة الحفاظ.
(١٤) سورة الأنفال: آية رقم (٦٨) .
(١٥) رواه الترمذي برقم (٣٠٨٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح، ورواه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ٢٥٢) وصححه كذلك الألباني. انظر صحيح الجامع برقم (٥٠٧٢) .

جـ ١(ص: ٤٨٤)

فاجتمع وراءه رجال من أصحابه يحرسونه حتّى إذا صلّى، انصرف إليهم فقال لهم: «لقد أعطيت اللّيلة خمسا ما أعطيهنّ أحد قبلي ... » وفيه «وأحلّت لي الغنائم آكلها وكان من قبلي يعظمون أكلها كانوا يحرقونها» «١» .

الأرض مسجدا وطهورا:

اختصّ الله تبارك وتعالى هذه الأمّة من بين سائر الأمم فجعل لها الأرض مسجدا وطهورا فأيّما رجل منها أدركته الصّلاة فلم يجد ماء ولا مسجدا فعنده طهوره ومسجده يتيمّم ويصلّي بخلاف الأمم قبلنا فإنّ الصّلاة أبيحت لهم في أماكن مخصوصة كالبيع والصّوامع.

وقد وردت الأحاديث تبيّن هذا المعنى:

- عن جابر- رضي الله عنه-؛ أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «أعطيت خمسا لم يعطهنّ أحد قبلي؛ نصرت بالرّعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيّما رجل من أمّتي أدركته الصّلاة فليصلّ، وأحلّت لي المغانم، ولم تحلّ لأحد قبلي، وأعطيت الشّفاعة، وكان النّبيّ يبعث إلى قومه خاصّة، وبعثت إلى النّاس عامّة» «٢» .

- عن عبد الله بن عمرو- رضي الله عنهما- أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم- عام غزوة تبوك- قام من اللّيل يصلّي فاجتمع وراءه رجال من أصحابه يحرسونه حتّى إذا صلّى، انصرف إليهم فقال لهم: «لقد أعطيت اللّيلة خمسا ما أعطيهنّ أحد قبلي ... » وفيه «وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا أينما أدركتني الصّلاة تمسّحت وصلّيت وكان من قبلي يعظّمون ذلك إنّما كانوا يصلّون في كنائسهم وبيعهم» «٣» .

- عن عليّ بن أبي طالب- رضي الله عنه-؛ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أعطيت ما لم يعط أحد من الأنبياء، فقلنا: يا رسول الله ما هو؟ قال: نصرت بالرّعب، وأعطيت مفاتيح الأرض، وسمّيت أحمد، وجعل التّراب لي طهورا، وجعلت أمّتي خير الأمم» «٤» .

آصار «٥» وأغلال «٦» موضوعة:

من رحمة الله تعالى وكرمه بهذه الأمّة المحمّديّة أن وضع عنها الآصار والأغلال الّتي كانت على الأمم قبلها،

---

(١) تقدم كاملا مع تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) مر الحديث كاملا مخرجا.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) الآصار: الإصر: العهد الثقيل. انظر لسان العرب (٤/ ٢٢، ٢٣) .

(٦) الأغلال: الغل: جامعة توضع في العنق أو اليد، يقال: في رقبته غل حديد، والمراد به هنا الأثقال. انظر لسان العرب (١١/ ٥٠٤) ، وتفسير القرطبي (٧/ ٣٠٠) .

جـ ١(ص: ٤٨٥)

فأحلّ لها كثيرا ممّا حرّم على غيرها، ولم يجعل عليها من عنت وشدّة كما قال تعالى: هُوَ اجْتَباكُمْ وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ «١» . وقال تعالى: ما يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ «٢» ، وقال تعالى يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ «٣» . فشريعته صلّى الله عليه وسلّم أكمل الشّرائع وأسهلها وأيسرها، قال صلوات الله وسلامه عليه: « ... إنّي أرسلت بحنيفيّة سمحة» «٤» . وقال لمعاذ وأبي موسى- رضي الله عنهما- حين بعثهما إلى اليمن: «يسّرا ولا تعسّرا وبشّرا ولا تنفّرا ... » «٥» . وهذه بعض الأحاديث المختارة الّتي تشير إلى اختصاص أمّة الإسلام بوضع الآصار والأغلال عنها:

- فعن حذيفة- رضي الله عنه- قال: غاب عنّا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فلم يخرج حتّى ظننّا أنّه لن يخرج فلمّا خرج سجد سجدة حتّى ظننّا أنّ نفسه قد قبضت فيها، فلمّا رفع رأسه قال: «إنّ ربّي تبارك وتعالى استشارني في أمّتي ماذا أفعل بهم فقلت ما شئت أي ربّ هم خلقك وعبادك فاستشارني الثّانية فقلت له كذلك فقال لا نخزيك في أمّتك يا محمّد، وبشّرني أنّ أوّل من يدخل الجنّة من أمّتي سبعون ألفا مع كلّ ألف سبعون ألفا ليس عليهم حساب ثمّ أرسل إليّ فقال: ادع تجب وسل تعطه. فقلت لرسوله: أو معطيّ ربّي سؤلي؟ فقال ما أرسلني إليك إلّا ليعطيك.
ولقد أعطاني ربّي عزّ وجلّ ولا فخر ... وفيه «وأحلّ لنا كثيرا ممّا شدّد على من قبلنا ولم يجعل علينا من حرج» «٦» .
- وعن أبي موسى الأشعريّ- رضي الله عنه- قال: كنت مع النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فأراد أن يبول فقام إلى دمث «٧» حائط هناك وقال: «إنّ بني إسرائيل كان إذا أصاب أحدهم البول قرضه بالمقراض فإذا أراد أحدكم أن يبول فليرتد بوله» «٨» .
- وعن أنس- رضي الله عنه- أنّ اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم، لم يؤاكلوها ولم يجامعوهنّ في البيوت «٩» .

---

(١) سورة الحج: آية رقم (٧٨) .
(٢) سورة المائدة: آية رقم (٦) .
(٣) سورة البقرة: آية رقم (١٨٥) .
(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده (٦/ ١١٦، ٢٣٣) بلفظ «.. يومئذ لتعلم اليهود أن في ديننا فسحة، إني أرسلت بحنيفة سمحة» قال الألباني: سنده جيد. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم (١٨٢٩) .
(٥) رواه البخاري في مواضع. انظر الفتح ٦ (٣٠٣٨) ، ورواه مسلم برقم (١٧٣٣) .
(٦) الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٣٩٣) . قال الحافظ الهيثمي: رواه أحمد وإسناده حسن. انظر مجمع الزوائد (١٠/ ٦٨، ٦٩) .
(٧) الدمث: هو الأرض السهلة الرخوة، والرمل الذي ليس بمتلبد. يقال: دمث المكان دمثا إذا لان وسهل. انظر النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٢/ ١٣٢) .
(٨) رواه الإمام أحمد في مسنده بمعناه (٥/ ٤٠٢) ، ورواه الحاكم واللفظ له. وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي (٣/ ٤٦٦) .
(٩) ولم يجامعوهن في البيوت: أي لم يخالطوهن ولم يساكنوهن في بيت واحد.

فسأل أصحاب النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم. فأنزل الله تعالى: وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً فَاعْتَزِلُوا النِّساءَ فِي الْمَحِيضِ «١» . «٢» . فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم «اصنعوا كلّ شيء إلّا النّكاح» فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرّجل أن يدع من أمرنا شيئا إلّا خالفنا فيه. فجاء أسيد بن حضير وعبّاد بن بشر فقالا: يا رسول الله إنّ اليهود تقول كذا وكذا.
فلا نجامعهنّ؟ فتغيّر وجه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتّى ظننّا أن قد وجد عليهما «٣» . فخرجا فاستقبلهما هديّة من لبن إلى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم. فأرسل في آثارهما. فسقاهما. فعرفا أن لم يجد عليهما» «٤» .
- وعن عائشة- رضي الله عنها-: أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مرّ على أصحاب الدّركلة «٥» . فقال: «خذوا يا بني أرفدة «٦» حتّى تعلم اليهود والنّصارى أنّ في ديننا فسحة» «٧» .
وأمّا الآثار:
- عن ابن عبّاس- رضي الله عنهما- قال: كان في بني إسرائيل القصاص في القتلى ولم يكن فيهم الدّية فقال الله تعالى لهذه الأمّة: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصاصُ فِي الْقَتْلى.. فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ «٨» فالعفو أن يقبل الدّية في العمد ذلك تخفيف من ربّكم ورحمة ممّا كتب على من كان قبلكم «٩» .

- وفي حديث الفتون الطّويل عن ابن عبّاس- رضي الله عنهما-؛ في قوله تعالى: وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً «١٠» فيه

---

(١) المحيض: المحيض الأول المراد به الدم. والثاني قد اختلف فيه: قيل: إنه الحيض ونفس الدم. وقال بعض العلماء: هو الفرج. وقال الآخرون: هو زمن الحيض.
(٢) سورة البقرة: آية رقم (٢٢٢) .
(٣) قد وجد عليهما: أي غضب عليهما. ولم يجد عليهما: أي لم يغضب عليهما.
(٤) رواه مسلم برقم (٣٠٢) .
(٥) الدركلة: قال ابن الأثير رحمه الله: يروى بكسر الدال وفتح الراء وسكون الكاف، ويروى بكسر الدال وسكون الراء وكسر الكاف وفتحها، ويروى بالقاف عوض الكاف وهي ضرب من لعب الصبيان، وقال ابن دريد: أحسبها حبشية. انظر النهاية لابن الأثير (٢/ ١١٤) .
(٦) بني أرفدة: قال ابن الأثير رحمه الله: هو لقب لهم وقيل هو اسم أبيهم الأقدم يعرفون به، وفاؤه مكسورة وقد تفتح. انظر النهاية لابن الأثير (٢/ ٢٤٢) .
(٧) رواه الإمام أحمد في مسنده (٦/ ١١٦، ٢٣٣) بلفظ «.. يومئذ لتعلم اليهود أن في ديننا فسحة، إني أرسلت بحنيفة سمحة» قال الألباني: سنده جيد. كما سبق. وقال الألباني عن هذا اللفظ: أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث (٢/ ١٠٢) ، والحارث بن أبي أسامة في مسنده (٢١٢- زوائد) ، والديلمي (٢/ ١١٠) ، والحميدي (٢٥٩) . ثم قال الألباني: فالحديث بمجموع هذه الطرق صحيح بلا ريب. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم (١٨٢٩) ، وصحيح الجامع الصغير برقم (٣٢١٤) .
(٨) سورة البقرة: آية رقم (١٧٨) .
(٩) الأثر رواه البخاري. انظر الفتح ١٢ (٦٨٨١) . ورواه ابن جرير واللفظ له- انظر تفسير ابن جرير (٢/ ٦٥) .
(١٠) سورة طه: آية رقم (٤٠) .

ج ١(ص: ٤٨٧)

أنّ موسى عليه السّلام قال: يا ربّ سألتك التّوبة لقومي فقلت إنّ رحمتي كتبتها لقوم غير قومي هلّا أخّرتني حتّى تخرجني في أمّة ذلك الرّجل المرحومة فقال له: إنّ توبتهم أن يقتل كلّ رجل منهم من لقي من والد وولد بالسّيف ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن وتاب أولئك الّذين كان خفي على موسى وهارون واطّلع الله من ذنوبهم فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا وغفر الله للقاتل والمقتول ثمّ سار بهم موسى عليه السّلام متوجّها نحو الأرض المقدّسة «١» .
ويوضّح الشّاهد من هذا الأثر أثر ابن مسعود الآتي:
- عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه-: قال: كانت بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم ذنبا أصبح قد كتب كفّارة ذلك الذّنب على بابه وإذا أصاب البول شيئا منه قرضه بالمقراض فقال رجل: لقد آتى الله بني إسرائيل خيرا فقال عبد الله ما آتاكم الله خير ممّا آتاهم جعل الله الماء لكم طهورا وقال: وَالَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ «٢» وقال: وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ «٣» مَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً «٤» .
- وقال القاضي أبو بكر بن العربيّ المالكي «٥» - رحمه الله-: كان من قبلنا من الأمم صومهم الإمساك عن الكلام مع الطّعام والشّراب، فكانوا في حرج، فأرخص الله لهذه الأمّة بحذف نصف زمانها، وهو اللّيل، وحذف نصف صومها، وهو الإمساك عن الكلام ورخّص لها فيه «٦» .
يوم الجمعة:»
اختصّت الأمّة المحمّديّة بخصائص كثيرة في الدّنيا لم تعطها غيرها من الأمم. ومن ذلك يوم الجمعة سيّد الأيام خير يوم طلعت فيه الشّمس، فيه خلق آدم عليه السّلام، وفيه أدخل الجنّة، وفيه أخرج منها، وفيه تقوم

(١) قال الحافظ ابن كثير عن حديث الفتون الطويل: رواه النسائي في السنن الكبرى، وأخرجه ابن جرير، وابن حاتم في تفسيريهما ... وهو موقوف من كلام ابن عباس وليس فيه مرفوع إلا قليل منه.
انظر تفسير ابن كثير (٣/ ١٦٠، ١٦١) .
(٢) سورة آل عمران: آية رقم (١٣٥) .
(٣) سورة النساء: آية رقم (١١٠) .
(٤) الأثر أخرجه ابن جرير في تفسيره (٥/ ١٧٥) وأورده ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٦٥، ٥٦٦) .
(٥) انظر كتابه عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي (٣/ ٢٢٩) .
(٦) أورد الحافظ ابن كثير في تفسيره عن أنس بن مالك رضي الله عنه في قوله تعالى- حكاية عن مريم عليها السلام-: إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً قال صمتا، قال ابن كثير: وكذا قال ابن عباس- رضي الله عنهما- والضحاك، وفي رواية عن أنس- رضي الله عنه-: صوما وصمتا. وكذا قال قتادة وغيرهما.
والمراد أنهم كانوا إذا صاموا في شريعتهم يحرم عليهم الطعام والكلام. نص على ذلك السدي وقتادة وعبد الرحمن بن زيد. انظر تفسير ابن كثير (٣/ ١٢٤) ، وكذلك تفسير ابن جرير (١٦/ ٥٦) .
وتفسير القرطبي (١١/ ٩٨) .
(٧) انظر الخصائص للسيوطي (٢/ ٣٥٣) .

السّاعة، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله خيرا إلّا أعطاه ما سأل، وفيه صلاة الجمعة الّتي أمر الله بالسّعي إليها في كتابه العزيز، فقال عزّ من قائل: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ «١» .
فهذا اليوم المبارك اختلفت فيه الأمم من قبلنا فهدانا الله له وأضلّ النّاس عنه فهو لنا. ولليهود السّبت. وللنّصارى يوم الأحد. كما نطقت بذلك الأحاديث النّبويّة الكثيرة ومنها:
- عن أبي هريرة- رضي الله عنه-؛ أنّه سمع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: «نحن الآخرون السّابقون يوم القيامة، بيد أنّهم «٢» أوتوا الكتاب من قبلنا، ثمّ هذا يومهم الّذي فرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله، فالنّاس لنا فيه تبع:
اليهود غدا، والنّصارى بعد غد» «٣» .
- وعن أبي هريرة- رضي الله عنه-، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «خير يوم طلعت فيه الشّمس يوم الجمعة: فيه خلق آدم، وفيه أهبط، وفيه تيب عليه، وفيه مات، وفيه تقوم السّاعة، وما من دابّة إلّا وهي مسيخة «٤» يوم الجمعة من حين تصبح حتّى تطلع الشّمس شفقا من السّاعة، إلّا الجنّ والإنس، وفيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلّي يسأل الله حاجة إلّا أعطاه إيّاها» قال كعب: ذلك في كلّ سنة يوم؟ فقلت: بل في كلّ جمعة، قال: فقرأ كعب التّوراة، فقال: صدق النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، قال أبو هريرة: ثمّ لقيت عبد الله بن سلام فحدّثته بمجلسي مع كعب فقال عبد الله بن سلام: قد علمت أيّة ساعة هي؟ قال أبو هريرة: فقلت له:
فأخبرني بها فقال عبد الله بن سلام: هي آخر ساعة من يوم الجمعة، فقلت: كيف هي آخر ساعة من يوم الجمعة، وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلّي» وتلك السّاعة لا يصلّى فيها؟ فقال عبد الله بن سلام: ألم يقل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم «من جلس مجلسا ينتظر الصّلاة فهو في صلاة حتّى يصلّي» ؟ قال:
فقلت: بلى، قال: هو ذاك» «٥» .

(١) سورة الجمعة: آية رقم (٩) .
(٢) بيد أن: قال النووي: قال أبو عبيد: لفظة بيد تكون بمعنى غير وبمعنى على وبمعني من أجل. وقال النووي: وكله صحيح هنا. انظر شرح مسلم للنووي (٦/ ١٤٣) .

(٣) رواه البخاري. انظر فتح الباري ٢ (٨٧٦) ورواه مسلم برقم (٨٥٥) .
(٤) مسيخة: ويروى مصيخة بالصاد، وهما لغتان، أي منتظرة لقيام الساعة. قال الخطابي: وقوله مسيخة معناه مصغية مستمعة. يقال: أصاخ وأساخ بمعنى واحد. انظر عون المعبود (٣/ ٣٦٨) ، وقال ابن الأثير: المصيخ: المصغي ليستمع. انظر جامع الأصول (٩/ ٢٧٢) .
(٥) رواه أبو داود- واللفظ له- برقم (١٠٤٦) ، والترمذي برقم (٤٩١) وقال: هذا حديث حسن صحيح، ورواه النسائي (٣/ ١١٤، ١١٥) ، ورواه الإمام مالك في الموطأ (١/ ١٠٨- ١١٠) ، وصحح الحديث أيضا الألباني. انظر صحيح الجامع الصغير برقم (٣٣٢٩) .

- وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه-؛ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أتاني جبريل عليه السّلام وفي يده مرآة بيضاء فيها نكتة سوداء. فقلت: ما هذه يا جبريل؟ قال: هذه الجمعة يعرضها عليك ربّك لتكون لك عيدا ولقومك من بعدك تكون أنت الأوّل وتكون اليهود والنّصارى من بعدك. قال: ما لنا فيها. قال: لكم فيها خير، لكم فيها ساعة من دعا ربّه فيها بخير هو له قسم إلّا أعطاه إيّاه وليس له بقسم إلّا ودخر له ما هو أعظم منه أو تعوّذ فيها من شرّ هو مكتوب إلّا أعاذه من أعظم منه. قلت: ما هذه النكتة السّوداء فيه؟ قال: هذه السّاعة تقوم يوم الجمعة وهو سيّد الأيّام عندنا ونحن ندعوه في الآخرة يوم المزيد. قال: قلت: لم تدعونه يوم المزيد؟ قال: إنّ ربّك عزّ وجلّ اتّخذ في الجنّة واديا أفيح من المسك أبيض، فإذا كان يوم الجمعة نزل تبارك وتعالى من علّيّين على كرسيّه حتّى حفّ الكرسيّ بمنابر من نور وجاء النّبيّون حتّى يجلسوا عليها ثمّ حفّ المنابر بكراسيّ من ذهب ثمّ جاء الصّدّيقون والشّهداء حتّى يجلسوا عليها ثمّ يجيء أهل الجنّة حتّى يجلسوا على الكثيب فيتجلّى لهم الله تبارك وتعالى حتّى ينظروا إلى وجهه وهو يقول أنا الّذي صدقتكم وعدي وأتممت عليكم نعمتي هذا محلّ كرامتي فسلوني، فيسألوه الرّضا، فيقول الله عزّ وجلّ: رضائي أحلّكم داري وأنّ لكم كرامتي فسلوني، فيسألوه حتّى تنتهي رغبتهم، فيفتح لهم عند الله ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر إلى مقدار منصرف النّاس يوم الجمعة ثمّ يصعد الله تبارك وتعالى على كرسيّه فيصعد معه الشّهداء والصّدّيقون، أحسبه قال: ويرجع أهل الغرف إلى غرفهم درّة بيضاء لا قصم فيها ولا فصم أو ياقوتة حمراء أو زبرجدة خضراء منها غرفا وأبوابها مطردة فيها أنهارها متدلّية فيها ثمارها فيها أزواجها وخدمها فليسوا إلى شيء أحوج منهم إلى يوم الجمعة ليزدادوا فيه كرامة وليزدادوا فيه نظرا إلى وجهه تبارك وتعالى ولذلك دعي يوم المزيد» «١» .
التّجاوز عن الخطإ والنّسيان وحديث النّفس:
أنعم الله تبارك وتعالى على أمّة الإسلام بنعم كثيرة لا تعدّ ولا تحصى، وفي ذلك تكريم لنبيّها محمّد صلّى الله عليه وسلّم، ومن هذه النّعم أنّه تجاوز لها عمّا صدر منها على سبيل الخطإ والنّسيان، وتجاوز لها عمّا حدّثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلّم.
والأدلّة على ذلك كثيرة.
- عن أبي هريرة- رضي الله عنه-؛ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ الله تجاوز لأمّتي ما حدّثت به نفسها ما لم يتكلّموا أو يعملوا به» «٢» .

---

(١) قال الحافظ الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات، ورواه أبو يعلى ورجال أبو يعلى رجال الصحيح. انظر مجمع الزوائد (٢/ ١٦٤) ، (١٠/ ٤٢١، ٤٢٢) .
(٢) رواه البخاري، انظر فتح الباري ١١ (٦٦٦٤) ورواه مسلم برقم (١٢٧) .

- عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: لمّا نزلت على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ «١» .
قال فاشتدّ ذلك على أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأتوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. ثمّ بركوا على الرّكب. فقالوا: أي رسول الله! كلّفنا من الأعمال ما نطيق. الصّلاة والصّيام والجهاد والصّدقة. وقد أنزلت عليك هذه الآية، ولا نطيقها. قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربّنا وإليك المصير» قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربّنا وإليك المصير. فلمّا اقترأها القوم ذلّت بها ألسنتهم.
فأنزل الله في إثرها آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقالُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ «٢» . فلمّا فعلوا ذلك نسخها الله تعالى. فأنزل الله- عزّ وجلّ-: لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها لَها ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا (قال: نعم) رَبَّنا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا (قال: نعم) رَبَّنا وَلا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ (قال: نعم) وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا أَنْتَ مَوْلانا فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (قال: نعم) » «٣» . «٤» .
- وعن أبي ذرّ الغفاريّ- رضي الله عنه-؛ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ الله تعالى تجاوز لي «٥» عن أمّتي الخطأ، والنّسيان، وما استكرهوا عليه» «٦» .
- وعن ابن عبّاس- رضي الله عنهما-؛ عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فيما يروي عن ربّه تبارك وتعالى؛ قال: «إنّ الله كتب الحسنات والسّيّئات. ثمّ بيّن ذلك. فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة وإن همّ بها فعملها كتبها الله عزّ وجلّ عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. وإن همّ بسيّئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن همّ بها فعملها، كتبها الله سيّئة واحدة» «٧» .

---

(١) سورة البقرة: آية (٢٨٤) .
(٢) سورة البقرة: آية (٢٨٥) .
(٣) سورة البقرة: آية (٢٨٦) .
(٤) رواه مسلم برقم (١٢٥) .
(٥) قال الحافظ ابن حجر: وفي الحديث إشارة إلى عظيم قدر الأمة المحمدية لأجل نبيها صلّى الله عليه وسلّم، لقوله: «تجاوز لي» و، فيه إشعار باختصاصها بذلك، بل صرح بعضهم بأنه كان حكم الناسي كالعامد في الإثم وأن ذلك من الإصر الذي كان على من قبلنا. انظر فتح الباري (١١/ ٥٦٠) .
(٦) رواه ابن ماجه، برقم (٢٠٤٣) ، ورواه الحاكم (٢/ ١٩٨) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، ورواه الدارقطني (٧٩٧) ، والبيهقي (٧/ ٣٥٦) . وصحح الحديث أيضا الألباني. انظر صحيح الجامع برقم (١٧٢٧) .
(٧) رواه البخاري. انظر فتح الباري ١١ (٦٤٩١) ورواه مسلم، واللفظ له، برقم (١٣١) .

جـ ١(ص: ٤٩١)

محفوظة من الهلاك والاستئصال:
الأمّة المحمّديّة، أمّة مصونة مرحومة، حفظها الله وأجارها، فلا تهلك بالسّنين ولا بجوع ولا غرق، ولا يسلّط عليها عدوّا من غيرها، فيستبيح بيضتها ويستأصلها، ولو اجتمع عليها من بأقطارها وهذا من خصائصها الّتي انفردت بها على غيرها.
وقد أفصح رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن ذلك في غير ما حديث:
- فعن ثوبان- رضي الله عنه-؛ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ الله زوى «١» لي الأرض. فرأيت مشارقها ومغاربها. وإنّ أمّتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر

والأبيض «٢» . وإنّي سألت ربّي لأمّتي أن لا يهلكها بسنة عامّة. وأن لا يسلّط عليهم عدوّا من سوى أنفسهم. فيستبيح بيضتهم «٣» . وإنّ ربّي قال: يا محمّد إنّي إذا قضيت قضاء فإنّه لا يردّ. وإنّي أعطيتك لأمّتك أن لا أهلكهم بسنة عامّة «٤» . وأن لا أسلّط عليهم عدوّا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم. ولو اجتمع عليهم من بأقطارها- أو قال من بين أقطارها- حتّى يكون بعضهم يهلك بعضا. ويسبي بعضهم بعضا» «٥» .

- وعن عامر بن سعد عن أبيه- رضي الله عنهما-؛ أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أقبل ذات يوم من العالية. حتّى إذا مرّ بمسجد بني معاوية، دخل فركع ركعتين. وصلّينا معه. ودعا ربّه طويلا. ثمّ انصرف إلينا. فقال صلّى الله عليه وسلّم: «سألت ربّي ثلاثا. فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة. سألت ربّي أن لا يهلك أمّتي بالسّنة فأعطانيها. وسألته أن لا يهلك أمّتي بالغرق فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها» «٦» .

- وعن عبد الله بن عبد الله بن جابر بن عتيك- رحمه الله-؛ قال: «جاءنا عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما- في بني معاوية- وهي قرية من قرى الأنصار- فقال: هل تدرون أين صلّى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في مسجدكم هذا؟

فقلت: نعم- وأشرت إلى ناحية منه- فقال لي: هل تدرون ما الثّلاث الّتي دعا بهنّ فيه؟ قلت: نعم، قال: فأخبرني بهنّ، فقلت: دعا بأن لا يظهر عليهم عدوّا من غيرهم، ولا يهلكهم بالسّنين، فأعطيهما، ودعا بأن لا

---

(١) زوى: معناه جمع.

(٢) الكنزين الأحمر والأبيض: المراد بالكنزين الذهب والفضة. والمراد كنزا كسرا وقيصر، ملكي العراق والشام.

(٣) فيستبيح بيضتهم: أي جماعتهم وأصلهم. والبيضة، أيضا: العز والملك.

(٤) أن لا أهلكهم بسنة عامة: أي لا أهلكهم بقحط يعمهم. بل إن وقع قحط فيكون في ناحية يسيرة، بالنسبة إلى باقي بلاد الإسلام.

(٥) رواه مسلم برقم (٢٨٨٩) .

(٦) رواه مسلم برقم (٢٨٩٠) .

يجعل بأسهم بينهم، فمنعها، قال: صدقت، قال ابن عمر: فلن يزال الهرج «١» إلى يوم القيامة» «٢» .

- وعن عوف بن مالك- رضي الله عنه-؛ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لن يجمع الله تعالى على هذه الأمّة سيفين سيفا منها وسيفا من عدوّها» «٣» .

لا تجتمع على ضلالة وطائفة منها على الحقّ:

أكرم الله تبارك وتعالى الأمّة المحمّديّة في الدّنيا بكرامات كثيرة منها: ضمان العصمة لهم من الخطإ عند اجتماعهم تشريفا لهم وتعظيما لنبيّهم صلّى الله عليه وسلّم، ومنها وجود طائفة منهم على الحقّ والهدى في كلّ زمان ظاهرين لا يضرّهم من خالفهم ولا من خذلهم حتّى يأتي أمر الله وهم على ذلك.

قال الشّيخ عزّ الدّين بن عبد السّلام رحمه الله في سياق كلامه على خصائص النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: ومثلها عصمة أمّته بأنّها لا تجتمع على ضلالة في فرع ولا في أصل» «٤» .

وبهذه الخصائص جاءت النّصوص النّبويّة المطهّرة:

- فعن كعب بن عاصم الأشعريّ- رضي الله عنه-؛ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ الله تعالى قد أجار أمّتي أن تجتمع على ضلالة» «٥» .

- وعن ابن عمر- رضي الله عنهما-؛ أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «إنّ الله لا يجمع أمّتي أو قال أمّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم، على ضلالة، ويد الله مع الجماعة، ومن شذّ شذّ في النّار» «٦» .

(١) الهرج: قال ابن الأثير: جاء في الحديث أنه القتل وهو الإختلاط والاختلاف وذلك سبب القتل. انظر جامع الأصول (٩/ ١٩٩) .
(٢) رواه الإمام مالك في الموطأ (١/ ٢١٦) . وقال عبد القادر الأرناؤوط: إسناده صحيح. انظر تعليقه على جامع الأصول (٩/ ١٩٩) .
(٣) رواه أبو داود برقم (٤٣٠١) . ورواه الإمام أحمد في مسنده (٦/ ٢٦) . وصححه الألباني. انظر صحيح الجامع الصغير برقم (٥٠٩٧) .
(٤) انظر بداية السول (ص ٧٠) .
(٥) رواه ابن أبي عاصم في كتاب السنة برقم (٧٩) من حديث كعب بن عاصم الأشعري ورواية أخرى من حديث أنس بن مالك رضي الله عنهم. وذكر له الألباني طرقا ثم قال: فالحديث بمجموع هذه الطرق حسن. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم (١٣٣١) ، وأيضا صحيح الجامع الصغير برقم (١٧٨٢) .
(٦) رواه الترمذي- واللفظ له- برقم (٢١٦٧) وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه. قال الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة: ... وبالجملة فهو حديث مشهور المتن ذو أسانيد كثيرة وشواهد متعددة في المرفوع وغيره.. ثم ساق له بعض الشواهد. انظر المقاصد الحسنة (ص ٤٦٠) . وأيضا رواية الترمذي هذه صححها الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم (١٨٤٤) عدا الزيادة الأخيرة في الحديث وهي «ومن شذ شذ في النار» قال: ... فحذفتها لانعدام الشاهد المجبر لضعفها بخلاف ما قبلها. ورواه الطبراني أيضا من حديث ابن عمر بلفظ «لن تجتمع أمتي على ضلالة فعليكم بالجماعة فإن يد الله على الجماعة» قال الحافظ الهيثمي عن رواية الطبراني: رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما ثقات رجال الصحيح خلا مرزوق مولى آل طلحة وهو ثقة. انظر مجمع الزوائد (٥/ ٢١٨) .
جـ ١(ص: ٤٩٣)

- وعن ثوبان- رضي الله عنه-؛ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لا تزال طائفة «١» من أمّتي ظاهرين على الحقّ.
لا يضرّهم من خذلهم «٢» حتّى يأتي أمر الله «٣» وهم كذلك» «٤» .
ومن الآثار:
عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه-؛ قال: إنّ الله عزّ وجلّ نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمّد صلّى الله عليه وسلّم خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه وابتعثه برسالاته ثمّ نظر في قلوب العباد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيّه صلّى الله عليه وسلّم يقاتلون عن دينه فما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن وما رآه المسلمون سيّئا فهو عند الله سيّء «٥» .
شهداء الله في الأرض:»
فضّل الله تبارك وتعالى هذه الأمّة ورفع ذكرها وزكّاها بأن أضافها إليه إضافة تشريف وتكريم، فقبل منها قولها وشهادتها، وذلك لعظم مكانتها ومنزلتها عنده.
وممّا يدلّ على هذه الخصوصيّة:
ما جاء عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: مرّ بجنازة فأثني عليها خيرا. فقال نبيّ الله صلّى الله عليه وسلّم: «وجبت وجبت وجبت» ومرّ بجنازة فأثني عليها شرّا. فقال نبيّ الله صلّى الله عليه وسلّم: «وجبت وجبت وجبت» قال عمر: فدى لك أبي وأمّي! مرّ بجنازة فأثني عليها خيرا فقلت: وجبت وجبت وجبت. ومرّ بجنازة فأثني عليها شرّا فقلت: وجبت وجبت وجبت؟ فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «من أثنيتم عليه خيرا وجبت له الجنّة. ومن أثنيتم عليه شرّا وجبت له النّار.
أنتم شهداء الله في الأرض. أنتم شهداء الله في الأرض. أنتم شهداء الله في الأرض» «٧» .

(١) طائفة: قال النووي رحمه الله: وأما هذه الطائفة فقال البخاري: هم أهل العلم. وقال أحمد بن حنبل رضي الله عنه: إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم! قال القاضي عياض: إنما أراد أحمد أهل السنة والجماعة ومن يعتقد مذاهب أهل الحديث. قال الإمام النووي: يحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين. فمنهم شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء، ومنهم محدثون، ومنهم زهاد وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير. ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين، بل قد يكونون متفرقين في أقطار الأرض. انظر شرح النووي على صحيح مسلم (١٣/ ٦٦، ٦٧) .
(٢) من خذلهم: يعني من خالفهم.
(٣) حتى يأتي أمر الله: المراد به هو الريح التي تأتي فتأخذ روح كل مؤمن ومؤمنة.
(٤) الحديث رواه البخاري. انظر فتح الباري ٦ (٣٦٤١) ، ورواه مسلم- واللفظ له- برقم (١٩٢٠) .
(٥) رواه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٣٧٩) قال الحافظ الهيثمي رحمه الله: رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير ورجاله موثقون. انظر مجمع الزوائد (١/ ١٧٨) .
(٦) بداية السول في تفضيل الرسول صلّى الله عليه وسلّم (ص ٦٩) .
(٧) رواه البخاري. انظر الفتح ٣ (١٣٦٧) ، ورواه مسلم واللفظ له- برقم (٩٤٩) .
جـ ١(ص: ٤٩٤)

- وعن أبي هريرة- رضي الله عنه-؛ قال: مرّوا بجنازة على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فأثنوا عليها خيرا، فقال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم:
«وجبت» . ثمّ مرّوا بجنازة أخرى، فأثنوا عليها شرّا. فقال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «وجبت» قالوا يا رسول الله: قولك الأولى والأخرى وجبت! فقال صلّى الله عليه وسلّم: «الملائكة شهداء الله في السّماء وأنتم شهداء الله في الأرض» «١» .
ومن الآثار:
- عن كعب- رضي الله عنه-؛ قال: أعطيت هذه الأمّة ثلاث خصال لم يعطها إلّا الأنبياء. كان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقال له: بلّغ ولا حرج، وأنت شهيد على قومك وادع أجبك، وقال لهذه الأمّة وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ «٢» ، وقال لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ «٣» وقال ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ «٤» . «٥» .
صفوف كصفوف الملائكة:
خصّ الله- عزّ وجلّ- هذه الأمّة إكراما لها على سائر الأمم بأن جعل صفوفها في الصّلاة كصفوف الملائكة.
وممّا يؤيّد هذه الخاصيّة من السّنّة المطهّرة- ما جاء عن حذيفة- رضي الله عنه-؛ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:
«فضّلنا على النّاس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة. وجعلت لنا الأرض كلّها مسجدا. وجعلت تربتها لنا طهورا، إذا لم نجد الماء، وذكر خصلة أخرى» «٦» .
- وعن جابر بن سمرة- رضي الله عنهما-؛ قال: خرج علينا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال:
«مالي أراكم رافعي أيديكم كأنّها أذناب خيل شمس «٧» ؟ اسكنوا في الصّلاة» قال: ثمّ خرج علينا فرآنا حلقا «٨» . فقال: «مالي أراكم عزين «٩» ؟. قال: ثمّ خرج علينا فقال: «ألا تصفّون كما تصفّ الملائكة عند ربّها؟» فقلنا: يا رسول الله! وكيف تصفّ الملائكة عند ربّها؟ قال: «يتمّون الصّفوف الأول. ويتراصّون في الصّفّ» «١٠» .
- وعن أبي الدّرداء- رضي الله عنه- أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «فضّلت بأربع: جعلت أنا وأمّتي في

---

(١) رواه النسائي (٤/ ٥٠) وأصله في الصحيحين. وأيضا صححه الألباني- انظر صحيح الجامع برقم (٦٦٠٤) .

(٢) سورة الحج: آية رقم (٧٨) .
(٣) سورة البقرة: آية رقم (١٤٣) .
(٤) سورة غافر: آية رقم (٦٠) .
(٥) أورد الحافظ السيوطي في كتابه الخصائص الكبرى، قال: أخرجه الفريابي عن كعب. انظر الخصائص (٢/ ٣٥٧) .
(٦) رواه مسلم برقم (٥٢٢) .
(٧) شمس: جمع شموس. مثل رسول ورسل. وهي التي لا تستقر بل تضرب وتتحرك بأذنابها وأرجلها.
(٨) حلقا: جمع الحلقة، بسكون اللام، على غير قياس. وقال النووي: بكسر الحاء، وفتحها، لغتان. جمع حلقة بإسكان اللام.
(٩) عزين: أي جماعات في تفرقة. جمع عزة. وأصلها عزوة. فحذفت الواو وجمعت جمع السلامة على غير قياس.
(١٠) رواه مسلم برقم (٤٣٠) .

الصّلاة كما تصفّ الملائكة، وجعل الصّعيد لي وضوءا، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، وأحلّت لي الغنائم» «١» .
النّوع الرّابع: ما اختصّ به صلّى الله عليه وسلّم في أمّته في الآخرة:
اختصّ الله تبارك وتعالى الأمّة المحمّديّة في الآخرة بخصائص كثيرة لم تعطها غيرها من الأمم وفي ذلك تشريف وتكريم لنبيّها ومعلّمها ومربّيها صلّى الله عليه وسلّم، سيّد الأوّلين والآخرين، الّذي أمضى عمره الشّريف وضحّى بكلّ ما لديه في سبيل هدايتها ونصحها والأخذ بيدها إلى ما فيه عزّها ومجدها في الدّنيا والآخرة، حتّى أصبحت بفضل الله خير أمّة أخرجت للنّاس.
وإنّ ممّا اختصّت به الأمّة المحمّديّة في الآخرة، أنّها شاهدة للأنبياء على أممهم، وهي أكثر أهل الجنّة، وأوّل من يجتاز الصّراط ويدخل الجنّة، وهي الآخرة زمانا، السّابقة منزلة.. إلى غير ذلك ممّا سنذكره من الخصائص، بإذن الله، وبالله التّوفيق.
الغرّ المحجّلون:
تأتي الأمّة المحمّدية يوم القيامة غرّا محجّلة من آثار الوضوء، وبهذه الصّفة يعرف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أمّته من غيرهم حالما يكون منتظرهم على حوضه. قال الحافظ ابن حجر- رحمه الله-: ثبت أنّ الغرّة والتّحجيل خاصّ بالأمّة المحمّديّة «٢» .
وقد وردت الأحاديث النّبويّة تشهد لهذا المعنى:
- عن نعيم بن عبد الله المجمّر: قال: رأيت أبا هريرة يتوضّأ. فغسل وجهه فأسبغ الوضوء. ثمّ غسل يده اليمنى حتّى أشرع في العضد «٣» . ثمّ يده اليسرى حتّى أشرع في العضد. ثمّ مسح رأسه. ثمّ غسل رجله اليمنى حتّى أشرع في السّاق. ثمّ غسل رجله اليسرى حتّى أشرع في السّاق. ثمّ قال: هكذا رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يتوضّأ.
وقال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أنتم الغرّ «٤» المحجّلون يوم القيامة. من إسباغ الوضوء. فمن استطاع منكم فليطل غرّته وتحجيله» «٥» .

(١) الحديث رواه الطبراني في الكبير، وصحح الحديث الألباني. انظر صحيح الجامع الصغير برقم (٤٠٩٥) .
(٢) فتح الباري (١١/ ٤٥٨) .
(٣) أشرع في العضد وأشرع في الساق: معناه أدخل الغسل فيهما.

(٤) أنتم الغر المحجلون يوم القيامة من آثار الوضوء: قال أهل اللغة: الغرة: بياض في جبهة الفرس. والتحجيل: بياض في يديها ورجليها. قال العلماء: سمي النور الذي يكون على مواضع الوضوء يوم القيامة، غرة وتحجيلا، تشبيها بغرة الفرس.
(٥) رواه البخاري. انظر الفتح ١ (١٣٦) ، ورواه مسلم برقم (٢٤٦) .

- عن أبي هريرة- رضي الله عنه-؛ أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «إنّ حوضي أبعد من أيلة من عدن «١» لهو أشدّ بياضا من الثّلج. وأحلى من العسل باللّبن «٢» . ولآنيته «٣» أكثر من عدد النّجوم. وإنّي لأصدّ النّاس عنه كما يصدّ الرّجل إبل النّاس عن حوضه» قالوا: يا رسول الله! أتعرفنا يومئذ؟ قال: «نعم. لكم سيما «٤» ليست لأحد من الأمم تردون عليّ غرّا محجّلين من أثر الوضوء» «٥» .
- عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أتى المقبرة فقال: «السّلام عليكم دار قوم مؤمنين. وإنّا إن شاء الله، بكم لاحقون. وددت أنّا قد رأينا إخواننا» قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: «أنتم أصحابي.
وإخواننا الّذين لم يأتوا بعد» فقالوا: كيف تعرف من لم يأت بعد من أمّتك يا رسول الله؟ فقال: «أرأيت لو أنّ رجلا له خيل غرّ محجّلة. بين ظهري خيل دهم بهم «٦» ... ألا يعرف خيله» قالوا: بلى. يا رسول الله! قال: «فإنّهم يأتون غرّا محجّلين من الوضوء. وأنا فرطهم على الحوض. ألا ليذادنّ رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضّالّ أناديهم:
ألا هلمّ «٧» ! فيقال: إنّهم قد بدّلوا بعدك. فأقول سحقا «٨» سحقا» «٩» .
شهداء على الأمم:
الأمّة المحمّديّة خير الأمم وأفضلها، خصّها الله بأكمل الشّرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب، فهي وسط بين أهل الأديان فلم تغل كغلوّ النّصارى ولم تقصّر كتقصير اليهود، ولهذا جعلها الله شاهدة على الأمم يوم القيامة. فما من نبيّ ولا رسول تنكر أمّته قد بلّغ إلّا وتشهد له الأمّة المحمّدية بالبلاغ فيقبل قولها وشهادتها لما لها من الفضل والمنزلة قال الله تعالى: وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً «١٠» .

---

(١) إن حوضي أبعد من أيلة من عدن: أي بعد ما بين طرفي حوضي أزيد من بعد أيلة من عدن. وهما بلدان ساحليان في بحر القلزم (البحر الأحمر) . أحدهما، وهو أيلة، في شمال بلاد العرب والآخر، وهو عدن، في جنوبها. هو آخر بلاد اليمن مما يلي بحر الهند، يصرف بالتذكير ولا يصرف بالتأنيث.
(٢) وأحلى من العسل باللبن: أي المخلوط به.
(٣) ولآنيته: اللام في لهو. للابتداء. والآنية جمع إناء قال في المصباح: الإناء والآنية كالوعاء والأوعية وزنا ومعنى. والأواني جمع الجمع.
(٤) لكم سيما: السيما العلامة. مقصورة وممدودة، لغتان. ويقال: السيمياء بياء بعد الميم.
(٥) رواه مسلم برقم (٢٤٧) .
(٦) دهم بهم: أي سود لم يخالط لونها لون آخر.
(٧) ألا هلم: معناه: تعالوا.
(٨) سحقا سحقا: معناه: بعدا بعدا. والمكان السحيق البعيد.
(٩) رواه مسلم برقم (٢٤٩) .
(١٠) سورة البقرة: آية رقم (١٤٣) .

قال الشّيخ عزّ الدّين بن عبد السّلام، في معرض حديثه عن خصائص النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: ومنها أنّ الله تعالى نزّل أمّته منزل العدول من الحكّام، فإنّ الله تعالى إذا حكم بين العباد فجحدت الأمم بتبليغ الرّسالة أحضر أمّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم فيشهدون على النّاس بأنّ رسلهم أبلغتهم، وهذه الخصّيصة لم تثبت لأحد من الأنبياء «١» .

وقد صرّحت بهذا المعنى الأحاديث النّبويّة:

- عن أبي سعيد الخدريّ- رضي الله عنه-؛ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «يدعى نوح يوم القيامة فيقول: لبّيك وسعديك يا ربّ، فيقول: هل بلّغت؟ فيقول: نعم. فيقال لأمّته: هل بلّغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول:

من يشهد لك؟ فيقول: محمّد وأمّته. فيشهدون أنّه قد بلّغ، ويكون الرّسول عليكم شهيدا فذلك قوله جلّ ذكره وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً «٢» لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً «٣» .

- وعن أبي سعيد- رضي الله عنه-؛ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «يجيء النّبيّ ومعه الرّجلان. ويجيء النّبيّ ومعه الثّلاثة. وأكثر من ذلك وأقلّ. فيقال له: هل بلّغت قومك؟ فيقول: نعم. فيدعى قومه، فيقال: هل بلّغكم؟

فيقولون: لا، فيقال: من شهد لك؟ فيقول: محمّد وأمّته. فتدعى أمّة محمّد فيقال: هل بلّغ هذا؟ فيقولون: نعم.

فيقول: وما علمكم بذلك؟ فيقولون: أخبرنا نبيّنا بذلك أنّ الرّسل قد بلّغوا، فصدّقناه. قال: فذلكم قوله تعالى:

وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً «٤» . «٥» .

ومن الآثار:

- عن كعب الأحبار- رحمه الله-؛ قال: أعطيت هذه الأمّة ثلاث خصال لم يعطها إلّا الأنبياء. كان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقال له: بلّغ ولا حرج، وأنت شهيد على قومك وادع أجبك، وقال لهذه الأمّة: وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ»

وقال: لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ «٧» وقال ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ «٨» . «٩» .

---

(١) انظر بداية السول (ص ٦٩) .

(٢) الوسط: العدل.

(٣) رواه البخاري. انظر الفتح ٨ (٤٤٨٧) .

(٤) سورة البقرة: آية رقم (١٤٣) .

(٥) رواه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٥٨) ، وابن ماجه واللفظ له برقم (٤٢٨٤) ، وصحح الحديث الألباني. انظر صحيح الجامع الصغير برقم (٧٨٨٩) .

(٦) سورة الحج: آية رقم (٧٨) .

(٧) سورة البقرة: آية رقم (١٤٣) .

(٨) سورة غافر: آية رقم (٦٠) .

(٩) أورده الحافظ السيوطي في كتابه الخصائص الكبرى وقال: أخرجه الفريابي عن كعب. انظر الخصائص (٢/ ٣٥٧) .

أوّل من يجتاز الصّراط ويدخل الجنّة:

الصّراط جسر ممدود على متن جهنّم أحدّ من السّيف وأدقّ من الشّعر، فمن استقام في هذه الدّنيا على الصّراط المستقيم خفّ على صراط الآخرة، ونجا، ومن عدل عن الاستقامة في الدّنيا وأثقل ظهره بالأوزار وعصى تعثّر على الصّراط وتردّى.

وإنّ ممّا أكرم الله تعالى به هذه الأمّة ونبيّها صلّى الله عليه وسلّم، أن جعلهم أوّل من يجتاز ويعبر الصّراط، وأوّل من يدخل الجنّة دار السّلام.
وبين يديك أحاديث نبويّة تدلّ على ما ذكرناه:
- عن أبي هريرة- رضي الله عنه-؛ أنّ ناسا قالوا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: يا رسول الله! هل نرى ربّنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «هل تضارّون في رؤية القمر ليلة البدر» قالوا: لا. يا رسول الله! قال: «هل تضارّون في الشّمس ليس دونها سحاب؟» قالوا: لا يا رسول الله! قال: «فإنّكم ترونه كذلك. يجمع الله النّاس يوم القيامة. فيقول: من كان يعبد شيئا فليتبعه. فيتبع من كان يعبد الشّمس الشّمس. ويتبع من كان يعبد القمر القمر. ويتبع من كان يعبد الطّواغيت الطّواغيت. وتبقى هذه الأمّة فيها منافقوها. فيأتيهم الله تبارك وتعالى، في صورة غير صورته الّتي يعرفون. فيقول: أنا ربّكم. فيقولون: نعوذ بالله منك. هذا مكاننا حتّى يأتينا ربّنا. فإذا جاء ربّنا عرفناه. فيأتيهم الله تبارك وتعالى في صورته الّتي يعرفون. فيقول: أنا ربّكم.
فيقولون: أنت ربّنا. فيتّبعونه. ويضرب الصّراط بين ظهري جهنّم «١» . فأكون أنا وأمّتي أوّل من يجيز» «٢» ...
الحديث «٣» .
- عن أبي أسماء الرّحبيّ: أنّ ثوبان مولى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حدّثه قال: كنت قائما عند رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. فجاء حبر «٤» من أحبار اليهود فقال: السّلام عليك يا محمّد! فدفعته دفعة كاد يصرع منها. فقال: لم تدفعني؟ فقلت:
ألا تقول يا رسول الله! فقال اليهوديّ: إنّما ندعوه باسمه الّذي سمّاه به أهله. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ اسمي محمّد الّذي سمّاني به أهلي» فقال اليهوديّ جئت أسألك. فقال له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أينفعك شيء إن حدّثتك؟» قال: أسمع بأذنيّ. فنكت «٥» رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعود معه. فقال: «سل» فقال اليهوديّ: أين يكون النّاس يوم تبدّل

---

(١) ويضرب الصراط بين ظهري جهنم: معناه يمد الصراط عليها.
(٢) فأكون أنا وأمتي أول من يجيز: معناه يكون أول من يمضي عليه ويقطعه.
(٣) رواه البخاري. انظر الفتح ١١ (٦٥٧٣) ، ورواه مسلم، واللفظ له برقم (١٨٢) .
(٤) حبر: قال في المصباح: الحبر بالكسر، العالم. والجمع أحبار. مثل حمل وأحمال. والحبر، بالفتح، لغة فيه. وجمعه حبور، مثل فلس وفلوس.
(٥) فنكت: معناه يخط العود في الأرض ويؤثر به فيها. وهذا ما يفعله المفكر.

الأرض غير الأرض والسّماوات؟ فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «هم في الظّلمة دون الجسر «١» » قال: «فمن أوّل النّاس إجازة «٢» ؟ قال: «فقراء المهاجرين» قال اليهوديّ: فما تحفتهم «٣» حين يدخلون الجنّة؟ قال: «زيادة كبد النّون» «٤» . قال فما غذاؤهم «٥» على إثرها؟ قال: «ينحر لهم ثور الجنّة الّذي كان يأكل من أطرافها» . قال:
فما شرابهم عليه؟ قال: «من عين فيها تسمّى سلسبيلا «٦» » . قال: صدقت. قال: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلّا نبيّ أو رجل أو رجلان. قال: «ينفعك إن حدّثتك؟» قال: أسمع بأذنيّ. قال:
جئت أسألك عن الولد؟ قال: «ماء الرّجل أبيض وماء المرأة أصفر. فإذا اجتمعا، فعلا منيّ الرّجل منيّ المرأة، أذكرا «٧» بإذن الله. وإذا علا منيّ المرأة منيّ الرّجل، آنثا «٨» بإذن الله» قال اليهوديّ: لقد صدقت. وإنّك لنبيّ. ثمّ انصرف فذهب. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لقد سألني هذا عن الّذي سألني عنه. وما لي علم بشيء منه. حتّى أتاني الله به» «٩» .

- عن أبي هريرة- رضي الله عنه-؛ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «نحن الآخرون الأوّلون يوم القيامة ونحن أوّل من يدخل الجنّة بيد أنّهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم. فاختلفوا فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحقّ. فهذا يومهم الّذي اختلفوا فيه. هدانا الله له (قال يوم الجمعة) فاليوم لنا. وغدا لليهود. وبعد غد للنّصارى» «١٠» .

عمل قليل وأجر كثير:

أنعم الله- تبارك وتعالى- على هذه الأمّة بنعم كثيرة وخصّها بخصائص جسيمة ومن ذلك أنّها أقلّ عملا ممّن سبقها من الأمم وأكثر أجرا وثوابا. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

---

(١) الجسر: بفتح الجيم وكسرها، لغتان مشهورتان، والمراد به هنا الصراط.

(٢) إجازة: الإجازة هنا بمعنى الجواز والعبور.

(٣) تحفتهم: بإسكان الحاء وفتحها، لغتان، وهي ما يهدى إلى الرجل ويخص به ويلاطف.

(٤) النون: النون هو الحوت، وجمعه نينان.

(٥) غذاؤهم: روي على وجهين، غذاؤهم وغداؤهم. قال القاضي عياض: هذا الثاني هو الصحيح وهو رواية الأكثرين.

(٦) سلسبيلا: قال جماعة من أهل اللغة والمفسرين: السلسبيل اسم للعين، وقال مجاهد وغيره: هي شديدة الجري وقيل هي السلسلة اللينة.

(٧) أذكرا: أي كان الولد ذكرا.

(٨) آنثا: أي كان الولد أنثى، وقد روي أنثا.

(٩) رواه مسلم برقم (٣١٥) .

(١٠) رواه البخاري. انظر الفتح ٢ (٨٧٦) بدون لفظة «ونحن أول من يدخل الجنة» ، ورواه مسلم واللفظ له، ومعه الزيادة، برقم (٨٥٥/ ٢٠) .

قال الشّيخ الإمام عزّ الدّين بن عبد السّلام «١» في معرض حديثه عن خصائص النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: ومنها أنّ أمّته أقلّ عملا ممّن قبلهم وأكثر أجرا كما جاء في الحديث الصّحيح «٢» .

وإليك ما جاء من كلام الصّادق المصدوق ممّا يبرهن على هذه الخصوصيّة:

- عن ابن عمر- رضي الله عنهما-؛ عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، قال: «إنّما أجلكم- في أجل من خلا من الأمم- ما بين صلاة العصر إلى مغرب الشّمس. وإنّما مثلكم ومثل اليهود والنّصارى كرجل استعمل عمّالا فقال: من يعمل لي إلى نصف النّهار على قيراط قيراط؟ فعملت اليهود إلى نصف النّهار على قيراط قيراط، ثمّ قال: من يعمل لي من نصف النّهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط؟ فعملت النّصارى من نصف النّهار إلى صلاة العصر قيراط قيراط. ثمّ قال: من يعمل لي من صلاة العصر إلى مغرب الشّمس على قيراطين قيراطين؟ ألا فأنتم الّذين يعملون من صلاة العصر إلى مغرب الشّمس على قيراطين قيراطين، ألا لكم الأجر مرّتين. فغضبت اليهود والنّصارى فقالوا: نحن أكثر عملا وأقلّ عطاء، قال الله: هل ظلمتكم من حقّكم شيئا؟ قالوا: لا. قال: فإنّه فضلي، أعطيه من شئت» «٣» ، ويعلّق على هذا الحديث الحافظ ابن كثير رحمه الله فيقول: «والمراد من هذا التّشبيه بالعمّال تفاوت أجورهم وأنّ ذلك ليس منوطا بكثرة العمل وقلّته بل بأمور أخر معتبرة عند الله تعالى وكم من عمل قليل أجدى ما لا يجديه العمل الكثير، هذه ليلة القدر العمل فيها أفضل من عبادة ألف شهر سواها وهؤلاء أصحاب محمّد صلّى الله عليه وسلّم أنفقوا في أوقات لو أنفق غيرهم من الذّهب مثل أحد ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه من تمر، وهذا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره وقبضه وهو ابن ثلاث وستّين على المشهور وقد برز في هذه المدّة الّتي هي ثلاث وعشرون سنة في العلوم النّافعة والأعمال الصّالحة على سائر الأنبياء قبله حتّى على نوح الّذي لبث في قومه ألف سنة إلّا خمسين عاما يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ويعمل بطاعة الله ليلا ونهارا، صباحا ومساء صلوات الله

وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء أجمعين. فهذه الأمّة إنّما شرفت وتضاعف ثوابها ببركة سيادة نبيّها وشرفه وعظمته كما قال الله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ* لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ «٤» . «٥» .

---

(١) انظر بداية السول (ص ٦٠) .
(٢) مثل ما أوردنا من حديث ابن عمر وأبي موسى الأشعري- رضي الله عنهم.
(٣) رواه البخاري. انظر الفتح ٦ (٣٤٥٩) .
(٤) سورة الحديد (الآية: ٢٨- ٢٩) .
(٥) انظر البداية والنهاية لابن كثير (٢/ ١٣٥) .

جـ ١(ص: ٥٠١)

- عن أبي موسى- رضي الله عنه-؛ عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «مثل المسلمين واليهود والنّصارى كمثل رجل استأجر قوما يعملون له عملا يوما إلى اللّيل على أجر معلوم، فعملوا له نصف النّهار، فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك الّذي شرطت لنا وما عملنا باطل. فقال لهم: لا تفعلوا، أكملوا بقيّة عملكم وخذوا أجركم كاملا، فأبوا وتركوا، واستأجر آخرين بعدهم فقال: أكملوا بقيّة يومكم هذا ولكم الّذي شرطت لهم من الأجر. فعملوا حتّى إذا كان حين صلاة العصر قالوا: لك ما عملنا باطل، ولك الأجر الّذي جعلت لنا فيه. فقال لهم: أكملوا بقيّة عملكم فإنّ ما بقي من النّهار شيء يسير، فأبوا، فاستأجر قوما أن يعملوا له بقيّة يومهم، فعملوا بقيّة يومهم حتّى غابت الشّمس، واستكملوا أجر الفريقين كليهما، فذلك مثلهم «١» ومثل ما قبلوا من هذا النّور» «٢» .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله ضمن شرحه لهذا الحديث « ... وفي هذا الحديث تفضيل هذه الأمّة وتوفير أجرها مع قلّة عملها» «٣» .

أكثر أهل الجنّة:

وممّا اختصّت به هذه الأمّة من الفضائل: أنّها أكثر أهل الجنّة. وهذا تكريم عظيم للأمّة المحمّديّة ونبيّها صلّى الله عليه وسلّم.

وقد صحّ عن نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم ما يؤيّد هذا المعنى:

- فعن ابن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال لنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أما ترضون أن تكونوا ربع أهل الجنّة؟» قال: فكبّرنا. ثمّ قال: «أما ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنّة؟» قال: فكبّرنا. ثمّ قال: «إنّي لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنّة. وسأخبركم عن ذلك. ما المسلمون في الكفّار إلّا كشعرة بيضاء في ثور أسود. أو كشعرة سوداء في ثور أبيض» «٤» .

- وعن بريدة- رضي الله عنه-؛ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أهل الجنّة عشرون ومائة صفّ ثمانون منها من هذه الأمّة وأربعون من سائر الأمم» «٥» .

---

(١) ورد في رواية الإسماعيلي: «فذلك مثل المسلمين الذين قبلوا هدى الله وما جاء به رسوله ومثل اليهود والنصارى تركوا ما أمرهم الله» . أوردها الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٤/ ٥٢٥) .
(٢) رواه البخاري. انظر الفتح ٤ (٢٢٧١) .
(٣) انظر فتح الباري (٤/ ٥٢٥) .
(٤) رواه البخاري. انظر الفتح ١١ (٦٥٢٨) . ورواه مسلم، واللفظ له، برقم (٢٢١) .
(٥) رواه الترمذي برقم (٢٥٤٦) وقال: حديث حسن. ونقل عنه الحافظ في الفتح (١١/ ٣٩٥) تصحيح الحديث، فلعل ذلك من اختلاف النسخ. ورواه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٣٤٧، ٣٥٥، ٣٦١) . ورواه ابن ماجه برقم (٤٢٨٩) . ورواه الحاكم في المستدرك (١/ ٨٢) وقال: هذا حديث صحيح على شرط

مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وصحح الحديث كذلك الألباني. انظر صحيح الجامع الصغير برقم (٢٥٢٣) .
جـ ١(ص: ٥٠٢)

الآخرون السّابقون:
من نعم الله تبارك وتعالى على هذه الأمّة أن جعلها الآخرة زمانا، الأولى منزلة وفضلا، فهي وإن تأخّر وجودها في الدّنيا عن الأمم الماضية، فهي سابقة لهم في الآخرة، بأنّها أوّل من يحشر وأوّل من يحاسب وأوّل من يقضى بينها وأوّل من يدخل الجنّة.
وبهذا المعنى صرّحت الأحاديث النّبويّة:
- فعن أبي هريرة- رضي الله عنه-؛ أنّه سمع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: «نحن الآخرون السّابقون يوم القيامة، بيد أنّهم «١» أوتوا الكتاب من قبلنا، ثمّ هذا يومهم الّذي فرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله، فالنّاس لنا فيه تبع:
اليهود غدا، والنّصارى بعد غد» «٢» .
- وعن أبي هريرة وحذيفة- رضي الله عنهما-؛ قالا: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أضلّ الله عن الجمعة من كان قبلنا. فكان لليهود يوم السّبت. وكان للنّصارى يوم الأحد. فجاء الله بنا. فهدانا ليوم الجمعة. فجعل الجمعة والسّبت والأحد. وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة. نحن الآخرون من أهل الدّنيا، والأوّلون يوم القيامة. المقضيّ لهم قبل الخلائق» وفي رواية: «المقضيّ بينهم» «٣» .
- عن ابن عبّاس- رضي الله عنهما-؛ أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، قال: «نحن آخر الأمم، وأوّل من يحاسب. يقال: أين الأمّة الأمّية ونبيّها؟ فنحن الآخرون الأوّلون» » .

---

(١) بيد أن: قال أبو عبيد: لفظة بيد تكون بمعنى غير وبمعنى على وبمعنى من أجل.
(٢) رواه البخاري. انظر الفتح ٢ (٨٧٦) ، ورواه مسلم برقم (٨٥٥) .
(٣) رواه مسلم برقم (٨٥٦) .
(٤) رواه ابن ماجه برقم (٤٢٩٠) . قال البوصيري في الزوائد: إسناده صحيح، رجاله ثقات. وأيضا صححه الألباني. انظر صحيح الجامع الصغير برقم (٦٦٢٥) .
جـ ١(ص: ٥٠٣)

القسم الثاني الخصائص التي انفرد بها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن أمته

اختصّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بكثير من الخصائص والأحكام دون أمّته تكريما له وتبجيلا، وقد شاركه في بعضها الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام.
فمن ذلك: أنّه حرم عليه تعلّم الشّعر، وأكل الصّدقة. وأبيح له الوصال في الصّيام، والجمع بين أكثر من أربع نسوة. واختصّ بأنّ أزواجه أمّهات المؤمنين وأنّ رؤيته في المنام حقّ ... إلى غير ذلك.
وقد رتّب العلماء الكلام في هذه الخصائص على أربعة أنواع: «١»
الأول: ما حرم عليه دون غيره. وذلك تكرمة له صلّى الله عليه وسلّم وحمل له على مكارم الأخلاق.
الثّاني: ما أبيح له دون غيره.
الثّالث: ما وجب عليه دون غيره. والحكمة في اختصاصه بها زيادة الزّلفى ورفع الدّرجات.
الرّابع: ما اختصّ به من الفضائل والكرامات دون غيره.
وها نحن نورد- بإذن الله- خلاصة ما ذكره العلماء- رحمهم الله- في هذا الباب. وذلك بانتقاء طائفة مختارة من خصائصه الّتي انفرد بها عن أمّته والّتي ساندها الدّليل الصّحيح.
النّوع الأوّل ما حرم عليه دون غيره

١- الصّدقة:
حرم على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أكل الصّدقة لقوله عليه صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ الصّدقة لا تحلّ لمحمّد ولا لآل محمّد، إنّما هي أوساخ «٢» النّاس» «٣» . وعن أبي هريرة- رضي الله عنه-؛ أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يأكل الهديّة ولا يأكل الصّدقة» «٤» .
وهذه الأحاديث عامّة لا فرق فيها بين صدقة الفرض والتّطوّع. فكلا النّوعين حرم على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

---

(١) انظر الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزي (ص ٣٧٨) ، وخصائص أفضل المخلوقين لابن الملقن (ص ٩٦) ، الخصائص الكبرى للسيوطي (٢/ ٣٩٦) .
(٢) أوساخ الناس: بمعنى أنها تطهير لأموالهم ونفوسهم، كما قال تعالى (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) فهي كغسالة الأوساخ. انظر شرح النووي على صحيح مسلم (٧/ ١٧٩) .
(٣) رواه مسلم برقم (١٦٨/ ١٠٧٢) .
(٤) رواه مسلم برقم (١٠٧٧) .

قال الحافظ ابن حجر: «نقل الإجماع على ذلك غير واحد من العلماء منهم الإمام الخطّابيّ» «١» .
قال النّوويّ- رحمه الله-: وأمّا صدقة التّطوّع فللشّافعيّ فيها ثلاثة أقوال أصحّها أنّها تحرم على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم «٢» .
وقد نصّ جمع من العلماء على أنّ تحريم الصّدقة من خصائص النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم «٣» .
والحكمة في تحريم الصّدقة على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، صيانة وتنزيه منصبه الشّريف عن أوساخ أموال النّاس.
وأمّا دخول الآل في ذلك فإنّهم دخلوا تبعا لانتسابهم إليه وتشريفهم بذلك.
٢- إمساك من كرهت نكاحه:
ومن خصائصه صلّى الله عليه وسلّم؛ أنّه كان يحرم عليه إمساك من اختارت فراقه ورغبت عنه من النّساء، بخلاف غيره من أمّته ممّن يخيّر امرأته فإنّها لو اختارت فراقه لما وجب عليه فراقها.
وبرهان هذه الخصوصيّة ما جاء في صحيح البخاريّ عن عائشة- رضي الله عنها-: أنّ ابنة الجون لمّا أدخلت على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ودنا منها قالت: أعوذ بالله منك فقال لها: لقد عذت بعظيم، الحقي بأهلك «٤» .
قال ابن الملقّن- رحمه الله- في خصائصه بعد إيراده هذا الحديث: «وفهم ممّا ذكرناه أنّه حرم عليه نكاح كلّ امرأة كرهت صحبته. وجدير أن يكون الأمر كذلك لما فيه من الإيذاء: «٥» .
٣- نزع لامة «٦» الحرب:
وممّا حرم على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وكذلك إخوانه الأنبياء عليهم السّلام- دون غيره من الأمّة- أنّه إذا لبس لامة الحرب وعزم على الجهاد في سبيل الله أن ينزعها ويقلعها حتّى يلقى العدوّ ويقاتل.
ودليل ذلك ما روى جابر بن عبد الله- رضي الله عنهما-؛ أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال يوم أحد: «رأيت كأنّي في درع حصينة ورأيت بقرا منحّرة فأوّلت أنّ الدّرع الحصينة المدينة وأنّ البقر هو والله خير. قال فقال لأصحابه: لو أنّا

---

(١) انظر فتح الباري (٣/ ٤١٥) .
(٢) انظر شرح النووي على صحيح مسلم (٧/ ١٧٦) .
(٣) انظر الفصول لابن كثير (٣١٥) . وغاية السول لابن الملقن (١٨٧) . وفتح الباري (٣/ ٤١٥) . والخصائص الكبرى للسيوطي (٢/ ٤٠٤) وغير ذلك.

(٤) رواه البخاري- انظر الفتح ٩ (٥٢٥٤) .
(٥) انظر خصائص أفضل المخلوقين لابن الملقن (ص ٢٢٢) .
(٦) لامة: قال الجوهري في الصحاح: اللأم جمع لامة وهي الدرع. وتجمع أيضا على لؤم مثل نفر على غير قياس كأنه جمع لؤمة. واستلأم الرجل أي لبس اللامة. أ. هـ ولامة الحرب: أداتها. ويقال للسيف لامة وللرمح لامة وإنما سمي لامة لأنها تلائم الجسم وتلازمه. انظر لسان العرب (١٢ (٥٣٢) .

أقمنا بالمدينة فإن دخلوا علينا فيها قاتلناهم فقالوا يا رسول الله، والله ما دخل علينا فيها في الجاهليّة فكيف يدخل علينا فيها في الإسلام. فقال شأنكم إذا قال فلبس لأمته قال فقالت الأنصار رددنا على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رأيه فجاءوا فقالوا يا نبيّ الله، شأنك إذا فقال إنّه ليس لنبيّ إذا لبس لأمته أن يضعها حتّى يقاتل «١» .
قال الحافظ ابن كثير: قال عامّة أصحابنا: إنّ ذلك كان واجبا عليه، وأنّه يحرم عليه أن ينزعها حتّى يقاتل «٢» .
٤- خائنة الأعين:
خائنة الأعين هي الإيماء إلى مباح من قتل أو ضرب على خلاف ما يظهر ويشعر به الحال، ولا يحرم ذلك على غيره إلّا في محظور. قاله الرّافعيّ رحمه الله «٣» .
وقال الخطّابيّ- رحمه الله-: «هو أن يضمر في قلبه غير ما يظهره للنّاس فإذا كفّ لسانه وأومأ بعينه إلى ذلك فقد خان وقد كان ظهور تلك الخيانة من قبيل عينه فسمّيت خائنة الأعين «٤» .
فلم يكن لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يومىء بطرفه خلاف ما يظهر كلامه.
ومستند هذا قصّة عبد الله بن سعد بن أبي سرح، حيث كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد أهدر دمه يوم فتح مكّة في جملة من أهدر من الدّماء فاختبأ عند عثمان بن عفّان أخيه من الرّضاعة، فلمّا دعا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم النّاس إلى البيعة جاء به عثمان حتّى أوقفه على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال يا رسول الله، بايع عبد الله، فرفع رأسه، فنظر إليه، ثلاثا، كلّ ذلك يأبى، فبايعه بعد ثلاث، ثمّ أقبل على أصحابه فقال: «أما كان فيكم رجل رشيد، يقوم إلى هذا حيث رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله؟ فقالوا: ما ندري يا رسول الله ما في نفسك؟ ألا أومأت إلينا بعينك قال: «إنّه لا ينبغي لنبيّ أن تكون له خائنة الأعين» «٥» .
٥- تعلّم الكتابة:
قال الله تعالى: وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ «٦» .

---

(١) رواه الإمام أحمد (٣/ ٣٥١) . وابن سعد في" الطبقات الكبرى" (٢/ ٤٥) . والدارمي برقم (٢١٦٥) . قال الحافظ ابن حجر: سنده صحيح انظر الفتح (١٣/ ٣٥٣) . ورواه البخاري معلقا انظر الفتح (١٣/ ٣٥١) . وأصل القصة في البخاري- انظر الفتح ١٢ (٧٠٣٥) . ومسلم برقم (٢٢٧٢) .
(٢) انظر الفصول (ص ٣٣٨) .
(٣) انظر الخصائص الكبرى للسيوطي (٢/ ٤١٥) .
(٤) انظر حاشية السندي على سنن النسائي (٧/ ١٠٦) .
(٥) رواه أبو داود برقم (٤٣٥٩) . والنسائي (٧/ ١٠٥، ١٠٦) . والحاكم (٣/ ٤٥) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. ورواه البيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٤٠) . قال الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير: إسناده صالح. انظر التلخيص (٣/ ١٣٠) .
(٦) سورة العنكبوت: آية (٤٨) .

فقد لبث صلوات الله وسلامه عليه عمرا من قبل أن ينزّل عليه القرآن المجيد لا يقرأ كتابا ولا يحسن الكتابة بل كلّ أحد من قومه وغيرهم يعرف أنّه رجل أمّيّ لا يقرأ ولا يكتب. وهذه صفته في الكتب المتقدّمة. كما قال تعالى:
الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ «١» .
فهكذا كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم دائما إلى يوم الدّين لا يحسن الكتابة ولا يعانيها ولا أهلها بقصد التّعلّم ولا يخطّ سطرا ولا حرفا بيده بل كان له كتّابٌ يكتبون بين يده الوحي والرّسائل إلى الأقاليم.
وهذا من أعلام نبوّته لئلّا يرتاب بعض الجهلة فيقول إنّما تعلّم هذا القرآن من كتب قبله مأثورة عن الأنبياء.
٦- تعلّم الشّعر:
قال الله تعالى: وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغِي لَهُ «٢» .
فلم يكن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عالما بالشّعر وأصنافه وأعاريضه وقوافيه ولم يكن موصوفا بذلك بالاتّفاق وجعل الله سبحانه ذلك علما من أعلام نبوّته صلّى الله عليه وسلّم لئلّا تدخل الشّبهة على من أرسل إليهم فيظنّوا أنّه قوي على القرآن بما في طبعه من القوّة في الشّعر.
والأدلّة على عدم معرفته بالشّعر وعدم ميله إليه كثيرة منها: أنّ قريشا لمّا تشاورت فيما يقولون للعرب في رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا قدموا عليهم الموسم. فقال بعضهم: نقول إنّه شاعر. فقال أهل الفطنة منهم: والله لتكذّبنّكم العرب، فإنّهم يعرفون أصناف الشّعر فو الله ما يشبه شيئا منها وما قوله بشعر.
وأمّا ما وقع على لسانه صلوات الله وسلامه عليه من الشّعر القليل، كقوله يوم حنين وهو راكب بغلته يقدّم بها نحور العدوّ.
أنا النّبيّ لا كذب ... أنا ابن عبد المطّلب «٣»
وكقوله لمّا أصابه حجر وهو يمشي فعثر فدميت إصبعه الشّريفة:
هل أنت إلّا إصبع دميت ... وفي سبيل الله ما لقيت «٤»
فكلّ هذا وأمثاله إنّما وقع منه اتّفاقا من غير قصد لوزن الشّعر بل جرى على اللّسان من غير قصد إليه.

---

(١) سورة الأعراف: آية (١٥٧) .
(٢) سورة يس: آية (٦٩) .
(٣) رواه البخاري- انظر الفتح ٧ (٤٣١٦) . ومسلم برقم (١٧٧٦) .
(٤) رواه البخاري- انظر الفتح ١٠ (٦١٤٦) . ومسلم برقم (١٧٩٦) .

النّوع الثّاني ما أبيح له دون غيره
١- الوصال في الصّوم:
بعث الله- تبارك وتعالى- رسوله محمّدا صلّى الله عليه وسلّم وسكب في قلبه من العلم والحلم وفي خلقه من الإيناس والبرّ وفي طبعه من السّهولة والرّفق وفي يده من السّخاوة والنّدى ما جعله أزكى عباد الله رحمة وأوسعهم عاطفة وأرحبهم صدرا.
قال تعالى: وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ «١» .
وقال تعالى: لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ «٢» .
فجاءت شريعته مبنيّة على التّيسير والسّهولة والتّخفيف والرّحمة ورفع الحرج والآصار والأغلال ما يلائم اختلاف الأجيال وحاجات العصور وشتّى البقاع.

فمن ذلك نهيه صلّى الله عليه وسلّم أمّته عن مواصلة صوم يومين فصاعدا من غير أكل أو شرب بينهما لما في ذلك من المشقّة وحصول المفسدة المترتّبة على الوصال وهي الملل من العبادة والتّعرّض للتّقصير في بعض وظائف الدّين.
بينما كان ذلك مباحا له صلّى الله عليه وسلّم خصوصيّة له دون أمّته.
- فعن أنس- رضي الله عنه-؛ عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «لا تواصلوا» . قالوا: إنّك تواصل.
قال: «لست كأحد منكم إنّي أطعم وأسقى» «٣» .
- وعن عائشة- رضي الله عنها-؛ قالت: نهى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن الوصال رحمة لهم.
فقالوا: إنّك تواصل.
قال: «إنّي لست كهيئتكم، إنّي يطعمني ربّي «٤» ويسقين» «٥» .
قال الحافظ ابن حجر- رحمه الله-: واستدلّ بمجموع هذه الأحاديث على أنّ الوصال من خصائصه صلّى الله عليه وسلّم. وعلى أنّ غيره ممنوع منه إلّا ما وقع فيه التّرخيص من الإذن فيه إلى السّحر» «٦» .

---

(١) سورة الأنبياء: آية (١٠٧) .
(٢) سورة التوبة: آية (١٢٨) .
(٣) رواه البخاري- انظر الفتح ٤ (١٩٦١) . ومسلم برقم (١١٠٢) بمعناه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
(٤) يطعمني ربي ويسقين: قال النووي رحمه الله: معناه يجعل الله تعالى فيّ قوة الطاعم الشارب، وقيل هو على ظاهره وأنه يطعم من طعام الجنة كرامة له، والصحيح الأول لأنه لو أكل حقيقة لم يكن مواصلا. انظر شرح النووي على صحيح مسلم (٧/ ٢١٢، ٢١٣) .
(٥) رواه البخاري- انظر الفتح ٤ (١٩٦٤) . ومسلم (١١٠٥) .
(٦) انظر فتح الباري (٤/ ٢٤٠) .

وقال النّوويّ: قال الخطّابيّ وغيره من أصحابنا: الوصال من الخصائص الّتي أبيحت لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم وحرّمت على الأمّة» «١» .
٢- الزّواج من غير وليّ ولا شهود:
عني الإسلام عناية كبيرة بالأسرة، فالأسرة هي أساس كيان المجتمع الإسلامي من مجموعها يتكوّن المجتمع ويترتّب على ذلك أنّ الأسرة إذا صلحت صلح المجتمع وإذا فسدت فسد المجتمع وحيث إنّ الزّواج هو السّبيل المشروع لتكوين الأسرة وبقاء الجنس البشريّ، فقد رغّب فيه الإسلام وحثّ عليه وشرع له أحكاما معيّنة تشريفا وتكريما لهذه العلاقة علاقة الزّواج.
ومن هذه الأحكام، موافقة وليّ المرأة على زواجها وهو شرط لصحّة النّكاح. قال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: لا نكاح إلّا بوليّ» «٢» فعقد النّكاح لا يهمّ المرأة وحدها بل يهمّ وليّها وعائلتها، والضّرر الّذي يلحقها بسبب سوء اختيارها ينسحب إلى عائلتها وعلى رأسهم وليّها كالأب والأخ. ولهذا فلا بدّ أن يكون للوليّ رأي مسموع في زواجها، وكما يشترط في صحّة النّكاح موافقة وليّ المرأة، كذلك يشترط حضور الشّهود عند عقد النّكاح لكي يعرف العقد ويشيع وتحفظ حقوق المرأة، ويؤمن الجحود. ولهذا قال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: لا نكاح إلّا بوليّ وشاهدي عدل» «٣» .
وقد انفرد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن أمّته في هذين الحكمين؛ فأباح الله تعالى له الزّواج بغير وليّ ولا شهود تشريفا وتكريما لعدم الحاجة إلى ذلك في حقّه صلّى الله عليه وسلّم.
قال العلماء: «إنّما اعتبر الوليّ في نكاح الأمة للمحافظة على الكفاءة، وهو صلّى الله عليه وسلّم فوق الأكفاء، وإنّما اعتبر الشّهود لأمن الجحود وهو صلّى الله عليه وسلّم لا يجحد.

وبرهان هذا الحكم في حقّه ما جاء في حديث زينب بنت جحش- رضي الله عنها- أنّها كانت تفخر على أزواج النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وتقول: «زوّجكنّ أهليكنّ وزوّجني الله تعالى من فوق سبع سماوات» «٤» .

(١) انظر شرح النووي على صحيح مسلم (٧/ ٢١٢) .
(٢) رواه أبو داود برقم (٢٠٨٥) . والترمذي برقم (١١٠١) . وابن ماجه برقم (١٨٨١) . والإمام أحمد في المسند (٤/ ٤١٣، ٤١٨) . الحاكم (٢/ ١٦٩) . والبيهقي. (٧/ ١٠٧) . وصححه الألباني انظر صحيح الجامع الصغير، رقم (٧٤٣١) . وعبد القادر الأرناؤوط. انظر تعليقه على جامع الأصول (١١/ ٤٥٧) .
(٣) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٧/ ١٢٥) . والطبراني في الكبير (١٨/ ١٤٢) برقم (٢٩٩) . والدارقطني في سننه (٣/ ٢٢٥) . وصححه الألباني انظر إرواء الغليل (٦/ ٢٥٨- ٢٦٠) ، وصحيح الجامع الصغير، رقم (٧٤٣٣، ٧٤٣٤) .
(٤) رواه البخاري- انظر الفتح ١٣ (٧٤٢٠) .
جـ ١(ص: ٥٠٩)

قال الإمام النّوويّ في شرحه على حديث مسلم: قال أنس بن مالك- رضي الله عنه-: ما أولم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على امرأة من نسائه أكثر أو أفضل ممّا أولم على زينب» .
قال رحمه الله: «يحتمل أنّ سبب ذلك الشّكر لنعمة الله في أنّ الله تعالى زوّجه إيّاها بالوحي لا بوليّ وشهود بخلاف غيرها. ومذهبنا الصّحيح المشهور عند أصحابنا صحّة نكاحه صلّى الله عليه وسلّم بلا وليّ ولا شهود لعدم الحاجة إلى ذلك في حقّه صلّى الله عليه وسلّم» «١» .
٣- الجمع بين أكثر من أربع نسوة:
شرع الله تبارك وتعالى لعباده النّكاح لما فيه من الفوائد العظيمة والحكم الجسيمة، فمن ذلك: الإبقاء على النّوع الإنسانيّ، والتّحصّن من الشّيطان، وكسر التّوقان ودفع غوائل الشّهوة، وغضّ البصر وحفظ الفرج، وترويح النّفس وإيناسها بما أباحه الله لتقوى وتنشط على العبادة، ومجاهدة النّفس ورياضتها بالرّعاية والولاية والقيام بحقوق الأهل، والاجتهاد في كسب الحلال، والعناية بتربية الأولاد إلى غير ذلك من الفوائد والحكم والأسرار.
وقد جاءت الأدلّة الشّرعيّة مبيحة الجمع بين أربع نسوة ومحرّمة الزّيادة على ذلك لآحاد المؤمنين.
قال تعالى: وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتامى فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَواحِدَةً أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ» .
قال ابن عبّاس وجمهور العلماء: إنّ المقام مقام امتنان وإباحة فلو كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع لذكره» «٣» .
ولمّا أسلم غيلان بن سلمة الثّقفيّ أسلم وتحته عشر نسوة، فقال له النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «اختر منهنّ أربعا» «٤» .
وقال الشّافعيّ رحمه الله: «دلّت سنّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المبيّنة عن الله أنّه لا يجوز لأحد غير رسول الله أن يجمع بين أكثر من أربع نسوة» .
قال الحافظ ابن كثير: وهذا الّذي قاله الشّافعي مجمع عليه بين العلماء» «٥» . فهذا الحكم من خصائصه صلّى الله عليه وسلّم الّتي انفرد بها دون غيره من الأمّة، ولا خلاف بين العلماء أنّه توفّي صلّى الله عليه وسلّم عن تسع نسوة؛ سودة بنت زمعة القرشيّة،

(١) انظر شرح النووي على صحيح مسلم (٩/ ٢٢٩، ٢٣٠) .
(٢) سورة النساء: آية (٢، ٣) .
(٣) انظر تفسير ابن كثير (١/ ٤٦٠) .

(٤) رواه أبو داود برقم (٢٢٤١) . والترمذي برقم (١١٢٨) . وابن ماجه برقم (١٩٥٣) الإمام أحمد في مسنده مطولا (٢/ ١٤) . قال الحافظ ابن كثير: إسناد أحمد ثقات على شرط الشيخين. انظر تفسير ابن كثير (١/ ٤٦١) . وقال الحافظ الهيثمي: رواه أحمد والبزار وأبو يعلى ورجال أحمد رجال الصحيح.. انظر مجمع الزوائد (٤/ ٢٢٣) .
(٥) انظر تفسير ابن كثير (١/ ٤٦٠) .

وعائشة بنت أبي بكر القرشيّة، وأمّ سلمة هند بنت أبي أميّة القرشيّة، وحفصة بنت عمر القرشيّة، وزينب بنت جحش الأسديّة، وجويرية بنت الحارث المصطلقيّة، وأمّ حبيبة رملة بنت أبي سفيان القرشيّة، وصفيّة بنت حييّ النّضيريّة، وميمونة بنت الحارث الهلاليّة.
فائدة: والحكمة في استكثاره صلّى الله عليه وسلّم من النّساء:
قال الحافظ ابن حجر- رحمه الله-: والّذي تحصّل من كلام أهل العلم في الحكمة في استكثاره من النّساء عدّة أوجه: أحدها: أن يكثر من يشاهد أحواله الباطنة فينتفي عنه ما يظنّ به المشركون من أنّه ساحر أو غير ذلك.
ثانيها: لتتشرّف به قبائل العرب بمصاهرته فيهم. ثالثها: للزّيادة في تآلفهم بذلك. رابعها: للزّيادة في التّكليف حيث كلّف أن لا يشغله ما حبّب إليه منهنّ عن المبالغة في التّبليغ. خامسها: لتكثر عشيرته من جهة نسائه فتزداد أعوانه على من يحاربه. سادسها: نقل الأحكام الشّرعيّة الّتي لا يطّلع عليها الرّجال، لأنّ أكثر ما يقع مع الزّوجة ممّا شأنه أن يختفي مثله. سابعها: الاطّلاع على محاسن أخلاقه الباطنة، فقد تزوّج أمّ حبيبة وأبوها إذ ذاك يعاديه، وصفيّة بعد قتل أبيها وعمّها وزوجها، فلو لم يكن أكمل الخلق في خلقه لنفرن منه، بل الّذي وقع أنّه كان أحبّ إليهنّ من جميع أهلهنّ. ثامنها: تحصينهنّ والقيام بحقوقهنّ» «١» .
٤- بدء القتال بالبلد الأمين:
شرّف الله عزّ وجلّ أمّ القرى البلد الحرام وفضّلها واختارها وخصّها بخصائص ومزايا ليست لغيرها من بقاع الدّنيا فمن ذلك أنّ بها بيته العتيق أوّل بيت وضع للنّاس لعبادتهم ونسكهم يطوفون به ويصلّون إليه ويعتكفون عنده ومن دخله كان آمنا. وجعله مثابة للنّاس يثوبون إليه على تعاقب الأعوام من جميع الأقطار ولا يقضون منه وطرا بل كلّما ازدادوا له زيارة ازدادوا له اشتياقا.
لا يرجع الطّرف عنها حين ينظرها ... حتّى يعود إليها الطّرف مشتاقا
فلله كم أنفق في حبّها من الأموال والأرواح ورضي المحبّ بمفارقة الأهل والأحباب والأوطان. جعل عرصاتها مناسك لعباده فرض عليهم قصدها وجعل ذلك من فروض الإسلام. وأخبر أنّها أمّ القرى فالقرى كلّها تبع لها وفرع عليها فليس لها في القرى عديل «٢» . إنّها بلد حرام حرّمها الله يوم خلق السّماوات والأرض فالقتال فيها لا يحلّ ولا يجوز إلى غير ذلك من خصائصها.

(١) انظر فتح الباري (٩/ ١٧) بتصرف يسير.
(٢) زاد المعاد (١/ ٤٦- ٥١) باختصار وتصرف.

وقد أباح الله تبارك وتعالى لنبيّه صلّى الله عليه وسلّم مكّة المكرّمة عام الفتح ساعة من نهار فدخلها بغير إحرام وقتل من أهلها يومئذ نحو عشرين فكان ذلك من خصائصه صلّى الله عليه وسلّم. وقد دلّت على ذلك الأحاديث الصّحيحة، منها ما ذكره صلّى الله عليه وسلّم في خطبته صبيحة ذلك اليوم حيث قال:
إنّ مكّة حرّمها الله ولم يحرّمها النّاس. فلا يحلّ لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما ولا يعضد «١» بها شجرة. فإن أحد ترخّص بقتال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيها فقولوا له: إنّ الله

أذن لرسوله ولم يأذن لكم. وإنّما أذن لي فيها ساعة من نهار. وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس وليبلّغ الشّاهد الغائب «٢» .
النّوع الثّالث ما وجب عليه دون غيره
والحكمة في اختصاصه بها زيادة الزّلفى ورفع الدّرجات. وهذا القسم مثّل له العلماء رحمهم الله بأمثلة عديدة منها اختصاصه بوجوب صلاة الضّحى وقيام اللّيل والسّواك والأضحية ووجوب مشاورة أصحابه..»
ولكنّ أمثلة هذا النّوع أو ا* كثرها لم يحصل عليها اتّفاق بين العلماء لتعدّد الأدلّة المثبتة والنّافية.
ولهذا لم نتعرّض لمسائل هذا النّوع بحثا ودراسة بل أشرنا إلى بعض أمثلته ممّا ذكره العلماء كصلاة الضّحى وقيام اللّيل.. إلخ. ومن أراد الزّيادة فليرجع إلى مظانّ ذلك «٣» .
النّوع الرّابع ما اختصّ به عن أمّته من الفضائل والكرامات
١- عصمة في الأقوال والأفعال:
كان صلّى الله عليه وسلّم معصوما في أقواله وأفعاله لا يجوز عليه الخطأ فيما يتعلّق بأداء الرّسالة ولا يقرّ عليه بل ينزل الوحي بتصحيحه.
قال تعالى: وَالنَّجْمِ إِذا هَوى * ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوى * وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى «٤» .

---

(١) لا يعضد: قال أهل اللغة: العضد القطع.
(٢) رواه البخاري- انظر الفتح ٤ (١٨٣٢) . ومسلم (١٣٥٤) .
(٣) انظر الفصول لابن كثير (ص ٣٠٧- ٣١١) ، خصائص أفضل المخلوقين لابن الملقن (ص ١٠٢- ١٥٨) رسالة ما جستير، والخصائص الكبرى للسيوطي (٢/ ٣٩٦- ٤٠٤) .
(٤) سورة النجم: الآيات (١- ٤) .

وهذا ممّا يشترك فيه هو والأنبياء عليهم السّلام. بخلاف سائر أمّته فإنّه يجوز ذلك كلّه على كلّ منهم منفردا. أمّا إذا اجتمعوا كلّهم على قول واحد فلا يرد عليهم الخطأ لقوله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ الله تعالى قد أجار أمّتي أن تجتمع على ضلالة «١» .
٢- من استهان به أو سبّه كفر:
تضافرت الأدلّة من الكتاب والسّنّة وإجماع الأمّة موضّحة ومجلّية ما يجب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم من الحقوق وما يتعيّن له من برّ وتوقير وإكرام وتعظيم ومن أجل هذا حرّم الله تبارك وتعالى أذاه في كتابه وأجمعت الأمّة على قتل منتقصه وسابّه. قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِيناً «٢» .
وقال تعالى: وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ «٣» .
فكلّ من استهان برسول الله صلّى الله عليه وسلّم أو سبّه أو عابه أو ألحق به نقصا في نفسه أو نسبه أو دينه أو خصلة من خصاله أو عرّض به أو شبّهه بشيء على طريق السّبّ له أو الإزراء عليه أو التّصغير لشأنه أو الغضّ منه والعيب له فإنّه يقتل كفرا.
والأدلّة على ذلك كثيرة منها:
- ما روى أبو داود والنّسائيّ: عن ابن عبّاس- رضي الله عنهما-؛ أنّ أعمى كانت له أمّ ولد، تشتم النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وتقع فيه، فينهاها فلا تنتهي، ويزجرها فلا تنزجر. قال: فلمّا كانت ذات ليلة جعلت تقع في النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وتشتمه، فأخذ المغول «٤» فوضعه في بطنها، واتّكأ عليها فقتلها، فوقع بين رجليها طفل، فلطّخت ما هناك بالدّم، فلمّا أصبح ذكر ذلك لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم فجمع النّاس فقال: «أنشد الله رجلا فعل ما فعل، لي عليه حقّ، إلّا قام فقام الأعمى يتخطّى النّاس، وهو يتزلزل حتّى قعد بين يدي النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال يا رسول الله أنا صاحبها، كانت تشتمك

وتقع فيك فأنهاها فلا تنتهي، وأزجرها فلا تنزجر، ولي منها ابنان مثل اللّؤلؤتين، وكانت بي رفيقة، فلمّا كانت البارحة جعلت تشتمك وتقع فيك، فأخذت المغول فوضعته في بطنها واتّكأت عليها حتّى قتلتها، فقال النّبيّ

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في كتاب" السنة"، (٢/ ١) ، رقم (٧٩) من حديث كعب بن عاصم الأشعري ورواية أخرى من حديث أنس بن مالك رضي الله عنهم. وذكر له الشيخ الألباني طرقا ثم قال: فالحديث بمجموع هذه الطرق حسن. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم (١٣٣١) . وأيضا صحيح الجامع الصغير برقم (١٧٨٢) .
(٢) سورة الأحزاب آية (٥٧) .
(٣) سورة التوبة آية (٦١) .
(٤) قال في «عون المعبود» : المغول سيف قصير يشتمل به الرجل تحت ثيابه. وقيل: حديدة دقيقة لها حد ماض، وقيل: سوط في جوفه سيف دقيق يشده الفاتك على وسطه ليغتال به الناس. انظر عون المعبود شرح سنن أبي داود (١٢/ ١٥) .

صلّى الله عليه وسلّم: ألا اشهدوا: أنّ دمها هدر» «١» .
وروى أبو داود والنّسائيّ؛ عن أبي برزة- رضي الله عنه-؛ قال: «كنت عند أبي بكر فتغيّظ على رجل، فاشتدّ عليه، فقلت: تأذن لي يا خليفة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: أضرب عنقه؟ قال: فأذهبت كلمتي غضبه، فقام فدخل فأرسل إليّ فقال: ما الّذي قلت آنفا؟ قلت: ائذن لي أضرب عنقه. قال: أكنت فاعلا لو أمرتك؟ قلت: نعم قال: لا والله ما كانت لبشر بعد محمّد صلّى الله عليه وسلّم» «٢» .
وأمّا الإجماع:
فقد قال أبو بكر بن المنذر- رحمه الله-: «أجمع عوامّ أهل العلم على أنّ من سبّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقتل» «٣» .
وقال محمّد بن سحنون- رحمه الله-: «أجمع العلماء أنّ شاتم النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم المتنقّص له كافر والوعيد جار عليه بعذاب الله له وحكمه عند الأمّة القتل» «٤» . وقد ذكر ذلك ونقل الإجماع عليه غير واحد من أهل العلم.
٣- الكذب عليه ليس كالكذب على غيره:
الكذب رذيلة محضة وخصلة ذميمة وهو من قبائح الذّنوب وفواحش العيوب وأقبح الصّفات، يقلب الموازين، ويمسخ الحقائق ويشوّه وجه الجمال في كلّ شيء يداخله وينبيء عن تغلغل الفساد في نفس صاحبه، ويجرّ به إلى الفجور والنّفاق.
قال صلّى الله عليه وسلّم: « ... وإنّ الكذب يهدي إلى الفجور وإنّ الفجور يهدي إلى النّار» «٥» .
وقال: «أربع من كنّ فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهنّ كانت فيه خصلة من النّفاق حتّى يدعها: «إذا اؤتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر» «٦» .
ومن أشدّ أنواع الكذب وأشنعه الكذب على الله تعالى أو الكذب على رسوله صلّى الله عليه وسلّم لأنّه افتراء في الدّين، وتلاعب بشرائع الله لعباده، وتجرّؤ عظيم على النّار. ولهذا أجمع العلماء على تغليظ الكذب على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وأنّه من الكبائر وأنّ من كذب عليه متعمّدا مستجيزا لذلك فهو كافر.

---

(١) سنن أبي داود برقم (٤٣٦١) . وسنن النسائي (٧/ ١٠٧، ١٠٨) . وصححه الألباني انظر صحيح سنن أبي داود برقم (٣٦٦٦) .
(٢) سنن أبي داود برقم (٤٣٦٣) . والنسائي (٧/ ١٠٩) . وقال ابن تيميه رحمه الله: رواه أبو داود في سننه بإسناد صحيح. انظر" الصارم المسلول على شاتم الرسول (ص ٩٢) .

(٣) " الشفا" للقاضي عياض (٢/ ٤٧٤) .
(٤) " الشفا" للقاضي عياض (٢/ ٤٧٦) .
(٥) رواه البخاري- انظر الفتح ١٠ (٦٠٩٤) . ومسلم برقم (٢٦٠٧) .
(٦) رواه البخاري- انظر الفتح ١ (٣٤) . ومسلم برقم (٥٨) .

قال صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ كذبا عليّ ليس ككذب على أحد فمن كذب عليّ متعمّدا فليتبوّأ مقعده من النّار» «١» .
وقال: «بلّغوا عنّي ولو آية وحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب عليّ متعمّدا فليتبوّأ مقعده من النّار» «٢» .
وهذا المعنى: وهو توعّد من كذب على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالنّار. ورد من طرق متواترة صرّح بذلك غير واحد. ومن بشاعة هذه الجريمة وشناعتها أنّ بعض العلماء منهم الإمام أحمد ويحيى بن معين وأبو بكر الحميديّ، أفتوا بأنّ من كذب على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم توبته مردودة ومن ثمّ لا تقبل روايته، إلّا أنّ جماهير العلماء على خلاف قولهم.
بينما نجد أنّ من كذب على غير رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وإن كان ذلك إثما وفسقا إلّا أنّ توبته صحيحة بالإجماع.
٤- رؤية خاصّة:
- عن عائشة- رضي الله عنها-؛ قالت: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يوما: «يا عائش هذا جبريل يقرئك السّلام.
فقلت: وعليه السّلام ورحمة الله وبركاته، ترى ما لا أرى» «٣» .
- وعن أبي ذرّ- رضي الله عنه-؛ قال: «قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّي أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون.
إنّ السّماء أطّت «٤» وحقّ لها أن تئطّ. ما فيها موضع أربع أصابع إلّا وملك واضع جبهته ساجدا لله.
والله لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا. وما تلذّذتم بالنّساء على الفرش. ولخرجتم إلى الصّعدات «٥» تجأرون «٦» إلى الله» «٧» .

---

(١) رواه البخاري- انظر الفتح ٦ (٣٤٦١) .
(٢) رواه البخاري- انظر الفتح ٣ (١٢٩١) . ومسلم برقم (٤) .
(٣) رواه البخاري- انظر الفتح ٧ (٣٧٦٨) . مسلم برقم (٩١/ ٢٤٤٧) .
(٤) أطت: في النهاية: الأطيط صوت الأقتاب وأطيط الإبل أصواتها وحنينها. أي إن كثرة ما فيها من الملائكة قد أثقلها حتى أطت. وهذا مثل وإيذان بكثرة الملائكة، وإن لم يكن ثم أطيط. وإنما هو كلام تقريب أريد به تقرير عظمة الله تعالى. انظر النهاية (١/ ٥٤) .
(٥) الصعدات: في النهاية: هي الطرق. وهي جمع صعد. وصعد جمع صعيد. كطريق وطرق وطرقات. وقيل: هي جمع صعدة، كظلمة، وهي فناء باب الدار وممر الناس بين يديه. انظر النهاية (٣/ ٢٩) ، وجامع الأصول (٤/ ١٣) .
(٦) تجأرون: أي ترفعون أصواتكم وتستغيثون.
(٧) الترمذي برقم (٢٣١٢) وقال: حديث حسن غريب. وابن ماجه برقم (٤١٩٠) . ورواه الإمام أحمد (٥/ ١٧٣) . والحاكم في المستدرك (٢/ ٥١٠) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وأيضا حسنه الألباني- انظر صحيح الجامع الصغير برقم (٢٤٤٥) .

- وعن أبي هريرة- رضي الله عنه-؛ قال: صلّى بنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يوما. ثمّ انصرف فقال: يا فلان ألا تحسن صلاتك؟ ألا ينظر المصلّي إذا صلّى كيف يصلّي؟ فإنّما يصلّي لنفسه. إنّي والله لأبصر من ورائي «١» كما أبصر من بين يديّ» «٢» .
- وعنه- رضي الله عنه-؛ أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «هل ترون قبلتي ههنا؟ فو الله ما يخفى عليّ ركوعكم ولا سجودكم. إنّي لأراكم وراء ظهري» «٣» .
٥- أجر تطوّعه قاعدا كتطوّعه قائما:
شرعت صلاة النّافلة لحكم عظيمة وأسرار منها زيادة الحسنات ورفعة الدّرجات، فعن ربيعة بن كعب الأسلميّ خادم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؛ قال: «كنت أبيت مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فآتيه بوضوئه وحاجته فقال: «سلني» .
قلت: أسألك مرافقتك في الجنّة، فقال: «أو غير ذلك؟» قلت: هو ذاك. قال: «فأعنّي على نفسك بكثرة السّجود» «٤» .
ومنها جبر وإكمال الفريضة إن نقصت.
- فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ أوّل ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته فإن صلحت، فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت، فقد خاب وخسر، فإن انتقص من فريضته شيئا، قال الرّبّ- عزّ وجلّ-: انظروا هل لعبدي من تطوّع فيكمّل بها ما انتقص من الفريضة ثمّ تكون سائر أعماله على هذا» «٥» .
هذا ولصلاة النّافلة آداب وأحكام منها:

---

(١) لأبصر من ورائي: قال النووي- رحمه الله-: قال العلماء: معناه أن الله تعالى خلق له صلى الله عليه وسلم إدراكا في قفاه يبصر به من ورائه. وقد انخرقت العادة له صلى الله عليه وسلم بأكثر من هذا. وليس يمنع من هذا عقل ولا شرع بل ورد الشرع بظاهره فوجب القول به. قال القاضي: قال أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى، وجمهور العلماء على أن هذه الرؤية رؤية بالعين الحقيقية. انظر شرح النووي على صحيح مسلم (٤/ ١٤٩- ١٥٠) .
(٢) رواه مسلم برقم (٤٢٣) .
(٣) رواه البخاري- انظر الفتح ٢ (٧٤١) . ومسلم برقم (٤٢٤) .
(٤) رواه مسلم برقم (٤٨٩) .
(٥) رواه أبو داود برقم (٨٦٤) ، والترمذي برقم (٤١٣) وقال: حديث حسن. والنسائي (١/ ٢٣٢) . وابن ماجه برقم (١٤٢٥) . والحاكم في المستدرك (١/ ٢٦٢) وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وله شاهد بإسناد صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. قال الشوكاني: وأخرجه النسائي من طريق إسنادها جيد، ورجالها رجال الصحيح كما قال العراقي وصححها ابن القطان- انظر نيل الأوطار (١/ ٣٤٥) . ونقل ابن علان عن الحافظ ابن حجر تصحيحه للحديث. انظر دليل الفالحين (٣/ ٥٨١) .
جـ ١(ص: ٥١٦)

جواز القعود فيها مع القدرة على القيام بخلاف الفريضة فمن صلّاها كذلك فصلاته صحيحة وله نصف ثواب القائم لقوله صلّى الله عليه وسلّم: «صلاة القاعد على النّصف من صلاة القائم» » .
وهذا الحكم عامّ لجميع الأمّة واختصّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في ذلك عن أمّته بأن جعلت نافلته قاعدا مع القدرة على القيام كنافلته قائما تشريفا له وتكريما.
- ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو- رضي الله عنهما-؛ قال: حدّثت أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال:

«صلاة الرّجل قاعدا نصف الصّلاة» . قال فأتيته فوجدته يصلّي جالسا، فوضعت يدي على رأسه. فقال: «مالك يا عبد الله بن عمرو «قلت: حدّثت يا رسول الله أنّك قلت: صلاة الرّجل قاعدا على نصف الصّلاة وأنت تصلّي قاعدا قال: «أجل ولكنّي لست كأحد منكم» «٢» .
قال النّوويّ وغيره من العلماء: ... نافلته صلّى الله عليه وسلّم قاعدا مع القدرة ثوابها كثوابه قائما وهو من الخصائص» «٣» .
٦- لا يورّث:
الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام سفراء الله إلى عباده وحملة وحيه مهمّتهم إبلاغ رسالات الله إلى عباده والدّعوة إلى الله وإصلاح النّفوس وتزكيتها وتصحيح الفكر المنحرف والعقائد الزّائفة وإقامة الحجّة وسياسة الأمّة فلم تكن وظيفتهم اختزان الأموال ولا توريث التّراث.
وإنّما ورّثوا علما وشرعا وبلاغا للنّاس فذلك ميراثهم وهو خير ميراث.
قال صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ العلماء ورثة الأنبياء وإنّ الأنبياء لم يورّثوا دينارا ولا درهما، وإنّما ورّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظّ وافر» «٤» .
وهذا من خصائصه صلوات الله وسلامه عليه- وكذلك الأنبياء عليهم السّلام- دون أمّته أنّه لا يورث وأنّ ما تركه صدقة.
قال صلّى الله عليه وسلّم: «لا نورث ما تركنا صدقة» «٥» .

---

(١) رواه أبو داود برقم (٩٥١) . الترمذي برقم (٣٧١) وقال: حديث حسن صحيح. والنسائي (٣/ ٢٢٣، ٢٢٤) . وابن ماجه برقم (١٢٣٠) . وقال البوصيري في الزوائد: إسناده صحيح. ورواه البخاري بمعناه- انظر الفتح ٢ (١١١٦) .
(٢) رواه مسلم برقم (٧٣٥) .
(٣) انظر شرح النووي على صحيح مسلم (٦/ ١٥) .
(٤) رواه أبو داود برقم (٣٦٤١) . والترمذي برقم (٢٦٨٢) . وابن ماجه برقم (٢٢٣) . والإمام أحمد في المسند (٥/ ١٩٦) وصححه الألباني. انظر صحيح الجامع الصغير برقم (٦١٧٣) .
(٥) رواه البخاري- انظر الفتح ١٢ (٦٧٣٠) . ومسلم برقم (١٧٥٨) .

وقال: إنّا معاشر الأنبياء لا نورث» «١» .
وقال: «لا يقتسم ورثتي دينارا، ما تركت بعد نفقة نسائي ومؤنة عاملي فهو صدقة» «٢» .
قال ابن كثير- رحمه الله-: «وقد أجمع على ذلك أهل الحلّ والعقد ولا التفات إلى خرافات الشّيعة والرّافضة فإنّ جهلهم قد سارت به الرّكبان» «٣» .
قال العلماء- رحمهم الله-: «والحكمة في أنّ الأنبياء صلوات الله عليهم لا يورثون أنّه لا يؤمن أن يكون في الورثة من يتمنّى موته فيهلك بذلك، ولئلّا يظنّ بهم الرّغبة في الدّنيا وجمعها لوارثهم فيهلك الظّانّ وينفر النّاس عنهم، وأنّ الأنبياء في حكم الآباء لأممهم فيكون ميراثهم للجميع» .
٧- أزواجه أمّهات المؤمنين:
شرّف الله- تبارك وتعالى- أزواج نبيّه صلّى الله عليه وسلّم وخصّهنّ بخصائص ليست لغيرهنّ من النّساء إكراما وإجلالا لعبده ورسوله صلّى الله عليه وسلّم.
ومن ذلك أن جعلهنّ أمّهات المؤمنين؛ فقال تعالى: النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ «٤» .
ومعنى هذه الأمومة: الاحترام والتّوقير والإكرام والإعظام والإجلال والطّاعة وتحريم العقوق، ولكن لا تجوز الخلوة بهنّ، ولا ينتشر التّحريم إلى بناتهنّ وأخواتهنّ بالإجماع. كما حرم نكاحهنّ على الرّجال.
قال تعالى:

وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذلِكُمْ كانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً «٥»
.
وعلى هذا انعقد إجماع العلماء قاطبة أنّ من توفّي عنها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من أزواجه أنّه يحرم على غيره تزوّجها من بعده لأنّهنّ أزواجه في الدّنيا والآخرة وأمّهات المؤمنين.
وذلك من خصائصه صلّى الله عليه وسلّم الّتي انفرد بها عن أمّته.
٨- رؤيته في المنام حقّ:
اختصّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأنّ من رآه في المنام كان كمن رآه في اليقظة ومنع الشّيطان أن يتصوّر في خلقته لئلّا يكذب على لسانه في النّوم، كما منع أن يتصوّر في صورته في اليقظة إكراما له.

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٢/ ٤٦٣) ، وأصله في البخاري- انظر الفتح ١٢ (٦٧٣٠) . ومسلم برقم (١٧٥٨) .
(٢) رواه البخاري- انظر الفتح ١٢ (٦٧٢٩) . ومسلم برقم (١٧٦٠) .
(٣) انظر كتاب" الفصول" لابن كثير (ص ٣٢٥) .
(٤) سورة الأحزاب آية (٦) .
(٥) سورة الأحزاب آية (٥٣) .

- فعن أبي هريرة- رضي الله عنه-؛ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: من رآني في المنام فقد رآني فإنّ الشّيطان لا يتمثّل بي» «١» .
قال القرطبيّ- رحمه الله- بعد أن سرد أقوالا كثيرة في معنى الحديث: والصّحيح في تأويل هذا الحديث.
أنّ رؤيته صلّى الله عليه وسلّم في كلّ حالة ليست باطلة ولا أضغاثا بل هي حقّ في نفسها. وهذا قول القاضي أبي بكر بن الطّيّب وغيره» «٢» . أ. هـ.
وبيّن العلماء رحمهم الله أنّ هذه الرّؤيا مشروطة بأن يراه الرّائي على صورته الّتي كان عليها في الحياة الدّنيا والّتي جاءت مفصّلة في الأحاديث.
فائدة: قال الحافظ ابن كثير: واتّفقوا على أنّ من نقل عنه حديثا في المنام أنّه لا يعمل به لعدم الضّبط في رواية الرّائي فإنّ المنام محلّ تضعف فيه الرّوح وضبطها» «٣» .
٩- عبارات جافية في ظاهرها رحمة في غايتها:
لم يكن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فاحشا ولا متفحّشا ولا لعّانا ولا منتقما لنفسه إلّا أن تنتهك حرمات الله فينتقم لله تعالى، وإنّما كان صلّى الله عليه وسلّم عفوّا حليما عظيم الشّفقة على أمّته والاعتناء بمصالحهم والاحتياط لهم والرّغبة في كلّ ما ينفعهم كما مرّ مفصّلا، فعند ما قدم الطّفيل الدّوسيّ وأصحابه فقالوا: يا رسول الله، إنّ دوسا قد كفرت وأبت فادع الله عليها. فقال: «اللّهمّ اهد دوسا وائت بهم» «٤» وأمثال هذا كثير.
وما وقع منه صلّى الله عليه وسلّم في النّادر والقليل من دعاء وألفاظ ظاهرها السّبّ فمحمول- كما قال النّوويّ رحمه الله- على أنّ ظاهرها وحقيقتها غير مرادة وليس هي عن قصد بل هي ممّا جرت به عادة العرب في وصل كلامها بلانيّة كقوله: تربت يمينك» «٥» و «عقرى حلقى» «٦» وقوله لامرأة «لا كبر سنّك» وقوله في معاوية: «لا أشبع الله بطنه «٧» » أو محمول على أنّ من أطلق في حقّه هذه العبارات مستوجب مستحقّ له في الظّاهر بأمارة شرعيّة.

---

(١) رواه البخاري- انظر الفتح ١٢ (٦٩٩٤) . ومسلم برقم (٢٢٦٦) .
(٢) انظر فتح الباري (١٢/ ٤٠١) .
(٣) انظر الفصول في سيرة الرسول لابن كثير (ص ٢٩٨- ٢٩٩) .

(٤) رواه البخاري- انظر فتح الباري ٧ (٤٣٩٢) . ومسلم برقم (٢٥٢٤) واللفظ له.
(٥) تربت يمينك: ترب الرجل إذا افتقر أي لصق بالتراب، وأترب إذا استغني.. انظر النهاية (١/ ١٨٤)
.
(٦) عقرى حلقي: قال الزمخشري: هما صفتان للمرأة المشئومة أي أنها تعقر قومها وتحلقهم: أي تستأصلهم من شؤمها عليهم. انظر النهاية (٣/ ٢٧٢، ٢٧٣) .
(٧) رواه مسلم برقم (٢٦٠٤) .
جـ ١(ص: ٥١٩)

ويكون في باطن الأمر ليس أهلا لذلك، ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم مأمور بالحكم بالظّاهر والله يتولّى السّرائر «١» . فخاف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لعظيم رحمته وشفقته أن يصادف شيء من هذه العبارات إجابة فسأل ربّه سبحانه وتعالى ورغب إليه في أن يجعل ذلك رحمة وكفّارة وقربة وطهورا وأجرا. وهذا في حقّ من لم يكن لذلك أهلا وكان مسلما وإلّا فقد دعا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على الكفّار والمنافقين ولم يكن ذلك لهم رحمة. فتحوّل الدّعاء ونحوه لمن ليس له بأهل إلى كفّارة ورحمة وقربة من جملة خصائصه صلّى الله عليه وسلّم الّتي اختصّ بها عن أمّته.
- فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، قال: «اللهمّ إنّي أتّخذ عندك عهدا لن تخلفنيه فإنّما أنا بشر فأيّ المؤمنين آذيته، شتمته، لعنته، جلدته، فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة تقرّبه بها إليك يوم القيامة» «٢» .

---

(١) انظر شرح النووي علي صحيح مسلم (١٦/ ١٥٢) .
(٢) رواه البخاري- مختصرا- انظر الفتح ١١ (٦٣٦١) . ومسلم برقم (٢٦٠١) واللفظ له.
جـ ١(ص: ٥٢٠)

معجزات ودلائل نبوّة خاتم الأنبياء والمرسلين صلّى الله عليه وسلّم

تمهيد:
أجرى الله- تبارك وتعالى- على يدي أنبيائه ورسله من المعجزات الباهرات والدّلائل القاطعات والحجج الواضحات ما يدلّ على صدق دعواهم أنّهم رسل الله، وكي تقوم الحجّة البالغة على النّاس فلا يبقى لأحد عذر في عدم تصديقهم وطاعتهم. فقال تعالى: لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ «١» .
والفرق بين المعجزة وغيرها من الدّلالة والعلامة أنّ المعجزة يشترط فيها التّحدّي وأن يكون المتحدّى به ممّا يعجز عنه البشر في العادة المستمرّة. أمّا الدّلائل والعلامات فتقع دالّة على صدق الأنبياء والرّسل من غير سبق تحدّ وسمّيت المعجزة كذلك لعجز الخلق عن معارضتها والإتيان بمثلها.
والمعجزة على ضربين:
- ضرب هو من نوع قدرة البشر، فعجزوا عنه فتعجيزهم عنه فعل لله دلّ على صدق نبيّه كتحدّي اليهود أن يتمنّوا الموت.
- وضرب خارج عن قدرتهم، فلم يقدروا على الإتيان بمثله كانشقاق القمر، ممّا لا يمكن أن يفعله أحد إلّا الله تعالى فيكون ذلك على يد النّبيّ من فعل الله تعالى وتحدّي من يكذّبه أن يأتي بمثله تعجيزا له «٢» .
ومعجزات رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الّتي ظهرت على يديه تشمل كلا النّوعين. فهو صلّى الله عليه وسلّم أكثر الرّسل معجزة وأبهرهم آية وأظهرهم برهانا فله من المعجزات ما لا يحدّ ولا يعدّ، وقد ألّفت

في معجزاته صلّى الله عليه وسلّم المؤلّفات الكثيرة وتناولها العلماء بالشّرح والبيان. ممّن اعتنى بجمعها من الأئمّة أبو نعيم الأصبهانيّ والبيهقيّ.
ومعجزاته صلّى الله عليه وسلّم، منها ما نقل إلينا نقلا متواترا من طرق كثيرة تفيد القطع عند الأمّة.
ومنها ما لم يبلغ مبلغ الضّرورة والقطع وهو على نوعين:
- نوع مشتهر منتشر، رواه العدد وشاع الخبر به عند أهل العلم بالآثار، ونقلته السّير والأخبار، كنبع الماء من بين أصابعه الشّريفة صلّى الله عليه وسلّم، وتكثيره الطّعام.
- ونوع منه اختصّ به الواحد والاثنان ورواه العدد اليسير ولم يشتهر اشتهار غيره لكنّه إذا جمع إلى مثله اتّفقا في المعنى واجتمعا على الإتيان بالمعجز «٣» .

---

(١) سورة الحديد: من الآية رقم (٢٥) .
(٢) انظر الشفا للقاضي عياض (١/ ٤٩١، ٤٩٢) بتصرف.
(٣) المرجع السابق (١/ ٤٩٥) .
جـ ١(ص: ٥٢١)

وبعد هذا التّمهيد الموجز، نورد بإذن الله تعالى، جملة من معجزات ودلائل نبوّة سيّد الأوّلين والآخرين صلّى الله عليه وسلّم ممّا ساندها الدّليل الصّحيح.
المعجزة الكبرى:
أعطى الله عزّ وجلّ كلّ نبيّ من الأنبياء عليهم السّلام معجزة خاصّة به لم يعطها بعينها غيره تحدّى بها قومه، وكانت معجزة كلّ نبيّ تقع مناسبة لحال قومه وأهل زمانه.
فلمّا كان الغالب على زمان موسى عليه السّلام السّحر وتعظيم السّحرة، بعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار، وحيّرت كلّ سحّار، فلمّا استيقنوا أنّها من عند العزيز الجبّار انقادوا للإسلام وصاروا من عباد الله الأبرار.
وأمّا عيسى عليه السّلام فبعث في زمن الأطبّاء وأصحاب علم الطّبيعة، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلّا أن يكون مؤيّدا من الّذي شرع الشّريعة، فمن أين للطّبيب قدرة على إحياء الجماد، وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم التّناد، أو على مداواة الأكمه والأبرص.
وكذلك نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم، بعث في زمان الفصحاء والبلغاء وتجاريد الشّعراء، فأتاهم بكتاب من عند الله عزّ وجلّ، فاتّهمه أكثرهم أنّه اختلقه وافتراه من عنده فتحدّاهم ودعاهم أن يعارضوه ويأتوا بمثله وليستعينوا بمن شاءوا فعجزوا عن ذلك كما قال تعالى: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً «١» .
وكما قال الله تعالى: أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ* فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كانُوا صادِقِينَ «٢» .
ثمّ تقاصر معهم إلى عشر سور منه، فقال في سورة هود. أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ «٣» .
ثمّ تنازل إلى سورة فقال في سورة يونس: أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ «٤» .
وكذلك في سورة البقرة وهي مدنيّة أعاد التّحدّي بسورة منه، وأخبر تعالى أنّهم لا يستطيعون ذلك أبدا لا في الحال ولا في المآل. فقال تعالى: وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ

---

(١) سورة الإسراء: آية رقم (٨٨) .
(٢) سورة الطور: آية رقم (٣٣، ٣٤) .
(٣) سورة هود: آية رقم (١٣) .
(٤) سورة يونس: آية رقم (٣٨) .

دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ* فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ «١» .
وهكذا وقع، فإنّه من لدن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وإلى زماننا هذا لم يستطع أحد أن يأتي بنظيره ولا نظير سورة منه، وهذا لا سبيل إليه أبدا، فإنّه كلام ربّ العالمين الّذي لا يشبهه شيء من خلقه لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فأنّى يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق؟
وقد انطوى كتاب الله العزيز على وجوه كثيرة من وجوه الإعجاز:
ذلك أنّ القرآن الكريم معجز في بنائه التّعبيريّ وتنسيقه الفنّيّ باستقامته على خصائص واحدة في مستوى واحد لا يختلف ولا يتفاوت ولا تتخلّف خصائصه.
معجز في بنائه الفكريّ وتناسق أجزائه وتكاملها، فلا فلتة فيه ولا مصادفة، كلّ توجيهاته وتشريعاته، تلتقي وتتناسب وتتكامل وتحيط بالحياة البشريّة وتستوعبها وتلبّيها وتدفعها دون أن تتعارض جزئيّة واحدة من ذلك المنهاج الشّامل الضّخم مع جزئيّة أخرى، ودون أن تصطدم واحدة منها بالفطرة الإنسانيّة أو تقتصر عن تلبيتها، وكلّها مشدودة إلى محور وإلى عروة واحدة في اتّساق لا يمكن أن تفطن إليه خبرة الإنسان المحدودة.
معجز في يسر مداخله إلى القلوب والنّفوس ولمس مفاتيحها وفتح مغاليقها واستجاشه مواضع التّأثّر والاستجابة فيها «٢» .
وقد سرد هبة الدّين الحسينيّ الشّهرستانيّ المزايا الإجماليّة للقرآن وهي:
١- فصاحة ألفاظه الجامعة لكلّ شرائعها.
٢- بلاغته بالمعنى المشهور أي موافقة الكلام لمقتضى الحال ومناسبات المقام أو بلاغته الذّوقيّة المعنويّة.
٣- عروبة العبارات الممثّلة لسذاجة البداوة مع اشتمالها على بسائط الحضارة.
٤- توافر المحاسن الطّبيعيّة فوق المحاسن البديعيّة.
٥- إيجاز بالغ مع الإعجاز بدون أن يخلّ بالمقصود.
٦- إطناب غير مملّ في مكرّراته.
٧- سموّ المعاني وعلوّ المرمى في قصد الكمال الأسمى.
٨- طلاوة أساليبه الفطريّة، ومقاطعه المبهجة، وأوزانه المتنوّعة.

---

(١) سورة البقرة: آية رقم (٢٣، ٢٤) .
(٢) قال در منغم في كتابه «حياة محمد» إن جمال القرآن الأدبي الفائق وقوته النورانية لا يزالان إلى اليوم لغزا لم يحل وهما يضعان من يتلوه- ولو كان أقل الناس تقوى- في حالة خاصة من الحماسة (عن كتاب محمد رسول الله لبشري زخاري ميخائيل ص ٣٤) .

٩- فواصله الحسنى وأسماعه الفطريّة.
١٠- أنباؤه الغيبيّة، وإخباره عن كوامن الزّمان، وخفايا الأمور.
١١- أسرار علميّة لم تهتد العقول إليها بعد عصر القرآن إلّا بمعونة الأدوات الدّقيقة، والآلات الرّقيقة المستحدثة.
١٢- غوامض أحوال المجتمع، وآداب أخلاقيّة تهذّب الأفراد وتصلح شؤون العائلات.
١٣- قوانين حكيمة في فقه تشريعيّ، فوق ما في التّوراة والإنجيل، وكتب الشّرائع الأخرى.
١٤- سلامته عن التّعارض، والتّناقض، والاختلاف.
١٥- خلوصه من تنافر الحروف، وتنافي المقاصد.

١٦- ظهوره على لسان أمّيّ لم يعرف الدّراسة، ولا ألف محاضرة العلماء، ولا جاب الممالك سائحا مستكملا.
١٧- طراوته «١» في كلّ زمان، كونه طريّا كلّما تلي وأينما تلي.
١٨- اشتماله على السّهل الممتنع الّذي يعدّ ملاك الإعجاز، والتّفوّق النّهائيّ.
١٩- قوّة عبارته لتحمّل الوجوه، وتشابه المعاني.
٢٠- قصصه الحلوة، وكشوفه التّاريخيّة من حوادث القرون الخالية.
٢١- أمثاله الحسنى الّتي تجعل المعقول محسوسا، وتجعل الغائب عن الذّهن حاضرا لديه.
٢٢- معارفه الإلهيّة كأحسن كتاب في علم اللّاهوت، وكشف أسرار عالم الملكوت، وأوسع سفر من مراحل المبدإ والمعاد.
٢٣- خطاباته البديعيّة، وطرق إقناعه الفذّة.
٢٤- تعاليمه العسكريّة، ومناهجه في سبيل الصّلح، وفنون الحرب.
٢٥- سلامته من الخرافات والأباطيل، الّتي من شأنها إجهاز العلم عليها كلّما تكاملت أصوله وفروعه.
٢٦- قوّة الحجّة، وتفوّق المنطق.
٢٧- اشتماله على الرّموز في فواتح السّور، ودهشة الفكر حولها وحول غيرها.
٢٨- جذاباته الرّوحيّة الخلّابة للألباب، السّاحرة للعقول، الفتّانة للنّفوس.

---

(١) قال ديزيريه بلا نشيه في كتابه «دراسات في تاريخ الأديان» في وصف القرآن: «كفى هذا القرآن مجدا وجلالا أن الأربعة عشر قرنا التي مرت عليه لم تستطع أن تجفف أسلوبه بل لا يزال غضّا كأن عهده بالحياة أمس (راجع كتاب محمد رسول الله هكذا بشرت الأناجيل. لبشري زخاري ميخائيل ص ٣٥).

جـ ١(ص: ٥٢٤)

ولعلّ الأصوب أن يضاف إلى ذلك تضمّنه الأسس لشريعة إنسانيّة صالحة لكلّ زمان ومكان «١».
هذا وإنّ وجوه إعجاز القرآن كثيرة، وقد ألّفت فيها كتب كثيرة ويمكن أن يضاف إلى ما ذكره الشّهرستانيّ ما يلي:
١- ترك المعارضة مع توفّر الدّواعي وشدّة الحاجة، ممّا يؤكّد عجز البشر عن الإتيان بمثله.
٢- اتّساق القرآن في أغراضه ومعانيه على طول المدّة الّتي استغرقها في تجمّعه، فخواتيمه بعد ربع قرن جاءت مطابقة متساوقة لفواتحه يصدّق بعضها بعضا، ويكمّله كأنّه نفس واحد.
٣- سهولة حفظه كما قال تعالى: وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ* «٢». فهو ميسّر على جميع الألسنة ومحفوظ في الصّدور.
٤- حسن التّخلّص من قصّة إلى أخرى والخروج من باب إلى غيره.
٥- إطنابه في خطاب اليهود، وإيجازه في خطاب العرب، للتّفاوت بينهما فهما وبلاغة.
٦- ما أنبأ به من أخبار القرون السّالفة، ممّا كان لا يعلم منه القصّة الواحدة إلّا الفذّ من أحبار أهل الكتاب.
٧- وجود كلمات في جمل لا يسدّ مسدّها غيرها مثل قوله تعالى: وَأَهُشُّ بِها عَلى غَنَمِي «٣» فليس بمقدور أحد أن يأتي بكلمة تسدّ مسدّها.
٨- نزاهته في التّعبير كقوله تعالى: هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ»
وقوله: نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ «٥» وقوله: وَقَدْ أَفْضى بَعْضُكُمْ إِلى بَعْضٍ «٦» وقوله: أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ* «٧».
٩- خلوص ألفاظ الهجاء فيه من الفحش، كقوله تعالى: أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتابُوا أَمْ يَخافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ «٨».

---

(١) عن كتاب (نظرات في القرآن) لمحمد الغزالي. قلت ومثال واحد على ذلك قوله تعالى فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ولم يقل فصوموه، كما لم يحدد مواقيت الصلاة لاختلاف المواقع في الكرة الأرضية، وهذا ما يجعله موافقا لكل زمان ومكان.
(٢) سورة القمر، آية (١٧) .
(٣) سورة طه، آية (١٨) .
(٤) سورة البقرة، آية (١٨٧) .
(٥) سورة البقرة، آية (٢٢٣) .
(٦) سورة النساء، آية (٢١) .
(٧) سورة النساء، آية (٤٣) .
(٨) سورة النور، آية (٥٠) .

١٠- التّدرّج في الأحكام.
١١- ما تضمّنه من الأخبار عن الضّمائر، كقوله تعالى: وَإِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِما نَقُولُ «١» وقوله تعالى: يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ ما لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كانَ لَنا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ما قُتِلْنا هاهُنا «٢» وقوله تعالى: وَيَقُولُونَ سَمِعْنا وَعَصَيْنا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَراعِنا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ «٣» وقوله: وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ «٤» .
١٢- جمعه بين صفتي الجزالة والعذوبة، وهما كالمتضادّين لا يجتمعان في كلام البشر غالبا.
١٣- اقتران معانيه المتغايرة في السّور المختلفة، فيخرج في السّورة من وعد إلى وعيد، ومن ترغيب إلى ترهيب، ومن ماض إلى مستقبل، ومن قصص إلى مثل، ومن حكمة إلى جدل، فلا يتنافر، وهي في غيره من الكلام متنافرة.
١٤- لا يخرج عن أسلوبه ولا يزول عن اعتداله باختلاف آياته في الطّول والقصر.
١٥- آي وردت بتعجيز قوم في قضايا وإعلامهم أنّهم لا يفعلونها فما فعلوا ولا قدروا، فالإخبار بالعجز عن الإتيان بمثل القرآن معجزة للقرآن.
١٦- قارئه لا يملّه، وسامعه لا يمجّه، بل الإكباب على تلاوته يزيده حلاوة، وترديده يوجب له محبّة، وغيره من الكلام يعادى إذا أعيد، ويملّ على التّرديد.
١٧- كونه آية باقية لا يعدم ما بقيت الدّنيا لتكفّل الله بحفظه «٥» .
قال الحافظ ابن كثير «٦» :
إنّ الخلق عاجزون عن معارضة هذا القرآن، بل عن عشر سور مثله، بل عن سورة منه، وإنّهم لا يستطيعون ذلك أبدا كما قال تعالى: فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا «٧» أي فإن لم تفعلوا في الماضي، ولن تستطيعوا ذلك في المستقبل، وهذا تحدّثان، وهو أنّه لا يمكن معارضتهم له في الحال ولا في المال.
ومثل هذا التّحدّي إنّما

---

(١) سورة المجادلة، آية (٨) .
(٢) سورة آل عمران، آية (١٥٤) .
(٣) سورة النساء، آية (٤٦) .
(٤) سورة الأنفال، آية (٧) .
(٥) لقد جمع المؤلف حفظه الله كتابا ضخما في علوم القرآن وفنونه، أعانه الله على إتمامه.
(٦) البداية والنهاية (٦/ ٦٥ و٦٦) .
(٧) سورة البقرة، آية (٢٤) .

يصدر عن واثق بأنّ ما جاء به لا يمكن للبشر معارضته، ولا الإتيان بمثله، ولو كان من متقوّل من عند نفسه لخاف أن يعارض، فيفتضح ويعود عليه نقيض ما قصد من متابعة النّاس له.
ومعلوم لكلّ ذي لبّ أنّ محمّدا صلّى الله عليه وسلّم من أعقل خلق الله، بل أعقلهم وأكملهم على الإطلاق في الأمر نفسه، فما كان ليقدم على هذا الأمر إلّا وهو عالم بأنّه لا يمكن معارضته وهكذا وقع، فإنّه من لدن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وإلى زماننا هذا لم يستطع أحد أن يأتي بنظيره ولا نظير سورة منه، وهذا لا سبيل إليه أبدا، فإنّه كلام ربّ العالمين الّذي لا يشبهه شيء من خلقه، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فأنّى يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق؟.
قال الحافظ ابن حجر: وقد جمع بعضهم إعجاز القرآن في أربعة أشياء:
أحدها: حسن تأليفه والتئام كلمه مع الإيجاز والبلاغة.
ثانيها: صورة سياقه وأسلوبه المخالف لأساليب كلام أهل البلاغة من العرب نظما ونثرا حتّى حارت فيه عقولهم ولم يهتدوا إلى الإتيان بشيء مثله مع توفّر دواعيهم على تحصيل ذلك وتقريعه لهم على العجز عنه.
ثالثها: ما اشتمل عليه من الإخبار عمّا مضى من أحوال الأمم السّالفة والشّرائع الدّاثرة ممّا كان لا يعلم منه بعضه إلّا النّادر من أهل الكتاب.
رابعها: الإخبار عمّا سيأتي من الكوائن الّتي وقع بعضها في العصر النّبويّ وبعضها بعده. ومن غير هذه الأربعة آيات وردت بتعجيز قوم في قضايا أنّهم لا يفعلونها فعجزوا عنها مع توفّر دواعيهم على تكذيبه، كتمنّي اليهود الموت، ومنها الرّوعة الّتي تحصل لسامعه، ومنها أنّ قارئه لا يملّ من ترداده وسامعه لا يمجّه ولا يزداد بكثرة التّكرار إلّا طراوة ولذاذة.
ومنها أنّه آية باقية لا تعدم ما بقيت الدّنيا، ومنها جمعه لعلوم ومعارف لا تنقضي عجائبها ولا تنتهي فوائدها. أ. هـ ملخّصا من كلام عياض وغيره «١» .
الإسراء والمعراج:
عن أنس بن مالك- رضي الله عنه-، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال «أتيت بالبراق (وهو دابّة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه) قال: فركبته حتّى أتيت بيت المقدس- قال: فربطته بالحلقة الّتي يربط بها الأنبياء. قال ثمّ دخلت المسجد فصلّيت فيه ركعتين ثمّ خرجت، فجاءني جبريل عليه السّلام بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللّبن. فقال جبريل صلّى الله عليه وسلّم: اخترت الفطرة، ثمّ عرج بنا إلى السّماء، فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل ومن معك؟ قال محمّد قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه

(١) انظر فتح الباري (٨/ ٦٢٣، ٦٢٤) .

ففتح لنا، فإذا أنا بآدم. فرحّب بي ودعا لي بخير. ثمّ عرج بنا إلى السّماء الثّانية- فاستفتح جبريل- عليه السّلام- فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل ومن معك؟ قال محمّد قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه ففتح لنا، فإذا أنا بابني الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريّاء صلوات الله عليهما فرحّبا ودعوا لي بخير. ثمّ عرج بنا إلى السّماء الثّالثة، فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل ومن معك؟ قال محمّد قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف صلّى الله عليه وسلّم إذا هو قد أعطي شطر الحسن. فرحّب ودعا لي بخير. ثمّ عرج بنا إلى السّماء الرّابعة، فاستفتح جبريل- عليه السّلام- قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل ومن معك؟ قال محمّد قيل:
وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه ففتح لنا، فإذا أنا بإدريس، فرحّب ودعا لي بخير. قال الله- عزّ وجلّ-:
وَرَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا «١» . ثمّ عرج بنا إلى السّماء الخامسة، فاستفتح جبريل قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل ومن معك؟ قال محمّد قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه ففتح لنا، فإذا أنا بهارون صلّى الله عليه وسلّم. فرحّب ودعا لي بخير.- ثمّ عرج بنا إلى السّماء السّادسة، فاستفتح جبريل عليه السّلام

قيل من هذا؟ قال: جبريل، قيل ومن معك؟ قال محمّد قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه ففتح لنا، فإذا أنا بموسى صلّى الله عليه وسلّم. فرحّب ودعا لي بخير- ثمّ عرج بنا إلى السّماء السّابعة، فاستفتح جبريل فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل ومن معك؟ قال محمّد صلّى الله عليه وسلّم قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم صلّى الله عليه وسلّم، مسندا ظهره إلى البيت المعمور- وإذا هو يدخله كلّ يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه- ثمّ ذهب بي إلى سدرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفيلة- وإذا ثمرها كالقلال قال: فلمّا غشيها من أمر الله ما غشي تغيّرت- فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها- فأوحى الله إليّ ما أوحى- ففرض عليّ خمسين صلاة في كلّ يوم وليلة- فنزلت إلى موسى صلّى الله عليه وسلّم، فقال: ما فرض ربّك على أمّتك؟ قلت: خمسين صلاة: قال: ارجع إلى ربّك فاسأله التّخفيف فإنّ أمّتك لا يطيقون ذلك، فإنّي قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم- قال: فرجعت إلى ربّي فقلت: يا ربّ خفّف على أمّتي. فحطّ عنّي
خمسا، فرجعت إلى موسى فقلت: حطّ عنّي خمسا. قال. إنّ أمّتك لا يطيقون ذلك فارجع إلى ربّك فاسأله التّخفيف- قال: فلم أزل أرجع بين ربّي تبارك وتعالى وبين موسى عليه السّلام حتّى قال: يا محمّد، إنّهنّ خمس صلوات كلّ يوم وليلة- لكلّ صلاة عشر. فذلك خمسون صلاة- ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرا، ومن همّ بسيّئة فلم يعملها لم تكتب شيئا، فإن عملها كتبت سيّئة واحدة- قال: فنزلت حتّى انتهيت إلى موسى صلّى الله عليه وسلّم فأخبرته- فقال: ارجع إلى ربّك فاسأله التّخفيف: فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقلت: قد رجعت إلى ربّي حتّى استحييت منه «٢» .

---

(١) سورة مريم: آية (٥٧) .
(٢) رواه مسلم (١٦٢) في الإيمان: باب الإسراء.
جـ ١(ص: ٥٢٨)

انشقاق القمر:
روى البخاريّ ومسلم وغيرهما عن أنس بن مالك- رضي الله عنه-؛ أنّ أهل مكّة سألوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يريهم آية، فأراهم القمر شقّتين، حتّى رأوا حراء بينهما» «١» .
فكان هذا الانشقاق- كما قال الخطّابيّ- آية عظيمة لا يكاد يعدلها شيء من آيات الأنبياء، وذلك أنّه ظهر في ملكوت السّماء خارجا من جملة طباع ما في هذا العالم المركّب من الطّبائع، فليس ممّا يطمع في الوصول إليه بحيلة، فلذلك صار البرهان به أظهر «٢» .
وقد ذكر الله سبحانه هذه المعجزة في كتابه العزيز، فقال عزّ من قائل: اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ* وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ* وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ* وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنَ الْأَنْباءِ ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ* حِكْمَةٌ بالِغَةٌ فَما تُغْنِ النُّذُرُ «٣» .
ونقل الحافظ ابن كثير الإجماع على أنّ انشقاق القمر قد وقع في زمان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وأنّه كان إحدى المعجزات الباهرات. وإنّ الأحاديث الّتي وردت بذلك متواترة من طرق متعدّدة تفيد القطع.
ومع عظم هذه المعجزة، فإنّ أهل مكّة المعاندين لم يصدّقوا ولم يذعنوا، بل استمرّوا على كفرهم وإعراضهم، وقالوا سحرنا محمّد، فقال بعضهم: لئن كان سحرنا ما يستطيع أن يسحر النّاس كلّهم، فسألوا من قدم عليهم من المسافرين فأخبروهم بنظير ما شاهدوه فعلموا صحّة ذلك وتيقّنوه.
تكثيره الماء ونبعه من بين أصابعه الشّريفة صلّى الله عليه وسلّم:
قال القرطبيّ رحمه الله: قصّة نبع الماء من بين أصابعه صلّى الله عليه وسلّم، تكرّرت منه في عدّة مواطن في مشاهد عظيمة، ووردت من طرق كثيرة، يفيد مجموعها العلم القطعيّ المستفاد من التّواتر المعنويّ ولم يسمع بمثل هذه المعجزة عن غير نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم، حيث نبع الماء من بين عظمه وعصبه ولحمه ودمه» «٤» .
ومن هذه المواطن الّتي حدث بها تكثير الماء ونبعه من بين أصابع نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم:

- ما رواه البخاري ومسلم عن جابر بن عبد الله- رضي الله عنهما-، قال: «عطش النّاس يوم الحديبية والنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بين يديه ركوة «٥» ، فتوضّأ فجهش «٦» النّاس نحوه فقال: «ما لكم؟» قالوا: ليس عندنا ماء نتوضّأ، ولا

(١) رواه البخاري. انظر الفتح ٧ (٣٨٦٨) . ورواه مسلم برقم (٢٨٠٢) .
(٢) انظر فتح الباري (٧/ ٢٢٤) .
(٣) سورة القمر: آية رقم (١- ٥) .
(٤) انظر فتح الباري (٦/ ٦٧٦، ٦٧٧) .
(٥) ركوة: قال ابن الأثير: الركوة إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء والجمع ركاء. انظر النهاية (٢/ ٢٦١) .
(٦) فجهش: قال ابن الأثير: الجهش أن يفزع الإنسان إلى الإنسان، وهو مع ذلك يريد أن يبكي كالصبي يفزع إلى أمه. انظر جامع الأصول (١١/ ٣٤٧) .

نشرب إلّا ما بين يديك فوضع يده في الرّكوة، فجعل الماء يثور بين أصابعه كأمثال العيون. فشربنا وتوضّأنا. قلت:
كم كنتم؟ قال: لو كنّا مائة ألف لكفانا. كنّا خمس عشرة مائة «١» .
- ومنها ما رواه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك- رضي الله عنه-؛ أنّه قال: «رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وحانت صلاة العصر، فالتمس الوضوء فلم يجدوه، فأتي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بوضوء فوضع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يده في ذلك الإناء فأمر النّاس أن يتوضّئوا منه، فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه، فتوضّأ النّاس حتّى توضّأوا من عند آخرهم» «٢» .
- ومن ذلك ما روى مسلم عن جابر بن عبد الله- رضي الله عنهما-؛ في حديث طويل. قال الحافظ ابن حجر: وهذه القصّة أبلغ من جميع ما تقدّم لاشتمالها على قلّة الماء وعلى كثرة من استقى منه «٣» .
وإليك أخي القارىء الشّاهد من هذه القصّة الطّويلة:
قال جابر بن عبد الله- رضي الله عنهما-؛ فأتينا المعسكر، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «يا جابر! ناد بوضوء» فقلت: ألا وضوء؟ ألا وضوء؟ ألا وضوء؟ قال قلت: يا رسول الله! ما وجدت في الرّكب قطرة. وكان رجل من الأنصار يبرد لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم الماء، في أشجاب له «٤» ، على حمارة «٥» من جريد. قال فقال لي: «انطلق إلى فلان ابن فلان الأنصاريّ، فانظر هل في أشجابه من شيء؟» قال: فانطلقت إليه فنظرت فيها فلم أجد فيها إلّا قطرة «٦» في عزلاء «٧» ، لو أنّي أفرغه لشربه يابسه «٨» . فأتيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقلت: يا رسول الله! إنّي لم أجد فيها إلّا قطرة في عزلاء شجب منها، لو أنّي أفرغه لشربه يابسه، قال: اذهب فأتني به» فأتيته به، فأخذه بيده فجعل يتكلّم بشيء لا أدري ما هو. ويغمزه بيديه «٩» . ثمّ أعطانيه فقال: «يا جابر! ناد بجفنة» فقلت: يا جفنة الرّكب «١٠» ! فأتيت بها تحمل. فوضعتها بين يديه. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بيده في الجفنة هكذا. فبسطها وفرّق بين أصابعه. ثمّ وضعها في

(١) رواه البخاري. انظر الفتح ٦ (٣٥٧٦) . ورواه مسلم مختصرا برقم (١٨٥٦) .
(٢) رواه البخاري. انظر الفتح ٦ (٣٥٧٣) . ورواه مسلم برقم (٢٢٧٩) .
(٣) انظر الفتح (٦/ ٦٧٨) .
(٤) في أشجاب له: الأشجاب جمع شجب وهو السقاء الذي أخلق وبلى وصار شنا. يقال: شاجب أي يابس. وهو من الشجب الذي هو الهلاك.
(٥) حمارة: هي أعواد تعلق عليها أسقية الماء.
(٦) إلا قطرة: أي يسيرا.

(٧) عزلاء: هي فم القربة.
(٨) لشربه يابسه: معناه أنه قليل جدا، فلقلته، مع شدة يبس باقي الشجب، وهو السقاء لو أفرغته لاشتفه اليابس منه ولم ينزل منه شيء.
(٩) ويغمزه بيديه: أي يعصره.
(١٠) يا جفنة الركب: أي يا صاحب جفنة الركب. فحذف المضاف للعلم بأنه المراد، وأن الجفنة لا تنادى. ومعناه يا صاحب جفنة الركب التي تشبعهم أحضرها. أي من كان عنده جفنة بهذه الصفة، فليحضرها. انظر فيما سبق شرح النووي على صحيح مسلم (١٨/ ١٤٥، ١٤٦) .
جـ ١(ص: ٥٣٠)

قعر الجفنة. وقال: «خذ يا جابر! فصبّ عليّ. وقل باسم الله» فصببت عليه وقلت: باسم الله. فرأيت الماء يفور من بين أصابع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ فارت الجفنة ودارت حتّى امتلأت. فقال:
«يا جابر ناد من كان له حاجة بماء» قال:
فأتي النّاس فاستقوا حتّى رووا. قال: فقلت: هل بقي أحد له حاجة؟ فرفع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يده من الجفنة وهي ملأى» «١» .
قال المزنيّ- رحمه الله-: نبع الماء من بين أصابعه صلّى الله عليه وسلّم أبلغ في المعجزة من نبع الماء من الحجر حيث ضربه موسى عليه السّلام بالعصا فتفجّرت منه المياه لأنّ خروج الماء من الحجارة معهود، بخلاف خروج الماء من بين اللّحم والدّم. انتهى» .
تكثيره الطّعام والشّراب صلّى الله عليه وسلّم:
فأمّا الطّعام:
فقد وقع ذلك منه صلّى الله عليه وسلّم مرّات عديدة، فمن ذلك ما رواه البخاريّ ومسلم عن قصّة ضيافة أبي طلحة الأنصاريّ- رضي الله عنه-، كما حدّث بها أنس بن مالك- رضي الله عنه-؛ فإنّه قال: قال أبو طلحة لأمّ سليم: قد سمعت صوت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ضعيفا. أعرف فيه الجوع. فهل عندك شيء؟ فقالت: نعم. فأخرجت أقراصا من شعير: ثمّ أخذت خمارا لها. فلفّت الخبز ببعضه، ثمّ دسّته تحت ثوبي. وردّتني «٣» ببعضه. ثمّ أرسلتني إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. قال: فذهبت به فوجدت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم جالسا في المسجد. ومعه النّاس فقمت عليهم. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:
«أرسلك أبو طلحة؟» قال فقلت: نعم. فقال: «ألطعام؟» فقلت: نعم، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لمن معه: «قوموا» قال:
فانطلق وانطلقت بين أيديهم. حتّى جئت أبا طلحة، فأخبرته. فقال أبو طلحة: يا أمّ سليم قد جاء رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالنّاس. وليس عندنا ما نطعمهم. فقالت: الله ورسوله أعلم. قال: فانطلق أبو طلحة حتّى لقي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.
فأقبل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم معه حتّى دخلا. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «هلمّي ما عندك يا أمّ سليم» «فأتت بذلك الخبز. فأمر به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ففتّ. وعصرت عليه أمّ سليم عكّة «٤» لها فأدمته «٥» . ثمّ قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ما شاء الله أن يقول.
ثمّ قال: «ائذن لعشرة «٦» » فأذن لهم فأكلوا حتّى شبعوا ثمّ خرجوا. ثمّ قال: «ائذن لعشرة» فأذن لهم فأكلوا حتّى

(١) رواه مسلم برقم (٣٠١٣) .
(٢) نقله عنه ابن عبد البر. انظر فتح الباري (٦/ ٦٧٧) .
(٣) وردتني: أي جعلت بعضه رداء على رأسي.
(٤) عكة: بضم العين وتشديد الكاف هي وعاء صغير من جلد للسمن خاصة.
(٥) فأدمته: هو بالمد والقصر، لغتان، آدمته وأدمته. أي جعلت فيه إداما.

(٦) ائذن لعشرة: إنما أذن لعشرة عشرة ليكون أرفق بهم. فإن القصعة التي فت فيها تلك الأقراص لا يتحلق عليها أكثر من عشرة إلا بضرر يلحقهم، لبعدها عنهم. انظر فيما سبق شرح النووي على صحيح مسلم (١٣/ ٢١٩- ٢٢٠) .
جـ ١(ص: ٥٣١)

شبعوا ثمّ خرجوا. ثمّ قال: «ائذن لعشرة» حتّى أكل القوم كلّهم وشبعوا. والقوم سبعون رجلا أو ثمانون» «١» .
- قصّة جابر بن عبد الله- رضي الله عنهما- في غزوة الخندق:
ومن تكثيره الطّعام صلّى الله عليه وسلّم أيضا، ما وقع مع جابر بن عبد الله- رضي الله عنهما- في الخندق حيث يقول جابر:
«لمّا حفر الخندق رأيت برسول الله صلّى الله عليه وسلّم خمصا «٢» . فانكفأت «٣» إلى امرأتي. فقلت لها: هل عندك شيء؟ فإنّي رأيت برسول الله صلّى الله عليه وسلّم خمصا شديدا. فأخرجت لي جرابا «٤» فيه صاع من شعير. ولنا بهيمة «٥» داجن «٦» قال: فذبحتها وطحنت. ففرغت إلى فراغي. فقطّعتها في برمتها. ثمّ ولّيت إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقالت: لا تفضحني برسول الله صلّى الله عليه وسلّم ومن معه. قال: فجئته فساررته. فقلت: يا رسول الله! إنّا قد ذبحنا بهيمة لنا. وطحنت صاعا من شعير كان عندنا.
فتعال أنت في نفر معك. فصاح رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقال: «يا أهل الخندق! إنّ جابرا قد صنع لكم سورا «٧» فحيهلا «٨» بكم «وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لا تنزلنّ برمتكم ولا تخبزنّ عجينتكم، حتّى أجيء» فجئت وجاء رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقدم النّاس. حتّى جئت امرأتي. فقالت: بك. وبك «٩» . فقلت: قد فعلت الّذي قلت لي «١٠» . فأخرجت له عجينتنا فبصق فيها وبارك. ثمّ عمد إلى برمتنا فبصق فيها وبارك. ثمّ قال: «ادعي خابزة فلتخبز معك، واقدحي من برمتكم «١١» ولا تنزلوها» وهم ألف. فأقسم بالله! لأكلوا حتّى تركوه وانحرفوا «١٢» . وإنّ برمتنا لتغطّ «١٣» كما هي.
وإنّ عجينتنا- أو كما قال الضّحّاك- لتخبز كما هو «١٤» » «١٥» .

---

(١) رواه البخاري. انظر الفتح ٦ (٣٥٧٨) . ورواه مسلم- واللفظ له- برقم (٢٠٤٠) .
(٢) خمصا: الخمص خلاء البطن من الطعام.
(٣) فانكفأت: أي انقلبت ورجعت.
(٤) جرابا: هو وعاء من جلد معروف. بكسر الجيم وفتحها. والكسر أشهر.
(٥) بهيمة: تصغير بهمة. وهي الصغيرة من أولاد الضأن. قال الجوهري: وتطلق على الذكر والأنثى كالشاة والسخلة الصغيرة من أولاد المعز.
(٦) داجن: الداجن ما ألف البيوت.
(٧) سورا: بضم السين وإسكان الواو، غير مهموز، هو الطعام الذي يدعى إليه. وقيل الطعام مطلقا. وهي لفظة فارسية.
(٨) فحيهلا: بتنوين هلا، وقيل: بلا تنوين، على وزن علا. ومعنى حيهل، عليك بكذا، أو ادع بكذا، هكذا قاله أبو عبيد وغيره. وقيل: معناه اعجل به. وقال الهروي: معناه هات وعجل به.
(٩) بك وبك: أي ذمته ودعت عليه. وقيل: معناه بك تلحق الفضيحة وبك يتعلق الذم وقيل: معناه جرى هذا برأيك وسوء نظرك وتسبيبك.
(١٠) قد فعلت الذي قلت لي: معناه أني أخبرت النبي صلّى الله عليه وسلّم بما عندنا، فهو أعلم بالمصلحة.
(١١) واقدحي من برمتكم: أي اغرفي. والمقدح المغرفة- يقال: قد قدحت المرق أقدحه، غرفته.
(١٢) تركوه وانحرفوا: أي شبعوا وانصرفوا.

(١٣) لتغط: أي تغلي ويسمع غليانها.
(١٤) كما هو: يعود إلى العجين. انظر فيما سبق شرح النووي على صحيح مسلم (١٣/ ٢١٥- ٢١٧)
.
(١٥) رواه البخاري. انظر الفتح ٧ (٤١٠٢) . ورواه مسلم- واللفظ له- برقم (٢٠٣٩) .
جـ ١(ص: ٥٣٢)

وأمّا الشّراب:
فنأخذ على ذلك مثالا واحدا وهو اللّبن:
فمن أدلّة تكثيره صلّى الله عليه وسلّم اللّبن ما أخرجه البخاريّ وغيره عن أبي هريرة- رضي الله عنه-؛
أنّه كان يقول: الله الّذي لا إله إلّا هو، إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشدّ
الحجر على بطني من الجوع.
ولقد قعدت يوما على طريقهم الّذي يخرجون منه، فمرّ أبو بكر فسألته عن آية في كتاب الله، ما سألته
إلّا ليشبعني.
فمرّ ولم يفعل. ثمّ مرّ بي عمر فسألته عن آية في كتاب الله، ما سألته إلّا ليشبعني. فمرّ فلم يفعل، ثمّ مرّ
بي أبو القاسم صلّى الله عليه وسلّم فتبسّم حين رآني وعرف ما في نفسي وما في وجهي، ثمّ قال: «يا
أبا هرّ» قلت: لبّيك رسول الله، قال:
«الحق» ومضى. فتبعته فدخل فاستأذن فأذن له، فدخل فوجد لبنا في قدح فقال: «من أين هذا اللّبن؟»
قالوا:
أهداه لك فلان- أو فلانة- قال: «يا أبا هرّ» قلت: لبّيك يا رسول الله، قال: «الحق إلى أهل الصّفّة
فادعهم لي» قال: وأهل الصّفّة أضياف الإسلام، لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد، إذا أتته
صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئا، وإذا أتته هديّة أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها،
فساءني ذلك، فقلت: وما هذا اللّبن في أهل الصّفّة كنت أحقّ أن أصيب من هذا اللّبن شربة أتقوّى بها،
ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله صلّى الله عليه وسلّم بدّ فأتيتهم فدعوتهم، فأقبلوا فاستأذنوا فأذن
لهم وأخذوا مجالسهم من البيت. قال: «يا أبا هرّ» قلت: لبّيك يا رسول الله، قال: «خذ فأعطهم» ،
فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرّجل فيشرب حتّى يروى، ثمّ يردّ عليّ القدح فأعطيه الرّجل فيشرب حتّى
يروى، ثمّ يردّ القدح، فأعطيه الرّجل فيشرب حتّى يروى، ثمّ يردّ عليّ القدح، فأعطيه الرّجل فيشرب
حتّى يروى، ثمّ يردّ عليّ القدح حتّى انتهيت إلى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وقد روي القوم كلّهم، فأخذ
القدح فوضعه على يده، فنظر إليّ فتبسّم فقال: «يا أبا هرّ» ، قلت: لبّيك يا رسول الله. قال: «بقيت أنا
وأنت» قلت: صدقت يا رسول الله، قال: «اقعد فاشرب» . فقعدت فشربت، فقال: «اشرب» ، فشربت،
فما زال يقول: «اشرب» ، حتّى قلت: لا والّذي بعثك بالحقّ، ما أجد له مسلكا. قال: «فأرني» ،
فأعطيته القدح، فحمد الله وسمّى وشرب الفضلة «١» .

(١) انظر البخاري- لفتح ١١ (٦٤٥٢) .
جـ ١(ص: ٥٣٣)

دلائل نبوّته صلّى الله عليه وسلّم فيما يتعلّق ببعض الحيوانات:
قصّة البعير وسجوده وشكواه لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم:
- عن أنس بن مالك- رضي الله عنه-؛ قال: «كان أهل بيت من الأنصار لهم جمل يسنون عليه وأنّه
استصعب عليهم فمنعهم ظهره وأنّ الأنصار جاءوا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقالوا: إنّه كان
لنا جمل نسني «١» عليه وأنّه استصعب علينا ومنعنا ظهره، وقد عطش الزّرع والنّخل، فقال رسول
الله صلّى الله عليه وسلّم لأصحابه: «قوموا» ، فقاموا فدخل الحائط والجمل في ناحيته، فمشى النّبيّ
صلّى الله عليه وسلّم نحوه، فقالت الأنصار: يا رسول الله إنّه قد صار مثل الكلب وإنّا نخاف عليك

صولته، فقال: «ليس عليّ منه بأس» ، فلمّا نظر الجمل إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أقبل نحوه حتّى خرّ ساجدا بين يديه، فأخذ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بناصيته أذلّ ما كانت قطّ، حتّى أدخله في العمل، فقال له أصحابه: يا رسول الله هذه البهيمة لا تعقل تسجد لك، ونحن أحقّ أن نسجد لك، فقال: «لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر، ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقّه عليها، والّذي نفس محمّد بيده لو كان من قدمه إلى مفرق رأسه قرحة تتفجّر بالقيح والصّديد ثمّ استقبلته فلحسته ما أدّت حقّه» «٢» .

- وعن عبد الله بن جعفر- رضي الله عنهما-؛ قال: «أردفني رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ذات يوم خلفه فأسرّ إليّ حديثا لا أخبر به أحدا أبدا وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أحبّ ما استتر به في حاجته هدف أو حائش «٣» نخل فدخل يوما حائطا من حيطان الأنصار فإذا جمل قد أتاه فجرجر «٤» وذرفت عيناه. قال بهز وعفّان: فلمّا رأى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم حنّ وذرفت عيناه فمسح رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سراته «٥» وذفراه «٦» سكن فقال: «من صاحب الجمل» ، فجاء فتى من الأنصار فقال: هو لي يا رسول الله، فقال: «أما تتّقي الله في هذه البهيمة الّتي ملّككها الله، إنّه شكا إليّ أنّك تجيعه وتدئبه «٧» .

---

(١) نسني عليه: نستقي عليه- انظر النهاية (٢/ ٤١٥) .

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ١٥٨، ١٥٩) . قال ابن كثير: وهذا إسناد جيد وقد روى النسائي بعضه. انظر البداية والنهاية (٦/ ١٤٢) .

(٣) الحائش: جماعة النخل، لا مفرد له.

(٤) جرجر: ردد صوته في حنجرته.

(٥) السراة: الظهر وقيل السنام.

(٦) الذفرى: العظم الشاخص خلف الأذن. وذفرى البعير أصل أذنه وقيل الذفرى الموضع الذي يعرق من البعير خلف الأذن. انظر النهاية (٢/ ١٦١) ، ولسان العرب (٤/ ٣٠٧) .

(٧) رواه أبو داود برقم (٢٥٤٩) . ورواه الإمام أحمد في المسند (١/ ٢٠٤، ٢٠٥) . والحاكم في المستدرك (٢/ ٩٩، ١٠٠) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. والحديث أصله في مسلم بالإسناد نفسه دون قصة الجمل برقم (٣٤٢) .

إخبار الذّئب بنبوّته صلّى الله عليه وسلّم:

- عن أبي سعيد الخدريّ- رضي الله عنه-؛ قال: عدا الذّئب على شاة فأخذها فطلبه الرّاعي فانتزعها منه، فأقعى الذّئب على ذنبه فقال: ألا تتّقي الله؟ تنزع منّي رزقا ساقه الله إليّ؟ فقال: يا عجبي ذئب يقعي على ذنبه يكلّمني كلام الإنس! فقال الذّئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك؟ محمّد صلّى الله عليه وسلّم بيثرب يخبر النّاس بأنباء ما قد سبق.

قال: فأقبل الرّاعي يسوق غنمه حتّى دخل المدينة فزواها إلى زاوية من زواياها، ثمّ أتى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأخبره، فأمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فنودي: الصّلاة جامعة.

ثمّ خرج فقال للرّاعي: «أخبرهم» . فأخبرهم. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «صدق، والّذي نفس محمّد بيده لا تقوم السّاعة حتّى يكلّم السّباع الإنس، ويكلّم الرّجل عذبة سوطه، وشراك نعله، ويخبره فخذه بما أحدث أهله بعده. «١»

- وفي رواية من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- عند ما كلّم الذّئب راعي الغنم فقال الرّجل: تالله إن رأيت كاليوم ذئبا يتكلّم. فقال الذّئب: أعجب من هذا رجل في النّخلات بين الحرّتين «٢» يخبركم بما مضى وما هو كائن بعدكم. وكان الرّجل يهوديّا، فجاء النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فأسلم وخبّره فصدّقه النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم «٣» .

معجزاته صلّى الله عليه وسلّم في أنواع الجمادات:

حنين الجذع شوقا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وشفقا من فراقه:
وقد ورد ذلك- كما قال الحافظ ابن كثير- من حديث جماعة من الصّحابة بطرق متعدّدة تفيد القطع عند أئمّة الشّأن وفرسان هذا الميدان «٤» .
ومن ذلك ما رواه البخاريّ عن جابر بن عبد الله- رضي الله عنهما-: «أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة، فقالت امرأة من الأنصار- أو رجل-: يا رسول الله، ألا نجعل لك منبرا؟ قال: «إن شئتم» .
فجعلوا له منبرا. فلمّا كان يوم الجمعة دفع إلى المنبر، فصاحت النّخلة صياح الصّبيّ، ثمّ نزل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فضمّه إليه،

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٣/ ٨٨) ، وابن سعد في الطبقات (١/ ١٧٣) والحاكم في المستدرك (٤/ ٤٦٧، ٤٦٨) وقال: هذا حديث حسن صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
والبيهقي في دلائل النبوة وصححه (٦/ ٤١، ٤٢) وقال ابن كثير: إسناده على شرط الصحيح. انظر البداية والنهاية (٦/ ١٥٠) .
(٢) أي المدينة المنورة.
(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ٣٠٦) ، قال ابن كثير: تفرد به أحمد وهو على شرط السنن ولم يخرجوه. انظر البداية والنهاية (٦/ ١٥١) . وقال الهيثمي: رجاله ثقات. انظر مجمع الزوائد (٨/ ٢٩٢) . وقال السيوطي: سنده صحيح. انظر الخصائص (٢/ ١٠٣) .
(٤) انظر البداية والنهاية (٦/ ١٣١) .

يئنّ أنين الصّبيّ الّذي يسكن. قال: كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذّكر عندها» » .
وفي رواية أخرى عن جابر- رضي الله عنه-؛ قال: «كان المسجد مسقوفا على جذوع من نخل، فكان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلمّا صنع له المنبر فكان عليه فسمعنا لذلك الجذع صوتا كصوت العشار «٢» ، حتّى جاء النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فوضع يده عليها، فسكنت» «٣» .
وفي رواية من حديث ابن عبّاس- رضي الله عنهما- قال صلّى الله عليه وسلّم: « ... ولو لم أحتضنه لحنّ إلى يوم القيامة» «٤» .
وكان الحسن البصريّ رحمه الله، إذا حدّث بحديث حنين الجذع يقول: يا معشر المسلمين الخشبة تحنّ إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم شوقا إلى لقائه فأنتم أحقّ أن تشتاقوا إليه» «٥» .
ونقل ابن أبي حاتم في «مناقب الشّافعيّ عن أبيه عن عمرو بن سواد عن الشّافعيّ قال: ما أعطى الله نبيّا ما أعطى محمّدا، فقلت: أعطى عيسى إحياء الموتى، قال: أعطى محمّدا حنين الجذع حتّى سمع صوته، فهذا أكبر من ذلك «٦» .
انقياد الشّجر لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم:
ومن معجزاته وأعلام نبوّته صلّى الله عليه وسلّم انقياد الشّجر بين يديه في مرّات عدّة:
- فعن جابر بن عبد الله- رضي الله عنهما-؛ قال: سرنا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتّى نزلنا واديا أفيح «٧» . فذهب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقضي حاجته. فاتّبعته بإداوة من ماء. فنظر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فلم ير شيئا يستتر به. فإذا شجرتان بشاطيء الوادي «٨» . فانطلق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى إحداهما فأخذ بغصن من أغصانها. فقال: «انقادي عليّ بإذن الله» فانقادت معه كالبعير المخشوش «٩» ، الّذي يصانع قائده. حتّى أتى الشّجرة الأخرى فأخذ بغصن من أغصانها.

---

(١) رواه البخاري. انظر الفتح ٦ (٣٥٨٤) .

(٢) العشار: جمع عشراء، وهي الناقة التي أتى عليها عشرة أشهر من حملها. انظر جامع الأصول (١١/ ٣٣٣).
(٣) رواه البخاري. انظر الفتح ٦ (٣٥٨٥).
(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٢٤٩). وابن ماجة برقم (١٤١٥)، قال الحافظ ابن كثير: وهذا الإسناد على شرط مسلم. انظر البداية والنهاية (٦/ ١٣٥)، وقال البوصيري في الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات. انظر سنن ابن ماجه (١/ ٤٥٥).
(٥) انظر فتح الباري (٦/ ٦٩٧).
(٦) أورده ابن حجر في الفتح (٦/ ٦٩٨).
(٧) واديا أفيح: أي واسعا.
(٨) بشاطيء الوادي: أي جانبه.
(٩) كالبعير المخشوش: هو الذي يجعل في أنفه خشاش، وهو عود يجعل في أنف البعير إذا كان صعبا، ويشد فيه حبل ليذل وينقاد. وقد يتمانع لصعوبته، فإذا اشتد عليه وآلمه انقاد شيئا. ولهذا قال: الذي يصانع قائده.

فقال: «انقادي عليّ بإذن الله» فانقادت معه كذلك. حتّى إذا كان بالمنصف «١» ممّا بينهما، لأم «٢» بينهما (يعني جمعهما) فقال: «التئما عليّ بإذن الله» فالتأمتا. قال جابر: فخرجت أحضر «٣» مخافة أن يحسّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بقربي فيبتعد، فجلست أحدّث نفسي. فحانت منّي لفتة «٤»، فإذا أنا برسول الله صلّى الله عليه وسلّم مقبلا. وإذا الشّجرتان قد افترقتا.
فقامت كلّ واحدة منهما على ساق. فرأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقف وقفة. فقال برأسه هكذا؟ وأشار أبو إسماعيل برأسه يمينا وشمالا ثمّ أقبل. فلمّا انتهى إليّ قال: «يا جابر هل رأيت مقامي؟» قلت: نعم يا رسول الله. قال:
«فانطلق إلى الشّجرتين فاقطع من كلّ واحدة منهما غصنا. فأقبل بهما. حتّى إذا قمت مقامي فأرسل غصنا عن يمينك وغصنا عن يسارك» قال جابر: فقمت فأخذت حجرا فكسرته وحسرته «٥». فانذلق «٦» لي. فأتيت الشّجرتين فقطعت من كلّ واحدة منهما غصنا. ثمّ أقبلت أجرّهما حتّى قمت مقام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. أرسلت غصنا عن يميني وغصنا عن يساري. ثمّ لحقته فقلت: قد فعلت، يا رسول الله! فعمّ ذاك؟ قال: «إنّي مررت بقبرين يعذّبان.
فأحببت، بشفاعتي، أن يرفّه عنهما «٧»، ما دام الغصنان رطبين» «٨». «٩».
- وعن عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما-؛ قال: كنّا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في سفر، فأقبل أعرابيّ، فلمّا دنا منه قال له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: أين تريد؟» قال: إلى أهلي، قال: «هل لك في خير؟» قال: وما هو؟ قال: «تشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمّدا عبده ورسوله»، قال: ومن يشهد على ما تقول؟ قال: «هذه السّلمة «١٠»، فدعاها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهي بشاطيء الوادي. فأقبلت تخدّ «١١» الأرض خدّا حتّى قامت بين يديه، فأشهدها ثلاثا فشهدت ثلاثا أنّه كما قال، ثمّ رجعت إلى منبتها، ورجع الأعرابيّ إلى قومه، وقال: إن اتّبعوني آتك بهم، وإلّا رجعت فكنت معك» «١٢».

(١) بالمنصف: هو نصف المسافة.
(٢) لأم: روي بهمزة مقصورة: لأم وممدودة: لاءم. وكلاهما صحيح. أي جمع بينهما.
(٣) فخرجت أحضر: أي أعدو وأسعى سعيا شديدا.
(٤) فحانت مني لفتة: اللفتة النظرة إلى جنب.
(٥) وحسرته: أي أحددته ونحيت عنه ما يمنع حدته بحيث صار مما يمكن قطع الأغصان به.
(٦) فانذلق: أي صار حادا.

(٧) أن يرفه عنهما: أي يخفف.
(٨) رواه مسلم برقم (٣٠١٢) .
(٩) انظر فيما سبق شرح النووي على صحيح مسلم (١٨/ ١٤٣- ١٤٥) .
(١٠) السلمة: شجرة من أشجار البادية.
(١١) تخد: تشق.
(١٢) رواه الدرامي في المقدمة برقم (١٦) ، قال الحافظ ابن كثير: إسناده جيد. انظر البداية والنهاية (٦/ ١٣١) .

تسليم الحجر عليه صلّى الله عليه وسلّم:
- روى مسلم في صحيحه، عن جابر بن سمرة- رضي الله عنهما-؛ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّي لأعرف حجرا بمكّة كان يسلّم عليّ قبل أن أبعث. إنّي لأعرفه الآن» «١» .
قال الإمام النّوويّ معلّقا على هذا الحديث: فيه معجزة له صلّى الله عليه وسلّم وفي هذا إثبات التّمييز في بعض الجمادات وهو موافق لقوله تعالى في الحجارة: وَإِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ «٢»
وقوله تعالى: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ «٣» . «٤» .
تسبيح الطّعام بحضرته صلّى الله عليه وسلّم:
أخرج البخاريّ في صحيحه عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه-؛ قال: كنّا نعدّ الآيات بركة، وأنتم تعدّونها تخويفا، كنّا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في سفر فقلّ الماء، فقال: «اطلبوا فضلة من ماء» فجاءوا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل يده في الإناء ثمّ قال: «حيّ على الطّهور المبارك، والبركة من الله» فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ولقد كنّا نسمع تسبيح الطّعام وهو يؤكل» «٥» .
عصمته صلّى الله عليه وسلّم من النّاس:
لقي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من أعدائه كثير الأذى وعظيم الشّدّة منذ أن جهر بدعوته، ولكنّ الله تبارك وتعالى حفظه ونصره وعصمه من النّاس.
يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ «٦»
وقد كان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يحرس قبل نزول هذه الآية من قبل بعض أصحابه فلمّا نزلت عليه قال: «يا أيّها النّاس انصرفوا عنّي فقد عصمني الله عزّ وجلّ» «٧» .
ومن عصمة الله لرسوله صلّى الله عليه وسلّم حفظه له من أهل مكّة وصناديدها وحسّادها ومعانديها ومترفيها مع شدّة العداوة والبغضة ونصب المحاربة له ليلا ونهارا بما يخلقه الله من الأسباب العظيمة بقدرته وحكمته فصانه في ابتداء دعوته بعمّه أبي طالب إذ كان رئيسا مطاعا في قريش وجعل الله في قلبه محبّة طبيعيّة لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم لا شرعيّة، ولو

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٢٧٧) .
(٢) سورة البقرة: آية رقم (٧٤) .
(٣) سورة الإسراء: آية رقم (٤٤) .
(٤) انظر شرح النووي على مسلم (١٥/ ٣٦، ٣٧) .
(٥) انظر فتح الباري ٦ (٣٥٧٩) .
(٦) سورة المائدة: آية رقم (٦٧) .
(٧) رواه الترمذي برقم (٣٠٤٦) ، والحاكم في المستدرك: (٢/ ٣١٣) وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وقال محقق «جامع الأصول» (٢/ ١١٩) : وحسّنه الحافظ ابن حجر في «الفتح» .

كان أسلم لاجترأ عليه كفّارها وكبارها ولكن لمّا كان بينه وبينهم قدر مشترك في الكفر هابوه واحترموه فلمّا مات عمّه أبو طالب نال منه المشركون أذى يسيرا ثمّ قيّض الله له الأنصار فبايعوه على الإسلام وعلى أن يتحوّل إلى دارهم وهي المدينة فلمّا صار إليها منعوه من الأحمر والأسود وكلّما همّ أحد من المشركين وأهل الكتاب والمنافقين بسوء كاده الله وردّ كيده عليه «١» .

والأمثلة على عصمة الله لرسوله صلّى الله عليه وسلّم وكفّ الأعداء عنه كثيرة نكتفي بذكر نماذج منها:

- فعن أبي هريرة- رضي الله عنه-؛ قال: «قال أبو جهل: هل يعفّر محمّد وجهه «٢» بين أظهركم؟ قال فقيل:

نعم. فقال: واللّات والعزّى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأنّ على رقبته. أو لأعفّرنّ وجهه في التّراب. قال فأتى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو يصلّي. زعم ليطأ على رقبته. قال فما فجئهم «٣» منه إلّا وهو ينكص على عقبيه «٤» ويتّقي بيديه. قال فقيل له: مالك؟ فقال: إنّ بيني وبينه لخندقا من نار وهولا وأجنحة.

فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لو دنا منّي لاختطفته الملائكة عضوا عضوا» » .

- وعن أبي بكر الصّدّيق- رضي الله عنه- في قصّة الهجرة النّبويّة قال: «فارتحلنا بعد ما مالت الشّمس، واتّبعنا سراقة بن مالك، فقلت: أتينا يا رسول الله، فقال: لا تحزن، إنّ الله معنا. فدعا عليه النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فارتطمت به فرسه إلى بطنها فقال: إنّي أراكما قد دعوتما عليّ، فادعوا لي، فالله لكما أن أردّ عنكما الطّلب. فدعا له النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فنجا، فجعل لا يلقى أحدا إلّا قال: كفيتكم ما هنا، فلا يلقى أحدا إلّا ردّه، قال: ووفّى لنا» «٦» .

- وعن سلمة بن الأكوع- رضي الله عنه-؛ قال: غزونا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حنينا ... فولّى صحابة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ... فلمّا غشوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم «٧» نزل عن البغلة، ثمّ قبض قبضة من تراب من الأرض، ثمّ استقبل به وجوههم، فقال: شاهت الوجوه «٨» » فما خلق الله منهم إنسانا إلّا ملأ عينيه ترابا. بتلك القبضة. فولّوا مدبرين.

فهزمهم الله عزّ وجلّ. وقسم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم غنائمهم بين المسلمين» «٩» .

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٨١، ٨٢) .

(٢) هل يعفر محمد وجهه: أي يسجد ويلصق وجهه بالعفر، وهو التراب.

(٣) فجئهم: بكسر الجيم، ويقال أيضا فجأهم، بفتحها. لغتان. أي بغتهم.

(٤) ينكص على عقبيه: أي رجع يمشي إلى ورائه. قال ابن فارس: النكوص الإحجام عن الشيء.

(٥) رواه البخاري مختصرا- انظر: الفتح ٨ (٤٩٥٨) ورواه مسلم واللفظ له برقم (٢٧٩٧) .

(٦) رواه البخاري مطولا- انظر: الفتح ٦ (٣٦١٥) ومسلم برقم (٢٠٠٩) .

(٧) فلما غشوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: أي أتوه من كل جانب.

(٨) شاهت الوجوه: أي قبحت.

(٩) رواه مسلم برقم (١٧٧٧) .

- وعن جابر بن عبد الله- رضي الله عنهما-؛ قال: غزونا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم غزوة قبل «١» نجد. فأدركنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في واد كثير العضاه «٢» . فنزل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تحت شجرة. فعلّق سيفه بغصن من أغصانها. قال:

وتفرّق النّاس في الوادي يستظلّون بالشّجر. قال: فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ رجلا أتاني وأنا نائم، فأخذ السّيف فاستيقظت وهو قائم على رأسي، فلم أشعر إلّا والسّيف صلتا «٣» في يده. فقال لي: من يمنعك منّي؟ قال: قلت:

الله. ثمّ قال في الثّانية من يمنعك منّي؟ قال قلت: الله. قال فشام السّيف «٤» فها هو ذا جالس. ثمّ لم يعرض له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم «٥» .

إجابة دعائه صلوات الله وسلامه عليه:

كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، كما وصفه ربّه عزّ وجلّ: بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ «٦» فكان ينظر إلى أصحابه نظرة الرّحمة والشّفقة فكلّما ألمّ بأصحابه مكروه من عاهة أو مرض أو تفكير في أمر يشغل بالهم أسرع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالدّعاء لهم للتّخفيف عنهم ولكي ينالوا بركة دعوته صلّى الله عليه وسلّم فيحصل لهم ما يريدون من دفع شرّ وجلب خير دنيويّ أو أخرويّ أو هما معا. أمّا بالنّسبة للكفّار والمشركين والمعاندين فقد كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يدعو عليهم حيث تشتدّ شوكتهم ويكثر أذاهم وتارة كان يدعو لهم حيث تؤمن غائلتهم ويرجى تآلفهم.

وإذا دعا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لأناس أو دعا عليهم فإنّك تجد ما دعا به قد تحقّق قطعا. وكثرة الحوادث في هذا الباب تجعل الإنسان على يقين كامل أنّ محمّدا رسول الله وأنّ الله تعالى يؤيّده ويسدّده ويستجيب دعاءه. وإجابة دعوة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لجماعة بما دعا لهم أو عليهم متواتر على الجملة معلوم بالضّرورة «٧» .

ولرسول الله صلّى الله عليه وسلّم من الدّعوات المستجابات ما لا يحصى كثرة ممّا حفلت به مصنّفات الحديث ومدوّنات السّيرة.

وهذه نخبة مختارة من هذه الدّعوات على سبيل الإشارة:

---

(١) قبل نجد: أي ناحية نجد. في غزوته الى غطفان. وهي غزوته ذي أمر، موضع من ديار غطفان.

(٢) العضاه: هي كل شجرة ذات شوك.

(٣) صلتا: بفتح الصاد وضمها. أي مسلولا.

(٤) فشام السيف: معناه غمده ورده في غمده.

(٥) رواه البخاري. انظر الفتح ٦ (٢٩١٠) ومسلم برقم (٨٤٣) .

(٦) سورة التوبة: آية (١٢٨) .

(٧) انظر "الشفا" للقاضي عياض (١/ ٦٢٥) .

- سرعة الإجابة:

- فعن أنس بن مالك- رضي الله عنه-: أنّ رجلا دخل المسجد يوم جمعة ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم قائم يخطب، فاستقبل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قائما ثمّ قال: يا رسول الله، هلكت الأموال «١» وانقطعت السّبل «٢» . فادع الله يغيثنا. قال:

فرفع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يديه. ثمّ قال: «اللهمّ أغثنا «٣» . اللهمّ أغثنا اللهمّ أغثنا» . قال أنس: ولا والله ما نرى في السّماء من سحاب ولا قزعة «٤» . وما بيننا وبين سلع «٥» من بيت ولا دار. قال فطلعت من ورائه سحابة مثل التّرس «٦» فلمّا توسّطت السّماء انتشرت. ثمّ أمطرت. قال: فلا والله ما رأينا الشّمس سبتا. قال: ثمّ دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة. ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم قائم يخطب. فاستقبله قائما. فقال: يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السّبل. فادع الله يمسكها عنّا. قال: فرفع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يديه. ثمّ قال: «اللهمّ حولنا ولا علينا. اللهمّ على الآكام «٧» ، والظّراب «٨» ومنابت الشّجر» فانقلعت. وخرجنا نمشي في الشّمس» «٩»

.

وفي رواية قال أنس بن مالك- رضي الله عنه-؛ أصابت النّاس سنة على عهد النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فبينا النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يخطب في يوم جمعة إذ قام أعرابيّ فقال: يا رسول الله، هلك المال، وجاع العيال، فادع الله لنا، فرفع يديه وما نرى في السّماء قزعة فو الّذي نفسي بيده ما وضعها

حتّى ثار السّحاب أمثال الجبال، ثمّ لم ينزل عن منبره حتّى رأيت المطر يتحادر على لحيته صلّى الله عليه وسلّم. فمطرنا يومنا ذلك، ومن الغد، وبعد الغد، والّذي يليه حتّى الجمعة الأخرى.
وقام ذلك الأعرابيّ أو قال غيره فقال: يا رسول الله، وغرق المال، فادع الله لنا. فرفع يديه فقال: اللهمّ حوالينا ولا علينا. فما يشير بيده إلى ناحية من السّحاب إلّا انفرجت، وصارت المدينة مثل الجوبة «١٠» . وسال الوادي قناة شهرا، ولم يجيء أحد من ناحية إلّا حدّث بالجود «١١» . «١٢» .

---

(١) هلكت الأموال: المراد بالأموال هنا المواشي خصوصا الابل وهلاكها من قلة الأقوات بسبب عدم المطر والنبات.
(٢) وانقطعت السبل: جمع سبيل وهي الطريق والمعني: انقطعت الطرق فلم تسلكها الإبل إما لخوف الهلاك أو الضعف بسبب قلة الكلأ أو عدمه.
(٣) أغثنا: الإغاثة: الإعانة والمراد به: إعانتهم بإنزال المطر.
(٤) قزعة: بالتحريك هي القطعة من الغيم والجمع قزع.
(٥) سلع: جبل قرب المدينة.
(٦) مثل الترس: الترس هو ما يتقي به السيف ووجه الشبه الاستدارة والكثافة لا القدر.
(٧) الآكام: جمع أكمة وهي الرابية المرتفعة من الأرض.
(٨) الظراب: جمع ظرب، وهي صغار الجبال والتلال.
(٩) رواه البخاري- انظر الفتح: ٢ (١٠١٣) . ومسلم واللفظ له برقم (٨٩٧) .
(١٠) الجوبة: الموضع المنخفض من الأرض.
(١١) بالجود: الجود بفتح الجيم هو المطر الغزيز.
(١٢) رواه البخاري- انظر الفتح ٢ (٩٣٣) .

يمهل ولا يهمل:
«فعن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه-؛ قال: بينما رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يصلّي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، وقد نحرت جزور «١» بالأمس. فقال أبو جهل: أيّكم يقوم إلى سلا «٢» جزور بني فلان فيأخذه، فيضعه في كتفي محمّد إذا سجد؟ فانبعث أشقى القوم «٣» فأخذه. فلمّا سجد النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وضعه بين كتفيه.
قال: فاستضحكوا «٤» . وجعل بعضهم يميل على بعض. وأنا قائم أنظر. لو كانت لي منعة «٥» طرحته عن ظهر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. والنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ساجد، ما يرفع رأسه. حتّى انطلق إنسان فأخبر فاطمة. فجاءت، وهي جويرية «٦» ، فطرحته عنه. ثمّ أقبلت عليهم تشتمهم «٧» . فلمّا قضى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم صلاته رفع صوته ثمّ دعا عليهم. وكان إذا دعا، دعا ثلاثا. وإذا سأل، سأل «٨» ثلاثا. ثمّ قال: «اللهمّ عليك بقريش» ثلاث مرّات. فلمّا سمعوا صوته ذهب عنهم الضّحك. وخافوا دعوته. ثمّ قال: «اللهمّ عليك بأبي جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عقبة»
، وأميّة بن خلف، وعقبة بن أبي معيط (وذكر السّابع ولم أحفظه) فو الّذي بعث محمّدا صلّى الله عليه وسلّم بالحقّ لقد رأيت الّذين سمّى صرعى يوم بدر. ثمّ سحبوا إلى القليب، قليب بدر «١٠» . قال أبو إسحاق: الوليد بن عقبة غلط في هذا الحديث» «١١» .
دعوة وهداية:
عن أبي هريرة- رضي الله عنه-؛ قال: كنت أدعو أمّي إلى الإسلام وهي مشركة، فدعوتها يوما فأسمعتني في رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ما أكره. فأتيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأنا أبكي. قلت: يا رسول الله إنّي كنت أدعو أمّي إلى الإسلام فتأبى

---

(١) جزور: أي ناقة.
(٢) سلا: هو اللفافة التي يكون فيها الولد في بطن الناقة وسائر الحيوان. وهي من الآدمية المشيمة.
(٣) فانبعث أشقى القوم: أي بعثته نفسه الخبيثة من دونهم فأسرع السير. وهو عقبة بن أبي معيط، كما صرح به في الرواية الثانية.
(٤) فاستضحكوا: أي حملوا أنفسهم على الضحك والسخرية. ثمّ أخذهم الضحك جدا، فجعلوا يضحكون ويميل بعضهم على بعض من كثرة الضحك.
(٥) لو كانت لي منعة: هي بفتح النون، وحكي إسكانها، وهو شاذ ضعيف. ومعناه لو كان لي قوة تمنع أذاهم، أو كان لي عشيرة بمكة تمنعني.
(٦) جويرية: هو تصغير جارية، بمعنى شابة. يعني أنها إذ ذاك ليست بكبيرة.
(٧) تشتمهم: الشتم وصف الرجل بما فيه إزراء ونقص.
(٨) وإذا سأل: هو الدعاء. لكن عطفه لاختلاف اللفظ، توكيدا.
(٩) والوليد بن عقبة: هكذا هو في جميع نسخ صحيح مسلم: والوليد بن عقبة. واتفق العلماء على أنه غلط وصوابه والوليد بن عتبة. كما ذكره مسلم في رواية أبي بكر بن أبي شيبة، بعد هذا.
(١٠) ثم سحبوا إلى القليب قليب بدر: القليب هي البئر التي لم تطو. وإنما وضعوا في القليب تحقيرا لهم، ولئلا يتأذى الناس برائحتهم. وليس هو دفنا، لأن الحربي لا يجب دفنه.
(١١) رواه مسلم برقم (١٧٩٤) .

عليّ. فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره. فادع الله أن يهدي أمّ أبي هريرة. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «اللهمّ اهد أمّ أبي هريرة» فخرجت مستبشرا بدعوة نبيّ الله صلّى الله عليه وسلّم. فلمّا جئت فصرت إلى الباب. فإذا هو مجاف «١» . فسمعت أمّي خشف «٢» قدميّ. فقالت: مكانك يا أبا هريرة وسمعت خضخضة «٣» الماء. قال فاغتسلت ولبست درعها وعجلت عن خمارها. ففتحت الباب. ثمّ قالت: يا أبا هريرة أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أنّ محمّدا عبده ورسوله. قال فرجعت إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فأتيته وأنا أبكي من الفرح، قال قلت: يا رسول الله أبشر قد استجاب الله دعوتك وهدى أمّ أبي هريرة. فحمد الله وأثنى عليه وقال خيرا. قال قلت: يا رسول الله ادع الله أن يحبّبني أنا وأمّي إلى عباده المؤمنين، ويحبّبهم إلينا. قال: فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: اللهمّ حبّب عبيدك هذا يعني أبا هريرة وأمّه إلى عبادك المؤمنين.
وحبّب إليهم المؤمنين فما خلق مؤمن يسمع بي، ولا يراني، إلّا أحبّني «٤» .

إخباره عن المغيّبات:

من معجزات رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ودلائل نبوّته ما اطّلع عليه من الغيوب الماضية والمستقبلة وإخباره عنها، ومن المعلوم المقرّر أنّ علم الغيب مختصّ بالله تعالى وحده. وقد أضافه الله تعالى إلى نفسه الكريمة في غير ما آية من كتابه العزيز. قال تعالى: قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ «٥» . وقال تعالى: وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ «٦» ومن المعلوم أيضا أنّ الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام لا يعلمون الغيب ولا اطّلاع لهم على شيء منه. قال الله تعالى مخبرا عن غير واحد من رسله الكرام عليهم الصّلاة والسّلام أنّهم قالوا لأقوامهم قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ «٧» وفي صحيح مسلم عن عائشة- رضي الله عنها-؛ قالت:
«من زعم أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية» «٨» .
وكما جاءت الأدلّة تدلّ على أنّ الله تبارك وتعالى قد اختصّ بمعرفة علم الغيب وأنّه استأثر به دون خلقه، جاءت أدلّة أخرى تفيد أنّ الله تعالى استثنى من خلقه من ارتضاه من الرّسل فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوّتهم. قال تعالى: وَما كانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلكِنَ

(١) مجاف: أي مغلق.
(٢) خشف: أي صوتهما في الأرض.
(٣) خضخضة: خضخضة الماء صوت تحريكه.
(٤) مسلم برقم (٢٤٩١) .
(٥) سورة النمل: آية (٦٥) .
(٦) سورة الأنعام: آية (٥٩) .
(٧) سورة الأنعام: آية (٥٠) .
(٨) مسلم برقم (١٧٧) .
جـ ١(ص: ٥٤٣)

اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشاءُ «١» . وقال تعالى: عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً* إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً «٢» فتلخّص من ذلك أنّ ما وقع على لسان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من الإخبار بالمغيّبات فبوحي من الله تعالى وهو من إعلام الله عزّ وجلّ لرسوله صلّى الله عليه وسلّم للدّلالة على ثبوت نبوّته وصحّة رسالته.
وقد اشتهر وانتشر أمره صلّى الله عليه وسلّم بإطلاع الله له على المغيّبات:
- قال حذيفة بن اليمان- رضي الله عنهما-: قام فينا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مقاما فما ترك شيئا يكون من مقامه ذلك إلى قيام السّاعة إلّا حدّثه حفظه من حفظه ونسيه من نسيه» «٣» .
وقال عمرو بن أخطب الأنصاريّ- رضي الله عنه-: «صلّى بنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الفجر وصعد المنبر فخطبنا حتّى حضرت الظّهر فنزل فصلّى ثمّ صعد المنبر فخطبنا حتّى حضرت العصر فنزل فصلّى ثمّ صعد المنبر فخطبنا حتّى غربت الشّمس فأخبرنا بما هو كائن إلى يوم القيامة فأعلمنا أحفظنا» «٤» .
وقال عبد الله بن رواحة- رضي الله عنه:
وفينا رسول الله يتلو كتابه ... إذا انشقّ معروف من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أنّ ما قال واقع «٥» .
وقال حسّان بن ثابت- رضي الله عنه-:
نبيّ يرى ما لا يرى النّاس حوله ... ويتلو كتاب الله في كلّ مشهد
فإن قال في يوم مقالة غائب ... فتصديقها في صحوة اليوم أو غد «٦» .
قال القاضي عياض: ... ما أطلع عليه من الغيوب وما يكون من جملة معجزاته المعلومة على القطع

(١) سورة آل عمران: آية (١٧٩) .
(٢) سورة الجن: آية (٢٦، ٢٧) .
(٣) رواه البخاري- انظر الفتح ١١ (٦٦٠٤) . ومسلم برقم (٢٣/ ٢٨٩١) .
(٤) رواه مسلم، برقم (٢٨٩٢) .
(٥) رواه البخاري- انظر الفتح ٢ (١١٥٥) .
(٦) وردت هذه الأبيات ضمن حديث أم معبد الطويل وقد تقدم تخريجه.
جـ ١(ص: ٥٤٤)

الواصل إلينا خبرها على التّواتر لكثرة رواتها واتّفاق معانيها على الاطّلاع على الغيب» «١»
ومعجزات هذا الباب لا يمكن استقصاؤها لكثرتها ووقوعها منه صلّى الله عليه وسلّم في أكثر حالاته عن سؤال وغير سؤال في مناسبات تقتضيها وأحوال تستدعيها وهي أكثر أنواع معجزاته عددا.
ولهذا السّبب فإنّ أحاديث هذا الموضوع كثيرة جدّا لا يمكن حصرها.
والمغيّبات الّتي تغيّبها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على أقسام ثلاثة:

١ - قسم في الماضي:
كإخباره عن القرون السّالفة والأمم البائدة، والشّرائع الدّاثرة ممّا كان لا يعلم منه القصّة الواحدة إلّا الفذّ من أحبار أهل الكتاب الّذي قطع عمره في تعلّم ذلك وقد كان أهل الكتاب كثيرا ما يسألونه تعنّتا وتعجيزا عن أخبار تلك القرون السّالفة. فينزل عليه من القرآن ما يتلو عليهم منه ذكرا كقصص الأنبياء مع قومهم وخبر موسى والخضر ويوسف وإخوته وأصحاب الكهف وذي القرنين. بالإضافة إلى ما جاءت به السّنّة المطهّرة من تفاصيل ودقائق عن أخبار تلك الأمم السّابقة والأنبياء السّابقين مع أقوامهم. وأشباه ذلك ممّا صدّقه فيه علماؤهم ولم يقدروا على تكذيب ما ذكر منها بل أذعنوا لذلك فمن موفّق آمن بما سبق له من خير ومن شقيّ معاند حاسد.
٢ - قسم في الحاضر:
وهو ما أخبر به صلوات الله وسلامه عليه من المغيّبات فوقع في أثناء حياته.
وهذه بعض نماذج للقسم الثّاني:
قتل أميّة بن خلف:
- فعن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه-؛ قال: انطلق سعد بن معاذ معتمرا، قال: فنزل على أميّة بن خلف أبي صفوان، وكان أميّة إذا انطلق إلى الشّام فمرّ بالمدينة نزل على سعد، فقال أميّة لسعد: ألا انتظر حتّى إذا انتصف النّهار وغفل النّاس انطلقت فطفت؟ فبينا سعد يطوف إذا أبو جهل، فقال: من هذا الّذي يطوف بالكعبة؟ فقال سعد: أنا سعد. فقال أبو جهل: تطوف بالكعبة آمنا وقد آويتم محمّدا وأصحابه؟ فقال: نعم.
فتلاحيا «٢» بينهما. فقال أميّة لسعد: لا ترفع صوتك على أبي الحكم، فإنّه سيّد أهل الوادي. ثمّ قال سعد: والله لئن منعتني أن أطوف بالبيت لأقطعنّ متجرك بالشّام، قال فجعل أميّة يقول لسعد: لا ترفع صوتك وجعل يمسكه فغضب سعد فقال: دعنا عنك، فإنّي سمعت محمّدا صلّى الله عليه وسلّم يزعم أنّه قاتلك. قال: إيّاي؟ قال: نعم. قال: والله ما يكذب محمّد إذا حدّث. فرجع إلى امرأته فقال: أما تعلمين ما قال لي أخي اليثربي؟ قالت وما قال؟ قال: زعم أنّه

---

(١) انظر الشفا للقاضي عياض (١/ ٦٥٠) .
(٢) تلاحيا: تلاوما وتنازعا. انظر النهاية (٤/ ٢٤٣) .

سمع محمّدا يزعم أنّه قاتلي. قالت: فو الله ما يكذب محمّد. قال: فلمّا خرجوا إلى بدر وجاء الصّريخ قالت له امرأته: أما ذكرت ما قال لك أخوك اليثربيّ؟ قال فأراد أن لا يخرج فقال له أبو جهل: إنّك من أشراف الوادي، فسر يوما أو يومين، فسار معهم يومين، فقتله الله» «١» .
مصارع الطّغاة:
- فعن أنس بن مالك- رضي الله عنه-؛ قال: كنّا مع عمر بين مكّة والمدينة، فتراءينا الهلال. وكنت رجلا حديد البصر «٢» . فرأيته. وليس أحد يزعم أنّه رآه غيري. قال فجعلت أقول لعمر: أما تراه؟ فجعل لا يراه. قال يقول عمر: سأراه وأنا مستلق على فراشي. ثمّ أنشأ يحدّثنا عن أهل بدر فقال: إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس. يقول: هذا مصرع فلان غدا، إن شاء الله قال فقال عمر: فو الّذي بعثه بالحقّ ما أخطئوا الحدود الّتي حدّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. قال فجعلوا في بئر بعضهم على بعض فانطلق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتّى انتهى إليهم فقال: «يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقّا؟ فإنّي وجدت ما وعدني الله حقّا» .
قال عمر: يا رسول الله كيف تكلّم أجسادا لا أرواح فيها؟ قال: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم «٣» . غير أنّهم لا يستطيعون أن يردّوا عليّ شيئا» «٤» .
الأعمال بالخواتيم:

- عن سهل بن سعد السّاعديّ- رضي الله عنه-؛ أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم التقى هو والمشركون فاقتتلوا. فلمّا مال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى عسكره. ومال الآخرون إلى عسكرهم. وفي أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رجل لا يدع لهم شاذّة «٥» إلّا اتّبعها يضربها بسيفه. فقالوا: ما أجزأ منّا اليوم أحد كما أجزأ فلان «٦» . فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: أما إنّه من أهل

---

(١) رواه البخاري- انظر الفتح: ٦ (٣٦٣٢) .
(٢) حديد البصر: أي نافذه ومنه قوله تعالى: (فبصرك اليوم حديد) .
(٣) ما أنتم بأسمع لما أقول منهم: قال المازري: قال بعض الناس: الميت يسمع، عملا بظاهر هذا الحديث. ثم أنكره المازري وادعى أن هذا خاص في هؤلاء. ورد عليه القاضي عياض وقال: يحتمل سماعهم على ما يحتمل عليه سماع الموتى في أحاديث عذاب القبر وفتنته التي لا مدفع لها. وذلك بإحيائهم أو إحياء جزء منهم يعقلون به ويسمعون في الوقت الذي يريد الله تعالى. قال النووي بعد ذكره للكلام السابق: هذا كلام القاضي، وهو الظاهر المختار الذي تقتضيه أحاديث السلام على القبور. انظر شرح النووي على صحيح مسلم (١٧/ ٢٠٦، ٢٠٧) .
(٤) رواه مسلم برقم (٢٨٧٣) .
(٥) لا يدع لهم شاذة: الشاذ والشاذة: الخارج والخارجة عن الجماعة. قال القاضي عياض رحمه الله: أنث الكلمة على معنى النسمة. أو تشبيه الخارج بشاذة الغنم. ومعناه أنه لا يدع أحدا، على طريق المبالغة. قال ابن الأعرابي: يقال فلان لا يدع شاذة ولا فاذة، إذا كان شجاعا. لا يلقاه أحد إلا قتله.
(٦) ما أجزأ منا اليوم أحد ما أجزأ فلان: معناه ما أغنى وكفى أحد غناءه وكفايته.

النّار «فقال رجل من القوم: أنا صاحبه «١» أبدا. قال فخرج معه. كلّما وقف وقف معه. وإذا أسرع أسرع معه. قال فجرح الرّجل جرحا شديدا. فاستعجل الموت فوضع نصل سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه «٢» . ثمّ تحامل على سيفه فقتل نفسه. فخرج الرّجل إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: أشهد أنّك رسول الله. قال: «وما ذاك؟ قال: الرّجل الّذي ذكرت آنفا أنّه من أهل النّار. فأعظم النّاس ذلك. فقلت: أنا لكم به فخرجت في طلبه حتّى جرح جرحا شديدا. فاستعجل الموت. فوضع نصل سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه. ثمّ تحامل عليه فقتل نفسه. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، عند ذلك: «إنّ الرّجل ليعمل عمل أهل الجنّة فيما يبدو للنّاس وهو من أهل النّار. وإنّ الرّجل ليعمل عمل أهل النّار فيما يبدو للنّاس وهو من أهل الجنّة» «٣» .

٣- قسم في المستقبل:

وهو ما أخبر به صلّى الله عليه وسلّم من المغيّبات زيادة على ما جاء في الكتاب العزيز فوقع بعد وفاته كما أخبر سواء بسواء.

والأحاديث في هذا القسم بحر لا يدرك قعره ولا ينزف «٤» غمره «٥» اعتنى بذكرها عدد كبير من الأئمّة الأعلام كالبيهقيّ في «دلائل النّبوّة» وابن كثير في «البداية والنّهاية» والسّيوطيّ في الخصائص الكبرى» .

ونقتصر على ذكر بعض النّماذج منها:

ظهور الإسلام وعلوّه:

- فعن خبّاب بن الأرتّ- رضي الله عنه-؛ قال: «شكونا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو متوسّد بردة له في ظلّ الكعبة قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: كان الرّجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشقّ باثنتين، وما يصدّه ذلك عن دينه، ويمشّط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصدّه ذلك عن دينه. والله ليتمّنّ هذا الأمر

حتّى يسير الرّاكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلّا الله، والذّئب على غنمه، ولكنّكم تستعجلون»
«٦» .
وهكذا وقع فقد عمّ وظهر الدّين وغلب وعلا على سائر الأديان، في مشارق الأرض ومغاربها وعلت كلمته في عهد الصّحابة ومن بعدهم وذلّت لهم سائر البلاد ودان لهم جميع أهلها على اختلاف أصنافهم وألوانهم وصار النّاس إمّا مؤمن داخل في الدّين، وإمّا مهادن باذل الطّاعة والمال وإمّا محارب خائف وجل من سطوة الإسلام وأهله.

---

(١) أنا صاحبه: كذا في الأصول. ومعناه أنا أصحبه في خفية، وألازمه لأنظر السبب الذي به يصير من أهل النار.
(٢) ذبابه: ذباب السيف هو طرفه الأسفل. وأما طرفه الأعلى فمقبضه.
(٣) رواه البخاري- انظر الفتح (٦/ ١٠٥) ، حديث رقم (٢٨٩٨) ومسلم برقم (١١٢) .
(٤) لا ينزف: لا يفنى.
(٥) غمره: بفتح الغين المعجمة وسكون الميم هو الماء الكثير جدا.
(٦) رواه البخاري- انظر الفتح: ٦ (٣٦١٢) .
جـ ١(ص: ٥٤٧)

ملك أمّة محمّد وممالكها

- عن ثوبان- رضي الله عنه-؛ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: إنّ الله زوى «١» لي الأرض. فرأيت مشارقها ومغاربها. وإنّ أمّتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها. وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض»
إنّي سألت ربّي لأمّتي أن لا يهلكها بسنة عامّة. وأن لا يسلّط عليهم عدوّا من سوى أنفسهم. فيستبيح بيضتهم «٣» . وإنّ ربّي قال: يا محمّد إنّي إذا قضيت قضاء فإنّه لا يردّ. وإنّي أعطيتك لأمّتك أن لا أهلكهم بسنة عامّة «٤» . وأن لا يسلّط عليهم عدوّا من سوى أنفسهم. يستبيح بيضتهم. ولو اجتمع عليهم من بأقطارها أو قال من بين أقطارها حتّى يكون بعضهم يهلك بعضا ويسبي بعضهم بعضا»
«٥» .
- وعن عديّ بن حاتم- رضي الله عنه-؛ قال: بينا أنا عند النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثمّ أتاه آخر فشكا إليه قطع السّبيل، فقال: يا عديّ، هل رأيت
الحيرة؟ قلت: لم أرها، وقد أنبئت عنها. قال: فإن طالت بك حياة لترينّ الظّعينة «٦» ترتحل من الحيرة حتّى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدا إلّا الله قلت فيما بيني وبين نفسي فأين دعّار «٧» طيّء الّذين قد سعّروا البلاد «٨» ؟ ولئن طالت بك حياة لتفتحنّ كنوز كسرى. قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: كسرى بن هرمز. ولئن طالت بك حياة لترينّ الرّجل يخرج ملء كفّه من ذهب أو فضّة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحدا يقبله منه. وليلقينّ الله أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له فليقولنّ: ألم أبعث إليك رسولا فيبلّغك؟ فيقول: بلى. فيقول: ألم أعطك مالا وأفضل عليك؟ فيقول: بلى. فينظر عن يمينه فلا يرى إلّا جهنّم، وينظر عن يساره فلا يرى إلّا جهنّم. قال عديّ سمعت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول: اتّقوا النّار ولو بشقّ تمرة، فمن لم يجد شقّة تمرة فبكلمة طيّبة. قال عديّ: فرأيت الظّعينة ترتحل من الحيرة حتّى تطوف بالكعبة لا تخاف إلّا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترونّ ما قال النّبيّ أبو القاسم صلّى الله عليه وسلّم: يخرج ملء كفّه» «٩» .
- وعن سفيان بن أبي زهير- رضي الله عنه-؛ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «يفتح الشّام فيخرج من المدينة

---

(١) زوى: معناه جمع.
(٢) الكنزين الأحمر والأبيض: المراد بالكنزين الذهب والفضة. والمراد بكنزي كسرى وقيصر، ملكي العراق والشام.
(٣) فيستبيح بيضتهم: أي جماعتهم وأصلهم. والبيضة أيضا: العز والملك.
(٤) أن لا أهلكهم بسنة عامة: أي لا أهلكهم بقحط يعمهم. بل إن وقع قحط فيكون في ناحية يسيرة، بالنسبة إلى باقي بلاد الإسلام.
(٥) رواه مسلم برقم (٢٨٨٩) .
(٦) الظعينة: المرأة ما دامت في الهودج، هذا هو الأصل، ثم سميت به المرأة ظعينة وإن لم تكن في هودج ولا مسافرة.
(٧) الدعار: بالدال المهملة: قطاع الطريق، والذين يخيفون الناس في مقاصدهم، وأصل الدعر: الفساد.
(٨) سعروا البلاد: ملؤوها شرا وفسادا، مأخوذ من استعار النار، وهو إيقادها والتهابها. انظر في ذلك جامع الأصول (١١/ ٣١٥) .
(٩) رواه البخاري- انظر الفتح ٦ (٣٥٩٥) .

قوم بأهليهم يبسّون «١» والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ثمّ يفتح اليمن فيخرج من المدينة قوم بأهليهم يبسّون والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون. ثمّ يفتح العراق فيخرج من المدينة قوم بأهليهم يبسّون والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون «٢» .
- عن أبي ذرّ- رضي الله عنه-؛ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّكم ستفتحون مصر. وهي أرض يسمّى فيها القيراط «٣» . فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها. فإنّ لهم ذمّة «٤» ورحما «٥» أو قال: «ذمّة وصهرا «٦» . فإذا رأيت رجلين يختصمان فيها في موضع لبنة، فاخرج منها» قال: فرأيت عبد الرّحمن بن شرحبيل بن حسنة وأخاه ربيعة، يختصمان في موضع لبنة، فخرجت منها» «٧» .
- وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: لا تقوم السّاعة حتّى ينزل الرّوم بالأعماق، أو بدابق «٨» . فيخرج إليهم جيش من المدينة. من خيار أهل الأرض يومئذ. فإذا تصافّوا قالت الرّوم: خلّوا بيننا وبين الّذين سبوا «٩» منّا نقاتلهم. فيقول المسلمون: لا. والله لا نخلّي بينكم وبين إخواننا. فيقاتلونهم. فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبدا «١٠» . ويقتل ثلثهم. أفضل الشّهداء عند الله. ويفتتح الثّلث. لا يفتنون أبدا: فيفتتحون قسطنطينيّة. فبينما هم يقتسمون الغنائم، قد علّقوا سيوفهم بالزّيتون، إذ صاح فيهم الشّيطان: إنّ المسيح قد خلّفكم في أهليكم. فيخرجون. وذلك باطل، فإذا جاءوا الشّأم خرج، فبينما هم يعدّون للقتال، يسوّون الصّفوف، إذ أقيمت الصّلاة. فينزل عيسى ابن مريم صلّى الله عليه وسلّم، فأمّهم. فإذا رآه عدوّ الله، ذاب كما يذوب الملح في الماء. فلو تركه

---

(١) يبسون: قال أهل اللغة: يبسّون. ويقال أيضا: يبسون. فتكون اللفظة ثلاثية ورباعية فحصل في ضبطه ثلاثة أوجه. ومعناه يتحملون بأهليهم. وقيل معناه يدعون الناس إلى بلاد الخصب. وهو قول إبراهيم الحربي. وقال أبو عبيد: معناه يسوقون. والبس سوق الإبل. وقال ابن وهب: معناه يزينون لهم البلاد ويحببونها اليهم ويدعونهم إلى الرحيل إليها. انظر شرح النووي على صحيح مسلم (٩/ ١٥٨، ١٥٩) .
(٢) رواه مسلم برقم (١٣٨٨) .
(٣) القيراط: قال العلماء: القيراط جزء من أجزاء الدينار والدرهم وغيرهما. وكان أهل مصر يكثرون من استعماله والتكلم به.
(٤) ذمة: الذمة هي الحرمة والحق. وهي هنا بمعنى الذمام.

(٥) ورحما: الرحم لكون هاجر، أم إسماعيل، منهم.
(٦) وصهرا: الصهر لكون مارية، أم إبراهيم، منهم. انظر في ذلك شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/ ٩٧) .
(٧) رواه مسلم برقم (٢٥٤٣/ ٢٢٧) .
(٨) بالأعماق أو بدابق: موضعان بالشام، بقرب حلب.
(٩) سبوا: قال النووي رحمه الله: روى سبوا على وجهين: فتح السين والباء وضمهما. قال القاضي في المشارق: الضم رواية الأكثرين. قال: وهو الصواب. قلت: كلاهما صواب لأنهم سبوا. أولا ثم سبوا الكفار. انظر شرح النووي على صحيح مسلم (١٨/ ٢١) .
(١٠) لا يتوب الله عليهم أبدا: أي لا يلهمهم التوبة.
جـ ١(ص: ٥٤٩)

لانذاب حتّى يهلك. ولكن يقتله الله بيده. فيريهم دمه في حربته» «١» .
- وعن أبي هريرة- رضي الله عنه-: قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والّذي نفس محمّد بيده لتنفقنّ كنوزهما في سبيل الله» «٢» .
- عن جابر- رضي الله عنه-: قال: قال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: هل لكم من أنماط «٣» ؟ قلت: وأنّى يكون لنا الأنماط؟ قال: أما إنّه ستكون لكم الأنماط. فأنا أقول لها يعني امرأته أخّري عنّا أنماطك، فتقول: ألم يقل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: إنّها ستكون لكم الأنماط، فأدعها» «٤» .
- عن سفينة مولى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؛ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: الخلافة في أمّتي ثلاثون «٥» سنة ثمّ ملكا بعد ذلك» «٦» .
بشارات لبعض الأصحاب:
أ- أمّ حرام بنت ملحان:
- عن أنس بن مالك- رضي الله عنه-: أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يدخل على أمّ حرام بنت ملحان «٧» فتطعمه. وكانت أمّ حرام تحت عبادة بن الصّامت. فدخل عليها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يوما فأطعمته. ثمّ جلست تفلي رأسه. فنام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ استيقظ وهو يضحك. قالت: فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: ناس من أمّتي عرضوا عليّ غزاة في سبيل الله. يركبون ثبج «٨» هذا البحر. ملوكا على الأسرّة، أو مثل الملوك على الأسرّة «٩» .

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٨٩٧) .
(٢) رواه البخاري- انظر الفتح: ٦ (٣٦١٨) ومسلم برقم (٢٩١٩) .
(٣) أنماط: الأنماط جمع نمط وهو من البسط معروف. انظر جامع الأصول (١١/ ٣١٩) . وقد قال له النبي صلّى الله عليه وسلّم: «ذلك عند ما تزوج» .
(٤) رواه البخاري- انظر الفتح ٦ (٣٦٣١) . ومسلم برقم (٢٠٨٣) .
(٥) وقد وقع ذلك كما أخبر الصادق المصدوق صلى وسلم. قال الحافظ ابن كثير: وهكذا وقع سواء، فإن أبا بكر رضي الله عنه كانت خلافته سنتين وأربعة أشهر إلا عشر ليال، وكانت خلافة عمر عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام، وخلافة عثمان اثنتا عشرة سنة إلا اثنى عشر يوما، وكانت خلافة علي بن أبي طالب خمس سنين إلا شهرين. وتكميل الثلاثين بخلافة الحسن بن علي نحوا من ستة أشهر، حتى نزل عنها لمعاوية عام أربعين من الهجرة- انظر البداية والنهاية (٦/ ٢٠٤، ٢٠٥) .
(٦) رواه أبو داود برقم (٤٦٤٦) . والترمذي برقم (٢٢٢٦) . والإمام أحمد في المسند (٥/ ٢٢٠- ٢٢١) ، والحاكم في المستدرك (٣/ ٧١) وصححه ووافقه الذهبي وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٣/ ٢٢٥) : أخرجه أصحاب السنن وصححه ابن حبان وغيره.

(٧) أم حرام بنت ملحان: اتفق العلماء على أنها كانت محرما له صلّى الله عليه وسلّم. واختلفوا في كيفية ذلك. فقال ابن عبد البر وغيره: كانت إحدى خالاته من الرضاعة. وقال آخرون: بل كانت خالة لأبيه أو لجده. لأن عبد المطلب كانت أمه من بني النجار.
(٨) ثبج: هو ظهره ووسطه.
(٩) مثل الملوك على الأسرة: قيل: هو صفة لهم في الآخرة، إذا دخلوا الجنة. والأصح أنه صفة لهم في الدنيا أي يركبون مراكب الملوك لسعة حالهم واستقامة أمرهم وكثرة عددهم.

(يشكّ أيّهما قال) . قالت: فقلت: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم. فدعا لها. ثمّ وضع رأسه فنام. ثمّ استيقظ وهو يضحك. قالت فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟. قال: «ناس من أمّتي عرضوا عليّ غزاة في سبيل الله، كما قال في الأولى. قالت فقلت: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم. قال: أنت من الأوّلين» .
فركبت أمّ حرام بنت ملحان البحر في زمن معاوية «١» ، فصرعت عن دابّتها حين خرجت من البحر. فهلكت» «٢» .
ب- عكّاشة بن محصن:
- عن ابن عبّاس- رضي الله عنهما-؛ عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، قال: «عرضت عليّ الأمم. فرأيت النّبيّ ومعه الرّهيط «٣» والنّبيّ ومعه الرّجل والرّجلان. والنّبيّ ليس معه أحد. إذ رفع لي سواد عظيم. فظننت أنّهم أمّتي. فقيل لي: هذا موسى صلّى الله عليه وسلّم وقومه. ولكن انظر إلى الأفق. فنظرت. فإذا سواد عظيم. فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر. فإذا سواد عظيم. فقيل لي: هذه أمّتك. ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنّة بغير حساب ولا عذاب، ثمّ نهض فدخل منزله. فخاض «٤» النّاس في أولئك الّذين يدخلون الجنّة بغير حساب ولا عذاب. فقال بعضهم: فلعلّهم الّذين صحبوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وقال بعضهم: فلعلّهم الّذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله. وذكروا أشياء. فخرج عليهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: ما الّذي تخوضون فيه؟ «فأخبروه. فقال: «هم الّذين لا يرقون. ولا يسترقون. ولا يتطيّرون. وعلى ربّهم يتوكّلون» فقام عكّاشة بن محصن. فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: أنت منهم» ثمّ قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: سبقك بها عكّاشة» «٥» .
ج- أمّ ورقة بنت نوفل:
وعن أمّ ورقة بنت نوفل أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لمّا غزا بدرا قالت: قلت له: يا رسول الله، ائذن لي في الغزو معك أمرّض مرضاكم، لعلّ الله أن يرزقني شهادة قال: «قرّي في بيتك، فإنّ الله تعالى يرزقك الشّهادة» قال: فكانت

---

(١) في زمن معاوية: قال القاضي: قال أكثر أهل السير والأخبار. إن ذلك كان في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه. وفيها ركبت أم حرام وزوجها إلى قبرس فصرعت عن دابتها هناك. فتوفيت ودفنت هناك. وعلى هذا يكون قوله: في زمان معاوية معناه في زمان غزوة في البحر، لا في أيام خلافته. انظر في ذلك شرح النووي على صحيح مسلم (١٣/ ٥٧- ٥٩) .
(٢) رواه البخاري انظر الفتح: ٦ (٢٧٨٨، ٢٧٨٩) ومسلم برقم (١٩١٢) .
(٣) الرهيط: تصغير رهط وهو الجماعة دون العشرة.
(٤) فخاض الناس: أي تكلموا وتناظروا.
(٥) رواه البخاري- انظر الفتح ١٠ (٥٧٥٢) . ومسلم برقم (٢٢٠) .

تسمّى الشّهيدة، قال: وكانت قد قرأت القرآن فاستأذنت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أن تتّخذ في دارها مؤذّنا، فأذن لها، قال: وكانت قد دبّرت غلاما لها وجارية»

فقاما إليها باللّيل فغمّاها بقطيفة لها حتّى ماتت وذهبا، فأصبح عمر فقام في النّاس فقال: من كان عنده من هذين علم، أو من رآهما فليجيء بهما، فأمر بهما فصلبا فكانا أوّل مصلوب بالمدينة» «٢» وفي رواية البيهقيّ في آخره؛ فقال عمر: صدق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يقول: انطلقوا بنا نزور الشّهيدة» .

- أمارات السّاعة:

- عن عوف بن مالك- رضي الله عنه-؛ قال: «أتيت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في غزوة تبوك وهو في قبّة من أدم فقال:

«اعدد ستّا بين يدي الساعة: موتي، ثمّ فتح بيت المقدس، ثمّ موتان «٣» يأخذ فيكم كقعاص الغنم «٤» ، ثمّ استفاضة المال حتّى يعطى الرّجل مائة دينار فيظلّ ساخطا، ثمّ فتنة لا يبقى بيت في العرب إلّا دخلته، ثمّ هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر فيغدرون، فيأتونكم تحت ثمانين غاية، تحت كلّ غاية اثنا عشر ألفا» «٥» .

فهذه علامات أخبر عنها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تقع قبل قيام السّاعة:

- موته صلوات الله وسلامه عليه.

- وفتح بيت المقدس على يدي الخليفة الرّاشد عمر بن الخطّاب- رضي الله عنه- سنة خمس عشرة للهجرة.

- وباء الطّاعون وهو طاعون عمواس وقع بالشّام في عهد عمر بن الخطّاب- رضي الله عنه- سنة ثماني عشرة للهجرة ومات فيه جماعات من سادات الصّحابة- رضي الله عنهم أجمعين. منهم معاذ بن جبل، وأبو عبيدة بن الجرّاح، وشرحبيل بن حسنة، وغيرهم.

- استفاضة المال وهو كثرته وظهر ذلك في خلافة الخليفة الرّاشد عثمان بن عفّان- رضي الله عنه- عندما فتح المسلمون الفتوح العظيمة «٦» .

- وعن أبي هريرة- رضي الله عنه-؛ أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «لا تقوم السّاعة حتّى تخرج نار من أرض

---

(١) دبرت غلاما وجارية: أي علقت عتقهما على موتها، وهو أن يقول السيد لعبده: أنت حر بعد موتي. انظر عون المعبود (٢/ ٣٠٠) .

(٢) رواه أبو داود برقم (٥٩١) . والإمام أحمد في مسنده (٦/ ٤٠٥) ، والبيهقي في" دلائل النبوة" (٦/ ٣٨١) وحسنه الألباني انظر صحيح سنن أبي داود برقم (٥٥٢) .

(٣) موتان: بضم الميم وسكون الواو: قيل هو الموت. وقيل: الموت الكثير انظر فتح الباري (٦/ ٣٢٠) .

(٤) قعاص الغنم: قال ابن الأثير: القعاص بالضم: داء يأخذ الغنم لا يلبثها أن تموت. انظر النهاية (٤/ ٨٨) . وقال الحافظ ابن حجر: هو داء يأخذ الدواب فيسيل من أنوفها شيء فتموت فجأة. انظر فتح الباري (٦/ ٣٢١) .

(٥) رواه البخاري- انظر الفتح ٦ (٣١٧٦) .

(٦) انظر: فتح الباري (٦/ ٣٢١) .

الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى «١» » «٢» .

وقد خرجت هذه النّار بالمدينة المنوّرة كما أخبر النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وكان ذلك سنة أربع وخمسين وستّمائة كما ذكر ذلك جمع من العلماء منهم النّوويّ في شرحه على مسلم «٣» ، والسّيوطيّ في الخصائص الكبرى «٤» .

قال النّوويّ رحمه الله: وقد خرجت في زماننا نار بالمدينة سنة أربع وخمسين وستّمائة وكانت نارا عظيمة جدّا من جنب المدينة الشّرقيّ وراء الحرّة تواتر العلم بها عند جميع الشّام وسائر البلدان وأخبرني من حضرها من أهل المدينة «٥» .
وقال الحافظ ابن حجر: قال أبو شامة في ذيل الرّوضتين «وردت في أوائل شعبان سنة أربع وخمسين كتب من المدينة الشّريفة فيها شرح أمر عظيم حدث بها فيه تصديق لما في الصّحيحين، فذكر هذا الحديث، قال: فأخبرني بعض من أثق به ممّن شاهدها أنّه بلغه أنّه كتب بتيماء على ضوئها الكتب، فمن الكتب ... فذكر نحو ما تقدّم» «٦» .

إفحام أهل الكتاب

كان أهل الكتاب كثيرا ما يسألون رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن أشياء على سبيل الامتحان والتّعجيز وليس على سبيل الهداية والانصياع للحقّ فسألوه عن أشياء كثيرة فكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يورد الجواب على وجهه ويأتي به على نصّه كما هو معروف لديهم ومقرّر في كتبهم.
وقد علموا أنّه صلوات الله وسلامه عليه أمّيّ لا يقرأ ولا يكتب ولا اشتغل بمدارسة ولم يتلقّ العلم على أيديهم. ومع هذا لم يحك عن واحد من اليهود والنّصارى على شدّة عداوتهم له وحرصهم على تكذيبه وكثرة سؤالهم له وتعنّتهم في ذلك، أنّه أنكر على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم جوابه أو كذبه بل أكثرهم صرّح بصحّة نبوّته وصدق مقالته، والمكابر منهم اعترف بعناده وحسده لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم.
وها هي بعض النّماذج الّتي سئل فيها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. فأجاب بما طابق الحقّ المقرّر عند أهل الكتاب:
- فعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: «بلغ عبد الله بن سلام مقدم النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم المدينة. فأتاه فقال:
إنّي سائلك عن ثلاث لا يعلمهنّ إلّا نبيّ، قال ما أوّل أشراط «٧» السّاعة؟ وما أوّل طعام يأكله أهل الجنّة؟ ومن

---

(١) بصرى: بضم الموحدة وسكون المهملة مقصور: مدينة معروفة بالشام وهي مدينة حوران بينها وبين دمشق نحو ثلاث مراحل. انظر شرح النووي على مسلم (١٨/ ٣٠) ، فتح الباري (١٣/ ٨٦) .
(٢) رواه البخاري- انظر الفتح ١٣ (٧١١٨) . ومسلم برقم (٢٩٠٢) .
(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١٨/ ٢٨) .
(٤) الخصائص الكبرى للسيوطي (٢/ ٢٥٦) .
(٥) شرح النووي على صحيح مسلم (١٨/ ٢٨) .
(٦) فتح الباري (١٣/ ٨٥) .
(٧) الأشراط: العلامات، وأشراط الساعة: العلامات التي تتقدمها. مثل خروج الدجال، وطلوع الشمس من المغرب.
جـ ١(ص: ٥٥٣)

أيّ شيء ينزع «١» الولد إلي أبيه، ومن أيّ شيء ينزع إلى أخواله؟ فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: خبّرني بهنّ آنفا جبريل. قال فقال عبد الله: ذاك عدوّ اليهود من الملائكة فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أمّا أوّل أشراط السّاعة فنار تحشر النّاس من المشرق إلى المغرب. وأمّا أوّل طعام يأكله أهل الجنّة فزيادة كبد حوت وأمّا الشّبه في الولد فإنّ الرّجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشّبه له، وإذا سبق ماؤها كان الشّبه لها.

قال: أشهد أنّك رسول الله. ثمّ قال: يا رسول الله، إنّ اليهود قوم بهت «٢» ، إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك. فجاءت اليهود، ودخل عبد الله البيت، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أيّ رجل فيكم عبد الله بن سلام؟ قالوا أعلمنا وابن أعلمنا، وأخبرنا وابن أخبرنا. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: أفرأيتم إن أسلم عبد الله؟ قالوا: أعاذه الله من ذلك.
فخرج عبد الله إليهم فقال: أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أنّ محمّدا رسول الله. فقالوا: شرّنا وابن شرّنا. ووقعوا فيه» «٣» .
- عن ثوبان- رضي الله عنه-؛ قال: كنت قائما عند رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. فجاء حبر «٤» من أحبار اليهود فقال:
السّلام عليك يا محمّد فدفعته دفعة كاد يصرع منها. فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول يا رسول الله فقال اليهوديّ؛ إنّما ندعوه باسمه الّذي سمّاه به أهله. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: إنّ اسمي محمّد الّذي سمّاني به أهلي «فقال اليهوديّ: جئت أسألك. فقال له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أينفعك شيء إن حدّثتك؟» قال: أسمع بأذنيّ. فنكت «٥» رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعود معه فقال: سل» فقال اليهوديّ: أين يكون النّاس يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسّماوات؟ فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «هم في الظّلمة دون الجسر «٦» » قال: فمن أوّل النّاس إجازة «٧» ، قال: «فقراء المهاجرين» قال اليهوديّ: فما تحفتهم «٨» حين يدخلون الجنّة؟ قال: زيادة كبد النّون» «٩» قال: فما غذاؤهم «١٠» علي إثرها؟ قال:

---

(١) ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه: إذا جاء يشبه أحدهما.
(٢) قوم بهت: بهت فلان فلانا: اذا كذب عليه، فهو باهت، وقوم بهت. أفاد ذلك ابن الأثير رحمه الله في كتابه جامع الأصول (١١/ ٣٨٣) .
(٣) رواه البخاري- انظر الفتح ٦ (٣٣٢٩) .
(٤) حبر: قال في المصباح: الحبر، بالكسر، العالم. والجمع أحبار. مثل حمل وأحمال. والحبر، بالفتح، لغة فيه. وجمعه حبور، مثل فلس وفلوس.
(٥) فنكت: معناه يخط بالعود في الأرض ويؤثر به فيها. وهذا يفعله المفكر.
(٦) الجسر: بفتح الجيم وكسرها، لغتان مشهورتان، والمراد به هنا الصراط.
(٧) إجازة: الإجازة هنا بمعنى الجواز والعبور.
(٨) تحفتهم: بإسكان الحاء وفتحها، لغتان. وهي ما يهدى إلى الرجل ويخص به ويلاطف.
(٩) النون: النون هو الحوت. وجمعه نينان.
(١٠) غذاؤهم: روي على وجهين: غذاؤهم وغداؤهم. قال القاضي عياض: هذا الثاني هو الصحيح، وهو رواية الأكثرين.

«ينحر لهم ثور الجنّة الّذي كان يأكل من أطرافها» قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «من عين فيها تسمّى سلسبيلا «١» » قال: صدقت. قال: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض. إلّا نبيّ أو رجل أو رجلان. قال:
«ينفعك إن حدّثتك؟» قال: أسمع بأذنيّ قال جئت أسألك عن الولد؟ قال: ماء الرّجل أبيض وماء المرأة أصفر.
فإذا اجتمعا، فعلا منيّ الرّجل منيّ المرأة، أذكرا «٢» بإذن الله. وإذا علا منيّ المرأة منيّ الرّجل، آنثا «٣» بإذن الله قال اليهوديّ: لقد صدقت. وإنّك لنبيّ. ثمّ انصرف فذهب. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لقد سألني هذا عن الّذي سألني عنه. وما لي علم بشيء منه. حتّى آتاني الله به «٤» . «٥»
.

- عن صفوان بن عسّال- رضي الله عنه- قال: قال يهوديّ لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النّبيّ. فقال صاحبه: لا تقل نبيّ، إنّه لو سمعك كان له أربعة أعين، فأتيا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فسألاه عن تسع آيات بيّنات. فقال لهم: لا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النّفس الّتي حرّم الله إلّا بالحقّ، ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتله، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الرّبا، ولا تقذفوا محصنة، ولا تولّوا الفرار يوم الزّحف «٦» ، وعليكم خاصّة اليهود أن لا تعتدوا في السّبت، قال: فقبّلوا يده ورجله. فقالا: نشهد أنّك نبيّ. قال فما يمنعكم أن تتّبعوني؟ قالوا: إنّ داود دعا ربّه أن لا يزال في ذرّيّته نبيّ، وإنّا نخاف إن تبعناك أن تقتلنا اليهود» «٧» .

---

(١) سلسبيلا: قال جماعة من أهل اللغة والمفسرين: السلسبيل اسم للعين. وقال مجاهد وغيره: هي شديدة الجري وقيل هي السلسلة اللينة.
(٢) أذكرا: أي كان الولد ذكرا.
(٣) آنثا: أي كان الولد أنثى، وقد روي أنثا.
(٤) انظر في ذلك شرح النووي على صحيح مسلم (٣/ ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨) .
(٥) رواه مسلم برقم (٣١٥) .
(٦) الزحف: القتال والمراد به: الجهاد في سبيل الله.
(٧) رواه الترمذي برقم (٢٧٣٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي (٧/ ١١١) . ورواه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ٢٤٠) ، والحاكم في المستدرك (١/ ٩) وقال: هذا حديث صحيح لا نعرف له علة بوجه من الوجوه ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

الصّلاة على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم

صيغ الصّلاة على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم

١- عن أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاريّ- رضي الله عنه- قال: أتانا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ونحن في مجلس سعد بن عبادة- رضي الله عنه- فقال له بشير بن سعد- رضي الله عنه- قد أمرنا الله أن نصلّي عليك، فكيف نصلّي عليك؟ قال: «قولوا: اللهمّ صلّ على محمّد، وعلى آل محمّد، كما صلّيت على آل إبراهيم، وبارك على محمّد، وعلى آل محمّد، كما باركت على آل إبراهيم، والسّلام كما قد علمتم» «١» . وزاد ابن خزيمة فيه: «فكيف نصلّي عليك إذا نحن صلّينا في صلاتنا ... » الحديث.

٢- عن أبي مسعود- رضي الله عنه- قال: أقبل رجل «٢» حتّى جلس بين يدي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ونحن عنده، فقال: يا رسول الله أمّا السّلام عليك فقد عرفناه، فكيف نصلّي عليك إذا نحن صلّينا في صلاتنا صلّى الله عليك؟ قال: فصمت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتّى أحببنا أنّ الرّجل لم يسأله. ثمّ قال: «إذا أنتم صلّيتم عليّ فقولوا: اللهمّ صلّ على محمّد النّبيّ الأمّي، وعلى آل محمّد كما صلّيت على إبراهيم وآل إبراهيم ... » « .

٣- عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، قال: لقيني كعب بن عجرة فقال: ألا أهدي لك هديّة؟ خرج علينا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقلنا: قد عرفنا كيف نسلّم عليك، فكيف نصلّي عليك؟ قال: «قولوا: اللهمّ صلّ على محمّد وعلى آل محمّد كما صلّيت على آل إبراهيم، إنّك حميد مجيد، اللهمّ بارك على محمّد وعلى آل محمّد كما باركت على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد» «٤» .

٤- عن أبي حميد السّاعديّ- رضي الله عنه- أنّهم قالوا: يا رسول الله! كيف نصلّي عليك؟ فقال رسول الله

---

(١) أحمد (٥/ ٢٧٤) ، ومسلم (٤٠٥) ، والنسائي (٣/ ٤٥، ٤٦) ، والترمذي (٣٢٢٠) ، وقال حديث حسن صحيح. وأبو داود (٩٨٠، ٩٨١) ، ومالك في «الموطأ» (١/ ١٦٥، ١٦٦) .
(٢) هو بشير بن سعد.
(٣) أحمد في «المسند» (٤/ ١١٩) . والحاكم في «المستدرك» (١/ ٢٦٨) وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وهو عند ابن خزيمة في صحيحه.
(٤) البخاري- الفتح (١/ ٦٣٥٧) ، ومسلم (٤٠٦) واللفظ له، وفي لفظ آخر عند البخاري [الفتح (٦١/ ٣٣٧٠)] من طريق عبد الله ابن عيسى بن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: لقيني كعب بن عجرة فقال: ألا أهدي لك هدية؟ سمعتها من النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فقلت: بلى، فاهدها لي، فقال: سألنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقلنا: يا رسول الله! كيف الصلاة عليكم أهل البيت؟ فإنّ الله قد علّمنا كيف نسلّم. قال: «قولوا: اللهمّ صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهمّ بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد وقد جمع هذا الحديث بين إبراهيم وآله في الصلاة والبركة، وهو على خلاف ما جزم به المؤلف من أن أكثر الأحاديث الصحاح والحسان، مصرحة بذكر النبي صلّى الله عليه وسلّم وبذكر آله، أما في حق المشبه به وهو إبراهيم وآله، فإنما جاءت بذكر آل إبراهيم فقط دون ذكر إبراهيم أو بذكره فقط دون ذكر آله، ولم يجيء حديث صحيح فيه لفظ إبراهيم وآل إبراهيم وهو سهو منه رحمه الله، وبتفصيل أكثر. انظر فتح الباري (١١/ ١٥٨- ١٥٩) .
جـ ١(ص: ٥٥٦)

صلّى الله عليه وسلّم: «قولوا: اللهمّ صلّ على محمّد وأزواجه وذرّيّته، كما صلّيت على آل إبراهيم، وبارك على محمّد وأزواجه وذرّيّته، كما باركت على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد» «١» .
٥- عن أبي سعيد الخدريّ- رضي الله عنه- قال: قلنا: يا رسول الله هذا السّلام عليك قد عرفناه، فكيف الصّلاة عليك؟ قال: «قولوا: اللهمّ صلّ على محمّد عبدك ورسولك، كما صلّيت على إبراهيم، وبارك على محمّد وعلى آل محمّد، كما باركت على آل إبراهيم» «٢» .
٦- عن طلحة بن عبيد الله- رضي الله عنه- قال: قلت: يا رسول الله كيف الصّلاة عليك؟ قال: «قل: اللهمّ صلّ على محمّد وعلى آل محمّد، كما صلّيت على إبراهيم إنّك حميد مجيد، وبارك على محمّد وعلى آل محمّد، كما باركت على آل إبراهيم، إنّك حميد مجيد» .
وفي لفظ آخر عند النّسائيّ أنّ رجلا أتى نبيّ الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: كيف نصلّي عليك يا نبيّ الله؟ قال: «قولوا:
اللهمّ صلّ على محمّد وعلى آل محمّد، كما صلّيت على إبراهيم، إنّك حميد مجيد، وبارك على محمّد وعلى آل محمّد، كما باركت على إبراهيم، إنّك حميد مجيد» «٣» .
٧- عن زيد بن خارجة- رضي الله عنه- «٤» قال: سألت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: كيف الصّلاة عليك؟ فقال:
«صلّوا واجتهدوا، ثمّ قولوا: اللهمّ بارك على محمّد وعلى آل محمّد، كما باركت على آل إبراهيم، إنّك حميد مجيد» «٥» .
٨- عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: إذا صلّيتم على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأحسنوا الصّلاة عليه، فإنّكم لا تدرون لعلّ ذلك يعرض عليه. قال: فقالوا له: فعلّمنا، قال: قولوا: اللهمّ اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيّد المرسلين وإمام المتّقين وخاتم النّبيّين محمّد عبدك ورسولك، إمام الخير وقائد الخير، ورسول الرّحمة، اللهمّ ابعثه مقاما محمودا يغبطه به الأوّلون والآخرون، اللهمّ صلّ على محمّد وعلى آل محمّد، كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنّك حميد مجيد، اللهمّ بارك على محمّد وعلى آل محمّد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنّك حميد مجيد» «٦» .

(١) البخاري- الفتح (١١/ ٦٣٦٠) ، ومسلم (٤٠٧) ، وأبو داود (٩٧٩) ، والنسائي (٣/ ٤٩) ، وابن ماجه (٩٠٥) .
(٢) البخاري- الفتح (١١/ ٦٣٥٨) ، والنسائي (٣/ ٤٩) ، وابن ماجه (٩٠٣) .
(٣) أحمد في «المسند» (١/ ١٢٦) ، والنسائي (٣/ ٤٨) وإسناده حسن.
(٤) هو زيد بن خارجة بن أبي زهير الأنصاري الخزرجي شهد بدرا وتوفي في خلافة عثمان رضي الله عنه، وانظر «الإصابة» لابن حجر (١/ ٥٤٧) ، وراجع «جلاء الأفهام» لابن القيم (ص ١٣) .
(٥) أحمد في «المسند» (١/ ١٩٩) ، والنسائي (٣/ ٤٩) ، وإسماعيل بن إسحاق القاضي في «فضل الصلاة على النبي صلّى الله عليه وسلّم» (ص ٦٩) ، وقال الأرنؤوطيان: إسناده صحيح.
(٦) ابن ماجه (ص ٩٠٦) ، وقال في «الزوائد: رجاله ثقات. إلا أن المسعودي اختلط بآخر عمره.

٩- عن عبد الرّحمن بن بشير بن مسعود «١» ، قال: قيل: يا رسول الله! أمرتنا أن نسلّم عليك، وأن نصلّي عليك، فقد علمنا كيف نسلّم عليك، فكيف نصلّي عليك؟ قال: «تقولون: اللهمّ صلّ على آل محمّد، كما صلّيت على آل إبراهيم، اللهمّ بارك على آل محمّد، كما باركت على آل إبراهيم» «٢» .

طلب الصلاة من الله:

في الصّيغ السّابقة لاحظنا أنّ الصّلاة عليه صلّى الله عليه وسلّم تتحقّق من خلال طلبها من الله- عزّ وجلّ- أن يصلّي عليه، وهنا سؤال مهمّ هو: لماذا لا نصلّي عليه مباشرة وإنّما نطلب ذلك من الله عزّ وجلّ؟ وعن هذا السّؤال يجيب ابن القيّم فيقول:

أولا: إنّ الصّلاة من الله تعالى من أجلّ المراتب وأعلاها، ومحمّد صلّى الله عليه وسلّم أفضل الخلق فلا بدّ أن تكون الصّلاة الحاصلة له أفضل من كلّ صلاة تحصل لمخلوق فلا يكون غيره مساويا له فيها «٣» .

ثانيا: إنّ الله تعالى أخبر أنّه وملائكته يصلّون عليه، ثمّ أمر بالصّلاة عليه ولا ريب أنّ المطلوب من الله هو نظير الصّلاة المخبر بها لا ما دونها، وهو أكمل الصّلاة وأرجحها لا الصّلاة المرجوحة المفضولة «٤» .

كما كان أجر فضل صلاة الله- عزّ وجلّ- أعلى رتبة من فضل صلاة الإنسان بنفسه، فقد كان هذا الفضل- الحاصل بصلاة الله- عزّ وجلّ- عائدا على الإنسان له فائدة وأجر أعظم.

---

(١) عبد الرحمن بن بشير ذكره البخاري وابن أبي حاتم وابن حبّان في التابعين. وقال ابن القيم معدود في الصحابة، وراجع «جلاء الأفهام» (ص ٦٥) .
(٢) «فضل الصلاة على النبي صلّى الله عليه وسلّم» لإسماعيل بن إسحاق القاضي (ص ٧١) ، وقال فضيلة الشيخ الألباني في تخريجه: إسناده مرسل صحيح، رجاله كلهم رجال مسلم.
(٣) راجع (جلاء الأفهام) ص ١٥٤) .
(٤) راجع (جلاء الأفهام) ص ١٥٣.

مواطن الصّلاة على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم

(١) في آخر التّشهّد «١» :

عن أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاريّ- رضي الله عنه- قال: أتانا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ونحن في مجلس سعد بن عبادة- رضي الله عنه- فقال له بشير بن سعد- رضي الله عنه-: قد أمرنا الله أن نصلّي عليك، فكيف نصلّي عليك؟ قال: «قولوا: اللهمّ صلّ على محمّد، وعلى آل محمّد، كما صلّيت

على آل إبراهيم، وبارك على محمّد، وعلى آل محمّد، كما باركت على آل إبراهيم، والسّلام كما علمتم» «٢» . وزاد ابن خزيمة فيه: «فكيف نصلّي عليك إذا نحن صلّينا في صلاتنا ... » الحديث.
عن فضالة بن عبيد- رضي الله عنه- أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، سمع رجلا يدعو في صلاته فلم يصلّ على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فقال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «عجل هذا» ثمّ دعاه فقال له أو لغيره: «إذا صلّى أحدكم فليبدأ بتحميد الله والثّناء عليه، ثمّ ليصلّ على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ ليدع بعد بما شاء» «٣» .
عن ابن عمر- رضي الله عنهما- مرفوعا، قال: «لا تكون صلاة إلّا بقراءة وتشهّد وصلاة عليّ» «٤»
.
(٢) في صلاة الجنازة بعد التّكبيرة الثّانية:
عن أبي أمامة «٥» بن سهل أنّه أخبره رجل من أصحاب النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، أنّ السّنّة «٦» في الصّلاة على الجنازة أن

---

(١) ذكر المؤلف رحمه الله- خلافا طويلا في حكم الصلاة على النبي صلّى الله عليه وسلّم من حيث الوجوب أو الاستحباب فقال: الموضع الأول- وهو أهمها وآكدها-: في الصلاة في آخر التشهد، وقد أجمع المسلمون على مشروعيته، واختلفوا في وجوبه فيها، فقالت طائفة: ليس بواجب فيها، ونسبوا من أوجبه إلى الشذوذ، ومخالفة الإجماع، منهم الطحاوي، والقاضي عياض، والخطابي، فإنه قال: ليست بواجبة في الصلاة، وهو قول جماعة الفقهاء إلّا الشافعي، ولا يعلم له قدوة، وكذلك ابن المنذر ذكر أن الشافعي تفرد بذلك، واختار عدم الوجوب. راجع «جلاء الأفهام» ص ٢٦٣- ٢٩٣.
(٢) أحمد (٥/ ٢٧٤) ، ومسلم (٤٠٥) ، والنسائي (٣/ ٤٥، ٤٦) ، والترمذي (٣٢٢٠) ، وقال حديث حسن صحيح، وأبو داود (٩٨٠، ٩٨١) ، ومالك في «الموطأ» (١/ ١٦٥، ١٦٦) .
(٣) رواه أبو داود برقم (١٤٨١) ، والترمذي برقم (٣٤٧٧) وقال: حديث حسن صحيح والنسائي (٣/ ٤٤) ، والإمام أحمد في المسند (٦/ ١٨) ، والحاكم في المستدرك (١/ ٢٣٠) ، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
(٤) قال الحافظ ابن حجر: أخرجه العمري في «عمل اليوم والليلة» بسند جيد. انظر الفتح (١١/ ١٩٦) .
(٥) أبو أمامة: صحابي صغير، كما قال ابن القيم. راجع «جلاء الأفهام» (ص ٢٩٢) وقد رواه عن جماعة من الصحابة. فقال يونس عن ابن شهاب قال: أخبرني أبو أمامة بن سهل بن حنيف وكان من صغار الأنصار وعلمائهم وأبناء الذين شهدوا بدرا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أخبره رجال من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في الصلاة على الجنازة، أن يكبّر الإمام ثمّ يصلّي على النبي صلّى الله عليه وسلّم ... الحديث.
(٦) من السنّة: قال ابن كثير: هذا من الصحابي في حكم المرفوع على الصحيح. انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٥٢١) .

يكبّر الإمام، ثمّ يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التّكبيرة الأولى سرّا في نفسه، ثمّ يصلّي على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ويخلص الدّعاء للجنازة في التّكبيرات لا يقرأ في شيء منهنّ، ثمّ يسلّم سرّا في نفسه «١»
.
عن سعيد بن المسيّب- رحمه الله- قال: «إنّ السّنّة في صلاة الجنازة أن يقرأ بفاتحة الكتاب، ويصلّي على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ يخلص الدّعاء للميّت حتّى يفرغ، ولا يقرأ إلّا مرّة واحدة، ثمّ يسلّم في نفسه» «٢» .
عن أبي سعيد المقبريّ أنّه سأل أبا هريرة- رضي الله عنه-: كيف نصلّي على الجنازة؟ فقال أبو هريرة- رضي الله عنه-: أنا لعمر الله أخبرك، أتبعها من أهلها، فإذا وضعت كبّرت وحمدت الله تعالى وصلّيت

على نبيّه صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ أقول: اللهمّ إنّه عبدك وابن عبدك وابن أمتك كان يشهد أن لا إله إلّا أنت، وأنّ محمّدا عبدك ورسولك، وأنت أعلم به، اللهمّ إن كان محسنا فزد في إحسانه، وإن كان مسيئا، فتجاوز عن سيّئاته، اللهمّ لا تحرمنا أجره، ولا تفتنّا بعده» «٣» .

(٣) في الخطب: كخطبة الجمعة، والعيدين، وغيرهما:

عن عون بن أبي جحيفة قال: كان أبي من شرط «٤» عليّ، وكان تحت المنبر، فحدّثني أنّه صعد المنبر- يعني عليّا- رضي الله عنه- فحمد الله، وأثنى عليه، وصلّى على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وقال: خير هذه الأمّة بعد نبيّها أبو بكر، والثّاني عمر، وقال: يجعل الله الخير حيث شاء» «٥» .

عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- أنّه كان يقول بعد ما يفرغ من خطبة الصّلاة ويصلّي على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «اللهمّ حبّب إلينا الإيمان وزيّنه في قلوبنا وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الرّاشدون، اللهمّ بارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وأزواجنا وقلوبنا وذرّيّاتنا» .

(٤) بعد الأذان:

روى مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو- رضي الله عنهما- أنّه سمع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول:

«إذا سمعتم المؤذّن فقولوا مثل ما يقول، ثمّ صلّوا عليّ فإنّه من صلّى عليّ صلاة صلّى الله عليه بها عشرا، ثمّ سلوا الله

---

(١) رواه الشافعي في «الأم» (١/ ٢٣٩، ٢٤٠) . والحاكم في المستدرك (١/ ٣٦٠) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي والبيهقي في «السنن الكبرى» (٤/ ٣٩، ٤٠) والنسائي مختصرا (٤/ ٧٥) .

(٢) رواه إسماعيل بن إسحاق القاضي في كتابه «فضل الصلاة على النبي صلّى الله عليه وسلّم» (ص ٧٩) . وقال مخرج الكتاب الألباني: إسناده صحيح، وكذا أخرجه الحاكم (١/ ٣٦٠) وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «المصنّف» (٦٤٢٥) وإسماعيل القاضي في: فضل الصلاة على النبي صلّى الله عليه وسلّم (٩٣) ، وذكره الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٣٣) ونسبه إلى أبي يعلى وقال: رجاله رجال الصحيح.

(٤) الشرط جمع شرطة، وهو الجندي الذي يقوم بالحراسة.

(٥) أحمد في المسند (١/ ١٠٦) وقال محققه الشيخ أحمد شاكر إسناده صحيح، وقال الأرنؤطيان في تحقيقهما لجلاء الأفهام: أخرجه عبد الله ابن الإمام أحمد في «زوائده» (١/ ١٠٦) وإسناده حسن.

لي الوسيلة فإنّها منزلة في الجنّة لا تنبغي إلّا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلّت له الشّفاعة» «١» .

(٥) عند الدّعاء:

وله ثلاثة مراتب:

إحداها: أن يصلّي عليه قبل الدّعاء وبعد حمد الله تعالى.

المرتبة الثّانية: أن يصلّي عليه في أوّل الدّعاء وأوسطه وآخره.

والثّالثة: أن يصلّي عليه في أوّله وآخره، ويجعل حاجته متوسّطة بينهما.

فأمّا المرتبة الأولى، فالدّليل عليها حديث فضالة بن عبيد- رضي الله عنه- قال: سمع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رجلا يدعو في صلاته فلم يصلّ على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فقال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «عجل هذا» ، ثمّ دعاه فقال له ولغيره: «إذا صلّى أحدكم فليبدأ بتحميد الله والثّناء عليه، ثمّ ليصلّ على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ثمّ ليدع بعد بما شاء» وقد تقدّم «٢» .

عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: كنت أصلّي والنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأبو بكر وعمر معه، فلمّا جلست بدأت بالثّناء على الله تعالى، ثمّ بالصّلاة على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ثمّ دعوت لنفسي، فقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «سل تعطه سل تعطه» «٣» .
عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: «إذا أراد أحدكم أن يسأل الله تعالى فليبدأ بحمده والثّناء عليه بما هو أهله، ثمّ يصلّي على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ يسأل بعد، فإنّه أجدر أن ينجح أو يصيب» «٤» .
وعن عليّ- رضي الله عنه- ما من دعاء إلّا بينه وبين الله حجاب حتّى يصلّي على محمّد صلّى الله عليه وسلّم، فإذا صلّى على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، انخرق الحجاب، واستجيب الدّعاء، وإذا لم يصلّ على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، لم يستجب الدّعاء» «٥» .
قال المؤلّف: وهذه المواطن الّتي تقدّمت كلّها شرعت الصّلاة على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فيها أمام الدّعاء، فمفتاح

---

(١) أخرجه مسلم (٣٨٤) .
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) أخرجه الترمذي (٥٩٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح. وقال محقق جامع الأصول (٤/ ١٥٦) إسناده حسن.
(٤) رجاله ثقات لكنه منقطع. وانظر جلاء الأفهام بتحقيق الأرناؤوط (ص ٣٠٧) .
(٥) قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٣/ ١٦٥) : وعن علي- رضي الله عنه- قال: كل دعاء محجوب حتى يصلّي على محمد صلّى الله عليه وسلّم، رواه الطبراني في «الأوسط موقوفا، ورواته ثقات، ورفعه بعضهم، والموقوف أصح، وذكره الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١٦٠) . وقال: رجاله ثقات، وأخرج الترمذي (٤٨٦) عن عمر موقوفا «الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى يصلّي على النبي صلّى الله عليه وسلّم» وفي سنده أبو قرة الأسدي وهو مجهول. قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: ورد له شاهد مرفوع في جزء الحسن بن عرفة. انظر فتح الباري (١١/ ١٦٩) .

جـ ١(ص: ٥٦١)

الدّعاء: الصّلاة على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، كما أنّ مفتاح الصّلاة الطّهور. والصّلاة على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، بمنزلة الفاتحة من الصّلاة، فصلّى الله عليه وعلى آله وسلّم تسليما.
قال أحمد بن أبي الحواريّ: سمعت أبا سليمان الدّارانيّ يقول: «من أراد أن يسأل الله حاجته، فليبدأ بالصّلاة على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وليسأل حاجته، وليختم بالصّلاة على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فإنّ الصّلاة على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم مقبولة، والله أكرم أن يردّ ما بينهما.
(٦) عند دخول المسجد والخروج منه:
عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «إذا دخل أحدكم المسجد، فليسلّم على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وليقل: اللهمّ افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج، فليسلّم على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وليقل: اللهمّ أجرني من الشّيطان الرّجيم» «١» .
وفي المسند والتّرمذيّ، وسنن ابن ماجه من حديث فاطمة بنت الحسين عن جدّتها فاطمة الكبرى قالت: كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا دخل المسجد قال: «اللهمّ صلّ على محمّد وسلّم، اللهمّ اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج قال مثل ذلك، إلّا أنّه يقول: أبواب فضلك» ولفظ التّرمذيّ: كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا دخل المسجد صلّى على محمّد وسلّم «٢» .
(٧) على الصّفا والمروة:
عن ابن عمر- رضي الله عنهما- أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان يكبّر على الصّفا ثلاثا يقول: «لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كلّ شيء قدير، ثمّ يصلّي على النّبيّ صلّى الله

عليه وسلّم، ثمّ يدعو، ويطيل القيام والدّعاء، ثمّ يفعل على المروة مثل ذلك» وهذا من توابع الدّعاء أيضا «٣» .

وعن وهب بن الأجدع قال: سمعت عمر بن الخطّاب- رضي الله عنه- يخطب النّاس بمكّة يقول: «إذا قدم الرّجل منكم حاجّا، فليطف بالبيت سبعا، وليصلّ عند المقام ركعتين، ثمّ يستلم الحجر الأسود، ثمّ يبدأ بالصّفا، فيقوم عليها، ويستقبل البيت فيكبّر سبع تكبيرات، بين كلّ تكبير حمد الله عزّ وجلّ وثناء عليه، وصلاة على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ومسألة لنفسه، وعلى المروة مثل ذلك» «٤» .

---

(١) صححه ابن خزيمة (٤٥٢) وابن حبان (٣٢١) وقال الأرنؤطيان وهو كما قالا.

(٢) رواه أبو داود (٤٦٥) والترمذي (٣٠٤) وابن ماجة (٧٧١) وابن السني (٨٧) قال الحافظ ابن حجر: رجال إسناده ثقات إلّا أن فيه انقطاعا وقال الأرنؤطيان حديث صحيح بشواهده.

(٣) فضل الصلاة على النبي صلّى الله عليه وسلّم لإسماعيل بن إسحاق القاضي رقم (٨٧) قال الألباني: سنده متصل صحيح.

(٤) رواه إسماعيل بن إسحاق في كتاب فضل الصلاة على النبي صلّى الله عليه وسلّم (ص ٧١) ، وقال الحافظ ابن كثير: إسناده جيد حسن قوي، وانظر تفسير ابن كثير (٣/ ٥٣٣) .

جـ ١(ص: ٥٦٢)

(٨) عند اجتماع القوم وقبل تفرّقهم:

عن جابر- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «ما اجتمع قوم ثمّ تفرّقوا عن غير ذكر الله وصلاة على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، إلّا قاموا عن أنتن من جيفة» » .

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، قال: «ما جلس قوم مجلسا لم يذكروا الله فيه ولم يصلّوا على نبيّهم إلّا كان عليهم ترة «٢» فإن شاء عذّبهم وإن شاء غفر لهم» «٣» .

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، قال: «ما قعد قوم مقعدا لا يذكرون الله عزّ وجلّ ويصلّون على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، إلّا كان عليهم حسرة يوم القيامة وإن دخلوا الجنّة للثّواب» «٤» .

(٩) عند ورود ذكره صلوات الله وسلامه عليه:

عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، قال: «من ذكرت عنده فليصلّ عليّ فإنّه من صلّى عليّ مرّة صلّى الله عليه عشرا» «٥» .

وعن كعب بن عجرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «احضروا المنبر» فحضرنا فلمّا ارتقى درجة قال: «آمين» . فلمّا ارتقى الثّانية قال: «آمين» . فلمّا ارتقى الدّرجة الثّالثة قال: «آمين» . فلمّا نزل قلنا يا رسول الله! لقد سمعنا منك اليوم شيئا ما كنّا نسمع، قال: «إنّ جبريل عرض لي، فقال: بعد من أدرك رمضان فلم يغفر له، قلت: آمين، فلمّا رقيت الثّانية قال: بعد من ذكرت عنده فلم يصلّ عليك، فقلت: آمين، فلمّا رقيت الثّالثة،

---

(١) رواه أبو داود الطيالسي (١٧٥٦) ، والبيهقي في شعب الإيمان، والضياء المقدسي في المختارة والنسائي في عمل اليوم والليلة (ص ٤١١) بلفظ «ما جلس قوم مجلسا ثم تفرقوا عن غير صلاة على النبي صلّى الله عليه وسلّم إلّا تفرقوا على أنتن من ريح الجيفة» . قال ابن القيم رحمه الله: قال أبو عبد الله المقدسي (الضياء) : هذا عندي على شرط مسلم. راجع جلاء الأفهام (ص ٧٨) وأيضا صحح الحديث الألباني، انظر صحيح الجامع الصغير برقم (٥٣٨٢) .

(٢) (ترة) : نقص وتبعة وحسرة. انظر النهاية لابن الأثير (١/ ١٨٩) .

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند (٢/ ٤٤٦، ٤٥٢، ٤٨١، ٤٨٤، ٤٩٥) ، والترمذي برقم (٣٣٨٠) وقال: حديث حسن صحيح، ورواه الحاكم في المستدرك (١/ ٤٩٦) ، وإسماعيل القاضي في فضل الصلاة على النبي صلّى الله عليه وسلّم (ص ٥١) ، وصحح الحديث أيضا الألباني، انظر سلسلة

الأحاديث الصحيحة برقم (٧٤) ، وعبد القادر الأرناؤوط، انظر تعليقه على كتاب «جامع الأصول» (٤/ ٤٧٢) .
(٤) رواه الإمام أحمد في المسند (٢/ ٤٦٣) وابن حبان (٢٣٢٢) كما في موارد الظمآن. والحاكم (١/ ٤٩٢) ، وإسماعيل القاضي في «فضل الصلاة على النبي صلّى الله عليه وسلّم» (ص ٥٢، ٥٣) ، وقال الحافظ الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. انظر مجمع الزوائد (١٠/ ٧٩) وأيضا صححه الألباني، انظر السلسلة الصحيحة برقم (٧٦) ، وصحيح الجامع الصغير برقم (٧٥٠٠) .
(٥) رواه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (ص ٦٠) ، وابن السني (٣٨٣) ، والبخاري في الأدب المفرد (ص ٤٦٣) ، قال النووي: إسناده جيد. انظر كتابه «الأذكار» (ص ١٤٥) ، وقال ابن القيم: إسناده صحيح، انظر كتابه «جلاء الأفهام» (ص ٢٩٥) .
جـ ١(ص: ٥٦٣)

قال: بعد من أدرك أبويه الكبر عنده أو أحدهما فلم يدخلاه الجنّة. قلت: آمين» «١» .
وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «رغم «٢» أنف رجل ذكرت عنده فلم يصلّ عليّ، ورغم أنف رجل دخل عليه رمضان ثمّ انسلخ قبل أن يغفر له، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنّة» «٣» .
عن الحسين بن عليّ بن أبي طالب- رضي الله عنهما- عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «بخيل من ذكرت عنده فلم يصلّ عليّ» «٤» .
(١٠) عند طرفي النّهار:
عن أبي الدّرداء- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «من صلّى عليّ حين يصبح وحين يمسي عشرا، أدركته شفاعتي يوم القيامة» «٥» .
(١١) عند الوقوف على قبره صلّى الله عليه وسلّم:
عن عبد الله بن دينار قال: رأيت عبد الله بن عمر يقف على قبر النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فيصلّي على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ويدعو لأبي بكر وعمر- رضي الله عنهما- «٦» .
(١٢) عند الخروج إلى السّوق، أو إلى دعوة أو نحوها:
قال ابن أبي حاتم: حدّثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطّان، حدّثنا محمّد بن بشر، حدّثنا مسعر، حدّثنا عامر بن شقيق، عن أبي وائل قال: «ما رأيت عبد الله جلس في مأدبة ولا جنازة ولا غير ذلك، فيقوم حتّى يحمد الله، ويثني عليه، ويصلّي على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ويدعو بدعوات. وإن كان يخرج إلى السّوق، فيأتي أغفلها مكانا، فيجلس، فيحمد الله، ويصلّي على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ويدعو بدعوات» «٧» .

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٥٣، ١٥٤) ، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
(٢) (رغم) : قال الحافظ المنذري: بكسر الغين المعجمة أي: لصق بالرغام وهو التراب؛ وقال ابن الأعرابي: هو بفتح الغين، ومعناه: ذلّ. انظر الترغيب والترهيب (٢/ ٥٠٨) .
(٣) رواه الترمذي برقم (٣٥٣٩) وقال: حديث حسن غريب، وإسماعيل بن إسحاق القاضي في «فضل الصلاة على النبي صلّى الله عليه وسلّم» ، (ص ٣١) ، وحسّنه ابن حجر، وصححه الألباني، انظر صحيح الجامع برقم (٣٥٠٤) .
(٤) رواه الترمذي (٣٥٤٦) وقال حديث حسن صحيح، وأحمد في المسند (١/ ٢٠١) .
(٥) قال الحافظ الهيثمي: رواه الطبراني بإسنادين وإسناد أحدهما جيّد ورجاله وثقوا. انظر مجمع الزوائد (١٠/ ١٢٠) . وأيضا حسّن الحديث الألباني، انظر صحيح الجامع الصغير برقم (٦٢٣٣) .
(٦) ذكره مالك في الموطأ (١/ ١٦٦) ، وقال محققا جلاء الأفهام (ص ٢٢٨) إسناده موقوف صحيح. وقال الألباني في تخريج فضل الصلاة على النبي: إسناده موقوف صحيح.

(٧) ذكره السخاوي في القول البديع (ص ٢١٧) وقال: أخرجه ابن أبي حاتم وابن أبي شيبة.
جـ ١(ص: ٥٦٤)

(١٣) في صلاة العيد:
عن علقمة أنّ ابن مسعود وأبا موسى وحذيفة: خرج عليهم الوليد بن عقبة قبل العيد يوما فقال لهم: «إنّ هذا العيد قد دنا فكيف التّكبير فيه؟» قال عبد الله: «تبدأ فتكبّر تكبيرة تفتتح بها الصّلاة وتحمد ربّك، وتصلّي على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ تدعو وتكبّر وتفعل مثل ذلك، ثمّ تكبّر وتفعل مثل ذلك، ثمّ تقرأ، ثمّ تكبّر وتركع، ثمّ تقوم وتقرأ وتحمد ربّك وتصلّي على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ تدعو وتكبّر، وتفعل مثل ذلك، ثمّ تكبّر وتفعل مثل ذلك، ثمّ تكبّر وتفعل مثل ذلك، ثمّ تركع» . فقال حذيفة وأبو موسى: «صدق أبو عبد الرّحمن» «١» .
(١٤) يوم الجمعة وليلتها:
عن أوس بن أوس- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ من أفضل أيّامكم يوم الجمعة: فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النّفخة، وفيه الصّعقة، فأكثروا عليّ من الصّلاة فيه، فإنّ صلاتكم معروضة عليّ» قال:
قالوا يا رسول الله، وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت «٢» ؟ يقولون بليت، فقال: «إنّ الله عزّ وجلّ حرّم على الأرض أجساد الأنبياء» «٣» .
عن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أكثروا الصّلاة عليّ يوم الجمعة وليلة الجمعة، فمن صلّى عليّ صلاة صلّى الله عليه بها عشرا» «٤» .
عن أبي مسعود الأنصاريّ- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أكثروا الصّلاة عليّ في يوم الجمعة، فإنّه ليس أحد يصلّي عليّ يوم الجمعة إلّا عرضت عليّ صلاته» «٥» .
(١٥) عند ختم القرآن:
قال ابن القيّم- رحمه الله-: من مواطن الصّلاة عليه صلّى الله عليه وسلّم، عقب ختم القرآن، وهذا لأنّ

---

(١) رواه إسماعيل القاضي في كتاب فضل الصلاة على النبي صلّى الله عليه وسلّم (ص ٧٥، ٧٦) وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٢١) إسناده صحيح.
(٢) أرمت: بفتح الراء أو كسرها: أي (بليت) .
(٣) رواه: أبو داود برقم (١٠٤٧) ، والنسائي (٣/ ١٩) ، وابن ماجه برقم (١٠٨٥، ١٦٣٦) ، والإمام أحمد في المسند (٤/ ٨) ، والحاكم في المستدرك (٤/ ٥٦٠) ، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وقال النووي: رواه أبو داود بإسناد صحيح. انظر «رياض الصالحين» (ص ٤١٣) .
(٤) رواه البيهقي في سننه (٣/ ٢٤٩) ، وحسّنه الألباني، انظر صحيح الجامع برقم (١٢٢٠) ، وأورد له شواهد كثيرة، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم (١٤٠٧) .
(٥) رواه الحاكم (٢/ ٤٢١) وقال: صحيح الإسناد، والبيهقي في «شعب الإيمان» وصححه الألباني لشواهده، انظر صحيح الجامع الصغير برقم (١٢١٦) ، والسلسلة الصحيحة برقم (١٥٢٧) .
جـ ١(ص: ٥٦٥)

المحلّ محلّ دعاء، وقد نصّ الإمام أحمد- رحمه الله- على الدّعاء عقيب الختمة، وفي رواية أبي الحارث: «كان أنس- رضي الله عنه- إذا ختم القرآن جمع أهله وولده» ، وإذا كان هذا من أكبر مواطن الدّعاء وأحقّها بالإجابة فهو من أكبر مواطن الصّلاة على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم» «١» .
(١٦) عند القراءة:
قال الإمام أحمد بن حنبل- رحمه الله-: إذا مرّ المصلّي بآية فيها ذكر النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فإن كان في نفل صلّى عليه صلّى الله عليه وسلّم «٢» .

قال ابن سنان: سمعت عبّاس العنبريّ وعليّ ابن المدينيّ يقولان: ما تركنا الصّلاة على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، في كلّ حديث سمعناه «٣» .
قال عبد الله بن عمرو- رضي الله عنهما- حدّثني بعض إخواني ممّن أثق بهم قال: رأيت رجلا من أهل الحديث في المنام، فقلت: ماذا فعل الله بك؟ قال: رحمني أو غفر لي، قلت: وبم ذلك؟ قال: إنّي كنت إذا أتيت على اسم النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، كتبت «صلّى الله عليه وسلّم» «٤» .
قال سفيان الثّوريّ: لو لم يكن لصاحب الحديث فائدة إلّا الصّلاة على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، لكفته فإنّه يصلّي عليه ما دام في ذلك الكتاب صلّى الله عليه وسلّم» «٥» .
(١٧) عند الهمّ، والشّدائد، وطلب المغفرة:
عن أبيّ بن كعب- رضي الله عنه- قال: «كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، إذا ذهب ثلثا اللّيل قام فقال: «يا أيّها النّاس، اذكروا الله، جاءت الرّاجفة تتبعها الرّادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه» . قال أبيّ: قلت: يا رسول الله إنّي أكثر الصّلاة عليك، فكم أجعل لك في صلاتي؟ فقال: «ما شئت» . قال: قلت: الرّبع؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك» . قلت: النّصف؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك» . قال: قلت: فالثّلثين؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك» . قلت: أجعل لك صلاتي كلّها؟ قال: «إذا تكفى همّك ويغفر لك ذنبك» «٦» .
والمعنى أنّ من يجعل دعاءه صلاة على النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام يكفيه الله ما أهمّه من أمر دينه ودنياه.

---

(١) انظر جلاء الأفهام (ص ٣٣٠، ٣٣١) .
(٢) انظر جلاء الأفهام لابن القيم (ص ٣٥٥) .
(٣) انظر جلاء الأفهام (ص ٣٣٨) .
(٤) انظر جلاء الأفهام (ص ٣٣٧) .
(٥) انظر جلاء الأفهام (ص ٣٣٦) .
(٦) رواه الترمذي (٢٤٥٧) وقال: حديث حسن صحيح. وأحمد في المسند (٥/ ١٣٦) ، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٢١) ، وصححه ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي: رواه أحمد وإسناده جيّد.

(١٨) عند خطبة الرّجل المرأة في النّكاح:
عن ابن عبّاس- رضي الله عنهما- في قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ.. «١» الآية..
قال: يعني أنّ الله تعالى يثني على نبيّكم، ويغفر له، وأمر الملائكة بالاستغفار له يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ أثنوا عليه في صلاتكم، وفي مساجدكم، وفي كلّ موطن، وفي خطبة النّساء فلا تنسوه.
(١٩) الصّلاة في كلّ مكان:
عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لا تجعلوا بيوتكم قبورا. ولا تجعلوا قبري عيدا.
وصلّوا عليّ فإنّ صلاتكم معروضة تبلغني حيث كنتم» «٢» .
(٢٠) آخر القنوت:
عن عبد الله بن الحارث أنّ أبا حليمة معاذا «٣» كان يصلّي على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، في القنوت. قال ابن القيّم- رحمه الله-: وهو مستحبّ في قنوت رمضان.

---

(١) سورة الأحزاب: ٥٦.
(٢) أبو داود (٢٠٤٢) ، وأحمد في المسند (٢/ ٣٦٧) ، وحسّنه الحافظ في تخريج الأذكار. وانظر «جامع الأصول» (٤/ ٤٠٧) .

(٣) هو معاذ بن الحارث الأنصاري القارىء: أقامه عمر بن الخطاب إماما يصلّي بالناس في شهر رمضان صلاة التراويح. وانظر جلاء الأفهام (ص ٢٧٩) .
جـ ١(ص: ٥٦٧)

فضائل الصّلاة على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم

(١) صلاة بصلوات:
عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «من صلّى عليّ واحدة صلّى الله عليه عشرا» «١» .
وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «من ذكرت عنده فليصلّ عليّ، ومن صلّى عليّ مرّة صلّى الله عليه عشرا» «٢» .
وعن عامر بن ربيعة- رضي الله عنه- قال: سمعت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول: «ما من عبد يصلّي عليّ إلّا صلّت عليه الملائكة ما دام يصلّي عليّ، فليقلّ العبد من ذلك أو ليكثر» «٣» .
وعن عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- قال: «من صلّى على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم صلاة صلّى الله عليه وملائكته سبعين صلاة فليقلّ من ذلك أو ليكثر» «٤» .
(٢) رفع للدّرجات وحطّ للسّيّئات:
فعن أبي طلحة الأنصاريّ- رضي الله عنه- قال: أصبح رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يوما طيّب النّفس يرى في وجهه البشر. قالوا: يا رسول الله: أصبحت اليوم طيّب النّفس يرى في وجهك البشر. قال: «أجل، أتاني آت من عند ربّي عزّ وجلّ، فقال: من صلّى عليك من أمّتك صلاة، كتب الله له بها عشر حسنات، ومحا عنه عشر سيّئات، ورفع له عشر درجات، وردّ عليه مثلها» «٥» .
وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «من صلّى عليّ صلاة واحدة صلّى الله عليه عشر صلوات وحطّ عنه عشر خطيئات ورفعت له عشر درجات» «٦» .
(٣) كفاية الهموم ومغفرة الذّنوب:
عن أبيّ بن كعب- رضي الله عنه- قال: «كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، إذا ذهب ثلثا اللّيل قام فقال: «يا أيّها

---

(١) رواه مسلم برقم (٤٠٨) .
(٢) رواه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (ص ٦٠) ، وابن السني (٢٨٣) ، والبخاري في الأدب المفرد (٦٤٣) ، وقال النووي رحمه الله: إسناده جيّد. انظر كتاب «الأذكار» له (ص ١٤٥) . وقال ابن القيم رحمه الله: إسناده صحيح، انظر «جلاء الأفهام» (ص ٢٩٥) .
(٣) رواه الإمام أحمد في المسند (٣/ ٤٤٥) ، وابن ماجه برقم (٩٠٧) . وإسماعيل القاضي في «فضل الصلاة على النبي صلّى الله عليه وسلّم» (ص ٩٢٥) وحسّنه الألباني لشواهده، انظر صحيح الجامع برقم (٥٦٢٠) ، وكذا تعليقه على كتاب «فضل الصلاة على النبي صلّى الله عليه وسلّم» (ص ٢٥) .
(٤) رواه الإمام أحمد في المسند (٢/ ١٧٢) ، قال الحافظ الهيثمي: رواه أحمد وإسناده حسن، انظر مجمع الزوائد (١٠/ ١٦٠) ، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح، انظر تخريجه على المسند برقم (٦٧٥٤) .
(٥) رواه الإمام أحمد في المسند (٤/ ٢٩) ، وصححه الألباني، انظر صحيح الجامع الصغير برقم (٥٧) .
(٦) رواه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ١٠٢) ، والنسائي (٣/ ٥٠) واللفظ له، وصححه الألباني، انظر صحيح الجامع برقم (٦٢٣٥) .

النّاس، اذكروا الله، جاءت الرّاجفة تتبعها الرّادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه» . قال أبيّ: قلت: يا رسول الله إنّي أكثر الصّلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي»
؟ فقال: «ما شئت» . قال: قلت: الرّبع؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك» . قلت: النّصف؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك» . قال: قلت: فالثّلثين؟
قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك» . قلت: أجعل لك صلاتي كلّها؟ قال: «إذا تكفى همّك ويغفر لك ذنبك» «٢» .
(٤) سبب لنيل شفاعته صلّى الله عليه وسلّم:
عن عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- أنّه سمع النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول: «إذا سمعتم المؤذّن فقولوا مثل ما يقول، ثمّ صلّوا عليّ فإنّه من صلّى عليّ صلاة صلّى الله عليه بها عشرا، ثمّ سلوا الله لي الوسيلة فإنّها منزلة في الجنّة، لا تنبغي إلّا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلّت له الشّفاعة» «٣» .
عن أبي الدّرداء- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «من صلّى عليّ حين يصبح عشرا وحين يمسي عشرا، أدركته شفاعتي يوم القيامة» «٤» .
عن رويفع بن ثابت رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «من صلّى على محمّد وقال: اللهمّ أنزله المقعد المقرّب عندك يوم القيامة وجبت له شفاعتي» «٥» .
(٥) سبب لعرض اسم المصلّي على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:
فعن أبي بكر الصّدّيق- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أكثروا الصّلاة عليّ، فإنّ الله وكّل بي ملكا عند قبري، فإذا صلّى عليّ رجل من أمّتي، قال لي ذلك الملك، يا محمّد إنّ فلان بن فلان صلّى عليك السّاعة» «٦» .
وعن عمّار بن ياسر- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ لله تعالى ملكا أعطاه سمع

---

(١) صلاتي: قال المنذري: معناه أكثر الدعاء فكم أجعل لك من دعائي صلاة عليك، انظر الترغيب والترهيب (٢/ ٥٠١) .
(٢) رواه الترمذي برقم (٢٤٥٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح، ورواه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ١٣٦) ، ورواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٢١) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. ورواه إسماعيل بن إسحاق القاضي في كتابه «فضل الصلاة على النبي صلّى الله عليه وسلّم» (ص ٢٩، ٣٠) . قال الحافظ الهيثمي: رواه أحمد وإسناده جيّد، انظر مجمع الزوائد (١٠/ ١٦٠) .
(٣) رواه مسلم برقم (٣٨٤) .
(٤) تقدّم تخريجه.
(٥) رواه الإمام أحمد في المسند (٤/ ١٠٨) ، وقال الحافظ الهيثمي: رواه البزار والطبراني في الأوسط والكبير وأسانيدهم حسنة، انظر مجمع الزوائد (١٠/ ١٦٣) .
(٦) رواه الديلمي في مسند الفردوس (١/ ٩٣) ، وحسّنه الألباني، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم (١٥٣٠) ، وصحيح الجامع الصغير برقم (١٢١٨) .

العباد، فليس من أحد يصلّي عليّ إلّا أبلغنيها، وإنّي سألت ربّي أن لا يصلّي عليّ عبد صلاة إلّا صلّى عليه عشر أمثالها» «١» .
وعن ابن مسعود- رضي الله عنه- عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «إنّ لله تعالى ملائكة سيّاحين في الأرض يبلّغوني من أمّتي السّلام» «٢» .

(٦) طهرة من لغو المجلس:
عن جابر- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «ما اجتمع قوم ثمّ تفرّقوا عن غير ذكر الله وصلاة على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، إلّا قاموا عن أنتن من جيفة» «٣» .
عن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، قال: «ما جلس قوم مجلسا لم يذكروا الله فيه ولم يصلّوا على نبيّهم إلّا كان عليهم ترة «٤» فإن شاء عذّبهم وإن شاء غفر لهم» «٥» .
عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «ما قعد قوم مقعدا لا يذكرون الله عزّ وجلّ ويصلّون على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، إلّا كان عليهم حسرة يوم القيامة وإن دخلوا الجنّة للثّواب» «٦» .
(٧) سبب في إجابة الدّعاء:
عن عليّ بن أبي طالب- رضي الله عنه- قال: «كلّ دعاء محجوب حتّى يصلّى على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم» «٧» .
(٨) انتفاء الوصف بالبخل والجفاء:
عن الحسين بن عليّ بن أبي طالب- رضي الله عنهما- عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «البخيل من ذكرت عنده فلم يصلّ عليّ» «٨» .

---

(١) رواه الطبراني والبزار، وحسّنه الألباني، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم (١٥٣٠) ، وأيضا صحيح الجامع الصغير برقم (٢١٧٢) .
(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (١/ ٣٨٧، ٤٤١، ٤٥٢) . والنسائي (٣/ ٤٣) ، والدارمي برقم (٢٧٧٧) ، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٢١) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وإسماعيل بن إسحاق القاضي في «فضل الصلاة على النبي صلّى الله عليه وسلّم» (ص ٣٤) ، وأيضا صححه الألباني، انظر صحيح الجامع الصغير برقم (٢١٧٠) .
(٣) تقدّم تخريجه.
(٤) ترة: نقص وتبعة وحسرة، انظر النهاية لابن الأثير (١/ ١٨٩) .
(٥) تقدّم تخريجه.
(٦) تقدّم تخريجه.
(٧) ذكره الهيثمي في المجمع وقال: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات وحسّنه الألباني، انظر صحيح الجامع (٤٢٩٩) .
(٨) رواه الترمذي برقم (١٤٥٦) وقال: حديث حسن صحيح غريب. والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٥٥، ٥٦) ، وروواه الإمام أحمد في المسند (١/ ٢٠١) ، وابن حبان (٢٣٨٨) موارد، والحاكم في المستدرك (١/ ٥٤٩) وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

وعن أبي ذرّ- رضي الله عنه- أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، قال: «إنّ أبخل النّاس من ذكرت عنده فلم يصلّ عليّ» «١» .
وعن الحسن البصري- رحمه الله- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «بحسب امرىء من البخل أن أذكر عنده فلا يصلّي عليّ» «٢» .
وعن قتادة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «من الجفاء «٣» أن أذكر عند رجل فلا يصلّي عليّ» «٤» .
(٩) دليل إلى الجنّة:
عن ابن عبّاس- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «من نسي «٥» الصّلاة عليّ خطىء طريق الجنّة» «٦» .

وعن أبي جعفر محمّد بن عليّ الباقر- رحمه الله- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «من ذكرت عنده فلم يصلّ عليّ فقد خطىء طريق الجنّة» «٧» .

---

(١) رواه إسماعيل بن إسحاق القاضي في كتابه «فضل الصلاة على النبي صلّى الله عليه وسلّم» (ص ٤٣) . وصححه الألباني بشواهده، انظر حاشيته على الكتاب المذكور (ص ٤٣) .
(٢) رواه إسماعيل بن إسحاق القاضي في كتابه «فضل الصلاة على النبي صلّى الله عليه وسلّم» (ص ٤٣) . وقال مخرج الكتاب الألباني: إسناده مرسل صحيح.
(٣) قال الحافظ السخاوي: قوله «من الجفاء» هو بفتح الجيم والمد وهو ترك البر والصلة ويطلق أيضا على غلظ الطبع، انظر كتاب «القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع» (ص ١٤٦) .
(٤) قال ابن القيم رحمه الله: «لو تركنا وهذا المرسل وحده لم نحتج به، ولكن له أصول وشواهد قد تقدمت من تسمية تارك الصلاة عليه عند ذكره بخيلا وشحيحا، والدعاء عليه بالرغم. وهذا من موجبات جفائه، انظر كتابه «جلاء الأفهام» (ص ٣٢١) ، وقال السخاوي- بعد أن أورد الحديث-: أخرجه النميري هكذا من وجهين من طريق عبد الرزاق وهو في «جامعه» ورواته ثقات، انظر كتابه «القول البديع» (ص ١٤٦) .
(٥) من نسى الصلاة عليّ: قال العلامة المناوي قال في الإتحاف: المراد بالنسيان هنا: الترك، نظير قوله تعالى في توبيخ الفاجر أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وَكَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى أي: تركت آياتنا فجزاؤك أنك تترك من الرحمة وتوضع في العذاب، وليس المراد بالنسيان هنا: الذهول، لأن الناسي- أي: الذي ذهل من حفظه- غير مكلف أي ليس بمؤاخذ. انظر كتابه «فيض القدير» (٦/ ١٢٩) بتصرف يسير.
(٦) رواه ابن ماجه في سننه برقم (٩٠٨) ، قال الحافظ ابن حجر عن هذا الحديث: أخرجه ابن ماجه عن ابن عباس والبيهقي في «الشّعب» من حديث أبي هريرة. وابن أبي حاتم من حديث جابر. والطبراني من حديث حسن بن علي. وهذه الطرق يشد بعضها بعضا، انظر فتح الباري (١١/ ١٧٢) . كما قوّى الحديث لشواهده أيضا ابن الملقن. انظر «فيض القدير» (٦/ ٢٣٢) .
(٧) رواه إسماعيل بن إسحاق القاضي في كتابه «فضل الصلاة على النبي صلّى الله عليه وسلّم» (ص ٤٦) من عدّة أوجه. قال الحافظ بن كثير: هذا مرسل جيّد يتقوى بالذي قبله. أ. هـ. يعني حديث ابن عباس عند ابن ماجه، انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٥٢٠) .
جـ ١(ص: ٥٧١)

الفوائد والثّمرات الحاصلة بالصّلاة عليه صلّى الله عليه وسلّم

قال المؤلّف- رحمه الله-: ومن الفوائد والثّمرات الحاصلة بالصّلاة عليه صلّى الله عليه وسلّم:
الأولى: امتثال أمر الله سبحانه وتعالى.
الثّانية: موافقته سبحانه في الصّلاة عليه صلّى الله عليه وسلّم، وإن اختلفت الصّلاتان.
الثّالثة: موافقة ملائكته فيها.
الرّابعة: حصول عشر صلوات من الله على المصلّي مرّة.
الخامسة: أنّه يرفع له عشر درجات.
السّادسة: أنّه يكتب له عشر حسنات.
السّابعة: أنّه يمحى عنه عشر سيّئات.
الثّامنة: أنّه يرجى إجابة دعائه إذا قدّمها أمامه، فهي تصاعد الدّعاء إلى عند ربّ العالمين.
التّاسعة: أنّها سبب لشفاعته صلّى الله عليه وسلّم إذا قرنها بسؤال الوسيلة له، أو أفردها.
العاشرة: أنّها سبب لغفران الذّنوب.
الحادية عشرة: أنّها سبب لكفاية الله العبد ما أهمّه.

الثّانية عشرة: أنّها سبب لقرب العبد منه صلّى الله عليه وسلّم يوم القيامة.
الثّالثة عشرة: أنّها تقوم مقام الصّدقة لذي العسرة.
الرّابعة عشرة: أنّها سبب لقضاء الحوائج.
الخامسة عشرة: أنّها سبب لصلاة الله على المصلّي وصلاة ملائكته عليه.
السّادسة عشرة: أنّها زكاة للمصلّي وطهارة له.
السّابعة عشرة: أنّها سبب لتبشير العبد بالجنّة قبل موته.
الثّامنة عشرة: أنّها سبب للنّجاة من أهوال يوم القيامة.
التّاسعة عشرة: أنّها سبب لردّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم الصّلاة والسّلام على المصلّي والمسلّم عليه.
العشرون: أنّها سبب لتذكّر العبد ما نسيه كما تقدّم.
الحادية والعشرون: أنّها سبب لطيب المجلس، وأن لا يعود حسرة على أهله يوم القيامة.
الثّانية والعشرون: أنّها سبب لنفي الفقر كما تقدّم.
الثّالثة والعشرون: أنّها تنفي عن العبد اسم البخل إذا صلّى عليه عند ذكره صلّى الله عليه وسلّم.
جـ ١(ص: ٥٧٢)

الرّابعة والعشرون: أنّها ترمي صاحبها على طريق الجنّة وتخطىء بتاركها عن طريقها.
الخامسة والعشرون: أنّها تنجي من نتن المجلس الّذي لا يذكر فيه الله ورسوله ويحمد ويثنى عليه فيه، ويصلّى على رسوله صلّى الله عليه وسلّم.
السّادسة والعشرون: أنّها سبب لتمام الكلام الّذي ابتدىء بحمد الله والصّلاة على رسوله.
السّابعة والعشرون: أنّها سبب لوفور نور العبد على الصّراط.
الثّامنة والعشرون: أنّه يخرج بها العبد عن الجفاء.
التّاسعة والعشرون: أنّها سبب لإبقاء الله سبحانه الثّناء الحسن للمصلّي عليه بين أهل السّماء والأرض، لأنّ المصلّي طالب من الله أن يثني على رسوله ويكرّمه ويشرّفه، والجزاء من جنس العمل، فلا بدّ أن يحصل للمصلّي نوع من ذلك.
الثّلاثون: أنّها سبب للبركة في ذات المصلّي وعمله وعمره وأسباب مصالحه، لأنّ المصلّي داع ربّه أن يبارك عليه وعلى آله، وهذا الدّعاء مستجاب، والجزاء من جنسه.
الحادية والثّلاثون: أنّها سبب لنيل رحمة الله له، لأنّ الرحمة إمّا بمعنى الصّلاة كما قاله طائفة، وإمّا من لوازمها وموجباتها على القول الصّحيح، فلا بدّ للمصلّي عليه من رحمة تناله.
الثّانية والثّلاثون: أنّها سبب لدوام محبّته للرّسول صلّى الله عليه وسلّم وزيادتها وتضاعفها، وذلك عقد من عقود الإيمان الّذي لا يتمّ إلّا به، لأنّ العبد كلّما أكثر من ذكر المحبوب واستحضاره في قلبه واستحضار محاسنه ومعانيه الجالبة لحبّه تضاعف حبّه له وتزايد شوقه إليه، واستولى على جميع قلبه، وإذا أعرض عن ذكره وإحضاره وإحضار محاسنه بقلبه، نقص حبّه من قلبه، ولا شيء أقرّ لعين المحبّ من رؤية محبوبه، ولا أقرّ لقلبه من ذكره وإحضار محاسنه، فإذا قوي هذا في قلبه، جرى لسانه بمدحه والثّناء عليه، وذكر محاسنه، وتكون زيادة ذلك ونقصانه بحسب زيادة الحبّ ونقصانه في قلبه، والحسّ شاهد بذلك.
الثّالثة والثّلاثون: أنّ الصّلاة عليه صلّى الله عليه وسلّم سبب لمحبّته للعبد، فإنّها إذا كانت سببا لزيادة محبّة المصلّي عليه له، فكذلك هي سبب لمحبّته هو للمصلّي عليه صلّى الله عليه وسلّم.
الرّابعة والثّلاثون: أنّها سبب لهداية العبد وحياة قلبه، فإنّه كلّما أكثر الصّلاة عليه صلّى الله عليه وسلّم وذكره، استولت محبّته على قلبه، حتّى لا يبقى في قلبه معارضة لشيء من أوامره، ولا شكّ في شيء ممّا جاء به، بل يصير ما جاء به مكتوبا مسطورا في قلبه، لا زال يقرؤه على تعاقب أحواله، ويقتبس الهدى والفلاح وأنواع العلوم منه، وكلّما ازداد في ذلك بصيرة وقوّة معرفة، ازدادت صلاته عليه صلّى الله عليه وسلّم.
الخامسة والثّلاثون: أنّها سبب لعرض اسم المصلّي عليه صلّى الله عليه وسلّم وذكره عنده.

جـ ١(ص: ٥٧٣)

السّادسة والثّلاثون: أنّها سبب لتثبيت القدم على الصّراط، والجواز عليه، لحديث عبد الرّحمن بن سمرة الّذي رواه عنه سعيد بن المسيّب في رؤيا النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وفيه: «ورأيت رجلا من أمّتي يزحف على الصّراط ويحبو أحيانا ويتعلّق أحيانا، فجاءته صلاته عليّ فأقامته على قدميه وأنقذته» «١» .
السّابعة والثّلاثون: أنّ الصّلاة عليه صلّى الله عليه وسلّم أداء لأقلّ القليل من حقّه، مع أنّ الّذي يستحقّه لا يحصى علما ولا قدرة، ولا إرادة، ولكنّ الله سبحانه لكرمه رضي من عباده باليسير من شكره وأداء حقّه.
الثّامنة والثّلاثون: أنّها متضمّنة لذكر الله تعالى وشكره، ومعرفة إنعامه على عبيده بإرساله، فالمصلّي عليه صلّى الله عليه وسلّم قد تضمّنت صلاته عليه ذكر الله وذكر رسوله، وسؤاله أن يجزيه بصلاته عليه ما هو أهله كما عرّفتنا ربّنا وأسماءه وصفاته، وهدانا الله بها إلى طريق مرضاته، وعرّفنا جلّ جلاله ما لنا بعد الوصول إليه، والقدوم عليه، فهي متضمّنة لكلّ الإيمان، بل هي متضمّنة للإقرار بوجوب الرّبّ المدعوّ وعلمه وسمعه وقدرته وإرادته وحياته وكلامه، وإرسال رسوله، وتصديقه في أخباره كلّها، وكمال محبّته، ولا ريب أنّ هذه هي أصول الإيمان، فالصّلاة عليه صلّى الله عليه وسلّم متضمّنة لعلم العبد ذلك، وتصديقه به، ومحبّته له، فكانت من أفضل الأعمال.
التّاسعة والثّلاثون: أنّ الصّلاة عليه صلّى الله عليه وسلّم من العبد هي دعاء، ودعاء العبد وسؤاله من ربّه نوعان:
أحدهما: سؤاله حوائجه ومهمّاته وما ينوبه في اللّيل والنّهار، فهذا دعاء وسؤال، وإيثار لمحبوب العبد ومطلوبه.
والثّاني: سؤاله أن يثني على خليله وحبيبه، ويزيد في تشريفه وتكريمه وإيثاره ذكره، ورفعه، ولا ريب أنّ الله تعالى يحبّ ذلك ورسوله يحبّه، فالمصلّي عليه صلّى الله عليه وسلّم قد صرف سؤاله ورغبته وطلبه إلى محابّ الله ورسوله، وآثر ذلك على طلبه حوائجه ومحابّه هو، بل كان هذا المطلوب من أحبّ الأمور إليه وآثرها عنده، فقد آثر ما يحبّه الله ورسوله على ما يحبّه هو، فقد آثر الله ومحابّه على ما سواه، والجزاء من جنس العمل. فمن آثر الله على غيره، آثر الله على غيره.

(١) رواه أبو موسى المديني وبنى عليه كتابه «الترغيب والترهيب» وقال: هذا حديث حسن جدّا، وانظر جلاء الأفهام (ص ٣٦٨) .

جـ ١(ص: ٥٧٤)

افتتاح صلاة المصلّي بقوله «اللهمّ» ومعنى ذلك*

لا خلاف أنّ لفظة «اللهمّ» معناها «يا الله» ولهذا لا تستعمل إلّا في الطّلب، فلا يقال: اللهمّ غفور رحيم، بل يقال: اللهمّ اغفر لي وارحمني.
واختلف النّحاة في الميم المشدّدة من آخر الاسم:
فقال: سيبويه: زيدت عوضا من حرف النّداء ولذلك لا يجوز عنده الجمع بينهما في اختيار الكلام، لا يقال: «يا اللهمّ» إلّا فيما ندر.
وقيل: الميم عوض عن جملة محذوفة، والتّقدير: «يا الله أمّنا بخير» أي: اقصدنا، ثمّ حذف الجارّ والمجرور وحذف المفعول، فبقي في التّقدير: يا الله أمّ» ثمّ حذفوا الهمزة لكثرة دوران هذا الاسم في الدّعاء على ألسنتهم، فبقي «يا اللهمّ» ، وهذا قول الفرّاء. وصاحب هذا القول يجوّز دخول «يا» عليه، ويحتجّ بقول الشّاعر:
وما عليك أن تقولي كلّما ... صلّيت أو سبّحت يا اللهمّا

اردد علينا شيخنا مسلّما «١» .
قال المؤلّف- رحمه الله-: وردّ البصريّون هذا بوجوه «٢» .
وقيل: زيدت الميم للتّعظيم والتّفخيم، كزيادتها في «زرقم» «٣» لشديد الزّرقة «وابنم» في الابن.
قال المؤلّف- رحمه الله-: «الميم» حرف شفهيّ يجمع النّاطق به شفتيه، فوضعته العرب علما على الجمع، فقالوا للواحد: «أنت» فإذا جاوزوه إلى الجمع قالوا «أنتم» ، وقالوا للواحد الغائب «هو» فإذا جاوزوه إلى الجمع قالوا:
«هم» وكذلك في المتّصل يقولون: ضربت، وضربتم، وإيّاك، وإيّاكم، وإيّاه، وإيّاهم، ونظائره نحو: به وبهم، ويقولون للشّيء الأزرق: أزرق، فإذا اشتدّت زرقته، واستحكمت، قالوا: زرقم، ويقولون للكبير الاست: ستهم.
وتأمّل الألفاظ الّتي فيها الميم كيف تجد الجمع معقودا بها مثل «لمّ الشّيء يلمّه» : إذا جمعه، ومنه «لمّ الله

---

* قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً (الأحزاب: ٥٦) . في هذه الآية القرآنية المباركة، أمر الله تعالى بالصّلاة والسّلام على رسوله محمد صلّى الله عليه وسلّم، وقد بيّن صلوات الله وسلامه عليه كيفية الصلاة عليه بقوله: «قولوا: اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد..» (الحديث: تقدم تخريجه) . فما معنى قول المصلّي «اللهم» في افتتاح صلاته على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وقد وضّح المؤلف- رحمه الله- معنى هذه اللفظة وشرحها شرحا وافيا فليتنبّه إليه فإنه مهم.

(١) الشيخ هنا: الأب والزوج.

(٢) هذه الوجوه ذكرها المؤلف مفصّلة وهي (عشرة وجوه) ختمها بقوله: «فهذا كله لا يسوغ فيه التقدير الذي ذكروه» .

(٣) وذكر ابن فارس في المقاييس: الزّرقم، أجمع أهل اللغة أن أصله من الزّرق، فإن الميم فيه زائدة- (المقاييس ٣/ ٥٢) .

شعثه» أي جمع ما تفرّق من أموره، ومنه قولهم «دار لمومة» أي: تلمّ النّاس وتجمعهم، ومنه أَكْلًا لَمًّا «١» . جاء في تفسيرها يأكل نصيبه ونصيب صاحبه، وأصله من «اللّمّ» وهو الجمع، كما يقال: لفّه يلفّه، ومنه ألمّ بالشّيء: إذا قارب الاجتماع به والوصول إليه، ومنه «اللّمم» وهو مقاربة الاجتماع بالكبائر، ومنه الملمّة وهي النّازلة الّتي تصيب العبد، ومنه «اللّمّة» وهي الشّعر الّذي قد اجتمع، وتقلّص حتّى جاوز شحمة الأذن، ومنه: (تمّ الشّيء) وما تصرّف منها، ومنه بدر التّمّ إذا كمل واجتمع نوره، ومنه التّوأم للولدين المجتمعين في بطن، ومنه الأمّ، وأمّ الشّيء أصله الّذي تفرّع منه، فهو الجامع له، وبه سمّيت مكّة أمّ القرى، والفاتحة أمّ القرآن، واللّوح المحفوظ أمّ الكتاب، قال الجوهريّ: أمّ الشّيء أصله، ومكّة أمّ القرى، وأمّ مثواك: صاحبة منزلك، يعني الّتي تأوي إليها، وتجتمع معها، وأمّ الدّماغ: الجلدة الّتي تجمع الدّماغ، ويقال لها: أمّ الرأس، وقوله تعالى في الآيات المحكمات:
هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ «٢» . والأمّة: الجماعة المتساوية في الخلقة والزّمان، قال تعالى: وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ «٣» ، وقال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «لولا أنّ الكلاب أمّة من الأمم لأمرت بقتلها» «٤» .
ومنه الإمام الّذي يجتمع المقتدون به على اتّباعه، ومنه: أمّ الشّيء يؤمّه: إذا اجتمع قصده، وهمّه إليه، ومنه:
رمّ الشّيء يرمّه: إذا أصلحه، وجمع متفرّقة، قيل: ومنه سمّي الرّمّان لاجتماع حبّه وتضامّه.
ومنه: ضمّ الشّيء يضمّه، إذا جمعه، ومنه همّ الإنسان وهمومه وهي إرادته وعزائمه الّتي تجتمع في قلبه.

ومنه قولهم للأسود: أحمّ وللفحمة السّوداء: (حممة) ، وحمّم رأسه: إذا اسودّ بعد حلقه، كلّ هذا لأنّ السّواد لون جامع للبصر لا يدعه يتفرّق، ولهذا يجعل علي عيني الضّعيف البصر لوجع أو غيره شيء أسود من شعر أو خرقة، ليجمع عليه بصره، فتقوى القوّة الباصرة، وهذا باب طويل فلنقتصر منه على هذا القدر.
وإذا علم هذا من شأن الميم، فهم ألحقوها في آخر هذا الاسم الّذي يسأل الله سبحانه به في كلّ حاجة وكلّ حال إيذانا بجميع أسمائه وصفاته. فالسّائل إذا قال: «اللهمّ إنّي أسألك» كأنّه قال: أدعو الله الّذي له الأسماء الحسنى والصّفات العلى بأسمائه وصفاته، فأتى بالميم المؤذنة بالجمع في آخر هذا الاسم إيذانا بسؤاله تعالى بأسمائه كلّها كما قال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في الحديث الصّحيح: «ما أصاب عبدا قطّ همّ ولا حزن، فقال: اللهمّ إنّي عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيّ حكمك عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكلّ اسم هو لك، سمّيت به نفسك، أو

(١) سورة الفجر: ١٩.
(٢) سورة آل عمران: ٧.
(٣) سورة الأنعام: ٣٨.
(٤) أخرجه الترمذي (١٤٨٦) والنسائي (٧/ ١٨٥) ، وابن ماجه (٣٢٠٥) والدرامي (٢/ ٩٠) ، وأبو داود (٢٨٤٥) من حديث عبد الله بن مغفل، وتمامه «فاقتلوا منها كل أسود بهيم ومن أهل أبيت يرتبطون كلبا إلّا نقص من عملهم كل يوم قيراط إلّا كلب صيد أو كلب حرث، أو كلب غنم» ورجاله ثقات، وقال الترمذي: حسن صحيح. وانظر «جامع الأصول» (١٠/ ٢٣٨- ٢٣٩) .

أنزلته في كتابك، أو علّمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همّي وغمّي، إلّا أذهب الله همّه وغمّه، وأبدله مكانه فرحا» ، قالوا: يا رسول الله أفلا نتعلّمهنّ؟ قال: «بلى ينبغي لمن سمعهنّ أن يتعلّمهنّ» «١» .
فالدّاعي مندوب إلى أن يسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته كما في الاسم الأعظم «اللهمّ إنّي أسألك بأنّ لك الحمد لا إله إلّا أنت الحنّان المنّان بديع السّماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حيّ يا قيّوم» «٢»
.
وهذه الكلمات تتضمّن الأسماء الحسنى كما ذكر في غير هذا الموضع.
والدّعاء ثلاثة أقسام. أحدها: أن يسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته، وهذا أحد التّأويلين في قوله تعالى: وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها» .
والثّاني: أن تسأله بحاجتك وفقرك، وذلّك، فتقول: أنا العبد الفقير المسكين البائس الذّليل المستجير ونحو ذلك.
والثّالث: أن تسأل حاجتك ولا تذكر واحدا من الأمرين، فالأوّل أكمل من الثّاني، والثّاني أكمل من الثّالث، فإذا جمع الدّعاء الأمور الثّلاثة كان أكمل.
وهذه عامّة أدعية النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وفي الدّعاء الّذي علّمه صدّيق الأمّة- رضي الله عنه- ذكر الأقسام الثّلاثة، فإنّه قال في أوّله: «ظلمت نفسي ظلما كثيرا» ، وهذا حال السّائل ثمّ قال: «وإنّه لا يغفر الذّنوب إلّا أنت» ، وهذا حال المسؤول، ثمّ قال: «فاغفرلي» «٤» فذكر حاجته، وختم الدّعاء باسمين من الأسماء الحسنى تناسب المطلوب وتقتضيه.
وهذا القول الّذي اخترناه جاء عن غير واحد من السّلف، قال الحسن البصريّ: «اللهمّ» مجمع الدّعاء، وقال أبو رجاء العطارديّ: إنّ الميم في قوله «اللهمّ» فيها تسعة وتسعون اسما من أسماء الله تعالى: وقال النّضر بن شميل: من قال «اللهمّ» فقد دعا الله بجميع أسمائه.

(١) أخرجه أحمد (٧١٢) وابن حبان (٢٣٧٢) والحاكم (١/ ٥٠٩) من حديث ابن مسعود، وقال الأرناؤوط سنده صحيح.
(٢) أخرجه أبو داود (١٤٩٥) والنسائي ٣/ ٢٥، وابن ماجه (٣٨٥٨) ، من حديث أنس ابن مالك، وإسناده صحيح، وصححه ابن حبان (٢٣٨٢) والحاكم (١/ ٥٠٣، ٥٠٤) ووافقه الذهبي.
(٣) سورة الأعراف: ١٨٠.
(٤) أخرجه البخاري (الفتح ٢/ ٨٣٤) ، ومسلم (٢٧٠٥) من حديث أبي بكر الصدّيق أنه قال لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: علمني دعاء أدعو به في صلاتي، قال: «قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا، ولا يغفر الذنوب إلّا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم» .
جـ ١(ص: ٥٧٧)

بيان معنى الصّلاة على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم

قال المؤلّف- رحمه الله-: أصل هذه اللّفظة في اللّغة يرجع إلى معنيين: أحدهما: الدّعاء والتّبريك.
والثّاني: العبادة، فمن الأوّل قوله تعالى: خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ «١» .
وقوله تعالى في حقّ المنافقين: وَلا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ «٢» . وقول النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم:
«إذا دعي أحدكم إلى الطّعام فليجب، فإن كان صائما فليصلّ» «٣» فسّر بهما، قيل «فليدع لهم بالبركة» وقيل: «يصلّي عندهم» بدل أكله.
وقيل: «إنّ الصّلاة» في اللّغة معناها الدّعاء.
والدّعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، والعابد داع، كما أنّ السّائل داع، وبهما فسّر قوله تعالى: وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ «٤» . قيل: أطيعوني أثبكم، وقيل: سلوني أعطكم، وفسّر بهما قوله تعالى:
وَإِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ «٥» .
والصّواب: أنّ الدّعاء يعمّ النّوعين: وهذا لفظ متواطىء لا اشتراك فيه، فمن استعماله في دعاء العبادة قوله تعالى: قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ «٦» وقوله تعالى: وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ «٧» . وقوله تعالى: قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعاؤُكُمْ «٨» .
والصّحيح من القولين لولا أنّكم تدعونه وتعبدونه، أي أيّ شيء يعبأ بكم لولا عبادتكم إيّاه، فيكون المصدر مضافا إلى الفاعل، وقال تعالى، ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ* وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً «٩» وقال تعالى إخبارا عن أنبيائه ورسله: إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ

---

(١) سورة التوبة: ١٠٣.
(٢) سورة التوبة: ٨٤.
(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٥٠٧) ومسلم (١٤٣١) .
(٤) سورة غافر: ٦٠.
(٥) سورة البقرة: ١٨٦.
(٦) سورة سبأ: ٢٢.
(٧) سورة النحل: ٢٠.
(٨) سورة الفرقان: ٧٧.

(٩) سورة الأعراف: ٥٥، ٥٦.
جـ ١(ص: ٥٧٨)

وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً «١» . وهذه الطّريقة أحسن من الطّريقة الأولى، ودعوى الاختلاف في مسمّى الدّعاء وبهذا تزول الإشكالات الواردة على اسم الصّلاة الشّرعيّة، هل هو منقول عن موضعه في اللّغة، فيكون حقيقة شرعية أو مجازا شرعيّا.
فعلى هذا تكون الصّلاة باقية على مسمّاها في اللّغة، وهو الدّعاء، والدّعاء: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، والمصلّي من حين تكبيره إلى سلامه بين دعاء العبادة ودعاء المسألة، فهو في صلاة حقيقيّة لا مجاز، ولا منقولة، لكن خصّ اسم الصّلاة بهذه العبادة المخصوصة كسائر الألفاظ الّتي يخصّها أهل اللّغة والعرف ببعض مسمّاها كالدّابة، والرّأس، ونحوهما، فهذا غايته تخصيص اللّفظ وقصره على بعض موضوعه، ولهذا لا يوجب نقلا ولا خروجا عن موضوعه الأصليّ، والله أعلم.
صلاة الله على عبده
هذه صلاة الآدميّ، وأمّا صلاة الله سبحانه على عبده فنوعان: عامّة، وخاصّة.
أمّا العامّة: فهي صلاته على عباده المؤمنين، قال تعالى: هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ «٢» ، ومن دعاء النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالصّلاة على آحاد المؤمنين كقوله: «اللّهمّ صلّ على آل أبي أوفى» «٣» ، وفي حديث آخر أنّ امرأة قالت له:
صلّ عليّ وعلى زوجي. قال: «صلّى الله عليك وعلى زوجك» «٤» .
النّوع الثّاني: صلاته الخاصّة على أنبيائه ورسله خصوصا على خاتمهم وخيرهم محمّد صلّى الله عليه وسلّم.
فاختلف النّاس في معنى الصّلاة منه سبحانه على أقوال: أحدها أنّها رحمته.
قال إسماعيل: حدّثنا نصر بن عليّ، حدّثنا محمّد بن سواء، عن جويبر، عن الضّحّاك قال: صلاة الله رحمته، وصلاة الملائكة الدّعاء «٥» ، وقال المبرّد: أصل الصّلاة الرّحمة، فهي من الله رحمة، ومن الملائكة رقّة، واستدعاء للرّحمة من الله، وهذا القول هو المعروف عند كثير من المتأخّرين.
والقول الثّاني «٦» : أنّ صلاة الله مغفرته.

---

(١) سورة الأنبياء: ٩٠.
(٢) سورة الأحزاب: ٤٣.
(٣) أخرجه البخاري (الفتح ١٣/ ٧٩٤١) ، ومسلم (١٠٧٨) من حديث عبد الله بن أبي أوفى، وقوله: «اللهم صل على آل أبي أوفى» يريد أبا أوفى نفسه، لأن الآل يطلق على ذات الشيء واسم أبي أوفى علقمة بن خالد بن الحارث الأسلمي شهد هو وابنه عبد الله بيعة الرضوان تحت الشجرة، وعمّر عبد الله إلى أن كان آخر من مات من الصحابة بالكوفة، وذلك سنة سبع وثمانين.
(٤) أخرجه الدارمي (١/ ٢٤) ضمن حديث مطول عن جابر ابن عبد الله، وقال الأرناؤوط رجاله ثقات.
(٥) فضل الصلاة على النبي رقم (٩٦) وسنده ضعيف جدا، جويبر هو ابن سعيد الأزدي البلخي، قال في «التقريب» : ضعيف جدا. وانظر جلاء الأفهام ص (١٠٩) .
(٦) ذكر ابن القيم أن هذا القول من جنس الذي قبله، وقد ضعفها من عدة وجوه. للمراجعة انظر: جلاء الأفهام ص ١٠٩.
جـ ١(ص: ٥٧٩)

قال إسماعيل: حدّثنا محمّد بن أبي بكر، حدّثنا محمّد بن سواء، عن جويبر، عن الضّحّاك (هو الّذي يصلّي عليكم) قال: صلاة الله: مغفرته، وصلاة الملائكة الدّعاء «١» .
وقد ذكر البخاريّ في صحيحه عن أبي العالية قال: صلاة الله على رسوله: ثناؤه عليه عند الملائكة «٢» .

وقال إسماعيل في كتابه، حدّثنا نصر بن عليّ، حدّثنا خالد بن يزيد، عن أبي جعفر، عن الرّبيع بن أنس عن أبي العالية إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ «٣» قال: صلاة الله عزّ وجلّ: ثناؤه عليه، وصلاة الملائكة عليه: الدّعاء.

فإذا كان معنى الصّلاة: هو الثّناء على الرّسول، والعناية به، وإظهار شرفه وفضله وحرمته، كما هو المعروف من هذه اللّفظة، لم يكن لفظ «الصّلاة» في الآية مشتركا محمولا على معنييه، بل يكون مستعملا في معنى واحد، وهذا هو الأصل.

وقيل الصّلاة المأمور بها في قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ «٤» هي الطّلب من الله ما أخبر به عن صلاته وصلاة ملائكته، وهي ثناء عليه، وإظهار لفضله وشرفه وإرادته تكريمه وتقريبه، فهي تتضمّن الخبر والطّلب، وسمّي هذا السّؤال والدّعاء منّا نحن صلاة عليه لوجهين:

أحدهما: أنّه يتضمّن ثناء المصلّى عليه، والإشادة بذكر شرفه وفضله والإرادة والمحبّة لذلك من الله تعالى، فقد تضمّنت الخبر والطّلب.

والوجه الثّاني: أنّ ذلك سمّي منّا صلاة، لسؤالنا من الله أن يصلّي عليه. فصلاة الله عليه: ثناؤه وإرادته لرفع ذكره وتقريبه، وصلاتنا نحن عليه سؤالنا الله تعالى أن يفعل ذلك به.

وأمّا ما ذكر عن ابن عبّاس- رضي الله عنهما- في قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ قال: يباركون عليه، فهذا لا ينافي تفسيرها بالثّناء، وإرادة التّكريم والتّعظيم، فإنّ التّبريك من الله يتضمّن ذلك، ولهذا قرن بين الصّلاة عليه والتّبريك عليه، وقالت الملائكة لإبراهيم: رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ «٥» ، وقال المسيح: وَجَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ «٦» ، قال غير واحد من السّلف: معلّما للخير أينما كنت، وهذا جزء المسمّى، فالمبارك كثير الخير في نفسه الّذي يحصّله لغيره تعليما، وإقدارا ونصحا، وإرادة واجتهادا، ولهذا يكون العبد مباركا، لأنّ الله بارك فيه، وجعله كذلك، والله تعالى متبارك، لأنّ البركة كلّها منه، فعبده مبارك وهو المتبارك تَبارَكَ الَّذِي* «٧»

---

(١) فضل الصلاة على النبي رقم (٩٧) وهو كسابقه ضعيف جدّا.

(٢) البخاري ٨/ ٤٠٩ تعليقا بصيغة الجزم، ووصله إسماعيل القاضي كما ذكره المؤلف رقم (٩٥) وسنده قابل للتحسين.

(٣) سورة الأحزاب: ٥٦.

(٤) سورة الأحزاب: ٥٦.

(٥) سورة هود: ٧٣.

(٦) سورة مريم: ٣١.

(٧) سورة الملك: ١.

جـ ١(ص: ٥٨٠)

معنى اسم النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم واشتقاقه

هذا الاسم هو أشهر أسمائه صلّى الله عليه وسلّم، وهو اسم منقول من الحمد، وهو يتضمّن الثّناء على المحمود، ومحبّته، وإجلاله، وتعظيمه. هذا هو حقيقة الحمد، وبني على زنة «مفعّل» مثل: معظّم، ومحبّب، ومسوّد، ومبجّل، ونظائرهما، لأنّ هذا البناء موضوع للتّكثير، فإن اشتقّ منه اسم فاعل، فمعناه من كثر صدور الفعل منه مرّة بعد مرّة، كمعلّم، ومفهّم، ومبيّن، ومخلّص، ومفرّج ونحوها، وإن اشتقّ منه اسم مفعول، فمعناه من [كثر] تكرار وقوع الفعل عليه مرّة بعد أخرى إمّا استحقاقا أو وقوعا. فمحمّد هو: كثر حمد الحامدين له مرّة بعد أخرى، أو الّذي يستحقّ أن يحمد مرّة بعد أخرى.

ويقال: حمّد، فهو محمّد، كما يقال: علّم فهو معلّم، وهذا علم وصفة اجتمع فيه الأمران في حقّه صلّى الله عليه وسلّم وإن كان علما محضا في حقّ كثير ممّن تسمّى به غيره.

وهذا شأن أسماء الرّبّ تعالى، وأسماء كتابه، وأسماء نبيّه، هي أعلام دالّة على معان هي بها أوصاف، فلا تضادّ فيها العلميّة الوصف، بخلاف غيرها من أسماء المخلوقين، فهو الله، الخالق الباريء، المصوّر، القهّار، فهذه أسماء دالّة على معان هي صفاته وكذلك القرآن، والكتاب المبين، وغير ذلك من أسمائه.
وكذلك أسماء النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «محمّد، وأحمد، والماحي» وفي حديث جبير بن مطعم عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «إنّ لي أسماء، أنا محمّد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الّذي يمحوا الله بي الكفر» «١» .
فذكر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هذه الأسماء مبيّنا ما خصّه الله به من الفضل، وأشار إلى معانيها، وإلّا فلو كانت أعلاما محضة لا معنى لها، لم تدلّ على مدح، ولهذا قال حسّان رضي الله عنه:
وشقّ له من اسمه ليجلّه ... فذو العرش محمود وهذا محمّد
وإذا ثبت هذا، فتسميته صلّى الله عليه وسلّم بهذا الاسم لما اشتمل عليه من مسمّاه وهو الحمد، فإنّه صلّى الله عليه وسلّم محمود عند الله، ومحمود عند ملائكته، ومحمود عند إخوانه من المرسلين، ومحمود عند أهل الأرض كلّهم، وإن كفر به بعضهم، فإنّ ما فيه من صفات الكمال محمودة عند كلّ عاقل، وإن كابر عقله جحودا، أو عنادا، أو جهلا باتّصافه بها، ولو علم اتّصافه بها، لحمده فإنّه يحمد من اتّصف بصفات الكمال، ويجهل وجودها فيه، فهو في الحقيقة حامد له؛ وهو صلّى الله عليه وسلّم اختصّ من مسمّى «الحمد» بما لم يجتمع لغيره، فإنّ اسمه محمّد وأحمد، وأمّته الحمّادون يحمدون الله على السّرّاء والضّرّاء، وصلاة أمّته مفتتحة بالحمد، وخطبته مفتتحة بالحمد، وكتابه مفتتح بالحمد، هكذا عند الله في اللّوح

(١) أخرجه البخاري (الفتح ٨/ ٤٨٩٦) ومسلم (٢٣٥٤) .
جـ ١(ص: ٥٨١)

المحفوظ أنّ خلفاءه وأصحابه يكتبون المصحف مفتتحا بالحمد، وبيده صلّى الله عليه وسلّم لواء الحمد يوم القيامة، ولمّا يسجد بين يدي ربّه عزّ وجلّ للشّفاعة، ويؤذن له فيها يحمد ربّه بمحامد يفتحها عليه حينئذ، وهو صاحب المقام المحمود الّذي يغبطه به الأوّلون والآخرون، قال تعالى: وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً «١» .
ومن أحبّ الوقوف على معنى المقام المحمود، فليقف على ما ذكر سلف الأمّة من الصّحابة والتّابعين فيه في تفسير هذه السّورة كتفسير ابن أبي حاتم، وابن جرير، وعبد بن حميد، وغيرها من تفاسير السّلف.
وإذا قام في ذلك المقام، حمده حينئذ أهل الموقف كلّهم مسلمهم وكافرهم أوّلهم وآخرهم، وهو محمود صلّى الله عليه وسلّم بما ملأ الأرض من الهدى والإيمان والعلم النّافع، والعمل الصّالح، وفتح به القلوب، وكشف به الظّلمة عن أهل الأرض، واستنقذهم من أسر الشّيطان، ومن الشّرك بالله والكفر به والجهل به حتّى نال به أتباعه شرف الدّنيا والآخرة، فإنّ رسالته وافت أهل الأرض أحوج ما كانوا إليها، فإنّهم كانوا بين عبّاد أوثان، وعبّاد صلبان، وعبّاد نيران، وعبّاد الكواكب، ومغضوب عليهم قد باؤوا بغضب من الله، وحيران لا يعرف ربّا يعبده، ولا بماذا يعبده، والنّاس يأكل بعضهم بعضا، من استحسن شيئا دعا إليه، وقاتل من خالفه، وليس في الأرض موضع قدم مشرق بنور الرّسالة، وقد نظر الله سبحانه حينئذ إلى أهل الأرض، فمقتهم عربهم وعجمهم إلّا بقايا على آثار من دين صحيح، فأغاث الله بها البلاد والعباد، وكشف به تلك الظّلم، وأحيا به الخليقة بعد الموت، فهدى به من الضّلالة، وعلّم به من الجهالة، وكثّر به بعد القلّة، وأعزّ به بعد الذّلّة، وأغنى به بعد العيلة، وفتح به أعينا عميا، وآذانا صمّا، وقلوبا غلفا، فعرف النّاس ربّهم ومعبودهم، غاية ما يمكن أن تناله قواهم من المعرفة، وأبدأ وأعاد، واختصر وأطنب في ذكر أسمائه وصفاته وأفعاله حتّى تجلّت معرفته سبحانه في قلوب عباده المؤمنين، وانجابت سحائب الشّكّ والرّيب عنها، كما ينجاب السّحاب عن القمر ليلة إبداره، ولم

يدع لأمّته حاجة في هذا التّعريف لا إلى من قبله، ولا إلى من بعده، بل كفاهم وشفاهم وأغناهم عن كلّ من تكلّم في هذا الباب أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ «٢» .

وعرّفهم الطّريق الموصّل لهم إلى ربّهم ورضوانه ودار كرامته، ولم يدع حسنا إلّا أمرهم به، ولا قبيحا إلّا نهى عنه، كما قال صلّى الله عليه وسلّم: «ما تركت من شيء يقرّبكم إلى الجنّة إلّا وقد أمرتكم به، ولا من شيء يقرّبكم من النّار إلّا وقد نهيتكم عنه» «٣» . قال أبو ذرّ رضي الله عنه: (لقد توفّي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وما طائر يقلّب جناحيه في السّماء

---

(١) سورة الإسراء: ٧٩.

(٢) سورة العنكبوت: ٥١.

(٣) أورده الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٢٦٣، ٢٦٤) وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ وهو ثقة.

جـ ١(ص: ٥٨٢)

إلّا ذكّرنا منه علما) «١» .

وعرّفهم حالهم بعد القدوم على ربّهم أتمّ تعريف، فكشف الأمر وأوضحه، ولم يدع بابا من العلم النّافع المقرّب لهم إلى ربّه إلّا فتحه، ولا مشكلا إلّا بيّنه وشرحه، حتّى هدى الله به القلوب من ضلالها، وشفاها من أسقامها، وأغاثها من جهلها، فأيّ بشر أحقّ بأن يحمد منه صلّى الله عليه وسلّم، وجزاه عن أمّته أفضل الجزاء.

وممّا يحمد عليه صلّى الله عليه وسلّم ما جبله الله عليه من مكارم الأخلاق، وكرائم الشّيم، فإنّ من نظر في أخلاقه وشيمه صلّى الله عليه وسلّم، علم أنّها خير أخلاق، فإنّه صلّى الله عليه وسلّم كان أعلم الخلق، وأعظمهم أمانة، وأصدقهم حديثا، وأحلمهم وأجودهم وأسخاهم، وأشدّهم احتمالا، وأعظمهم عفوا ومغفرة، وكان لا يزيده شدّة الجهل عليه إلّا حلما، كما روى البخاري في «صحيحه» عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنّه قال في صفة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في التّوراة: «محمّد عبدي ورسولي سمّيته المتوكّل ليس بفظّ ولا غليظ ولا صخّاب بالأسواق، ولا يجزي بالسّيّئة السّيّئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن أقبضه حتّى أقيم به الملّة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلّا الله، وأفتح به أعينا عميا، وآذانا صمّا وقلوبا غلفا» «٢» .

وهو أرحم الخلق وأرأفهم بهم، وأعظم الخلق نفعا في دينهم ودنياهم، وأفصح خلق الله، وأحسنهم تعبيرا عن المعاني الكثيرة بالألفاظ الوجيزة الدالّة على المراد، وأصبرهم في مواطن الصّبر، وأصدقهم في موطن اللّقاء، وأوفاهم بالعهد والذّمّة، وأعظمهم مكافأة على الجميل بأضعافه، وأشدّهم تواضعا، وأعظمهم إيثارا على نفسه، وأشدّ الخلق ذبّا عن أصحابه وحماية لهم، ودفاعا عنهم، وأقوم الخلق بما يأمر به، وأتركهم لما ينهى عنه، وأوصل الخلق لرحمه، فهو أحقّ بقول القائل:

برد على الأدنى ومرحمة ... وعلى الأعادي مازن جلد

قال علي رضي الله عنه: كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أجود النّاس صدرا، وأصدقهم لهجة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبّه، يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله صلّى الله عليه وسلّم «٣» .

فقوله: كان أجود النّاس صدرا، أراد به: برّ الصّدر، وكثرة خيره، وأنّ الخير يتفجّر منه تفجيرا، وأنّه منطو على كلّ خلق جميل، وكلّ خير، كما قال بعض أهل العلم ليس في الدّنيا كلّها محلّ كان أكثر خيرا من صدر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد جمع الخير بحذافيره، وأودع في صدره صلّى الله عليه وسلّم.

وقوله: أصدق النّاس لهجة، وهذا مما أقرّ به أعداؤه المحاربون له، ولم يجرّب عليه أحد من أعدائه كذبة واحدة قطّ، دع شهادة أوليائه كلّهم له به فقد حاربه أهل الأرض بأنواع المحاربات مشركوهم وأهل الكتاب منهم،

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ١٦٢) ، ورجاله ثقات.
(٢) أخرجه البخاري (الفتح ٨/ ٤٨٣٨) .
(٣) أخرجه الترمذي في «الشمائل» رقم (٦) وفي «السنن» (٣٦٤٢) وقال الارنؤوطيان، وفي سنده ضعف وانقطاع» .

وليس أحد منهم يوما من الدّهر طعن فيه بكذبة واحدة صغيرة ولا كبيرة.
قال المسور بن مخرمة: قلت لأبي جهل- وكان خالي- يا خال هل كنتم تتّهمون محمّدا بالكذب قبل أن يقول مقالته؟ فقال: والله يا ابن أختي لقد كان محمّد وهو شابّ يدعى فينا الأمين، فلمّا خطّه الشّيب لم يكن ليكذب، قلت: يا خال فلم لا تتّبعونه؟ فقال: يا ابن أختي، تنازعنا نحن وبنو هاشم الشّرف؛ فأطعموا وأطعمنا، وسقوا وسقينا، وأجاروا وأجرنا، فلمّا تجاثينا على الرّكب وكنّا كفرسي رهان، قالوا: منّا نبيّ، فمتى نأتيهم بهذا» أو كما قال.
وقال تعالى يسلّيه ويهوّن عليه قول أعدائه: قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ* وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلى ما كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتاهُمْ نَصْرُنا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ «١» .
وقوله: ألينهم عريكة، يعني أنّه سهل قريب من النّاس، مجيب لدعوة من دعاه، قاض لحاجة من استقضاه، جابر لقلب من قصده لا يحرمه ولا يردّه خائبا، إذا أراد أصحابه منه أمرا، وافقهم عليه، وتابعهم فيه، وإن عزم على أمر لم يستبدّ بدونهم، بل يشاورهم ويؤامرهم، وكان يقبل من محسنهم، ويعفو عن مسيئهم.
وقوله: أكرمهم عشرة. يعني أنّه لم يكن يعاشر جليسا له إلّا أتمّ عشرة وأحسنها وأكرمها، فكان لا يعبس في وجهه، ولا يغلظ له في مقاله، ولا يطوي عنه بشره، ولا يمسك عليه فلتات لسانه، ولا يؤاخذه بما يصدر منه من جفوة ونحوها، بل يحسن إلى عشيرة غاية الإحسان، ويحتمل غاية الاحتمال، فكانت عشرته لهم احتمال أذاهم، وجفوتهم جملة، لا يعاقب أحدا منهم ولا يلومه ولا يبادئه بما يكره، من خالطه يقول: أنا أحبّ النّاس إليه، لما يرى من لطفه به، وقربه منه، وإقباله عليه، واهتمامه بأمره، وتضحيته له، وبذل إحسانه إليه، واحتمال جفوته، فأيّ عشرة كانت أو تكون أكرم من هذه العشرة.
قال الحسين رضي الله عنه: سألت أبي عن سيرة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في جلسائه فقال: كان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم دائم البشر، سهل الخلق، ليّن الجانب، ليس بفظّ ولا غليظ، ولا صخّاب، ولا فحّاش، ولا عيّاب، ولا مدّاح، يتغافل عمّا لا يشتهي، ولا يؤيس منه راجيه، ولا يخيب فيه، قد ترك نفسه من ثلاث: المراء، والإكثار، وترك ما لا يعنيه، كان لا يذمّ أحدا ولا يعيبه، ولا يطلب عورته، ولا يتكلّم إلّا فيما رجا ثوابه، وإذا تكلّم أطرق جلساؤه كأنّما على رءوسهم الطّير، فإذا سكت، تكلّموا، لا يتنازعون عنده الحديث، ومن تكلّم عنده، أنصتوا له حتّى يفرغ، حديثهم عنده حديث أوّلهم، يضحك ممّا يضحكون منه، ويتعجّب ممّا يتعجّبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته حتّى إن كان أصحابه ليستجلبونهم، ويقول: إذا رأيتم طالب حاجة يطلبها فأرفدوه، ولا يقبل الثّناء إلّا من

---

(١) سورة الأنعام: ٣٣، ٣٤.

مكافيء، ولا يقطع على أحد حديثه، حتّى يجوز، فيقطعه بنهي أو قيام» .
وقوله: «من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبّه» وصفه بصفتين خصّ الله بهما أهل الصّدق والإخلاص: وهما الإجلال والمحبّة، وكان قد ألقى عليه هيبة منه ومحبّة، فكان كلّ من يراه يهابه ويجلّه، ويملأ قلبه تعظيما وإجلالا، وإن كان عدوّا له، فإذا خالطه وعاشره، كان أحبّ إليه من كلّ مخلوق، فهو المجلّ المعظّم المحبوب المكرّم، وهذا كمال المحبّة أن تقرن بالتّعظيم والهيبة، فالمحبّة بلا تعظيم ولا هيبة ناقصة، والهيبة والتّعظيم من غير محبّة ناقصة كما تكون للغادر الظّالم نقصا أيضا، والكمال: أن تجتمع المحبّة والودّ، والتّعظيم والإجلال، وهذا لا يوجد إلّا إذا كان في المحبوب صفات الكمال الّتي يستحقّ أن يعظّم لأجلها، ويحبّ لأجلها.
ولمّا كان الله سبحانه وتعالى أحقّ بهذا من كلّ أحد، كان المستحقّ لأن يعظّم ويكبر ويهاب ويحبّ، ويودّ بكلّ جزء من أجزاء القلب، ولا يجعل له شريك في ذلك. وكلّ محبّة وتعظيم للبشر، فإنّما تجوز تبعا لمحبّة الله وتعظيمه، كمحبّة رسوله وتعظيمه، فإنّها من تمام مرسله وتعظيمه، فإنّ أمّته يحبّونه لحبّ الله له، ويعظّمونه ويجلّونه لإجلال الله له. فهي محبّة لله من موجبات محبّة الله وكذلك محبّة أهل العلم والإيمان، ومحبّة الصّحابة- رضي الله عنهم- وإجلالهم تابع لمحبّة الله ورسوله لهم.
والمقصود أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ألقى الله سبحانه وتعالى عليه منه المهابة والمحبّة، ولكلّ مؤمن مخلص حظّ من ذلك. قال الحسن البصريّ- رحمه الله-: إنّ المؤمن رزق حلاوة ومهابة، يعني يحبّ ويهاب ويجلّ بما ألبسه الله سبحانه من ثوب الإيمان المقتضي لذلك، ولهذا لم يكن بشر أحبّ إلى بشر ولا أهيب وأجلّ في صدره من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في صدر الصّحابة رضي الله عنهم.
قال عمرو بن العاص قبل إسلامه: إنّه لم يكن شخص أبغض إليّ منه، فلمّا أسلم، لم يكن شخص أحبّ إليه منه. ولا أجلّ في عينه منه، قال: ولو سئلت أن أصفه لكم، لما أطقت، لم أكن أملأ عينيّ منه إجلالا له «٢» .
وقال عروة بن مسعود لقريش: «يا قوم والله لقد وفدت على كسرى وقيصر والملوك فما رأيت ملكا يعظّمه أصحابه ما يعظّم أصحاب محمّد محمّدا صلّى الله عليه وسلّم ما يحدّون النّظر إليه تعظيما له، وما تنخّم نخامة إلّا وقعت في كفّ رجل منهم فيدلّك بها وجهه وصدره، وإذا توضّأ، كادوا يقتتلون على وضوئه» «٣» .
فلمّا كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مشتملا على ما يقتضي أن يحمد عليه مرّة بعد مرّة سمّي محمّدا، وهو اسم موافق

---

(١) أخرجه الترمذي في «الشمائل» رقم (٣٤٤) ، وذكره الألباني في مختصر الشمائل (ص ٢٤) .
(٢) قطعة من حديث مطول أخرجه مسلم (١٢١) في الإيمان: باب كون الإسلام يهدم ما قبله من حديث عمرو ابن العاص رضي الله عنه.
(٣) قطعة من حديث مطول أخرجه البخاري (الفتح ٥/ ٢٧٣١) .

لمسمّاه، ولفظ مطابق لمعناه.
والفرق بين «محمّد» و «أحمد» من وجهين: أحدهما: أنّ «محمّدا» هو المحمود حمدا بعد حمد، فهو دالّ على كثرة حمد الحامدين له، وذلك يستلزم كثرة موجبات الحمد فيه، و «أحمد» أفعل تفضيل من الحمد يدلّ على أنّ الحمد الّذي يستحقّه أفضل ممّا يستحقّه غيره، ف «محمّد» زيادة حمد في الكمّيّة و «أحمد» زيادة في الكيفيّة، فيحمد أكثر حمد وأفضل حمد حمده البشر.
الوجه الثّاني: أنّ «محمّدا» هو المحمود حمدا متكرّرا كما تقدّم و «أحمد» هو الّذي حمده لربّه أفضل من حمد الحامدين غيره، فدلّ أحد الاسمين وهو «محمّد» على كونه محمودا، ودلّ الثّاني وهو «أحمد» على كونه أحمد الحامدين لربّه.

والحاصل أنّه صلّى الله عليه وسلّم سمّي «محمّدا» و «أحمد» لأنّه يحمد أكثر ممّا يحمد غيره، وأفضل ممّا يحمد غيره فالاسمان واقعان على المفعول، وهذا هو المختار، وذلك أبلغ في مدحه وأتمّ معنى، ولو أريد به معنى الفاعل لسمّي الحمّاد، وهو كثير الحمد، كما سمّي «محمّدا» وهو المحمود كثيرا، فإنّه صلّى الله عليه وسلّم كان أكثر الخلق حمدا لربّه، فلو كان اسمه باعتبار الفاعل، لكان الأولى أن يسمّى «حمّادا» كما أنّ اسم أمّته الحمّادون.

وأيضا فإنّ الاسمين إنّما اشتقّا من أخلاقه وخصائله المحمودة الّتي لأجلها استحقّ أن يسمّى «محمّدا» و «أحمد» فهو الّذي يحمده أهل الدنيا وأهل الآخرة، ويحمده أهل السّماء والأرض فلكثرة خصائله المحمودة الّتي تفوت عدّ العادّين، سمّي باسمين من أسماء الحمد يقتضيان التّفضيل والزّيادة في القدر والصّفة. والله أعلم.

جـ ١(ص: ٥٨٦)

معنى الآل واشتقاقه وأحكامه

وفيه قولان: أحدهما: أنّ أصله أهل، ثمّ قلبت الهاء همزة، فقيل: أأل. ثمّ سهّلت على قياس أمثالها، فقيل:

آل، قالوا: ولهذا إذا صغّر رجع إلى أصله، فقيل: أهيل، قالوا: ولمّا كان فرعا عن فرع، خصّوه ببعض الأسماء المضاف إليها، فلم يضيفوه إلى أسماء الزّمان، ولا المكان، ولا غير الأعلام، فلا يقولون: آل رجل، وآل امرأة، ولا يضيفونه إلى مضمر، فلا يقال: آله وآلي، بل لا يضاف إلّا إلى معظّم، كما أنّ التّاء لمّا كانت في القسم بدلا عن الواو، وفرعا عليها، والواو فرعا عن فعل القسم، خصّوا التّاء بأشرف الأسماء وأعظمها، وهو اسم الله تعالى «١» .

وقيل: بل أصله أول، وذكره صاحب «الصّحاح» في مادة الهمزة والواو واللّام، قال: وآل الرّجل: أهله وعياله، وآله أيضا: أتباعه، وهو عند هؤلاء مشتقّ من آل يئول: إذا رجع، فآل الرّجل هم الّذين يرجعون إليه، ويضافون إليه، ويئولهم، أي: يسوسهم، فيكون مالهم إليه، ومنه الإيالة وهي السّياسة، فآل الرّجل: هم الّذين يسوسهم ويئولهم، ونفسه أحقّ بذلك من غيره، فهو أحقّ بالدّخول في آله، ولكن لا يقال: إنّه مختصّ بآله، بل هو داخل فيهم، وهذه المادّة موضوعة لأصل الشّيء وحقيقته، ولهذا سمّي حقيقة الشّيء تأويله، لأنّها حقيقته الّتي يرجع إليها. ومنه التّأويل بمعنى التّفسير، لأنّ تفسير الكلام، هو بيان معناه وحقيقته الّتي يراد منه.

قالوا: ومنه الأوّل، لأنّه أصل العدد ومبناه الّذي يتفرّع منه، ومنه الآل بمعنى الشّخص نفسه، قال أصحاب هذا القول: والتزمت العرب إضافته، فلا يستعمل مفردا إلّا في نادر الكلام.

والتزموا أيضا إضافته إلى الظّاهر، فلا يضاف إلى مضمر إلّا قليلا.

قالوا: ومن أحكامه أيضا أنّه لا يضاف إلّا إلى متبوع معظّم فلا يقال آل الحائك وآل الحجّام ولا آل رجل.

وأمّا معناه، فقالت طائفة: يقال: آل الرّجل له نفسه، وآل الرّجل لمن يتبعه، وآله لأهله وأقاربه، فمن الأوّل قول النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لمّا جاءه أبو أوفى بصدقته: «اللهمّ صلّ على آل أبي أوفى»

وقوله تعالى: سَلامٌ عَلى إِلْ ياسِينَ «٢» .

وقوله صلّى الله عليه وسلّم: «اللهمّ صلّ على محمّد وعلى آل محمّد، كما صلّيت على آل إبراهيم» فآل إبراهيم هو إبراهيم، لأنّ الصّلاة المطلوبة للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، هي الصّلاة على إبراهيم نفسه، وآله تبع له فيها.

ونازعهم في ذلك آخرون، وقالوا: لا يكون الآل إلّا الأتباع والأقارب، وما ذكرتموه من الأدلّة، فالمراد بها الأقارب، وقوله: «كما صلّيت على آل إبراهيم» آل إبراهيم هنا هم الأنبياء، والمطلوب من الله سبحانه أن يصلّي على

(١) وقد ضعّف المؤلف رحمه الله هذا القول من عدة وجوه فلتراجع.
(٢) سورة الصافات: ١٣٠.
جـ ١(ص: ٥٨٧)

رسوله صلّى الله عليه وسلّم، كما صلّى على جميع الأنبياء من ذرّيّة إبراهيم، لا إبراهيم وحده، كما هو مصرّح به في بعض الألفاظ من قوله: على إبراهيم وعلى آل إبراهيم «١» .
وأمّا قوله تعالى: سَلامٌ عَلى إِلْ ياسِينَ «٢» . فهذه فيها قراءتان «٣» ، إحداهما: إلياسين بوزن إسماعيل وفيه وجهان «٤» .
قال المؤلّف: وعلى هذا ففصل النّزاع بين أصحاب القولين في الآل. أنّ «الآل» إن أفرد دخل فيه المضاف إليه، كقوله تعالى: أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ «٥» . ولا ريب في دخوله في آله هنا.
وقوله تعالى: وَلَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ «٦» ونظائره. وقول النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «اللهمّ صلّ على آل أبي أوفى» ولا ريب في دخول أبي أوفى نفسه في ذلك، وقوله: «اللهمّ صلّ على محمّد وعلى آل محمّد كما صلّيت على آل إبراهيم» هذه أكثر روايات البخاريّ، وإبراهيم هنا داخل في آله، ولعلّ هذا مراد من قال: آل الرّجل نفسه.
وأمّا إن ذكر الرّجل، ثمّ ذكر آله، لم يدخل فيهم، ففرق بين اللّفظ المجرّد والمقرون. فإذا قلت: أعط لزيد وآل زيد، لم يكن زيد هنا داخلا في آله، وإذا قلت: أعطه لآل زيد، تناول زيدا وآله، وهذا له نظائر كثيرة.

---

(١) راجع جلاء الأفهام، ص ١٥٦، ١٥٧.
(٢) سورة الصافات؛ ١٣٠.
(٣) ابن كثير وعاصم وأبو عمرو وحمزة والكسائي: إلياسين موصولة مكسورة الألف ساكنة اللام، فجعلوها كلمة واحدة، وقرأ نافع وابن عامر وعبد الوارث إل ياسين، فجعلوها كلمتين، انظر «زاد المسير» (٧/ ٣٨) بتحقيق الأرنؤوطيين.
(٤) ذكر المؤلف- رحمه الله- القراءتين مع ذكر ما تحتملانه من وجوه فلتراجع.
(٥) سورة غافر: ٤٦.
(٦) سورة الأعراف: ١٣٠.
جـ ١(ص: ٥٨٨)

فصل في آل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم

واختلف في آل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم على أربعة أقوال.
فقيل: هم الّذين حرّمت عليهم الصّدقة، وفيه ثلاثة أقوال للعلماء:
أحدها: أنّهم بنو هاشم، وبنو المطّلب، وهذا مذهب الشّافعيّ، وأحمد في رواية عنه.
والثّاني: أنّهم بنو هاشم خاصّة، وهذا مذهب أبي حنيفة والرّواية الثّانية عن أحمد، واختيار ابن القاسم صاحب مالك.
والثّالث: أنّهم بنو هاشم ومن فوقهم إلى غالب، فيدخل فيهم بنو المطّلب، وبنو أميّة، وبنو نوفل، ومن فوقهم إلى بني غالب، وهذا اختيار أشهب من أصحاب مالك، حكاه صاحب «الجواهر» عنه، وحكاه اللّخميّ في «التّبصرة» عن أصبغ، ولم يحكه عن أشهب.
وهذا القول الأوّل في الآل أعني أنّهم الّذين تحرم عليهم الصّدقة هو منصوص الشّافعيّ، وأحمد والأكثرين، وهو اختيار جمهور أصحاب أحمد والشّافعيّ.

والقول الثّاني: أنّ آل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم هم ذرّيّته وأزواجه خاصّة، حكاه ابن عبد البرّ في «التّمهيد» قال في باب عبد الله ابن أبي بكر، في شرح حديث أبي حميد السّاعديّ: استدلّ قوم بهذا الحديث على أنّ «آل محمّد» هم أزواجه وذرّيّته خاصّة، لقوله في حديث مالك عن نعيم المجمّر وفي غير ما حديث: «اللهمّ صلّ على محمّد وعلى آل محمّد» وفي هذا الحديث يعني حديث أبي حميد: «اللهمّ صلّ على محمّد وعلى أزواجه وذرّيّته» قالوا: فهذا تفسير ذلك الحديث، ويبيّن أنّ آل محمّد هم أزواجه وذرّيّته، قالوا: فجائز أن يقول الرّجل لكلّ من كان من أزواج محمّد صلّى الله عليه وسلّم ومن ذرّيّته: صلّى الله عليك، إذا واجهه، وصلّى الله عليه إذا غاب عنه، ولا يجوز ذلك في غيرهم.
قالوا: والآل والأهل سواء، وآل الرّجل وأهله سواء، وهم الأزواج والذّرّيّة بدليل هذا الحديث.
والقول الثّالث: أنّ آله صلّى الله عليه وسلّم أتباعه إلى يوم القيامة، حكاه ابن عبد البرّ عن بعض أهل العلم. وأقدم من روي عنه هذا القول جابر بن عبد الله- رضي الله عنهما- ذكره البيهقيّ عنه، ورواه عنه سفيان الثّوريّ وغيره، واختاره بعض أصحاب الشّافعيّ، حكاه عنه أبو الطّيّب الطّبريّ في تعليقه، ورجّحه الشّيخ محيي الدّين النّواويّ في «شرح مسلم» واختاره الأزهريّ.
والقول الرّابع: أنّ آله صلّى الله عليه وسلّم هم الأتقياء من أمّته، حكاه القاضي حسين والرّاغب وجماعة «١» .

(١) ثم ذكر المؤلف- رحمه الله- أدلة على هذه الأقوال مع بيان الصحيح منها والضعيف. فلتراجع.
جـ ١(ص: ٥٨٩)

أزواجه صلّى الله عليه وسلّم*

خديجة بنت خويلد «١» - رضي الله عنها-:
هي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصيّ بن كلاب، تزوّجها صلّى الله عليه وسلّم بمكّة، وهو ابن خمس وعشرين سنة، وبقيت معه إلى أن أكرمه الله برسالته، فآمنت به ونصرته، فكانت له وزير صدق، وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين، على الأصحّ، وقيل: بأربع، وقيل: بخمس، ولها خصائص- رضي الله عنها-:
منها: أنّه صلّى الله عليه وسلّم لم يتزوّج عليها غيرها.
ومنها: أنّ أولاده صلّى الله عليه وسلّم كلّهم منها إلّا إبراهيم عليه السّلام، فإنّه من سرّيّته مارية.
ومنها: أنّها خير نساء الأمّة.
واختلف في تفضيلها على عائشة- رضي الله عنها- على ثلاثة أقوال، ثالثها: الوقف.
ومن خصائصها أنّ الله سبحانه بعث إليها السّلام مع جبريل عليه السّلام، فبلّغها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ذلك.
عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: «أتى جبريل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فقال: يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السّلام من ربّها ومنّي، وبشّرها ببيت في الجنّة من قصب «٢» لا صخب فيه ولا نصب «٣» » «٤» .
ومن خصائصها- رضي الله عنها- أنّها لم تسوءه قطّ ولن تغاضبه ولم ينلها منه إيلاء ولا عتب قطّ ولا هجر، وكفى به منقبة وفضيلة.
ومن خواصّها أنّها أوّل امرأة آمنت بالله ورسوله من هذه الأمّة.

* قال المؤلف- رحمه الله-: أما الأزواج فجمع زوج، وقد يقال: زوجة، والأول أفصح، وبها جاء القرآن، قال تعالى: يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ* (البقرة: ٣٥) وقال تعالى في حق زكريا عليه السلام:

وَأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ (الأنبياء: ٩٠) ومن الثاني: قول ابن عباس- رضي الله عنهما- في عائشة- رضي الله عنها-: «إنها زوجة نبيكم في الدنيا والآخرة» وقال الفرزدق:
وإن الذي يبغي ليفسد زوجتي ... كساع إلى أسد الشّرى يستبيلها
ثم ذكر المؤلف- رحمه الله-: أن هذا أليق المواضع بذكر أزواجه صلّى الله عليه وسلّم.
(١) ترجمتها ومصادرها في «جامع الأصول» (١٢/ ٢٤٥- ٢٤٦) بتحقيق محمود الأرناؤوط، طبع دار ابن الأثير ببيروت.
(٢) القصب: اللؤلؤ المجوف، قال ابن التين: المراد به لؤلؤة مجوفة واسعة كالقصر المنيف وقال السهيلي: النكتة في قوله: «من قصب» ولم يقل «من لؤلؤ» أن في لفظ «القصب» مناسبة لكونها أحرزت قصب السبق بمبادرتها إلى الإيمان دون غيرها. و «الصخب» الضجة والغلبة.
(٣) النصب: التعب.
(٤) أخرجه البخاري (الفتح ٧/ ٣٨٢٠) ومسلم (٢٤٣٢) .
جـ ١(ص: ٥٩٠)

سودة بنت زمعة «١» - رضي الله عنها-:
وهي سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس بن عبدودّ بن نضر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤيّ، كبرت عنده، وأراد طلاقها، فوهبت يومها لعائشة- رضي الله عنها- فأمسكها «٢» .
وهذا من خواصّها أنّها آثرت بيومها حبّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تقرّبا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وحبّا له، وإيثارا لمقامها معه، فكان يقسم لنسائه، ولا يقسم لها وهي راضية بذلك، مؤثرة لرضى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، رضي الله عنها «٣» .
عائشة بنت أبي بكر «٤» - رضي الله عنهما-:
هي عائشة بنت أبي بكر بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرّة بن كعب بن لؤيّ القرشيّ التّيميّ «٥» - رضي الله عنهما- تزوّجها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهي بنت ستّ سنين قبل الهجرة بسنتين، وقيل: بثلاث، وبنى بها بالمدينة أوّل مقدمه في السّنة الأولى، وهي بنت تسع «٦» ، ومات عنها وهي بنت ثمان عشرة، وتوفّيت بالمدينة، ودفنت بالبقيع، وأوصت أن يصلّي عليها أبو هريرة- رضي الله عنه- سنة ثمان وخمسين.
ومن خصائصها أنّها كانت أحبّ أزواج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إليه، كما ثبت عنه ذلك في البخاريّ، وقد سئل: أيّ النّاس أحبّ إليك؟ قال: «عائشة» قيل: فمن الرّجال؟ قال: «أبوها» «٧» .
ومن خصائصها أيضا: أنّه لم يتزوّج امرأة بكرا غيرها.
ومن خصائصها: أنّه كان ينزل عليه الوحي وهو في لحافها دون غيرها.
ومن خصائصها: أنّ الله عزّ وجلّ لمّا أنزل عليه آية التّخيير بدأ بها، فخيّرها، فقال: «ولا عليك أن لا تعجلي حتّى تستأمري أبويك.
فقالت: «أفي هذا أستأمر أبويّ؟ فإنّي أريد الله ورسوله والدّار الآخرة» «٨» . فاستنّ بها بقيّة أزواجه صلّى الله عليه وسلّم وقلن كما قالت.
ومن خصائصها: أنّ الله سبحانه برّأها ممّا رماها به أهل الإفك، وأنزل في عذرها وبراءتها وحيا يتلى في محاريب المسلمين وصلواتهم إلى يوم القيامة.

---

(١) ترجمتها ومصادرها في «جامع الأصول» (١٢/ ٢٤٧- ٢٤٨) .
(٢) أخرجه البخاري (الفتح ٩/ ٥٢١٢) ومسلم (١٤٦٣) .
(٣) البخاري (الفتح ٩/ ٥٠٦٧) ومسلم (١٤٦٥) .
(٤) ترجمتها ومصادرها في «جامع الأصول» (١٢/ ٢٤٨- ٢٤٩) .
(٥) انظر: الإصابة لابن حجر (١/ ٣٣٣) .
(٦) أخرجه البخاري (الفتح ٩/ ٥١٣٣) .

(٧) أخرجه البخاري (الفتح ٧/ ٤٣٥٨) ومسلم (٢٣٨٤) .
(٨) البخاري (٨/ ٤٧٨٥) ومسلم (١٤٧٥) .

ومن خصائصها- رضي الله عنها-: أنّ الأكابر من الصّحابة- رضي الله عنهم- كان إذا أشكل عليهم أمر من الدّين، استفتوها، فيجدون علمه عندها.
ومن خصائصها: أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم توفّي في بيتها، وفي يومها وبين سحرها ونحرها «١» ، ودفن في بيتها «٢» .
ومن خصائصها: أنّ الملك أرى صورتها للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قبل أن يتزوّجها في سرقة حرير، فقال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: إن يكن هذا من عند الله يمضه» «٣» .
ومن خصائصها: أنّ النّاس كانوا يتحرّون بهداياهم يومها من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، تقرّبا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيتحفونه بما يحبّ في منزل أحبّ نسائه إليه صلّى الله عليه وسلّم ورضي الله عنهنّ أجمعين.
حفصة بنت عمر «٤» - رضي الله عنهما-:
هي حفصة بنت عمر بن الخطّاب- رضي الله عنهما- تزوّجها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وكانت قبله عند خنيس بن حذافة، وكان من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وممّن شهد بدرا «٥» . توفّيت سنة سبع، وقيل: ثمان وعشرين.
ومن خواصّها: ما ذكره الحافظ أبو محمّد المقدسيّ في مختصره في السّيرة: أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم طلّقها، فأتاه جبريل، فقال: إنّ الله يأمرك أن تراجع حفصة فإنّها صوّامة قوّامة، وإنّها زوجتك في الجنّة» «٦» .
أمّ حبيبة «٧» - رضي الله عنها-:
هي رملة بنت صخر بن حرب بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف، هاجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش إلى أرض الحبشة، فتنصّر بالحبشة، وأتمّ الله لها الإسلام، وتزوّجها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وهي بأرض الحبشة، وأصدقها عنه النّجاشيّ أربعمائة دينار»
، وبعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عمرو بن أميّة الضّمريّ إلى النّجاشيّ يخطبها، وولي نكاحها عثمان بن عفّان، وقيل: خالد بن سعيد بن العاص.
وهي الّتي أكرمت فراش رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يجلس عليه أبوها لمّا قدم المدينة، وقالت: «إنّك مشرك» ومنعته من الجلوس عليه «٩» .

(١) السحر: الرئة. أي أنه صلّى الله عليه وسلّم مات وهو مستند إلى صدرها وما يحاذي سحرها- رضي الله عنها-.
(٢) أخرجه البخاري (الفتح ٣/ ١٣٨٩) ومسلم (٢٤٤٣) .
(٣) أخرجه البخاري (الفتح ٩/ ٥١٢٥) ومسلم (٢٤٣٨) وأحمد (٦/ ٤١ و١٢٨ و١٦١) من حديث عائشة- رضي الله عنها-.
(٤) ترجمتها ومصادرها في «جامع الأصول» (١٢/ ٢٥٠- ٢٥١) .
(٥) كان من السابقين الأولين إلى الإسلام. هاجر إلى الحبشة وعاد إلى المدينة، فشهد بدرا وأحدا وأصابه بأحد جراحات فمات منها- رضي الله عنه-.
(٦) أخرجه أبو داود (٢٢٨٣) ، وابن ماجة (٢٠١٦) من حديث عمر أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم طلق حفصة ثم راجعها، وأخرجه النسائي (٦/ ٢١٣) من حديث ابن عمر وإسناده صحيح ولفظ المصنف ورد من حديث أنس عند الطبراني، ومن حديث عمار بن ياسر عند البزار والطبراني، ومن حديث قيس بن يزيد عند الطبراني يصح بمجموعها الحديث. انظر: مجمع الزوائد (٩/ ٢٤٤ و٢٤٥) ، والإصابة (٤/ ٢٦٤) .

(٧) ترجمتها ومصادرها في «جامع الأصول» (١٢/ ٢٥٥- ٢٥٦) .
(٨) أخرجه أبو داود (٢١٠٧ و٢١٠٨) والنسائي (٦/ ١١٩) وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح.
(٩) أخرجه ابن سعد من طريق الواقدي فيما ذكره الحافظ في الإصابة في ترجمة أم حبيبة.

أمّ سلمة «١» - رضي الله عنها-:
هي هند بنت أبي أميّة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرّة بن كعب بن لؤيّ بن غالب، وكانت قبله عند أبي سلمة بن عبد الأسد «٢» . توفّيت سنة اثنتين وستّين ودفنت بالبقيع، وهي آخر أزواج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم موتا: وقيل: بل ميمونة.
ومن خصائصها: أنّ جبريل دخل على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وهي عنده، فرأته في صورة دحية الكلبيّ، ففي «صحيح مسلم» عن أبي عثمان قال: «أنبئت أنّ جبريل أتى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وعنده أمّ سلمة، قال: فجعل يتحدّث ثمّ قام، فقال نبيّ الله صلّى الله عليه وسلّم لأمّ سلمة «من هذا؟» - أو كما قال- قالت: هذا دحية الكلبيّ، قالت: وأيم الله ما حسبته إلّا إيّاه، حتّى سمعت خطبة نبيّ الله صلّى الله عليه وسلّم يخبر خبر جبريل أو كما قال. قال: سليمان التّيميّ: فقلت لأبي عثمان: ممّن سمعت هذا الحديث؟ قال: من أسامة بن زيد «٣» .
زينب بنت جحش «٤» - رضي الله عنها-:
هي زينب بنت جحش من بني خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، وهي بنت عمّته أميمة بنت عبد المطّلب، وكانت قبل عند مولاه زيد بن حارثة، وطلّقها، فزوّجها الله تعالى إيّاه من فوق سبع سموات، وأنزل عليه: فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها «٥» . فقام فدخل عليها بلا استئذان «٦» . وكانت تفخر بذلك على سائر أزواج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وتقول: «زوّجكنّ أهاليكنّ، وزوّجني الله من فوق سبع سماواته» «٧» . وهذا من خصائصها، توفّيت بالمدينة سنة عشرين ودفنت بالبقيع- رضي الله عنها-.
زينب بنت خزيمة «٨» - رضي الله عنها-:
هي زينب بنت خزيمة الهلاليّة، وكانت تحت عبد الله بن جحش «٩» . تزوّجها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سنة ثلاث من الهجرة، وكانت تسمّى أمّ المساكين لكثرة إطعامها المساكين، ولم تلبث عند رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يسيرا شهرين أو ثلاثة، وتوفّيت- رضي الله عنها-.

---

(١) ترجمتها ومصادرها في «جامع الأصول» (١٢/ ٢٥٢) .
(٢) اسمه عبد الله بن الأسد، كان قديم الإسلام، مع عثمان بن مظعون والأرقم بن أبي الأرقم، وهاجر إلى الحبشة مع أم سلمة، ثم عاد، وهاجر إلى المدينة، وشهد بدرا، وجرح في أحد جرحا اندمل، ثم انتقض، فمات في جمادى الآخرة سنة ثلاث من الهجرة.
(٣) أخرجه مسلم (٢٤٥١) .
(٤) ترجمتها ومصادرها في «جامع الأصول» (١٢/ ٢٥٣) .
(٥) سورة الأحزاب: ٣٧.
(٦) أخرجه مسلم (١٤٢٨) ، والنسائي (٦/ ٧٩) من حديث أنس بن مالك.
(٧) أخرجه البخاري (الفتح ١٣/ ٧٤٢٠) من حديث أنس بن مالك.
(٨) ترجمتها ومصادرها في «جامع الأصول» (١٢/ ٢٥١- ٢٥٢) .
(٩) أمه أميمة بنت عبد المطلب، أسلم قبل دخول النبي صلّى الله عليه وسلّم دار الأرقم، وهاجر الهجرتين إلى أرض الحبشة هو وأخواه أحمد وعبيد الله وأختهم زينب وأم حبيبة وحمنة بنات جحش، وهاجر إلى المدينة بأهله وأخيه أي أحمد. وهو أول أمير أمّره رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على سريّة، شهد بدرا، وقتل يوم أحد ودفن مع خاله حمزة.

جويرية بنت الحارث «١» - رضي الله عنها-:
وتزوّج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم جويرية بنت الحارث من بني المصطلق وكانت سبيت في غزوة بني المصطلق، فوقعت في سهم ثابت بن قيس، فكاتبها، فقضى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كتابتها وتزوّجها سنة ستّ من الهجرة، وتوفّيت سنة ستّ وخمسين، وهي الّتي أعتق المسلمون بسببها مائة أهل بيت من الرّقيق، وقالوا: أصهار رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وكان ذلك من بركتها على قومها- رضي الله عنها- «٢» .
صفيّة بنت حيّي «٣» - رضي الله عنها-:
وتزوّج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم صفيّة بنت حييّ من ولد هارون بن عمران أخي موسى، سنة سبع، فإنّها سبيت من خيبر، وكانت قبله تحت كنانة بن أبي الحقيق فقتله رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، توفّيت سنة ستّ وثلاثين، وقيل: سنة خمسين.
ومن خصائصها: أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أعتقها وجعل عتقها صداقها «٤» . وقال أنس «أمهرها نفسها» وصار ذلك سنّة للأمّة إلى يوم القيامة أنّه يجوز للرّجل أن يجعل عتق جاريته صداقها وتصير زوجته.
ميمونة بنت الحارث «٥» - رضي الله عنها-:
وتزوّج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ميمونة بنت الحارث الهلاليّة تزوّجها بسرف وبنى بها بسرف، وماتت بسرف، وهو على سبعة أميال من مكّة وهي آخر من تزوّج من أمّهات المؤمنين، توفّيت سنة ثلاث وستّين، وهي خالة عبد الله بن عبّاس- رضي الله عنهما- فإنّ أمّه أمّ الفضل بنت الحارث، وهي خالة خالد بن الوليد أيضا، وهي الّتي اختلف في نكاح النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، هل نكحها حلالا أو محرما؟ فالصحيح أنّه تزوّجها حلالا كما قال أبو رافع «٦» . السّفير في نكاحها.
قال المؤلّف- رحمه الله-: وقد غلط من قال: نكحها محرما، وتقديم حديث من قال: «تزوّجها حلالا» من عشرة أوجه مذكورة في غير هذا الموضع «٧» .
فهؤلاء جملة من دخل بهنّ من النّساء وهنّ إحدى عشرة.
قال الحافظ أبو محمّد المقدسيّ وغيره: وعقد على سبع ولم يدخل بهنّ.
فالصّلاة على أزواجه تابعة لاحترامهنّ وتحريمهنّ على الأمّة، وأنّهنّ نساؤه صلّى الله عليه وسلّم في الدّنيا والآخرة، فمن فارقها في حياتها ولم يدخل بها لا يثبت لها أحكام زوجاته اللّاتي دخل بهنّ، ومات عنهنّ صلّى الله عليه وعلى أزواجه وذرّيّته وسلّم تسليما.

---

(١) ترجمتها ومصادرها في «جامع الأصول» (١٢/ ٢٥٦- ٢٥٧) .
(٢) أبو داود (٣٩٣١) وأحمد (٦/ ٢٧٧) وإسناده صحيح.
(٣) ترجمتها ومصادرها في «جامع الأصول» (١٢/ ٢٥٩- ٢٦٠) .
(٤) أخرجه البخاري (الفتح ٧/ ٤٢٠٠) ومسلم (١٣٦٥) .
(٥) ترجمتها ومصادرها في «جامع الأصول» (١٢/ ٢٥٧- ٢٥٨) .
(٦) حديث أبي رافع أخرجه أحمد (٦/ ٣٩٣) والترمذي (٨٤١) وقال هذا حديث حسن.
(٧) ذكر المؤلف سبعة منها في كتاب النكاح من «زاد المعاد» .

بيان معنى الذّرّيّة

وأمّا الذّرّيّة فالكلام فيها في مسألتين:
المسألة الأولى: في لفظها، وفيها ثلاثة أقوال: أصحّها:
أنّها من ذرأ الله الخلق، أي نشرهم وأظهرهم إلّا أنّهم تركوا همزها استثقالا، فأصلها «ذرّيئة» بالهمز فعّيلة من الذّرء، وهذا اختيار صاحب «الصّحاح» وغيره «١» .
المسألة الثّانية: في هذه اللّفظة:
لا خلاف بين أهل اللّغة أنّ الذّرّيّة تقال على الأولاد الصّغار وعلى الكبار أيضا. قال تعالى: وَإِذِ ابْتَلى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً قالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي «٢» . وقال تعالى: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْراهِيمَ وَآلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ* ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ «٣» . وقال تعالى:
وَمِنْ آبائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوانِهِمْ وَاجْتَبَيْناهُمْ وَهَدَيْناهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ «٤» . وقال تعالى: وَآتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَجَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا* ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كانَ عَبْداً شَكُوراً «٥» .
وهل تقال الذّرّيّة على الآباء؟ فيه قولان: أحدهما: أنّهم يسمّون ذرّيّة أيضا.
وأنكر ذلك جماعة من أهل اللّغة، وقالوا: لا يجوز هذا في اللّغة، والذّرّيّة كالنّسل والعقب، لا تكون إلّا للعمود الأسفل، ولهذا قال تعالى: وَمِنْ آبائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوانِهِمْ. فذكر جهات النّسب الثّلاث من فوق، ومن أسفل، ومن الأطراف.
قال المؤلّف- رحمه الله-: إذا ثبت هذا، فالذّرّيّة: الأولاد وأولادهم، وهل يدخل فيها أولاد البنات؟ فيه قولان هما روايتان عن أحمد، إحداهما: يدخلون وهو مذهب الشّافعيّ، والثّانية: لا يدخلون وهو مذهب أبي حنيفة. ثمّ ذكر أدلّة القولين.

---

(١) قال المؤلف: وهذا القول أصح لأن الاشتقاق والمعنى يشهدان له.
(٢) سورة البقرة: ١٢٤.
(٣) سورة آل عمران: ٣٣- ٣٤.
(٤) سورة الأنعام: ٨٧.
(٥) سورة الإسراء: ٢، ٣.
جـ ١(ص: ٥٩٥)

فصل في ذكر إبراهيم خليل الرّحمن صلّى الله عليه وسلّم

هذا الاسم (إبراهيم) بالسّريانيّة معناه: «أب رحيم» والله سبحانه جعل إبراهيم الأب الثّالث للعالم، فإنّ أبانا الأوّل آدم، والأب الثّاني نوح، وأهل الأرض كلّهم من ذرّيّته، كما قال تعالى: وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ «١» .
وبهذا يتبيّن كذب المفترين من العجم الّذين يزعمون أنّهم لا يعرفون نوحا ولا ولده، ولا ينسبون إليه، وينسبون ملوكهم من آدم إليهم، ولا يذكرون نوحا في أنسابهم، وقد أكذبهم الله عزّ وجلّ في ذلك.
فالأب الثّالث أبو الآباء، وعمود العالم، وإمام الحنفاء الّذي اتّخذه الله سبحانه وتعالى خليلا، وجعل النّبوّة والكتاب في ذرّيّته، ذلك خليل الرّحمن وشيخ الأنبياء كما سمّاه النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بذلك، فإنّه لمّا دخل الكعبة، وجد المشركين قد صوّروا فيها صورته وصورة إسماعيل ابنه وهما يستقسمان بالأزلام، فقال: «قاتلهم الله، لقد علموا أنّ شيخنا لم يكن يستقسم بالأزلام» «٢» . ولم يأمر الله سبحانه وتعالى رسوله صلّى الله عليه وسلّم أن يتّبع ملّة أحد من الأنبياء غيره فقال تعالى: ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ

اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ «٣» . وأمر أمّته بذلك فقال تعالى: هُوَ اجْتَباكُمْ وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ «٤» . و «ملّة» منصوب على إضمار فعل، أي: اتّبعوه والزموا ملّة أبيكم. ودلّ على المحذوف ما تقدّم من قوله: وَجاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ «٥» .

وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يوصي أصحابه إذا أصبحوا وإذا أمسوا أن يقولوا: «أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص، ودين نبيّنا محمّد وملّة أبينا إبراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين» «٦» .

فتأمّل هذه الألفاظ كيف جعل الفطرة للإسلام، فإنّه فطرة الله الّتي فطر النّاس عليها، وكلمة الإخلاص: هي شهادة أن لا إله إلّا الله تعالى والملّة لإبراهيم فإنّه صاحب الملّة: وهي التّوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له، ومحبّته فوق كلّ محبّة، والدّين للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وهو دينه الكامل وشرعه التّامّ الجامع لذلك كلّه، وسمّاه الله سبحانه «إماما» و «أمّة» و «قانتا» و «حنيفا» . قال تعالى: وَإِذِ ابْتَلى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ

---

(١) سورة الصافات: ٧٧.

(٢) أخرجه البخاري (الفتح ٨/ ٤٢٨٨) وأحمد (١/ ٣٦٥) .

(٣) سورة النحل: ١٢٣.

(٤) سورة الحج: ٧٨.

(٥) سورة الحج: ٧٨.

(٦) أخرجه أحمد (٣/ ٤٠٦، ٤٠٧) والدارمي (٢/ ٢٩٢) وابن السني (٣٣) من حديث عبد الرحمن بن أبزي، وقال الأرنؤطيان: سنده صحيح.

إِماماً قالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ «١» . فأخبر سبحانه أنّه جعله إماما للنّاس، وأنّ الظّالم من ذرّيّته لا ينال رتبة الإمامة. والظّالم: هو المشرك، وأخبر سبحانه أنّ عهده بالإمامة لا ينال من أشرك به. وقال تعالى:

إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ* شاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَباهُ وَهَداهُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ* وَآتَيْناهُ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ «٢» .

فالأمّة: هو القدوة المعلّم للخير، والقانت: المطيع لله الملازم لطاعته، والحنيف: المقبل على الله، المعرض عمّا سواه.

والمقصود: أنّ إبراهيم عليه السّلام: هو أبونا الثّالث، وهو إمام الحنفاء، ويسمّيه أهل الكتاب عمود العالم، وجميع أهل الملل متّفقة على تعظيمه وتولّيه ومحبّته. وكان خير بنيه سيّد ولد آدم محمّد صلّى الله عليه وسلّم يجلّه ويعظّمه ويبجّله ويحترمه، ففي «الصّحيحين» عن أنس بن مالك- رضي الله تعالى عنه- قال: جاء رجل إلى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال: يا خير البريّة، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «ذاك إبراهيم» «٣» . وسمّاه شيخه، كما تقدّم.

وثبت في «صحيح البخاريّ» من حديث سعيد بن جبير، عن ابن عبّاس- رضي الله عنهما- عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «إنّكم محشورون حفاة عراة غرلا، ثمّ قرأ كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ» .

وأوّل من يكسى يوم القيامة إبراهيم» «٥» .

وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أشبه الخلق به، كما في «الصّحيحين» عنه قال: «رأيت إبراهيم فإذا أقرب النّاس شبها به صاحبكم» يعني نفسه صلّى الله عليه وسلّم، وفي لفظ آخر «وأمّا إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم» «٦» .

وكان صلّى الله عليه وسلّم يعوّذ أولاد ابنته حسنا وحسينا بتعويذ إبراهيم لإسماعيل وإسحاق، ففي «صحيح البخاريّ» عن سعيد بن جبير، عن ابن عبّاس- رضي الله عنهما- قال: «كان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يعوّذ الحسن والحسين ويقول: «إنّ أباكما كان يعوّذ بهما إسماعيل وإسحاق: أعوذ بكلمات الله التّامّة من كلّ شيطان وهامّة، ومن كلّ عين لامّة» «٧» .

وكان صلّى الله عليه وسلّم أوّل من قرى الضّيف، وأوّل من اختتن، وأوّل من رأى الشّيب، فقال: «ما هذا يا ربّ؟ قال:

وقار، قال: ربّ زدني وقارا» .

---

(١) سورة البقرة: ١٢٤.

(٢) سورة النحل: ١٢٠- ١٢٢.

(٣) أخرجه مسلم (٢٣٦٩) وأبو داود (٤٦٧٢) والترمذي (٣٤٩) .

(٤) سورة الأنبياء: ١٠٤.

(٥) أخرجه البخاري (الفتح ٨/ ٤٧٤٠) ومسلم (٢٨٦٠) .

(٦) أخرجه البخاري (الفتح ٦/ ٣٤٣٧) من حديث أبي هريرة، ومسلم (١٦٧) .

(٧) أخرجه البخاري (الفتح ٦/ ٣٣٧١) .

وتأمّل ثناء الله سبحانه عليه في إكرام ضيفه من الملائكة حيث يقول سبحانه: هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ الْمُكْرَمِينَ* إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ* فَراغَ إِلى أَهْلِهِ فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ* فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قالَ أَلا تَأْكُلُونَ «١» .

ففي هذا الثّناء على إبراهيم من وجوه متعدّدة ذكرها المؤلّف فلتراجع.

لقد جمعت هذه الآية آداب الضّيافة الّتي هي شرف الآداب، وما عداها من التّكلّفات الّتي هي تخلّف وتكلّف إنّما هي من أوضاع النّاس وعوائدهم وكفى بهذه الآداب شرفا وفخرا، فصلّى الله على نبيّنا وعلى إبراهيم وعلى آلهما وعلى سائر النّبيّين.

وقد شهد الله سبحانه بأنّه وفّى ما أمر به، فقال تعالى: أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِما فِي صُحُفِ مُوسى * وَإِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى «٢» . قال ابن عبّاس- رضي الله عنهما-: وفّى جميع شرائع الإسلام، ووفّى ما أمر به من تبليغ الرّسالة. وقال تعالى: وَإِذِ ابْتَلى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً «٣» . فلمّا أتمّ ما أمر من الكلمات، جعله الله إماما للخلائق يأتمّون به.

وكان صلّى الله عليه وسلّم كما قيل: قلبه للرّحمن، وولده للقربان، وبدنه للنّيران، وماله للضّيفان.

وهو الّذي بنى بيت الله، وأذّن في النّاس بحجّه، فكلّ من حجّه واعتمره حصل لإبراهيم من مزيد ثواب الله وكرامته بعدد الحجّاج والمعتمرين. قال تعالى: وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى «٤» . فأمر نبيّه صلّى الله عليه وسلّم وأمّته أن يتّخذوا من مقام إبراهيم مصلّى تحقيقا للاقتداء به، وإحياء آثاره صلّى الله على نبيّنا وعليه وسلّم.

ومناقب هذا الإمام الأعظم، والنّبيّ الأكرم أجلّ من أن يحيط بها كتاب، جعلنا الله ممّن ائتمّ به، ولا جعلنا ممّن عدل عن ملّته بمنّه وكرمه.

---

(١) سورة الذاريات: ٢٤- ٢٧.

(٢) سورة النجم: ٣٦، ٣٧.

(٣) سورة البقرة: ١٢٤.

(٤) سورة البقرة: ١٢٥.

مسألة مشهورة

ذكر المؤلّف- رحمه الله- تفاصيل هذه المسألة: وهي أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أفضل من إبراهيم، فكيف طلب له من الصّلاة ما لإبراهيم؟ مع أنّ المشبّه به أصله أن يكون فوق المشبّه؟ فكيف الجمع بين هذين الأمرين المتنافيين؟
ثم ذكر- رحمه الله- ما قاله النّاس في هذا، مع بيان ما فيه من صحيح وفاسد.
ثمّ ختم ذلك بقوله: وقالت طائفة أخرى: آل إبراهيم فيهم الأنبياء الّذين ليس في آل محمّد مثلهم، فإذا طلب للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ولآله من الصّلاة مثل ما لإبراهيم وآله- وفيهم الأنبياء- حصل لآل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم من ذلك ما يليق بهم، فإنّهم لا يبلغون مراتب الأنبياء، وتبقى الزّيادة الّتي للأنبياء وفيهم إبراهيم لمحمّد صلّى الله عليه وسلّم، فيحصل له بذلك من المزيّة ما لم يحصل لغيره.
وتقرير ذلك: أن يجعل الصّلاة الحاصلة لإبراهيم ولآله وفيهم الأنبياء جملة مقسومة على محمّد صلّى الله عليه وسلّم وآله، ولا ريب أنّه لا يحصل لآل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم مثل ما حصل لآل إبراهيم وفيهم الأنبياء، بل يحصل لهم ما يليق بهم، فيبقى قسم النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم والزّيادة المتوفّرة الّتي لم يستحقّها آله مختصّة به صلّى الله عليه وسلّم، فيصير الحاصل له من مجموع ذلك أعظم وأفضل من الحاصل لإبراهيم، وهذا أحسن من كلّ ما تقدّمه.
وأحسن منه أن يقال: محمّد صلّى الله عليه وسلّم هو من آل إبراهيم، بل هو خير آل إبراهيم، كما روى عليّ بن أبي طلحة عن ابن عبّاس- رضي الله عنهما- في قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْراهِيمَ وَآلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ «١» . قال ابن عبّاس- رضي الله عنهما-: محمّد من آل إبراهيم، وهذا نصّ فإنّه إذا دخل غيره من الأنبياء الّذين هم من ذرّيّة إبراهيم في آله، فدخول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أولى، فيكون قولنا: «كما صلّيت على آل إبراهيم» متناولا للصّلاة عليه، وعلى سائر النّبيّين من ذرّيّة إبراهيم.
ثمّ قد أمرنا الله أن نصلّي عليه وعلى آله خصوصا بقدر ما صلّينا عليه مع سائر آل إبراهيم عموما، وهو فيهم، ويحصل لآله من ذلك ما يليق بهم ويبقى الباقي كلّه له صلّى الله عليه وسلّم.
وتقرير هذا أنّه يكون قد صلّى عليه خصوصا، وطلب له من الصّلاة ما لآل إبراهيم وهو داخل معهم، ولا ريب أنّ الصّلاة الحاصلة لآل إبراهيم ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم معهم أكمل من الصّلاة الحاصلة له دونهم، فيطلب له من الصّلاة هذا الأمر العظيم الّذي هو أفضل ممّا لإبراهيم قطعا، وتظهر حينئذ فائدة التّشبيه وجريه على أصله، وأنّ المطلوب له من الصّلاة بهذا اللّفظ أعظم من المطلوب له بغيره، فإنّه إذا كان المطلوب بالدّعاء إنّما هو مثل المشبّه

---

(١) سورة آل عمران: ٣٣.
جـ ١(ص: ٥٩٩)

به، وله أوفر نصيب منه، صار له من المشبّه المطلوب أكثر ممّا لإبراهيم وغيره، وانضاف إلى ذلك ممّا له من المشبّه به من الحصّة الّتي لم تحصل لغيره.
فظهر بهذا من فضله وشرفه على إبراهيم وعلى كلّ من آله وفيهم النّبيّون ما هو لائق به، وصارت هذه الصّلاة دالّة على هذا التّفضيل وتابعة له، وهي من موجباته ومقتضياته، فصلّى الله عليه وعلى آله وسلّم تسليما كثيرا، وجزاه عنّا أفضل ما جزى نبيّا عن أمّته، اللهمّ صلّ على محمّد وعلى آل محمّد كما صلّيت على آل إبراهيم، إنّك حميد مجيد، وبارك على محمّد وعلى آل محمّد كما باركت على آل إبراهيم، إنّك حميد مجيد.
جـ ١(ص: ٦٠٠)

معنى قوله «اللهمّ بارك على محمّد وعلى آل محمّد»

قال المؤلّف- رحمه الله-: حقيقة البركة: الثّبوت واللّزوم والاستقرار، فمنه برك البعير: إذا استقرّ على الأرض ومنه المبرك لموضع البروك. قال صاحب «الصّحاح» : وكلّ شيء ثبت وأقام، فقد برك.
والبرك: الإبل الكثيرة، والبركة بكسر الباء كالحوض، والجمع البرك، ذكره الجوهريّ. قال: ويقال: سمّيت بذلك لإقامة الماء فيها.
والبراكاء: الثّبات في الحرب والجدّ فيها، قال الشّاعر «١» :
ولا ينجي من الغمرات إلّا ... براكاء القتال أو الفرار
والبركة: النّماء والزّيادة، والتبريك: الدّعاء بذلك. ويقال: باركه الله وبارك فيه. وبارك عليه، وبارك له، وفي القرآن: أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَها «٢» ... وفيه: وَبارَكْنا عَلَيْهِ وَعَلى إِسْحاقَ «٣» .
وفيه: بارَكْنا فِيها* «٤» .
وفي الحديث: «وبارك لي فيما أعطيت» «٥» ... وفي حديث سعد: «بارك الله لك في أهلك ومالك» «٦» .
والمبارك: الّذي قد باركه الله سبحانه، كما قال المسيح عليه السّلام: وَجَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ «٧» ..
وكتابه مبارك، كما قال تعالى: وَهذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أَنْزَلْناهُ «٨» .. وقال: كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ «٩» ، وهو أحقّ

---

(١) هو بشر بن أبي خازم، وهو في ديوانه (ص ٧٩) والغمرات: الشدائد، واحدها: الغمرة. والبركاء بفتح الباء وضمها: أن يبرك الرجل في القتال ويثبت ولا يبرح.
(٢) سورة النمل: ٨.
(٣) سورة الصافات: ١١٣.
(٤) سورة الأعراف: ١٣٧.
(٥) أخرجه أحمد (١/ ١٩٩، ٢٠٠) ، وأبو داود (١٤٢٥) ، والترمذي (٤٦٤) ، وحسّنه، والنسائي (٣/ ٢٤٨) ، وابن ماجه (١١٧٨) ، والدارمي (١/ ٣٧٣) من حديث الحسن بن علي- رضي الله عنهما- قال: «علمني رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كلمات أقولهن في الوتر: اللهم اهدني فيمن هديت ... » وصححه الحاكم (٣/ ١٧٢) ، ووافقه الذهبي.
(٦) أخرجه البخاري (الفتح ٧/ ٣٩٣٧) ، وأحمد (٣/ ١٩٠، ٢٧١) من حديث أنس بن مالك قال: قدم عبد الرحمن بن عوف، فآخى النبي صلّى الله عليه وسلّم بينه وبين سعد بن الربيع، وكان كثير المال، فقال سعد: قد علمت الأنصار أني من أكثرها مالا سأقسم مالي بيني وبينك شطرين، ولي امرأتان، فانظر أعجبها إليك، فأطلقها حتى إذا حلّت تزوجها، فقال عبد الرحمن: بارك الله في أهلك ومالك، فلم يرجع يومئذ حتى أفضل شيئا من سمن وأقط، فلم يلبث إلّا يسيرا حتى جاء رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعليه وضر من صفرة، فقال له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مهيم؟» قال: تزوجت امرأة من الأنصار، فقال: «ما سقت إليها؟» قال: وزن نواة من ذهب. فقال: «أولم ولو بشاة» .
(٧) سورة مريم: ٣١.
(٨) سورة الأنبياء: ٥٠.
(٩) سورة ص: ٢٩.

أن يسمّى مباركا من كلّ شيء، لكثرة خيره ومنافعه، ووجوه البركة فيه، والرّبّ سبحانه وتعالى يقال في حقّه «تبارك» ولا يقال: مبارك.

ثمّ قالت طائفة منهم الجوهريّ: إنّ «تبارك» بمعنى بارك، مثل قاتل وتقاتل، قال: إلّا أنّ فاعل يتعدّى وتفاعل لا يتعدّى، وهذا غلط عند المحقّقين، وإنّما «تبارك» تفاعل من البركة، وهذا الثّناء في حقّه تعالى، إنّما هو لوصف رجع إليه كتعالى، فإنّه تفاعل من العلوّ، ولهذا يقرن بين هذين اللّفظين فيقال: «تبارك وتعالى» ، وفي دعاء القنوت: «تباركت وتعاليت» وهو سبحانه أحقّ بذلك وأولى من كلّ أحد، فإنّ الخير كلّه بيديه، وكلّ الخير منه، صفاته كلّها صفات كمال، وأفعاله كلّها حكمة، ورحمة، ومصلحة، وخيرات لا شرور فيها، كما قال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم:

«والشّرّ ليس إليك» «١» . وإنّما يقع الشّرّ في مفعولاته ومخلوقاته، لا في فعله سبحانه، فإذا كان العبد وغيره مباركا لكثرة خيره ومنافعه واتّصال أسباب الخير فيه، وحصول ما ينتفع به النّاس منه، فالله تبارك وتعالى أحقّ أن يكون متباركا، وهذا ثناء يشعر بالعظمة، والرّفعة، والسّعة، كما يقال: تعاظم وتعالى ونحوه، فهو دليل على عظمته، وكثرة خيره، ودوامه، واجتماع صفات الكمال فيه، وأنّ كلّ نفع في العالم كان ويكون، فمن نفعه سبحانه وإحسانه.

ويدلّ هذا الفعل أيضا في حقّه على العظمة والجلال وعلوّ الشّأن، ولهذا إنّما يذكره غالبا مفتتحا به كلامه وعظمته وكبرياءه.. قال تعالى: إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ «٢» . وقال تعالى: تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً «٣» .

فقد ذكر تباركه سبحانه في المواضع الّتي أثنى فيها على نفسه بالجلال والعظمة، والأفعال الدّالّة على ربوبيّته وإلهيّته وحكمته وسائر صفات كماله، من إنزال الفرقان، وخلق العالمين، وانفراده بالملك وكمال القدرة.

ولهذا قال أبو صالح عن ابن عبّاس- رضي الله عنهما-: تبارك بمعنى تعالى.

وقال أبو عبّاس: تبارك: ارتفع، والمبارك: المرتفع.

وقال ابن الأنباريّ: تبارك بمعنى تقدّس، وقال الحسن: تبارك: تجيء البركة من قبله، وقال الضّحّاك: تبارك: تعظّم، وقال الخليل بن أحمد: تمجّد، وقال الحسين بن الفضل: تبارك في ذاته، وبارك من شاء من خلقه.

وهذا أحسن الأقوال، فتباركه سبحانه وصف ذات له، وصفة فعل، كما قال الحسين بن الفضل.

وقال ابن عطيّة: معناه عظم، وكثرت بركاته، ولا يوصف بهذه اللّفظة إلّا الله سبحانه وتعالى.

---

(١) هو جزء من حديث طويل رواه مسلم (٧٧١) ، والنسائي (٢/ ١٩٩، ١٣٠) .

(٢) سورة الأعراف: ٥٤.

(٣) سورة الفرقان: ١.

والمقصود الكلام على قوله: «وبارك على محمّد، وعلى آل محمّد كما باركت على آل إبراهيم» فهذا الدّعاء يتضمّن إعطاءه من الخير ما أعطاه لآل إبراهيم، وإدامته وثبوته له، ومضاعفته له وزيادته، هذا حقيقة البركة، وقد قال تعالى في إبراهيم وآله: وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ* وَبارَكْنا عَلَيْهِ وَعَلى إِسْحاقَ «١» . وقال تعالى فيه وفي أهل بيته: رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ «٢» .

وتأمّل كيف جاء في القرآن: وَبارَكْنا عَلَيْهِ وَعَلى إِسْحاقَ ولم يذكر إسماعيل. وجاء في التّوراة ذكر البركة على إسماعيل، ولم يذكر إسحاق كما تقدّمت حكايته، وعن إسماعيل «شمعتك، هانا باركتخ» (أي: ها أنا باركتك) فجاء في التّوراة ذكر البركة في إسماعيل إيذانا بما حصل لبنيه من الخير والبركة، لا سيّما خاتمة بركتهم وأعظمها وأجلّها برسول الله صلّى الله عليه وسلّم. فنبّههم بذلك على ما يكون في بنيه من هذه البركة العظيمة الموافية على لسان المبارك صلّى الله عليه وسلّم، وذكر لنا في القرآن

بركته على إسحاق منبّها لنا على ما حصل في أولاده من نبوّة موسى عليه السّلام وغيره، وما أوتوه من الكتاب والعلم مستدعيا من عباده الإيمان بذلك، والتّصديق به، وأن لا يهملوا معرفة حقوق هذا البيت المبارك وأهل النّبوّة منهم، ولا يقول القائل: هؤلاء أنبياء بني إسرائيل لا تعلّق لنا بهم، بل يجب علينا احترامهم، وتوقيرهم، والإيمان بهم، ومحبّتهم، وموالاتهم، والثّناء عليهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ولمّا كان هذا البيت المبارك المطهّر أشرف بيوت العالم على الإطلاق خصّهم الله سبحانه وتعالى منه بخصائص:

منها: أنّه جعل فيه النّبوّة والكتاب، فلم يأت بعد إبراهيم عليه السّلام نبيّ إلّا من أهل بيته.

ومنها: أنّه سبحانه جعلهم أئمّة يهدون بأمره إلى يوم القيامة، فكلّ من دخل الجنّة من أولياء الله بعدهم، فإنّما دخل من طريقهم وبدعوتهم.

ومنها: أنّه سبحانه اتّخذ منهم الخليلين: إبراهيم، ومحمّدا صلّى الله عليه وسلّم، وقال تعالى: وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْراهِيمَ خَلِيلًا «٣» .

وقال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ الله اتّخذني خليلا كما اتّخذ إبراهيم خليلا» «٤» . وهذا من خواصّ البيت.

ومنها: أنّه سبحانه جعل صاحب هذا البيت إماما للعالمين، كما قال تعالى: وَإِذِ ابْتَلى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً «٥» .

ومنها: أنّه أجرى على يديه بناء بيته الّذي جعله قياما للنّاس وقبلة لهم وحجّا، فكان ظهور هذا البيت من

---

(١) سورة الصافات: ١١٢، ١١٣.

(٢) سورة هود: ٧٣.

(٣) سورة النساء: ١٢٥.

(٤) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٥) وعزاه للطبراني وقال: وفيه يزيد الألهاني وهو ضعيف.

(٥) سورة البقرة: ١٢٤.

أهل هذا البيت الأكرمين.

ومنها: أنّه أمر عباده بأن يصلّوا على أهل البيت، كما صلّى على أهل بيتهم وسلفهم وهم إبراهيم وآله، وهذه خاصّة لهم.

ومنها: أنّه أخرج منهم الأمّتين المعظّمتين الّتي لم تخرج من أهل بيت غيرهم، وهم أمّة موسى وأمّة محمّد صلّى الله وسلّم عليهما، وأمّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم تمام سبعين أمّة خيرها وأكرمها على الله «١» .

ومنها: أنّ الله سبحانه أبقى عليهم لسان صدق وثناء حسنا في العالم، فلا يذكرون إلّا بالثّناء عليهم والصّلاة والسّلام عليهم، قال الله تعالى: وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ* سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ* كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ «٢» .

ومنها: جعل أهل هذا البيت فرقانا بين النّاس، فالسّعداء أتباعهم ومحبّوهم ومن تولّاهم، والأشقياء من أبغضهم وأعرض عنهم وعاداهم، فالجنّة لهم ولأتباعهم، والنّار لأعدائهم ومخالفيهم.

ومنها: أنّه سبحانه جعل ذكرهم مقرونا بذكره، فيقال: إبراهيم خليل الله ورسوله ونبيّه، ومحمّد رسول الله، وخليله ونبيّه، وموسى كليم الله ورسوله، قال تعالى لنبيّه يذكّره بنعمته عليه: وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ «٣» . قال ابن عبّاس- رضي الله عنهما- في تفسيرها: إذا ذكرت ذكرت معي، فيقال: لا إله إلّا الله، محمّد رسول الله، في كلمة الإسلام، وفي الأذان، وفي الخطب، وفي التّشهّدات وغير ذلك.

ومنها: أنّه سبحانه جعل خلاص خلقه من شقاء الدّنيا والآخرة على أيدي أهل هذا البيت، فلهم على النّاس من النّعم ما لا يمكن إحصاؤها ولا جزاؤها، ولهم المنن الجسام في رقاب الأوّلين والآخرين من أهل السّعادة، والأيادي العظام عندهم الّتي يجازيهم عليها الله عزّ وجلّ.
ومنها: أنّ كلّ ضرّ ونفع وعمل صالح وطاعة لله تعالى حصلت في العالم، فلهم من الأجر مثل أجور عامليها، فسبحان من يختصّ بفضله من يشاء من عباده.
ومنها: أنّ الله سبحانه وتعالى سدّ جميع الطّرق بينه وبين العالمين، وأغلق دونهم الأبواب، فلم يفتح لأحد قطّ إلّا من طريقهم وبابهم.
ومنها: أنّه سبحانه خصّهم من العلم بما لم يخصّ به أهل بيت سواهم من العالمين، فلم يطرق العالم أهل بيت أعلم بالله وأسمائه وصفاته وأحكامه وأفعاله وثوابه وعقابه وشرعه ومواقع رضاه وغضبه وملائكته ومخلوقاته

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٥) ، والترمذي (٣٠٠٤) عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه سمع النبي صلّى الله عليه وسلّم يقول في قوله تعالى: «كنتم خير أمة أخرجت للناس» قال: «إنكم تتمون سبعين، أنتم خيرها وأكرمها على الله» وسنده حسن.
(٢) سورة الصافات: ١٠٨- ١١٠.
(٣) سورة الانشراح: ٤.

منهم، فسبحان من جمع لهم علم الأوّلين والآخرين.
ومنها: أنّه سبحانه خصّهم من توحيده ومحبّته وقربه والاختصاص به، بما لم يختصّ به أهل بيت سواهم.
ومنها: أنّه سبحانه مكّن لهم في الأرض واستخلفهم فيها، وأطاع أهل الأرض لهم ما لم يحصل لغيرهم.
ومنها: أنّه سبحانه أيّدهم ونصرهم وأظفرهم بأعدائه وأعدائهم بما لم يؤيّد غيرهم.
ومنها: أنّه سبحانه محا بهم من آثار أهل الضّلال والشّرك، ومن الآثار الّتي يبغضها ويمقتها ما لم يمحه بسواهم.
ومنها: أنّه سبحانه غرس لهم من المحبّة والإجلال والتّعظيم في قلوب العالمين ما لم يغرسه لغيرهم.
ومنها: أنّه سبحانه جعل آثارهم في الأرض سببا لبقاء العالم وحفظه، فلا يزال العالم باقيا ما بقيت آثارهم، فإذا ذهبت آثارهم من الأرض، فذاك أوان خراب العالم. قال الله تعالى: جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ «١» . قال ابن عبّاس- رضي الله عنهما- في تفسيرها: لو ترك النّاس كلّهم الحجّ، لوقعت السّماء على الأرض. وقال: «لو ترك النّاس كلّهم الحجّ لما نظروا. وأخبر النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّ في آخر الزّمان يرفع الله بيته من الأرض وكلامه من المصاحف وصدور الرّجال «٢» . فلا يبقى له في الأرض بيت يحجّ ولا كلام يتلى، فحينئذ يقرب خراب العالم، وهكذا النّاس اليوم إنّما قيامهم بقيام آثار نبيّهم وشرائعه بينهم، وقيام أمورهم، وحصول مصالحهم، واندفاع أنواع البلاء والشّرّ عنهم بحسب ظهورها بينهم وقيامها، وهلاكهم وعنتهم وحلول البلاء والشّرّ بهم عند تعطّلها والإعراض عنها، والتّحاكم إلى غيرها، واتّخاذ سواها.
ومن تأمّل تسليط الله سبحانه على من سلّطه على البلاد والعباد من الأعداء، علم أنّ ذلك بسبب تعطيلهم لدين نبيّهم وسننه وشرائعه، فسلّط الله عليهم من أهلكهم وانتقم منهم، حتّى إنّ البلاد الّتي لآثار الرّسول صلّى الله عليه وسلّم وسننه وشرائعه فيها ظهور دفع عنها بحسب ظهور ذلك بينهم.
وهذه الخصائص وأضعاف أضعافها من آثار رحمة الله وبركاته على أهل هذا البيت، فلهذا أمرنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن نطلب له من الله تعالى أن يبارك عليه، وعلى آله، كما بارك على هذا البيت المعظّم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

---

(١) سورة المائدة: ٩٧.
(٢) روى ابن ماجه (٤٠٤٩) عن حذيفة بن اليمان- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «يدرس الإسلام، كما يدرس وشي الثوب، حتى لا يدري ما صيام ولا صلاة، ولا نسك ولا صدقة، وليسري على كتاب الله عزّ وجلّ في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية ... » ، قال البوصيري في «الزوائد» إسناده صحيح، رجاله ثقات، وأخرجه الحاكم وصححه، والبيهقي في «شعب الإيمان» والضياء في «المختارة» .
جـ ١(ص: ٦٠٥)

ومن بركات أهل هذا البيت، أنّه سبحانه أظهر على أيديهم من بركات الدّنيا والآخرة ما لم يظهره على يدي أهل بيت غيرهم.
ومن بركاتهم وخصائصهم أنّ الله سبحانه أعطاهم من خصائصهم ما لم يعط غيرهم، فمنهم من اتّخذه خليلا، ومنهم الذّبيح، ومنهم من كلّمه تكليما، وقرّبه نجيّا، ومنهم من آتاه شطر الحسن، وجعله من أكرم النّاس عليه، ومنهم من آتاه ملكا لم يؤته أحدا غيره، ومنهم من رفعه مكانا عليّا.
ولمّا ذكر سبحانه وتعالى هذا البيت وذرّيّته، أخبر أنّ كلّهم فضّله على العالمين.
ومن خصائصهم وبركاتهم على أهل الأرض أنّ الله سبحانه رفع العذاب العامّ عن أهل الأرض بهم وببعثهم، وكانت عادته سبحانه في أمم الأنبياء قبلهم أنّهم إذا كذّبوا أنبياءهم ورسلهم، أهلكهم بعذاب يعمّهم، كما فعل بقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، فلمّا أنزل الله سبحانه وتعالى التّوراة والإنجيل والقرآن، رفع بها العذاب العامّ عن أهل الأرض، وأمر بجهاد من كذّبهم وخالفهم، فكان ذلك نصرة لهم بأيديهم، وشفاء لصدورهم واتّخاذ الشّهداء منهم، وإهلاك عدوّهم بأيديهم، لتحصيل محابّه سبحانه علي أيديهم، وحقّ لأهل بيت هذا بعض فضائلهم أن لا تزال الألسن رطبة بالصّلاة عليهم والسّلام والثّناء والتّعظيم، والقلوب ممتلئة من تعظيمهم ومحبّتهم وإجلالهم، وأن يعرف المصلّي عليهم أنّه لو أنفق أنفاسه كلّها في الصّلاة عليهم ما وفّى القليل من حقّهم، فجزاهم الله عن بريّته أفضل الجزاء، وزادهم في الملأ الأعلى تعظيما وتشريفا وتكريما، وصلّى عليهم صلاة دائمة لا انقطاع لها، وسلّم تسليما.
جـ ١(ص: ٦٠٦)

فصل في اختتام هذه الصّلاة بهذين الاسمين من أسماء الرّبّ سبحانه وتعالى

وهما: «الحميد والمجيد»
الحميد: فعيل من الحمد، وهو بمعنى محمود، وأكثر ما يأتي فعيلا في أسمائه تعالى بمعنى فاعل، كسميع، وبصير، وعليم، وقدير، وعليّ، وحكيم، وحليم، وهو كثير، وكذلك فعول، كغفور، وشكور، وصبور.
فالحميد هو الّذي له من الصّفات وأسباب الحمد ما يقتضي أن يكون محمودا وإن لم يحمده غيره، فهو حميد في نفسه، والمحمود من تعلّق به حمد الحامدين، وهكذا المجيد والممجّد، والكبير والمكبّر، والعظيم والمعظّم، والحمد والمجد إليهما يرجع الكمال كلّه، فإنّ الحمد يستلزم الثّناء والمحبّة للمحمود، فمن أحببته ولم تثن عليه، لم تكن حامدا له حتّى تكون مثنيا عليه محبّا له، وهذا الثّناء والحبّ تبع للأسباب المقتضية له، وهو ما عليه المحمود من صفات الكمال، ونعوت الجلال والإحسان إلى الغير، فإنّ هذه هي أسباب المحبّة، وكلّما كانت هذه الصّفات أجمع وأكمل، كان الحمد والحبّ أتمّ وأعظم، والله سبحانه له الكمال المطلق الّذي لا نقص فيه بوجه مّا، والإحسان كلّه له ومنه، فهو أحقّ بكلّ حمد،

وبكلّ حبّ من كلّ جهة، فهو أهل أن يحبّ لذاته ولصفاته ولأفعاله ولأسمائه ولإحسانه، ولكلّ ما صدر منه سبحانه وتعالى.
وأمّا المجد، فهو مستلزم للعظمة والسّعة والجلال، والحمد يدلّ على صفات الإكرام، والله سبحانه وتعالى ذو الجلال والإكرام، وهذا معنى قول العبد «لا إله إلّا الله والله أكبر» فلا إله إلّا الله دالّ على ألوهيّته وتفرّده فيها، فألوهيّته تستلزم محبّته التّامّة «الله أكبر» دالّ على مجده وعظمته، وذلك يستلزم تمجيده وتعظيمه وتكبيره، ولهذا يقرن سبحانه بين هذين النّوعين في القرآن كثيرا، كقوله: رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ «١» . وقوله تعالى: وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً»
، فأمر بحمده وتكبيره. وقال تعالى: تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ «٣» . وقال تعالى: وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ «٤» .

---

(١) سورة هود: ٧٣.
(٢) سورة الإسراء: ١١١.
(٣) سورة الرحمن: ٧٨.
(٤) سورة الرحمن: ٢٧.

وفي «المسند» و «صحيح أبي حاتم» وغيره من حديث أنس عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «ألظّوا بياذا الجلال والإكرام» «١» يعني الزموها وتعلّقوا بها، فالجلال والإكرام: هو الحمد والمجد، ونظير هذا قوله: فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ «٢» . وقوله تعالى: فَإِنَّ اللَّهَ كانَ عَفُوًّا قَدِيراً «٣» . وقوله تعالى: وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ «٤» . وقوله:
وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ* ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ «٥» . وهو كثير في القرآن. وفي الحديث الصّحيح حديث دعاء الكرب «لا إله إلّا الله العظيم الحليم، لا إله إلّا الله ربّ العرش العظيم، لا إله إلّا الله ربّ السّماوات وربّ الأرض وربّ العرش الكريم» «٦» . فذكر هذين الاسمين «الحميد المجيد» عقيب كلّ الصّلاة على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وعلى آله مطابق لقوله تعالى: رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ «٧» .
ولمّا كانت الصّلاة على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وهي ثناء الله تعالى عليه وتكريمه، والتّنويه به، ورفع ذكره، وزيادة حبّه، وتقريبه، كما تقدّم، كانت مشتملة على الحمد والمجد، فكأنّ المصلّي طلب من الله تعالى أن يزيد في حمده ومجده، فإنّ الصّلاة عليه هي نوع حمد له وتمجيد، هذا حقيقتها، فذكر في هذا المطلوب الاسمين المناسبين له، وهما اسما الحميد والمجيد. فلمّا كان المطلوب للرّسول صلّى الله عليه وسلّم حمدا ومجدا بصلاة الله عليه، ختم هذا السّؤال باسمي «الحميد والمجيد» وأيضا فإنّه لمّا كان المطلوب للرّسول صلّى الله عليه وسلّم حمدا ومجدا، وكان ذلك حاصلا له، ختم ذلك بالإخبار عن ثبوت ذينك الوصفين للرّبّ بطريق الأولى، إذ كلّ كمال في العبد غير مستلزم للنّقص، فالرّبّ أحقّ به.
وأيضا فإنّه لمّا طلب للرّسول حمدا ومجدا بالصّلاة عليه، وذلك يستلزم الثّناء عليه، ختم هذا المطلوب بالثّناء على مرسله بالحمد والمجد، فيكون هذا الدّعاء متضمّنا لطلب الحمد والمجد للرّسول صلّى الله عليه وسلّم والإخبار عن ثبوته للرّبّ سبحانه وتعالى.

---

(١) حديث صحيح بشواهد أخرجه الترمذي (٣٥٢٣) في الدعوات: باب (٩٩) من حديث أنس، وأحمد في «المسند» (٤/ ١٧٧) ، والحاكم (١/ ٤٩٩) من حديث ربيعة بن عامر، وأخرجه الحاكم أيضا (١/ ٤٩٩) من حديث أبي هريرة، وصححه ووافقه الذهبي.
(٢) سورة النمل: ٤٠.
(٣) سورة النساء: ١٤٩.

(٤) سورة الممتحنة: ٧.
(٥) سورة البروج: ١٤ و١٥.
(٦) أخرجه البخاري (الفتح ١١/ ٦٣٤٥) ومسلم (٢٧٣٠) .
(٧) سورة هود: ٧٣.
جـ ١(ص: ٦٠٨)

الصّلاة على غير النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم

أمّا سائر الأنبياء والمرسلين، فيصلّى عليهم ويسلّم، قال تعالى عن نوح- عليه السّلام-: وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ* سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ* إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ «١» . وقال عن إبراهيم خليله: وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ* سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ «٢» . وقال في موسى وهارون: وَتَرَكْنا عَلَيْهِما فِي الْآخِرِينَ* سَلامٌ عَلى مُوسى وَهارُونَ «٣» . وقال تعالى: سَلامٌ عَلى إِلْ ياسِينَ «٤» . فالّذي تركه سبحانه على رسله في الآخرين هو السّلام عليهم المذكور.
وقد قال جماعة من المفسّرين، منهم مجاهد وغيره: وتركنا عليهم في الآخرين: الثّناء الحسن، ولسان الصّدق للأنبياء كلّهم، وهذا قول قتادة أيضا ولا ينبغي أن يحكى هذا قولين للمفسّرين، كما يفعله من له عناية بحكاية الأقوال. بل هما قول واحد، فمن قال: إنّ المتروك هو السّلام عليهم في الآخرين نفسه، فلا ريب أنّ قوله: سَلامٌ عَلى نُوحٍ جملة في موضع نصب ب «تركنا» والمعنى: أنّ العالمين يسلّمون على نوح ومن بعده من الأنبياء، ومن فسّره بلسان الصّدق والثّناء الحسن، نظر إلى لازم السّلام وموجبه، وهو الثّناء عليهم وما جعل لهم من لسان الصّدق الّذي لأجله إذا ذكروا، سلّم عليهم.
وأمّا الصّلاة عليهم، فقد حكى غير واحد الإجماع على أنّ الصّلاة على جميع النّبيّين مشروعة منهم الشّيخ محيي الدّين النّوويّ- رحمه الله- وغيره، وقد حكي عن مالك رواية أنّه لا يصلّي على غير نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم، ولكن قال أصحابه: هي مؤوّلة بمعنى أنّا لم نتعبّد بالصّلاة على غيره من الأنبياء، كما تعبّدنا الله بالصّلاة عليه صلّى الله عليه وسلّم.
الصّلاة على آل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم
وأمّا من سوى الأنبياء، فإنّ آل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يصلّي عليهم بغير خلاف بين الأمّة.
واختلف موجبو الصّلاة على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في وجوبها على آله على قولين مشهورين لهم.

---

(١) سورة الصافات: ٧٨- ٨٠.
(٢) سورة الصافات: ١٠٨- ١٠٩.
(٣) سورة الصافات: ١١٩- ١٢٠.
(٤) سورة الصافات: ١٣٠.
جـ ١(ص: ٦٠٩)

مسألة
هل يصلّى على آله صلّى الله عليه وسلّم منفردين عنه؟ فهذه المسألة على نوعين:
أحدهما: أن يقال: «اللهمّ صلّ على آل محمّد» فهذا يجوز، ويكون صلّى الله عليه وسلّم داخلا في آله، فالإفراد عنه وقع في اللّفظ، لا في المعنى.
الثّاني: أن يفرد واحد منهم بالذّكر، فيقال: اللهمّ صلّ على عليّ، أو على حسن، أو حسين، أو فاطمة، ونحو ذلك، فاختلف في ذلك وفي الصّلاة على غير آله صلّى الله عليه وسلّم من

الصّحابة ومن بعدهم، فكره ذلك مالك، وقال: لم يكن ذلك من عمل من مضى، وهو مذهب أبي حنيفة أيضا، وسفيان بن عيينة، وسفيان الثّوريّ، وبه قال طاوس.
وقال ابن عبّاس: لا ينبغي الصّلاة إلّا على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم.
قال إسماعيل بن إسحاق: حدّثنا عبد الله بن عبد الوهّاب قال: حدّثنا عبد الرّحمن بن زياد، حدّثني عثمان بن حكيم بن عبّاد بن حنيف، عن عكرمة عن ابن عبّاس أنّه قال: «لا تصلح الصّلاة على أحد إلّا على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالاستغفار» «١» .
وهذا مذهب عمر بن عبد العزيز.
عن جعفر بن برقان قال: كتب عمر بن عبد العزيز: أمّا بعد، فإنّ ناسا من النّاس قد التمسوا الدّنيا بعمل الآخرة، وإنّ القصّاص قد أحدثوا في الصّلاة على خلفائهم وأمرائهم عدل صلاتهم على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فإذا جاءك كتابي، فمرهم أن تكون صلاتهم على النّبيّين، ودعاؤهم للمسلمين عامّة» «٢»
.
وهذا مذهب أصحاب الشّافعيّ ولهم ثلاثة أوجه:
أحدها: أنّه منع تحريم.
والثّاني: وهو قول الأكثرين: أنّه منع كراهية تنزيه.
والثّالث: أنّه من باب ترك الأولى وليس بمكروه، حكاها النّوويّ في «الأذكار» قال: والصّحيح الّذي عليه الأكثرون أنّه مكروه كراهة تنزيه.
ثمّ اختلفوا في السّلام هل هو في معنى الصّلاة فيكره أن يقال: السّلام على فلان، أو قال: فلان عليه السّلام؟ فكرهه طائفة منهم أبو محمّد الجوينيّ، ومنع أن يقال: عن عليّ- عليه السّلام-، وفرّق آخرون بينه وبين

---

(١) فضل الصلاة على النبي لإسماعيل بن إسحاق القاضي وقال محققه الشيخ ناصر الدين الألباني، إسناده صحيح ورجاله ثقات.
(٢) فضل الصلاة على النبي (ص ٦٩) وقال الألباني، إسناده مقطوع صحيح، وقال محققا جلاء الأفهام رجاله ثقات.

الصّلاة فقالوا: السّلام يشرع في حقّ كلّ مؤمن حيّ وميّت، وحاضر وغائب، فإنّك تقول: بلّغ فلانا منّي السّلام، وهو تحيّة أهل الإسلام، بخلاف الصّلاة فإنّها من حقوق الرّسول صلّى الله عليه وسلّم وآله، ولهذا يقول المصلّى:
«السّلام علينا وعلي عباد الله الصّالحين» ولا يقول: الصّلاة علينا وعلى عباد الله الصّالحين، فعلم الفرق «١» .
وفصل الخطاب في هذه المسألة: أنّ الصّلاة على غير النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إمّا أن يكون آله وأزواجه وذرّيّته أو غيرهم، فإن كان الأوّل فالصّلاة عليهم مشروعة مع الصّلاة على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وجائزة مفردة.
وأمّا الثّاني: فإن كان الملائكة وأهل الطّاعة عموما الّذين يدخل فيهم الأنبياء وغيرهم، جاز ذلك أيضا، فيقال: اللهمّ صلّ على ملائكتك المقرّبين وأهل طاعتك أجمعين، وإن كان شخصا معيّنا، أو طائفة معيّنة كره أن يتّخذ الصّلاة عليه شعارا لا يخلّ به. ولو قيل بتحريمه، لكان له وجه، لا سيّما إذا جعلها شعارا له، ومنع منها نظيره، أو من هو خير منه، وهذا كما تفعل الرّافضة بعليّ- رضي الله عنه- فإنّهم حيث ذكروه قالوا: عليه الصّلاة والسّلام، ولا يقولون ذلك فيمن هو خير منه، فهذا ممنوع لا سيّما إذا اتّخذ شعارا لا يخلّ به، فتركه حينئذ متعيّن، وأمّا إن صلّى أحيانا بحيث لا يجعل ذلك شعارا كما يصلّي على دافع الزّكاة، وكما قال ابن عمر للميّت: «صلّى الله عليه» . وكما صلّى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم على

المرأة وزوجها، وكما روي عن عليّ من صلاته على عمر فهذا لا بأس به. وبهذا التّفصيل تتّفق الأدلّة وينكشف وجه الصّواب. والله الموفّق.

---

(١) ساق المؤلف- رحمه الله- عقب هذا الكلام أدلة القائلين بعدم جواز الصلاة على غير النبي صلّى الله عليه وسلّم وآله وأدلة من يقول بالجواز. ثم ختم ذلك بقوله: «وفصل الخطاب..» .